المرتبع الأسنى
في رياض الأسماء الحسنى

من كتب ابن القيم
رحمه الله

جمع وإعداد
عبد العزيز بن داخل المطيري

المرتع الأسنى

في رياض الأسماء الحسنى

من كتب ابن القيم

رحمه الله

جمع وإعداد

عبد العزيز بن داخل المطيري

المرتبع الأسنى

في رياض الأسماء الحسنى

ح عبدالعزيز داخل المطيري ، ١٤٣٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المطيري ، عبدالعزيز داخل
المرتبع الاسني في رياض الاسماء الحسنى. / عبدالعزيز داخل المطيري .- الرياض ، ١٤٣٥هـ
٦٥٤ ص ؛ ..سم

ردمك: ٦-٤١٨٧-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- العقيدة الاسلامية أ.العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٣٥/١٠٦٥

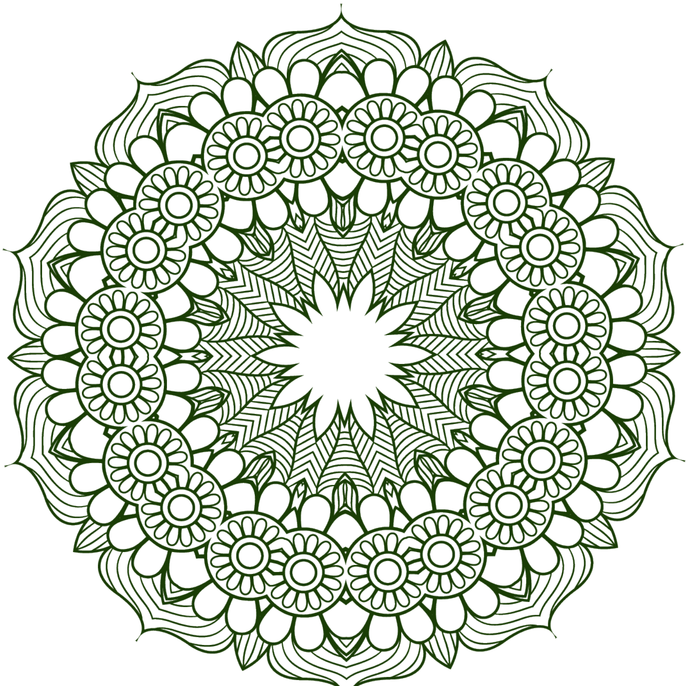
رقم الإيداع: ١٤٣٥/١٠٦٥
ردمك: ٦-٤١٨٧-٠١-٦٠٣-٩٧٨

النشرة الإلكترونية الرابعة

٤ ذو الحجة ١٤٤٣ هـ

معهد آفاق التيسير للتعليم عن بعد

afaqattaiseer 0505941199 www.afaqattaiseer.com
afaqattaiseer afaqattaiseer afaqattaiseer@gmail.com



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمةُ الْكِتَابِ

الحمدُ للهِ الذي لا إلهَ إلاَّ هوَ لهُ الأسماءُ الحسنَى، المتفرّدِ بالكمالِ المطلقِ في ذَاتِهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ العليا، المُتَنَزِّهِ عن النقائِصِ والشرور وما لا يليقُ بكمالِهِ الأعلَى، المتعالي بعظمته عنْ أنْ يكونَ لهُ شريكٌ أوْ سَمِيٌّ يُسَامِيهِ في المقامِ الأَسمَى، المستحقِّ لكمالِ الحبِّ والتعظيمِ على الوجهِ الأوفَى.

فلهُ الحمدُ كلُّهُ وبيَدِهِ الخيرُ كلُّهُ، وإليهِ يُرجَعُ الأمرُ كلُّهُ، لا إلهَ إلاَّ هوَ وَحدَهُ لا شريكَ لهُ في الآخرةِ والأُولَى.

خلقَ الخلقَ من العدَمِ، وأسبغَ عليهمُ النِّعَمَ، وتعرَّفَ إليهم بأسمائِهِ وصفاتِهِ، وأظهرَ آثارَها في أوامرِهِ ومخلوقاتِهِ؛ ليستدِلَّ بها الموفَّقُونَ على وَحدانيَّتِهِ وصِدْقِ رُسُلِهِ وآياتِهِ، ويعرِفوا بها كمالَ ربِّهِم وجلالَهُ وجمالَهُ.

والصلاةُ والسلامُ على خاتمِ أنبيائه، وَصَفْوةِ أوليائه، نبيِّنَا محمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ، صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ، وسلّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعْدُ:

فإنَّ أشرفَ العلومِ وأفضَلَها وأجَلَّهَا وأَنْبَلَها؛ عِلْمُ العبدِ بِرَبِّهِ تعالى وأسمائِهِ وصفاتِهِ وأحكامِهِ، مَن أُوتِيَه فقَد أُوتِيَ خيراً كَثيراً، ونالَ منَ الفضلِ العظيمِ والثوابِ الكريمِ ما تقرّ به عينُه، وتطيبُ به حياتُه، وتحسُنُ به عاقبتُه، ومَنْ أعرضَ عنهُ فهوَ في شقاءٍ وحرمان، وخِذلان وخُسران.

فهوَ العِلمُ الجليلُ القَدْرِ، العَظِيمُ النَّفْعِ، الجَديرُ بِبَذْلِ نَفائِسِ الأوقاتِ، وبتَقْديمِه عَلَى كُلِّ المهمّاتِ، فإنَّ ثمْرَتَهُ لا تعدِلُها ثمْرَةٌ، وحَسْرَةَ حرمانِها لا تعدِلُها حسْرةٌ، والحاجةَ إليهِ لا تعدِلُها حاجةٌ.

بلْ كلُّ علمٍ لا يُوصِلُ إليهِ ولا يُعِينُ عليهِ مَضْيَعةُ وقْتٍ، ومجْلَبَةُ مَقْتٍ، مَتاعٌ في الدّنيا، ونَدامَةٌ في الآخِرَة.

وهلْ أشرفُ مِنْ عِلْمٍ معلومُهُ بارئُ البَرِيَّاتِ ومُبدعُ الكائناتِ، الذي لهُ الخلقُ والأمْرُ، بَهَرَ العقولَ ببديعِ خلقِهِ، وحارَتِ الألبابُ في حِكَمِ شَرْعِهِ، وأَنِسَتِ القلوبُ بلذيذِ مُناجاتِهِ، واستنارتْ بمعرفةِ أسمائِهِ وصفاتِهِ، وشَرُفَتْ بعِلمِ أحكامِهِ وتشريعاتِهِ، مَنْ ذِكْرُهُ أُنْسٌ، وطاعتُهُ غُنْمٌ، والزُّلْفَى لديهِ أغلى الأمنيَّاتِ؟!

وهلْ أفضلُ مِنْ علْمٍ من ثمراته رؤيَةُ الملكِ العلاَّمِ، ومرافقةُ خِيرةِ الأنامِ، في جَنَّةٍ قدْ زُيِّنَتْ بما تشتهيهِ الأنفسُ وتَلَذُّ الأعينُ، لا يخالطُ نعيمَها بؤسٌ، ولا يُكدِّرُ صفوَها شائبةُ كَدَرٍ، موضعُ سَوْطٍ فيها خيرٌ من الدنيا وما فيها من الحُطامِ؟!

وهلْ أجَلُّ مِنْ علْمٍ هوَ أساسُ الإيمانِ، ومَعقِدُ الامتحانِ، ومِضْمارُ تسابُقِ الفُرْسانِ؟!

السابقُ فيهِ هوَ السَّبَّاقُ مع النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، والحائدُ عنهُ هوَ المُعَذَّبُ الملهوفُ، المنقطِعُ الموقوفُ، قدْ خسِرَ خَسارةَ مَنْ لا يُسْتَصْلَحُ أمرُهُ، ولا يَنْجَبِرُ كسرُهُ، نعوذُ باللهِ العظيمِ من الخسرانِ؟!

وهلْ أَنْبَلُ مِنْ عِلْمٍ يحملُ النفسَ على مكارمِ الأخلاقِ، ومحاسنِ الآدابِ، ويُخلِّصُها منْ شَبَهِ الأنعامِ، وأخلاقِ سَفِلَةِ الأنامِ؟!

يُهَذِّبُ النفسَ فتَزْكُو، ويُطَهِّرُ القلبَ فيسْمُو، ويُنَقِّي السَّريرةَ فتصْفُو، ويُنيرُ البصيرةَ، ويُعلي الهِمَّةَ، بِهِ يَسْلَمُ القلبُ، ويَصِحُّ العِلْمُ، ويَصلُحُ العملُ، وتُحمَدُ السيرةُ، وتَحسُنُ العاقبةُ، ويَجْمُلُ الذكرُ!

فلا جَرَمَ كانَ الاشتغالُ بِهِ عُنوانَ السعادةِ والفلاحِ، والاشتغالُ عنهُ آيَةَ الشَّقاوةِ والهلاكِ.

قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالى في نُونيَّتِهِ المُباركةِ:

والعِلْمُ أقسامٌ ثلاثٌ ما لها ... مِنْ رابعٍ والحقُّ ذُو تبيانِ
عِلمٌ بأوصافِ الإلهِ وفعلِهِ ... وكذلكَ الأسماءُ للرَّحْمَنِ
والأمرُ والنهيُ الذي هوَ دِينُهُ ... وجزاؤُهُ يومَ المَعادِ الثاني
والكلُّ في القرآنِ والسُّنَنِ التي ... جاءَتْ عنِ المبعوثِ بالفُرْقَانِ

فعلى قَدْرِ عِلمِ العبدِ بربِّهِ وعملِهِ بما يقتضيهِ ذلكَ العلمُ ترتفعُ درجتُهُ، وتسْمُو هِمَّتُهُ، وتزْكُو نفسُهُ، ويُثْمِرُ غرسُهُ؛ فإنَّ الدنيا مَزرَعةُ الآخرةِ، وإنَّما صلاحُ العبادةِ بصلاحِ العلْمِ؛ فالعلمُ باللهِ أصلُ الدينِ كلِّهِ.

ومنْ هنا يتبيَّنُ خَطَرُ الضلالِ في هذا البابِ؛ فإنَّهُ مَوْرِدُ هَلَكَةٍ، وَشَرَكُ شَبَكَةٍ نصَبها الشيطانُ فاصطادَ بها مَنْ سبقَتْ لهم الشَّقاوَةُ، وحَقَّتْ عليهم الكلمَةُ؛ فاجْتالَهم عن الصراطِ المستقيمِ فتَنكَّبُوهُ، وأعْماهُم - بما زَيَّنَ لَهُمْ - عن الحقِّ فلمْ يُبْصِرُوهُ:

- فهذا تائِهٌ حائرٌ؛ لا يعرفُ رَبَّهُ، ولا يدري في أيِّ مكانٍ هوَ، لا هوَ خارجَ العالمِ ولا داخِلَهُ، ولا مُتَّصِلٌ بهِ ولا منفصلٌ عنْهُ، ولا فوقُ ولا تحْتُ، ولا أمامُ ولا خلفُ، ولا يُشَارُ إليهِ، ولا يُنعَتُ بصفَةٍ.

- وهذا حُلُوليٌّ ممقوتٌ؛ يزعمُ أنَّ اللهَ عزّ وجل حالٌّ في كلِّ مكانٍ بذاتِهِ، وأنَّهُ الوجودُ كلُّهُ.

- وهذا اتِّحاديٌّ ضالٌّ؛ يزعمُ أنَّهُ اتَّحدَ ببعضِ مخلوقاتِهِ.

- وهذا مُفَوِّضٌ جاهلٌ؛ شرعَ الأبوابَ للزائغينَ في قالَبِ التنزيهِ لربِّ العالمينَ.

- وهذا مشركٌ مُبْطِلٌ؛ يدْعُو منْ دونِ اللهِ ما لا ينفعُهُ ولا يضرُّهُ.

- وهذا مُلْحِدٌ مُعَطِّلٌ مُسْتَنْكِفٌ مستكبرٌ؛ يزعمُ أنْ لا إِلَهَ.

تعالى اللهُ عمَّا يقولُ الظالمونَ عُلُوّاً كبيراً.

بلْ إذا تأمَّلْتَ جميعَ أبوابِ الدينِ التي ضلَّ فيها الضَّالُّونَ -منْ هذهِ الأُمَّةِ وغيرِها- وجَدْتَ أصلَ ضلالِهم الجهلَ باللهِ تعالى وأسمائِهِ وصفاتِهِ وأحكامِهِ، وما يجبُ لهُ ويمتنعُ عليْهِ.

وإيضاحُ هذهِ الجملةِ يستدعي أسْفَاراً؛ وحَسْبُكَ في هذا المقامِ مِثالٌ مُخْتَصَرٌ في بابٍ واحدٍ تَستجْلِي فيهِ هذهِ الحقيقةَ، وتقيسُ عليهِ بقِيَّةَ الأبوابِ:

فمِمَّا حدثَ فيهِ الاختلافُ: أفعالُ العبادِ وما يترتَّبُ عليهَا:

فالقَدَرِيَّةُ يقولونَ: إنَّ العبدَ خالقُ فِعلِ نفسِهِ، وهوَ الذي يجعلُ نفسَهُ مهتدياً أوْ ضالاًّ، ويجبُ على اللهِ ـ تعالى اللهُ عمَّا يقولونَ ـ أنْ يُثِيبَ العبدَ إذا أطاعَهُ كما يُثَابُ الأجيرُ، وأنْ يُخْلِدَهُ في النارِ إذا ارتكبَ كبيرةً من الكبائرِ.

والجَبْرِيَّةُ يقولونَ: إنَّ العبدَ مجبورٌ على فعلِهِ؛ ليسَ لهُ مَشيئةٌ ولا اختيارٌ؛ كالسِّكِّينِ في يدِ القاطعِ!! وغُلاتُهُمْ يقولونَ: كالرِّيشَةِ في مهبِّ الريحِ!!

ويجوزُ على اللهِ أنْ يُعَذِّبَ المؤمنَ الطائعَ بأشدِّ العذابِ ويُخْلِدَهُ في النارِ بغيرِ جُرْمٍ ارتكبَهُ، ولا ذنبٍ اقترفَه، ولوْ قضى عُمُرَهُ كلَّهُ في طاعةِ اللهِ؛ كما يجوزُ عليهِ أنْ يُثِيبَ الكافرَ المُعانِدَ بأعظمِ أنواعِ الثوابِ.

وكلا الطائفتَيْنِ جاهلتانِ باللهِ تعالى جهلاً عظيماً، لمْ تعْرِفَاهُ المعرفةَ الصحيحة التي تُنْجِي من الضلالَةِ، وتُنَالُ بها السعادةُ.

فأمَّا ضَلالُ القَدَرِيَّةِ فمنْشَؤُهُ الجهلُ بعمومِ خلقِ اللهِ تعالى، ونُفوذِ مشيئتِهِ، وعُمومِ تصرُّفِهِ الذي هوَ مُقتضى مُلْكِهِ؛ فهوَ الذي يخْلُقُ ويرزُقُ، ويُعَافِي ويبتَلِي، ويَهدِي ويُثِيبُ فضلاً، ويُضِلُّ ويُعاقبُ عدْلاً، ويَخْفِضُ ويرفَعُ، ويُعطِي ويمنَعُ، ويَصِلُ ويقطَعُ، ويقبِضُ ويبسُطُ، ويفعَلُ ما يريدُ.

فإذا علِمَ العبدُ معنى اسمِ «الخالِقِ» واسمِ «المالِكِ» و«العليمِ» و«القديرِ» و«المُعْطِي المانِعِ»، ونحْوِها من الأسماءِ التي تدلُّ على عُمومِ تصرُّفِ اللهِ عزّ وجل في خلقِهِ، وتأمَّلَ آثارَها ولوازِمَها وفَقِهَ ذلكَ حقَّ الفقْهِ: تبيَّنَ لهُ ضلالُ القدَرِيَّةِ في هذا البابِ، وأنكرَ قلْبُهُ ما سطَّرُوهُ، ولمْ يَغُرَّهُ ما شَبَّهُوا بهِ عَلَى مَنْ لا عِلمَ عندَهُ.

فكيفَ يكونُ خالقاً لكلِّ شيءٍ مَنْ أفعالُ العبادِ كلِّهم ليستْ منْ خلقِهِ؟!

وكيفَ يكونُ قادراً على كلِّ شيءٍ مَنْ لا يستطيعُ هدايَةَ عبدٍ منْ عبادِهِ أوْ إضلالَهُ؟!

وكيفَ يكونُ فعَّالاً لما يُرِيدُ مَنْ إذا شاءَ مِنْ عبدِهِ أنْ يعمَلَ عملاً وشاءَ العبدُ خِلافَهُ نفَذَتْ مشيئةُ العبدِ ولمْ تنْفُذْ مشيئةُ ربِّهِ؟!

وكيفَ يكونُ مَلِكاً حقّاً مَنْ لا يقدِرُ أنْ يَهْدِيَ ولا يُضِلَّ حقيقةً، ومن يخْلُقُ عبادُهُ خلقاً بغيرِ إذنِهِ ومشيئتِهِ، بلْ يجعلونَ لهُ شريعةً يُوجِبُونَها عليْهِ؛ فيوجبونَ عليهِ أنْ يُثِيبَ الطائعَ ويُخْلِدَ صاحبَ الكبيرةِ المُوَحِّدَ في العذابِ الشديدِ كالمشركينَ؟!

إلى غيرِ هذهِ الأسماءِ التي يَسْتَدِلُّ بها المؤمنُ المُوَفَّقُ على ضلالِ هذهِ الطائفةِ وبُطْلانِ قولِهِم.

وأمَّا ضلالُ الجبْرِيَّةِ فمَنشؤُهُ الجهلُ بحكمةِ اللهِ عزّ وجل وحمْدِهِ وعدْلِهِ ورحمَتِهِ وإحسانِهِ:

فكيفَ يكونُ حكيماً مَنْ يُنْزِّلُ الشرائعَ المُحكمَةَ المُتَضَمِّنَةَ للأوامرِ والنواهِي المُفَصَّلةِ على عبادٍ لا يستطيعونَ امتثالَها، بلْ هم مجْبُورونَ على مُخالفَتِها، لا اختيارَ لهم ولا مشيئةَ، فسَوَاءٌ أنزلَ الشريعةَ أمْ لمْ يُنْزِلْها ليسَ لهمْ إلاَّ فعلُ ما أُجْبِرُوا عليْهِ؟!

وما هيَ فائدةُ إرسالِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ وتصريفِ الآياتِ؟!

وكيفَ يكونُ عَدْلاً حَمِيداً مَنْ يأْمُرُ العبدَ بأَمْرٍ ويُجْبِرُهُ على مخالفتِهِ، ثمَّ يُعاقِبُهُ على تلكَ المخالَفةِ أشدَّ العقابِ؟!

وكيفَ يكونُ رحْماناً رحيماً مَنْ يُخْرِجُ عبدَهُ المؤمنَ المُخْبتَ منْ قَرارَةِ مُتَعَبَّدِهِ ومحَلِّ سُجُودِهِ فيُخْلِدُهُ في النارِ بلا جُرْمٍ ارتكَبَهُ ولا ذَنْبٍ اقترفَهُ؟!

وكيفَ يكونُ إلهاً وَدُوداً حميداً يستحقُّ الحُبَّ والودَّ والحمدَ كلَّهُ مَنْ هذا شَأْنُهُ؟!

وهكذا سائرُ الأسماءِ الدالَّةِ على ضلالِ هذهِ الطائفةِ؛ يَسْتَدِلُّ بها مَنْ نَوَّرَ اللهُ قلْبَهُ على بُطْلانِ قولِهم.

والمقصودُ أنَّ المؤمنَ إذا تأمَّلَ أسماءَ اللهِ الحُسنَى وفَقِهَ معانِيَها ولوَازِمَها وآثارَها، واستقرَّ ذلكَ في قلْبِهِ وجدَ أسماءَ اللهِ عزّ وجل تُنادِي أَبْيَنَ النداءِ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصَّافَّات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

وكانَ مُجَرَّدُ تصوُّرِهِ لأقوالِ أهلِ الضلالِ كافياً في ردِّهِ ومعرفةِ بُطلانِهِ؛ لِمَا ترسَّخَ في قلْبِهِ منْ معرِفَتِهِ بمُنَافَاتِها لحقائقِ أسماءِ اللهِ عزّ وجل وصفاتِهِ وما يليقُ بِهِ تعالى ذِكْرُهُ.

ولسانُ حالِهِ يقولُ ـ كُلَّما بلَغَتْهُ مَقالةٌ ضالَّةٌ منْ مَقالاتِهِم ـ: سُبْحَانَكَ هذا بهتانٌ عظيمٌ!

وقدْ أشارَ اللهُ عزّ وجل إلى هذا منهجِ الاستدلالِ بأسماءِه الحسنى وصفاتِهِ العُلَى على بُطلانِ أقوالِ الضَّالِّينَ في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وهوَ منْ أعظمِ المناهجِ نفعاً، وأحسَنِها وَقْعاً، وأسْلَمِها وألْصَقِها بالإيمانِ واليقينِ لِمَنْ كانتْ لهُ بصيرةٌ ومعرفةٌ بأسماءِ اللهِ الحسنَى:

قالَ اللهُ تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس: ٦٨].

فكونُه هو الغنيَّ يَنفِي أن يكونَ له ولدٌ، فإنَّ الاحتياجَ إلى الولدِ يُنافِي كَمالَ الغِنَى، واللهُ عزّ وجل هو الغنيُّ الذي له الغِنَى الكَامِلُ المُطلَقُ من جميعِ الوجوهِ عن كلِّ أحدٍ بكُلِّ اعتبارٍ، فلا يُمكِنُ أن يَحتاجَ إلى غيرِه أبداً.

- فهو الغَنيُّ المُستغني عن كُلِّ أحدٍ.

- وهو الغنيُّ الذي له كُلُّ ما في السماواتِ مِن خَلائِقَ لا يُحْصِيهِمْ إلا هو، ومِنْ خَزائِنَ لا يَعْلَمُ قَدْرَهَا غَيْرُه، وله كُلُّ ما في الأرضِ من خَلائِقَ وخزائِنَ، وكُلُّ شيءٍ تَحْتَ مُلْكِهِ وتَصرُّفِهِ وتَدبيرِهِ، ولو شاءَ أن يَخْلُقَ أضعافَها وأضعافَ أضعافِها لَم يُعْجِزْهُ ذلك وهو العليمُ القديرُ.

وتَأمَّلْ قولَهُ تعالَى: ﴿... هُوَ الْغَنِيُّ﴾ فهذا الأسلوبُ يُسمَّى أُسلوبَ الحَصْرِ في لسانِ العَربِ، أي: هو وَحْدَهُ الغنيُّ الذي له كَمالُ الغِنَى المُطلقِ عَنْ كُلِّ أَحدٍ مِن جَميعِ الوُجوهِ.

وفي ضِمْنِ ذلك غِنَاهُ تعالَى عَنِ الصَّاحِبَةِ إذْ لا يُوجَدُ وَلَدٌ بِلا صَاحِبَةٍ وإلا كانَ خَلْقاً مِن سائرِ الخَلْقِ كما قَالَ تعالَى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام:١٠١].

فمَنْ آمَنَ بهذَا الاسمِ وعَرفَ مَعْناهُ حَقَّ المعرفةِ عِلِمَ أنَّ ادِّعاءَ أولئكَ المدَّعينَ مِنْ أَعظمِ الزُّورِ والبُهتانِ، تَعالَى اللهُ عمَّا يَفتَرُونَ عُلوّاً عظيماً، واستَنْكَرَها كلُّ عُضوٍ من أعْضائِهِ فيَقِفُ شَعْرُ رأسِهِ، ويَقْشَعِرُّ جِلدُهُ، ويَتَمَعَّرُ وَجْهُهُ، ويَشْمَئِزُّ قَلْبُه، ويَنْبُو سَمْعُهُ، وتُحَمْلِقُ عَيناهُ مِن هَوْلِ هذه الدَّعْوى الشَّنِيعَةِ.

وهذا الإنكارُ في قَلْبِ المؤمنِ وجَسَدِهِ مُلازِمٌ لقُوَّةِ المعرفةِ باللهِ تعالَى وبأَسْمائِهِ وصِفاتِه، وشِدَّةِ النَّفْرَةِ مِن هذه الدَّعوَى الباطلةِ الظالِمَةِ.

وهذا نظيرُ ما بَيَّنَهُ اللهُ لنا ـ في تصويرٍ عَظيمٍ تَرْتَجِفُ له القُلوبُ ـ مِن أَثَرِ هذا الافتراءِ على السَّماواتِ والأَرْضِ والجبالِ حتَّى كادَتْ مَعالِمُ الكَوْنِ تَتغيَّرُ لَوْلاَ لُطْفُ اللهِ عزّ وجل وحِلمُهُ، ورَأْفَتُهُ بعِبادِهِ المُؤمنينَ الَّذينَ يَسْتَنْكِرُونَ هذِهِ المقالَةَ الجائِرَةَ.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥].

وقالَ: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزُّمَر: ٤].

فكونُهُ تعالى «الواحدَ» ينفِي أنْ يكونَ لهُ مثيلٌ، ولو كانَ لهُ وَلَدٌ لَمْ يكنْ واحِداً، فإنَّ الولدَ من جنسِ أبيهِ.

وكونُه «القهَّارَ» يدلُّ على اتِّصَافِهِ جلَّ وعَلا بالقهرِ المطلقِ، وهذَا ينفِي كذلكَ أن يكونَ لهُ ولدٌ، إذِ الأبوةُ مانعةٌ من القهرِ المطلَقِ، تعالى اللهُ عما يقولُ الظالمونَ علوّاً كبيراً.

وهذانِ الاسمانِ الجليلانِ متلازمانِ؛ فإنَّ القهَّارَ لا بدَّ أنْ يكونَ واحداً، إذْ لو شَارَكَهُ أحدٌ في صِفَةِ القهرِ لَمْ يكنْ قاهِراً لَهُ، والواحدُ لا بدَّ أن يكونَ قهاراً، إذ لا شريكَ لهُ في ملكِهِ، ولا سَمِيَّ له، ولا نِدَّ له.

فتأملْ أثَرَ الإيمانِ بهذِهِ الأسماءِ الحسنَى فِي ردِّ هذَا القولِ الباطلِ الضالِّ، ثمَّ تأمَّلْ أثرَهُ في زيادةِ الإيمانِ واليقينِ والمعرفةِ باللهِ في قلبِ عبدِهِ المؤمنِ.

وقالَ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]. فبيَّنَ بُطلانَ زعْمِهم بفِعْلٍ منْ أفعالِهِ ـ جلَّ وعَلا ـ وهوَ منْ آثارِ اسْمِهِ «المَلِكِ».

وقالَ في قارونَ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٨].

وقالَ: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النَّحل: ٥٢، ٥٣]؛ فأنكرَ عليهم عبادةَ غيرِهِ مُحتجّاً على ذلكَ بكونِهِ المُنْعِمَ المُغيثَ؛ فهوَ الذي يَجْلُبُ لهم النعمَ، ويكشِفُ عنهم الضُّرَّ، وغيرُهُ لا يملِكُ لهم ضَرّاً ولا نَفعاً.

وقبلَ هذا قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النحل: ٥١، ٥٢].

وقالَ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل:٣٨-٤٠]؛ فأنكرَ عليهم مَقالَتَهُم مُبيِّناً لهم أنَّ حكمتَهُ تأبى أنْ يترُكَ بَيانَ الحقِّ الذي اختلفوا فيهِ وبَيانَ كذِبِ الكفارِ عليهِ؛ وهذا منْ آثارِ

اسْمِهِ «الحكيمِ»، وأرْدَفَ ذلك ببيانِ قُدْرَتِهِ تعالى على بَعْثِهِم، وأنَّ ذلك لا يُعْجِزُه.

وقالَ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وفي هذا المعنى قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الدخان: ٣٤، ٣٥] إلى قوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]. وهذا منْ آثارِ اسْمِهِ «الحكيم».

وكذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

وقالَ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجِّ: ٥، ٦].

فانظُرْ كيفَ اقتلعَ جُذورَ الرَّيْبِ من القلبِ بهذا البيانِ الذي أساسُهُ أسماؤُهُ الحسنى وآثارُها.

ونظيرُ هذا قولُهُ تعالَى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ

لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ
شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ
تُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ [يس:٧٨-٨٣].

والآياتُ في هذا البابِ كثيرةٌ، والمقصودُ التنبيهُ عليها.

بلْ ما ارتكَبَ عبدٌ معصيةً ولا قَصَّرَ في طاعةٍ إلاَّ بسببِ جهلِهِ باللهِ تعالى وبما يستحِقُّهُ من التعبُّدِ بمُقتضَى أسمائِهِ الحسنى وصفاتِهِ العُلَى، والناسُ في هذا العلمِ على مراتبَ كثيرةٍ لا يُحْصِيهم إلاَّ مَنْ خلقَهُم:

فَمَنْ عَلِمَ أنَّ اللهَ عزّ وجل عليمٌ سميعٌ بصيرٌ، وأنَّهُ شديدُ العقابِ والبطْشِ، يَغَارُ إذا انْتُهِكَتْ محارِمُهُ، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ، ولا يخافُ عاقبةَ فعلِهِ، واستقرَّ ذلكَ في قلبِهِ ارتعَدَتْ فرائِصُهُ قبلَ أنْ يُفكِّرَ في الإقدامِ على المعصيةِ، فكانَ في هذا العلمِ خيرُ زاجرٍ لهُ عنْ فعلِ المعاصِي.

فلا يُقْدِمُ على المعصيةِ إلاَّ حينَ يَغِيبُ عنهُ ذلكَ النورُ الإيمانيُّ أوْ يَضْعُفُ، وقدْ ذكرَ اللهُ عزّ وجل هذا المعنى في الكتابِ العزيزِ في غيرِ ما آيةٍ:

فقالَ تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ﴿٩﴾ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوۡ أَمَرَ
بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ٩ - ١٤].

وقالَ: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ﴿٦﴾ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا
يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِي
لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ [البروج: ٤ - ٩].

وقالَ: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ
نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿٧٧﴾

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ [التوبة: ٧٥ ـ ٧٨].

وقالَ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء: ١٠٨].

وقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة: ٧٦، ٧٧].

وقالَ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠].

وقالَ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠].

وقالَ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧].

وقالَ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

وقالَ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: ٢٨].

ومِنْ ألطَفِ ما وردَ في ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ [الممتحنة: ١].

والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ.

ومَنْ عَلِمَ أنَّ اللهَ عزّ وجل يَرى مكانَهُ، ويَسمَعُ كلامَهُ، ويَعلَمُ سِرَّه وجهرَهُ، وعَلِمَ أنَّهُ ذو الفضلِ العظيمِ، والإحسانِ العميمِ، والكرمِ الجزيلِ، وأنَّهُ قريبٌ مجيبٌ، رحيمٌ ودودٌ، شاكرٌ عليمٌ، حفيظٌ لأعمالِ عبادِهِ، وأنه معَ مَن ذَكَرَه، وآمنَ بِهِ واتَّقَاهُ، وصبرَ ابتغاءَ وجهِهِ وطَلَبَ رِضاهُ، وأنه يُحِبُّ المحسنينَ، ويُحِبُّ المتوكلينَ، ويُحبُّ التوابينَ، ويُحبُّ المتطهِّرينَ، وأنَّهُ قريبٌ مجيبٌ لا يُضيعُ عملَ عاملٍ منْ ذكرٍ أوْ أُنْثَى وهوَ مؤمنٌ، بلْ يَقْبَلُهُ ويُنَمِّيهِ، ويُباركُ لعاملِهِ فيهِ؛ واستقرَّ هذا العلمُ في قلْبِهِ، وضربَ بجُذُورِهِ فيهِ، آتى أُكُلَهُ كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّهِ عملاً صالحاً وحالاً مَرْضِيّاً؛ ذلكَ فضلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يشاءُ واللهُ واسعٌ عليمٌ.

فيبذُلُ العبدُ جُهْدَهُ، ويستفرِغُ وُسْعَهُ في التقرُّبِ إلى اللهِ عزّ وجل بأنواعِ القُرُباتِ، وتخليصِ العملِ من الشوائبِ والمُحْبِطَاتِ.

وإنَّما يضْعُفُ عزمُهُ، وتفْتُرُ هِمَّتُهُ إذا ضَعُفَ عندَهُ هذا النورُ الإيمانيُّ.

وهذا المعنى كثيرٌ جدّاً في القرآنِ العظيمِ:

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠].

وقالَ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقالَ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة: ١١٠].

وقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر: ١٨].

وقالَ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقال: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٥].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠].

وقال: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ [محمَّد: ٣٥].

وقال: ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم: ١-٣].

ومِنْ ألطفِ ما وردَ في ذلك قولُهُ تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ [آل عمران:٣٨]. وذلك بعدَ قولِهِ جلَّ وعلا في سِياقِ قِصَّةِ مريمَ الصِّدِّيقَةِ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٢ـ١٠٥].

وقال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ الآيَةَ [آل عمران: ١٥ ـ ١٧].

وقال: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

وممَّا لا يكادُ ينقضي منهُ العَجَبُ قولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة: ٧٣ ـ ٧٦].

فانظُرْ إلى جلالةِ هذهِ الآياتِ وما تضمَّنَتْهُ من الحُجَجِ البليغةِ والآياتِ البيِّناتِ، ثمَّ تأمَّلْ سَعَةَ رحمةِ اللهِ عزّ وجل وعظيمَ حِلْمِهِ كيفَ دعاهُم ـ وقدْ قالُوا هذهِ المقالةَ الشنيعةَ ـ إلى التوبةِ بأجملِ عَرْضٍ وألطفِهِ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ ثمَّ ذكرَ ما يُرَغِّبُهُم في ذلكَ ويُزِيلُ اليأسَ والقنوطَ منْ قلُوبِهِم فقال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ كثيرُ المغفرَةِ، واسعُ المغفرَةِ، لا يستعظِمُهُ ذَنْبٌ أنْ يَغفِرَهُ، ورَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ، وعَمَّتْ كلَّ حَيٍّ.

وفي ضِمْنِ ذلكَ وَعْدَهُم بالمغفرةِ والرحمةِ والعفوِ عمَّا بَدَرَ منهم إنْ هم تابوا إليهِ واستغفَرُوهُ.

فإذا عَلِمَ العبدُ ذلكَ تحرَّكَتْ دَواعِي الرُّجوعِ إلى اللهِ في قلْبِه، ولمْ يقْنَطْ منْ رحمةِ ربِّهِ عزّ وجل.

ثمَّ دَعَاهُم إلى عبادتِهِ وتوحيدِهِ، وبيَّنَ لهُم الأدلَّةَ القاطعةَ على بُطْلانِ زَعْمِهِمْ إلَهِيَّةَ عِيسَى وأُمِّهِ دُونَ أنْ يُنْقِصَ قدْرَهُما، أو يهْضِمَهُما منزِلَتَهُما، بلْ أَثْبَتَ لعِيسى الرسالَةَ ولأُمِّهِ الصِّدِّيقِيَّةَ في بيانٍ مُوجَزٍ مُعجِزٍ، يأخُذُ بالألبابِ، فيُوقِنُ أولو الألبابِ أنَّهُ الحقُّ منْ ربِّهِم.

وبيانُ ذلكَ مِن وُجُوهٍ:

- أوَّلُها: قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]؛ فإنَّ الإلهَ الحقَّ لا يكونُ إلاَّ واحداً، و﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وهذا يُبْطِلُ التثليثَ.

- الثانِي: قولُهُ تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥]، فهوَ رسولٌ منْ جُمْلَةِ رُسُلٍ ماتُوا وهوَ على إثْرِهِم، والإلهُ الحقُّ إنَّما هوَ الحيُّ الذي لا يموتُ.

- الثالثُ: قولُهُ: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾، وفي هذا عِدَّةُ أدلَّةٍ:

أوَّلُها: أنَّهُ مخلوقٌ كائنٌ بعدَ أنْ لمْ يكُنْ، فلمْ يُوجَدْ إلاَّ بعدَ ولادَةِ أُمِّهِ لهُ؛ ومثلُ هذا لا يَصلُحُ أنْ يكونَ إلهاً؛ فإنَّ الإلهَ الحقَّ إنَّما هوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظاهِرُ والباطِنُ.

الثاني: أنَّهُ محتاجٌ في أصلِ حياتِهِ إلى غيرِهِ فوُجُودُهُ إنَّما كانَ بواسطةِ أُمِّهِ؛ والإلهُ الحقُّ إنَّما هوَ الحيُّ القَيُّومُ الذي قيامُ كلِّ شيءٍ بهِ، الغنيُّ الحميدُ الذي لا يحتاجُ إلى أحدٍ سواهُ طَرْفَةَ عينٍ.

الثالثُ: أنَّهُ مولودٌ؛ والإلهُ الحقُّ إنَّما هوَ الصَّمَدُ الذي لمْ يلِدْ ولمْ يُولَدْ.

الرابعُ: أنَّهُ خارجٌ من المكانِ الذي قدْ علِمُوا؛ ومثلُ هذا لا يصلُحُ أنْ يكونَ إلهاً؛ فالإلهُ الحقُّ إنَّما هوَ القُدُّوسُ السلامُ ا لْمُتَنَزِّهُ عمَّا لا يَليقُ بجلالِهِ وعَظمتِهِ.

الخامِسُ: أنَّ أُمَّهُ صِدِّيقَةٌ؛ فهيَ أَمَةٌ عابدةٌ فقيرةٌ إلى مَنْ تعبُدُهُ، والفقيرُ لا يُنْتِجُ إلاَّ فقيراً.

- **الوجهُ الرابعُ**: قولُهُ: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾. **وفي هذا عِدَّةُ أدلَّةٍ:**

الأوَّلُ: أنَّ كونَهُما يأْكُلانِ الطعامَ دليلٌ على حاجَتِهِما وفقْرِهما إليهِ، والفقيرُ المحتاجُ لا يصلحُ أنْ يكونَ إلهاً، فالإلهُ الحقُّ إنَّما هو الغنيُّ العزيزُ والحيُّ القيومُ الَّذي لا يَحتاجُ إلى غيرِهِ، ولا نقصَ يعترِي حياتَهُ.

الثانِي: أنَّ العقلاءَ قدْ علِموا أنَّ الذي يأكلُ الطعامَ لهُ جوفٌ وآلاتٌ تهضِمُ الطعامَ، وقنوَاتٌ يسيرُ فيها الطعامُ، والإلهُ الحقُّ إنَّما هوَ الصمَدُ الذي لا جوفَ لهُ، ولا يحتاجُ إلى ما يحتاجُ إليهِ البشَرُ.

الثالثُ: أنَّ الذي لا يستطيعُ تصريفَ الطعامِ داخلَ جسدِهِ وتسْييرَهُ في قنوَاتِهِ، وإيصالَ كلِّ عضوٍ منْ بَدَنِهِ ما يحتاجُ إليهِ من الغِذاءِ؛ وإنَّما الذي يُسَيِّرُهُ ويُصَرِّفُهُ فيهِ غيرُهُ كيفَ يَستطيعُ أنْ يُدَبِّرَ شُؤُونَ الخلائقِ، ويجيبَ دعَوَاتِهِم، ويعْلَمَ سرائرَهُم وأحوالَهُم؟!!

إنَّما إلَهُهُمُ المَلِكُ القُدُّوسُ الذي قامَ بشُؤُونِهِم وَوَسِعَهُم عِلْمُهُ وحِفْظُهُ ورَحْمَتُهُ.

الرابعُ: أنَّ العقلاءَ قدْ علِمُوا أنَّ الذي يأكلُ الطعامَ لا بُدَّ لهُ منْ إخراجِهِ بعدَ هضْمِهِ، والذي تخرُجُ منهُ هذهِ الفَضَلاتُ الْمُسْتَقْذَرَةُ لا يصلُحُ أنْ يكونَ إلهاً؛ بل الإلهُ الحقُّ إنَّما هوَ القُدُّوسُ السلامُ الْمُتَنَزِّهُ عنْ مثلِ هذا وسائرِ ما لا يليقُ بجلالِهِ وقُدْسِيَّتِهِ.

الخامِسُ: أنَّ الذي يأكلُ الطعامَ عُرْضَةٌ لأنْ يأكلَ ما يضُرُّه، أوْ يُسِيءَ أكلَ ما فيه نفعٌ فيَمْرَضَ ويَسْقَمَ؛ ومثلُ هذا لا يَصلُحُ أنْ يكونَ إلهاً.

ثمَّ قالَ تعالى بعدَ هذا البيانِ: ﴿كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥].

- الوَجْهُ الخامِسُ: قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة: ٧٦]؛ فإنَّ العبدَ العاقلَ إنَّما يَعْبُدُ مَنْ يَجْلُبُ لهُ النفعَ ويدْفَعُ عنهُ الضُّرَّ، وليسَ هذا لغيرِ اللهِ تعالى؛ فهوَ النافعُ الضارُّ، وغيرُهُ إنَّما ضرَرُهُ ونفعُهُ بمشيئةِ اللهِ تعالى، وهوَ مَرْبُوبٌ مُدَبَّرٌ، ناصِيَتُهُ بيدِ ربِّهِ لا يستقلُّ بنَفعٍ ولا ضَرٍّ؛ فَمِنَ الحماقةِ عِبَادَةُ مَنْ هذا شأْنُهُ!!

- الوجهُ السادسُ: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾، يسمَعُ دُعاءَهُم ويعلَمُ أحوالَهُم، ولا يَخفَى عليهِ شيءٌ منْ أمْرِهِم؛ وهذا هوَ الإلهُ الحقُّ، ليسَ الذي لا يسمَعُ دُعَاءَ عابدِيهِ ولا يعْلَمُ أحوالَهُم.

فاستبدالُ عبادةِ اللهِ تعالى الذي بيَدِهِ النفعُ والضرُّ وهوَ السميعُ العليمُ بعبادةِ مَنْ لا يَمْلِكُ لهُمْ ضَرّاً ولا نَفعاً، ولا يسمَعُ دُعاءَهُم ولا يَعْلَمُ أحوالَهُم منْ أعظمِ الجهلِ والسفَهِ.

فانْظُرْ كيفَ اجتذبَ القلوبَ إلى عبادَتِهِ وتوحيدِهِ بما لَهُ من الأسماءِ الحسنى والصفاتِ العُلَى.

إنَّ من أَعظمِ مَقاصدِ القرآنِ الكريمِ تعريفَ العبادِ بربِّهم العظيمِ جلَّ وعلا لِيؤمنوا بهِ ويوحِّدوهُ، وَيذكُروا آلاءَهُ وَيشكُروه.

وإنَّ مِن أجلِّ نِعَمِ اللهِ العظيمةِ، وآلائِه الكريمةِ أَن تعرَّف إلَينا في كِتَابه الكَريم بأسمائِهِ وَصِفَاتِه، وَأَظهَر آثارَها في أَوامِره وَمخلوقَاتِهِ؛ فالقرآنُ الكريمُ وما يدلُّ عليهِ أعظمُ طريقٍ لِمعرفةِ اللهِ جَلَّ وَعلا والتَّعبُّد له بما يحبُّ وَيرضَى،

فتلكَ النِّعْمَةُ التي لا تعادِلها نِعمةٌ، والمنحَةُ التي سَمَتْ فوقَ كلِّ مِنحَةٍ؛ فيعرفُ العبدُ ربَّه حالَ الرَّخاء فيذكُرَه ويُثني عليهِ ويشكُرَهُ، وَيعرِفُه حالَ الشِّدَّةِ فيذكُرَه ويلجَأَ إليهِ ويستغفِرَه.

ولا يزالُ العبدُ يتربَّى ويترقَّى في مراقِي العبوديَّةِ للهِ تعالى بأسمائهِ الحسنى وصفاتِهِ العليا حتَّى يتسنَّمَ الرتبَ العليا، ويتبوّأَ المنازلَ الرفيعةَ، ويعيشَ في جنَّةِ الدّنيا التي من دخلَها فهو في نعيمٍ لا يوازيهِ نَعِيم، لا يأسفُ على فائتٍ من الدنيا ولا يلتفتُ إليهِ؛ فما هُو فيهِ منَ النَّعيمِ العظِيمِ بالحلاوة الإيمانيَّةِ يشغَلُهُ عمَّا يشتغلُ بهِ أصحابُ الهِمَمِ السُّفليَّةِ، وَالمطَامِعِ الدنيويَّةِ، إذْ سَمَت روحُه إلى الملكوتِ الأعْلَى، وَطَافتْ في رِحَابِ الأَسماءِ الحسنَى، وعَرَفَتِ اللهَ تعالى بما فَتحَ لها مِن أبوابِ مَعرفَتِهِ، وأَنْعَم عَليها وكَرَّمَها بتكرِمَته، فَأيقنت نفسُه بالحقّ الذي جاءتْ بهِ الرسُل، وتنزّلتْ بهِ الكُتُبُ، وأقبت على تلاوة آياته، والتفكّر في آلائه، تأنسُ بكِتَابهِ، وَتتلذَّذُ بخِطَابهِ، وترجُو حُسْنَ ثَوابه.

فإذا شَهِدَ قلبُه ما للهِ تَعالى من صِفَاتِ الجلالِ وَالعظَمةِ، خَضَعَتْ نفسُهُ وَجَوارِحُهُ للهِ وأَذْعَنَتْ، وسَلَّمَتْ لأَمْرِهِ وحُكْمِهِ وَصَبرَتْ، وَسَعَتْ في طَاعَتهِ وَطَلَبِ مَرضاتِهِ، وَتَطَهَّرَتِ النفسُ من كلِّ خُلُقٍ لَئيم، فَذَابَ الكِبرِ وَالعجْبُ والغُرور، واضْمَحَلَّ الرّياءُ والنّفاقُ، وَنَأَتِ المطامِعُ الدّنيويةُ الصارِفَةُ عنِ المقاماتِ العلِيَّةِ، وَولَّى الشَّيطُان خَاسِئاً هَارِباً مِن هَذهِ الرُّوحِ الزَّكِيَّةِ الكَريمةِ الَّتي يكادُ يحرِقُهُ نُورُها.

وإذا شَهِدَ قلبُهُ صِفَاتِ جَمالِ اللهِ تَعَالى وكَرَمِهِ، وَحسنَ تدبيرِه وَجَمالِ إحْسَانِهِ، اشْتَاقَتْ نفسُهُ إلى لِقَائِهِ، واشْرَأَبَّتْ للفوزِ بعطَائِهِ، فَسَمَتْ نفسُه وَعَلَتْ، وَعزَمَتْ على رُشْدِهَا وَشمَّرَتْ، وتَطَّهَرتِ النفسُ مِن صِفَاتِ الضَّعْفِ وَالوَهَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَخَورِ العَزيمةِ، وَبلادَةِ الحِسّ، فاجْتَهَدَتْ في اتّبَاعِ رِضْوَانِ اللهِ، وَأحسَنَتِ التَّقَرُّبَ إلَيهِ بما يحُبّ مِنَ الفَرائضِ وَالنَّوافلِ حتَّى يكونَ

اللهُ تعالى سمعَهُ الذي يسمَعُ به، وَبصَرَهُ الذي يُبصِرُ بِهِ، يُعْطِيهِ ما يَسْأَلُ، وَيُعِيذُه مما يَسْتَعِيذُ مِنْه، وَوَلَّى الشَّيْطَانُ خَاسِئاً هَارِباً مِن هَذِه الرُّوحِ الطيِّبَةِ الزكِيَّةِ التي لا تَلتَفِتُ إلى وَسَاوِسِهِ وَزُخْرِفِ قَوْلِهِ، وَأَمَانِيهِ البَاطِلَةِ، إِذْ عَايَنَتْ بِعَيْنِ البصِيرَةِ الجَمَالَ الحَقِيقِيَّ، الَّذِي يَضْمَحِلُّ دُونَهُ كلُّ جَمالٍ، جَمالِ الذَّاتِ، وَجَمالِ الصِّفَاتِ، وَجَمالِ القَوْلِ، وَجَمالِ الفِعْلِ، وَجَمَالِ الوَعْدِ، وَجمالِ القَبولِ، وَجَمالِ العَفْوِ، وَجَمالِ الجزَاءِ، وَسَائِرِ صِفَاتِه وَأَفْعَالِهِ الَّتِي حَازَتْ كُلَّ جَمالٍ؛ فَلا يَنْتَهِي القَلْبُ عِندَ تَأَمُّلِ جَمالِهِ تَعَالَى حَتَّى يَسْجُدَ للهِ تَعَالَى سَجْدَةً لا يَوَدُّ القِيَامَ مِنهَا.

وإِذَا شَهِدَ قَلْبُهُ كَرِيمَ عَفْوِ اللهِ وَسَعَةِ مَغْفِرَتِهِ، وَأَنَّهُ يَغْفِرُ الذَّنبَ لِمَن دَعَاهُ وَرَجَاهُ وَلا يُبَالِي، وَأَنَّهُ يَفْرَحُ بتوبةِ عَبْدِهِ أَعْظَمَ فَرَحٍ وَأَحْسَنَهُ، أَقْبَلَ إِلَى رَبِّهِ وَأَنَابَ، واسْتَجَابَ لِدَاعِي التَّوبَةِ فَتَابَ، وَرَجا عَفْوَ الكَرِيمِ وَرَحْمَتَه، وَطَمِعَ فِي غُفْرَانِهِ وَرِضْوانِهِ، وَلا يَزالُ إِلَيْهِ أَوَّاباً مُنِيباً حَتَّى يَعُودَ كَيومِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ نَقِياً مِنَ الذُّنُوبِ وَالخَطَايَا.

ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ.

والمقصودُ أنَّ العبدَ إذا عَلِمَ مَعَانِيَ أسماءِ اللهِ الحسنى وَفقِهَ لَوَازِمَها وآثارَها دَعَاهُ ذلكَ إلى التعبُّدِ للهِ تعالى بمُقْتَضَاهَا، فيجتنبُ المُنْكَرَاتِ، ويُسَارِعُ في الخيْراتِ.

ويتجلَّى أثرُ هذا الإيمانِ في قَلْبِهِ وَنفسِهِ، فيتحلَّى بمكارمِ الأخلاقِ ومحاسنِ الآدابِ، ويتركُ ما لا يليقُ بأمثالِهِ منْ مَعَائبِ القولِ والعملِ.

وكُلَّمَا عَلِمَ أنَّ اللهَ يُحِبُّ أمراً سارعَ في أنْ يكونَ منْ أهلِ ذلكَ الأمْرِ، وإذا علمَ أنَّ اللهَ يكرهُ أمراً سارعَ في اجتنابِهِ والتحرُّزِ منْهُ، وهذا هوَ اتِّبَاعُ رِضوانِ اللهِ تعالى، نسألُ اللهَ الكريمَ أنْ نكونَ ممَّنِ يَتَّبِعُ رِضوانَه.

إنَّ أسماءَ اللهِ الحسنى وصفاتِه العُلَى لَهي قُرَّةُ عَينِ العَابِدِ العَارِفِ، ودَوَاءُ المُحْزَنِ وَالخَائِف، وَبِشَارَةُ المؤمِنِ المَظْلوم، وفرَجُ المهموم والمغموم، ومُتَنَفَّسُ البَائِسِ المكروبِ، إذا تَوالَتْ عَليهِ الكُرُوبُ، وتَعَاوَرَتْهُ الخُطوبُ، وَضاقَتْ عَليهِ الأرضُ بما رَحُبَتْ، والنفسُ بما اسْتَجْلَبَتْ؛ عَلِمَ أنَّ لهُ رَبّاً يرى مكانَهُ، وَيَسْمَعُ كلامَهُ، وَيَعْلَمُ حالَهُ؛ لا يَخْفى عَلَيهِ شَيءٌ، وَلا يُعْجِزُهُ شَيء، لا يُخْلِفُ وَعْدَهُ، وَلا يَخْذُلُ عَبْدَهُ، لا يُخيّبُ أَمَلَ الآمِلِ، لا يُضيعُ عَمَلَ العَامِلِ، يُجيبُ دعوةَ المُضْطَرِّ، ويكشِفُ البَأْسَ وَالضُّرَّ، وينصُرُ المظلومَ، وَيفرِّجُ هَمَّ المَهْمُومِ، وهوَ «المستعانُ» يُعِينُ مَن استعانَ بِهِ، وهوَ «المُغيثُ» يُغِيثُ مَنِ استغاثَ بِهِ، وهوَ «الرحمنُ الرحيمُ»، و«الوهَّابُ الكريمُ»، و«الغنيُّ الحميدُ».

وَعَلِمَ أنَّهُ عزيزٌ ذُو انتقامٍ ينتقمُ لعبدِهِ المؤمنِ ممَّنْ كادَهُ وآذاهُ، وَأَنَّه وليُّ المؤمنينَ، وخيرُ الناصرينَ، وخيرُ الحافظينَ، وأرحَمُ الراحمينَ، وأنه معَ مَن ذكَرَه، وآمنَ به وشكَرَه، وتابَ إليهِ واستغفرَه.

إذَا عَلِمَ المؤْمِنُ ذَلِكَ وَشَهِدَهُ بقَلْبِهِ فَزِع إلى مَوْلاهُ، وَاحْتَمى بحِمَاهُ، واعتصمَ بِهِ واستمْسَكَ بحَبْلِهِ المتينِ؛ وَعَلِمَ أنَّ ما هوَ فيهِ من الكَرْبِ والضِّيقِ إنَّما هوَ بعِلْمِهِ ومَشيئتِهِ، وأنَّهُ لمْ يُقَدِّرْهُ عليهِ إلاَّ لما لهُ في ذلكَ مِن الحكمةِ البالغةِ، والنِّعمةِ السَّابغةِ التي يَستحِقُّ عليها الحمدَ والحبَّ كُلَّهُ:

- فإمَّا مذنبٌ آبِقٌ يريدُهُ أنْ يَرْجِعَ إلى روضةِ الطاعةِ، ويُذِيقَهُ مرارةَ العصيانِ، وعاقبةَ الطغيانِ؛ فيَرْجعُ ويَسْتَعْتِبُ.

- وإمَّا مؤمنٌ صالحٌ يريدُ أنْ يرفعَ درَجاتِهِ، ويُكَفِّرَ سيئاتِهِ، ويُعْلِيَ منزلتَهُ، ويبتلِيَ في الإيمانِ والصبرِ قُوَّتَهُ، ويُباهِيَ بِهِ ملائكتَهُ.

فتهدأُ بذلكَ نفسُهُ، وتَقَرُّ عينُهُ، ويَسْكُنُ جأْشُهُ، ويطْمَئِنُّ قلْبُهُ ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]. وهذا من السكينةِ التي يُنْزِلُها اللهُ تعالى على قلوبِ عبادِهِ المؤمنينَ.

انظرْ إلى قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩].

وتأمَّلْ أثرَهَا على قَلْبِ نبيِّنَا الكريمِ، وقدْ آذاهُ المشركونَ بأنواعِ الكلامِ السيِّئِ، والاتهاماتِ الباطلةِ المتناقضةِ التي لا غايةَ منهَا إلا الإيذاءَ والصدَّ عنهُ بأيِّ وسيلةٍ كانت.

فَقالوا عنه: سَاحرٌ!، وقالوا: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الإسراء: ٤٧].

فاعجَبْ: كيف يجتَمِعُ الاتهامانِ؟!!

وقالوا: هو كاهنٌ، وقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

فاعجَبْ أيضاً: كيف يَجْتَمِعانِ؟!!

وقالوا عنه: مجنونٌ، وقالوا: يريدُ المُلْكَ والرِّئاسةَ.

فاعجَبْ: كيفَ يُمْكِنُ لمجنونٍ أن يكونَ أهلاً لطلبِ المُلكِ والرِّياسةِ؟!!

حتى إنَّهم من فَرْطِ وَلَعِهِم بالاتهاماتِ الباطلةِ قالوا عنهُ: شاعرٌ!!

وهم يَعرِفونَ الشِّعرَ وبحورَه وهزَجَهُ ورَجَزَهُ، ويعرفونَ أنَّ القرآنَ لا يَلتئِمُ معَ بُحُورِ الشِّعرِ، ولا يُشبِهُهُ أيُّ شِعْرٍ.

ويعرفون أنهُ لم يَقُلْ قصيدةً قطُّ، وقدْ لَبِثَ فيهمْ عُمُراً قبلَ بَعثتِهِ.

فانظُرْ إلى اتهاماتِهِمُ الباطلةِ المُتناقِضَةِ التي تَدُلُّ علَى أنَّهُمْ إنما يُريدونَ أذيَّتَهُ والصَّدَّ عَنْهُ، ويَعرِفُون أنهم مُبطِلونَ أفَّاكُونَ فيما يَقُولُونَ.

وتأمَّلْ كونَ هذا الأذى العظيمَ صادِراً مِن قومِه وذَوِي رَحِمِهِ وقرابتِهِ الذينَ نَشَأَ بينَهُم فعرَفَهُ صغيرُهُم وكبيرُهُم، وذكَرُهُم وأُنثاهُم، بصدقِهِ وأمانَتِهِ، وحُسْنِ خُلُقِهِ وسيرَتِهِ، وإحسانِهِ إليهِمْ وصِلَتِهِ لَهُمْ.

ثمَّ هوَ يدْعُوهُم إلى ما فيهِ عزُّهُمْ ومجدُهُم ونجاتهُم في الدنيا والآخرةِ فيقابلونَهُ بهذا الأذى والظلمِ العظيمِ..

وظُلْمُ ذَوِي القُربَى أشدُّ مضاضَةً عَلَى المرءِ مِنْ وَقْعِ الحُسامِ المُهنَّدِ

فانتقِلْ بذِهنِكَ إلى تلكَ البِقاعِ، وإلى ذلكَ الزمانِ، وتَفكَّرْ في نفسِكَ كيف أثَرُ تلكَ الاتهاماتِ الباطلةِ، والحربِ النفسيَّةِ، وذلكَ التآمُرِ البَغيضِ مِنْ كُبراءِ القومِ وسُفهائِهم على نَفْسِ الرسولِ الكريمِ الَّذي جَاءَ لِيُخرِجَهم منَ الظُّلُماتِ إلى النورِ، ولِيأخُذَ بحُجَزِهِم عنِ النارِ؟!.

بل تعدَّى الأمرُ إلى السخريَةِ بِهِ والاستهزاءِ المَقِيتِ بشَخْصِه وَرِسَالتِهِ. ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾ [الفرقان: ٤١].

يقولُ له أحدُ المستهزئينَ: أَمْرُطْ ثيابَ الكعبةِ إن كانَ اللهُ أَرسَلَكَ!

ويقولُ له آخَرُ: أمَا وَجدَ اللهُ أحداً يُرسِلُه غيرَكْ؟!

وَالْحَظْ مَعْنَى الاستِهْزاءِ وَالاحتِقارِ والاستِخْفافِ بشَخْصِ النبيِّ الكَرِيمِ، في قَوْلِهِم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف: ٣١].

إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَقْوالِهِمُ السَّيِّئَةِ المُشِينَةِ، الَّتِي تَنِمُّ عَمَّا تَنِمُّ عنهُ.

ثُمَّ تَأَمَّلْ تَثْبيتَ اللهِ عزّ وجل لِنَبيِّهِ ورَسُولِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧﴾؛ تَجِدْ فِيهِ مِنَ التَّسْلِيَةِ وَالتَّثْبِيتِ مَا يَطْمَئِنُّ بِهِ الْقَلْبُ، وَتَسْكُنُ بِهِ النَّفْسُ، فيَذْهَبُ الْهَمُّ وَالْغَمُّ، ويَنْجَلِي الخوفُ والحزَنُ.

وهو عَلَى هذَا الكَوْكَبِ الصَّغِيرِ الَّذِي إِذَا نَسَبْتَهُ إِلَى عَظَمَةِ مَلَكُوتِ اللهِ تَعَالَى وَجَدْتَهُ ضَئِيلَ النِّسْبَةِ جِدّاً.

فقُوَّتُه لاَ تُضاهِيهَا وَلاَ تُدَانِيهَا قُوَّةٌ، وعِزَّتُه لا تُضامُ، وَمجْدُهُ لا يُرامُ، وقَدْ كَتَبَ العِزَّةَ لِنَفْسِهِ ولِرَسُولِهِ وللمُؤْمِنِينَ.

فتَضْمَحِلُّ أَمَامَ عَظَمَةِ مَدْلُولاتِ هذهِ الآيةِ العَظِيمَةِ جَمِيعُ مَعانِي الخَوْفِ والحَزَنِ والضِّيقِ، ويَتَضاءَلُ أَمامَهَا كَيْدُ أُولَئِكَ الكَافِرِينَ الحَاقِدِينَ، حَيْثُ بَدَوْا فِي مَعَايِيرِ الإيمانِ واليَقِينِ لا يُساوُونَ شَيْئاً يُذْكَرُ أَمامَ عَظَمَةِ مَلَكُوتِ اللهِ تَعالَى وقُدْرَتِهِ.

فَيَخِفُّ مَا كَانَ علَى النَّفْسِ ثَقِيلاً، وتَتَبَدَّدُ المَخاوِفُ، ويَذْهَبُ الهَمُّ والغَمُّ، ويَنْجَلِي الحَزَنُ، وتَنْزِلُ السَّكِينَةُ، ويَحِلُّ الأَمْنُ، وتَغْمُرُ القَلْبَ مشَاعِرُ الأُنْسِ باللهِ، والثِّقَةِ بِحِفْظِهِ ونَصْرِهِ، والطُّمَأْنِينَةِ بذِكْرِهِ، والتَّصْدِيقِ بوَعْدِهِ، فيَنْشَغِلُ بالأُنْسِ بِهِ تعَالَى عَنِ الوَحْشَةِ مِنْهُمْ، والفَرَحِ به جَلَّ وعَلا عَنِ الخَوْفِ مِنْهُمْ.

حَتَّى تَنْدَفِعَ مَعَ هَذَا اليَقِينِ العَظِيمِ رَغْبَةُ الانتقامِ مِنْهُمْ بمُعَاجَلَتُهُمْ بالعِقابِ معَ شِدَّةِ أَذَاهُمْ، وعَظِيمِ كَيْدِهِم.

فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رضِي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟

فقَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كلالٍ فلم يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ؛ فَانْطَلَقْتُ وأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ؛ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي!

فنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ؛ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عزّ وجل قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ.

قَالَ: فَنادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ، وسَلَّمَ عَلَيَّ؛ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ!

إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ.

فَمَا شِئْتَ؟ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً».

وتأَمَّلْ أَيْضاً: مَا تُفِيدُهُ حروفُ اللامِ و(قَدْ) فِي قَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ الَّتِي تُؤَكِّدُ تَحَقُّقَ عِلْمِ اللهِ بِمَا يَقُولُونَ، وَهُوَ عِلْمٌ لَهُ لَوَازِمُهُ ومُقْتَضَيَاتُهُ وآثَارُهُ، لَيْسَ مُجَرَّدَ عِلْمٍ، ولَيْسَ عِلْمُهُ كَأَيِّ عِلْمٍ، بَلْ هُوَ عِلْمُ الَّذِي لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَلا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يُقِرَّ الظُّلْمَ عَلَى رَسُولِهِ وولِيِّهِ، ولاَ يُمْكِنُ أَنْ يُهْمِلَهُ ويَتَخَلَّى عَنْهُ، سُبْحَانَهُ وبِحَمْدِهِ، فَهُوَ يَتَعَالَى ويَتَنَزَّهُ عَنْ أَنْ يَخْذُلَ رَسُولَهُ وَوَلِيَّهُ الَّذِي يَسْعَى فِي مَرْضَاتِهِ، ويُبَلِّغُ رِسَالاتِهِ.

وَهَذا مِنْ أَسْرَارِ الأَمْرِ بالتَّسْبِيحِ بِحَمْدِهِ جَلَّ وعَلا فِي الآيَةِ الَّتِي تَلِيهَا قَالَ تعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩].

فَأَرْشَدَهُ إِلَى الإِعْرَاضِ عَنْهُمْ، والاستئناسِ بِعِبادةِ اللهِ وَحدَهُ، ومُلازمةِ عبادَتِهِ والسُّجودِ له.

وكُلَّمَا كَانَ العَبْدُ أَكْثَرَ ذُلاً وخُضوعاً وانقِياداً للهِ جَلَّ وعَلا كانَ نَصِيبُهُ مِن العِزَّةِ والرِّفْعَةِ والحِفْظِ أَكْمَلَ وأَعْظَمَ، وفَتَحَتْ لَهُ تِلْكَ العِبادَةُ أَنْواعاً مِن العِلْمِ والمَعرفةِ والإيمانِ واليَقينِ، الذي يَجِدُ مِن حَلاوتِهِ وبَرْدِهِ، وحُسنِ أَثَرِهِ عليه وفَائِدَتِهِ، ما هو مِن أَعظمِ الأَدِلَّةِ على عِنايةِ اللهِ تعالى بعبدِهِ، وحُسنِ كِفايتِهِ ووِقايَتِهِ وحِفظِهِ له.

فيكْتَسِبُ القلبُ ثِقَةً وطُمَأْنينةً ويَقِيناً تَضْمَحِلُّ معه جميعُ أنواعِ الأذى، وتَتلاشَى معه صُوَرُ الرَّهْبَةِ والخوفِ مما يَقُولونَ.

وتأمَّلْ على هذا النحوِ قولَهُ تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس: ٧٦].

وقولَهُ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ [الطور: ٤٨].

وقولَهُ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء:٨٣].

وقولَهُ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٩].

وقولَهُ: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢].

وقولَهُ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

وقولَهُ لموسَى وهارُونَ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦].

وقولَـه في محمَّدٍ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠]. والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ.

وتأمَّلْ قولَ الله تعالَى في أواخرِ سُورةِ الحَجِّ: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨﴾ [الحجِّ: ٥٨]، والآياتِ التي بعْدَها؛ فإنَّ لها شأناً عظيماً، ومعانيَ جليلةً يَحسُنُ الوقوفُ عليها وبيانُها.

وذلكَ أنَّ المهاجرينَ لَمَّا كانوا قدْ تعرَّضُوا للفقرِ بتركِ أموالِهم وأوطانِهم، ومِنهم مَنْ خَرجَ لا يملِكُ إلاَّ ثوْبَهُ الذي عليهِ، ولحِقَهُمْ منْ ذلكَ ما يَلحَقُ الفقيرَ من الهمِّ والغمِّ، وكانوا بعدَ ذلكَ على صِنفَينِ:

الصِّنفُ الأولُ: مَنْ يموتُ أوْ يُقْتَلُ والحالةُ هذهِ؛ فوعدَهُم اللهُ عزّ وجل أنْ يرزُقَهُم رِزقاً حسناً أحسنَ من الذي خلَّفُوه، ثمَّ بيَّنَ لهم مِنْ أسمائِهِ وصفاتِهِ ما هوَ كفيلٌ بذلكَ، وأنَّ اللهَ عزّ وجل هوَ خيرُ الرازقينَ.

وتأمَّلْ كيفَ ذكرَ هذا الاسمَ في سِياقِ جوابِ القَسَمِ تقريراً لهذا المعنى ومُبالغةً في رَفعِ الهمِّ والغمِّ منْ قلوبِهم؛ لئَلاَّ يأْسَوْا على ما أُخِذَ منهم في سبيلِ اللهِ عزّ وجل.

ثمَّ قالَ: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾ [الحجِّ:٥٩] عليمٌ بصِدْقِ وعدِهِ، عليمٌ بما يُرْضِي عبادَهُ المؤمنينَ، حليمٌ يتجاوزُ عنْ سَيِّئَاتِهِم وتقصيرِهِم.

والصِّنفُ الآخَرُ: الذينَ يَبْقَوْنَ فيُقاتِلُونَ الكُفَّارَ منْ بعدِما أصابَهُم البغيُ والظلمُ؛ فقالَ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾ [الحجِّ: ٦٠].

فتكَفَّلَ اللهُ بنَصْرِهِمْ وتمكينِهِم وجَعْلِ العاقبةِ لهم في الدُّنْيا والآخرةِ، وأخبَرَهُم بعدْلِهِ وفضْلِهِ، فقالَ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾، وهذا مُقْتَضَى عدْلِهِ عزّ

وجل، فينتصِرُ لعبدِهِ المؤمنِ وينتقمُ لهُ ممَّنْ ظلمَهُ، وفي هذا رفعٌ للضررِ الدنيويِّ اللاحقِ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾ فيهِ البِشارَةُ لهُ بالعفوِ والمغفرةِ؛ وهذا منْ فضْلِهِ سُبحانهُ وبحمدِهِ، وذلكَ يَتضمَّنُ إزالةَ الضررِ اللاحقِ بهِ منْ جِهةِ الذنوبِ والمعاصِي.

فرفعَ اللهُ عزّ وجل عنهُ ما يَضُرُّ بدِينِهِ ودُنياهُ، وجَعَلَ لهُ العاقِبَةَ في الدنيا بالنصرِ والتمكينِ، وفي الآخرةِ بالعفوِ والمغفرةِ.

ثمَّ لَمَّا كانَ الظلمُ ثقيلاً على نفوسِ المظلومينَ، يسْتَبْطِئُونَ النصرَ والفرَجَ، وقدْ يَعرِضُ لقلوبِهِم من الوساوسِ والخَطَرَاتِ ما يغُمُّهُم بهِ الشيطانُ منْ كَوْنِ هذا الظلم مُسْتَحْكِماً لا يُمْكِنُ ارتفاعُهُ، أوْ أنَّ أسبابَ النصرِ بعيدةٌ عسيرةُ المنالِ؛ لِيُقَنِّطَهُم منْ رحمةِ اللهِ عزّ وجل، أرْشَدَهُم اللهُ عزّ وجل إلى التفكُّرِ في آلائِهِ وأسمائِهِ وآياتِهِ؛ فإنَّ التفكُّرَ فيها يُسَكِّنُ النفسَ، ويُطَمْئِنُ القلبَ، ويُسَلِّي المحزونَ.

فقالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٦١﴾ [الحجّ: ٦١] فكما أنَّهُ قادرٌ على تصريفِ الليلِ والنهارِ، فيَذْهَبُ بالنهارِ ويأتِي بالليلِ، ويَذهَبُ بالليلِ ويأتِي بالنهارِ، فهوَ قادرٌ على إزالةِ هذا الظلم والانتقام من الظالمينَ وإدَالَةِ عبادِهِ المؤمنينَ عليهِمْ؛ فكما أنَّ الليلَ إذا اشتدَّ ظلامُهُ فهوَ أمارةُ قُرْبِ الفجْرِ، فكذلكَ الظلمُ إذا اشتدَّ فهوَ أمارةُ قُرْبِ الفرَجِ، وإنَّما هيَ آجالٌ مضروبةٌ، وأوقاتٌ محدودةٌ يبتلي اللهُ فيها عبادَهُ؛ فيَرضَى عنِ المؤمنينَ ويَمْحَقُ الكافرينَ.

ثمَّ ذكرَ لهم أمراً آخرَ لتَطْمَئِنَّ به قُلوبُهُم، فقالَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٦١﴾ يسمَعُ ويُبْصِرُ ما يقعُ من الظلمِ، وهذا يستلزِمُ عنايتَهُ عزّ وجل بعبادِهِ، وأنَّهُ لا يُقِرُّ الظلمَ عليهم، وأنَّ هذا الإمهالَ إنَّما هوَ لِحكَم يعلَمُها اللهُ عزّ وجل، وأنَّهُ لا يُهْمِلُ عبادَهُ ولا يخْذُلُهم ولا يتْرُكُهم عُرْضَةً لأعدائِهِ.

ثمَّ قالَ تعالى مُقَرِّراً هذا المعنَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج: ٦٢].

فبيَّنَ لعبادِهِ المؤمنينَ أمراً عَظِيماً يُبصّرُهُم به، وهوَ أنَّهم يَعبُدونَ اللهَ عزّ وجل «الحقَّ» الذي لا أحدَ أَحقُّ بالعبادةِ منهُ، بلْ لا يَستحِقُّ العبادةَ أحدٌ سِواهُ، وأنَّ الظالمينَ المشركينَ إنَّما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الباطلَ؛ والإلهُ الحقُّ لا بُدَّ أنْ يغلِبَ الآلهَةَ الباطلةَ ويَنْصُرَ أتباعَهُ على أتباعِها.

فكونُهُ الحقَّ يَقتضِي عَدمَ إقرارِ الباطلِ والظلمِ وهَضْمِ الحقِّ، بلْ لا بدَّ أنْ يَنصُرَ الحقَّ ويُعْلِيَهُ على الباطلِ.

ثمَّ ذكرَ مِنْ أسمائِهِ ما يَقتضِي نُصْرَةَ أوليائِهِ وتمكِينَهُم ورَفْعَ الظُّلمِ عنهُمْ، وهوَ أنَّهُ سبحانَهُ «العليُّ الكبيرُ»، فهوَ العليُّ بذاتِهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ، ودينُهُ هوَ أعلى الأديانِ، وعبادُهُ المؤمنونَ هم الأعْلَوْنَ، ومَنْ سِوَاهُم فهم الأذلُّونَ الأرْذَلُونَ، ولا يُمْكِنُ أنْ يَغلِبَ الأذلُّ الأعلَى.

وكذلكَ كونُهُ «الكبيرَ» أكبرُ منْ كلِّ شيءٍ بذاتِهِ وصفاتِهِ؛ وهذهِ الصفةُ تستلزِمُ صفاتٍ عظيمةً جليلةً كالقُوَّةِ والقدرةِ والقَهرِ والجبَروتِ وشدَّةِ البطْشِ، وغيرِها من الصفاتِ التي تَقَرُّ بها عيونُ أوليائِهِ بأنَّ ربَّهُم الذي يعبدونَهُ ـ وهذهِ صفاتُهُ ـ لا يمكنُ أنْ يخْذُلَهُم، ولا يَعْجزُ عنْ نُصْرَتِهِم.

فكونُهُ هو «العليَّ» يقتضي عدمَ خِذْلانِهِم.

وكونُهُ هو «الكبيرَ» يقتضي عدمَ عَجْزِهِ عنْ نُصْرَتِهِم.

ثمَّ لَمَّا كانت النفسُ البشريَّةُ مجبولةً على الاستعجالِ، وكأنَّ قائلاً قالَ: ما دامَ الأمرُ كذلكَ فَلِمَ لا يُعَجِّلُ النصرَ؟!

قالَ اللهُ عزّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الحجّ: ٦٣]، فوجَّهَ أنظارَهُم إلى التفكُّرِ في آيةٍ منْ آياتِهِ المُشَاهَدَةِ لِيَسْتَدِلُّوا بها على حِكمتِهِ تعالى فيما غابَ عنهم علمُهُ، وذلكَ أنَّ اللهَ عزّ وجل قادرٌ على أنْ يُنْبِتَ النباتَ بغيرِ ماءٍ أصلاً، ولكِنَّهُ لطيفٌ خبيرٌ يُوصِلُ الخيرَ إلى عبادِهِ بأسبابٍ خَفِيَّةٍ وجليَّةٍ على ما تقتضيهِ حِكمتُهُ ورحمتُهُ؛ فكما أنَّهُ يُنْزِلُ الماءَ من السحابِ وهوَ سببٌ مُشَاهَدٌ، ثمَّ يأخذُ الماءُ دَوْرَتَهُ معَ بُذورِ النباتِ تحتَ الأرضِ الصالحةِ للنباتِ وهوَ سببٌ خفيٌّ، ثمَّ ما تَلْبَثُ الأرضُ أنْ تَخْضَرَّ ويَعُمَّها الربيعُ فيَستبشرُ بِهِ أهلُ الأرضِ ويُسَرُّونَ مِنْ بعدِ ما كادُوا يُبْلِسونَ منْ شدَّةِ الجدْبِ والإمحالِ؛ فكذلكَ ما أنزلَ اللهُ إلى عبادِهِ منْ أوامرِهِ وأوْحى إليهم منْ كلامِهِ هوَ كالغيثِ إذا خالطَ القلوبَ المستقيمةَ أخذَ دَوْرَتَهُ معَ بَذْرَةِ الفطرةِ السليمةِ، فأينعَتْ ثمارُهُ، ورَبَّعَتْ أقطارُهُ، وانجلَتْ عنهُ القسوَةُ، وعمَّتْهُ الصحوَةُ، فانطَلَقَت التباشيرُ بطُلوعِ الفجرِ وإدبارِ الليْلِ، وانقِشاعِ سَحابةِ الظلامِ الدامسِ.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ المسلمينَ إنَّما يُنْصَرُونَ بتمَسُّكِهِم بما أُوحِيَ إليهم واستِقَامَتِهِمْ على طاعةِ ربِّهِم، وَتَنبِيهٌ عَلَى أَثَرِ العِبَادَاتِ الخَفِيَّةِ، فلا تَلْبَثُ الآثارُ والنتائجُ حتَّى تَبْدُوَ ظاهرةً جليَّةً بإذنِ اللطيفِ الخبيرِ، فعليهِمْ الاشتغالُ بإصلاحِ قلوبِهِم وأعمالِهِم، واتِّباعِ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الهُدَى وَالنُّورِ، وَتَرْكِ الاستعجالِ، والحَذَرِ من اليأسِ والقنوطِ؛ ولا يَزَالونَ كذلكَ حتى يأتِيَ نصرُ اللهِ.

وهكذا فتأمّلْ بَقِيَّةَ الآياتِ.

فانظُرْ إلى عَظمةِ هذا الكتابِ العزيزِ كيفَ يُجَلِّي الحَزَنَ، ويُذْهِبُ الهمَّ والغمَّ عنْ قلوبِ أولياءِ اللهِ المؤمنينَ الذينَ يتلونَهُ حقَّ تلاوتِهِ، وتأمّلْ آثارَ أَسْماءِ اللهِ الحسنى في خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ.

إنَّ الإيمانَ بأسماءِ اللهِ الحُسْنَى وصِفاتِهِ العُلَى لَيَهْدِي المُؤْمِنَ إلى عبادةِ اللهِ عزّ وجل كأنَّهُ يَرَاهُ، وهذه هي مَرْتَبَةُ الإحسانِ العظيمةِ التي هي أَعْلَى مَراتبِ الدِّينِ ـ نَسْأَلُ اللهَ عزّ وجل بُلوغَها والثَّباتَ عَلَيْهَا حتَّى المماتِ؛ فيَجْتَهِدُ العَبْدُ في التَّقَرُّبِ إلى ربِّهِ جَلَّ وعَلا بِمَا يُحِبُّ، واجتنابِ مَا يَكْرَهُهُ ويُبْغِضُهُ، حتَّى يُحِبَّ ما يُحِبُّهُ اللهُ، ويُبْغِضَ مَا يُبْغِضُهُ اللهُ، ويُعَظِّمَ مَا يُعَظِّمُهُ اللهُ، ويُحَقِّرَ ما يُحَقِّرُهُ اللهُ، فيَكُونَ مِنْ أَولِيَاءِ اللهِ المُخْبِتينَ الَّذِينَ يُحِبُّهُم ويُحِبُّونَهُ، ويَقْذِفُ اللهُ في قَلْبِهِ نُوراً عظيماً، وفُرقاناً مُبيناً، ويَجِدُ مِن حَلاوةِ الإيمانِ وبَرْدِ اليَقينِ وطُمَأْنينةِ القلبِ وانشِراحِ الصَّدرِ والحياةِ الطيبةِ مَا هُو أَعْظَمُ نَعِيمٍ يُمْكِنُ أنْ يَنالَهُ أَحَدٌ في هذه الحياةِ الدُّنْيَا.

والأمرُ أَجَلُّ مِمَّا ذَكَرْتُ، وأعظَمُ مِمَّا وَصفْتُ، وحاجةُ الناسِ إلى معرفَتِهِ والعملِ بِهِ ماسَّةٌ، وصِلَتُهُ بأبوابِ الدينِ معلومةٌ بالضرورةِ.

وكانَ منْ توفيقِ اللهِ عزّ وجل أنِّي كُنْتُ أتَصَفَّحُ الكتابَ المُباركَ الذي صنَّفَهُ فضيلةُ الشيْخِ بكرِ بنِ عبدِ اللهِ أبو زيدٍ حَفِظَهُ اللهُ في تقريبِ علومِ ابنِ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالى، ذلكَ الإمامُ الجليلُ الذي اشتُهِرَ بسَعَةِ علمِهِ، وصِحَّةِ منهجِهِ، وجَودةِ تآليفِهِ، وحُسْنِ أُسْلُوبِهِ، وكانَ كثيراً ما يَرْبِطُ مسائلَ العلمِ والعملِ بالإيمانِ باللهِ عزّ وجل وأسمائِهِ وصفاتِهِ، وهوَ في المكانةِ والشهرةِ عندَ العامَّةِ والخاصَّةِ بمنزلةٍ تُغْنِي عن التعريفِ بهِ.

وكانَ منْ جُمْلَةِ ما تصفَّحْتُهُ عام ١٤١٥هـ أو عام ١٤١٦هـ ما جمَعَهُ فضيلةُ الشيخِ من الإشاراتِ إلى مباحِث تتعلَّقُ بشرحِ أسماءِ اللهِ الحسنى منْ كُتُبِ ابنِ القيِّمِ رحمه الله.

وكأنَّ الشيخَ حفِظَهُ اللهُ آنَسَ أنَّ الأمرَ يحتاجُ إلى مَزيدِ بحثٍ، فقالَ (ص٨١): (لابنِ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالى في هذا المبحَثِ العظيمِ مَباحِثُ مَنثُورةٌ في كُتُبِهِ، فيها منْ إبداءِ كُنوزِ العلمِ، ولطائفِ الأسرارِ، ما يفتَحُ للمسلمِ بابَيِ العلمِ واليقينِ؛ فها أنا ذا أجمَعُ لكَ مَظَانَّها في مكانٍ واحدٍ لعلَّ اللهَ سبحانهُ أنْ يُهيِّئَ مَنْ يُفْرِدُهَا بكتابٍ مُستقِلٍّ دونَ أيِّ تعليقٍ أوْ تحشيَةٍ).اهـ.

فوافق كلامُهُ رغبةً كامِنةً في النَّفس، فاستَخَرْتُ اللهَ عزّ وجل واستَعَنْتُهُ ونِعْمَ المُعِينُ، وعقدتُ العزمَ على جَمْعِ هذا البَحثِ وإعدَادِهِ.

فشرعت بعدها بمدّة في استقراءِ مَا وَقَفْتُ عليهِ منْ كُتُبِ ابنِ القيِّم رحمهُ اللهُ تعالى، وكنتُ إذا ما مَرَرْتُ بكلامٍ لهُ صِلَةٌ بالأسماءِ الحُسنى أشَرْتُ إلى موضعِهِ في آخرِ ذلكَ الكتابِ، حتَّى اجتمَعَ لي قدرٌ كبيرٌ والحمدُ للهِ تعالى.

ثمَّ صَنَّفْتُ ما جمعتُه على قسمَيْنِ:

القسم الأوَّلُ: في الكَلام العامّ عن الأسماءِ الحسنَى.

والقسم الثانِي: في الشَّرح الخاصّ بكلِّ اسمٍ من الأسماءِ الحسنى؛ إمَّا تصريحاً بأنْ يذكرَ الشيخُ ذلكَ الاسمَ، ثمَّ يأخذَ في شَرْحِهِ، وإمَّا أنْ أُدْرِكَ مِنْ معنى كلامِهِ أنَّ هذا الكلامَ يُنَاسِبُ شرحَ اسمٍ من الأسماءِ الحسنَى، كالكلامِ في الحمدِ وسَعَتِهِ وشُمُولِهِ وبيانِ طُرُقِ حمدِ اللهِ عزّ وجل، كلُّ ذلكَ يُنَاسِبُ شرحَ اسمِ «الحميدِ»، وهكذا بَقِيَّةُ الأسماءِ.

ثمَّ صّنَّفتُ القسمَ الأوَّلِ حَسَبَ ما تيَسَّرَ لي جمعُهُ إلى سبعةٍ وعشرينَ باباً. وهذا بيانُها:

البابُ الأوَّلُ: في بيانِ أنَّ أفضلَ العلمِ: العلمُ بأسماءِ اللهِ الحسنى وصفاتِهِ العُلْيَا.

البابُ الثانِي: في بيانِ ما يُفْضِي إليهِ العلمُ بأسماءِ اللهِ الحسنى وصفاتِهِ العُلْيَا من المراتبِ العاليَةِ والمعارفِ الجليلَةِ.

البابُ الثالِثُ: في بيانِ أنَّ التفكُّرَ في آياتِ اللهِ عزّ وجل دليلٌ إلى معرفةِ اللهِ بأسمائِهِ وصفاتِهِ.

البابُ الرابِعُ: في ذكرِ بعضِ ما تضمَّنَتْهُ سورةُ الفاتحةِ من المعارفِ الجليلةِ في بابِ الأسماءِ والصفاتِ.

البابُ الخامِسُ: في بيانِ دَلالةِ قولِ اللهِ تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ على ثبوتِ صفاتِ الكمالِ للهِ عزّ وجل.

البابُ السادِسُ: في بيانِ دَلالةِ قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ على تفرُّدِ اللهِ عزّ وجل بصفاتِ الكمالِ.

البابُ السابِعُ: في بيانِ ما تضمَّنَهُ حديثُ: «**اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ...**» منْ فوائدَ جليلةٍ ولطائفَ بديعةٍ في بابِ الأسماءِ والصفاتِ.

البابُ الثامِنُ: فيما دلَّ عليهِ قولُهُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ...**» من الفوائدِ الجليلةِ في بابِ الأسماءِ والصفاتِ.

البابُ التاسِعُ: في بيانِ دَلالةِ الشريعةِ المُحْكَمَةِ على أسماءِ اللهِ الحسنى وصفاتهِ العُلَى.

البابُ العاشِرُ: في بيانِ دلالةِ العقلِ على ثبوتِ الأسماءِ والصفاتِ.

البابُ الحاديَ عشَرَ: في بيانِ أنَّ أسماءَ اللهِ الحسنى وصفاتِهِ العُلَى تقتضي كمالَ الربِّ جلّ جلاله، وتستلزِمُ توحيدَهُ وتفرُّدَهُ بها.

البابُ الثانيَ عشَرَ: في بيانِ دَلالةِ أسماءِ اللهِ الحسنى وصفاتِهِ العُلَى وكمالِهِ المُقَدَّسِ على معنى شهادةِ: أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ، وأنَّ مُحَمَّداً رسولُ اللهِ.

البابُ الثالثَ عشَرَ: في بيانِ أنَّ أسماءَ اللهِ الحسنى وصفاتِهِ العُلَى تقْتَضِي تنزيهَهُ سبحانه وتعالى عن الشرورِ والنقائصِ والعيوبِ.

البابُ الرابعَ عشَرَ: في بيانِ أنَّ أسماءَ اللهِ الحسنى وصفاتِهِ العُلَى منْ مُوجِبَاتِ حَمْدِهِ ومُقْتَضِياتِ محبَّتِهِ.

البابُ الخامسَ عشَرَ: في بيانِ أضرارِ ومساوئِ الجهلِ باللهِ تعالى وأسمائِهِ الحسنى وصفاتِهِ العُلَى.

البابُ السادسَ عشَرَ: في بيانِ بعضِ ما يقتضيهِ العلمُ بأسماءِ اللهِ الحسنى وصفاتِهِ العُلَى منْ أنواعِ العبودِيَّةِ للهِ تعالى.

البابُ السابعَ عشَرَ: في بيانِ بعضِ ما تضمَّنَتْهُ فريضةُ الصلاةِ منْ لطَائفِ التعَبُّدِ للهِ تعالى بأسمائِهِ الحسنى وصفاتِهِ العُلَى.

البابُ الثامنَ عشَرَ: في بيانِ ما تَضَمَّنَهُ خَتْمُ الآياتِ بالأسماءِ والصفاتِ من الفوائدِ الجليلةِ واللطائفِ البديعةِ.

البابُ التاسعَ عشَرَ: في بيانِ ما تضَمَّنَهُ العطفُ بينَ الأسماءِ الحسنى وتَرْكُهُ من اللطائفِ والأسرارِ.

البابُ العشرونَ: في بيانِ بعضِ ما تَضَمَّنَهُ اقترانُ بعضِ الأسماءِ الحسنى ببعضٍ من اللطائفِ العجيبةِ والفوائدِ البديعَةِ.

البابُ الحادي والعشرونَ: في ذكرِ قواعدَ مُهِمَّةٍ في بابِ الأسماءِ والصفاتِ.

البابُ الثاني والعشرونَ: في بيانِ معنى كلمةِ (الذَّاتِ).

البابُ الثالثُ والعشرونَ: في بيانِ مسألةِ الاسمِ والمُسَمَّى.

البابُ الرابعُ والعشرونَ: في بيانِ الاشتراكِ والاختصاصِ في بعضِ ما يُطْلَقُ على الرَّبِّ جلَّ وعَلا وعلى العبدِ من الألفاظِ.

البابُ الخامسُ والعشرونَ: في بيانِ معنى الإلحادِ في أسماءِ اللهِ الحسنَى.

البابُ السادسُ والعشرونَ: في بيانِ أنَّ أسماءَ اللهِ الحسنى وصفاتِهِ العُلَى تستلزمُ آثارَها.

البابُ السابعُ والعشرونَ: في بيانِ دَلالةِ أسماءِ اللهِ الحسنى وصفاتِهِ العُلَى على خلقِ أفعالِ العبادِ، وأنَّ الطاعاتِ والمعاصيَ كُلَّها بتقديرِ اللهِ تعالى.

فهذا هوَ القِسْمُ الأوَّلُ، وأمَّا ما اجتمعَ لي منْ كلامِهِ رحمه الله في القِسمِ الثاني فَمُتَفَاوِتٌ تفاوُتاً كبيراً منْ حيثُ القدرُ والأسلوبُ، فبعْضُهُ مبسوطٌ مُطَوَّلٌ قدْ يَزِيدُ على عشْرِ صَفَحاتٍ في بعضِ الأسماءِ، وبعْضُهُ مُتَوَسِّطٌ، وبعْضُهُ مُخْتَصَرٌ لا يزيدُ على سطرٍ أوْ سطريْنِ أوْ بيتٍ أوْ بيتَيْنِ من القصيدةِ النونيَّةِ، **فكانَ أمامِي ثلاثُ خياراتٍ لتنسيقِ هذهِ النصوصِ:**

- **الخِيارُ الأوَّلُ:** أنْ أجْعلَها في بابٍ واحِدٍ؛ فأذكُرَ الشروحَ المُطَوَّلَةَ، ثُمَّ أُتْبِعَها بالشُّروحِ المختصَرَةِ. وعيبُ هذا الخِيارِ أنَّهُ يُخِلُّ بالترتيبِ المُسْتَحْسَنِ في شرحِ الأسماءِ الحسنَى، وهوَ أنْ تكونَ الأسماءُ المُتَعَلِّقَةُ بالأُلُوهِيَّةِ والرُّبُوبِيَّةِ وسَعَةِ المُلْكِ متواليَةً، وأسماءُ الرحمةِ والجمالِ والإحسانِ متواليَةً، وأسماءُ العظمةِ والجلالِ متواليَةً، وهكذا بَقِيَّةُ الأسماءِ الحسنَى.

فصَرَفْتُ النظرَ عنْ هذا الخِيارِ، والْتَفَتُّ إلى **الخِيارِ الثانِي:** وهوَ أنْ أُرَاعِيَ الترتيبَ المذكورَ معَ كونِ شروحِ الأسماءِ كُلِّها في بابٍ واحِدٍ؛ إلاَّ أنَّ ظهورَ التفاوتِ في مقدارِ شروحِ الأسماءِ الحسنى حَالَ دونَ اختيارِ هذا الخِيارِ، ذلكَ

أنَّهُ منْ غيرِ المناسبِ أنْ أذْكُرَ شرحاً مُطَوَّلاً لاسمٍ من الأسماءِ الحسنى قدْ يَستغرِقُ بضعَ عَشْرةَ صفحَةً، ثمَّ أُتْبِعَهُ بنصفِ سطرٍ في شرحِ اسمٍ غيرِهِ من الأسماءِ الحسنى، ثُمَّ أُعْقِبَهُ بشرحٍ مُطَوَّلٍ لاسْمٍ ثالثٍ.

ـ فالْتَمَسْتُ **خِياراً ثالثاً**: أَخْلُصُ بهِ منْ هاتيْنِ المَنْقَصَتَيْنِ؛ يُرَاعَى فيهِ الترتيبُ المذكورُ، وتَتَنَاسَبُ شروحُهُ فلا تَتفاوَتُ؛ فوَجَدْتُ أنَّهُ من المناسبِ أنْ أجعَلَ للشروحِ المُطَوَّلَةِ باباً مستقِلاً، وأُعَنْونَ لهُ بما يدلُّ على بسْطِهِ ويُهَيِّئُ النفسَ للاسترسالِ فيهِ، ويكونُ منهجُ ابنِ القيِّمِ فيهِ متقارباً، ذلكَ أنَّ **غالِبَ هذهِ الشروحِ يترَكَّزُ على نقاطٍ مُهِمَّةٍ:**

أَوَّلُها: بيانُ معنى الاسمِ في اللغَةِ.

والثانيَةُ: بيانُ سَعَةِ معنى الاسمِ وعظمَتِهِ باعتبارِ إضافَتِهِ إلى اللهِ عزّ وجل.

والثالثَةُ: بيانُ آثارِ الاسمِ في الخلقِ والأمْرِ؛ والآثارُ بحرٌ لا ساحلَ لَهُ.

والرابعَةُ: بيانُ لوازمِ هذا الاسمِ منْ بَقِيَّةِ الأسماءِ الحسنَى.

فإذا قرأَ طالبُ العلمِ هذا البابَ وفَهِمَهُ كما ينبغي حَصَلَتْ لهُ مَلَكَةٌ ودُرْبَةٌ في معرفةِ سَعَةِ معاني أسماءِ اللهِ عزّ وجل وعظيمِ آثارِها وتَعَلُّقِها بالخلقِ والأمْرِ؛ فإذا ما تَأَمَّلَ اسماً من الأسماءِ الحسنى التي لمْ تُذْكَرْ في هذا البابِ، واتَّبَعَ هذا المنهجَ الجليلَ في شرحِ أسماءِ اللهِ الحسنى تَبَيَّنَ لهُ بفضلِ اللهِ عزّ وجل من العلومِ والفوائدِ البديعةِ والمعاني الجليلةِ ما لمْ يكُنْ يَخْطُرُ لهُ على بالٍ.

والمقصودُ أنْ يكونَ هذا البابُ على مَنْهَجٍ متّسِقٍ وأسلوبٍ مُتَقَارِبٍ؛ فإنَّ ذلكَ أدْعَى لحُسْنِ الفَهمِ ورُسُوخِهِ، فلذلكَ عَقَدْتُ البابَ الثامنَ والعشرينَ، وهُوَ: **في بيانِ ما تضَمَّنَتْهُ بعضُ الأسماءِ الحسنى من المعاني الجليلَةِ، واللطائفِ والأسرارِ البديعَةِ.**

وأمَّا البابُ الذي يليهِ، وهوَ البابُ التاسعُ والعشرونَ: **في ذِكْرِ شرحٍ مُخْتَصَرٍ لبعضِ الأسماءِ الحسنَى؛ فالمقصودُ منهُ الاختصارُ والاقتصارُ في شروحِ الأسماءِ الحسنى على كلماتٍ يسيرةٍ يسهُلُ حِفْظُهَا واسْتِذْكَارُهَا.**

ولَمَّا كانَ الاقتصارُ على الشُّرُوحِ المختصرةِ التي لمْ تُذْكَرْ في البابِ السابقِ ـ وهيَ شروحُ خمسةٍ وعشرينَ اسماً فقطْ ـ لا يُنْتِجُ وَحْدَةً موضُوعِيَّةً حَرَصْتُ على إتمامِ الفائدةِ؛ فانتزعتُ شروحاً مختصرةً من الشروحِ المُطَوَّلَةِ المذكورةِ في البابِ السابقِ لتكونُ كالتلخيصِ والتقريبِ لها، وَلِتُنَاسِبَ طَرِيقَتَهُ في الشّروحِ المختصَرَةِ، وليَنْتُجَ من المجموعِ شرحٌ مختصرٌ لأكثرَ منْ سبعينَ اسماً من الأسماءِ الحسنى هيَ حصيلةُ ما جمَعْتُهُ منْ كتُبِ ابنِ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالى.

أمَّا إذا اعْتُبِرَت الأسماءُ المُتَقارِبَةُ كالعَلِيِّ والأَعْلَى والمُتَعَالِي، وكالقديرِ والقادرِ والمقتدِرِ، ونحْوِها معَ مراعاةِ الفَرْقِ في الصيغةِ وتأثيرِه على المعْنَى، فيكونُ في هذا الكتابِ شرحٌ لأكثرَ منْ خمسةٍ وثمانينَ اسماً من الأسماءِ الحسنَى.

ثمَّ ختَمْتُ الكتابَ بمُلْحَقٍ يتعلَّقُ بأبياتٍ مُختارَةٍ من القصيدةِ النُّونيَّةِ، وثيقةِ الصلةِ بالبحثِ لا ينبغي إغفالُها، وعقَدْتُ لها البابَ الثلاثينَ، وهُوَ: **في بيانِ أنَّ أقسامَ التوحيدِ الذي بعثَ اللهُ بهِ المرسَلينَ ترجِعُ إلى معاني أسماءِ اللهِ الحسنى،** وقصَدْتُ بذلكَ أنْ يُمْعِنَ القارئُ النظرَ في هذا البابِ حتَّى يَصِلَ إلى هذهِ النتيجَةِ.

ولَمَّا كانَ الجمعُ والتصنيفُ لا بُدَّ لهُ منْ تنسيقٍ حتَّى يبْدُوَ الكلامُ مُتَّسِقاً مُتآلِفاً؛ وَضَعْتُ أحْرُفاً – ورُبَّما كَلِماتٍ يسيرةٍ – تَرْبطُ النصوصَ المنْقُولَةَ بعضها ببعضٍ؛ وحتَّى لا يختلِطَ هذا بكلامِ ابنِ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالى وضَعْتُهُ بينَ قوسَيْنِ معكوفَيْنِ [ ]، وجعَلْتُ كلامَ ابنِ القيِّمِ بينَ هلالَيْنِ ( )، وأشَرْتُ في نهايَتِهِ إلى موضعِ هذا الكلامِ منْ كُتُبِهِ باسمِ الكتابِ ورَقْمِ الصفحةِ لِمَنْ أرادَ الرجوعَ إليْهِ.

ولَمَّا كانَ سِياقُ الكلامِ قد يضْطَرُّنِي إلى حذفِ بعضِ الكلماتِ أوْ أَرَى حذْفَها لعدمِ تعلُّقِها بالبحثِ أشَرْتُ إلى موضعِ الحذفِ بثلاثِ نُقَطٍ (...) وهوَ يشمَلُ حذفَ حرفٍ فصَاعِداً.

وإذا أَدْرَجْتُ كلاماً لابنِ القَيِّم من كتابٍ في كلامٍ لهُ من كتابٍ آخرَ جَعَلْتُ النَّصَّ المُدْرَجَ بينَ أربعةِ أهِلَّةٍ هكذا (( ))، وأَشَرْتُ إلى موضعِ النصِّ المُدْرَجِ في كُتُبِهِ.

وقدْ أُشيرُ إلى الأخطاءِ الطّباعيّةِ في الكتبِ التي نَقَلْتُ منها إذا رَأَيْتُ الأمرَ يسْتَدْعِي ذلِكَ.

ثمَّ إنِّي حَرَصْتُ على أنْ لا أَحْذِفَ من المادَّةِ العلمِيَّةِ المُودَعَةِ في البحثِ شيئاً ولوْ تكَرَّرَتْ؛ لأنَّ هذهِ النصوصَ يُوَضِّحُ بعْضُها بعْضاً، ورُبَّما فَهِمَ القارئُ منْ كلامِ ابنِ القَيِّم في موضعٍ ما لمْ يفْهَمْهُ في موضعٍ آخَرَ، ورُبَّما كانَ القارئُ باحثاً في مسألةٍ مُعيَّنَةٍ فَتَغْنيهِ كثرَةُ النقولِ.

وهذهِ الأبوابُ المُهِمَّةُ يُرَسِّخُها في الذهنِ تَكْرَارُها وعَرْضُها بأساليب متنوّعة[(١)].

ولَمَّا كانَ في النصوصِ المنقولةِ منْ كتبِ ابنِ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالى ما ذَكَرْتُ من التفاوتِ اتَّبَعْتُ في تنسيقِها طريقةَ الأصلِ والحواشِي؛ وذلكَ لاعتبارَاتٍ:

الاعتبارُ الأوَّلُ: كثرةُ التَّكرارِ في النصوصِ المنقولةِ منْ كُتُبِ ابنِ القَيِّم رحمهُ اللهُ تعالى، فبعدَ أنْ صَنَّفْتُ النصوصَ على الأبوابِ والمسائلِ وجَدْتُ فيها تَكراراً كثيراً، على اختلافِ **درَجاتِ التَّكْرارِ**:

- فبعْضُها يكونُ تَكراراً بنفسِ الألفاظِ.

(١) أعني بالتَّكرارِ هنا: أنْ يكونَ لابنِ القيِّمِ ـ رحمهُ اللهُ تعالى ـ كلامٌ في أحدِ كُتُبِهِ عنْ مسألةٍ ما، ويكونُ لهُ نحوُ هذا الكلامِ في كتابٍ آخَرَ.

- وبعْضُها يكونُ التَّكرارُ فيها للمَعنَى على اختلافٍ يسيرٍ في الألفاظِ.

- وبعْضُها يكونُ فيها تَكرارٌ ظاهرٌ معَ زيادةِ بعْضِها على بعضٍ في المعاني والألفاظِ.

فحَرَصْتُ على اختيارِ أجمعِ هذهِ النصوصِ ليكونَ في الأصْلِ، ثمَّ زِدْتُهُ بإدراجِ ما يُمْكِنُ إدْرَاجُهُ فيهِ من النصوصِ الأُخْرَى.

وما تبَقَّى من النصوصِ رَأَيْتُ أنَّهُ من التَّفْرِيطِ أنْ يُلْغَى ويُهْمَلَ فَجَعَلْتُهُ في الحاشيَةِ لمَنْ أرادَ الاستزادَةَ، ومَن اكتفى بالأصلِ فإنَّهُ لا يَحْتَاجُهُ.

الاعتبارُ الثانِي: تنَوُّعُ تلكَ النصوصِ في تعلُّقِها بالبابِ المُدْرَجَةِ فيهِ:

- فبعْضُها وثيقُ الصلةِ بالبابِ كَقُطْبِ رَحَاهُ.

- وبعْضُها لها تَعَلُّقٌ ما بالبابِ.

- وبعْضُها يجرِي مَجْرَى التعليقِ والبيانِ لبعضِ النُّكتِ والفوائدِ المُودَعَةِ في البابِ.

فما كانَ منْ هذهِ النصوصِ وثيقَ الصلةِ بالبابِ جَعَلْتُهُ في الأصْلِ، وأمَّا القسمانِ الآخرانِ فما أمْكَنَ منها أنْ يُجْعَلَ في الأصلِ بحيثُ يَتَنَاسَبُ معَ السِّياقِ والسِّباقِ جَعَلْتُهُ في الأصلِ، وإلاَّ اجْتَهَدْتُ في اختيارِ الموضعِ الذي يَصْلُحُ أنْ يكونَ حاشيَةً لهُ من الأصْلِ.

الاعتبارُ الثالِثُ: اختلافُ أساليبِ الكلامِ لاختلافِ السياقِ:

- فبعضُ النصوصِ منْ كلامِ ابنِ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالى يكونُ في مَقامِ البيانِ والتفصيلِ لغرضِ التعليمِ والإرشادِ.

- وبعضُها يكونُ في مَقامِ الاستطرادِ والاستشهادِ بحيثُ يَعْرِضُ لهُ أثناءَ حديثِهِ عنْ مسألةٍ ما، ولا يكونُ هوَ المقصودَ بالكلامِ.

- وبعْضُها يكونُ في مَقامِ الردِّ على المخالفينَ والتشنيعِ عليهم، وبيانِ بُطْلانِ أقوالِهم.

فيأتي كلامُهُ أحياناً طويلاً مُسْتَرْسَلاً فيهِ، وأحياناً مُقْتَضَباً مختصراً، وتارَةً هَيِّناً ليِّناً، وتارَةً قاسياً شديداً، ويَذْكُرُ أحياناً بعضَ المعاني فلا يُتِمُّها اكتِفاءً بما عَرَضَ لهُ منها ممَّا يُتِمُّ مقصودَهُ فيما هوَ بصدَدِهِ، وأحياناً يذْكُرُهُ مُفَصَّلاً مبسوطاً يستكمِلُ أجزاءَهُ ومبانِيَهُ.

فكانَ في دَمجِ هذهِ النصوصِ وتنسيقِها صُعوبةٌ، أمَّا جَمعُها في مَوضِعٍ واحدٍ في الأصلِ فظاهِرُ التفاوُتِ، مُشَتِّتٌ للذِّهْنِ، مُشَوِّشٌ على الفكْرِ، وما مَثَلي؛ إذْ أفعلُ ذلكَ إلاَّ كَمَنْ أرادَ أنْ يجمَعَ قصيدةً مِنْ قَصائدَ مُتَفَرِّقَةٍ في ديوانِ شاعرٍ فجاءَ كلُّ شَطرٍ فيها منْ بحْرٍ.

فرَأَيْتُ أنْ أُدْرِجَ في الأصلِ ما كانَ ألْيَقَ بالمقصودِ من الكتابِ، وأسْتَخْرِجَ من النصوصِ الأخرى ما يمكنُ إدراجُهُ في الأصلِ، وما تبَقَّى جَعلْتُهُ في أنسبِ موضعٍ لهُ في الحاشيَةِ.

وتظهرُ فائدةُ هذا الأُسلُوبِ جليّاً في بابِ القواعِدِ؛ حيثُ تُذْكَرُ القاعدةُ في الأصلِ بأسلوبِ البيانِ والتعليم؛ لأَنَّهُ الأليقُ بها، ويُذْكَرُ في الحاشيَةِ استخدامُ ابنِ القَيِّم رحمهُ اللهُ تعالى لهذهِ القاعدةِ في رَدِّهِ على المخالفينَ، وكيفَ ينطلقُ منها ويَبْنِي عليها من الكلامِ العظيمِ والفوائدِ الجليلةِ ما يَشْفِي بهِ النفْسَ، ويُفْحِمُ بهِ الخصْمَ، فيكونُ في هذا دُرْبَةٌ عَمَلِيَّةٌ لطالبِ العلمِ على كيفِيَّةِ الاستفادةِ من القواعِدِ.

الاعتبارُ الرابعُ: مراعاةُ الوَحدةِ الموضُوعيَّةِ وجَوْدَةِ التأليفِ بينَ النصوصِ وحُسْنِ سَبْكِهَا واتِّسَاقِهَا؛ بحيثُ يكونُ المجموعُ من النُّقولِ المُنَسَّقَةِ كأنَّهُ مُؤَلَّفٌ مُسْتَقِلٌّ لابنِ القيِّم رحمهُ اللهُ تعالى لا يُشْعِرُ القارئَ بأنَّهُ يَقْرَأُ في كُتُبٍ مُتفرِّقَةٍ؛ فلا يَتَشَتَّتُ ذهْنُهُ، ولا يتَشَعَّبُ فكرُهُ.

وهذا مَطلَبٌ مُهِمٌّ؛ إذْ تَنبَنِي عليهِ ثمْرةُ الكتابِ وما أُرِيدَ منْهُ، وجَعْلُ جميعِ النصوصِ في الأصلِ مُنهِكٌ للكتابِ مُذْهِبٌ لتناسُقِهِ وتَتَابُعِ أفكارِهِ.

الاعتبارُ الخامِسُ: مراعاةُ تفاوُتِ طَبَقاتِ القُرَّاءِ.

فحَرَصْتُ على أنْ يكونَ الكتابُ ملائماً لأكبرِ عدَدٍ ممكنٍ من القُرَّاءِ؛ فيُلائِمُ عُلَمَاءَنا ومشايخَنَا، ويُلائِمُ طلبةَ العلمِ على اختلافِ درَجاتِهِم، ويُلائِمُ الباحثينَ والمتخصِّصِينَ في هذا العلْمِ، وكذلكَ مُحِبّو القراءةِ والمثقَّفُونَ، بحيثُ يجِدُ كلٌّ منهم بُغْيَتَهُ منْ هذا الكتابِ ولا يفُوتُهُ شيءٌ ممَّا جَمَعْتُهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

وسَمَّيْتُ الكتابَ بـ(**المُرْتَبَعِ الأَسْنَى في رِياضِ الأَسْمَاءِ الحُسْنَى**).

والمُرْتَبَعُ في اللُّغَةِ: هوَ المكانُ الذي يُقَامُ فيهِ زَمَنَ الربيعِ، يُقَالُ لَهُ: المَرْبَعُ والمُرْتَبَعُ والمُتَرَبَّعُ، قالَ طَرَفَةُ بنُ العَبْدِ:

تَرَبَّعَتِ القُفَّيْنِ في الشَّوْلِ تَرْتَعِي ... حَدَائِقَ مَوْلِيِّ الأَسِرَّةِ أَغْيَدِ

وقالَ عَنْتَرَةُ العبْسِيُّ:

كيفَ المَزَارُ وقدْ تَرَبَّعَ أهلُها ... بعُنَيْزَتَيْنِ وأهلُنا بالغَيْلَمِ

وقالَ الحَرِيريُّ في مَقاماتِهِ، وهوَ منْ أهلِ العلمِ باللغةِ والأدَبِ:

خَلِّ ادِّكَارَ الأَرْبُعِ ... والمَعْهَدِ المُرْتَبَعِ
والظَّاعِنِ المُوَدِّعِ ... وعَدِّ عَنْهُ وَدَعِ

ومأخذُ التشبيهِ أنَّ المُرْتَبعَ في أماكنِ الربيعِ يتَنقَّلُ بينَ رياضِها ومُرُوجِها، ويَرَى منْ خُضْرَتِها وزَهرَتِها، ويجدُ منْ رَوْحِها وطِيبِها ما تنشرحُ لهُ نفسُهُ، وتَقَرُّ بِهِ عينُهُ.

فكذلكَ الحالُ المَرْجُوَّةُ لقارئِ هذا الكتابِ حينَ يتَنَقَّلُ بينَ أبوابِهِ وفُصُولِهِ يجدُ منْ فوائدِهِ ولطائِفِهِ ما ينشرحُ لهُ صدْرُهُ وتقَرُّ بهِ عينُهُ، بلْ لهذا الكتابِ مَزيدُ مَزِيَّةٍ عظيمةٍ، وهيَ سناؤُهُ ورِفعَتُهُ لتعَلُّقِهِ بأسماءِ اللهِ الحسنَى.

وقدْ شَرَعْتُ في إعدادِ هذَا الكتابِ في أوائلِ سنةِ ١٤١٧هـ وفرغتُ منهُ في شهرِ اللهِ المحرمِ من سنةِ ١٤١٩هـ، وأعددت له هذه المقدّمة، ونشرت منه نسخاً إلكترونية على الشبكة ولم تتيسّر طباعته إلى عام ١٤٣٧هـ، حتى يسّر الله بمنّه وكرمه سبباً لطباعته؛ فَأعدتُ النَّظَرَ في المقدّمةِ وَهذّبتُها، وأسألُ اللهَ تَعَالى أَنْ يَتقَبَّلَه، وَأنْ يَتجَاوَزَ عَنّي إِنَّهُ هُو العَفُوُّ الحَلِيمُ.

ومِمَّا ينبغي أنْ يعْلَمَهُ قارئُ هذا الكتابِ أنَّ ابنَ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالى قدْ سأَلَ اللهَ عزّ وجل أنْ يُعِينَهُ على كتابةِ شرحٍ للأسماءِ الحسنى في غيرِ مَوضِعٍ منْ كُتُبِهِ، وقدْ ذكرَ بَعضُ مَنْ تَرْجَمَ لهُ من العلماءِ أنَّ لهُ كتاباً في شرحِ الأسماءِ الحُسنَى، إلاَّ أنِّي لا أعْلَمُهُ في المطبوعاتِ ولا في المخطوطاتِ، فأَسْأَلُ اللهَ عزّ وجل بمَنِّهِ وكرَمِهِ إنْ كانَ لهذا الإمامِ كتابٌ في شرحِ أسمائِهِ الحسنى أنْ يُهيِّئَ منْ عبادِهِ مَنْ ينشرُه حتَّى يَعْظُمَ النفعُ بِهِ، واللهُ على ذلكَ قديرٌ، وهوَ أكْرَمُ مَسْؤُولٍ.

كَمَا أَسْأَلُهُ عزّ وَجَلَّ أَنْ ينفعَ بِهذَا الكِتَابِ صَاحِبَ مَادَّتِهِ الأُولَى ابنَ القيّم رَحِمَهُ اللهُ، وَمُعِدَّ هذا الجمعِ العبدَ الفقيرَ إلى اللهِ، وَناشِرَ الكِتَابِ وَكلَّ مَن قَرَأَهُ وَأَعَانَ عَلَى نَشْرِهِ وَتَوزِيعِهِ وَتَرْجَمَتِهِ وَتَقْرِيبِه وَالانتِفَاعِ بِهِ.

وَأَسأَلُه تَعَالى يُبَارِكَ في أَوْقَاتِنا وأعْمالِنا، وأنْ يُوفِّقَنا لاتِّبَاعِ رِضْوَانِهِ واجتنابِ مَسَاخِطِهِ، وأنْ يُيَسِّرَ لنا العِلمَ النافعَ والعَمَلَ الصالحَ والدَّعوةَ إليهِ على بَصيرةٍ إيماناً واحتساباً.

اللَّهُمَّ علِّمْنا ما ينْفعُنا، وانْفعْنَا بما علَّمْتَنَا، وزِدْنَا علماً تنفعُنَا بِهِ، إنَّكَ قريبٌ مُجِيبٌ.

اللَّهُمَّ تقبَّلْ منَّا إنَّكَ أنتَ السميعُ العليمُ، واغفِرْ لنا وارْحَمْنَا إنَّكَ أنتَ الغفورُ الرحيمُ.

اللَّهُمَّ هَيِّئْ لنا منْ أمْرِنا رَشَداً، ووفِّقْنا لصالحِ الأقوالِ والأعْمَالِ، والأخلاقِ والأحوالِ، يا حيُّ يا قَيُّومُ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ.

اللَّهُمَّ صلِّ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ مُحَمَّدٍ كما صلَّيْتَ على آلِ إبراهيمَ، وَبَارِكْ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ كما بارَكْتَ على آلِ إبراهيمَ في العالمينَ، إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ.

وكتبَهُ

عبد العزيز بن داخل المطيري

الرياض

البابُ الأوَّلُ: فِي بَيَانِ أَنَّ أَفْضَلَ العِلْمِ العِلْمُ بِأَسْمَاءِ اللّهِ الحُسْنَى وَصِفَاتِهِ العُلْيَا

(**أَفْضَلُ العِلمِ والعَمَلِ والحالِ**: العِلمُ باللهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ، والعملُ بمرْضَاتِهِ، وانجذابُ القلبِ إليهِ بالحُبِّ والخوفِ والرجاءِ، فهذا أشْرَفُ ما في الدُّنيا، وجزَاؤُهُ أشرفُ ما في الآخِرَةِ.

وأجلُّ المقاصدِ معرفةُ الله ومحبَّتُهُ والأُنْسُ بقربِهِ، والشَّوقُ إلى لِقَائِهِ والتَّنَعُّمُ بِذِكْرِهِ، وهذا أجَلُّ سعادةِ الدُّنيا والآخرةِ، وهذا هوَ الغايَةُ التي تُطْلَبُ لِذَاتِها.

وإنَّما يشعرُ العبدُ تمامَ الشُّعورِ بأنَّ ذلكَ عينُ السعادةِ إذا انكشفَ لهُ الغطاءُ وفارقَ الدُّنيا ودخلَ الآخرةَ، وإلاَّ فهوَ في الدنيا - وإنْ شعرَ بذلكَ بعضَ الشعورِ - فليسَ شعورُهُ كاملاً للمعارضاتِ التي عليهِ، والمحنِ التي امْتُحِنَ بها، وإلاَّ فليست السعادةُ في الحقيقةِ سِوَى ذلكَ.

وكلُّ العلومِ والمعارفِ تَبَعٌ لهذهِ المعرفةِ، مُرَادَةٌ لأجْلِها، وتفاوتُ العلومِ في فضلِها بحسَبِ إفضائِها إلى هذهِ المعرفةِ وبُعْدِها، فَكُلُّ علمٍ كانَ أقربَ إفضاءً إلى العلمِ باللهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ فهوَ أعلى ممَّا دُونَهُ، وكذلكَ حالُ القلبِ؛ فكلُّ حالٍ كانَ أقربَ إلى المقصودِ الذي خُلِقَ لهُ فهوَ أشرفُ ممَّا دُونَهُ، وكذلكَ الأعمالُ، فكلُّ عملٍ كانَ أقربَ إلى تحصيلِ هذا المقصودِ كانَ أفضلَ منْ غيرِهِ، ولهذا كانت الصَّلاةُ والجهادُ منْ أفضلِ الأعمالِ وأفْضَلِهَا لقُرْبِ إفضَائِها إلى المقصودِ.

وهكذا يجبُ أنْ يكونَ؛ **فإنَّ كلَّ ما كانَ الشيءُ أقربَ إلى الغايَةِ كانَ أفضلَ من البعيدِ عنها**، فالعملُ المُعِدُّ للقلبِ المُهَيِّئُ لهُ لِمَعرفةِ اللهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ ومحبَّتِهِ وخوفِهِ ورجائِهِ أفضلُ ممَّا ليسَ كذلكَ.

وإذا اشتركتْ عِدَّةُ أعمالٍ في هذا الإِفْضَاءِ فأفضلُها أَقْرَبُها إلى هذا المُفْضِي، ولهذا اشتركت الطَّاعاتُ في هذا الإفضاءِ فكانتْ مطلوبةً للهِ، واشتركت المعاصي في حَجْبِ القلبِ وَقَطْعِهِ عنْ هذهِ الغايَةِ فكانتْ مَنْهيًّا عنها، وتأثيرُ الطاعاتِ والمعاصي بحَسَبِ درجاتِها).[1]

---

(١) عُدَّةُ الصَّابِرِينَ (١٣٠).

الباب الثاني: في بيان ما يُفضي إليه العلمُ بأسماءِ الله الحسنى وصفاته العُليا من المَراتِبِ العَالِيَةِ وَالمَعارِفِ الجَلِيلَةِ

(في "المسندِ" منْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، وَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللهِ تَعَالَى».[(١)]

وهذا الحديثُ العظيمُ أصْلٌ منْ أصولِ الإيمانِ، وينفتحُ بِهِ بابٌ عظيمٌ منْ أبوابِ سِرِّ القَدَرِ وحكمَتِهِ، واللهُ تعالى المُوَفِّقُ.

وهذا النورُ الذي أَلْقَاهُ عليهم سُبحانَهُ وتعالى، هوَ الذي أحْيَاهُم وهَدَاهُم، فأصابت الفطرةُ منهُ حَظَّها، ولكنْ لَمَّا لمْ يسْتَقِلَّ بتَمامِهِ وكَمالِهِ؛ أكْمَلَهُ لهم وأتَمَّهُ بالروحِ الذي ألْقَاهُ على رُسُلِهِ عليهم الصلاةُ والسلامُ، والنورِ الذي أوْحَاهُ إليهم، فأدْرَكَتْهُ الفطرةُ بذلك النورِ السابقِ الذي حصلَ لها يومَ إلقاءِ النورِ، فانضافَ نورُ الوحيِ والنبُوَّةِ إلى نورِ الفطرةِ، نُورٌ على نورٍ، فأشرقتْ منهُ

(١) رَواهُ الإمامُ أحمَدُ (١١/ ٧٩) برَقْمِ (٦٨٥٤م)، وصَحَّحَهُ أحمدُ شَاكِر، والترمذيُّ في كتابِ الإيمانِ/ بابُ ما جاءَ في افتراقِ هذهِ الأُمَّةِ (٥/ ٢٦) رَقْمُ (٢٦٤٢). والبيهقيُّ في كتابِ السِّيَرِ / بابُ مُبتدَأِ الخَلْقِ (٩/ ٦) برَقْمِ (١٧٧١٠). كُلُّهم مِن طُرقٍ عن عَبدِ اللهِ بنِ فيروزِ الدَّيْلَمِيِّ، عن عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وقولُهُ: «فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ...» هو مِنْ قَوْلِ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

القلوبُ، واستَنارتْ بِهِ الوجوهُ، وحَيِيَتْ بِهِ الأرواحُ، وأَذْعَنَتْ بِهِ الجوارحُ للطَّاعاتِ طَوْعاً واختياراً، فازْدَادَتْ بِهِ القلوبُ حياةً إلى حياتِها.

ثُمَّ دَلَّها ذلكَ النُّورُ على نورٍ آخرَ هوَ أعظمُ منهُ وأجَلُّ، وهوَ **نُور الصِّفات العُلْيا** الذي يَضْمَحِلُّ فيهِ كلُّ نورٍ سِوَاهُ، فشَاهَدَتْهُ ببصائرِ الإيمانِ مُشَاهَدَةً نِسْبَتُها إلى القلبِ كنِسْبَةِ المرئِيَّاتِ إلى العينِ، ذلكَ لاستيلاءِ اليقينِ عليها، وانكشافِ حقائقِ الإيمانِ لها، حتَّى كأنَّها تَنْظُرُ إلى عرشِ الرحمنِ تباركَ وتعالى بارزاً، وإلى استوائِهِ عليهِ، كما أخبرَ بِهِ سُبحانَهُ وتعالى في كتابِهِ، وكما أخبرَ بِهِ عنهُ رسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، يُدَبِّرُ أمرَ الممالكِ، ويَأْمُرُ وينْهَى، ويخلقُ ويرْزُقُ، ويُميتُ ويُحْيِي، ويَقْضِي ويُنَفِّذُ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويُقَلِّبُ الليلَ والنهارَ، ويُدَاوِلُ الأَيَّامَ بينَ الناسِ، ويُقَلِّبُ الدُّوَلَ، فَيَذْهَبُ بدولةٍ، ويَأْتِي بأُخْرَى.

والرُّسُلُ من الملائكةِ عليهم الصلاةُ والسلامُ بينَ صاعدٍ إليهِ بالأمرِ، ونازلٍ منْ عندِهِ بهِ، وأوامرُهُ ومراسيمُهُ مُتعاقبةٌ على تعاقبِ الأوقاتِ، نافذةٌ بحَسَبِ إرادتِهِ ومشيئَتِهِ، فما شاءَ كانَ كما شاءَ في الوقتِ الذي يَشَاءُ على الوجهِ الذي يشاءُ، منْ غيرِ زيادةٍ ولا نقصانٍ، ولا تَقَدُّمٍ ولا تَأَخُّرٍ، وأمرُهُ وسلطانُهُ نافذٌ في السَّماوَاتِ وأقطارِها، وفي الأرضِ وما عليها وما تحتَها، وفي البحارِ والجوِّ، وفي سائرِ أجزاءِ العالمِ وذرَّاتِهِ، يُقَلِّبُها ويُصَرِّفُها، ويُحْدِثُ فيها ما يشاءُ.

وقدْ أحاطَ بكلِّ شيءٍ عِلْماً، وأحصى كلَّ شيءٍ عدداً، ووسِعَ كلَّ شيءٍ رحمةً وحكمةً، ووَسِعَ سَمْعُهُ الأصواتَ، فلا تختلفُ عليهِ ولا تَشْتَبِهُ عليهِ، بلْ يسمعُ ضجيجَها باختلافِ لغاتِها على تفنُّنِ حاجاتِها، فلا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عنْ سَمْعٍ، ولا تُغْلِطُهُ كثرةُ المسائلِ، ولا يَتبَرَّمُ بإلحاحِ المُلِحِّينَ ذَوِي الحاجاتِ، وأحاطَ بصرُهُ بجميعِ المَرْئِيَّاتِ، فيَرَى دبيبَ النملةِ السوداءِ على الصخرةِ الصمَّاءِ في الليلةِ الظلماءِ، فالغيبُ عندَهُ شهادةٌ، والسِّرُّ عندَهُ علانيَةٌ، يعلمُ السِّرَّ وأخفى من السرِّ.

فالسِّرُّ: ما انْطَوَى عليهِ ضميرُ العبدِ، وخطَرَ بقلْبِهِ، ولمْ تتحَرَّكْ بِهِ شَفَتَاهُ. وأخفى منهُ: ما لمْ يخْطُرْ بقلْبِهِ بعدُ، فيعلمُ أَنَّهُ سيخطرُ بقلْبِهِ كذا وكذا في وقتِ كذا وكذا.

لهُ الخلقُ والأمرُ، ولَهُ الملكُ ولَهُ الحمدُ، ولَهُ الدنيا والآخرةُ، ولهُ النِّعمةُ، ولَهُ الفضلُ، ولهُ الثناءُ الحسن، ولهُ المُلْكُ كلُّهُ، ولهُ الحمدُ كلُّهُ، وبيَدِهِ الخيرُ كلُّهُ، وإليهِ يُرجعُ الأمرُ كلُّهُ، شَمِلَتْ قُدْرَتُهُ كلَّ شيءٍ، ووسِعَتْ رحمتُهُ كلَّ شيءٍ، وَسَعَتْ[1] نِعْمَتُهُ إلى كلِّ حيٍّ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩] يَغْفِرُ ذنباً، ويُفَرِّجُ همًّا، ويكْشِفُ كرباً، ويَجْبُرُ كسيراً، ويُغْنِي فقيراً، ويُعلِّمُ جاهلاً، ويَهْدِي ضالاًّ، ويُرْشِدُ حَيْرَانَ، ويُغِيثُ لهفانَ، ويَفُكُّ عانِياً، ويُشبِعُ جائعاً، ويكْسُو عارياً، ويَشْفِي مريضاً، ويُعَافِي مُبْتَلًى، ويَقْبَلُ تائباً، ويَجْزِي محسناً، وينصرُ مظلوماً، ويقْصِمُ جبَّاراً، ويُقِيلُ عثرةً، ويسْتُرُ عورةً، ويُؤَمِّنُ روعةً، ويرفَعُ أقواماً ويَضَعُ آخرينَ، لا ينامُ، ولا ينبغي لهُ أنْ ينامَ، يخفضُ القسطَ ويرفعُهُ، يُرفعُ إليهِ عملُ الليلِ قبلَ النهارِ، وعملُ النهارِ قبلَ الليلِ، حجابُهُ النورُ، لوْ كَشَفَهُ لأحْرَقَتْ سُبُحاتُ وجْهِهِ ما انتهى إليهِ بصرُهُ منْ خلْقِهِ، يمينُهُ مَلأَى، لا تَغِيضُها نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ الليلَ والنهارَ. «**أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ الْخَلْقَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ**».

قلوبُ العبادِ ونوَاصِيهِمْ بيَدِهِ، وأَزِمَّةُ الأمورِ معقودةٌ بقضائِهِ وقدرِهِ، الأرضُ جميعاً قبضتُهُ يومَ القيامةِ، والسَّماوَاتُ مطويَّاتٌ بيمينِهِ، يقْبِضُ سَماواتِهِ كُلَّها بيَدِهِ الكريمةِ، والأرضَ باليدِ الأخْرَى، ثُمَّ يَهُزُّهنَّ، ثُمَّ يقولُ: أنا الملكُ، أنا الملكُ، أنا الذي بَدَأْتُ الدنيا ولمْ تكُنْ شيئاً، وأنا الذي أُعيدُها كما بدَأْتُها.

لا يتَعَاظَمُهُ ذنبٌ أنْ يغفرَهُ، ولا حاجةٌ يُسْأَلُها أنْ يُعطيَها.

---

(١) هكذا في الأصلِ ولعلَّ الصوابَ (ووَصَلَتْ).

لوْ أنَّ أهلَ سماواتِهِ، وأهلَ أرضِهِ، وأوَّلَ خلْقِهِ وآخرَهُم، وإنْسَهُم وجِنَّهُم، كانوا على أتْقَى قلبِ رجلٍ منهم، ما زادَ ذلكَ في مُلْكِهِ شيئاً، ولوْ أنَّ أوَّلَ خلْقِهِ وآخِرَهُم، وإنْسَهُم وجِنَّهُم، كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ منهم، ما نقصَ ذلكَ منْ مُلكِهِ شيئاً، ولوْ أنَّ أهلَ سماواتِهِ، وأهلَ أرضِهِ، وإنسَهُم وجِنَّهُم، وحيَّهم وميِّتَهُم، ورَطْبَهم ويابِسَهُم، قامُوا في صعيدٍ واحدٍ فسَأَلُوهُ، فأعطى كلاًّ منهم ما سَألَهُ، ما نقصَ ذلكَ ممَّا عندَهُ مثقالَ ذرَّةٍ.

ولوْ أنَّ أشجارَ الأرضِ كُلَّها منْ حينَ وُجِدَتْ إلى أنْ تنقضيَ الدنيا أقلامٌ، والبحرَ وراءَهُ سَبْعَةُ أبْحُرٍ تمدُّهُ منْ بعدِهِ مِدادٌ، فكتبَ بتلكَ الأقلامِ وذلكَ المِدادِ، لفَنِيَت الأقلامُ ونَفِدَ المدادُ ولمْ تنْفَدْ كلماتُ الخالقِ تباركَ وتعالى، وكيفَ تفْنَى كلماتُهُ جلَّ جلالُهُ وهيَ لا بدايَةَ لها ولا نهايَةَ، والمخلوقُ لهُ بدايَةٌ ونهايَةٌ، فهوَ أحقُّ بالفناءِ والنفادِ، وكيفَ يُفْنِي المخلوقُ غيرَ المخلوقِ؟!

هوَ الأوَّلُ الذي ليسَ قبلَهُ شيءٌ، والآخِرُ الذي ليسَ بعدَهُ شيءٌ، والظاهرُ الذي ليسَ فوقَهُ شيءٌ، والباطنُ الذي ليسَ دُونَهُ شيءٌ، تباركَ وتعالى، أَحَقُّ مَنْ ذُكِرَ، وأحقُّ مَنْ عُبِدَ، وأحقُّ مَنْ حُمِدَ، وأوْلَى مَنْ شُكِرَ، وأنْصَرُ مَن ابتُغِيَ، وأَرْأَفُ مَنْ مَلَكَ، وأجودُ مَنْ سُئِلَ، وأعْفَى مَنْ قَدَرَ، وأكرمُ مَنْ قُصِدَ، وأعْدَلُ مَن انتقَمَ، حُكْمُهُ بعدَ علْمِهِ، وعفْوُهُ بعدَ قدرتِهِ، ومغفرتُهُ عنْ عِزَّتِهِ، ومنْعُهُ عنْ حكْمَتِهِ، ومُوَالاتُهُ عنْ إحسانِهِ ورحْمَتِهِ.

ما للعبادِ عليهِ حقٌّ واجبٌ ... كلاَّ ولا سَعْيٌ لديهِ ضائعُ
إنْ عُذِّبوا فَبِعَدْلِهِ أوْ نُعِّمُوا ... فبفضْلِهِ وَهْوَ الكريمُ الواسعُ

هوَ الملِكُ الذي لا شريكَ لهُ، والفردُ فلا نِدَّ لهُ، والغنيُّ فلا ظهيرَ لهُ، والصمدُ فلا ولَدَ لهُ ولا صاحبَةَ لهُ، والعَلِيُّ فلا شبيهَ لهُ، ولا سَمِيَّ لهُ، كلُّ شيءٍ هالكٌ إلاَّ وجهَهُ، وكلُّ مُلْكٍ زائلٌ إلاَّ مُلكَهُ، وكلُّ ظلٍّ قالصٌ إلاَّ ظِلَّهُ، وكلُّ فضلٍ منقطعٌ

إلاَّ فضلَهُ، لنْ يُطَاعَ إلاَّ بإذنِهِ ورحمتِهِ، ولنْ يُعْصَى إلاَّ بعلمِهِ وحكمتِهِ، يُطاعُ فيَشكُرُ، ويُعصى فيتجاوزُ ويغفرُ، كلُّ نِقمةٍ منهُ عَدْلٌ، وكلُّ نعمةٍ منهُ فضلٌ، أقربُ شهيدٍ، وأدْنَى حفيظٍ، حَالَ دونَ النفوسِ، وأخذ بالنَّوَاصِي، وسجَّلَ الآثارَ، وكتبَ الآجالَ، فالقلوبُ لهُ مُفْضِيَةٌ، والسِّرُّ عندَهُ علانيَةٌ، والغيبُ عندَهُ شهادةٌ، عطاؤُهُ كلامٌ، وعذابُهُ كلامٌ، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: ٨٢].

فإذا أشْرَقَتْ على القلبِ أنوارُ هذهِ الصِّفَاتِ اضْمَحَلَّ عندَها كلُّ نورٍ، ووراءَ هذا ما لا يَخْطُرُ بالبالِ، ولا تنالُهُ عبارةٌ).[1]

[فَصْلٌ]

(فَإذا شرحَ اللهُ صدرَ عبدِهِ بنُورِهِ الذي يقْذِفُهُ في قلبِهِ أرَاهُ في ضوءِ ذلكَ النورِ حقائقَ الأسماءِ والصِّفَاتِ التي تَضِلُّ فيها معرفةُ العبدِ؛ إذْ لا يمكنُ أنْ يعرِفَها العبدُ على ما هيَ عليهِ في نفسِ الأمرِ، وأَرَاهُ في ضوءِ ذلكَ النورِ حقائقَ الإيمانِ وحقائقَ العبُوديَّةِ وما يُصَحِّحُها وما يُفْسِدُها، وتفاوَتَتْ معرفةُ الأسماءِ والصِّفَاتِ والإيمانِ والإخلاصِ وأحكامِ العبوديَّةِ بحسَبِ تفاوُتِهم في هذا النورِ، قالَ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

فيَكشِفُ لقلبِ المؤمنِ في ضوءِ ذلكَ النورِ عنْ حقيقةِ المَثَلِ الأعلى مُسْتَوِياً على عرشِ الإيمانِ في قلبِ العبدِ المؤمنِ، فيشهدُ بقلْبِهِ رَبًّا عظيماً قاهراً قادراً أكبرَ منْ كلِّ شيءٍ في ذاتِهِ وفي صفاتِهِ وفي أفعالِهِ.

(١) الوابلُ الصيِّبُ (١٢٤-١٢٩).

السَّماوَاتُ السبعُ قبضةُ إحدَى يدَيْهِ، والأَرَضُونَ السبعُ قبضةُ اليدِ الأخرى، يُمْسِكُ السَّماوَاتِ على إصبعٍ، والأَرَضِينَ على إصبعٍ، والجبالَ على إصبعٍ، والشجرَ على إصبعٍ، والثَّرَى على إصبعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ ثُمَّ يقولُ: أنا الملكُ.

فالسَّماوَاتُ السبعُ في كفِّهِ كخردلةٍ في كفِّ العبدِ، يُحِيطُ ولا يُحاطُ بهِ، ويَحْصُرُ خلقَهُ ولا يحصُرونهُ، ويُدرِكُهم ولا يُدركونهُ، لوْ أنَّ الناسَ منْ لَدُنْ آدمَ إلى آخرِ الخلقِ قاموا صَفًّا وَاحِدَاً ما أحَاطُوا بهِ سُبْحَانَهُ.

ثُمَّ يَشْهَدُهُ في علمِهِ فوقَ كلِّ عليمٍ، وفي قُدْرَتِهِ فوقَ كلِّ قديرٍ، وفي جُودِهِ فوقَ كلِّ جَوَادٍ، وفي رحمَتِهِ فوقَ كلِّ رحيمٍ، وفي جمالِهِ فوقَ كلِّ جميلٍ، حتَّى لوْ كانَ جمالُ الخلائقِ كُلِّهم على شخصٍ واحدٍ منهم، ثُمَّ أُعْطِيَ الخلقُ كلُّهم مثلَ ذلكَ الجمالِ لكانتْ نِسْبَتُهُ إلى جمالِ الرَّبِّ سُبحانَهُ دونَ نسبةِ سِرَاجٍ ضعيفٍ إلى ضوءِ الشمسِ.

ولو اجتمعتْ قُوَى الخلائقِ على واحدٍ منهم، ثُمَّ أُعْطِيَ كلٌّ منهم مثلَ تلكَ القُوَّةِ لكانتْ نِسبَتُها إلى قُوَّتِهِ سُبحانَهُ دونَ نسبةِ قُوَّةِ البَعوضةِ إلى حَمَلَةِ العرشِ.

ولوْ كانَ جُودُهم على رجلٍ واحدٍ وكلُّ الخلائقِ على ذلكَ الجودِ لكانتْ نِسْبَتُهُ إلى جُودِهِ دونَ نسبةِ قَطْرَةٍ إلى البحرِ.

وكذلكَ علمُ الخلائقِ إذا نُسِبَ إلى عِلْمِهِ كانَ كنَقْرَةِ عُصفورٍ من البحرِ.

وكذلكَ سائرُ صفاتِهِ كحياتِهِ وسمْعِهِ وبصرِهِ وإرادتِهِ.

فلَوْ فُرِضَ البحرُ المحيطُ بالأرضِ مِداداً تحيطُ بهِ سبعةُ أبحرٍ، وجميعُ أشجارِ الأرضِ شيئاً بعدَ شيءٍ أقلاماً، لَفَنِي ذلكَ المِدادُ والأقلامُ ولا تفْنَى كلماتُهُ ولا تنْفَدُ، فهوَ أكبرُ في عِلمِهِ منْ كلِّ عالمٍ، وفي قُدْرَتِهِ منْ كلِّ قادرٍ، وفي جُودِهِ منْ كلِّ جوادٍ، وفي غِناهُ منْ كلِّ غنيٍّ، وفي عُلُوِّهِ منْ كلِّ عالٍ، وفي رحمَتِهِ منْ كلِّ رحيمٍ.

استَوَى على عرْشِهِ، واستولى على خلْقِهِ، منفردٌ بتدبيرِ مملكَتِهِ فلا قَبْضَ ولا بَسْطَ ولا مَنْعَ، ولا هُدَى ولا ضلالَ، ولا سعادةَ ولا شقاوةَ، ولا موتَ ولا حياةَ، ولا نفعَ ولا ضرَّ إلاَّ بيدِهِ، لا مالكَ غيرُهُ، ولا مُدَبِّرَ سواهُ، لا يستقلُّ أحدٌ معهُ بملكِ مثقالِ ذرَّةٍ في السماواتِ والأرضِ، ولا لهُ شِرْكَةٌ في مُلْكِهَا، ولا يحتاجُ إلى وزيرٍ ولا ظهيرٍ ولا مُعِينٍ، ولا يغيبُ فيَخْلُفَهُ غيرُهُ، ولا يَعْيَا فيُعِينَهُ سواهُ، ولا يتَقَدَّمُ أحدٌ بالشفاعةِ بينَ يدَيْهِ إلاَّ مِنْ بعدِ إذنِهِ لَمَنْ شاءَ وفيمَنْ شاءَ.

فهوَ أوَّلُ مَشَاهِدِ المعرفةِ، ثُمَّ يتَرَقَّى منهُ إلى مَشْهَدٍ فوْقَهُ لا يَتِمُّ إلاَّ بهِ، وهوَ مشهدُ الإلهيَّةِ فيَشْهَدُهُ سُبحانَهُ مُتَجَلِّياً في كمالِهِ بأمْرِهِ ونهْيِهِ، ووعْدِهِ ووعيدِهِ، وثوابِهِ وعقابِهِ، وفضْلِهِ في ثوابِهِ، فيَشهدُ رَبًّا قيُّوماً، مُتكَلِّماً آمِراً ناهياً، يُحِبُّ ويُبْغِضُ، ويَرْضَى ويَغْضَبُ، قدْ أَرسلَ رُسُلَهُ وأَنزلَ كُتُبَهُ وأقامَ على عبادِهِ الحُجَّةَ البالغةَ، وأتمَّ عليهم نعمَتَهُ السابغةَ، يَهْدِي مَنْ يشاءُ نعمةً منهُ وفضلاً، ويُضِلُّ مَنْ يشاءُ حكمةً منهُ وعَدْلاً، يُنـزِلُ إليهم أوامرَهُ، وتُعرَضُ عليهِ أعمالُهُم، لمْ يخلُقْهُم عبثاً، ولمْ يَتْرُكْهُم سُدًى؛ بلْ أَمْرُهُ جارٍ عليهم في حركاتِهم وسكناتِهم وظواهِرِهم وبواطِنِهم، فللَّه عليهم حُكْمٌ وأَمْرٌ في كلِّ تحريكةٍ وتسكينةٍ ولحظةٍ ولفظةٍ.

وينكشفُ لهُ في هذا النورِ عَدْلُهُ وحكمتُهُ ورحمتُهُ ولطفُهُ وإحسانُهُ وبرُّهُ في شرْعِهِ وأحكامِهِ، وأنَّها أحكامُ رَبٍّ رحيمٍ محسنٍ لطيفٍ حكيمٍ، قدْ بَهَرَتْ حكمَتُهُ العقولَ، وأقرَّتْ بها الفِطَرُ، وشَهِدَتْ لمُنزِلها بالوحدانيَّةِ، ولِمَنْ جاءَ بها بالرِّسالةِ والنُّبوَّةِ.

وينكشفُ لهُ في ضوءِ ذلكَ النورِ إثباتُ صفاتِ الكمالِ وتنـزيهُهُ سُبحانَهُ عن النَّقصِ والمثالِ، وأنَّ كلَّ كمالٍ في الوجودِ فمُعْطِيهِ وخالِقُهُ أحقُّ بهِ وأوْلَى، وكلَّ نقصٍ وعيبٍ فهوَ سُبحانَهُ مُنزَّهٌ مُتعَالٍ عنهُ.

وينكشفُ لهُ في ضوءِ هذا النورِ حقائقُ المعادِ واليومِ الآخرِ وما أخبرَ بِهِ الرسولُ عنهُ حتَّى كأنَّهُ يُشاهدُهُ عِياناً، وكأنَّهُ يُخْبِرُ عن اللهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ وأمْرِهِ ونهْيِهِ ووعْدِهِ ووعيدِهِ إخبارَ مَنْ كأنَّهُ قدْ رأى وعاينَ وشاهدَ ما أَخْبَرَ بهِ.

فمَنْ أرادَ سُبحانَهُ هدايتَهُ شرحَ صدرَهُ لهذا فاتَّسَعَ لهُ وانفسحَ، ومَنْ أرادَ ضلالَتَهُ جعلَ صدرَهُ منْ ذلكَ في ضيقٍ وحرجٍ لا يَجِدُ فيهِ مسلكاً ولا مَنْفَذاً، واللهُ المُوَفِّقُ المعينُ).[1]

[فَصْلٌ]

(فَشَتَّانَ بينَ قلبٍ يَبيتُ عندَ ربِّهِ قدْ قَطَعَ في سَفَرِهِ إليهِ بَيدَاءَ الأكوانِ، وخَرَقَ حُجُبَ الطبيعةِ، ولمْ يقِفْ عندَ رسمٍ، ولا سَكَنَ إلى عَلَمٍ، حتَّى دخلَ على ربِّهِ في دارِهِ فشاهدَ عِزَّ سُلطانِهِ، وعَظمةَ جَلالِهِ، وعُلُوَّ شأْنِهِ، وَبَهاءَ كَمالِهِ، وَهُوَ مُسْتَوٍ على عرشِهِ يُدَبِّرُ أمرَ عبادِهِ، وتَصْعَدُ إليهِ شُئونُ العبادِ، وتُعْرَضُ عَليهِ حَوَائجُهم وأعمالُهم، فيأمرُ فيها بما يشاءُ، فينـزلُ الأمرُ منْ عندِهِ نافذاً كما أَمَرَ.

فيشاهدُ **المَلِكَ الحَقَّ** قيُّوماً بنفسِهِ مقيماً لكلِّ ما سِوَاهُ، غنيًّا عنْ كلِّ مَنْ سِوَاهُ، وكلُّ مَنْ سِوَاهُ فقيرٌ إليهِ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩] يغفرُ ذنباً، ويُفَرِّجُ كرباً، ويَفُكُّ عَانِياً، وينْصُرُ ضعيفاً، ويَجْبُرُ كسيراً، ويُغْنِي فقيراً، ويُميتُ ويُحْيِي، ويُسْعِدُ ويُشْقِي، ويُضِلُّ ويهدي، ويُنْعِمُ على قومٍ ويَسْلُبُ نعمتَهُ عنْ آخرينَ، ويُعِزُّ أقواماً ويُذِلُّ آخرينَ، ويرفعُ أقواماً ويضعُ آخرينَ.

ويَشْهَدُهُ كما أَخبرَ عنهُ أعلمُ الخلقِ بهِ وأصدَقُهُم في خبَرِهِ؛ حيثُ يقولُ في الحديثِ الصحيحِ: «**يَمِينُ اللهِ مَلأَى لا يَغِيضُهَا نَفقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ،**

(١) شفاءُ العليلِ (١/ ٢٧٨-٢٨١).

أَرَأَيْتُم مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ الخَلْقَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَى المِيْزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ».(١)

فيُشَاهِدُهُ كذلكَ يُقَسِّمُ الأرزاقَ ويُجْزِلُ العطايا ويمنُّ بفضْلِهِ على مَنْ يشاءُ منْ عبادِهِ بيمينِهِ، وباليدِ الأخرى الميزانُ يخفضُ بِهِ مَنْ يشاءُ ويرفعُ بِهِ مَنْ يشاءُ عَدْلاً منهُ وحكمةً، لا إلهَ إلاَّ هوَ العزيزُ الحكيمُ.

فَيَشْهَدُهُ وحدَهُ القَيُّومَ بأمرِ السَّماوَاتِ والأرضِ ومَنْ فيهنَّ، ليسَ لهُ بَوَّابٌ فَيُستَأْذَنَ، ولا حاجبٌ فيُدْخَلَ عليهِ، ولا وزيرٌ فيُؤْتَى، ولا ظهيرٌ فيُستعانَ بهِ، ولا وَلِيٌّ من دُونِهِ فَيُشْفَعَ بهِ إليهِ، ولا نائبٌ عنهُ فَيُعَرِّفَهُ حوائجَ عبادِهِ، ولا مُعِينٌ لهُ فيُعَاوِنَهُ على قضائِها.

بلْ قدْ أحاطَ سُبحانَهُ بها علماً ووَسِعَها قدرةً ورحمةً، فلا تزيدُهُ كثرةُ الحاجاتِ إلاَّ جُوداً وكرماً، ولا يَشْغَلُهُ منها شأنٌ عنْ شأنٍ، ولا تُغلِطُهُ كثرةُ المسائلِ، ولا يتبرَّمُ بإلحاحِ المُلِحِّينَ.

لو اجتمعَ أوَّلُ خلقِهِ وآخرُهُمْ وإنْسُهُم وجِنُّهُم وقامُوا في صعيدٍ واحدٍ، ثُمَّ سألوهُ فأعطى كلاًّ منهم مسألتَهُ ما نَقصَ ذلكَ ممَّا عندَهُ ذرَّةً واحدةً إلاَّ كما يَنْقُصُ المخيطُ البحرَ إذا غُمِسَ فيهِ.

ولَوْ أنَّ أوَّلَهُم وآخِرَهُم وإنْسَهُم وجِنَّهُم كَانُوا على أتْقَى قلبِ رجلٍ واحدٍ منهم ما زادَ ذلكَ في مُلْكِهِ شيئاً؛ ذلكَ بأنَّهُ الغنيُّ الجوادُ الماجدُ، فعطاؤُهُ منْ كلامٍ، وعذابُهُ منْ كلامٍ ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: ٨٢].

(١) رَواهُ الإمامُ أحمدُ (١٠١٢٢)، والبخاريُّ في كتابِ التوحيدِ/ بابُ ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ (٧٤١١)، ومُسلِمٌ في كِتابِ الزكاةِ / بابُ الحَثِّ على النَّفَقَةِ وتَبْشِيرِ المُنْفِقِ بالخُلْفِ (٢٣٠٦)، والتِّرْمِذِيُّ فِي كِتابِ التفسيرِ/ بابُ وَمِنْ سُورَةِ المَائِدَةِ (٣٠٤٥)، وابنُ مَاجَهْ في المُقَدِّمةِ / بابٌ فِيما أَنْكَرَتِ الجَهْمِيَّةُ (١٩٧) مِن حَديثِ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

ويَشْهَدُهُ كما أخبرَ عنهُ أيضاً الصادقُ المصدوقُ؛ حيثُ يقولُ: «إِنَّ اللهَ لا يَنَامُ وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».(١)

وبالجملةِ فيَشْهَدُهُ في كلامِهِ؛ فقدْ تجلَّى سُبحانَهُ وتعالى لعبادِهِ في كلامِهِ، وتراءَى لهم فيهِ، وتعرَّفَ إليهم فيهِ، فبُعْداً وتبًّا للجاحدينَ والظالمينَ ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣].

فإذا صارتْ صفاتُ رَبِّهِ وأسماؤُهُ مَشهداً لقَلْبِهِ أَنْسَتْهُ ذِكْرَ غيرِهِ، وشَغَلَتْهُ عنْ حُبِّ مَنْ سِوَاهُ، وحديثُ دَوَاعِي قلْبِهِ إلى حُبِّهِ تعالى بكلِّ جزءٍ منْ أجزاءِ قلْبِهِ ورُوحِهِ وجسمِهِ، فحينئذٍ يكونُ الربُّ تعالى سَمْعَهُ الذي يَسمعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الذي يُبصرُ بِهِ، ويدَهُ التي يَبْطِشُ بها، ورجلَهُ التي يمشي بها، فَبِهِ يَسمعُ، وبهِ يُبصرُ، وبهِ يَبطشُ، وبهِ يمشي، كما أخبرَ عنْ نفْسِهِ على لسانِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٢).

ومَنْ غَلُظَ حجابُهُ وكَثُفَ طبعُهُ وصَلُبَ عودُهُ فهوَ عنْ فَهْمِ هذا بمَعْزِلٍ، بلْ لعلَّهُ أنْ يفهمَ منهُ ما لا يليقُ بِهِ تعالى منْ حلولٍ أو اتِّحادٍ، أوْ يفهمَ منهُ غيرَ المرادِ منهُ، فَيُحَرِّفَ معناهُ ولفظَهُ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠]. وقدْ ذكَرْتُ معنى الحديثِ والردَّ علَى مَنْ حرَّفَهُ وغلِطَ فيهِ في كتابِ: "التُّحْفَةِ المكِّيَّةِ".

---

(١) سيأتِي تخريجُهُ قريبًا - إنْ شاءَ اللهُ تعالَى - ص ٨٦.

(٢) يُشيرُ إلى حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ، وقد أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ في كِتابِ الرِّقَاقِ / بابُ التواضُعِ (٦٥٠)، وأَحْمَدُ.

وبالجملةِ فيبقى قلبُ العبدِ - الذي هذا شأنُهُ - عرشاً للمثلِ الأعلى؛ أيْ: عرشاً لمعرفةِ محبوبِهِ ومحبَّتِهِ وعظمتِهِ وجلالِهِ وكبريائِهِ، وناهيكَ بقلبِ هذا شأنُهُ فيَا لَهُ من قلبٍ مِنْ رَبِّهِ ما أدْنَاهُ، ومِنْ قُرْبِهِ ما أحْظَاهُ؛ فهوَ ينـزِّهُ قلْبَهُ أنْ يُسَاكِنَ سواهُ أوْ يَطْمَئِنَّ بغيرِهِ.

فهؤلاءِ قلوبُهم قدْ قَطَعَت الأكوانَ، وسجَدَتْ تحتَ العرشِ، وأبْدَانُهم في فُرشِهِم، كما قالَ أبو الدَّرْدَاءِ: «**إذا نامَ العبدُ المؤمنُ عُرِجَ برُوحِهِ حتَّى تسجُدَ تحتَ العرشِ، فإنْ كانَ طاهراً أُذِنَ لها في السجودِ، وإنْ كانَ جُنُباً لمْ يُؤذَنْ لها بالسجودِ**». وهذا - واللهُ أعلمُ - هوَ السرُّ الذي لأجلِهِ أَمرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الجُنُبَ إذا أرادَ النومَ أنْ يتوضَّأَ.

وهوَ إمَّا واجبٌ على أحدِ القولَيْنِ، أوْ مُؤَكَّدُ الاستحبابِ على القولِ الآخرِ؛ فإنَّ الوضوءَ يُخَفِّفُ حدَثَ الجنَابَةِ، ويجْعَلُهُ طاهراً منْ بعضِ الوجوهِ، ولهذا روى الإمامُ أحمدُ وسعيدُ بنُ منصورٍ وغيرُهما عنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، أنَّهُم إذا كانَ أحدُهُم جُنُباً، ثُمَّ أرادَ أنْ يجلسَ في المسجدِ توَضَّأَ، ثُمَّ جلسَ فيهِ، وهذا مذهبُ الإمامِ أحمدَ وغيرِهِ، معَ أنَّ المساجدَ لا تَحِلُّ لجُنُبٍ، فدلَّ على أنَّ وضوءَهُ رفَعَ حُكْمَ الجنابةِ المطلقةِ الكاملةِ التي تمنعُ الجُنُبَ من الجلوسِ في بيتِ اللهِ، وتمنعُ الروحَ من السجودِ بينَ يدَي اللهِ سُبحانَهُ.

فتَأَمَّلْ هذهِ المسألةَ وفِقْهَها، واعْرِفْ بها مقدارَ فِقْهِ الصحابةِ وعمقَ عُلُومِهم، فهلْ ترى أحداً من المُتَأَخِّرينَ وصلَ إلى مبلغِ هذا الفِقْهِ الذي خصَّ اللهُ بِهِ خيارَ عبادِهِ وهمْ أصحابُ نَبِيِّهِ، وذلكَ فضلُ اللهِ يُؤْتيهِ مَنْ يشاءُ، واللهُ ذُو الفضلِ العظيمِ.

فإذا استيقظَ هذا القلبُ منْ منامِهِ صعِدَ إلى اللهِ بِهَمِّهِ وحُبِّهِ وأشواقِهِ مشتاقاً إليهِ طالباً لهُ محتاجاً لهُ عاكفاً عليهِ، فحالُهُ كحالِ المحبِّ الذي غابَ عنْ محبوبِهِ

الذي لا غِنَى لهُ عنهُ ولا بدَّ منهُ، وضرُورتُهُ إليهِ أعظمُ مِنْ ضَرُورتِهِ إلى النَّفَسِ والطعامِ والشرابِ، فإذا نامَ غابَ عنهُ، فإذا استيقظَ عادَ إلى الحنينِ إليهِ، وإلى الشوقِ الشديدِ والحبِّ المُقْلِقِ، فحبيبُهُ آخِرُ خطَراتِهِ عندَ منامِهِ، وأوَّلُها عندَ استيقاظِهِ كما قالَ بعضُ المُحِبِّينَ لمحبُوبِهِ:

وآخِرُ شيءٍ أنتَ في كلِّ هَجْعَةٍ   وَأَوَّلُ شيءٍ أنتَ عندَ هُبُوبِي

فقدْ أفصحَ هذا المحبُّ عنْ حقيقةِ المحبَّةِ وشروطِها، فإذا كانَ هذا في محبَّةِ مخلوقٍ لمخلوقٍ فما الظنُّ في محبَّةِ المحبوبِ الأعلى، فَأُفٍّ لقلبٍ لا يَصْلُحُ لهذا ولا يُصَدِّقُ بهِ، لقدْ صُرِفَ عنهُ خيرُ الدُّنيا والآخرةِ).[1]

(١) طريقُ الهِجْرَتَيْنِ (٢١٢-٢١٤).
مُلْحَقٌ: وقالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي طَرِيقِ الهِجْرَتَيْنِ (١٤٢): (والربُّ سُبْحَانَهُ قد تجلَّى لِقُلُوبِ المُؤْمِنِينَ العَارِفِينَ وظَهَرَ لَها بقُدْرَتِهِ وجَلالِهِ وكِبريائِهِ، ومُضِيِّ مَشيئَتِهِ وعُلُوِّ شَأْنِهِ وكَرَمِهِ وبرِّهِ وإحسانِهِ وسَعَةِ مَغفِرَتِهِ ورَحْمَتِهِ ومَا أَلْقَاهُ فِي قُلوبِهِمْ مِن الإيمانِ بأَسْمائِهِ وصِفاتِهِ إلى حَيْثُ احْتَمَلَتْهُ القُوَى البشريَّةُ ووَرَاءَ مَا تَحْتَمِلُهُ قُواهُمْ، ولا يَخْطُرُ ببَالٍ ولا يَدْخُلُ فِي خلَدٍ لا نِسبَةَ لِمَا عَرَفُوهُ إِلَيهِ).

* وقالَ - رَحِمَهُ اللهُ تعالَى فِي مَدارِجِ السَّالِكِينَ (٣/ ٢٣٧-٢٣٩): (هذَا. وفَوْقَ ذَلِكَ شَاهِدٌ آخرُ تَضْمَحِلُّ فيه هذه الشواهِدُ، ويَغِيبُ به العَبدُ عَنها كُلِّهَا. وهو شاهِدُ جَلالِ الرَّبِّ تَعالَى، وجمالِهِ وكَمالِهِ، وعِزِّهِ وسُلطانِهِ، وقَيُّومِيَّتِهِ وعُلُوِّهِ فَوْقَ عَرْشِهِ، وتَكَلُّمِهِ بكُتُبِهِ وكَلِمَاتِ تكوينِهِ، وخِطابِهِ لِمَلائِكَتِهِ وأَنْبِيائِهِ.

فإذا شَاهَدَهُ شَاهِدٌ بقَلْبِهِ قَيُّومًا قاهِرًا فَوْقَ عِبادِهِ، مُسْتَوِيًا عَلَى عَرْشِهِ، مُنْفَرِدًا بتَدْبِيرِ مَمْلَكَتِهِ، آمِرًا نَاهِيًا، مُرْسِلاً رُسُلَهُ، ومُنَزِّلاً كُتُبَهُ، يَرْضَى ويَغْضَبُ، ويُثِيبُ ويُعاقِبُ، ويُعْطِي ويَمْنَعُ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويُحِبُّ ويُبْغِضُ، ويَرْحَمُ إذا استُرْحِمَ ويَغْفِرُ إذا استُغْفِرَ، ويُعطِي إذا سُئِلَ، ويُجِيبُ إذا دُعِيَ، ويُقِيلُ إذا استُقِيلَ، أَكْبَرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وأَعْظَمَ مِن كُلِّ شيءٍ، وأَعَزَّ مِن كُلِّ شيءٍ، وأَقْدَرَ مِن كُلِّ شَيءٍ، وأَعْلَمَ مِن كُلِّ شيءٍ، وأَحْكَمَ مِن كُلِّ شَيْءٍ.

فلو كَانَتْ قُوَى الخَلائِقِ كُلِّهِمْ عَلَى وَاحِدٍ مِنهُم، ثُمَّ كَانُوا كُلُّهُم على تِلكَ القُوَّةِ، ثُمَّ نُسِبَتْ تِلْكَ القُوَى إلى (قُوَّتِهِ لَكَانَتْ دُونَ) قُوَّةِ البَعُوضَةِ بالنسبةِ إلى قُوَّةِ الأَسَدِ.

ولو قُدِّرَ جَمالُ الخَلْقِ كُلِّهِم على واحدٍ منهم، ثم كَانُوا كُلُّهُم بذلكَ الجمالِ، ثم نُسِبَ إلى جَمالِ الربِّ تعالَى لَكَانَ دُونَ سِراجٍ ضَعِيفٍ بالنسبةِ إلى عَيْنِ الشَّمْسِ.

ولو كَانَ عِلمُ الأَوَّلِينَ والآخِرينَ عَلَى رَجُلٍ مِنهُم، ثُمَّ كَانَ كُلُّ الخَلْقِ عَلَى تِلكَ الصِّفَةِ، ثم نُسِبَ إلى عِلْمِ الرَّبِّ تَعالَى لَكَانَ ذَلِكَ بِالنسبةِ إِلَى عِلمِ الرَّبِّ كَنَقْرَةِ عَصْفُورٍ في بَحْرٍ.

وهكذا سَائِرُ صِفاتِهِ، كسَمْعِه وبَصَرِه، وسَائِرِ نُعوتِ كَمالِهِ، فَإِنَّهُ يَسْمَعُ ضَجِيجَ الأَصْوَاتِ باخْتِلافِ اللُّغاتِ، على تَفَنُّنِ الحاجَاتِ، فَلا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ، ولا تُغَلِّطُهُ المَسَائِلُ، ولا يَتَبَرَّمُ بِإلحاحِ المُلِحِّينَ.

* سواءٌ عِنْدَهُ مَنْ أَسَرَّ القَوْلَ ومَنْ جَهَرَ بِهِ، فالسِّرُّ عِنْدَهُ علانيةٌ، والغَيْبُ عِنْدَهُ شَهادَةٌ، يَرَى دَبِيبَ النَّمْلَةِ السَّوْداءِ، عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ، في اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ. ويَرَى نِيَاطَ عُرُوقِها، ومَجَارِيَ القُوتِ فِي أَعْضَائِهَا.

يَضَعُ السَّماواتِ عَلَى إِصْبَعٍ مِن أَصابِعِ يَدِهِ، والأَرْضَ على إِصْبَعٍ، وَالجِبَالَ عَلى إِصْبَعٍ، والشَّجَرَ عَلى إِصْبَعٍ، والماءَ عَلَى إِصْبَعٍ، ويَقْبِضُ سَماوَاتِهِ بِإِحْدَى يَدَيْهِ، والأَرَضِينَ بِاليَدِ الأُخْرَى، فَالسَّماواتُ السَّبْعُ فِي كَفِّهِ كخَرْدَلَةٍ فِي كَفِّ العَبْدِ، ولَوْ أَنَّ الخَلْقَ كُلَّهُمْ مِن أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ قَامُوا صَفًّا وَاحِدًا مَا أَحَاطُوا بِاللهِ عَزَّ وجَلَّ، لَوْ كُشِفَ الحِجَابُ عَنْ وَجْهِهِ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُهُ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِن خَلْقِهِ.

فإِذَا قَامَ بِقَلْبِ العَبْدِ هَذا الشَّاهِدُ: اضْمَحَلَّتْ فِيهِ الشَّواهِدُ المُتَقَدِّمَةُ، مِن غَيْرِ أَنْ تُعْدَمَ، بَلْ تَصِيرُ الغَلَبَةُ والقَهْرُ لِهَذا الشَّاهِدِ، وتَنْدَرِجُ فِيهِ الشَّواهِدُ كُلُّهَا، ومِنْ هَذا شَاهِدُهُ: فَلَهُ سُلوكٌ وسَيْرٌ خاصٌّ. لَيْس لِغَيْرِهِ مِمَّنْ هو عَن هذا في غَفْلَةٍ، أو مَعْرِفَةٍ مُجْمَلَةٍ.

فَصَاحِبُ هَذا الشاهِدِ: سَائِرٌ إِلَى اللهِ فِي يَقْظَتِهِ ومَنامِهِ، وحَرَكَتِهِ وسُكونِهِ وفِطْرِهِ وصِيامِهِ، له شأنٌ وللناسِ شَأْنٌ. هو في وادٍ والناسُ في وادٍ.

خَلِيلَيَّ لاَ وَاللهِ مَا أَنَا مِنْكُمَا ... إِذَا عَلَمٌ مِنْ آلِ لَيْلَى بَدَا لِيَا

والمقصودُ: أَنَّ العِيانَ والكَشْفَ والمُشاهَدَةَ فِي هذهِ الدارِ: إِنَّما تَقَعُ عَلَى الشواهِدِ، والأمثلةِ العِلْمِيَّةِ، وهو المَثَلُ الأَعْلَى الذي ذَكَرَهُ سُبحانَهُ في ثَلاثَةِ مَواضِعَ مِن كِتابِهِ: فِي سُورَةِ النَّحْلِ. وسُورَةِ الرُّومِ، وسُورةِ الشُّورَى، وهو ما يَقُومُ بقُلوبِ عَابِدِيهِ ومُحِبِّيهِ، والمُنِيبينَ إِلَيْهِ مِن هَذا الشاهِدِ. وهو الباعثُ لَهُمْ عَلَى العِبادَةِ والمَحَبَّةِ والخَشْيَةِ والإِنابَةِ، وتَفَاوُتُهُمْ فِيهِ لا يَنْحَصِرُ طَرَفَاهُ، فكُلٌّ مِنهُم له مَقامٌ مَعْلُومٌ لا يَتعدَّاهُ، وأَعْظَمُ الناسِ حَظًّا فِي ذلكَ مُعْتَرِفٌ بأَنَّهُ لا يُحْصِي ثَناءً عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وأنه فَوْقَ ما يُثْنِي عليْهِ المُثْنُونَ، وفَوْقَ مَا يَحْمَدُهُ الحَامِدُونَ، كما قِيلَ:

وَمَا بَلَغَ المُهْدُونَ نَحْوَكَ مَدْحَةً ... وَإِنْ أَطْنَبُوا إِنَّ الَّذِي فِيكَ أَعْظَمُ
لَكَ الحَمْدُ كُلُّ الحَمْدِ لاَ مَبْدَا لَهُ ... وَلاَ مُنْتَهًى، وَاللهُ بِالحَمْدِ أَعْلَمُ

وطَهَارَةُ القلبِ، ونَزاهَتُهُ مِن الأوصافِ المَذمومةِ، والإراداتِ السُّفْلِيَّةِ، وخُلُوُّه وتَفْرِيغُهُ مِنَ التَّعلُّقِ بِغَيْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ:

وهُو كُرْسِيُّ هَذا الشاهِدِ، الذي يَجْلِسُ عليهِ، ومِقْعَدُهُ الذي يَتَمَكَّنُ فيه، فحَرامٌ على قَلْبٍ مُتَلَوِّثٍ بالخَبائِثِ والأَخْلاقِ الرَّدِيئَةِ والصفاتِ الذَّمِيمَةِ، مُتَعَلِّقٍ بالمُراداتِ السَّافِلَةِ: أن يَقُومَ بِهِ هذا الشاهِدُ، وأن يَكُونَ مِن أَهْلِهِ:

[فَصْلٌ]

إذا طَلَعَتْ شمسُ التوحيدِ وباشَرَتْ جوَانِبَها الأرواحُ، ونورَها البصائرُ، تَجلَّتْ بها ظلماتُ النَّفْسِ والطبعِ، وتحرَّكَتْ بها الأرواحُ في طَلَبِ مَنْ ليسَ كمثْلِهِ شيءٌ وهوَ السميعُ البصيرُ، فسافرَ القلبُ في بَيْدَاءِ الأمرِ، ونـزلَ منازلَ العبودِيَّةِ منـزلاً منـزلاً، فهوَ ينتقلُ منْ عبادةٍ إلى عبادةٍ، مُقيمٌ على معبودٍ واحدٍ، فلا تزالُ شواهدُ الصِّفَاتِ قائمةً بقَلْبِهِ، تُوقِظُهُ إذا رَقَدَ، وتُذَكِّرُهُ إذا غفَلَ، وتحْدُو بِهِ إذا سارَ، وتُقِيمُهُ إذا قعدَ.

إنْ قامَ بقَلْبِهِ شاهدُ من الرُّبُوبِيَّةِ والقَيُّومِيَّةِ رأى أنَّ الأمرَ كُلَّهُ للهِ، ليسَ لأحدٍ معهُ من الأمرِ شيءٌ ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر: ٢-٣]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]، ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

(نَـزِّهْ فُـؤَادَكَ عَـنْ سِـوَانَـا وَائْـتِـنَـا ... فَـجَـنَـابُـنَـا حِـلٌّ لِـكُـلِّ مُـنَـزِّهِ
وَالـصَّـبْرُ طِـلَّـسْـمٌ لِـكَـنْـزِ لِـقَـائِـنَـا ... مَـنْ حَـلَّ ذَا الـطِـلَّـسْـمَ فَـازَ بِـكَـنْـزِهِ)

إنْ قامَ بقَلْبِهِ شاهدٌ من الإلهيَّةِ: رأى في ذلكَ الشاهدِ الأمرَ والنهيَ، والنُّبُوَّاتِ والكتبَ والشرائعَ، والمحبَّةَ والرِّضى، والكراهةَ والبغضَ، والثوابَ والعقابَ، وشاهدَ الأمرَ نازلاً ممَّنْ هوَ مُسْتَوٍ على عرْشِهِ، وأعمالُ العبادِ صاعدةٌ إليهِ، ومعروضةٌ عليهِ، يجزي بالإحسانِ منها في هذهِ الدارِ، وفي العُقْبَى نَضْرَةً وسروراً، وَيَقْدُمُ إلى ما لمْ يكُنْ عنْ أمْرِهِ وشَرْعِهِ منها فَيَجْعَلُهُ هباءً منثوراً.

وإنْ قامَ بقلْبِهِ شاهدٌ من الرحمةِ رأى الوجودَ كلَّهُ قائماً بهذهِ الصفةِ، قدْ وَسِعَ مَنْ هيَ صفتُهُ كلَّ شيءٍ رحمة وعلماً، وانتهتْ رحمَتُهُ إلى حيثُ انتهى علْمُهُ، فاستوى على عرْشِهِ برحمَتِهِ لِتَسَعَ كلَّ شيءٍ، كما وَسِعَ عرشُهُ كلَّ شيءٍ.

وإنْ قامَ بقلْبِهِ شاهدُ العِزَّةِ والكبرياءِ والعظمةِ والجبروتِ فلهُ شأنٌ آخَرُ.

وهكذا جميعُ شواهدِ الصِّفَاتِ، فما ذكَرْنَاهُ إنَّما هوَ أدنى تنبيهٍ عليها).[1]

(١) مَدارِجُ السالكينَ (٣/ ٢٣٩-٢٤٠).

الباب الثالث: في بيانِ أنَّ التَّفكُّرَ في آياتِ اللّهِ عَزَّ وجَلَّ طَريقٌ إلى معرفةِ اللّهِ بأسمائِه وصفاتِه

(الرَّبُّ تعالى يدعو عبادَهُ في القرآنِ إلى معرفتِهِ منْ طريقَيْنِ:

- أحدُهما: النَّظَرُ في مفعُولاتِهِ.
- الثاني: التفكُّرُ في آياتِهِ وتدَبُّرُها.

فتلكَ آياتُهُ المشهودةُ، وهذهِ آياتُهُ المسموعةُ المعقولةُ.

فالنوعُ الأوَّلُ: كقوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤] إلى آخرِها. وقولِهِ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وهوَ كثيرٌ في القرآنِ.

والثاني: كقوْلِهِ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢].

وقولِهِ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

وقولِهِ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩].

وهوَ كثيرٌ أيضاً.

فأمَّا المفعولاتُ فإنَّها دالَّةٌ على الأفعالِ، والأفعالُ دالَّةٌ على الصِّفَاتِ؛ فإنَّ المفعولَ يدُلُّ على فاعلٍ فعَلَهُ، وذلكَ يسْتَلْزِمُ وُجودَهُ وقُدْرتَهُ ومشيئتَهُ وعلمَهُ

لاستحالةِ صُدُورِ الفعلِ الاختياريِّ منْ معدومٍ، أوْ موجودٍ لا قُدْرَةَ لهُ ولا حياةَ ولا عِلْمَ ولا إرادةَ.

ثُمَّ ما في المفعولاتِ من التخصيصاتِ المتنوِّعةِ دالٌّ على إرادةِ الفاعلِ، وأنَّ فعلَهُ ليسَ بالطبعِ بحيثُ يكونُ واحداً غيرَ مُتكرِّرٍ.

وما فيها من المصالحِ والحِكَمِ والغاياتِ المحمودةِ دالٌّ على حِكْمَتِهِ تعالى.

وما فيها من النَّفْعِ والإحسانِ والخيرِ دالٌّ على رحمتِهِ.

وما فيها من البطشِ والانتقامِ والعقوبةِ دالٌّ على غضَبِهِ.

وما فيها من الإكرامِ والتقريبِ والعنايَةِ دالٌّ على محبَّتِهِ.

وما فيها من الإهانةِ والإبعادِ والخِذلانِ دَالٌّ على بُغْضِهِ ومَقْتِهِ.

وما فيها من ابتداءِ الشيءِ في غايَةِ النَّقصِ والضعفِ ثُمَّ سَوْقِهِ إلى تمامِهِ ونهايَتِهِ دالٌّ على وقوعِ المعادِ.

وما فيها منْ أحوالِ النباتِ والحيوانِ وتَصرُّفِ المياهِ دالٌّ على إمكانِ المعادِ.

وما فيها منْ ظهورِ آثارِ الرحمةِ والنعمةِ على خلقِهِ دليلٌ على صِحَّةِ النُّبُوَّاتِ.

وما فيها من الكمالاتِ التي لوْ عَدِمَتْها كانتْ ناقصةً دليلٌ على أنَّ مُعْطِيَ تلكَ الكمالاتِ أحقُّ بها). [1]

---

(١) الفوائِدُ (٤٠-٤١).

وقالَ -رَحِمَهُ اللهُ- في مَدارِجِ السَّالِكينَ (٣/ ٣٣١): (هذا هو الطريقُ الثاني مِن طُرُقِ إثباتِ الصفاتِ، وهو دَلالَةُ الصَّنْعَةِ عَلَيْهَا، فإنَّ المَخْلُوقَ يَدُلُّ على وُجودِ خَالِقِهِ، وعلى حَيَاتِهِ وعلى قُدْرَتِهِ، وعلَى عِلْمِهِ ومَشِيئَتِهِ، فَإِنَّ الفِعْلَ الاختيارِيَّ يَسْتَلْزِمُ ذلك استلزامًا ضروريًّا، وما فيهِ مِنَ الإتقانِ والإحكام ووُقُوعُهُ على أَكْمَلِ الوُجوهِ: يَدُلُّ على حِكمَةِ فَاعِلِهِ وعِنايَتِهِ، وما فيه من الإحسانِ والنَّفْعِ، ووُصُولُ المَنافِعِ العَظيمَةِ إلى المخلوقِ: يَدُلُّ على رَحْمَةِ خَالِقِهِ، وإحسانِهِ وجُودِهِ، وما فيه مِن آثارِ الكَمالِ: يَدُلُّ على أَنَّ خَالِقَهُ أَكْمَلُ مِنْهُ، فمُعْطِي الكَمالِ أَحَقُّ بالكَمالِ، وخَالِقُ الأسماعِ والأَبْصَارِ والنُّطْقِ: أَحَقُّ بأَنْ يَكُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا مُتكلِّمًا، وخالقُ الحياةِ والعلومِ، والقَدَرِ والإراداتِ: أَحَقُّ بِأَنْ يَكُونَ هو كذلك في

[وبالجملَةِ] (فيظهرُ شَاهِدُ اسمِ **الخالقِ** منْ نفْسِ المخلوقِ، وشاهدُ اسمِ **الرازقِ** منْ وجودِ الرِّزقِ والمرزوقِ، وشاهدُ اسمِ **الرحيمِ** منْ شهودِ الرحمةِ المبثوثةِ في العالمِ، واسمِ **المُعْطِي** منْ وجودِ العطاءِ الذي هوَ مِدْرَارٌ لا ينقطعُ لحظةً واحدةً، واسمِ **الحليمِ** منْ حِلْمِهِ عن الجُناةِ العصاةِ وعدمِ مُعاجلَتِهِم، واسمِ **الغفورِ** و**التَّوَّابِ** منْ مغفرةِ الذنوبِ وقبولِ التوبةِ، ويظهرُ شاهدُ اسمِهِ **الحكيمِ** من العلمِ بما في خلْقِهِ وأمرِهِ من الحِكَمِ والمصالحِ ووجوهِ المنافعِ. وهكذا كلُّ اسمٍ منْ أسمائِهِ لهُ شاهدٌ في خلْقِهِ وأمْرِهِ، يَعْرِفُهُ مَنْ عَرَفَهُ، ويجهلُهُ مَنْ جهلَهُ، فالخلْقُ والأمرُ منْ أعظمِ شواهدِ أسمائِهِ وصفاتِهِ.

وكلُّ سليمِ العقلِ والفطرةِ يعرفُ قدرَ الصانعِ وحِذْقَهُ وتبريزَهُ على غيرِهِ، وتفرُّدَهُ بكمالٍ لمْ يُشَارِكْهُ فيهِ غيرُهُ منْ مُشَاهدةِ صَنْعَتِهِ، فكيفَ لا تُعْرَفُ صفاتُ مَنْ هذا العالمُ العُلْوِيُّ والسفليُّ وهذهِ المخلوقاتُ منْ بعضِ صُنعِهِ؟!

نَفْسِهِ، فما في المخلوقاتِ مِن أنواعِ التخصيصاتِ: هو مِن أَدَلِّ شَيْءٍ على إرادةِ الربِّ سُبْحَانَهُ، وَمَشِيئَتِهِ وحِكْمَتِهِ، التي اقْتَضَتِ التخصيصَ.

وحصولُ الإجابةِ عَقِيبَ سُؤالِ الطالبِ، على الوجه المطلوب، دليلٌ على عِلمِ الربِّ تَعالَى بالجُزئياتِ، وعلى سَمْعِه لسؤالِ عَبيدِهِ، وعلى قُدرَتِهِ على قَضاءِ حَوائِجِهِمْ، وعلَى رَأْفَتِهِ ورَحْمَتِهِ بِهِمْ.

والإحسانُ إلى المُطِيعينَ، والتقرُّبُ إِلَيْهِمْ والإكرامُ، وإعلاءُ دَرَجاتِهِمْ: يَدُلُّ عَلَى محبَّتِهِ ورِضاهُ. وعُقوبَتُهُ للعُصاةِ والظَّلَمَةِ، وأعداءِ رُسُلِهِ بأَنواعِ العُقوباتِ المَشْهُودَةِ: تَدُلُّ عَلَى صِفَةِ (الغَضَبِ والسُّخْطِ).

والإبعادُ والطَّرْدُ والإقصاءُ: يَدُلُّ عَلَى المَقْتِ والبُغْضِ.

فهذه الدَّلالاتُ مِن جِنسٍ وَاحِدٍ عندَ التأمُّلِ: ولهذا دَعا سُبحانَهُ في كِتابِهِ عِبادَهُ إلى الاستدلالِ بذلكَ على صِفاتِهِ. فهو يُثْبِتُ العِلْمَ برُبُوبِيَّتِهِ ووَحدانِيَّتِهِ، وصِفاتِ كَمالِهِ بآثارِ صِفَتِهِ المَشْهودَةِ، والقُرآنُ مَمْلُوءٌ بذلكَ).

وقالَ بَعْدَ ذَلِكَ: (يَعْبُرُ نَظَرُهُ مِنَ الأثَرِ إِلَى المُؤَثِّرِ، ومِنَ الصَّنْعَةِ إلى الصَّانِعِ، ومِنَ الدَّلِيلِ إلى المدلولِ. فيَنْتَقِلُ إليه بسُرعَةِ لُطفِ إدْراكٍ، فيَنْتَقِلُ ذِهْنُهُ مِنَ المَلْزُومِ إلى لازِمِه. قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢] و(الاعتبارُ) افتعالٌ مِنَ العُبورِ. وهو عُبورُ القَلْبِ مِنَ المَلْزُومِ إلى لازِمِهِ، ومِنَ النَّظِيرِ إلى نَظيرِهِ) مَدارِجُ السَّالِكِينَ (٣/ ٣٣٣).

وإذا اعتبَرْتَ المخلوقاتِ والمأموراتِ وجَدْتَها بأَسْرِها كلَّها دالَّةً على النُّعوتِ والصِّفَاتِ وحقائقِ الأسماءِ الحسنى، وعَلِمْتَ أنَّ المُعَطِّلَةَ منْ أعظمِ الناسِ عَمًى بمُكَابَرَةٍ.

فلا يتأمَّلُ العاقلُ المستبصِرُ مخلوقاً حقَّ تأمُّلِهِ إلاَّ وجدَهُ دالاًّ على فاطِرِهِ وبارِئِهِ، وعلى وَحدانيَّتِهِ، وعلى كمالِ صفاتِهِ وأسمائِهِ، وعلى صِدْقِ رُسُلِهِ، وعلى أنَّ لقاءَهُ حقٌّ لا ريبَ فيهِ.

وهذهِ طريقةُ القرآنِ في إرشادِهِ الخلقَ إلى الاستدلالِ بأصنافِ المخلوقاتِ وأحوالِها على إثباتِ الصانعِ، وعلى التوحيدِ والمعادِ والنُّبُوَّاتِ، فمرَّةً يُخْبِرُ أنَّهُ لمْ يَخْلُقْ خلْقَهُ باطلاً ولا عبثاً، ومرَّةً يُخْبِرُ أنَّهُ خلَقَهُم بالحقِّ، ومرَّةً يُخْبِرُهُم ويُنَبِّهُهم على وُجُوهِ الاعتبارِ والاستدلالِ بها على صِدْقِ ما أَخْبَرَتْ بِهِ رسُلُهُ؛ حتَّى يُبيِّنَ لهمْ أنَّ الرُّسُلَ إنَّما جاؤُوهُم بما يشاهدونَ أدِلَّةَ صدْقِهِ، وبما لوْ تأمَّلُوهُ لرأَوْهُ مَرْكُوزاً في فِطَرِهم، مُستَقِرًّا في عقولِهم، وأنَّ ما يُشَاهِدُونَهُ منْ مخلوقاتِهِ شاهد بما أَخْبَرَتْ بِهِ رُسُلُهُ عنهُ منْ أسمائِهِ وصفاتِهِ وتوحيدِهِ ولقائِهِ ووجودِ ملائكتِهِ.

وهذا بابٌ عظيمٌ منْ أبوابِ الإيمانِ، إنَّما يفْتَحُهُ اللهُ على مَنْ سَبقَتْ لهُ منهُ سابقةُ السعادةِ، وهذا أشرفُ عِلْمٍ ينالُهُ العبدُ في هذهِ الدارِ، وقدْ بَيَّنْتُ في موضعٍ آخرَ أنَّ كُلَّ حركةٍ تُشَاهَدُ على اختلافِ أنواعِها فهيَ دالَّةٌ على التوحيدِ والنُّبُوَّاتِ والمعادِ بطريقٍ سهلةٍ واضحةٍ بُرْهَانِيَّةٍ)[(١)].

(ويكْفِي ظهورُ شاهدِ الصُّنعِ فيكَ خاصَّةً، كما قالَ تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١]، فالموجوداتُ بأسْرِها شواهدُ صفاتِ الرَّبِّ جلَّ جلالُهُ ونُعُوتِهِ وأسمائِهِ، فهيَ كلُّها تشيرُ إلى الأسماءِ الحسنى وحقائقِها، وتُنادي عليها، وتدُلُّ عليها، وتُخبرُ بها بلسانِ النطقِ والحالِ، كما قيلَ:

---

(١) بدائِعُ الفَوائِدِ (٤/ ١٦٢-١٦٣).

تأمَّلْ سُطُورَ الكائناتِ فإنَّها ... من الملإِ الأعلى إليكَ رسائلُ
وقدْ خُطَّ فيها لوْ تأمَّلْتَ خطَّها ... ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ
تشيرُ بإثباتِ الصِّفاتِ لربِّها ... فصَامِتُها يَهدِي ومَنْ هُوَ قائلُ

فلَسْتَ ترى شيئاً أدلَّ على شيءٍ منْ دلالةِ المخلوقاتِ على صفاتِ خالقِها، ونعوتِ كمالِهِ، وحقائقِ أسمائِهِ، وقدْ تنوَّعَتْ أدِلَّتُها بحسَبِ تنوُّعِها، فهيَ تدُلُّ عقلاً وحسًّا، وفطرةً ونَظَراً واعتباراً). [(١)]

(فمفعولاتُهُ منْ أدَلِّ شيءٍ على صفاتِهِ وصِدْقِ ما أخْبَرَتْ بِهِ رسلُهُ عنهُ؛ فالمصنوعاتُ شاهدةٌ تُصَدِّقُ الآياتِ المسموعاتِ، مُنَبِّهَةٌ على الاستدلالِ بالآياتِ المصنوعاتِ، قالَ تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٣]؛ أيْ: أنَّ القرآنَ حَقٌّ، فأخبرَ أنَّهُ لا بُدَّ أنْ يُرِيَهُمْ منْ آياتِهِ المشهودةِ ما يُبَيِّنُ لهمْ أنَّ آياتِهِ المَتْلُوَّةَ حقٌّ، ثُمَّ أخبرَ بكفايةِ شهادَتِهِ[(٢)] على صِحَّةِ خبرِهِ بما أقامَ من الدلائلِ والبراهينِ على صِدْقِ رَسُولِهِ، فآيَاتُهُ شاهدةٌ بِصِدْقِهِ، وهوَ شاهدٌ بصدقِ رسُولِهِ بآياتِهِ، فهوَ الشاهدُ والمشهودُ لهُ، وهوَ الدليلُ والمدلولُ عليهِ، فهوَ الدليلُ بنفْسِهِ على نفْسِهِ كما قالَ بعضُ العارفِينَ: كيفَ أطْلُبُ الدليلَ على مَنْ هُوَ دليلٌ لي على كلِّ شيءٍ؟ فأيُّ دليلٍ طَلَبْتَهُ عليهِ فوجودُهُ أظهرُ منهُ، ولهذا قالَ الرُّسُلُ لِقَوْمِهِمْ: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]؛ فهوَ أعْرَفُ منْ كلِّ معروفٍ، وأبْيَنُ منْ كلِّ دليلٍ، فالأشياءُ عُرِفَتْ بِهِ في الحقيقةِ، وإنْ كانَ عُرِفَ بها في النظرِ والاستدلالِ بأفعالِهِ وأحكامِهِ عليْهِ). [(٣)]

(١) مدارجُ السَّالِكِينَ (٣/ ٣٣١-٣٣٢).

(٢) يُشِيرُ إِلَى قَوْلِ اللهِ تعالَى فِي تَتِمَّةِ الآيةِ السَّابِقَةِ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [فصلت: ٥٣].

(٣) الفوائدُ (٤٢).

[فَصْلٌ: (فِي بيانِ الطريقِ الثاني)]

[وَ]القرآنُ كلامُ اللهِ، وقدْ تجلَّى اللهُ فيهِ لعبَادِهِ بصفاتِهِ:

• فتارَةً يتجلَّى في جِلْبابِ الهَيْبَةِ والعظمةِ والجلالِ، فتخضعُ الأعناقُ، وتنْكَسِرُ النفوسُ، وتخشعُ الأصواتُ، ويذُوبُ الكِبْرُ كما يذوبُ المِلحُ في الماءِ.

• وتارةً يتجلَّى في صفاتِ الجمالِ والكمالِ، وهوَ كمالُ الأسماءِ وجمالُ الصِّفَاتِ وجمالُ الأفعالِ الدَّالُّ على كمالِ الذَّاتِ؛ فيستفيدُ حُبُّهُ منْ قلبِ العبدِ قُوَّةَ الحبِّ كُلَّها، بحَسَبِ ما عَرَفَهُ منْ صفاتِ جمالِهِ ونعوتِ كمالِهِ؛ فيُصْبِحُ فُؤَادُ عبْدِهِ فارغاً إلاَّ مِنْ مَحَبَّتِهِ، فإذا أرادَ منهُ الغيرُ أنْ يُعلِّقَ تلكَ المحَبَّةَ بِهِ أَبَى قلبُهُ وأحشاؤُهُ ذلكَ كلَّ الإباءِ، كما قيلَ:

يُـــرَادُ مِـن الـقَـلْـبِ نِسْيَانُكُمْ ... وتَـأْبَـى الـطِّـبَـاعُ عَـلَى النَّاقِلِ

فتبقى المحبَّةُ لهُ طبعاً لا تكَلُّفاً.

• وإذا تجلَّى بصفاتِ الرحمةِ والبرِّ واللطفِ والإحسانِ، انبعَثَتْ قُوَّةُ الرجاءِ من العبدِ، وانْبَسَطَ أملُهُ، وقَوِيَ طَمَعُهُ، وسارَ إلى رَبِّهِ، وحادِي الرجاءِ يحدُو رِكابَ سَيْرِهِ، وكُلَّما قَوِيَ الرجاءُ جدَّ في العملِ، كما أنَّ الباذِرَ كلَّما قَوِيَ طَمَعُهُ في المُغِلِّ غَلَّقَ أَرْضَهُ بالبَذْرِ، وإذا ضَعُفَ رجاؤُهُ قصَّر في البَذْرِ.

• وإذا تجلَّى بصفاتِ العَدْلِ والانتقامِ والغضبِ والسَّخَطِ والعقوبةِ انقمعت النفسُ الأمَّارةُ، وبطَلَتْ أوْ ضَعُفَتْ قُواها من الشهوةِ، والغضبِ، واللَّهْوِ، واللَّعِبِ، والحرصِ على المحرماتِ، وانْقَبَضَتْ أعِنَّةُ رُعُونَاتِها؛ فأحْضَرَت المطيَّةُ حَظَّها من الخوفِ والخشيَةِ والحذرِ.

• وإذا تجلَّى بصفاتِ الأمرِ والنهيِ والعَهْدِ والوَصِيَّةِ وإرسالِ الرُّسُلِ وإنـزالِ الكُتُبِ وشرعِ الشرائعِ؛ انْبَعَثَتْ منها قُوَّةُ الامتثالِ والتنفيذِ لأوَامِرِهِ، والتبليغِ

لها، والتوَاصِي بها، وذكرِها، وتذكُّرِها، والتصديقِ بالخبرِ، والامتثالِ للطلبِ، والاجتنابِ للنهيِ.

• وإذا تجلَّى بصفاتِ السمعِ والبصرِ والعلمِ انبعَثَتْ من العبدِ قُوَّةُ الحياءِ؛ فيستحي منْ ربِّهِ أنْ يراهُ على ما يكرهُ، أوْ يسمعَ منهُ ما يكرهُ، أوْ يُخْفِيَ في سريرتِهِ ما يَمْقُتُهُ عليهِ؛ فتبقى حركاتُهُ وأقوالُهُ وخواطرُهُ موزونةً بميزانِ الشرعِ، غيرَ مُهْمَلةٍ ولا مُرْسَلةٍ تحتَ حُكمِ الطبيعةِ والهَوَى.

• وإذا تجلَّى بصفاتِ الكفايَةِ والحسْبِ، والقيامِ بمصالحِ العبادِ، وسَوْقِ أرزاقِهِم إليهِمْ، ودفعِ المصائبِ عنهم، ونصرِهِ لأوليائِهِ، وحمايتِهِ لهم، ومعيَّتِهِ الخاصَّةِ لهم؛ انبعثتْ من العبدِ قُوَّةُ التوكُّلِ عليهِ، والتفويضِ إليهِ، والرضا بهِ وبكلِّ ما يُجريهِ على عبدِهِ ويُقيمُهُ فيهِ ممَّا يَرْضَى بهِ هوَ سُبحانَهُ، والتوكُّلُ معنًى يلْتَئِمُ منْ علمِ العبدِ بكفايَةِ اللهِ وحسنِ اختيارِهِ لعبدِهِ، وثقَتِهِ بهِ، ورضاهُ بما يفعلُهُ بهِ ويختارُهُ لهُ.

• (([و] «**التوكُّلُ**» منْ أعمِّ المقاماتِ تَعلُّقاً بالأسماءِ الحسنى؛ فإنَّ لهُ تَعلُّقاً خاصًّا بعامَّةِ أسماءِ الأفعالِ وأسماءِ الصِّفَاتِ: فلَهُ تَعلُّقٌ باسمِ «**الغفَّارِ، والتوَّابِ، والعَفُوِّ، والرؤُوفِ، والرحيمِ**»، وتَعلُّقٌ باسمِ «**الفتَّاحِ، والوهَّابِ، والرزَّاقِ، والمُعْطِي، والمُحْسِنِ**»، وتَعلُّقٌ باسمِ «**المُعِزِّ، المُذِلِّ، الحافِظِ، الرافِعِ، المانِعِ**» منْ جهةِ توكُّلِهِ عليهِ في إذلالِ أعداءِ دينِهِ، وخفْضِهِم ومنْعِهِم أسبابَ النصرِ، وتَعلُّقٌ بأسماءِ «**القدرةِ، والإرادةِ**»، ولهُ تَعلُّقٌ عامٌّ بجميعِ الأسماءِ الحسنى؛ ولهذا فسَّرَهُ مَنْ فسَّرَهُ من الأئمَّةِ بأنَّهُ المعرفةُ باللهِ، وإنَّما أرادَ أنَّهُ بحَسَبِ معرفةِ العبدِ يَصِحُّ لهُ مقامُ التوكُّلِ، وكُلَّما كانَ باللهِ أعرفَ كانَ تَوكُّلهُ عليهِ أقْوَى)).(1)

---

(1) مَدارِجُ السالكينَ (١٢٤-١٢٥).

• وإذا تجلَّى بصفاتِ العزِّ والكبرياءِ أعطتْ نفسُهُ المطمئنَّةُ ما وصلَتْ إليهِ من الذُّلِّ لعظمتِهِ، والانكسارِ لعزَّتِهِ، والخضوعِ لكبريائِهِ، وخشوعِ القلبِ والجوارحِ لهُ؛ فتَعْلُوهُ السكينةُ والوَقَارُ في قلْبِهِ ولسانِهِ وجوارِحِهِ وسمْعِهِ، ويذهبُ طَيْشُهُ وقُوَّتُهُ وحِدَّتُهُ.

وجِماعُ ذلكَ: أنَّهُ سُبحانَهُ يتعرَّفُ إلى العبدِ بصفاتِ إلهيَّتِهِ تارةً، وبصفاتِ رُبوبيَّتِهِ تارةً؛ فيُوجِبُ لهُ شهودُ صفاتِ الإلهيَّةِ المحبَّةَ الخاصَّةَ، والشوقَ إلى لقائِهِ، والأُنْسَ والفرحَ بهِ، والسرورَ بخِدْمَتِهِ، والمنافسةَ في قُرْبِهِ، والتودُّدَ إليهِ بطاعتِهِ، واللَّهجَ بذِكْرِهِ، والفرارَ من الخلقِ إليهِ، ويصيرُ هوَ وحدَهُ همَّهُ دونَ ما سِواهُ.

ويُوجِبُ لهُ شهودُ صفاتِ الربوبيَّةِ التوكُّلَ عليهِ، والافتقارَ إليهِ، والاستعانةَ بهِ، والذلَّ والخضوعَ والانكسارَ لهُ.

وكمالُ ذلكَ أنْ يشهدَ ربوبيَّتَهُ في إلهيَّتِهِ، وإلهيَّتَهُ في رُبوبيَّتِهِ، وحمدَهُ في مُلكِهِ، وعِزَّهُ في عفْوِهِ، وحكمتَهُ في قضائِهِ وقَدَرِهِ، ونعمتَهُ في بلائِهِ، وعطاءَهُ في منعِهِ، وبرَّهُ ولطفَهُ وإحسانَهُ ورحمتَهُ في قيُّوميَّتِهِ، وعدلَهُ في انتقامِهِ، وجُودَهُ وكرمَهُ في مغفرتِهِ وسترِهِ وتجاوُزِهِ، ويشهدُ حكمتَهُ ونعمتَهُ في أمرِهِ ونهيِهِ، وعِزَّهُ في رضاهُ وغضبِهِ، وحلمَهُ في إمهالِهِ، وكرمَهُ في إقبالِهِ، وغناهُ في إعراضِهِ.(1)

(1) وقالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في الفوائدِ (٢٥٧): (مِنَ الناسِ مَنْ يَعْرِفُ اللهَ بالجُودِ والإفضالِ والإحسانِ، ومِنْهُمْ مَنْ يَعْرِفُهُ بالعَفْوِ والحِلْمِ والتَّجاوُزِ. ومِنهُم مَنْ يَعْرِفُه بالبَطْشِ والانتقامِ، ومِنهُم مَن يَعْرِفُه بالعِلْمِ والحِكْمَةِ، ومِنهُم مَن يَعْرِفُهُ بالعِزَّةِ والكِبْرِياءِ، ومِنهُم مَن يَعْرِفُه بالرَّحْمَةِ والبِرِّ واللُّطْفِ، ومِنهُم مَن يَعْرِفُه بالقَهْرِ والمُلْكِ، ومِنهُم مَن يَعْرِفُه بإجابَةِ دَعْوَتِهِ وإغاثَةِ لَهْفَتِهِ وقَضاءِ حاجَتِهِ.
وأَعَمُّ هَؤلاءِ مَعرِفَةً: مَنْ عَرَفَهُ مِن كَلامِهِ، فإنَّهُ يَعْرِفُ رَبًّا قَد اجتمَعَتْ له صِفاتُ الكَمالِ، ونُعوتُ الجَلالِ، مُنَزَّهٌ عنِ المِثالِ، بَرِيءٌ مِنَ النَّقائِصِ والعُيوبِ، لهُ كُلُّ اسمٍ حَسَنٍ وكُلُّ وَصْفِ كَمالٍ، فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، ومعَ كُلِّ شَيءٍ، وقادرٌ علَى كُلِّ شيءٍ ومُقيمٌ لِكُلِّ شيءٍ، آمِرٌ ناهٍ، مُتكلِّمٌ بكَلِمَاتِهِ الدِّينِيَّةِ والكَوْنِيَّةِ، أَكْبَرُ مِن كُلِّ شيءٍ، وأَجْمَلُ مِن كُلِّ شيءٍ، أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وأَقْدَرُ القَادِرِينَ، وأَحْكَمُ

وأنتَ إذا تدَبَّرْتَ القرآنَ[1]، وأَجَرْتَهُ من التحريفِ، وأنْ تقضيَ عليهِ بآراءِ المتكلِّمينَ وأفكارِ المتكلِّفينَ، أشهدَ مَلِكاً قَيُّوماً فوقَ سماواتِهِ على عرْشِهِ، يُدَبِّرُ أمرَ عبادِهِ، يأمرُ وينهى، ويُرْسِلُ الرُّسلَ، ويُنْـزِلُ الكتبَ، ويَرْضى ويَغضبُ، ويُثيبُ ويُعاقبُ، ويُعطي ويَمنعُ، ويُعزُّ ويُذلُّ، ويَخْفِضُ ويرفعُ، يَرى منْ فوقِ سبعٍ ويسمعُ، ويعلمُ السرَّ والعلانيَةَ، فعَّالٌ لما يريدُ، موصوفٌ بكلِّ كمالٍ، مُنَزَّهٌ عنْ كلِّ عيبٍ، لا تتحرَّكُ ذرةٌ فما فوقَها إلاَّ بإذنِهِ، ولا تسقطُ ورقةٌ إلاَّ بعلْمِهِ، ولا يشفعُ أحدٌ عندَهُ إلاَّ بإذنِهِ، ليسَ لعبادِهِ منْ دُونِهِ وليٌّ ولا شفيعٌ). [2]

([فـ] يشهدُ قلبُكَ الرَّبَّ تباركَ وتعالى مُسْتَوِياً على عرشِهِ، مُتكلِّماً بأمرِهِ ونهْيِهِ، بصيراً بحركاتِ العالَمِ عُلْويِّهِ وسُفْليِّهِ، وأشخاصِهِ وذواتِهِ، سميعاً لأصواتِهِم، رقيباً على ضمائرِهم وأسرارِهم، وأمرُ الممالكِ تحتَ تدْبيرِهِ، نازلٌ منْ عندِهِ وصاعدٌ إليهِ، وأملاكُهُ بينَ يدَيْهِ، تَنْفُذُ أوامرُهُ في أقطارِ الممالكِ، موصوفاً بصفاتِ الكمالِ، منعوتاً بنعوتِ الجلالِ، منـزَّهاً عن العيوبِ والنقائصِ والمثالِ، هوَ كما وصفَ نفسَهُ في كتابِهِ، وفوقَ ما يصِفُهُ بِهِ خلقُهُ، حيٌّ لا يموتُ، قَيُّومٌ لا ينامُ، عليمٌ لا يخفى عليهِ مثقالُ ذَرَّةٍ في السماواتِ ولا في الأرضِ، بصيرٌ يرى دبيبَ النملةِ السوداءِ على الصخرةِ الصمَّاءِ في الليلةِ الظلماءِ، سميعٌ يسمعُ ضجيجَ الأصواتِ، باختلافِ اللغاتِ، على تفنُّنِ الحاجاتِ.

الحَاكِمِينَ، فالقُرآنُ أُنْزِلَ لِتَعْرِيفِ عِبَادِهِ بِهِ وبِصِرَاطِهِ المُوصِلِ إِلَيْهِ، وبحَالِ السَّالِكِينَ بعدَ الوُصولِ إِلَيْهِ).

(١) لابنِ القيِّم -رَحِمَهُ اللهُ تعَالَى- كلامٌ نَفِيسٌ جدًّا مُتفَرِّقٌ فِي كُتُبِهِ في تَدَبُّرِ القرآنِ العَظِيم وثَمراتِهِ ومُعوِّقَاتِهِ وكَيْفِيَّةِ التَّدَبُّرِ الصحيحِ، يُعْطِي طالِبَ العِلْم دُرْبَةً عَمَلِيَّةً وطَرِيقَةً حسَنةً في التدبُّرِ تَفْتَحُ له آفاقًا مِن العِلمِ رَحْبَةً لم يَكُنْ يَعْهَدُها مِن قَبْلُ. وإذا أَرَدْتَ نَمُوذجًا لذلك فراجِعْ كَلامَهُ في الرسالةِ التَّبُوكِيَّةِ (٧٤-٨٣) فإنه مُهِمٌّ -ولَوْلا خَشْيَةُ الإطالةِ لَسُقْتُهُ هنا من بابِ الاستطرادِ، فإنَّهُ استطرادٌ نافِعٌ جدًّا، واللهُ الموفِّقُ والمعينُ.

(٢) الفوائدُ (١٠٥-١٠٨).

تمَّتْ كلماتُهُ صِدْقاً وعَدْلاً، وجلَّتْ صفاتُهُ أنْ تُقاسَ بصفاتِ خلقِهِ شبهاً ومثلاً، وتعالَتْ ذاتُهُ أنْ تُشْبِهَ شيئاً من الذواتِ أصلاً، ووَسِعَت الخليقةَ أفعالُهُ عَدْلاً وحكمةً ورحمةً وإحساناً وفضلاً، لهُ الخلقُ والأمرُ، ولهُ النعمةُ والفضلُ، ولهُ الملكُ والحمدُ، ولهُ الثناءُ والمجدُ، أوَّلٌ ليسَ قبلَهُ شيءٌ، وآخرٌ ليسَ بعدَهُ شيءٌ، ظاهرٌ ليسَ فوقَهُ شيءٌ، باطنٌ ليسَ دُونَهُ شيءٌ، أسماؤُهُ كلُّها أسماءُ مدحٍ وحمدٍ وثناءٍ وتمجيدٍ؛ ولذلكَ كانتْ حُسْنَى، وصفاتُهُ كلُّها صفاتُ كمالٍ، ونعوتُهُ كلُّها نعوتُ جلالٍ، وأفعالُهُ كلُّها حكمةٌ ورحمةٌ ومصلحةٌ وعَدْلٌ، كلُّ شيءٍ منْ مخلوقاتِهِ دالٌّ عليهِ، ومرشدٌ لمَنْ رآهُ بعينِ البصيرةِ إليهِ. لمْ يخلُقِ السماواتِ والأرضَ وما بينَهما باطلاً، ولا تركَ الإنسانَ سُدًى عاطلاً، بلْ خلقَ الخلقَ لقيامِ توحيدِهِ وعبادَتِهِ، وأسبغَ عليهم نعمَهُ ليتوصَّلُوا بشُكْرِها إلى زيادةِ كرامَتِهِ، تعرَّفَ إلى عبادِهِ بأنواعِ التعريفاتِ، وصرَّفَ لهم الآياتِ، ونوَّعَ لهم الدلالاتِ، ودعَاهُم إلى محبَّتِهِ منْ جميعِ الأبوابِ، ومَدَّ بينَهُ وبينَهم منْ عهدِهِ أقوى الأسبابِ؛ فأتمَّ عليهم نعمَهُ السابغةَ، وأقامَ عليهم حُجَّتَهُ البالغةَ، أفاضَ عليهم النعمةَ، وكتبَ على نفْسِهِ الرحمةَ). (١)

[فَصْلٌ]

(إذا عُلِمَ هذا فـ] معرفةُ اللهِ سُبحانَهُ نوعانِ:

الأوَّلُ: معرفةُ إقرارٍ، وهيَ التي اشتركَ فيها الناسُ: البَرُّ والفاجرُ، والمطيعُ والعاصي.

والثاني: معرفةٌ تُوجِبُ الحياءَ منهُ، والمحبَّةَ لهُ، وتَعَلُّقَ القلبِ بهِ، والشوقَ إلى لقائِهِ، وخشيتَهُ، والإنابةَ إليهِ، والأُنْسَ بهِ، والفرارَ من الخلقِ إليهِ، وهذهِ هيَ المعرفةُ الخاصَّةُ الجاريَةُ على لسانِ القومِ، وتفاوُتُهُمْ فيها لا يُحصيهُ إلاَّ الذي

(١) مدارجُ السالِكينَ (١/ ١٤٦).

عرَّفهم بنفسِهِ، وكشفَ لقلوبِهم منْ معرفتِهِ ما أخفاهُ عنْ سِوَاهُم، وكلٌّ أشارَ إلى هذهِ المعرفةِ بحسَبِ مَقَامِهِ وما كُشِفَ لهُ منها، وقدْ قالَ أعرفُ الخلقِ بهِ: «لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»، وأخبرَ أنَّهُ سُبحانَهُ يفتحُ عليهِ يومَ القيامةِ منْ محامِدِهِ بما لا يُحْسِنُهُ الآنَ.

ولهذهِ المعرفةِ بابانِ واسعانِ:

البابُ الأوَّلُ: التفكُّرُ والتأمُّلُ في آياتِ القرآنِ كلِّها، والفهمُ الخاصُّ عن اللهِ ورسولِهِ.

والبابُ الثاني: التفكُّرُ في آياتِهِ المشهودةِ، وتأمُّلُ حكمتِهِ فيها وقُدْرَتِهِ ولُطفِهِ وإحسانِهِ وعَدْلِهِ وقيامِهِ بالقسطِ على خلقِهِ.

وجماعُ ذلكَ: الفقهُ في معاني أسمائِهِ الحسنى وجلالِها وكمالِها وتفرُّدِهِ بذلكَ وتَعَلُّقِها بالخلقِ والأمرِ؛ فيكونُ فقيهاً في أوامرِهِ ونواهيهِ، فقيهاً في قضائِهِ وقدَرِهِ، فقيهاً في أسمائِهِ وصفاتِهِ، فقيهاً في الحكمِ الدينيِّ الشرعيِّ والحكمِ الكونيِّ القدريِّ، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١].[1]

---

(١) الفوائدُ (٢٤٤-٢٤٥).

البابُ الرابعُ: في ذكرِ بعضِ ما تضمَّنتْهُ سُورَةُ الفَاتحَةِ من المَعارِف الجَلِيلَةِ في بَابِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

(اعلَمْ أنَّ هذهِ السورةَ اشتملتْ على أمَّهاتِ المطالبِ العاليَةِ أتمَّ اشتمالٍ، وتضمَّنَتْها أكملَ تضمُّنٍ:

فاشتمَلَتْ على التعريفِ بالمعبودِ -تباركَ وتعالى- بثلاثةِ أسماءٍ، مرجعُ الأسماءِ الحسنى والصِّفَاتِ العليا إليها، ومدارُها عليها، وهيَ: «**الله، والربُّ، والرحمنُ**»، وبُنِيَت السورةُ على الإلهيَّةِ والربوبيَّةِ والرحمةِ، فـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] مبنيٌّ على الإلهيَّةِ، وَ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] على الربوبيَّةِ، وطلبُ الهدايَةِ إلى الصراطِ المستقيمِ بصفةِ الرحمةِ، والحمدُ يتضمَّنُ الأمورَ الثلاثةَ، فهوَ المحمودُ في إلهيَّتِهِ وربوبيَّتِهِ ورحمتِهِ، والثناءُ والمجدُ كمالانِ لجَدِّهِ.

وتضمَّنَتْ إثباتَ المعادِ، وجزاءَ العبادِ بأعمالِهم؛ حَسَنِها وسَيِّئِها، وتفرُّدَ الربِّ تعالى بالحُكْمِ إذْ ذاكَ بينَ الخلائقِ، وكونَ حُكْمِهِ بالعَدْلِ، وكلُّ هذا تحتَ قولِهِ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤].

وتضمَّنَتْ إثباتَ النبُوَّاتِ منْ جهاتٍ عديدةٍ:

أحدُها: كونُهُ ربَّ العالمينَ؛ فلا يَلِيقُ بِهِ أنْ يتركَ عبادَهُ سُدًى هَمَلاً لا يُعَرِّفُهم ما ينفَعُهم في معاشِهم ومعادِهِم وما يضرُّهم فيهما، فهذا هضْمٌ للربوبيَّةِ، ونسبةُ الربِّ تعالى إلى ما لا يليقُ بهِ، وما قَدَرَهُ حقَّ قَدْرِهِ مَنْ نَسَبَهُ إليهِ.

الثاني: أخذُها من اسم «اللهِ» وهوَ المألوهُ المعبودُ، ولا سبيلَ للعبادِ إلى معرفةِ عبادتِهِ إلاَّ منْ طريقِ رُسُلِهِ.

الموضعُ الثالثُ: مِن اسمِهِ «**الرحمنِ**»؛ فإنَّ رحمتَهُ تمنعُ إهمالَ عبادِهِ، وعدمَ تعريفِهم ما ينالونَ بهِ غايَةَ كمالِهِم؛ فمَنْ أعطى اسمَ «**الرحمنِ**»؛ حقَّهُ عرف أنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لإرسالِ الرُّسلِ وإنزالِ الكُتبِ أعظمَ مِنْ تضمُّنِهِ إنـزالَ الغيثِ وإنباتَ الكَلأِ وإخراجَ الحبِّ، فاقتضاءُ الرحمةِ لما تحصلُ بهِ حياةُ القلوبِ والأرواحِ أعظمُ من اقتضائِها لما تحصلُ بِهِ حياةُ الأبدانِ والأشباحِ، لكنِ المحجوبونَ إنَّما أدْرَكُوا منْ هذا الاسمِ حظَّ البهائمِ والدوابِّ، وأدركَ منهُ أُولُو الألبابِ أمراً وراءَ ذلكَ.

الموضعُ الرابعُ: منْ ذكرِ «**يَوْمِ الدِّينِ**»؛ فإنَّهُ اليومُ الذي يَدِينُ اللهُ العبادَ فيهِ بأعمالِهِم، فيُثيبُهم على الخيراتِ، ويُعاقبُهم على المعاصي والسيِّئَاتِ، وما كانَ اللهُ ليُعَذِّبَ أحداً قبلَ إقامةِ الحُجَّةِ عليهِ، والحُجَّةُ إنَّما قامَتْ برُسُلِهِ وكُتُبِهِ، وبهم استُحِقَّ الثوابُ والعقابُ، وبهم قامَ سُوقُ يومِ الدينِ، وسِيقَ الأبرارُ إلى النعيمِ، والفُجَّارُ إلى الجحيمِ.

الموضعُ الخامسُ: منْ قولِهِ: «**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**»؛ فإنَّ ما يُعْبَدُ بِهِ الربُّ تعالى لا يكونُ إلاَّ على ما يُحِبُّهُ ويرضاهُ، وعبادتُهُ -وهيَ شكرُهُ وحبُّهُ وخشيتُهُ- فطريٌّ ومعقولٌ للعقولِ السليمةِ، لكنَّ طريقَ التعبُّدِ وما يُعبدُ بهِ لا سبيلَ إلى معرفتِهِ إلاَّ برُسُلِهِ وبيانِهِم، وفي هذا بيانٌ أنَّ إرسالَ الرسلِ أمرٌ مستقرٌّ في العقولِ، يستحيلُ تعطيلُ العالَمِ عنهُ، كما يستحيلُ تعطيلُهُ عن الصانعِ، فمَنْ أنكرَ الرسولَ فقدْ أنكرَ المُرْسِلَ ولمْ يُؤْمِنْ بهِ؛ ولهذا جعلَ اللهُ سُبحانَهُ الكفرَ برُسُلِهِ كفراً بهِ.

الموضعُ السادسُ: منْ قولِهِ: «**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**»، فالهدايَةُ: هيَ البيانُ والدلالَةُ، ثُمَّ التوفيقُ والإلهامُ، وهوَ بعدَ البيانِ والدلالةِ، ولا سبيلَ إلى البيانِ

والدلالةِ إلاَّ منْ جهةِ الرسلِ، فإذا حصلَ البيانُ والدلالةُ والتعريفُ ترتَّبَ عليهِ هدايَةُ التوفيقِ، وجعلُ الإيمانِ في القلبِ، وتحبيبُهُ إليهِ، وَتَزْيينُهُ في القلبِ، وجعْلُهُ مُؤْثِراً [لَهُ] راضياً بِهِ راغباً فيهِ.

وهُمَا هدايتانِ مُسْتَقِلَّتَانِ، لا يحصلُ الفلاحُ إلاَّ بهما، وهما مُتَضَمِّنَتانِ تعريفَ ما لَمْ نعْلَمْهُ من الحقِّ تفصيلاً وإجمالاً، وإلهامَنا لهُ، وجَعْلَنا مُرِيدِينَ لاتِّباعِهِ ظاهراً وباطناً، ثُمَّ خَلْقَ القدرةِ لنا على القيامِ بموجَبِ الهُدَى بالقولِ والعملِ والعزمِ، ثُمَّ إدامةَ ذلكَ لنا وتثبيتَنا عليهِ إلى الوفاةِ.

ومنْ هنا يُعْلَمُ اضطرارُ العبدِ إلى سؤالِ هذهِ الدعوةِ فوقَ كلِّ ضرورةٍ، وبُطْلانُ قولِ مَنْ يقولُ: إذا كُنَّا مُهْتَدِينَ، فكيفَ نسألُ الهدايَةَ؟!

فإنَّ المجهولَ لنا من الحقِّ أضعافُ المعلومِ، وما لا نريدُ فعلَهُ تهاوناً وكسلاً مثلَ ما نُريدُهُ، أوْ أكثرَ منهُ أوْ دُونَهُ، وما لا نقدرُ عليهِ - ممَّا نريدُهُ - كذلكَ، وما نعرفُ جُملَتَهُ ولا نهتدي لتفاصيلِهِ، فأمرٌ يفوتُ الحصْرَ، ونحنُ محتاجونَ إلى الهدايَةِ التامَّةِ، فمَنْ كَمُلَتْ لهُ هذهِ الأمورُ كانَ سؤالُ الهدايَةِ لهُ سؤالَ التثبيتِ والدوامِ). (١)

[فَصْلٌ]

في اشتمالِ هذهِ السورةِ على أنواعِ التوحيدِ الثلاثةِ التي اتَّفقَتْ علَيْها الرُّسلُ صلواتُ اللّهِ وسلامُهُ علَيْهِم

التوحيدُ نوعانِ: نوعٌ في العلمِ والاعتقادِ، ونوعٌ في الإرادةِ والقصدِ، ويُسَمَّى **الأوَّلُ**: التوحيدَ العلميَّ، **والثاني**: التوحيدَ القَصْدِيَّ الإراديَّ؛ لتَعَلُّقِ الأوَّلِ بالأخبارِ والمعرفةِ، والثاني بالقصدِ والإرادةِ. وهذا الثاني أيضاً نوعانِ: توحيدٌ في الربوبيَّةِ، وتوحيدٌ في الإلهيَّةِ، فهذهِ ثلاثةُ أنواعٍ.

(١) مدارجُ السَّالِكينَ (١/ ٣١-٣٢).

فأمَّا **التوحيدُ العلميُّ**: فمَدَارُهُ على إثباتِ صفاتِ الكمالِ، وعلى نفيِ التشبيهِ والمثالِ، والتنـزيهِ عن العيوبِ والنقائصِ، وقدْ **دلَّ على هذا شيئانِ: مُجْمَلٌ، ومُفصَّلٌ**:

أمَّا المجملُ: فإثباتُ الحمدِ لهُ سُبحانَهُ.

وأمَّا المُفَصَّلُ: فذِكْرُ صفةِ الإلهيَّةِ والربوبيَّةِ والرحمةِ والملكِ، وعلى هذهِ الأربعِ مَدَارُ الأسماءِ والصِّفَاتِ.

فأمَّا تضمُّنُ الحمدِ لذلكَ: فإنَّ الحمدَ يتضَمَّنُ مدحَ المحمودِ بصفاتِ كمالِهِ، ونعوتِ جلالِهِ، معَ محبَّتِهِ والرضا عنهُ، والخضوعِ لهُ، فلا يكونُ حامداً مَنْ جحَدَ صفاتِ المحمودِ، ولا مَنْ أعرضَ عنْ محبَّتِهِ والخضوعِ لهُ، وكُلَّما كانتْ صفاتُ كمالِ المحمودِ أكثرَ كانَ حمدُهُ أكملَ، وكُلَّما نَقَصَ منْ صفاتِ كمالِهِ نَقَصَ منْ حمْدِهِ بحَسَبِها، ولهذا كانَ الحمدُ كُلُّهُ للهِ حمداً لا يُحْصِيهُ سواهُ، لكمالِ صفاتِهِ وكثرَتِها، ولأجلِ هذا لا يُحْصِي أحدٌ منْ خلقِهِ ثناءً عليهِ، لما لهُ منْ صفاتِ الكمالِ، ونعوتِ الجلالِ التي لا يُحْصِيها سواهُ، ولهذا ذمَّ اللهُ تعالى آلهةَ الكُفَّارِ، وعابَها بسَلْبِ أوصافِ الكمالِ عنها؛ فعابَها بأنَّها لا تَسمعُ ولا تُبْصِرُ، ولا تتكَلَّمُ ولا تَهْدِي، ولا تنفعُ ولا تضرُّ، وهذهِ صفةُ إلهِ الجهمِيَّةِ، التي عابَ بها الأصنامَ، نسَبُوهَا إليهِ، تعالى اللهُ عمَّا يقولُ الظالمونَ والجاحدونَ عُلُوًّا كبيراً.

فقالَ تعالى حكايَةً عنْ خليلِهِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ في مُحَاجَّتِهِ لأبيهِ: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: ٤٢] فلوْ كانَ إلهُ إبراهيمَ بهذهِ الصفةِ والمثابةِ لقالَ لهُ آزرُ: وأنتَ إلهُكَ بهذهِ المثابةِ، فكيفَ تُنْكِرُ عَلَيَّ؟! لكنْ كانَ معَ شركِهِ أعرفَ باللهِ من الجهمِيَّةِ، وكذلكَ كُفَّارُ قريشٍ كانوا - معَ شرْكِهِم - مُقِرِّينَ بصفاتِ الصانعِ سُبحانَهُ وعلوِّهِ على خلْقِهِ، وقالَ تعالَى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨]. فلوْ كانَ

إلهُ الخلقِ سُبحانَهُ كذلكَ لمْ يكُنْ في هذا إنكارٌ عليهم، واستدلالٌ على بُطْلانِ الإلهيَّةِ بذلكَ.

فإنْ قيلَ: فاللهُ تعالى لا يُكَلِّمُ عبادَهُ.

قيلَ: بلى، قدْ كلَّمَهُم؛ فمنهم مَنْ كلَّمَهُ اللهُ منْ وراءِ حجابٍ منهُ إليهِ بلا واسطةٍ كموسى، ومنهم مَنْ كلَّمَهُ اللهُ على لسانِ رسُولِهِ الملكيِّ وهم الأنبياءُ، وكلَّمَ اللهُ سائرَ الناسِ على ألسنةِ رسُلِهِ؛ فأنزلَ عليهم كلامَهُ الذي بلَّغَتْهُ رسلُهُ عنهُ. وقالُوا لهم: هذا كلامُ اللهِ الذي تكلَّمَ بهِ، وأُمِرْنَا بتبليغِهِ إليكُم.

ومنْ ها هنا قالَ السلفُ: مَنْ أنكرَ كونَ اللهِ مُتكَلِّماً فقدْ أنكرَ رسالةَ الرسُلِ كلِّهم؛ لأنَّ حقيقتَها تبليغُ كلامِهِ الذي تتكلَّمُ بهِ إلى عبادِهِ، فإذا انتفى كلامُهُ انتفت الرسالةُ، وقالَ تعالى في سورةِ طه عن السَّامِرِيِّ: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٨-٨٩]. ورَجْعُ القولِ: هوَ التكلُّمُ والتكليمُ. وقالَ تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦]، فجعلَ نفيَ صفةِ الكلامِ مُوجِباً لبُطْلانِ الإلهيَّةِ.

وهذا أمرٌ معلومٌ بالفِطَرِ والعقولِ السليمةِ والكتبِ السماويَّةِ: أنَّ فاقدَ صفاتِ الكمالِ لا يكونُ إلهاً، ولا مُدَبِّراً، ولا ربًّا، بلْ هوَ مذمومٌ مَعيبٌ ناقصٌ، ليسَ لهُ الحمدُ لا في الأُولَى ولا في الآخرةِ، وإنَّما الحمدُ في الأولى والآخرةِ لِمَنْ لهُ صفاتُ الكمالِ ونعوتُ الجلالِ، التي لأجلِها استَحقَّ الحمدَ، ولهذا سَمَّى السلفُ كُتُبَهم التي صنَّفُوها في السُّنَّةِ وإثباتِ صفاتِ الربِّ وعُلُوِّهِ على خلْقِهِ وكلامِهِ وتكليمِهِ تَوْحِيداً؛ لأنَّ نفيَ ذلكَ وإنكارَهُ والكفرَ بهِ إنكارٌ للصانعِ وجحدٌ لهُ، وإنَّما توحيدُهُ إثباتُ صفاتِ كمالِهِ، وتنـزيهُهُ عن التشبيهِ والنقائصِ،

فجعلَ المُعَطِّلَةُ جحدَ الصِّفَاتِ وتعطيلَ الصانعِ عنها توحيداً، وجعَلُوا إثباتَها للهِ تشبيهاً وتجسيماً وتركيباً، فسَمَّوا الباطلَ باسمِ الحقِّ ترغيباً فيهِ، وزُخْرُفاً يُنْفِقُونَهُ بهِ، وسمَّوا الحقَّ باسمِ الباطلِ تنفيراً عنهُ، والناسُ أكثرُهم معَ ظاهرِ السِّكَّةِ، ليسَ لهم نَقْدُ النُّقَّادِ ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۝١٧﴾ [الكهف: ١٧]. والمحمودُ لا يُحمدُ على العدمِ والسكوتِ البَتَّةَ إلاَّ إذا كانتْ سَلْبَ عيوبٍ ونقائصَ تتضمَّنُ إثباتَ أضدادِها من الكمالاتِ الثبوتِيَّةِ، وإلاَّ فالسلبُ المحضُ لا حمدَ فيهِ ولا مدحَ ولا كمالَ.

وكذلكَ حمدُهُ لنفْسِهِ على عدمِ اتِّخاذِ الولدِ المتضمِّنِ لكمالِ صَمَدِيَّتِهِ وغِناهُ وملكِهِ، وتعبيدِ كلِّ شيءٍ لهُ؛ فاتِّخَاذُ الولدِ يُنَافِي ذلكَ، كما قالَ تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨].

وحمدُ نفسِهِ على عدمِ الشريكِ، المتضمِّنِ تفرُّدَهُ بالربوبيَّةِ والإلهيَّةِ، وتوحُّدَهُ بصفاتِ الكمالِ التي لا يُوصَفُ بها غيرُهُ فيكونَ شريكاً لهُ، فلوْ عَدِمَها لكانَ كلُّ موجودٍ أكملَ منهُ؛ لأنَّ الموجودَ أكملُ من المعدومِ، ولهذا لا يَحمدُ نفسَهُ سُبحانَهُ بعدمٍ إلاَّ إذا كانَ متضمِّناً لثبوتِ كمالٍ، كما حَمِدَ نفسَهُ بكوْنِهِ لا يموتُ؛ لتضمُّنِهِ كمالَ حياتِهِ، وحمِدَ نفسَهُ بكوْنِهِ لا تأخُذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ؛ لتضَمُّنِ ذلكَ كمالَ قيُّومِيَّتِهِ، وحمِدَ نفسَهُ بأنَّهُ لا يعزُبُ عنْ علْمِهِ مثقالُ ذرَّةٍ في الأرضِ ولا في السماءِ ولا أصغرُ منْ ذلكَ ولا أكبرُ؛ لكمالِ علمِهِ وإحاطَتِهِ، وحمِدَ نفْسَهُ بأنَّهُ لا يَظْلِمُ أحداً؛ لكمالِ عَدْلِهِ وإحسانِهِ، وحَمِدَ نفْسَهُ بأنَّهُ لا تُدْرِكُهُ الأبصارُ؛ لكمالِ عظمتِهِ، يُرى ولا يُدْرَكُ، كما أنَّهُ يُعلمُ ولا يُحاطُ بِهِ علماً، فمُجرَّدُ نفي الرؤيَةِ ليسَ لكمالٍ؛ لأنَّ العدمَ لا يُرى، فليسَ في كونِ الشيءِ لا يُرى كمالٌ البتَّةَ، وإنَّما الكمالُ في كونِهِ لا يُحاطُ بِهِ رؤيَةً ولا إدراكاً لعظمَتِهِ في نفسِهِ، وتعلِّيهِ عنْ إدراكِ المخلوقِ لهُ، وكذلكَ حَمِدَ نفسَهُ بعدمِ الغفلةِ والنسيانِ؛ لكمالِ عِلْمِهِ.

فكلُّ سلْبٍ في القرآنِ حَمِدَ اللهُ بهِ نفسَهُ فلمُضَادَّتِهِ لثبوتِ ضِدِّهِ، ولتضَمُّنِهِ كمالَ ثبوتِ ضدِّهِ؛ فعَلِمْتَ أنَّ حقيقةَ الحمدِ تابعةٌ لثبوتِ أوصافِ الكمالِ، وأنَّ نفيَها نفيٌ لحمْدِهِ، ونفيُ الحمدِ مستلزِمٌ لثبوتِ ضدِّهِ.

[فَصْلٌ]

فهذهِ دلالةٌ على توحيدِ الأسماءِ والصِّفَاتِ، وأمَّا **دلالةُ الأسماءِ الخمسةِ** عليها، وهيَ: «**اللهُ، والرَّبُّ، والرحمنُ، والرحيمُ، والملكُ**»، **فمبنيٌّ على أصلَيْنِ:**

أحدُهما: أنَّ أسماءَ الرَّبِّ تباركَ وتعالى دالَّةٌ على صفاتِ كمالِهِ، فهيَ مُشتقَّةٌ من الصِّفَاتِ، فهيَ أسماءٌ، وهيَ أوصافٌ، وبذلكَ كانتْ حُسنى؛ إذْ لوْ كانتْ ألفاظاً لا معانيَ فيها لمْ تكُنْ حُسنى، ولا كانتْ دالَّةً على مدحٍ ولا كمالٍ، ولَساغَ وُقُوعُ أسماءِ الانتقامِ والغضبِ في مقامِ الرحمةِ والإحسانِ، وبالعكسِ، فيُقَالُ: اللَّهمَّ إنِّي ظلَمْتُ نفسي فاغْفِرْ لي؛ إنَّكَ أنتَ المنتقِمُ، واللَّهمَّ أعْطِني؛ فإنَّكَ أنتَ الضارُّ المانعُ، ونحوُ ذلكَ.

ونفيُ معاني أسمائِهِ الحسنى منْ أعظمِ الإلحادِ فيها، قالَ تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ولأنَّها لوْ لمْ تدُلَّ على معانٍ وأوصافٍ لمْ يجُزْ أنْ يُخبَرَ عنها بمصادرِها ويوصفَ بها، لكنَّ اللهَ أخبرَ عنْ نفسِهِ بمصادرِها، وأثبتَها لنفسِهِ، وأثبتَها لهُ رسولُهُ، كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، فعُلِمَ أنَّ «**القويَّ**» منْ أسمائِهِ، ومعناهُ الموصوفُ بالقُوَّةِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]. فالعزيزُ: مَنْ لهُ العزَّةُ، فلولا ثبوتُ القوَّةِ والعزَّةِ لمْ يُسَمَّ قَوِيًّا ولا عزيزاً، وكذلكَ قولُهُ: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]، ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وفي الصحيح عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «إِنَّ اللهَ لا يَنَامُ، وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1]، فأثبتَ المصدرَ الذي اشْتُقَّ منهُ اسمُهُ «البصيرُ».

وفي «صحيحِ البخاريِّ» عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها: «الحمدُ للهِ الذي وَسِعَ سمعُهُ الأصواتَ»[2]، وفي الصحيحِ حديثُ الاستخارةِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ»[3] فهوَ قادرٌ بقُدْرَةٍ، وقالَ تعالى لموسى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، فهوَ مُتكلِّمٌ بكلامٍ.

وهوَ العظيمُ الذي لهُ العظَمَةُ، كما في الصحيحِ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: الْعَظَمَةُ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي»[4]، وهوَ الحكيمُ الذي لهُ الحُكْمُ:

(١) رواهُ مُسلِمٌ في كِتابِ الإيمانِ/ بابٌ في قولِهِ علَيهِ السلامُ: «إِنَّ اللهَ لا يَنامُ» (٤٤٤، ٤٤٥)، وابنُ ماجَهْ في المُقدمَةِ / بابٌ فِيما أَنْكَرَتِ الجَهْمِيَّةُ (١٩٥، ١٩٦) والإمامُ أَحْمَدُ (١٩٠٣٦، ١٩٠٩٠، ١٩١٣٥) من طُرُقٍ عن عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٢) رواهُ البُخاريُّ فِي كِتابِ التَّوحِيدِ / بابُ قولِ اللهِ تعالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝١٣٤﴾ [النساء:١٣٤] مُعَلَّقًا بصيغةِ الجَزْمِ، عنِ الأعمَشِ، عن تَمِيمٍ، عن عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عنها.
ووَصَلَهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٢٣٦٧٥)، والنَّسَائِيُّ فِي كِتابِ الطَّلاقِ / بابُ الظِّهارِ (٣٤٦٠)، وابنُ مَاجَهْ فِي المُقَدِّمَةِ/ بابٌ فِيما أَنْكَرَتِ الجَهْمِيَّةُ (١٨٨) وفي كتابِ الطَّلاقِ / بابُ الظِّهارِ (٢٠٦٣). كُلُّهُمْ مِن طُرُقٍ عَنِ الأَعْمَشِ بِهِ.

(٣) رواهُ البُخاريُّ فِي كِتابِ الجُمُعَةِ (١١٦٢)، وكِتابِ الدَّعَواتِ/ بابُ الدُّعاءِ عِنْدَ الاستِخارَةِ (٦٣٨٢)، وكتابِ التوحيدِ/ بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾ [الأنعام: ٦٥] (٧٣٩٠)، وأبو دَاوُدَ في كتابِ الصلاةِ/ بابٌ في الاستخارةِ (١٥٣٨)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الصلاةِ/ بابُ ما جاءَ في صلاةِ الاستخارةِ (٤٨٠)، والنَّسائِيُّ في كتابِ النكاحِ/ بابُ كيفَ الاستخارةُ (٣٢٥٣)، وابنُ مَاجَهْ في كتابِ إقامةِ الصلاةِ / بابُ ما جاءَ في صلاةِ الاستخارةِ (١٣٨٣)، والإمامُ أحمدُ (١٤٢٩٧) من طُرُقٍ عن عبدِ الرحمنِ بنِ أبي المَوالِي، عن مُحَمَّدِ بْنِ المُنْكَدِرِ، عن جابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما مَرْفُوعًا.

(٤) رواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٩٤١٠، ٩٢٢٤، ٩٠٩٥، ٨٦٧٧)، وأبو داودَ في كتابِ اللباسِ/ بابُ مَا جاءَ في الكِبْرِ (٤٠٨٤)، وابنُ مَاجَهْ فِي كِتابِ الزُّهْدِ/ بابُ البراءةِ مِنَ الكِبْرِ، والتواضُعِ (٤١٧٣)، من طُرُقٍ،

﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢﴾ [غافر: ١٢]. وأجمعَ المسلمونَ أنَّهُ لوْ حُلِفَ بحياةِ اللهِ، أوْ سمعِهِ، أوْ بصرِهِ، أوْ قُوَّتِهِ، أوْ عِزَّتِهِ، أوْ عظمَتِهِ: انعقدَتْ يمينُهُ، وكانتْ مُكَفِّرَةً؛ لأنَّ هذهِ صفاتُ كمالِهِ التي اشتُقَّت منها أسماؤُهُ.

وأيضاً: لوْ لمْ تكُنْ أسماؤُهُ على معانٍ وصفاتٍ لمْ يَسُغْ أنْ يُخبَرَ عنهُ بأفعالِها؛ فلا يُقَالُ: يسمعُ، ويرى، ويعلمُ، ويُقَدِّرُ، ويريدُ، فإنَّ ثبوتَ أحكامِ الصِّفَاتِ فرعُ ثُبوتِها، فإذا انتفى أصلُ الصفةِ استحالَ ثبوتُ حُكْمِها.

وأيضاً فلوْ لمْ تكُنْ أسماؤُهُ ذواتِ معانٍ وأوصافٍ لكانَتْ جامدةً كالأعلامِ المحضةِ، التي لمْ تُوضَعْ لمُسَمَّاها باعتبارِ معنًى قامَ بِهِ، فكانتْ كُلُّها سواءً، ولمْ يكُنْ فَرْقٌ بينَ مدْلُولاتِها، وهذا مكابرةٌ صريحةٌ، وبُهْتٌ بيِّنٌ، فإنَّ مَنْ جعلَ معنى اسمِ «**القديرِ**» هوَ معنى اسمِ «**السميعِ، البصيرِ**»، ومعنى اسمِ «**التوَّابِ**» هوَ معنى اسمِ «**المنتقمِ**»، ومعنى اسمِ «**المُعْطِي**» هوَ معنى اسمِ «**المانعِ**»، فقدْ كابرَ العقلَ واللغةَ والفطرةَ.

فنفيُ معاني أسمائِهِ منْ أعظمِ الإلحادِ فيها، والإلحادُ فيها أنواعٌ، هذا **أحدُها**.

الثاني: تسميةُ الأوثانِ بها، كما يُسمُّونها آلهةً، وقالَ ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ: «**عَدَلُوا بأسماءِ اللهِ تعالى عمَّا هيَ عليهِ، فسَمَّوْا بها أوثانَهم، فزادُوا ونقصُوا، فاشتقُّوا**

عن عَطاءِ بْنِ السائبِ، عنِ الأَغَرِّ أبي مُسْلِمٍ، عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

ورواهُ ابنُ مَاجَهْ أيضًا بَعْدَ الحديثِ السابقِ مباشرةً من طريقِ عبدِ الرحمنِ المُحارِبِيِّ، عن عَطاءِ بنِ السائبِ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بِهِ.

قال البُوصِيرِيُّ: هذا إسنادٌ رِجالُهُ ثِقاتٌ، إلا أنَّ عطاءَ بنَ السائبِ اخْتَلَطَ بأَخَرَةٍ، ولم يُعْرَفْ حَالُ عَبْدِ الرحمنِ بنِ مُحَمَّدٍ المُحارِبِيِّ: هَلْ رَوَى عنه قَبْلَ الاختلاطِ أو بَعْدَهُ.

وَرَوَى الإمامُ مُسلمٌ في صَحِيحِهِ في كتابِ البِرِّ والصلةِ والآدابِ/ بابُ تحريمِ الكِبْرِ، مِن طَرِيقِ الأعمشِ: حدثنا أبو إسحاقَ، عن أَبِي مُسْلِمٍ الأَغَرِّ، أنه حدَّثَهُ عَن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ وأبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالاَ: قالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: «**العِزُّ إِزَارِي، والكِبْرِياءُ رِدَائِي، فَمَنْ يُنَازِعْنِي عَذَّبْتُهُ**».

اللاَّتَ من اللهِ، والعُزَّى من العزيزِ، ومَنَاةَ من المنَّانِ». ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]: «**يَكْذِبُونَ عليهِ**»؛ وهذا تفسيرٌ بالمعنى.

وحقيقةُ الإلحادِ فيها: العدولُ بها عن الصوابِ فيها، وإدخالُ ما ليسَ منْ معانيها فيها، وإخراجُ حقائقِ معانيها عنها. هذا حقيقةُ الإلحادِ، ومَنْ فعلَ ذلكَ فقدْ كذبَ على اللهِ، ففسَّرَ ابنُ عبَّاسٍ الإلحادَ بالكذبِ، أوْ هوَ غايَةُ الملحِدِ في أسمائِهِ تعالى، فإنَّهُ إذا أدخلَ في معانيها ما ليسَ منها، وخرج بها عنْ حقائقِها، أوْ بعضِها، فقدْ عدَلَ بها عن الصوابِ والحقِّ، وهوَ حقيقةُ الإلحادِ.

فالإلحادُ: إمَّا بجحدِها وإنكارِها، وإمَّا بجحدِ معانيها وتعطيلِها، وإمَّا بتحريفِها عن الصوابِ وإخراجِها عن الحقِّ بالتأويلاتِ الباطلةِ، وإمَّا بجعلِها أسماءً لهذهِ المخلوقاتِ المصنوعاتِ، كإلحادِ أهلِ الاتِّحادِ؛ فإنَّهم جعلُوها أسماءَ هذا الكونِ، محمُودَها ومذمُومَها، حتَّى قالَ زعيمُهم: (وهوَ المُسَمَّى بكلِّ اسمٍ ممدوحٍ عقلاً وشرعاً وعُرْفاً، وبكلِّ اسمٍ مذمومٍ عقلاً وشرعاً وعرفاً)، تعالى اللهُ عمَّا يقولُ الملحدونَ عُلُوًّا كبيراً.

[فَصْلٌ]

الأصلُ الثاني: أنَّ الاسمَ منْ أسمائِهِ تباركَ وتعالى كما يدُلُّ على الذاتِ والصفةِ التي اشْتُقَّ منها بالمطابقةِ، فإنَّهُ يدلُّ عليهِ دلالتيْنِ أُخرييْنِ بالتضمُّنِ واللزومِ، فيدلُّ على الصفةِ بمفردِها بالتضمُّنِ، وكذلكَ على الذاتِ المجرَّدةِ عن الصفةِ، ويدلُّ على الصفةِ الأخرى باللزومِ، فإنَّ اسمَ «**السميع**» يدلُّ على ذاتِ الرَّبِّ وسمعِهِ بالمطابقةِ، وعلى الذاتِ وحدَها، وعلى السمعِ وحدَهُ بالتضمُّنِ، ويدلُّ على اسمِ «**الحيِّ**» وصفةِ الحياةِ بالالتزامِ، وكذلكَ سائرُ أسمائِهِ وصفاتِهِ، ولكنْ

يتفاوتُ الناسُ في معرفةِ اللزومِ وعدَمِهِ، ومنْ هاهنا يقعُ اختلافُهم في كثيرٍ من الأسماءِ والصِّفَاتِ والأحكام، فإنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ الفعلَ الاختياريَّ لازمٌ للحياةِ، وأنَّ السمعَ والبصرَ لازمٌ للحياةِ الكاملةِ، وأنَّ سائرَ الكمالِ مِنْ لوازمِ الحياةِ الكاملةِ أثبتَ منْ أسماءِ الربِّ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ما يُنْكِرُهُ مَنْ لمْ يعرفْ لزومَ ذلكَ، ولا عَرَفَ حقيقةَ الحياةِ ولوازِمَها، وكذلكَ سائرُ صفاتِهِ...

[فَصْلٌ]

إذا تقرَّرَ هذانِ الأصلانِ، فاسمُ «الله» دالٌّ على جميعِ الأسماءِ الحسنى والصِّفَاتِ العليا بالدلالاتِ الثلاثِ، فإنَّهُ دالٌّ على إلهيَّتِهِ المتضمِّنَةِ لثبوتِ صفاتِ الإلهيَّةِ لهُ، معَ نفيِ أضدادِها عنهُ.

وصفاتُ الإلهيَّةِ: هيَ صفاتُ الكمالِ المنـزَّهةُ عن التشبيهِ والمثالِ، وعن العيوبِ والنقائصِ، ولهذا يُضيفُ اللهُ تعالى سائرَ الأسماءِ الحسنى إلى هذا الاسمِ العظيمِ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. ويُقالُ: «**الرحمنُ، والرحيمُ، والقدُّوسُ، والسلامُ، والعزيزُ، والحكيمُ**» منْ أسماءِ اللهِ، ولا يُقالُ: «**اللهُ**» منْ أسماءِ «**الرحمنِ**»، ولا منْ أسماءِ «**العزيزِ**»، ونحوَ ذلكَ.

فعُلِمَ أنَّ اسمَهُ «اللهَ» مستلزمٌ لجميعِ معاني الأسماءِ الحسنى، دالٌّ عليها بالإجمالِ، والأسماءُ الحسنى تفصيلٌ وتَبْيِينٌ لصفاتِ الإلهيَّةِ، التي اشْتُقَّ منها اسمُ «الله»، واسمُ «الله» دالٌّ على كونِهِ مَأْلُوهاً معبوداً، تُؤَلِّهُهُ الخلائقُ محبَّةً وتعظيماً وخضوعاً وفزعاً إليهِ في الحوائجِ والنوائبِ، وذلكَ مستلزمٌ لكمالِ رُبوبيَّتِهِ ورحمَتِهِ، المتضمِّنَيْنِ لكمالِ الملكِ والحمدِ، وإلهيَّتُهُ وربوبيَّتُهُ ورحمانيَّتُهُ وملكُهُ مستلزمٌ لجميعِ صفاتِ كمالِهِ؛ إذْ يستحيلُ ثبوتُ ذلكَ لمَنْ ليسَ بحيٍّ، ولا سميعٍ، ولا بصيرٍ، ولا قادرٍ، ولا متكلِّمٍ، ولا فعَّالٍ لما يريدُ، ولا حكيمٍ في أفعالِهِ.

وصفاتُ الجلالِ والجمالِ: أخصُّ باسمِ «اللهِ».

وصفاتُ الفعلِ والقدرةِ، والتفرُّدِ بالضرِّ والنفعِ، والعطاءِ والمنعِ، ونفوذِ المشيئةِ وكمالِ القوَّةِ، وتدبيرِ أمرِ الخليقةِ: أخصُّ باسمِ «**الربِّ**».

وصفاتُ الإحسانِ، والجودِ والبرِّ، والحنَانِ والمنَّةِ والرأفةِ واللطفِ أخصُّ باسمِ «**الرحمنِ**»، وكرَّرَ إيذاناً بثبوتِ الوصفِ وحصولِ أثرِهِ وتَعَلُّقِهِ بمتعلَّقاتِهِ.

فالرحمنُ: الذي الرحمةُ وصْفُهُ، **والرحيمُ**: الراحمُ لعبادِهِ، ولهذا يقولُ تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: ١١٧]. ولمْ يجئْ رحمانٌ بعبادِهِ، ولا رحمانٌ بالمؤمنينَ، معَ ما في اسمِ «**الرحمنِ**» الذي هوَ على وزنِ «فَعْلانَ» منْ سَعَةِ هذا الوصفِ، وثبوتِ جميعِ معناهُ الموصوفِ بِهِ.

ألا ترى أنَّهُم يقولونَ: غضبانُ، للممتلِئِ غضباً، وندمانُ وحيرانُ وسكرانُ ولهفانُ لمَنْ مُلِئَ بذلكَ، فبناءُ (**فَعْلان**) للسَّعَةِ والشمولِ، ولهذا يَقْرِنُ استواءَهُ على العرشِ بهذا الاسمِ كثيراً، كقولِهِ تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، فاستوى على عرشِهِ باسمِ الرحمنِ؛ لأنَّ العرشَ محيطٌ بالمخلوقاتِ قدْ وَسِعَها، والرحمةُ محيطةٌ بالخلقِ واسعةٌ لهم، كما قالَ تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فاستوى على أوسعِ المخلوقاتِ بأوسعِ الصِّفَاتِ؛ فلذلكَ وَسِعَتْ رحمتُهُ كلَّ شيءٍ.

وفي الصحيحِ منْ حديثِ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «**لمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ، فَهُوَ عِنْدَهُ مَوْضُوعٌ عَلَى العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي**»، وفي لفظٍ: «**فَهُوَ عِنْدَهُ عَلَى العَرْشِ**».

فتأمَّل اختصاصَ هذا الكتابِ بذكرِ الرحمةِ، ووضْعَهُ عندَهُ على العرشِ، وطَابَقْ بينَ ذلكَ وبينَ قولِهِ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه: ٥] وقولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩﴾ [الفرقان: ٥٩]، ينفتح لكَ بابٌ عظيمٌ منْ معرفةِ الربِّ تباركَ وتعالى، إنْ لمْ يُغْلِقْهُ عنكَ التعطيلُ والتجهُّمُ.

وصفاتُ العَدْلِ، والقبضِ والبسطِ، والخفضِ والرفعِ، والعطاءِ والمنعِ، والإعزازِ والإذلالِ، والقهرِ والحُكْمِ، ونحوِها: أخصُّ باسمِ «**الملكِ**»، وخصَّهُ بيومِ الدينِ- وهوَ الجزاءُ بالعَدْلِ- لتفرُّدِهِ بالحكمِ فيهِ وحدَهُ، ولأنَّهُ اليومُ الحقُّ، وما قبْلَهُ كساعةٍ، ولأنَّهُ الغايَةُ، وأيَّامُ الدُّنيا مراحلُ إليهِ.

[فَصْلٌ]

وتأمَّل ارتباطَ الخلقِ والأمرِ بهذهِ الأسماءِ الثلاثةِ، وهيَ: «**اللهُ، والربُّ، والرحمنُ**»، كيفَ نشأَ عنها الخلقُ، والأمرُ، والثوابُ، والعقابُ؟!! وكيفَ جمعَت الخلقَ وفرَّقَتْهم؟!! فلها الجمعُ، ولها الفرقُ.

فاسمُ «**الربِّ**» لهُ الجمعُ الجامعُ لجميعِ المخلوقاتِ، فهوَ ربُّ كلِّ شيءٍ وخالقُهُ، والقادرُ عليهِ، لا يخرجُ شيءٌ عنْ ربوبيَّتِهِ، وكلُّ مَنْ في السَّماوَاتِ والأرضِ عبدٌ لهُ في قبضَتِهِ، وتحتَ قهرِهِ، فاجتمَعُوا بصفةِ الربوبيَّةِ، وافترَقُوا بصفةِ الإلهيَّةِ، فألَّهَهُ وحدَهُ السعداءُ، وأقرُّوا لهُ طَوْعاً بأنَّهُ اللهُ الذي لا إلهَ إلاَّ هوَ، الذي لا تنبغي العبادةُ والتوكُّلُ والرجاءُ والخوفُ والحبُّ والإنابةُ والإخباتُ والخشيَةُ والتذلُّلُ والخضوعُ إلاَّ لهُ.

وهنا افترقَ الناسُ، وصاروا فريقَيْنِ: فريقاً مشركينَ في السَّعيرِ، وفريقاً مُوحِّدينَ في الجنَّةِ.

فالإلهيَّةُ هيَ التي فرَّقتهم، كما أنَّ الربوبيَّةَ هيَ التي جمعَتْهُم.

فالدينُ والشرعُ، والأمرُ والنهيُ - مظهرُهُ وقيامُهُ - منْ صفةِ الإلهيَّةِ، والخلقُ والإيجادُ والتدبيرُ والفعلُ منْ صفةِ الربوبيَّةِ، والجزاءُ بالثوابِ والعقابِ والجنَّةِ والنارِ: صفةُ الملكِ، وهوَ مَلِكُ يومِ الدينِ، فأمَرَهُم بإلهيَّتِهِ وأعانَهُم ووفَّقَهُم وهدَاهُم، وأضَلَّهُم بربوبيَّتِهِ، وأثابَهُم وعاقَبَهُم بمُلْكِهِ وعَدْلِهِ. وكلُّ واحدةٍ منْ هذهِ الأمورِ لا تنفكُّ عن الأخرى.

وأمَّا الرحمةُ: فهيَ التَّعلُّقُ، والسببُ الذي بينَ اللهِ وبينَ عبادِهِ، فالتأْليهُ منهم لهُ، والربوبيَّةُ منهُ لهم، والرحمةُ سببٌ واصلٌ بينَهُ وبينَ عبادِهِ، بها أَرسلَ إليهم رُسُلَهُ، وأَنزلَ عليهم كُتبَهُ، وبها هدَاهُم، وبها أسكَنَهُم دارَ ثوابِهِ، وبها رَزَقَهُم وعافَاهُم وأنعمَ عليهم. فبيْنَهُم وبينَهُ سببُ العبوديَّةِ، وبينَهُ وبينَهم سببُ الرحمةِ.

واقترانُ ربوبيَّتِهِ برحمتِهِ كاقترانِ استوائِهِ على عرشِهِ برحمتِهِ. فـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] مطابقٌ لقولِهِ: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: ٢-٣]؛ فإنَّ شمولَ الربوبيَّةِ وسَعَتَها بحيثُ لا يخرجُ شيءٌ عنها أقصى شمولِ الرحمةِ وسَعَتِها. فَوَسِعَ كلَّ شيءٍ برحمتِهِ وربوبيَّتِهِ، معَ أنَّ في كونِهِ ربًّا للعالمينَ ما يدلُّ على علوِّهِ على خلقِهِ وكونِهِ فوقَ كلِّ شيءٍ، كما يأتي بيانُهُ إنْ شاءَ اللهُ.

[فَصلٌ]

في ذكرِ هذهِ الأسماءِ بعدَ الحمدِ، وإيقاعِ الحمدِ على مضمُونِها ومُقْتَضَاها: ما يدُلُّ على أنَّهُ محمودٌ في إلهيَّتِهِ، محمودٌ في رُبُوبيَّتِهِ، محمودٌ في رحمانيَّتِهِ، محمودٌ في مُلْكِهِ، وأنَّهُ إلهٌ محمودٌ، وربٌّ محمودٌ، ورحمانُ محمودٌ، ومَلكٌ محمودٌ، فلهُ بذلكَ جميعُ أقسامِ الكمالِ: كمالٌ منْ هذا الاسمِ بمفردِهِ، وكمالٌ من الآخرِ بمفردِهِ، وكمالٌ من اقترانِ أحدِهما بالآخرِ.

مثالُ ذلكَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾ [التغابن: ٦]، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١١٠﴾ [التوبة: ١١٠]، ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [الممتحنة: ٧]، فالغِنى صفةُ كمالٍ، والحمدُ صفةُ كمالٍ، واقترانُ غِناهُ بحمدِهِ كمالٌ أيضاً. وعِلْمُهُ كمالٌ، وحكمتُهُ كمالٌ، واقترانُ العلمِ بالحكمةِ كمالٌ أيضاً. وقُدرتُهُ كمالٌ، ومغفرتُهُ كمالٌ، واقترانُ القدرةِ بالمغفرةِ كمالٌ، وكذلكَ العفوُ بعدَ القدرةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٤٣﴾ [النساء: ٤٣] واقترانُ العلمِ بالحِلْمِ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝١٢﴾ [النساء: ١٢].

وحَمَلَةُ العرشِ أربعةٌ: اثنانِ يقولانِ: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى حِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ)، **واثنانِ يقولانِ:** (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ)، فما كلُّ مَنْ قَدَرَ عَفَا، ولا كلُّ مَنْ عفا يعْفُو عنْ قُدْرَةٍ، ولا كلُّ مَنْ علِمَ يكونُ حَلِيماً، ولا كلُّ حليمٍ عالمٌ. فما قُرِنَ شيءٌ إلى شيءٍ أَزْيَنُ من حِلْمٍ إلى عِلْمٍ، ومِنْ عفوٍ إلى قدرةٍ، ومِنْ مُلكٍ إلى حَمْدٍ، ومنْ عِزَّةٍ إلى رحمةٍ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ [الشعراء: ٩].

وفي هذا أظهرُ الدلالةِ على أنَّ أسماءَ الربِّ تعالى مُشْتَقَّةٌ منْ أوصافٍ ومعانٍ قامَتْ بِهِ، وأنَّ كلَّ اسمٍ يناسبُ ما ذُكِرَ معهُ، واقترَنَ بِهِ منْ فعلِهِ وأمْرِهِ. واللهُ المُوَفِّقُ للصوابِ). [١]

[فَصْلٌ]

([و] اعلمْ أنَّ كلَّ حيٍّ سوى اللهِ فهوَ فقيرٌ إلى جَلْبِ ما ينفعُهُ ودفعِ ما يضُرُّهُ، والمنفعةُ للحيِّ مِنْ جنسِ النعيمِ واللذَّةِ، والمضَرَّةُ منْ جنسِ الألمِ والعذابِ، فلا بدَّ لهُ منْ أمرَيْنِ: أحدُهما هوَ المطلوبُ المقصودُ المحبوبُ الذي ينتفعُ بِهِ ويتلذَّذُ

(١) مدارِجُ السَّالِكِينَ (١ / ٤٨-٦٠).

بِهِ، والثاني هوَ المعينُ المُوَصِّلُ المُحَصِّلُ لذلكَ المقصودِ، والمانعُ لحصولِ المكروهِ، والدافعُ لهُ بعدَ وقوعِهِ.

فها هنا أربعةُ أشياءَ:

أَمْرٌ محبوبٌ مطلوبُ الوجودِ.

والثاني: أمرٌ مكروهٌ مطلوبُ العدمِ.

والثالثُ: الوسيلةُ إلى حصولِ المحبوبِ.

والرابعُ: الوسيلةُ إلى دفعِ المكروهِ.

فهذِهِ الأمورُ الأربعةُ ضروريَّةٌ للعبدِ، بلْ ولكلِّ حيٍّ سوى اللهِ، لا يقومُ صلاحُهُ إلاَّ بها.

إذا عُرِفَ هذا فاللهُ سُبحانَهُ وتعالى هوَ المطلوبُ المعبودُ المحبوبُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وهوَ وحدَهُ المعينُ للعبدِ على حصولِ مطلوبِهِ، فلا معبودَ سواهُ ولا مُعِينَ على المطلوبِ غيرُهُ، وما سِواهُ هوَ المكروهُ المطلوبُ بُعْدُهُ، وهوَ المعينُ على دفْعِهِ، فهوَ سُبحانَهُ الجامعُ للأمورِ الأربعةِ دونَ ما سواهُ، وهذا معنى قولِ العبدِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنَّ العبادةَ تتضمَّنُ المقصودَ المطلوبَ على أكملِ الوجوهِ، والمستعانُ هوَ الذي يُسْتَعَانُ بِهِ على حصولِ المطلوبِ ودفعِ المكروهِ. فالأوَّلُ: مِنْ مُقْتَضَى ألوهيَّتِهِ، والثاني: منْ مُقْتَضَى ربوبيَّتِهِ؛ لأنَّ الإلهَ هوَ الذي يُؤَلَّهُ فيُعبدُ محبَّةً وإنابةً وإجلالاً وإكراماً، والربُّ هوَ الذي يَرُبُّ عبدَهُ فَيُعْطِيهِ خلْقَهُ ثُمَّ يهديهِ إلى جميعِ أحوالِهِ ومصالحِهِ التي بها كمالُهُ، ويهديهِ إلى اجتنابِ المفاسدِ التي بها فسادُهُ وهلاكُهُ.

وفي القرآنِ سبعةُ مواضعَ تنتظمُ هذَيْنِ الأصلَيْنِ:

أحدُها: قولُهُ تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

الثاني: قولُهُ تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود: ٨٨].

الثالثُ: قولُهُ تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣].

الرابعُ: قولُهُ تعالى: ﴿عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾ [الممتحنة: ٤].

الخامسُ: قولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨].

السادس: قولُهُ: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾ [الرعد: ٣٠].

السابع: قولُهُ: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾ [المزمّل: ٨-٩]).[1]

[فَصْلٌ: فِي تضمُّنِها الردَّ على الجهميَّةِ مُعطِّلَةِ الصِّفَاتِ][2]

وذلك منْ وجوهٍ:

أحدُها: منْ قولِهِ: (الْحَمْدُ للهِ)؛ فإنَّ إثباتَ الحمدِ الكاملِ لهُ يقتضي ثبوتَ كلِّ ما يُحمدُ عليهِ منْ صفاتِ كمالِهِ ونعوتِ جلالِهِ؛ إذْ مَنْ عُدِمَ صفاتِ الكمالِ فليسَ بمحمودٍ على الإطلاقِ، وغايَتُهُ: أنَّهُ محمودٌ منْ وَجْهٍ دونَ وجهٍ. ولا يكونُ محموداً بكلِّ وجهٍ، وبكلِّ اعتبارٍ، بجميعِ أنواعِ الحمدِ: إلاَّ مَن استوْلَى على صفاتِ الكمالِ جميعِها. فلوْ عَدِمَ منها صفةً واحدةً لَنقصَ منْ حَمْدِهِ بحسَبِها.

- وكذلكَ في إثباتِ صفةِ الرحمةِ لهُ: ما يتضمَّنُ إثباتَ الصِّفَاتِ التي تستلزِمُها: من الحياةِ والإرادةِ والقدرةِ والسمعِ والبصرِ وغيرِها.

- وكذلكَ صفةُ الربوبيَّةِ: تستلزمُ جميعَ صفاتِ الفعلِ، وصفةُ الإلهيَّةِ تستلزمُ جميعَ أوصافِ الكمالِ: ذاتاً وأفعالاً، كما تقدَّمَ بيانُهُ.

---

(١) طريقُ الهِجْرَتَيْنِ (٥٦).

(٢) لابنِ القيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ- مَبْحَثٌ نَفيسٌ جِدًّا فِي مَدَارِجِ السَّالِكِينَ (١/ ٨١- ٩٥) بَيَّنَ فِيهِ اشْتِمَالَ الفَاتِحَةِ عَلَى الرَّدِّ عَلَى جَمِيعِ المُبْطِلِينَ مِن أَهْلِ المِلَلِ والنِّحَلِ والرَّدِ على أَهلِ البِدَعِ والضَّلالِ من هَذِهِ الأُمَّةِ.

فكوْنُهُ محموداً، إلهاً، رَبًّا، رحمانَ، رحيماً، ملكاً، معبوداً، مُسْتَعاناً، هادياً، مُنْعِماً، يَرْضَى ويغضبُ - معَ نفيِ قيامِ الصِّفَاتِ بهِ - جمعٌ بينَ النقيضَيْنِ، وهوَ منْ أمحلِ المحالِ.

وهذهِ الطريقُ تتضمَّنُ إثباتَ الصِّفَاتِ الخبريَّةِ منْ وجهيْنِ:

أحدُهما: أنَّها منْ لوازمِ كمالِهِ المطلقِ؛ فإنَّ استواءَهُ على عرشِهِ منْ لوازمِ علوِّهِ، ونـزولَهُ كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا في نصفِ الليلِ الثاني: منْ لوازمِ رحمَتِهِ وربوبيَّتِهِ. وهكذا سائرُ الصِّفَاتِ الخبريَّةِ.

الوجهُ الثاني: أنَّ السمعَ وَرَدَ بها، ثناءً على اللهِ ومدحاً لهُ، وتعرُّفاً منهُ إلى عبادِهِ بها. فجحْدُها وتحريفُها عمَّا دلَّتْ عليهِ، وعمَّا أُريدَ بها: مُنَاقِضٌ لما جاءَتْ بهِ. فلكَ أنْ تستدِلَّ بطريقِ السمعِ على أنَّها كمالٌ، وأنْ تستدلَّ بالعقلِ كما تقدَّمَ).[١]

(١) مَدارِجُ السَّالِكينَ (١/ ٨٦-٨٧).

الباب الخامس: في بيان دلالة قَوْل الله تعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ عَلَى ثُبُوتِ صِفَاتِ الكَمَالِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ

([اعلَمْ -أرشَدَكَ اللهُ تعالى- أنَّ اللهَ] سُبحانَهُ وصفَ نفسَهُ بأنَّهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وأنَّهُ لا سَمِيَّ لهُ، ولا كُفْءَ لهُ، وهذا يستلزمُ وصفَهُ بصفاتِ الكمالِ، التي فاتَ بها شَبَهَ المخلوقينَ، واستَحَقَّ بقيامِها بِهِ أنْ يكونَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وهكذا كونُهُ ليسَ لهُ سَمِيٌّ؛ أيْ: مثيلٌ يُسَامِيهِ في صفاتِهِ وأفعالِهِ، ولا مَنْ يُكَافِيهِ فيها.

ولوْ كانَ مسلوبَ الصِّفَاتِ والأفعالِ والكلامِ والاستواءِ والوجهِ واليدَيْنِ، ومنفيًّا عنْهُ مُبَاينَةُ العالمِ ومحايثَتُهُ، واتِّصَالُهُ بِهِ وانفصالُهُ عنهُ، وعلوُّهُ عليهِ. وكونُهُ يَمْنَتَهُ أوْ يَسْرَتَهُ، وأمامَهُ أوْ وراءَهُ؛ لكانَ كلُّ عَدَمٍ مثلاً لهُ في ذلكَ، فيكونُ قدْ نفى عنْ نفسِهِ مشابهةَ الموجوداتِ، وأثبتَ لها مماثلةَ المعدوماتِ، فهذا النفيُ واقعٌ على أكملِ الموجوداتِ وعلى العدَمِ المحضِ؛ فإنَّ العدَمَ المحضَ لا مثلَ لهُ ولا كُفءَ ولا سَمِيَّ، فلوْ كانَ المرادُ بهذا نفيَ صفاتِهِ وأفعالِهِ واستوائِهِ على عرشِهِ، وتكلُّمِهِ بالوحيِ، وتكليمِهِ لمَنْ يشاءُ منْ خلقِهِ، لكانَ ذلكَ وصفاً لهُ بغايَةِ العدمِ، فهذا النفيُ واقعٌ على العدَمِ المحضِ، وعلى مَنْ كثُرَتْ أوصافُ كمالِهِ، ونعوتُ جلالِهِ، وأسماؤُهُ الحسنى، حتَّى تفرَّدَ بذلكَ الكمالِ، فلمْ يكُنْ لهُ شَبَهٌ في كمالِهِ، ولا سَمِيٌّ ولا كفءٌ، فإذا أبْطَلْتُمْ[1] هذا المعنى الصحيحَ تعيَّنَ

---

(١) الخِطَابُ لِمُعَطِّلَةِ الصِّفَاتِ.

ذلكَ المعنى الباطلُ قطعاً، وصارَ المعنى أنَّهُ لا يُوصَفُ بصفةٍ أصلاً ولا يفعلُ فعلاً ولا لهُ وجهٌ ولا يدٌ ولا يسمعُ ولا يُبصِرُ ولا يعلمُ ولا يَقْدِرُ تحقيقاً لمعنى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وقالَ إخوانُكم من الملاحدةِ: ليسَ لهُ ذاتٌ أصلاً تحقيقاً لهذا النفيِ، وقال غُلاتُهم: ولا وجودَ لهُ، تحقيقاً لهذا النفيِ.

وأمَّا الرُّسلُ وأتباعُهم، فقالُوا: إنَّهُ حيٌّ، ولهُ حياةٌ، وليسَ كمثلِهِ شيءٌ في حياتِهِ، وهوَ قويٌّ ولَهُ القوَّةُ، وليس كمثلِهِ شيءٌ في قُوَّتِهِ، وهوَ سميعٌ بصيرٌ، لهُ السمعُ والبصرُ، يسمعُ ويُبصرُ، وليسَ كمثلِهِ شيءٌ في سمْعِهِ وبصَرِهِ، ومتكلِّمٌ ومُكلِّمٌ، وليسَ كمثلِهِ شيءٌ في كلامِهِ وتكليمِهِ، ولَهُ وَجْهٌ ويدَانِ، وليسَ كمثلِهِ شيءٌ، وهوَ مُسْتَوٍ على عرْشِهِ، وليسَ كمثلِهِ شيءٌ.

وهذا النفيُ لا يتحقَّقُ إلاَّ بإثباتِ صفاتِ الكمالِ؛ فإنَّهُ مدحٌ لهُ وثناءٌ أثنى بهِ على نفسِهِ، والعدمُ المحضُ لا يُمْدَحُ بهِ أحدٌ، ولا يُثْنَى بهِ عليهِ، ولا يكونُ كمالاً لهُ، بلْ هوَ أنقصُ النقصِ، وإنَّما يكونُ كمالاً إذا تضمَّنَ الإثباتَ، كقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] لكمالِ حياتِهِ وقيُّوميَّتِهِ، وقولِهِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] لكمالِ غِناهُ ومُلكِهِ وربوبيَّتِهِ، وقولِهِ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٦]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩]، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر: ٣١]؛ لكمالِ عَدْلِهِ وغِناهُ ورَحمتِهِ، وقولِهِ: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨] لكمالِ قدرتِهِ، وقولِهِ: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١]، ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [إبراهيم: ٣٨]، ونظائرِ ذلكَ لكمالِ عِلمِهِ، وقوْلِهِ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] لعظمتِهِ وإحاطتِهِ بما سِوَاهُ، وأنَّهُ أكبرُ منْ كلِّ شيءٍ وأنَّهُ وَاسِعٌ، فيُرَى ولكنْ لا يُحاطُ بِهِ إدراكاً، كما

يُعلَمُ ولا يُحاطُ بِهِ عِلْماً، فيُرى ولا يُحاطُ بِهِ رؤيَةً، **فهكذا** ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] **هوَ متضمِّنٌ لإثباتِ جميعِ صفاتِ الكمالِ** على وجهِ الإجمالِ، وهذا هوَ المعقولُ في نظرِ الناسِ وعقولِهم، وإذا قالُوا: فلانٌ عديمُ المثلِ، أوْ قدْ أصبحَ ولا مثلَ لهُ في الناسِ، أوْ ما لهُ شبيهٌ ولا لهُ مَنْ يُكَافِيهِ، إنَّما يريدونَ بذلكَ أنَّهُ تفرَّدَ من الصِّفَاتِ والأفعالِ والمجدِ بما لمْ يَلْحَقْهُ فيهِ غيرُهُ، فصارَ واحداً من الجنسِ لا مثيلَ لهُ.

ولوْ أطلقوا ذلكَ عليهِ باعتبارِ نفيِ صفاتِهِ وأفعالِهِ ومجدِهِ لكانَ ذلكَ عندَهُم غايَةَ الذمِّ والتنقُّصِ لهُ، فإذا أُطْلِقَ ذلكَ في سياقِ المدحِ والثناءِ لمْ يشُكَّ عاقلٌ في أنَّهُ إنَّما أرادَ كثرةَ أوصافِهِ وأفعالِهِ وأسمائِهِ، التي لها حقائقُ تُحْمَلُ عليها، فهلْ يقولُ عاقلٌ لَمِنْ لا علمَ لهُ، ولا قُدْرَةَ، ولا سمعَ، ولا بصرَ، ولا يتصرَّفُ بنفْسِهِ، ولا يفعلُ شيئاً، ولا يتكلَّمُ، ولا لهُ وجهٌ، ولا يدٌ، ولا قوَّةٌ، ولا فضيلةٌ من الفضائلِ: إنَّهُ لا شبيهَ لهُ ولا مثلَ لهُ، وإنَّهُ وحيدُ دهرِهِ، وفريدُ عصرِهِ، ونسيجُ وَحْدِهِ؟!

وهلْ فطرَ اللهُ الأُمَمَ، وأطْلَقَ ألسنَتَهُم ولُغاتِهِم إلاَّ على ضدِّ ذلكَ، وهلْ كانَ ربُّ العالمينَ أهلَ الثناءِ والمجدِ إلاَّ بأوصافِ كمالِهِ، ونعوتِ جلالِهِ، وأفعالِهِ، وأسمائِهِ الحُسنى، وإلاَّ فبماذا يُثْنِي عليهِ المُثْنُونَ؟! وبماذا يُثْنِي على نفْسِهِ أعظمَ ممَّا يُثْنِي بِهِ عليهِ جميعُ خلقِهِ؟! ولأيِّ شيءٍ يقولُ أَعْرَفُ خلقِهِ بهِ: «**لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»؟! ومعلومٌ أنَّ هذا الثناءَ الذي أخبرَ أنَّهُ لا يُحْصِيهِ، لوْ كانَ بالنفيِ لكانَ هؤلاءِ أعلمَ بِهِ منهُ، وأشدَّ إحصاءً لهُ، فإنَّهم نفَوْا عنهُ حقائقَ الأسماءِ والصِّفَاتِ نفياً مُفَصَّلاً، وذلكَ ممَّا يحصيهِ المحصي، بلا كُلْفَةٍ ولا تعبٍ، وقدْ فصَّلَهُ النُّفَاةُ، وأحصَوْهُ وحصَرُوهُ.

[فَصْلٌ]

[وممَّا يُبيِّنُ ذلكَ] أنَّ اللهَ سُبحانَهُ وتعالى إنَّما نفى عنْ نفسِهِ ما يُناقِضُ ويُضادُّ ثبوتَ الصِّفَاتِ والأفعالِ، فلمْ يَنْفِ إلاَّ أمراً عدمِيًّا، أوْ مَا يستلزمُ العدمَ، فنفى السِّنَةَ والنومَ المستلزمَ لعدمِ كمالِ الحياةِ والقيُّومِيَّةِ، ونفى العُزُوبَ والخفاءَ المستلزمَ لنفيِ كمالِ العلمِ، ونفى اللُّغُوبَ المستلزمَ نفيَ كمالِ القدرةِ، ونفى الظلمَ المستلزمَ لنفيِ كمالِ الغِنَى والعَدْلِ، ونفى العبثَ المستلزمَ لنفيِ كمالِ الحكمةِ والعلمِ، ونفى الصاحبةَ والولدَ المستلزمَيْنِ لعدمِ كمالِ الغِنَى، وكذلكَ نفى الشركَ والظهيرَ والشفيعَ المُقَدَّمَ بالشفاعةِ، المستلزمَ لعدمِ كمالِ الغِنَى والقهرِ والملكِ، ونفى الشبيهَ والمثيلَ والكفؤَ المستلزمَ لعدمِ التفرُّدِ بالكمالِ المُطْلَقِ، ونفى إدراكَ الأبصارِ لهُ وإحاطةَ العلمِ بهِ المستلزمَيْنِ لعدمِ كمالِ عظمتِهِ وكبريائِهِ وسَعَتِهِ وإحاطَتِهِ، وكذلكَ نفى الحاجةَ والأكلَ والشربَ عنهُ سُبحانَهُ لاستلزامِ ذلكَ عدمَ غناهُ الكاملِ.

وإذا كانَ إنَّما نفى عنْ نفْسِهِ العدمَ أوْ ما يستلزمُ العدمَ عُلِمَ أنَّهُ أحقُّ بكلِّ وجودٍ وثبوتٍ، وكلِّ أمرٍ وجوديٍّ لا يستلزمُ عدماً ولا نقصاً ولا عيباً.

وهذا هوَ الذي دلَّ عليهِ صريحُ العقلِ، فإنَّهُ سُبحانَهُ لهُ الوجودُ الدائمُ القديمُ الواجبُ لنفْسِهِ الذي لمْ يستفدْهُ منْ غيرِهِ، ووجودُ كلِّ موجودٍ مفتقرٌ إليهِ ومتوقِّفٌ في تحقيقِهِ عليهِ.

والكمالُ وجودٌ كُلُّهُ، والعدمُ نقصٌ كلُّهُ، فإنَّ العدمَ كاسْمِهِ لا شيءَ، فعادَ النفيُ الصحيحُ إلى نفيِ النقائصِ والعيوبِ، ونفيِ المماثلةِ في الكمالِ، وعادَ الأمرانِ إلى نفيِ النقصِ.

وحقيقةُ ذلكَ نفيُ العدمِ وما يستلزمُ العدمَ. فتأمَّلْ؛ هلْ نفى القرآنُ والسُّنَّةُ عنهُ سُبحانَهُ سِوَى ذلكَ؟ وتأمَّلْ؛ هلْ ينفي العقلُ الصحيحُ الذي لمْ يَفْسُدْ بشُبَهِ هؤلاءِ الضُلاَّلِ الحَيَارَى غيرَ ذلكَ؟

فالرسُلُ جاءُوا بإثباتِ ما يُضادُّهُ، وهوَ سُبحانَهُ أخبرَ أنَّهُ لمْ يكُنْ لهُ كُفُواً أحدٌ، بعدَ وصفِهِ نفسَهُ بأنَّهُ الصمدُ، والصمدُ: السَّيِّدُ الذي كَمُلَ في سُؤْدُدِهِ، ولهذا كانت العربُ تُسَمِّي أشرافَها بهذا الاسمِ، لكثرةِ الصِّفَاتِ المحمودةِ في المُسَمَّى بهِ، قالَ شاعرُهم:

ألا بَكَّـرَ الناعـي بخـيرِ بنـي أَسَـدْ بعمرِو بنِ مسـعودٍ وبالسَّيِّدِ الصمَدْ

فإنَّ الصمدَ مَنْ تَصْمُدُ نحوَهُ القلوبُ بالرغبةِ والرهبةِ، وذلكَ لكثرةِ خصالِ الخيرِ فيهِ، وكثرةِ الأوصافِ الحميدةِ لهُ، ولهذا قالَ جمهورُ السلفِ؛ منهم عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ: (الصمدُ السيِّدُ الذي كَمُلَ سُؤْدُدُهُ، فهوَ العالمُ الذي كَمُلَ علمُهُ، القادرُ الذي كَمُلَتْ قُدْرَتُهُ، الحكيمُ الذي كَمُلَ حُكْمُهُ، الرحيمُ الذي كمُلَتْ رحمتُهُ، الجَوَادُ الذي كَمُلَ جُودُهُ)، ومَنْ قالَ: (إنَّهُ الذي لا جَوْفَ لهُ)، فقولُهُ لا يُناقضُ هذا التفسيرَ؛ فإنَّ اللفظَ من الاجتماعِ، فهوَ الذي اجتَمَعَتْ فيهِ صفاتُ الكمالِ، ولا جوفَ لهُ، فإنَّما لمْ يكُنْ أحدٌ كُفُواً لَهُ لمَّا كانَ صمداً كاملاً في صمديَّتِهِ، فلوْ لمْ تكُنْ صفاتُ كمالٍ، ونعوتُ جلالٍ، ولمْ يكُنْ لهُ عِلمٌ، ولا قُدْرَةٌ، ولا حياةٌ، ولا إرادةٌ، ولا كلامٌ، ولا وَجْهٌ، ولا يدٌ، ولا سمعٌ، ولا بصرٌ، ولا فعلٌ يقومُ بهِ، ولا يفعلُ شيئاً البتَّةَ، ولا هوَ داخلَ العالمِ ولا خارجَهُ، ولا فوقَ عرْشِهِ، ولا يرضى ولا يغضبُ، ولا يحبُّ ولا يُبغِضُ، ولا هوَ فعَّالٌ لما يريدُ، ولا يُرى ولا يمكنُ أنْ يُرى، ولا يُشارُ إليهِ ولا يمكنُ أنْ يُشارَ إليهِ لكانَ العدمُ المحضُ كُفُواً؛ فإنَّ هذهِ الصِّفَاتِ منطبقةٌ على المعدوم فلوْ كانَ ما يقولُهُ المعطِّلُونَ هوَ الحقَّ لمْ يكُنْ صمداً، وكانَ العدمُ كُفُواً لهُ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم:٦٥]، فأخبرَ أنَّهُ لا سَمِيَّ لهُ عقيبَ قولِ العارفينَ بهِ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ٦٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: ٦٤-٦٥]. فهذا الربُّ الذي لهُ هذا

الجندُ العظيمُ، ولا ينـزلونَ إلاَّ بأمْرِهِ، وهوَ المالكُ ما بينَ أيدِيهم وما خلفَهُم، وما بينَ ذلكَ، فهوَ الذي قدْ كَمُلَتْ قدرتُهُ وسلطانُهُ، وملكُهُ، وكَمُلَ علمُهُ، فلا ينسى شيئاً أبداً، وهوَ القائمُ بتدبيرِ أمرِ السَّماوَاتِ والأرضِ وما بينَهما، كما هوَ الخالقُ لذلكَ كلِّهِ، وهوَ ربُّهُ ومليكُهُ، فهذا الربُّ هوَ الذي لا سَمِيَّ لهُ؛ لتفرُّدِهِ بكمالِ هذهِ الصِّفَاتِ والأفعالِ، فأمَّا مَنْ لا صفةَ لهُ ولا فعلَ ولا حقائقَ لأسمائِهِ إنْ هيَ إلاَّ ألفاظٌ فارغةٌ من المعاني، فالعدمُ سَمِيٌّ لهُ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]؛ فإنَّهُ سُبحانَهُ ذكرَ ذلكَ بعدَ ذِكْرِ نعوتِ كمالِهِ وأوصافِهِ، فقالَ: ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾ [الشورى: ١-٦] إلى قولِهِ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١].

فهذا الموصوفُ بهذهِ الصِّفَاتِ والنعوتِ والأفعالِ والعلوِّ والعظمةِ والحفظِ والعزَّةِ والحكمةِ والملكِ والحمدِ والمغفرةِ والرحمةِ والكلامِ والمشيئةِ والولايةِ، وإحياءِ الموتى، والقدرةِ التامَّةِ الشاملةِ، والحُكمِ بينَ عبادِهِ، وكونِهِ فاطرَ السَّماوَاتِ والأرضِ، وهوَ السميعُ البصيرُ، **فهذا هوَ الذي ليسَ كمثلِهِ شيءٌ؛ لكثرةِ نُعوتِهِ وأوصافِهِ وأسمائِهِ وأفعالِهِ، وثبوتِها لهُ على وجهِ الكمالِ الذي لا يُماثلُهُ فيهِ شيءٌ**، فالمثبتُ للصفاتِ والعلوِّ والكلامِ والأفعالِ وحقائقِ الأسماءِ، هوَ الذي يَصِفُهُ سُبحانَهُ بأنَّهُ ليسَ كمثلِهِ شيءٌ.

وأمَّا المعطِّلُ النافي لصفاتِهِ وحقائقِ أسمائِهِ، فإنَّ وصْفَهُ لهُ بأنَّهُ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١] مجازٌ لا حقيقةٌ، كما يقولُ في سائرِ أوصافِهِ وأسمائِهِ.

ولهذا قالَ مَنْ قالَ من السلفِ: إنَّ النُّفَاةَ جمَعُوا بينَ التشبيهِ والتعطيلِ، فسَمَّوْا تعطيلَهُم تنزيهاً، وسمَّوْا ما وصفَ بهِ نفسَهُ تشبيهاً، وجعَلُوا ما يدُلُّ على ثبوتِ صفاتِ الكمالِ وكثْرَتِها دليلاً على نفْيِها وتعطيلِها، وراجَ ذلكَ على مَنْ لمْ يجْعَلِ اللهُ لهُ نوراً، واغترَّ بهِ مَنْ شاءَ اللهُ، وهدى اللهُ مَن اعتصمَ بالوحيِ والعقلِ والفطرةِ، واللهُ يَهْدِي مَنْ يشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ).(١)

(١) الصَّوَاعِقُ المُرْسَلَةُ (١٠١٩-١٠٣٠).

الباب السادس: في بيان دلالة قَوْلِ الله تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ عَلَى تفرُّدِ الله عَزَّ وَجلَّ بصفاتِ الكمَالِ

[اعلَمْ] (أنَّهُ سُبحانَهُ وصفَ نفسَهُ بأنَّ لهُ المثَلَ الأعلى، فقالَ تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل: ٦٠]. وقالَ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].

فجعلَ مَثَلَ السَّوْءِ المتضمِّنَ للعُيُوبِ والنقائصِ وسَلْبِ الكمالِ للمشركينَ وأربابِهم، وأخبرَ أنَّ المثلَ الأعلى المتضمِّنَ لإثباتِ الكمالاتِ كلِّها لهُ وحدَهُ.

ولهذا كانَ المثلُ الأعلى وهوَ أفعلُ تفضيلٍ - أيْ: أعلَى منْ غيرِهِ- فكيفَ يكونُ أعلى وهوَ عدمٌ محضٌ ونفيٌ صِرفٌ، وأيُّ مَثَلٍ أدنى منْ هذا؟! تعالى اللهُ عنْ قولِ المعطِّلينَ عُلُوًّا كبيراً.

فمَثَلُ السَّوْءِ لعادمِ صفاتِ الكمالِ، ولهذا جعَلَهُ مَثَلَ الجاحدينَ لتوحيدِهِ وكلامِهِ وحكمتِهِ؛ لأنَّهُم فقَدُوا الصِّفَاتِ التي مَن اتَّصفَ بها كانَ كاملاً، وهيَ الإيمانُ والعلمُ والمعرفةُ واليقينُ والعبادةُ للهِ والتوكُّلُ عليهِ، والإنابةُ إليهِ، والزهدُ في الدُّنيا والرغبةُ في الآخرةِ، والصبرُ والرضا والشكرُ، وغيرُ ذلكَ من الصِّفَاتِ التي اتَّصفَ بها مَنْ آمنَ بالآخرةِ. فلمَّا سُلِبَتْ تلكَ الصِّفَاتُ عنهم - وهيَ صفاتُ كمالٍ - صارَ لهم مَثَلُ السَّوْءِ.

فمَنْ سَلَبَ صفاتِ الكمالِ عنِ اللهِ، وعُلُوَّهُ على خلقِهِ، وكلامَهُ وعِلْمَهُ، وقُدرتَهُ ومشيئتَهُ وحياتَهُ وسائرَ ما وصفَ بهِ نفسَهُ فقدْ جعلَ لهُ مثلَ السَّوْءِ، ونـزَّهَهُ عن المَثَلِ الأعلى.

فإنَّ مثلَ السَّوْءِ هوَ العدمُ وما يستلزمُهُ، وضدُّهُ المثلُ الأعلى وهوَ الكمالُ المطلقُ المتضمِّنُ للأمورِ الوجوديَّةِ والمعاني الثبوتيَّةِ التي كُلَّما كانتْ أكثرَ في الموصوفِ وأكملَ كانَ أعلى منْ غيرِهِ.

ولَمَّا كانَ الربُّ تعالى هوَ الأعلى، ووجهُهُ الأعلى، وكلامُهُ الأعلى، وسمعُهُ الأعلى، وبصرُهُ وسائرُ صفاتِهِ عُلْيَا كانَ لهُ المثلُ الأعلى، وكانَ أحقَّ بهِ منْ كلِّ ما سواهُ، بلْ يستحيلُ أنْ يشتركَ في المثلِ الأعلى اثنانِ؛ لأنَّهما إنْ تكافَآ لمْ يكُنْ أحدُهما أعْلَى من الآخرِ، وإنْ لمْ يتكافَآ فالموصوفُ بالمثلِ الأعلى أحدُهما وحْدَهُ، يستحيلُ أنْ يكونَ لِمَنْ لهُ المثلُ الأعلى مِثْلٌ أوْ نظيرٌ، **وهذا برهانٌ قاطعٌ منْ إثباتِ صفاتِ الكمالِ على استحالةِ التمثيلِ والتشبيهِ،** فتأمَّلْهُ فإنَّهُ في غايَةِ الظهورِ والقُوَّةِ.

ونظيرُ هذا القهرُ المُطْلَقُ معَ الوحدةِ، فإنَّهما متلازمانِ فلا يكونُ القَهَّارُ إلاَّ واحداً؛ إذْ لوْ كانَ معَهُ كُفْؤٌ لهُ فإنْ لمْ يقهرْهُ لمْ يكُنْ قهَّاراً على الإطلاقِ، وإنْ قَهَرَهُ لمْ يكُنْ كُفْؤاً وكانَ القَهَّارُ واحداً.

فتأمَّلْ كيفَ كانَ قولُهُ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]. وقولُهُ: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧] منْ أعظمِ الأدِلَّةِ على ثبوتِ صفاتِ كمالِهِ سُبحانَهُ.

فإنْ قُلْتَ: قدْ فَهِمْتُ هذا وعرَفْتُهُ، فما حقيقةُ المثلِ الأعلى؟

قُلْتُ: قدْ أُشْكِلَ هذا على جماعةٍ من المفسِّرينَ واستَشْكَلُوا قولَ السلفِ فيهِ، فإنَّ ابنَ عبَّاسٍ وغيرَهُ قالُوا: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِ﴾ [النحل: ٦٠]: العذابُ والنارُ، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] شهادةُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ.

وقالَ قتادةُ: هوَ الإخلاصُ والتوحيدُ.

وقالَ الواحديُّ: هذا قولُ المفسِّرينَ في هذهِ الآيَةِ، ولا أدري لِمَ قيلَ للعذابِ: مَثَلُ السَّوْءِ، وللإخلاصِ: المَثَلُ الأعلى.

قالَ: وقالَ قومٌ: المَثَلُ السَّوْءُ: الصفةُ السَّوْءُ، من احتياجِهم إلى الولدِ، وكراهَتِهم للإناثِ خوفَ العَيلَةِ والعارِ، وللهِ المثلُ الأعلى: الصفةُ العُلْيَا من تنـزُّهِهِ وبرَاءَتِهِ عن الولدِ، قالَ: وهذا قولٌ صحيحٌ، فالمثلُ كثيراً ما يَرِدُ بمعنى الصفةِ، قالَهُ جماعةٌ من المتقدِّمينَ. وقالَ ابنُ كَيْسانَ: مَثَلُ السَّوْءِ ما ضَرَبَ اللهُ للأصنام وعَبَدَتِها من الأمثالِ، والمثلُ الأعلى نحوُ قولِهِ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور: ٣٥].

وقالَ ابنُ جريرٍ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، نحوُ قولِهِ هوَ الأطيبُ والأفضلُ والأحسنُ والأجملُ، وذلكَ التوحيدُ والإذعانُ لهُ بأنَّهُ لا إلهَ غيرُهُ.

قُلْتُ: المثلُ الأعلى يتضمَّنُ الصفةَ العُلْيا، وعلمَ العالمينَ بها ووجودَها العلميَّ، والخبرَ عنها وذِكْرَها، وعبادةَ الربِّ سُبحانَهُ بواسطةِ العلمِ والمعرفةِ القائمةِ بقلوبِ عابدِيهِ وذاكرِيهِ، **فها هنا أربعةُ أمورٍ:**

- **ثبوتُ الصِّفَاتِ العليا للهِ سُبحانَهُ في نفسِ الأمرِ**، عَلِمَها العبادُ أوْ جَهِلُوها، وهذا معنى قولِ مَنْ فسَّرَهُ بالصفةِ.

الثاني: وجودُها في العلمِ والتصَوُّرِ، وهذا معنى قولِ مَنْ قالَ من السلفِ والخلفِ: إنَّهُ ما في قلوبِ عابدِيهِ وذاكرِيهِ منْ معرفتِهِ وذكرِهِ ومحبَّتِهِ وإجلالِهِ وتعظيمِهِ.

وهذا الذي في قلوبِهم من المثلِ الأعلى لا يشتركُ فيهِ غيرُهُ معَهُ، بلْ يختصُّ بهِ في قلوبِهم كما اختصَّ في ذاتِهِ. وهذا معنى قولِ مَنْ قالَ من المفسِّرينَ: أهلُ السماءِ يُعظِّمُونهُ ويُحِبُّونهُ ويعبدُونهُ، وأهلُ الأرضِ يُعَظِّمونهُ ويُجِلُّونهُ، وإنْ

أشركَ بهِ مَنْ أشركَ، وعَصاهُ مَنْ عصاهُ، وجَحَدَ صفاتِهِ مَنْ جحدَها، فكلُّ أهلِ الأرضِ مُعَظِّمُونَ لهُ مُجِلُّونَ لهُ خاضعونَ لعظمَتِهِ، مُسْتكينونَ لعِزَّتِهِ وجبَرُوتِهِ، قالَ تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [البقرة: ١١٦]. فلَسْتَ تَجِدُ أحداً منْ أوليائِهِ وأعدائِهِ إلاَّ واللهُ أكبرُ في صدرِهِ وأكملُ وأعظمُ منْ كلِّ ما سواهُ.

الثالثُ: ذكرُ صِفَاتِهِ والخبرُ عنها وتنـزيهُها عن النقائصِ والعيوبِ والتمثيلِ.

الرابعُ: محبَّةُ الموصوفِ بها وتوحيدُهُ والإخلاصُ لهُ والتوكُّلُ عليهِ والإنابةُ إليهِ، وكُلَّما كانَ الإيمانُ بالصِّفَاتِ أكملَ كانَ هذا الحبُّ والإخلاصُ أقوى.

فعباراتُ السلفِ تدورُ حولَ هذهِ المعاني الأربعةِ لا تتجاوزُها.

وقدْ ضربَ اللهُ سُبحانَهُ مَثَلَ السَّوْءِ للأصنامِ بأنَّها لا تخلقُ شيئاً وهيَ مخلوقةٌ، ولا تملكُ لأنفُسِهَا ولا لعابدِيها ضرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وقالَ تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل:٧٥-٧٦].

فهذانِ مثلانِ ضرَبَهما لنفسِهِ وللأصنامِ، فللأصنامِ مَثَلُ السَّوْءِ، ولهُ المثلُ الأعلى، وقالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج:٧٣-٧٤]. فهذا المثلُ الأعلى الذي لهُ سُبحانَهُ. والأوَّلُ مَثَلُ السَّوءِ للصنمِ وعابدِيهِ.

وقدْ ضربَ سُبحانَهُ للمعارضينَ بينَ الوحيِ وعقولِهم مَثَلَ السَّوْءِ بالكلبِ تارةً، وبالحُمُرِ تارةً، وبالأنعامِ تارةً، وبأهلِ القبورِ تارةً، وبالعُمْيِ الصُّمِّ تارةً، وغيرِ ذلكَ من الأمثالِ السَّوْءِ التي ضرَبَها لهم ولأوثانِهم.[1]

وأخبرَ عنْ مَثَلِهِ الأعلى بما ذكرَهُ منْ أسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ، وضربَ لأوليائِهِ وعابديهِ أحسنَ الأمثالِ. ومَنْ تدبَّرَ القرآنَ فَهِمَ المرادَ بالمثلِ الأعلى ومثلِ السَّوْءِ. وباللهِ التوفيقُ).[2]

---

(١) وقد ذَكَرَ ابنُ القيِّم -رَحِمَهُ اللهُ تعالَى- في تَقْدِيمِهِ لقَصِيدَتِهِ النُّونِيَّةِ (ص٢٦-٢٩) عَشَرَةَ أمثالٍ للمُوَحِّدِ والمُعطِّلِ والمُشَبِّهِ. فراجِعْها إنْ شِئْتَ.

(٢) الصواعقُ المُرْسَلَةُ (٣/ ١٠٣٠-١٠٣٦). وانْظُرْ أَيْضًا للفائدةِ: (٢/ ٤٢٨-٤٣٤).

البابُ السابعُ: في بيانِ بعضِ ما تَضَمَّنَهُ حَدِيثُ: ((اللَّهُمَّ إنِّي عَبْدُكَ ابنُ عَبْدِكَ ..)) مِنَ الفوائدِ الجليلةِ واللَّطائِفِ البديعةِ في بابِ الأسماءِ والصِّفَاتِ

(في "المسندِ" و"صحيحِ أبي حاتمٍ" منْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «مَا أَصَابَ عَبْداً هَمٌّ وَلا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلاءَ حَزَنِي، وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي - إِلاَّ أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحاً». قَالُوا: يا رسولَ اللهِ، أَفَلا نَتَعَلَّمُهُنَّ؟ قَالَ: «بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ».[(١)]

---

(١) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٣٧١٢، ٤٣١٨) وابنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي مُصَنَّفِهِ فِي كِتَابِ الدُّعَاءِ / بابُ مَا قَالُوا فِي الرَّجُلِ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ حَزَنٌ، وابنُ حِبَّانَ (٢٣٧٢) والحاكِمُ (١/ ٥٠٩) وأَبُو يَعْلَى (٥٢٧٦) مِن طُرُقٍ عَنْ فُضَيْلِ بنِ مَرْزُوقٍ: حدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ الجُهَنِيُّ، عن القاسمِ بنِ عَبْدِ الرحمنِ، عن أبيهِ، عنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ.

وقد قِيلَ: إِنَّ فِي الحَدِيثِ عِلَّتَيْنِ:

الأُولَى: جَهَالَةُ أَبِي سَلَمَةَ الجُهَنِيِّ.

والثانيةُ: إرسالُ عَبْدِ الرَّحمنِ بنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عن أبيهِ رَضِيَ اللهُ عنه.

• أَمَّا العلةُ الأُولَى: فذَكَرَهَا الذَّهَبِيُّ؛ حيثُ قالَ فِي استِدْرَاكِهِ علَى الحَاكِمِ: «وأَبُو سَلَمَةَ لا يُدْرَى مَنْ

هُوَ ولا رِوايَةَ لَهُ في الكُتُبِ السِّتَّةِ»، وقالَ في ميزانِ الاعتدالِ (٤/ ٥٣٣): «حدَّثَ عنهُ فُضَيْلُ بنُ مَرْزُوقٍ لا يُدْرَى مَنْ هُوَ».

وتَعَقَّبَهُ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ في لِسَانِ المِيزانِ (٨/ ٦٢) بقولِهِ: «وقَدْ ذَكَرَهُ ابنُ حِبَّانَ في الثقاتِ، وأخرجَ حديثَهُ في صحيحِهِ، وأَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ، والحَاكِمُ في مُسْتَدْرَكِهِ، وتَعَقَّبَهُ المُؤَلِّفُ - [يَعْنِي الذَّهَبِيَّ] - بما ذَكَرَهُ هُنَا فَقَطْ»، ثم قالَ: «وَقَرَأْتُ بخطِّ ابْنِ عَبْدِ الهَادِي: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هُو خَالدَ بنَ سَلَمَةَ. وفيهِ نَظَرٌ؛ لأنَّ خالِدَ بنَ سَلَمَةَ مَخْزُومِيٌّ، وهذا جُهَنِيٌّ. والحقُّ أنه مَجْهُولُ الحَالِ، وابنُ حِبَّانَ يَذْكُرُ أَمْثَالَهُ في الثِّقَاتِ ويُحْتَجُّ به في الصحيحِ إذا كانَ ما رَواهُ ليسَ بمُنْكَرٍ» اهـ.

وقد أَجابَ الشيخانِ الفاضِلانِ: أَحمدُ مُحمَّد شاكِرٍ، ومُحمدٌ نَاصِرُ الدينِ الألبانيُّ عن هذه العِلَّةِ بما يُمكِنُ أن يُلخَّصَ في وجوهٍ:

الوجهُ الأولُ: أن هذه دَعْوَى مِن الحافظِ؛ فكُلُّهُم يَحتجّونَ في توثيقِ الراوِي بذِكْرِ ابنِ حِبَّانَ إياهُ في الثقاتِ إذا لم يَكُنْ مجروحًا بشيءٍ ثابتٍ.

الوجهُ الثاني: أن البُخاريَّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى - تَرْجَمَهُ في الكُنَى برَقْمِ (٣٤١) فلَمْ يَذْكُرْ فيه جَرْحًا.

ذَكَرَ هذينِ الوجهينِ الشيخُ أحمدُ شاكر في تحقيقِهِ للمُسنَدِ (٥/ ٢٦٧) ثم قالَ: (وأمَّا ظَنُّ ابنِ عبدِ الهادِي أنه خَالِدُ بنُ سَلَمَةَ فإنَّهُ بعيدٌ كما قالَ الحافظُ.

وأقرَبُ منه عندِي أن يكونَ هو مُوسَى بنَ عَبْدِ اللهِ أو ابنَ عَبْدِ الرحمنِ الجُهَنِيَّ، ويُكْنَى: أبا سَلَمَةَ؛ فإنه من هذه الطَّبَقَةِ) اهـ.

قال الألبانيُّ في السلسلةِ الصحيحةِ -في الكلامِ على الحديثِ رقْمِ (١٩٩) -: وما استَقْرَبَهُ الشيخُ هو الذي أَجْزِمُ به. بدليلِ ما ذَكَرَهُ مع ضَميمةِ شيءٍ آخَرَ وهو:

الوجهُ الثالثُ: أنَّ مُوسَى الجُهَنِيَّ قد رَوَى حديثًا آخَرَ عنِ القاسِمِ بنِ عبدِ الرحمنِ به (وهو حديثُ: «مَنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اللهَ فِي أولِ طَعَامِهِ فَلْيَقُلْ -حِينَ يَذْكُرُ-: بِسْمِ اللهِ فِي أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ...» الحديثَ).

قالَ: فإذا ضَمَمْتَ إِحْدَى الرِّوَايتيْنِ إلى الأخرَى يَنْتُجُ أنَّ الراوِيَ عنِ القاسمِ هو: موسَى أبو سَلَمَةَ الجُهَنِيُّ، وليسَ في الرواةِ مَنِ اسمُهُ مُوسَى الجُهَنِيُّ إلا مُوسَى بنَ عبدِ اللهِ، وهو الذي يُكْنَى بأبِي سَلَمَةَ، وهو ثِقَةٌ مِنْ رِجالِ مُسْلِم.

الوجهُ الرابعُ: أنَّ الحاكِمَ قالَ في مُسْتَدْرَكِهِ -وكأنَّهُ أشارَ إلَى هذهِ الحَقِيقَةِ-: صَحِيحٌ على شَرْطِ مُسْلِمٍ...؛ فإنَّ مَعْنَى ذلك أن رَجالَهُ رِجالُ مُسْلِمٍ، ومنهُم أَبُو سَلَمَةَ الجُهَنِيُّ، ولا يُمْكِنُ أن يَكُونَ كذلك، إلا إذا كانَ هو مُوسَى بنَ عَبْدِ اللهِ الجُهَنِيَّ.

قلتُ: وهذا استنباطٌ جَيِّدٌ.

ثم ذَكَرَ حَدِيثًا مِن رِوايَةِ مُوسَى الجُهَنِيِّ عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ في صَحِيحِ مُسلمٍ، قالَ: فهذا مما يُؤَكِّدُ قَوْلَ الحاكِمِ المُتقدِّمَ.

قلتُ: ومما يُؤَيِّدُ ما ذَكَرَهُ الشيخانِ -وهو:

الوجهُ الخامِسُ: ما ذَكَرَهُ الحافظُ المِزِّيُّ في تهذيبِ الكمالِ (٧٧٠٧) قالَ: «مُوسَى بنُ عَبْدِ اللهِ ويُقالُ: ابنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الجُهَنِيُّ أَبُو سَلَمَةَ، ويُقالُ: أبو عبدِ اللهِ الكُوفِيُّ، رَوَى عن زيدِ بنِ وَهْبٍ الجُهَنِيِّ (ق)، وعامرٍ الشَّعْبِيِّ، وعبدِ الرحمنِ بنِ أَبِي لَيْلَى، وعَبْدِ المَلِكِ بنِ مَيْسَرَةَ، وعَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بنِ عُتْبَةَ بنِ مَسْعُودٍ، والقاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرحمنِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ، ومُجَاهِدٍ (س)، ومُصْعَبِ بْنِ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ (م ت، سي) ونافعٍ مَولَى ابْنِ عُمَرَ (م س) ... وذَكَرَ آخرينَ.

ثم ذَكَرَ تَوثيقَ الأئمةِ لَهُ: يَحْيَى القَطَّانُ، وأَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ، ويَحْيَى بنُ مَعِينٍ، والعِجْلِيُّ، وأَبو حَاتِمٍ، وغيرُهُمْ، ثُمَّ قالَ: وذكرَهُ ابنُ حِبَّانَ في الثِّقاتِ» اهـ. غيرَ أَنَّهُ لم يَذْكُرْ مِمَّنْ رَوَى عَنْهُ فُضَيلَ بْنَ مَرْزُوقٍ، وهذا ليسَ بِلازِمٍ؛ لأنَّ رِوايَةَ فُضَيْلٍ عنه لَيْسَتْ في الكُتُبِ السِّتَّةِ.

الوجهُ السادسُ: أَنَّ الرَّجُلَ إذا عُرِفَ واشتُهِرَ فإنَّهُ يُكْتَفَى فِي بَعْضِ الرِّوَاياتِ بِلَقَبِهِ أو كُنْيَتِهِ أو اسمِهِ المُفْرَدِ، ما لم يَشْتَبِهْ ذَلِكَ براوٍ آخَرَ هو أَحَقُّ منهُ بتِلْكَ النِّسْبَةِ، وهذا ما لَيْسَ هُنَا.

الوجهُ السابعُ: أَنَّ دَعْوَى أَنَّ أَبَا سَلَمَةَ راوِيَ الحَدِيثِ غيرُ مُوسَى بنِ عَبْدِ اللهِ الجُهَنِيِّ - مع هذا التوافُقِ العَجِيبِ فِي الكُنْيَةِ والنَّسَبِ والشُّيوخِ والتلاميذِ والبَلَدِ والطَّبَقَةِ- أَمرٌ يَحْتَاجُ إِلى بُرهانٍ يَسْتَنِدُ إليهِ صَاحِبُهُ، وهذا ما لا يَمْلِكُهُ المُفَرِّقُ.

الوجهُ الثامنُ: أَنَّ غايَةَ مَا يَسْتَنِدُ إليه أنه لا يَدْرِي ما هو، وإن كانَ لا يَدرِي فغيرُه يَدْرِي، ومَنْ يَدْرِي حُجَّةٌ علَى مَنْ لا يَدْرِي.

الوجهُ التاسعُ: أَنَّا لا نَعْلَمُ أَحَدًا ذَكَرَ هذِهِ العِلَّةَ قَبْلَ الذَّهَبِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى-؛ وتَوافُقُ الأئمةِ الأعلامِ الحَاذِقِينَ بهذا العِلْمِ قبلَ الذَّهَبِيِّ كيَحْيَى بنِ سَعِيدٍ القَطَّانِ، وعبدِ الرحمنِ بنِ مَهْدِيٍّ، وأَبِي زُرْعَةَ الرَّازِيِّ، وأحمدَ بنِ حَنْبَلٍ، وعَلِيِّ بنِ المَدِينِيِّ، ويَحْيَى بنِ مَعِينٍ، ومحمدِ بنِ إِسْمَاعِيلَ البُخَارِيِّ، وغيرِهِمْ، مع عِلْمِهِمْ بهذا الرجلِ وشيوخِهِ وتلاميذِهِ ورواياتِهِ وتوثيقِهِمْ لَهُ، لَمْ يُنَبِّهْ أحدٌ مِنْهُمْ علَى أن هناكَ مَنْ يُدعى أبا سَلَمَةَ الجُهَنِيَّ غيرَ هذا، مع شِدَّةِ عِنايَتِهِمْ بمِثْلِ هذا الأمرِ لو كَانَ.

فهذا وغَيْرُهُ مما يُسْتَدَلُّ به على بُطْلانِ هذهِ العِلَّةِ. واللهُ المُوَفِّقُ للصَّوابِ.

هذا وقد ذَكَرَ الألبانيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى - شاهداً لهذا الحديثِ مِن رِوايَةِ أَبِي مُوسَى الأشعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عنه. فَرَاجِعْهُ.

• العلةُ الثانيةُ: وهي إرسالُ عبدِ الرحمنِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ عن أبيهِ، وقد أشارَ إليها الحاكمُ - رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى - بقولِهِ - عَقِبَ رِوايَتِهِ للحديثِ -: «صَحِيحٌ على شرطِ مُسلمٍ إنْ سَلِمَ مِنْ إرسالِ عبدِ الرحمنِ بنِ عبدِ اللهِ عن أبيهِ؛ فإنه مُخْتَلَفٌ في سماعِهِ مِن أَبِيهِ».

قال الحافظُ المُنْذِرِيُّ: (لم يَسْلَمْ).

والجوابُ: أن هذه المسألَةَ قد اختلَفَ فيها الأئمةُ على قولينِ إجمالاً:

القولُ الأولُ: قولُ مَن نَفَى سماعَهُ مِن أبيهِ؛ وهو قولُ شُعْبَةَ ويَحيَى بنِ مَعِينٍ في روايةٍ.
القولُ الثانِي: قولُ مَنْ أَثْبَتَ سماعَهُ مِن أبيهِ؛ وهو قولُ سفيانَ الثوريِّ، وشَرِيكٍ، وأبي حَاتِمٍ، والبُخارِيِّ، وإسرائيلَ بنِ يُونُسَ، وروايةُ مُعاويةَ بنِ صالحٍ عن يَحْيَى بنِ مَعِينٍ.
وقالَ عِليُّ بنُ المَدِينيِّ: سَمِعَ مِن أَبيهِ حَدِيثَيْنِ: حَدِيثَ الضَّبِّ وحَدِيثَ تَأْخيرِ الوليدِ للصَّلاةِ.
وأخطأَ الحاكِمُ في قولِهِ: «اتَّفَقَ أهلُ الحديثِ أنه لم يَسْمَعْ مِن أبيهِ»اهـ. وتَعَقَّبَهُ الحافِظُ في تَهْذيبِ التهذيبِ بقولِهِ: وهو نَقْلٌ غيرُ مُستَقِيم.
قال الإمامُ أَحْمَدُ عنْ يَحْيَى بنِ سَعِيدٍ: ماتَ عبدُ اللهِ وعبدُ الرحمنِ ابنُ سِتِّ سِنينَ أو نَحْوِهَا.
قلْتُ: أما الذينَ أَثْبَتُوا سماعَهُ مِن أَبيهِ فاستَدَلُّوا على ذلك بتَصْرِيحِهِ بالسَّماعِ مِن أَبيهِ، وقد ثَبَتَ لُقِيُّهُ بِهِ، فإذا صَحَّ السَّنَدُ وصَرَّحَ بالسَّماعِ مِن أبيهِ، معَ ثُبوتِ اللُّقِيِّ وإمكانِ السَّماعِ، لم تَبْقَ بَعْدُ شُبْهَةٌ يَتَمَسَّكُ بها مَن يَنْفِي السَّماعَ إلا صِغرَ سِنِّهِ.
والصبيُّ يَصِحُّ سماعُهُ مِن حينِ يُمَيِّزُ ويَعْقِلُ، كما رَوَى البُخارِيُّ في صَحِيحِهِ - في كِتابِ العِلْمِ - عن مَحْمُودِ بنِ الرَّبِيعِ رَضِيَ اللهُ عنه، قالَ: عَقَلْتُ مَجَّةً مَجَّهَا النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ في وَجْهِي مِن دَلْوٍ وأنا ابنُ خَمْسِ سِنِينَ. وبَوَّبَ لَهُ بَابَ: مَتَى يَصِحُّ سَمَاعُ الصَّغِيرِ.
قالَ الحافظُ في تهذيبِ التهذيبِ: ورَوَى البُخارِيُّ في (التاريخِ الصَّغِيرِ) بإسنادٍ لا بَأْسَ بِهِ عنِ القاسمِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ، عن أبيهِ، أنه قالَ: لَمَّا حَضَرَ عبدَ اللهِ الوَفَاةُ قالَ له ابنُهُ عبدُ الرحمنِ: يا أبَتِ، أَوْصِنِي. قالَ: ابْكِ مِنْ خَطِيئَتِكَ.
ورَوَى في (التاريخِ الكبيرِ) و (الأوسَطِ) مِن طريقِ ابنِ خُثَيْمٍ، عنِ القاسمِ بنِ عبدِ الرحمنِ، عن أبيهِ، قالَ: إنِّي معَ أَبِي ... فذَكَرَ الحديثَ في تأخيرِ الصلاةِ. زادَ في (الأوسطِ): قالَ شُعْبَةُ: (لَمْ يَسْمَعْ مِن أَبِيهِ، وحديثُ ابنِ خُثَيْمٍ أَوْلَى عِندِي) اهـ.
ورَوَى ابنُ سَعْدٍ في الطَّبَقَاتِ (٦/ ٤٥٣): حديثًا مِن طَرِيقِ سِماكِ بنِ حَرْبٍ عنه: سَمِعْتُ عبدَ اللهِ بنَ مَسْعُودٍ يقولُ: (مُحَرِّمُ الحلالِ كَمُسْتَحِلِّ الحرامِ).
فيَتَرَجَّحُ ثُبوتُ السَّماعِ وانتفاءُ هذه العلةِ لأمورٍ:
الأمرُ الأولُ: كَثْرَةُ الأئمةِ الناقِلينَ لثُبُوتِ سماعِهِ مِن أبيهِ.
الأمرُ الثانِي: أنَّ لُقِيَّهُ بأَبيهِ ثَابتٌ وهو مُمَيِّزٌ عَاقِلٌ.
الأمرُ الثالثُ: أنَّ الذينَ نَفَوْا سَماعَهُ مِن أَبيهِ لَمْ يَذْكُرُوا حُجَّةً على قولِهِمْ.
الأمرُ الرابعُ: أنَّ هؤلاءِ الأئمةَ لو رَوَوْا حَدِيثًا وخَالَفَهُمْ فيه مَنْ خَالَفَهُمْ في هذه المسألةِ، مع ثِقَتِهِ وجَلالَتِهِ، لم يَجُزْ تَرْكُ روايتِهِمْ لأجلِ مُخالَفَتِهِ لهم؛ وذلك لِكَثْرَتِهِمْ وجَلالَتِهِمْ، وحِفْظِهِم، وإتقانِهِم وتوافُقِهِمْ، معَ جوازِ سَرَيانِ الوَهْمِ والغَلَطِ إلى المُخالِفِ، فإذا كان هذا الأمرُ هكذا في مُتونِ الأحاديثِ، فهو في الأسانيدِ أَوْلَى وأَحْرَى.

فتضمَّنَ هذا الحديثُ العظيمُ أموراً من المعرفةِ، والتوحيدِ، والعبوديَّةِ:

- منها: أنَّ الداعيَ بِهِ صدَّرَ سؤالَهُ بقولِهِ: «إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ»، وهذا يتناولُ مَنْ فوْقَهُ منْ آبائِهِ وأمَّهاتِهِ إلى أبوَيْهِ آدمَ وحوَّاءَ، وفي ذلكَ تملُّقٌ لهُ، واستخذاءٌ بينَ يدَيْهِ، واعترافٌ بأنَّهُ مملوكُهُ، وآباؤُهُ مماليكُهُ، وأنَّ العبدَ ليسَ لهُ غيرُ بابِ سيِّدِهِ وفضْلِهِ وإحسانِهِ، وأنَّ سيِّدَهُ إنْ أهملَهُ وتخلَّى عنهُ هلكَ، ولمْ يُؤْوِهِ أحدٌ، ولمْ يَعْطِفْ عليهِ، بلْ يضيعُ أعظمَ ضيعةٍ. فتَحْتَ هذا الاعترافِ: إنِّي لا غِنَى بي عنكَ طَرْفَةَ عينٍ، وليسَ لي مَنْ أعوذُ بِهِ وألوذُ بِهِ غيرَ سيِّدي الذي أنا عبدُهُ، وفي ضمنِ ذلكَ الاعترافُ بأنَّهُ مربوبٌ مُدَبَّرٌ مأمورٌ مَنْهِيٌّ، إنَّما

الأمرُ الخامسُ: أنَّ إعلالَ الحديثِ بمِثْلِ هذه العلةِ يُمْكِنُ أن يُلْجَأَ إليه فيما لو كَانَ هناكَ مُخالِفٌ له هو أَوْثَقُ منه، فيُلْجَأُ إلى الترجيح - إن لم يُمْكِنِ الجمعُ بين الرواياتِ - بمِثْلِ هذه الطُّرُقِ، وهذا الأمرُ مُنْتَفٍ هنا؛ فليسَ له مُخَالِفٌ فيما نَعْلَمُ.

الأمرُ السادسُ: أن هذه العلةَ يُمْكِنُ أَنْ تُقْبَلَ لو كانَ الرَّاوِي مُكثِرًا عن أبيهِ؛ فإنَّ الإكثارَ عنه مع كَوْنِهِ لم يُدْرِكْ مِن حياتِهِ إلا قَدْرًا يسيرًا أَمْرٌ يَدْعُو إلى الاستغرابِ؛ إذ كيفَ يَتَحصَّلُ له هذا الكَمُّ الهائلُ مِن الأحاديثِ في هذه المدةِ اليسيرةِ.

وهذا الأمرُ مُنْتَفٍ هنا؛ فإنه لم يَرْوِ عن أبيهِ إلا أحاديثَ يسيرةً، وهو مُقِلٌّ أَصْلاً من الحديثِ.

الأمرُ السابعُ: أن قولَهُ لأبيهِ عند مَوْتِهِ: يا أَبَتِ، أَوْصِنِي. يَدُلُّ على نَبَاهَةٍ وعَقْلٍ وحِرصٍ على العلمِ والاستفادةِ؛ إذ لم يَشْغَلْهُ ما حَلَّ بأبيهِ عَنِ العِلْمِ الذي يَطْلُبُهُ.

هذا مع التَّسْلِيمِ بأنَّ أباه مَاتَ وله سِتُّ سِنينَ، مع أنَّهُ لم يَثْبُتْ مِن وَجْهٍ مُتَّصِلٍ - واللهُ أعلمُ بحقيقةِ الحالِ - وأنت إذا تَأَمَّلْتَ قولَ ابنِ مسعودٍ لابنِهِ: ابْكِ مِنْ خَطِيئَتِكَ، قد يَتَرَجَّحُ أَنَّ ابنَهُ كانَ قَدْ بَلَغَ سِنَّ التَّكليفِ حينَ مَوْتِهِ.

الأمرُ الثامنُ: أن هذا الحديثَ مِنَ الفضائلِ العظيمةِ، وغيرُ مُسْتَنْكَرٍ ولا مُسْتَبْعَدٍ أن يُلَقِّنَهُ عبدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ لابنِهِ وفَلْذَةِ كَبِدِهِ، كَما يُلَقِّنُهُ السورةَ من القرآنِ، لا سيما والنبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ يقولُ: «يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ».

الأمرُ التاسعُ: أنَّ مَتْنَ الحديثِ جَلِيلٌ عَظِيمٌ، لا يُشْبِهُ كلامَ الناسِ، بلْ يَكَادُ يَقْطَعُ مَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بالحَدِيثِ أَنَّهُ خَارِجٌ مِن مِشكاةِ النُّبُوَّةِ. واللهُ تعالى أَعْلَمُ.

وإلى انتفاءِ هذهِ العلةِ وصِحَّةِ الحديثِ ذَهَبَ الشيخانِ الجليلانِ: أَحْمَدُ شاكر، ومُحمدُ ناصرُ الدينِ الألبانِيُّ.

يتصرَّفُ بحكم العبوديَّةِ، لا بحكمِ الاختيارِ لنفسِهِ؛ فليسَ هذا شأنَ العبدِ، بلْ شأنَ الملوكِ الأحرارِ، وأمَّا العبيدُ فتصرُّفُهم على محضِ العبوديَّةِ؛ فهؤلاءِ عبيدُ الطاعةِ المُضَافُونَ إليهِ سُبحانَهُ في قولِهِ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وقولِهِ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. ومَنْ عدَاهُم عبيدُ القهرِ والربوبيَّةِ؛ فإضافَتُهُم إليهِ كإضافةِ سائرِ البيوتِ إلى مُلْكِهِ، وإضافةِ أولئكَ كإضافةِ البيتِ الحرامِ إليهِ، وإضافةِ نَاقَتِهِ إليهِ، ودَارِهِ التي هيَ الجنَّةُ إليهِ، وإضافةُ عبودِيَّةِ رسولِهِ إليهِ بقولِهِ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

وفي التحقيقِ بمعنى قولِهِ: «إِنِّي عَبْدُكَ» التزامُ عبوديَّتِهِ من الذلِّ، والخضوعِ، والإنابةِ، وامتثالِ أمرِ سيِّدِهِ، واجتنابِ نهْيِهِ، ودوامِ الافتقارِ إليهِ، واللُّجأِ إليهِ، والاستعانةِ بهِ، والتوكُّلِ عليهِ، وعياذِ العبدِ بهِ، ولياذِهِ بهِ، وأنْ لا يتعلَّقَ قلبُهُ بغيرِهِ محبَّةً وخوفاً ورجاءً.

وفيهِ أيضاً: إنِّي عبدٌ منْ جميعِ الوجوهِ: صغيراً وكبيراً، حيًّا وميِّتاً، مُطِيعاً وعاصياً، مُعَافًى ومُبْتَلًى بالروحِ والقلبِ واللسانِ والجوارحِ.

وفيهِ أيضاً: إنَّ مالي ونفسي ملكٌ لكَ؛ فإنَّ العبدَ وما يملكُ لسيِّدِهِ.

وفيهِ أيضاً: إنَّكَ أنتَ الذي مننْتَ عَلَيَّ بكلِّ ما أنا فيهِ منْ نعمةٍ، فذلكَ كُلُّهُ منْ إنعامِكَ على عبدِكَ.

وفيهِ أيضاً: إنِّي لا أَتَصَرَّفُ فيما خوَّلْتَنِي منْ مالي ونفسي إلاَّ بأمرِكَ، كما لا يتصَرَّفُ العبدُ إلاَّ بإذنِ سيِّدِهِ، وإنِّي لا أَمْلِكُ لنفسي ضرًّا ولا نفعاً ولا مَوْتاً ولا حياةً ولا نُشُوراً.

فإنْ صحَّ لهُ شهودُ ذلكَ، فقدْ قالَ: «إِنِّي عَبْدُكَ» حقيقةً.

ثمَّ قالَ: «نَاصِيَتِي بِيَدِكَ»؛ أيْ: أنتَ المتصرِّفُ فِيَّ تُصرِّفُني كيفَ تشاءُ، لستُ أنا المتصرِّفَ في نفسي. وكيفَ يكونُ لهُ في نفسِهِ تصرُّفٌ مَنْ نفْسُهُ بيدِ ربِّهِ وسيِّدِهِ، وناصيَتُهُ بيدِهِ، وقلْبُهُ بينَ إصبعَيْنِ منْ أصابعِهِ، وموتُهُ وحياتُهُ وسعادَتُهُ وشقاوَتُهُ وعافيَتُهُ وبلاؤُهُ كلُّهُ إليهِ سُبحانَهُ، ليسَ إلى العبدِ منهُ شيءٌ، بلْ هوَ في قبضةِ سيِّدِهِ أضعفُ منْ مملوكٍ ضعيفٍ حقيرٍ، ناصيتُهُ بيدِ سلطانٍ قاهرٍ مالكٍ لهُ تحتَ تصرُّفِهِ وقهْرِهِ، بل الأمرُ فوقَ ذلكَ.

ومتى شَهِدَ العبدُ أنَّ ناصيَتَهُ ونواصيَ العبادِ كلَّها، بيدِ اللهِ وحدَهُ، يُصرِّفُهم كيفَ يشاءُ، لمْ يَخَفْهُم بعدَ ذلكَ ولمْ يَرْجُهُم، ولمْ يُنْـزِلْهُم منـزلةَ المالكِينَ، بلْ منزلةَ عبيدٍ مقهورينَ مربُوبينَ، المتصرِّفُ فيهم سِوَاهُم، والمُدَبِّرُ لهم غيرُهم.

فمَنْ شَهِدَ نفْسَهُ بهذا المشهدِ صارَ فقْرُهُ وضرورَتُهُ إلى ربِّهِ وصفاً لازماً لهُ، ومتى شهِدَ الناسَ كذَلِكَ لمْ يفتقرْ إليهم، ولمْ يُعَلِّقْ أملَهُ ورجاءَهُ بهم، فاستقامَ توحيدُهُ وتوكُّلُهُ وعبوديَّتُهُ، ولهذا قالَ هودٌ لقومِهِ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود: ٦٥]).(١)

(وقولُهُ: «مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ» مُتضمِّنٌ لأصليْنِ عظيمَيْنِ عليهما مدارُ التوحيدِ:

أحدُهما: إثباتُ القدرِ، وأنَّ أحكامَ الربِّ تعالى نافذةٌ في عبدِهِ ماضيةٌ فيهِ، لا انفكاكَ لهُ عنها، ولا حيلةَ لهُ في دفْعِها.

والثاني: أنَّهُ - سُبحانَهُ - عدْلٌ في هذهِ الأحكامِ، غيرُ ظالمٍ لعبدِهِ، بلْ لا يخرجُ فيها عنْ موجَبِ العدلِ والإحسانِ؛ فإنَّ الظلْمَ سبَبُهُ حاجةُ الظالمِ، أوْ جهْلُهُ، أوْ سفَهُهُ، فيستحيلُ صُدُورُهُ ممَّنْ هوَ بكلِّ شيءٍ عليمٌ، ومَنْ هوَ غنيٌّ

(١) الفوائدُ (٤٢-٤٥).

عنْ كلِّ شيءٍ، وكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليهِ، ومَنْ هوَ أحكمُ الحاكمينَ، فلا تخرجُ ذرَّةٌ منْ مقدُورَاتِهِ عنْ حِكْمَتِهِ وحمْدِهِ، كما لمْ تخرُجْ عنْ قُدْرَتِهِ ومشيئتِهِ، فحِكْمَتُهُ نافذةٌ حيثُ نَفَذَتْ مشيئَتُهُ وقدرتُهُ، ولهذا قالَ نبيُّ اللهِ هودٌ صلَّى اللهُ على نبيِّنا وعليهِ وسلَّمَ، وقدْ خوَّفَهُ قومُهُ بآلهتِهم: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾ [هود: ٥٤-٥٦]؛ أيْ: معَ كونِهِ سُبحانَهُ آخذاً بنواصي خلْقِهِ وتصريفِهم كما يشاءُ، فهوَ على صراطٍ مستقيمٍ لا يتصَرَّفُ فيهم إلاَّ بالعدلِ والحكمةِ، والإحسانِ والرحمةِ. فقولُهُ: «مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ»، مُطابقٌ لقولِهِ: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾، وقولُهُ: «عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ» مُطابقٌ لقولِهِ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾)[1] [وذلكَ] (يتضمَّنُ حمْدَهُ وعدْلَهُ، وهوَ سُبحانَهُ لهُ الملكُ ولَهُ الحمدُ.... [فـ]مَعَ كونِهِ مالكاً قاهراً، مُتصرِّفاً في عبادِهِ، نَوَاصِيهم بيدِهِ، فهوَ على صراطٍ مستقيمٍ وهوَ العدلُ الذي يتصرَّفُ بِهِ فيهم ([فـ]لا يتصرَّفُ في تلكَ النواصي إلاَّ بالعدلِ والحكمةِ والمصلحةِ والرحمةِ، لا يظْلمُ أصحابَها، ولا يُعاقِبُهم بما لمْ يعمَلُوهُ، ولا يهْضِمُهُم حسناتِ ما عَمِلُوهُ. فهوَ سُبحانَهُ على صراطٍ مستقيمٍ في قولِهِ وفعلِهِ، يقولُ الحقَّ ويفعلُ الخيرَ والرُّشْدَ، وقدْ أخبرَ سُبحانَهُ أنَّهُ على الصراطِ المستقيمِ في سورةِ هودٍ وفي سورةِ النحلِ، فأخبرَ في هودٍ أنَّهُ على صراطٍ مستقيمٍ في تصرُّفِهِ في النواصي التي هيَ في قبضَتِهِ وتحتَ يدِهِ. وأخبرَ في النحلِ أنَّهُ يأمرُ بالعدلِ ويفعَلُهُ).[2]

فهوَ على صراطٍ مستقيمٍ في قولِهِ وفعلِهِ وقضائِهِ وقدَرِهِ وأمْرِهِ ونهْيِهِ وثوابِهِ وعقابِهِ، فخبرُهُ كلُّهُ صدقٌ، وقضاؤُهُ كلُّهُ عدلٌ، وأمرُهُ كلُّهُ مصلحةٌ، والذي

(١) زادُ المَعادِ (٤/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٢) شِفاءُ العَليلِ (٢/ ٢٧٥).

نهى عنهُ كلُّهُ مفسدةٌ، وثوابُهُ لمَنْ يَسْتَحِقُّ الثوابَ بفضلِهِ، ورحمَتُهُ وعقابُهُ لمَنْ يَسْتَحِقُّ العقابَ بعَدْلِهِ وحكمتِهِ.

وفرَّقَ بينَ الحكمِ والقضاءِ، وجعلَ المضَاءَ للحكمِ، والعَدْلَ للقضاءِ؛ فإنَّ حُكْمَهُ سُبحانَهُ يتناولُ حكمَهُ الدينيَّ الشرعيَّ وحكمَهُ الكونيَّ القدريَّ، والنوعانِ نافذانِ في العبدِ ماضيانِ فيهِ، وهوَ مقهورٌ تحتَ الحكمينِ، قدْ مضيا فيهِ، ونَفذَا فيهِ شاءَ أمْ أَبى، لكنَّ الحكمَ الكونيَّ لا يمكِنُهُ مخالفتُهُ، وأمَّا الدينيُّ الشرعيُّ فقدْ يخالفُهُ.

ولَمَّا كانَ القضاءُ هوَ الإتمامَ والإكمالَ، وذلكَ إنَّما يكونُ بعدَ مُضِيِّهِ ونُفُوذِهِ قالَ: «عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ»؛ أي: الحكمُ الذي أكمَلْتَهُ وأتمَمْتَهُ ونفَّذْتَهُ في عبدِكَ عَدْلٌ منكَ فيهِ.

وأمَّا الحكمُ: فهوَ ما يحْكُمُ بهِ سُبحانَهُ، وقدْ يشاءُ تنفيذَهُ، وقدْ لا يُنَفِّذُهُ، فإنْ كانَ حكماً دينيًّا، فهوَ ماضٍ في العبدِ. وإنْ كانَ كونيًّا؛ فإنْ نفَّذَهُ سُبحانَهُ مضى فيهِ، وإنْ لمْ يُنَفِّذْهُ اندفعَ عنهُ، فهوَ سُبحانَهُ يُمْضِي ما يقضِي بهِ. وغيرُهُ قدْ يقضِي بقضاءٍ، ويُقَدِّرُ أمراً، ولا يستطيعُ تنفيذَهُ، وهوَ سُبحانَهُ يقضي ويُمْضِي، فلَهُ القضاءُ والإمضاءُ.

وقولُهُ: «عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ»، يتضمَّنُ جميعَ أقْضِيَتِهِ في عبدِهِ منْ كلِّ الوجوهِ: منْ صِحَّةٍ، وسَقَمٍ، وغنًى، وفقرٍ، ولذَّةٍ، وألمٍ، وحياةٍ، وموتٍ، وعقوبةٍ، وتجاوزٍ، وغيرِ ذلكَ. قالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠] وقالَ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى:٤٨]).[1] [فـ](كلُّ حكمٍ وكلُّ قضيَّةٍ يُنَفِّذُهَا فيهِ هذا الحاكمُ فهيَ عَدْلٌ محضٌ منهُ لا جَوْرَ فيها ولا ظلمَ بوجهٍ من الوجوهِ ....

(١) الفوائدُ (٤٥-٤٦).

وهذا يعمُّ جميعَ أقضيتِهِ سُبحانَهُ في عبدِهِ؛ قضائِهِ السابقِ فيهِ قبلَ إيجادِهِ، وقضَائِهِ فيهِ المقارنِ لحياتِهِ، وقضَائِهِ فيهِ بعدَ مماتِهِ، وقضَائِهِ فيهِ يومَ معادِهِ، ويتناولُ قضَاءَهُ فيهِ بالذنبِ، وقضَاءَهُ فيهِ بالجزاءِ عليهِ، ومَنْ لمْ يُثْلِجْ صدرَهُ لهذا ويكونَ لهُ كالعلمِ الضروريِّ لمْ يعرفْ ربَّهُ وكمالَهُ، ونفسَهُ وعينَهُ، ولا عدلَ في حكمِهِ، بلْ هوَ جهولٌ ظلومٌ، فلا علمَ ولا إنصافَ)[(1)] .[(2)]

(فإنْ قيلَ: فالمعصيَةُ عندكُم بقضَائِهِ وقدَرِهِ، فما وَجْهُ العَدْلِ في قضائِها؛ فإنَّ العَدْلَ في العقوبةِ عليها غيرُ ظاهرٍ؟

قيلَ: هذا سؤالٌ لهُ شأنٌ، ومنْ أجْلِهِ زعمَتْ طائفةٌ أنَّ العَدْلَ هوَ المقدورُ، والظلمَ ممتنعٌ لذَاتِهِ. قالُوا: لأنَّ الظُّلْمَ هوَ التصرُّفُ في ملكِ الغيرِ، واللهُ لهُ كلُّ شيءٍ؛ فلا يكونُ تصرُّفُهُ في خلقِهِ إلاَّ عَدْلاً.

وقالتْ طائفةٌ: بلِ العَدْلُ أنَّهُ لا يُعاقِبُ على ما قضاهُ وقدَّرَهُ، فلمَّا حَسُنَ منهُ العقوبةُ على الذنبِ عُلِمَ أنَّهُ ليسَ بقضَائِهِ وقدَرِهِ؛ فيكونُ العَدْلُ هوَ جزاءَهُ على الذنبِ بالعقوبةِ والذمِّ؛ إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرةِ.

وصعُبَ على هؤلاءِ الجمعُ بينَ العَدْلِ وبينَ القَدَرِ؛ فزعَمُوا أنَّ مَنْ أثبتَ القدرَ لمْ يمكِنْهُ أنْ يقولَ بالعَدْلِ، ومَنْ قالَ بالعَدْلِ لمْ يمكنْهُ أنْ يقولَ بالقدرِ. كما صعُبَ عليهم الجمعُ بينَ التوحيدِ وإثباتِ الصِّفَاتِ؛ فزعموا أنَّهُم لا يمكنُهم إثباتُ التوحيدِ إلاَّ بإنكارِ الصِّفَاتِ؛ فصارَ توحيدُهم تعطيلاً، وعَدْلُهم تكذيباً بالقدرِ.

---

(١) وقالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في كِتابِ الفَوائِدِ (١٤٠): (والمَقصودُ قَوْلُه: عَدْلٌ فِيَّ قَضاؤُكَ، وهذا يَتناوَلُ كُلَّ قضاءٍ يقضيهِ على عَبْدِهِ: من عُقوبةٍ أو أَلَمٍ، وسببَ ذلك؛ فهو الذي قَضى بالسَّبَبِ وقَضى بالمُسَبَّبِ، وهو عَدْلٌ في هذا القضاءِ. وهذا القضاءُ خَيْرٌ للمؤمنِ كما قالَ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إلاَّ كانَ خَيْرًا لَهُ، ولَيْسَ ذَلِكَ إلاَّ لِلْمُؤْمِنِ» فسَأَلْتُ شَيْخَنَا: هَلْ يَدْخُلُ في ذَلِكَ قَضَاءُ الذَّنْبِ؟ فقالَ: نَعَمْ بشَرْطِهِ فأَجْمَلَ في لَفْظَةِ (بشَرْطِهِ) ما يَتَرَتَّبُ على الذَّنْبِ مِنَ الآثارِ المَحْبُوبَةِ للهِ، مِنَ التوبةِ، والانكسارِ والنَّدَمِ، والخضوعِ والذُّلِّ، والبُكاءِ، وغيرِ ذَلِكَ).

(٢) شفاءُ العَليلِ (٢/ ٢٧٣).

وأمَّا أهلُ السُّنَّةِ: فهمْ مثبتونَ للأمريْنِ، والظلمُ عندَهُم هوَ وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعِهِ: كتعذيبِ المطيعِ ومَنْ لا ذنبَ لهُ، وهذا قدْ نـزَّهَ اللهُ نفسَهُ عنهُ في غيرِ موضعٍ منْ كتابِهِ. وهوَ سُبحانَهُ وإنْ أضلَّ مَنْ شاءَ وقضى بالمعصيةِ والغيِّ على مَنْ شاءَ، فذلكَ محضُ العَدْلِ فيهِ؛ لأَنَّهُ وضعَ الإضلالَ والخذلانَ في موضعِهِ اللائقِ بهِ) [1] [فـ](كلُّ قضائِهِ عَدْلٌ في عبدِهِ، فإنَّهُ وضعٌ لهُ في موضعِهِ الذي لا يحْسُنُ في غيرِهِ. فإنَّهُ وضعَ العقوبةَ ووضعَ القضاءَ بسببِها ومُوجِبِها في موضعِهِ، فإنَّهُ سُبحانَهُ كما يُجازِي بالعقوبةِ فإنَّهُ يُعاقبُ بنفسِ قضاءِ الذنبِ؛ فيكونُ حُكْمُهُ بالذنبِ عقوبةً على ذنبٍ سابقٍ؛ فإنَّ الذنوبَ تُكْسِبُ بعْضُها بعضاً. وذلكَ الذنبُ السابقُ عقوبةٌ على غفلَتِهِ عنْ ربِّهِ وإعراضِهِ عنْهُ. وتلكَ الغفلةُ والإعراضُ هيَ في أصلِ الجِبلَّةِ والنشأةِ. فمَنْ أرادَ أنْ يُكملَهُ أقبلَ بقلْبِهِ إليهِ وجَذَبَهُ إليهِ وألهَمَهُ رُشدَهُ وألقى فيهِ أسبابَ الخيرِ، ومَنْ لمْ يُرِدْ أنْ يُكْمِلَهُ تركَهُ وطبعَهُ وخلَّى بينهُ وبينَ نفسِهِ؛ لأنَّهُ لا يصلحُ للتكميلِ وليسَ محلُّهُ أهلاً وقابلاً لما وضَعَ فيهِ من الخيرِ. وها هنا انتهى علمُ العبادِ بالقدرِ.

وأمَّا كونُهُ تعالى جعلَ هذا يصلحُ وأعْطَاهُ ما يصلحُ لهُ، وهذا لا يصلحُ فمنَعَهُ ما لا يصلحُ لهُ، فذاكَ مُوجَبُ ربوبيَّتِهِ وإلهيَّتِهِ وعلمِهِ وحكمتِهِ؛ فإنَّهُ سُبحانَهُ خالقُ الأشياءِ وأضدادِها.

وهذا مُقْتَضَى كمالِهِ وظهورِ أسمائِهِ وصفاتِهِ كما تقدَّمَ تقريرُهُ.

والمقصودُ أنَّهُ أعدلُ العادلينَ في قضائِهِ بالسببِ وقضائِهِ بالمسبَّبِ. فما قضى في عبدِهِ بقضاءٍ إلاَّ وهوَ واقعٌ في محلِّهِ الذي لا يليقُ بهِ غيرُهُ. إذْ هوَ الحَكَمُ العَدْلُ الغنيُّ الحميدُ). [2]

---

(١) الفوائد (٤٦-٤٧).

(٢) شِفاءُ العَلِيلِ (٢/ ٢٧٦).

([فـ]مِنْ أسمائِهِ الحسنى **العَدْلُ**، الذي كلُّ أفعالِهِ وأحكامِهِ سدادٌ وصوابٌ وحقٌّ، وهوَ سُبحانَهُ قدْ أوضحَ السبلَ، وأرسلَ الرسلَ، وأنزلَ الكتبَ، وأزاحَ العللَ، ومكَّنَ منْ أسبابِ الهدايَةِ والطاعةِ بالأسماعِ والأبصارِ والعقولِ، وهذا عَدْلُهُ. ووَفَّقَ مَنْ شاءَ بمزيدِ عنايَةٍ، وأرادَ منْ نفْسِهِ أنْ يُعِينَهُ ويُوَفِّقَهُ، فهذا فضلُهُ. وخَذَلَ مَنْ ليسَ بأهلٍ لتوفيقِهِ وفضْلِهِ وخلَّى بينَهُ وبينَ نفسِهِ، ولمْ يُرِدْ سُبحانَهُ منْ نفسِهِ أنْ يوفِّقَهُ، فقطعَ عنهُ فضلَهُ، ولمْ يَحْرِمْهُ عَدْلَهُ.

وهذا نوعانِ:

أحدُهما: ما يكونُ جزاءً منهُ للعبدِ على إعراضِهِ عنهُ، إيثارُ عدُوِّهِ في الطاعةِ والموافقةُ عليهِ، وتناسِي ذِكْرِهِ وشُكْرِهِ؛ فهوَ أهلُ مَنْ يخذُلُهُ ويتخلَّى عنهُ.

والثاني: أنْ لا يشاءَ لهُ ذلكَ ابتداءً لما يعْلَمُ منهُ أنَّهُ لا يعرفُ قَدْرَ نعمةٍ لهدايَةٍ ولا يشكُرُهُ عليهِ، ولا يُثْنِي عليهِ بها، ولا يحبُّهُ؛ فلا يشاؤُها لهُ لعدمِ صلاحيَةِ محلِّهِ؛ قالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقالَ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣].

فإذا قضى على هذهِ النفوسِ بالضلالِ والمعصيَةِ كانَ ذلكَ محضَ العَدْلِ؛ كما إذا قضى على الحيَّةِ بأنْ تُقْتَلَ، وعلى العقربِ، وعلى الكلبِ العَقورِ؛ كانَ ذلكَ عَدْلاً فيهِ، وإنْ كانَ مخلوقاً على هذهِ الصفةِ.

وقد استوفَيْنا الكلامَ في هذا في كتابِنا الكبيرِ في القضاءِ والقدرِ. والمقصودُ أنَّ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «**مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ**» **ردٌّ على الطائفتَيْنِ:**

القدريَّةُ: الذينَ يُنكرونَ عمومَ أقضيَةِ اللهِ في عبدِهِ، ويُخرجونَ أفعالَ العبادِ عنْ كونِها بقضائِهِ وقدَرِهِ، ويرُدُّونَ القضاءَ إلى الأمرِ والنهيِ.

وعلى **الجَبرِيَّةِ**: الذينَ يقولونَ: كلُّ مقدورٍ عَدْلٌ، فلا يبقى لقولِـهِ: «**عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ**» فائدةٌ؛ فإنَّ العَدْلَ عندَهم كلُّ ما يمكنُ فعلُهُ، والظلمَ هوَ المحالُ لذاتِهِ، فكأنَّهُ قالَ: «**مَاضٍ وَنَافِذٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ**»، وهذا هوَ الأوَّلُ بعينِهِ).[1]

[فَصْلٌ]

وقولُهُ: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**»، إنْ كانت الروايَةُ محفوظةً هكذا، ففيها إِشْكَالٌ؛ فإنَّهُ جعلَ ما أنزلَهُ في كتابِهِ، أوْ علَّمَهُ أحداً منْ خلْقِهِ، أو استأْثَرَ بِهِ في علمِ الغيبِ عندَهُ قَسِيماً لما سَمَّى بِهِ نفسَهُ، ومعلومٌ أنَّ هذا تقسيمٌ وتفصيلٌ لما سمَّى بِهِ نفسَهُ. فوَجْهُ الكلامِ أنْ يُقَالَ: سمَّيْتَ بِهِ نفْسَكَ فأنزَلْتَهُ في كتابِكَ أوْ علَّمْتَهُ أحداً منْ خلقِكَ أو استأْثَرْتَ بِهِ في عِلْمِ الغيبِ عندَكَ. فإنَّ هذهِ الأقسامَ الثلاثةَ تفصيلٌ لما سَمَّى بِهِ نفسَهُ.

وجوابُ هذا الإشكالِ أنَّ (أَوْ) حرفُ عطفٍ، والمعطوفَ بها أخصُّ ممَّا قبلَهُ، فيكونُ منْ بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فإنَّ ما سمَّى بِهِ نفسَهُ يتناولُ جميعَ الأنواعِ المذكورةِ بعدَهُ، فيكونُ عطفُ كلِّ جملةٍ منها منْ بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ.

فإنْ قيلَ: المعهودُ منْ عطفِ الخاصِّ على العامِّ أنْ يكونَ بالواوِ دونَ سائرِ حروفِ العطفِ.

قيلَ: المسوِّغُ لذلكَ في الواوِ هوَ تخصيصُ المعطوفِ بالذكرِ لمرتبتِهِ منْ بينِ الجنسِ واختصاصِهِ بخاصَّةٍ غيرِهِ منهُ حتَّى كأنَّهُ غيرُهُ[2]، أوْ إرادةٌ لذكْرِهِ مرَّتَيْنِ

(١) الفوائدُ (٤٧ - ٤٨).

(٢) هكذا في الأصلِ؛ ولَعَلَّ الصَّوابَ: واختصاصُهُ بخَاصَّةٍ دُونَ غَيْرِه [أي: مِن أَفرادِ ذلك العامِّ] حتى كأنَّه غَيْرُه [أي ذلكَ العامَّ].

باسمِهِ الخاصِّ وباللفظِ العامِّ، وهذا لا فرقَ فيهِ بينَ العطفِ بالواوِ أوْ بـ (أَوْ).

معَ أنَّ في العطفِ بـ (أَوْ) على العامِّ فائدةً أُخْرَى، وهيَ: بناءُ الكلامِ على التقسيمِ والتنويعِ كما بُنِيَ عليهِ تامًّا، فيُقالُ: سمَّيْتَ بِهِ نفسَكَ، فإمَّا أنزلْتَهُ في كتابِكَ، وإمَّا علَّمْتَهُ أحداً منْ خلقِكَ.

وقدْ دلَّ الحديثُ على أنَّ أسماءَ اللهِ غيرُ مخلوقةٍ، بلْ هوَ الذي تكلَّمَ بها وسمَّى بها نفسَهُ. ولهذا لمْ يقُلْ: بكلِّ اسمٍ خلقْتَهُ لنفسِكَ. ولوْ كانتْ مخلوقةً لمْ يسْأَلْهُ بها؛ فإنَّ اللهَ لا يُقْسَمُ عليهِ بشيءٍ منْ خلقِهِ. فالحديثُ صريحٌ في أنَّ أسماءَهُ ليستْ منْ فعلِ الآدميِّينَ وتسمياتِهِم.

وأيضاً فإنَّ أسماءَهُ مُشتقَّةٌ منْ صفاتِهِ، وصفاتُهُ قديمةٌ بهِ. فأسماؤُها غيرُ مخلوقةٍ.

فإنْ قيلَ: فالاسمُ عندَكُم هوَ المسمَّى أوْ غيرُهُ؟ قيلَ: طالما غلِطَ الناسُ في ذلكَ وجَهِلُوا الصوابَ فيهِ. فالاسمُ يُرَادُ بهِ المسمَّى تارةً، ويرادُ بهِ اللفظُ الدَّالُّ عليهِ أُخْرَى.

فإذا قُلْتَ: قالَ اللهُ كذا، واستوى اللهُ على عرشِهِ، وسَمِعَ اللهُ ورَأَى وخلَقَ، فهذا المرادُ بِهِ المسمَّى نفسُهُ.

وإذا قُلْتَ: اللهُ اسمٌ عربِيٌّ، والرحمنُ اسمٌ عربيٌّ، والرحمنُ منْ أسماءِ اللهِ، والرحمنُ وزْنُهُ فَعْلانُ، والرحمنُ مشتقٌّ من الرحمةِ، ونحوُ ذلكَ، فالاسمُ ها هنا للمُسَمَّى، ولا يُقَالُ غيرُهُ؛ لما في لفظِ الغيرِ من الإجمالِ؛ فإنْ أُرِيدَ بالمغايرةِ أنَّ اللفظَ غيرُ المعنى فحقٌّ، وإنْ أُرِيدَ أنَّ اللهَ سُبحانَهُ كانَ ولا اسمَ لهُ حتَّى خلقَ لنفْسِهِ اسماً، أوْ حتَّى سمَّاهُ خلقُهُ بأسماءٍ مِنْ صُنْعِهِم، فهذا منْ أعظمِ الضلالِ والإلحادِ، فقولُهُ في الحديثِ: «سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ»، ولمْ يقُلْ: خلقْتَهُ لنفْسِكَ، ولا قالَ: سمَّاكَ بِهِ خلْقُكَ، دليلٌ على أنَّهُ سُبحانَهُ تكلَّمَ بذلكَ الاسمِ وسمَّى بِهِ نفسَهُ، كما سمَّى نفسَهُ في كُتُبِهِ التي تكلَّمَ بها حقيقةً بأسمائِهِ.

وقولُهُ: «أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ». دليلٌ على أنَّ أسماءَهُ أكثرُ منْ تسعةٍ وتسعينَ، وأنَّ لهُ أسماءً وصفاتٍ استأثرَ بها في علمِ الغيبِ عندَهُ لا يعلَمُها غيرُهُ.

وعلى هذا فقولُهُ: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، لا ينفي أنْ يكونَ لهُ غيرُها. والكلامُ جملةٌ واحدةٌ؛ أيْ: لهُ أسماءٌ موصوفةٌ بهذهِ الصفةِ؛ كما يُقالُ: لفلانٍ مائةُ عبدٍ أعدَّهُم للتجارةِ، ولَهُ مائةُ فرسٍ أعدَّها للجهادِ. وهذا قولُ الجمهورِ، وخالَفَهُم ابنُ حزمٍ؛ فزَعَمَ أنَّ أسماءَهُ تنحصرُ في هذا العددِ.

((وقولُهُ: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ...» إلى آخرِهِ، توسُّلٌ إليهِ بأسمائِهِ كُلِّها)) [1] ((التي سمَّى بها نفسَهُ ما علِمَ العبادُ منها وما لمْ يعلَمُوا، ومنها ما استأثَرَهُ في علمِ الغيبِ عندَهُ، فلمْ يُطلِعْ عليهِ مَلَكاً مقرَّباً، ولا نبيًّا مُرْسَلاً.

وهذهِ الوسيلةُ أعظمُ الوسائلِ، وأحبُّها إلى اللهِ، وأقربُها تحصيلاً للمطلوبِ)) [2] ((فإنَّها وسيلةٌ بصفاتِهِ وأفعالِهِ التي هيَ مدلولُ أسمائِهِ)) [3]....

[فـدَلَّ الحديثُ على أنَّ التوسُّلَ إليهِ سُبحانَهُ بأسمائِهِ وصفاتِهِ أحبُّ إليهِ وأنفعُ للعبدِ من التوسُّلِ إليهِ بمخلوقاتِهِ. وكذلكَ سائرُ الأحاديثِ، كما في حديثِ الاسمِ الأعظمِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ». [4]

(١) الفوائدُ (٤٨).

(٢) زَادُ المَعادِ (٤/ ٢٠٧).

(٣) الفوائدُ (٤٨).

(٤) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَأَبُو دَاوُدَ (بَابِ الدُّعَاءِ) وَالنَّسَائِيُّ (بَابِ الدُّعَاءِ بَعْدَ الذِّكْرِ) وَابْنُ حِبَّانَ (٤/ ٢٧٦) وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (كِتَابِ الدُّعَاءِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّسْبِيحِ وَالذِّكْرِ)، كُلُّهُمْ مِنْ طُرُقٍ عَنْ خَلَفِ بْنِ خَلِيفَةَ، عَنْ حَفْصِ ابْنِ أَخِي أَنَسٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وفي الحديثِ الآخرِ: «أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ».(١)

وفي الحديثِ الآخَرِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ».(٢)

وكلُّها أحاديثُ صِحَاحٌ رَوَاهَا ابنُ حِبَّانَ والإمامُ أحمدُ والحاكمُ. وهذا تحقيقٌ لقولِهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]).(٣)

(وقولُهُ: «أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي» يجمعُ أصلَيْنِ: الحياةَ والنورَ؛ فإنَّ الربيعَ هوَ المطرُ الذي يُحْيِي الأرضَ فينبتُ الربيعَ. فيسألُ اللهَ بعبوديَّتِهِ وتوحيدِهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ أنْ يجعلَ كتابَهُ الذي جعلَهُ روحاً للعالمينَ نوراً وحياةً لقلبِهِ بمنزلةِ الماءِ الذي يُحْيِي بِهِ الأرضَ، ونُوراً لهُ بمنزلةِ الشمسِ التي تستنيرُ بها الأرضُ. والحياةُ والنورُ جِماعُ الخيرِ كلِّهِ.

وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (ش: ٨/ ٣٠٨) وَابْنُ مَاجَهْ (بَابِ اسْمِ اللهِ الْأَعْظَمِ) مِنْ طَرِيقِ وَكِيعٍ عَنْ أَبِي خُزَيْمَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ سِيرِينَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ. وَلِلْحَدِيثِ طُرُقٌ أُخْرَى

(١) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٨/ ٣٠٨) وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ (٢/ ٤٦٨) وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِ بُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِيِّ، وَأَبُو دَاوُدَ (بَابِ الدُّعَاءِ)، وَالتِّرْمِذِيُّ (بَابِ جَامِعِ الدَّعَوَاتِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وَابْنُ مَاجَهْ (بَابِ اسْمِ اللهِ الْأَعْظَمِ)، وَالنَّسَائِيُّ فِي الْكُبْرَى (٤/ ٣٩٥) وَالْحَاكِمُ: (٤/ ٤٠٥) وَقَالَ: (هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وَلَهُ شَاهِدٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ)، وَابْنُ حِبَّانَ (٢/ ٢٧٢) كُلُّهُمْ مِنْ طُرُقٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٦/ ٤٤)، وَأَحْمَدُ (٤/ ٢٦٤)، وَالنَّسَائِيُّ (٣/ ٥٤)، وَالْحَاكِمُ (١/ ٧٠٥)، وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ. وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا: ابْنُ حِبَّانَ (٥/ ٣٠٤) مِنْ حَدِيثِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) شِفاءُ العَلِيلِ (٢/ ٢٧٦-٢٧٨).

قالَ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فأخبرَ أنَّهُ رُوحٌ تحصلُ بهِ الحياةُ، ونورٌ تحصلُ بهِ الهدايَةُ. فأتباعُهُ لهم الحياةُ والهدايَةُ، ومخالِفُوهُ لهم الموتُ والضلالُ.

وقدْ ضربَ سُبحانَهُ المثلَ لأوليائِهِ وأعدائِهِ بهذيْنِ الأصليْنِ في أوَّلِ سورةِ البقرةِ، وفي وسطِ سورةِ النورِ، وفي سورةِ الرعدِ. وهما المثلُ المائِيُّ والمثلُ الناريُّ). (١)

(كما جمعَ بينَهما سُبحانَهُ في قولِهِ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ﴾ [الرعد: ١٧]، وفي قولِهِ: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾ [البقرة: ١٧]، ثمَّ قالَ: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩] وفي قولِهِ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ الآياتِ [النور: ٣٥]. ثمَّ قالَ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ﴾ الآيَةَ [النور: ٤٣].

فتضمَّنَ الدعاءُ أنْ يُحيِيَ قلبَهُ بربيعِ القرآنِ، وأنْ يُنوِّرَ بهِ صدرَهُ؛ فتجتمعَ لهُ الحياةُ والنورُ. قالَ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ولَمَّا كانَ الصدرُ أوسعَ من القلبِ، كانَ النورُ الحاصلُ لهُ يَسْرِي منهُ إلى القلبِ؛ لأنَّهُ قدْ حصلَ ما هوَ أوسعُ منهُ. ولَمَّا كانتْ حياةُ البدنِ والجوارحِ كلِّها بحياةِ القلبِ، وتسري الحياةُ منهُ إلى الصدرِ ثمَّ إلى الجوارحِ - سألَ الحياةَ لهُ بالربيعِ الذي هوَ مادَّتُها.

---

(١) شِفاءُ العليلِ (٢/ ٢٧٨-٢٧٩).

ولَمَّا كانَ الحزنُ والهمُّ والغمُّ يُضادُّ حياةَ القلبِ واستنارَتَهُ - سأَلَ أنْ يكونَ ذَهابُها بالقرآنِ؛ فإنَّها أحْرَى أنْ لا تعودَ، وأمَّا إذا ذهَبَتْ بغيرِ القرآنِ - منْ صِحَّةٍ أوْ دُنْيَا أوْ جاهٍ أوْ زوجةٍ أوْ ولدٍ - فإنَّها تَعُودُ بذهابِ ذلكَ.

والمكروهُ الواردُ على القلبِ: إنْ كانَ منْ أمرٍ ماضٍ أحدثَ الحزنَ، وإنْ كانَ منْ مستقبلٍ أحدثَ الهمَّ، وإنْ كانَ منْ أمرٍ حاضرٍ أحدثَ الغمَّ. واللهُ أعلمُ).(١)

(فقدْ دلَّ هذا الحديثُ الصحيحُ على أشياءَ:

- **منها:** أنَّهُ استوعبَ أقسامَ المكروهِ الواردةَ على القلبِ. فالهمُّ يكونُ على مكروهٍ يُتَوَقَّعُ في المستقبلِ يهتمُّ بهِ القلبُ. والحزنُ على مكروهٍ ماضٍ منْ فواتِ محبوبٍ أوْ حصولِ مكروهٍ إذا تذكَّرَهُ أحدثَ لهُ حزناً. والغمُّ يكونُ على مكروهٍ حاصلٍ في الحالِ يُوجبُ لصاحبِهِ الغمَّ.

فهذِهِ المكروهاتُ هيَ منْ أعظمِ أمراضِ القلبِ وأدْوَائِهِ. وقدْ تنوَّعَ الناسُ في طُرُقِ أدْوِيَتِهَا والخلاصِ منها. وتبايَنَتْ طرقُهم في ذلكَ تبايُناً لا يُحصيهِ إلاَّ اللهُ. بلْ كلُّ أحدٍ يسعى في التخلُّصِ منها بما يظنُّ أوْ يتوهَّمُ أنَّهُ يُخَلِّصُهُ منها.

وأكثرُ الطرقِ والأدويةِ التي يستعملُها الناسُ في الخلاصِ منها لا يزيدُها إلاَّ شدَّةً. كمَنْ يتدَاوَى منها بالمعاصي على اختلافِها منْ أكبرِ كبائرِها إلى أصغرِها. وكمَنْ يتداوى منها باللَّهْوِ واللعبِ والغناءِ وسماعِ الأصواتِ المطرِبَةِ وغيرِ ذلكَ.

فأكثرُ سعيِ بني آدمَ أوْ كلُّهُ إنَّما هوَ لدفعِ هذهِ الأمورِ والتخلُّصِ منها. وكلُّهُم قدْ أخطأَ الطريقَ إلاَّ مَنْ سعى في إزالتِها بالدواءِ الذي وصفَهُ اللهُ لإزالَتِها؛ وهوَ دواءٌ مُرَكَّبٌ منْ مجموعِ أمورٍ متى نقصَ منها جزءٌ [نقصَ] من الشِّفَاءِ بقدْرِهِ.

(١) الفوائدُ (٤٨-٥٠).

وأعظمُ أجزاءِ هذا الدواءِ هوَ التوحيدُ والاستغفارُ؛ قالَ تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمَّد: ١٩]. وفي الحديثِ: «فإنَّ الشَّيْطَانَ يَقُولُ: أُهْلِكُ بَنِي آدَمَ بِالذُّنُوبِ، وَأَهْلَكُونِي بِالاسْتِغْفَارِ وَبِلا إِلَهَ إلاَّ اللهُ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ بَثَثْتُ فِيهِمُ الأَهْوَاءَ، فَهُمْ يُذْنِبُونَ وَلا يَتُوبُونَ؛ لأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»[1].

ولذلكَ كانَ الدعاءُ المفرِّجُ للكَرْبِ محضَ التوحيدِ، وهوَ «لا إلهَ إلاَّ اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إلهَ إلاَّ هوَ ربُّ العرشِ العظيمُ، لا إلهَ إلاَّ هوَ ربُّ السَّماواتِ وربُّ الأرضِ ربُّ العرشِ الكريمُ»[2]، وفي الترمذيِّ وغيرِهِ عن النبيِّ صلَّى اللهُ

---

(١) رَواهُ أَبُو يَعْلَى فِي المُسْنَدِ (١/ ٩٩) (١٣١) قال: حَدَّثَنا مُحْرِزُ بنُ عَوْنٍ، حَدَّثَنا عُثْمانُ بنُ مَطَرٍ، حدَّثَنا عبدُ الغَفُورِ، عنْ أَبِي نَضْرَةَ، عن أبي رَجاءٍ، عن أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، أنه قالَ: «عَلَيْكُمْ بِلاَ إِلَهَ إلا اللهُ، والاستغفارِ، فأَكْثِرُوا مِنْهُمَا؛ فإنَّ إِبْلِيسَ قالَ: أَهْلَكْتُ بَنِي آدَمَ بالذُّنُوبِ، وأَهْلَكُونِي بِلاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ والاستغفارِ، فلمَّا رَأَيْتُ ذلك أَهْلَكْتُهُمْ بالأهواءِ، فَهُمْ يَحْسَبُونَ أنهم مُهْتَدُونَ». ورَواهُ ابنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي السُّنَّةِ (١/ ٩) مِنْ طَرِيقِ الحَسَنِ بنِ بَزَّارٍ، عن مُحْرِزِ بْنِ عَوْنٍ نَحْوَهُ.

إسنادُهُ ضَعِيفٌ جدًّا، قالَ ابنُ كَثِيرٍ بَعْدَ ذِكْرِه للحديثِ في تفسيرِه (١/ ٤٠٨): عُثْمانُ بنُ مَطَرٍ وشيخُهُ ضَعِيفانِ. اهـ.

أما عُثْمانُ بنُ مَطَرٍ، فقالَ فيه البُخَارِيُّ في التاريخِ الكَبِيرِ (٦/ ٢٥٣): مُنْكَرُ الحَدِيثِ. وضَعَّفَهُ يَحْيَى بنُ مَعِينٍ، وقالَ: لا يُكْتَبُ حَدِيثُهُ. انظُرِ الكَامِلَ فِي ضُعَفاءِ الرِّجالِ (٥/ ١٦٣).

وأما عَبْدُ الغَفُورِ فهو أبو الصَّباحِ بنُ عَبْدِ العزيزِ الوَاسِطِيُّ، ضَعَّفَهُ ابنُ مَعِينٍ وأبو زُرْعَةَ والنَّسَائِيُّ وابنُ عَدِيٍّ، وقالَ البُخارِيُّ: تَرَكُوهُ، مُنْكَرُ الحديثِ، وقال ابنُ حِبَّانَ: كانَ مِمَّنْ يَضَعُ الحَدِيثَ. انظُرِ الكامِلَ في ضُعَفَاءِ الرجالِ (٥/ ٣٢)، والكشفَ الحَثِيثَ (١/ ١٧١)، والضُّعَفاءَ والمَتْرُوكينَ للنَّسائِيِّ (١/ ٧٠)، والتاريخَ الكَبِيرَ (٦/ ١٣٧).

(٢) رواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٢٢٩٧، ٢٣٤٤، ٢٣٤٥، ٢٥٣١، ٢٥٣٧، ٢٥٦٨)، والبُخارِيُّ في كتابِ الدَّعَواتِ/ بابُ الدُّعاءِ عندَ الكَرْبِ (٦٣٤٥، ٦٣٤٦) وكتابِ التوحيدِ / بابُ قولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ (٧٤٢٦) وبابُ قولِ اللهِ تعالَى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ وقولِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾، ومسلمٌ في كتابِ الذِّكْرِ والدعاءِ / بابُ الدُّعاءِ عِنْدَ الكَرْبِ (٦٨٥٨)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الدَّعَواتِ / بابُ مَا جَاءَ فِيمَا يَقُولُ عِنْدَ

عليهِ وسلَّمَ: «دَعْوَةُ أَخِي ذِي النُّونِ، مَا دَعَاهَا مَكْرُوبٌ إِلاَّ فَرَّجَ اللهُ كَرْبَهُ: لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ».[1]

فالتوحيدُ يُدْخِلُ العبدَ على اللهِ، والاستغفارُ والتوبةُ يرفعُ المانعَ، ويُزِيلُ الحجابَ الذي يحْجُبُ القلبَ عن الوصولِ إليهِ؛ فإذا وصلَ القلبُ إليهِ زالَ عنهُ همُّهُ وغمُّهُ وحُزْنُهُ. وإذا انقطعَ عنهُ حضَرَتْهُ الهمومُ والغمومُ والأحزانُ، وأَتَتْهُ منْ كلِّ طريقٍ، ودخَلَتْ عليهِ منْ كلِّ بابٍ.

فلذلكَ صَدَرَ هذا الدعاءُ المُذْهِبُ للْهَمِّ والغمِّ والحزنِ بالاعترافِ لهُ بالعبودِيَّةِ حقًّا منهُ ومنْ آياتِهِ.

ثمَّ أتبعَ ذلكَ باعترافِهِ بأنَّهُ في قبضَتِهِ وملكِهِ وتحتَ تصرُّفِهِ بكونِ ناصيَتِهِ في يدِهِ يُصَرِّفُهُ كيفَ يشاءُ، كما يُقادُ مَنْ أمسكَ بناصيَتِهِ شديدُ القُوَى لا يستطيعُ إلاَّ الانقيادَ لهُ.

ثمَّ أتبعَ ذلكَ بإقرارِهِ لهُ بنفاذِ حُكْمِهِ فيهِ، وجرَيانِهِ عليهِ شاءَ أمْ أَبَى، وإذا حَكَمَ فيهِ بحكمٍ لمْ يستطعْ غيرُهُ ردَّهُ أبداً. وهذا اعترافٌ لرَبِّهِ بكمالِ القدرةِ عليهِ، واعترافٌ منْ نفسِهِ بغايَةِ العجزِ والضعفِ ....

ثمَّ أتبعَ ذلكَ باعترافِهِ بأنَّ كلَّ حُكْمٍ وكلَّ قضيَّةٍ يُنَفِّذُهَا فيهِ... فهيَ عَدْلٌ محضٌ منهُ، لا جَورَ فيها ولا ظلمَ بوَجْهٍ من الوجوهِ).[2]

الكَرْبِ (٣٤٣٥)، وابنُ مَاجَهْ في كِتابِ الدُّعاءِ / بابُ الدُّعاءِ عِنْدَ الكَرْبِ (٣٨٨٢)، كُلُّهُمْ مِن طُرُقٍ عن أبي العَالِيَةِ الرِّيَاحِيِّ، عنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما مَرْفُوعًا، على اختلافٍ في بعضِ الألفاظِ، وأَقْرَبُها إلى ما ذَكَرَهُ الشيخُ - رَحِمَهُ اللهُ - ما رواهُ الإمامُ أَحْمَدُ برَقْمِ (٢٣٤٤).

(١) رواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٤٦٢)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الدَّعواتِ / بابُ (٨٢) الحديثُ رَقْمُ (٣٥٠٥) مُخْتَصرًا، والنَّسائِيُّ في كتابِ عَمَلِ اليومِ واللَّيْلَةِ / بابُ ذِكْرِ دَعْوَةِ ذي النُّونِ (١٠٤٩٢)، وأَبُو يَعْلَى (١/ ٣٦٠) برَقْمِ (٧٦٨) من طُرُقٍ، عن يُونُسَ بنِ أَبِي إِسْحاقَ، عن إِبْرَاهِيمَ بنِ مُحَمَّدِ بنِ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ. والحديثُ صَحَّحَهُ الشيخُ أَحْمَدُ شاكر رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى.

(٢) شفاءُ العَلِيلِ (٢/ ٢٧١-٢٧٤).

(ثمَّ سألَهُ أنْ يجعلَ القرآنَ لِقَلْبِهِ كالرَّبيعِ الذي يَرْتَعُ فيهِ الحيوانُ، وكذلكَ القرآنُ ربيعُ القلوبِ، وأنْ يجعلَهُ شفاءَ هَمِّهِ وغَمِّهِ، فيكونَ لهُ بمنـزلةِ الدواءِ الذي يَسْتَأْصِلُ الداءَ، ويُعيدُ البدنَ إلى صحَّتِهِ واعتدالِهِ، وأنْ يجعلَهُ لِحُزْنِهِ كالجِلاءِ الذي يجْلُو الطُّبوعَ والأصدِيَةَ وغيرَها.

فأحْرَى بهذا العلاجِ إذا صَدَقَ العليلُ في استعمالِهِ أنْ يُزِيلَ عنهُ داءَهُ، ويُعْقِبَهُ شفاءً تامًّا، وصِحَّةً وعافيَةً. واللهُ الموفِّقُ).[1]

(١) زادُ المَعادِ (٤/ ٢٠٧).

البابُ الثامنُ: في بيانِ مَا دَلَّ عليهِ قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[1] من الفَوائدِ الجَليلَةِ في بابِ الأسماءِ والصِّفَاتِ

(قدْ دلَّ هذا الحديثُ العظيمُ القَدْرِ على أمورٍ:

منها: أنَّهُ يُسْتَعَاذُ بصفاتِ الرَّبِّ تعالى كما يُستعاذُ بذاتِهِ، وكذَلِكَ يُسْتَغَاثُ بصفاتِهِ كما يُستغاثُ بذاتِهِ، كما في الحديثِ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ يَا بَدِيعَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ، يَا ذَا الجَلالِ وَالإِكْرَام، لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلا إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ»[2]، وكذلكَ

(١) رواهُ الإمامُ مَالِكٌ في كتابِ القُرآنِ / بابُ ما جاءَ في الدعاءِ، والإمامُ أَحْمَدُ (٢٣٧٩١، ٢٥١٢٧)، ومُسلِمٌ في كِتابِ الصَّلاةِ / بابُ ما يُقالُ في الركوعِ والسجودِ (١٠٩٠)، وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ / بابٌ في الدعاءِ في الركوعِ والسجودِ (٨٧٤)، والنَّسَائيُّ في كتابِ الطهارةِ / بابُ تَرْكِ الوُضوءِ مِن مَسِّ الرَّجُلِ امرَأَتَهُ بغيْرِ شَهْوَةٍ (١٦٩)، وفي كتابِ التطبيقِ / بابُ نَصْبِ القَدَمينِ في السجودِ (١٠٩٩)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الدَّعَواتِ / بابُ (٧٦)، وابنُ مَاجَهْ في كتابِ الدُّعاءِ / بابُ ما تَعَوَّذَ منه رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ (٣٨٤١)، وغيرُهُم مِن حديثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عنها.

(٢) رَوَاهُ النَّسائِيُّ في كتابِ عَمَلِ اليومِ والليلةِ / بابُ ما يَقُولُ إذا أَمْسَى (١٠٤٠٥) دُونَ قَوْلِهِ: «يَا بَدِيعَ السَّماوَاتِ والأرضِ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ، لا إله إلا أَنْتَ» ولا قَوْلِهِ: «وَلاَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ» من حَدِيثِ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ.

قولُهُ في الحديثِ الآخرِ: «أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ أَنْ تُضِلَّنِي».[(١)]

وكذلكَ استعاذَتُهُ بكلماتِ اللهِ التَّامَّاتِ[(٢)] وبوَجْهِهِ الكريمِ[(٣)] وتعظيمِهِ.

وفي هذا ما يَدُلُّ على أنَّ هذهِ صفاتٌ ثابتةٌ وُجُودِيَّةٌ؛ إذْ لا يُستعاذُ بالعدمِ، وأنَّها قائمةٌ بهِ غيرُ مخلوقةٍ؛ إذْ لا يُستعاذُ بالمخلوقِ. وهوَ احتجاجٌ صحيحٌ؛ فإنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يستعيذُ بمخلوقٍ ولا يستغيثُ بهِ ولا يدلُّ أُمَّتَهُ على ذلكَ.

ومنها: أنَّ العفوَ منْ صفاتِ الفعلِ القائمةِ بهِ، وفيهِ ردٌّ على مَنْ زَعَمَ أنَّ فِعْلَهُ عينُ مفعولِهِ؛ فإنَّ المفعولَ مخلوقٌ ولا يُستعاذُ بهِ.

ومنها: أنَّ بعضَ صفاتِهِ وأفعالِهِ سُبحانَهُ أفضلُ مِنْ بعضٍ؛ فإنَّ المُستعاذَ بهِ أفضلُ من المُستعاذِ منهُ، وهذا كما أنَّ صفةَ الرحمةِ أفضلُ منْ صفةِ الغضبِ، ولذلكَ كانَ لها الغلبةُ والسَّبْقُ، ولذلكَ كلامُهُ سُبحانَهُ هوَ صفتُهُ، ومعلومٌ أنَّ كلامَهُ الذي يُثْنِي على نفسِهِ بهِ ويذكرُ فيهِ أوصافَهُ وتوحيدَهُ أفضلُ من كلامِهِ الذي يذُمُّ بهِ أعداءَهُ ويذكُرُ أوصافَهُم.

---

(١) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٢٧٤٨)، ومُسلِمٌ في كتابِ الذِّكْرِ والدعاءِ / بابُ التعوُّذِ منْ شَرِّ ما عَمِلَ ومِنْ شَرِّ مَا لَمْ يَعْمَلْ (٦٨٣٧)، وأصلُ الحديثِ عندَ البُخارِيِّ في كتابِ التوحيدِ / بابُ قولِ اللهِ تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (٧٣٨٣) بدونِ هذه الجملةِ. كلُّهُم من طُرُقٍ، عن حُسَيْنٍ المُعَلِّمِ، حَدَّثَنِي عبدُ اللهِ بنُ بُرَيْدَةَ، عن يَحْيَى بنِ يَعْمُرَ، عن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما.

(٢) يُشيرُ إلى الحديثِ الذي رَوَاهُ مُسلِمٌ في كتابِ الذِّكْرِ والدعاءِ / بابُ التعوُّذِ مِنْ سُوءِ القضاءِ (٦٨١٧)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الدعَواتِ / بابُ ما جاءَ فيما يَقُولُ إذا نَزَلَ مَنْزِلاً (٣٤٣٧)، وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ الطِّبِّ / بابُ الفَزَعِ والأَرَقِ وما يُتَعَوَّذُ مِنْهُ (٣٥٤٧) من حَديثِ خَوْلَةَ بِنتِ حَكِيمٍ رَضِيَ اللهُ عنها. وفي هذا المَعْنَى أحاديثُ كَثِيرَةٌ في الكُتُبِ السِّتَّةِ وغيرِها.

(٣) يُشيرُ إلى الحديثِ الذي رَوَاهُ أبو دَاوُدَ في كتابِ الصلاةِ / بابُ ما يَقُولُهُ الرَّجُلُ عِنْدَ دُخولِهِ المَسْجِدَ (٤٦٢)، وفي هذا المَعْنَى أحاديثُ أُخَرُ.

ولهذا كانَتْ سورةُ الإخلاصِ أفضلَ منْ سورةِ تَبَّتْ، وكانت تعدِلُ ثُلُثَ القرآنِ دُونَها، وكانتْ آيَةُ الكرسيِّ أفضلَ آيَةٍ في القرآنِ.

ولا تُصْغِ إلى قولِ مَنْ غَلُظَ حجابُهُ: إنَّ الصِّفَاتِ قديمةٌ، والقديمَ لا يَتفاضَلُ؛ فإنَّ الأدِلَّةَ السمعيَّةَ والعقليَّةَ تُبْطِلُ قولَهُ.

وقدْ جعلَ سُبحانَهُ ما كانَ من الفضلِ والعطاءِ والخيرِ وأهلِ السعادةِ بيدِهِ اليُمْنَى، وما كانَ من العَدْلِ والقبضِ بيدِهِ الأُخْرَى. ولهذا جعلَ أهلَ السعادةِ في القبضةِ اليُمنى، وأهلَ الشقاوةِ في القبضةِ الأخرى، والمُقْسِطُونَ على منابرَ منْ نورٍ عنْ يمينِهِ، والسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بيمينِهِ، والأرْضُ بالأرضِ.[(١)]

ومنها أنَّ الغضبَ والرضى والعفوَ والعقوبةَ لَمَّا كانتْ مُتقابِلةً استعاذَ بأحدِهما من الآخرِ، فلَمَّا جاءَ إلى الذاتِ المقدَّسةِ التي لا ضدَّ لها ولا مُقابلَ قالَ: «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»، فاستعاذَ بصفةِ الرِّضَى منْ صفةِ الغضبِ، وبفعلِ العفوِ منْ فعلِ العقوبةِ، وبالموصوفِ بهذهِ الصِّفَاتِ والأفعالِ منهُ، **وهذا يتضمَّنُ كمالَ الإثباتِ للقدرِ والتوحيدِ بأوجزِ لفظٍ وأخْصَرِهِ**؛ فإنَّ الذي يُستعاذُ منهُ من الشرِّ وأسبابِهِ هوَ واقعٌ بقضاءِ الربِّ تعالى وقدَرِهِ، وهوَ المُنْفَرِدُ بخلْقِهِ وتقديرِهِ وتكوينِهِ، فما شاءَ كانَ وما لمْ يشَأْ لمْ يكُنْ، فالمُستعاذُ منهُ إمَّا وصْفُهُ، وإمَّا فعْلُهُ، وإمَّا مفعولُهُ الذي هوَ أَثَرُ فعلِهِ، والمفعولُ ليسَ إليهِ نفعٌ ولا ضرٌّ ولا يضرُّ إلاَّ بإذنِ خالقِهِ كما قالَ تعالى في أعظمِ ما يتضرَّرُ بِهِ العبدُ وهوَ السحرُ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فالذي يُستعاذُ منهُ هوَ بمشيئَتِهِ وقضائِهِ وقدَرِهِ، وإعاذَتُهُ منهُ وصرْفُهُ عن المستعيذِ إنَّما هوَ بمشيئَتِهِ أيضاً وقضائِهِ وقدَرِهِ.

---

(١) هكذا في الأصلِ.

فهوَ المُعيذُ منْ قدرِهِ بقدَرِهِ، ومِمَّا يُصدرُهُ عنْ مشيئَتِهِ وإرادَتِهِ بما يُصْدِرُهُ عنْ مشيئَتِهِ وإرادَتِهِ. والجميعُ واقعٌ بإرادَتِهِ الكونيَّةِ القدريَّةِ، فهوَ يُعيذُ مِنْ إرادَتِهِ بإرَادَتِهِ؛ إذ الجميعُ خلقُهُ وقدرُهُ وقضاؤُهُ، فليسَ هناكَ خَلْقٌ لغيرِهِ فيُعيذَ منهُ هوَ، بل المستعاذُ منهُ خلقٌ لهُ، فهوَ الذي يُعيذُ عبدَهُ منْ نفسِهِ بنفْسِهِ، فيُعيذُهُ مِمَّا يُريدُهُ بِهِ بما يُريدُهُ بِهِ.

فليسَ هناكَ أسبابٌ مخلوقةٌ لغيرِهِ يَستعيذُ منها المستعيذُ بِهِ كما يَستعيذُ منْ رجلٍ ظلمَهُ وقهرَهُ برجلٍ أقْوَى أوْ نظيرِهِ.

فالمستعاذُ منهُ هوَ الذنوبُ وعقوبتُها، والآلامُ وأسبابُها. والسببُ منْ قضائِهِ، والمُسبَّبُ منْ قضائِهِ. والإعاذةُ بقضائِهِ. فهوَ الذي يُعيذُ منْ قضائِهِ بقضائِهِ، فلَمْ يُعِذْ إلاَّ بما قدَّرَهُ وشاءَهُ. قدَّرَ الاستعاذةَ منهُ وشاءَها، وقدَّرَ الإعاذةَ وشاءَها. فالجميعُ قضاؤُهُ وقدَرُهُ ومُوجَبُ مشيئتِهِ.

فنَتَجَتْ هذهِ الكلمةُ التي لوْ قالَها غيرُ الرسولِ لبادَرَ المُتكلِّمُ الجاهلُ إلى إنكارِها وردِّها: إنَّهُ لا يملِكُ الضرَّ والنفعَ والخلقَ والأمرَ والإعادةَ غيرُكَ، وإنَّ المستعاذَ منهُ هوَ بيدِكَ وتحتَ تصرُّفِكَ ومخلوقٌ منْ خلقِكَ، فما استعَذْتُ إلاَّ بكَ، ولا استعَذْتُ إلاَّ منكَ، وهذا نظيرُ قولِهِ في الحديثِ الآخرِ: «**لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَى مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ**»[1].

---

(١) جُزءٌ من حديثِ البَرَاءِ بنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقد رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٨٠٤٤) ومَوَاضِعَ أُخَرَ، والبُخَارِيُّ في كتابِ الوُضوءِ / بابُ فَضْلِ مَنْ بَاتَ عَلَى الوُضوءِ (٢٤٧)، وكتابِ الدَّعَوَاتِ / بابُ إذا باتَ طَاهِرًا (٦٣١١)، وبابُ النومِ على الشِّقِّ الأيمَنِ (٦٣١٥) وكتابِ التوحيدِ / بابُ قولِهِ: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦] (٧٤٨٨).

ومُسْلِمٌ في كتابِ الذِّكْرِ والدُّعَاءِ / بابُ ما يقولُ عند النومِ والمَضْجَعِ (٦٨٢٠)، وأبو دَاوُدَ في كتابِ الأَدَبِ / بابُ ما يُقالُ عِنْدَ النومِ (٥٠٤٦)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الدَّعَوَاتِ / بابُ ما جَاءَ في الدعاءِ إذا أَوَى إلى فِرَاشِهِ (٣٣٩٤)، وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ الدُّعاءِ / بابُ ما يَدْعُو بِهِ إذا أَوَى إلى فِرَاشِهِ (٣٨٧٦)..

وقد رُوِيَ الحديثُ من غيرِ طريقِ البَرَاءِ بنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فهُوَ الذي يُنْجِي منْ نفسِهِ بنفسِهِ، ويُعيذُ منْ نفسِهِ بنفسِهِ، وكذلكَ الفرارُ، يَفِرُّ عبدُهُ منهُ إليه.

وهذا كُلُّهُ تحقيقٌ للتوحيدِ والقدَرِ، وأنَّهُ لا ربَّ غيرُهُ ولا خالقَ سواهُ، ولا يملكُ المخلوقُ لنفسِهِ ولا لغيرِهِ ضرًّا ولا نفعاً ولا موْتاً ولا حياةً ولا نُشُوراً، بل الأمرُ كلُّهُ للهِ ليسَ لأحدٍ سواهُ منهُ شيءٌ، كما قالَ تعالى لأكرمِ خلْقِهِ عليهِ وأحبِّهم إليهِ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمرانَ: ١٢٨]، وقالَ جواباً لمَنْ قالَ: هلْ لنا من الأمرِ شيءٌ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمرانَ: ١٥٤]، فالملكُ كلُّهُ لهُ، والأمرُ كلُّهُ لهُ، والحمدُ كلُّهُ لهُ، والشفاعةُ كلُّها لهُ، والخيرُ كلُّهُ في يدَيْهِ، وهذا تحقيقُ تفرُّدِهِ بالربوبيَّةِ والألوهيَّةِ، فلا إلهَ غيرُهُ، ولا ربَّ سِواهُ ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧]، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢].

فاسْتَعِذْ بهِ منهُ، وفِرَّ منهُ إليهِ، واجْعلْ لَجْأَكَ منهُ إليهِ، فالأمرُ كلُّهُ لهُ، لا يملكُ أحدٌ معهُ منهُ شيئاً، فلا يأتي بالحسناتِ إلاَّ هوَ، ولا يذهبُ بالسيِّئاتِ إلاَّ هوَ، ولا تتحرَّكُ ذرَّةٌ فما فوقَها إلاَّ بإذنِهِ، ولا يضُرُّ سُمٌّ ولا سِحْرٌ ولا شيطانٌ ولا حيوانٌ ولا غيرُهُ إلاَّ بإذْنِهِ ومشيئَتِهِ. يُصيبُ بذلكَ مَنْ يَشاءُ ويصْرِفُهُ عمَّنْ يشاءُ.

فأعْرَفُ الخلقِ بهِ وأقْوَمُهُم بتوحيدِهِ مَنْ قالَ في دُعائِهِ: «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ». فليسَ للخَلْقِ مَعاذٌ سِواهُ، ولا مُستعاذٌ منهُ إلاَّ وهوَ ربُّهُ وخالقُهُ ومليكُهُ وتحتَ قهرِهِ وسلطانِهِ.

ثمَّ خَتمَ الدعاءَ بقولِهِ: «لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ». اعترافاً بأنَّ شَأْنَهُ وعظمتَهُ ونعوتَ كمالِهِ وصفاتِهِ أعظمُ وأجلُّ منْ أنْ يُحْصِيَهَا أحدٌ من الخلقِ، أوْ يَبْلُغَ أحدٌ حقيقةَ الثناءِ عليهِ غيرُهُ سُبحانَهُ.

فهوَ توحيدٌ في الأسماءِ والصِّفَاتِ والنعوتِ، وذاكَ توحيدٌ في العبودِيَّةِ والتَّأَلُّهِ وإفرادِهِ تعالى بالخوفِ والرجاءِ والاستعاذةِ، وهذا مُضادٌّ الشركِ، وذاكَ مُضادٌّ التعطيلِ. وباللهِ التوفيقُ). (١)

---

(١) شِفاءُ العَليلِ (٢/ ٢٦٥-٢٦٩).

مُلْحَقٌ: [فإذا كانَ] (رِضاهُ أَحبَّ إِلَيْهِ مِن غَضَبِهِ، وعَفْوُهُ أَحبَّ إليهِ مِن عُقوبَتِهِ، ورَحْمَتُهُ أَحبَّ إليه مِن عَذابِهِ، وعطَاؤُهُ أَحبَّ إليه من مَنْعِه. [فـ]إنَّمَا يَقعُ الغَضَبُ والعُقوبَةُ والمَنْعُ بأَسبابٍ تُناقِضُ مُوجَبَ تلك الصِّفاتِ والأَسماءِ وهو سُبْحانَهُ كَمَا يُحِبُّ أَسماءَهُ وصِفاتِهِ يُحِبُّ آثارَهَا ومُوجَبها كما في الحديثِ أَنَّهُ: (وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ، جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ، عَفُوٌّ يُحِبُّ العَفْوَ).

وهو شَكُورٌ يُحِبُّ الشَّاكِرينَ، عَلِيمٌ يُحِبُّ العالِمينَ، جَوادٌ يُحِبُّ أهلَ الجُودِ، حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ أَهْلَ الحَياءِ والسَّتْرِ، صَبُورٌ يُحِبُّ الصابرينَ، رَحِيمٌ يُحِبُّ الرُّحَمَاءَ، فهو يَكْرَهُ ما يُضادُّ ذلك، وكذلك كَرِهَ الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْيانَ والظُّلْمَ والجَهْلَ، لمُضادَّةِ هذه الأوصافِ لأَوْصَافِ كَمالِهِ المُوافِقَةِ لأَسْمَائِهِ وصفاتِهِ، ولكنْ يُرِيدُهُ سُبْحانَهُ لاستِلْزامِهِ ما يُحِبُّهُ ويَرْضاهُ، فهو مُرادٌ له إِرَادَةَ اللَّوازِمِ المَقْصُودَةِ لغَيْرِهَا: إذ هي مُفْضِيَةٌ إلى ما يُحِبُّ، فإذا حَصَلَ بها ما يُحِبُّهُ وأدَّتْ إلى الغايَةِ المقصودةِ له سُبْحانَهُ لَم تَبْقَ مَقْصُودةً لا لِنَفْسِهَا ولا لِغَيْرِها، فتزُولُ ويَخْلُفُها أَضْدَادُها التي هي أَحبُّ إليه سُبْحَانَهُ منها، وهي مُوجَبُ أَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ). شِفاءُ العَليلِ (٢/ ٢٤٣-٢٤٤).

[وكذلك] (فِعْلُ ما يُحِبُّهُ، والإعانةُ عليه، وجَزاؤُهُ، وما يَتَرَتَّبُ عليه مِن المَدْحِ والثَّناءِ مِن رَحْمَتِه، وفِعْلُ ما يَكْرَهُهُ وجَزاؤُه، وما يَتَرَتَّبُ عليه مِنَ الذَّمِّ والأَلَمِ والعِقابِ، من غَضَبِهِ، ورَحْمَتُهُ سَابِقَةٌ على غَضَبِهِ غَالِبَةٌ له، وكُلُّ ما كانَ مِن صِفَةِ الرَّحْمَةِ فهو غالِبٌ لِمَا كانَ مِن صِفَةِ الغَضَبِ، فإنه سُبْحَانَهُ لا يَكُونُ إلا رَحِيمًا، ورَحْمَتُهُ مِن لَوازِمِ ذَاتِهِ كعِلْمِهِ وقُدْرَتِهِ وحَياتِهِ وسَمْعِهِ وبَصَرِهِ وإِحسانِهِ؛ فيَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ على خِلافِ ذلك، وليس كذلكَ غَضَبُهُ؛ فإنه لَيْسَ مِن لَوازِمِ ذاتِهِ، ولا يَكُونُ غَضْبَانَ دائمًا غَضَبًا لا يُتَصَوَّرُ انفِكَاكُهُ، بَلْ يَقُولُ رُسُلُهُ وأَعْلَمُ الخَلْقِ به يَوْمَ القِيامَةِ (إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ولَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ) ورَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَغَضَبُهُ لَمْ يَسَعْ كُلَّ شَيْءٍ، وهو سُبْحَانَهُ كَتَبَ على نفسِهِ الرَّحْمَةَ، ولَمْ يَكْتُبْ على نَفْسِهِ الغَضَبَ، ووَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وعِلْمًا، ولم يَسَعْ كُلَّ شَيْءٍ غَضَبًا وانتِقامًا. فالرَّحْمَةُ وما كانَ بها ولوازِمُها وآثارُها غَالِبَةٌ على الغَضَبِ، وما كانَ منه وآثارُهُ فوُجودُ ما كانَ

الباب التاسع: في بيان دلالة الشريعة المُحكَمة على أسماء الله الحُسنى وصفاته العُلى

(الحمدُ للهِ الذي نزَّهَ شريعتَهُ عن... التناقضِ والفسادِ، وجعلَها كفيلةً وافيةً بمصالحِ خلقِهِ في المعاشِ والمعادِ، وجعلَها منْ أعظمِ آياتِهِ الدالَّةِ عليهِ، ونصَبَها طريقاً مُرْشِداً لِمَنْ سلكَهُ إليهِ، فهوَ نورُهُ المبينُ، وحِصْنُهُ الحصينُ، وظلُّهُ الظليلُ، وميزانُهُ الذي لا يعولُ.

لقدْ تعرَّفَ بها إلى أَلِبَّاءِ عبادِهِ غايَةَ التعرُّفِ، وتحبَّبَ بها إليهم غايَةَ التحبُّبِ، فأَنِسُوا بها منهُ حكمتَهُ البالغةَ، وتمَّتْ بها عليهم منهُ نعمُهُ السابغةُ، ولا إلهَ إلاَّ اللهُ الذي في شرْعِهِ أعظمُ آيةٍ تدلُّ على تفرُّدِهِ بالإلهيَّةِ وتوحُّدِهِ بالربوبيَّةِ، وأنَّهُ

بالرَّحْمَةِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِن وُجودِ ما كان من لوازمِ الغَضبِ، ولهذا كانتِ الرَّحْمَةُ أَحَبَّ إليه مِنَ العذابِ، والعفوُ أَحبَّ إليه مِنَ الانتقامِ). الفوائدُ (١٨٢- ١٨٣).

[فـ] (الرَّبُّ تعالَى تَسَمَّى بالغَفُورِ الرَّحِيم، ولَمْ يَتَسَمَّ بالمُعَذِّبِ ولا بالمُعاقِبِ، بل جَعَلَ العذابَ والعِقابَ في أفعالِه كما قال تعالَى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠] وقال تعالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦٧] وقالَ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج: ١٢-١٤] وقالَ: ﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ١-٣] وهذا كثيرٌ في القرآنِ، فإنه سُبْحَانَهُ يَتَمَدَّحُ بالعَفْوِ والمَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ والكَرَمِ والحِلْمِ ويَتَسَمَّى، ولم يَتَمَدَّحْ بِأَنَّهُ المُعاقِبُ ولا الغَضْبَانُ ولا المُعَذِّبُ ولا المُسقمُ [هكذا في الأصل، ولعله تَصْحِيفٌ من المُنْتَقِم، فَإنه هو المَعْدُودُ في الأسماءِ الحُسْنَى في الحَدِيثِ الذي سَيُشِيرُ إليه المُؤَلِّفُ] إلا في الحديثِ الذي فيه تَعْدِيدُ الأسماءِ الحُسْنَى، ولم يَثْبُتْ، وقد كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ كِتابًا بأَنَّ رَحْمَتَهُ سَبقَتْ غَضَبَهُ) شِفاءُ العَلِيلِ (٢/ ٢٢٣- ٢٢٤).

الموصوفُ بصفاتِ الكمالِ، المُستَحِقُّ لنعوتِ الجلالِ، الذي لهُ الأسماءُ الحسنى والصِّفَاتُ العُلَى فلا يدخلُ السوءُ في أسمائِهِ ولا النقصُ والعيبُ في صفاتِهِ، ولا العبثُ ولا الجَوْرُ في أفعالِهِ، بلْ هوَ منـزَّهٌ في ذاتِهِ وأوصافِهِ وأفعالِهِ وأسمائِهِ عمَّا يُضادُّ كمالَهُ بوجهٍ من الوجوهِ. وتباركَ اسمُهُ، وتعالَى جَدُّهُ، وبهَرَتْ حكمتُهُ، وتمَّتْ نعمتُهُ، وقامَتْ على عبادِهِ حُجَّتُهُ، واللهُ أكبرُ كبيراً أنْ يكونَ في شَرْعِهِ تناقضٌ واختلافٌ، فلوْ كانَ منْ عندِ غيرِ اللهِ لوجَدُوا فيهِ اختلافاً كثيراً، بلْ هيَ شريعةٌ مُؤْتَلِفَةُ النظامِ، متعادلةُ الأقسامِ، مُبَرَّأَةٌ منْ كلِّ نقصٍ، مُطَهَّرَةٌ منْ كلِّ دَنَسٍ، مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها، مُؤَسَّسَةٌ على العَدْلِ والحكمةِ والمصلحةِ والرحمةِ قواعدُها ومبانيها، إذا حَرَّمَتْ فساداً حرَّمَتْ ما هوَ أولى منهُ أوْ نظيرُهُ، وإذا رَعَتْ صلاحاً رَعَتْ ما هوَ فوقَهُ أوْ شبهَهُ، فهيَ صراطُهُ المستقيمُ الذي لا أَمْتَ فيهِ ولا عِوَجَ، ومِلَّتُهُ الحنيفيَّةُ السَّمْحَةُ التي لا ضيقَ فيها ولا حرجَ، بلْ هيَ حنيفيَّةُ التوحيدِ سمحةُ العملِ، لمْ تأْمُرْ بشيءٍ فيقولُ العقلُ: لوْ نَهَتْ عنهُ لكانَ أوفقَ، ولمْ تَنْهَ عنْ شيءٍ فيقولُ الحِجَى: لوْ أباحَتْهُ لكانَ أرفقَ، بلْ أَمَرَتْ بكلِّ صلاحٍ، ونَهَتْ عنْ كلِّ فسادٍ، وأباحَتْ كلَّ طَيِّبٍ، وحرَّمَتْ كلَّ خبيثٍ، فأوامرُها غذاءٌ ودواءٌ، ونواهيها حِمْيَةٌ وصيانةٌ، وظاهرُها زينةٌ لباطِنِها، وباطنُها أجملُ منْ ظاهرِها، شعارُها الصدقُ، وقَوَامُها الحقُّ، وميزانُها العَدْلُ، وحُكمُها الفصلُ، لا حاجةَ بها البَتَّةَ إلى أنْ تكْمُلَ بسياسةِ ملِكٍ، أوْ رَأْيِ ذي رأيٍ، أوْ قياسِ فقيهٍ، أوْ ذوقِ ذي رياضةٍ، أوْ منامِ ذي دينٍ وصلاحٍ. بلْ لهؤلاءِ كلِّهم أعظمُ الحاجةِ إليها، ومَنْ وُفِّقَ منهم للصوابِ فلاعتمادِهِ وتعويلِهِ عليها؛ فقدْ أكملَها الذي أتمَّ نعمتَهُ علينا بشرْعِها قبلَ سياساتِ الملوكِ وحِيَلِ المُتَحَيِّلِينَ، وأقيسةِ القِيَاسِيِّينَ، وطرائقِ الخِلافيِّينَ، وأينَ كانَتْ هذهِ الحيلُ والأقيسةُ والقواعدُ المتناقضةُ والطرائقُ القِدَدُ وَقْتَ نـزولِ قولِهِ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]؟! وأينَ كانَتْ يومَ قولِهِ

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلاَّ هَالِكٌ»[1]؟! ويومَ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «مَا تَرَكْتُ مِنْ شَيْءٍ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُكُمْ عَنِ النَّارِ إِلاَّ أَعْلَمْتُكُمُوهُ»؟![2] وأينَ كانتْ عندَ قولِ أبي ذرٍّ: لقدْ تُوُفِّيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، وما طائرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ في السماءِ إلاَّ ذَكرَ لنا منهُ علماً، وعندَ قولِ القائلِ لسلمانَ: لقدْ علَّمَكُم نبيُّكُم كلَّ شيءٍ حتَّى الْخِرَاءَةَ، فقالَ: أجَلْ[3]. [4]

[فَصْلٌ]

(وقدْ تقرَّرَ أنَّ اللهَ سُبحانَهُ كاملُ الصِّفَاتِ لهُ الأسماءُ الحسنى ولا يكونُ عن الكاملِ في ذاتِهِ وصفاتِهِ إلاَّ الفعلُ المحكَمُ)[5].

---

(١) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٦٦٩٢) وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ السُّنَّةِ / بابُ اتِّباعِ سُنَّةِ الْخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ (٤٣) من حديثِ العِرْبَاضِ بنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْه، ولَفْظُهُما: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهارِهَا، لاَ يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلاَّ هَالِكٌ».

والحديثُ في سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ والتِّرْمِذِيِّ بدُونِ هذهِ الزيادةِ.

(٢) رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ (١١/ ١٢٥) برَقْمِ (٢٠١٠٠) عن معْمَرٍ، عنْ عِمْرَانَ صَاحِبٍ له مُرْسَلاً إلا أنه قالَ: «وقَدْ بَيَّنْتُهُ لَكُمْ» بَدَلَ «أَعْلَمْتُكُمُوهُ».

وفي كتابِ الرِّسَالَةِ للشافِعِيِّ (٨٧) من حديثِ الْمُطَّلِبِ بنِ حَنْطَبٍ مَرْفُوعًا بلَفْظِ: «ما تَرَكْتُ شَيْئًا مِمَّا أَمَرَكُمُ اللهُ بِهِ إلا وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، ولا تَرَكْتُ شَيْئًا مِمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ إِلاَّ وَقَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ».

(٣) رَواهُ مُسْلِمٌ في كتابِ الطَّهارَةِ / بابُ الاستِطابَةِ (٦٠٥)، وأبو دَاوُدَ في كتابِ الطهارةِ / بابُ كَرَاهِيَةِ استقبالِ القِبلةِ عندَ قَضاءِ الحَاجَةِ (٧)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الطهارةِ / بابُ الاستنجاءِ بالحِجارَةِ (١٦)، والنَّسَائِيُّ في كتابِ الطَّهَارَةِ / بابُ النَّهْيِ عنِ الاكتفاءِ في الاستطابةِ بأَقَلَّ مِن ثَلاثَةِ أَحْجَارٍ (٤١)، وابنُ مَاجَهْ في الطهارةِ وسُنَنِهَا / بابُ الاستنجاءِ بالحجارةِ والنهيِ عن الرَّوْثِ والرِّمَّةِ (٣١٦).

(٤) أعلامُ المُوقِّعِينَ (٣/ ١٨٥-١٨٧).

(٥) طَرِيقُ الهِجْرَتَيْنِ (١٤٧).

(فإنَّ الشرائعَ بتنـزيلِ الحكيمِ العليمِ أنزلَها وشرَعَها الذي يعلمُ ما في ضِمْنِها منْ مصالحِ العبادِ في المعاشِ والمعادِ، وأسبابِ سعادتِهم الدنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، فجعلَها غذاءً ودواءً وشفاءً وعصمةً وحصناً وملجأً وجُنَّةً ووقايَةً، وكانتْ بالقياسِ إلى مصالحِ الأبدانِ بمنـزلةِ حكيمٍ عالمٍ رَكَّبَ للناسِ أمراً يصلحُ لكلِّ مرضٍ ولكلِّ ألمٍ، وجعلَهُ معَ ذلكَ غذاءً للأَصِحَّاءِ، فمَنْ تغَذَّى بهِ من الأَصِحَّاءِ غذَاهُ، ومَنْ تداوَى بهِ من المرضِ شفَاهُ.

وشرائعُ الربِّ تعالى فوقَ ذلكَ وأجلُّ منهُ، وإنَّما هوَ تمثيلٌ وتقريبٌ. فلا أحسنَ منْ أمرِهِ ونهْيِهِ وتحليلِهِ وتحريمِهِ. أمْرُهُ قوتٌ وغذاءٌ وشفاءٌ، ونهْيُهُ حمايَةٌ وصيانةٌ. فلمْ يأْمُرْ عبادَهُ بما أمرَهُم بهِ حاجةً منهُ إليهم ولا عَبَثاً، بلْ رحمةً وإحساناً ومصلحةً، ولا نهَاهُم عمَّا نهَاهُم عنهُ بُخْلاً منهُ عليهم، بلْ حمايَةً وصيانةً عمَّا يُؤْذِيهم ويَعُودُ عليهم بالضَّرَرِ إنْ تناوَلُوهُ.

فكيفَ يَتَوَهَّمُ مَنْ لهُ مُسْكَةٌ منْ عقلٍ خُلُوَّهَا من الحِكَمِ والغاياتِ المحمودةِ المطلوبةِ لأجْلِها؟!!.

ولهذا استدَلَّ كثيرٌ من العقلاءِ على النبُوَّةِ بنفسِ الشريعةِ، واستَغْنَوْا بها عنْ طلبِ المعجزةِ. وهذا منْ أحسنِ الاستدلالِ؛ فإنَّ دعوةَ الرُّسُلِ منْ أكبرِ شواهدِ صِدْقِهم.

وكلُّ مَنْ لهُ خبرةٌ بنوعٍ منْ أنواعِ العلومِ إذا رأى حاذقاً قدْ صنَّفَ فيهِ كتاباً جليلاً عَرَفَ أنَّهُ منْ أهلِ ذلكَ العلمِ بنظَرِهِ في كتابِهِ.

وهكذا كلُّ مَنْ لهُ عقلٌ وفطرةٌ سليمةٌ وخبرةٌ بأقوالِ الرسلِ ودعْوَتِهم إذا نظَرَ في هذهِ الشريعةِ قطعَ قطعاً نظيرَ القطعِ بالمحسوساتِ أنَّ الذي جاءَ بهذهِ الشريعةِ رسولٌ صادقٌ، وأنَّ الذي شرَعَها أحكمُ الحاكمينَ.

ولقدْ شَهِدَ لها عقلاءُ الفلاسفةِ بالكمالِ والتمامِ، وأنَّهُ لمْ يَطْرُقِ العالَمَ ناموسٌ أكملُ ولا أحكمُ. هذهِ شهادةُ الأعداءِ.

وشهِدَ لها مَنْ زعمَ أنَّهُ من الأولياءِ بأنَّها لمْ تُشْرَعْ لحكمةٍ ولا لمصلحةٍ، وقالُوا: أيُّ حكمةٍ في الإلزامِ بهذهِ التكاليفِ الشاقَّةِ المُتْعِبَةِ؟! وأيُّ مصلحةٍ للمُكَلَّفِ في ذلكَ؟! وأيُّ غرضٍ للمُكَلَّفِ؟! وما هيَ إلاَّ محضُ المشيئةِ المُجَرَّدَةِ منْ قصدِ غايَةٍ أوْ حكمةٍ.

ولو استحْيَا هؤلاءِ من العقلاءِ لمنَعَهُم الحياءُ منْ تسويدِ القلوبِ والأوراقِ بمثلِ ذلكَ. وهلْ تركَت الشريعةُ خيراً ومصلحةً إلاَّ جاءَتْ بهِ وأمَرَتْ بهِ وندَبَتْ إليهِ؟!! وهلْ تركَتْ شرًّا ومفسدةً إلاَّ نهَتْ عنهُ؟!! وهلْ تركَتْ لمُفْرِحٍ إفراحاً، أوْ لمُتَعَنِّتٍ تعنُّتاً أوْ لسائلٍ مطلباً؟! ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

وعندَ نُفَاةِ الحُكْمِ أنَّهُ يجوزُ عليهِ ضدُّ ذلكَ الحُكْمِ منْ كلِّ وجهٍ، وأنَّهُ لا فرقَ بينَهُ وبينَ ضدِّهِ في نفسِ الأمرِ إلاَّ لمجرَّدِ التحكُّمِ والمشيئَةِ. فلَو اجتمَعَتْ حكمةُ جميعِ الحكماءِ منْ أوَّلِ الدهرِ إلى آخرِهِ ثمَّ قِيسَتْ إلى حكمةِ هذهِ الشريعةِ الكاملةِ الحكيمةِ الفاضلةِ لكانَتْ كقطرةٍ منْ بحرٍ.

وإنَّما نَعْنِي بذلكَ الشريعةَ التي أنزَلَهَا اللهُ على رسولِهِ وشرَعَها للأُمَّةِ ودَعاهُم إليها، لا الشريعةَ المُبَدَّلَةَ ولا المُؤَوَّلَةَ، ولا ما غَلِطَ فيهِ الغالطونَ، وتأوَّلَهُ المُتَأَوِّلُونَ؛ فإنَّ هذيْنِ النوعيْنِ قدْ يشتملانِ على فاسدٍ وشرٍّ، بل الشرُّ والفسادُ الواقعُ بينَ الأُمَّةِ منْ هاتيْنِ الشريعتيْنِ اللَّتَيْنِ نُسِبتَا إلى الشريعةِ المُنَزَّلَةِ منْ عندِ اللهِ عمداً أوْ خطأً، وإلاَّ فالشريعةُ على وجْهِها خيرٌ محضٌ ومصلحةٌ منْ كلِّ وجهٍ، ورحمةٌ وحكمةٌ ولطفٌ بالمُكَلَّفِينَ، وقيامُ مصالِحِهم بها فوقَ قيامِ مصالحِ أبدانِهم بالطعامِ والشرابِ، فهيَ مُكْمِلَةٌ للفِطَرِ والعقولِ، مُرْشِدةٌ إلى ما يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاهُ، ناهيَةٌ عمَّا يُبغِضُهُ ويَسْخَطُهُ، مستعملةٌ لكلِّ قُوَّةٍ وعضوٍ وحركةٍ في كمالِهِ الذي لا كمالَ لهُ سواهُ، آمرةٌ بمكارمِ الأخلاقِ ومعاليها، ناهيَةٌ عنْ دنيئِها وسَفْسَافِها.

واختصارُ ذلكَ أنَّهُ شَرَعَ استعمالَ كلِّ قوَّةٍ، وكلِّ عضوٍ، وكلِّ حركةٍ في كمالِها. ولا سبيلَ إلى معرفةِ كمالِها على الحقيقةِ إلاَّ بالوحيِ. فكانَت الشرائعُ ضروريَّةً في مصالحِ الخلقِ. وضَرُورَتُها لهُ فوقَ كلِّ ضرورةٍ تُقَدَّرُ.

فهيَ أسبابٌ مُوصِلَةٌ إلى سعادةِ الدَّارَيْنِ، ورأسُ الأسبابِ المُوصِلَةِ إلى حفظِ صِحَّةِ البدنِ وقوَّتِهِ واستفراغِ أخلاطِهِ.

ومَنْ لمْ يتصوَّر الشريعةَ على هذهِ الصورةِ فهوَ منْ أبعدِ الناسِ عنها، وقدْ جعلَ الحكيمُ العليمُ لكلِّ قوَّةٍ من القُوَى، ولكلِّ حاسَّةٍ من الحواسِّ، ولكلِّ عضوٍ من الأعضاءِ، كمالاً حِسِّيًّا وكمالاً معنويًّا، وفَقْدُ كمالِهِ المعنويِّ شرٌّ منْ فقدِ كمالِهِ الحسِّيِّ. فكمالُهُ المعنويُّ بمنزلةِ الروحِ، والحسِّيُّ بمنزلةِ الجسمِ. فأعطاهُ كمالَهُ الحسِّيَّ خلقاً وقَدْراً، وأعطاهُ كمالَهُ المعنويَّ شرعاً وأمراً. فبلغَ بذلكَ غايَةَ السعادةِ والانتفاعِ بنفْسِهِ. فلمْ يدَعْ للإحسانِ إليهِ والاعتناءِ بمصالحِهِ وإرشادِهِ إليها وإعانَتِهِ على تحصيلِها إفراحاً يفرحُهُ ولا شفاءً يطلُبُهُ، بلْ أعطاهُ منْ ذلكَ ما لمْ يَصِلْ إليهِ إفراحُهُ، ولا تُدْرَكُ معرفتُهُ.

ويكفي العاقلَ البصيرَ الحيَّ القلبِ فكرةٌ في فرعٍ واحدٍ منْ فروعِ الأمرِ والنهيِ، وهوَ **الصلاةُ** وما اشتمَلَتْ علَيْهِ من الحِكَمِ الباهِرَةِ، والمصالحِ الباطِنَةِ والظَّاهِرَةِ، والمنافعِ المتَّصلةِ بالقلبِ والروحِ والبدنِ والقُوَى، التي لو اجتمعَ حكماءُ العالمِ قاطبةً واستفرَغُوا قُوَاهُم وأذْهَانَهُم لَمَا أحَاطُوا بتفاصيلِ حِكَمِهَا وأسرارِها، وغاياتِها المحمودةِ، بل انقطَعُوا كلُّهُم دونَ أسرارِ الفاتحةِ، وما فيها من المعارفِ الإلهيَّةِ، والحِكَمِ الربَّانيَّةِ، والعلومِ النافعةِ، والتوحيدِ التامِّ، والثناءِ على اللهِ بأصولِ أسمائِهِ وصفاتِهِ، وذكرَ أقسامَ الخليقةِ باعتبارِ غايَاتِهم ووسائِلِهم. وما في مُقدِّمَاتِها وشُروطِها من الحِكَمِ العجيبةِ منْ تطهيرِ الأعضاءِ والثيابِ والمكانِ، وأخذِ الزينةِ، واستقبالِ بيتِهِ الذي جعلَهُ إماماً للناسِ، وتفريغِ القلبِ للهِ، وإخلاصِ النيَّةِ، واستقبالِ بيتِهِ الذي جعلَهُ إماماً للناسِ، وتفريغِ القلبِ

للهِ، وإخلاصِ النيَّةِ، وافتتاحِها بكلمةٍ جامعةٍ لمعاني العبودِيَّةِ، دالَّةٍ على أُصُولِ الثناءِ وفُروعِهِ، مُخْرِجَةٍ من القلبِ الالتفاتَ إلى ما سِواهُ، والإقبالَ على غيرِهِ، فَيُقَدِّمُ بقلبِهِ الوقوفَ بينَ يدَيْ عظيمٍ جليلٍ أكبرَ منْ كلِّ شيءٍ، وأجلَّ منْ كلِّ شيءٍ بلا سببٍ، في كبريائِهِ السَّماوَاتُ وما أظلَّتْ، والأرضُ وما أقلَّتْ، والعوالِمُ كلُّها، عَنَتْ لهُ الوجوهُ، وخضَعَتْ لهُ الرقابُ، وذلَّتْ لهُ الجبابرةُ، قاهرٌ فوقَ عبادِهِ، ناظرٌ إليهم، عالمٌ بما تُكِنُّ صدورُهم، يسمعُ كلامَهُم / ويَرَى مكانَهُم لا يخْفَى عليهِ خافيَةٌ منْ أمْرِهم.

ثمَّ أخذَ في تسبيحِهِ وحمدِهِ/[1] وذِكْرِهِ تباركَ اسمُهُ وتعالى جَدُّهُ، وتَفرُّدِهِ بالإلهيَّةِ.

ثمَّ أخذَ في الثناءِ عليهِ بأفضلِ ما يُثْنَى عليهِ بهِ مِنْ حَمْدِهِ وذِكْرِ ربُوبيَّتِهِ للعالمِ وإحسَانِهِ إليهم ورحمتِهِ بهم وتمجيدِهِ بالمَلِكِ الأعظمِ في اليومِ الذي لا يكونُ فيهِ ملكٌ سواهُ حتَّى يجمعَ الأولينَ والآخرينَ في صعيدٍ واحدٍ ويُدِينَهم بأعمالِهم.

ثمَّ إفرادِهِ بنوْعَي التوحيدِ؛ توحيدِ رُبُوبيَّتِهِ استعانةً بهِ، وتوحيدِ إلهيَّتِهِ عُبوديَّةً لهُ.

ثمَّ سُؤَالِهِ أفضلَ مسئولٍ وأجلَّ مطلوبٍ على الإطلاقِ وهوَ هدايَةُ الصراطِ المستقيمِ الذي نصَبَهُ لأنبيائِهِ ورُسُلِهِ وأتباعِهِم، وجعلَهُ صراطاً مُوصِلاً لِمَنْ سلكَهُ إليهِ وإلى جنَّتِهِ، وأنَّهُ صراطُ مَن اختصَّهُم بنعمَتِهِ بأنْ عرَّفَهُم الحقَّ وجعلَهُم مُتَّبِعِينَ لهُ، دونَ صراطِ أُمَّةِ الغضبِ الذينَ عرَفُوا الحقَّ ولمْ يتَّبِعُوهُ، وأهلِ الضلالِ الذينَ ضلُّوا عنْ معرفتِهِ واتِّبَاعِهِ.

فتضمَّنَتْ تعريفَ الربِّ، والطريقَ المُوصِلَ إليهِ، والغايَةَ بعدَ الوصولِ.

---

(١) مَا بَيْنَ المَائِلَيْنِ / / سَقَطٌ مِنَ الأَصْلِ وَاسْتَدْرَكْنَاهُ مِن طَبْعَةِ دارِ التُّراثِ (ص ٤٦٠) بعنايةِ / الحَسَّانِيِّ حَسن عبد الله.

وتضمَّنَت الثناءَ والدعاءَ، وأشرفَ الغاياتِ وهيَ العبودِيَّةُ، وأقربَ الوسائلِ إليها وهيَ الاستعانةُ، مُقَدِّماً فيها الغايَةَ على الوسيلةِ، والمعبودَ المستعانَ على الفعلِ، إيذاناً لاختصاصِهِ، وأنَّ ذلكَ لا يَصْلُحُ إلاَّ لهُ سُبحانَهُ.

وتضمَّنَتْ ذكرَ الإلهيَّةِ والربوبيَّةِ والرحمةِ، فيُثْنَى عليهِ ويُعبدُ بإلهيَّتِهِ، ويَخلُقُ ويرزقُ ويميتُ ويُحْيِي ويُدَبِّرُ الملكَ ويُضِلُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الإضلالَ ويغْضَبُ على مَنْ يَسْتَحِقُّ الغضبَ بربوبيَّتِهِ وحكمتِهِ، ويُنْعِمُ ويرحمُ ويجودُ ويعفُو ويغفرُ ويهْدِي ويتوبُ برحمَتِهِ.

فللهِ كمْ في هذهِ السورةِ منْ أنواعِ المعارفِ والعلومِ والتوحيدِ، وحقائقِ الإيمانِ!!

ثمَّ يأخذُ بعدَ ذلكَ في تلاوةِ ربيعِ القلوبِ، وشفاءِ الصدورِ، ونورِ البصائرِ، وحياةِ الأرواحِ، وهوَ كلامُ ربِّ العالمينَ، فيَحِلُّ بهِ في ما شاءَ منْ روضاتٍ مُونِقَاتٍ، وحدائقَ مُعْجِبَاتٍ، زاهيَةٍ أزهارُها، مُونَّقَةٍ ثمارُها، قدْ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تذليلاً، وسُهِّلَتْ لُمتناوِلها تسهيلاً، فهوَ يجتني منْ تلكَ الثمارِ خيراً يُؤْمَرُ بهِ، وشرًّا يُنْهَى عنهُ، وحكمةً وموعظةً، وتبصرةً وتذكرةً وعبرةً، وتقريراً لحقٍّ، ودَحْضاً لباطلٍ، وإزالةً لشبهةٍ، وجواباً عنْ مسألةٍ، وإيضاحاً لُمْشكِلٍ، وترغيباً في أسبابِ فلاحٍ وسعادةٍ، وتحذيراً منْ أسبابِ خُسْرَانٍ وشقاوةٍ، ودعوةً إلى هُدًى، وردًّا عنْ رَدًى(١)، فتنـزلُ على القلوبِ نـزولَ الغيثِ على الأرضِ التي لا حياةَ لها بدُونِهِ، ويحلُّ منها محلَّ الأرواحِ منْ أبدَانِها؛ فأيُّ نعيمٍ وقُرَّةِ عَيْنٍ، ولذَّةِ قلبٍ، وابتهاجٍ وسرورٍ، لا يحصلُ لهُ في هذهِ المناجاةِ؟! والربُّ تعالى يسْمَعُ لكلامِهِ، جارياً على لسانِ عبدِهِ ويقولُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَمَجَّدَنِي عبدِي.

ثمَّ يعُودُ إلى تكبيرِ ربِّهِ عزَّ وجلَّ فيَجِدُ رَبَّهُ عَهِد التذكرةَ كونَهُ أكبرَ منْ كلِّ شيءٍ بحقِّ عبوديَّتِهِ وما ينبغي أنْ يُعَاملَ بهِ.

---

(١) في الأصلِ: رَدِيءٌ، وهو تَصْحيفٌ.

ثمَّ يرجعُ جاثياً لهُ ظهرَهُ خضوعاً لعظمَتِهِ وتذلُّلاً لعِزَّتِهِ واستكانةً لجبروتِهِ مُسَبِّحاً لهُ بذكْرِ اسمِهِ العظيم. فنَـزَّهَ عظمتَهُ عنْ حالِ العبدِ وذُلِّهِ وخُضُوعِهِ، وقابلَ تلكَ العظمةَ بهذا الذلِّ والانحناءِ والخضوعِ، وقدْ تطَامَنَ وطَأْطَأَ رأْسَهُ وطَوَى ظهْرَهُ، وربُّهُ فوقَهُ يرى خُضُوعَهُ وذلَّهُ، ويسمعُ كلامَهُ، فهوَ ركنُ تعظيمٍ وإجلالٍ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «**أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ**».(١)

ثمَّ عادَ إلى حالِهِ من القيامِ حامداً لربِّهِ مُثْنِياً عليهِ بأكملِ محامِدِهِ وأجمَعِها وأعمِّها، مُثْنِياً عليهِ بأنَّهُ أهلُ الثناءِ والمجدِ، مُعْتَرِفاً بعبوديَّتِهِ، شاهداً بتوحيدِهِ وأنَّهُ لا مانعَ لما أعْطَى ولا مُعْطِيَ لما منعَ، وأنَّهُ لا ينفعُ أصحابَ الجدودِ والأموالِ والحظوظِ جُدُودُهُم عندَهُ، ولوْ عظُمَتْ.

ثمَّ يعودُ إلى تكبيرِهِ ويَخِرُّ لهُ ساجداً على أشرفِ ما فيهِ وهوَ الوجهُ فيُعَفِّرُهُ في الترابِ ذُلاًّ بينَ يدَيْهِ ومَسْكَنَةً وانكساراً، وقدْ أخذَ كلُّ عُضوٍ من البدنِ حظَّهُ منْ هذا الخضوعِ حتَّى أطرافِ الأناملِ ورؤُوسِ الأصابعِ. ونَدَبَ لهُ أنْ يسجدَ معَهُ ثيابُهُ وشعرُهُ فلا يكُفُّهُ، وأنْ يكونَ بعضُهُ محمولاً على بعضٍ، وأنْ يتأَثَّرَ الترابُ بجبهَتِهِ، وينالَ قِبَلَ وِجْهَةِ المصلِّي، ويكونَ رأْسُهُ أسفلَ ما فيهِ تكميلاً للخضوعِ والتذليلِ لِمَنْ لهُ العِزُّ كلُّهُ والعظمةُ كلُّها. وهذا أيْسَرُ منْ حقِّهِ على عبدِهِ. فلوْ دامَ كذلكَ منْ حينَ خُلِقَ إلى أنْ يموتَ لما أدَّى حقَّ ربِّهِ عليهِ.

ثمَّ أُمِرَ أنْ يُسَبِّحَ ربَّهُ الأعلى فيَذْكُرَ علوَّهُ سُبحانَهُ في حالةِ سُفُولِهِ هوَ، ويُنَـزِّهَهُ عنْ مثلِ هذهِ الحالِ. وإنَّ مَنْ هوَ فوقَ كلِّ شيءٍ، وعالٍ على كلِّ شيءٍ يُنَـزَّهُ عن السُّفُولِ بكلِّ معنًى، بلْ هوَ الأعلى بكلِّ معنًى منْ معاني العلوِّ.

---

(١) جزءٌ من حديثٍ رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٩٠٣)، ومُسلِمٌ في كتابِ الصلاةِ / بابُ النهيِ عن قراءةِ القرآنِ في الركوعِ والسجودِ (١٠٧٤)، وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ / بابٌ في الدعاءِ في الركوعِ والسجودِ (٨٧١)، والنَّسَائِيُّ في كتابِ التطبيقِ / بابُ تعظيمِ الرَّبِّ في الركوعِ (١٠٤٤)، وبابُ الأمرِ بالاجتهادِ في الدُّعاءِ في السجودِ (١١١٩).

ولَمَّا كانَ هذا غايَةَ ذُلِّ العبدِ وخضوعِهِ وانكسارِهِ كانَ أقربَ ما يكونُ الربُّ منهُ في هذهِ الحالِ.

فأُمِرَ أنْ يجتهدَ في الدعاءِ لقُرْبِهِ من القريبِ المجيبِ وقدْ قالَ تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ١٩﴾ [العلق: ١٩]، وكأنَّ الركوعَ كالمُقَدِّمَةِ بينَ يدَي السجودِ والتوطئةِ لهُ، فينتقلُ منْ خضوعٍ إلى خضوعٍ أكملَ وأتمَّ منهُ وأرفعَ شأناً. وفصلَ بينَهما بركنٍ مقصودٍ في نفسِهِ يجتهدُ فيهِ بالحمدِ والثناءِ والتمجيدِ، وجُعِلَ بينَ خضوعٍ قبلَهُ، وخضوعٍ بعدَهُ. وجُعِلَ خضوعُ السجودِ بعدَ الحمدِ والثناءِ والمجدِ، كما جُعِلَ خضوعُ الركوعِ بعدَ ذلكَ.

فتأمَّلْ هذا الترتيبَ العجيبَ، وهذا التنقُّلَ في مراتبِ العبوديَّةِ، كيفَ ينتقلُ منْ مقامِ الثناءِ على الربِّ بأحسنِ أوصافِهِ وأسمائِهِ وأكملِ محامدِهِ إلى مَنْ لهُ خضوعُهُ وتذلُّلُهُ أنَّ لهُ هذا الثناءَ. ويستصحبُ في مقامِهِ خضوعَهُ بما يُناسِبُ ذلكَ المقامَ ويليقُ بهِ، فيذكرُ عظمةَ الربِّ في حالِ خضُوعِهِ، وعُلُوَّهُ في حالِ سُفُولِهِ.

ولَمَّا كانَ أشرفَ أذكارِ الصلاةِ القرآنُ شُرِعَ في أشرفِ أحوالِ الإنسانِ وهيَ هيئةُ القيامِ التي قد انتصبَ فيها قائماً على أحسنِ هيئةٍ.

ولَمَّا كانَ أفضلَ أركانِها الفعليَّةِ السجودُ شُرِعَ فيها بوصفِ التكرارِ، وجُعِلَ خاتمةَ الركعةِ وغايتَها التي انتهَتْ إليها مطابقَ افتتاحِ الركعةِ بالقرآنِ، واختتامِها بالسجودِ أوَّلَ سورةٍ افتتحَ بها الوحيُ فإنَّها بُدِئَتْ بالقراءةِ وخُتِمَتْ بالسجودِ.

وشُرِعَ لهُ بينَ هذيْنِ الخضوعَيْنِ أنْ يجلسَ جِلْسَةَ العبيدِ، ويسألَ ربَّهُ أنْ يغفرَ لهُ ويرحمَهُ ويرزقَهُ ويهدِيَهُ ويُعَافِيَهُ. وهذهِ الدعواتُ تجْمَعُ لهُ خيرَ دُنياهُ وآخرتِهِ.

ثمَّ شُرِعَ لهُ تكرارُ هذهِ الركعةِ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، كما شُرِعَ تكرارُ الأذكارِ والدعواتِ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، ليَسْتَعِدَّ بالأوَّلِ لتكميلِ ما بعدَهُ، ويجْبُرَ بما بعدَهُ ما

قبلَهُ، وليُشبعَ القلبَ منْ هذا الغذاءِ، وليَأْخُذَ زادَهُ ونصيبَهُ وافراً من الدواءِ ليُقَاوِمَهُ؛ فإنَّ منـزلَةَ الصلاةِ من القلبِ منـزلةُ الغذاءِ والدواءِ. فإذا تناولَ الجائعُ الشديدُ الجوعِ من اللقمةِ أو اللُّقمتيْنِ كانَ غناؤُها عنهُ وسدُّها منْ جُوعِهِ يسيراً جدًّا. وكذلكَ المرضُ الذي يحتاجُ إلى قدرٍ يُغْنِي من الدواءِ، إذا أخذَ منهُ المريضُ قيراطاً منْ ذلكَ لمْ يُزِلْ مَرَضَهُ بالكُلِّيَّةِ وأزالَ بحَسَبِهِ. فما حصلَ الغذاءُ أو الشفاءُ للقلبِ بمثلِ الصلاةِ، وهيَ لصحَّتِهِ ودوائِهِ بمنزلةِ غذاءِ البدنِ ودوائِهِ.

ثمَّ لمَّا أكملَ صلاتَهُ شُرِعَ لهُ أنْ يقْعُدَ قِعْدَةَ العبدِ الذليلِ المسكينِ لسيِّدِهِ، ويُثنيَ عليهِ بأفضلِ التحيَّاتِ ويُسلِّمَ على مَنْ جاءَ بهذا الحظِّ الجزيلِ ومَنْ نالَتْهُ الأمَّةُ على يدَيْهِ، ثمَّ يُسَلِّمَ على نفْسِهِ وعلى سائرِ عبادِ اللهِ المشاركينَ لهُ في هذهِ العبوديَّةِ، ثمَّ يتشهَّدَ شهادةَ الحقِّ، ثمَّ يعودَ فيُصَلِّيَ على مَنْ عَلَّمَ الأمَّةَ هذا الخيرَ ودلَّهُم عليهِ. ثمَّ شُرِعَ لهُ أنْ يسألَ حوائِجَهُ ويدْعُوَ بها أحبَّ ما دامَ بينَ يدَيْ ربِّهِ مُقْبلاً عليهِ. فإذا قضى ذلكَ أُذِنَ لهُ في الخروجِ منها بالتسليمِ على المشاركينَ لهُ في الصلاةِ.

هذا إلى ما تضمَّنَتْهُ الأحوالُ والمعارفُ منْ أوَّلِ المقاماتِ إلى آخرِها، فلا تجدُ منـزلةً منْ منازلِ السيرِ إلى اللهِ، ولا مقاماً منْ مقاماتِ العارفينَ إلاَّ وهوَ في ضمنِ الصلاةِ. وهذا الذي ذكرْناهُ منْ شَأْنِها كقطرةٍ منْ بحرٍ.

فكيفَ يُقالُ: إنَّها تكليفٌ محضٌ لمْ يُشْرَعْ لحكمةٍ ولا لغايةٍ قصَدَها الشارعُ، بلْ هيَ محضُ كُلْفَةٍ ومشقَّةٍ مستندةٌ إلى محضِ المشيئةِ، لا لغرضٍ ولا لفائدةٍ البتَّةَ، بلْ مجرَّدُ قهرٍ وتكليفٍ وليْسَتْ سبباً لشيءٍ منْ مصالحِ الدنيا والآخرةِ؟!

ثمَّ تأمَّلْ أبوابَ الشريعةِ ووسائِلَها وغاياتِها **كيفَ تجدُها مشحونةً بالحِكَمِ المقصودةِ، والغاياتِ الحميدةِ التي شُرِعَتْ لأجلِها التي لَوْلاها لكانَ الناسُ**

كالبهائمِ بلْ أسوأَ حالاً. فكَمْ في الطهارةِ منْ حكمةٍ ومنفعةٍ للقلبِ والبدنِ، وتفريحٍ للقلبِ، وتنشيطِ الجوارحِ، وتخفيفٍ منْ أحمالِ ما أوْجَبَتْهُ الطبيعةُ وألْقَاهُ عن النفسِ منْ دُونِ المخالفاتِ، فهيَ مُنَظِّفَةٌ للقلبِ والروحِ والبدنِ، وفي غُسْلِ الجنابةِ منْ زيادةِ النُّعُومةِ والإخلافِ على البدنِ نظيرُ ما تحلَّلَ منهُ بالجنابةِ ما هوَ منْ أنفعِ الأمورِ.

وتأمَّلْ كونَ الوضوءِ في الأطرافِ التي هيَ محلُّ الكسبِ والعملِ. فجُعِلَ في الوجهِ الذي فيهِ السمعُ والبصرُ والكلامُ والشمُّ والذوقُ. وهذهِ الأبوابُ هيَ أبوابُ المعاصي والذنوبِ كلِّها؛ منها يدخلُ إليها. ثمَّ جُعِلَ في اليدَيْنِ وهُما طرَفَاهُ وجَنَاحَاهُ اللَّذَانِ بهما يَبْطِشُ ويأخذُ ويُعْطِي. ثمَّ في الرجلَيْنِ اللَّتَيْنِ بهما يمشي ويسْعَى. ولمَّا كانَ غَسْلُ الرأسِ ممَّا فيهِ أعظمَ حرجٍ ومشقَّةٍ جعلَ مكانَهُ المَسْحَ وجعلَ ذلكَ مُخْرِجاً للخطايا منْ هذهِ المواضعِ حتَّى يَخْرُجَ منْ قَطْرِ الماءِ منْ شعْرِهِ وبشَرِهِ. كما ثبتَ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منْ حديثِ أبي هريرةَ قالَ: «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ أَوِ الْمُؤْمِنُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنِهِ مَعَ الْمَاءِ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ. فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَتْ تَبْطِشُهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ. فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ» رواهُ مسلمٌ.(١)

وفي "صحيح مسلم" أيضاً عنْ عثمانَ بنِ عفَّانَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ

---

(١) رواهُ مُسْلِمٌ في كتابِ الطَّهارَةِ / بابُ خُروجِ الخَطايَا معَ ماءِ الوُضوءِ (٥٧٦)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الطهارةِ / بابُ ما جاءَ في فضلِ الطُّهُورِ (٢)، وهو في مُسْنَدِ الإمامِ أَحْمَدَ (٧٩٦٠)، والإمامُ مالِكٌ في كتابِ الطهارةِ / بابُ جامِعِ الوُضُوءِ.

أَظْفَارِهِ»[١]

فهذا منْ أجَلِّ حِكَمِ الوضوءِ وفوَائِدِه.

وقالَ نُفَاةُ الحكمةِ: إنَّهُ تكليفٌ ومشقَّةٌ وعناءٌ محضٌ لا مصلحةَ فيهِ ولا حكمةَ شُرِعَ لأجلِها. ولوْ لمْ يكُنْ في مصلحَتِهِ وحكمتِهِ إلاَّ أنَّهُ سِيمَاءُ هذهِ الأمَّةِ وعلامتُهم في وجوهِهم وأطرافِهم يومَ القيامةِ بينَ الأُمَمِ ليْسَتْ لأحدٍ غيرِهِمْ، ولوْ لمْ يكُنْ فيهِ من المصلحةِ والحكمةِ إلاَّ أنَّ المتوضِّئَ يُطَهِّرُ يدَيْهِ بالماءِ وقلْبَهُ بالتوبةِ ليسْتَعِدَّ للدخولِ على ربِّهِ ومُنَاجاتِهِ والوقوفِ بينَ يدَيْهِ طاهرَ البدنِ والثوبِ والقلبِ، فأيُّ حكمةٍ ورحمةٍ ومصلحةٍ فوقَ هذا؟!

ولَمَّا كانَت الشهوةُ تجْرِي في جميعِ البدنِ حتَّى إنَّ تحتَ كلِّ شعرةٍ شهوةً سَرَى غُسْلُ الجنابةِ إلى حيثُ سَرَت الشهوةُ كما قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «إِنَّ تَحْتَ كُلِّ شَعْرَةٍ جَنَابَةً»[٢].

فأُمِرَ أنْ يُوصِلَ الماءَ إلى أصلِ كلِّ شعرةٍ فيُبَرِّدَ حرارةَ الشهوةِ، فتسكنَ النفسُ وتطمئنَّ إلى ذكرِ اللهِ، وتلاوةِ كلامِهِ، والوقوفِ بينَ يدَيْهِ.

فواللهِ لوْ أنَّ أبُقْرَاطَ ومَنْ دُونَهُ أَوْصَوْا بمثلِ هذا لخَضَعَ أتباعُهم لهم فيهِ، وعظَّمُوهُم عليهِ غايَةَ التعظيمِ، وأبْدَوْا لهُ من الحكمِ والفوائدِ ما قَدَرُوا عليهِ.

ثمَّ لَمَّا كانَ العبدُ خارجَ الصلاةِ مُهْمِلَ جوارِحِهِ قدْ أسَامَها في مَرَاتِعِ الشهواتِ والحظوظِ؛ أَمَرَّ العبوديَّةَ[٣] بجميعِ جوارِحِهِ كلِّها على ربِّهِ وتأخُذُ بحظِّها منْ

---

(١) رواهُ مُسْلِمٌ في كتابِ الطَّهَارَةِ / بابُ خُروجِ الخَطَايَا معَ ماءِ الوُضوءِ (٥٧٧).

(٢) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ في كتابِ الطَّهارَةِ / بابُ ما جاءَ أنَّ تَحْتَ كُلِّ شَعْرَةٍ جَنابَةً (١٠٦)، وأبو دَاوُدَ في كتابِ الطهارةِ / بابُ الغُسْلِ مِنَ الجَنابَةِ (٢٤٥)، وابنُ مَاجَهْ في كتابِ الطهارةِ / بابُ تَحْتَ كُلِّ شَعْرَةٍ جَنَابَةٌ (٥٩٧) من حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْه.

(٣) هكذا في الأصلِ، والعبارةُ -كما ترى- مُضْطَرِبَةٌ، فلَعَلَّ فيها سَقطًا.

عبوديَّتِهِ، فيسلمُ قلبُهُ وبدنُهُ وجوارحُهُ وحواسُّهُ وقُوَاهُ لربِّهِ عزَّ وجلَّ، واقفاً بينَ يدَيْهِ مُقْبِلاً بكُلِّهِ عليهِ، مُعْرِضاً عمَّنْ سِوَاهُ، مُتَنَصِّلاً منْ إعراضِهِ عنهُ وجنايتِهِ على حَقِّهِ.

ولَمَّا كانَ هذا طبعَهُ وذَاتَهُ أُمِرَ أنْ يُجَدِّدَ هذا الركوعَ إليهِ والإقبالَ عليهِ وَقْتاً بعدَ وقتٍ؛ لِئَلاَّ يطولَ عليهِ الأمدُ، فَيَنْسَى ربَّهُ وينقطعَ عنهُ بالكُلِّيَّةِ. وكانت الصلاةُ منْ أعظمِ نِعَمِ اللهِ عليهِ، وأفضلِ هدَايَاهُ التي ساقَها إليهِ. فأَبَى نفاةُ الحكمةِ إلاَّ جعْلَها كُلْفَةً وعناءً وتَعَباً لا لحكمةٍ ولا لمصلحةٍ البتَّةَ إلاَّ مجرَّدَ القهرِ والمشيئةِ.

وقدْ فُتِحَ لكَ البابُ، فَسُقِ الشريعةَ كلَّها منْ أوَّلِها إلى آخِرِها هذا المَسَاقَ، واستَدِلَّ بما ظهرَ لكَ على ما خَفِيَ عنكَ. ولعلَّ الحكمةَ فيما لمْ تَعْلَمْهُ أعظمُ منها فيما عَلِمْتَهُ؛ فإنَّ الذي عَلِمْتَهُ على قدْرِ عقلِكَ وفهمِكَ، وما خَفِيَ عنكَ فهوَ فوقَ عقلِكَ وفهمِكَ. ولوْ تتبَّعْنَا تفصيلَ ذلكَ لجَاءَ عدَّةَ أسفارٍ فيُكْتَفَى منهُ بأدْنَى بيِّنَةٍ. واللهُ المستعانُ). (١)

---

(١) شفاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٦٣-١٧٣).

البابُ العاشرُ: في بيانِ دَلالةِ العقلِ على ثبوتِ الأسماءِ والصِّفَاتِ

(إنَّهُ ليسَ في القرآنِ صفةٌ إلاَّ وقدْ دلَّ العقلُ الصريحُ على إثباتِها للهِ، فقدْ تَوَاطَأَ عليها دليلُ العقلِ ودليلُ السمعِ، فلا يمكنُ أنْ يُعَارَضَ بثُبُوتِها دليلٌ صحيحٌ البتَّةَ، لا عقليٌّ ولا سمعيٌّ، بلْ إنْ كانَ المعارِضُ سمعيًّا كانَ كذباً مُفْتَرًى أوْ ممَّا أخطأَ المعارِضُ في فهمِهِ، وإنْ كانَ عقليًّا فهوَ شُبَهٌ خياليَّةٌ وهميَّةٌ، لا دليلٌ عقليٌّ برهانيٌّ.

واعلمْ أنَّ هذهِ دعوى عظيمةٌ يُنكرُها كلُّ جهميٍّ ونافٍ وفيلسوفٍ وقُرْمُطِيٍّ وباطنيٍّ، ويعرفُها مَنْ نَوَّرَ اللهُ قلبَهُ بنورِ الإيمانِ، وباشرَ قلبُهُ معرفةَ الذي دعَتْ إليهِ الرسلُ، وأقرَّتْ بهِ الفِطَرُ، وشَهِدَتْ بهِ العقولُ الصحيحةُ المستقيمةُ لا المنْكُوسَةُ الموْكُوسَةُ التي نَكَّسَتْ قلوبَ أصحابِها، فرأَت الحقَّ باطلاً والباطلَ حقًّا والهُدَى ضلالةً، والضلالةَ هُدًى، وقدْ نبَّهَ اللهُ سُبحانَهُ في كتابِهِ على ذلكَ، وأرشدَ إليهِ، ودلَّ عليهِ في غيرِ موضعٍ منهُ، وبيَّنَ أنَّ ما وصَفَ بهِ نفسَهُ هوَ الكمالُ الذي لا يَسْتَحِقُّهُ سواهُ، فجاحِدُهُ جاحدٌ لكمالِ الربِّ، فإنَّهُ يُمْدَحُ بكلِّ صفةٍ وصفَ بها نفسَهُ، وأثنى بها على نفسِهِ، ومجَّدَ بها نفسَهُ، وحَمِدَ بها نفسَهُ، فذَكَرَها سُبحانَهُ على وَجْهِ المِدْحَةِ لهُ والتعظيمِ والتمجيدِ، وتعَرَّفَ بها إلى عبادِهِ، ليعرِفُوا كمالَهُ وعظمتَهُ ومجدَهُ وجلالَهُ، وكثيراً ما يذْكُرُها عندَ ذِكْرِ آلهتِهِم التي عبدُوها منْ دونِهِ، وجعلُوها شركاءَ لهُ، فيذكرُ سُبحانَهُ منْ صفاتِ كمالِهِ، وعُلُوِّهِ على عرشِهِ، وتكلُّمِهِ، وتكليمِهِ، وإحاطةِ علمِهِ، ونفوذِ مشيئتِهِ ما

هوَ مُنْتَفٍ عنْ آلهتِهم، فيكونُ ذلكَ منْ أدلِّ الدليلِ على بُطلانِ إلهيَّتِها وفسادِ عبادَتِها منْ دُونِهِ، ويذكرُ ذلكَ عندَ دعوَتِهِ عبادَهُ إلى ذكرِهِ وشكرِهِ وعبادتِهِ.

فيَذْكُرُ لهم منْ أوصافِ كمالِهِ، ونعوتِ جلالِهِ ما يجْذِبُ قلوبَهُم إلى المبادرةِ إلى دعوتِهِ، والمسارعةِ إلى طاعتِهِ، والتنافسِ في القربِ منهُ، ويذْكُرُ صفاتِهِ أيضاً عندَ ترغيبِهِ لهم، وترهيبِهِ، وتخويفِهِ، ليُعَرِّفَ القلوبَ مَنْ تخافُهُ وترجُوهُ، وترْغَبُ إليهِ، وترهَبُ منهُ، ويذكرُ صفاتِهِ أيضاً عندَ أحكامِهِ وأوامرِهِ ونواهِيهِ، فقلَّ أنْ تجدَ آيَةَ حُكْمٍ منْ أحكامِ المكلَّفِينَ إلاَّ وهيَ مُخْتَتَمَةٌ بصفةٍ منْ صفاتِهِ أوْ صفتيْنِ.

وقدْ يَذْكُرُ الصفةَ في أوَّلِ الآيَةِ ووسَطِها وآخرِها، كقولِهِ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ①﴾ [المجادلة: ١].

فيذْكُرُ صفاتِهِ عندَ سؤالِ عبادِهِ لرسولِهِ عنهُ، ويذْكُرُها عندَ سؤالِهم لهُ عنْ أحكامِهِ، حتَّى إنَّ الصلاةَ لا تنعقدُ إلاَّ بذِكْرِ أسمائِهِ وصفاتِهِ، فذِكْرُ أسمائِهِ وصفاتِهِ رُوحُها وسِرُّها، يصْحَبُها منْ أوَّلِها إلى آخرِها، وإنَّما أمرَ بإقامتِها ليُذْكَرَ بأسمائِهِ وصفاتِهِ، وأمرَ عبادَهُ أنْ يسألُوهُ بأسمائِهِ وصفاتِهِ، ففتحَ لهم بابَ الدعاءِ رَغَباً ورَهَباً ليَذْكُرَهُ الداعي بأسمائِهِ وصفاتِهِ، فيتوسَّلَ إليهِ بها، ولهذا كانَ أفضلَ الدعاءِ وأجوَبَهُ ما توَسَّلَ فيهِ الداعي إليهِ بأسمائِهِ وصفاتِهِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وكانَ اسمُ اللهِ الأعظمُ في هاتيْنِ الآيتيْنِ: آيَةِ الكرسيِّ، وفاتحةِ آلِ عمرانَ[1]؛

---

(١) إشارةٌ إلى حديثٍ رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٢٧٠٦٤): قالَ: حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ بَكْرٍ، أَخْبَرَنا عُبَيْدُ اللهِ بنُ أَبي زِيادٍ، قالَ: حَدَّثَنا شَهْرُ ابْنُ حَوْشَبٍ، عن أَسْماءَ بِنْتِ يَزِيدَ، قالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ يقولُ في هاتينِ الآيتَينِ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] و﴿الٓمٓ ① ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ②﴾ [آل عمران: ١-٢]: إنَّ فيهِما اسْمَ اللهِ الأَعْظَمَ.
وفيه شَهْرُ بنُ حَوْشَبٍ مُخْتَلَفٌ فيه؛ تَرَكَهُ يَحْيَى بنُ سَعِيدٍ القَطَّانُ، وشُعْبَةُ، وابنُ عَوْنٍ، وطَعَنَا فيه.

لاشتمالِهما على صفةِ الحياةِ المُصحِّحَةِ لجميعِ الصِّفَاتِ، وصفةِ القَيُّوميَّةِ المتضمِّنَةِ لجميعِ الأفعالِ، ولهذا كانت سَيِّدَةَ آيِ القرآنِ وأفضلَها.

ولهذا كانتْ سورةُ الإخلاصِ تعدِلُ ثلثَ القرآنِ[1]؛ لأنَّها أُخلِصَتْ للخبرِ عن الربِّ تعالى، وصفاتِهِ دونَ خلقِهِ، وأحكامِهِ، وثوابِهِ، وعقابِهِ.

وسمِعَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رَجُلاً يدْعُو: **«اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ بأنَّكَ أنتَ اللهُ الذي لا إلهَ إلاَّ أنتَ المنَّانُ، بديعُ السماواتِ والأرضِ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ يا حيُّ يا قيُّومُ»**.

وسَمِعَ آخرَ يدْعُو: **«اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ بأنِّي أشهدُ أنَّكَ أنتَ اللهُ الذي لا إلهَ إلاَّ أنتَ الأحدُ الصمدُ الذي لمْ يلِدْ ولمْ يُولَدْ ولمْ يكُنْ لهُ كُفُواً أحدٌ»**.

فقالَ لأحدِهما: **«لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»**.[2] وقالَ للآخرِ: **«سَلْ تُعْطَهْ»**[3]، وذلكَ لما تضمَّنَهُ هذا الدعاءُ

ووثَّقَهُ يحيى بنُ معينٍ، وقالَ البُخاريُّ: حسَنُ الحديثِ. وقال الإمامُ أحْمَدُ وأبو زُرْعَةَ: لَيْسَ به بَأْسٌ. على أنَّ للحديثِ شاهدًا عندَ ابْنِ مَاجَهْ (٣٨٩٩) في كتابِ الدعاءِ/ بابُ اسمِ اللهِ الأعظمِ، من حديثِ القاسمِ، عن أبي أُمامَةَ مَقْطُوعًا ومَرْفُوعًا.

وعندَ الدَّارِمِيِّ في كتابِ فَضائِلِ القُرآنِ (٣٣٩٣) من طَرِيقِ جَابِرٍ (أَظُنُّهُ الجُعْفِيَّ) عن أبي الضُّحَى، عن مَسْرُوقٍ، عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنه مرفوعًا.

(١) إشارةٌ إلى حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنه، وقد أَخرَجَهُ البُخَارِيُّ في كتابِ فضائلِ القُرآنِ / بابُ فَضْلِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ (٥٠١٤) والنَّسَائِيُّ في كتابِ الافتتاحِ / بابُ الفضلِ في قراءةِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ (٩٩٤)، وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ / بابٌ في سُورَةِ الصَّمَدِ (١٤٦١).
وفي البابِ أَحادِيثُ أُخَرُ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ، وأنسِ بنِ مَالِكٍ، وأبي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ، وأبي مَسْعُودٍ، وأبي الدرداءِ، وغيرِهِم رَضِيَ اللهُ عَنهم.

(٢) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١١٧٩٥)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الدَّعَوَاتِ / بابُ خَلْقِ اللهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ (٣٥٤٤)، وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ / بابُ الدعاءِ (١٤٩٢)، وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ الدعاءِ / بابُ اسمِ اللهِ الأعظمِ (٣٨٥٨)، من طُرُقٍ عن أَنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنه. وزيادةُ: «**يا حَيُّ يا قَيُّومُ**» عند أَبِي دَاوُدَ فَقَطْ.

(٣) رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ في كتابِ الدَّعَوَاتِ / بابُ جامعِ الدَّعَوَاتِ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ (٣٤٧٥)،

منْ أسماءِ الربِّ وصفاتِهِ.

وأحبُّ ما دعاهُ الداعي بهِ أسماؤُهُ وصفاتُهُ، وفي الحديثِ الصحيح عنهُ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- أنَّهُ قالَ: «مَا أَصَابَ عَبْداً قَطُّ هَمٌّ وَلا حُزْنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي إِلاَّ أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحاً». قالُوا: أَفَلا نَتَعَلَّمُهُنَّ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ يَسْمَعُهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ».[1]

وقدْ نبَّهَ سُبحانَهُ على إثباتِ صفاتِهِ وأفعالِهِ بطريقِ المعقولِ، فاستيْقَظَتْ لتنبيهِهِ العقولُ الحيَّةُ، واستمرَّتْ على رِقْدَتِها العقولُ الميْتَةُ، فقالَ اللهُ تعالى في صفةِ العلمِ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٤]؛ فتأمَّلْ صحَّةَ هذا الدليلِ، معَ غايةِ إيجازِ لفظِهِ واختصارِهِ.

وقالَ سُبحانَهُ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]. فما أصحَّ هذا الدليلَ، وما أوْجَزَهُ!!

وقالَ تعالى: في صفةِ الكلامِ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨]. نبَّهَ بهذا الدليلِ على أنَّ مَنْ لا يُكَلِّمُ ولا يَهْدِي لا يَصْلُحُ أنْ يكونَ إلهاً، وكذلكَ قولُهُ في الآيةِ الأخرى عن العجلِ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۝٨٩﴾ [طه: ٨٩]. فجعلَ امتناعَ صفةِ الكلامِ والتكليمِ، وعدمَ ملكِ

وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ الدعاءِ/ بابُ اسمِ اللهِ الأعظمِ (٣٨٥٧) من حديثِ بُرَيْدَةَ بنِ الحُصَيْبِ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنه.

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُهُ صفحة ١١١.

الضرِّ والنفع دليلاً على عدمِ الإلهيَّةِ، **وهذا دليلُ عقليٌّ سمعيٌّ** على أنَّ الإلهَ لا بُدَّ أنْ يُكَلِّمَ ويتكلَّمَ ويملكَ لعابدِهِ الضرَّ والنفعَ، وإلاَّ لمْ يكُنْ إلهاً.

وقالَ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد:٨-١٠]. نبَّهكَ بهذا الدليلِ العقليِّ القاطعِ أنَّ الذي جعلَكَ تُبصِرُ وتتكلَّمُ وتعلَمُ أوْلَى أنْ يكونَ بصيراً متكلِّماً عالماً، فأيُّ دليلٍ عقليٍّ قطعيٍّ أقوى منْ هذا وأبينُ وأقربُ إلى المعقولِ؟!

وقالَ تعالى في آلهةِ المشركينَ المعطِّلينَ: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥]، فجعلَ سُبحانَهُ عدمَ البطشِ والمشيِ والسمعِ والبصرِ دليلاً على عدمِ إلهيَّةِ مَنْ عُدِمَتْ فيهِ هذهِ الصِّفاتُ، فالبطشُ والمشيُ منْ أنواعِ الأفعالِ، والسمعُ والبصرُ منْ أنواعِ الصِّفَاتِ.

وقدْ وصَفَ نفسَهُ سُبحانَهُ بضدِّ صفةِ أربابِهِم، وبضدِّ ما وصَفَهُ بِهِ المُعَطِّلَةُ والجهمِيَّةُ، فوصفَ نفسَهُ بالسمعِ والبصرِ والفعلِ باليدَيْنِ والمجيءِ والإتيانِ، وذلكَ ضدُّ صفاتِ الأصنامِ التي جعلَ امتناعَ هذهِ الصِّفَاتِ عليها مُنافياً لإلهيَّتِها.

فتأمَّلْ آياتِ التوحيدِ والصِّفَاتِ في القرآنِ على كثْرَتِها وتفنُّنِها واتِّساعِها وتنوُّعِها كيفَ تجدُها كلَّها قدْ أثبتَت الكمالَ للموصوفِ بها، وأنَّهُ المتفرِّدُ بذلكَ الكمالِ؟ فليسَ لهُ فيهِ شَبَهٌ ولا مثالٌ، وأيُّ دليلٍ في العقلِ أوضحُ منْ إثباتِ الكمالِ المُطْلَقِ لخالقِ هذا العالمِ ومُدَبِّرِهِ، وملكِ السَّماوَاتِ والأرضِ وقيُّومِها، فإذَا لمْ يكُنْ في العقلِ إثباتُ جميعِ أنواعِ الكمالِ لهُ فأيُّ قَضِيَّةٍ تَصِحُّ في العقلِ بعدَ هذا، ومَنْ شَكَّ في أنَّ صفةَ السمعِ، والبصرِ، والكلامِ، والحياةِ، والإرادةِ، والقدرةِ، والغضبِ، والرضا، والفرحِ، والرحمةِ، والرأفةِ كمالٌ، فهوَ مِمَّنْ سُلِبَ

خاصَّةَ الإنسانيَّةِ، وانسلخَ من العقلِ، بلْ مَنْ شَكَّ أنَّ إثباتَ الوجهِ واليدَيْنِ وما أثبَتَهُ لنفْسِهِ معهما كمالٌ، فهوَ موؤُوفٌ مُصَابٌ في عقلِهِ، ومَنْ شكَّ أنَّ كونَهُ يفعلُ باختيارِهِ ما يشاءُ، ويتكلَّمُ إذا شاءَ وينـزلُ إلى حيثُ شاءَ ويجيءُ إلى حيثُ شاءَ كمالٌ، فهوَ جاهلٌ بالكمالِ، والجامدُ عندَهُ أكملُ من الحيِّ الذي تقومُ بِهِ الأفعالُ الاختياريَّةُ.

-كما أنَّ عندَ شقيقِهِ **الجهميِّ** أنَّ الفاقدَ لصفاتِ الكمالِ أكملُ من الموصوفِ بها.

-كما أنَّ عندَ أُسْتَاذِهما وشيخِهما **الفيلسوفِ** أنَّ مَنْ لا يسمعُ، ولا يُبصرُ ولا يعلمُ، ولا لهُ حياةٌ، ولا قدرةٌ، ولا إرادةٌ، ولا فعلٌ، ولا كلامٌ، ولا يُرسِلُ رسولاً، ولا يُنـزِلُ كتاباً، ولا يتصرَّفُ في هذا العالمِ بتحويلٍ وتغييرٍ، وإزالةٍ ونقلٍ، وإماتةٍ وإحياءٍ أكملُ ممَّنْ يتَّصِفُ بذلك.

فهؤلاءِ كلُّهم قدْ خالَفُوا صريحَ المعقولِ، وسلَبُوا الكمالَ عمَّنْ هوَ أحقُّ بالكمالِ منْ كلِّ ما سواهُ، ولمْ يكْفِهم ذلكَ حتَّى جعلوا الكمالَ نقصاً، وعدَمَهُ كمالاً، فعكَسُوا الأمرَ، وقلَبُوا الفِطَرَ، وأفسدُوا العقولَ.

فتأمَّلْ شُبَهَهم الباطلةَ، وخيالاتِهم الفاسدةَ التي عارَضُوا بها الوحيَ هلْ تُقَاوِمُ هذا الدليلَ الدَّالَّ على إثباتِ الصِّفَاتِ والأفعالِ للربِّ سُبحانَهُ؟ ثمَّ اخْتَرْ لنفسِكَ بعدُ ما شِئْتَ.

وهذا قطرةٌ منْ بحرٍ نبَّهْنَا بِهِ تنبيهاً يَعلمُ بِهِ اللبيبُ ما وراءَهُ وإلاَّ فلوْ أعطَيْنَا هذا الموضعَ حقَّهُ -وهيهاتَ أنْ يَصِلَ إلى ذلكَ عِلْمُنا أوْ قُدْرَتُنا - لكتَبْنَا فيهِ عِدَّةَ أسفارٍ... واللهُ المستعانُ، وبهِ التوفيقُ).[1]

(١) الصواعقُ المُرْسَلَةُ (٩٠٩-٩١٧).

الباب الحاديَ عشرَ: في بيانِ أنَّ أسماءَ اللّه الحسنى وصفاته العُلَى تقتضي كمالَ الربِّ جلَّ جلالُهُ، وتستلْزِمُ توحيدَهُ وتفرُّدَهُ بها

(قدْ ثبتَ بالعقلِ الصريحِ والنقلِ الصحيح ثبوتُ صفاتِ الكمالِ للربِّ سُبحانَهُ وأنَّهُ أحقُّ بالكمالِ منْ كلِّ ما سِواهُ، وأنَّهُ يجبُ أنْ تكونَ القوَّةُ كلُّها لهُ والعزَّةُ كلُّها لهُ والعلمُ كلُّهُ لهُ، والقدرةُ كلُّها لهُ، والجمالُ كلُّهُ لهُ، وكذلكَ سائرُ صفاتِ الكمالِ، وقامَ البرهانُ السمعيُّ والعقليُّ على أنَّهُ يمتنعُ أنْ يشتركَ في الكمالِ التامِّ اثنانِ، وأنَّ الكمالَ التامَّ لا يكونُ إلاَّ لواحدٍ.

وهاتانِ مقدِّمتانِ يقينيَّتَانِ معلومتانِ بصريحِ العقلِ، وجاءَتْ نصوصُ الأنبياءِ مُفصِّلَةً لما في صريحِ العقلِ إدراكُهُ قطعاً، فاتَّفَقَ على ذلكَ العقلُ والنقلُ، قالَ تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقد اخْتُلِفَ في تَعلُّقِ قولِهِ: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ بماذا؟ فقالَتْ طائفةٌ: هوَ مفعولُ يَرَى؛ أيْ: ولوْ يروْنَ أنَّ القوَّةَ للهِ جميعاً لَمَا عصَوْهُ ولما كذَّبُوا رسُلَهُ، وقدَّمُوا عقولَهُم على وحْيِهِ، وقالَتْ طائفةٌ: بل المعنى لأنَّ القوَّةَ للهِ جميعاً.

وجوابُ (لَوْ) محذوفٌ على التقديرَيْنِ؛ أيْ: لوْ يرى هؤلاءِ حالَهُم وما أعدَّ اللهُ لهم إذْ يروْنَ العذابَ لرَأَوْا أمراً عظيماً، ثمَّ قالَ: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وهوَ متضمِّنٌ للتهديدِ الشديدِ والوعيدِ، وقالَ تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:

٣١]، وقالَ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في دعاءِ الاستفتاحِ: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ والخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْكَ». (١)

وفي الأثرِ الآخرِ: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ كُلُّهُ وَلَكَ المُلْكُ كُلُّهُ وَبِيَدِكَ الخَيْرُ كُلُّهُ وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّهُ». (٢)

فللهِ سُبحانَهُ كلُّ صفةِ كمالٍ وهوَ موصوفٌ بتلكَ الصِّفَاتِ كلِّها، ونذْكُرُ منْ ذلكَ صفةً واحدةً تُعْتَبَرُ بها سائرُ الصِّفَاتِ، وهوَ أنَّكَ لوْ فرَضْتَ جمالَ الخلقِ كلِّهِم منْ أوَّلِهِم إلى آخرِهم اجتمعَ لشخصٍ واحدٍ منهم، ثمَّ كانَ الخلقُ كلُّهُم على جمالِ ذلكَ الشخصِ لكانَ نسبتُهُ إلى جمالِ الربِّ تباركَ وتعالى دُونَ نسبةِ سراجٍ ضعيفٍ إلى جِرْمِ الشمسِ، وكذلكَ قوَّتُهُ سُبحانَهُ وعلمُهُ وسمعُهُ وبصرُهُ وكلامُهُ وقدرتُهُ ورحمتُهُ وحكمتُهُ وجُودُهُ وسائرُ صفاتِهِ.

وهذا ممَّا دلَّتْ عليهِ آياتُهُ الكونيَّةُ السمعيَّةُ، وأخْبَرَتْ بهِ رسُلُهُ عنهُ كما في الصحيحِ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «إِنَّ اللهَ لا يَنَامُ وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ». (٣)

فإذا كانتْ سُبُحاتُ وجهِهِ الأعلى لا يقومُ لها شيءٌ منْ خلقِهِ، ولوْ كُشِفَ حجابُ النورِ عنْ تلكَ السُّبُحاتِ لاحترقَ العالمُ العلويُّ والسفليُّ، فما الظنُّ

---

(١) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٨٠٥)، ومُسلِمٌ في كتابِ صلاةِ المُسافِرينَ / بابُ الدعاءِ في صلاةِ الليلِ وقِيامِهِ (١٨٠٩)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الدَّعَواتِ / بابُ ما جاءَ في الدعاءِ عندَ افتتاحِ الصلاةِ باللَّيْلِ (٣٤٢٢)، والنَّسائِيُّ في كتابِ الافتتاحِ / بابُ نَوْعٍ آخَرَ مِنَ الذِّكْرِ والدُّعاءِ بَيْنَ التَّكْبيرِ والقراءةِ (٨٩٦) وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ / بابُ ما يَسْتَفْتِحُ بِهِ الصَّلاةَ مِنَ الدُّعاءِ (٧٥٦).

(٢) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٢٢٨٤٦) من حديثِ الحَجَّاجِ بنِ فُرافِصَةَ، عن رَجُلٍ، عن حُذَيْفَةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عَنه مرفوعًا.

(٣) سَبَقَ تَخْرِيجُهُ صفحة ٨٦.

بجلالِ ذلكَ الوجهِ الكريمِ وعظمَتِهِ وكبريائِهِ وكمالِهِ وجلالِهِ، وإذا كانت السَّماوَاتُ معَ عظمَتِها وسَعَتِها يجعَلُها على أُصْبُعٍ منْ أصابعِهِ، والأرضُ على أُصْبُعٍ، والجبالُ على أصبعٍ، والبحارُ على أصبعٍ، فما الظنُّ باليدِ الكريمةِ التي هيَ صفةٌ منْ صفاتِ ذاتِهِ، وإذا كانَ يسمعُ ضجيجَ الأصواتِ، باختلافِ اللغاتِ، على تفنُّنِ الحاجاتِ، في أقطارِ الأرضِ والسَّماوَاتِ، فلا يشتبهُ عليهِ ولا يختلطُ ولا يلتبسُ، ولا يُغْلِطُهُ سمعٌ، ويرى دبيبَ النملةِ السوداءِ على الصخرةِ الصمَّاءِ تحتَ أطباقِ الأرضِ في الليلةِ الظلماءِ، ويعلمُ سُبحانَهُ ما تُسِرُّهُ القلوبُ وأخفى منهُ - وهوَ ما لمْ يخْطُرْ لها - أنَّهُ سيَخْطُرُ لها.

ولوْ كانَ البحرُ المحيطُ بالعالَمِ مداداً ويُحيطُ بهِ منْ بعدِهِ سبعةُ أبحرٍ، كلُّها مدادٌ، وجميعُ أشجارِ الأرضِ -وهوَ كلُّ نَبْتٍ قامَ على ساقٍ ممَّا يُحْصَدُ وممَّا لا يُحْصَدُ- أقلامٌ يكتبُ بها، نفِدَت البحارُ والأقلامُ ولمْ يَنْفَدْ كلامُهُ، وهذا وغيرُهُ بعضُ ما تعرَّفَ بهِ إلى عبادِهِ منْ كلامِهِ، وإلاَّ فلا يُمْكِنُ لأحدٍ قطُّ أنْ يُحْصِيَ ثناءً عليهِ، بلْ هوَ كما أثنى على نفسِهِ، فكلُّ الثناءِ وكلُّ الحمدِ وكلُّ المجدِ وكلُّ الكمالِ لهُ سُبحانَهُ... (([فهوَ] سُبحانَهُ كاملٌ في أسمائِهِ وصفاتِهِ، فلهُ الكمالُ المطلقُ منْ جميعِ الوجوهِ الذي لا نقصَ فيهِ بوجهٍ ما)).[1]

((وَ... أدلَّةُ ثبوتِ صفاتِ الكمالِ لمعطي الكمالِ... منْ أظهرِ الأشياءِ وأوضَحِها))[2]، وباللهِ المستعانُ).[3]

(ولهُ الكمالُ المُطْلَقُ العاري عنِ — التشبيهِ والتمثيلِ بالإنسانِ
وكمالُ مَنْ أعطى الكمالَ بنفسِهِ — أوْلَى وأقدمُ وهوَ أعظمُ شانِ
أيكونُ قدْ أعطى الكمالَ وما لَهُ — ذاكَ الكمالُ أذاكَ ذُو إمكانِ

(١) رَوْضَةُ المُحِبِّينَ (٨١).

(٢) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٢٣).

(٣) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٣/ ١٠٨١-١٠٨٤).

أيكونُ إنسانٌ سميعاً مُبْصِراً ... مُتَكَلِّماً بمشيئةٍ وبيانِ
ولهُ الحياةُ وقدرةٌ وإرادةٌ ... والعلمُ بالكُلِّيِّ والأعيانِ
واللهُ قدْ أعطاهُ ذاكَ وليسَ ها ... ذا وصفَهُ فاعْجَبْ من البهتانِ
بخلافِ نومِ العبدِ ثمَّ جِمَاعِهِ ... والأكلِ منهُ وحاجةِ الأبدانِ
إذْ تلكَ ملزوماتُ كونِ العبدِ مُحْـ ... ـتاجاً وتلكَ لوازمُ النقصانِ
وكذا لوازمُ كونِهِ جسداً نَعَمْ ... ولوازمُ الإحداثِ والإمكانِ
يتقَدَّسُ الرحمنُ جلَّ جلالُهُ ... عنها وعنْ أعضاءِ ذِي جُثْمَانِ)[1]

(١) القَصِيدَةُ النُّونِيَّةُ (٦٦).

البابُ الثانيَ عشرَ: في بيانِ دلالةِ أسماءِ اللّه الحسنى وصفاته العُلَى وكماله المُقَدَّسِ على معنَى شهادةِ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللّهُ وأنَّ محمَّداً رسولُ اللّهِ

(اعْلَمْ أنَّ اللهَ سُبحانَهُ في الحقيقةِ هوَ الدَّالُّ على نفسِهِ بآياتِهِ. فهوَ الدليلُ لعبادِهِ في الحقيقةِ بما نصَبَهُ لهم من الدلالاتِ والآياتِ. وقدْ أوْدَعَ في الفِطَرِ التي لمْ تتنَجَّسْ بالتعطيلِ والجحودِ: أنَّهُ سُبحانَهُ الكاملُ في أسمائِهِ وصفاتِهِ، وأنَّهُ الموصوفُ بكلِّ كمالٍ، المُنَزَّهُ عنْ كلِّ عيبٍ ونقصٍ. فالكمالُ كلُّهُ، والجمالُ والجلالُ والبهاءُ، والعزةُ والعظمةُ والكبرياءُ كلُّهُ منْ لوازمِ ذاتِهِ. يستحيلُ أنْ يكونَ على غيرِ ذلكَ. فالحياةُ كلُّها لهُ، والعلمُ كلُّهُ لهُ، والقدرةُ كلُّها لهُ. والسمعُ والبصرُ والإرادةُ والمشيئةُ والرحمةُ والغِنَى والجُودُ والإحسانُ والبرُّ كلُّهُ خالصٌ[1] لهُ قائمٌ بهِ.

وما خَفِيَ على الخلقِ منْ كمالِهِ أعظمُ وأعظمُ ممَّا عرفُوهُ منهُ، بلْ لا نِسْبَةَ لما عرَفُوهُ منْ ذلكَ إلى ما لمْ يعرِفُوهُ.

ومنْ كمالِهِ المُقَدَّسِ: اطِّلاَعُهُ على كلِّ شيءٍ، وشهادَتُهُ عليهِ، بحيثُ لا يَغِيبُ عنهُ وَجْهٌ منْ وُجُوهِ تفاصيلِهِ، ولا ذرَّةٌ منْ ذرَّاتِهِ باطناً وظاهراً.

(١) في الأصلِ: خاصٌّ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أَثْبَتُّهُ.

ومَنْ هذا شَأْنُهُ: كيفَ يَليقُ بالعبادِ أنْ يُشركوا بهِ، وأنْ يعبدُوا معهُ غيرَهُ؟ وأنْ يجعَلُوا معَهُ إلهاً آخرَ؟ وكيفَ يليقُ بكمالِهِ أنْ يُقِرَّ مَنْ يكْذِبُ عليهِ أعظمَ الكذبِ، ويخْبِرُ عنهُ بخلافِ ما الأمرُ عليهِ. ثمَّ ينصرُهُ على ذلكَ ويُؤَيِّدُهُ، ويُعْلِي كَلِمَتَهُ، ويرفعُ شأنَهُ، ويجيبُ دعوتَهُ، ويهلِكُ عدوَّهُ، ويُظْهِرُ على يدَيْهِ من الآياتِ والبراهينِ والأدِلَّةِ ما تَعْجزُ عنْ مثلِهِ قُوَى البشرِ، وهوَ - معَ ذلكَ - كاذبٌ عليهِ مُفْترٍ، ساعٍ في الأرضِ بالفسادِ؟!(١)

(١) وقد جرَتْ لابنِ القيِّم -رَحِمَهُ اللهُ تعالَى- مُناظَرَةٌ مع بَعْضِ عُلَماءِ أهلِ الكتابِ أَثْبَتَ فِيهَا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ مُسْتدِلاً بأسماءِ اللهِ الحُسْنَى وصِفاتِهِ العُلَى، فأَفْحَمَهُ حتى لم يحِرْ جوابًا، وها أنا أَسُوقُهَا لك كما ذكَرَها في كتابِهِ القيِّم الصَّواعِقِ المُرْسَلَةِ (١/ ٣٢٧ - ٣٢٩) حيثُ قالَ -رَحِمَهُ اللهُ-:

(وقَرِيبٌ من هذهِ المَناظِرِ ما جرَى لي مع بعضِ عُلَماءِ أَهْلِ الكتابِ، فإنَّهُ جَمَعَني وإياهُ مجلسُ خَلوةٍ، أفضَى بينَنا الكلامُ إلى أن جرَى ذِكرُ مَسَبَّةِ النَّصارَى لربِّ العالمينَ، مَسَبَّةً ما سَبَّهُ إياها أحدٌ مِنَ البَشَرِ، فقُلْتُ له: وأنتم بإنكارِكُمْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ) قد سَبَبْتُمُ الرَّبَّ تعالَى أَعظَمَ مَسَبَّةٍ. قال: وكيفَ ذلك؟ قُلْتُ: لأنَّكُم تَزْعُمونَ أن مُحمدًا مَلِكٌ ظالمٌ ليس برسولٍ صادقٍ، وأنه خَرَجَ يَستعْرِضُ الناسَ بسيفِهِ فيَسْتَبِيحُ أموالَهُمْ ونساءَهُم وذَرارِيَّهُم، ولا يَقْتَصِرُ على ذلك حتى يَكْذِبَ على اللهِ، ويقولَ: اللهُ أَمَرَني بهذا وأباحَهُ لي، ولم يَأْمُرْهُ اللهُ ولا أباحَ له ذلكَ، ويقولَ: أُوحِيَ إليَّ ولم يُوحَ إليه شيءٌ. ويَنْسَخُ شَرَائِعَ الأنبياءِ مِن عِندِه، ويُبطِلُ منها ما يشاءُ، ويُبقِي منها ما يشاءُ، ويَنْسِبُ ذلك كُلَّهُ إلى اللهِ، ويَقْتُلُ أولياءَهُ وأتباعَ رُسُلِهِ ويَسْتَرِقُّ نِساءَهُم وذُرِّيَّاتِهِمْ: فإما أن يكونَ اللهُ سُبحانَهُ رَائِيًا لذلك كُلِّهِ عالمًا به مُطَّلِعًا عليه أو لا؟

فإن قُلْتُم: إن ذلك بغيرِ عِلمِهِ واطِّلاعِهِ نَسَبْتُمُوهُ إلى الجَهْلِ والغَباوَةِ، وذلك من أَقْبَحِ السَّبِّ، وإن كان عالمًا به رائيًا له مُشاهِدًا لِمَا يَفْعَلُه؛ فإمَّا أن يَقْدِرَ على الأخذِ على يدِهِ ومَنعِه من ذلك أو لا.

فإن قُلْتُمْ: إنه غيرُ قادرٍ على مَنْعِهِ والأخذِ على يدِهِ، نَسَبْتُمُوهُ إلى العجزِ والضَّعْفِ.

وإن قُلْتُم: بل هو قادرٌ على مَنْعِهِ ولم يَفْعَلْ نَسَبْتُمُوهُ إلى السَّفَهِ والظُّلْمِ والجَوْرِ.

هذا هو مِنْ حِينِ ظَهرَ إلى أن تَوَفَّاهُ رَبُّهُ يُجِيبُ دَعَواتِهِ، ويَقْضِي حَاجاتِه، ولا يَسْأَلُه حاجةً إلا قَضاهَا له، ولا يَدْعُوهُ بدَعْوَةٍ إلا أجابَها له، ولا يَقومُ له عدوٌّ إلا ظَفَرَ به، ولا تقومُ له رايةٌ إلا نصرَها، ولا لواءٌ إلا رَفعَه، ولا مَن يُناوِئُه ويُعادِيهِ إلا بَتَرَه ووَضَعَه، فكانَ أمرُه مِن حِينِ ظَهَرَ إلى أن تُوفِّيَ يَزْدادُ على الأيامِ والليالي ظُهورًا وعُلُوًّا ورِفعَةً، وأمرُ مُخالِفِيهِ لا يَزْدادُ إلا سُفُولاً واضمِحلالاً، ومحبَّتُهُ في قُلوبِ الخَلْقِ تَزيدُ على ممَرِّ الأوقاتِ، وربُّهُ تعالَى يُؤَيِّدُهُ بأَنْواعِ التَّأْيِيدِ، ويَرْفَعُ ذِكْرَهُ غايةَ الرَّفْعِ.

هذا وهو عِندَكُمْ مِن أَعظَمِ أَعدائِهِ، وأَشَدِّهِم ضررًا على الناسِ!! فأيُّ قدحٍ في ربِّ العالمينَ، وأيُّ مسبَّةٍ

ومعلومٌ أنَّ شهادَتَهُ سُبحانَهُ على كلِّ شيءٍ، وقدرَتَهُ على كلِّ شيءٍ، وحكمتَهُ وعزَّتَهُ وكمالَهُ المُقدَّسَ يأْبى ذلكَ كلَّ الإباءِ. ومَنْ ظَنَّ ذلكَ بهِ، وجوَّزَهُ عليهِ فهوَ منْ أبعدِ الخلقِ منْ معرفتِهِ. وإنْ عَرفَ منهُ بعضَ صفاتِهِ كصفةِ القدرةِ وصفةِ المشيئةِ.

والقرآنُ مملوءٌ منْ هذهِ الطريقِ، وهيَ طريقُ الخاصَّةِ، بلْ خاصَّةُ الخاصَّةِ هم الذينَ يستدِلُّونَ باللهِ على أفعالِهِ. وما يليقُ بهِ أنْ يفعلَهُ وما لا يفعلُهُ.

وإذا تدبَّرْتَ القرآنَ رأيتَهُ يُنادِي على ذلكَ فيُبْدِيهِ ويُعِيدُهُ لمَنْ لهُ فَهْمٌ وقلبٌ واعٍ عن اللهِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقَّة: ٤٤-٤٧]، أفلا تَراهُ كيفَ أخبرَ سُبحانَهُ أنَّ كمالَهُ وحكمتَهُ وقدرتَهُ تأْبى أنْ يُقِرَّ مَنْ تَقَوَّلَ عليهِ بعضَ الأقاويلِ؟ بلْ لا بدَّ أنْ يجعلَهُ عبرةً لعبادِهِ، كما جَرَتْ بذلكَ سُنَّتُهُ في المُتَقَوِّلينَ عليهِ.

وقالَ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]. ها هنا انتهى جوابُ الشرطِ، ثمَّ أخبرَ خبراً جازماً غيرَ مُعلَّقٍ أنَّهُ: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾.

وقالَ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، فأخبرَ أنَّ مَنْ نفى عنهُ الإرسالَ والكلامَ لمْ يَقْدِرْهُ حقَّ قدْرِهِ. ولا عرَفَهُ كما

له، وأيُّ طَعْنٍ فيه أَعْظَمُ من ذلك؟!!.

فأخذَ الكلامُ منه مَأخذًا ظَهَرَ عليه، وقال: حاشَ للهِ، أن نَقُولَ فيه هذه المقالةَ، بل هو نَبِيٌّ صادقٌ، كلُّ مَنِ اتَّبَعَهُ فهو سعيدٌ، وكلُّ مُنصفٍ منا يُقِرُّ بذلك، ويقُولُ: أَتباعُهُ سُعداءُ في الدارَينِ، قلتُ له: فما يَمْنَعُكَ مِنَ الظَّفَرِ بهذِهِ (السعادةِ)؟ فقالَ: وأَتْبَاعُ كُلِّ نَبِيٍّ مِنَ الأنبياءِ كذلك، فأتباعُ مُوسَى أيضًا سُعَداءُ. قلتُ له: فإذا أقررتَ أنه نبيٌّ صادقٌ فقد كَفَّرَ مَن لم يَتْبَعْهُ واستباحَ دَمَهُ ومَالَهُ وحَكَمَ له بالنارِ، فإنْ صَدَّقْتَهُ في هذا وَجَبَ عليكَ اتِّباعُهُ، وإن كَذَّبْتَهُ فيه لم يَكُنْ نَبِيًّا، فكيفَ يكونُ أَتباعُهُ سُعَداءَ؟! فلم يَحِرْ جَوابًا!! وقالَ: حَدِّثْنَا في غيرِ هَذَا).

ينبغي، ولا عَظَّمَهُ كما يَسْتَحِقُّ. فكيفَ مَنْ ظنَّ أنَّهُ ينْصُرُ الكاذبَ المُفْتَرِيَ عليهِ ويؤيِّدُهُ، ويُظْهِرُ على يدَيْهِ الآياتِ والأدلَّةَ؟!

وهذا في القرآنِ كثيرٌ جدًّا؛ يستَدِلُّ بكمالِهِ المُقَدَّسِ، وأوصافِهِ وجلالِهِ على صدقِ رُسُلِهِ، وعلى وعدِهِ ووعيدِهِ، ويدعو عبادَهُ إلى ذلكَ، كما يستدلُّ بأسمائِهِ على صِدْقِ رُسُلِهِ، وعلى وعدِهِ ووعيدِهِ، ويدعو عبادَهُ إلى ذلكَ كما يستدلُّ بأسمائِهِ وصفاتِهِ على وحدانيَّتِهِ، وعلى بُطْلانِ الشركِ كما في قولِهِ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٢٢-٢٣]. وأضعافُ أضعافِ ذلكَ في القرآنِ.

ويستدلُّ سُبحانَهُ بأسمائِهِ وصفاتِهِ على بُطْلانِ ما نُسِبَ إليهِ من الأحكامِ والشرائعِ الباطلةِ، وأنَّ كمالَهُ المُقَدَّسَ يمنعُ منْ شرْعِها كقولِهِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨]، وقولِهِ عَقِيبَ ما نهى عنهُ وحرَّمَهُ من الشركِ والظلمِ والفواحشِ والقولِ عليهِ بلا علم: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٨]، فأعْلَمَكَ أنَّ ما كانَ سيِّئَةً في نفسِهِ فهوَ يكرهُهُ. وكمالُهُ يأْبى أنْ يجعَلَهُ شرعاً لهُ وديناً. فهوَ سُبحانَهُ يَدُلُّ عبادَهُ بأسمائِهِ وصفاتِهِ على ما يفعَلُهُ ويأمرُ بهِ، وما يُحِبُّهُ ويُبغِضُهُ، ويُثِيبُ عليهِ ويُعاقِبُ عليهِ.

(([فَـ]يستدلُّ [العبدُ المُوفَّقُ] بصفاتِ اللهِ تعالى وكمالِهِ على ما يفعَلُهُ، لحُسْنِ اعتبارِهِ وصحَّةِ نظرِهِ، وهوَ اعتبارُ الخواصِّ واستدلالهُم. فإنَّهُمْ يستدلُّونَ بأسماءِ اللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ، وأنَّهُ يفعلُ كذا ولا يفعلُ كذا. فيَفْعَلُ ما هوَ مُوجَبُ حكمتِهِ وعلْمِهِ وغناهُ وحَمْدِهِ، ولا يفعلُ ما يُناقضُ ذلكَ. وقدْ ذكرَ سُبحانَهُ [ذلكَ] في

كتابِهِ. فقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٣]، ثمَّ قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٣]، فمخلوقاتُهُ دالَّةٌ على ذاتِهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ. وأسماؤُهُ وصفاتُهُ دالَّةٌ على ما يفعَلُهُ ويأمرُ بِهِ، وما لا يفعلُهُ ولا يأمرُ بِهِ.

مثالُ ذلكَ: أنَّ اسمَهُ «**الحميدَ**» سُبحانَهُ يدلُّ على أنَّهُ لا يأمرُ بالفحشاءِ والمنكرِ. واسمَهُ «**الحكيمَ**» يدلُّ على أنَّهُ لا يخلقُ شيئاً عبثاً. واسمَهُ «**الغنيَّ**» يدلُّ على أنَّهُ لمْ يتَّخذْ صاحبةً ولا ولداً. واسمَهُ «**الملِكَ**» يدلُّ على ما يستلزمُ حقيقةَ ملكِهِ: منْ قدْرَتِهِ، وتدبيرِهِ، وعطائِهِ ومنعِهِ، وثوابِهِ وعقابِهِ، وبثِّ رسُلِهِ في أقطارِ مملكَتِهِ، وإعلامِ عبيدِهِ بمراسيمِهِ وعهودِهِ إليهمْ، واستوائِهِ على سريرِ مملكتِهِ الذي هوَ عرشُهُ المجيدُ. فمتى قامَ بالعبدِ تعظيمُ الحقِّ جلَّ جلالُهُ، وحَسُنَ النظرُ في الشواهدِ والتبصُّرُ والاعتبارُ بها، صَارَت الصِّفَاتُ والنعوتُ مشهودةً لقلبِهِ قِبْلَةً لهُ)). [1]

ولكنَّ هذهِ الطريقَ لا يَصِلُ إليها إلاَّ خاصَّةُ الخاصَّةِ. فلذلكَ كانتْ طريقةَ الجمهورِ الدلالاتُ بالآياتِ المشاهدةِ؛ فإنَّها أوسعُ وأسهلُ تناوُلاً، واللهُ سُبحانَهُ يُفضِّلُ بعضَ خلْقِهِ على بعضٍ، ويرفعُ درجاتٍ مَنْ يشاءُ وهوَ العليمُ الحكيمُ.

فالقرآنُ العظيمُ قد اجتمعَ فيهِ ما لمْ يجتمعْ في غيرِهِ؛ فإنَّهُ هوَ الدعوةُ والحُجَّةُ، وهوَ الدليلُ والمدلولُ عليهِ، وهوَ الشاهدُ والمشهودُ لهُ، وهوَ الحُكْمُ والدليلُ، وهوَ الدعوى والبيِّنَةُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود:١٧] أيْ: مِنْ ربِّهِ. وهوَ القرآنُ. وقالَ تعالى لمَنْ طلبَ آيةً تدلُّ على صدقِ رسولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا

(١) مدارجُ السَّالكينَ (٣/ ٣٣٣-٣٣٤).

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت: ٥١-٥٢] فأخبرَ سُبحانَهُ أنَّ الكتابَ الذي أنزلَهُ على رسولِهِ يكفي عنْ كلِّ آيةٍ، ففيهِ الحُجَّةُ والدلالةُ على أنَّهُ من اللهِ، وأنَّ اللهَ سُبحانَهُ أرسلَ بهِ رسولَهُ، وفيهِ بيانُ ما يُوجِبُ لمَن اتَّبعَهُ السعادةَ، ويُنْجِيهِ من العذابِ. ثمَّ قالَ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًاۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، فإذا كانَ اللهُ سُبحانَهُ عالماً بجميعِ الأشياءِ؛ كانتْ شهادَتُهُ أصدقَ شهادةٍ وأعدَلَها؛ فإنَّها شهادةٌ بعِلْمٍ تامٍّ محيطٍ بالمشهودِ بهِ. فيكونُ الشاهدُ بهِ أعدلَ الشُّهَدَاءِ وأصدَقَهُم.

وهوَ سُبحانَهُ يذكرُ عِلْمَهُ عندَ شهادتِهِ، وقدرتَهُ وملكَهُ عندَ مُجازاتِهِ، وحكمتَهُ عندَ خلقِهِ وأمرِهِ، ورحمتَهُ عندَ ذكرِ إرسالِ رسولِهِ، وحلمَهُ عندَ ذكرِ ذنوبِ عبادِهِ ومعاصِيهم، وسمعَهُ عندَ ذكرِ دعائِهم ومسألتِهم، وعزَّتَهُ وعلمَهُ عندَ قضائِهِ وقدرِهِ.

فتأمَّلْ ورودَ أسمائِهِ الحسنى في كتابِهِ، وارتباطَها بالخلقِ والأمرِ، والثوابِ والعقابِ.

[فَصْلٌ]

ومنْ هذا قولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: ٤٣]، فاستشهدَ على رسالتِهِ بشهادةِ اللهِ لهُ.

ولا بدَّ أنْ تُعْلَمَ هذهِ الشهادةُ، وتقومَ بها الحُجَّةُ على المكذِّبينَ لهُ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩] وكذلكَ قولُهُ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ

شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ [النساء: ١٦٦] وكذلكَ قولُـهُ: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يس: ١-٣] وقولُهُ: ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: ٢٥٢] وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ [المنافقون: ١] وقولُهُ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]. فهذا كلُّهُ شهادةٌ منهُ لرسولِهِ قدْ أظهرَها وبيَّنَها، وبيَّنَ صحَّتَها غايَةَ البيانِ بحيثُ قطعَ العذرَ بينَهُ وبينَ عبادِهِ وأقامَ الحُجَّةَ عليهم، فكوْنُهُ سُبحانَهُ شاهداً لرسُولِهِ معلومٌ بسائرِ أنواعِ الأدِلَّةِ: عَقْلِيِّها ونَقْليِّها وفِطرِيِّها وضَرُورِيِّها ونظرِيِّها.

ومَنْ نظرَ في ذلكَ وتأمَّلَهُ عَلِمَ أنَّ اللهَ سُبحانَهُ شَهِدَ لرسولِهِ أصدقَ الشهادةِ وأعدلَها وأظهرَها، **وصدَّقَهُ بسائرِ أنواعِ التصديقِ:**

- بقولِهِ الذي أقامَ البراهينَ على صدقِهِ فيهِ.
- وبفِعْلِهِ وإقرارِهِ.
- وبما فطرَ عليهِ عبادَهُ من الإقرارِ بكمالِهِ وتنـزيهِهِ عن القبائحِ وعمَّا لا يليقُ بهِ.

وفي كلِّ وقتٍ يُحْدِثُ من الآياتِ الدالَّةِ على صدقِ رسولِهِ ما يُقيمُ بهِ الحُجَّةَ، ويُزيلُ بهِ العذرَ، ويحكُمُ لهُ ولأتباعِهِ بما وعدَهُم بهِ من العزِّ والنجاةِ والظَّفَرِ والتأييدِ.

ويحكُمُ على أعدائِهِ ومكذِّبيهِ بما توَعَّدَهم بهِ من الخزيِ والنَّكالِ والعقوباتِ المُعجَّلَةِ الدالَّةِ على تحقيقِ العقوباتِ المُؤَجَّلَةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨]، فيُظْهِرُهُ ظهورَيْنِ:

- ظهوراً بالحُجَّةِ والبيانِ والدلالةِ.

- وظهوراً بالنصرِ والظَّفَرِ والغلبةِ والتأييدِ حتَّى يُظْهِرَهُ على مُخالفيهِ ويكونَ منصوراً.

وقولُهُ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦]، فما فيهِ من الخبرِ عنْ علم اللهِ الذي لا يعلمُهُ غيرُهُ منْ أعظمِ الشهادةِ بأنَّهُ هوَ الذي أنزلَهُ. كما قالَ في الآيةِ الأخرى ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣-١٤]، وليسَ المرادُ مجرَّدَ الإخبارِ بأنَّهُ أنزلَهُ، وهوَ معلومٌ لهُ، كما يعلمُ سائرَ الأشياءِ. فإنَّ كُلَّ شيءٍ معلومٌ لهُ منْ حقٍّ وباطلٍ وإنَّما المعنى: أنزلَهُ مشتملاً على علمِهِ. فنـزولُهُ مشتملاً على علمِهِ: هوَ آيةُ كونِهِ منْ عندِهِ، وأنَّهُ حقٌّ وصدقٌ.

ونظيرُ هذا قولُهُ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦]، ذكرَ ذلكَ سُبحانَهُ تكذيباً وردًّا على مَنْ قالَ: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤]).[1]

(١) مَدارِجُ السَّالِكِينَ (٣/ ٤٣٣ -٤٣٧)، وقد أطالَ -رَحِمَهُ اللهُ- في تفسيرِ قولِهِ تعالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] الآيةَ، وأَحْسَنَ فيه أيَّما إحسانٍ، فراجِعْهُ إن شِئْتَ.

البابُ الثالثَ عشرَ: في بيانِ أنَّ أسماءَ اللّهِ الحسنى وصفاتِهِ العُلَى تقتضي تَنْزِيهَهُ سُبحانَهُ وتعالى عن الشرورِ والنقائِصِ والعُيُوبِ

(الربُّ [سُبحانَهُ و]تعالى أسماؤُهُ كلُّها حسنى ليسَ فيها اسمُ سَوءٍ، وأوصافُهُ كلُّها كمالٌ ليسَ فيها صفةُ نقصٍ، وأفعالُهُ كلُّها حكمةٌ ليسَ فيها فعلٌ خالٍ عن الحكمةِ والمصلحةِ، ولهُ المثلُ الأعلى في السماواتِ والأرضِ وهوَ العزيزُ الحكيمُ، موصوفٌ بصفاتِ الكمالِ، مذكورٌ بنعوتِ الجلالِ، مُنَـزَّهٌ عن الشبيهِ والمثالِ، و**مُنَـزَّهٌ عمَّا يُضَادُّ صفاتِ كمالِهِ**:

- فمُنَزَّهٌ عن الموتِ المُضادِّ للحياةِ.
- وعن السِّنَةِ والنومِ والسهوِ والغفلةِ المضادِّ للقيُّوميَّةِ.
- وموصوفٌ بالعلمِ مُنَـزَّهٌ عنْ أضدادِهِ كُلِّها من النسيانِ والذهولِ وعزوبِ شيءٍ عنْ علمِهِ.
- موصوفٌ بالقدرةِ التامَّةِ، مُنَـزَّهٌ عنْ ضدِّها من العجزِ واللُّغُوبِ والإعياءِ.
- موصوفٌ بالعَدْلِ، مُنَـزَّهٌ عن الظلمِ.
- موصوفٌ بالحكمةِ، مُنَـزَّهٌ عن العبثِ والسَّفَهِ.
- موصوفٌ بالسمعِ والبصرِ، مُنَـزَّهٌ عنْ أضدَادِهِما من الصَّمَمِ والبَكَمِ.
- موصوفٌ بالعُلُوِّ والفوقيَّةِ، مُنَـزَّهٌ عنْ ضدِّ ذلكَ.

- موصوفٌ بالغِنَى التامِّ، مُنَـزَّهٌ عمَّا يُضادُّهُ بوجهٍ من الوجوهِ، ومُستحقٌّ للحمدِ كلِّهِ؛ فيستحيلُ أنْ يكونَ غيرَ محمودٍ كما يستحيلُ أنْ يكونَ غيرَ قادرٍ ولا خالقٍ ولا حيٍّ، ولـهُ الحمدُ كلُّهُ، واجبٌ لهُ لذاتِهِ فلا يكونُ إلاَّ محمُوداً كما لا يكونُ إلاَّ إلهاً وربًّا وقادراً). [1]

([فهوَ] سُبحانَهُ كاملٌ في أسمائِهِ وصفاتِهِ، فلَهُ الكمالُ المطلقُ منْ جميعِ الوجوهِ.

الذي لا نَقْصَ فيهِ بوجهٍ ما). [2]

[و] (كلُّ ما يُنَـزِّهُ سُبحانَهُ عنهُ من العيوبِ والنقائصِ فهوَ داخلٌ فيما نَـزَّهَ نفسَهُ عنهُ وفيما يُسَبَّحُ بهِ ويُقَدَّسُ ويُحمَدُ ويُمَجَّدُ، وداخلٌ في معاني أسمائِهِ الحسنى، وبذلكَ كانتْ حُسْنَى؛ أيْ: أحسنَ منْ غيرِها، فهيَ أفعلُ تفضيلٍ مُعرَّفَةٌ باللامِ؛ أيْ: لا أحسنَ منها بوجهٍ من الوجوهِ. بلْ لها الحسنُ الكاملُ التامُّ المطلقُ، وأسماؤُهُ الحسنى وآياتُهُ البيِّناتُ متضمِّنَةٌ لذلكَ ناطقةٌ بهِ صريحةٌ فيهِ وإنْ ألحدَ المُلحدونَ وزاغَ عنها الزائغونَ). [3]

(فسُبْحَانَ اللهِ ربِّ العالمينَ تنـزيهاً لربوبيَّتِهِ وإلهيَّتِهِ وعظمَتِهِ وجلالِهِ عمَّا لا يليقُ بهِ منْ كلِّ ما نَسَبَهُ إليهِ الجاهلونَ الظالمونَ.

فـَ «**سبحانَ اللهِ**» كلمةٌ يُحاشَى اللهُ بها عنْ كلِّ ما يُخالفُ كمالَهُ منْ سُوءٍ ونقصٍ وعيبٍ، فهوَ المُنَـزَّهُ التنـزيهَ التامَّ، منْ كلِّ وجهٍ وبكلِّ اعتبارٍ، عنْ كلِّ نقصٍ مُتوَهَّمٍ) [4] (فلا يدخلُ السوءُ في أسمائِهِ، ولا النقصُ والعيبُ في صفاتِهِ، ولا

---

(١) طريقُ الهجرتَينِ (١١٩).

(٢) رَوْضَةُ المُحِبِّينَ (٨١).

(٣) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (١٤٤٣).

(٤) شِفاءُ العَليلِ (٢/ ٨١).

العبثُ ولا الجَوْرُ في أفعالِه، بلْ هوَ مُنَـزَّهٌ في ذاتِه وأوصافِهِ وأفعالِهِ وأسمائِهِ عمَّا يُضادُّ كمالَهُ بوجهٍ من الوجوهِ). [(١)]

([بلْ إنَّ] النقصَ منتفٍ عن اللهِ عزَّ وجلَّ عقلاً كما هوَ منتفٍ عنهُ سمعاً. والعقلُ والنقلُ يُوجبُ اتِّصافَهُ بصفاتِ الكمالِ. والنقصُ هوَ ما يُضادُّ صفاتِ الكمالِ). [(٢)]

[فَصْلٌ]

(فإذا عرفَ هذا... [فقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ١-٢]... **(مَا)** ها هنا موصولةٌ ليسَ إلا، والشرُّ مُسْنَدٌ في الآيَةِ إلى المخلوقِ المفعولِ لا إلى خلقِ الربِّ تعالى الذي هوَ فعلُهُ وتكوينُهُ؛ فإنَّهُ لا شرَّ فيهِ بوَجْهٍ ما؛ فإنَّ الشرَّ لا يدْخُلُ في شيءٍ منْ صفاتِهِ ولا في أفعالِهِ كما لا يلْحَقُ ذاتَهُ تباركَ وتعالى؛ فإنَّ ذاتَهُ لها الكمالُ المطلقُ الذي لا نقصَ فيهِ بوجهٍ من الوجوهِ، وأوصافُهُ كذلكَ لها الكمالُ المطلقُ والجلالُ التامُّ ولا عيبَ فيها ولا نقصَ بوجهٍ ما، وكذلكَ أفعالُهُ كلُّها خيراتٌ محضةٌ لا شرَّ فيها أصلاً، ولوْ فعلَ الشرَّ سُبحانَهُ لاشْتُقَّ لهُ منهُ اسمٌ ولمْ تكُنْ أسماؤُهُ كلُّها حُسنى، ولعادَ إليهِ منهُ حكمٌ تعالى وتقدَّسَ عنْ ذلكَ.

وما يفعلُهُ من العَدْلِ بعبادِهِ وعقوبةِ مَنْ يَسْتَحِقُّ العقوبةَ منهم هوَ خيرٌ محضٌ؛ إذْ هوَ محضُ العَدْلِ والحكمةِ، وإنَّما يكونُ شرًّا بالنسبةِ إليهم، فالشرُّ وقعَ في تَعَلُّقِهِ بهم وقيامِهِ بهم لا في فعلِهِ القائمِ بهِ تعالى. ونحنُ لا نُنْكِرُ أنَّ الشرَّ يكونُ في مفعولاتِهِ المنفصلةِ؛ فإنَّهُ خالقُ الخيرِ والشرِّ، **ولكنْ هنا أمرانِ ينبغي**

(١) إعْلامُ المُوَقِّعِينَ (٣/ ١٨٦).

(٢) شِفاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٢٩).

أنْ يكُونَا منكَ على بالٍ:

أحدُهما: أنَّ ما هوَ شرٌّ أوْ متضمِّنٌ للشرِّ فإنَّهُ لا يكونُ إلاَّ مفعولاً مُنْفَصِلاً، لا يكونُ وصفاً لهُ ولا فعلاً منْ أفعالِهِ.

الثاني: أنَّ كونَهُ شرًّا هوَ أمرٌ نسبيٌّ إضافيٌّ، فهوَ خيرٌ منْ جهةِ تَعَلُّقِ فعلِ الربِّ وتكوينِهِ بهِ، وشرٌّ منْ جهةِ نسبَتِهِ إلى مَنْ هوَ شرٌّ في حقِّهِ. فلَهُ وجهانِ هوَ منْ أحدِهما خيرٌ، وهوَ الوجهُ الذي نُسِبَ منهُ إلى الخالقِ سُبحانَهُ وتعالى خلقاً وتكويناً، ومشيئَتُهُ لما فيهِ من الحكمةِ البالغةِ التي استأثرَ بعلْمِها وأطْلَعَ مَنْ شاءَ منْ خلقِهِ على ما شاءَ منها، وأكثرُ الناسِ تَضِيقُ عقولُهم عنْ مبادئِ معرِفَتِها فضلاً عنْ حقيقَتِها. فيكفيهم الإيمانُ المُجْمَلُ بأنَّ اللهَ سُبحانَهُ هوَ الغنيُّ الحميدُ، وفاعلُ الشرِّ لا يفعلُهُ لحاجَتِهِ المنافيَةِ لغِنَاهُ، أوْ لنقصِهِ وعيبِهِ المنافي لحمدِهِ، فيستحيلُ صدورُ الشرِّ من الغنيِّ الحميدِ فعلاً وإنْ كانَ هوَ الخالقَ للخيرِ والشرِّ.

فقدْ عرَفْتَ أنَّ كونَهُ شرًّا، هوَ أمرٌ إضافيٌّ وهوَ في نفسِهِ خيرٌ منْ جهةِ نِسْبَتِهِ إلى خالقِهِ ومُبدعِهِ.

فلا تغْفُلْ عنْ هذا الموضعِ؛ فإنَّهُ يفتحُ لكَ باباً عظيماً منْ معرفةِ الربِّ ومحبَّتِهِ، ويُزِيلُ عنكَ شُبُهَاتٍ حَارَتْ فيها عقولُ أكثرِ الفضلاءِ، وقدْ بسَطْتُ هذا في كتابِ "التحفةِ المكِّيَّةِ"، وكتابِ "الفتحِ القدسيِّ" وغيرِهما، وإذا أُشْكِلَ عليكَ هذا فأنا **أُوَضِّحُهُ لكَ بأمثلةٍ:**

أحدُها: أنَّ السارقَ إذا قُطِعَتْ يدُهُ فقَطْعُها شرٌّ بالنسبةِ إليهِ وخيرٌ محضٌ بالنسبةِ إلى عمومِ الناسِ؛ لما فيهِ منْ حفظِ أموالِهم ودفعِ الضررِ عنهم، وخيرٌ بالنسبةِ إلى مُتَوَلِّي القطعِ أمراً وحكماً لما في ذلكَ من الإحسانِ إلى عبيدِهِ عموماً بإتْلافِ هذا العضوِ المؤذي لهم المُضِرِّ بهم، فهوَ محمودٌ على حُكْمِهِ بذلكَ وأمرِهِ بهِ، مشكورٌ عليهِ، يَسْتَحِقُّ عليهِ الحمدَ منْ عبادِهِ والثناءَ عليهِ والمحبَّةَ.

- وكذلكَ الحكمُ بقتلِ مَنْ يصُولُ عليهم في دمائِهم وحُرُماتِهم وجلدِ مَنْ يصولُ عليهم في أعراضِهم، فإذا كانَ هذا عقوبةَ مَنْ يصولُ عليهم في دُنياهم، فكيفَ عقوبةُ مَنْ يصولُ على أدْيَانِهم ويَحُولُ بينَهم وبينَ الهُدَى الذي بعثَ اللهُ بهِ رسلَهُ وجعلَ سعادةَ العبادِ في معاشِهم ومعادِهم مَنُوطَةً بهِ. أفليسَ في عقوبةِ هذا الصائلِ خيرٌ محضٌ وحكمةٌ وعَدْلٌ وإحسانٌ إلى العبيدِ؟! وهيَ شرٌّ بالنسبةِ إلى الصائلِ الباغي.

فالشرُّ ما قامَ بهِ منْ ذلكَ العقوبةِ، وأمَّا ما نُسِبَ إلى الربِّ منها من المشيئةِ والإرادةِ والفعلِ فهوَ عينُ الخيرِ والحكمةِ.

فلا يغْلُظْ حجابُكَ عنْ فهمِ هذا النبأِ العظيمِ والسرِّ الذي يُطْلِعُكَ على مسألةِ القدرِ ويفتحُ لكَ الطريقَ إلى اللهِ ومعرفةِ حِكْمَتِهِ ورحمتِهِ وإحسانِهِ إلى خلقِهِ وأنَّهُ سُبحانَهُ كما أنَّهُ البرُّ الرحيمُ الودودُ المحسنُ فهوَ الحكيمُ الملكُ العَدْلُ، فلا تُنَاقِضُ حكمتُهُ رحمتَهُ، وكلاهُما مُقْتَضَى عزَّتِهِ وحكمتِهِ وهوَ العزيزُ الحكيمُ، فلا يليقُ بحكمَتِهِ أنْ يضَعَ رِضَاهُ ورحمتَهُ موضعَ العقوبةِ والغضبِ، ولا يضعَ غضبَهُ وعقوبتَهُ موضعَ رضاهُ ورحمتِهِ، ولا يلْتَفِتُ إلى قولِ مَنْ غلُظَ حجابُهُ عن اللهِ: أنَّ الأمرَيْنِ بالنسبةِ إليهِ على حدٍّ سواءٍ، ولا فَرْقَ أصلاً وإنَّما هوَ محضُ المشيئةِ بلا سببٍ ولا حكمةٍ.

وتأمَّلِ القرآنَ منْ أوَّلِهِ إلى آخرِهِ كيفَ تـجدُهُ كفيلاً بالردِّ على هذهِ المقالةِ، وإنكارِها أشدَّ الإنكارِ وتنْـزيهِ نفسِهِ عنها كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، وقولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١] وقولِهِ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨]، فأنكرَ سُبحانَهُ على

مَنْ ظنَّ هذا الظنَّ، ونـزَّهَ نفسَهُ عنهُ فدلَّ على أنَّهُ مُسْتَقِرٌّ في الفِطَرِ والعقولِ السليمةِ أنَّ هذا لا يكونُ ولا يليقُ بحكمتِهِ وعزَّتِهِ وإلهيَّتِهِ، لا إلهَ إلاَّ هوَ تعالى عمَّا يقولُ الجاهلونَ علُوًّا كبيراً.

وقدْ فطرَ اللهُ عقولَ عبادِهِ على استقباحِ وضعِ العقوبةِ والانتقامِ في موضعِ الرحمةِ والإحسانِ، ومكافأةِ الصنعِ الجميلِ بمثلِهِ وزيادةٍ.

فإذا وضعَ العقوبةَ موضعَ ذلكَ استنْكَرَتْهُ فِطَرُهُم وعقولُهم أشدَّ الاستنكارِ، واستهْجَنَتْهُ أعظمَ الاستهجانِ.

وكذلكَ وضعُ الإحسانِ والرحمةِ والإكرامِ في موضعِ العقوبةِ والانتقامِ، كما إذا جاءَ إلى مَنْ يُسِيءُ إلى العالمِ بأنواعِ الإساءةِ في كلِّ شيءٍ منْ أموالِهِم وحرِيمِهِم ودِمَائِهِم فأكرَمَهُ غايَةَ الإكرامِ ورفعَهُ وكَرَّمَهُ، فإنَّ الفِطَرَ والعقولَ تَأْبَى استحسانَ هذا وتَشْهَدُ على سَفَهِ مَنْ فعلَهُ، هذهِ فطرةُ اللهِ التي فطرَ الناسَ عليها، فما للعقولِ والفِطَرِ لا تشْهَدُ حكمتَهُ البالغةَ وعزَّتَهُ وعَدْلَهُ في وضعِ عقوبتِهِ في أَوْلَى المحالِّ بها وأحقِّها بالعقوبةِ، وأنَّها لوْ أُولِيَت النِّعَمَ لمْ تَحْسُنْ بها ولمْ تَلِقْ، وَلَظَهَرَتْ مُنَاقِضَةَ الحكمةِ كما قالَ الشاعرُ:

نعمةُ اللهِ لا تُـعَـابُ ولكِـنْ رُبَّـما اسْـتُـقْـبِـحَـتْ عـلى أقـوامِ

فهكذا نِعَمُ اللهِ لا تليقُ ولا تحسُنُ ولا تجمُلُ بأعدائِهِ الصادِّينَ عنْ سبيلِهِ، الساعينَ في خلافِ مرْضَاتِهِ، الذينَ يَرْضَوْنَ إذا غَضِبَ، ويغْضَبُونَ إذا رَضِيَ، ويُعَطِّلُونَ ما حكمَ بِهِ، ويسْعَوْنَ في أنْ تكونَ الدعوةُ لغيْرِهِ والحُكْمُ لغيْرِهِ والطاعةُ لغيْرِهِ، فهُمْ مُضَادُّونَ في كلِّ ما يُرِيدُ، يُحِبُّونَ ما يُبْغِضُهُ ويدْعُونَ إليهِ، ويُبْغِضُونَ ما يُحِبُّهُ ويَنْفِرُونَ عنهُ، ويُوَالُونَ أعداءَهُ وأبغضَ الخلقِ إليهِ، ويُظاهِرُونَهُم عليهِ وعلى رسولِهِ كما قالَ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾ [الفرقان: ٥٥]، وقالَ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ

رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف:٥٠]، فتأمَّلْ ما تحتَ هذا الخطابِ الذي يسْلُبُ الأرواحَ حلاوةً وعتاباً، وجلالةً وتهديداً، كيفَ صدَّرَهُ بإخبارِنا أنَّهُ أَمَرَ إبليسَ بالسجودِ لأَبينا فأَبَى ذلكَ،فطَرَدَهُ ولعَنَهُ وعادَاهُ منْ أجْلِ إبائِهِ عن السجودِ لأَبينا، ثمَّ أنتمْ تُوَالُونَهُ من دُونِي وقدْ لعَنْتُهُ وطرَدْتُهُ إذْ لمْ يسْجُدْ لأبيكم، وجعَلْتُهُ عدوًّا لكم ولأبيكم فوَالَيْتُمُوهُ وتركْتُمُونِي، أفليسَ هذا منْ أعظمِ الغَبْنِ وأشدِّ الحسرةِ عليكُم؟ ويومَ القيامةِ يقولُ تعالى: أَلَيْسَ عَدْلاً منِّي أنْ أُوَلِّيَ كلَّ رجلٍ منكم ما كانَ يتولَّى في دارِ الدُّنيا؟

فلَيَعْلَمَنَّ أولياءُ الشيطانِ كيفَ حالُهم يومَ القيامةِ إذا ذهَبُوا معَ أوليائِهِم وبَقِيَ أولياءُ الرحمنِ لمْ يذْهَبُوا معَ أحدٍ، فيتجَلَّى لهم ويقولُ: ألا تذهبونَ حيثُ ذهبَ الناسُ؟ فيقولونَ: فَارَقْنا الناسُ أحوجَ ما كُنَّا إليهم وإنَّما ننتَظِرُ ربَّنا الذي كُنَّا نتوَلاَّهُ ونعبدُهُ، فيقولُ: هلْ بينكُم وبينَهُ علامةٌ تعرفونَهُ بها؟ فيقولونَ: نَعَمْ، إنَّهُ لا مثلَ لهُ. فيتجلَّى لهم ويكْشِفُ عنْ ساقٍ، فيَخِرُّونَ لهُ سُجَّداً. فيَا قُرَّةَ عيونِ أوليائِهِ بتلكَ الموالاةِ، ويا فَرَحَهُمْ إذا ذهبَ الناسُ معَ أوليائِهِم، وبقُوا معَ مَوْلاهُم الحقِّ. فسيعْلَمُ المشركونَ بِهِ الصادُّونَ عنْ سبيلِهِ أنَّهُم ما كانُوا أولياءَهُ، إنْ أولياؤُهُ إلاَّ المُتَّقُونَ، ولكنَّ أكثرَهُم لا يعلمونَ.

ولا تَسْتَطِلْ هذا البساطَ فما أحوجَ القلوبَ إلى معرفتِهِ وتعقُّلِهِ ونُـزولِها منهُ منازِلَها في الدنيا لتَنْـزِلَ في جِوارِ ربِّها في الآخرةِ معَ الذينَ أنعمَ اللهُ عليهم من النبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشهداءِ والصالحينَ، وحَسُنَ أولئكَ رفيقاً.

إذا عرفَ هذا عرفَ معنى قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الحديثِ الصحيحِ: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»[١]، وأنَّ معناهُ أجلُّ

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُهُ ص ١٦٠.

وأعظمُ منْ قولِ مَنْ قالَ: والشرُّ لا يُتقَرَّبُ بِهِ إليكَ، وقولِ مَنْ قالَ: والشرُّ لا يصْعَدُ إليكَ. وأنَّ هذا الذي قالُوهُ وإنْ تضمَّنَ تنزيهَهُ عنْ صعودِ الشرِّ إليهِ والتقرُّبِ به إليهِ فلا يتضمَّنُ تنزيهَهُ في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ عن الشرِّ، بخلافِ لفظِ المعصومِ الصادقِ المُصَدَّقِ؛ فإنَّهُ يتضمَّنُ تنزيهَهُ في ذاتِهِ تباركَ وتعالى عنْ نسبةِ الشرِّ إليهِ بوجهٍ ما، لا في صفاتِهِ ولا في أفعالِهِ ولا في أسمائِهِ وإنْ دخلَ في مخلوقاتِهِ، كقولِهِ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ١-٢].

وتأمَّلْ طريقةَ القرآنِ في إضافةِ الشرِّ تارةً إلى **سَبَبِهِ ومَنْ قامَ بِهِ** كقولِهِ: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٥٤﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف:٥]، وقولِهِ: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [النساء: ١٦٠]، وقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٤٦] وقولِهِ: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦﴾ [الزخرف:٧٦]. وهوَ في القرآنِ أكثرُ منْ أنْ يُذْكَرَ ها هنا عُشْرُ مِعْشارِهِ، وإنَّما المقصودُ التمثيلُ.

وتارةً يَحْذِفُ فاعلَهُ كقولِهِ تعالى حكايَةً عنْ مُؤْمِني الجنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ۝١٠﴾ [الجن: ١٠]، فحذَفُوا فاعلَ الشرِّ ومُريدَهُ وصرَّحُوا بمُريدِ الرَّشَدِ. ونظيرُهُ في الفاتحةِ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٧]، فذكرَ النعمةَ مضافةً إليهِ سُبحانَهُ، والضلالَ منسوباً إلى مَنْ قامَ بِهِ، والغضبَ محذوفاً فاعلُهُ. ومثلُهُ قولُ الخَضِرِ في السفينةِ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وفي الغُلاميْنِ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

ومثلُهُ قولُهُ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، فنسبَ هذا التَّزْيينَ المحبوبَ إليهِ، وقالَ:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤]، فحذفَ الفاعلَ المُزَيِّنَ. ومثلُهُ قولُ الخليلِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء:٧٨-٨٢]، فنسبَ إلى ربِّهِ كلَّ كمالٍ منْ هذهِ الأفعالِ، ونسبَ إلى نفسِهِ النقصَ منها، وهوَ المرضُ والخطيئةُ.

وهذا كثيرٌ في القرآنِ ذكَرْنَا منهُ أمثلةً كثيرةً في كتابِ الفوائدِ المكِّيَّةِ وبيَّنَّا هناكَ السرَّ في مَجيءِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١٢١]، وَ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١٤٤]، والفرقُ بينَ الموضعَيْنِ، وأنَّهُ حيثُ ذكرَ الفاعلَ كانَ مَنْ آتاهُ الكتابَ واقعاً في سياقِ المدحِ، وحيثُ حذفَهُ كانَ مَنْ أُوتِيَهُ واقعاً في سياقِ الذمِّ أوْ مُنْقَسِماً، وذلكَ منْ أسرارِ القرآنِ. ومثلُهُ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، وقالَ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى:١٤]، وقولُهُ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وبالجملةِ فالَّذي يُضافُ إلى اللهِ تعالى كُلُّهُ خيرٌ وحكمةٌ ومصلحةٌ وعَدْلٌ، والشرُّ ليسَ إليهِ)[١]؛ (فإنَّ فِعْلَهُ سُبحانَهُ كُلَّهُ خيرٌ. وتعالى أنْ يفعلَ شرًّا بوجهٍ من الوجوهِ، فالشرُّ ليسَ إليهِ، والخيرُ هوَ الذي إليهِ، ولا يفعلُ إلاَّ خيراً، ولوْ شاءَ لفعلَ غيرَ ذلكَ، لكِنَّهُ تعالى تَنَـزَّهَ عنْ فعلِ ما لا ينبغي وإرادتِهِ ومشيئتِهِ، كما هوَ مُنَزَّهٌ عن الوصفِ بِهِ والتسميَةِ بِهِ).[٢]

(١) بَدَائِعُ الفوائِدِ (٢/ ٢١٠-٢١٥).

(٢) شِفَاءُ العَلِيلِ (١/ ٣٤٥).

[فَصْلٌ]

(قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

فصَدَّرَ الآيَةَ سُبحانَهُ بتفرُّدِهِ بالملكِ كُلِّهِ، وأنَّهُ هوَ سُبحانَهُ الذي يُؤْتِيهِ مَنْ يشاءُ لا غيرُهُ.

فالأوَّلُ: تفرُّدُهُ بالملكِ.

والثاني: تفرُّدُهُ بالتصرُّفِ فيهِ، وأنَّهُ سُبحانَهُ هوَ الذي يُعِزُّ مَنْ يشاءُ بما يشاءُ مِنْ أنواعِ العزِّ، ويُذِلُّ مَنْ يشاءُ بسَلْبِ ذلكَ العزِّ عنهُ، وأنَّ الخيرَ كُلَّهُ بيدَيْهِ لـيسَ لأَحـدٍ معَهُ منهُ شيءٌ.

ثمَّ ختمَها بقولِهِ: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾، فتناولَت الآيَةُ ملكَهُ وحدَهُ، وتصرُّفَهُ، وعمومَ قدرتِهِ، وتضمَّنَتْ أنَّ هذهِ التصرُّفاتِ كلَّها بيدِهِ، وأنَّها كلَّها خيرٌ، فسَلْبُهُ الملكَ عمَّنْ يشاءُ وإذلالُهُ مَنْ يشاءُ خيرٌ، وإنْ كانَ شرًّا بالنسبةِ إلى المسلوبِ الذليلِ، فإنَّ هذا التصرُّفَ دائرٌ بينَ العَدْلِ والفضلِ والحكمةِ والمصلحةِ لا يخْرُجُ عنْ ذلكَ. وهذا كلُّهُ خيرٌ يُحْمَدُ عليهِ الربُّ ويُثْنَى عليهِ بهِ كما يُحْمَدُ ويُثْنَى عليهِ بتنـزيهِهِ عن الشرِّ، وأنَّهُ ليسَ إليهِ، كما ثبتَ في صحيحِ مسلمٍ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يُثْني على رَبِّهِ بذلكَ في دعاءِ الاستفتاحِ في قولِهِ: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ**». (([فـ]الخيرُ كلُّهُ من اللهِ... و[هوَ] موجبُ أسمائِهِ وصفاتِهِ... والشرُّ لا يُضافُ إلى اللهِ إرادةً ولا محبَّةً ولا فعلاً ولا وصفاً ولا اسماً.

فإنَّهُ لا يريدُ إلاَّ الخيرَ، ولا يُحِبُّ إلاَّ الخيرَ، ولا يفعلُ الشرَّ ولا يُوصَفُ بِهِ، ولا يُسَمَّى باسمِهِ))[1]. فتباركَ وتعالى عنْ نسبةِ الشرِّ إليهِ، بلْ كلُّ ما نُسِبَ إليهِ فهوَ خيرٌ، والشرُّ إنَّما صارَ شرًّا لانقطاعِ نسبتِهِ وإضافتِهِ إليهِ؛ فلوْ أُضِيفَ إليهِ لمْ يكُنْ شرًّا كما [سبقَ] بيانُهُ.

وهوَ سُبحانَهُ خالقُ الخيرِ والشرِّ؛ فالشرُّ في بعضِ مخلوقاتِهِ، لا في خلقِهِ وفِعْلِهِ. وَخَلْقُهُ وفِعْلُهُ وقضاؤُهُ وقَدَرُهُ خيرٌ كلُّهُ.

((فإنَّ الربَّ سُبحانَهُ لا يفعلُ سُوءاً قطُّ، كما لا يُوصَفُ بِهِ ولا يُسَمَّى باسْمِهِ، بلْ فِعْلُهُ كلُّهُ حسَنٌ وخيرٌ وحكمةٌ، كما قالَ تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾، وقالَ أعرفُ الخلقِ بِهِ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»))[2].

ولهذا تَنَـزَّهَ سُبحانَهُ عن الظلمِ الذي حقيقَتُهُ وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعِهِ كما تقدَّمَ؛ فلا يَضَعُ الأشياءَ إلاَّ في مواضِعِها اللائقةِ بها، وذلكَ خيرٌ كلُّهُ، والشرُّ وضعُ الشيءِ في غيرِ محلِّهِ؛ فإذا وُضِعَ في محلِّهِ لمْ يكُنْ شرًّا.

فَعُلِمَ أنَّ الشرَّ ليسَ إليهِ، وأسماؤُهُ الحسنى تشهدُ بذلكَ، فإنَّ منها **القُدُّوسَ السلامَ العزيزَ الجبَّارَ المُتكبِّرَ**.

فالقُدُّوسُ: المُنَزَّهُ منْ كلِّ شرٍّ ونقصٍ وعيبٍ، كما قالَ أهلُ التفسيرِ: هوَ الطاهرُ منْ كلِّ عيبٍ، المُنَـزَّهُ عمَّا لا يليقُ بِهِ...

وكذلكَ **السَّلامُ**: فإنَّهُ الذي سَلِمَ من العيوبِ والنقائصِ. ووصْفُهُ بالسلامِ أبلغُ في ذلكَ منْ وصْفِهِ بالسالِمِ. ومنْ مُوجَباتِ وصْفِهِ بذلكَ سلامةُ خلقِهِ منْ ظلمِهِ لهم. فسَلِمَ سُبحانَهُ منْ إرادةِ الظلمِ والشرِّ، ومن التسميَةِ بِهِ، ومنْ فعلِهِ، ومنْ نسبتِهِ إليهِ. فهوَ السلامُ منْ صفاتِ النقصِ وأفعالِ النقصِ وأسماءِ النقصِ، المُسَلِّمُ لخلْقِهِ من الظلمِ ...

(١) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٣٦-٣٧).

(٢) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٤٢).

وكذلكَ **الكبيرُ** منْ أسمائِهِ **والمُتكبِّرُ**، قالَ قتادةُ وغيرُهُ: هوَ الذي تكبَّرَ عن السوءِ. وقالَ أيضاً: الذي تكبَّرَ عن السيِّئاتِ. وقالَ مُقاتلُ: المُتعاظِمُ عنْ كلِّ سوءٍ. وقالَ أبو إسحاقَ: الذي يَكْبُرُ عنْ ظلمِ عبادِهِ.

وكذلكَ اسمُهُ «**العزيزُ**» الذي لهُ العِزَّةُ التامَّةُ. ومنْ تمامِ عزَّتِهِ براءَتُهُ منْ كلِّ سوءٍ وشرٍّ وعيبٍ؛ فإنَّ ذلكَ ينافي العِزَّةَ التامَّةَ.

وكذلكَ اسمُهُ «العَلِيُّ» الذي عَلا عنْ كلِّ عيبٍ وسوءٍ ونقصٍ. ومنْ كمالِ علُوِّهِ أنْ لا يكونَ فوقَهُ شيءٌ، بلْ يكونَ فوقَ كلِّ شيءٍ.

وكذلكَ اسمُهُ «**الحميدُ**»، وهوَ الذي لهُ الحمدُ كلُّهُ. فكمالُ حَمْدِهِ يُوجِبُ أنْ لا يُنْسَبَ إليهِ شرٌّ ولا سوءٌ ولا نقصٌ، لا في أسمائِهِ ولا في أفعالِهِ ولا في صفاتِهِ.

فأسماؤُهُ الحسنى تمْنَعُ نسبةَ الشرِّ والسوءِ والظلمِ إليهِ، معَ أنَّهُ سُبحانَهُ الخالقُ لكلِّ شيءٍ؛ فهوَ الخالقُ للعبادِ وأفعالِهم وحركاتِهم وأقوالِهم. والعبدُ إذا فعلَ القبيحَ المنهيَّ عنهُ كانَ قدْ فعلَ الشرَّ والسوءَ، والربُّ سُبحانَهُ هوَ الذي جعلَهُ فاعلاً لذلكَ.

فهوَ سُبحانَهُ بهذا الجعلِ قدْ وضعَ الشيءَ موضعَهُ لما لهُ في ذلكَ من الحكمةِ البالغةِ التي يُحمدُ عليها. فهوَ خيرٌ وحكمةٌ ومصلحةٌ، وإنْ كانَ وقوعُهُ من العبدِ عيباً ونقصاً وشرًّا.

وهذا أمرٌ معقولٌ في الشاهدِ، فإنَّ الصانعَ الخبيرَ إذا أخذَ الخشبةَ العوجاءَ والحجرَ المكسورَ واللَّبِنةَ الناقصةَ فوضعَ ذلكَ في موضعٍ يليقُ بهِ ويُناسبُهُ كانَ ذلكَ منهُ عَدْلاً وصواباً يُمدحُ بهِ، وإنْ كانَ في المحلِّ عَوَجٌ ونقصٌ وعيبٌ يُذَمُّ بهِ المحلُّ.

ومَنْ وضَعَ الخبائثَ في موضِعِها ومحلِّها اللائقِ بها كانَ ذلكَ منهُ حكمةً وعَدْلاً وصواباً. وإنَّما السَّفَهُ والظلمُ أنْ يضَعَها في غيرِ موضِعِها. فمَنْ وضعَ

العِمامةَ على الرأسِ، والنعلَ في الرجلِ، والكُحلَ في العينِ، والزُّبالة في الكُناسةِ، فقدْ وضعَ الشيءَ موضِعهُ، ولمْ يظْلِم النعلَ والزُّبالةَ؛ إذْ هذا محلُّها.

ومِنْ أسمائِهِ سُبحانَهُ **العَدْلُ** و**الحكيمُ** الذي لا يضعُ الشيءَ إلاَّ في موضعِهِ. فهوَ المحسنُ الجَوادُ الحكيمُ العَدْلُ في كلِّ ما خلقَهُ، وفي كلِّ ما وضَعهُ في محلِّهِ وهيَّأَهُ لَهُ). (١)

[فَصْلٌ]

([وهوَ] - سُبحانَهُ - عَدْلٌ... غيرُ ظالمٍ لعبْدِهِ، بلْ لا يخرجُ... عنْ مُوجَبِ العَدْلِ والإحسانِ؛ فإنَّ الظلمَ سببُهُ حاجةُ الظالمِ، أوْ جهلُهُ، أوْ سفهُهُ، فيستحيلُ صدورُهُ ممَّنْ هوَ بكلِّ شيءٍ عليمٌ، ومَنْ هوَ غنيٌّ عنْ كلِّ شيءٍ، وكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليهِ، ومَنْ هوَ أحكمُ الحاكمينَ، فلا تخْرُجُ ذَرَّةٌ منْ مقْدُوراتِهِ عنْ حكمَتِهِ وحمْدِهِ، كما لمْ تخْرُجْ عنْ قُدرتِهِ ومشيئَتِهِ، فحكمَتُهُ نافذةٌ حيثُ نفَذَتْ مشيئَتُهُ وقدرتُهُ، ولهذا قالَ نبيُّ اللهِ هودٌ صلَّى اللهُ على نبيِّنا وعليهِ وسلَّمَ، وقدْ خوَّفَهُ قومُهُ بآلهتِهم: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ

---

(١) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٦٣-٦٧).

وقالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في طريقِ الهجرتينِ (٩٧): (وإنَّما يَتبَيَّنُ هذا ببيانِ وجودِ الحكمةِ في كلِّ ما خلقَهُ اللهُ وأمرَ به، وبيانِ أنه كلَّه خيرٌ مِن جهةِ إضافتِهِ إليه سبحانَهُ، وأنه من تلك الإضافةِ خيرٌ وحكمةٌ، وأنَّ جهةَ الشرِّ منه من جهةِ إضافتِهِ إلى العبدِ كما قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ في دعاءِ الاستفتاحِ: «لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ، والخيرُ في يَدَيْكَ والشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ» فهذا النفيُ يَقْتَضِي امتناعَ إضافةِ الشرِّ إليه تعالى بوجهٍ، فلا يُضافُ إلى ذاتِه ولا صفاتِهِ ولا أسمائِه ولا أفعالِه، فإنَّ ذاتَهُ تعالى مُنزَّهَةٌ عن كلِّ شرٍّ، وصفاتِهِ كذلك، إذ كُلُّها صِفاتُ كَمالٍ ونُعوتُ جلالٍ لا نَقْصَ فيها بوجهٍ من الوجوهِ، وأسماؤُه كُلُّها حُسْنَى ليس فيها اسمُ ذمٍّ ولا عيبٍ، وأفعالُه كُلُّها حكمةٌ ورَحمةٌ ومَصلحةٌ وإحسانٌ وعدلٌ لا تَخْرُجُ عن ذلك البتةَ، وهو المحمودُ على ذلك كلِّهِ، فيستحيلُ إضافةُ الشرِّ إليه).

بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ [هود: ٥٤-٥٦]؛ أيْ: معَ كونِهِ سُبحانَهُ آخِذاً بنواصي خلْقِهِ وتصرِيفِهم كما يشاءُ، فهوَ على صراطٍ مستقيمٍ لا يتصرَّفُ فيهم إلاَّ بالعَدْلِ والحكمةِ والإحسانِ والرحمةِ). (١)

(وهوَ سُبحانَهُ أحقُّ مَنْ كانَ على صراطٍ مستقيم؛ فإنَّ أقوالَهُ كلَّها صدقٌ ورَشَدٌ وهُدًى وعَدْلٌ وحكمةٌ، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]. وأفعالَهُ كلَّها مصالحُ وحكمٌ ورحمةٌ وعَدْلٌ وخيرٌ. فالشرُّ لا يدخلُ في أفعالِ مَنْ هوَ على الصراطِ المستقيمِ أوْ أقوالِهِ، وإنَّما يدخلُ في أفعالِ مَنْ خرجَ عنهُ وفي أقوالِهِ.

وفي دُعَائِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ»، ولا يُلْتَفَتُ إلى تفسيرِ مَنْ فسَّرَهُ بقولِهِ: والشرُّ لا يُتَقَرَّبُ بهِ إليكَ، أوْ لا يَصْعَدُ إليكَ؛ فإنَّ المعنى أَجَلُّ منْ ذلكَ وأكبرُ وأعظمُ قدراً؛ فإنَّ مَنْ أسماؤُهُ كلُّها حُسنى، وأوصافُهُ كلُّها كمالٌ، وأفعالُهُ كلُّها كمالٌ وأقوالُهُ كلُّها صدقٌ وعَدْلٌ، يستحيلُ دخولُ الشرِّ في أسمائِهِ أوْ أوصافِهِ أوْ أفعالِهِ أوْ أقوالِهِ.

فطابِقْ بينَ هذا المعنى وبينَ قوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٦٥]، وتأمَّلْ كيفَ ذكرَ هذا عَقِيبَ قولِهِ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٦٥]؛ أيْ: هوَ ربِّي، فلا يُسْلِمُنِي ولا يُضَيِّعُنِي، وهوَ ربُّكُم، فلا يُسَلِّطُكم عَلَيَّ ولا يُمَكِّنُكُم منِّي؛ فإنَّ نواصيكُم بيدِهِ، ولا تفعلونَ شيئاً بدُونِ مشيئتِهِ؛ فإنَّ ناصيةَ كلِّ دابَّةٍ بيدِهِ، لا يمكنُها أنْ تتحرَّكَ إلاَّ بإذْنِهِ، فهوَ المُتصرِّفُ فيها، ومعَ هذا، فهوَ في تصرُّفِهِ فيها وتحريكِهِ لها ونفوذِ قضائِهِ وقدرِهِ فيها: على صراطٍ مستقيم، لا يفعلُ ما يفعلُ منْ ذلكَ إلاَّ بحكمةٍ وعَدْلٍ ومصلحةٍ، ولوْ سَلَّطَكم عَلَيَّ فلَهُ من الحكمةِ في ذلكَ ما لهُ الحمدُ عليهِ؛ لأنَّهُ تسليطُ مَنْ هوَ على صراطٍ مستقيم، لا يظلمُ ولا يفعلُ شيئاً عبثاً بغيرِ حكمةٍ.

(١) زادُ المَعادِ (٤/ ٢٠٧).

فهكذا تكونُ المعرفةُ باللهِ، لا معرفةُ القدريَّةِ المجوسيَّةِ، والقدريَّةِ الجبْريَّةِ، نُفاةِ الحِكَمِ والمصالحِ والتعليلِ. واللهُ الموفِّقُ سُبحانَهُ). (١)

[فَصْلٌ]

[وممَّا ينبغي أنْ يُعْلَمَ] (أنَّهُ يمتنعُ إطلاقُ إرادةِ الشرِّ عليهِ وفعلِه، نفياً وإثباتاً لما في إطلاقِ لفظِ الإرادةِ والفعلِ منْ إيهامِ المعنى الباطلِ، ونفيِ المعنى الصحيحِ؛ **فإنَّ الإرادةَ تُطْلَقُ بمعنى المشيئةِ وبمعنى المحبَّةِ والرضا:**

فالأوَّلُ: كقولِهِ: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وقولِهِ: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقولِهِ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ [الإسراء: ١٦].

والثاني: كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، وقولِهِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فالإرادةُ بالمعنى الأوَّلِ تستلزمُ وقوعَ المرادِ، ولا تستلزمُ محبَّتَهُ والرضا بهِ.

وبالمعنى الثاني لا تستلزمُ وقوعَ المرادِ وتستلزمُ محبَّتَهُ؛ فإنَّها لا تنقسمُ، بلْ كلُّ ما أرادَهُ منْ أفعالِهِ فهوَ محبوبٌ مرضيٌّ لهُ. ففرقٌ بينَ إرادةِ أفعالِهِ وإرادةِ مفعولاتِهِ.

فإنَّ أفعالَهُ خيرٌ كلُّها، وعَدْلٌ ومصلحةٌ وحكمةٌ لا شرَّ فيها بوجهٍ من الوجوهِ. وأمَّا مفعولاتُهُ فهيَ موردُ الانقسامِ.

وهذا إنَّما يتحقَّقُ على قولِ أهلِ السُّنَّةِ: إنَّ الفعلَ غيرُ المفعولِ، والخلقَ غيرُ المخلوقِ، كما هوَ الموافقُ للعقولِ والفِطَرِ، واللُّغَةِ، ودلالةِ القرآنِ، والحديثِ، وإجماعِ أهلِ السُّنَّةِ، كما حَكَاهُ البغويُّ في شرحِ السُّنَّةِ عنهم.

---

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٤٤-٤٥).

وعلى هذا فها هنا إرادتانِ ومُرَادَانِ:

- إرادةُ: أنْ يفعلَ، ومُرَادُها: فعلُهُ القائمُ بهِ.

- وإرادةُ: أنْ يفعلَ عبدُهُ، ومرادُها: مفعولُهُ المنفصلُ عنهُ.

ولَيْسَا بمُتلازمَيْنِ؛ فقدْ يُريدُ منْ عبدِهِ أنْ يفعلَ، ولا يُريدُ منْ نفسِهِ إعانتَهُ على الفعلِ وتوفيقَهُ لهُ وصرفَ موانِعِهِ عنهُ.

كما أرادَ منْ إبليسَ أنْ يسجدَ لآدمَ ولمْ يُرِدْ منْ نفسِهِ أنْ يُعينَهُ على السجودِ ويُوفِّقَهُ لهُ ويُثبِّتَ قلْبَهُ عليهِ ويصْرِفَهُ إليهِ. ولوْ أرادَ ذلكَ منهُ لسجدَ لهُ لا محالةَ.

وقولُهُ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾ [البروج: ١٦] إخبارٌ عنْ إرادَتِهِ لفعلِهِ، لا لأفعالِ عبيدِهِ. وهذا الفعلُ والإرادةُ لا ينقسمُ إلى خيرٍ وشرٍّ كما تقدَّمَ.

وعلى هذا فإذا قيلَ: هوَ مُريدٌ للشَّرِّ، أَوْهَمَ أنَّهُ مُحِبٌّ لهُ راضٍ بهِ، وإذا قيلَ: إنَّهُ لمْ يُرِدْهُ؛ أَوْهَمَ أنَّهُ لمْ يخْلُقْهُ ولا كوَّنَهُ، وكِلاهُما باطلٌ.

ولذلكَ إذا قيلَ: إنَّ الشرَّ فعلُهُ، أوْ إنَّهُ يفعلُ الشرَّ، أوْهَمَ أنَّ الشرَّ فعلُهُ القائمُ بهِ، وهذا مُحالٌ. وإذا قيلَ: لمْ يفْعَلْهُ أوْ ليسَ بفعلٍ لهُ، أوْهَمَ أنَّهُ لمْ يخْلُقْهُ ولمْ يُكوِّنْهُ، وهذا مُحالٌ. فانظرْ ما في إطلاقِ هذهِ الألفاظِ في النفيِ والإثباتِ من الحقِّ والباطلِ الذي يتبيَّنُ بالاستقصاءِ والتفصيلِ.

وإنَّ الصوابَ في هذا البابِ ما دلَّ عليهِ القرآنُ والسُّنَّةُ منْ أنَّ الشرَّ لا يُضافُ إلى الربِّ تعالى لا وصفاً ولا فعلاً، ولا يتسَمَّى باسمِهِ بوجهٍ من الوجوهِ، وإنَّما يدخلُ في مفعولاتِهِ بطريقِ العمومِ، كقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢﴾ [الفلق: ١-٢] فـ(مَا) ها هنا موصولةٌ أوْ مصدريَّةٌ، والمصدرُ بمعنى المفعولِ؛ أيْ: منْ شرِّ الذي خلقَهُ، أوْ منْ شرِّ مخلوقِهِ. وقدْ يُحذفُ فاعلُهُ كقولِهِ حكايَةً عنْ مُؤمِني الجنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ١٠﴾ [الجن: ١٠].

وقدْ يُسْنَدُ إلى محلِّهِ القائمِ بهِ كقولِ إبراهيمَ الخليلِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٠]، وقولِ الخَضِرِ: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وقال في بُلوغِ الغُلامَيْنِ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

وقدْ جمعَ الأنواعَ الثلاثةَ في الفاتحةِ في قولِهِ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٧].

واللهُ تعالى إنَّما نَسَبَ إلى نفسِهِ الخيرَ دونَ الشرِّ فقالَ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

وأخطأَ مَنْ قالَ: المعنى بيدِكَ الخيرُ والشرُّ، لثلاثةِ أوجهٍ:

أحدُها: أنَّهُ ليسَ في اللفظِ ما يدُلُّ على إرادةِ هذا المحذوفِ. بلْ تركَ ذكرَهُ قصداً أوْ بياناً أنَّهُ ليسَ بمرادٍ.

الثاني: أنَّ الذي بيدِ اللهِ تعالى نوعانِ؛ فضلٌ وعَدْلٌ، كما في الحديثِ الصحيحِ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «**يَمِينُ اللهِ مَلأَى لا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ الْخَلْقَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَى الْقِسْطُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ**»[1].

فالفضلُ لإحدَى اليدَيْنِ والعَدْلُ للأُخْرَى، وكلاهُما خيرٌ لا شرَّ فيهِ بوجهٍ.

الثالثُ: أنَّ قولَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «**لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»، كالتفسيرِ للآيةِ. ففرقٌ بينَ الخيرِ والشرِّ، وجَعْلِ أحدِهما في يدَي الربِّ سُبحانَهُ، وقطْعِ إضافةِ الآخرِ إليهِ معَ إثباتِ عمومِ خلقِهِ

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٥٩.

لكلِّ شيءٍ).[١]

(١) شِفاءُ العَلِيل (٢/ ٢٦٠-٢٦٢).

وقال -رَحِمَهُ اللهُ تعالَى- في القصيدةِ النُّونيَّة (١٣٥-١٣٧) في مَعْرِضِ بيانِ أدلةِ عُلوِّ اللهِ تعالَى على مخلوقاتِه:

هَذَا وثَامِنُ عَشْرِهَا تَنْزِيهُهُ ... سُبْحَانَهُ عَنْ مُوجِبِ النُّقْصَانِ
وَعَنِ الْعُيُوبِ وَمُوجَبِ التَّمْثِيلِ وَالتَّـ ... ـشْبِيهِ جَلَّ اللهُ ذُو السُّلطانِ
وَلِذَاكَ نَزَّهَ نَفْسَهُ سُبْحَانَهُ ... عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ ثَانِ
أَوْ أَنْ يَكُونَ لَهُ ظَهِيرٌ فِي الْوَرَى ... سُبْحَانَهُ عَنْ إِفْكِ ذِي بُهْتَانِ
أَوْ أَنْ يُوَالِيَ خَلْقَهُ سُبْحَانَهُ ... مِنْ حَاجَةٍ أَوْ ذِلَّةٍ وَهَوَانِ
أَوْ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ أَصْلاً شَافِعٌ ... إلاَّ بِإِذْنِ الْوَاحِدِ المَنَّانِ
وَكَذَاكَ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ وَالِدٍ ... وَكَذَاكَ عَنْ وَلَدٍ هُمَا نَسَبَانِ
وَكَذَاكَ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ زَوْجَةٍ ... وَكَذَاكَ عَنْ كَفٍّ يَكُونُ مُداني
وَلَقَدْ أَتَى التَّنْزِيهُ عَمَّا لَمْ يَقُلْ ... كَيْ لا يَدُورَ بِخَاطِرِ الإِنْسَانِ
فَانْظُرْ إِلَى التَّنْزِيهِ عَنْ طُعْمٍ وَلَمْ ... يُنْسَبْ إِلَيْهِ قَطُّ مِنْ إِنْسَانِ
وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ مَوْتٍ وَعَنْ ... نَوْمٍ وَعَنْ سِنَةٍ وَعَنْ غَشَيَانِ
وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ نِسيَانِهِ ... وَالرَّبُّ لَمْ يُنْسَبْ إِلَى نِسْيَانِ
وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ ظُلْمٍ وَفِي الْـ ... أَفْعَالِ عَنْ عَبَثٍ وَعَنْ بُطْلانِ
وَكَذَلِكَ التَّنْزِيهُ عَنْ تَعَبٍ وَعَنْ ... عَجْزٍ يُنَافِي قُدْرَةَ الرَّحْمَنِ
وَلَقَدْ حَكَى الرَّحْمَنُ قَوْلاً قَالَهُ ... فِنْحَاصُ ذُو الْبُهْتَانِ وَالْكُفْرَانِ
إِنَّ الإِلَهَ هُوَ الْفَقِيرُ وَنَحْنُ أَصْـ ... ـحَابُ الْغِنَى ذُو الوَجْدِ وَالإِمْكَانِ
وَلِذَاكَ أَضْحَى رَبُّنَا مُسْتَقْرِضًا ... أَمْوَالَنَا سُبْحَانَ ذِي الإِحْسَانِ
وَحَكَى مَقَالَةَ قَائِلٍ مِنْ قَوْمِهِ ... أَنَّ الْعُزَيْرَ ابْنٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
هَذَا وَمَا الْقَوْلانِ قَطُّ مَقَالَةٌ ... مَنْصُورَةٌ فِي مَوْضِعٍ وزَمَانِ
لَكِنْ مَقَالَةُ كَوْنِهِ فَوْقَ الْوَرَى ... وَالْعَرْشِ وَهْوَ مُبَايِنُ الأَكْوَانِ
قَدْ طَبَّقَتْ شَرْقَ الْبِلادِ وَغَرْبَهَا ... وَغَدَتْ مُقَرَّرَةً لِذِي الأَذْهَانِ
فَلأَيِّ شَيْءٍ لَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ ... سُبْحَانَهُ فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ
عَنْ ذِي الْمَقَالَةِ مَعْ تَفَاقُمِ أَمْرِهَا ... وَظُهُورِهَا فِي سَائِرِ الأَدْيَانِ
بَلْ دَائِمًا يُبْدِي لَنَا إِثْبَاتَهَا ... وَيُعِيدُهُ بِأَدِلَّةِ التِّبْيَانِ

البابُ الرابعُ عشرَ: في بَيَانِ أنَّ أسماءَ اللّهِ الحُسْنَى وصفاته العُلَى مِنْ مُوجِبَاتِ حَمْدِهِ ومقْتَضِياتِ مَحَبَّتِهِ

(الحمدُ أوسعُ الصِّفَاتِ وأعمُّ المدائحِ، والطُّرُقُ إلى العلمِ بهِ في غايَةِ الكثرةِ، والسبيلُ إلى اعتبارِهِ في ذَرَّاتِ العالمِ وجزْئِيَّاتِهِ وتفاصيلِ الأمرِ والنهيِ واسعةٌ جدًّا؛ لأنَّ جميعَ أسمائِهِ تباركَ وتعالى حمدٌ، وصفاتِهِ حمدٌ، وأفعالَهُ حمدٌ، وأحكامَهُ حمدٌ، وعَدْلَهُ حمدٌ، وانتقامَهُ منْ أعدائِهِ حمدٌ، وفضلَهُ في إحسانِهِ إلى أوليائِهِ حمدٌ، والخلقُ والأمرُ إنَّما قامَ بحمْدِهِ ووُجِدَ بحمدِهِ، وظهرَ بحمْدِهِ، وكانَ الغايَةُ هيَ حَمْدَهُ، فحمْدُهُ سببُ ذلكَ وغايَتُهُ ومظهَرُهُ وحامِلُهُ، فحَمْدُهُ رُوحُ كلِّ شيءٍ، وقيامُ كلِّ شيءٍ بحمْدِهِ. وسَرَيَانُ حَمْدِهِ في الموجوداتِ، وظهورُ آثارِهِ فيهِ أمرٌ مشهودٌ بالأبصارِ والبصائرِ.

فمن الطُّرُقِ الدالَّةِ على شمولِ معنى الحمدِ وانبساطِهِ على جميعِ المعلوماتِ **معرفةُ أسمائِهِ وصفاتِهِ**، وإقرارُ العبدِ بأنَّ للعالَمِ إلهاً حيًّا جامعاً لكلِّ صفةِ كمالٍ، واسمٍ حَسَنٍ، وثناءٍ جميلٍ، وفعلٍ كريمٍ، وأَنَّهُ سُبحانَهُ لهُ القدرةُ التامَّةُ، والمشيئةُ النافذةُ، والعلمُ المحيطُ، والسمعُ الذي وَسِعَ الأصواتَ، والبصرُ الذي أحاطَ بجميعِ المُبْصَرَاتِ، والرحمةُ التي وَسِعَتْ جميعَ المخلوقاتِ، والمُلْكُ الأعلى الذي لا يخرجُ عنهُ ذرَّةٌ من الذرَّاتِ، والغِنَى التامُّ المُطْلَقُ منْ جميعِ الجهاتِ، والحكمةُ البالغةُ المشهودُ آثارُها في الكائناتِ، والعِزَّةُ الغالبةُ

بجميعِ الوجوهِ والاعتباراتِ، والكلماتُ التامَّاتُ النافذاتُ التي لا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ ولا فاجرٌ منْ جميعِ البَرِيَّاتِ، واحدٌ لا شريكَ لهُ في رُبُوبيَّتِهِ ولا في إلهيَّتِهِ، ولا شبيهَ لهُ في ذاتِهِ ولا في صفاتِهِ ولا في أفعالِهِ، وليسَ لهُ مَنْ يَشْرَكُهُ في ذرَّةٍ منْ ذرَّاتِ مُلكِهِ، أوْ يَخْلُفُهُ في تدبيرِ خلقِهِ، أوْ يحجُبُهُ عنْ دَاعِيهِ ومُؤَمِّلِيهِ وسائليهِ، أوْ يتوَسَّطُ بينَهُمْ وبينَهُ بتَلْبيسٍ أوْ فِرْيَةٍ أوْ كَذِبٍ، كما يكونُ بينَ الرَّعَايَا وبينَ الملوكِ، ولوْ كانَ كذلكَ لفسدَ نظامُ الوجودِ وفسدَ العالمُ بأَسْرِهِ ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فلوْ كانَ معهُ آلهةٌ أُخْرَى كما يقولُ أعداؤُهُ المُبْطِلُونَ لوقعَ من النقصِ في التدبيرِ وفسادِ الأمرِ كُلِّهِ ما لا يثْبُتُ معهُ حالٌ، ولا يصلحُ عليهِ وجودٌ.

ومنْ أعظمِ نِعَمِهِ علينا، وما استوجبَ حمدَ عبادِهِ لهُ أنْ جعلَنَا عبيداً لهُ خاصَّةً، ولمْ يَجْعَلْنَا ربُّنا مُنْقَسِمِينَ بينَ شركاءَ مُتَشَاكِسِينَ، ولمْ يجْعَلْنَا عبيداً لإلَهٍ نَحَتَتْهُ الأفكارُ، لا يسمعُ أصواتَنا، ولا يُبصِرُ أفعالَنا، ولا يعْلَمُ أحوالَنا، ولا يملِكُ لعابدِيهِ ضرًّا ولا نفعاً ولا مَوْتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ولا تكلَّمَ قطُّ ولا يتكَلَّمُ ولا يأْمُرُ ولا ينهى ولا تُرْفَعُ إليهِ الأيدِي، ولا تعْرُجُ الملائكةُ والروحُ إليهِ، ولا يَصْعَدُ إليهِ الكلمُ الطيِّبُ، ولا يُرْفَعُ إليهِ العملُ الصالحُ، وأنَّهُ ليسَ داخلَ العالمِ ولا خارجَهُ ولا فوقَهُ، ولا عنْ يمينِهِ ولا عنْ يسارِهِ، ولا خلفَهُ ولا أمامَهُ، ولا مُتَّصِلاً بِهِ ولا منفصلاً عنهُ، ولا مُحاذياً لهُ ولا مُبايناً، ولا هوَ مُسْتَوٍ على عرشِهِ ولا هوَ فوقَ عبادِهِ، وحظُّ العرشِ منهُ حظُّ الحشوشِ والأخليَةِ، ولا تَنْـزِلُ الملائكةُ منْ عندِهِ بلْ لا ينـزِلُ منْ عندِهِ شيءٌ، ولا يصعدُ إليهِ شيءٌ، ولا يَقْرُبُ منهُ شيءٌ، ولا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ، ولا يَلْتَذُّ المؤمنونَ بالنظرِ إلى وجهِهِ الكريمِ في دارِ الثوابِ، بلْ ليسَ لهُ وجهٌ يُرى ولا لهُ يدٌ يقبضُ بها السماواتِ وأُخْرَى يَقْبِضُ بها الأرضَ، ولا لَهُ فعلٌ يقومُ بِهِ ولا حكمةٌ تقومُ بهِ، ولا كَلَّمَ موسى تكليماً، ولا تجلَّى للجبلِ فجعَلَهُ دكًّا هشيماً، ولا يجيءُ يومَ القيامةِ لفصلِ

القضاءِ، ولا ينـزلُ كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدُّنيا فيقولُ: لا أَسْأَلُ عنْ عبادِي غيْرِي. ولا يفرحُ بتوبةِ عبدِهِ إذا تابَ إليهِ. ويجوزُ في حكمتِهِ تعذيبُ أنبيائِهِ ورُسُلِهِ وملائكتِهِ وأهلِ طاعتِهِ أجمعينَ منْ أهلِ السَّماوَاتِ والأَرَضينَ، وتنعيمُ أعدائِهِ من الكُفَّارِ بهِ والمحاربينَ لهُ والمكذِّبينَ لهُ ولرُسُلِهِ، والكلُّ بالنسبةِ إليهِ سَواءٌ، ولا فَرْقَ البتَّةَ إلاَّ أنَّهُ أخبرَ أنَّهُ لا يفعلُ ذلكَ، فامتنعَ للخبرِ بأنَّهُ لا يفعَلُهُ، لا لأنَّهُ في نفسِهِ منافٍ لحكمَتِهِ، ومعَ ذلكَ فرِضَاهُ عينُ غضَبِهِ، وغضَبُهُ عينُ رِضَاهُ، ومحبَّتُهُ كراهَتُهُ، وكراهَتُهُ محبَّتُهُ، إنْ هيَ إلاَّ إرادةٌ محضةٌ ومشيئةٌ صِرْفَةٌ يشاءُ بها لا لحكمةٍ ولا لغايَةٍ ولا لأجلِ مصلحةٍ، ومعَ ذلكَ يُعَذِّبُ عبادَهُ على ما لمْ يعلَمُوهُ ولا قُدْرَةَ لهم عليهِ، بلْ يعذِّبُهم على نفسِ فعلِهِ الذي فعَلَهُ هوَ ونسبَهُ إليهم، ويُعَذِّبُهم إذا لمْ يفْعَلُوا فعْلَهُ ويلُومُهم عليهِ، يجُوزُ في حكمَتِهِ أنْ يُعَذِّبَ رجالاً إذْ لمْ يكُونُوا نساءً، ونساءً حيثُ لمْ يكُونُوا رجالاً، وطِوالاً حيثُ لمْ يكُونُوا قِصَاراً، وبالعكسِ، وسُوداً إذْ لمْ يكونوا بيضاً وبالعكسِ، بلْ تعذيبُهُ لهم على مخالفَتِهِ هوَ منْ هذا الجنسِ؛ إذْ لا قدرةَ لهم البتَّةَ على فعلِ ما أُمِرُوا بهِ ولا تركِ ما نُهُوا عنهُ.

فلَهُ الحمدُ والمنَّةُ والثناءُ الحسنُ الجميلُ؛ إذْ لمْ يجْعَلْنَا عبيداً لمَنْ هذا شأْنُهُ فنكونَ مُضَيَّعِينَ ليسَ لنا ربٌّ نقصِدُهُ، ولا صَمَدٌ نتوجَّهُ إليهِ ونعبُدُهُ، ولا إلهٌ نُعَوِّلُ عليهِ، ولا ربٌّ نرجعُ إليهِ، بلْ قلوبُنا تنادي في طُرُقِ الحَيْرَةِ: مَنْ دَلَّنا وجمعَ علَيْنا ربًّا ضائعاً لا هوَ داخلَ العالَمِ ولا خارجَهُ، ولا مُبَايِنٌ لهُ ولا مُحَاذٍ لهُ، ولا مُتَّصِلٌ بهِ ولا منفصِلٌ عنهُ، ولا نـزَلَ منْ عندِهِ شيءٌ، ولا يصعدُ إليهِ شيءٌ، ولا كلَّمَ أحداً، ولا يُكَلِّمُهُ أحدٌ، ولا ينبغي لأحدٍ أنْ يذْكُرَ صفاتِهِ ولا يعرفُهُ بها، بلْ يذْكُرُها بلسانِهِ فلا يتكلَّمُ بها، وبقَلْبِهِ فلا يعقِلُها، وينبغي أنْ يُعاقَبَ بالقتلِ أو الضربِ والحبسِ مَنْ ذكَرَها، أوْ أخبرَ عنهُ بها، أوْ أثبتَها لهُ، أوْ نسَبَها إليهِ، أوْ عَرَفَهُ بها، بل التوحيدُ الصِّرْفُ جحدُها، وتعطيلُهُ عنها، ونفيُ قيامِها بهِ، واتِّصَافِهِ بها. وما لمْ تُدْرِكْهُ عقولُنا منْ ذلكَ فالواجبُ نَفْيُهُ وجحدُهُ، وتكفيرُ

مَنْ أثبَتَهُ واستحلالُ دمِهِ ومالِهِ، أوْ تبديعُهُ وتضليلُهُ وتفسيقُهُ. وكُلَّما كانَ النفيُ أبلغَ كانَ التوحيدُ أتمَّ، فليسَ كذا وليسَ كذا أبلغَ في التوحيدِ منْ قولِنا: هوَ كذا وهوَ كذا.

فاللهُ العظيمُ أعظمَ حمدٍ وأتمَّهُ وأكمَلَهُ على ما مَنَّ بِهِ منْ معرفتِهِ وتوحيدِهِ، والإقرارِ بصفاتِهِ العُلَى وأسمائِهِ الحسنى، لإقرارِ قلُوبنا بأنَّهُ اللهُ الذي لا إلهَ إلاَّ هوَ، عالمُ الغيبِ والشهادةِ ربُّ العالمينَ، قيُّومُ السَّماوَاتِ والأرَضينَ، إلهُ الأوَّلينَ والآخرينَ، ولا يزالُ موصوفاً بصفاتِ الجلالِ، منعوتاً بنعوتِ الكمالِ، مُنَـزَّهاً عنْ أضدادِها من النقائصِ والتشبيهِ والمثالِ.

فهوَ **الحيُّ القيُّومُ** الذي لكمالِ حياتِهِ وقيُّوميَّتِهِ لا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ.

مالكُ السَّماوَاتِ والأرضِ الذي لكمالِ ملكِهِ لا يشفعُ عندَهُ أحدٌ إلاَّ بإذنِهِ.

العالمُ بكلِّ شيءٍ الذي لكمالِ علمِهِ يعلمُ ما بينَ أيدي الخلائقِ وما خلفَهُم؛ فلا تسقطُ ورقةٌ إلاَّ بعلمِهِ، ولا تتحرَّكُ ذرَّةٌ إلاَّ بإذنِهِ، يعلمُ دبيبَ الخواطرِ في القلوبِ حيثُ لا يطَّلِعُ عليها المَلَكُ، ويعلمُ ما سيكونُ منها حيثُ لا يَطَّلِعُ عليهِ القلبُ.

البصيرُ الذي لكمالِ بصَرِهِ يرى تفاصيلَ خلقِ الذَّرَّةِ الصغيرةِ وأعضائِها ولحمِها ودمِها ومُخِّها وعروقِها، ويرَى دبيبَها على الصخرةِ الصمَّاءِ في الليلةِ الظلماءِ، ويرى ما تحتَ الأرَضينَ السبعِ كما يرى ما فوقَ السماواتِ السبعِ.

السميعُ الذي قد استوى في سمْعِهِ سِرُّ القولِ وجهرُهُ، وَسِعَ سمعُهُ الأصواتَ؛ فلا تختلفُ عليهِ أصواتُ الخلقِ، ولا تشتبهُ عليهِ، ولا يشغَلُهُ منها سمعٌ عنْ سمعٍ، ولا تُغْلِطُهُ المسائلُ، ولا يُبْرِمُهُ كثرةُ السائلينَ. قالَتْ عائشةُ: «**الحمدُ للهِ الذي وَسِعَ سمعُهُ الأصواتَ، لقَدْ جاءَت المُجادِلَةُ تشكو إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ، وإنَّهُ ليَخْفَى عَلَيَّ بعضُ كلامِها، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ:**

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١]».[1]

القديرُ الذي لكمالِ قدرتِهِ يهدي مَنْ يشاءُ ويُضِلُّ مَنْ يشاءُ، ويجعلُ المؤمنَ مؤمناً، والكافرَ كافراً، والبَرَّ بَرًّا، والفاجرَ فاجراً، وهوَ الذي جعلَ إبراهيمَ وآلَهُ أئِمَّةً يدْعُونَ إليهِ ويهْدُونَ بأمْرِهِ، وجعلَ فِرعونَ وقومَهُ أئمَّةً يدْعُونَ إلى النارِ، ولكمالِ قُدْرتِهِ لا يحيطُ أحدٌ بشيءٍ منْ علمِهِ إلاَّ بما شاءَ سُبحانَهُ أنْ يُعَلِّمَهُ إيَّاهُ، ولكمالِ قدرتِهِ خلقَ السماواتِ والأرضَ وما بينَهُما في ستَّةِ أيَّام وما مَسَّهُ منْ لُغُوبٍ، ولا يُعْجِزُهُ أحدٌ منْ خلقِهِ، ولا يفُوتُهُ، بلْ هوَ في قبضَتِهِ أينَ كانَ، فإنْ فرَّ منهُ فإنَّما يطْوِي المراحلَ في يدَيْهِ كما قيلَ:

**وكيفَ يفِرُّ المـرءُ عنكَ بذنْبِهِ		إذا كانَ يطْـوِي في يدَيْـكَ المَرَاحِـلا**

ولكمالِ غنَاهُ استحالَ إضافةُ الولدِ والصاحبةِ والشريكِ والظهيرِ والشفيعِ بدُونِ إذنِهِ إليهِ. **ولكمالِ عظمَتِهِ وعلُوِّهِ** وَسِعَ كرسِيُّهُ السماواتِ والأرضَ، ولَمْ تَسَعْهُ أرضُهُ ولا سماوَاتُهُ ولمْ تُحِطْ بِهِ مخلوقاتُهُ، بلْ هوَ **العالي** على كلِّ شيءٍ، وهوَ **بكلِّ شيءٍ مُحِيطٌ**.

ولا تَنْفَدُ كلماتُهُ ولا تُبَدَّلُ، ولوْ أنَّ البحرَ يمُدُّهُ منْ بعدِهِ سبعةُ أبحرٍ مداداً، وأشجارُ الأرضِ أقلاماً، فكُتِبَ بذلكَ المدادُ وبتلكَ الأقلام، لنفِدَ المدادُ وفَنِيَت الأقلامُ، ولمْ تنفَدْ كلماتُهُ إذْ هيَ غيرُ مخلوقةٍ، ويستحيلُ أنْ يَفْنَى غيرُ المخلوقِ بالمخلوقِ. ولوْ كانَ كلامُهُ مخلوقاً - كما قالَهُ مَنْ لمْ يَقْدِرْهُ حقَّ قدْرِهِ ولا أثنى عليهِ بما هوَ أهلُهُ- لكانَ أحقَّ بالفناءِ منْ هذا المدادِ وهذهِ الأقلامِ؛ لأنَّهُ إذا كانَ مخلوقاً فهوَ نوعٌ منْ أنواعِ مخلوقاتِهِ، ولا يحتملُ المخلوقُ إفناءَ هذا المدادِ وهذهِ الأقلامِ. وهوَ **باقٍ** غيرُ فانٍ.

---

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٨٦.

وهوَ سُبحانَهُ يُحِبُّ رسلَهُ وعبادَهُ المؤمنينَ ويحبُّونَهُ، بلْ لا شيءَ أحبُّ إليهم منهُ، ولا أشْوَقُ إليهم منْ لقائِهِ، ولا أقرُّ لعُيُونِهِم منْ رؤيَتِهِ ولا أحْظَى عندَهُم منْ قُرْبِهِ.

وأنَّهُ سُبحانَهُ لهُ الحكمةُ البالغةُ في خلقِهِ وأمرِهِ، ولَهُ النعمةُ السابغةُ على خلقِهِ، وكلُّ نعمةٍ منهُ فضلٌ، وكلُّ نقمةٍ منهُ عَدْلٌ، وأنَّهُ أرحمُ بعبادِهِ من الوالدةِ بولدِها، وأنَّهُ أفرحُ بتوبَةِ عبدِهِ منْ واجدِ راحلَتِهِ التي عليها طعامُهُ وشرابُهُ في الأرضِ المُهْلِكَةِ بعدَ فقدِها واليأسِ منها، وأنَّهُ سُبحانَهُ لمْ يُكَلِّفْ عبادَهُ إلاَّ وُسْعَهم وهوَ دُونَ طاقتِهم، فقدْ يُطِيقُونَ الشيءَ ويَضيقُ عليهم، بخلافِ وُسْعِهم فإنَّهُ ما يَسَعُونَهُ ويَسْهُلُ عليهم ويَفْضُلُ قدْرُهم عنهُ كما هوَ الواقعُ، وأنَّهُ سُبحانَهُ لا يُعاقبُ أحداً بغيرِ فعلِهِ ولا يُعاقِبُهُ على فعلِ غيرِهِ، ولا يُعَاقِبُهُ بتركِ ما لا يقْدِرُ على فعلِهِ، ولا على ما لا قُدْرَةَ لهُ على تركِهِ، وأنَّهُ سُبحانَهُ **حكيمٌ كريمٌ جَوادٌ ماجدٌ مُحسنٌ ودودٌ صبورٌ شكورٌ يُطاعُ فيَشْكُرُ، ويُعصَى فيَغْفِرُ**، لا أحدَ أصبرُ على أذًى سمِعَهُ منهُ. ولا أحبُّ إليهِ المدحُ منهُ، ولا أحبُّ إليهِ العذرُ منهُ، ولا أحدَ أحبُّ إليهِ الإحسانُ منهُ، فهوَ مُحسِنٌ يحبُّ المحسنينَ، شكورٌ يحبُّ الشاكرينَ، جميلٌ يحبُّ الجمالَ، طيِّبٌ يحبُّ كلَّ طيِّبٍ، نظيفٌ يحبُّ النظافةَ، عليمٌ يحبُّ العلماءَ منْ عبادِهِ، كريمٌ يحبُّ الكرماءَ، قَوِيٌّ والمؤمنُ القويُّ أحبُّ إليهِ من المؤمنِ الضعيفِ، بَرٌّ يحبُّ الأبرارَ، عَدْلٌ يحبُّ أهلَ العَدْلِ، حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يحبُّ أهلَ الحياءِ والسترِ، عَفُوٌّ غفورٌ يحبُّ مَنْ يعفو عنْ عبادِهِ ويغفرُ لهم، صادقٌ يحبُّ الصادقينَ، رفيقٌ يحبُّ الرفقَ، جَوادٌ يحبُّ الجودَ وأهلَهُ، رحيمٌ يحبُّ الرُّحَماءَ، وِتْرٌ يحبُّ الوِترَ.

((ولمَّا جمعَ اللهُ سُبحانَهُ صفاتِ الكمالِ كُلَّها كانَ أحقَّ بالمدحِ منْ كلِّ أحدٍ، ولا يبلغُ أحدٌ أنْ يمدَحَهُ كما ينبغي لهُ، بلْ هوَ كما مدحَ نفسَهُ وأثنى على نفسِهِ)).[1]

---

(١) الداءُ والدواءُ (١٢٩-١٣٠).

و[هُوَ] يحبُّ أسماءَهُ وصفاتِهِ، ويحبُّ المتعبِّدينَ لهُ بها، ويحبُّ مَنْ يسألُهُ بها ويدْعُوهُ بها، ويحبُّ مَنْ يَعْرِفُها ويعْقِلُها ويُثْني عليهِ بها ويحمدُهُ ويمدَحُهُ بها، كما في الصحيح عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «لا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ، وَلا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ». [(١)] وفي حديثٍ آخرَ صحيح: «لا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ، يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَداً وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ». [(٢)]

ولمحبَّتِهِ لأسمائِهِ وصفاتِهِ أمرَ عبادَهُ بمُوجَبِها ومُقْتَضَاهَا، فأمَرَهُم بالعَدْلِ والإحسانِ والبِرِّ والعفوِ والجُودِ والصبرِ والمغفرةِ والرحمةِ والصدقِ والعلمِ والشكرِ والحِلْمِ والأناةِ والتَّثَبُّتِ.

ولَمَّا كانَ سُبحانَهُ يُحِبُّ أسماءَهُ وصفاتِهِ كانَ أحبَّ الخلقِ إليهِ مَن اتَّصَفَ بالصِّفَاتِ التي يحبُّها، وأبغضَهم إليهِ مَن اتَّصفَ بالصِّفَاتِ التي يكرَهُها، فإنَّما أبغضَ مَن اتَّصَفَ بالكِبْرِ والعظمةِ والجبروتِ؛ لأنَّ اتِّصَافَهُ بها ظلمٌ؛ إذْ لا تليقُ بِهِ هذهِ الصِّفَاتُ ولا تحْسُنُ منهُ، لِمُنَافَاتِها لصفاتِ العبيدِ، وخروجِ مَن اتَّصفَ بها مِنْ رِبْقَةِ العبوديَّةِ، ومُفَارَقَتِهِ لمنصِبِهِ ومرتبَتِهِ، وتعدِّيهِ طَوْرَهُ وحَدَّهُ، وهذا

---

(١) رَواهُ مُسلِمٌ في كتابِ التوبةِ / بابُ غَيْرَةِ اللهِ تعالَى وتحريم الفَواحِشِ (٦٩٢٦) من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه بلفظٍ مُقارِبٍ، وروى البُخَارِيُّ بعضَهُ في كتابِ التفسيرِ / بابُ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ (٤٦٣٤).

ورُوِيَ الحديثُ مِن طَرِيقِ وَرَّادٍ كَاتِبِ الْمُغِيرَةِ عنِ الْمُغيرةِ مَرفوعًا عندَ البُخَارِيِّ في كتابِ التوحيدِ / بابُ قَوْلِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: «لَا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ» (٧٤١٦)، ومُسلمٍ في أواخِرِ كِتابِ اللِّعَانِ (٣٧٤٣).

(٢) رواه البُخَارِيُّ في كتابِ التوحيدِ / بابُ قولِ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ (٧٣٧٨) ومُسْلِمٌ في كتابِ صِفاتِ الْمُنافِقِينَ / بابُ «لا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ» (٧٠١١).

بخلافِ ما تقدَّمَ من الصِّفَاتِ كالعلم والعَدْلِ والرحمةِ والإحسانِ والصبرِ والشكرِ؛ فإنَّها لا تُنافِي العبودِيَّةَ، بل اتِّصافُ العبدِ بها منْ كمالِ عبوديَّتِهِ؛ إذ المُتَّصِفُ بها من العبيدِ لمْ يَتَعَدَّ طورَهُ ولمْ يخْرُجْ بها منْ دائرةِ العبوديَّةِ.

والمقصودُ أنَّهُ سُبحانَهُ لكمالِ أسمائِهِ وصفاتِهِ موصوفٌ بكلِّ صفةِ كمالٍ، مُنَزَّهٌ عنْ كلِّ نقصٍ، لهُ كلُّ ثناءٍ حَسَنٍ ولا يصْدُرُ عنهُ إلاَّ كلُّ فعلٍ جميلٍ، ولا يُسَمَّى إلاَّ بأحسنِ الأسماءِ، ولا يُثْنَى عليهِ إلاَّ بأكملِ الثناءِ، وهوَ المحمودُ المحبوبُ المعظَّمُ ذُو الجلالِ والإكرامِ على كلِّ ما قدَّرَهُ وخلَقَهُ، وعلى كلِّ ما أمرَ بهِ وشرَعَهُ.

ومَنْ كانَ لهُ نصيبٌ منْ معرفةِ أسمائِهِ الحسنى، واستقرَّ[1] آثارُها في الخلقِ والأمرِ، رأى الخلقَ والأمرَ مُنْتَظِمَيْنِ بها أكملَ انتظامٍ، ورأى سَرَيانَ آثارِها فيهما، وعَلِمَ - بحسَبِ معرفتِهِ بها - ما يليقُ بكمالِهِ وجلالِهِ أنْ يفعَلَهُ وما لا يليقُ، فاستدلَّ بأسمائِهِ على ما يفعَلُهُ وما لا يفعلُهُ؛ فإنَّهُ لا يفعلُ خلافَ مُوجَبِ حمدِهِ وحكمتِهِ، وكذلكَ يعلمُ ما يليقُ بِهِ أنْ يأمرَ بهِ ويُشَرِّعَهُ ممَّا لا يليقُ بهِ، فيعلمُ أنَّهُ لا يأمرُ بخلافِ مُوجَبِ حمدِهِ وحكمتِهِ. فإذا رأى بعضَ الأحكامِ جَوراً وظلماً أوْ سفهاً وعبثاً ومفسدةً أوْ ما لا يُوجِبُ حمداً وثناءً فلْيَعْلَمْ أنَّهُ ليسَ منْ أحكامِهِ ولا دينِهِ، وأنَّهُ بريءٌ منهُ ورسولَهُ؛ فإنَّهُ إنَّما أمرَ بالعَدْلِ لا بالظلمِ، وبالمصلحةِ لا بالمفسدةِ، وبالحكمةِ لا بالعبثِ والسَّفَهِ، وإنَّما بعثَ رسولَهُ بالحنيفِيَّةِ السَّمْحةِ لا بالغِلْظَةِ والشدَّةِ، وبعثَهُ بالرحمةِ لا بالقسوةِ؛ فإنَّهُ أرحمُ الراحمينَ، ورسولُهُ رحمةٌ مهداةٌ إلى العالمينَ، ودينُهُ كُلُّهُ رحمةٌ، وهوَ نبيُّ الرحمةِ، وأُمَّتُهُ الأُمَّةُ المرحومةُ، وذلكَ كلُّهُ مُوجَبُ أسمائِهِ الحسنى وصفاتِهِ العُلْيَا وأفعالِهِ الحميدةِ، فلا يُخْبَرُ عنهُ إلاَّ بحمدِهِ، ولا يُثْنَى عليهِ إلاَّ بأحسنِ الثناءِ كما لا يُسَمَّى إلاَّ بأحسنِ الأسماءِ.

(١) هكذا في الأصلِ: ولعلَّ الصوابَ: استقرأ، كما نبه لذلك د. عبد الله المنصور.

وقدْ نَبَّهَ سُبحانَهُ على شمولِ حمدِهِ لخلقِهِ وأمرِهِ بأنْ حَمِدَ نفسَهُ في أوَّلِ الخلقِ وآخرِهِ وعندَ الأمرِ والشرعِ، وحَمِدَ نفسَهُ على ربوبيَّتِهِ للعالمينَ، وحَمِدَ نفسَهُ على تفرُّدِهِ بالإلهيَّةِ، وعلى حياتِهِ، وحَمِدَ نفسَهُ على امتناعِ اتِّصافِهِ بما لا يليقُ بكمالِهِ من اتِّخاذِ الولدِ والشريكِ وموالاةِ أحدٍ منْ خلقِهِ لحاجَتِهِ إليهِ، وحَمِدَ نفسَهُ على عُلُوِّهِ وكبريائِهِ، وحَمِدَ نفسَهُ في الأُولى والآخرةِ، وأخبرَ عنْ سَرَيَانِ حَمْدِهِ في العالمِ العلويِّ والسفليِّ.

ونبَّهَ على هذا كلِّهِ في كتابِهِ وحَمِدَ نفسَهُ عليهِ، فتنوَّعَ[1] حمدُهُ وأسبابُ حمدِهِ، وجَمَعَها تارةً وفرَّقَها أُخْرَى؛ ليتعرَّفَ إلى عبادِهِ ويُعرِّفَهُم كيفَ يحمدونهُ وكيفَ يُثْنُونَ عليهِ، وليتحبَّبَ إليهم بذلكَ ويُحِبَّهُم إذا عرَفُوهُ وأحبُّوهُ وحَمِدُوهُ.

قالَ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٢-٤] وقالَ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١] وقالَ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الكهف: ١-٢] وقالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾ [سبأ: ١] وقالَ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [فاطر: ١] وقالَ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾ [القصص: ٧٠] وقالَ: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٥﴾ [غافر: ٦٥] وقالَ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾ [الروم: ١٧-١٨].

---

(١) هكذا في الأصلِ، ولعَلَّ الصَّوابَ: فَنوَّعَ.

وأخبرَ عنْ حَمْدِ خلقِهِ لهُ بعدَ فصْلِهِ بينَهم، والحكمِ لأهلِ طاعتِهِ بثوابِهِ وكرامَتِهِ، والحكمِ لأهلِ معصيتِهِ بعقابِهِ وإهانتِهِ: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٥].

وأخبرَ عنْ حمْدِ أهلِ الجنَّةِ لهُ وأنَّهم لمْ يَدْخُلُوها إلاَّ بحمدِهِ، كما أنَّ أهلَ النارِ لمْ يدخلوها إلاَّ بحمدِهِ، فقالَ أهلُ الجنَّةِ: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣] وَ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠]، وقالَ عنْ أهلِ النارِ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص:٧٤-٧٥] وقالَ: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١١]، وشهِدُوا على أنفسِهم بالكفرِ والظلمِ وعلِمُوا أنَّهم كانوا كاذبينَ في الدنيا، مُكَذِّبِينَ بآياتِ ربِّهم، مُشركينَ بهِ، جاحدينَ لإلهيَّتِهِ، مُفْتَرِينَ عليهِ، وهذا اعترافٌ منهم بعَدْلِهِ فيهم، وأخذِهم ببعضِ حقِّهِ عليهم، وأنَّهُ غيرُ ظالمٍ لهم وأنَّهم إنَّما دخلُوا النارَ بعَدْلِهِ وحمدِهِ، وإنَّما عُوقِبُوا بأفعالِهم وبما كانُوا قادرينَ على فعلِهِ وتركِهِ، لا كما تقولُ الجَبْرِيَّةُ.

وتفصيلُ هذهِ الحكمةِ ممَّا لا سبيلَ للعقولِ البشريَّةِ إلى الإحاطةِ بهِ ولا إلى التعبيرِ عنهُ، ولكنْ بالجملةِ فكلُّ صفةٍ عُلْيَا واسمٍ حَسَنٍ وثناءٍ جميلٍ، وكلُّ حمدٍ ومدحٍ وتسبيحٍ وتنـزيهٍ وتقديسٍ وجلالٍ وإكرامٍ فهوَ للهِ عزَّ وجلَّ على أكملِ الوجوهِ وأتمِّها وأدْوَمِها، وجميعُ ما يُوصفُ بِهِ ويُذْكَرُ بِهِ ويُخْبَرُ عنهُ بِهِ فهوَ محامدُ لهُ وثناءٌ وتسبيحٌ وتقديسٌ، فسُبحانَهُ وبحمدِهِ لا يُحْصِي أحدٌ منْ خلقِهِ ثناءً عليهِ، بلْ هوَ كما أثْنَى على نفسِهِ وفوقَ ما يُثْنِي بِهِ عليهِ خلقُهُ، فلهُ الحمدُ أوَّلاً وآخِراً حمداً كثيراً طيِّباً مُباركاً فيهِ، كما ينبغي لكرمِ وجهِهِ وعزِّ جلالِهِ ورفيعِ مجدِهِ وعلوِّ جَدِّهِ.

فهذا تنبيهٌ على أحدِ نوعَيْ حمدِهِ، وهوَ **حمدُ الصِّفَاتِ والأسماءِ**.

والنوعُ الثاني: **حمدُ النِّعَمِ والآلاءِ**، وهذا مشهودٌ للخليقةِ؛ بَرِّها وفاجرِها مُؤمنِها وكافرِها منْ جزيلِ مواهبِهِ، وسَعَةِ عطاياهُ، وكريمِ أياديهِ، وجميلِ صنائعِهِ، وحسنِ معاملتِهِ لعبادِهِ، وسَعَةِ رحمَتِهِ لهم، وبرِّهِ ولُطْفِهِ وحنانِهِ، وإجابَتِهِ لدعواتِ المضْطَرِّينَ، وكشفِ كُرُباتِ المكْرُوبينَ، وإغاثةِ الملهوفينَ، ورحمَتِهِ للعالمينَ، وابتدائِهِ بالنِّعَمِ قبلَ السؤالِ ومِنْ غيرِ استحقاقٍ، بل ابتداءً منهُ بمُجرَّدِ فضلِهِ وكرمِهِ وإحسانِهِ، ودفعِ المِحَنِ والبلايا بعدَ انعقادِ أسبابِها وصرْفِها بعدَ وقوعِها، ولطفِهِ تعالى في ذلكَ بإيصالِهِ إلى مَنْ أرادَهُ بأحسنِ الألطافِ، وتبليغِهِ منْ ذلكَ إلى ما لا تَبْلُغُهُ الآمالُ، وهدايتِهِ خاصَّتَهُ وعبادَهُ إلى سُبُلِ دارِ السلامِ، ومدافعتِهِ عنهم أحسنَ الدفاعِ، وحمايتِهم عنْ مراتعِ الآثامِ، وَحَبَّبَ إليهم الإيمانَ وزيَّنَهُ في قلوبِهم، وكرَّهَ إليهم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ وجعَلَهُم من الراشدينَ وكتبَ في قلوبِهم الإيمانَ، وأيَّدَهُم بروحٍ منهُ، وسمَّاهُم المسلمينَ قبلَ أنْ يخلُقَهم، وذكَرَهُم قبلَ أنْ يذْكُرُوهُ، وأعطاهُم قبلَ أنْ يسْأَلُوهُ، وتحبَّبَ إليهم بنِعَمِهِ معَ غِناهُ عنهم وتبَغُّضِهِم إليهِ بالمعاصي وفقْرِهِم إليهِ، ومعَ هذا كُلِّهِ فاتَّخَذَ لهم داراً وأعدَّ لهم فيها منْ كلِّ ما تشتهيهِ الأنفسُ وتلَذُّ الأعينُ، ومَلأَها منْ جميعِ الخيراتِ وأوْدَعَها من النعيمِ والحَبْرَةِ والسرورِ والبهجةِ ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بشرٍ، ثُمَّ أرسلَ إليهم الرسلَ يدْعُونَهُم إليها، ثُمَّ يَسَّرَ لهم الأسبابَ التي تُوصِلُهم إليها، وأعانَهُم عليها، ورَضِيَ منهم باليسيرِ في هذهِ المُدَّةِ القصيرةِ جدًّا بالإضافةِ إلى بقاءِ دارِ النعيمِ، وضَمِنَ لهم إنْ أحسَنُوا أنْ يُثيبَهُم بالحسنةِ عشراً وإنْ أسَاءُوا واستغفرُوهُ أنْ يغفرَ لهم، ووعدَهُم أنْ يمْحُوَ ما جَنَوْهُ من السيِّئاتِ بما يفعلُونَهُ بعدَها من الحسناتِ، وذكَّرَهُم بآلائِهِ وتعرَّفَ إليهم بأسمائِهِ، وأمرَهُم بما أمَرَهُم بِهِ رحمةً منهُ بهم وإحساناً، لا حاجةً منهُ إليهم، ونهَاهُم عمَّا نهَاهُم عنهُ حمايَةً وصيانةً لهم،

لا بُخْلاً منهُ عليهم، وخاطَبَهُم بألطفِ الخطابِ وأحْلاهُ، ونصَحَهُم بأحسنِ النصائحِ، ووصَّاهم بأكملِ الوصايا، وأمرَهُم بأشرفِ الخصالِ، ونهاهُم عنْ أقبحِ الأقوالِ والأعمالِ، وصرَّف لهم الآياتِ، وضربَ لهم الأمثالَ، ووسَّعَ لهم طُرُقَ العلمِ بهِ ومعرفتِهِ، وفتحَ لهمْ أبوابَ الهدايَةِ وعرَّفهم الأسبابَ التي تُدْنِيهم منْ رِضَاهُ وتُبْعِدُهُم عنْ غضبِهِ، ويُخاطِبُهم بألطفِ الخطابِ ويُسَمِّيهم بأحسنِ أسمائِهِم كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [المائدة:١]، ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور:٣١]، ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر:٥٣]، ﴿قُل لِّعِبَادِىَ﴾ [إبراهيم: ٣١]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ [البقرة:١٨٦]، فيُخاطبُهم بخطابِ الوِدَادِ والمحبَّةِ والتلطُّفِ كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر:٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ [فاطر:٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار:٦-٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ١١٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ

بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٤-٢٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٣-٧٤]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

فتَحْتَ هذا الخطابِ: إنِّي عادَيْتُ إبليسَ وطردْتُه منْ سمائِي وباعدْتُهُ من قُرْبِي؛ إذْ لمْ يسجُدْ لأبيكم آدمَ، ثُمَّ أنتم يا بَنِيهِ تُوالُونَهُ وذُرِّيَّتَهُ منْ دُونِي وهمْ أعداءٌ لكم. فَلْيَتأَمَّلِ اللبيبُ مواقعَ هذا الخطابِ وشدَّةَ لُصُوقِهِ بالقلوبِ والتباسِهِ بالأرواحِ.

وأكثرُ القرآنِ جاءَ على هذا النمطِ منْ خطابِهِ لعبادِهِ بالتودُّدِ والتَّحَنُّنِ واللُّطْفِ والنصيحةِ البالغةِ، وأعلَمَ سُبحانَهُ عبادَهُ أنَّهُ لا يرْضَى لهم إلاَّ أكرمَ الوسائلِ، وأفضلَ المنازلِ، وأجلَّ العلومِ والمعارفِ، قالَ تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقالَ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقالَ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقالَ:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٦-٢٨].

ويتنَصَّلُ سُبحانَهُ إلى عبادِهِ منْ مواضعِ الظِّنَّةِ والتُّهَمةِ التي نسبَها إليهِ مَنْ لمْ يعرِفْهُ حقَّ معرفتِهِ، ولا قَدَرَهُ حقَّ قدْرِهِ، مِنْ تكليفِ عبادِهِ ما لا يَقْدِرُونَ عليهِ ولا طاقةَ لهم بفعلِهِ البتَّةَ، وتعذيبِهم أنْ شَكَرُوهُ وآمنوا بهِ، وخلقَ السَّماوَاتِ والأرضَ وما بينَهما لا لحكمةٍ ولا لغايةٍ، وأنَّهُ لمْ يخْلُقْ خلقَهُ لحاجةٍ منهُ إليهم، ولا ليتكثَّرَ بهم منْ قِلَّةٍ، ولا ليتعزَّزَ بهم، كما قالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧]، فأخبرَ أنَّهُ لمْ يخْلُق الجنَّ والإنسَ لحاجةٍ منهُ إليهم، ولا ليَرْبَحَ عليهم، لكنْ خلقَهُم جُوداً وإحساناً ليَعْبُدُوهُ فيَرْبَحُوا هُمْ عليهِ كلَّ الأرباحِ، كقولِهِ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الروم: ٤٤].

ولَمَّا أمرَهُم بالوضوءِ وبالغسلِ من الجنابةِ الذي يَحُطُّ عنهم أوزارَهُم ويدخلونَ بهِ عليهِ ويرفعُ بِهِ درجاتِهِم قالَ تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة:٦]، وقالَ في الأضاحِيِّ والهدايا: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحجّ: ٣٧]، وقالَ عَقيبَ أمْرِهم بالصدقةِ ونهيِهم عنْ إخراجِ الرديءِ من المالِ: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧]، يقولُ سُبحانَهُ: إنِّي غنيٌّ عمَّا تُنْفِقُونَ أنْ ينالَنِي منهُ شيءٌ، حميدٌ مُسْتَحِقُّ المحامدِ

كلِّها، فإنفاقُكم لا يسدُّ منهُ حاجةً، ولا يُوجِبُ لهُ حمداً، بلْ هوَ الغنيُّ بنفسِهِ الحميدُ بنفسِهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ، وإنفاقُكم إنَّما نفْعُهُ لكُم وعائدتُهُ عليكم.

ومِن المُتَعيِّنِ على مَنْ لمْ يُباشِرْ قلبَهُ حلاوةُ هذا الخطابِ وجلالتُهُ ولطفُ موقعِهِ، وجذبُهُ للقلوبِ والأرواحِ ومخالطتُهُ لها أنْ يُعالِجَ قلبَهُ بالتقوى، وأنْ يَسْتَفرِغَ منهُ الموادَّ الفاسدةَ التي حالَتْ بينَهُ وبينَ حظِّهِ منْ ذلكَ، ويتعرَّضَ إلى الأسبابِ التي ينالُهُ بها، منْ صدقِ الرغبةِ واللُّجأِ إلى اللهِ أنْ يُحيِيَ قلبَهُ ويُزكِّيَهُ ويجعلَ فيهِ الإيمانَ والحكمةَ، فالقلبُ الميِّتُ لا يذوقُ طعمَ الإيمانِ ولا يَجِدُ حلاوتَهُ، ولا يتمتَّعُ بالحياةِ الطيِّبةِ لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ.

ومَنْ أرادَ مُطالعةَ أصولِ النِّعَمِ فليَسُمْ سرحَ الذكرِ في رياضِ القرآنِ، وليتأمَّلْ ما عدَّدَ اللهُ فيهِ منْ نعمِهِ وتعرَّفَ بها إلى عبادِهِ منْ أوَّلِ القرآنِ إلى آخرِهِ حينَ خلقَ أهلَ النارِ وابتلاهم بإبليسَ وحِزْبِهِ وتسليطِ أعدائِهم عليهم وامتحانِهم بالشهواتِ والإراداتِ والهوى لتَعْظُمَ النعمةُ عليهم بمُخالفتِها وبمُحاربتِها أعداءَ اللهِ على أوليائِهِ وعبادِهِ أتمَّ نعمةٍ وأكملَها في كلِّ ما خلقَهُ منْ محبوبٍ ومكروهٍ، ونعمةٍ ومحنةٍ، وفي كلِّ ما أحدَثَهُ في الأرضِ منْ وقائعِهِ بأعدائِهِ، وإكرامِهِ لأوليائِهِ، وفي كلِّ ما قضاهُ وقدَّرَهُ، وتفصيلُ ذلكَ لا تَفِي بهِ أقلامُ الدنيا وأوراقُها ولا قُوَى العبادِ، وإنَّما هوَ التنبيهُ والإشارةُ.

ومَن اسْتَقْرَأَ الأسماءَ الحسنى وجدَها مدائحَ وثناءً تَقْصُرُ بلاغاتُ الواصفينَ عنْ بلوغِ كُنْهِهَا، وتَعْجِزُ الأوهامُ عن الإحاطةِ بالواحدِ منها، ومعَ ذلكَ فللهِ سُبحانَهُ محامدُ ومدائحُ وأنواعٌ من الثناءِ لمْ تتحرَّكْ بها الخواطرُ، ولا هَجَسَتْ في الضمائرِ، ولا لاحَتْ لمُتَوَسِّمٍ، ولا سَنَحَتْ في الفكرِ. ففي دعاءِ أعرفِ الخلقِ بربِّهِ تعالى وأعلَمِهم بأسمائِهِ وصفاتِهِ ومحامدِهِ: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ

الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجِلاءَ حَزَنِي وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي»[١]، وفي (الصحيح) عنهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ في حديثِ الشفاعةِ لَمَّا يسجدُ بينَ يديْ ربِّهِ قالَ: «فَيَفْتَحُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ بِشَيْءٍ لا أُحْسِنُهُ الآنَ»[٢]، وكانَ يقولُ في سجودِهِ: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِعَفْوِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[٣]، فلا يُحْصِي أحدٌ مِنْ خلقِهِ ثناءً عليهِ البتَّةَ، ولهُ أسماءٌ وأوصافٌ وحمدٌ وثناءٌ لا يعلمُهُ ملَكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرسَلٌ، ونسبةُ ما يعلمُ العبادُ منْ ذلكَ إلى ما لا يعلمونهُ كنقرةِ عُصْفُورٍ في بحرٍ).[٤]

(وهذا القرآنُ المجيدُ عُمْدَتُهُ ومقصودُهُ الإخبارُ عنْ صفاتِ الربِّ سُبحانَهُ وأسمائِهِ وأفعالِهِ وأنواعِ حمدِهِ والثناءِ عليهِ والإنباءِ عنْ عظمَتِهِ وعزَّتِهِ وحكمتِهِ وأنواعِ صنعِهِ والتقدُّمِ إلى عبادِهِ بأمرِهِ ونهيِهِ على ألسنةِ رسُلِهِ، وتصديقِهِم بما أقامَهُ من الشـواهدِ والدلالاتِ على صدْقِهِم وبراهينِ ذلكَ ودلائلِهِ وتبْيِينِ مُرادِهِ منْ ذلكَ كلِّهِ... وأنَّ أسماءَهُ تعالى الحسنى وصفاتِهِ العُلْيا هيَ موضعُ الحمدِ).[٥]

---

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ١١١.

(٢) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٩٣٤٠)، والبُخَارِيُّ في كتابِ التفسيرِ / باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ (٤٧١٢)، ومسلمٌ في كتابِ الإيمانِ / بابُ حديثِ الشفاعةِ (٤٧٩)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ صفةِ القيامةِ / بابُ ما جاءَ في الشفاعةِ (٢٤٣٤) من طريقِ أبي حَيَّانَ التيميِّ، عن أبي زُرْعَةَ بن عمرِو بنِ جَرِيرٍ، عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه، ولَفظُهم: «وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي». وَفي روايةِ البُخَارِيِّ والتِّرْمِذِيِّ: «ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ» بدلَ: «يُلْهِمُنِي».

(٣) سَبَقَ تَخْرِيجُه ١٣٣.

(٤) طَرِيقُ الهِجْرَتَيْنِ (١٢٩-١٤٠).

(٥) طَرِيقُ الهِجْرَتَيْنِ (١٤٨).

([وأنَّ] لهُ الملكَ التامَّ الذي لا يخرجُ عنهُ شيءٌ من الموجوداتِ؛ أعيانِها وأفعالِها، والحمدُ التامُّ الذي وَسِعَ كلَّ معلومٍ وشَمِلَ كلَّ مقدورٍ، و... لهُ تعالى في كلِّ ما خلقَهُ وشرعَهُ حكمةٌ بالغةٌ ونعمةٌ سابغةٌ لأجلِها خلَقَ وأمَرَ، ويَسْتَحِقُّ أنْ يُثْنَى عليهِ ويُحْمَدَ لأجلِها، كما يُثنَى عليهِ ويُحمدُ لأسمائِهِ الحسنى ولصفاتِهِ العُلْيَا، فهوَ المحمودُ على ذلكَ كلِّهِ أتمَّ حمدٍ وأكملَهُ؛ لِمَا اشتمَلَتْ عليهِ صفاتُهُ من الكمالِ، وأسماؤُهُ من الحُسْنِ، وأفعالُهُ من الحِكَمِ والغاياتِ المُقْتَضِيَةِ لحمدِهِ المطابقةِ لحكمِهِ والموافقةِ لمحابِّهِ؛ فإنَّهُ سُبحانَهُ كاملُ الذاتِ كاملُ الأسماءِ والصِّفَاتِ لا يصدُرُ عنهُ إلاَّ كلُّ فعلٍ كريمٍ مطابقٍ للحكمةِ مُوجِبٍ للحمدِ يترتَّبُ عليهِ منْ محابِّهِ ما فُعِلَ لأجلِهِ).(١)

---

(١) طَرِيقُ الهِجْرَتَيْنِ (١٥٦).

مُلحَقٌ: وقالَ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَى- في طَرِيقِ الهِجرتَينِ (٣٢٤-٣٢٥): (مِنَ المَعْلُومِ أَنَّهُ لا أَحَدَ أَعْظَمُ إحسانًا منه سبحانَهُ وتَعالَى، ولا شيءَ أَكْمَلُ منه ولا أَجْمَلُ، فكُلُّ كَمالٍ وجمالٍ في المخلوقِ مِن آثارِ صُنْعِهِ سُبحانَهُ وتَعالَى، وهو الذي لا يُحَدُّ كَمالُهُ، ولا يُوصَفُ جَلالُه وجَمالُه، ولا يُحصِي أحدٌ مِن خَلْقِه ثَناءً عليه بجَمِيلِ صفاتِه وعَظِيمِ إحسانِه وبَدِيعِ أفعالِه، بل هو كما أَثْنَى على نفسِه، وإذا كانَ الكمالُ محبوبًا لذاتِهِ ونَفْسِه وَجَبَ أن يكونَ اللهُ سُبحانَهُ هو المحبوبَ لذاتِهِ وصِفاتِهِ، إذ لا شيءَ أَكْمَلُ منه).

وقال -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في طريقِ الهجرتينِ (١١٩): (والمقصودُ أنَّ الربَّ تَعالَى أَسْماؤُهُ كُلُّها حُسْنَى ليس فيها اسمُ سُوءٍ، وأَوْصَافُهُ كلُّها كمالٌ ليسَ فيها صفةُ نقصٍ، وأفعالُه كُلُّها حكمةٌ ليس فيها فعلٌ خالٍ عن الحكمةِ والمَصلحةِ، وله المَثَلُ الأعلَى في السماواتِ والأرضِ وهو العزيزُ الحكيمُ، موصوفٌ بصفاتِ الكمالِ، مذكورٌ بنُعوتِ الجلالِ، مُنَزَّهٌ عن الشبيهِ والمثالِ، ومُنزَّهٌ عمَّا يُضادُّ صِفاتِ كمالِه؛ فمُنزَّهٌ عنِ المَوتِ المُضادِّ للحياةِ، وعن السِّنَةِ والنوم والسَّهْوِ والغَفْلَةِ المُضادِّ للقَيُّومِيَّةِ، وموصوفٌ بالعلم مُنزَّهٌ عن أضدادِه كُلِّها من النسيانِ والذُّهولِ وعُزُوبِ شيءٍ عن عِلمِه، موصوفٌ بالقدرةِ التامةِ مُنزَّهٌ عن ضِدِّهَا مِنَ العَجْزِ واللُّغُوبِ والإعياءِ، مَوْصُوفٌ بالعدلِ مُنَزَّهٌ عن الظلمِ، موصوفٌ بالحكمةِ مُنزَّهٌ عن العَبَثِ والسَّفَهِ، موصوفٌ بالسَّمْعِ والبَصَرِ مُنزَّهٌ عَنْ أَضْدَادِهِمَا من الصَّمَمِ والبَكَمِ، مَوصوفٌ بالعُلُوِّ والفَوقيَّةِ مُنزَّهٌ عن ضِدِّ ذلك، مَوصوفٌ بالغِنَى التامِّ مُنزَّهٌ عمَّا يُضادُّه بوجهٍ من الوجوهِ، ومُستحِقٌّ للحمدِ كُلِّه، فيستحيلُ أن يكونَ غيرَ محمودٍ كما يَسْتَحيلُ أن يكونَ غيرَ قادرٍ ولا خالقٍ ولا حيٍّ، وله الحمدُ كُلُّه واجبٌ له لذاتِه فلا يكونُ إلا محمودًا كما لا يكونُ إلا إلهًا وربًّا وقادرًا).

البابُ الخامسَ عشرَ: في بيانِ أضرارِ ومساوئِ الجهلِ باللّهِ تعالى وأسمائِه الحسنى وصفاتِه العُلَى

(الجُهَّالُ باللهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ المُعَطِّلُونَ لحقائِقِها، يُبَغِّضُونَ اللهَ إلى خلقِهِ، ويقْطَعُونَ عليهم طريقَ محبَّتِهِ والتودُّدِ إليهِ بطاعَتِهِ منْ حيثُ لا يعلمونَ.

ونحنُ نذكرُ منْ ذلكَ أمثلةً تَحْتَذِي عليها:

فمنها: أنَّهُم يُقِرُّونَ في نفوسِ الضعفاءِ أنَّ اللهَ سُبحانَهُ لا تنفعُ معهُ طاعةٌ، وإنْ طالَ زمانُها، وبالغَ العبدُ وأتى بها بظاهرِهِ وباطنِهِ. وأنَّ العبدَ ليسَ على ثقةٍ ولا أَمْنٍ منْ مَكْرِهِ، بلْ شأنُهُ سُبحانَهُ أنْ يأخذَ المطيعَ المُتَّقِيَ من المِحْرَابِ إلى الماخُورِ، ومن التوحيدِ والمِسْبَحَةِ إلى الشرْكِ والمِزْمَارِ. ويُقَلِّبُ قلبَهُ من الإيمانِ الخالصِ إلى الكفرِ.

وَيَرْوُونَ في ذلكَ آثاراً صحيحةً لمْ يفْهَمُوها، وباطلةً لمْ يَقُلْها المعصومُ، ويزعمونَ أنَّ هذا حقيقةُ التوحيدِ، ويتْلُونَ على ذلكَ قولَهُ تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء:٢٣]، وقولَهُ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف:٩٩]، وقولَهُ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ويُقِيمونَ إبليسَ حُجَّةً لهم على هذهِ المعرفةِ، وأنَّهُ كانَ طَاوُوسَ الملائكةِ، وأنَّهُ لمْ يتْرُكْ في السماءِ رُقْعةً، ولا في الأرضِ بُقْعةً إلاَّ ولهُ فيها سجدةٌ أوْ ركعةٌ، لكنْ

جَنى عليهِ جاني القَدَرِ، وَسَطَا عليهِ الحُكْمُ فقَلَبَ عينَهُ الطيِّبَةَ، وجعلَها أخبثَ شيءٍ، حتَّى قالَ بعضُ عارِفيهم: إنَّكَ ينبغي أنْ تخافَ اللهَ كما تخافُ الأسدَ الذي يَثِبُ عليكَ بغيرِ جُرْمٍ منكَ ولا ذَنْبٍ أتيتَهُ إليهِ.

ويحتجُّونَ بقولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلَهَا**»[1].

ويَرْوُونَ عنْ بعضِ السلفِ: أكبرُ الكبائرِ الأمنُ منْ مكرِ اللهِ، والقنوطُ منْ رحمةِ اللهِ. وذَكَرَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ عنْ عونِ بنِ عبدِ اللهِ أوْ غيرِهِ: أنَّهُ سَمِعَ رجلاً يدْعُو: اللَّهمَّ لا تُؤَمِّنِّي مكرَكَ. فأنكرَ ذلكَ وقالَ: قل: اللَّهمَّ لا تجعَلْنِي ممَّنْ يأْمَنُ مكرَكَ.

وبنَوْا هذا على أصْلِهِم الباطلِ، وهوَ إنكارُ الحكمةِ والتعليلِ والأسبابِ، وأنَّ اللهَ لا يفعلُ لحكمةٍ ولا بسببٍ، وإنَّما يفعلُ بمشيئةٍ مجرَّدةٍ من الحكمةِ والتعليلِ والسببِ؛ فلا يفعلُ لشيءٍ ولا بشيءٍ، وأنَّهُ يجوزُ عليهِ أنْ يُعذِّبَ أهلَ طاعتِهِ أشدَّ العذابِ، ويُنَعِّمَ أعداءَهُ وأهلَ معصيتِهِ بجزيلِ الثوابِ، وأنَّ الأمرَيْنِ بالنسبةِ إليهِ سواءٌ، ولا يُعْلَمُ امتناعُ ذلكَ إلاَّ بخَبَرٍ من الصادقِ أنَّهُ لا يفعلُهُ. فحينئذٍ يُعلَمُ امتناعُهُ لوقوعِ الخبرِ بأنَّهُ لا يكونُ، لا لأنَّهُ في نفسِهِ باطلٌ وظلمٌ؛ فإنَّ الظلمَ في نفسِهِ مستحيلٌ؛ فإنَّهُ غيرُ ممكنٍ. بلْ هوَ بمنـزلةِ جعْلِ الجسمِ الواحدِ في مكانيْنِ في آنٍ واحدٍ، والجمعِ بينَ الليلِ والنهارِ في ساعةٍ واحدةٍ، وجعلِ الشيءِ موجوداً ومعدوماً معاً في آنٍ واحدٍ. فهذا حقيقةُ الظلمِ عندَهُم.

---

(١) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٣٦١٧)، والبُخارِيُّ في كتابِ بَدْءِ الخلقِ / بابُ ذِكرِ الملائكةِ (٣٢٠٨)، ومسلمٌ في كتابِ القَدَرِ / بابُ كيفيةِ الخَلْقِ الآدَميِّ (٦٦٦٥)، والتِّرمِذيُّ في كتابِ القَدَرِ / بابُ ما جاءَ أنَّ الأعمالَ بالخواتيمِ (٢١٣٧)، وأبو داودَ في كتابِ السُّنَّةِ / بابٌ في القَدَرِ (٤٧٠٨)، وابْنُ مَاجَهْ في المُقدِّمَةِ / بابٌ في القَدَرِ (٧٦)، من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه.

فإذا رجعَ العاملُ إلى نفسِهِ قالَ: مَنْ لا يَسْتَقِرُّ لهُ أمرٌ، ولا يُؤْمَنُ لهُ مَكْرٌ، كيفَ يُوثَقُ بالتقرُّبِ إليهِ؟ وكيفَ يُعَوَّلُ على طاعتِهِ واتِّباعِ أوامرِهِ، وليسَ لنا سِوَى هذهِ المُدَّةِ اليسيرةِ؟ فإذا هجَرْنا فيها اللذَّاتِ، وترَكْنا الشهواتِ، وتكَلَّفْنا أثقالَ العباداتِ، وكُنَّا معَ ذلكَ على غيرِ ثقةٍ منهُ أنْ يُقَلِّبَ علينا الإيمانَ كفراً والتوحيدَ شركاً، والطاعةَ معصيَةً، والبِرَّ فجوراً، ويُدِيمَ علينا العقوباتِ، كُنَّا خاسرينَ في الدُّنيا والآخرةِ.

فإذا استحكمَ هذا الاعتقادُ في قُلُوبِهم، وتَخَمَّرَ في نفوسِهم، صَارُوا إذا أُمِرُوا بالطاعاتِ وهَجْرِ اللذَّاتِ بمنزلةِ إنسانٍ جَعَلَ يقولُ لولدِهِ: مُعَلِّمُكَ إنْ كتَبْتَ وأحسَنْتَ وتأدَّبْتَ ولمْ تَعْصِهِ، ربَّما أقامَ لكَ حُجَّةً وعاقبَكَ. وإنْ كَسِلْتَ وبَطَلْتَ وتعطَّلْتَ وترَكْتَ ما أمرَكَ بِهِ، ربَّما قرَّبَكَ وأكرَمَكَ، فيُودِعُ بهذا القولِ قلبَ الصبيِّ ما لا يَثِقُ بعدَهُ إلى وَعيدِ المُعَلِّمِ ولا وعدِهِ على الإحسانِ. وإنْ كَبِرَ الصبيُّ، وصَلَحَ للمعاملاتِ والمناصبِ، قالَ لهُ: هذا سلطانُ بلدِنا يَأْخُذُ اللصَّ من الحبسِ فيجعلُهُ وزيراً أميراً، ويأخذُ الكَيِّسَ المحسنَ لشُغْلِهِ فيُخَلِّدُهُ في الحبْسِ ويَقْتُلُهُ ويَصْلُبُهُ. فإذا قالَ لهُ ذلكَ أوحشَهُ منْ سُلطانِهِ، وجعلَهُ على غيرِ ثقةٍ منْ وعدِهِ ووعيدِهِ، وأزالَ محبَّتَهُ منْ قلبِهِ، وجعلَهُ يخافُهُ مخافةَ الظالمِ الذي يأخُذُ المحسنَ بالعقوبةِ والبريءَ بالعذابِ.

فأفلسَ هذا المسكينُ من اعتقادِ كونِ الأعمالِ نافعةً أوْ ضارَّةً. فلا بفعلِ الخيرِ يستأنِسُ، ولا بفعلِ الشرِّ يستوحشُ.

وهلْ في التنفيرِ عن اللهِ وتبغيضِهِ إلى عبادِهِ أكثرُ منْ هذا؟! ولو اجتهدَ الملاحدةُ على تبغيضِ الدِّينِ والتنفيرِ عن اللهِ، لَمَا أتَوْا بأكثرَ منْ هذا.

وصاحبُ هذهِ الطريقةِ يَظُنُّ أنَّهُ يُقَرِّرُ التوحيدَ والقَدَرَ، ويردُّ على أهلِ البِدَعِ ويَنْصُرُ الدينَ. ولعَمْرُ اللهِ العدوُّ العاقلُ أقلُّ ضرراً من الصديقِ الجاهلِ.

وكُتُبُ اللهِ المُنَزَّلَة كلُّها ورسلُهُ كُلُّهم شاهدةٌ بِضِدِّ ذلكَ، ولا سِيَّما القرآنُ. فلوْ سلكَ الدعاةُ المسلكَ الذي دعا اللهُ ورسولُهُ بِهِ الناسَ إليهِ لصَلَحَ العالَمُ صلاحاً لا فسادَ معهُ.

فاللهُ سُبحانَهُ أخبرَ، وهوَ الصادقُ الوفيُّ، أنَّهُ إنَّما يعاملُ الناسَ بكسْبِهم ويُجازِيهم بأعمالِهم، ولا يخافُ المحسنُ لديهِ ظُلماً ولا هَضْماً، ولا يخافُ بخْساً ولا رَهقاً، ولا يُضيعُ عَمَلَ مُحسنٍ أبداً، ولا يُضيعُ على العبدِ مثقالَ ذَرَّةٍ ولا يَظْلِمُها ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]، وإنْ كانَ مثقالَ حَبَّةٍ منْ خرْدَلٍ جازاهُ بها ولا يُضِيعُها عليهِ. وأنَّهُ يجزي بالسيِّئَةِ مثلَها ويُحْبِطُها بالتوبةِ والندمِ والاستغفارِ والحسناتِ والمصائبِ، ويجْزي بالحسنةِ عَشْرَ أمثالِها ويُضَاعِفُ إلى سبعمائةِ ضِعْفٍ إلى أضْعَافٍ كثيرةٍ.

وهوَ الذي أصلحَ الفاسدينَ، وأقبلَ بقلوبِ المُعْرِضينَ، وتابَ على المُذنبينَ، وهَدَى الضالِّينَ، وأنقذَ الهالِكينَ، وعلَّمَ الجاهلينَ، وبَصَّرَ المُتَحيِّرينَ، وذَكَّرَ الغافِلينَ، وآوَى الشارِدينَ.

وإذا أوقعَ عقاباً أوقعَهُ بعدَ شدَّةِ التمرُّدِ والعُتُوِّ عليهِ، ودعوةِ العبدِ إلى الرجوعِ إليهِ والإقرارِ بربوبيَّتِهِ وحقِّهِ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، حتَّى إذا أَيِسَ من استجابَتِهِ والإقرارِ بربوبيَّتِهِ ووحدانيَّتِهِ أخذَهُ ببعضِ كُفْرِهِ وعُتُوِّهِ وتمرُّدِهِ، بحيثُ يَعْذُرُ العبدُ منْ نفسِهِ، ويعترفُ بأنَّهُ سُبحانَهُ لمْ يَظْلِمْهُ، وأنَّهُ هوَ الظالمُ لنفسِهِ كما قالَ تعالى عنْ أهلِ النارِ: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١١]، وقالَ عمَّنْ أهلكَهم في الدنيا: إنَّهم لَمَّا رَأَوْا آياتِهِ وأحسُّوا بعذابِهِ قالُوا: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٤-١٥]، وقالَ أصحابُ الجنَّةِ التي أفسدَها عليهم لَمَّا رأوْهَا: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [القلم: ٢٩].

قالَ الحسنُ: لقدْ دخلوا النارَ وإنَّ حمْدَهُ لفي قلوبِهم ما وجدوا عليهِ حُجَّةً ولا سبيلاً، ولهذا قالَ تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥]. فهذهِ الجملةُ في موضعِ الحالِ؛ أيْ: قُطِعَ دابرُهم حالَ كونِهِ سبحانَهُ محموداً على ذلكَ، فقطَعَ دابرَهُم قطعاً مُصاحباً لحمدِهِ؛ فهوَ قَطعٌ وإهلاكٌ يُحمدُ عليهِ الربُّ تعالى لكمالِ حكمتِهِ وعَدْلِهِ، ووضْعِهِ العقوبةَ في موضعِها الذي لا يليقُ بهِ غيرُها.

فوضعُها في الموضعِ الذي يقولُ مَنْ عَلِمَ الحالَ: لا تليقُ العقوبةُ إلاَّ بهذا المحلِّ، ولا يليقُ بهِ إلاَّ العقوبةُ، ولهذا قالَ عَقيبَ إخبارِهِ عن الحكمِ بينَ عبادِهِ ومصيرِ أهلِ السعادةِ إلى الجنَّةِ وأهلِ الشقاءِ إلى النارِ: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٥]، فحذفَ فاعلَ القولِ إشعاراً بالعمومِ، وأنَّ الكونَ كلَّهُ قالَ: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لِمَا شاهدُوا منْ حُكْمِهِ الحقِّ وعدلِهِ وفضلِهِ. ولهذا قالَ في حقِّ أهلِ النارِ: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧٢]، كأنَّ الكونَ كلَّهُ يقولُ ذلكَ حتَّى تقولَهُ أعضاؤُهم وأرواحُهم وأرضُهم وسماؤُهم.

وهوَ سُبحانَهُ يُخبرُ أنَّهُ إذا أهلكَ أعداءَهُ، أنجى أولياءَهُ ولا يَعُمُّهُم بالهلاكِ بمحضِ المشيئةِ.

ولمَّا سألَهُ نوحٌ نجاةَ ابنِهِ أَخْبَرَ أنَّهُ يُغرِقُهُ بسوءِ عملِهِ وكفرِهِ، ولمْ يقُلْ: إنِّي أُغرِقُهُ بمحضِ مشيئَتِي وإرادَتِي بلا سببٍ ولا ذنبٍ.

وقدْ ضَمِنَ سُبحانَهُ زيادةَ الهدايَةِ للمجاهدينَ في سبيلِهِ ولمْ يُخبرْ أنَّهُ يُضِلُّهم ويُبْطِلُ سعيَهم، وكذلكَ ضَمِنَ زيادةَ الهدايَةِ للمتَّقينَ الذينَ يتَّبِعُونَ رِضوانَهُ، وأخبرَ أنَّهُ لا يُضِلُّ إلاَّ الفاسقينَ الذينَ ينْقُضونُ عهدَهُ منْ بعدِ ميثاقِهِ، وأنَّهُ إنَّما يُضِلُّ مَنْ آثرَ الضلالَ واختارَهُ على الهُدَى، فيَطْبَعُ حينئذٍ على سمعِهِ وقلبِهِ.

وأنَّهُ يُقلِّبُ قَلْبَ مَنْ لمْ يرْضَ بهُداهُ إذا جاءَهُ، ولمْ يُؤْمِنْ بهِ ودفعَهُ وردَّهُ، فيُقلِّبُ فؤادَهُ وبصرَهُ عقوبةً لهُ على رَدِّهِ ودفْعِهِ لما تحقَّقَهُ وعرَفَهُ، وأنَّهُ سُبحانَهُ لوْ عَلِمَ في تلكَ المَحالِّ التي حكمَ عليها بالضلالِ والشقاءِ خيراً لأفهمَها وهَداها، ولكنَّها لا تصلحُ لنعمتِهِ ولا تليقُ بها كرامتُهُ.

وقدْ أزاحَ سُبحانَهُ العِلَلَ وأقامَ الحُجَجَ ومكَّنَ منْ أسبابِ الهدايَةِ وأنَّهُ لا يُضِلُّ إلاَّ الفاسقينَ والظالمينَ، ولا يطبعُ إلاَّ على قلوبِ المعتدينَ، ولا يُرْكِسُ في الفتنةِ إلاَّ المنافقينَ بكسْبِهِم، وأنَّ الرَّيْنَ الذي غطَّى بهِ قلوبَ الكُفَّارِ هوَ عينُ كسبِهِم وأعمالِهِم، كما قالَ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفِّفين: ١٤]، وقالَ عنْ أعدائِهِ من اليهودِ: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وأخبرَ أنَّهُ لا يُضِلُّ مَنْ هداهُ حتَّى يُبيِّنَ لهُ ما يَتَّقِي، فيختارُ لشَقْوتِهِ وسوءِ طبيعتِهِ الضلالَ على الهدى والغَيَّ على الرَّشادِ، ويكونُ معَ نفسِهِ وشيطانِهِ وعدوِّ ربِّهِ عليهِ.

وأمَّا المَكْرُ الذي وصفَ بِهِ نفسَهُ، فهوَ مُجازاتُهُ للماكرينَ بأوليائِهِ ورُسُلِهِ، فيُقابِلُ مكرَهُم السَّيِّئَ بمكرِهِ الحسنِ؛ فيكونُ المكرُ منهم أقبحَ شيءٍ، ومنهُ أحسنَ شيءٍ؛ لأنَّهُ عدلٌ ومجازاةٌ. وكذلكَ المخادعةُ منهُ جزاءٌ على مخادعةِ رسلِهِ وأوليائِهِ؛ فلا أحسنَ منْ تلكَ المخادعةِ والمكرِ.

وأمَّا كونُ الرجلِ يعملُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ حتَّى ما يكونَ بينَهُ وبينَها إلاَّ ذِراعٌ فيسبقَ عليهِ الكتابُ؛ فإنَّ هذا عَمِلَ [بعملِ] أهلِ الجنَّةِ فيما يظهرُ للناسِ، ولوْ كانَ عملاً صالحاً مقبولاً للجنَّةِ قدْ أحبَّهُ اللهُ ورضيَهُ لمْ يُبْطِلْهُ عليهِ.

وقولُهُ: «لَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ»، يُشْكِلُ على هذا التأويلِ، فيُقالُ: لمَّا كانَ العملُ بآخرِهِ وخاتمتِهِ لمْ يصبِرْ هذا العاملُ على عملِهِ حتَّى يَتِمَّ لهُ، بلْ كانَ فيهِ آفَةٌ كامنةٌ، ولكنَّهُ خُذِلَ بها في آخرِ عمرِهِ فخانَتْهُ تلكَ الآفةُ والداهيَةُ الباطنةُ في

وقتِ الحاجةِ، فرجعَ إلى مُوجَبِها وعمِلَتْ عملَها، ولوْ لمْ يكُنْ هناكَ غِشٌّ وآفةٌ لمْ يَقْلِب اللهُ إيمانَهُ.

لقدْ أورَدَهُ معَ صدقِهِ فيهِ وإخلاصِهِ بغيرِ سببٍ منهُ يقتضي إفسادَهُ عليهِ، واللهُ يعلمُ منْ سائرِ العبادِ ما لا يعلمُهُ بعضُهم منْ بعضٍ.

وأمَّا شَأْنُ إبليسَ، فإنَّ اللهَ سُبحانَهُ قالَ للملائكةِ: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة: ٣٠]، فالربُّ تعالى كانَ يعلمُ ما في قلبِ إبليسَ من الكفرِ والكِبْرِ والحسدِ ما لا يعلَمُهُ الملائكةُ، فلمَّا أُمِرُوا بالسجودِ ظهرَ ما في قلوبِهم من الطاعةِ والمحبَّةِ والخشيةِ والانقيادِ فبادَرُوا إلى الامتثالِ، وظهرَ ما في قلبِ عدُوِّهِ من الكِبْرِ والغشِّ والحسدِ، فأبى واستكبرَ وكانَ من الكافرينَ.

وأمَّا خوفُ أوليائِهِ منْ مكرِهِ فحقٌّ؛ فإنَّهُم يخافونَ أنْ يَخْذُلَهُم بذنوبِهم وخطاياهم فيصيرونَ إلى الشقاءِ، فخَوْفُهم منْ ذُنُوبِهم، ورجاؤُهم لرحمتِهِ.

وقولُهُ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]، إنَّما هوَ في حقِّ الفُجَّارِ والكُفَّارِ. **ومعنى الآيَةِ**: فلا يَعْصِي ويَأْمَنُ مقابلةَ اللهِ لهُ على مكرِ السيِّئاتِ بمكرِهِ بِهِ إلاَّ القومُ الخاسرونَ.

والذي يخافُهُ العارفونَ باللهِ منْ مكرِهِ أنْ يُؤَخِّرَ عنهم عذابَ الأفعالِ فيحصلَ منهم نوعُ اغترارٍ فيَأْنَسُوا بالذنوبِ فيجيئَهم العذابُ على غِرَّةٍ وفَتْرَةٍ.

وأمرٌ آخرُ: وهوَ أنْ يغفُلُوا عنهُ ويَنْسَوْا ذكرَهُ، فيتخلَّى عنهم إذا تخَلَّوْا عنْ ذكرِهِ وطاعتِهِ، فيسرعُ إليهم البلاءُ والفتنةُ، فيكونُ مكرُهُ بهِمْ تخلِّيَهُ عنهم.

وأمرٌ آخرُ: أنْ يَعْلَمَ منْ ذنوبِهم وعيوبِهم ما لا يعلمونهُ منْ نفوسِهم، فيأتِيَهم المكرُ منْ حيثُ لا يشعرونَ.

وأمرٌ آخرُ: أنْ يَمْتَحِنَهم ويبتَلِيَهم بما لا صَبْرَ لَهُمْ عليهِ، فيُفْتَنُونَ بهِ، وذلكَ مَكْرٌ).[1]

(١) الفوائدُ (٢٣٠-٢٣٨).

البابُ السادسَ عشرَ: في بيانِ بعضِ ما يقْتَضيه العلْمُ بأسماءِ اللّه الحسنى وصفاتِه العُلَى منْ أنواعِ العبوديَّةِ للّهِ تعالى

(الأسماءُ الحسنى والصِّفَاتُ العُلَى مقتضيَةٌ لآثارِها من العبودِيَّةِ والأمرِ اقتضاءَها لآثارِها من الخلقِ والتكوينِ، فلكلِّ صفةٍ عبوديَّةٌ خاصَّةٌ هيَ منْ مُوجَباتِها ومُقْتَضَيَاتِها - أعْني منْ مُوجَباتِ العلمِ بها والتحقُّقِ بمعرفتِها - وهذا مُطَّرِدٌ في جميعِ أنواعِ العبوديَّةِ التي على القلبِ والجوارحِ.

فعلمُ العبدِ بتفرُّدِ الربِّ تعالى بالضرِّ والنفعِ والعطاءِ والمنعِ والخلقِ والرزقِ والإحياءِ والإماتةِ **يُثْمِرُ لهُ عبوديَّةَ التوكُّلِ عليهِ باطناً، ولوازمَ التوكُّلِ وثمراتِهِ ظاهراً.**

وعلمُهُ بسمْعِهِ تعالى وبصرِهِ وعلمِهِ، وأنَّهُ لا يخْفَى عليهِ مثقالُ ذرَّةٍ في السَّماوَاتِ والأرضِ، وأنَّهُ يعلمُ السرَّ وأَخْفَى، ويعلمُ خائنةَ الأعْيُنِ وما تُخْفِي الصدورُ **يُثْمِرُ لهُ حفظَ لسانِهِ وجوارحِهِ وخَطَراتِ قلبِهِ عنْ كلِّ ما لا يُرْضِي اللّهَ**، وأنْ يجعلَ تَعَلُّقَ هذهِ الأعضاءِ بما يُحِبُّهُ اللّهُ ويرضاهُ **فيُثمرُ لهُ ذلكَ الحياءُ اجتنابَ المُحَرَّماتِ والقبائحِ.**

ومعرفتُهُ بغِناهُ وجُودِهِ وكرمِهِ وبرِّهِ وإحسانِهِ ورحمتِهِ تُوجِبُ لهُ سَعَةَ الرجاءِ، ويُثمرُ لهُ ذلكَ منْ أنواعِ العبوديَّةِ الظاهرةِ والباطنةِ بحسَبِ معرفتِهِ وعلمِهِ.

وكذلكَ معرفتُهُ بجلالِ اللهِ وعظمتِهِ وعِزَّتِهِ **تُثمِرُ لهُ الخضوعَ والاستكانةَ والمحبَّةَ**، وتُثمرُ لهُ تلكَ الأحوالُ الباطنةُ أنواعاً من العبوديَّةِ الظاهرةِ هيَ مُوجَباتُها.

وكذلكَ علمُهُ بكمالِهِ وجمالِهِ وصفاتِهِ العُلَى **يُوجبُ لهُ محبَّةً خاصَّةً بمنزلةِ أنواعِ العبوديَّةِ، فرجَعَت العبوديَّةُ كلُّها إلى مُقْتَضَى الأسماءِ والصِّفَاتِ**، وارتَبَطَتْ بها ارتباطَ الخلقِ بها.

فخلْقُهُ سُبحانَهُ وأمرُهُ هوَ مُوجَبُ أسمائِهِ وصفاتِهِ في العالمِ وآثارُها ومُقْتَضَاها؛ لأنَّهُ لا يتزيَّنُ منْ عبادِهِ بطاعَتِهِم، ولا تَشِينهُ معصيتُهم.

وتأمَّلْ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الحديثِ الصحيحِ الذي يَرْوِيهِ عنْ ربِّهِ تباركَ وتعالى: «**يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي**»، ذكرَ هذا عَقِبَ قولِهِ: «**يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ**».[(١)] فتضمَّنَ ذلكَ أنَّ ما يفعلُهُ تعالى بهم في غُفرانِ زَلاَّتِهم وإجابةِ دعوَاتِهم وتفريجِ كُرُباتِهم ليسَ لجلبِ منفعةٍ منهم، ولا لدفعِ مضرَّةٍ يتوقَّعُها منهم؛ كما هوَ عادةُ المخلوقِ الذي ينفعُ غيرَهُ لِيُكَافِئَهُ بنفعِ مثلِهِ، أوْ ليدفعَ عنهُ ضرراً، فالربُّ تعالى لمْ يُحْسِنْ إلى عبادِهِ ليُكافِئُوهُ، ولا لِيَدْفَعُوا عنهُ ضرراً، فقالَ: «**لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي**»؛ إنِّي لستُ إذا هدَيْتُ مُستهدِيكُم، وأطْعَمْتُ مُسْتَطْعِمَكم، وكَسَوْتُ مُستكسِيكُم، وأرْوَيْتُ مُستسقِيكُم، وكَفَيْتُ مُسْتكْفِيكُم، وغفَرْتُ لِمُسْتَغْفِرِكُم: بالَّذي أطلبُ منكم أنْ تنفعوني، أوْ تدفعوا عنِّي ضرراً، فإنَّكُم لنْ تبْلُغُوا ذلكَ وأنا الغنيُّ الحميدُ؛ كيفَ والخلقُ عاجزونَ عمَّا يقْدِرُونَ عليهِ من الأفعالِ إلاَّ بإقدارِهِ وتيسيرِهِ وخلقِهِ، فكيفَ بما لا يقْدِرُونَ عليهِ، فكيفَ يبْلُغُونَ نفعَ الغنيِّ

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ في كتابِ البرِّ والصلةِ والآدابِ / بابُ تحريمِ الظلمِ، من حديثِ أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه.

الصمدِ الذي يمتنعُ في حقِّهِ أنْ يستجْلِبَ منْ غيرِهِ نفعاً أوْ يستدفعَ منهُ ضرراً؟! بلْ ذلكَ مستحيلٌ في حقِّهِ.

ثُمَّ ذكرَ بعدَ هذا قولَهُ: «**يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً**»؛ فبيَّنَ سُبحانَهُ أنَّ ما أمرَهُم بِهِ من الطاعاتِ، وما نهاهُم عنهُ من السيِّئاتِ لا يتضمَّنُ استجلابَ نفعِهِم، ولا استدفاعَ ضَرَرِهِم؛ كأمرِ السيِّدِ عبدَهُ، والوالدِ ولدَهُ، والإمام رعيَّتَهُ، بما ينفعُ الآمِرَ والمأمورَ، ونهْيِهِم عمَّا يضرُّ الناهيَ والمنهيَّ، فبيَّنَ تعالى أنَّهُ المُنَزَّهُ عنْ لُحُوقِ نفعِهِم وضرِّهِم بهِ في إحسانِهِ إليهم بما يفعلُهُ بهم، وبما يأمُرُهُم بِهِ.

ولهذا لَمَّا ذكرَ الأصليْنِ بعدَ هذا، وأنَّ تقوَاهُم وفجورَهُم الذي هوَ طاعتُهم ومعصيتُهم لا يَزيدُ في مُلْكِهِ شيئاً ولا يَنْقُصُهُ، وأنَّ نِسبَةَ ما يسألونهُ كلُّهم إيَّاهُ فيُعطيهم إلى ما عندَهُ كلا نِسْبَةٍ، فتضمَّنَ ذلكَ أنَّهُ لمْ يأمُرْهم ولمْ يُحْسِنْ إليهم بإجابَةِ الدعواتِ، وغفرانِ الزَّلاَّتِ، وتفريجِ الكُرُباتِ لاستجلابِ منفعةٍ، ولا لاستدفاعِ مضرَّةٍ، وأنَّهُم لوْ أطاعُوهُ كلُّهم لمْ يزيدُوا في ملكِهِ شيئاً، ولوْ عصَوْهُ كلُّهم لمْ ينْقُصُوا منْ ملكِهِ شيئاً، وأنَّهُ الغنيُّ الحميدُ.

ومَنْ كانَ هكذا فإنَّهُ لا يتزيَّنُ بطاعةِ عبادِهِ، ولا تَشِينُهُ معاصيهم، ولكنْ لهُ من الحِكَمِ البوالغِ في تكليفِ عبادِهِ وأمرِهم ونهْيِهِم ما يقْتَضِيهِ مُلْكُهُ التامُّ، وحمْدُهُ وحكمتُهُ، ولوْ لمْ يكُنْ في ذلكَ إلاَّ أنَّهُ يستوجبُ منْ عبادِهِ شكرَ نعَمِهِ التي لا تُحْصَى، بحسَبِ قُوَاهُم وطاقَتِهِم، لا بحسَبِ ما ينبغي لهُ؛ فإنَّهُ أعظمُ وأجلُّ منْ أنْ يقْدِرَ خلقُهُ عليهِ، ولكنَّهُ سُبحانَهُ يَرْضَى منْ عبادِهِ بما تَسْمَحُ بِهِ طبائِعُهم وقُوَاهُم، فلا شيءَ أحسنُ في العقولِ والفِطَرِ منْ شُكْرِ المُنعِمِ، ولا أنفعُ للعبدِ منهُ.

فهذانِ مسلكانِ ... في حسنِ التكليفِ والأمرِ والنهيِ:

- **أحدُهما:** يتعلَّقُ بذاتِهِ وصفاتِهِ، وأنَّهُ أهلٌ لذلكَ، وأنَّ جمالَهُ تعالى وكمالَهُ وأسماءَهُ وصفاتِهِ تقتضي منْ عبادِهِ غايَةَ الحبِّ والذلِّ والطاعةِ لهُ.

- **والثاني:** مُتَعَلِّقٌ بإحسانِهِ وإنعامِهِ، ولا سِيَّما معَ غناهُ عنْ عبادِهِ، وأنَّهُ إنَّما يُحْسِنُ إليهم رحمةً منهُ وجُوداً وكرماً، لا لمُعَاوَضَةٍ، ولا لاستجلابِ منفعةٍ، ولا لدفعِ مضرَّةٍ، وأيُّ المسلكَيْنِ سلكَهُ العبدُ أوقفَهُ على محبَّتِهِ وبذلِ الجهدِ في مرضاتِهِ)[١].

[فَصْلٌ]

(و... العبدُ إذا فتحَ اللهُ لقلْبِهِ شهودَ أوَّلِيَّتِهِ سُبحانَهُ حيثُ كانَ ولا شيءَ غيرُهُ، وهوَ الإلهُ الحقُّ الكاملُ في أسمائِهِ وصفاتِهِ، الغنيُّ بذاتِهِ عمَّا سِوَاهُ، الحميدُ المجيدُ بذاتِهِ قبلَ أنْ يخْلُقَ مَنْ يَحْمَدُهُ ويعبدُهُ ويمجِّدُهُ، فهوَ معبودٌ محمودٌ حيٌّ قيُّومٌ لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ في الأزلِ والأبدِ، لمْ يزَلْ ولا يزالُ موصوفاً بصفاتِ الجلالِ، منعوتاً بنعوتِ الكمالِ، وكلُّ شيءٍ سواهُ فإنَّما كانَ بهِ، وهوَ تعالى بنفسِهِ ليسَ بغيرِهِ، فهوَ القيُّومُ الذي قِيَامُ كلِّ شيءٍ بهِ، ولا حاجةَ بهِ في قيُّوميَّتِهِ إلى غيرِهِ بوجهٍ من الوجوهِ.

فإذا شهِدَ العبدُ سَبْقَهُ تعالى بالأوَّلِيَّةِ ودوامِ وُجُودِهِ الحقِّ، وغابَ بهذا عمَّا سِوَاهُ من المُحْدَثَاتِ... [ا]ستغْنَى العبدُ بهذا المَشهدِ العظيمِ وَ... تغذَّى بها عنْ فاقَاتِهِ وحاجاتِهِ. فاضْمَحَلَّ ما دُونَ الحقِّ تعالى في شهودِ العبدِ كما هوَ مُضْمَحِلٌّ في نفسِهِ، وشَهِدَ العبدُ حينئذٍ أنَّ كلَّ شيءٍ ما سِوَى اللهِ باطلٌ، وأنَّ الحقَّ المبينَ هوَ اللهُ وحدَهُ ((فهوَ الأوَّلُ الذي ليسَ قبلَهُ شيءٌ. قالَ بعضُهم: ما رَأَيْتُ شيئاً

---

(١) مِفْتَاحُ دارِ السعادةِ (٢/ ٥١٠-٥١٣).

إلاَّ وقدْ رأَيْتُ[1] اللهَ قبلَهُ.

[فيـ]شْهَدُ القلبُ سَبْقَهُ للأسبابِ، وأنَّها كانتْ في حيِّزِ العدمِ. وهوَ الذي كسَاها حُلَّةَ الوجودِ، فهيَ معدومةٌ بالذاتِ، فقيرةٌ إليهِ بالذاتِ، وهوَ الموجودُ بذاتِهِ والغنيُّ بذاتِهِ لا بغيرِهِ. فليسَ الغِنَى في الحقيقةِ إلاَّ بهِ، كما أنَّهُ ليسَ في الحقيقةِ إلاَّ لهُ. فالغِنَى بغيرِهِ عينُ الفقرِ؛ فإنَّهُ غنًى بمعدومٍ فقيرٍ. وفقيرٌ كيفَ يستغني بفقيرٍ مثلِهِ؟!)). [2]

وليسَ هذا مختصًّا بشهودِ أوَّليَّتِهِ تعالى فقطْ، بلْ جميعُ ما يبدُو للقلوبِ منْ صفاتِ الربِّ جلَّ جلالُهُ يستغني العبدُ بها بقدْرِ حظِّهِ وقَسْمِهِ منْ معرفتِها وقيامِهِ بعبوديَّتِها.

فمَنْ شهِدَ مشهدَ علوِّ اللهِ على خلقِهِ وفوقيَّتِهِ لعبادِهِ واستوائِهِ على عرشِهِ كما أخبرَ بهِ أعرفُ الخلقِ وأعلمُهم بهِ الصادقُ المصدوقُ، وتعبَّدَ بمُقْتَضَى هذهِ الصفةِ بحيثُ يصيرُ لقلبِهِ صمدٌ يعْرُجُ القلبُ إليهِ مُناجياً لهُ مُطْرِقاً واقفاً بينَ يدَيْهِ وقوفَ العبدِ الذليلِ بينَ يدي الملكِ العزيزِ، فيشعرُ بأنَّ كَلِمَهُ وعمَلَهُ صاعدٌ إليهِ معروضٌ عليهِ معَ أوْفَى خاصَّتِهِ وأوليائِهِ، فيستحي أنْ يصعدَ إليهِ مِنْ كَلِمِهِ ما يُخْزِيهِ ويفضَحُهُ هناكَ.

ويشهدُ نـزولَ الأمرِ والمراسيمِ الإلهيَّةِ إلى أقطارِ العوالمِ كلَّ وقتٍ بأنواعِ التدبيرِ والتصرُّفِ من الإماتةِ والإحياءِ، والتوليَةِ والعزلِ، والخفضِ والرفعِ، والعطاءِ والمنعِ، وكشفِ البلاءِ وإرسالِهِ، وتقلُّبِ الدُّوَلِ ومداوَلَةِ الأيَّامِ بينَ الناسِ، إلى غيرِ ذلكَ من التصرُّفِ في المملكةِ التي لا يتصرَّفُ فيها سواهُ،

---

(١) (رَأَى) هنا هي (رأى) العِلْمِيَّةُ المُتعدِّيَةُ إلى مفعولَينِ، قال الشاعرُ:

رَأَيْتُ اللهَ أَكْبَرَ كُلِّ شَيْءٍ		مُحَاوَلَةً وَأَكْثَرَهُمْ جُنُودَا

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٢/ ٤٢٢).

فمراسِمُهُ نافذةٌ كما يشاءُ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة: ٥]، فمَنْ أعطى هذا المشهدَ حقَّهُ معرفةً وعبوديَّةً استغنى بهِ.

وكذلكَ مَنْ شهِدَ مشهدَ العلمِ المحيطِ الذي لا يعزُبُ عنهُ مثقالُ ذرَّةٍ في الأرضِ ولا في السماواتِ، ولا في قرارِ البحارِ، ولا تحتَ أطباقِ الجبالِ، بلْ أحاطَ بذلكَ كُلِّهِ علماً تفصيليًّا، ثُمَّ تعبَّدَ بمُقْتَضَى هذا الشهودِ منْ حواسِّهِ؛ خواطِرِهِ وإرادَتِهِ وجميعِ أحوالِهِ وعزَماتِهِ وجوارِحِهِ عَلِمَ بأنَّ حركاتِهِ الظاهرةَ والباطنةَ، وخواطِرَهُ وإرادَتَهُ، وجميعَ أحوالِهِ ظاهرةٌ مكشوفةٌ لدَيْهِ، علانيةٌ لهُ، باديةٌ لا يخفى عليهِ منها شيءٌ.

وكذلكَ إذا أشعرَ القلبُ صفةَ سمعِهِ تباركَ وتعالى لأصواتِ عبادِهِ على اختلافِها وجهرِها وخفائِها، وسواءٌ عندَهُ مَنْ أسَرَّ القولَ ومَنْ جهرَ بِهِ، لا يشْغَلُهُ جهرُ مَنْ جهرَ عنْ سمعِهِ لصوتِ مَنْ أسرَّ، ولا يشغَلُهُ سمعٌ عنْ سمعٍ، ولا تُغْلِطُهُ الأصواتُ على كثرَتِها واختلافِها واجتماعِها، بلْ هيَ عندَهُ كلُّها كصوتٍ واحدٍ، كما أنَّ خلقَ الخَلقِ جميعِهم وبعْثَهُم عندَهُ بمنزلةِ نفسٍ واحدةٍ.

وكذلكَ إذا شَهِدَ معنى اسمِهِ البصيرِ جلَّ جلالُهُ الذي يرى دبيبَ النملةِ السوداءِ على الصخرةِ الصمَّاءِ في حِنْدِسِ الظلماءِ، ويرى تفاصيلَ خلقِ الذرَّةِ الصغيرةِ ومُخَّها وعُروقَها ولحمَها وحركتَها، ويرى مدَّ البعوضةِ جناحَها في ظلمةِ الليلِ، وأعطى هذا المشهدَ حقَّهُ من العبوديَّةِ بحَرْسِ حركاتِها وسَكَنَاتِها، وتيقَّنَ أنَّها بمرْأَى منهُ تباركَ وتعالى ومشاهدةٍ لا يغيبُ عنهُ منها شيءٌ.

وكذلكَ إذا شهِدَ مشهدَ القيُّوميَّةِ الجامعَ لصفاتِ الأفعالِ وأنَّهُ قائمٌ على كلِّ شيءٍ، وقائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبَتْ، وأنَّهُ تعالى هوَ القائمُ بنفسِهِ المُقيمُ لغيْرِهِ، القائمُ علَيْهِ بتدبيرِهِ وربوبيَّتِهِ وقهرِهِ وإيصالِ جزاءِ المحسِنِ إليهِ وجزاءِ المُسيءِ

إليهِ، وأنَّهُ بكمالِ قيُّوميَّتِهِ لا ينامُ ولا ينبغي لهُ أنْ ينامَ، يَخْفِضُ القسطَ ويرفعُهُ، يُرْفَعُ إليهِ عملُ الليلِ قبلَ النهارِ، وعملُ النهارِ قبلَ الليلِ، لا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ، ولا يَضِلُّ ولا ينْسَى.

وهذا المشهدُ منْ أرفعِ مشاهدِ العارفينَ، وهوَ مشهدُ الربوبيَّةِ، وأعلى منهُ مشهدُ الإلهيَّةِ الذي هوَ مشهدُ الرسلِ وأتباعِهم الحُنفاءِ، وهوَ شهادةُ أنْ لا إلهَ إلاَّ هوَ، وأنَّ إلهيَّةَ ما سِواهُ باطلٌ ومُحالٌ، كما أنَّ ربوبيَّةَ ما سواهُ كذلكَ، فلا أحدَ سواهُ يَسْتَحِقُّ أنْ يُؤَلَّهَ ويُعْبَدَ، ويُصَلَّى لهُ ويُسْجَدَ، ويَسْتَحِقُّ نهايَةَ الحبِّ معَ نهايَةِ الذلِّ لكمالِ أسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ، فهوَ المطاعُ وحدَهُ على الحقيقةِ، والمألوهُ وحدَهُ، ولهُ الحُكْمُ وحدَهُ.

فكلُّ عبوديَّةٍ لغيرِهِ باطلةٌ وعَناءٌ وضلالٌ، وكلُّ محبَّةٍ لغيرِهِ عذابٌ لصاحبِها، وكلُّ غنًى لغيرِهِ فقرٌ وفاقةٌ، وكلُّ عِزٍّ بغيرِهِ ذلٌّ وصَغارٌ، وكلُّ تكثُّرٍ بغيرِهِ قلَّةٌ وذلَّةٌ، فكما استحالَ أنْ يكونَ للخلقِ ربٌّ غيرُهُ، فكذلكَ استحالَ أنْ يكونَ لهم إلهٌ غيرُهُ، فهوَ الذي انتهتْ إليهِ الرَّغَباتُ، وتوجَّهَتْ نحوَهُ الطَّلَباتُ، ويستحيلُ أنْ يكونَ معهُ إلهٌ آخرُ؛ فإنَّ الإلهَ على الحقيقةِ هوَ الغنيُّ الصمدُ الكاملُ في أسمائِهِ وصفاتِهِ، الذي حاجةُ كلِّ أحدٍ إليهِ ولا حاجةَ بِهِ إلى أحدٍ، وقيامُ كلِّ شيءٍ بِهِ وليسَ قيامُهُ بغَيْرِهِ، ومن المُحالِ أنْ يحْصُلَ في الوجودِ اثنانِ كذلكَ، ولوْ كانَ في الوجودِ إلهَانِ لفسدَ نظامُهُ أعظمَ فسادٍ، واخْتَلَّ أعظمَ اختلالٍ، كما أنَّهُ يستحيلُ أنْ يكونَ لهُ فاعلانِ متساويانِ، كلٌّ منهما مُسْتَقِلٌّ بالفعلِ؛ فإنَّ استقلالَهُما يُنافي استقلالَهما، واستقلالَ أحدِهما يمنعُ ربوبيَّةَ الآخرِ. فتوحيدُ الربوبيَّةِ أعظمُ دليلٍ على توحيدِ الإلهيَّةِ؛ ولذلكَ وقعَ الاحتجاجُ بِهِ في القرآنِ أكثرَ ممَّا وقعَ بغيرِهِ؛ لِصِحَّةِ دلالَتِهِ وظهورِها وقبولِ العقولِ والفِطَرِ لها، ولاعترافِ أهلِ الأرضِ بتوحيدِ الربوبيَّةِ، وكذلكَ كانَ عُبَّادُ الأصنامِ يُقِرُّونَ بِهِ، ويُنكرونَ توحيدَ الإلهيَّةِ ويقولونَ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] معَ اعترافِهم بأنَّ اللهَ وحدَهُ

هوَ الخالقُ لهم وللسماواتِ والأرضِ وما بينَهُما، وأنَّهُ المنفردُ بملكِ ذلكَ كُلِّهِ، فأرسلَ اللهُ تعالى الرسلَ يُذَكِّرُ بما في فِطَرِهم الإقرارُ بِهِ منْ توحيدِهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأنَّهُم لوْ رجعُوا إلى فِطَرِهِم وعقولِهِم لدَلَّتْهُم على امتناعِ إلهٍ آخرَ معهُ واستحالَتِهِ وبُطْلانِهِ.

فمشهدُ الألوهيَّةِ هوَ مشهدُ الحُنَفَاءِ، وهوَ مشهدٌ جامعٌ للأسماءِ والصِّفَاتِ، ولذلكَ كانَ الاسمُ الدالُّ على هذا المعنى هوَ اسمَ **الله** جلَّ جلالُهُ؛ فإنَّ هذا الاسمَ هوَ الجامعُ، ولهذا تُضافُ الأسماءُ الحسنى كلُّها إليهِ فيُقَالُ: الرحمنُ الرحيمُ العزيزُ الغفَّارُ القهَّارُ منْ أسماءِ اللهِ، ولا يُقَالُ: اللهُ منْ أسماءِ الرحمنِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فهذا المشهدُ تجتمعُ فيهِ المشاهدُ كلُّها، وكلُّ مشهدٍ سواهُ فإنَّما هوَ مشهدٌ لصفةٍ منْ صفاتِهِ، فمَن اتَّسعَ قلبُهُ لمشهدِ الإلهيَّةِ وقامَ بحقِّهِ من التعبُّدِ الذي هوَ كمالُ الحبِّ بكمالِ الذلِّ والتعظيمِ، والقيامُ بوظائفِ العبوديَّةِ، فقدْ تمَّ لهُ غناهُ بالإلهِ الحقِّ، وصارَ مِنْ أغنى العبادِ، ولسانُ حالِ مِثْلِ هذا يقولُ:

غَنيتُ بلا مالٍ عن الناسِ كلِّهِم ... وإنَّ الغِنَى العالي عن الشيءِ لا بِهِ

فيا لَهُ منْ غنًى ما أعظمَ خطرَهُ وأجلَّ قَدْرَهُ، تضاءَلَتْ دُونَهُ المَمالِكُ فما دُونَها، فصارتْ بالنسبةِ إليهِ كالظلِّ من الحاملِ لهُ، والطَّيْفِ المُوافِي في المنامِ الذي يأتي بِهِ حديثُ النفسِ ويطْرُدُهُ الانتباهُ من النومِ). [١]

[فَصْلٌ]

(فشهودُ [العبدِ] توحيدَ الربِّ تعالى وانفرادَهُ بالخلقِ ونفوذَ مشيئَتِهِ وجَرَيانَ قضائِهِ وقَدَرِهِ يفتحُ لهُ بابَ الاستعاذةِ ودوامِ الالتجاءِ إليهِ والافتقارِ إليهِ، وذلكَ

(١) طَريقُ الهِجرتَيْنِ (٤٢-٤٥).

يُدْنِيهِ مِنْ عَتَبَةِ العبوديَّةِ ويطرَحُهُ بالبابِ فقيراً عاجزاً مسكيناً لا يملكُ لنفْسِهِ ضرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

وشهودُهُ أمرَهُ تعالى، ونهْيَهُ، وثوابَهُ، وعقابَهُ، يُوجِبُ لهُ الجِدَّ والتَّشْمِيرَ، وبذلَ الوُسْعِ، والقيامَ بالأمرِ، والرجوعَ على نفْسِهِ باللَّوْمِ، والاعترافَ بالتقصيرِ.

فيكونُ سيْرُهُ بينَ شهودِ العِزَّةِ والحكمةِ والقدرةِ الكاملةِ والعلمِ السابقِ وبينَ شهودِهِ التقصيرَ والإساءةَ منهُ وتطلُّبَ عيوبِ نفسِهِ وأعمالِها.

فهذا هوَ العبدُ الموَفَّقُ المُعانُ الملطوفُ بهِ المصنوعُ لهُ الذي أُقيمَ في مُقَامِ العبوديَّةِ، وضُمِنَ لهُ التوفيقُ.

وهذا هوَ مشهدُ الرسلِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهم فهوَ مشهدُ أبيهِم آدمَ إذْ يقولُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:٢٣]، ومشهدُ أوَّلِ الرسلِ نوحٍ إذْ يقولُ: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: ٤٧]، ومشهدُ إمامِ الحُنَفَاءِ وشيخِ الأنبياءِ إبراهيمَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهم أجمعينَ إذْ يقولُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٣] وقالَ في دُعائِهِ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥]، فعَلِمَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ الذي يحولُ بينَ العبدِ وبينَ الشركِ وعبادةِ الأصنامِ هوَ اللهُ لا ربَّ غيرُهُ، فسألَهُ أنْ يُجنِّبَهُ وبَنِيهِ عبادةَ الأصنامِ.

وهذا هوَ مشهدُ موسى إذْ يقولُ في خطابِهِ لربِّهِ: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ

﴿ٱلْغَٰفِرِينَ ۝١٥٥﴾ [الأعراف: ١٥٥]؛ أيْ: إنْ ذلكَ إلاَّ امتحانُكَ واختبارُكَ، كما يُقالُ: فَتَنْتُ الذهبَ إذا امتحَنْتَهُ واختبَرْتَهُ، وليسَ من الفتنةِ التي هيَ الفعلُ المسيءُ كما في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠] وكما في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، فإنَّ تلكَ فتنةُ المخلوقِ؛ فإنَّ موسى أعلمُ باللهِ تعالى أنْ يُضيفَ إليهِ هذهِ الفتنةَ، وإنَّما هيَ كالفتنةِ في قولِهِ: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]؛ أي: ابتليْنَاكَ واختبرْنَاكَ وصرَّفْنَاكَ في الأحوالِ التي قصَّها اللهُ سُبحانَهُ علينا منْ لَدُنْ ولادَتِهِ إلى وقتِ خطابِهِ لهُ وإنـزالِهِ عليهِ كتابَهُ.

والمقصودُ أنَّ موسى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شهدَ توحيدَ الربِّ وانفرادَهُ بالخلقِ والحكمِ، وفعلَ السفهاءِ ومُباشَرَتَهُم الشركَ، فتضرَّعَ إليهِ بعِزَّتِهِ وسُلطانِهِ وأضافَ الذنبَ إلى فاعلِهِ وجانِيهِ، ومِنْ هذا قولُهُ: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦]، قالَ تعالى: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦﴾ [القصص: ١٦].

وهذا مشهدُ ذِي النُّونِ إذْ يقولُ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فوحَّدَ رَبَّهُ تعالى ونـزَّهَهُ عنْ كلِّ عيبٍ وأضافَ الظلمَ إلى نفسِهِ.

وهذا مشهدُ صاحبِ سَيِّدِ الاستغفارِ إذْ يقولُ في دُعائِهِ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي؛ إِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ**»(١)، فأقرَّ بتوحيدِ الربوبيَّةِ المتضمِّنِ لانفرادِهِ سُبحانَهُ بالخلقِ وعمومِ المشيئةِ ونفوذِها، وتوحيدِ الإلهيَّةِ المتضمِّنِ لمحبَّتِهِ وعبادتِهِ

---

(١) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٦٦٦٢)، والبُخاريُّ في كتابِ الدَّعواتِ / بابُ أفضلِ الاستغفارِ (٦٣٠٦)، والتِّرْمِذيُّ في كتابِ الدَّعَواتِ / بابُ (١٥)، الحديثُ رقْمُ (٣٣٩٣)، والنَّسائيُّ في كتابِ الاستعاذةِ من شرِّ ما صَنعَ (٥٥٣) من حديثِ شدادِ بنِ أَوسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه.

وحدَهُ لا شريكَ لهُ، والاعترافِ بالعبوديَّةِ المُتضمِّنِ للافتقارِ منْ جميعِ الوجوهِ إليهِ سُبحانَهُ. ثُمَّ قالَ: «وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ»، فتضمَّنَ ذلكَ التزامَ شرعِهِ وأمْرِهِ ودينِهِ، وهوَ عهدُهُ الذي عَهِدَ إلى عبادِهِ، وتصديقُ وعْدِهِ وهوَ جزاؤُهُ وثوابُهُ، فتضمَّنَ التزامَ الأمرِ والتصديقَ بالموعودِ وهوَ الإيمانُ والاحتسابُ، ثُمَّ لَمَّا علِمَ أنَّ العبدَ لا يُوَفِّي هذا المقامَ حقَّهُ الذي يصلحُ لهُ تعالى علَّقَ ذلكَ باستطاعَتِهِ وقدرتِهِ التي لا يتعدَّاها، فقالَ: «مَا اسْتَطَعْتُ»؛ أيْ: ألتزمُ ذلكَ بحَسَبِ استطاعَتِي وقدرَتِي.

ثُمَّ شَهِدَ المشهدَيْنِ المذكورَيْنِ وهما مشهدُ القدرةِ والقوَّةِ، ومشهدُ التقصيرِ منْ نفسِهِ؛ فقالَ: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ» فهذِهِ الكلمةُ تضمَّنَت المشهدَيْنِ معاً، ثُمَّ أضافَ النِّعمَ كلَّها إلى وليِّها وأهلِها والمبتدِئِ بها، والذنبَ إلى نفسِهِ وعملِهِ، فقالَ: «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي»، فأنتَ المحمودُ والمشكورُ الذي لهُ الثناءُ كلُّهُ والإحسانُ كلُّهُ، ومنهُ النعمُ كلُّها، فلكَ الحمدُ كلُّهُ ولكَ الثناءُ كلُّهُ ولكَ الفضلُ كلُّهُ، وأنا المذنبُ المسيءُ المعترفُ بذنبِهِ المقرُّ بخطَئِهِ، كما قالَ بعضُ العارفينَ: العارفُ يسيرُ بينَ مُشاهدةِ المِنَّةِ من اللهِ، ومُطالعةِ عيبِ النفسِ والعملِ:

- فشهودُ المِنَّةِ يُوجبُ لهُ المحبَّةَ لربِّهِ سُبحانَهُ وحمدَهُ والثناءَ عليهِ.
- ومُطالعةُ عيبِ النفسِ والعملِ يُوجبُ استغفارَهُ ودوامَ توبَتِهِ وتضرُّعَهُ واستكانَتَهُ لربِّهِ سُبحانَهُ.

ثُمَّ لَمَّا قامَ هذا بقلبِ الداعي وتوسَّلَ إليهِ بهذهِ الوسائلِ قالَ: «فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ»)(١).

(١) طَريقُ الهِجرتَيْنِ (١٦٩-١٧١).

[فَصْلٌ]

وجماعُ الأمرِ في ذلكَ إنَّما هوَ بتكميلِ عُبُوديَّتِهِ للهِ عزَّ وجلَّ في الظاهرِ والباطنِ، فتكونُ حركاتُ نفسِهِ وجسمِهِ كلُّها في محبوباتِ اللهِ، فكمالُ عبوديَّةِ العبدِ مُوَافَقَتُهُ لربِّهِ في محبَّتِهِ ما أحبَّهُ وبذْلُ الجهدِ في فعلِهِ، ومُوافقتُهُ في كراهةِ ما كَرِهَهُ وبذْلُ الجهدِ في ترْكِهِ، وهذا إنَّما يكونُ للنفسِ المطمئنَّةِ لا للأمَّارةِ ولا للَّوَّامةِ، فهذا كمالٌ منْ جهةِ الإرادةِ والعملِ. وأمَّا منْ جهةِ العلمِ والمعرفةِ: **فأنْ تكونَ بصيرَتُهُ مُنْفَتِحَةً في معرفةِ الأسماءِ والصِّفَاتِ والأفعالِ**، لهُ شهودٌ خاصٌّ فيها مُطَابِقٌ لما جاءَ بِهِ الرسولُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا مخالفٌ لهُ، فإنَّهُ بحسَبِ مخالفتِهِ لهُ في ذلكَ يقعُ الانحرافُ ويكونُ معَ ذلكَ قائماً بأحكامِ العبوديَّةِ الخاصَّةِ التي تقتضِيها كلُّ صفةٍ بخُصوصِها.

وهذا سلوكُ الأكياسِ الذينَ هُمْ خُلاصةُ العالمِ، والسالكونَ على هذا الدَّرْبِ أفرادٌ من العالمِ، طَرِيقٌ سهلٌ قريبٌ مُوصِلٌ، طَرِيقٌ آمِنٌ، أكثرُ السالكينَ في غفلةٍ عنهُ.

لكنْ يستدعي رسوخاً في العلمِ ومعرفةً تامَّةً بهِ، وإقداماً على ردِّ الباطلِ المخالفِ لهُ ولوْ قالَهُ مَنْ قالَهُ. وليسَ عندَ أكثرِ الناسِ سِوَى رُسُوم تلَقَّوْهَا عنْ قوم مُعَظَّمِينَ عندَهُم، ثُمَّ لإحسانِ ظنِّهم بهم قدْ وقَفُوا عندَ أقوالِهم ولمْ يتجاوَزُوها إلى غيرِها، فصارَتْ حِجَاباً لهم، وأيُّ حجابٍ.

فمَنْ فتحَ اللهُ بصيرةَ قلبِهِ وإيمانِهِ حتَّى خرَقَها وجاوَزَها إلى مُقتضى الوحيِ والفطرةِ والعقلِ فقدْ أُوتِيَ خيراً كثيراً، ولا يُخَافُ عليهِ إلاَّ منْ ضعفِ هِمَّتِهِ، فإذا انْضَافَ إلى ذلكَ الفتحِ هِمَّةٌ عاليَةٌ فذاكَ السابقُ حقًّا، واحدُ الناسِ بزمانِهِ، لا يُلْحَقُ شَأْوُهُ ولا يُشَقُّ غُبَارُهُ.

فشتَّانَ ما بينَ مَنْ يتلقَّى أحوالَهُ ووارِدَاتِهِ عن الأسماءِ والصِّفَاتِ، وبينَ مَنْ يتلقَّاها عن الأوضاعِ الاصطلاحِيَّةِ والرسومِ أوْ عنْ مجرَّدِ ذَوْقِهِ ووَجْدِهِ، إذا استحسنَ شيئاً قالَ: هذا هوَ الحقُّ.

فالسيرُ إلى اللهِ منْ طريقِ الأسماءِ والصِّفَاتِ شأْنُهُ عَجَبٌ، وفتْحُهُ عجبٌ، صاحِبُهُ قدْ سبقَتْ لهُ السعادةُ وهوَ مُسْتَلْقٍ على فراشِهِ غيرُ تَعِبٍ ولا مكدودٍ ولا مُشَتَّتٍ عنْ وطنِهِ ولا مشرَّدٍ عنْ سكنِهِ ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

وليسَ العجبُ منْ سائرٍ في ليلِهِ ونهارِهِ وهوَ في الثرى لمْ يَبْرَحْ منْ مكانِهِ، وإنَّما العجبُ منْ ساكنٍ لا يُرَى عليهِ أثرُ السفرِ وقدْ قطعَ المراحلَ والمفاوزَ.

- فسائرٌ قدْ ركِبَتْهُ نفسُهُ فهوَ حامِلُها سائرٌ بها مَلْبُوكٌ، يُعاقبُها وتُعَاقِبُهُ، ويَجُرُّها وتهرُبُ منهُ، ويخطُو بها خطوةً إلى أمامِهِ فتجذِبُهُ خطوتَيْنِ إلى ورائِهِ، فهوَ معَها في جَهدٍ وهيَ معهُ كذلكَ.

- وسائرٌ قدْ رَكِبَ نفسَهُ وملكَ عِنانَها فهوَ يسُوقُها كيفَ شاءَ وأينَ شاءَ لا تلْتَوِي عليهِ ولا تنجذبُ ولا تهرُبُ منهُ، بلْ هيَ معهُ كالأسيرِ الضعيفِ في يدِ مالكِهِ وآسرِهِ، وكالدابَّةِ الرِّيضةِ المُنْقَادةِ في يدِ سائِسِها وراكِبِها، فهيَ منقادةٌ معهُ حيثُ قادَها، فإذا رامَ التقدُّمَ جَمَزَتْ بهِ وأسْرَعَتْ، فإذا أرْسَلَهَا سَارَتْ بهِ وجَرَتْ في الحَلْبَةِ إلى الغايَةِ، ولا يرُدُّها شيءٌ.

فتسيرُ بهِ وهوَ ساكنٌ على ظهرِها، ليسَ كالذي نـزلَ عنها فهوَ يجرُّها بلِجامِهِ، ويَشْحَطُها ولا تنشَحِطُ، فشتَّانَ ما بينَ المسافرَيْنِ. فتأمَّلْ هذا المَثَلَ؛ فإنَّهُ مطابقٌ لحالِ السائرَيْنِ... واللهُ يختصُّ برحمَتِهِ مَنْ يشاءُ)(١).

(١) طَرِيقُ الهِجرتَينِ (٢٢٠-٢٢٢).

[فَصْلٌ]

(وها هنا سِرٌّ بديعٌ وهوَ: أنَّ مَنْ تعلَّقَ بصفةٍ منْ صفاتِ الربِّ تعالى أدْخَلَتْهُ تلكَ الصفةُ عليهِ وأوصَلَتْهُ إليهِ...

والربُّ تعالى يحبُّ أسماءَهُ وصفاتِهِ، ويحبُّ مُقتضى صفاتِهِ وظهورَ آثارِها في العبدِ؛ فإنَّهُ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، ... كريمٌ يحبُّ أهلَ الكرمِ، عليمٌ يحبُّ أهلَ العلمِ، وِتْرٌ يحبُّ أهلَ الوترِ، قويٌّ والمؤمنُ القويُّ أحبُّ إليهِ من المؤمنِ الضعيفِ، صبورٌ يحبُّ الصابرينَ، شكورٌ يحبُّ الشاكرينَ) [(١)].

(وهوَ سُبحانَهُ وتعالى رحيمٌ يحبُّ الرحماءَ، وإنَّما يرحمُ منْ عبادِهِ الرحماءَ، وهوَ سِتِّيرٌ يحبُّ منْ يسْتُرُ على عبادِهِ، وعَفُوٌّ يحبُّ مَنْ يعْفُو عنهم، وغفورٌ يحبُّ مَنْ يغفرُ لهم، ولطيفٌ يحبُّ اللطيفَ منْ عبادِهِ، ويَبْغَضُ الفظَّ الغليظَ القاسيَ الجَعْظَرِيَّ الجَوَّاظَ، ورفيقٌ يحبُّ الرفقَ، وحليمٌ يحبُّ الحِلْمَ، وبَرٌّ يحبُّ البرَّ وأهلَهُ، وعَدْلٌ يحبُّ العَدْلَ، وقابلُ المعاذيرِ يحبُّ مَنْ يقبلُ معاذيرَ عبادِهِ.[(٢)]

ويُجازِي عبدَهُ بحسَبِ هذهِ الصِّفَاتِ فيهِ وُجُوداً وعدماً، فمَنْ عَفَا عفَا عنهُ، ومَنْ غفرَ غفرَ لهُ، ومَنْ سامحَ سامَحَهُ، ومَنْ حَاقَقَ حَاقَقَهُ، ومَنْ رَفَقَ بعبادِهِ رَفَقَ بهِ، ومَنْ رَحِمَ خلْقَهُ رَحِمَهُ، ومَنْ أحسنَ إليهم أحسنَ إليهِ،

---

(١) عِدَّةُ الصابرينَ (٥٦).

وقال -رَحِمَهُ اللهُ- في كتابِهِ الدَّاءِ والدَّواءِ (١٢٩-١٣٠): (فالغَيُّورُ قد وَافَقَ رَبَّهُ سُبْحانَهُ في صِفَةٍ مِن صِفاتِهِ، ومَنْ وَافَقَ اللهَ في صفةٍ من صفاتِه قادَتْهُ تلكَ الصفةُ إِلَيْهِ بزمامِهَا، وأَدْخلَتْهُ على ربِّه، وأَدْنَتْهُ منه، وقَرَّبَتْهُ مِنْ رَحمتِهِ، وصَيَّرَتْهُ محبوبًا له، فإنه سُبحانَهُ رحيمٌ يُحِبُّ الرُّحماءَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الكُرماءَ، عَلِيمٌ يُحِبُّ العُلماءَ، قَوِيٌّ يُحِبُّ المؤمنَ القويَّ، وهو أَحَبُّ إليه من المؤمنِ الضَّعِيفِ، حَيِيٌّ يُحِبُّ أَهْلَ الحَياءِ، جَمِيلٌ يُحِبُّ أَهْلَ الجَمالِ، وِتْرٌ يُحِبُّ أَهْلَ الوِتْرِ).

(٢) وقالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في كتابِهِ عدةِ الصابرينَ (٥٦): (وإذا كانَ سُبحانَهُ يُحِبُّ المُتَّصِفينَ بآثارِ صِفاتِهِ فهُو مَعَهُم بحَسَبِ نَصيبِهِم من هذا الاتصافِ، فهذه المَعِيَّةُ الخاصَّةُ عبَّرَ عنها بقولِهِ: (كُنتُ لَهُ سَمْعًا وبَصَرًا ويَدًا ومُؤَيِّدًا).

ومَنْ جادَ عليهم جادَ عليهِ، ومَنْ نفعهُم نفعَهُ، ومَنْ سترَهُم سترَهُ، ومَنْ صفَحَ عنهم صفَحَ عنهُ، ومَنْ تتبَّعَ عوْرَتَهُم تتبَّعَ عورَتَهُ، ومَنْ هتكَهُم هتكَهُ وفضَحَهُ، ومَنْ منَعَهُم خيْرَهُ منَعَهُ خيْرَهُ، ومَنْ شاقَّ شاقَّ اللهُ تعالى بهِ، ومَنْ مكرَ مكرَ بهِ، ومَنْ خادعَ خادَعَهُ، ومَنْ عاملَ خلْقَهُ بصفةٍ عامَلَهُ اللهُ تعالى بتلكَ الصفةِ بعينِها في الدنيا والآخرةِ.

فاللهُ تعالى لعبدِهِ على حسَبِ ما يكونُ العبدُ لخلقِهِ، ولهذا جاءَ في الحديثِ: «مَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، [و: لعلها سقطت] مَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ تَعَالَى حِسَابَهُ». [1] وَ«مَنْ أَقَالَ نَادِماً أَقَالَ اللهُ تَعَالَى عَثْرَتَهُ» [2]، وَ«مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ اللهُ تَعَالَى فِي ظِلِّ عَرْشِهِ» [3]؛ لأنَّهُ لَمَّا جعَلَهُ في ظلِّ الإنظارِ والصبرِ، ونجَّاهُ منْ حرِّ المُطالبةِ، وحرارةِ تكلُّفِ الأداءِ معَ عُسْرَتِهِ وعجزِهِ، نَجَّاهُ اللهُ تعالى منْ حرِّ الشمسِ يومَ القيامةِ إلى ظلِّ العرشِ.

---

(١) جزءٌ من حديثٍ رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٧٣٧٩)، ومسلمٌ في كتابِ الذكرِ والدعاءِ / بابُ فضلِ الاجتماعِ على تلاوةِ القرآنِ (٦٧٩٣)، وابْنُ مَاجَهْ في المُقدِّمةِ / بابُ فضلِ العلماءِ والحثِّ على الطَّلَبِ (٢٢٥) مِن حديثِ الأعمشِ، عن أبي صالحٍ، عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه، إلا أن تَرْتيبَ الخِلالِ مُخْتَلِفٌ.

(٢) رواه أبو داودَ في كتابِ البُيوعِ / بابٌ في فضلِ الإقالةِ (٣٤٥٦)، وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ التِّجاراتِ/ بابُ الإقالةِ (٢١٩٩) بلفظٍ مُقارِبٍ.
قال البُوصِيريُّ: هذا إسنادٌ صحيحٌ على شرطِ مُسلمٍ.

(٣) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٨٤٩٤)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ البُيوعِ/ بابُ ما جاءَ في إنظارِ المُعسِرِ والرِّفْقِ به (١٣٠٦) من حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه.
وهو عند مُسلمٍ من حديثِ أبي اليَسَرِ رَضِيَ اللهُ عَنه من دُونِ ذِكرِ العَرشِ، كتابُ الزهدِ / بابُ حديثِ جَابرٍ الطويلِ (٧٤٣٧).

وكذلكَ الحديثُ الذي في الترمذيِّ وغيرِهِ، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ في خُطبتِهِ يوماً: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لا تُؤْذُوا المُسْلِمِينَ، وَلا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ**»[1].

فكما تَدِينُ تُدَانُ، وكنْ كيفَ شئتَ؛ فإنَّ اللهَ تعالى لكَ كما تكونُ أنتَ لهُ ولعبادِهِ.

ولَمَّا أظهرَ المنافقونَ الإسلامَ وأسرُّوا الكفرَ أظهرَ اللهُ تعالى لهم يومَ القيامةِ نوراً على الصراطِ، وأظهرَ لهم أنَّهم يَجُوزُونَ الصراطَ، وأسَرَّ لهم أنْ يُطْفِئَ نُورَهُم وأنْ يُحَالَ بينَهم وبينَ الصراطِ منْ جِنْسِ أعمالِهِم.

وكذلكَ مَنْ يُظْهِرُ للخلقِ خلافَ ما يعلَمُهُ اللهُ فيهِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يُظْهِرُ لهُ في الدنيا والآخرةِ أسبابَ الفلاحِ والنجاحِ والفوزِ، ويُبْطِنُ لهُ خلافَها.

وفي الحديثِ: «**مَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ، وَمَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ**»[2]).[3][4]

---

(١) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٩٢٧٧)، والتِّرمِذيُّ في كتابِ البرِّ والصلةِ / بابُ ما جاءَ في تعظيمِ المؤمنِ (٢٠٣٢)، وأبو داودَ في كتابِ الأدبِ / بابٌ في الغِيبَةِ (٤٨٧٠) من حديثِ أبي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْه.

(٢) رواه مسلمٌ كتابُ الزهدِ / بابُ مَنْ أَشْرَكَ في عَمَلِهِ غيْرَ اللهِ (٧٤٠١) من حديثِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهما.

(٣) الوابلُ الصَّيِّبُ (٦٨-٦٩).

(٤) مُلحَقٌ: وقالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في مَدارجِ السالكينَ (٢/ ٦٤-٦٦): (فصلٌ: ومِن منازلِ (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ): مَنْزِلَةُ المُراقَبةِ) قال تعالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وقال تعالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب: ٥٢] وقال تعالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقالَ تعالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ١٤] وقال تعالَى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] وقال تعالَى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ وفي حديثِ جبريلَ عليه السلامُ: أنه سألَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ عن الإحسانِ؟ فقال له: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

المراقبةُ دوامُ عِلم العَبْدِ، وتَيَقُّنُهُ باطلاعِ الحقِّ سُبحانَهُ وتَعالَى على ظَاهِرِه وباطِنه، فَاسْتِدَامَتُهُ لهذا العلمِ واليَقِينِ: هي (المُراقَبَةُ) وهي ثَمْرَةُ عِلْمِهِ بأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ رَقِيبٌ عليه، ناظرٌ إليه، سَامِعٌ لقولِهِ: وهو مُطَّلِعٌ على عَمَلِهِ كُلَّ وَقْتٍ وكُلَّ لحظةٍ وكُلَّ نَفَسٍ وكُلَّ طَرْفَةِ عَينٍ، والغافلُ عن هذا بمَعْزِلٍ عن حالِ أهلِ البداياتِ، فكيف بحالِ المُريدينَ؟ فكيفَ بحالِ العارفينَ؟

وقال الجَريريُّ: مَنْ لَمْ يُحْكِمْ بَيْنَهُ وبينَ اللهِ تَعالَى التَّقْوَى والمُراقَبَةُ: لم يَصِلْ إلى الكشفِ والمشاهدةِ. وقيلَ: مَنْ رَاقَبَ اللهَ في خواطِرِه، عَصَمَهُ في حَركاتِ جوارِحِه، وقيلَ لبعضِهِم: مَتَى يَهُشُّ الرَّاعي غَنَمَهُ بعَصاهُ عَنْ مَراتِعِ الهَلَكَةِ؟ فقالَ: إذا عَلِمَ أنَّ عليه رَقِيبًا.

وقالَ الجُنَيْدُ: مَنْ تحقَّقَ في المراقبةِ خَافَ على فواتِ لَحظةٍ مِن رَبِّهِ لا غَيْرُ، وقال ذو النُّونِ: علامةُ المراقبةِ إيثارُ ما أَنْزَلَ اللهُ، وتعظيمُ ما عَظَّمَ اللهُ، وتصغيرُ ما صَغَّرَ اللهُ، وقيلَ: الرجاءُ يُحرِّكُ إلى الطاعةِ، والخوفُ يُبْعِدُ عن المعاصِي، والمُراقَبَةُ تُؤَدِّيكَ إلى طريقِ الحقائقِ.

وقيلَ: المُراقَبَةُ مراعاةُ القلبِ لمُلاحَظَةِ الحَقِّ معَ كُلِّ خَطْرَةٍ وخُطْوَةٍ، وقالَ الجَريريُّ: أَمْرُنا هذا مَبْنِيٌّ على فَصلَينِ: أن تُلْزِمَ نَفْسَكَ المُراقَبَةَ للهِ، وأن يكونَ العِلْمُ على ظاهِرِكَ قائمًا، وقال إبراهيمُ الخَوَّاصُ: المُراقبةُ خُلوصُ السِّرِّ والعلانيَةِ للهِ عَزَّ وجل. وقيلَ: أَفْضَلُ ما يُلْزِمُ الإنسانُ نَفْسَهُ في هذه الطريقِ: المُحاسَبَةُ والمُراقَبَةُ، وسياسةُ عَمَلِهِ بالعِلمِ، وقال أبو حَفصٍ لأبي عُثْمَانَ النَّيْسَابُورِيِّ: إذا جَلَسْتَ للناسِ فكُنْ وَاعِظًا لقَلْبِكَ ونَفْسِكَ، ولا يَغُرَّنَّكَ اجتماعُهُم عليكَ، فإنهم يُراقِبُونَ ظَاهِرَكَ، واللهُ يُرَاقِبُ بَاطِنَكَ.

وأربابُ الطريقِ مُجْمِعُونَ على أن مُراقبةَ اللهِ تعالَى في الخواطِرِ: سَبَبٌ لِحفْظِهَا في حَرَكاتِ الظواهِرِ: فَمَنْ رَاقَبَ اللهَ في سِرِّهِ، حَفِظَهُ اللهُ في حَرَكَاتِهِ في سِرِّه وعَلانِيَتِهِ. والمراقبةُ: هي التعبُّدُ باسمِه (الرقيبِ) الحَفِيظِ، العليمِ، السَّمِيعِ، البَصِيرِ، فمَنْ عَقَلَ هذه الأسماءَ، وتَعَبَّدَ بمُقْتَضاهَا: حَصَلَتْ لَهُ المُراقَبَةُ. واللهُ أَعْلَمُ).

البابُ السابعَ عشرَ: في بيانِ بعضِ ما تَضَمَّنَتْهُ فَرِيضةُ الصلاةِ مِنْ لَطَائِفِ التَّعَبُّدِ للّهِ تَعَالى بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وصفاتِهِ الْعُلَى

(لا رَيْبَ أَنَّ الصلاةَ قُرَّةُ عُيونِ المحبِّينَ، ولَذَّةُ أرواحِ المُوَحِّدِينَ، ومحَكُّ أحوالِ الصادقِينَ، ومِيزانُ أحوالِ السالكِينَ، ورحمتُهُ المُهداةُ إلى عَبِيدِهِ هَدَاهُم إليها وعَرَّفَهُم بِهَا؛ رحمةً بهم وإكراماً لهم لِيَنَالُوا بها شَرَفَ كَرامتِهِ، والفوزَ بقُرْبِهِ، لا حاجةً منهُ إليهم، بلْ... مَنًّا وفضلاً منهُ عليهِمْ، وتَعَبَّدَ بها القلبَ والجوارحَ جميعاً، وجَعَلَ حَظَّ القلبِ منها أَكْمَلَ الْحَظَّيْنِ وأَعْظَمَهما، وهوَ إقبالُهُ على ربِّهِ سُبحانَهُ وفَرَحُهُ وتَلَذُّذُهُ بقُرْبِهِ، وتَنعُّمُهُ بحُبِّهِ، وابتهاجُهُ بالقيامِ بينَ يَدَيهِ، وانصرافُهُ حالَ القيامِ بالعُبوديَّةِ عن الالتفاتِ إلى غيرِ مَعبودِهِ، وتكميلُ حُقوقِ عُبوديَّتِهِ حتَّى تَقعَ على الوَجهِ الذي يَرضاهُ.

ولَمَّا امْتَحَنَ سُبحانَهُ عَبْدَهُ بالشهواتِ وأسبابِها مِنْ داخلٍ فيهِ وخارجٍ عنهُ اقْتَضَتْ تَمامُ رَحمتِهِ بِهِ وإحسانُهُ إليهِ أنْ هيَّأَ لهُ مَأْدُبَةً قدْ جَمَعَتْ مِنْ جميعِ الأَلوانِ والتُّحَفِ والْخِلَعِ والعطايا، ودَعاهُ إليهِ كُلَّ يومٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، وجَعَلَ كلَّ لونٍ مِنْ ألوانِ تلكَ المَأْدُبَةِ لَذَّةً ومَنفعةً ومَصلحةً لهذا العَبْدِ الذي قدْ دَعاهُ إلى المَأْدُبَةِ ليستْ في اللونِ الآخرِ لتكمُلَ لَذَّةُ عَبْدِهِ في كلِّ لونٍ مِنْ ألوانِ العُبُوديَّةِ، ويُكْرِمَهُ بكلِّ صِنْفٍ مِنْ أصنافِ الكرامةِ، ويكونَ كلُّ فِعْلٍ مِنْ أفعالِ تلكَ العُبوديَّةِ مُكَفِّراً لِمَذموم كانَ يَكْرَهُهُ بإزائِهِ، ولِيُثِيبَهُ عليهِ نوراً خاصًّا وقُوَّةً في قلبِهِ وجَوارِحِهِ وثواباً خاصًّا يومَ لِقَائِهِ.

فيَصْدُرُ المَدْعُوُّ مِنْ هذهِ المَأْدُبَةِ وقدْ أَشْبَعَهُ وأَرواهُ، وخَلَعَ عليهِ بخِلَعِ القَبُولِ وأَغناهُ؛ لأنَّ القلبَ كانَ قَبْلُ قدْ نالَهُ مِن القَحْطِ والجَدْبِ والجوعِ والظَّمأِ والعُرْيِ والسَّقَمِ ما نَالَهُ، فأَصْدَرَهُ مِنْ عندِهِ وقدْ أَغناهُ عن الطعامِ والشرابِ واللِّباسِ والتُّحَفِ ما يُغْنِيهِ.

ولَمَّا كانت الجُدوب مُتتابعةً، وقَحْطُ النفوسِ مُتوالياً، جَدَّدَ لهُ الدعوةَ إلى هذهِ المَأْدُبَةِ وقتاً بعدَ وقتٍ رَحمةً منهُ بهِ، فلا يَزالُ مُسْتَسْقِياً مَنْ بِيَدِهِ غَيْثُ القلوبِ وسَقْيُها، مُسْتَمْطِراً سَحائبَ رَحمتِهِ؛ لِئَلاَّ يَيْبَسَ ما أَنْبَتَتْهُ لهُ تلكَ مِنْ كَلأِ الإيمانِ وعُشْبِهِ وثِمارِهِ، ولئلا تَنْقَطِعَ مادَّةُ النباتِ.

والقلبُ في استسقاءٍ واستمطارٍ، هكذا دائماً يَشْكُو إلى ربِّهِ جَدْبَهُ وقَحْطَهُ وضَرورتَهُ إلى سُقْيَا رَحمتِهِ، وغَيْثِ بِرِّهِ فهذا دَأْبُ العبدِ أَيَّامَ حياتِهِ.

فإنَّ الغفلةَ التي تَنْزِلُ بالقلبِ هيَ القَحْطُ والجدْبُ، فما دامَ في ذِكْرِ اللهِ والإقبالِ عليهِ فغَيْثُ الرحمةِ واقعٌ عليهِ كالمطَرِ المتدارِكِ، فإذا غَفَلَ نالَهُ مِن القحطِ بِحَسَبِ غَفْلَتِهِ قِلَّةً وكَثْرَةً، فإذا تَمَكَّنَت الغفلةُ واستَحْكَمَت صارتْ أَرْضُهُ مَيِّتَةً، وسَنَتُهُ جَرْدَاءَ يَابسةً، وحريقُ الشهواتِ فيها مِنْ كلِّ جانبٍ كالسمايمِ.

وإذا تدارَكَ عليهِ غيثُ الرحمةِ اهتزَّتْ أَرْضُهُ وربَتْ وأَنْبَتَتْ مِنْ كلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ، فإذا نَالَهُ القَحْطُ والجدْبُ كانَ بِمَنْـزِلَةِ شَجرةٍ رُطُوبَتُها ولِينُها وثِمارُها مِن الماءِ، فإذا مُنِعَتْ مِن الماءِ يَبِسَتْ عُروقُها وذَبَلَتْ أغصانُها، وحُبِسَتْ ثِمارُها، ورُبَّما يَبِسَت الأغصانُ والشجرةُ، فإذا مَدَدْتَ منها غُصناً إلى نفسِكَ لم يَمْتَدَّ ولم يَنْقَدْ لكَ وانْكَسَرَ، فحينئذٍ تَقتَضِي حِكمةُ قَيِّمِ البستانِ قَطْعَ تلكَ الشجرةِ وجَعْلَها وَقُوداً للنارِ، فكذلكَ القلبُ، إِنَّما يَيْبَسُ إذا خَلا مِنْ توحيدِ اللهِ وحُبِّهِ ومَعرفتِهِ وذِكْرِهِ ودُعائِهِ فتُصيبُهُ حَرارةُ النفسِ ونارُ الشهواتِ فتَمتنعُ أغصانُ الجوارحِ مِن الامتدادِ إذا مَدَدْتَها والانقيادِ إذا قُدْتَها، فلا تَصْلُحُ بعدُ هيَ والشجرةُ إلاَّ للنارِ. ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢].

فإذا كانَ القلبُ ممطوراً بِمَطَرِ الرحمةِ كانت الأغصانُ ليِّنَةً مُنقادةً رَطْبَةً، فإذا مَدَدْتَهَا إلى أَمْرِ اللهِ انقادَتْ مَعَكَ، وأَقْبَلَتْ سريعةً لَيِّنَةً وَادِعةً، فجَنَيْتَ منها مِنْ ثمارِ العُبوديَّةِ ما يَحْمِلُهُ كلُّ غُصْنٍ مِنْ تلكَ الأغصانِ، ومادَّتُها مِنْ رُطوبةِ القلبِ وَرِيِّهِ، فالمادَّةُ تَعملُ عَمَلَها في القلبِ والجوارحِ، وإذا يَبِسَ القلبُ تَعطَّلَت الأغصانُ مِنْ أعمالِ البِرِّ؛ لأنَّ مادَّةَ القلبِ وحياتَهُ قد انْقَطَعَتْ منهُ فَلَمْ تَنْتَشِرْ في الجوارحِ، فتَحْمِلُ كلُّ جارحةٍ ثَمَرَها مِن العُبُودِيَّةِ، وللهِ في كلِّ جارحةٍ مِنْ جوارحِ العبدِ عُبودِيَّةٌ تَخُصُّها، وطاعةٌ مَطلوبةٌ منها، خُلِقَتْ لأجْلِها وهُيِّئَتْ لها.

والناسُ بعدَ ذلكَ ثلاثةُ أقسامٍ:

أحدُها: مَن استعْمَلَ تلكَ الجوارحَ فيما خُلِقَتْ لهُ وأُرِيدَ منها. فهذا هوَ الذي تاجَرَ اللهَ بأربحِ التجارةِ، وباعَ نفسَهُ للهِ بأربحِ البيعِ. والصلاةُ وُضِعَتْ لاستعمالِ الجوارحِ، جميعِها في العُبوديَّةِ تَبَعاً لقيامِ القلبِ بها.

الثاني: مَن استعْمَلَهَا فيما لم تُخْلَقْ لهُ، ولم [يُخْلَقْ][1] لها، فهذا هوَ الذي خابَ سَعْيُهُ وخَسِرَتْ تجارتُهُ، وفاتَهُ رِضَى ربِّهِ عنهُ، وجزيلُ ثوابِهِ، وحَصَلَ على سَخَطِهِ وأليمِ عِقابِهِ.

الثالثُ: مَنْ عَطَّلَ جَوارِحَهُ وأَماتَهَا بالبَطالةِ، فهذا أيضاً خاسرٌ أعظمَ خَسارةٍ؛ فإنَّ العبدَ خُلِقَ للعبادةِ والطاعةِ لا للبَطالةِ، وأَبْغَضُ الخلْقِ إلى اللهِ البطَّالُ الذي لا في شُغْلِ الدنيا ولا في سَعْيِ الآخرةِ، فهذا كَلٌّ على الدنيا والدِّينِ.

فالأول: كرجُلٍ أَقْطَعَ أرضاً واسعةً وأُعِينَ بآلاتِ الحَرْثِ والبِذَارِ، وأُعْطِي ما يَكفِيهَا لسَقْيِها فحَرَثَها وهَيَّأَهَا للزراعةِ وبَذَرَ فيها مِنْ أنواعِ الغِلالِ، وغَرَسَ فيها مِنْ أنواعِ الثمارِ والفواكِهِ المختلفةِ الأنواعِ، ثُمَّ لم يُهْمِلْهَا بلْ أقامَ عليها

(١) في الأصلِ (يُطْلِقُ): وهو تصحيفٌ ظاهرٌ، وقد أشارَ إليه مُحَقِّقُ الكتاب -أثابَهُ اللهُ-.

الحرَسَ وحَفِظَهَا مِن المُفْسِدِينَ، وجعَلَ يَتَعَاهَدُها كلَّ يومٍ فيُصْلِحُ ما فَسَدَ منها، ويَغْرِسُ عِوَضَ ما يَبِسَ، ويَنْفِي دَغَلَها، ويَقْطَعُ شَوْكَها، ويَستعينُ بِمُغِلِّها على عِمارَتِها.

والثاني: بِمَنْـزِلَةِ رَجُلٍ أَخَذَ تلكَ الأرضَ فجعَلَها مَأْوًى للسِّباعِ والهوامِّ ومُطَّرَحاً للجِيَفِ والأَنْتَانِ، وجعَلَها مَعْقِلاً يَأْوِي إليهِ كلُّ مُفْسِدٍ ومُؤذٍ ولِصٍّ، وأَخذَ ما أُعِينَ بهِ على بِذارِها وصَلاحِها فصَرَفَهُ مَعونةً ومَعيشةً لِمَنْ فيها مِنْ أهلِ الشرِّ والفسادِ.

والثالثُ: بمنزلة رجل عطَّلها وأَهْمَلَها وأَرْسَلَ ذلكَ الماءَ ضَائعاً في القِفَارِ والصَّحارِي، فقعَدَ مَذموماً مَحْسوراً. فهذا مِثالُ أهلِ الغفلةِ.

والذي قَبْلَهُ مِثالُ أهلِ الخِيانةِ والجِنايَةِ.

والأَوَّلُ مِثالُ أهلِ اليَقظةِ والاستعدادِ لِمَا خُلِقُوا لهُ.

فالأول: إذا تحرَّكَ أوْ سَكَنَ أوْ قامَ أوْ قعَدَ أوْ أَكَلَ أوْ شَرِبَ أوْ نامَ أوْ لَبِسَ أوْ نَطَقَ أوْ سَكَتَ كانَ ذلكَ كلُّهُ لهُ لا عليهِ، وكان في ذِكْرٍ وطاعةٍ وقُربةٍ ومَزيدٍ.

والثاني: إذا فَعَلَ ذلكَ كانَ عليهِ لا لهُ، وكان في طَرْدٍ وإبعادٍ وخُسرانٍ.

والثالثُ: إذا فَعَلَ ذلكَ كانَ في غَفْلَةٍ وبَطالةٍ وتفريطٍ.

فالأَوَّلُ: يَتقلَّبُ فيما يَتقلَّبُ فيهِ بِحُكْمِ الطاقةِ والقُرْبَةِ.

والثاني: يَتَقَلَّبُ في ذلكَ بِحُكْمِ الخيانةِ والتعدِّي فإنَّ اللهَ لم يُمَلِّكْهُ ما مَلَّكَهُ لِيَستعينَ بِهِ على مُخالفتِهِ، فهوَ جانٍ مُتَعَدٍّ خائنٌ للهِ في نِعَمِهِ، معاقَبٌ على التَّنَعُّمِ بها في غيرِ طاعتِهِ.

والثالثُ: يَتَقَلَّبُ في ذلكَ ويَتناوَلُهُ بِحُكْمِ الغفلةِ وبَهجةِ النفسِ وطبيعتِها، لم يَبْتَغِ بذلكَ رِضوانَ اللهِ والتقرُّبَ إليهِ، فهذا خُسرانٌ بَيِّنٌ إذ عطَّلَ أوقاتَ عُمُرِهِ التي لا قِيمةَ لها عنْ أَفضلِ الأرباحِ والتجاراتِ.

فدَعَا اللهُ سُبحانَهُ الموَحِّدينَ إلى هذهِ الصلواتِ الخمسِ رَحمةً منهُ عليهم، وهيَّأَ لهم فيها أنواعَ العِبادةِ ليَنالَ العبدُ مِنْ كلِّ قولٍ وفِعْلٍ وحَركةٍ وسكونٍ حَظَّهُ مِنْ عَطاياهُ.

وكان سِرُّ الصلاةِ ولُبُّها إقبالَ القلبِ فيها على اللهِ وحضورَهُ بكُلِّيَّتِهِ بينَ يدَيْهِ، فإذا لم يُقْبِلْ عليهِ واشتَغَلَ بغيرِهِ ولَهَا بحديثِ النفسِ، كانَ بِمَنْزِلَةِ وافدٍ وَفَدَ إلى بابِ الملِكِ مُعْتَذِراً مِنْ خَطئِهِ وزَلَـلِهِ مُسْتَمْطِراً لِسَحَائِبِ جُودِهِ ورَحمتِهِ مُسْتَطْعِماً لهُ ما يَقوتُ قَلْبَهُ، ليَقْوى على القيامِ في خِدمتِهِ، فلَمَّا وَصَلَ إلى البابِ ولم يَبْقَ إلاَّ مُناجاةُ الملِكِ، الْتَفَتَ عن الملِكِ وزاغَ عنهُ يَمِيناً أوْ وَلاَّهُ ظَهْرَهُ، واشتَغَلَ عنهُ بَأَمْقَتِ شيءٍ إلى الملِكِ وأَقَلِّهِ عندَهُ قَدْراً، فآثَرَهُ عليهِ وصَيَّرَهُ قِبْلَةَ قَلْبِهِ، ومَحَلَّ تَوَجُّهِهِ، ومَوْضِعَ سِرِّهِ، وبَعَثَ غِلْمَانَهُ وخَدَمَهُ ليَقِفُوا في طاعةِ المُلِكِ، ويَعْتَذِروا عنهُ ويَنُوبُوا عنهُ في الخِدْمَةِ، والملِكُ شاهدٌ ذلكَ ويرى حالَهُ، ومعَ هذا فكَرَمُ الملِكِ وجُودُهُ وسَعَةُ بِرِّهِ وإحسانُهُ يَأْبى أن يَنصرِفَ عنهُ الخَدَمُ والأتباعُ، فيُصِيبَها مِنْ رَحْمَتِهِ وإحسانِهِ. لكن فَرْقٌ بينَ قِسمةِ الغنائمِ على أهلِ السُّهمانِ مِن الغانمينَ وبينَ الرَّضخِ لِمَنْ لا سَهْمَ لهُ ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٩﴾ [الأحقاف: ١٩].

واللهُ سبحانَهُ خَلَقَ هذا النوعَ الإنسانيَّ لنَفْسِهِ واخْتصَّهُ، وخَلَقَ لهُ كلَّ شيءٍ كما في الأَثَرِ الإلهيِّ: «**ابْنَ آدمَ خَلَقْتُكَ لِنَفْسِي وَخَلَقْتُ كُلَّ شَيْءٍ لَكَ فَبِحَقِّي**

عَلَيْكَ لا تَشْتَغِلْ بِمَا خَلَقْتُهُ لَكَ عَمَّا خَلَقْتُكَ لَهُ». وفي أَثَرٍ آخرَ: «خَلَقْتُكَ لِنَفْسِي، فَلا تَلْعَبْ وَتَكَفَّلْتُ بِرِزْقِكَ فَلا تَتْعَبْ، ابْنَ آدَمَ اطْلُبْنِي تَجِدْنِي، وَإِنْ وَجَدْتَنِي وَجَدْتَ كُلَّ شَيْءٍ، وَإِنْ فُتُّكَ فَاتَكَ كُلُّ شَيْءٍ وَأَنَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»[1].

وجَعَلَ الصلاةَ سَبباً مُوَصِّلاً لهُ إلى قُرْبِهِ ومُناجاتِهِ ومَحَبَّتِهِ والأُنْسِ بهِ، وما بينَ صَلاتَيْنِ تَحْدُثُ لهُ الغَفلةُ والجَفْوَةُ والإِعراضُ والزَّلاتُ والخَطايا، فيُبْعِدُهُ ذلكَ عنْ رَبِّهِ، ويُنَحِّيهِ عنْ قُرْبِهِ، ويَصيرُ كأنَّهُ أَجْنبيٌّ عن العُبوديَّةِ ليسَ مِنْ جُملةِ العَبيدِ، ورُبَّما أَلْقى بيَدِهِ إلى أَسْرِ الْعَدُوِّ فَأَسَرَهُ وغَلَّهُ وقَيَّدَهُ وسَجَنَهُ في سِجْنِ نَفْسِهِ وهَواهِ، فحَظُّهُ ضِيقُ الصدْرِ ومُعالجةُ الهمومِ والغمومِ والأحزانِ والحسَراتِ، ولا يَدْرِي السببَ في ذلكَ.

فاقْتَضَتْ رَحمةُ رَبِّهِ الرحيمِ بهِ أن جَعَلَ لهُ مِنْ عُبوديَّتِهِ عُبوديَّةً جامعةً مُخْتلِفةَ الأجزاءِ والحالاتِ، بِحَسَبِ اختلافِ الأحداثِ التي جاءتْ مِن العَبْدِ، وبِحَسَبِ شِدَّةِ حاجتِهِ إلى نصيبِهِ مِنْ كلِّ خيرٍ مِنْ أجزاءِ تلكَ العُبودِيَّةِ.

فبِالوُضوءِ يَتطهَّرُ مِن الأوساخِ ويُقْدِمُ على ربِّهِ مُتطَهِّراً، والوُضوءُ لهُ ظاهرٌ وباطنٌ، وظاهِرُهُ طهارةُ البَدَنِ وأعضاءِ العِبادةِ، وباطنُهُ وسِرُّهُ طَهارةُ القلبِ مِنْ أوساخِهِ وأدرانِهِ بالتوبةِ، ولهذا يَقْرِنُ سبحانَهُ بينَ التوبةِ والطهارةِ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وشَرَعَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للمُتطَهِّرِ بعدَ فَراغِهِ مِن الوُضوءِ أنْ يَتشهَّدَ، ثُمَّ يقولَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ». فَكَمَّلَ لَهُ مَرَاتِبَ الطَّهَارَةِ بَاطِناً وَظَاهِراً.

فإنَّهُ بالشهادةِ يَتَطَهَّرُ مِن الشرْكِ، وبالتوبةِ يَتطهَّرُ مِن الذنوبِ، وبالماءِ يَتطهَّرُ مِن الأوساخِ الظاهرةِ؛ فشَرَعَ أكملَ مَراتِبِ الطهارةِ قبْلَ الدخولِ على اللهِ

---

(١) ذكَرَهُ ابنُ كثيرٍ في تفسيرِه (٤/ ٢٣٩) مَعزُوًّا لبعضِ الكُتبِ الإلهيَّة، وذَكَرَهُ المُناويُّ في فَيْضِ القَديرِ (٢/ ٣٠٥) غيرَ مَعْزُوٍّ.

والوقوفِ بينَ يديهِ، فلمَّا طَهُرَ ظاهراً وباطناً أَذِنَ لهُ بالدخولِ عليهِ بالقيامِ بينَ يديهِ إذ يَخْلُصُ مِن الإِبَاقِ بمجيئِهِ إلى دارِهِ ومَحَلِّ عُبوديَّتِهِ.

ولهذا كانَ المُجيءُ إلى المسجدِ مِنْ تَمامِ عُبوديَّةِ الصلاةِ الواجبةِ عندَ قَوْمٍ، والمستحبَّةِ عندَ آخرينَ، والعبدُ كانَ في حالِ غَفلتِهِ كالآبِقِ عنْ رَبِّهِ وقدْ عَطَّلَ جَوارِحَهُ وقَلْبَهُ عن الخِدْمَةِ التي خُلِقَ لها، فإذا جاءَ إليهِ فقدْ رَجعَ مِنْ إباقِهِ، فإذا وَقَفَ بينَ يديهِ مَوْقِفَ العُبوديَّةِ والتذَلُّلِ والانكسارِ فقد استَدْعَى عَطْفَ سَيِّدِهِ عليهِ وإقبالَهُ عليهِ بعدَ الإعراضِ.

وأُمِرَ بأن يَسْتَقْبِلَ القِبلةَ بَيتَهُ الحرامَ بوَجهِهِ، ويَستقبِلَ اللهَ عزَّ وجَلَّ بقَلْبِهِ لِيَنْسَلِخَ مِمَّا كانَ فيهِ مِن التَّوَلِّي والإعراضِ، ثُمَّ قامَ بينَ يديهِ مَقامَ الذليلِ الخاضعِ المِسْكينِ المستَعْطِفِ لسَيِّدِهِ وأَلْقَى بيديهِ مُسْلِماً مُسْتَسْلِماً ناكِسَ الرأسِ خاشعَ القلبِ مُطْرِقَ الطَّرْفِ، لا يَلتفتُ قلبُهُ عنهُ ولا طَرْفُهُ يَمْنَةً ولا يَسْرَةً، بلْ قدْ تَوَجَّهَ بقلبِهِ كُلِّهِ إليهِ وأَقْبَلَ بكُلِّيَّتِهِ عليهِ.

ثُمَّ كَبَّرَهُ بالتعظيمِ والإجلالِ وواطَأَ قَلْبُهُ في التكبيرِ لسانَهُ، فكان اللهُ أكبرَ في قَلْبِهِ مِنْ كلِّ شيءٍ، وصدَّقَ هذا التكبيرَ بأنَّهُ لم يكنْ في قلبِهِ شيءٌ أكبرَ مِن اللهِ يَشغلُهُ عنهُ، فإذا اشْتَغَلَ عن اللهِ بغيرِهِ وكان ما اشْتَغَلَ بِهِ أهمَّ ما عِنْدَهُ...[1] كانَ تكبيرُهُ بلسانِهِ دونَ قلبِهِ، فالتكبيرُ يُخْرِجُهُ مِنْ لُبْسِ رِداءِ التَّكَبُّرِ المنافي للعُبوديَّةِ، ويَمْنَعُهُ مِن التفاتِ قَلْبِهِ إلى غيرِ اللهِ.

إذا كانَ اللهُ عندَهُ وفي قلبِهِ أكبرَ مِنْ كلِّ شيءٍ مَنَعَهُ حقُّ قولِهِ: «**اللهُ أكبرُ**» والقيامُ بعبوديَّةِ التكبيرِ عنْ هاتيْنِ الآفتَيْنِ، اللَّتَيْنِ هُما مِنْ أَعظمِ الحُجُبِ بينَهُ وبينَ اللهِ.

---

(١) في الأصلِ: (أَهَمَّ مَا عِنْدَهُ مِنَ اللهِ) والعبارةُ هكذا غيرُ مستقيمةٍ، ولعلَّ فيها سقطًا أو إدراجًا، وبما أَثْبَتْنَاه يَسْتَقِيمُ الكلامُ.

فإذا قالَ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ**» وأَثْنَى على اللهِ بما هوَ أَهْلُهُ، فقدْ خَرَجَ عن الغَفلةِ التي هيَ حِجابٌ أيضاً بينَهُ وبينَ اللهِ.

وأَتَى بالتحيَّةِ والثناءِ الذي يُخاطَبُ بهِ الملِكُ عندَ الدخولِ عليهِ تَعظيماً لهُ وتَمجيداً ومُقدِّمَةً بينَ يَدَيْ حاجتِهِ، فكانَ في هذا الثناءِ مِنْ أَدَبِ العُبوديَّةِ ما يَسْتَجْلِبُ بهِ إقبالَهُ عليهِ ورِضاهُ عنهُ وإسعافَهُ بحوائجِهِ.

((**وههنا عَجيبةٌ: يَحْصُلُ لِمَنْ تَفقَّهَ قَلْبُهُ في معاني القرآنِ عجائبُ الأسماءِ والصفاتِ، وخَالَطَ بشاشةُ الإيمانِ بها قَلْبَهُ يَرى لكلِّ اسمٍ وصِفةٍ مَوْضِعاً مِنْ صلاتِهِ ومَحلاًّ منها**، فإنَّهُ إذا انْتَصَبَ قائماً بينَ يَدَي الربِّ تَبارَكَ وتعالى، شاهَدَ بقلبِهِ **قَيُّومِيَّتَهُ**، وإذا قالَ: «**اللهُ أكبرُ**»، شاهَدَ كبرياءَهُ. وإذا قالَ: ((**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلا إِلَهَ غَيْرُكَ**)) شاهَدَ بقلبِهِ ربًّا **مُنَزَّهاً عنْ كلِّ عَيْبٍ، سالِماً مِنْ كلِّ نَقْصٍ، محموداً بكلِّ حَمْدٍ**، فحَمْدُهُ يَتضَمَّنُ وَصْفَهُ بكلِّ كمالٍ، وذلكَ يَستلزِمُ بَراءتَهُ مِنْ كلِّ نَقْصٍ تَبارَكَ اسمُهُ، فلا يُذْكَرُ على قليلٍ إلاَّ كَثَّرَهُ، ولا على خيرٍ إلاَّ أَنماهُ وبارَكَ فيهِ، ولا على آفةٍ إلاَّ أذهَبَها، ولا على شيطانٍ إلاَّ رَدَّهُ خاسِئاً داحِراً.

وكمالُ الاسمِ مِنْ كمالِ مُسمَّاهُ، فإذا كانَ هذا شأنَ اسمِهِ الذي لا يَضُرُّ معه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ، فشَأْنُ المُسَمَّى أَعْلَى وأَجَلُّ.

و«**تعالى جَدُّهُ**» أي: ارْتَفَعَتْ **عَظَمَتُهُ**، وجَلَّتْ فوقَ كلِّ عَظمةٍ، وعلا شأنُهُ على كلِّ شأنٍ، وقَهَرَ سلطانُهُ على كلِّ سُلطانٍ، فتعالى جَدُّهُ أن يكونَ معه شَريكٌ في مُلْكِهِ ورُبوبيَّتِهِ، أوْ في إلهيَّتِهِ أوْ في أَفعالِهِ أوْ في صفاتِهِ، كما قالَ مؤمنُ الجِنِّ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن: ٣]؛ **فكَمْ في هذهِ الكلماتِ مِنْ تَجَلٍّ لحقائقِ الأسماءِ والصفاتِ على قَلْبِ العارفِ بها، وغيرِ المُعطِّلِ لحقائقِها**)).(١)

(١) كتابُ الصلاةِ (١٧١-١٧٢).

فإذا شَرَعَ في القراءةِ قَدَّمَ أمامَها الاستعاذةَ باللهِ مِن الشيطانِ، فإنَّهُ أَحْرَصُ ما يكونُ على العبدِ في مِثلِ هذا المُقامِ الذي هوَ أشرفُ مَقاماتِهِ وأَنْفَعُها لهُ في دُنياهُ وآخرتِهِ، فهوَ أحرصُ شيءٍ على صَرْفِهِ عنهُ واقتطاعِهِ دونَهُ بالبَدَنِ والقلْبِ، فإنْ عَجَزَ عن اقتطاعِهِ وتَعطيلِهِ عنهُ بالبَدَنِ اقْتَطَعَ قلبَهُ وعطَّلَهُ عن القيامِ بينَ يَدَيِ الربِّ تعالى، فأَمَرَ العبدَ بالاستعاذةِ باللهِ منهُ ليَسْلَمَ لهُ مقامُهُ بينَ يَدَيْ رَبِّهِ، ولِيَحْيَا قلبُهُ ويَستنيرَ بما يَتَدَبَّرُهُ ويَتَفَهَّمُهُ مِنْ كلامِ سَيِّدِهِ الذي هوَ سَببُ حَياتِهِ ونَعيمِهِ وفَلاحِهِ، فالشيطانُ أَحْرَصُ على اقتطاعِ قَلْبِهِ عنْ مَقصودِ التلاوةِ.

ولَمَّا عَلِمَ سُبحانَهُ جِدَّ العَدُوِّ وتَفَرُّغَهُ للعَبْدِ، وعَجْزَ العبدِ عنهُ، أَمَرَهُ بأنْ يَستعيذَ بهِ سبحانَهُ ويَلْتَجِئَ إليهِ في صَرْفِهِ عنهُ، فيُكْفَى بالاستعاذةِ مُؤْنَةَ مُحاربتِهِ ومُقاومتِهِ، فكأَنَّهُ قيلَ لهُ: لا طاقةَ لكَ بهذا العدُوِّ فاستَعِذْ بي واستَجِرْ بي أَكْفِكَهُ، وأَمْنَعْكَ منهُ. وقالَ لي شيخُ الإسلامِ - قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ - يوماً: (إِذَا هَاشَ عَلَيْكَ كَلْبُ الْغَنَمِ فَلا تَشْتَغِلْ بِمُحَارَبَتِهِ وَمُدَافَعَتِهِ، وَعَلَيْكَ بِالرَّاعِي فَاسْتَغِثْ بِهِ فَهُوَ يَصْرِفُ عَنْكَ الكَلْبَ).

(([فـ]إذا قالَ: «**أَعُوذُ باللهِ مِن الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**» فقدْ آوَى إلى رُكْنِهِ الشديدِ، واعْتَصَمَ بِحَوْلِهِ وقُوَّتِهِ مِنْ عَدوِّهِ الذي يُريدُ أن يَقْطَعَهُ عنْ رَبِّهِ، ويُباعِدَهُ عنْ قُرْبِهِ، ليكونَ أَسوأَ حالاً)).[1]

فإذا استعاذَ باللهِ مِن الشيطانِ بَعُدَ منهُ، فأَفْضَى القلبُ إلى معاني القرآنِ، ووَقَعَ في رياضِهِ المُونقَةِ، وشاهَدَ عجائبَهُ التي تُبْهِرُ العُقولَ، واستخْرَجَ مِنْ كُنوزِهِ وذَخائرِهِ ما لا عينٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ.

وكانَ الحائلُ بينَهُ وبينَ ذلكَ النفْسَ والشيطانَ، والنفْسُ مُنْفَعِلَةٌ للشيطانِ سامعةٌ منهُ فإذا بَعُدَ عنها وطُرِدَ لَمَّ بها المَلَكُ وثَبَّتَها وذَكَّرها بما فيهِ سعادتُها ونجاتُها.

---

(١) كتابُ الصلاةِ (١٧٢).

فإذا أَخَذَ في قراءةِ القرآنِ فقدْ قامَ في مَقام مُخاطبةِ رَبِّهِ ومُناجاتِهِ، فلْيَحْذَرْ كلَّ الحذَرِ مِن التعرُّضِ لِمَقْتِهِ وسَخَطِهِ أن يُناجِيَهُ ويُخاطِبَهُ وهوَ مُعْرِضٌ عنهُ، مُلْتَفِتٌ إلى غيرِهِ، فإنَّهُ يَستدعِي بذلكَ مَقْتَهُ ويكونُ بِمَنـزِلَةِ رَجُلٍ قَرَّبَهُ مَلِكٌ مِنْ مُلوكِ الدنيا فأَقامَهُ بينَ يَدَيْهِ، فجعَلَ يُخاطِبُهُ الملِكُ وقدْ وَلاَّهُ قَفاهُ أو الْتَفَتَ عنهُ بوَجْهِهِ يَمْنَةً ويَسْرَةً، فما الظنُّ بِمَقْتِ الملِكِ لهذا، فما الظنُّ بالملِكِ الحقِّ المبينِ الذي هوَ رَبُّ العالمينَ وقَيُّومُ السماواتِ والأرضِ.

ولْيَقِفْ عندَ كلِّ آيةٍ مِن الفاتحةِ يَنتظِرُ جوابَ رَبِّهِ لهُ وكأنَّهُ سَمِعَهُ يقولُ: «**حَمِدَنِي عَبْدِي**»[(١)] حينَ يقولُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، فإذا قالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: ٣] وقَفَ لحظةً يَنتظِرُ قولَهُ: «**أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي**»، فإذا قالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤] انتظرَ قولَهُ: «**مَجَّدَنِي عَبْدِي**»، فإذا قالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] انتظرَ قولَهُ: «**هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي**»، فإذا قالَ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ إلى آخرِها [الفاتحة: ٦-٧] انتظرَ قولَهُ: «**هَؤُلاءِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**».

((فيا لَذَّةَ قلبِهِ وقُرَّةَ عينِهِ وسُرورَ نفسِهِ بقولِ ربِّهِ: **عَبْدِي** [ستَّ] مرَّاتٍ، فواللهِ لولا ما على القلوبِ مِنْ دُخَانِ الشهواتِ وغَيْمِ النفوسِ لاستُطيرَتْ فرحاً وسروراً بقولِ رَبِّها وفاطِرِها ومَعبودِها: «**حَمِدَنِي عَبْدِي، وَأَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَمَجَّدَنِي عَبْدِي**»))[(٢)].

---

(١) إشارةٌ إلى حديثِ أبي هُرَيْرَةَ الذي رواهُ الإمامُ مَالِكٌ في المُوَطَّأِ في كتابِ الصلاةِ / بابُ القراءةِ خَلْفَ الإمامِ، ومن طريقِهِ الإمامُ أحمدُ (٩٦١٦)، والإمامُ مسلمٌ في كتابِ الصلاةِ / بابُ وُجوبِ قراءةِ الفاتحةِ (٨٧٦)، ورواهُ التِّرْمِذِيُّ في كتابِ تَفسيرِ القرآنِ / بابُ ومِنْ سُورَةِ فَاتِحَةِ الكتابِ (٢٩٥٣)، والنَّسَائِيُّ في كتابِ الصلاةِ / بابُ تَرْكِ قِراءةِ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرحيم» (٩٠٨)، وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ / بابُ مَن تَرَكَ القراءةَ في صلاتِهِ بفَاتِحَةِ الكتابِ (٨٢١)، وابْنُ مَاجَه في كتابِ الأدبِ / بابُ ثوابِ القرآنِ (٣٧٨٤).

(٢) كتابُ الصلاةِ (١٧٢).

ومَنْ ذاقَ طَعْمَ الصلاةِ عَلِمَ أَنَّهُ لا يَقومُ غيرُ التكبيرِ والفاتحةِ مَقامَهما، كما لا يَقومُ غيرُ القيامِ والركوعِ والسجودِ مَقامَهَا، فلكلِّ عُبودِيَّةٍ مِنْ عُبودِيَّةِ الصلاةِ سِرٌّ وتأثيرٌ وعُبودِيَّةٌ لا تَحْصُلُ مِنْ غيرِها، ثُمَّ لكلِّ آيَةٍ مِنْ آياتِ الفاتحةِ عُبودِيَّةٌ وذَوْقٌ ووَجْدٌ يَخُصُّهَا.

فعندَ قولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢] تَجِدُ تحتَ هذهِ الكلمةِ إثباتَ كلِّ كمالٍ للربِّ تعالى فِعْلاً ووَصْفاً واسماً، وتنزيهَهُ عن كلِّ سوءٍ وعَيْبٍ فِعْلاً ووَصْفاً واسماً، فهوَ محمودٌ في أفعالِهِ وأوصافِهِ وأسمائِهِ، مُنَزَّهٌ عن العُيوبِ والنقائصِ في أفعالِهِ وأوصافِهِ وأسمائِهِ، فأفعالُهُ كلُّها حِكمةٌ ورَحمةٌ ومَصلحةٌ وعَدْلٌ لا تَخْرُجُ عنْ ذلكَ، وأوصافُهُ كلُّها أوصافُ كمالٍ ونُعوتُ جلالٍ، وأسماؤُهُ كلُّها حُسْنَى، وحَمْدُهُ قدْ مَلأَ الدنيا والآخِرةَ والسَّماواتِ والأرضَ وما بينَهما وما فيهما، فالكونُ كلُّهُ ناطقٌ بِحَمْدِهِ، والخَلْقُ والأمرُ صادرٌ عنْ حَمْدِهِ وقائمٌ بحَمْدِهِ، ووُجِدَ بِحَمْدِهِ.

فحَمْدُهُ هوَ سببُ وُجودِ كلِّ موجودٍ، وهوَ غايَةُ كلِّ موجودٍ، وكلُّ موجودٍ شاهدٌ بحمدِهِ، وإرسالُهُ رسولَهُ بحَمْدِهِ، وإنـزالُهُ كُتُبَهُ بِحَمْدِهِ، والجَنَّةُ عُمِّرَتْ بأهلِها بِحَمْدِهِ، والنارُ عُمِّرَتْ بأهلِها بِحَمْدِهِ، وما أُطيعَ إلاَّ بحمدِهِ وما عُصِيَ إلاَّ بحمدِهِ، ولا تَسقُطُ وَرقةٌ إلاَّ بحمدِهِ، ولا يَتحرَّكُ في الكونِ ذَرَّةٌ إلاَّ بحمدِهِ، وهوَ المحمودُ لذاتِهِ، وإن لم يَحْمَدْهُ العِبادُ، كما أنَّهُ هوَ الواحدُ الأَحَدُ ولوْ لَمْ يُوحِّدْهُ العِبادُ، والإلهُ الحقُّ وإنْ لمْ يُؤَلِّهُوهُ، وهوَ سبحانَهُ الذي حَمِدَ نفسَهُ على لسانِ القائلِ: «الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمينَ»، كما قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «إنَّ اللهَ تعالى قالَ على لسانِ نَبِيِّهِ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»[1]، فهوَ الحامدُ لنفسِهِ في الحقيقةِ على لسانِ عبدِهِ، فإنَّهُ الذي أَجْرَى الحمدَ على لسانِهِ وقلبِهِ، وإجراؤُهُ

---

(١) رَوَاهُ مُسلِمٌ في كتابِ الصلاةِ / بابُ التشهُّدِ في الصلاةِ (٩٠٢)، والنَّسائيُّ في كتابِ التطبيقِ / بـابُ قَوْلِهِ: (رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ) (١٠٦٣)، مِنْ حَديثِ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

بِحَمْدِهِ، فلهُ الحمدُ كلُّهُ، ولهُ المُلْكُ كلُّهُ، وبيدِهِ الخيرُ كلُّهُ، وإليهِ يَرْجِعُ الأمرُ كلُّهُ، فهذه المعرفَةُ مِنْ عُبُودِيَّةِ الحَمْدِ.

ومِنْ عُبوديَّتِهِ أيضاً أن يَعلمَ أنَّ حَمْدَهُ لرَبِّهِ سبحانَهُ نِعْمةٌ مِنه عليهِ، يَسْتَحِقُّ عليها الحمدَ، فإذا حَمِدَهُ على هذهِ النعمةِ استوْجَبَ عليهِ حَمْداً آخرَ على نِعمةِ حَمْدِهِ. وهَلُمَّ جَرًّا.

فالعبدُ ولو اسْتَنْفَدَ أنفاسَهُ كلَّها في حَمْدِهِ على نِعمةٍ مِنْ نِعَمِهِ كانَ ما يَجِبُ لهُ مِن الحمدِ ويَسْتَحِقُّهُ فوقَ ذلكَ وأضعافَهُ، ولا يُحْصِي أحدٌ الْبَتَّةَ ثناءً عليهِ بِمَحامِدِهِ.

ومِنْ عُبوديَّةِ [الحمدِ][1] شهودُ العبدِ لعَجْزِهِ عن الحمدِ، وأنَّ ما قامَ بِهِ منهُ فالربُّ سبحانَهُ هوَ المحمودُ عليهِ إذ هوَ مُجْرِيهِ على لسانِهِ وقلبِهِ.

ومِنْ عُبوديَّتِهِ تَسليطُ الحمدِ على تفاصيلِ أحوالِ العبدِ كلِّها ظاهرةً وباطنةً على ما يُحِبُّ العبدُ وما يَكْرَهُهُ، فهوَ سبحانَهُ المحمودُ على ذلكَ كلِّهِ في الحقيقةِ، وإن غابَ [ذلك] عنْ شهودِ العبدِ.

(([ثُمَّ يشاهدُ] قلبُهُ مِنْ ذكْرِ اسمِ «اللهِ» تبارَكَ وتَعالى إلهاً مَعبوداً موجوداً مَخُوفاً، لا يَسْتَحِقُّ العبادةَ غيرُهُ، ولا تنبغِي إلاَّ لهُ، وقدْ عَنَتْ لهُ الوُجوهُ، وخَضَعَتْ لهُ الموجوداتُ، وخَشَعَت لهُ الأصواتُ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] و﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾ [الروم: ٢٦] وكذلكَ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ وما بينَهما، وخَلَقَ الجنَّ والإنسَ والطيرَ والوحْشَ والجنةَ والنارَ، وكذلكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ، وأنْزَلَ الكُتبَ، وشَرَّعَ الشرائعَ، وأَلْزَمَ العِبادَ الأمرَ والنهيَ.

---

(١) في الأصلِ (العَبْد) ولعلَّ الصوابَ ما أثبتناهُ.

وشاهَدَ مِنْ ذِكْرِ اسمِهِ: «رَبِّ العَالَمِينَ» قيُّوماً قامَ بنفسِهِ، وقامَ بِهِ كلُّ شيءٍ، فهوَ قائمٌ على كلِّ نفسٍ بِخَيْرِها وشَرِّها، قد اسْتَوَى على عَرْشِهِ، وتَفَرَّدَ بتدبيرِ مُلْكِهِ، فالتدبيرُ كُلُّهُ بِيَدَيْهِ، ومَصيرُ الأمورِ كلِّها إليهِ، فمَنْ أُشِيمَ التدبيراتِ نازلةً مِنْ عندِهِ على أَيْدِي ملائكتِهِ بالعطاءِ والمَنْعِ، والخفْضِ والرفْعِ، والإحياءِ والإماتةِ، والتوليَةِ والعزْلِ، والقَبْضِ والبَسْطِ، وكَشْفِ الكروبِ، وإغاثةِ الملهوفينَ، وإجابةِ المُضْطَرِّينَ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩] لا مانعَ لِمَا أَعْطَى، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، ولا رَادَّ لأَمْرِهِ، ولا مُبَدِّلَ لكلماتِهِ، تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إليهِ، وتُعْرَضُ الأعمالُ أَوَّلَ النهارِ وآخِرَهُ عليهِ، فيُقَدِّرُ المقاديرَ، ويُوَقِّتُ المواقيتَ، ثُمَّ يَسوقُ المقاديرَ إلى مَواقيتِها قائماً بتدبيرِ ذلكَ كلِّهِ وحِفْظِهِ ومَصالِحِهِ))[1]

ثُمَّ لقولِهِ: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: ٢] مِن العُبوديَّةِ شُهودُ تَفَرُّدِهِ سُبحانَهُ بالربوبيَّةِ وأنَّهُ كما أنَّهُ رَبُّ العالمينَ وخالقُهم ورازِقُهم ومُدَبِّرُ أمورِهم ومُوجِدُهم ومُفْنِيهِم، فهوَ وَحْدَهُ إلهُهُم ومَعبودُهم ومَلْجَؤُهُم ومَفْزَعُهم عندَ النوائبِ. فلا ربَّ غيرُهُ، ولا إلهَ سِواهُ.

((ثم يَشْهَدُ عندَ ذِكْرِ اسم «الرحمنِ» جَلَّ جلالُهُ ربًّا مُحْسِناً إلى خَلْقِهِ بأنواعِ الإحسانِ، مُتَحَبِّباً إليهم بصُنُوفِ النِّعَمِ، وَسِعَ كلَّ شيءٍ رَحمةً وعِلْماً، وأَوْسَعَ كلَّ مخلوقٍ نِعمةً وفَضْلاً، فوَسِعَتْ رحمَتُهُ كلَّ شيءٍ، ووَسِعَتْ نِعمتُهُ كلَّ حيٍّ، فبَلَغَتْ رَحمتُهُ حيثُ بَلَغَ عِلْمُهُ، فاسْتَوَى على عَرْشِهِ برَحْمَتِهِ، وخَلَقَ خَلْقَهُ برحمتِهِ؛ وأَنْزَلَ كُتُبَهُ برَحمتِهِ، وأَرْسَلَ رسلَهُ برَحْمَتِهِ، وشَرَعَ شرائعَهُ برحمتِهِ، وخَلَقَ الجنةَ برحمتِهِ، والنارَ أيضاً برحمتِهِ، فإنَّها سَوْطُهُ الذي يَسوقُ بِهِ عِبادَهُ المؤمنينَ إلى جنَّتِهِ، ويُطَهِّرُ بها أَدْرانَ المُوَحِّدِينَ مِنْ أهلِ مَعصيتِهِ، وسِجنُهُ الذي يَسْجُنُ

---

(١) كتابُ الصلاةِ (١٧٣).

فيهِ أعداءَهُ مِنْ خَليقتِهِ، فتَأَمَّلْ ما في أَمْرِهِ ونهيِهِ ووَصاياهُ ومَواعظِهِ مِن الرحمةِ البالغةِ، والنِّعمةِ السابغةِ، وما في حَشْوِها مِن الرحمةِ والنعمةِ، فالرحمةُ هيَ السببُ المتَّصِلُ منهُ بعبادِهِ، كما أنَّ العبوديَّةَ هيَ السببُ المُتَّصِلُ منهم بهِ، فمنهم إليهِ العُبوديَّةُ، ومنهُ إليهم الرحمةُ.

ومِنْ أَخَصِّ مَشاهدِ هذا الاسمِ شهودُ المُصَلِّي نَصيبَهُ مِن الرحمةِ الذي أقامَ بها بينَ يَدَيْ ربِّهِ، وأَهَّلَهُ لعبودِيَّتِهِ ومُناجاتِهِ، وأعطاهُ ومَنَعَ غيرَهُ، وأَقْبَلَ بقلبِهِ وأَعْرَضَ بقلبِ غيرِهِ، وذلكَ مِنْ رحمتِهِ بِهِ)). [1]

[فـ]لقولِهِ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: ٣] عبودِيَّةٌ تَخُصُّها وهيَ شُهودُ عُمومِ رحمتِهِ وسَعَتِها لكلِّ شيءٍ وأَخْذُ كلِّ موجودٍ بنَصيبِهِ منها، ولا سِيَّما الرحمةُ الخاصَّةُ التي أقامَتْ عبدَهُ بينَ يَدَيْهِ في خِدمتِهِ يُناجيهِ بكَلامِهِ ويَتملَّقُهُ ويَسْتَرْحِمُهُ ويَسأَلُهُ هِدايتَهُ ورحمتَهُ وإتمامَ نِعمتِهِ عليهِ، فهذا مِنْ رَحمتِهِ بعَبدِهِ، فرَحمتُهُ وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ كما أنَّ حَمْدَهُ وَسِعَ كلَّ شيءٍ.

ثُمَّ يُعْطِي قولَهُ: (ملك يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤) [2] [الفاتحة: ٤] عبودِيَّتَها، ويتأَمَّلُ تَضَمُّنَها لإثباتِ المَعادِ، وتَفَرُّدَ الربِّ فيهِ بالحُكْمِ بينَ خَلقِهِ، وأنَّهُ يومٌ يَدِينُ فيهِ العِباد بأعمالِهم في الخيرِ والشرِّ، وذلكَ مِنْ تفاصيلِ حَمْدِهِ ومُوجَبِهِ، ولَمَّا كانَ قولُهُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢] إخباراً عنْ حمدِهِ تعالى قالَ اللهُ: «حَمِدَنِي عَبْدِي»، ولَمَّا كانَ قولُهُ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: ٣] إعادةً وتكريراً لأوصافِ كمالِهِ قالَ: «أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي»، فإنَّ الثناءَ إنَّما يكونُ بتكرارِ المحامِدِ وتَعدادِ أوصافِ المحمودِ، ولَمَّا وَصَفَهُ سبحانَهُ بتَفَرُّدِهِ بِمُلْكِ يومِ الدِّينِ وهوَ المُلْكُ الحقُّ المتضَمِّنُ لظهورِ عَدْلِهِ وكِبريائِهِ وعَظمتِهِ ووَحدانيَّتِهِ وصِدْقِ

(١) كتابُ الصلاةِ (١٧٣-١٧٤).

(٢) وهذه قِراءَةُ نافعٍ وابنِ عامرٍ وابنِ كَثيرٍ من السَّبعَةِ.

رُسُلِهِ، سَمَّى هذا الثناءَ مجْداً، فقالَ: «مَجَّدَنِي عَبْدِي»، فإنَّ التمجيدَ هوَ الثناءُ بِصِفاتِ العَظَمَةِ والجلالِ.

((فإذا قالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة: ٤] فهنا شَهِدَ المجدَ الذي لا يَليقُ بِسِوَى المُلكِ الحقِّ المُبينِ، فيَشْهَدُ مَلِكاً قاهراً، قدْ دانَتْ لهُ الخليقةُ، وعَنَتْ لهُ الوُجوهُ، وذلَّت لعظمتِهِ الجبابرةُ، وخَضَعَ لعِزَّتِهِ كلُّ عزيزٍ؛ فيَشْهَدُ بقلبِهِ مَلِكاً على عَرْشِ السماءِ مُهَيْمِناً، لعِزَّتِهِ تَعْنُو الوُجوهُ وتَسْجُدُ. وإذا لم تُعَطَّلْ حقيقةُ صفةِ المُلْكِ أطْلَعَتْهُ على شُهودِ حقائقِ الأسماءِ والصفاتِ التي تَعطيلُها تعطيلٌ لمُلْكِهِ وجحدٌ لهُ، فإنَّ المَلِكَ الحقَّ التامَّ المُلْكِ: لا يكونُ إلاَّ حيًّا قيُّوماً سَميعاً بصيراً مُدبِّراً قادراً مُتكلِّماً آمِراً ناهياً، مُسْتَوِياً على سَريرِ مَمْلَكَتِهِ، يُرْسِلُ إلى أقاصِي مَمْلَكَتِهِ بأوامِرِهِ، فيَرْضَى على مَنْ يَسْتَحِقُّ الرِّضَى ويُثيبُهُ ويُكْرِمُهُ ويُدْنيهِ، ويَغْضَبُ على مَنْ يَسْتَحِقُّ الغضَبَ ويُعاقِبُهُ ويُهينُهُ ويُقْصِيهِ، فيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ، ويَرحمُ مَنْ يَشاءُ، ويُعْطِي مَنْ يَشاءُ، ويُقَرِّبُ مَنْ يَشاءُ، ويُقْصِي مَنْ يَشاءُ، لهُ دارُ عذابٍ وهيَ النارُ، ولَهُ دارُ سعادةٍ عظيمةٍ وهيَ الجنَّةُ، فمَنْ أبْطَلَ شيئاً مِنْ ذلكَ أوْ جَحَدَهُ وأنْكَرَ حقيقتَهُ فقدْ قَدَحَ في مُلْكِهِ سبحانَهُ وتعالى، ونَفَى عنهُ كمالَهُ وتَمامَهُ، وكذلكَ مَنْ أنْكَرَ عُمومَ قَضائِهِ وقَدَرِهِ، فقدْ أنْكَرَ عمومَ مُلْكِهِ وكَمالِهِ، فيَشْهَدُ المُصَلِّي مَجْدَ الربِّ تعالى في قولِهِ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة: ٤]))[١].

فإذا قالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة: ٥] انتظرَ جوابَ ربِّهِ لهُ: «هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»، وتَأَمَّلَ عُبوديَّةَ هاتينِ الكلمتينِ وحقوقَهما ومَيَّزَ الكلمةَ التي للهِ والكلمةَ التي للعبدِ، وفَقِهَ سِرَّ كَوْنِ إحداهما للهِ والأخرى للعبدِ، وميَّزَ بينَ التوحيدِ الذي تَقتضيهِ كلمةُ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» والتوحيدِ الذي تَقتضيهِ كلمةُ «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، وفَقِهَ سِرَّ كونِ هاتينِ الكلمتينِ في وَسَطِ

(١) كتابُ الصلاةِ (١٧٤).

السورةِ بينَ نَوْعَي الثناءِ قَبْلَهُما والدعاءِ بعدَهما، وفقِهَ تقديمَ «**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**» على «**إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**»، وتقديمَ المعمولِ على الفعلِ مع [أنَّ] الإتيانَ بِهِ مؤخَّراً أَوْجَزُ وأَخْصَرُ، وسِرَّ إعادةِ الضميرِ مَرَّةً بعد مَرَّةٍ، وعَلِمَ ما تَدْفَعُ كلَّ واحدةٍ مِن الكلمتينِ مِن الآفةِ المُنافيةِ للعُبوديَّةِ، وكيفَ تُدْخِلُهُ الكلمتانِ في صريحِ العُبوديَّةِ، وعَلِمَ كيفَ يَدورُ القرآنُ مِنْ أوَّلِهِ إلى آخِرِهِ على هاتينِ الكلمتينِ، بلْ كيفَ يدورُ عليهما الخَلْقُ والأمرُ والثوابُ والعقابُ والدنيا والآخرةُ، وكيفَ تَضَمَّنَتَا لأجَلِّ الغاياتِ وأكملِ الوسائلِ، وكيفَ جِيءَ بهما بضميرِ الخطابِ والحضورِ دونَ ضَميرِ الغائبِ، **وهذا مَوضعٌ يَستدعِي كتاباً كبيراً**، ولولا الخروجُ عما نحن بصَدَدِهِ لأَوْضَحْناهُ وبَسَطْنا القولَ فيهِ، فمَنْ أرادَ الوقوفَ عليهِ فقدْ ذَكرناهُ في كتابِ: "مَراحلُ السائرينَ بينَ مَنازلِ إِيَّاكَ نَعبدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"(١)، وفي كتابِ: الرسالةُ المصرِيَّةُ(٢).

ثُمَّ تأمَّلَ ضرورتَهُ وفاقتَهُ إلى قولِهِ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: ٦] الذي مَضمونُهُ مَعرفةُ الحقِّ، وقَصْدُهُ وإرادتُهُ، والعملُ بِهِ والثباتُ عليهِ،

---

(١) انظُرْ مدارِجَ السَّالِكِينَ (١/ ١٣١- ١٤١).

(٢) وقال -رَحِمَهُ اللهُ- في كتابِ الصلاةِ: (فإذا قالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة: ٥] ففيها سِرُّ الخَلْقِ والأَمْرِ، والدنيا والآخِرَةِ، وهي مُتَضَمِّنَةٌ لأجلِ الغاياتِ وأَفْضَلِ الوَسائلِ، فأَجَلُّ الغاياتِ عُبودِيَّتُهُ، وأفضلُ الوَسائلِ إعانَتُهُ، فلا مَعْبُودَ يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ إلا هو، ولا مُعِينَ على عبادتِهِ غيرُهُ، فعبادَتُهُ أعلَى الغاياتِ، وإعانَتُهُ أَجَلُّ الوَسائِلِ، وقد أَنْزَلَ اللهُ -سُبحانَهُ وتَعالَى- مِائَةَ كتابٍ وأَرْبَعَةَ كُتُبٍ، جَمَعَ مَعانِيَها في أربعةٍ، وهي التوراةُ والإنجيلُ والقرآنُ والزَّبُورُ، وجمعَ مَعانِيَها في القرآنِ، وجمعَ مَعانِيَهُ في المُفَصَّلِ، وجَمَعَ مَعانِيَهُ في الفاتحةِ، وجمعَ مَعانِيَها في: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة: ٥].

وقد اشتمَلَتْ هذه الكَلِمَةُ على نَوْعَي التوحيدِ، وهما توحيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وتوحيدُ الإلهيةِ، وتضمَّنَتِ التعبُّدَ باسمِ «الربِّ» واسم «اللهِ»، فهو يُعْبَدُ بأُلُوهِيَّتِهِ، ويُستعانُ برُبُوبِيَّتِهِ، ويَهْدِي إلى الصراطِ المُستقيمِ برَحْمَتِهِ، فكانَ أَوَّلُ السورةِ ذِكْرَ اسمِهِ: «اللهِ» و«الربِّ» و«الرحمنِ»، تطابُقًا لأجلِ المَطالبِ من عِبادَتِهِ وإعانَتِهِ وهدايَتِهِ، وهو المُنفرِدُ بإعطاءِ ذلك كُلِّهِ، لا يُعِينُ على عبادَتِهِ سِواهُ، ولا يَهْدِي سِواهُ).

والدعوةُ إليهِ، والصبرُ على أَذَى المَدْعُوِّ، فباستكمالِ هذهِ المراتِبِ الخمْسِ تُستكمَلُ الهدايَةُ، وما نَقَصَ منها نَقَصَ مِنْ هدايتِهِ.

ولمَّا كانَ العبدُ مُفْتَقِراً إلى هذهِ الهدايَةِ في ظاهرِهِ وباطنِهِ في جميعِ ما يَأتيهِ ويَذَرُهُ مِنْ أمورٍ قدْ فَعَلَها على غيرِ الهدايَةِ عِلْماً وعَمَلاً وإرادةً فهوَ مُحتاجٌ إلى التوبةِ منها - وتوبتُهُ منها هيَ الهدايَةُ -.

- وأمورٍ قدْ هُدِيَ إلى أصلِها دونَ تفصيلِها فهوَ مُحتاجٌ إلى هدايَةِ تفاصيلِها.

- وأمورٍ قدْ هُدِيَ إليها مِنْ وجهٍ دونَ وجهٍ فهوَ مُحتاجٌ إلى تَمامِ الهدايَةِ فيها لِتَتِمَّ لهُ الهدايَةُ ويُزادَ هدًى إلى هُداهُ.

- وأمورٍ يَحتاجُ فيها إلى أن يَحْصُلَ لهُ مِن الهدايَةِ في مُستقبلِها مِثْلُ ما حَصَلَ لهُ في ماضِيهَا.

- وأمورٍ يَعتقِدُ فيها بخِلافِ ما هيَ عليهِ فهوَ مُحتاجٌ إلى هدايَةٍ تَنْسَخُ مِنْ قلبِهِ ذلكَ الاعتقادَ وتُثَبِّتُ فيهِ ضِدَّهُ.

- وأمورٍ مِن الهدايَةِ هوَ قادرٌ عليها، ولكن لم يُخْلَقْ لهُ إرادةُ فِعْلِهَا فهوَ محتاجٌ في تَمامِ الهدايَةِ إلى خَلْقِ إرادةٍ يَفْعَلُها بها.

- وأمورٍ منها هوَ غيرُ قادرٍ على فِعْلِها معَ كونِهِ مُريداً، فهوَ محتاجٌ في هدايتِهِ إلى إقدارِهِ عليها.

- وأمورٍ منها هوَ غيرُ قادرٍ عليها ولا مُريدٍ لها فهوَ محتاجٌ إلى خَلْقِ القُدرةِ والإرادةِ لهُ لِتتِمَّ لهُ الهدايَةُ.

- وأمورٍ هوَ قائمٌ بها على وجهِ الهدايَةِ اعتقاداً وإرادةً وعَمَلاً فهوَ محتاجٌ إلى الثباتِ عليها واستدامتِها.

كانت حاجتُهُ إلى سؤالِ الهدايَةِ أعظمَ الحاجاتِ وَفَاقَتُهُ إليها أَشَدَّ الفاقاتِ فَرَضَ عليهِ الرَّبُّ الرحيمُ هذا السؤالَ كلَّ يومٍ وليلةٍ في أفضلِ أحوالِهِ وهيَ الصلواتُ الخمْسُ مرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً لِشدَّةِ ضَرورتِهِ وفَاقتِهِ إلى هذا المطلوبِ.

ثُمَّ بَيَّنَ أنَّ سبيلَ أهلِ هذهِ الهدايَةِ مغايرٌ لسبيلِ أهلِ الغضبِ وأهلِ الضلالِ، فانقسَمَ **الخلْقُ إذنْ ثلاثةَ أقسامٍ بالنسبةِ إلى هذهِ الهدايَةِ:**

مُنْعَمٌ عليهِ بحصولِها، واستمرارُ حَظِّهِ من النِّعَمِ بحسَبِ حظِّهِ مِنْ تفاصيلِها وأقسامِها.

وضالٌّ لم يُعْطَ هذهِ الهدايَةَ ولم يوفَّقْ لها.

ومغضوبٌ عليهِ عَرَفَها ولم يُوَفَّقْ للعملِ بموجِبِها.

فالأوَّلُ: المنعَمُ عليهِ قامَ بالهُدَى ودِينِ الحقِّ علماً وعملاً.

والضالُّ: مُنْسَلِخٌ عنهُ عِلْماً وعملاً.

والمغضوبُ عليهِ: عارفٌ بهِ عِلْماً، مُنْسَلِخٌ منهُ عَمَلاً، واللهُ المَوَفِّقُ للصوابِ.. (١)

---

(١) وقالَ -رَحِمَهُ اللهُ- في كتابِ الصلاةِ: (ثم يُشهِدُ الدَّاعِي بقولِه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] شِدَّةَ فَاقَتِهِ وضَرُورَتِهِ إلى هذهِ المسألةِ التي ليس هو إلى شيءٍ أَشَدَّ فاقةً وحَاجةً منه إليها البتة، فإنه محتاجٌ إليه في كلِّ نَفَسٍ وطَرْفَةِ عَيْنٍ، وهذا المطلوبُ من هذا الدعاءِ لا يَتِمُّ إلا بالهدايةِ إلى الطريقِ المُوصِلِ إليه سبحانَهُ، والهدايةِ فيه، وهي هِدايَةُ التفصيلِ، وخَلْقِ القُدرَةِ على الفِعلِ وإرادَتِه وتَكْوِينِهِ وتَوْفيقِهِ لإيقاعِهِ له على الوجهِ المَرْضِيِّ المَحْبُوبِ للربِّ سبحانَهُ وتعالى، وحِفظِهِ عليه مِن مُفسِداتِهِ حَالَ فِعلِهِ وبَعْدَ فِعْلِه.

ولَمَّا كانَ العبدُ مُفتقِرًا في كلٍّ إلى هذه الهدايةِ في جميعِ ما يأتيهِ ويَذَرُهُ من أمورٍ قدْ أَتاهَا على غيرِ الهدايةِ، فهو يَحتاجُ إلى التوبةِ منها، وأمورٍ هُدِيَ إلى أَصْلِهَا دُونَ تَفْصِيلِها، أو هُدِيَ إليها من وَجهٍ دُونَ وَجْهٍ، فهو يَحْتَاجُ إلى إتمامِ الهِدَايَةِ فيها لِيَزْدَادَ هُدًى، وأمورٍ: هو يحتاجُ إلى أن يَحْصُلَ له من الهدايةِ فيها بالمستقبَلِ مثلَ ما حَصَلَ له في الماضِي، وأمورٍ: هو خالٍ عن اعتقادٍ فيها فهو يحتاجُ إلى الهدايةِ فيها، وأمورٍ: لم يَفْعَلْها فهو يحتاجُ إلى فِعلِها على وجهِ الهدايةِ، وأمورٍ: قد هُدِيَ إلى الاعتقادِ الحقِّ والعملِ الصوابِ فيها، فهو محتاجٌ إلى الثباتِ عليها، إلى غيرِ ذلك من أنواعِ الهداياتِ فَرَضَ اللهُ -سُبْحَانَهُ- عليه أن يَسْأَلَهُ هذه الهدايةَ في أَفْضَلِ أَحْوَالِهِ مَرَّاتٍ مُتعددةً في اليومِ والليلةِ.

((فلَمَّا فَرَغَ مِنْ هذا الثناءِ والدعاءِ والتوحيدِ، شَرَعَ لهُ أن يَطْبَعَ على ذلكَ بطابَعٍ مِن التأمينِ يَكونُ كالخاتَمِ لهُ وافَقَ فيهِ ملائكةَ السماءِ، وهذا التأمينُ مِنْ زينةِ الصلاةِ كرَفْعِ اليدَيْنِ الذي هوَ زِينةُ الصلاةِ، واتِّباعٌ للسُّنَّةِ، وتعظيمُ أمْرِ اللهِ، وعُبوديَّةُ اليدينِ، وشِعارُ الانتقالِ مِنْ رُكْنٍ إلى رُكْنٍ)). [(١)]

... فشَرَعَ لهُ التأمينَ عندَ هذا الدُّعاءِ تفاؤلاً بإجابتِهِ وحصولِهِ، وطابَعاً عليهِ وتحقيقاً لهُ، ولهذا اشْتَدَّ حَسَدُ اليهودِ للمسلمينَ عليهِ حينَ سَمِعُوهُم يَجْهَرُونَ بهِ في صلاتِهِم.

((ثم يَأْخُذُ في مُناجاةِ ربِّهِ بكلامِهِ واستماعِهِ مِن الإمامِ بالإنصاتِ وحضورِ القلبِ وشهودِهِ، وأَفضلُ أذكارِ الصلاةِ ذِكْرُ القِيامِ، وأَحسنُ هَيئةِ المُصَلِّي هيئةُ القيامِ، فخُصَّتْ بالحمدِ والثناءِ والمجْدِ وتلاوةِ كلامِ الربِّ جَلَّ جلالُهُ، ولهذا نُهِيَ عنْ قراءةِ القرآنِ في الركوعِ والسجودِ؛ لأنهما حالتا ذُلٍّ وخُضوعٍ وتَطَامُنٍ وانخفاضٍ، ولهذا شُرِعَ فيهما مِن الذِّكرِ ما يُناسِبُ هيئتَهما، فشُرِعَ للراكعِ أن يَذْكُرَ عظمةَ ربِّهِ في حالِ انخفاضِهِ هوَ وتَطامُنِهِ وخضوعِهِ، وأنَّهُ سُبحانَهُ يُوصَفُ بوَصْفِ عظمتِهِ عمَّا يُضادُّ كِبرياءَهُ وجَلالَهُ وعَظمتَه)). [(٢)]

ثُمَّ شَرَعَ لهم رفْعَ اليدينِ عندَ الركوعِ تَعظيماً لأمرِ اللهِ وزينةً للصلاةِ وعُبوديَّةً خاصَّةً لليدينِ كعُبوديَّةِ باقِي الجوارحِ، واتِّباعاً لسُنَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ فهوَ حِلْيَةُ الصلاةِ وزينتُها، وتعظيمٌ لشعائرِها.

ثم بَيَّنَ أنَّ أهلَ هذه الهدايةِ هم المُخْتَصُّونَ بنِعْمَتِهِ دُونَ «المغضوبِ عَلَيْهِم» وهمُ الذين عَرَفُوا الحَقَّ، ولم يَتْبَعُوهُ، ودونَ «الضَّالِّينَ» وهم الذين عَبَدُوا اللهَ بغَيْرِ عِلمٍ، فالطَّائِفَتَانِ اشتَرَكَتا في القولِ في خَلْقِهِ وأَمْرِه وأَسْمائِه وصِفاتِه بغَيرِ عِلمٍ، فَسَبِيلُ المُنْعَمِ عَلَيْهِ مُغايِرَةٌ لسبيلِ أَهْلِ الباطلِ كُلِّها عِلماً وعَملاً).

هذا وللإمامِ ابنِ القيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى تفسيرٌ مُطَوَّلٌ لقولِه تَعالَى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٦-٧] الآيةَ، في بدائعِ الفوائدِ (٢/ ٩-٤١) ذكر فيه عِشرينَ مَسألةً وأَجوبَتَها.

(١) كتابُ الصلاةِ (١٧٦).

(٢) كتابُ الصلاةِ (١٧٦).

ثُمَّ شُرِعَ لهُ التكبيرُ الذي هوَ في انتقالاتِ الصلاةِ مِنْ رُكنٍ إلى رُكنٍ كالتلبيةِ في انتقالاتِ الحاجِّ مِنْ مَشْعَرٍ إلى مَشْعَرٍ، فهوَ شِعارُ الصلاةِ كما أنَّ التلبيَةَ شِعارُ الحجِّ ليَعْلَمَ العبدُ أنَّ سِرَّ الصلاةِ هوَ تعظيمُ الربِّ تعالى وتكبيرُهُ بعبادتِهِ وَحْدَهُ.

ثُمَّ شُرِعَ لهُ بأن يَخضعَ للمعبودِ سبحانَهُ بالركوعِ خُضوعاً لعظمتِهِ واستكانةً لهيبتِهِ وتَذَلُّلاً لعِزَّتِهِ، فثَنَى العبدُ لهُ صُلْبَهُ ووَضَعَ لهُ قامتَهُ ونَكَّسَ لهُ رأسَهُ وحَنَى لهُ ظهرَهُ معظِّماً لهُ ناطِقاً بتسبيحِهِ المقترِنِ بتعظيمِهِ، فاجْتَمَعَ لهُ خضوعُ القلبِ، وخضوعُ الجوارحِ، وخُضوعُ القولِ على أَتَمِّ الأحوالِ، وجَمَعَ لهُ في هذا الذكْرِ بينَ الخضوعِ والتعظيمِ لربِّهِ، والتنـزيهِ لهُ عنْ خضوعِ العبيدِ، وأنَّ الخضوعَ وَصْفُ العبدِ، والعظمةَ وَصْفُ الربِّ.

((فأَفْضَلُ ما يقولُ الراكعُ على الإطلاقِ «**سُبْحَانَ رَبِّيَ العظيم**» فإنَّ اللهَ سبحانَهُ أَمَرَ العِبادَ بذلكَ، وعَيَّنَ المُبَلِّغُ عنهُ السَّفيرُ بينَهُ وبينَ عبادِهِ هذا المَحَلَّ لهذا الذكْرِ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤] قالَ: «**اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ**».[1] وأَبْطَلَ كثيرٌ مِنْ أهلِ العلْمِ صلاةَ مَنْ تَرَكَها عَمْداً، وأَوْجَبَ سُجودَ السهوِ على مَنْ سَهَا عنها، وهذا مَذهبُ الإمامِ أحمدَ ومَنْ وافقَهُ مِنْ أئمَّةِ الحديثِ والسنَّةِ. والأمرُ بذلكَ لا يَقْصُرُ عن الأمرِ بالصلاةِ عليهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في التشَهُّدِ الأخيرِ، ووُجوبُهُ لا يَقْصُرُ عنْ وُجوبِ مُباشَرَةِ المصلِّي بالجبهةِ واليدَيْنِ.

وبالجملةِ: فَسِرُّ الركوعِ تعظيمُ الربِّ جلَّ جلالُهُ بالقلبِ والقالبِ والقولِ، ولهذا قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «**أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ**»[2])).[3]

(١) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٦٩٦١)، وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ / بابٌ في الدعاءِ في الركوعِ والسجودِ (٨٧٥)، وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ إقامةِ الصلاةِ / بابُ التسبيحِ في الركوعِ والسجودِ (٨٨٧) من حديثِ عُقْبَةَ بنِ عَامرٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٢) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ١٤٧.

(٣) كتابُ الصلاةِ (١٧٦).

وتمامُ عُبوديَّةِ الركوعِ أن يَتصاغَرَ العبدُ ويَتضاءَلَ بحيث يَمْحُو تَصاغُرُهُ كلَّ تَعظيمٍ منهُ لنفسِهِ، ويُثْبِتُ مكانَهُ تعظيمَهُ لربِّهِ، وكلَّما اسْتَوْلَى على قلبِهِ تعظيمُ الرَّبِّ ازدادَ تصاغُرُهُ هوَ عندَ نفسِهِ.

فالركوعُ للقلبِ بالذاتِ والقصْدِ، وللجوارحِ بالتَّبَعِ والتَّكْمِلَةِ.

((ثم يَرفعُ رأسَهُ عائداً إلى أكملِ حديثِهِ، وجَعَلَ شِعارَ هذا الرُّكْنِ حَمْدَ اللهِ والثناءَ عليهِ وتمجيدَهُ[١]))[٢] [فـ]يـحمدُ ربَّهُ ويُثْنِي عليهِ بآلائِهِ عندَ اعتدالِهِ وانتصابِهِ ورُجوعِهِ إلى أَحسنِ هَيأتِهِ مُنتصِبَ القامةِ مُعْتَدِلَهَا، فيَحْمَدُ ربَّهُ ويُثْنِي عليهِ بأنْ وَفَّقَهُ لذلكَ الخضوعِ ثُمَّ نقَلَهُ منهُ إلى مَقامِ الاعتدالِ والاستواءِ بينَ يَدَيْهِ واقِفاً في خِدمتِهِ كما كانَ في حالِ القِراءةِ.

ولذلكَ الاعتدالِ ذَوْقٌ خاصٌّ وحالٌ يَحْصُلُ للقلبِ سِوَى ذَوْقِ الركوعِ وحالِهِ، وهوَ رُكنٌ مقصودٌ لذاتِهِ كرُكنِ الركوعِ والسجودِ سَواءً، ولهذا كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُطِيلُهُ كما يُطيلُ الركوعَ والسجودَ ويُكْثِرُ فيهِ مِن الثناءِ والحمْدِ والتمجيدِ كما ذكرناهُ في هَدْيِهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ[٣]، وكان في قِيامِ الليلِ يُكْثِرُ فيهِ مِنْ قولِ: «لِرَبِّيَ الحمْدُ، لِرَبِّيَ الحمْدُ»[٤] يُكَرِّرُها.

((فافْتَتَحَ هذا الشِّعَارَ بقولِ المُصَلِّي: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» أيْ: سَمِعَ سَمْعَ قبولٍ وإجابةٍ، ثُمَّ شَفَعَ بقولِهِ: «رَبَّنا وَلَكَ الحَمْدُ، مِلْءَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ،

---

(١) جاءتِ العِبارَةُ في الأصلِ هَكذا: (وجَعَلَ شِعارَ هذَا الرُّكْنِ حَمْدًا للهِ والثَّنَاءَ عَلَيْهِ وتَحْمِيدَهُ) وهي عبارةٌ مُضْطَرِبَةٌ، ولعلَّ صَوابَها كما صَحَّحْنَاهُ. واللهُ تَعالَى أَعْلَمُ.

(٢) كتابُ الصلاةِ (١٧٧).

(٣) انظُرْ زَادَ المَعادِ في هَدْيِ خَيْرِ العِبادِ (١/ ٢٢٠).

(٤) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٢٢٨٦٦)، والنَّسائِيُّ في كتابِ الصَّلاةِ / بابُ ما يَقُولُ في قِيامِهِ ذلكَ (١٠٦٨)، وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ / بابُ ما يقولُ الرجُلُ في رُكوعِهِ وسُجودِهِ (٨٧٤)، والتِّرْمِذِيُّ في الشمائِلِ / بابُ ما جاءَ في عبادةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ (٢٦٠) من حديثِ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلُ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ/ »(١)

ولا يُهْمَلُ أمْرُ هذهِ الواوِ في قولِهِ: «**رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ**» فإنَّهُ قدْ نُدِبَ الأمرُ بها في (الصحيحينِ) وهيَ تَجعلُ الكلامَ في تقديرِ جُملتينِ قائمتينِ بأنفُسِهما، فإنَّ قولَهُ: «**رَبَّنَا**» مُتَضَمِّنٌ في المعنى: أنتَ الربُّ والملِكُ القيُّومُ الذي بيدَيْهِ أَزِمَّةُ الأمورِ وإليهِ مَرْجِعُها، فعطَفَ على هذا المعنى المفهومِ مِنْ قولِهِ: «**رَبَّنَا**» قولَهُ: «**وَلَكَ الْحَمْدُ**» فتَضَمَّنَ ذلكَ معنى قولِ المُوَحِّدِ: «**لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ**».

ثُمَّ أَخْبَرَ عنْ شأنِ هذا الحمْدِ وعَظمتِهِ قَدْراً وصِفَةً، فقالَ: «**مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءَ الأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ**» أيْ: قَدْرَ مِلْءِ العالَمِ العُلْوِيِّ والسُّفْلِيِّ والفضاءِ الذي بينَهما، فهذا الحمْدُ قدْ ملأَ الخلْقَ الموجودَ، وهوَ يملأُ ما يَخْلُقُهُ الربُّ تبارَكَ وتعالى بعدَ ذلكَ وما يَشاؤُهُ، فحَمْدُهُ قدْ ملأَ كلَّ موجودٍ، وملأَ ما سيُوجَدُ، فهذا أَحْسَنُ التقديرينِ.

وقيلَ: ما شِئتَ مِنْ شيءٍ وَراءَ العالَمِ. فيكونُ قولُهُ: «**بعدُ**» للزمانِ على الأوَّلِ، والمكانِ على الثاني، ثُمَّ أَتْبعَ ذلكَ بقولِهِ: «**أَهْلُ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ**». فعادَ الأمرُ بعدَ الركعةِ إلى ما افْتَتَحَ بهِ الصلاةَ قبلَ الركعةِ مِن الحمْدِ والثناءِ والمَجْدِ، ثُمَّ أَتْبَعَ ذلكَ بقولِهِ: «**أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ**» تقريراً لِحَمدِهِ وتَمْجيدِهِ والثناءِ عليهِ، وأنَّ ذلكَ أحَقُّ ما نَطقَ بِهِ العَبْدُ، ثُمَّ أَتْبعَ ذلكَ بالاعترافِ بالعُبوديَّةِ، وأنَّ ذلكَ حُكْمٌ عامٌّ لجميعِ العَبيدِ، ثُمَّ عقَّبَ ذلكَ بقولِهِ: «**لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، ولا يَنفعُ ذا الجَدِّ مِنكَ الْجَدُّ**» وكانَ يقولُ ذلكَ بعدَ انقضاءِ الصلاةِ أيضاً، فيقولُهُ

---

(١) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١١٤١٨)، ورَواهُ مُسلِمٌ في كتابِ الصلاةِ / بابُ ما يَقُولُ إذا رَفَعَ رَأْسَهُ (١٠٧١)، وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ / بابُ ما يَقولُ إذا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكوعِ (٨٤٧)، والنَّسائِيُّ في كتابِ التطبيقِ / بابُ ما يقولُ في قيامِهِ ذَلِكَ (١٠٦٧).

في هذَيْنِ المَوضعينِ اعترافاً بتوحيدِهِ، وأنَّ النِّعَمَ كلَّها منهُ، **وهذا يَتضمَّنُ أُموراً:**

أحدُها: أنَّهُ المنفرِدُ بالعَطاءِ والمَنْعِ.

الثاني: أنَّهُ إذا أَعْطَى لم يُطِقْ أحدٌ مَنْعَ مَنْ أَعطاهُ، وإذا مَنَعَ لم يُطِقْ أحدٌ إِعطاءَ مَنْ مَنَعَهُ.

الثالثُ: أنَّهُ لا يَنفعُ عندَهُ ولا يُخَلِّصُ مِنْ عذابِهِ ولا يُدْنِي مِنْ كرامتِهِ جُدُودُ بني آدمَ وحظوظُهم من المُلْكِ والرئاسةِ والغِنَى وطِيبِ العَيشِ وغيرِ ذلكَ، إنَّما يَنفعُهُمْ عندَهُ التقرُّبُ إليهِ بطاعتِهِ وإيثارُ مَرضاتِهِ.

ثُمَّ ختمَ ذلكَ بقولِهِ: «**اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ**»[(١)]، كما افتتحَ بِهِ الركعةَ في أَوَّلِ الاستفتاحِ كما كانَ يَختِمُ الصلاةَ بالاستغفارِ، وكان الاستغفارُ في أَوَّلِ الصلاةِ ووَسَطِها وآخِرِها، **فاشتمَلَ هذا الركْنُ** على أَفضلِ الأذكارِ وأَنفعِ الدعاءِ: مِنْ حَمْدِهِ وتمجيدِهِ والثناءِ عليهِ والاعترافِ لهُ بالعُبوديَّةِ والتوحيدِ والتَّنَصُّلِ إليهِ مِن الذنوبِ والخطايا. فهوَ ذِكْرٌ مقصودٌ في رُكْنٍ مقصودٍ ليسَ بدونِ الركوعِ والسجودِ))[(٢)].

ثُمَّ شَرَعَ لهُ أن يُكَبِّرَ ويَخِرَّ ساجداً، ويُعْطِيَ في سجودِهِ كلَّ عُضْوٍ مِنْ أعضائِهِ حَظَّهُ مِن العُبوديَّةِ، فيَضَعَ نَاصيتَهُ بالأرضِ بينَ يَدَيْ رَبِّهِ مُسْنَدَةً راغماً لهُ أنفُهُ، خاضعاً لهُ قلبُهُ، ويَضَعَ أَشرفَ ما فيهِ - وهوَ وَجهُهُ - بالأرضِ، ولا سِيَّما على الترابِ مُعَفِّراً لهُ بينَ يَدَيْ سَيِّدِهِ راغماً لهُ أنفُهُ، خاضعاً لهُ قلبُهُ وجوارِحُهُ، مُتَذَلِّلاً لعَظَمَتِهِ، خاضعاً لعِزَّتِهِ، مُستكيناً بينَ يَديهِ، أَذَلَّ شيءٍ وأكسَرَهُ لربِّهِ تعالى، مُسَبِّحاً لهُ بعُلُوِّهِ في أَعظمِ سُفولِهِ، قدْ صارتْ أَعاليهِ مَلْوِيَّةً لأسافلِهِ ذُلاًّ

---

(١) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٧١٢٤)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الأذانِ/ بابُ ما يقولُ بعدَ التكبيرِ (٧٤٤)، ومسلِمٌ في كتابِ المساجدِ / بابُ ما يقولُ بينَ تكبيرةِ الإحرامِ والقراءةِ، وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ / بابُ السَّكْتةِ عندَ الافتتاحِ (٧٧٦)، والنَّسائِيُّ في كتابِ الصلاةِ / بابُ الدُّعاءِ بينَ التكبيرِ والقراءةِ (٨٩٣)، ومَواضعَ أُخَرَ مِن طُرُقٍ عن عِمارةَ بنِ القَعقاعِ، عن أبي زُرعةَ، عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٢) كتابُ الصلاةِ (١٧٧-١٧٨).

وخُضوعاً وانْكِساراً، وقدْ طابَقَ قلبُهُ حالَ جِسمِهِ، فسَجَدَ القلبُ كما سَجَدَ الوجهُ، وقدْ سَجَدَ معه أنفُهُ ويَداهُ ورُكبتاهُ ورِجلاهُ.

وشَرَعَ لهُ أن يُقِلَّ فَخِذَيْهِ عنْ ساقَيْهِ، وبطنَهُ عنْ فَخِذَيْهِ، وعَضُدَيْهِ عنْ جَنْبَيْهِ، ليَأْخُذَ كلُّ جزءٍ منهُ حظَّهُ مِن الخضوعِ ولا يُحمِّلَ بعضَهُ بعضاً، فأَحْرَى بهِ في هذهِ الحالِ أن يكونَ أَقْرَبَ إلى ربِّهِ منهُ في غيرِها مِن الأحوالِ، كما قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»(1).

ولما كانَ سجودُ القلبِ خُضوعُهُ التامُّ لربِّهِ أَمْكَنَهُ استدامةُ هذا السجودِ إلى يومِ لِقائِهِ، كما قِيلَ لبعضِ السلَفِ: هلْ يَسجدُ القلبُ؟ قالَ: ((إي وَاللهِ، سَجدةً لا يَرْفَعُ رأسَهُ منها حتَّى يَلْقَى اللهَ)).(2)

ولَمَّا بُنِيَت الصلاةُ على خَمْسٍ: القراءةِ والقيامِ والركوعِ والسجودِ والذكرِ سُمِّيَتْ باسمِ كلِّ واحدٍ مِنْ هذهِ الخَمْسِ:

فسُمِّيَتْ **قِياماً** كقولِهِ تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ [المزمل: 2] وقولِهِ: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة: 238].

و**قراءةً** كقولِهِ: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ۝٧٨﴾ [الإسراء: 78].

و**ركوعاً** كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [البقرة: 43] وقولِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ۝٤٨﴾ [المرسلات: 48].

(1) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (9165) ومسلمٌ في كتابِ الصلاةِ / بابُ ما يقالُ في الركوعِ والسجودِ (1083) وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ / بابُ الدعاءِ في الركوعِ والسجودِ (870) والنَّسائيُّ في كتابِ التطبيقِ / بابُ أَقْرَبِ ما يَكُونُ العبدُ مِنَ اللهِ عَزَّ وجلَّ (1136) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ اللهُ عنه.

(2) وانظُر كتابَ الصلاةِ (178- 181).

وسجوداً كقولِهِ: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٩٨]
وقولِهِ: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ [العلق: ١٩].

وذِكْراً كقولِهِ: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] وقولِهِ: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩].

وأَشرَفُ أفعالِها السجودُ، وأَشرفُ أذكارِها القراءةُ، وأَوَّلُ سورةٍ أُنْزِلَتْ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ افْتُتِحَتْ بالقراءةِ وخُتِمَتْ بالسجودِ. ووُضِعَت الركعةُ على ذلكَ، أَوَّلُها قراءةٌ وآخرُها سجودٌ.

ثُمَّ شَرَعَ لهُ أن يَرفعَ رأسَهُ ويَعتدلَ جالساً، ولَمَّا كانَ هذا الاعتدالُ محفوفاً بسُجودينِ: سُجودٍ قبلَهُ وسجودٍ بعدَهُ، فيَنتقلُ مِن السجودِ إليهِ، ثُمَّ مِنهُ إلى السجودِ كانَ لهُ شأنٌ، فكانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ يُطيلُهُ بقَدْرِ السجودِ، يَتضرَّعُ فيهِ إلى رَبِّهِ، ويَستغفرُهُ ويَسألُهُ رحمتَهُ وهِدايتَهُ ورِزْقَهُ وعافيتَهُ، ولهُ ذوقٌ خاصٌّ وحالٌ للقلبِ غيرُ ذَوقِ السجودِ وحالِهِ، فالعبدُ في هذا القعودِ قدْ تَمثَّلَ جاثياً بينَ يَدَيْ ربِّهِ مُلْقِياً نفسَهُ بينَ يَديهِ، مُعْتَذِراً إليهِ مِمَّا جَناهُ، راغباً إليهِ أن يَغفرَ لهُ ويَرحمَهُ، مُسْتَعْدِياً على نفسِهِ الأَمَّارةِ بالسوءِ.

وكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم يُكرِّرُ الاستغفارَ في هذهِ القَعْدَةِ، ويُكْثِرُ رَغبتَهُ إلى اللهِ فيها.

فمَثِّلْ نفسَكَ بِمَنْـزِلَةِ غريمٍ عليهِ حقُّ اللهِ، وأنتَ كفيلٌ بهِ، والغريمُ مُماطِلٌ مخادِعٌ، وأنتَ مطلوبٌ بالكفالةِ، والغريمُ مطلوبٌ بالحقِّ، لتَتَخَلَّصَ مِن المطالَبَةِ.

والقلبُ شَريكُ النفْسِ في الخيرِ والشرِّ، والثوابِ والعِقابِ، والحمْدِ والذَّمِّ.

والنفْسُ مِنْ شأنِها الإباقُ، والخروجُ مِنْ رِقِّ العُبوديَّةِ، وتَضييعُ حقوقِ اللهِ التي قِبَلَها، والقلبُ شَريكُها إن قَوِيَ سلطانُها، وأسيرُها، وهيَ شَريكةٌ، وأَسيرةٌ إن قَوِيَ سُلطانُهُ.

فشُرِعَ للعبدِ إذا رَفَعَ رأسَهُ مِن السجودِ أن يَجْثُوَ بينَ يَدَي اللهِ مُسْتَعْدِياً على نفسِهِ، مُعْتَذِراً إلى ربِّهِ مِمَّا كانَ منها، راغباً إليهِ أن يَرْحَمَهُ ويَغفرَ لهُ ويَهديَهُ ويَرزقَهُ ويُعافيَهُ، وهذهِ **الخمسُ هيَ جُمَّاعُ خيرِ الدنيا والآخرةِ**؛ فإنَّ العبدَ مُحتاجٌ، بلْ مُضْطَرٌّ إلى تحصيلِ مَصالحِهِ في الدنيا وفي الآخرةِ، ودَفْعِ المُضارِّ عنهُ في الدنيا والآخرةِ، وقدْ تَضَمَّنَهَا هذا الدعاءُ فإنَّ الرزقَ يَجْلُبُ لهُ مَصالحَ دُنياهُ، والعافيَةَ تَدْفَعُ مَضارَّها، والهدايَةَ تَجْلُبُ لهُ مَصالحَ أُخْرَاهُ، والمغفرةَ تَدفَعُ عنهُ مَضارَّها، والرحمةَ تَجْمَعُ ذلكَ كُلَّهُ.

وشُرِعَ لهُ أنْ يعودَ ساجداً كما كانَ، ولا يُكتفَى منهُ بسجدةٍ واحدةٍ في الركعةِ كما اكْتُفِيَ منهُ بركوعٍ واحدٍ، لفَضْلِ السجودِ وشَرَفِهِ ومَوْقِعِهِ مِن اللهِ، حتَّى إنَّهُ أَقْرَبُ ما يكونُ إلى عَبْدِهِ وهوَ ساجدٌ، وهوَ أَدْخَلُ في العُبوديَّةِ وأَعْرَقُ فيها مِنْ غيرِهِ، ولهذا جُعِلَ خاتمةُ الركعةِ وما قبلَهُ كالمُقَدِّمةِ بينَ يديهِ، فمَحَلُّهُ مِن الصلاةِ مَحَلُّ طوافِ الزيارةِ، وما قَبْلَهُ مِن التعريفِ وتوابعِهِ مُقَدِّماتٌ بينَ يديهِ، وكما أنَّهُ أقربُ ما يكونُ العبدُ مِنْ رَبِّهِ وهوَ ساجدٌ فكذلكَ أَقْرَبُ ما يكونُ منهُ في المَناسِكِ وهوَ طائفٌ، ولهذا قالَ بعضُ الصحابةِ لِمَنْ كَلَّمَهُ في طَوَافِهِ بِأَمْرٍ مِن الدُّنْيا: «**أَتَقُولُ هَذَا وَنَحْنُ نَتراءَى اللهَ في طَوافِنَا**». ولهذا - واللهُ أعلمُ- جُعِلَ الركوعُ قبلَ السجودِ تَدريجيًّا وانتقالاً مِن الشيءِ إلى ما هوَ أَعْلَى منهُ.

وشُرِعَ لهُ تكريرُ هذهِ الأفعالِ والأقوالِ إذْ هيَ غِذاءُ القلبِ والرُّوحِ التي لا قِوامَ لهما إلاَّ بها، فكانَ تكريرُها بمنزِلةِ تكريرِ الأكلِ حتَّى يَشْبَعَ، والشُّرْبِ حتَّى يَرْوَى، فلوْ تناوَلَ الجائعُ لُقمةً واحدةً وأَقْلَعَ عن الطعامِ، ماذا كانت تُغْنِي عنهُ.

ولهذا قالَ بعضُ السلَفِ: (مَثَلُ الذي يُصَلِّي ولا يَطْمَئِنُّ في صلاتِهِ كمَثَلِ الجائعِ إذا قُدِّمَ إليهِ طعامٌ فتناوَلَ منهُ لُقمةً أوْ لُقْمَتَيْنِ ماذا تُغْنِي عنهُ؟!!).

(([فـ]هوَ كجائعٍ قُدِّمَ إليهِ طعامٌ لذيذٌ جِدًّا، فأكَلَ منهُ لُقمةً أوْ لُقمتينِ، فماذا يُغنيانِ عنهُ؟ ولكنْ لوْ أَحَسَّ بجُوعِهِ لَمَا قامَ مِن الطعامِ حتَّى يَشبعَ منهُ وهوَ يَقْدِرُ على ذلكَ. لكنَّ القلْبَ شَبعانُ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ)). [1]

هذا وفي إعادةِ كلِّ قولٍ أوْ فِعْلٍ مِن العُبُودِيَّةِ والقُرْبِ، وتنـزيلِ الثانيةِ مَنـزلةَ الشكْرِ على الأُولَى، وحُصولِ مَزيدٍ منها، ومَعرفةٍ وإقبالٍ، وقوَّةِ قلبٍ، وانشراحِ صَدْرٍ، وزَوالِ دَرَنٍ ووَسَخٍ عن القلبِ بِمَنْـزِلَةِ غَسْلِ الثوبِ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ.

فهذه حِكمةُ اللهِ التي بَهَرَت العقولَ في خَلْقِهِ وأَمْرِهِ ودَلَّتْ على كمالِ رَحمتِهِ ولُطْفِهِ.

فلَمَّا قَضَى صَلاتَهُ وأَكْمَلَها ولم يَبْقَ إلاَّ الانصرافُ منها شُرِعَ لهُ الجلوسُ بينَ يَدَيْ رَبِّهِ مُثْنِياً عليهِ بأَفضلِ التحِيَّاتِ التي لا تَصْلُحُ إلاَّ لهُ، ولا تَليقُ بغَيرِهِ.

ولَمَّا كانَ عادةُ الملوكِ أن يُحَيَّوْا بأنواعِ التَّحِيَّاتِ مِن الأفعالِ والأقوالِ المُتَضَمِّنَةِ للخضوعِ والثناءِ وطلَبِ البقاءِ ودوامِ المُلْكِ، فمِنهم مَنْ يُحَيَّى بالسجودِ، ومِنهم مَنْ يُحَيَّى بالثناءِ عليهِ، ومنهم مَنْ يُحَيَّى بطَلَبِ البقاءِ والدوامِ لهُ، ومنهم مَنْ يُجْمَعُ لهُ ذلكَ كُلُّهُ.

فكانَ **المَلِكُ الحقُّ** سبحانَهُ أَوْلَى بالتَّحِيَّاتِ كلِّها مِنْ جميعِ خَلْقِهِ، وهيَ لهُ بالحقيقةِ، ولهذا فُسِّرَت التَّحِيَّاتُ بالمُلْكِ، وفُسِّرَتْ بالبقاءِ والدوامِ. وحقيقتُها ما ذَكَرْتُهُ وهيَ تَحِيَّاتُ المُلْكِ، فالمَلِكُ الحقُّ المُبِينُ أَوْلَى بها.

فكلُّ تَحِيَّةٍ يُحَيَّا بها مَلِكٌ مِنْ سُجودٍ أوْ ثَناءٍ أوْ بَقاءٍ ودَوام فهيَ للهِ عزَّ وجَلَّ، ولهذا أَتَى بها مَجموعةً مُعَرَّفَةً باللام - أداةِ العموم - وهيَ جَمْعُ تَحِيَّةٍ، وهيَ تَفعِلةٌ مِن الحياةِ، وأَصْلُها تَحْيِيَةٌ بوَزنِ تَكْرِمَةٍ ثُمَّ أُدْغِمَ أَحَدُ المِثْلَيْنِ في الآخَرِ فصَارَتْ تَحِيَّةً، وإذا كانَ أَصْلُها مِن الحياةِ، والمطلوبُ لِمَنْ يُحَيَّا بها دَوامُ الحياةِ، وكانوا

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٢/ ٣٧٠).

يَقولونَ لِمُلوكِهِم: لكَ الحياةُ الباقيَةُ ولكَ الحياةُ الدائمةُ، وبعضُهم يقولُ: عشرةَ آلافِ سنةٍ، واشْتُقَّ منها: أَدامَ اللهُ أَيَّامَكَ، وأطالَ اللهُ بقاءَكَ، ونحوَ ذلكَ مِمَّا يُرادُ بهِ دوامُ حياةِ المَلِكِ. وذلكَ لا يَنبغِي إلاَّ **لِلْحَيِّ** الذي لا يموتُ و**لِلْمَلِكِ** الذي كلُّ مُلْكٍ زائلٌ غيرَ مُلْكِهِ.

ثُمَّ عَطَفَ عليها الصلواتِ بلَفْظِ الجمْعِ والتعريفِ لِيَشمَلَ كلَّ ما أُطْلِقَ عليهِ لفظُ الصلاةِ خُصوصاً وعُموماً، فكلُّها للهِ لا تَنْبَغِي إلاَّ لهُ فالتَّحِيَّاتُ لهُ مُلْكاً، والصلواتُ لهُ عُبُودِيَّةً واستحقاقاً، فالتَّحِيَّاتُ لا تكونُ إلاَّ لهُ، والصلواتُ لا تَنبغِي إلاَّ لهُ.

ثُمَّ عَطَفَ عليها الطَّيِّباتِ كذلكَ، وهذا يَتناوَلُ أَمْرَيْنِ: الوصْفَ والمُلْكَ.

فأَمَّا الوَصْفُ فإِنَّهُ سُبحانَهُ **طَيِّبٌ**، وكلامُهُ طَيِّبٌ، وفِعْلُهُ كلُّهُ طَيِّبٌ، ولا يَصْدُرُ منهُ إلاَّ الطَّيِّبُ، ولا يُضافُ إليهِ إلاَّ الطَّيِّبُ، ولا يَصْعَدُ إليهِ إلاَّ الطَّيِّبُ، فالطَّيِّباتُ لهُ وَصْفاً وفِعْلاً وقَولاً ونِسبةً، وكلُّ طَيِّبٍ مُضافٌ إليهِ، وكلُّ مُضافٍ إليهِ طَيِّبٌ، فلهُ الكلماتُ الطَّيِّباتُ والأفعالُ الطَّيِّباتُ، وكلُّ مُضافٍ إليهِ - كبَيْتِهِ وعَبْدِهِ ورُوحِهِ وناقتِهِ وجَنَّتِهِ - فهيَ طَيِّباتٌ.

وأيضاً فمعاني الكلماتِ الطَّيِّباتِ للهِ وَحْدَهُ؛ فإِنَّ الكلماتِ الطَّيِّباتِ تَتَضَمَّنُ تَسبيحَهُ وتَحميدَهُ وتكبيرَهُ وتَمجيدَهُ والثناءَ عليهِ بآلائِهِ وأَوصافِهِ، فهذه الكلماتُ الطَّيِّباتُ التي يُثْنَى عليهِ بها ومعانيها لهُ وَحْدَهُ لا يَشْرَكُهُ فيها غيرُهُ، كسُبحانَكَ اللَّهُمَّ وبِحمدِكَ وتَبارَكَ اسمُكَ وتعالى جَدُّكَ ولا إلهَ غَيْرُكَ، ونحوَ سُبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلاَّ اللهُ واللهُ أكبرُ، ونحوَ سُبحانَ اللهِ وبِحمدِهِ سُبحانَ اللهِ العظيمِ.

فكُلُّ طَيِّبٍ فَلَهُ وعندَهُ ومنهُ وإليهِ، وهوَ طَيِّبٌ لا يَقبلُ إلاَّ طَيِّباً، وهوَ إلهُ الطَّيِّبينَ، وجِيرانُهُ في دارِ كَرامتِهِ هم الطَّيِّبُونَ.

فتأمَّلْ أَطيبَ الكلماتِ بعدَ القرآنِ كيفَ لا تنبغِي إلاَّ للهِ، وهيَ: سُبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلاَّ اللهُ، واللهُ أكبرُ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ.

فإنَّ (سُبحانَ اللهِ) تتضمَّنُ تَنزيهَهُ عنْ كُلِّ نَقْصٍ وعَيبٍ وسُوءٍ، وعنْ خصائصِ المخلوقينَ وشَبَهِهِمْ.

و(الحمدُ للهِ) تَتَضمَّنُ إثباتَ كلِّ كمالٍ لهُ قولاً وفِعلاً ووَصْفاً على أَتمِّ الوُجوهِ وأَكْمَلِها أَزَلاً وأبداً.

و(لا إلهَ إلاَّ اللهُ) تَتَضمَّنُ انفرادَهُ بالإلهيَّةِ، وأنَّ كلَّ مَعبودٍ سِواهُ فبَاطلٌ، وأنَّهُ وَحدَهُ الإلهُ الحقُّ، وأنَّهُ مَنْ تألَّهَ غيرَهُ فهوَ بِمَنـزِلةِ مَن اتَّخَذَ بيتاً مِنْ بيوتِ العنكبوتِ يَأْوِي إليهِ ويَسْكُنُهُ.

و(اللهُ أَكبرُ) تَتَضمَّنُ أنَّهُ أَكبرُ مِنْ كلِّ شيءٍ وأَجَلُّ، وأَعظمُ وأَعَزُّ، وأَقْوَى وأَقْدَرُ، وأَعْلَمُ وأَحكمُ؛ فهذه الكلماتُ الطَّيِّباتُ لا تَصْلُحُ هيَ ومَعانيها إلاَّ للهِ وَحْدَهُ.

ثُمَّ شُرِعَ لهُ أن يُسَلِّمَ على عِبادِ اللهِ الذينَ اصْطَفَى بعدَ تَقَدُّمِ الحمدِ والثناءِ عليهِ بما هوَ أهلُهُ، فطَابَقَ ذلكَ قولَهُ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩] وكأنَّهُ امتثالٌ لهُ، وأيضاً فإنَّ هذا تَحِيَّةُ المخلوقِ، فشُرِعَتْ بعدَ تَحِيَّةِ الخالقِ، وقدَّمَ في هذهِ التحيَّةِ أَوْلَى الخَلْقِ بها وهوَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ الذي نَالَتْ أُمَّتُهُ على يَدِهِ كلَّ خيرٍ. وعلى نفسِهِ بَعْدَهُ، وعلى سائرِ عِبادِ اللهِ الصالحينَ، وأخصُّهمْ بهذه التحيَّةِ الأنبياءُ، ثُمَّ أصحابُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ، معَ عُمومِها لكلِّ عبدٍ للهِ صالحٍ في الأرضِ والسماءِ.(١)

---

(١) وقال -رَحِمَهُ اللهُ- في كتابِ الصلاةِ (١٨٣): (ولَمَّا كانَ السلامُ من أنواعِ التحيةِ، وكانَ المسلمُ داعيًا لِمَنْ يُجِيبُه، وكانَ اللهُ -سبحانَهُ- هو الذي يَطْلُبُ منه السلامَ لِعبادِهِ الذينَ اختَصَّهُمْ بعُبُودِيَّتِه، وارْتَضاهُمْ لِنفْسِه، وشَرَعَ أَنْ يَبْدَأَ بأَكْرَمِهِمْ عَلَيْه، وأَحَبِّهِمْ إِلَيْه، وأَقْرَبِهِمْ مِنه مَنْزِلَةً في هذه التحيةِ بالشَّهادَتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُما مِفْتَاحُ الإسلامِ، فشَرَعَ أن يَكُونَ خَاتِمَةَ الصَّلاةِ.

ثُمَّ شُرِعَ لهُ بعدَ ذِكْرِ هذهِ التحيَّةِ والتسليمِ على مَنْ يَسْتَحِقُّ التسليمَ خُصوصاً وعُموماً أن يَشهدَ شَهادةَ الحقِّ التي بُنِيَتْ عليها الصلاةُ، وهيَ حَقٌّ مِنْ حُقوقِها ولا تَنفعُهُ إلاَّ بقَرينتِها وهيَ شَهادةٌ لرسولِ اللهِ بالرسالةِ، وخُتِمَتْ بها الصلاةُ كما قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ: «**فإذا قلتَ ذلكَ فقدْ قَضيتَ صَلاتَكَ، فإنْ شئتَ أن تقومَ فقُمْ، وإن شِئتَ أن تَقعُدَ فاقْعُدْ**»[1] وهذا إمَّا أن يُحْمَلَ على قَضاءِ الصلاةِ حَقيقةً كما يقولُهُ الكُوفيُّونَ، أوْ على مُقارَبَةِ انقضائِها ومُشارَفَتِهِ كما يقولُهُ أهلُ الحجازِ وغيرُهم، وعلى التقديرينِ فجُعِلَتْ شَهادةُ الحقِّ خاتمةَ الصلاةِ كما شُرِعَ أن تكونَ خاتِمَةَ الحياةِ، فمَنْ كانَ آخِرُ كلامِهِ لا إلهَ إلاَّ اللهُ دَخلَ الجنةَ. وكذلكَ شُرِعَ للمُتَوَضِّئِ أن يَخْتِمَ وُضوءَهُ بالشهادتينِ.

ثُمَّ لَمَّا قَضى صلاتَهُ، أُذِنَ لهُ أن يَسألَ حاجتَهُ، وشُرِعَ لهُ أن يَتوَسَّلَ قَبْلَهَا بالصلاةِ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ، فإنَّها مِنْ أعظمِ الوسائلِ بينَ يَدَي الدعاءِ كما في السُّنَنِ، عنْ فَضالةَ بنِ عُبيدٍ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ قالَ: «**إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِحَمْدِ اللهِ، وَالثَّناءِ عَلَيْهِ، وَلْيُصَلِّ عَلَى رَسُولِهِ، ثُمَّ لِيَسَلْ حَاجَتَهُ**».[2]

فدخلَ فيها بالتكبيرِ والحمدِ والثناءِ والتمجيدِ وتوحيدِ الربوبيةِ والإلهيةِ، وخَتمَها بشهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه. وشُرعَتْ هذه التحيةُ في وسَطِ الصلاةِ... إذا زادَتْ على ركعتَينِ، تشبيهًا لها بجِلسَةِ الفصلِ بينَ السجدتينِ، وفيها مع الفصلِ راحةٌ للمصلِّي لاستقبالِهِ الركعتينِ الآخِرَتَينِ بنشاطٍ وقوةٍ بخلافِ ما إذا وَالَى بينَ الرَّكَعاتِ، ولهذا كانَ الأفضلُ في النفلِ مَثْنَى مَثْنَى، وإن تَطَوَّعَ بأَرْبَعٍ جَلَسَ في وَسَطِهِنَّ).

(١) كلامُ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٣٩٩٦)، وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ / بابُ التشهُّدِ (٩٦٦)، وقد اختُلِفَ في رَفعِهِ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، وأصلُ الحديثِ في الصحيحينِ وغيرِهما بدونِ هذه الزيادةِ.

(٢) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٢٣٤١٩)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الدَّعواتِ / بابُ (٦٥)، الحديثُ رقْمُ (٣٤٧٧)، وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ / بابُ الدعاءِ (١٤٧٨) بلفظٍ مُقارِبٍ، كُلُّهُم مِن حديثِ حُمَيْدِ بنِ هَانِئٍ، عن عمرِو بنِ مالكٍ الجَنْبِيِّ، عن فَضَالَةَ بنِ عُبَيْدٍ رضِيَ اللهُ عنه.

فجاءت التحيَّاتُ على ذلكَ، أوَّلها حَمْدُ اللهِ والثناءُ عليهِ، ثُمَّ الصلاةُ على رسولِهِ، ثُمَّ الدعاءُ آخِرَ الصلاةِ، وأَذِنَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ للمُصَلِّي بعدَ الصلاةِ عليهِ أن يَتخَيَّرَ مِن الدعاءِ أَعْجَبَهُ إليهِ، ونَظيرُ هذا ما شُرِعَ لِمَنْ سَمِعَ المؤَذِّنَ أن يقولَ كما يقولُ، وأن يقولَ: (رَضِيتُ باللهِ رَبًّا وبالإسلامِ دِيناً وبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ رَسُولاً، وأن يَسألَ اللهَ لرسولِهِ الوَسيلةَ، والفضيلةَ وأن يَبعثَهُ المقامَ المحمودَ ثُمَّ يُصَلِّيَ عليهِ)، ثُمَّ يَسألَ حاجتَهُ. فهذه خَمْسُ سُنَنٍ في إجابةِ المؤَذِّنِ لا يَنبغِي الغَفلةُ عنها.

((فكأنَّ المُصَلِّيَ تَوَسَّلَ إلى اللهِ – سُبحانَهُ – بعُبوديَّتِهِ، ثُمَّ بالثناءِ عليهِ والشهادةِ لهُ بالوحدانيَّةِ ولرسولِهِ بالرسالةِ، ثُمَّ الصلاةِ على رسولِهِ، ثُمَّ قيلَ لهُ: تَخَيَّرْ مِن الدعاءِ أَحَبَّهُ إليكَ فذاكَ الحَقُّ الذي عَليكَ، وهذا الحَقُّ الذي لكَ)). [1]

((ثم خُتِمَت [الصلاةُ] بالتسليمِ، وجُعِلَ تَحليلاً لها يَخْرُجُ بهِ المُصَلِّي منها، كما يَخْرُجُ بتحليلِ الحَجِّ منهُ، وجُعِلَ هذا التحليلُ دُعاءَ الإمامِ لِمَنْ وَراءَهُ بالسلامةِ التي هيَ أصلُ الخيرِ وأساسُهُ، فشُرِعَ لِمَنْ وَراءَهُ أن يَتَحَلَّلَ بِمِثْلِ ما تَحَلَّلَ بهِ الإمامُ، وفي ذلكَ دُعاءٌ لهُ وللمُصَلِّينَ معه بالسلامِ، ثُمَّ شُرِعَ ذلكَ لكلِّ مُصَلٍّ وإن كانَ مُنْفَرِداً.

فلا أَحْسَنَ مِنْ هذا التحليلِ للصلاةِ، كما أنَّهُ لا أَحسنَ مِنْ كونِ التكبيرِ تَحريماً لها؛ فتحريمُها تكبيرُ الربِّ تعالى الجامعُ لإثباتِ كلِّ كَمالٍ لهُ، وتَنزيهُهُ عنْ كلِّ نَقْصٍ وعَيْبٍ، وإفرادُهُ وتخصيصُهُ بذلكَ وتعظيمُهُ وإجلالُهُ؛ فالتكبيرُ يَتضمَّنُ تفاصيلَ أفعالِ الصلاةِ وأقوالِها وهيئاتِها؛ فالصلاةُ مِنْ أَوَّلِها إلى آخِرِها تَفصيلٌ لِمَضْمُونِ: «اللهُ أكبر».

---

(١) كتابُ الصلاةِ (١٨٤).

وأيُّ تحريمٍ أَحْسَنُ مِنْ هذا التحريمِ المتضَمِّنِ للإخلاصِ والتوحيدِ؟!! وهذا التحليلُ المُتَضَمِّنُ الإحسانَ إلى إخوانِهِ المؤمنينَ؟!!؛ فافْتُتِحَتْ بالإخلاصِ، وخُتِمَتْ بالإحسانِ)). (١)

[فَصْلٌ]

وسِرُّ الصلاةِ ورُوحُها ولُبُّها هوَ إقبالُ العبدِ على اللهِ بكُلِّيَّتِهِ، فكما أنَّهُ لا يَنبغِي لهُ أن يَصْرِفَ وَجهَهُ عنْ قِبْلَةِ اللهِ يَميناً وشِمالاً، فكذلكَ لا يَنبغِي لهُ أن يَصْرِفَ قَلْبَهُ عنْ رَبِّهِ إلى غيرِهِ.

فالكعبةُ التي هيَ بيتُ اللهِ قِبلةُ وَجهِهِ وبَدَنِهِ، وربُّ البيتِ تَبارَكَ وتعالى هوَ قِبلةُ قَلْبِهِ ورُوحِهِ، وعلى حَسَبِ إقبالِ العَبْدِ على اللهِ في صلاتِهِ يكونُ إقبالُ اللهِ عليهِ، وإذا أَعْرَضَ أَعْرَضَ اللهُ عنهُ.

وللإقبالِ في الصلاةِ ثلاثُ مَنازِلَ:

إقبالٌ على قَلْبِهِ فيَحفظُهُ مِن الوَساوِسِ والخَطَراتِ المُبْطِلَةِ لثوابِ صَلاتِهِ، أو المُنْقِصَةِ لهُ.

وإقبالٌ على اللهِ بِمُراقبتِهِ حتَّى كأنَّهُ يَراهُ.

وإقبالٌ على معاني كلامِهِ وتفاصيلِ عُبودِيَّةِ الصلاةِ ليُعْطِيَهَا حَقَّهَا.

فباستكمالِ هذهِ المُراتبِ الثلاثِ تكونُ إقامةُ الصلاةِ حقًّا، ويكونُ إقبالُ اللهِ على عبدِهِ بِحَسَبِ ذلكَ.

فإذا انتَصَبَ العبدُ قائماً بينَ يديهِ فإقبالُهُ على قَيُّومِيَّتِهِ وعَظمتِهِ.

- وإذا كَبَّرَ فإقبالُهُ على كِبريائِهِ.

(١) كتابُ الصلاةِ (١٨٥).

- فإذا سَبَّحَهُ وأَثْنَى عليهِ فإقبالُهُ على سُبُحَاتِ وَجهِهِ وتَنـزيهُ عمّا لا يَليقُ بهِ، والثناءُ عليهِ بأوصافِ جمالِهِ.

- فإذا استعاذَ بهِ فإقبالُهُ على رُكنِهِ الشديدِ وانتصارُهُ لعبدِهِ ومَنْعُهُ لهُ وحِفْظُهُ مِنْ عَدُوِّهِ، فإذا تَلا كلامَهُ فإقبالُهُ على مَعرفتِهِ مِنْ كلامِهِ، حتَّى كأنَّهُ يَراهُ ويُشاهِدُهُ في كلامِهِ فهوَ كما قالَ بعضُ السلَفِ: (لَقَد تَجَلَّى اللهُ لِعِبادِهِ في كَلامِهِ).

فهوَ في هذهِ الحالِ مُقْبِلٌ على ذاتِهِ وصِفاتِهِ وأفعالِهِ وأحكامِهِ وأسمائِهِ.

- فإذا رَكَعَ فإقبالُهُ على عَظمتِهِ وجلالِهِ وعِزِّهِ، ولهذا شُرِعَ لهُ أن يقولَ: سُبحانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ.

- فإذا رَفَعَ رأسَهُ مِن الركوعِ فإقبالُهُ على حَمْدِهِ والثناءِ عليهِ وتَمجيدِهِ وعبوديَّتِهِ لهُ وتَفرُّدِهِ بالعطاءِ والمنْعِ. فإذا سَجَدَ فإقبالُهُ على قُرْبِهِ والدُّنُوِّ منهُ، والخضوعِ لهُ والتذَلُّلِ بينَ يديهِ، والانكسارِ والتملُّقِ.

- فإذا رَفَعَ رأسَهُ وجَثَا على رُكبتِهِ فإقبالُهُ على غِناهُ وجُودِهِ وكَرَمِهِ، وشِدَّةِ حاجتِهِ إليهِ، وتَضَرُّعِهِ بينَ يديهِ، والانكسارِ أن يَغفرَ لهُ ويَرحَمَهُ ويُعافِيَهُ ويَهدِيَهُ ويَرزُقَهُ.

- فإذا جلَسَ في التشَهُّدِ فلهُ حالٌ آخَرُ وإقبالٌ آخَرُ شِبْهُ حالِ الحاجِّ في طوافِ الوَداعِ، وقد اسْتَشْعَرَ قَلْبُهُ الانصرافَ مِنْ بينِ يَدَيْ رَبِّهِ، ومُوافاةَ العلائقِ والشواغلِ التي قَطَعَها الوقوفُ بينَ يديهِ، وقدْ ذاقَ تَأَلُّمَ قلبِهِ وعذابَهُ بها، وباشَرَ روحَ القُرْبِ ونَعيمَ الإقبالِ على اللهِ وعاقبتَهُ، وانقطاعَها عنهُ مُدَّةَ الصلاةِ، ثُمَّ اسْتَشْعَرَ قَلْبُهُ عَوْدَها إليهِ بخروجِهِ مِنْ حِمَى الصلاةِ، فهوَ يَحمِلُ هَمَّ انقضاءِ الصلاةِ وفَراغِها، ويقولُ: لَيْتَها اتَّصلَتْ بيومِ اللقاءِ، ويَعلَمُ أَنَّهُ يَنْصَرِفُ مِنْ مُناجاةِ مَنْ كُلُّ السعادةِ في مُناجاتِهِ، إلى مُناجاةِ مَن الأذَى والهمُّ والغمُّ والنكَدُ

في مُناجاتِهِ، ولا يَشعُرُ بهذا وما هذا إلاَّ قَلْبٌ حَيٌّ مَعمورٌ بذِكْرِ اللهِ ومحبَّتِهِ والأُنْسِ بهِ.

ولمَّا كانَ العبدُ بينَ أمرينِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وجَلَّ:

أحدُهما: حَكَمٌ عليهِ في أحوالِهِ كلِّها ظاهراً وباطناً، واقتضاؤُهُ منهُ القيامَ بعُبوديَّةِ حُكْمِهِ، فإنَّ لكلِّ حُكْمٍ عُبوديَّةً تَخُصُّهُ، أَعْني الحُكْمَ الكونيَّ القَدَرِيَّ.

والثاني: فِعلٌ يَفعلُهُ العبدُ عُبودِيَّةً لرَبِّهِ، وهوَ مُوجَبُ حُكْمِهِ الدينيِّ الأَمْرِيِّ.

وكِلا الأمرينِ يُوجِبَان تَسليمَ النفْسِ إليهِ تعالى.

ولهذا اشْتُقَّ لهُ اسمُ الإسلامِ مِن التسليمِ، فإنَّهُ لَمَّا أَسْلَمَ نفسَهُ لحُكْمِ رَبِّهِ الدِّينِيِّ الأَمْرِيِّ، ولِحُكْمِهِ الكونيِّ القَدَرِيِّ بقِيامِهِ بعُبوديَّتِهِ فيهِ لا باسترسالِهِ معه اسْتَحَقَّ اسمَ الإِسلامِ، فقيلَ لهُ: مُسلمٌ.

ولَمَّا اطْمَأَنَّ قلبُهُ بذِكْرِهِ وكلامِهِ ومحبَّتِهِ وعُبوديَّتِهِ، سَكَنَ إليهِ وقَرَّتْ عينُهُ بهِ فَنالَ الأمانَ بإيمانِهِ، وكان قِيامُهُ بهذينِ الأمرينِ أَمْراً ضَروريًّا لهُ لا حياةَ لهُ ولا فَلاحَ ولا سَعادةَ إلاَّ بهما، ولَمَّا كانَ ما يُلِيَ بهِ مِن النفْسِ الأمَّارةِ، والهوى المُقْتَضِي، أو الطِّباعِ المُطالِبَةِ، والشيطانِ المُغْوِي، يَقتضِي منهُ إضاعةَ حَظِّهِ مِنْ ذلكَ أَوْ نُقصانَهُ اقْتَضَتْ رَحمةُ العزيزِ الرحيمِ أن شَرَعَ لهُ الصلاةَ مُخْلِفَةً عليهِ ما ضاعَ منهُ، رادَّةً عليهِ ما ذَهَبَ، مُجَدِّدَةً لهُ ما أَخْلَقَ مِنْ إيمانِهِ، وجُعِلَتْ صُورتُها على صورةِ أفعالِهِ خُشوعاً وخُضوعاً وانقياداً وتَسليماً، وأَعطَى كلَّ جارحةٍ مِن الجوارحِ حَظَّها مِن العُبوديَّةِ، وجَعَلَ ثَمَرَتَها ورُوحَها إقبالَهُ على رَبِّهِ فيها بكُلِّيَّتِهِ، وجَعَلَ ثوابَها وجزاءَها القُرْبَ منهُ ونَيْلَ كَرامتِهِ في الدنيا والآخرةِ، وجَعَلَ مَنْـزِلَتَها ومَحَلَّها الدخولَ على اللهِ تَبارَكَ وتعالى والتزَيُّنَ للعَرْضِ عليهِ تَذكيراً بالعرْضِ الأكبرِ عليهِ يومَ اللقاءِ.

وكما أنَّ الصومَ ثَمرتُهُ تَطهيرُ النفْسِ، وثمرةُ الزكاةِ تطهيرُ المالِ، وثمرةُ الحَجِّ وُجوبُ المغفرةِ، وثَمرةُ الجهادِ تَسليمُ النفْسِ التي اشتراها سُبحانَهُ مِن العِبادِ، وجَعَلَ الجنَّةَ ثَمَنَها، فالصلاةُ ثَمرَتُها الإقبالُ على اللهِ، وإقبالُ اللهِ سُبحانَهُ على العَبْدِ، وفي الإقبالِ جَميعُ ما ذُكِرَ مِنْ ثَمراتِ الأعمالِ؛ ولذلكَ لم يَقُل النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْني في الصومِ ولا في الحَجِّ والعُمرةِ. وإنَّما قالَ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ»(١) وتأَمَّلْ قولَهُ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ» ولم يَقُلْ بالصلاةِ، إعلاماً بأنَّ عينَهُ إنَّما تَقِرُّ بدخولِهِ فيها، كما تَقِرُّ عينُ المُحِبِّ بِمُلابَسَتِهِ لِمَحبوبِهِ، وتَقِرُّ عينُ الخائفِ بدُخولِهِ في مَحَلِّ أَمْنِهِ، فقُرَّةُ العينِ بالدخولِ في الشيءِ أَكْمَلُ وأَتَمُّ مِنْ قُرَّةِ العينِ بِهِ قَبلَ الدخولِ، ولَمَّا جاءَ إلى راحةِ القلبِ مِنْ تَعَبِهِ ونَصَبِهِ قالَ: «يَا بِلالُ أَرِحْنَا بِالصَّلاةِ»(٢)؛ أيْ: أَقِمْهَا لنَستريحَ بها مِنْ مُقاساةِ الشواغلِ، كما يَستريحُ التَّعبانُ إذا وَصَلَ إلى مَنزِلِهِ وقَرَّ فيهِ وسَكَنَ.

وتَأَمَّلْ كيفَ قالَ: أَرِحْنَا بها، ولم يَقُلْ: أَرِحْنَا منها، كما يقولُهُ المتكلِّفُ بها الذي يَفعلُها تَكَلُّفاً وغُرْماً، فهوَ لَمَّا امْتَلأَ قلبُهُ بغيرِها وجاءَتْ قاطعةً عنْ أَشغالِهِ ومَحبوباتِهِ، وعَلِمَ أنَّهُ لا بُدَّ لهُ منها فهوَ قائلٌ بلسانِ حالِهِ وقالِهِ: نُصَلِّي ونَستريحُ مِن الصلاةِ لا بها.

فهذا لونٌ وذاكَ لونٌ آخَرُ، فالفرْقُ بينَ مَنْ كانت الصلاةُ لِجَوارِحِهِ قَيْداً أوْ لِقَلْبِهِ سِجْناً، ولنفسِهِ عائقاً، وبينَ مَنْ كانت الصلاةُ لقَلْبِهِ نَعيماً، ولعينِهِ قُرَّةً ولِجوارِحِهِ راحةً، ولنفسِهِ بُستاناً ولَذَّةً.

---

(١) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١١٨٨٤، ١١٨٨٥، ١٢٦٤٤، ١٣٦٢٣)، والنَّسائيُّ في كتابِ عِشْرةِ النساءِ / بابُ حُبِّ النساءِ (٣٩٤٩) من طريقينِ عن ثابتٍ، عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٢) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٢٢٦٤٣)، وأبو داودَ في كتابِ الأدَبِ / بابٌ في صلاةِ العَتَمَةِ (٤٩٧٤) من طريقِ سالمِ بنِ أبي الجَعْدِ، عن عبدِ اللهِ بنِ مُحمدٍّ ابنِ الحَنَفِيَّةِ، عن رجلٍ من الأنصارِ سَمِعَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ.

فالأَوَّلُ الصلاةُ سجنٌ لنفسِهِ وتَقييدٌ لها عن التورُّطِ في مَساقطِ الهَلَكاتِ، وقدْ يَنالونَ بها التكفيرَ والثوابَ ويَنالُهم مِن الرحمةِ بِحَسَبِ عُبوديَّتِهم للهِ فيها.

والقِسمُ الآخرُ الصلاةُ بُستانُ قُلوبِهم، وقُرَّةُ عيونِهم، ولَذَّةُ نفوسِهم، ورياضُ جوارحِهم فهم فيها يَتقلَّبونَ في النَّعيمِ، فصلاةُ هؤلاءِ تُوجِبُ لهم القُرْبَ والمُنـزِلَةَ مِن اللهِ، ويُشاركونَ الأَوَّلِينَ في ثوابِهم ويَختَصُّونَ بأعلاهُ والمنـزلةِ والقُربةِ، وهيَ قَدْرٌ زائدٌ على مُجَرَّدِ الثوابِ، ولهذا يَعِدُ الملوكُ مَنْ أَرضاهُمْ بالأَجْرِ والتقريبِ كما قالَ السَّحَرَةُ لِفرعونَ: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٤].

فالأوَّلُ عبدٌ قدْ دَخَلَ الدارَ، والسِّتْرُ حاجبٌ بينَهُ وبينَ ربِّ الدارِ فهوَ مِنْ وراءِ السترِ فلذلكَ لم تَقرَّ عينُهُ؛ لأنَّهُ في حُجُبِ الشهواتِ وغُيومِ الهَوَى، ودُخانِ النفْسِ، وبُخارِ الأَمَانِيِّ، فالقلبُ عليلٌ، والنفسُ مُكِبَّةٌ على ما تَهواهُ، طالبةٌ لِحَظِّها العاجلِ.

والآخرُ، قدْ دَخَلَ دارَ المُلِكِ ورَفَعَ السترَ بينَهُ وبينَهُ، فقَرَّتْ عينُهُ واطمأَنَّتْ نفسُهُ، وخَشَعَ قلبُهُ وجوارحُهُ، وعَبَدَ اللهَ كأَنَّهُ يَراهُ، وتَجلَّى لهُ في كلامِهِ.

فهذه إشارةٌ ما ونُبْذَة يَسيرةٌ جِدًّا في ذَوقِ الصلاةِ). (١)

---

(١) الكلامُ على مسألةِ السماعِ (١٩٠-٢١٧).

البابُ الثامنَ عشرَ: في بيانِ بعضِ ما تضمَّنهُ ختمُ الآياتِ بالأسماءِ والصِّفاتِ منَ الفوائدِ الجليلةِ واللَّطائفِ البديعةِ

(إذا تأمَّلتَ ختمَ الآياتِ بالأسماءِ والصفاتِ وجدتَ كلامَهُ مختتماً بذكرِ الصِّفَةِ التي يقتضيها ذلكَ المقامُ، حتَّى كأنَّها ذُكرت دليلاً عليهِ ومُوجِبةً لهُ، وهذا كقولِهِ [تعالى]...: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٦] في عِدَّةِ مواضعَ مِن القرآنِ، يَذْكُرُ ذلك عَقيبَ ذِكْرِهِ الأجرامَ العُلويَّةَ وما تضمَّنهُ مِنْ فَلْقِ الإصباحِ، وجَعْلِ الليلِ سَكَناً، وإجراءِ الشمسِ والقمرِ بحسابٍ لا يَعْدُوانِهِ، وتزيينِ السماءِ بالنجومِ وحراستِها. وأَخْبَرَ أنَّ هذا التقديرَ المُحْكَمَ المُتْقَنَ صادرٌ عنْ عِزَّتِهِ وعِلْمِهِ، ليسَ أمراً اتِّفاقيًّا لا يُمْدَحُ بِهِ فاعلُهُ، ولا يُثْنَى عليهِ بِهِ كسائرِ الأمورِ الاتِّفاقيَّةِ.

ومِنْ هذا خَتْمُهُ سبحانَهُ قَصَصَ الأنبياءِ وأُمَمِهِم في سورةِ الشعراءِ عَقِيبَ كلِّ قِصَّةٍ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء: ٩] فإنَّ ما حَكَمَ بِهِ لرُسلِهِ وأَتباعِهِمْ ولأعدائِهِم صادرٌ عنْ عِزَّةٍ ورحمةٍ، فوَضَعَ الرحمةَ في محلِّها وانتقَمَ مِنْ أعدائِهِ بعِزَّتِهِ، ونَجَّى رُسُلَهُ وأَتباعَهُمْ برحمتِهِ).[1]

([وكذلك] إخبارُهُ عنْ صدورِ الخلْقِ والأمرِ عنْ حِكمتِهِ وعِلْمِهِ. فيَذْكُرُ هذينِ الاسمينِ عندَ ذِكْرِ مَصدرِ خَلْقِهِ وشَرْعِهِ تنبيهاً على أنهما إنَّما صَدَرَا عنْ حِكمةٍ مقصودةٍ مُقارِنَةٍ للعلْمِ المحيطِ التامِّ. لقولِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ

(١) شِفاءُ العَليلِ (٢/ ١١٣-١١٤).

﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل: ٦]، وقولِهِ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر:١]. فذَكَرَ العزَّةَ المُتَضَمِّنَةَ لكمالِ القُدرةِ والتصرُّفِ، والحكمةَ المُتَضَمِّنَةَ لكمالِ الحمدِ والعلْم. وقولِهِ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾ [المائدة: ٣٨] وسمعَ بعضُ الأعرابِ قَارِئاً يَقْرَأُها: «واللهُ غفورٌ رحيمٌ» فقالَ: ليسَ هذا كلامَ اللهِ.

فقيلَ: أتُكَذِّبُ بالقرآنِ؟ فقالَ: لا، ولكن لا يَحْسُنُ هذا. فرَجَعَ القارئُ إلى حِفْظِهِ فقالَ: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾، فقالَ: صَدَقْتَ). [1]

(ولهذا؛ كثيراً ما يَقْرِنُ تعالى بينَ هذينِ الاسمينِ «**العزيزِ الحكيمِ**» في آياتِ التشريعِ والتكوينِ والجزاءِ؛ لِتَدُلَّ عِبادَهُ على أنَّ مَصدرَ ذلكَ كلِّهِ عنْ حِكمةٍ بالغةٍ، وعِزَّةٍ قَاهرةٍ). [2]

([وكذلك] جوابُهُ - سُبحانَهُ- لِمَنْ سَأَلَ عن التخصيصِ والتمييزِ الواقعِ في أفعالِهِ بأنَّهُ لِحكمةٍ يَعْلَمُها هوَ سُبحانَهُ، وإن كانَ السائلُ لا يَعْلَمُها، كما أَجابَ الملائكةَ لَمَّا قالَ لهم: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] فأجابَهم بقولِهِ: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة: ٣٠]... و... كانَ سؤالُهم إنَّما وَقعَ عنْ وَجهِ الحِكْمةِ، لم يَكن اعتراضاً على الربِّ تعالى.

ومِنْ هذا قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فأجابَهم بأنَّ حِكمتَهُ وعِلْمَهُ يَأْبَى أن يَضعَ رسالاتِهِ في غيرِ مَحَلِّها وعندَ غيرِ أهلِها... وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣] فلمَّا سَأَلوا عن التخصيصِ بمشيئةِ

(١) شِفاءُ العَليلِ (٢/ ١١٣).

(٢) مِفْتَاحُ دارِ السَّعادةِ (٢/ ٤٨٥).

اللهِ وأنْكَرُوا ذلكَ أُجِيبُوا بأنَّ اللهَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَصْلُحُ لمشيئتِهِ، وهوَ أَهْلٌ لها، وهم الشاكرونَ الذينَ يَعرفونَ قَدْرَ النعمةِ ويَشكرونَ عليها المنْعِمَ. فهؤلاءِ يَصْلُحُونَ لمشيئتِهِ... ولهذا يَذكرُ سُبحانَهُ صِفةَ العلْمِ حيث يَذْكُرُ التخصيصَ والتفصيلَ بينَهما على أنَّهُ إنَّما حَصَلَ بعِلْمِهِ سُبحانَهُ بما في التخصيصِ المفَصَّلِ مِمَّا يَقتَضِي تَخصيصَهُ وتَفصيلَهُ، وهوَ الذي جَعَلَهُ أَهْلاً لذلكَ. كما قالَ تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: ٨١] فذَكَرَ عِلْمَهُ عَقِيبَ ذِكْرِ تَخصيصِهِ سليمانَ بتَسخيرِ الريحِ لهُ وتخصيصِهِ الأرضَ المذكورةَ بالبَرَكَةِ.

ومنهُ قولُهُ: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [المائدة: ٩٧] فذَكَرَ صفةَ العلْمِ التي اقْتَضَتْ تَخصيصَ هذا المكانِ وهذا الزمانِ بأمرٍ اخْتُصَّا بهِ دونَ سائرِ الأمكنةِ والأزمنةِ.

ومِنْ ذلكَ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح: ٢٦] فأَخْبَرَ أنَّهُ وَضَعَ هذهِ الكلمةَ عندَ أهلِها ومَنْ هُمْ أحقُّ بها، وأنَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّها مِنْ غيرِهم)[1].

[فَصْلٌ]

(ومِنْ ذلكَ احتجاجُهُ سبحانَهُ على إثباتِ عِلْمِهِ بالجزئيَّاتِ كلِّها بأَحسنِ دليلٍ وأوضَحِهِ وأَصَحِّهِ حيث يقولُ: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الملك: ١٣]، ثُمَّ قَرَّرَ عِلْمَهُ بذلكَ بقولِهِ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

(١) شِفاءُ العَليلِ (٢/ ١١٩-١٢٠).

وهذا مِنْ أبلغِ التقريرِ، فإنَّ الخالقَ لا بُدَّ أن يَعلمَ مخلوقَهُ، والصانعَ يَعلمُ مَصنوعَهُ، وإذا كنتمْ مُقِرِّينَ بأنَّهُ خالقُكم وخالِقُ صدورِكم وما تَضَمَّنَتْهُ فكيفَ تَخْفَى عليهِ وهيَ خَلْقُهُ.

وهذا التقريرُ مما يَصْعُبُ على القدَرِيَّةِ فَهْمُهُ، فإنَّهُ لم يَخْلُقْ عندَهم ما في الصدورِ، فلم يكنْ في الآيَةِ على أصولِهم دليلٌ على عِلْمِهِ بها، ولهذا طَرَدَ غُلاةُ القومِ ذلكَ، ونَفَوْا عِلْمَهُ فأكْفَرَهُم السلَفُ قاطِبَةً.

وهذا التقريرُ مِن الآيَةِ صحيحٌ على التقديرينِ؛ أَعْنِي تقديرَ أن تكونَ «**مَنْ**» في محَلِّ رَفْعٍ على الفاعليَّةِ، وفي محَلِّ نَصْبٍ على المفعوليَّةِ:

- **فعلى التقديرِ الأوَّلِ**: ألا يَعلمُ الخالقُ الذي شأنُهُ الخلْقُ.
- **وعلى التقديرِ الثاني**: ألا يَعلمُ الربُّ مخلوقَهُ ومصنوعَهُ.

ثُمَّ ختمَ الحُجَّةَ باسمينِ مُقْتَضِيَيْنِ لثُبوتِها وهما: «**اللطيفُ**» الذي لَطُفَ صُنْعُهُ وحكمتُهُ ودَقَّ حتَّى عَجَزَتْ عنهُ الأفهامُ، و«**الخبيرُ**» الذي انتهى عِلْمُهُ إلى الإحاطةِ ببَواطِنِ الأشياءِ وخفاياها، كما أحاطَ بظواهِرِها، فكيفَ يَخْفَى على اللطيفِ الخبيرِ ما تَحويهِ الضمائرُ وتُخفيهِ الصدورُ)[(١)].

(وكذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾ [الملك: ١٣]، ليسَ المرادُ بهِ: عليماً بمُجَرَّدِ الصدورِ، فإنَّ هذا ليسَ فيهِ كبيرُ أمْرٍ، وهوَ بمنزِلَةِ أن يُقالَ: عليمٌ بالرؤوسِ والظهورِ والأيدي والأَرْجُلِ، وإنَّما المرادُ بهِ: عليمٌ بما تُضْمِرُهُ الصدورُ مِنْ خيرٍ وشَرٍّ؛ أيْ: بالأسرارِ التي في الصدورِ وصاحبةِ الصدورِ، فأضافَ إليها بلفْظٍ يَعُمُّ جميعَ ما في الصدورِ مِنْ خيرٍ وشَرٍّ)[(٢)].

---

(١) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٢/ ٤٩١-٤٩٢).

(٢) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٤/ ١٣٨٤).

[فَصْلٌ]

(و [كذلك] قولُهُ: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧] فختَمَ حُكْمَ الفَيْءِ - الذي هوَ الرجوعُ والعَوْدُ إلى رِضَى الزوجةِ والإحسانِ إليها- بأنَّهُ «**غفورٌ رحيمٌ**» يعودُ على عَبْدِهِ بمغفرتِهِ ورحمتِهِ إذا رَجَعَ إليهِ، والجزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، فكما رَجَعَ إلى التي هيَ أَحسنُ رَجعَ اللهُ إليهِ بالمغفرةِ والرحمةِ.

﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٢٧] فإنَّ الطلاقَ لَمَّا كانَ لفظاً يُسْمَعُ ومعنًى يُقْصَدُ، عَقَّبَهُ باسمِ «**السميعِ**» للنُّطْقِ بهِ «**العليم**» بمضمونِهِ.

((و[لَمَّا كانت] حركةُ اللسانِ بالكلامِ أعظمَ حركاتِ الجوارحِ وأشدَّها تأثيراً في الخيرِ والشرِّ والصلاحِ والفسادِ، بلْ عامَّةُ ما يَترتَّبُ في الوجودِ مِن الأفعالِ إنَّما يَنْشَأُ بعدَ حركةِ اللسانِ... كانَ تقديمُ الصفةِ المتعلِّقَةِ بهِ [وهي (السمْعُ)] أهمَّ وأَوْلَى،وبهذا يُعْلَمُ تقديمُهُ على «**العليم**» حيث وَقَعَ)).[1]

وكقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة: ٢٣٥].

فلَمَّا ذَكَرَ سبحانَهُ التعريضَ بخِطْبَةِ المرأةِ الدالِّ على أن المُعَرِّضَ في قلبِهِ رَغبةٌ فيها ومَحَبَّةٌ لها، وأنَّ ذلكَ يَحمِلُهُ على الكلامِ الذي يَتَوَصَّلُ بهِ إلى نِكاحِها، رَفَعَ الجُناحَ عن التعريضِ وانطواءِ القلبِ على ما فيهِ مِن المَيْلِ والمَحبَّةِ، ونَفَى مُواعدَتَهم سِرًّا، فقيلَ:

- هوَ النِّكاحُ، والمعنى: لا تُصَرِّحوا لهنَّ بالتزويجِ إلاَّ أن تُعَرِّضُوا تَعريضاً، وهوَ القولُ المعروفُ.

(١) بَدائِعُ الفَوائِدِ (١/ ٧٤).

- وقيلَ: هوَ أن يَتزَوَّجها في عِدَّتِها سرًّا، فإذا انْقضت العِدَّةُ أَظْهَرَ العَقْدَ، ويَدُلُّ على هذا قولُهُ: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وهوَ انقضاءُ العِدَّةِ.

ومَنْ رَجَّح القولَ الأوَّلَ قالَ: دَلَّت الآيَةُ على إباحةِ التعريضِ بنَفْيِ الجُناحِ، وتحريمِ التصريحِ بنفيِ المُواعَدَةِ سِرًّا، وتحريمِ عقْدِ النِّكاحِ قبلَ انقضاءِ العِدَّةِ، فلوْ كانَ معنى مُواعَدَةِ السرِّ هوَ إسرارَ العقْدِ كانَ تكراراً.

ثُمَّ عَقَّبَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] أن تَتعَدَّوا ما حَدَّ لكم، فإنَّهُ مُطَّلِعٌ على ما تُسِرُّونَ وما تُعلنونَ، ثُمَّ قالَ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة: ٢٣٥] لولا مَغفرتُهُ وحِلْمُهُ لعَنِتُّمْ غايَةَ العَنَتِ، فإنَّهُ سُبحانَهُ مُطَّلِعٌ عليكم يَعلمُ ما في قلوبِكم، ويَعلمُ ما تعملونَ.

فإن وَقَعْتُمْ في شيءٍ مما نَهاكُمْ عنهُ فبادِرُوا إليهِ بالتوبةِ والاستغفارِ، فإنَّهُ الغفورُ الحليمُ.

وهذه طريقةُ القرآنِ يَقْرِنُ بينَ أسماءِ الرَّجاءِ وأسماءِ المخافةِ كقولِهِ تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة: ٩٨]، وقالَ أهلُ الجَنَّةِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ٣٤] لَمَّا صارُوا إلى كرامتِهِ بِمَغفرتِهِ ذنوبَهم، وشُكْرِهِ إحسانَهم قالوا: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ وفي هذا معنى التعليلِ؛ أيْ: بمغفرتِهِ وشُكْرِهِ وَصلْنا إلى دارِ كَرامتِهِ، فإنَّهُ غفَرَ لنا السيِّئاتِ، وشَكَرَ لنا الحسناتِ، وقالَ تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: ١٤٧] فهذا جزاءٌ لشُكرِهم؛ أيْ: إنْ شَكَرْتُمْ ربَّكمْ شَكَرَكُمْ، وهوَ عليمٌ بشُكرِكم لا يَخفَى عليهِ مَنْ شَكَرَهُ مِمَّنْ كَفَرَهُ.

والقرآنُ مملوءٌ مِنْ هذا، والمقصودُ التنبيهُ عليه). (١)

([وقد] جَرَتْ عادةُ القرآنِ بتهديدِ المخاطبينَ وتحذيرِهم بما يَذْكُرُهُ مِنْ صفاتِهِ التي تَقتضِي الحذَرَ والاستقامة كقولِهِ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ [البقرة: ٢٠٩] وقولِهِ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء: ١٣٤] والقرآنُ مملوءٌ مِنْ هذا؛ وعلى هذا فيكونُ في ضِمْنِ ذلكَ أنِّي أسمَعُ ما يَرُدُّون بِهِ عليكَ، وما يُقابِلُونَ بهِ رِسالاتِي، وأُبْصِرُ ما يَفعلونَ). (٢)

(ومِنْ هاهنا كانَ قولُ المسيحِ عليهِ السلامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨] أَحسنَ مِنْ أن يقولَ: وإن تغفرْ لهم فإنكَ أنت الغفورُ الرحيمُ. أيْ: إن غفرتَ لهم كانَ مَصدرُ مَغفرتِكَ عنْ عِزَّةٍ، وهيَ كمالُ القُدرةِ، وعنْ حِكمةٍ، وهيَ كمالُ العِلْمِ. فمَنْ غفَرَ عنْ عَجْزٍ وجَهْلٍ بِجُرْمِ الجانِي، فأنتَ لا تَغفرُ إلاَّ عنْ قُدرةٍ تامَّةٍ، وعِلْمٍ تامٍّ، وحِكمةٍ تَضَعُ بها الأشياءَ مَواضعَها. فهذا أَحسنُ مِنْ ذِكْرِ «**الغفورِ الرحيم**» في هذا الموضع الدالِّ ذِكْرُهُ على التعريضِ بطلَبِ المغفرةِ في غيرِ حِينِها، وقَدْ فاتَتْ، فإنَّهُ لَوْ قالَ: وإن تَغفرْ لهم فإنكَ أنتَ الغفورُ الرحيمُ. كانَ في هذا - مِن الاستعطافِ والتعريضِ بطلَبِ المُغفرةِ لِمَنْ لا يَسْتَحِقُّها - ما يُنَزَّهُ عنهُ مَنصبُ المسيحِ عليهِ السلامُ، لا سِيَّما والموقِفُ موقفُ عَظمةٍ وجلالٍ، ومَوقفُ انتقامٍ مِمَّنْ جعَلَ للهِ وَلَداً، واتَّخَذَهُ إلهاً مِنْ دونِهِ. فذِكْرُ العِزَّةِ والحِكمةِ فيهِ أَلْيَقُ مِنْ ذِكْرِ الرحمةِ والمغفرةِ. (٣)

---

(١) جلاءُ الأفهام (٨٨-٨٩).

(٢) بدائعُ الفوائِدِ (١/ ٧٣).

(٣) وقال -رَحِمَهُ اللهُ- في شفاءِ العليلِ (٢/ ١١٣): (﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]. أي فإنَّ مَغْفِرتَكَ لَهُمْ مَصْدَرٌ عَنْ عِزَّةٍ هي كمالُ القُدرةِ لا عن عجزٍ وجَهْلٍ).

وهذا بخلافِ قولِ الخليلِ عليهِ السلامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦] ولم يَقُلْ: فإنك عزيزٌ حكيمٌ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ استعطافٍ وتعريضٍ بالدعاءِ؛ أيْ: إن تَغْفِرْ لهم وتَرْحَمْهُم، بأنْ تُوَفِّقَهم للرجوعِ مِن الشِّرْكِ إلى التوحيدِ، ومِن المعصيةِ إلى الطاعةِ، كما في الحديثِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ»[(١)].

وفي هذا أَظْهرُ الدَّلالةِ على أنَّ أسماءَ الربِّ تعالى مُشْتَقَّةٌ مِنْ أوصافٍ ومَعانٍ قامَتْ بِهِ، وأنَّ كلَّ اسمٍ يُناسِبُ ما ذُكِرَ معه، واقْتَرَنَ بِهِ، مِنْ فِعْلِهِ وأَمْرِهِ. واللهُ المُوَفِّقُ للصَّوابِ)[(٢)].

[فَصْلٌ]

(و[كذلك قولُه] تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١]... [فـ]خَتَمَ الآيَةَ باسمينِ مِنْ أسمائِهِ الحُسْنَى مُطابِقَيْنِ لِسِياقِها، وهما الواسعُ العليمُ، فلا يَسْتَبْعِدُ العبدُ هذه المضاعَفَةَ ولا يَضِيقُ عنها عَطَنُهُ، فإنَّ المضاعِفَ سُبحانَهُ واسعُ العطاءِ واسعُ الغِنَى واسعُ الفَضْلِ، ومعَ ذلكَ فلا يَظُنُّ أنَّ سَعةَ عطائِهِ تَقتضِي حُصُولَها لكلِّ مُنْفِقٍ، فإنَّهُ عليمٌ بِمَنْ تَصْلُحُ لهُ هذهِ المضاعَفَةُ وهوَ أَهلٌ لها، ومَنْ لا يَسْتَحِقُّها ولا هوَ أهلٌ لها، فإنَّ كَرَمَهُ سُبحانَهُ وفَضلَهُ لا يُناقِضُ حِكمتَهُ، بلْ يَضَعُ فَضْلَهُ مَواضِعَهُ لِسَعَتِهِ ورَحمتِهِ،

(١) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٣٦٠٠)، والبُخَارِيُّ في كتابِ أحاديثِ الأنبياءِ / بابُ (٥٤)، الحديثُ (٣٤٧٧)، ومسلِمٌ في كتابِ الجهادِ والسِّيَرِ / بابُ غَزْوَةِ أُحُدٍ (٤٦٢٢)، وابْنُ ماجَهْ في كتابِ الفِتَنِ / بابُ الصَّبْرِ على البلاءِ (٤٠٢٥) من طُرُقٍ عن أبي وائلٍ شَقِيقِ بنِ سَلَمَةَ، عن ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عنه مَرْفُوعًا.

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١ / ٥٩-٦٠).

ويَمْنعُهُ مَنْ ليسَ مِنْ أهلِهِ بحِكمتِهِ وعِلْمِهِ).[1]

(ثم قالَ تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة: ٢٦٣] فأَخْبَرَ سبحانَهُ أنَّ القولَ المعروفَ وهوَ الذي تَعرفُهُ القلوبُ ولا تُنكِرُهُ، والمغفرةَ وهيَ العفوُ عمَّنْ أساءَ إليكَ خيرٌ مِن الصدقةِ المقرونةِ بالأذى.

فالقولُ المعروفُ إحسانٌ وصَدَقَةٌ بالقولِ، والمغفرةُ إحسانٌ بتَرْكِ المؤاخذةِ والمقابَلَةِ، فهما نوعانِ مِنْ أنواعِ الإحسانِ، والصدقةُ المقرونةُ بالأَذَى حَسنةٌ مَقرونةٌ بما يُبْطِلُها، ولا ريبَ أنَّ حَسنتينِ خيرٌ مِن حسنةٍ باطلةٍ.

ويَدْخُلُ في هذا القولِ المعروفِ: الردُّ الجميلُ على السائلِ، والعِدَةُ الحسنةُ، والدعاءُ الصالحُ لهُ، ونحوُ ذلكَ. ويَدخلُ في المغفرةِ: مَغفرتُهُ للسائلِ إذا وُجِدَ منهُ بعضُ الجَفوةِ والأَذى بسببِ رَدِّهِ، فيكونُ عَفوُهُ عنهُ خيراً مِنْ أن يَتصَدَّقَ عليهِ ويُؤذِيَهُ. هذا على المشهورِ مِن القولينِ في الآيَةِ...

ثُمَّ ختمَ الآيَةَ بصِفتينِ مُناسبتينِ لِمَا تَضَمَّنَتْهُ فقالَ: ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾، وفيهِ معنيانِ:

أحدُهما: أنَّ اللهَ غَنِيٌّ عنكم لن يَنالَهُ شيءٌ مِنْ صَدَقَاتِكم، وإنَّما الحظُّ الأوفرُ لكم في الصدَقَةِ فنَفْعُها عائدٌ عليكمْ لا إليهِ سُبحانَهُ وتعالى. فكيفَ يَمُنُّ بنفقتِهِ ويُؤذِي معَ غِنَى اللهِ التامِّ عنها وعنْ كلِّ ما سِواهُ، ومعَ هذا فهوَ **حليمٌ** إذ لم يُعاجِل المانَّ بالعقوبةِ. وضَمَّنَ هذا الوعيدَ لهُ والتحذيرَ.

والمعنى الثاني: أنَّهُ سبحانَهُ وتعالى معَ غِناهُ التامِّ مِنْ كلِّ وَجهٍ فهوَ الموصوفُ بالحِلْمِ والتجاوُزِ والصفحِ، معَ عطائِهِ الواسعِ وصَدقاتِهِ العميقةِ. فكيفَ يُؤْذِي أحدُكم بِمَنِّهِ وأذاهُ، معَ قِلَّةِ ما يُعْطِي ونَـزارَتِهِ، وفقرِه).[2]

---

(١) طَريقُ الهِجرتَيْن (٣٧٣-٣٧٤).

(٢) طَريقُ الهِجرتَيْن (٣٧٦-٣٧٧).

[وكذلك قولُهُ تعالى]: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧] أضافَ -سُبحانَه- الكسْبَ إليهم وإن كانَ هوَ الخالقَ لأفعالِهم؛ لأنَّهُ فِعْلُهم القائمُ بهم، وأَسْنَدَ الإخراجَ إليهِ؛ لأنَّهُ ليسَ فِعْلاً لهم، ولا هوَ مقدورٌ لهم. فأضافَ مَقدورَهم إليهم، وأضافَ مفعولَهُ الذي لا قُدرةَ لهم عليهِ إليهِ، ففي ضِمْنِهِ الردُّ على مَنْ سَوَّى بينَ النوعينِ، وسَلَبَ قُدرةَ العبْدِ وفِعْلَهُ وتأثيرَهُ عنهما بالكُلِّيَّةِ.

ثُمَّ ختمَ [الآيَةَ] بصفتينِ يَقتضيهما [السِّياقُ] فقالَ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧] فغِناهُ وحَمْدُهُ يَأْبى قَبولَ الرديءِ الخبيثِ. فإنَّ قابِلَ الرديءِ الخبيثِ إمَّا أن يَقبلَهُ لحاجتِهِ إليهِ، وإما أنَّ نَفْسَهُ لا تَأباهُ لعَدَمِ كمالِها وشَرَفِها، وأمَّا الغنيُّ عنهُ الشريفُ القدْرِ الكاملُ الأوصافِ فإنَّهُ لا يَقْبَلُهُ.

ثُمَّ قالَ تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٨]، هذهِ الآيَةُ تَتَضَمَّنُ الحضَّ على الإنفاقِ والحثَّ عليهِ بأبلَغِ الألفاظِ وأحسنِ المعاني، فإنَّها اشْتَمَلَتْ على بيانِ الداعي إلى البُخْلِ والداعي إلى البَذْلِ والإنفاقِ، وبيانِ ما يَدعوهُ إليهِ داعي البُخلِ، وما يَدعو إليهِ داعي الإنفاقِ، وبيانِ ما يَدعو إليهِ داعي الأمرينِ.

فأَخْبَرَ سبحانَهُ أنَّ الذي يَدعوهم إلى البُخْلِ والشُّحِّ هوَ الشيطانُ، وأَخبرَ أنَّ دعوتَهُ هيَ بما يَعِدُهم بهِ ويُخَوِّفُهم مِن الفقرِ إن أَنْفَقُوا أموالَهم، وهذا الداعي هوَ الغالبُ على الخلْقِ، فإنَّهُ يَهُمُّ بالصدَقَةِ والبذْلِ فيَجِدُ في قلبِهِ داعياً يقولُ لهُ: متى أَخْرَجْتَ هذا دَعَتْكَ الحاجةُ إليهِ وافْتَقَرْتَ بعدَ إخراجِهِ، وإمساكُهُ خيرٌ لكَ حتَّى لا تَبْقَى مثلَ الفقيرِ، فَغِناكَ خيرٌ لكَ مِنْ غناهُ.!!

فإذا صَوَّرَ لهُ هذهِ الصورةَ أَمَرَهُ بالفحشاءِ، وهيَ البُخلُ الذي هوَ مِنْ أَقبحِ الفواحشِ، وهذا إجماعٌ مِن المفَسِّرينَ أنَّ الفحشاءَ هنا البُخْلُ.

فهذا وَعْدُهُ وهذا أَمْرُهُ وهوَ الكاذبُ في وَعْدِهِ، الغارُّ الفاجرُ في أَمْرِهِ. فالمستجيبُ لدعوتِهِ مغرورٌ مخدوعٌ مَغبونٌ، فإنَّهُ يُدَلِّي مَنْ يَدعوهُ بغُرورٍ، ثُمَّ يُورِدُهُ شَرَّ المواردِ، كما قالَ:

**دَلَّاهُمُ بغُرورٍ ثُمَّ أَوْرَدَهُمْ		إنَّ الخبيثَ لِمَنْ والاهُ غَرَّارُ**

هذا وإنَّ وَعْدَهُ لهُ الفقرَ ليسَ شَفقةً عليهِ، ولا نصيحةً لهُ [كما] يَنصحُ الرجلُ أخاهُ، ولا محبةً في بقائِهِ غَنيًّا. بلْ لا شيءَ أحبُّ إليهِ مِنْ فقرِهِ وحاجتِهِ، وإنَّما وَعْدُهُ لهُ بالفقرِ، وأَمْرُهُ إيَّاهُ بالبُخلِ ليُسيءَ ظَنَّهُ بربِّهِ، ويَترِكَ ما يُحِبُّهُ مِن الإنفاقِ لوجهِهِ فيَستوجبَ منهُ الحِرمانَ.

وأمَّا اللهُ سبحانَهُ فإنَّهُ يَعِدُ عبدَهُ مَغفرةً منهُ لذنوبِهِ، وفَضْلاً بأنْ يُنفقَ عليهِ أَكثرَ ممَّا أَنْفَقَ وأضعافَهُ إمَّا في الدنيا وإما في الآخرةِ.

فهذا وَعدُ اللهِ، وذاكَ وَعدُ الشيطانِ، فلْيَنْظُرِ البخيلُ والمنفِقُ أيُّ الوعدينِ هوَ أَوْثَقُ، وإلى أَيِّهما يَطْمَئِنُّ قلبُهُ وتَسْكُنُ نفسُهُ؟ واللهُ يُوَفِّقُ مَنْ يشاءُ ويَخْذُلُ مَنْ يشاءُ، وهوَ الواسعُ العليمُ.

وتأمَّلْ كيفَ ختَمَ هذهِ الآيَةَ بهذينِ الاسمينِ، فإنَّهُ واسعُ العطاءِ عليمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ فضْلَهُ ومَنْ يَسْتَحِقُّ عَدْلَهُ، فيُعطي هذا بفضلِهِ ويَمنعُ هذا بعَدْلِهِ وهوَ بكلِّ شيءٍ عليمٌ.

فتأَمَّلْ هذهِ الآياتِ ولا تَستَطِلْ بَسْطَ الكلامِ فيها، فإنَّ لها شأناً لا يَعْقِلُهُ إلاَّ مَنْ عقَلَ عن اللهِ خِطابَهُ وفَهِمَ مُرادَهُ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]).(١)

(١) طَريقُ الهجرتَيْنِ (٣٨٣-٣٨٤).

[فَصلٌ]

([ومِنْ ذلك] إخبارُهُ سبحانَهُ أنَّهُ على صراطٍ مستقيمٍ في مَوضعينِ مِنْ كتابِهِ:

أحدُهما: قولُهُ حاكياً عنْ نبيِّهِ هُودٍ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦].

والثاني: قولُهُ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦].

قالَ أبو إسحاقَ: أَخْبَرَ أنَّهُ وإن كانتْ قُدرتُهُ تَنالُهم بما شاءَ فهوَ لا يَشاءُ إلاَّ العَدْلَ. قالَ ابنُ الأنباريِّ: لَمَّا قالَ: ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦] كانَ في معنى: لا تَخْرُجُ عنْ قَبضتِهِ، قاهرٌ بعظيمِ سُلطانِهِ كلَّ دابَّةٍ، فأَتْبَعَ ذلكَ قولَهُ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦] أيْ: إنَّهُ على الحقِّ. قالَ: وهذا نحوُ كلامِ العربِ إذا وَصفُوا رَجُلاً حَسَنَ السيرةِ والعَدْلِ والإنصافِ قالوا: فلانٌ طريقُهُ حَسَنةٌ، وليسَ ثَمَّ طريقٌ.

وذُكِرَ في معنى الآيةِ أقوالٌ أُخَرُ هيَ مِنْ لوازمِ المعنى وآثارِهِ. كقولِ بعضِهم: إنَّ ربِّي يَدُلُّ على صراطٍ مُستقيم. فدَلالتُهُ على الصراطِ مِنْ مُوجباتِ كونِهِ في نفسِهِ على صراطٍ مستقيمٍ؛ فإنَّ تلكَ الدَّلالةَ والتعريفَ مِنْ تَمامِ رَحمتِهِ وإحسانِهِ وعَدْلِهِ وحِكمتِهِ.

وقالَ بعضُهم: معناهُ لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ ولا يَعْدِلُ عنهُ هاربٌ. وقالَ بعضُهم: المعنى: لا مَسْلَكَ لأحدٍ ولا طريقَ لهُ إلاَّ عليهِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤]. وهذا المعنى حقٌّ، ولكنَّ كونَهُ هوَ المرادَ بالآيةِ ليسَ بالبَيِّنِ، فإنَّ الناسَ كلَّهم لا يَسْلُكونَ الصراطَ المستقيمَ حتَّى يقالَ: إنَّهم يَصِلُونَ بسلوكِهِ إليهِ. ولَمَّا أرادَ سُبحانَهُ هذا المعنى قالَ: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس: ٧٠]، ﴿إِنَّ

﴿إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [الغاشية: ٢٥]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤]، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢].

وأمَّا وَصْفُهُ سبحانَهُ بأنَّهُ على صراطٍ مستقيم، فهوَ كونُهُ يقولُ الحقَّ ويفعلُ الصوابَ، فكلماتُهُ صِدْقٌ وعَدْلٌ كلُّهُ[1] صوابٌ وخيرٌ ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب: ٤] فلا يقولُ إلاَّ ما يُحْمَدُ عليهِ لكونِهِ حَقًّا وعَدْلاً وصِدْقاً وحِكمةً في نفسِهِ. وهذا معروفٌ في كلامِ العربِ. قالَ جريرٌ يَمْدَحُ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ:

أميرُ المؤمنينَ على صِراطٍ ... إذا اعْوَجَّ المواردُ مستقيمِ

وإذا عُرِفَ هذا فمِنْ ضَرورةِ كونِهِ على صراطٍ مستقيمٍ أنَّهُ لا يَفعلُ شيئاً إلاَّ بحِكمةٍ يُحْمَدُ عليها، وغايَةٍ هيَ أَوْلَى بالإرادةِ مِنْ غيرِها. فلا تخرجُ أفعالُهُ عن الحكمةِ والمَصلحةِ والإحسانِ والرحمةِ والعَدْلِ والصوابِ، كما لا تَخرجُ أقوالُهُ عن العَدْلِ والصدْقِ).[2]

[فَصْلٌ]

(وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سبأ: ١-٢]) و[في] تقديمِ «**الرحيم**» على «**الغفورِ**» ...معنًى... يَظهرُ لِمَنْ تَأَمَّلَ سِياقَ أوصافِهِ العُلَى وأسمائِهِ الحُسْنى في أوَّلِ السورةِ إلى قولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سبأ: ٢] فإنَّهُ ابْتَدَأَ سُبحانَهُ السورةَ بِحَمْدِهِ الذي هوَ أَعَمُّ المعارِفِ وأَوْسَعُ

---

(١) هكذا في الأصلِ ولعلَّ الصوابَ: و فِعْلُهُ.

(٢) شِفاءُ العَليلِ ٢/ ١١٥-١١٧).

العلومِ، وهوَ مُتضَمِّنٌ لجميعِ صفاتِ كمالِهِ ونُعوتِ جَلالِهِ، مُستلزِمٌ لها كما هوَ مُتَضَمِّنٌ لِحكمتِهِ في جميعِ أفعالِهِ وأوامرِهِ. فهوَ المحمودُ على كلِّ حالٍ وعلى كلِّ ما خَلَقَهُ وشَرَعَهُ. ثُمَّ عَقَّبَ هذا الحمدَ بِمُلْكِهِ الواسعِ المَديدِ فقالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١] ثُمَّ عَقَّبَهُ بأنَّ هذا الحمْدَ ثابتٌ لهُ في الآخرةِ غيرُ مُنقطِعٍ أبداً. فإنَّهُ حَمْدٌ يَسْتَحِقُّهُ لِذاتِهِ وكمالِ أوصافِهِ، وما يَسْتَحِقُّهُ لذاتِهِ دائمٌ بدَوامِهِ لا يَزولُ أبداً.

وقَرَنَ بينَ المُلْكِ والحمْدِ على عادتِهِ تعالى في كلامِهِ، فإنَّ اقترانَ أحدِهما بالآخَرِ لهُ كمالٌ زائدٌ على الكمالِ بكُلِّ واحدٍ منهما فلَهُ كمالٌ مِنْ مُلْكِهِ، وكمالٌ مِنْ حَمْدِهِ وكمالٌ مِن اقترانِ أحدِهما بالآخَرِ فإنَّ المُلْكَ بلا حَمْدٍ نَقْصٌ. والحَمْدَ بلا مُلْكٍ يَستلزِمُ عَجْزاً. والحمدَ معَ المُلْكِ غايَةُ الكمالِ.

ونظيرُ هذا العِزَّةُ والرحمةُ، والعفوُ والقُدرةُ، والغِنَى والكرَمُ. فوَسَّطَ المُلْكَ بينَ الجملتينِ، فجَعَلَهُ مَحْفُوفاً بحَمْدٍ قَبْلَهُ وحَمْدٍ بعدَهُ.

ثُمَّ عَقَّبَ هذا الحمدَ والمُلْكَ باسمِ «الحكيمِ الخبيرِ» الدالَّيْنِ على كمالِ الإرادةِ، وأنَّها لا تَتعلَّقُ بِمُرادٍ إلاَّ لِحِكمةٍ بالغةٍ، وعلى كمالِ العلْمِ وأنَّهُ كما يَتعلَّقُ بظواهِرِ المعلوماتِ فهوَ مُتعلِّقٌ ببواطِنِها التي لا تُدْرَكُ إلاَّ بخِبرةٍ. فنِسبةُ الحكمةِ إلى الإرادةِ كنِسبةِ الخبرةِ إلى العِلْمِ. فالمرادُ ظاهرٌ والحكمةُ باطِنُهُ، والعلْمُ ظاهرٌ والخبرةُ باطنُهُ. فكمالُ الإرادةِ أنْ تكونَ واقعةً على وجهِ الحكمةِ. وكمالُ العلْمِ أن يكونَ كاشفاً عن الخِبرةِ. فالخبرةُ باطنُ العلْمِ وكمالُهُ، والحكمةُ باطنُ الإرادةِ وكمالُها.

فتَضَمَّنَت الآيَةُ إثباتَ حَمْدِهِ ومُلْكِهِ وحِكمتِهِ وعِلْمِهِ على أكملِ الوُجوهِ.

ثم ذَكَرَ تفاصيلَ عِلْمِهِ بما ظَهَرَ وما بَطَنَ في العالَمِ العُلويِّ والسُّفْلِيِّ فقالَ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢]

ثُمَّ ختَمَ الآيَةَ بصفتينِ تَقتضيانِ غايَةَ الإحسانِ إلى خَلْقِهِ وهما الرحمةُ والمغفرةُ. فيَجلُبُ لهم الإحسانَ والنفْعَ على أَتَمِّ الوُجوهِ برحمَتِهِ، ويَعفو عنْ زَلَّتِهِم ويَهَبُ لهم ذنوبَهم ولا يُؤاخذُهم بها بمغفرتِهِ، فقالَ: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ: ٢].

فتَضَمَّنَت الآيَةُ سَعةَ علْمِهِ ورَحمتِهِ وحُكْمِهِ ومَغفرتِهِ؛ وهوَ سبحانَهُ يَقْرِنُ بينَ سَعَةِ العلْمِ والرحمةِ كما يَقرِنُ بينَ العلْمِ والحِلْمِ:

فمِن الأَوَّلِ قولُهُ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

ومِن الثاني [قولُهُ]: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝١٢﴾ [النساء: ٢١].

فما قُرِنَ شيءٌ إلى شيءٍ أَحسنُ مِنْ حِلْمٍ إلى عِلْمٍ، ومِنْ رحمةٍ إلى عِلْمٍ.

وحَمَلَةُ العرْشِ أَربعةٌ: اثنانِ يقولانِ: سُبحانَكَ اللَّهمَّ ربَّنَا وبحمدِكَ، لكَ الحمْدُ على حِلْمِكَ بعدَ عِلْمِكَ. واثنانِ يقولانِ: سُبحانَكَ اللَّهمَّ ربَّنا وبحمدِكَ، لكَ الحمْدُ على عَفْوِكَ بعدَ قُدرتِكَ. فاقترانُ العفوِ بالقُدرةِ كاقترانِ الحلْمِ والرحمةِ بالعلْمِ؛ لأنَّ العفوَ إنَّما يَحْسُنُ عندَ القُدرةِ، وكذلكَ الحلْمُ والرحمةُ إنَّما يَحْسُنانِ معَ العِلْمِ.

وقدَّمَ «الرحيمَ» في هذا الموضعِ لتَقَدُّمِ صِفةِ العلْمِ فحَسُنَ ذِكْرُ «الرحيمِ» بعدَهُ ليَقترنَ بهِ فيُطابِقَ قولَهُ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] ثُمَّ ختَمَ الآيَةَ بذِكْرِ صفةِ المغفرةِ لتَضَمُّنِها دَفْعَ الشرِّ، وتَضَمُّنِ ما قبلَها جَلْبَ الخيرِ، ولَمَّا كانَ دَفْعُ الشرِّ مُقَدَّماً على جلْبِ الخيرِ قَدَّمَ اسمَ «الغفورِ» على «الرحيمِ» حيث وَقَعَ.

ولَمَّا كانَ في هذا الموضِعِ تعارُضٌ يَقتضِي تقديمَ اسمِهِ «**الرحيمِ**» لأَجْلِ ما قَبْلَهُ، قُدِّمَ على «**الغفورِ**»)(١).

(١) بدائعُ الفوائِدِ (١/ ٧٩-٨٠).

[فَصْلٌ]

([و] في آيَةِ الْكُرْسِيِّ ذِكَرَ **الحياةَ** التي هيَ أصْلُ جميعِ الصِّفَاتِ، وذَكَرَ معها **قَيُّومِيَّتَهُ** المقتضيَةَ لذاتِهِ وبقائِهِ، وانتفاءَ الآفاتِ جميعِها عنهُ مِن النومِ والسِّنَةِ والعجزِ وغيرِها، ثُمَّ ذَكَرَ **كمالَ مُلْكِهِ**، ثُمَّ عَقَّبَهُ بذِكْرِ **وَحدانيَّتِهِ في مُلْكِهِ**، وأنَّهُ **لا يَشفَعُ عندَهُ أَحَدٌ إلاَّ بإذنِهِ**، ثُمَّ ذَكَرَ **سَعةَ عِلْمِهِ** و**إحاطتَهُ**، ثُمَّ عَقَّبَهُ بأنَّهُ **لا سبيلَ للخلْقِ إلى عِلْمِ شيءٍ مِن الأشياءِ إلاَّ بعدَ مَشيئتِهِ لهم أن يَعْلَمُوهُ**، ثُمَّ ذَكَرَ سَعةَ **كُرْسِيِّهِ** مُنَبِّهاً بهِ على سَعتِهِ - سُبحانَهُ - وعظمتِهِ وعُلُوِّهِ، وذلكَ تَوْطِئَةٌ بينَ يَدَيْ ذِكْرِ عُلُوِّهِ وعَظمتِهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ عنْ **كمالِ اقتدارِهِ وحِفْظِهِ للعالَمِ العُلْوِيِّ والسُّفْلِيِّ** مِنْ غيرِ اكتراثٍ ولا مَشَقَّةٍ ولا تَعَبٍ. ثُمَّ ختَمَ الآيَةَ بهذينِ الاسمينِ الجليلينِ الدالَّينِ على **عُلُوِّ ذاتِهِ وعَظمتِهِ** في نَفسِهِ). (١)

---

(١) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٤/ ١٣٧١).

وفي كتابِ الفَوائِدِ المُشوِّقِ إلى عُلومِ القُرآنِ وعِلْمِ البَيانِ (١٥٣): (واعْلَمْ أَنَّ في تَقابُلِ المَعاني بابًا عَجيبَ الأمرِ يَحتاجُ إلى فضلِ تأمُّلٍ وزيادةِ نظرٍ وتدبُّرٍ، وهو يَختصُّ بالفواصلِ مِنَ الكلامِ المنثورِ وبالإعجازِ من أبْياتِ الشِّعرِ. فممَّا جاءَ من ذلك قولُه تعالَى في حقِّ المنافقينَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا﴾ إلى قولِه: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾ [البقرة: ١١-١٢]. وقولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾ [البقرة: ١٣]، ألا تَرَى كيفَ فَصَلَ الآيةَ الأخيرةَ بـ «يَعْلَمُونَ» والآيَةَ التي قبلَهَا بـ «يَشْعُرونَ»، وإنما فَعلَ ذلك لأن أمرَ الدِّيانةِ والوُقوفِ على أن المؤمنينَ على الحقِّ وهم على الباطلِ يَحتاجُ إلى نظرٍ واستدلالٍ حتى يَكتسِبَ الناظرُ المعرفةَ والعِلْمَ؛ ولذلك قالَ: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾ وأما النفاقُ وما فيه من المعنى المُؤَدِّي إلى الفتنةِ والفسادِ في الأرضِ، فأمرٌ دُنيويٌّ مَبنيٌّ على العاداتِ مَعلومٌ عند الناسِ خُصوصًا عند العَرَبِ، وما كان فِيهِمْ مِنَ التَّجارِبِ والتَّعاوُنِ، فهو كالمَحْسُوسِ عِندَهُم؛ فلذلك قالَ: ﴿يَشْعُرُونَ﴾: وأيضًا فإنه لما ذكَرَ السَّفَهَ في الآيةِ الأخيرةِ، وهو جَهْلٌ كانَ ذِكْرُ العِلْمِ مَعَهُ أَحسَنَ طِباقًا، فقالَ: ﴿لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾، وآياتُ القرآنِ العظيمِ جَميعُها فُصِّلَتْ هكذا كقولِه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝٦٣﴾ [الحج: ٦٣]. وقولِه: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝٦٤﴾ [الحج: ٦٤]. وكقولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥﴾ [الحج: ٦٥] فإنه إنما

فُصِّلَتِ الآيةُ بلطيفٍ خبيرٍ؛ لأن ذلك موضعُ الرحمةِ لخَلقِه بإنزالِ الغَيْثِ، وإخراجِ النباتِ منَ الأرضِ، ولأنه خبيرٌ بمنفعَتِهم ومَضَرَّتِهم في إنزالِ الغيثِ وغيرِه. وأما في الآيةِ الثانيةِ فإنما فُصِّلَتْ بغنيٍّ حميدٍ لأنه له ما في السماواتِ وما في الأرضِ فعَرفَ الناسُ أن جميعَ ما في السماواتِ وما في الأرضِ له، لا حاجةً، بل غَنِيٌّ عنها جَوَادٌ بها؛ لأن ليس غَنِيٌّ نافِعًا بغِناهُ إلا إذا كان جَوادًا مُنْعِمًا، وإذا جادَ وأَنْعَمَ حَمِدَهُ المُنْعَمُ عليه، واستحقَّ عليه الحَمْدَ، فذَكَرَ الحَمِيدَ ليَدُلَّ على أنه الغنيُّ النافعُ بغِناهُ خَلْقَهُ. وأما الآيةُ الثالثةُ فإنها فُصِّلَتْ رَؤُوفٌ رحيمٌ لأنه لما عَدَّدَ للناسِ ما أَنْعَمَ به عليهِم من تسخيرِ ما في الأرضِ لهم وإجراءِ الفُلكِ في البحرِ لهم، وتسييرِهم في ذلك الهولِ العظيمِ، وجَعْلِه السماءَ فَوقَهُم؛ وإمساكِه إياها عن الوقوعِ؛ حَسُنَ أن يَفْصِلَ ذلك بقَوْلِهِ: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾) اهـ.

ولم أُثْبِتْهُ في الأصلِ لعدمِ ثُبوتِ نِسبةِ الكتابِ لابنِ القيمِ -رَحِمَهُ اللهُ- بل فيه مواضِعُ تَدُلُّ على أنه ليسَ من تأليفِه يَعْرِفُها مَنْ عَرَفَ مَنهجَ ابنِ القيمِ وكُتُبَهُ وتَمَعَّنَ فيها.

البابُ التاسعَ عشرَ: في بيانِ بعضِ ما تَضَمَّنَهُ العَطْفُ بينَ الأسماءِ الْحُسْنَى وتَرْكُهُ مِن اللطائفِ والأسرارِ

(القاعدةُ أنَّ الشيءَ لا يُعْطَفُ على نفسِهِ؛ لأنَّ حُروفَ العطْفِ بِمَنـزلةِ تَكرارِ العامِلِ؛ لأنكَ إذا قُلْتَ:

قامَ زيدٌ وعمرٌو؛ فهيَ بمعنى: قامَ زيدٌ، وقامَ عمرٌو.

والثاني غيرُ الأَوَّلِ، فإذا وَجَدْتَ مثلَ قولِهِم: (كَذِباً وَمَيْناً) فهوَ لِمَعنًى زائدٍ في اللفظِ الثاني وإن خَفِيَ عنكَ، ولهذا يَبْعُدُ جِدًّا أن يَجيءَ في كلامِهِم: جاءني عمرُ وأبو حَفْصٍ، ورضيَ اللهُ عنْ أبي بكرٍ وعَتيقِهِ.

فإنَّ الواوَ إِنَّمَا تَجمَعُ بينَ الشيئينِ لا بينَ الشيءِ الواحِدِ، فإذا كانَ في الاسمِ الثاني فائدةٌ زائدةٌ على معنى الاسمِ الأَوَّلِ كنتَ مخيَّراً في العطفِ وتَرْكِهِ. فإنْ عَطَفْتَ فمِنْ حيثُ قَصَدْتَ تَعدادَ الصِّفَاتِ وهيَ مُتغايرةٌ، وإن لم تَعْطِفْ فمِنْ حيثُ كانَ في كلٍّ منهما ضميرٌ هوَ الأوَّلُ.

- فعلى **الوجهِ الأَوَّلِ**: تقولُ: زيدٌ فقيهٌ شاعرٌ كاتبٌ.
- **وعلى الثاني**: فقيهٌ وشاعرٌ وكاتبٌ.

كأنكَ عَطَفْتَ بالواوِ الكتابةَ على الشِّعْرِ، وحيثُ لم تَعْطِفْ أَتْبَعْتَ الثانيَ الأوَّلَ؛ لأَنَّهُ هوَ هوَ مِنْ حيثُ اتَّحَدَ الحاملُ للصِّفاتِ.

وأمَّا في أسماءِ الربِّ تبارَكَ وتعالى فأكثرُ ما يَجيءُ في القرآنِ بغيرِ عَطْفٍ نحوَ: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ﴿ٱلْمَلِكُ﴾، ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾، ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ إلى آخرِها، وجاءَتْ معطوفةً في مَوضعينِ:

أحدُهما: في أربعةِ أسماءٍ وهيَ: الأوَّلُ والآخِرُ والظاهرُ والباطنُ.

والثاني: في بعضِ الصِّفَاتِ بالاسمِ الموصولِ، مثلَ قولِهِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى: ٢-٤]، ونظيرُهُ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [الزخرف:١٠-١٢].

فأمَّا تَرْكُ العطفِ في الغالبِ فلِتَنَاسُبِ معاني تلكَ الأسماءِ، وقُرْبِ بعضِها مِنْ بعضٍ، وشعورِ الذِّهنِ بالثاني منها شعورَهُ بالأوَّلِ. ألا تَرى أنكَ إذا شَعَرْتَ بصِفةِ المغفرةِ انْتَقَلَ ذهنُكَ منها إلى الرحمةِ، وكذلكَ إذا شَعَرْتَ بصفةِ السمْعِ انْتَقَلَ الذهنُ إلى البَصرِ، وكذلكَ ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤].

وأمَّا تلكَ الأسماءُ الأربعةُ فهيَ ألفاظٌ مُتبايِنَةُ المعاني، مُتَضادَّةُ الحقائقِ في أصلِ مَوضوعِها وهيَ مُتَّفِقَةُ المعاني مُتطابِقَةٌ في حَقِّ الربِّ تعالى لا يَبْقى منها معنًى بغيرِهِ، بلْ هوَ أوَّلٌ كما أنَّهُ آخِرٌ، وظاهرٌ كما أنَّهُ باطنٌ. ولا يُناقِضُ بعضُها بعضاً في حَقِّهِ، فكان دخولُ الواوِ صَرْفاً لوَهْمِ المخاطَبِ قَبْلَ التفكُّرِ والنظَرِ عنْ تَوَهُّمِ المُحالِ واحتمالِ الأضدادِ؛ لأنَّ الشيءَ لا يكونُ ظاهراً باطناً مِنْ وجهٍ واحدٍ، وإنَّما يكونُ ذلكَ باعتبارينِ، فكان العطْفُ هاهنا أحسنَ مِنْ تَرْكِهِ لهذه الحِكمةِ. هذا جوابُ السُّهَيْليِّ.

وأَحسنُ منهُ أن يُقالَ: لَمَّا كانت هذهِ الألفاظُ دالَّةً على معانٍ مُتبايِنَةٍ، وأنَّ الكمالَ في الاتِّصافِ بها على تَبايُنِها أتى بحرْفِ العطْفِ الدالِّ على التغايُرِ بينَ المعطوفاتِ، إيذاناً بأنَّ هذهِ المعانيَ معَ تَبايُنِها فهيَ ثابتةٌ للموصوفِ بها.

ووجهٌ آخَرُ وهوَ أَحسنُ منهما: وهوَ أنَّ الواوَ تَقتضِي تحقيقَ الوصْفِ المتقدِّمِ، وتقريرُهُ يكونُ في الكلامِ مُتضَمِّناً لنوعٍ مِن التأكيدِ مِنْ مَزيدِ التقريرِ. وبيانُ ذلكَ بمثالٍ نَذكُرُهُ مَرْقاةً إلى فَهْمِ ما نحن فيهِ: إذا كانَ لرجلٍ مَثَلاً أربعُ صفاتٍ هوَ عالمٌ وجَوادٌ وشُجاعٌ وغَنِيٌّ. وكان المخاطَبُ لا يَعلمُ ذلكَ أوْ لا يُقِرُّ بهِ ويَعْجَبُ مِن اجتماعِ هذهِ الصِّفَاتِ في رجُلٍ.

فإذا قلتَ: زيدٌ عالمٌ، وكان ذهنُهُ اسْتَبْعَدَ ذلكَ فتقولُ: وجَوادٌ؛ أيْ: وهوَ معَ ذلكَ جَوادٌ. فإذا قدَّرْتَ استبعادَهُ لذلكَ قلتَ: وشجاعٌ؛ أيْ: وهوَ معَ ذلكَ شجاعٌ وغَنِيٌّ؛ فيكونُ في العطفِ مَزيدُ تقريرٍ وتوكيدٍ لا يَحْصُلُ بدونِهِ، تَدْرَأُ بِهِ تَوَهُّمَ الإنكارِ.

وإذا عَرفتَ هذا فالوَهْمُ قدْ يَعتريهِ إنكارٌ لاجتماعِ هذهِ المتقابِلاتِ في مَوصوفٍ واحدٍ، فإذا قيلَ: هوَ أوَّلُ، رُبَّما سَرَى الوهمُ إلى أنَّ كونَهُ أوَّلاً يَقتضِي أن يكونَ الآخِرُ غيرَهُ؛ لأنَّ الأوَّلِيَّةَ والآخِريَّةَ مِن المُتَضايفَاتِ. وكذلكَ الظاهرُ والباطنُ إذا قيلَ: هوَ ظاهرٌ ربما يَسْرِي الوهمُ إلى أنَّ الباطنَ مُقابِلُهُ. فَقَطَعَ هذا الوهمَ بحَرْفِ العطفِ الدالِّ على أنَّ الموصوفَ بالأوَّلِيَّةِ هوَ الموصوفُ بالآخِريَّةِ فكأنَّهُ قيلَ: هوَ الأوَّلُ وهوَ الآخِرُ وهوَ الظاهرُ وهوَ الباطنُ لا سِواهُ.

فتَأَمَّلْ ذلكَ فإنَّهُ مِنْ لطيفِ العَربيَّةِ ودَقيقِها، والذي يُوَضِّحُ لكَ ذلكَ أنَّهُ إذا كانَ للبلدِ مَثَلاً قاضٍ وخطيبٌ وأميرٌ؛ فاجتمعتْ في رجلٍ حَسُنَ أن تقولَ: زيدٌ هوَ الخطيبُ والقاضي والأميرُ. وكان للعطْفِ هنا مَزِيَّةٌ ليست للنَّعْتِ المُجرَّدِ؛ فعَطْفُ الصِّفَاتِ هاهنا أحسَنُ، قَطْعاً لوَهْمِ مُتوَهِّمٍ أنَّ الخطيبَ غيرُهُ، وأنَّ الأميرَ غيرُهُ.

وأمَّا قولُهُ تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٣] فعطْفٌ في الاسمينِ الأوَّلَينِ دونَ الآخرينِ.

فقالَ السُّهَيْلِيُّ: إِنَّمَا حَسُنَ العطْفُ بينَ الاسمينِ الأَوَّلَيْنِ لكونهما مِنْ صفاتِ الأفعالِ، وفِعْلُهُ سبحانَهُ في غيرِهِ لا في نفسِهِ، فدَخَلَ حَرْفُ العطْفِ للمُغايَرَةِ الصحيحةِ بينَ المعنيينِ، ولِتَنـزُّلِهِمَا مَنـزلةَ الجملتينِ؛ لأَنَّهُ يُريدُ تَنبيهَ العِبادِ على أنَّهُ يَفعلُ هذا ويَفعلُ هذا ليَرجوهُ ويُؤَمِّلُوهُ، ثُمَّ قال: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ بغيرِ واوٍ؛ لأنَّ الشدَّةَ راجعةٌ إلى معنى القوَّةِ والقُدرةِ، وهوَ معنًى خارجٌ عنْ صفاتِ الأفعالِ فصارَ بمنـزلةِ قولِهِ: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾. وكذلكَ قولِهِ: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾.

لأنَّ لفظَ ذي عبارةٌ عنْ ذاتِهِ.

هذا جوابُهُ، وهوَ كما تَرى غيرُ شافٍ ولا كافٍ، فإنَّ شِدَّةَ عِقابِهِ مِنْ صفاتِ الأفعالِ، وطَوْلَهُ مِنْ صفاتِ الأفعالِ، ولفظةُ «ذي» فيهِ لا تُخْرِجُهُ عنْ كونِهِ صفةَ فعْلٍ، كقولِهِ: ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران: ٤]. بلْ لفظُ الوصْفِ بـ «**غافرٍ**» وَ«**قابلٍ**» أَدَلُّ على الذاتِ مِن الوصْفِ بـ (ذي)؛ لأنَّها بمعنى صاحبِ كذا.

فالوصفُ المُشْتَقُّ أَدَلُّ على الذاتِ مِن الوصفِ بها. فلم يَشْفِ جَوابُهُ، بلْ زادَ السؤالَ سؤالاً.

فاعلَمْ أنَّ هذهِ الجملةَ مُشتمِلَةٌ على سِتَّةِ أسماءٍ، كلُّ اثنينِ منها قِسْمٌ:

- فابتدَأَهَا بـ «**العزيزِ العليم**»، وهما اسمانِ مُطْلَقانِ، وصِفتانِ مِنْ صِفاتِ ذاتِهِ، وهما مُجَرَّدَانِ عن العَطْفِ.
- ثُمَّ ذَكَرَ بعدَهما اسمينِ مِنْ صفاتِ أفعالِهِ فأَدْخَلَ بينَهما العاطفَ.
- ثُمَّ ذَكَرَ اسمينِ آخرينِ بعدَهما وجَرَّدَهما مِن العاطفِ.

• فأمَّا الأَوَّلانِ فتَجَرُّدُهُما مِن العاطفِ لكونِهما مُفْرَدَيْنِ صِفتينِ جاريتينِ على اسمِ «**الله**» وهما متلازمانِ فتَجريدُهما عن العطْفِ هوَ الأصلُ. وهوَ موافقٌ لبيانِ ما في الكتابِ العزيزِ مِنْ ذلكَ كَـ «**العزيزِ العليمِ**»، و«**السميعِ البصيرِ**»،

و«**الغفورِ الرحيم**». وأمَّا «**غافرُ الذنبِ وقابلُ التَّوْبِ**» فدَخَلَ العاطفُ بينَهما؛ لأنهما في معنى الجُملتينِ، وإن كانا مُفردينِ لَفْظاً فهما يُعطيانِ معنى: يَغفرُ الذنْبَ ويَقبلُ التوبَ. أيْ: هذا شأنُهُ ووَصفُهُ في كلِّ وَقْتٍ. فأتى بالاسمِ الدالِّ على أنَّ هذا وَصفُهُ ونَعْتُهُ المتضمِّنُ لمعنى الفعْلِ الدالِّ على أنَّهُ لا يَزالُ يَفعلُ ذلكَ، فعَطْفُ أحدِهما على الآخرِ نحوَ عَطْفِ الجُمَلِ بعضِها على بعضٍ. ولا كذلكَ الاسمانِ الأوَّلانِ. ولمَّا لم يكن الفعلُ مَلحوظاً في قولِهِ: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ إذ لا يَحْسُنُ وُقوعُ الفعلِ فيهما وليسَ في لفظِ (ذي) ما يُصاغُ منهُ فِعْلٌ جَرَى مَجْرَى المُفردينِ مِنْ كلِّ وجهٍ، ولم يَعْطِفْ أحدَهما على الآخرِ، كما لم يَعْطِفْ في العزيزِ العليمِ. فتَأَمَّلْهُ فإنَّهُ واضحٌ.

وأمَّا العطْفُ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٢-٣]. فلَمَّا كانَ المقصودُ الثناءَ عليهِ بهذه الأفعالِ وهيَ جُملةٌ، دَخَلَت الواوُ عاطفةً جملةً على جُملةٍ، وإن كانت الجملةُ معَ الموصولِ في تقديرِ المُفْرَدِ، فالفعلُ مرادٌ مقصودٌ والعطفُ يُصَيِّرُ كلاًّ منها جُملةً مُسْتَقِلَّةً مقصودةً بالذِّكْرِ، بخِلافِ ما لوْ أتى بها في خبرٍ مَوصولٍ واحدٍ فقيلَ: الذي جَعَلَ لكم الأرضَ مِهاداً. ونَـزَّلَ مِن السماءِ ماءً. وخَلَقَ الأزواجَ كلَّها. كانت كلُّها في حُكْمِ جُملةٍ واحدةٍ، فلَمَّا غَايَرَ بينَ الجُمَلِ بذِكْرِ الاسمِ الموصولِ معَ كلِّ جملةٍ دَلَّ على أنَّ المقصودَ وَصْفُهُ بكلٍّ مِنْ هذهِ الجُمَلِ على حِدَتِهَا. وهذا قريبٌ مِنْ بابِ قَطْعِ النعوتِ. والفائدةُ هنا كالفائدةِ ثَمَّ... بلْ قَطْعُ النعوتِ إنَّما كانَ لأجْلِ هذهِ الفائدةِ، فذلكَ المُقَدَّرُ في النعوتِ المقطوعةِ لهذا المحقَّقِ في النعوتِ المعطوفةِ. والحمدُ للهِ على ما مَنَّ بهِ وأَنْعَمَ، فإنَّهُ ذو الطَّوْلِ والإحسانِ.(١)

---

(١) وقال -رَحِمَهُ اللهُ تعالَى- في بدائعِ الفوائدِ (٣/ ٥٢- ٥٣): (الصفاتُ إذا ذُكِرَتْ في مَقامِ التَّعدادِ فتارةً يَتوسَّطُ بينها حرفُ العَطْفِ:
- لِتَغايُرِها في نَفْسِها

- وللإيذانِ بأن المرادَ ذِكرُ كلِّ صفةٍ بمُفرَدِها.
وتارةً لا يَتَوَسَّطُها العاطِفُ:
- لاتحادِ مَوْصُوفِها وتَلازُمِها في نَفْسِها.
- وللإيذانِ بأنها في تَلازُمِهَا كالصفةِ الواحدةِ.
وتارةً يَتوَسَّطُ العَاطِفُ بينَ بَعْضِهَا ويُحْذَفُ مع بعضٍ بحَسَبِ هذين المَقامَيْنِ:
- فإذا كانَ المَقامُ مَقامَ تَعْدادِ الصفاتِ من غيرِ نَظرٍ إلى جمعٍ أو انفرادٍ حَسُنَ إسقاطُ حرفِ العطفِ.
- وإن أُريدَ الجمعُ بين الصفاتِ أو التنبيهُ على تغايُرِها حَسُنَ إدخالُ حرفِ العطفِ.
فمثالُ الأولِ: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقولُهُ: ﴿مُسۡلِمَـٰتٍ مُّؤۡمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰٓئِبَـٰتٍ﴾ [التحريم: ٥].
ومثالُ الثاني: قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].
وتأمَّلْ كَيْفَ اجتمَعَ النَّوعَانِ في قَوْلِه تعالَى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾ [غافر: ١-٣].
فأتى بالواوِ في الوصفَينِ الأولَيْنِ وحَذَفَها في الوصفَينِ الآخِرَينِ لأنَّ غُفرانَ الذنبِ وقَبُولَ التوبِ قد يُظَنُّ أنهما يَجْرِيَانِ مَجْرَى الوصفِ الواحدِ لِتَلازُمِهما فمَنْ غَفَرَ الذَّنْبَ قَبِلَ التَّوْبَ فكانَ في عَطْفِ أَحَدِهما على الآخَرِ ما يَدُلُّ على أنَّهُما صِفتانِ وفِعلانِ مُتَغايِرانِ ومَفْهُومَانِ مُخْتَلِفَانِ لِكُلٍّ مِنهُما حُكْمُه:
- **أَحَدُهما**: يَتَعَلَّقُ بالإساءةِ والإعراضِ وهو المَغْفِرَةُ.
- **والثاني**: يَتَعَلَّقُ بالإحسانِ والإقبالِ على اللهِ والرُّجوعِ إليه وهو التوبةُ.
فتُقْبَلُ هذهِ الحسنةُ وتُغْفَرُ تلك السيئةُ. وحَسُنَ العَطْفُ هَهُنا لهذا التغايُرِ الظاهِرِ.
وكُلَّما كانَ التغايُرُ أَبْيَنَ كَانَ العَطْفُ أَحْسَنَ، ولهذا جاءَ العَطْفُ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، وتُرِكَ في قولِه: ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣] وقولِه: ﴿ٱلۡخَـٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤].
وأما: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾ [غافر: ٣] فتُرِكَ العَطْفُ بينَهما لنُكْتَةٍ بَدِيعةٍ؛ وهي الدَّلالةُ على اجتماعِ هذينِ الأمرينِ في ذاتِه سُبحانَهُ وأنه حالَ كَونِه شديدَ العقابِ فهو ذو الطَّوْلِ، وطَوْلُه لا يُنافِي شِدَّةَ عِقابِه بل هما مُجْتَمِعَانِ له. بخلافِ الأولِ والآخِرِ فإنَّ الأوليةَ لا تُجامِعُ الآخِريَّةَ، ولهذا فَسَّرَها النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ بقولِه: «أَنْتَ الأَوَّلُ فلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وأَنْتَ الآخِرُ فلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ». فأَوَّلِيَّتُهُ أَزَلِيَّتُهُ، وآخِرِيَّتُهُ أَبَدِيَّتُهُ.
فإن قُلْتَ: فما تَصْنَعُ بقَوْلِه: (وَالظَّاهِرُ والبَاطِنُ) فإن ظُهورَهُ تعالَى ثَابتٌ مع بُطونه فيَجْتَمِعُ في حقِّه الظهورُ والبُطونُ، والنبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ فسَّر الظاهرَ بأنه الذي ليس فوقَهُ شيءٌ، والباطِنَ بأنه الذي ليس دُونَهُ شيءٌ. وهذا العُلُوُّ والفوقيةُ مُجامِعٌ لهذا القُربِ والدُّنُوِّ والإحاطةِ؟

تـتِمَّةٌ:

تأَمَّلْ كيفَ وَقعَ الوصْفُ بـ «**شديدِ العقابِ**» بينَ صِفتَيْ رحمةٍ قَبْلَهُ وصِفةِ رَحمةٍ بَعْدَهُ. فقبْلَهُ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ وبعدَهُ ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾ ففي هذا تصديقُ الحديثِ الصحيحِ وشاهدٌ لهُ، وهوَ قولُهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَاباً فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي**».(١)

وفي لفظٍ: «**سَبَقَتْ غَضَبِي**».(٢)

وقدْ سَبقَتْ صِفتَا الرحمةِ هنا وغَلَبَتْ.

وتأَمَّلْ كيفَ افْتتَحَ الآيَةَ بقولِهِ: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ والتنزيلُ يَستلزمُ عُلُوَّ المُنَـزِّلِ مِنْ عِنْدِهِ، لا تَعْقِلُ العربُ مِنْ لُغتِها بلْ ولا غيرِها مِن الأُمَمِ السليمةِ الفِطرةِ إلاَّ ذلكَ. وقدْ أَخْبَرَ أنَّ تنزيلَ الكتابِ منهُ. **فهذا يَدُلُّ على شيئَيْنِ:**

أحدُهما: عُلُوُّهُ تعالى على خَلْقِهِ.

والثاني: أنَّهُ هوَ المتكلِّمُ بالكتابِ المُنَـزَّلِ مِنْ عِنْدِهِ، لا غيرُهُ.

فإنَّهُ أَخبرَ أنَّهُ منهُ. وهذا يَقتضِي أن يكونَ منهُ قولاً كما أنَّهُ منهُ تَنزيلاً. فإنَّ غيرَهُ لوْ كانَ هوَ المتكلِّمَ بِهِ لكانَ الكتابُ مِنْ ذلكَ الغيرِ، فإنَّ الكلامَ إنَّما

قلتُ: هذا سؤالٌ حَسَنٌ. والذي حَسَّنَ دُخولَ الواوِ هاهنا أنَّ هذه الصفاتِ مُتقابِلَةٌ متضادةٌ. وقد عَطَفَ الثانيَ منهما على الأولِ للمقابلةِ التي بَينَهما. والصفتانِ الأُخرَيانِ كالأُولَيَيْنِ في المقابلةِ، ونسبةُ الباطنِ إلى الظاهرِ كنسبةِ الآخرِ إلى الأولِ فكما حَسُنَ العطفُ بين الأُولَيَيْنِ حَسُنَ بينَ الأُخْرَيينِ).

(١) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٩٣١٤)، والبُخَارِيُّ في كتابِ التوحيد / بابُ قولِ اللهِ تعالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ (٧٤٠٤)، ومسلمٌ في كتابِ التوبةِ / بابٌ في سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ (٦٩٠)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الدَّعَواتِ / بابُ خَلْقِ اللهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ (٣٥٤٣)، وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ الزُّهْدِ / بابُ ما يُرْجَى مِن رَحْمَةِ اللهِ عَزَّ وجلَّ (٤٢٩٥).

(٢) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٧٤٤٨)، والبُخَارِيُّ في كتابِ التوحيدِ / بابُ قولِ اللهِ تعالَى: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ (٧٤٢٢)، ومسلمٌ في كتابِ التوبةِ / بابٌ في سَعةِ رَحْمَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وأنها تَغْلِبُ غضبَهُ (٦٩٠٤)، وابْنُ مَاجَهْ في المُقَدِّمَةِ / بابٌ فِيمَا أَنْكَرَتِ الجَهْمِيَّةُ (١٨٩).

يُضافُ إلى المتكلِّم بهِ. ومِثلُ هذا: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣]، ومِثلُهُ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، ومِثلُهُ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

فاسْتَمْسِكْ بحرفِ (مِنْ) في هذهِ المواضِعِ فإنَّهُ يَقطعُ حُجَجَ شُعَبِ المعتزِلةِ والجَهْمِيَّةِ.

وتأَمَّلْ كيفَ قالَ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ﴾، ولم يَقُلْ تَنـزيلُهُ، فتَضَمَّنَت الآيَةُ إثباتَ عُلُوِّهِ وكلامِهِ وثبوتَ الرسالةِ.

ثُمَّ قالَ: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ فتَضمَّنَ هذانِ الاسمانِ صِفَتَي القُدرةِ والعلْمِ، وخَلْقَ أعمالِ العبادِ، وحدوثَ كلِّ ما سِوَى اللهِ؛ لأنَّ القَدَرَ[1] هوَ قُدرةُ اللهِ. كما قالَ أحمدُ بنُ حنبلٍ. فتَضَمَّنَتْ إثباتَ القَدَرِ، ولأنَّ عِزَّتَهُ تَمْنَعُ أن يكونَ في مُلْكِهِ ما لا يَشاؤُهُ، أوْ أنْ يَشاءَ ما لا يكونُ، فكانتْ عِزَّتُهُ تُبْطِلُ ذلكَ. وكذلكَ كمالُ قُدرتِهِ تُوجِبُ أن يكونَ خالقَ كلِّ شيءٍ، وذلكَ يَنْفِي أن يكونَ في العالَمِ شيءٌ قديمٌ لا يَتعلَّقُ بهِ خَلْقُهُ؛ لأنَّ كمالَ قُدرتِهِ وعِزَّتِهِ يُبْطِلُ ذلكَ.

ثُمَّ قالَ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ والذنبُ مُخالَفَةُ شَرْعِهِ وأَمْرِهِ فتَضَمَّنَ هذانِ الاسمانِ إثباتَ شَرْعِهِ وإحسانِهِ وفَضْلِهِ، ثُمَّ قالَ: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ وهذا جزاؤُهُ للمذنبينَ. و(ذو الطَّوْلِ) جزاؤُهُ للمحسنينَ فتضمَّنَت الثوابَ والعقابَ.

ثُمَّ قالَ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ فتَضَمَّنَ ذلكَ التوحيدَ والمَعادَ.

فتَضَمَّنَت الآيتانِ إثباتَ صفةِ العُلُوِّ والكلامِ والقُدرةِ والعلْمِ والقَدَرِ وحدوثِ العالَمِ والثوابِ والعقابِ والتوحيدِ والمعادِ. وتَنزيلُ الكتابِ منهُ على لِسانِ رَسولِهِ يَتَضَمَّنُ الرسالةَ والنُّبوَّةَ، فهذه عشرةُ قَواعدَ للإسلامِ والإيمانِ تُجَلَّى على سَمْعِكَ في هذهِ الآيَةِ العظيمةِ، ولكنْ خُودٌ تُزَفُّ إلى ضَريرٍ مُقْعَدٍ!!.

(١) في الأصلِ: القُدرةُ هِيَ، وهو تصحيفٌ ظاهرٌ.

فهلْ خطَرَ ببالِكَ قَطُّ أنَّ هذهِ الآيَةَ تَتضمَّنُ هذهِ العلومَ والمعارِفَ معَ كَثرةِ قِراءتِكَ لها وسماعِكَ إيَّاهَا.

وهكذا سائرُ آياتِ القرآنِ فما أَشَدَّها مِنْ حَسرةٍ وأَعْظَمَها مِنْ غَبْنَةٍ على مَنْ أَفْنَى أَوقاتَهُ في طَلَبِ العلْمِ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِن الدنيا وما فَهِمَ حقائقَ القرآنِ ولا بَاشَرَ قلبُهُ أسرارَهُ ومَعانيَهُ، فاللهُ المُستعانُ). [1]

(١) بدائعُ الفوائدِ (١/ ١٨٩-١٩٤).

البابُ العشرونَ: في بيانِ بعضِ ما تَضَمَّنَهُ اقترانُ بعضِ الأسماءِ الحُسْنَى ببعضٍ من اللطائفِ العجيبةِ والفوائدِ البديعةِ

([اعْلَمْ - وَفَّقَكَ الله تعالى - أنَّ] اقترانَ أَحَدِ الاسمينِ والوصفينِ بالآخَرِ... قَدْرٌ زائدٌ على مُفْرَدَيْهِمَا)[1] (فلهُ بذلكَ جميعُ أقسامِ الكمالِ: كمالٌ مِنْ هذا الاسمِ بِمُفردِهِ، وكمالٌ مِن الآخَرِ بِمُفْرَدِهِ، وكمالٌ مِن اقترانِ أَحَدِهما بالآخَرِ.

مثالُ ذلكَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾ [التغابن: ٦] ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠٦﴾ [التوبة: ١٠٦] ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [الممتحنة: ٧] فالغِنَى صِفةُ كمالٍ. والحمْدُ صِفةُ كمالٍ، واقترانُ غِناهُ بِحَمْدِهِ كَمالٌ)[2] (آخرُ؛ فلهُ ثناءٌ مِنْ غِناهُ، وثناءٌ مِنْ حَمْدِهِ، وثناءٌ مِن اجتماعِهما).[3]

(وعِلْمُهُ كمالٌ، وحِكمتُهُ كمالٌ، واقترانُ العلْمِ بالحكمةِ كمالٌ أيضاً. وقُدرتُهُ كمالٌ ومَغفرتُهُ كَمالٌ، واقترانُ القُدرةِ بالمغفرةِ كمالٌ، وكذلكَ العفوُ بعدَ القُدرةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٤٣﴾[4] [النساء: ٤٣] واقترانُ العلْمِ بالحِلْمِ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝١٢﴾ [النساء: ١٢] ... فما قُرِنَ شيءٌ إلى شيءٍ أَزْيَنُ مِنْ حِلْمٍ إلى عِلْمٍ،

---

(١) بَدائِعُ الفوائدِ (١/ ١٦١).

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٨).

(٣) بَدائِعُ الفوائدِ (١/ ١٦١).

(٤) هكذا في الأصلِ، ولعلَّ المرادَ من قولِ اللهِ تعالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ۝١٤٩﴾ [النساء: ١٤٩]، فانتقَلَ ذِهنُ المؤلِّفِ أو الناسخِ إلى هذه الآيةِ.

ومِنْ عَفْوٍ إلى قُدْرَةٍ، ومِنْ مُلْكٍ إلى حَمْدٍ، ومِنْ عِزَّةٍ إلى رَحمةٍ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ [الشعراء:٩]).[1]

(وهكذا عامَّةُ الصِّفَاتِ المقترِنةِ والأسماءِ المزدوِجةِ في القرآنِ... **فتأمَّلْهُ فإنَّهُ مِنْ أَشْرَفِ المعارِفِ**).[2]

[الربُّ، المَلِكُ، الإلهُ]

فمِنْ ذلكَ قولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [سورة الناس].

(فذَكَرَ رُبوبيَّتَهُ للناسِ ومُلْكَهُ إيَّاهُمْ وإلهيَّتَهُ لهم، ولا بُدَّ مِنْ مُناسبَةٍ في ذِكْرِ تلكَ في الاستعاذةِ مِن الشيطانِ... فنَذْكُرُ أوَّلاً **معنى هذهِ الإضافاتِ الثلاثِ، ثُمَّ وَجْهَ مُناسَبَتِها لهذه الاستعاذةِ**.

الإضافةُ الأُولَى: إضافةُ الربوبيَّةِ المتضَمِّنَةِ لخَلْقِهم وتدبيرِهم وتَربيتِهم وإصلاحِهم وجَلْبِ مَصالحِهم، وما يَحتاجونَ إليهِ، ودَفْعِ الشرِّ عنهم، وحِفْظِهِم مِمَّا يُفْسِدُهُم، هذا معنى رُبوبيَّتِهِ لهم، وذلكَ يَتضمَّنُ قُدرتَهُ التامَّةَ، ورَحمتَهُ الواسعةَ، وإحسانَهُ وعِلْمَهُ بتفاصيلِ أحوالِهم، وإجابةَ دَعَواتِهم وكَشْفَ كُرُباتِهِم.

الإضافةُ الثانيَةُ: إضافةُ المُلْكِ، فهوَ مَلِكُهم المتصَرِّفُ فيهم وهم عَبيدُهُ ومَماليكُهُ، وهوَ المُتَصرِّفُ لهم المُدَبِّرُ لهم كما يَشاءُ، النافذُ القُدرةِ فيهم، الذي لهُ السلطانُ التامُّ عليهم، فهوَ مَلِكُهُم الحقُّ الذي إليهِ مَفْزَعُهم عندَ الشدائدِ والنوائبِ وهوَ مُستغاثُهم ومَعاذُهم ومَلجؤُهم، فلا صَلاحَ لهم، ولا قِيامَ إلاَّ

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٩).

(٢) بَدائِعُ الفوائدِ (١/ ١٦١).

بِهِ وبتدبيرِهِ، فليسَ لهم مَلِكٌ غيرُهُ يَهْرُبُونَ إليهِ إذا دَهَمَهُم العدُوُّ ويَستصرخونَ بِهِ إذا نَـزَلَ العَدُوُّ بِسَاحَتِهِمْ.

الإضافةُ الثالثةُ: إضافةُ الإلهيَّةِ، فهوَ إِلَهُهُم الحقُّ ومعبودُهم الذي لا إلهَ لهم سِواهُ، ولا مَعبودَ لهم غيرُهُ.

فكما أنَّهُ وَحْدَهُ هوَ رَبُّهم ومَليكُهم لم يَشْرَكْهُ في رُبوبيَّتِهِ ولا في مُلْكِهِ أَحَدٌ، فكذلكَ هوَ وحدَهُ إلهُهم ومَعبودُهم، فلا يَنبغِي أن يَجْعَلُوا معه شَريكاً في إلهيَّتِهِ، كما لا شَريكَ معه في ربوبيَّتِهِ ومُلْكِهِ. وهذه طريقةُ القرآنِ يَحْتَجُّ عليهم بإقرارِهم بهذا التوحيدِ على ما أَنكروهُ مِنْ توحيدِ الإلهيَّةِ والعِبادةِ، وإذا كانَ وحدَهُ هوَ رَبَّنَا ومَلِكَنا وإلهَنا فلا مَفْزَعَ لنا في الشدائدِ سِواهُ، ولا مَلْجَأَ لنا منهُ إلاَّ إليهِ، ولا مَعبودَ لنا غيرُهُ، فلا يَنبغِي أن يُدْعَى ولا يُخافَ، ولا يُرْجَى ولا يُحَبَّ سِواهُ، ولا يُذَلَّ لغيرِهِ، ولا يُخْضَعَ لِسواهُ ولا يُتَوَكَّلَ إلاَّ عليهِ؛ لأنَّ مَنْ تَرجوهُ وتَخافُهُ وتَدعوهُ وتَتوكَّلُ عليهِ إمَّا أن يكونَ:

- مُرَبِّيَكَ والقيِّمَ بأُمورِكَ، ومُتَوَلِّيَ شأنِكَ، وهوَ رَبُّكَ فلا ربَّ سِواهُ.
- أو تكونَ مَملوكَهُ وعَبْدَهُ الحقَّ، فهوَ مَلِكُ الناسِ حَقًّا، وكلُّهم عبيدُهُ ومَماليكُهُ.
- أو يكونَ مَعبودَكَ وإلهَكَ الذي لا تَستغنِي عنهُ طَرْفَةَ عينٍ، بلْ حاجتُكَ إليهِ أَعظمُ مِنْ حاجتِكَ إلى حَياتِكَ ورُوحِكَ، وهوَ الإلهُ الحقُّ إلهُ الناسِ، الذي لا إلهَ لهم سِواهُ.

فمَنْ كانَ ربَّهم ومَلِكَهم وإلهَهم فهم جَدِيرُونَ أن لا يَستعيذوا بغيرِهِ، ولا يَستنصِرُوا بسواهُ، ولا يَلْجَأُوا إلى غيرِ حِماهُ فهوَ كافِيهِمْ وحَسْبُهُم وناصرُهم ووَلِيُّهُمْ، ومُتَوَلِّي أمورِهم جميعاً بربوبيَّتِهِ ومُلْكِهِ وإلهيَّتِهِ لهم، فكيفَ لا يَلتجئُ العبدُ عندَ النوازلِ ونـزولِ عدُوِّهِ بهِ إلى ربِّهِ ومالِكِهِ وإلهِهِ.

فظَهَرَتْ مُناسبَةُ هذهِ الإضافاتِ الثلاثِ للاستعاذةِ مِنْ أَعْدَى الأعداءِ، وأَعظَمِهم عَداوةً، وأشَدِّهْم ضَرَراً، وأَبْلَغِهم كَيْداً.

ثُمَّ إنَّهُ سبحانَهُ كَرَّرَ الاسمَ الظاهرَ ولم يُوقِعِ المُضْـمَرَ مَوْقِعَهُ فيقولُ: ربِّ الناسِ

ومَلِكِهم وإلهِهِمْ، تحقيقاً لهذا المعنى وتقويَةً لهُ، فأعادَ ذِكْرَهم عندَ كلِّ اسمٍ مِنْ أسمائِهِ.

ولم يَعْطِفْ بالواوِ لِمَا فيها مِن الإيذانِ بالمُغايَرَةِ، والمقصودُ الاستعاذةُ بمجموعِ هذهِ الصِّفَاتِ حتَّى كأنَّها صِفةٌ واحدةٌ.

وقَدَّمَ الربوبيَّةَ لعُمومِها وشُمولِها لكلِّ مربوبٍ، وأَخَّرَ الإلهيَّةَ لِخُصوصِها؛ لأَنَّهُ سُبحانَهُ إنَّما هوَ إلهُ مَنْ عَبَدَهُ ووَحَّدَهُ واتَّخَذَهُ دونَ غيرِهِ إلهاً، فمَنْ لم يَعْبُدْهُ ويُوَحِّدْهُ فليسَ بإلهِهِ، وإن كانَ في الحقيقةِ لا إلهَ لهُ سِواهُ، ولكن تَرَكَ إلهَهُ الحقَّ واتَّخَذَ إلهاً غيرَهُ.

ووَسَّطَ صفةَ المُلْكِ بينَ الرُّبوبيَّةِ والإلهيَّةِ؛ لأنَّ المَلِكَ هوَ المُتَصَرِّفُ بقولِهِ وأَمْرِهِ، فهوَ المُطاعُ إذا أَمَرَ، ومُلْكُهُ لهم تابعٌ لِخَلْقِهِ إيَّاهُمْ فمُلْكُهُ مِنْ كمالِ رُبوبيَّتِهِ، وكونُهُ إلههم الحَقَّ مِنْ كمالِ مُلْكِهِ. فرُبوبيَّتُهُ تَستلزِمُ مُلْكَهُ وتَقتضِيهِ، ومُلْكُهُ يَستلزِمُ إلهيَّتَهُ ويَقْتَضِيهَا فهوَ الربُّ الحَقُّ، الملِكُ الحَقُّ، الإلهُ الحَقُّ، خَلَقَهُم برُبوبيَّتِهِ، وقَهَرَهم بِمُلْكِهِ، واسْتَعْبَدَهُمْ بإلهيَّتِهِ.

فتأَمَّلْ هذهِ الجلالةَ وهذه العَظَمةَ التي تَضَمَّنَتْهَا هذهِ الألفاظُ الثلاثةُ على أَبْدَعِ نِظامٍ وأَحسنِ سِياقٍ: رَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ.

وقد اشْتَمَلَتْ هذهِ الإضافاتُ الثلاثُ على جميعِ قَواعِدِ الإيمانِ، وتَضَمَّنَتْ معانيَ أسمائِهِ الحُسْنَى:

أمَّا تَضَمُّنُها لمعاني أسمائِهِ الحُسْنَى فإنَّ «**الربَّ**» هوَ القادرُ الخالقُ البارئُ المُصوِّرُ الحَيُّ القَيُّومُ العليمُ السميعُ البصيرُ المُحسِنُ المنعِمُ الجَوادُ المُعْطِي المانعُ الضارُّ النافعُ المقَدِّمُ المؤَخِّرُ، الذي يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ويَهدِي مَنْ يَشاءُ، ويُسْعِدُ مَنْ يَشاءُ ويُشْقِي، ويُعِزُّ مَنْ يَشاءُ ويُذِلُّ مَنْ يَشاءُ، إلى غيرِ ذلكَ مِنْ معاني رُبوبيَّتِهِ التي لهُ منها ما يَسْتَحِقُّهُ مِن الأسماءِ الحُسْنَى.

وأَمَّا «**المَلِكُ**» فهوَ الآمِرُ الناهي المُعِزُّ المُذِلُّ، الذي يُصَرِّفُ أمورَ عِبادِهِ كما يُحِبُّ ويُقَلِّبُهُم كما يَشاءُ، ولهُ مِنْ معنى المُلْكِ ما يَسْتَحِقُّهُ مِن الأسماءِ، كالعزيزِ الجبَّارِ المتكَبِّرِ الحَكَمِ العَدْلِ الخافضِ الرافعِ المُعِزِّ المُذِلِّ العظيمِ الجليلِ الكبيرِ الحسيبِ المجيدِ الوالي المتعالي مالكِ المُلْكِ المُقْسِطِ الجامعِ، إلى غيرِ ذلكَ مِن الأسماءِ العائدةِ إلى المُلْكِ.

وأما «**الإلهُ**» فهوَ الجامعُ لجميعِ صفاتِ الكمالِ ونعوتِ الجلالِ، فيَدخُلُ في هذا الاسمِ جميعُ الأسماءِ الحُسْنَى؛ ولهذا كانَ القولُ الصحيحُ أنَّ الله أصلُهُ الإلهُ، كما هوَ قولُ سِيبويهِ وجُمهورِ أصحابِهِ إلاَّ مَنْ شَذَّ مِنْهُمْ، وأنَّ اسمَ **الله** تعالى هوَ الجامعُ لجميعِ معاني الأسماءِ الحُسْنَى والصفاتِ العُلَى.

فقدْ تَضَمَّنَتْ هذهِ الأسماءُ الثلاثةُ جميعَ مَعانِي أسمائِهِ الحُسْنَى؛ فكان المستعيذُ بها جَديراً بأن يُعاذَ ويُحفَظَ ويُمْنَعَ مِن الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ ولا يُسَلَّطَ عليهِ.

وأسرارُ كلامِ الله أَجَلُّ وأَعْظَمُ مِنْ أن تُدرِكَها عُقولُ البَشَرِ، وإنَّما غايَةُ أُولِي العِلْمِ الاستدلالُ بما ظَهَرَ منها على ما وَراءَهُ. وإنَّ بَادِيَهُ إلى الخافي يَسيرٌ ».[1]

(١) بَدائِعُ الفوائِد (٢/ ٢٤٧-٢٤٩).

[الْخَلَّاقُ العليمُ، اللطيفُ الخبيرُ]

(ومِنْ ذلكَ احتجاجُهُ سُبحانَهُ على إثباتِ عِلْمِهِ بالجزئِيَّاتِ كلِّها بأَحْسَنِ دليلٍ وأَوْضَحِهِ وأَصَحِّهِ حيث يقولُ: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الملك:١٣] ثُمَّ قَرَّرَ عِلْمَهُ بذلكَ بقولِهِ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٤].

وهذا مِنْ أَبْلَغِ التقريرِ، فإنَّ الخالقَ لا بُدَّ أن يَعْلَمَ مخلوقَهُ، والصانعَ يَعْلَمُ مَصنوعَهُ، وإذا كنتم مُقِرِّينَ بأنَّهُ خالِقُكم وخالقُ صدورِكم وما تَضَمَّنَتْهُ، فكيفَ تَخْفَى عليهِ وهيَ خَلْقُهُ. وهذا التقريرُ مِمَّا يَصْعُبُ على القَدَرِيَّةِ فَهْمُهُ، فإنَّهُ لم يَخْلُقْ عندَهم ما في الصدورِ فلم يكنْ في الآيَةِ على أصولِهم دليلٌ على عِلْمِهِ بها، ولهذا طَرَدَ غُلاةُ القومِ ذلكَ، ونَفَوْا عِلْمَهُ فأَكْفَرَهُم السلَفُ قاطبةً.

وهذا التقريرُ مِن الآيَةِ صحيحٌ على التقديرينِ أَعْني تقديرَ أن تكونَ (مَنْ): في مَحَلِّ رفعٍ على الفاعليَّةِ، وفي مَحَلِّ نَصْبٍ على المَفْعُولِيَّةِ.

- **فعلى التقديرِ الأَوَّلِ**: ألا يَعْلَمُ الخالقُ الذي شأنُهُ الْخَلْقُ.
- **وعلى التقديرِ الثاني**: ألا يَعلَمُ الربُّ مَخلوقَهُ ومَصنوعَهُ.

ثُمَّ ختمَ الْحُجَّةَ باسمينِ مُقتضيينِ لثُبوتِها وهما:

- «**اللطيفُ**» الذي لَطُفَ صُنْعُهُ وحِكْمَتُهُ ودَقَّ حتَّى عَجَزَتْ عنهُ الأفهامُ.
- **و«الخبيرُ» الذي انتهى عِلْمُهُ إلى الإحاطةِ ببَواطِنِ الأشياءِ وخَفاياها، كما أحاطَ بظَواهِرِها.**

فكيفَ يَخْفَى على «**اللطيفِ الخبيرِ**» ما تَحويهِ الضمائرُ وتُخفيهِ الصدورُ).[١]

---

(١) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٢/ ٤٩١-٤٩٢).

[العزيزُ الحكيمُ]

(كثيراً ما يَقْرِنُ تعالى بينَ هذينِ الاسمينِ «**العزيزِ الحكيمِ**» في آياتِ التشريعِ والتكوينِ والجزاءِ؛ لتَدُلَّ عِبادَهُ على أنَّ مَصْدَرَ ذلكَ كلِّهِ عنْ حِكمةٍ بالغةٍ، وعِزَّةٍ قاهرةٍ، ففَهِمَ المُوَفَّقُونَ عن الله عَزَّ وجَلَّ مُرادَهُ وحِكمتَهُ، وانْتَهَوْا إلى ما وَقَفُوا عليهِ، ووَصَلَتْ إليهِ أفهامُهم وعلومُهم، ورَدُّوا عِلْمَ ما غابَ عنهم إلى أَحْكَمِ الحاكمينِ، ومَنْ هوَ بكلِّ شيءٍ عليمٌ، وتحَقَّقُوا بما عَمِلُوهُ مِنْ حِكْمَتِهِ التي بَهَرَتْ عُقولَهم أنَّ للهِ في كلِّ ما خَلَقَ وأَمَرَ وأثابَ وعاقَبَ مِن الحِكَمِ البوالِغِ ما تَقْصُرُ عقولُهم عنْ إدراكِهِ، وأنَّهُ تعالى هوَ الغنيُّ الحميدُ العليمُ الحكيمُ، فمَصْدَرُ خَلْقِهِ وأَمْرِهِ وثوابِهِ وعِقابِهِ غِناهُ وحَمْدُهُ وعِلْمُهُ وحِكْمَتُهُ، ليسَ مَصْدَرُهُ مَشيئةً مُجَرَّدَةً، وقُدرةً خاليَةً مِن الحكمةِ والرحمةِ والمَصلحةِ والغاياتِ المحمودةِ المطلوبةِ لهُ خَلْقاً وأمراً، وأنَّهُ سُبحانَهُ لا يُسألُ عَمَّا يَفعلُ لكَمالِ حِكمتِهِ وعِلْمِهِ، ووقوعِ أفعالِهِ كُلِّها على أَحسنِ الوُجوهِ وأَتَمِّها، على الصوابِ والسَّدادِ، ومُطابقةِ الحِكَمِ، والعِبادُ يُسألونَ؛ إذ ليستْ أفعالُهم كذلكَ، ولهذا قالَ خطيبُ الأنبياءِ شُعيبٌ صَلَّى الله عليهِ وسَلَّمَ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود: ٥٦]، فأَخْبَرَ عنْ عُمومِ قُدرتِهِ تعالى، وأنَّ الخَلْقَ كلَّهُم تحتَ تَسخيرِهِ وقُدرتِهِ، وأنَّهُ آخِذٌ بنَواصِيهِمْ، فلا مَحِيصَ لهم عنْ نُفوذِ مَشيئَتِهِ وقُدرتِهِ فيهم)(١).

[الحكيمُ العليمُ]

(و[مِنْ ذلك] قولُهُ [تعالى]: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠﴾ [الذاريات: ٣٠] [حيث]... تَضَمَّنَ لإثباتِ صِفةِ الحكمةِ والعلْمِ اللذَيْنِ هما مَصْدَرُ الخَلْقِ

(١) مِفْتَاحُ دَارِ السَّعادةِ (٢/ ٤٨٥).

والأمرِ، فجميعُ ما خَلَقَهُ - سُبحانَهُ - صادرٌ عن عِلْمِهِ وحِكمتِهِ، وكذلك أَمْرُهُ وشَرْعُهُ مَصْدَرُهُ عنْ عِلْمِهِ وحِكمتِهِ.

والعلْمُ والحكمةُ مُتَضَمِّنَانِ لجميعِ صفاتِ الكمالِ، فالعلْمُ يَتَضَمَّنُ الحياةَ ولوازمَ كمالِها مِن القَيُّومِيَّةِ والقُدرةِ والبقاءِ والسمْعِ والبصرِ، وسائرِ الصِّفَاتِ التي يَستلزِمُها العلْمُ التامُّ.

والحكمةُ تَتضمَّنُ كمالَ الإرادةِ والعَدْلِ والرحمةِ والإحسانِ والجُودِ والبرِّ ووَضْعِ الأشياءِ في [مَواضِعِها] على أَحسنِ وُجُوهِها، ويَتَضَمَّنُ إرسالَ [الرُّسُلِ] وإثباتَ الثوابِ والعقابِ.

كلُّ هذا العلْمِ مِن اسمِهِ «**الحكيم**» كما هيَ طريقةُ القرآنِ في الاستدلالِ على هذهِ المطالبِ العظيمةِ بصِفةِ الحكمةِ، والإنكارِ على مَنْ يَزعمُ أنَّهُ خَلَقَ الخلْقَ عَبَثاً وسُدًى وباطلاً. فحينئذٍ صِفةُ حِكمتِهِ تَتضمَّنُ الشرْعَ والقدَرَ والثوابَ والعقابَ).(1)

[فَصْلٌ]

(وهو سُبحانَهُ يَقْرِنُ بينَ سَعةِ العلْمِ والرحمةِ كما يَقرِنُ بينَ العلْمِ والحِلْمِ:

فمِن الأوَّلِ قولُهُ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

ومِن الثاني: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النساء: ١٢].

فما قُرِنَ شيءٌ إلى شيءٍ أَحسنُ مِنْ حِلْمٍ إلى عِلْمٍ، ومِنْ رَحمةٍ إلى عِلْمٍ.

وحَملةُ العرشِ أربعةٌ:

- اثنان يقولانِ: ((**سُبحَانَكَ اللهمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى حِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ**)).

(١) الرِّسَالَةُ التَّبُوكِيَّةُ (٨٠-٨١).

- واثنانِ يقولانِ: ((سُبْحَانَكَ اللهمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ)).

((فما كلُّ مَنْ قَدَرَ عَفَا، ولا كلُّ مَنْ عَفَا يَعفو عنْ قُدرةٍ، ولا كلُّ مَنْ عَلِمَ يكونُ حَليماً، ولا كلُّ حليمٍ عالمٌ)).[1]

فاقترانُ العفوِ بالقُدرةِ كاقترانِ الحلْمِ والرحمةِ بالعلْمِ؛ لأنَّ العفوَ إنَّما يَحْسُنُ عندَ القدرةِ؛ وكذلكَ الحلْمُ والرحمةُ إنَّما يَحْسُنانِ معَ العِلْمِ).[2]

[المَلِكُ الحَقُّ]

(قالَ [الله تعالى]: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥] ثُمَّ نَـزَّهَ نفسَهُ عنْ هذا الْحِسبانِ المُضادِّ لحكمتِهِ وعِلْمِهِ وحَمْدِهِ فقالَ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٦] وتأمَّلْ ما في هذينِ الاسمينِ، وهما **المَلِكُ الحَقُّ**، مِنْ إبطالِ هذا الْحِسبانِ الذي ظَنَّهُ أعداؤُهُ؛ إذ هوَ مُنافٍ لكمالِ مُلْكِهِ ولكونِهِ الحقَّ، إذ «**المَلِكُ الحَقُّ**» هوَ الذي يكونُ لهُ الأمرُ والنهيُ فيتَصَرَّفُ في خَلْقِهِ بقولِهِ وأَمْرِهِ. وهذا هوَ الفرْقُ بينَ المَلِكِ والمالكِ؛ إذ المالكُ هوَ المتصرِّفُ بفِعْلِهِ، والمَلِكُ هوَ المتصرِّفُ بفعلِهِ وأَمْرِهِ.

والربُّ تعالى مالكُ المُلْكِ فهوَ المتصرِّفُ بفِعْلِهِ وأَمْرِهِ، فمَنْ ظَنَّ أنَّهُ خلَقَ خَلْقَهُ عَبَثاً لم يَأْمُرْهُم ولم يَنْهَهُم، فقدْ طعَنَ في مُلْكِهِ ولم يَقْدِرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] فمَنْ جَحَدَ شَرْعَ اللهِ وأَمْرَهُ ونَهْيَهُ، وجعَلَ الخَلْقَ بِمَنـزلةِ الأنعامِ المُهْمَلَةِ، فقدْ طعَنَ في مُلْكِ اللهِ، ولم يَقْدِرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ.

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٦٠).

(٢) بَدائِعُ الفوائدِ (١/ ٨٠).

وكذلكَ كونُهُ تعالى إلهَ الخلْقِ يَقتضِي كمالَ ذَاتِهِ وصِفاتِهِ وأسمائِهِ، ووُقوعَ أفعالِهِ على أكملِ الوُجوهِ وأتمِّهَا.

فكما أنَّ ذاتَهُ الحقُّ فَقَوْلُهُ الحقُّ، ووَعْدُهُ الحقُّ، وأمرُهُ الحقُّ، وأفعالُهُ كلُّها حَقٌّ، وجَزاؤُهُ المستلْزِمُ لشَرْعِهِ ودِينِهِ ولليومِ الآخِرِ حَقٌّ.

فمَنْ أَنْكَرَ شيئاً مِنْ ذلكَ فما وَصفَ اللهَ بأنَّهُ «**الحقُّ**» المطلَقُ مِنْ كلِّ وَجهٍ وبكلِّ اعتبارٍ، فكونُهُ حَقًّا يَستلزِمُ شَرْعَهُ ودِينَهُ وثَوابَهُ وعِقابَهُ. فكيفَ يُظَنُّ بالمَلِكِ الحقِّ أن يَخْلُقَ خَلْقَهُ عبثاً؟! وأن يَتْرُكَهُم سُدًى لا يَأمرُهم ولا يَنهاهم، ولا يُثيبُهم ولا يُعاقِبُهم؟! كما قالَ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ٣٦﴾ [القيامة: ٣٦] قالَ الشافعيُّ - رَحِمَهُ الله -: مُهْمَلاً لا يُؤْمَرُ ولا يُنْهَى. وقالَ غيرُهُ: لا يُجْزَى بالخيرِ والشرِّ، ولا يُثابُ ولا يُعاقَبُ.

والقولانِ مُتلازمانِ. فالشافعيُّ ذَكَرَ سببَ الجزاءِ والثوابِ والعِقابِ وهوَ الأمرُ والنهيُ، والآخرُ ذَكَرَ غايَةَ الأمرِ والنهيِ وهوَ الثوابُ والعقابُ).(١)

[لَهُ المُلْكُ ولَهُ الحَمْدُ]

[قالَ اللهُ تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١﴾ [التغابن: ١] (فـ] قَرَنَ بينَ المُلْكِ والحمْدِ على عادتِهِ تعالى في كلامِهِ، فإنَّ اقترانَ أحدِهما بالآخرِ لهُ كمالٌ زائدٌ على الكمالِ بكُلِّ واحدٍ منهما، فلهُ كمالٌ مِنْ مُلْكِهِ، وكمالٌ مِنْ حَمْدِهِ، وكمالٌ من اقترانِ أحدِهما بالآخرِ. فإنَّ المُلْكَ بلا حَمْدٍ نَقْصٌ، والحمدَ بلا مُلْكٍ يَستلزِمُ عَجْزاً، والحمدَ معَ المُلْكِ غايَةُ الكمالِ. ونَظيرُ هذا: العِزَّةُ والرحمةُ، والعفوُ والقُدرةُ، والغِنَى والكَرَمُ).(٢)

---

(١) بَدائِعُ الفوائِدِ (٤/ ١٦٥).

(٢) بَدائِعُ الفوائِدِ (١/ ٧٩-٨٠).

(و... المُلْكُ والحَمْدُ في حقِّهِ مُتلازمانِ، فكلُّ ما شَمِلَهُ مُلْكُهُ وقُدرتُهُ شَمِلَهُ حَمْدُهُ، فهوَ محمودٌ في مُلْكِهِ، ولهُ المُلْكُ والقُدرةُ معَ حَمْدِهِ، فكما يَستحيلُ خُروجُ شيءٍ مِن الموجوداتِ عنْ مُلْكِهِ وقُدرتِهِ، يَستحيلُ خُروجُها عنْ حَمْدِهِ وحِكمتِهِ، ولهذا يَحْمَدُ سبحانَهُ نفسَهُ عندَ خَلقِهِ وأَمْرِهِ، ليُنَبِّهَ عِبادَهُ على أنَّ مَصدَرَ خَلْقِهِ وأَمْرِهِ عنْ حَمْدِهِ، فهوَ محمودٌ على كلِّ ما خَلَقَهُ وأمَرَ بهِ، حمدَ شُكْرٍ وعُبوديَّةٍ، وحَمْدَ ثَناءٍ ومَدْحٍ). [1]

[الحيُّ القَيُّومُ]

([اعْلَمْ] أنَّ لاسمِ «**الحيِّ القَيُّوم**» تَأثيراً خاصًّا في إجابةِ الدعواتِ، وكَشْفِ الكُرُباتِ. وفي "السُّنَنِ" و"صحيحِ أبي حاتمٍ" مَرفوعاً: «**اسمُ اللهِ الأعظمُ في هاتينِ الآيتينِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣]، وفاتحةِ آلِ عِمرانَ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ [آل عمران: ١-٢]**».

قالَ التِّرمذيُّ: حديثٌ صحيحٌ. [2]

وفي "السُّنَنِ" و"صحيحِ ابنِ حِبَّانَ" أيضاً: مِنْ حديثِ أَنَسٍ أنَّ رَجُلاً دَعَا، فقالَ: اللهمَّ إني أسألُكَ بأنَّ لكَ الحمدَ، لا إلهَ إلاَّ أنتَ المَنَّانُ، بَديعُ السماواتِ والأرضِ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ، يا حَيُّ يا قَيُّومُ، فقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «**لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى**». [3] ولهذا كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا اجتهَدَ في الدعاءِ قالَ: «**يَا**

---

(١) طَريقُ الهِجرتَيْنِ (١٢٩).

(٢) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٢٧٠٦٤)، والتِّرْمِذيُّ في كتابِ الدَّعواتِ / بابُ (٦٥)، الحديثُ رَقْمُ (٣٤٧٨)، وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ / بابُ الدعاءِ (١٤٩٦)، وابْنُ ماجَهْ في كتابِ الدعاءِ / بابُ اسمِ اللهِ الأعظَمِ (٣٨٥٥) من حديثِ شَهْرِ بنِ حَوْشَبٍ، عن أسماءَ بِنْتِ يَزيدَ رضيَ اللهُ عنها.

(٣) سَبَقَ تَخْريجُه ص ١٥٥.

حَيُّ يَا قَيُّومُ»[(١)]. [(٢)]

(فإنَّ صِفةَ الحياةِ مُتَضَمِّنَةٌ لجميعِ صِفاتِ الكمالِ، مُستلزِمَةٌ لها، وصِفةَ القيوميَّةِ مُتَضَمِّنَةٌ لجميعِ صِفاتِ الأفعالِ، ولهذا كانَ اسمُ اللهِ الأعظمُ الذي إذا دُعِيَ بِهِ أَجابَ، وإذا سُئِلَ بِهِ أَعطَى: هوَ اسمَ «الحيِّ القَيُّوم»، والحياةُ التامَّةُ تُضادُّ جَميعَ الأسقامِ والآلامِ، ولهذا لَمَّا كَمُلَتْ حياةُ أهلِ الجنَّةِ لم يَلْحَقْهُم هَمٌّ ولا غَمٌّ ولا حُزْنٌ ولا شيءٌ مِن الآفاتِ. ونُقصانُ الحياةِ تَضُرُّ بالأفعالِ، وتُنافِي القَيُّومِيَّةَ.

فكَمالُ القَيُّومِيَّةِ لكمالِ الحياةِ، فالحيُّ المطلَقُ التامُّ الحياةِ لا تَفوتُهُ صِفةُ الكمالِ الْبَتَّةَ، والقَيُّومُ لا يَتعَذَّرُ عليهِ فِعْلٌ مُمكِنٌ الْبَتَّةَ، فالتوَسُّلُ بصفةِ الحياةِ والقيوميَّةِ لهُ تأثيرٌ في إزالةِ ما يُضادُّ الحياةَ، ويَضُرُّ بالأفعالِ.

ونظيرُ هذا تَوسُّلُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ إلى رَبِّهِ برُبوبيَّتِهِ لجبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ أن يَهْدِيَهُ لِمَا اخْتُلِفَ فيهِ مِن الحقِّ بإذنِهِ، فإنَّ حياةَ القلبِ بالهدايَةِ، وقدْ وَكَّلَ اللهُ سبحانَهُ هؤلاءِ الأملاكَ الثلاثةَ بالحياةِ: فجبريلُ مُوَكَّلٌ بالوحيِ الذي هوَ حياةُ القلوبِ، وميكائيلُ بالقَطْرِ الذي هوَ حياةُ الأبدانِ والحيوانِ، وإسرافيلُ بالنفخِ في الصُّورِ الذي هوَ سببُ حياةِ العالمِ وعَودِ الأرواحِ إلى أجسادِها.

فالتوَسُّلُ إليهِ سبحانَهُ بربوبيَّةِ هذهِ الأرواحِ العظيمةِ الموَكَّلَةِ بالحياةِ، لهُ تأثيرٌ في حُصولِ المطلوبِ). [(٣)]

---

(١) رواهُ التِّرْمِذِيُّ في كتابِ الدَّعَواتِ / بابُ ما جاءَ ما يَقُولُ عِنْدَ الكَرْبِ (٣٤٣٦) من طريقِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ المُفَضَّلِ (وهو ضعيفٌ) عن سعيدٍ المَقْبُرِيِّ، عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٢) زَادُ المَعادِ (٤/ ٢٠٦).

(٣) زَادُ المَعادِ (٤/ ٢٠٤).

(و[كذلك]... قولُ الداعِي: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بَرحمتِكَ أَستغيثُ»[(١)]... ولهذا كانَ هذا الدعاءُ مِنْ أَدعيَةِ الكَرْبِ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِن التوحيدِ والاستغاثةِ برَحمةِ أَرحمِ الراحمينَ مُتوَسِّلاً إليهِ باسمينَ عليهما مَدارُ الأسماءِ الحُسْنَى كلِّها، وإليهما مَرْجِعُ مَعانيها جميعِها، وهوَ اسمُ الحيِّ القيُّومِ:

-فإنَّ الحياةَ مُستلزِمَةٌ لجميعِ صِفاتِ الكمالِ، ولا يَتخلَّفُ عنها صِفةٌ منها إلاَّ لضَعْفِ الحياةِ. فإذا كانتْ حياتُهُ تعالى أكملَ حَياةٍ وأَتمَّها استَلْزَمَ إثباتُها إثبات كلِّ كمالٍ يُضَادُّ نَفْيَ كمالِ الحياةِ...

-وأمَّا «القَيُّومُ» فهوَ مُتَضَمِّنٌ كمالَ غِناهُ وكمالَ قُدرتِهِ، فإنَّهُ القائمُ بنفسِهِ لا يَحتاجُ إلى مَنْ يُقيمُهُ بوَجهٍ مِن الوجوهِ، وهذا مِنْ كمالِ غِناهُ بنفسِهِ عما سِواهُ، وهوَ المقيمُ لغيرِهِ فلا قِيامَ لغيرِهِ إلاَّ بإقامتِهِ، وهذا مِنْ كمالِ قُدرتِهِ وعِزَّتِهِ.

فانْتَظَمَ هذانِ الاسمانِ صِفاتِ الكمالِ والغِنَى التامِّ، فكأنَّ المستغيثَ بهما مُستغيثٌ بكلِّ اسمٍ مِنْ أسماءِ الربِّ تعالى، وبكلِّ صفةٍ مِنْ صفاتِهِ، فما أَوْلَى الاستغاثةِ بهذينِ الاسمينِ أنْ يَكُونَا في مَظِنَّةِ تفريجِ الكُرُباتِ وإغاثةِ اللهفاتِ وإنالةِ الطَّلِباتِ).[(٢)]

---

(١) أخرجَهُ التِّرْمِذِيُّ في كتابِ الدَّعَواتِ/ بابُ (٩٢) برَقْمِ (٣٥٢٢) من حديثِ الرُّجَيْلِ بنِ مُعاوِيَةَ، عن يَزِيدَ الرَّقَاشِيِّ، عن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه، قالَ: كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ إذا كَرَبَهُ أمرٌ قالَ: «يا حَيُّ، يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ».

وأخرجَهُ الحاكمُ في المُسْتَدْرَكِ (١/ ٦٨٩) من حديثِ القاسمِ بنِ عبدِ الرحمنِ، عن أبيه، عن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ إذا نَزَلَ به هَمٌّ أو غَمٌّ قال: «يا حَيُّ، يا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ». قال الحاكمُ: هذا حديثٌ صَحيحُ الإسنادِ ولم يُخْرِجَاهُ.

(٢) بَدائِعُ الفوائدِ (٢/ ١٨٤).

وقال -رَحِمَهُ اللهُ تعالَى- في كتابِ الصَّواعِقِ المُرسلَةِ (٩١١ - ٩١٢): وكان اسمُ اللهِ الأعظَمُ في هاتينِ الآيتينِ آيَةِ الكُرْسِيِّ، وفاتِحَةِ آلِ عِمْرانَ لاشتمالِها على صفةِ الحياةِ المُصحِّحَةِ لجميعِ الصفاتِ، وصفةِ القيُّومِيَّةِ المُتضمِّنَةِ لجميعِ الأفعالِ؛ ولهذا كانت سيِّدَةَ آيِ القرآنِ وأَفْضَلَهَا).

وكذلك القَيُّومُ مِنْ أَوْصَافِهِ ما للمنام لَدَيْهِ مِنْ غَشَيانِ
وكذاكَ أوصافُ الكمالِ جميعُها ثَبَتَتْ لهُ ومَدارُها الوَصفانِ
فمُصَحِّحُ الأوصافِ والأفعالِ والـ أسماءِ حَقًّا ذانِكَ الوَصفانِ
ولأجْلِ ذا جاءَ الحديثُ بأنَّهُ في آيةِ الكُرْسِيِّ وذي عِمرانِ
اسمُ الإلهِ الأعظمُ اشْتَمَلا على اسْـ ـمِ الحيِّ والقيُّومِ مُقترنانِ
فالكلُّ مَرْجِعُها إلى الاسمينِ يدْ ري ذاكَ ذو بَصَرٍ بهذا الشانِ [1]

ولهُ الحياةُ كمالُها فلأجْلِ ذا ما للمماتِ عليهِ مِنْ سُلطانِ

[العليُّ العظيمُ]

(قدْ شَرَعَ اللهُ - سُبحانَهُ - لِعِبادِهِ ذِكْرَ هذينِ الاسمينِ: **العليِّ العظيمِ** في الركوعِ والسجودِ كما ثَبَتَ في الصحيحِ أنَّهُ لمَّا نَزَلَتْ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤] قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «**اجْعَلُوها في رُكوعِكُم**»، فلمَّا نَزَلَتْ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١]، قالَ: «**اجْعَلُوهَا في سُجُودِكُمْ**». [2]

---

(١) القصيدةُ النونيةُ (٦٥).

وقال -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في القصيدةِ النونيةِ (٢٤٨):

(هَـذَا وَمِـنْ أَوْصَافِـهِ الْقَيُّومُ والْـ قَيُّومُ مِنْ أَوْصَافِهِ أَمْرَانِ
إِحْدَاهُمَا الْقَيُّومُ قَامَ بِنَفْسِهِ وَالْكَوْنُ قَامَ بِهِ هُمَا الأَمْرَانِ
فَالأَوَّلُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنْ غَيْرِهِ وَالْفَقْرُ مِنْ كُلٍّ إِلَيْهِ الثَّاني
وَالْوَصْفُ بِالْقَيُّومِ ذُو شَأْنٍ عَظِيمٍ هَكَذَا مَوْصُوفُهُ أَيْضًا عَظِيمُ الشَّانِ
وَالْحَيُّ يَتْلُوهُ فَأَوْصَافُ الْكَمَا لِ هُمَا لأُفْقِ سَمَائِهَا قُطْبَانِ
فَالْحَيُّ وَالْقَيُّومُ لَنْ تَتَخَلَّفَ الْـ أَوْصَافُ أَصْلاً عَنْهُمَا بِبَيَانِ)

(٢) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٢٥٢.

وهوَ سُبحانَهُ كثيراً ما يَقرِنُ في وَصْفِهِ بينَ هذينِ الاسمينِ كقولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقولِهِ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج: ٦٢]، وقولِهِ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: ٩] يُثْبِتُ بذلك عُلُوَّهُ على المخلوقاتِ وعَظَمَتَهُ، فالعُلُوُّ رِفعتُهُ، والعظمةُ عَظمةُ قَدْرِهِ ذَاتاً ووَصْفاً)[1]

[الحميدُ المجيدُ]

(«**الحميدُ**» فعيلٌ مِن الحمْدِ وهوَ بمعنَى محمودٍ... الذي لهُ مِن الصِّفَاتِ وأسبابِ الحمدِ ما يَقتضِي أن يكونَ مَحْمُوداً...

والحمدُ والمجْدُ إليهما يَرجعُ الكمالُ كُلُّهُ؛ فإنَّ الحمدَ يَستلزِمُ الثناءَ والمحبَّةَ للمحمودِ، فمَنْ أَحْبَبْتَهُ ولم تُثْنِ عليهِ لم تكنْ حَامِداً لهُ، وكذا مَنْ أثنيتَ عليهِ لغَرَضٍ ما ولم تُحِبَّهُ لم تكنْ حامداً لهُ حتَّى تكونَ مُثْنِياً.

وهذا الثناءُ والحُبُّ تَبَعٌ للأسبابِ المُقْتَضِيَةِ لهُ، وهوَ ما عليهِ المحمودُ مِنْ صفاتِ الكمالِ ونعوتِ الجلالِ والإحسانِ إلى الغيرِ، فإنَّ هذهِ هيَ أسبابُ المَحبَّةِ، وكلَّما كانتْ هذهِ الصِّفَاتُ أجمعَ وأكْمَلَ كانَ الحمْدُ والحُبُّ أتَمَّ وأعظمَ، واللهُ سُبحانَهُ لهُ الكمالُ المُطْلَقُ الذي لا نَقْصَ فيهِ بوَجهٍ ما، والإحسانُ كلُّهُ لهُ ومنهُ، فهوَ أَحَقُّ بكلِّ حَمْدٍ، وبكلِّ حُبٍّ مِنْ كلِّ جِهةٍ. فهوَ أَهْلٌ أن يُحَبَّ لذاتِهِ ولصفاتِهِ ولأفعالِهِ ولأسمائِهِ ولإحسانِهِ ولكلِّ ما صَدَرَ منهُ سُبحانَهُ.

وأمَّا المَجْدُ فهوَ مُستلزِمٌ للعَظَمةِ والسَّعَةِ والجلالِ كما يَدُلُّ عليهِ مَوضوعُهُ في اللغةِ، فهوَ دالٌّ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، والحمْدُ يَدُلُّ على صِفاتِ الإكرامِ، واللهُ سُبحانَهُ ذو الجلالِ والإكرامِ، وهذا معنى قولِ العبدِ: (لا إلهَ إلاَّ اللهُ واللهُ

---

(١) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٤/ ١٣٦٤-١٣٦٥).

أكبرُ) فلا إلهَ إلاَّ الله دالٌّ على أُلوهيَّتِهِ وتفرُّدِهِ فيها، فأُلوهيَّتُهُ تستلزِمُ محبَّتَهُ التامَّةَ (والله أكبرُ) دَالٌّ على مجْدِهِ وعظمتِهِ، وذلكَ يَستلزِمُ تمجيدَهُ وتعظيمَهُ وتكبيرَهُ.

ولهذا يَقْرِنُ سبحانَهُ بينَ هذينِ النوعينِ في القرآنِ كثيراً كقولِهِ: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧٣] وقولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١] فأمَرَ بحَمْدِهِ وتكبيرِهِ. وقالَ تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: ٧٨] وقالَ: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧]. وفي المسنَدِ وصحيحِ أبي حاتمٍ وغيرِهِ، مِنْ حديثِ أَنَسٍ عن النبيِّ صَلَّى الله عليهِ وسَلَّمَ أنَّهُ قالَ: «أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ».[1] يَعْنِي الْزَمُوها وتَعَلَّقُوا بها.

فالجلالُ والإكرامُ هوَ الحمْدُ والمجْدُ. ونظيرُ هذا قولُهُ: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠] وقولُهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ١٤٩] وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾﴾ [الممتحنة: ٧] وقولُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: ١٤-١٥] وهوَ كثيرٌ في القرآنِ.

وفي الحديثِ الصحيحِ؛ حديثِ دُعاءِ الكَرْبِ: «لا إِلَهَ إِلاَّ الله الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لا إِلَهَ إِلاَّ الله رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمُ، لا إِلَهَ إِلاَّ الله رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمُ».[2]

---

(١) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٧١٤٣) من حديثِ ربيعةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، ورجالُه ثقاتٌ. ورواه التِّرْمِذِيُّ في كتابِ الدَّعَواتِ / بابُ (٩٢) الحديثُ رَقْمُ (٣٥٢٤،٣٥٢٥) من حديثِ أنسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه. ثم قالَ: «هذا حديثٌ غريبٌ وليس بمحفوظٍ، وإنما يُروَى هذا عن حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ، عن حُمَيْدٍ، عن الحسنِ، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، وهذا أصحُّ، ومُؤَمَّلٌ غَلَطَ فيه، فقال: عن حمادٍ، عن حُمَيْدٍ، عن أنسٍ، ولا يُتابَعْ فيهِ» اهـ.

(٢) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ١٢٩.

فذِكْرُ هذينِ الاسمينِ «**الحميدِ المجيدِ**» عَقِيبَ الصلاةِ على النبيِّ صَلَّى الله عليهِ وسَلَّمَ وعلى آلِهِ مُطابِقٌ لقولِهِ: ﴿رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾.

ولَمَّا كانت الصلاةُ على النبيِّ صَلَّى الله عليهِ وسَلَّمَ وهيَ ثناءُ الله تعالى عليهِ وتكريمُهُ والتنويهُ بهِ ورَفْعُ ذِكْرِهِ وزيادةُ حُبِّهِ وتَقريبُهُ كما تَقدَّمَ، كانتْ مُشْتَمِلَةً على الحمْدِ والمجْدِ. فكأنَّ المصَلِّيَ طَلَبَ مِن الله تعالى أن يَزيدَ في حَمْدِهِ ومَجْدِهِ؛ فإنَّ الصلاةَ عليهِ هيَ نوعُ حَمْدٍ لهُ وتَمجيدٍ، هذا حقيقتُها، فذَكَرَ في هذا المطلوبِ الاسمينِ المناسبَيْنِ لهُ وهما اسما «**الحميدِ**» و«**المجيدِ**» وهذا كما تَقَدَّمَ أنَّ الداعيَ يُشْرَعُ لهُ أن يَخْتِمَ دُعاءَهُ باسمٍ مِن الأسماءِ الحُسْنَى يُناسِبُ لمطلوبِهِ أوْ يَفْتَتِحَ دُعاءَهُ بهِ. وتَقَدَّمَ أنَّ هذا مِنْ قولِهِ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] قالَ سُليمانُ عليهِ السلامُ في دُعائِهِ لرَبِّهِ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ٣٥﴾ [ص:٣٥]، وقالَ الخليلُ وابنُهُ إسماعيلُ في دُعائِهِما: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾ [البقرة: ١٢٨] وكانَ النبيُّ صَلَّى الله عليهِ وسَلَّمَ يقولُ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ**». مائةَ مَرَّةٍ في مَجْلِسِهِ[1]، وقالَ لعائشةَ رَضِيَ الله عنها وقدْ سَأَلَتْهُ: إن وافقْتُ ليلةَ القَدْرِ ما أَدْعُو بِهِ؟ قالَ: «**قُولِي: اللهمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»[2] وقالَ للصِّدِّيقِ - رَضِيَ الله عنهُ - وقدْ سألَهُ أن

---

(١) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٤٧١٢)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الدَّعَواتِ / بابُ ما يقولُ إذا قامَ من المَجلسِ (٣٤٣٤)، وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ / بابٌ في الاستغفارِ (١٥١٦)، وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ الأدبِ / بابُ الاستغفارِ (٣٨١٤) من طُرقٍ عن مالكِ بنِ مِغْوَلٍ، عن مُحَمَّدِ بنِ سُوقَةَ، عن نافعٍ، عن ابنِ عُمَرَ رضيَ اللهُ عنهُما.

(٢) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٢٥٦٨٣، ٢٥٢١٣، ٢٤٩٧٧، ٢٤٩٦٩، ٢٤٩٦٧، ٢٤٨٥٦)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الدَّعَواتِ / بابُ (٨٤)، الحديثُ رقْمُ (٣٥١٣)، وقالَ: هذا حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

يُعَلِّمُهُ دُعاءً يَدْعُو بِهِ في صَلاتِهِ قُل: «اللهمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْماً كَثِيراً وَلا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»[(١)]؛ وهذا كثيرٌ قدْ ذكرناهُ في كتابِ الرُّوحِ والنَّفْسِ...

فلَمَّا كانَ المطلوبَ للرسولِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ حَمْدٌ ومَجْدٌ بصلاةِ اللهِ عليهِ ختَمَ هذا السؤالَ باسْمَيِ «الحميدِ» و«المجيدِ».

وأيضاً فإنَّهُ لَمَّا كانَ المطلوبَ للرسولِ حَمْدٌ ومَجْدٌ، وكان ذلكَ حاصلاً لهُ خَتَمَ ذلكَ بالإخبارِ عنْ ثُبوتِ ذَيْنِكَ الوصفينِ للربِّ بطريقِ الأَوْلَى. وكلُّ كمالٍ في العبدِ غيرِ مُستلزمٍ للنقْصِ فالربُّ أَحَقُّ بِهِ.

وأيضاً فإنَّهُ لَمَّا طُلِبَ للرسولِ حَمْدٌ ومَجْدٌ بالصلاةِ عليهِ، وذلكَ يَستلزِمُ الثناءَ على مُرْسِلِهِ بالحمدِ والمَجْدِ، ليكونَ هذا الدعاءُ مُتَضَمِّناً لطَلَبِ الحمْدِ والمجْدِ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ، والإخبارِ عنْ ثُبوتِهِ للربِّ سبحانَهُ وتعالى).[(٢)]

[الغفورُ الوَدودُ]

(«الوَدودُ» مِنْ أسماءِ الربِّ تعالى، وفيهِ قولانِ:

أحدُهما: أنَّهُ المَودودُ. قالَ البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ في صَحيحِهِ: (الوَدودُ: الحبيبُ).

والثاني: أنَّهُ الوادُّ لعِبادِهِ. أي: المُحِبُّ لهم.

وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ الدعاءِ / بابُ الدعاءِ بالعفوِ والعافيةِ (٣٨٥٠) من حديثِ عَائِشَةَ رضيَ اللهُ عنها.

(١) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٨)، والبُخَارِيُّ في كتابِ صِفَةِ الصلاةِ / بابُ الدعاءِ قبلَ السلام (٨٣٤)، ومسلمٌ في كتابِ الذِّكرِ والدعاءِ / بابُ استحبابِ خَفْضِ الصوتِ بالذكرِ (٦٨٠٩)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الدَّعَواتِ / بابُ (٩٧)، الحديثُ (٣٥٣١)، والنَّسَائِيُّ في كتابِ السهْوِ / بابُ نوعٍ آخَرَ مِنَ الدعاءِ (١٣٠١)، وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ الدعاءِ / بابُ دعاءِ الرسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ.

(٢) جلاءُ الأفهامِ (١٦٤-١٦٧).

وقَرَنَهُ باسمِهِ «**الغفور**» إعلاماً بأنَّهُ يَغْفِرُ الذنْبَ، ويُحِبُّ التائبَ منهُ ويَوَدُّهُ...

وعلى القولِ الأوَّلِ: «**الوَدودُ**» في معنى [المودودِ]، يكونُ سِرُّ الاقترانِ - أي: اقترانِ «**الودودِ**» بـ «**الغفورِ**»- استدعاءَ مَوَدَّةِ العِبادِ لهُ ومَحبَّتِهم إيّاهُ باسمِ «**الغفورِ**»). [١]

[الغفورُ الرحيمُ]

([تَضَمَّنَ هذانِ الاسمانِ] صفتينِ تَقتضيانِ غايَةَ الإحسانِ إلى خَلْقِهِ وهما **الرحمةُ والمغفرةُ**، فيَجْلُبُ لهم الإحسانَ والنفْعَ على أَتَمِّ الوُجوهِ **برحمتِهِ**، ويَعفو عنْ زَلَّتِهم ويَهَبُ لهم ذنوبَهم ولا يُؤاخِذُهم بها **بِمَغفرتِه**)[٢]، (ومِنْ هنا يُعْلَمُ حكمةُ اقترانِ اسمِهِ «**الغفورِ**» باسمِهِ «**الرحيمِ**» في عامَّةِ القرآنِ). [٣]

[الرزاقُ ذو القوَّةِ المتينُ]

(وقالَ تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [الملك: ٢٠-٢١] فجَمَعَ سبحانَهُ بينَ النصْرِ والرزْقِ؛ فإنَّ العبدَ مُضْطَرٌّ إلى مَنْ يَدفعُ عنهُ عَدُوَّهُ بنَصْرِهِ، ويَجْلُبُ لهُ مَنافِعَهُ برِزْقِهِ، فلا بُدَّ لهُ مِنْ ناصرٍ ورازقٍ. واللهُ وَحْدَهُ هوَ الذي يَنْصُرُ ويَرزقُ؛ فهوَ **الرزاقُ ذو القوَّةِ المتينُ**.

ومِنْ كمالِ فِطنةِ العبدِ ومَعرفتِهِ: أن يَعلمَ أنَّهُ إذا مَسَّهُ اللهُ بسوءٍ لم يَرْفَعْهُ عنهُ غيرُهُ، وإذا نالَهُ بنعمةٍ لم يرزُقْهُ إيّاها سِواهُ.

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٢٩).

(٢) بَدائِعُ الفوائدِ (١/ ٨٠).

(٣) بَدائِعُ الفوائدِ (٢/ ١٧٨).

ويُذكَرُ أنَّ اللهَ تعالى أَوْحَى إلى بعضِ أنبيائِهِ: (أَدْرِكْ لي لَطيفَ الفِطنةِ وخَفِيَّ اللُّطْفِ، فإني أُحِبُّ ذلكَ. قال: يا رَبِّ وما لَطيفُ الفِطْنَةِ؟ قالَ: إن وَقَعَتْ عليكَ ذُبابةٌ فاعْلَمْ أَنِّي أنا أَوْقَعْتُها فاسْأَلْنِي أَرْفَعْها. قالَ: وما خَفِيُّ اللُّطْفِ؟ قالَ: إذا أَتَتْكَ حَبَّةٌ فاعْلَمْ أَنِّي أنا ذَكَرْتُكَ بها)، وقدْ قالَ تعالى عن السحَرَةِ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] فهوَ سُبحانَهُ وَحْدَهُ الذي يَكْفِي عَبدَهُ ويَنْصُرُهُ ويَرزقُهُ ويَكْلَؤُهُ).(١)

[الجليلُ الجميلُ، ذو الجلالِ والإكرامِ]

(لا رَيبَ أنَّ الحُبَّ والأُنْسَ المُجَرَّدَ عن الإجلالِ والتعظيمِ يَبْسُطُ النفْسَ، ويَحْمِلُها على بعضِ الدَّعَاوي والرُّعوناتِ والأمانِيِّ الباطلةِ وإساءةِ الأدَبِ والجِنايَةِ على حَقِّ المَحبَّةِ. فإذا قارَنَ المحبَّةَ مَهابةُ المحبوبِ وإجلالُهُ وتعظيمُهُ وشُهودُ عِزِّ جَلالِهِ وعظيمِ سُلطانِهِ، انْكَسَرَتْ نفسُهُ لهُ وذَلَّتْ لعَظمتِهِ واستكانَتْ لعِزَّتِهِ وتَصاغَرَتْ لجَلالِهِ وصَفَتْ مِنْ رُعوناتِ النفْسِ وحَماقاتِها ودَعاوِيها الباطلةِ وأمانِيِّها الكاذبةِ.

ولهذا في الحديثِ يقولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: «أينَ المُتَحَابُّون بجَلالي؟ اليومَ أُظِلُّهُمْ في ظِلِّي يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلِّي»(٢)، فقالَ: «أَيْنَ المُتَحَابُّونَ بِجَلالِي» فهوَ حُبٌّ بجلالِهِ سُبحانَهُ وتعظيمِهِ ومَهابتِهِ، ليسَ حُبًّا لمُجَرَّدِ جمالِهِ، فإنَّهُ سُبحانَهُ «**الجليلُ الجميلُ**»، والحبُّ الناشئُ عنْ شُهودِ هذينِ الوصفينِ هوَ الحُبُّ النافعُ الموجِبُ لكونِهِم في ظِلِّ عَرْشِهِ يومَ القِيامةِ.

---

(١) إغاثةُ اللهفانِ (١/ ٥٤).

(٢) رواه الإمامُ مالكٌ في كتابِ الشِّعْرِ / بابُ ما جاءَ في المُتحابِّينَ في اللهِ، والإمامُ أحمدُ (٧١٩٠، ٨٢٥٠، ٨٦١٤)، ومسلمٌ في كتابِ البِرِّ والصِّلَةِ / بابُ فَضلِ الحُبِّ في اللهِ (٦٤٩٤) من حديثِ عبدِ الرحمنِ بنِ مَعْمَرٍ، عن سعيدِ بنِ يَسارٍ، عن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنه.

فشهودُ الجلالِ وحدَهُ يُوجِبُ خَوْفاً وخَشيَةً وانْكِساراً، وشهودُ الجمالِ وحدَهُ يُوجِبُ حُبًّا بانبساطٍ وإدلالٍ ورُعونةٍ، وشهودُ الوَصْفَيْنِ معاً يُوجِبُ حُبًّا مَقروناً بتعظيمٍ وإجلالٍ ومهابةٍ، وهذا هوَ غايَةُ كمالِ العبدِ. واللهُ أَعلمُ).[1]

[الضارُّ النافعُ]

([مِن] أسمائِهِ تعالى... **الضارُّ النافعُ**)[2] ([وهو] مِنْ... الأسماءِ المزدوجةِ كالمُعِزِّ المذِلِّ، والخافضِ الرافعِ، والقابضِ الباسطِ، والمُعْطِي المانعِ).[3]

(و[ذلك] إعلاماً بأنَّ الضررَ والنفْعَ بيدِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، فإن شاءَ أن يَضُرَّ عَبْدَهُ ضَرَّهُ، وإن شاءَ أن يَصْرِفَ عنهُ الضُّرَّ صَرَفَهُ، بلْ إن شاءَ أن يَنفعَهُ بما هوَ مِنْ أسبابِ الضَّرَرِ، ويَضُرَّهُ بما هوَ مِنْ أسبابِ النفْعِ فَعَلَ؛ لِيَتبيَّنَ العِبادُ أنَّهُ وَحْدَهُ **الضارُّ النافعُ**، وأنَّ أسبابَ الضُّرِّ والنفعِ بيَدَيْهِ، وهوَ الذي جَعلَها أَسباباً، وإن [شاءَ] خلَعَ منها سَبَبِيَّتَها، وإن شاءَ جَعلَ ما تَقتضيهِ بخِلافِ المعهودِ منها، ليُعْلَمَ أنَّهُ الفاعلُ المختارُ، وأنَّهُ لا يَضُرُّ شيءٌ ولا يَنفعُ إلاَّ بإذنِهِ، وأنَّ التوكُّلَ عليهِ والثقةَ بهِ تُحيلُ الأسبابَ المكروهةَ إلى خِلافِ مُوجَباتِها، وتَتبيَّنُ مَرْتَبَتُها، وأنَّها مَحالُّ لِمَجارِي مَشيئةِ اللهِ وحِكمتِهِ، وأنَّهُ سُبحانَهُ هوَ الذي يَضُرُّ بها ويَنفعُ، ليسَ إليها ولا لها مِن الأمرِ شيءٌ وأنَّ الأمرَ كلَّهُ للهِ).[4]

---

(١) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (٣٠٠).

(٢) بَدائِعُ الفوائدِ (١/ ١٦٧).

(٣) شِفاءُ العَليلِ (٢/ ١٥١).

(٤) مفتاحُ دارِ السَّعادةِ (٣/ ٣٨٦).

البابُ الحادي والعشرونَ: في ذكرِ بعضِ القواعدِ والفوائدِ المُهِمَّةِ في بابِ الأسماءِ والصفاتِ

(ما يَجْرِي صِفةً أوْ خَبَراً على الربِّ تَبَارَكَ وتعالى أَقسامٌ:

- أحدُها: ما يَرْجِعُ إلى نفْسِ الذاتِ كقولِكَ: ذاتٌ، ومَوجودٌ، وشَيْءٌ.

- الثاني: ما يَرجعُ إلى صفاتٍ مَعنويَّةٍ كالعليمِ والقديرِ والسميعِ.

- الثالثُ: ما يَرجِعُ إلى أفعالِهِ نحوَ الخالقِ والرزَّاقِ.

- الرابعُ: ما يَرجِعُ إلى التنـزيهِ المُحْضِ ولا بُدَّ مِنْ تَضَمُّنِهِ ثُبُوتاً؛ إذ لا كَمالَ في العدَمِ المُحْضِ كالقدوسِ، السَّلامِ.

- الخامسُ: ولم يَذْكُرْهُ أكثرُ الناسِ وهوَ الاسمُ الدالُّ على جُملةِ أوصافٍ عديدةٍ لا تَخْتَصُّ بِصِفَةٍ مُعَيَّنَةٍ، بلْ هوَ دَالٌّ على [جُملةِ] معناهُ لا على مَعنًى مُفْرَدٍ نحوَ: **المجيدِ، العظيمِ، الصمَدِ**؛ فإنَّ «المُجيدَ» مَن اتَّصَفَ بِصِفاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ صفاتِ الكمالِ، ولَفْظُهُ يَدُلُّ على هذا، فإنَّهُ موضوعٌ للسَّعَةِ والكثرةِ والزيادةِ فمنهُ: «اسْتَمْجَدَ المَرْخُ والعفَارُ»، و«أَمْجَدَ النَّاقَةَ عَلَفاً»، ومنهُ: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥﴾ [البروج: ١٥] صِفةٌ للعَرْشِ لسَعتِهِ وعِظَمِهِ وشَرَفِهِ.

وَتَأَمَّلْ كيفَ جاءَ هذا الاسمُ مُقْتَرِناً بطلَبِ الصلاةِ مِن اللهِ على رَسولِهِ كما عَلَّمَناهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ؛ لأنَّهُ في مَقامِ طَلَبِ المزيدِ والتعرُّضِ لسَعَةِ العطاءِ وكَثرتِهِ ودَوامِهِ، فأَتَى في هذا المطلوبِ باسمٍ يَقتضِيهِ، كما تقولُ: اغْفِرْ لي وارْحَمْني إنكَ أنتَ الغفورُ الرحيمُ، ولا يَحْسُنُ: إنكَ أنتَ السميعُ البصيرُ

فهوَ راجعٌ إلى المُتوسَّلِ إليهِ بأسمائِهِ وصفاتِهِ، وهوَ مِنْ أَقْرَبِ الوسائلِ وأَحَبِّها إليهِ. ((وقدْ قَرَّرْنَا في مَواضِعَ مُتعدِّدَةٍ أنَّ اللهَ سبحانَهُ يُدْعَى بأسمائِهِ الحُسْنى فيُسألُ لكلِّ مطلوبٍ باسمٍ يُناسبُهُ ويَقتضيهِ)) [١] (و... الداعي يُشْرَعُ لهُ أن يَخْتِمَ دعاءَهُ باسمٍ مِن الأسماءِ الحُسنى مُناسِبٍ لِمَطلوبِهِ أوْ يَفْتَحَ دُعاءَهُ بهِ. و... هذا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] قالَ سُليمانُ عليهِ السلامُ في دُعائِهِ لرَبِّهِ: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾ [ص: ٣٥] وقالَ الخليلُ وابنُهُ إسماعيلُ في دُعائِهما ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾ [البقرة: ١٢٨] وكانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ يقولُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ» مائةَ مَرَّةٍ في مَجْلِسِهِ[٢]، وقالَ لعائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها وقدْ سَأَلَتْهُ: **إنْ وافقْتُ ليلةَ القَدْرِ مَا أَدْعُو بِهِ؟ قالَ:** «قولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فاعْفُ عَنِّي»[٣] وقالَ للصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عنهُ وقدْ سألَهُ أن يُعلِّمَهُ دُعاءً يَدْعُو بِهِ في صلاتِهِ: «قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْماً كَثِيراً وَلا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»[٤])[٥] ومنهُ الحديثُ الذي في المُسْنَدِ والتِّرمذيِّ: «أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ»[٦] ومنهُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ» [٧] فهذا سؤالٌ لهُ وتَوسُّلٌ إليهِ

---

(١) بَدائِعُ الفَوائِدِ (٢/ ٢٠٤).

(٢) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٣١٣.

(٣) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٣١٣.

(٤) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٣١٤.

(٥) جلاءُ الأَفْهامِ (١٦٦).

(٦) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٣١٢.

(٧) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ١٢٥.

بحمْدِهِ، وأنَّهُ الذي لا إلهَ إلاَّ هوَ المَنَّانُ، فهوَ توسُّلٌ إليهِ بأسمائِهِ وصفاتِهِ، وما أَحَقَّ ذلكَ بالإجابةِ وأعظمَهُ مَوْقِعاً عندَ المسئولِ. وهذا بابٌ عظيمٌ مِنْ أبوابِ التوحيدِ أَشَرْنَا إليهِ إشارةً، وقدْ فُتِحَ لِمَنْ بَصَّرَهُ اللهُ.

وَلْنَرْجِعْ إلى المقصودِ وهوَ وَصْفُهُ تعالى بالاسمِ المُتَضَمِّنِ لصفاتٍ عديدةٍ، فـ «**العظيمُ**» مَن اتَّصَفَ بصفاتٍ كثيرةٍ مِنْ صفاتِ الكمالِ. وكذلكَ «**الصَّمَدُ**» قالَ ابنُ عباسٍ: هوَ السيِّدُ الذي كَمُلَ في سُؤْدَدِهِ، وقالَ ابنُ وائلٍ: هوَ السيِّدُ الذي انتهى سُؤْدَدُهُ، وقالَ عِكرمةُ: الذي ليسَ فوقَهُ أَحَدٌ، وكذلكَ قالَ الزَّجَّاجُ: الذي يَنْتَهِي إليهِ السُّؤْدَدُ فقدْ صَمَدَ لهُ كلُّ شيءٍ. وقالَ ابنُ الأنباريِّ: لا خِلافَ بينَ أهلِ اللغةِ أنَّ «**الصمَدَ**» السيِّدُ الذي ليسَ فوقَهُ أحَدٌ، الذي يَصْمُدُ إليهِ الناسُ في حوائجِهم وأمورِهم.

واشتقاقُهُ يَدُلُّ على هذا فإنَّهُ مِن الجمْعِ والقصْدِ، الذي اجْتَمَعَ القصْدُ نحوَهُ واجتمَعَتْ فيهِ صِفاتُ السؤدَدِ، وهذا أصلُهُ في اللغةِ كما قالَ:

ألا بَكَّـرَ الناعِـي بِخَـيْرِ بنـي أَسَـدْ ... بعمرِو بـنِ يَربوعٍ وبالسـيِّدِ الصمَدْ

والعربُ تُسَمِّي أشرافَها بالصمَدِ لاجتماعِ قَصْدِ القاصِدِينَ إليهِ، واجتماعِ صفاتِ السيادةِ فيهِ.

– السادسُ: صفةٌ تَحْصُلُ مِن اقترانِ أَحَدِ الاسْمَيْنِ والوَصْفَيْنِ بالآخَرِ، وذلكَ قَدْرٌ زائدٌ على مُفْرَدَيْهِمَا نحوَ: الغنيُّ الحميدُ، العفُوُّ القديرُ، الحميدُ المجيدُ، وهكذا عامَّةُ الصِّفَاتِ المقترِنَةِ والأسماءِ المزدَوِجَةِ في القرآنِ، فإنَّ الغِنَى صِفةُ كمالٍ، والحمدَ كذلكَ، واجتماعُ الغِنَى معَ الحمْدِ كمالٌ آخَرُ، فلهُ ثَناءٌ مِنْ غِناهُ، وثَناءٌ مِنْ حَمْدِهِ، وثناءٌ مِن اجتماعِهما، وكذلكَ العفوُّ القديرُ، والحميدُ المجيدُ، والعزيزُ الحكيمُ، فتَأَمَّلْهُ فإنَّهُ مِنْ أَشْرَفِ المعارِفِ).[1]

(١) بَدائِعُ الفَوائِدِ (١/ ١٥٩-١٦١).

[فَصْلٌ]

(ويَجِبُ أن يُعْلَمَ هنا أُمورٌ:

[أحدُها]: (أنَّ أسماءَهُ الْحُسْنَى لها اعتبارانِ:

- اعتبارٌ مِنْ حيثُ الذاتُ.
- **واعتبارٌ مِنْ حيثُ الصِّفَاتُ.**

فهيَ بالاعتبارِ الأوَّلِ مُترادِفَةٌ، وبالاعتبارِ الثاني مُتبايِنَةٌ). [(١)]

[الثاني]: (أنَّ ما يَدخُلُ في بابِ الإخبارِ عنهُ - تعالى - أَوْسَعُ مِمَّا يَدْخُلُ في بابِ أسمائِهِ وصِفاتِهِ، كالشيءِ الموجودِ والقائمِ بنفسِهِ فإنَّهُ يُخْبَرُ بِهِ عنهُ، ولا يَدخُلُ في أسمائِهِ الْحُسْنَى وصفاتِهِ العُلْيَا). [(٢)]

[الثالثُ]: (أنَّ ما يُطْلَقُ عليهِ في بابِ الأسماءِ والصفاتِ تَوْقِيفِيٌّ، وما يُطْلَقُ عليهِ مِن الإخبارِ لا يَجِبُ أن يكونَ تَوْقِيفِيًّا كالقديمِ والشيءِ والموجودِ والقائمِ بنفسِهِ. فهذا فصْلُ الخطابِ في مسألةِ أسمائِهِ هلْ هيَ توقيفيَّةٌ أَوْ يَجوزُ أن يُطْلَقَ عليهِ منها بعضُ ما لم يَرِدْ بِهِ السمْعُ)[(٣)].

---

(١) بَدائِعُ الفَوائِدِ (١/ ١٦٢).

وقال -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جلاءِ الأفهامِ (٩١): (وقد اختلَفَ النُّظَّارُ في هذه الأسماءِ هل هي متباينةٌ نَظَرًا إلى تبايُنِ مَعانيها وأنَّ كلَّ اسمٍ يَدُلُّ على معنًى غيرِ ما يَدُلُّ عليه الآخَرُ أم هي مترادفةٌ لأنها تدُلُّ على ذاتٍ واحدةٍ فمَدْلُولُها لا تَعَدُّدَ فيه، وهذا شأنُ المُترادِفاتِ؟ والنزاعُ لفظيٌّ في ذلك. والتحقيقُ أن يُقالَ: هي مترادفةٌ بالنظرِ إلى الذاتِ مُتباينةٌ بالنظرِ إلى الصفاتِ، وكلُّ اسمٍ منها يَدُلُّ على الذاتِ الموصوفةِ بتلك الصفةِ بالمُطابَقةِ، وعلى أحدِهما وَحْدَهُ بالتضمُّنِ، وعلى الصِّفَةِ الأُخْرَى بالالتزامِ).

(٢) وقالَ رَحِمَهُ اللهُ في مَدارِجِ السَّالِكِينَ (٣/ ٣٨٤): (وكذلك بابُ الإخبارِ عنهُ بالاسمِ أَوْسَعُ مِنْ تَسْمِيَتِهِ بِهِ. فإنَّهُ يُخْبَرُ عَنْهُ «شَيْءٌ ومَوْجُودٌ، ومَذْكُورٌ، ومَعْلُومٌ، ومُرادٌ» لا يُسَمَّى بذلك).

(٣) بَدائِعُ الفَوائِدِ (١/ ١٦٢).

[الرابعُ]: (أنَّ الصفةَ إذا كانت مُنقسِمَةً إلى كمالٍ ونَقْصٍ لم تَدْخُلْ بِمُطْلَقِها في أسمائِهِ، بلْ يُطْلَقُ عليهِ منها كمالُها، وهذا كالمريدِ والفاعلِ والصانعِ، فإنَّ هذهِ الألفاظَ لا تَدخلُ في أسمائِهِ، ولهذا غَلِطَ مَنْ سَمَّاهُ بالصانعِ عندَ الإطلاقِ، بلْ هوَ الفَعَّالُ لِمَا يُريدُ؛ فإنَّ الإرادةَ والفعلَ والصنعَ مُنقسِمَةٌ، ولهذا إنَّما أَطْلَقَ على نفسِهِ مِنْ ذلكَ أكملَهُ فِعْلاً وَخَبَراً).[1]

[الخامسُ]: (أنَّهُ لا يَلْزَمُ مِن الإخبارِ عنهُ بالفعْلِ مُقَيَّداً أن يُشْتَقَّ لهُ منهُ اسمٌ مُطْلَقٌ كما غَلِطَ فيهِ بعضُ المتأخِّرينَ، فجَعَلَ مِنْ أسمائِهِ الحُسْنَى: المُضِلَّ، الفاتنَ، الماكرَ، تعالى اللهُ عنْ قولِهِ؛ فإنَّ هذهِ الأسماءَ لم يُطْلَقْ عليهِ سبحانَهُ منها إلاَّ أفعالٌ مَخصوصةٌ مُعَيَّنَةٌ، فلا يجوزُ أن يُسَمَّى بأسمائِها المطلقَةِ، واللهُ أعلمُ).[2]

[السادسُ]: ([أنَّ] اللهَ تعالى لم يَصِفْ نفسَهُ بالكيدِ والمكْرِ والخداعِ والاستهزاءِ مُطْلَقاً، ولا ذلكَ داخلٌ في أسمائِهِ الحُسْنَى، ومَنْ ظَنَّ من الجُهَّالِ المُصنِّفِينَ في شَرْحِ الأسماءِ الحُسْنَى أنَّ مِنْ أسمائِهِ الماكرَ المخادعَ المستهزئَ الكائدَ فقدْ فَاهَ بأمرٍ عظيمٍ تَقْشَعِرُّ منهُ الجلودُ، وتَكادُ الأسماعُ تُصَمُّ عندَ سماعِهِ، وغَرَّ هذا الجاهلَ أنَّهُ سُبحانَهُ وتعالى أَطْلَقَ على نفسِهِ هذهِ الأفعالَ فاشتَقَّ لهُ منها أسماءً - وأسماؤُهُ كلُّها حُسْنَى - فأَدْخَلَها في الأسماءِ الحُسْنَى، وأَدْخَلَها وقَرَنَها بالرحيمِ الودودِ الحكيمِ الكريمِ. وهذا جَهْلٌ عظيمٌ؛ فإنَّ هذهِ الأفعالَ ليستْ ممدوحةً مُطْلَقاً، بلْ تُمْدَحُ في مَوضعٍ وتُذَمُّ في مَوضعٍ، فلا يَجوزُ إطلاقُ أفعالِها على اللهِ مُطْلَقاً، فلا يُقالُ: إنَّهُ تعالى يَمْكُرُ ويُخادِعُ ويَستهزئُ ويَكيدُ، فكذلكَ

(١) بَدائِعُ الفَوائِدِ (١/ ١٦١).

(٢) بَدائِعُ الفَوائِدِ (١/ ١٦٢).

وقال -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في مَدارجِ السَّالكِينَ (٣/ ٣٨٣): (وقد أَخْطأَ أَقْبَحَ خَطأٍ مَنِ اشْتَقَّ له مِنْ كُلِّ فِعْلٍ اسمًا.

وبلَغَ بأَسمائِهِ زِيادةً على الألْفِ. فسَمَّاهُ (المَاكِرَ، والمُخادِعَ، والفَاتِنَ، والكَائِدَ) ونحوَ ذلك).

بطريقِ الأَوْلَى لا يُشْتَقُّ لهُ منها أسماءٌ يُسَمَّى بها، بلْ إذا كانَ لَمْ يَأْتِ في أسمائِهِ الحُسْنَى المُريدُ ولا المتكلِّمُ ولا الفاعلُ ولا الصانعُ؛ لأن مُسمَّيَاتِها تَنقسمُ إلى ممدوحٍ ومَذمومٍ، وإنَّما يُوصَفُ بالأنواعِ المحمودةِ منها كالحليمِ والحكيمِ والعزيزِ والفعَّالِ لِمَا يُريدُ، فكيفَ يكونُ منها الماكرُ المخادعُ المُستهزِئُ.

ثُمَّ يَلْزَمُ هذا الغالطَ أن يَجْعَلَ مِنْ أسمائِهِ الحُسْنى الداعيَ والآتيَ والجائيَ والذاهِبَ والقادمَ والرائدَ والناسِيَ والقاسمَ والساخطَ والغضبانَ واللاعنَ، إلى أضعافِ ذلكَ مِن الأسماءِ التي أَطْلَقَ على نفسِهِ أفعالَهَا في القرآنِ، وهذا لا يَقولُهُ مُسلمٌ ولا عاقلٌ.

والمقصودُ أنَّ اللهَ سُبحانَهُ لم يَصِفْ نفسَهُ بالكيدِ والمكْرِ والخِداعِ إلاَّ على وجهِ الجزاءِ لِمَنْ فَعَلَ ذلك بغيرِ حَقٍّ، وقدْ عُلِمَ أنَّ المجازاةَ على ذلكَ حسنةٌ مِن المخلوقِ، فكيفَ مِن الخالقِ سُبحانَهُ).[1]

([و]لا رَيبَ أنَّ هذهِ المعانيَ يُذَمُّ بها كثيراً، فيُقالُ: فلانٌ صاحبُ مَكرٍ وخِداعٍ وكَيْدٍ واستهزاءٍ، ولا تَكادُ تُطلَقُ على سبيلِ المدْحِ، بخِلافِ أَضْدَادِها، وهذا هوَ الذي غَرَّ مَنْ جعَلَها مجازاً في حقِّ مَنْ يَتعالى ويَتقدَّسُ عنْ كلِّ عَيبٍ وذَمٍّ.

والصوابُ أنَّ معانِيَها تَنقسِمُ إلى محمودٍ ومذمومٍ؛ فالمذمومُ منها يَرجِعُ إلى الظلْمِ والكذِبِ؛ فما يُذَمُّ منها إنَّما يُذَمُّ لكونِهِ مُتَضَمِّناً للكذِبِ أو الظلْمِ أوْ لهما جَميعاً، وهذا هوَ الذي ذَمَّهُ اللهُ تعالى لأهلِهِ:

- كما في قولِهِ تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة:٩] فإنَّهُ ذكَرَ هذا عقِيبَ قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ٨﴾ [البقرة: ٨] فكانَ هذا القولُ منهم كَذِباً وظُلْماً في حَقِّ التوحيدِ والإيمانِ بالرسولِ واتِّباعِهِ.

(١) مُختَصَرُ الصواعِقِ المُرسلَةِ (٢٥٠)

- وكذلك قولُهُ: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ الآيَة [النحل: ٤٥].

- وقولُهُ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

- وقولُهُ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ [النمل: ٥٠ - ٥١].

فلمَّا كانَ غالبُ استعمالِ هذهِ الألفاظِ في **المعاني المذمومةِ** ظَنَّ المُعطِّلُونَ أنَّ ذلكَ هوَ حقيقتُها، فإذا أُطلِقَتْ لغيرِ الذمِّ كانَ مجازاً، والحقُّ خِلافُ هذا الظنِّ، وأنَّها **مُنقسِمَةٌ إلى محمودٍ ومَذمومٍ**:

- فما كانَ منها مُتَضَمِّناً للكذِبِ والظلْمِ فهوَ مذمومٌ.

- وما كانَ منها بحقٍّ وعَدْلٍ ومُجازاةٍ على القبيحِ فهوَ حَسَنٌ محمودٌ؛ فإنَّ المخادِعَ إذا خادَعَ بباطلٍ وظُلْمٍ حَسُنَ مِنَ المُجَازِي لَهُ أن يَخْدَعَهُ بِحقٍّ وعَدْلٍ، وذلكَ إذا مَكَرَ واسْتَهْزَأَ ظالماً مُتَعدِّياً كانَ المَكْرُ بِهِ والاستهزاءُ عَدْلاً حَسَناً كما فَعَلَهُ الصحابةُ بكَعْبِ بنِ الأشرفِ وابنِ أبي الحُقَيْقِ وأبي رافعٍ وغيرِهم مِمَّنْ كانَ يُعادِي رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ فخادَعُوهُ حتَّى كَفَوْا شَرَّهُ وأَذاهُ بالقتْلِ، وكان هذا الخِداعُ والمكْرُ نُصرةً للهِ ورسولِهِ.

وكذلكَ ما خَدَعَ بِهِ نُعَيْمُ بنُ مَسعودٍ المشركِينَ عامَ الخَنْدَقِ حتَّى انْصَرَفُوا.

وكذلكَ خِداعُ الحَجَّاجِ بنِ عِلاطٍ لامرأتِهِ وأهلِ مَكَّةَ حتَّى أَخذَ مالَهُ.

وقدْ قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «**الحَرْبُ خَدْعَةٌ**».

وجَزاءُ المُسيءِ بِمِثلِ إساءَتِهِ جائزٌ في جميعِ المِلَلِ، مُسْتَحْسَنٌ في جميعِ العقولِ. ولهذا كادَ سُبحانَهُ ليُوسفَ حينَ أَظهرَ لإخوتِهِ ما أَبْطَنَ خِلافَهُ، جزاءً لهم على كيدِهم لهُ معَ أبيهِ حيث أَظْهَرُوا لهُ أمراً وأَبْطَنُوا خِلافَهُ، فكان هذا مِنْ أَعدَلِ الكيدِ، فإنَّ إخوتَهُ فَعلُوا بهِ مِثلَ ذلكَ حتَّى فَرَّقُوا بينَهُ وبينَ أبيهِ، وادَّعَوْا أنَّ

الذئبَ أَكَلَهُ، ففرَّقَ بينَهم وبينَ أخيهم بإظهارِ أَنَّهُ سَرَقَ الصُّواعَ، ولم يكنْ ظَالِماً لهم بذلكَ الكيدِ، حيث كانَ مقابَلَةً ومُجازاةً، ولم يكنْ أيضاً ظالِماً لأخيهِ الذي لم يَكِدْهُ بلْ كانَ إحساناً إليهِ وإكراماً لهُ في الباطنِ، وإن كانتْ طُرُقُ ذلكَ مُسْتَهْجَنَةً، لكن لَمَّا ظَهَرَ بالآخِرةِ بَراءتُهُ ونَـزاهتُهُ مِمَّا قَذَفَهُ بهِ، وكان ذلكَ سبباً في اتِّصالِهِ بيُوسُفَ واختصاصِهِ بهِ، لم يكنْ في ذلكَ ضَرَرٌ عليهِ، يَبْقَى أن يُقالَ: وقدْ تَضمَّنَ هذا الكيدُ إيذاءَ أبيهِ وتَعريضَهُ لألَمِ الحُزْنِ على حُزْنِهِ السابقِ، فأيُّ مَصلحةٍ كانت ليَعقوبَ في ذلكَ؟

فيقالُ: هذا مِن امتحانِ اللهِ تعالى لهُ، ويُوسفُ إِنَّما فَعَلَ ذلكَ بالوحيِ، واللهُ تعالى لَمَّا أرادَ كرامتَهُ كَمَّلَ لهُ مَرْتَبَةَ المِحْنَةِ والبَلْوَى لِيَصْبِرَ فينالَ الدرجةَ التي لا يَصِلُ إليها إلاَّ على حَسَبِ الابتلاءِ، ولوْ لم يكنْ في ذلكَ إلاَّ تكميلُ فَرَحِهِ وسرورِهِ باجتماعِ شَمْلِهِ بحبيبِهِ بعدَ الفِراقِ، وهذا مِنْ كمالِ إحسانِ الربِّ تعالى؛ أن يُذيقَ عبدَهُ مَرارةَ الكَسْرِ قبلَ حَلاوةِ الجبْرِ، ويُعَرِّفَهُ قَدْرَ نِعمتِهِ عليهِ بأن يَبتليَهُ بضِدِّهَا. كما أَنَّهُ سُبحانَهُ وتعالى لَمَّا أرادَ أن يُكَمِّلَ لآدمَ نَعيمَ الجَنَّةِ أذاقَهُ مَرارةَ خُروجِهِ منها، ومُقاساةَ هذهِ الدارِ المزوجِ رَخاؤُها بشِدَّتِها، فما كَسَرَ عَبْدَهُ المؤمنَ إلاَّ لِيَجْبُرَهُ، ولا مَنَعَهُ إلاَّ لِيُعْطِيَهُ، ولا ابتلاهُ إلاَّ ليُعافِيَهُ، ولا أَماتَهُ إلاَّ ليُحْيِيَهُ، ولا نَغَّصَ عليهِ الدنيا إلاَّ لِيُرَغِّبَهُ في الآخِرةِ، ولا ابتلاهُ بِجَفاءِ الناسِ إلاَّ لِيَرُدَّهُ إليهِ.

فعُلِمَ أَنَّهُ لا يَجوزُ ذمُّ هذهِ الأفعالِ على الإطلاقِ، كما لا تُمْدَحُ على الإطلاقِ، والمكْرُ والكيدُ والخداعُ لا يُذَمُّ مِنْ جِهةِ العِلْمِ ولا مِنْ جِهةِ القُدرةِ، فإنَّ العِلْمَ والقدرةَ مِنْ صفاتِ الكمالِ، وإِنَّما يُذَمُّ ذلكَ مِنْ جِهةِ سوءِ القَصْدِ وفَسادِ الإرادةِ، وهوَ أنَّ الماكرَ المخادعَ يَجورُ ويَظلمُ بفِعْلِ ما ليسَ لهُ فِعْلُهُ أوْ تَرْكِ ما يَجِبُ عليهِ فِعْلُهُ).(١)

---

(١) مُختصَرُ الصواعِقِ المُرسلَةِ (٢٤٨-٢٥٠).

[السابعُ]: أنَّ أسماءَهُ تعالى:

- منها: **ما يُطْلَقُ عليهِ مُفْرَداً ومُقْتَرِناً بغيرِهِ**: وهوَ غالبُ الأسماءِ كالقديرِ والسميعِ والبصيرِ والعزيزِ والحكيمِ. وهذا يُسَوِّغُ أن يُدْعَى بِهِ مُفْرَداً ومُقْتَرِناً بغيرِهِ، فتقولُ: يا عزيزُ يا حليمُ يا غفورُ يا رحيمُ. وأن يُفْرَدَ كلُّ اسمٍ، وكذلكَ في الثناءِ عليهِ والخبرِ عنهُ بما يُسَوِّغُ لكَ الإفرادَ والجمْعَ.

- ومنها: **ما لا يُطْلَقُ عليهِ بِمُفردِهِ بلْ مَقروناً بِمُقَابِلِهِ**: كالمانِعِ والضارِّ والمنتقِمِ، فلا يَجوزُ أن يُفْرَدَ هذا عنْ مُقابِلِهِ فإنَّهُ مَقرونٌ بالْمُعْطِي والنافعِ والعفُوِّ، فهوَ المعطِي المانعُ، الضارُّ النافعُ، المنتقِمُ العفُوُّ، المعزُّ المذِلُّ؛ **لأنَّ الكمالَ في اقترانِ كلِّ اسمٍ مِنْ هذهِ بما يُقابِلُهُ**؛ لأنَّهُ يُرادُ بهِ أنَّهُ المنفرِدُ بالربوبيَّةِ وتدبيرِ الخلْقِ والتصَرُّفِ فيهِم عَطاءً ومَنْعاً ونَفْعاً وضَرًّا وعَفْواً وانتقاماً. وأمَّا أن يُثْنَى عليهِ بمُجَرَّدِ المنْعِ والانتقامِ والإضرارِ فلا يَسُوغُ.

فهذهِ الأسماءُ المزدوِجَةُ تَجْرِي الأسماءُ منها مَجْرَى الاسمِ الواحدِ الذي يَمْتَنِعُ فَصْلُ بعضِ حُروفِهِ عنْ بعضٍ، فهيَ - وإن تَعَدَّدَتْ - جاريَةٌ مَجْرَى الاسمِ الواحِدِ، ولذلكَ لم تَجِئْ مُفْرَدَةً، ولم تُطْلَقْ عليهِ إلاَّ مُقْتَرِنَةً، فاعْلَمْهُ.

فلوْ قُلتَ: يا مُذِلُّ يا ضَارُّ يا مانعُ، وأَخْبَرْتَ بذلكَ لم تكنْ مُثْنِياً عليهِ ولا حامداً لهُ حتَّى تَذْكُرَ مُقابِلَها)[1].

[الثامنُ]: ([أنَّ] أسماءَ الربِّ تعالى... أعلامٌ دالَّةٌ على مَعَانٍ هيَ بها أوصافٌ، فلا تُضادُّ فيها العَلَمِيَّةُ الوَصْفَ، بخِلافِ غيرِها مِنْ أسماءِ المخلوقينَ؛ فهوَ: اللهُ الخالقُ البارئُ المُصوِّرُ القَهَّارُ. فهذه أسماءٌ لهُ دَالَّةٌ على مَعَانٍ هيَ صفاتُهُ[2]...

(١) بَدائِعُ الفَوائِدِ (١/ ١٦٧).

(٢) وقال -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في القصيدةِ النُّونِيَّةِ (٢١٠- ٢١١):

و[مِمَّا يُبيِّنُ ذلك أنَّ]... أسماءَ الربِّ تعالى كلَّها أسماءُ مَدْحٍ، فلوْ كانت أَلْفَاظاً مُجرَّدةً، لا معانيَ لها لَمْ تَدُلَّ على المَدْحِ، وقدْ وَصَفَها اللهُ سُبحانَهُ بأنَّها حُسْنى كلَّها فقالَ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠] فهيَ لم تكنْ حُسْنَى لِمُجرَّدِ اللَّفظِ، بلْ لدَلالتِها على أوصافِ الكمالِ، ولهذا لَمَّا سَمِعَ بعضُ العربِ قَارِئاً يَقرأُ [المائدة: ٣٨]: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ - واللهُ غفورٌ رحيمٌ - قالَ: ليسَ هذا كلامَ اللهِ تعالى، فقالَ القارئُ: أَتُكَذِّبُ بِكَلامِ اللهِ تعالى؟ فقالَ: لا، ولكنْ ليسَ هذا بكلامِ اللهِ، فعادَ إلى حِفْظِهِ وقَرَأَ: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ فقالَ الأعرابيُّ: صَدَقْتَ، عَزَّ فَحَكَمَ فَقَطَعَ، وَلَوْ غَفَرَ وَرَحِمَ لَمَا قَطَعَ.

ولهذا إذا خُتِمَتْ آيَةُ الرحمةِ باسمِ عذابٍ أوْ بالعكسِ، ظَهَرَ تَنَافُرُ الكلامِ وعَدَمُ انتظامِهِ. وفي السُّنَنِ مِنْ حديثِ أُبَيِّ بنِ كعبٍ حديثُ: «قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ» ثُمَّ قالَ: «لَيْسَ مِنْهَا إلاَّ شَافٍ كَافٍ إِنْ قُلْتَ سَمِيعاً عَلِيماً عَزِيزاً حَكِيماً مَا لَمْ تَخْتِمْ آيَةَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ، أَوْ آيَةَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ»(١). ولوْ كانت هذهِ الأسماءُ أعلاماً مَحْضَةً لا مَعْنَى لها لم يكنْ فَرْقٌ بينَ خَتْمِ الآيَةِ بهذا أوْ بهذا.

(وَالْوَصْفُ مَعْنًى قَائِمٌ بِالذَّاتِ وَالْـ ... أَسْمَاءُ أَعْلَامٌ لَهُ بِوِزَانِ
أَسْمَاؤُهُ دَلَّتْ عَلَى أَوْصَافِهِ ... مُشْتَقَّةٌ مِنْهَا اشْتِقَاقَ مَعَانِ
وصِفَاتُهُ دَلَّتْ عَلَى أَسْمَائِهِ ... والفِعْلُ مُرْتَبِطٌ بِهِ الأَمْرَانِ
وَالْحُكْمُ نِسْبَتُهَا إِلَى مُتَعَلِّقَا ... تٍ تَقْتَضِي آثَارَهَا بِبَيَانِ
وَلَرُبَّمَا يَعْنِي بِهِ الإِخْبَارَ عَنْ ... آثَارِهَا يُعْنَى بِهِ أَمْرَانِ
والفِعْلُ إِعْطَاءُ الإِرَادَةِ حُكْمَهَا ... مَعَ قُدْرَةِ الأَفْعَالِ وَالإِمْكَانِ
فَإِذَا انْتَفَتْ أَوْصَافُهُ سُبْحَانَهُ ... فَجَمِيعُ هَذَا بَيِّنُ البُطْلَانِ)

(١) رواهُ الإمامُ أحمدُ (٢٠٦٤٦)، ومسلمٌ في صلاةِ المسافرينَ / بابُ بيانِ أنَّ القرآنَ على سَبْعَةِ أحرفٍ (١٩٠٣)، والنَّسائيُّ في كتابِ الصلاةِ / بابُ جامعِ ما جاءَ في القرآنِ (٩٣٨، ٩٣٩، ٩٤٠) بدون هذه الزيادةِ، وهي عند أبي داودَ في سُننِه في كتابِ الصلاةِ / بابُ: أُنْزِلَ القرآنُ على سَبْعَةِ أحرفٍ (١٤٧٨).

(([و] لوْ كانت ألفاظاً لا مَعانِيَ فيها لم تكنْ حُسْنَى، ولا كانتْ دَالَّةً على مَدْحٍ ولا كمالٍ. ولَسَاغَ وُقوعُ أسماءِ الانتقامِ والغضَبِ في مَقامِ الرحمةِ والإحسانِ، وبالعكسِ. فيقالُ: اللَّهمَّ إني ظَلمتُ نفسِي، فاغْفِرْ لي إنكَ أنتَ المنتقِمُ، واللَّهمَّ أَعْطِنِي، فإنكَ أنتَ الضارُّ المانعُ، ونحوَ ذلكَ)).[1]

– وأيضاً فإنَّهُ سبحانَهُ يُعَلِّلُ أحكامَهُ وأفعالَهُ بأسمائِهِ، ولوْ لم يكنْ لها معنًى لَمَا كانَ التعليلُ صحيحاً كقولِهِ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح: ١٠].[2]

(وفي هذا أَظهرُ الدَّلالةِ على أنَّ أسماءَ الربِّ تعالى مُشْتَقَّةٌ مِنْ أوصافٍ وَمَعَانٍ قامَتْ بهِ، وأنَّ كلَّ اسمٍ يُناسِبُ ما ذُكِرَ مَعَهُ، واقْتَرَنَ بِهِ، مِنْ فِعْلِهِ وَأَمْرِهِ).[3]

– (وأيضاً فإنَّهُ سُبحانَهُ يُسْتَدَلُّ بأسمائِهِ على توحيدِهِ ونَفْيِ الشريكِ عنهُ – ولوْ كانتْ أسماءً لا مَعْنَى لها لم تَدُلَّ على ذلكَ – كقولِ هارونَ لِعَبَدَةِ العِجْلِ: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [طه: ٩٠] وقولِهِ سُبحانَهُ في القِصَّةِ: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨] وقولِهِ تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣] وقولِهِ سُبحانَهُ في آخِرِ سُورةِ الحشْرِ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٢٢ – ٢٣] فسَبَّحَ نفسَهُ عنْ شِرْكِ المشركينَ بهِ عَقِبَ تَمَدُّحِهِ بأسمائِهِ الْحُسْنَى الْمُقْتَضِيَةِ لتوحيدِهِ واستحالةِ إثباتِ شريكٍ لهُ.

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٢).
(٢) جلاءُ الأَفْهامِ (٨٨).
(٣) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٦٠).

ومَنْ تَدَبَّرَ هذا المعنى في القرآنِ هَبَطَ بهِ على رِياضٍ مِن العلْمِ حَمَاهَا اللهُ عنْ كلِّ أَفَّاكٍ مُعْرِضٍ عنْ كتابِ اللهِ واقتباسِ الْهُدَى منهُ. ولوْ لم يكنْ في كتابِنا هذا إلاَّ هذا الفضْلُ وحدَهُ لكَفَى مَنْ لهُ ذَوقٌ ومَعرفةٌ، واللهُ الموَفِّقُ للصوابِ). [(١)]

- (وأيضاً: لوْ لم تكنْ أسماؤُهُ مُشتمِلَةً على مَعَانٍ وصِفَاتٍ لم يَسُغْ أن يُخْبَرَ عنهُ بأفعالِها. فلا يقالُ: يَسْمَعُ ويَرَى، ويَعْلَمُ ويُقَدِّرُ ويُرِيدُ. فإنَّ ثُبوتَ أحكامِ الصِّفَاتِ فرْعُ ثبوتِها. فإذا انْتَفَى أَصْلُ الصفةِ استحالَ ثُبوتُ حُكْمِها.

- وأيضاً فلوْ لم تكنْ أسماؤُهُ ذواتِ معانٍ وأوصافٍ لكانتْ جامدةً كالأعلامِ المْحضةِ التي لم تُوضَعْ لِمُسَمَّاهَا باعتبارِ معنًى قامَ بهِ. فكانتْ كلُّها سواءً، ولم يكنْ فرْقٌ بينَ مدلولاتِها. وهذا مكابَرَةٌ صريحةٌ، وبُهْتٌ بَيِّنٌ. فإنَّ مَنْ جعَلَ معنى اسمِ «**القديرِ**» هوَ معنى اسمِ «**السميعِ، البصيرِ**» ومعنى اسمِ «**التوَّابِ**» هوَ معنَى اسمِ «**المنتقِمِ**» ومعنى اسمِ «**المعطِي**» هوَ معنى اسمِ «**المانـعِ**» فقدْ كابَرَ العقلَ واللغةَ والفطرةَ). [(٢)]

- (وأيضاً فإنَّ اللهَ سُبحانَهُ يُعَلِّقُ بأسمائِهِ المعمولاتِ مِن الظروفِ والجارِّ والمجرورِ وغيرِهما، ولوْ كانتْ أعلاماً مَحْضَةً لم يَصِحَّ فيها ذلكَ كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٣٥﴾ [النور: ٣٥] ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ٤٧﴾ [التوبة: ٤٧]، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: ٦٣]، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١١٧﴾ [التوبة: ١١٧]، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾ [البقرة: ٢٨٤]، ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ١٩﴾ [البقرة: ١٩]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ٣٩﴾ [النساء: ٣٩]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ٤٥﴾ [الكهف: ٤٥]، ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١١﴾ [هود: ١١١]، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٨﴾ [الحجرات: ١٨]، ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ ٢٧﴾ [الشورى: ٢٧] ونظائرُهُ كثيرةٌ.

(١) جلاءُ الأفْهامِ (٩٠).

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٣).

- وأيضاً فإنَّهُ سبحانَهُ يَجعلُ أسماءَهُ دَليلاً على ما يُنكِرُهُ الجاحدونَ مِنْ صفاتِ كمالِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: ١٤]. (١)

[والمقصودُ] أنَّ أسماءَهُ الحُسْنَى... أعلامٌ وأوصافٌ، والوصفُ بها لا يُنافي العَلَمِيَّةَ بخلافِ أوصافِ العِبادِ فإنَّها تُنافي عَلَمِيَّتَهم؛ لأنَّ أوصافَهم مُشترِكَةٌ فنافَتْها العَلَمِيَّةُ المُخْتَصَّةُ بخلافِ أوصافِهِ تعالى.

[التاسعُ]: (أنَّ صفاتِ الربِّ جلَّ جلالُهُ داخلةٌ في مُسَمَّى اسمِهِ. فليسَ اسمُهُ «اللهُ، والربُّ، والإلهُ» أسماءً لذاتٍ مُجَرَّدةٍ لا صِفَةَ لها الْبَتَّةَ. فإنَّ هذهِ الذاتَ المُجَرَّدَةَ وُجودُها مستحيلٌ. وإنَّما يَفْرِضُها الذهْنُ فرْضَ المُمْتَنِعَاتِ. ثُمَّ يَحْكُمُ عليها. واسمُ «اللهِ» سُبحانَهُ «والربِّ، والإلهِ» اسمٌ لذاتٍ لها جميعُ صِفاتِ الكمالِ ونعوتِ الجلالِ، كالعلْمِ، والقُدرةِ، والحياةِ، والإرادةِ، والكلامِ، والسمعِ والبصرِ، والبقاءِ، والقِدَمِ، وسائرِ الكمالِ الذي يَسْتَحِقُّهُ اللهُ لذاتِهِ. فصفاتُهُ داخلةٌ في مُسَمَّى اسْمِهِ. فتجريدُ الصِّفَاتِ عن الذاتِ، والذاتِ عن الصِّفَاتِ: فرْضٌ وخيالٌ ذِهْنِيٌّ لا حقيقةَ لهُ، وهوَ أمْرٌ اعتباريٌّ لا فائدةَ فيهِ، ولا يَترتَّبُ عليهِ معرفةٌ ولا إيمانٌ، ولا هوَ عَلَمٌ في نفسِهِ. وبهذا أجابَ السلَفُ الجهميَّةَ لَمَّا اسْتَدَلُّوا على خَلْقِ القرآنِ بقولِهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢] قالوا: والقرآنُ شيءٌ.

فأجابَهم السلَفُ بأنَّ القرآنَ كلامُهُ، وكلامُهُ مِنْ صفاتِهِ، وصفاتُهُ داخلةٌ في مُسَمَّى اسمِهِ، كعِلْمِهِ وقُدرتِهِ وحياتِهِ وسَمْعِهِ وبصرِهِ ووَجهِهِ ويَدَيْهِ، فليسَ (اللهُ) اسماً لذاتٍ لا نعتَ لها ولا صفةَ ولا فعلَ ولا وجهَ ولا يدينِ. ذلكَ إلهٌ معدومٌ مَفروضٌ في الأذهانِ، لا وجودَ لهُ في الأعيانِ كإلهِ الجَهميَّةِ، الذي فَرَضوهُ غيرَ خارجٍ عن العالَمِ ولا داخلٍ فيهِ ولا مُتَّصِلٍ بهِ ولا مُنفصلٍ عنهُ ولا مُحَايِثٍ لهُ ولا مُبايِنٍ.

(١) جلاءُ الأفْهَامِ (٩٠-٩١).

وكإلهِ الفلاسفةِ الذي فَرضوهُ وُجوداً مُطْلَقاً لا يَتَخَصَّصُ بصفةٍ ولا نَعْتٍ ولا لهُ مَشيئةٌ ولا قُدرةٌ ولا إرادةٌ ولا كلامٌ.

وكإلهِ الاتحاديَّةِ الذي فَرضوهُ وُجوداً سارياً في الموجوداتِ ظاهراً فيها، هوَ عينُ وجودِها.

وكإلهِ النصارَى الذي فَرضوهُ قد اتَّخَذَ صاحبةً وولداً، وتَدرَّعَ بناسوتَ وَلَدِهِ، واتَّخَذَ منهُ حِجاباً.

فكلُّ هذهِ الآلهةِ ممَّا عَمِلَتْهُ أيدي أَفْكَارِها.

وإلهُ العالمينَ الحقُّ هوَ الذي دَعَتْ إليهِ الرسُلُ وعَرَفُوهُ بأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ فوقَ سماواتِهِ على عرشِهِ بائنٌ مِنْ خَلْقِهِ، موصوفٌ بكلِّ كمالٍ، منـزَّهٌ عنْ كلِّ نَقْصٍ، لا مِثالَ لهُ، ولا شريكَ، ولا ظهيرَ، ولا يَشفعُ عندَهُ أَحدٌ إلاَّ بإذنِهِ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣] غَنيٌّ بذاتِهِ عنْ كلِّ ما سِواهُ، وكلُّ ما سِواهُ فقيرٌ إليهِ بذاتِهِ).[١]

[العاشرُ]: (أنَّ أسماءَ الربِّ تَبارَكَ وتعالى دالَّةٌ على صفاتِ كمالِهِ، فهيَ مُشْتَقَّةٌ مِن الصِّفَاتِ، فهيَ أسماءٌ، وهيَ أوصافٌ، وبذلكَ كانتْ حُسْنَى)[٢] [فـ](الاسمُ إذا أُطْلِقَ عليهِ جازَ أن يُشْتَقَّ منهُ المصدَرُ والفعلُ، فيُخْبَرُ بِهِ عنهُ فِعْلاً ومَصدراً نحو: السميعِ البصيرِ القديرِ، يُطْلَقُ عليهِ منهُ السمْعُ والبصَرُ والقُدرةُ، ويُخْبَرُ عنهُ بالأفعالِ مِنْ ذلكَ نحوَ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ [المجادلة: ١]. ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ۝٢٣﴾ [المرسلات: ٢٣] هذا إن كانَ الفعلُ مُتَعَدِّياً. فإن كانَ لازماً لم يُخْبَرْ عنهُ بِهِ نحوَ الحيِّ، بلْ يُطْلَقُ عليهِ الاسمُ والمصدَرُ دونَ الفعْلِ فلا يقالُ: حَيِيَ).[٣]

---

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٣٣٧-٣٣٨).

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥١-٥٢).

(٣) بَدائِعُ الفَوائِدِ (١/ ١٦٢).

[الحاديَ عشرَ]: ([أنَّ] الربَّ - تعالى - يُشتقُّ لهُ مِنْ أوصافِهِ وأفعالِهِ أسماءٌ، ولا يُشْتقُّ لهُ مِنْ مخلوقاتِهِ. وكلُّ اسم مِنْ أسمائِهِ فهوَ مُشْتَقٌّ مِنْ صفةٍ مِنْ صفاتِهِ، أوْ فعلٍ قائم بهِ، فلوْ كانَ يُشتَقُّ لهُ اسمٌ باعتبارِ المخلوقِ المنفصِلِ [كان] يُسَمَّى مُتكوِّناً ومُتحرِّكاً وساكناً وطويلاً وأبيضَ وغيرَ ذلكَ؛ لأنَّهُ خالقُ هذهِ الصِّفَاتِ.

فلمَّا لم يُطْلَقْ عليهِ اسمٌ مِنْ ذلكَ معَ أنَّهُ خالقُهُ عُلِمَ أنَّهُ يَشْتَقُّ أسماءَهُ مِنْ أفعالِهِ وأوصافِهِ القائمةِ بهِ، وهوَ سُبحانَهُ لا يَتَّصِفُ بما هوَ مخلوقٌ منفصِلٌ عنهُ، ولا يَتَسَمَّى باسمِهِ.

ولهذا كانَ قولُ مَنْ قالَ: إنَّهُ يُسَمَّى مُتكَلِّماً بكلامٍ مُنفصِلٍ عنهُ وَخَلَقَهُ في غيرِهِ، ومُريداً بإرادةٍ منفصِلةٍ عنهُ، وعادلاً بِعَدْلٍ مخلوقٍ منفصلٍ عنهُ، وخالقاً بِخَلْقٍ منفصلٍ عنهُ هوَ المخلوقُ- قَوْلاً باطلاً مخالِفاً للعقْلِ والنقْلِ واللغةِ، معَ تناقُضِهِ في نفسِهِ. فإن اشتُقَّ لهُ اسمٌ باعتبارِ مخلوقاتِهِ لَزِمَ طَرْدُ ذلكَ في كلِّ صِفَةٍ أوْ فعلٍ خَلَقَهُ[1]، وإن خُصَّ ذلكَ ببعضِ الأفعالِ والصفاتِ دونَ بعضٍ كانَ تحكُّماً لا مَعْنَى لهُ.

وحقيقةُ قولِ هؤلاءِ أنَّهُ لم يَقُمْ بهِ عَدْلٌ ولا إحسانٌ ولا كلامٌ ولا إرادةٌ، ولا فِعْلٌ الْبَتَّةَ، ومَنْ تَجَهَّمَ منهم نَفَى حقائقَ الصِّفَاتِ، وقالَ: لم تَقُمْ بهِ صفةٌ ثُبوتيَّةٌ؛ فنَفَوْا صفاتِهِ ورَدُّوها إلى السُّلوبِ والإضافاتِ، ونَفَوْا أفعالَهُ ورَدُّوها إلى المصنوعاتِ المخلوقاتِ.

وحقيقةُ هذا أنَّ أسماءَهُ تعالى ألفاظٌ فارغةٌ عن المعاني لا حقائقَ لها، وهذا مِنَ الإلحادِ فيها، وإنكارِ أن تكونَ حُسْنَى وقدْ قالَ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

(١) هكذا في الأصلِ، ولعلَّ الصوابَ: أو فِعْلٌ من أفعالِ خَلْقِه.

وقدْ دَلَّ القرآنُ والسُّنَّةُ على إثباتِ مصادرِ هذهِ الأسماءِ لهُ سُبحانَهُ وَصْفاً كقولِهِ تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨] وقولِهِ: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤]. وقولِهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «**لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انتهى إليهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»[1]، وقولِ عائشةَ: «**الْحَمْدُ للهِ الذي وَسِعَ سمْعُهُ الأصواتَ**»[2]، وقولِهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ**».[3] وقولِهِ: «**أَسْأَلُكَ [بِعِلْمِكَ] الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ**»[4]، وقولِهِ: «**أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ أَنْ تُضِلَّنِي**»[5]، ولولا هذهِ المصادرُ لانْتَفَتْ حقائقُ الأسماءِ والصفاتِ والأفعالِ، فإنَّ أفعالَهُ غيرُ صفاتِهِ، وأسماءَهُ غيرُ صِفاتِهِ، فإذا لم يَقُمْ بِهِ فِعْلٌ ولا صفةٌ فلا معنى للاسمِ الْمُجَرَّدِ، وهوَ بمنـزلةِ صوتٍ لا يُفيدُ شيئاً، وهذا غايَةُ الإلحادِ).[6]

[الثانيَ عشرَ]: (أنَّ الاسمَ مِنْ أسمائِهِ تَبارَكَ وتعالى كما يَدُلُّ على الذاتِ والصفةِ التي اشْتُقَّ منها **بالمطابَقَةِ**. فإنَّهُ يَدُلُّ عليهِ دَلالتينِ أُخْرَيَيْنِ **بالتَّضَمُّنِ واللُّزُومِ**؛ فيَدُلُّ على الصفةِ بمفردِها بالتضمُّنِ، وكذلكَ على الذاتِ الْمُجَرَّدةِ عن الصفةِ، ويَدُلُّ على الصفةِ الأخرى باللزومِ؛ فإنَّ اسمَ «**السميعِ**»:

- يَدُلُّ على ذاتِ الربِّ وسَمْعِهِ **بالمطابَقَةِ**.

---

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٨٦.

(٢) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٨٦.

(٣) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ١٣٣.

(٤) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٧٨٦١)، والنَّسَائِيُّ في كتابِ السهوِ / بابُ (٦٣)، الحديثُ رقْمُ (١٣٠٤، ١٣٠٥)، من حديثِ عمَّارِ بنِ ياسرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما.

(٥) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٢٧٤٣)، ومسلمٌ في كتابِ الذكرِ والدعاءِ / بابُ التعوُّذِ من شَرِّ ما عَمِلَ ومِنْ شَرِّ مَا لَمْ يَعْمَلْ (٦٨٣٧)، من حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما.

(٦) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٢٦٢-٢٦٤).

- وعلى الذاتِ وَحْدَها، وعلى السمْعِ وَحْدَهُ **بالتضَمُّنِ**.
- ويَدُلُّ على اسمِ «**الحيِّ**» وصفةِ الحياةِ **بالالتزام**.

وكذلكَ سائرُ أسمائِهِ وصفاتِهِ. ولكن يَتفاوَتُ الناسُ في مَعرفةِ اللزومِ وعَدَمِهِ؛ ومِنْ هاهنا يَقَعُ اختلافُهم في كثيرٍ مِن الأسماءِ والصفاتِ والأحكام؛ فإنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ الفعلَ الاختياريَّ لازمٌ للحياةِ، وأنَّ السمعَ والبصرَ لازمٌ للحياةِ الكاملةِ، وأنَّ سائرَ الكمالِ مِنْ لوازمِ الحياةِ الكاملةِ أَثْبَتَ مِنْ أسماءِ الربِّ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ما يُنْكِرُهُ مَنْ لم يَعرفْ لُزومَ ذلكَ، ولا عَرَفَ حقيقةَ الحياةِ ولوازمَها، وكذلكَ سائرُ صفاتِهِ.

فإنَّ اسمَ «**العظيم**» لهُ لوازمُ يُنكِرُهَا مَنْ لم يَعرِفْ عَظمةَ اللهِ ولوازمَها.

وكذلكَ اسمُ «**العليِّ**» واسمُ «**الحكيم**» وسائرُ أسمائِهِ، فإنَّ مِنْ لوازمِ اسمِ «**العليِّ**» العُلُوَّ المطلَقَ بكلِّ اعتبارٍ، فلهُ العلُوُّ المطلَقُ مِنْ جميعِ الوُجوهِ: عُلُوُّ القَدْرِ، وعلُوُّ القهْرِ، وعُلُوُّ الذاتِ. فمَنْ جَحَدَ عُلُوَّ الذاتِ فقدْ جَحَدَ لوازِمَ اسمِهِ «**العليِّ**».

وكذلكَ اسمُهُ «**الظاهرُ**» مِنْ لوازمِهِ: أن لا يكونَ فوقَهُ شيءٌ، كما في الصحيح عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «**وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ**»(١) بلْ هوَ سبحانَهُ فوقَ كلِّ شيءٍ؛ فمَنْ جَحَدَ فَوقيَّتَهُ سُبحانَهُ فقدْ جَحَدَ لوازِمَ اسمِهِ «**الظاهرِ**»، ولا يَصِحُّ أن يكونَ «**الظاهرُ**» هوَ مَنْ لهُ فَوقيَّةُ القَدْرِ فقطْ، كما يُقالُ: الذهَبُ فوقَ الفِضَّةِ، والجوهرُ فوقَ الزُّجاجِ. لأنَّ هذهِ الفوقيَّةَ تَتعلَّقُ بالظهورِ، بلْ قدْ يكونُ المَفُوقُ أظهَرَ مِن الفائقِ فيها. ولا يَصِحُّ أن يكونَ ظهورَ

---

(١) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٠٥٤١، ٨٧٣٧)، ومسلمٌ في كتابِ الذِّكْرِ والدعاءِ / بابُ ما يقولُ عندَ النومِ وأخذِ المَضْجَعِ (٦٨٢٧)، والتِّرمِذِيُّ في كتابِ الدَّعَواتِ / بابُ (١٩)، الحديثُ رَقْمُ (٣٤٠٠)، وأبو داودَ في كتابِ الأدبِ / بابُ ما يقولُ عند النَّومِ (٥٠٥١)، وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ الدعاءِ / بابُ دُعاءِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ (٣٨٣١) من حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

القهْرِ والغلبةِ فقطْ، وإن كانَ سُبحانَهُ ظاهراً بالقهرِ والغَلبةِ، لمقابَلَةِ الاسمِ بـ «**الباطنِ**» وهوَ الذي ليسَ دونَهُ شيءٌ، كما قابَلَ «**الأوَّلَ**» الذي ليسَ قَبْلَهُ شيءٌ، بـ«**الآخِرِ**» الذي ليسَ بعدَهُ شيءٌ.

وكذلكَ اسمُ «**الحكيمِ**» مِنْ لوازِمِهِ: ثبوتُ الغاياتِ المحمودةِ المقصودةِ لهُ بأفعالِهِ، ووَضْعُهُ الأشياءَ في مَوْضِعِها، وإيقاعُها على أَحسَنِ الوُجوهِ. فإنكارُ ذلكَ إنكارٌ لهذا الاسمِ ولوازِمِهِ؛ وكذلكَ سائرُ أسمائِهِ الحُسْنَى). [1]

[والمقصودُ] (أنَّ الاسمَ مِنْ أسمائِهِ [تعالى] لهُ دَلالاتٌ؛ دَلالةٌ على الذاتِ والصفةِ بالمطابَقَةِ، ودَلالةٌ على أحدِهما بالتضَمُّنِ، ودَلالةٌ على الصفةِ الأخرى باللزومِ). [2]

(ودلالــةُ الأســماءِ أنــواعٌ ثلا ... ثٌ كلُّها معلومةٌ ببيانِ
دَلَّــتْ مُطابَقةً كــذاكَ تَضَمُّناً ... وكـذا التزاماً واضحَ البرهانِ
أمَّـا مطابَقةُ الـدَّلالـةِ فهيَ أنَّ ... الاسـمَ يُفهَمُ منهُ مَفهومانِ
ذاتُ الإلهِ وذلكَ الوصْفُ الذي ... يُشْـتَقُّ منهُ الاسـمُ بالْمِيـزانِ
لـكـنْ دلالـتُـهُ عـلى إحـداهما ... بتَضَمُّنٍ فافْهَمْهُ فَهْمَ بيانِ
وكـذا دَلالتُهُ على الصِّفَةِ التي ... ما اشْـتُقَّ منها فالـتزامٌ دانِ
وإذا أَردتَ لـذا مِـثالاً بَيِّناً ... فمِثالُ ذلكَ لفظةُ «الرحمنِ»
ذاتُ الإلـهِ ورحمـةٌ مَدْلُولُها ... فهما لهـذا اللفظِ مَدلولانِ
إحداهما بعضٌ لذا الموضوعِ فهْـ ... ـيَ تضمناً واضحُ التِّبيانِ
لكنَّ وَصْفَ الحيِّ لازمُ ذلكَ الْـ ... ـمعنى لُـزومَ العلْمِ للرحمنِ
فـلـذا دَلالـتُـهُ عـليـهِ بالتزا ... مٍ بَـيِّنٍ والحـقُّ ذو تِبيانِ) [3]

---

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٤-٥٥).

(٢) بَدائِعُ الفوائِدِ (١/ ١٦٢).

(٣) القصيدةُ النونيةُ (٢٥٢).

[الثالثَ عشرَ]: (أنَّ الربَّ سُبحانَهُ وتعالى لهُ الأسماءُ الحُسْنَى، وأسماؤُهُ مُتضمِّنَةٌ لصفاتِ كمالِهِ، وأفعالُهُ ناشئةٌ عنْ صِفاتِهِ، فإنَّهُ سُبحانَهُ لم يَسْتَفِدْ كمالاً بأفعالِهِ، بلْ لهُ الكمالُ التامُّ المطلَقُ، وفِعَالُهُ عنْ كَمالِهِ، والمخلوقُ كَمالُهُ عَنْ فِعَالِهِ؛ فإنَّهُ فَعَلَ فكَمُلَ بِفِعْلِهِ، وأسماؤُهُ الحُسنى تَقتضِي آثارَها، وتَستلزِمُها استلزامَ المقتضِي الموجِبِ لموجَبِهِ ومُقتضاهُ، فلا بُدَّ مِنْ ظهورِ آثارِها في الوُجودِ، فإنَّ مِنْ أسمائِهِ الخلَّاقَ المقتضِيَ لوُجودِ الخلْقِ، ومِنْ أسمائِهِ الرزَّاقَ المقتضِيَ لوُجودِ الرزْقِ والمرزوقِ، وكذلكَ الغفَّارُ والتوَّابُ والحكيمُ والعَفُوُّ، وكذلكَ الرحمنُ الرحيمُ، وكذلكَ الحَكَمُ العَدْلُ إلى سائرِ الأسماءِ، ومنها الحكيمُ المستلزِمُ لظهورِ حِكْمَتِهِ في الوُجودِ، والوجودُ مُتَضَمِّنٌ لخلْقِهِ وأَمرِهِ، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]. فَخَلْقُهُ وأَمْرُهُ صَدَرَا عنْ حِكمتِهِ وعِلْمِهِ، وحِكمتُهُ وعِلْمُهُ اقْتَضَيَا ظُهورَ خَلْقِهِ وأَمْرِهِ، فمَصدَرُ الخلْقِ والأمْرِ عنْ هذينِ المتضَمِّنَيْنِ لهاتينِ الصفتينِ؛ ولهذا يَقْرِنُ سبحانَهُ بينَهما عندَ ذِكْرِ إنـزالِ كتابِهِ، وعندَ ذِكْرِ مُلْكِهِ ورُبوبيَّتِهِ؛ إذ هما مَصْدَرُ الخلْقِ والأمرِ، ولمَّا كانَ سُبحانَهُ كاملاً في جميعِ أوصافِهِ، ومِنْ أجَلِّها حِكمتُهُ كانتْ عامَّةَ التعلُّقِ بكلِّ مقدورٍ، كما أنَّ عِلْمَهُ عامُّ التَّعَلُّقِ بكلِّ معلومٍ، ومَشيئتَهُ عامَّةُ التعلُّقِ بكلِّ موجودٍ، وسَمْعَهُ وبَصرَهُ عامُّ التعلُّقِ بكلِّ مسموعٍ ومَرْئِيٍّ، فهذا مِنْ لوازمِ صِفاتِهِ، فلا بُدَّ أنْ تكونَ حِكمتُهُ عامَّةَ التَّعَلُّقِ بكلِّ ما خَلَقَهُ وقَدَّرَهُ وأَمَرَ بِهِ ونَهَى عنهُ، وهذا أَمْرٌ ذاتِيٌّ للصفةِ يَمْتَنِعُ تَخَلُّفُهُ وانفكاكُهُ عنها، كما يَمتنِعُ تَخَلُّفُ الصفةِ نفسِها وانفكاكُها عنه).(١)

([والمقصودُ] أنَّ أفعالَ الربِّ تبارَكَ وتعالى صادرةٌ عنْ أسمائِهِ وصفاتِهِ، وأسماءَ المخلوقينَ صادرةٌ عنْ أفعالِهِم.

(١) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (١٥٦٣-١٥٦٥).

فالربُّ تَبَارَكَ وتعالى فِعالُهُ عنْ كمالِهِ، والمخلوقُ كمالُهُ عنْ فِعالِهِ، فاشْتُقَّتْ لهُ الأسماءُ بعدَ أنْ كَمُلَ بالفعْلِ. فالربُّ لم يَزَلْ كامِلاً فحَصَلَتْ أفعالُهُ عنْ كمالِهِ؛ لأنَّهُ كاملٌ بذاتِهِ وصفاتِهِ، فأفعالُهُ صادرةٌ عنْ كمالِهِ، كَمُلَ ففَعَلَ، والمخلوقُ فَعَلَ فكَمُلَ الكمالَ اللائقَ به).[1]

[الرابعَ عشرَ]: (أنَّ الربَّ سُبحانَهُ كاملٌ في أوصافِهِ وأسمائِهِ وأفعالِهِ فلا بُدَّ مِنْ ظهورِ آثارِها في العالمِ، فإنَّهُ محسنٌ، ويَستحيلُ وُجودُ الإحسانِ بدونِ مَنْ يُحْسِنُ إليهِ، ورزَّاقٌ فلا بُدَّ مِنْ وُجودِ مَنْ يَرْزُقُهُ، وغَفَّارٌ، وحليمٌ، وجَوَادٌ، ولطيفٌ بعِبادِهِ، ومَنَّانٌ، ووَهَّابٌ، وقابضٌ وباسطٌ، وخافضٌ ورافعٌ، ومُعِزٌّ ومُذِلٌّ، وهذه الأسماءُ تَقتضِي مُتَعَلِّقَاتٍ تَتَعلَّقُ بها وآثاراً تَتَحقَّقُ بها. فلم يكنْ بُدٌّ مِنْ وُجودِ مُتَعَلِّقَاتِها وإلاَّ تعطَّلتْ تلكَ الأوصافُ وبَطَلَتْ تلكَ الأسماءُ، فتَوسُّطُ تلكَ الآثارِ لا بُدَّ منهُ في تَحَقُّقِ معاني تلكَ الأسماءِ والصفاتِ).[2]

([فإ]نه سُبحانَهُ أَبْرَزَ خَلْقَهُ مِن العَدَمِ إلى الوُجودِ ليُجْرِيَ عليهِ أحكامَ أسمائِهِ وصفاتِهِ، فيُظْهِرَ كمالَهُ المُقَدَّسَ، وإنْ كانَ لم يَزَلْ كاملاً، فمِنْ كمالِهِ ظُهورُ آثارِ كمالِهِ في خَلْقِهِ وأَمْرِهِ، وقضائِهِ وقَدَرِهِ، ووَعدِهِ ووَعيدِهِ، ومَنْعِهِ وإعطائِهِ، وإكرامِهِ وإهانتِهِ، وعَدْلِهِ وفضْلِهِ، وعَفْوِهِ وإنعامِهِ، وسَعَةِ حِلْمِهِ، وشِدَّةِ بَطْشِهِ)[3] (فإنَّ لكلِّ صفةٍ مِن الصِّفَاتِ العُلْيَا حُكماً ومُقتضياتٍ وأثَراً هوَ مَظْهَرُ كمالِها وإنْ كانت كاملةً في نفسِها، لكنَّ ظهورَ آثارِها وأحكامِها مِنْ كمالِها فلا يَجوزُ تَعطيلُهُ.

(١) بَدائِعُ الفَوائِدِ (١/ ١٦٢-١٦٣).

(٢) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٤٣).

(٣) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٩٨).

فإنَّ صِفةَ القادِرِ تَستدعِي مَقدوراً، وصِفَةَ الخالقِ تَستدعِي مخلوقاً، وصِفة الوَهَّابِ الرازقِ المعطِي المانعِ الضارِّ النافعِ المقدِّمِ المؤخِّرِ المعزِّ المذِلِّ العفُوِّ الرؤوفِ تَستدعِي آثارَها وأحكامَها).[1]

(وقد اقْتَضَى كمالُهُ المقدَّسُ سُبحانَهُ أنَّهُ كلَّ يوم هوَ في شأنٍ، فمِنْ جُملةِ شُؤونِهِ أن يَغْفِرَ ذَنْباً، ويُفَرِّجَ كَرْباً، ويَشْفِيَ مَرِيضاً، ويَفُكَّ عانِياً، ويَنْصُرَ مَظلوماً، ويُغيثَ مَلهوفاً، ويَجْبُرَ كسيراً، ويُغْنِيَ فَقيراً، ويُجيبَ دَعوةً، ويُقيلَ عَثرةً، ويُعِزَّ ذَليلاً، ويُذِلَّ مُتكَبِّراً، ويَقْصِمَ جَبَّاراً، ويُميتَ ويُحْيِيَ، ويُضْحِكَ ويُبْكِيَ، ويَخْفِضَ ويَرفعَ، ويُعْطِيَ ويَمْنَعَ، ويُرْسِلَ رُسُلَهُ مِن الملائكةِ ومِن البَشَرِ في تَنفيذِ أوامِرِهِ، وسَوْقِ مَقاديرِهِ التي قَدَّرَها إلى مَواقيتِها التي وَقَّتَها لها. وهذا كلُّهُ لم يكنْ ليَحْصُلَ في دارِ البقاءِ، وإنَّما اقْتَضَتْ حِكمتُهُ البالغةُ حصولَهُ في دارِ الامتحانِ والابتلاءِ).[2]

[الخامسَ عشرَ]: (أنَّ مِنْ أسمائِهِ الحُسْنَى ما يكونُ دَالاًّ على عِدَّةِ صفاتٍ، ويكونُ ذلكَ الاسمُ مُتناوِلاً لجميعِها تناوُلَ الاسمِ الدالِّ على الصفةِ الواحدةِ لها، كما تَقَدَّمَ بيانُهُ، كاسمِهِ العظيمِ والمجيدِ والصمَدِ، كما قالَ ابنُ عبَّاسٍ فيما رواهُ عنهُ ابنُ أبي حاتمٍ في تفسيرِهِ: الصمَدُ السيِّدُ الذي قدْ كَمُلَ في سُؤْدَدِهِ، والشريفُ الذي قدْ كَمُلَ في شَرَفِهِ، والعظيمُ الذي قدْ كَمُلَ في عظمتِهِ، والحليمُ الذي قدْ كَمُلَ في حِلْمِهِ، والعليمُ الذي قدْ كَمُلَ في عِلْمِهِ، والحكيمُ الذي قدْ كَمُلَ في حِكمتِهِ، وهوَ الذي قدْ كَمُلَ في أنواعِ شَرَفِهِ وسُؤددِهِ، وهوَ اللهُ سُبحانَهُ، هذهِ صفتُهُ، لا تَنبغِي إلاَّ لَهُ، ليسَ لهُ كُفُواً أحَدٌ، وليسَ كمثلِهِ شيءٌ، سُبحانَ اللهِ الواحِدِ القهَّارِ. هذا لَفْظُهُ.

(١) شِفاءُ العَليلِ (٢/ ١٥٠).

(٢) شِفاءُ العَليلِ (٢/ ١٩٨).

وهذا مِمَّا خَفِيَ على كثيرٍ مِمَّنْ تَعاطَى الكلامَ في تفسيرِ الأسماءِ الْحُسْنَى، فَفَسَّرَ الاسمَ بدونِ معناهُ، ونَقَصَهُ مِنْ حيثُ لا يَعلمُ، فمَنْ لم يُحِطْ بهذا عِلْماً بَخَسَ الاسمَ الأعظمَ حَقَّهُ وهَضَمَهُ معناهُ. فَتَدَبَّرْهُ).[1]

[السادسَ عشرَ]: (إحصاءُ الأسماءِ الحُسنى والعلْمُ بها أصلٌ للعلْمِ بكلِّ معلومٍ، فإنَّ المعلوماتِ سِواهُ إمَّا أن تكونَ خَلْقاً لهُ تعالى أوْ أَمْراً، إما علمٌ بما كَوَّنَهُ أوْ عِلْمٌ بما شَرَعَهُ.

ومَصْدَرُ الخلْقِ والأمْرِ عنْ أسمائِهِ الْحُسْنَى، وهما مُرْتَبِطانِ بها ارتباطَ المقتضَى بمقْتَضِيهِ. فالأمرُ كلُّهُ مَصدرُهُ عنْ أسمائِهِ الْحُسْنَى، وهذا كلُّهُ حَسَنٌ لا يَخْرُجُ عنْ مَصالِحِ العِبادِ والرأفةِ والرحمةِ بهم، والإحسانِ إليهم بتكميلِهم بما أَمَرَهم بِهِ ونَهاهُمْ عنهُ، فأمْرُهُ كلُّهُ مَصلحةٌ وحِكمةٌ ورحمةٌ ولُطْفٌ وإحسانٌ؛ إذ مَصْدَرُهُ أسماؤُهُ الْحُسْنَى، وفِعْلُهُ كلُّهُ لا يَخْرُجُ عن العَدْلِ والحكمةِ والمصلَحَةِ والرحمةِ؛ إذ مَصدرُهُ أسماؤُهُ الْحُسْنَى، فلا تَفاوُتَ في خَلْقِهِ ولا عَبَثَ، ولم يَخْلُقْ خَلْقَهُ باطِلاً، ولا سُدًى ولا عَبَثاً.

وكما أنَّ كلَّ مَوجودٍ سِواهُ فَبإيجادِهِ، فوُجودُ مَنْ سِواهُ تابعٌ لوُجودِهِ تَبَعَ المفعولِ المخلوقِ لخالقِهِ، **فكذلكَ العلْمُ بها أَصْلٌ للعلْمِ بكلِّ ما سِواهُ، فالعلْمُ بأسمائِهِ وإحصاؤُها أَصْلٌ لسائرِ العلومِ، فمَنْ أَحْصَى أسماءَهُ كما يَنبغِي للمخلوقِ أَحْصَى جميعَ العلومِ**؛ إذ إحصاءُ أسمائِهِ أَصْلٌ لإحصاءِ كلِّ معلومٍ؛ لأنَّ المعلوماتِ هيَ مِنْ مُقتضاها ومُرتبطةٌ بها.

وَتَأَمَّلْ صدورَ الخلْقِ والأمرِ عنْ عِلْمِهِ وحِكمتِهِ تعالى، ولهذا لا تَجِدُ فيها خَلَلاً ولا تَفاوُتاً؛ لأن الخَلَلَ الواقعَ فيما يَأْمُرُ بهِ العبدُ أوْ يَفعلُهُ إمَّا أن يكونَ لِجَهْلِهِ بهِ أوْ لعَدَمِ حِكمتِهِ، وأمَّا الربُّ تعالى فهوَ العليمُ الحكيمُ فلا يَلْحَقُ فِعْلَهُ

(١) بَدائِعُ الفَوائِدِ (١/ ١٦٦-١٦٨).

ولا أَمْرَهُ خللٌ ولا تَفاوُتٌ ولا تَناقُضٌ).[1]

[السابعَ عشرَ]: (في بيانِ مَراتبِ إحصاءِ أسمائِهِ التي مَنْ أَحصاهَا دَخَلَ الجنَّةَ، وهذا هوَ قُطْبُ السعادةِ ومَدارُ النجاةِ والفلاحِ:

المُرتبةُ الأُولَى: إحصاءُ ألفاظِها وعَدَدِها.

المُرتبةُ الثانيَةُ: فَهْمُ مَعانِيهَا ومَدلولِها.

المرتبةُ الثالثةُ: دُعاؤُهُ بها كما قالَ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] **وهوَ مَرتبتانِ:**

إحداهما: دُعاءُ ثناءٍ وعِبادةٍ.

والثاني: دُعاءُ طَلَبٍ ومسألةٍ.

فلا يُثْنَى عليهِ إلاَّ بأسمائِهِ الحُسْنَى وصفاتِهِ العُلَى، وكذلكَ لا يُسألُ إلاَّ بها، فلا يُقالُ: يا موجودُ أوْ يَا شيءُ أوْ يا ذاتُ اغْفِرْ لي وارْحَمْني، **بلْ يُسأَلُ في كلِّ مطلوبٍ باسمٍ يكونُ مُقْتَضِياً لذلكَ المطلوبِ، فيكونُ السائلُ مُتوَسِّلاً إليهِ بذلكَ الاسمِ**؛ ومَنْ تَأَمَّلَ أَدعيَةَ الرسُلِ - ولا سِيَّما خاتَمُهم وإمامُهم - وَجَدَها مُطابِقَةً لهذا.

وهذه العبارةُ أَوْلَى مِنْ عبارةِ مَنْ قالَ: يَتَخَلَّقُ بأسماءِ اللهِ؛ فإنَّها ليستْ بعبارةٍ سَديدةٍ، وهيَ مُنْتَزَعَةٌ مِنْ قولِ الفَلاسفةِ بالتَّشَبُّهِ بالإلهِ على قَدْرِ الطاقةِ.

وأَحْسَنُ منها عبارةُ أبي الحكَمِ بنِ بَرهانَ وهيَ: التعَبُّدُ.

وأحسَنُ منها العِبارةُ المطابِقَةُ للقرآنِ وهيَ: الدُّعاءُ، المتضمِّنُ للتَّعبُّدِ والسُّؤالِ.

---

(١) بَدائِعُ الفَوائِدِ (١/ ١٦٣).

فمَراتبُها أربعةٌ:

- أشَدُّها إنكاراً عبارةُ الفلاسفةِ وهيَ التَّشَبُّهُ.

- وأحسَنُ منها عبارةُ مَنْ قالَ: التخَلُّقُ.

- وأحسَنُ منها عِبارةُ مَنْ قالَ: التعَبُّدُ.

- وأَحْسَنُ مِن الجميعِ الدعاءُ، وهيَ لفظُ القرآنِ). (١)

[الثامنَ عشرَ]: (أنَّ الأسماءَ الحُسْنَى لا تَدْخُلُ تحتَ حَصرٍ ولا تُحَدُّ بعَددٍ، فإنَّ للهِ تعالى أسماءً وصفاتٍ اسْتَأْثَرَ بها في عِلْمِ الغيْبِ عندَهُ، لا يَعْلَمُها مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، كما في الحديثِ الصحيحِ: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ / أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحداً مِنْ خَلْقِكَ/ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ».

فجَعَلَ أسماءَهُ ثلاثةَ أقسامٍ:

- قِسمٌ سَمْعِيٌّ سَمَّى بِهِ نفسَهُ: فأَظْهَرَهُ لِمَنْ شاءَ مِنْ ملائكتِهِ أوْ غيرِهم، ولم يُنْـزِلْ بهِ كتابَهُ.

- وقِسْمٌ أَنْزَلَ بِهِ كتابَهُ: فتَعَرَّفَ بهِ إلى عِبادِهِ.

- وقِسمٌ اسْتَأْثَرَ بِهِ في عِلْمِ غَيْبِهِ: فلم يَطَّلِعْ عليهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ، ولهذا قالَ: «اسْتَأْثَرْتَ بِهِ» أي: انْفَرَدْتَ بعِلْمِهِ، وليسَ المرادُ انفرادَهُ بالتَّسَمِّي بهِ؛ لأن هذا الانفرادَ ثابتٌ في الأسماءِ التي أَنْزَلَ بها كتابَهُ.

ومِنْ هذا قولُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ في حديثِ الشفاعةِ: «فَيَفْتَحُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ بِمَا لا أُحْسِنُهُ الآنَ» وتلكَ المَحامدُ تَفِي بأسمائِهِ وصفاتِهِ. ومنهُ قولُهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم: «لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ». (٢)

---

(١) بَدائِعُ الفَوائِدِ (١/ ١٦٤).

(٢) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ١٣٣.

وأمَّا قولُهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[1] فالكلامُ جُملةٌ واحدةٌ. وقولُهُ: «**مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**» صِفَةٌ لا خَبَرٌ مُسْتَقْبَلٌ، والمعنى: لهُ أسماءٌ مُتعدِّدَةٌ مِنْ شأنِها أنَّ مَنْ أَحصاهَا دَخَلَ الجنَّةَ، وهذا لا يَنْفِي أن يكونَ لهُ أسماءٌ غيرُها. وهذا كما تقولُ: لفلانٍ مائةُ مَملوكٍ قدْ أَعَدَّهُمْ للجهادِ، فلا يَنْفِي هذا أن يكونَ لهُ مَماليكُ سِواهُمْ مُعَدُّونَ لغيرِ الجهادِ. **وهذا لا خِلافَ بينَ العلماءِ فيه**).[2]

[التاسعَ عشرَ]: (أنَّ الصفةَ متى قامَتْ بِمَوصوفٍ لَزِمَها أمورٌ أربعةٌ: أمرانِ لَفظيَّانِ، وأمرانِ مَعنويَّانِ:

أ - فاللفظيّانِ: ثُبوتيٌّ وسَلْبِيٌّ:

فالثبوتيُّ: أن يُشْتَقَّ للموصوفِ منها اسمٌ.

والسلبيُّ: أن يَمتنعَ الاشتقاقُ لغيرِهِ.

ب - والمعنويَّانِ: ثبوتِيٌّ وسلبيٌّ.

فالثبوتيُّ: أن يعودَ حُكْمُها إلى الموصوفِ ويُخْبَرَ بها عنهُ.

والسلبيُّ: أن لا يعودَ حُكْمُها إلى غيرِهِ ولا يكونَ خَبَراً عنهُ.

وهيَ قاعدةٌ عظيمةٌ في مَعرفةِ الأسماءِ والصفاتِ، فلْنَذْكُرْ مِنْ ذلكَ مِثالاً واحداً، وهوَ صفةُ الكلامِ؛ / فإنَّها إذا قامتْ بِمَحَلٍّ كانَ هوَ المتكلِّمَ/[3] دونَ

---

(١) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٧٤٥٠، ٧٥٦٨، ١٠١٠٣، ١٠١٥٤، ١٠٣٠٧)، والبُخَارِيُّ في كتابِ التوحيدِ / بابُ إنَّ للهِ مائةَ اسمٍ إلا واحدًا (٧٣٩٢)، ومسلمٌ في كتابِ الذكرِ والدعاءِ / بابٌ في أسماءِ اللهِ تعالَى وفضلِ مَنْ أَحْصاهَا (٦٧٥٠)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الدَّعَوَاتِ / بابُ (٨٣)، الحديثُ رقْمُ (٣٥٠٦)، وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ الدُّعاءِ / بابُ أسماءِ اللهِ عزَّ وجلَّ (٣٨٦٠) من حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٢) بَدائِعُ الفَوائِدِ (١/ ١٦٦-١٦٧).

(٣) (في الأصلِ: فإنه إذا قَامَتْ بمَحَلٍّ كانَتْ هو التَّكَلُّمَ. ولعلَّ الصوابَ ما أثبتناهُ).

مَنْ لم تَقُمْ بهِ، وأَخْبَرَ عنهُ بها وعادَ حُكْمُها إليهِ دونَ غيرِهِ، فيُقالُ: قالَ وأَمَرَ ونَهَى، ونَادَى وناجَى، وأَخْبَرَ وخاطَبَ، وتكَلَّمَ وكَلَّمَ، ونحوَ ذلكَ.

وامْتَنَعَتْ هذهِ الأحكامُ لغيرِهِ، فيُسْتَدَلُّ بهذه الأحكامِ والأسماءِ على قيامِ الصفةِ بهِ، وسلبِها عنْ غيرِهِ على عَدَمِ قِيامِها بهِ.

وهذا هوَ أصلُ أهلِ السنَّةِ الذي رَدُّوا بهِ على المعتزلةِ والجَهميَّةِ، وهوَ مِنْ أصَحِّ الأصولِ طَرْداً وعَكْساً). [١]

[العشرونَ]: (أنَّ الصفةَ يَلْزَمُها لوازمُ مِنْ حيثُ هيَ هيَ، فهذه اللوازمُ يَجِبُ إثباتُها، ولا يَصِحُّ نَفْيُها؛ إذ نَفْيُها مَلزومٌ كنَفْيِ الصفةِ، مِثالُهُ الفِعْلُ والإدراكُ للحياةِ، فإنَّ كلَّ حيٍّ فَعَّالٌ مُدْرِكٌ، وإدراكُ المسموعاتِ بصفةِ السمْعِ، وإدراكُ المُبْصَراتِ بصفةِ البَصَرِ، وكَشْفُ المعلوماتِ بصفةِ العلْمِ والتمييزُ لهذه الصِّفَاتِ.

فهذه اللوازمُ يَنْتَفِي رَفْعُها عن الصفةِ فإنَّها ذاتيَّةٌ لها، ولا يَرتفعُ [٢] إلاَّ برفعِ الصفةِ، ويَلزمُها لوازمُ مِنْ حيث كونُها صفةً للقديمِ، مثلَ كونِها واجبةً قديمةً عامَّةَ التعَلُّقِ؛ فإنَّ صفةَ العلْمِ واجبةٌ للهِ قديمةٌ غيرُ حادثةٍ، مُتعلِّقةٌ بكلِّ معلومٍ على التفصيلِ.

وهذه اللوازمُ مُنتَفِيَةٌ عن العلْمِ الذي هوَ صفةٌ للمخلوقِ، ويَلزمُها لوازمُ مِنْ حيث كونُها صفةً لهُ، مثلَ كونِها مُمْكِنَةً، حادثةً بعدَ أن لم تكنْ، مخلوقةً، غيرَ صالحةٍ للعمومِ، مفارِقَةً لهُ، فهذه اللوازمُ يَستحيلُ إضافتُها إلى القديمِ، **واجعَلْ هذا التفصيلَ مِيزاناً لكَ في جميعِ الصِّفَاتِ والأفعالِ، واعْتَصِمْ بهِ في نفيِ التشبيهِ والتمثيلِ، وفي بُطلانِ النفيِ والتعطيلِ**، واعتَبِرْهُ في العُلُوِّ والاستواءِ تَجِدْ هذهِ الصفةَ:

---

(١) بَدائِعُ الفَوائِدِ (١/ ١٦٦).

(٢) هكذا في الأصلِ، ولعلَّ الصوابَ: تَرْتَفِعُ.

- يَلزَمُها كونُ العالي فوقَ السافلِ في القديمِ والحديثِ: فهذا اللازمُ حقٌّ لا يَجوزُ نفيُهُ.

- ويَلزَمُها كونُ السافلِ حَاوِياً للأَعْلَى مُحِيطاً بهِ حاملاً لهُ، والأعلى مُفْتَقِرٌ إليهِ: وهذا في بعضِ المخلوقاتِ لا في كلِّها، بلْ بعضُها لا يَفتقِرُ فيهِ الأعلى إلى الأسفلِ، ولا يَحويهِ الأسفلُ ولا يُحيطُ بهِ ولا يَحملُهُ، كالسماءِ معَ الأرضِ.

فالربُّ تعالى أجلُّ شأناً وأعظمُ أن يَلزمَ مِنْ عُلُوِّهِ ذلكَ، بلْ لوازمُ عُلُوِّهِ مِنْ خصائصِهِ، وهيَ حَمْلُهُ للسافِلِ وفَقْرُ السافلِ إليهِ، وغِناهُ سُبحانَهُ عنهُ وإحاطتُهُ عزَّ وجَلَّ بهِ، فهوَ فوقَ العرْشِ معَ حَمْلِهِ العرشَ وحَمَلَتَهُ، وغِناهُ عن العرْشِ وفَقْرِ العرشِ إليهِ، وإحاطتِهِ بالعَرْشِ وعدَمِ إحاطةِ العرْشِ بهِ، وحَصْرِهِ للعرْشِ وعَدَمِ حَصْرِ العرشِ لهُ. وهذه اللوازمُ مُنْتَفِيَةٌ عن المخلوقِ.

وأصحابُ التلبيسِ واللَّبْسِ لا يُمَيِّزُونَ هذا التمييزَ، ولا يُفَصِّلونَ هذا التفصيلَ، ولوْ مَيَّزوا وفَصَّلوا لَهُدُوا إلى سواءِ السبيلِ، وعَلِموا مُطابَقَةَ العقلِ الصريحِ للتنـزيلِ، ولَسَلَكُوا خلْفَ الدليلِ، ولكن فارَقُوا الدليلَ وضَلُّوا عنْ سواءِ السبيلِ).(١)

[الحادي والعشرونَ]: (أنَّ أسماءَهُ كلَّها حُسْنَى ليسَ فيها اسمٌ غيرَ ذلكَ أصلاً، وقدْ تَقدَّمَ أنَّ مِنْ أسمائِهِ ما يُطْلَقُ عليهِ باعتبارِ الفعلِ، نحوَ الخالقِ والرازقِ والمُحْيِي والمميتِ، وهذا يَدُلُّ على أنَّ أفعالَهُ كلَّها خيراتٌ مَحْضٌ لا شَرَّ فيها؛ لأنَّهُ لوْ فعَلَ الشرَّ لاشْتُقَّ لهُ منهُ اسمٌ ولم تكنْ أسماؤُهُ كلُّها حُسْنَى، وهذا باطلٌ.

فالشرُّ ليسَ إليهِ، فكما لا يَدْخُلُ في صفاتِهِ ولا يَلْحَقُ ذاتَهُ لا يَدخُلُ في أفعالِهِ، فالشرُّ ليسَ إليهِ، لا يُضافُ إليهِ فِعْلاً ولا وَصْفاً، وإنَّما يَدخُلُ في مَفعولاتِهِ.

(١) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٤/ ١٢١٨-١٢٢٠).

وفرْقٌ بينَ الفعْلِ والمفعولِ، فالشرُّ قائمٌ بمفعولِهِ المبايِنِ لهُ، لا بفِعْلِهِ الذي هوَ فِعْلُهُ، **فتأمَّلْ هذا فإنَّهُ خَفِيَ على كثيرٍ مِن المتكلِّمينَ**، وزَلَّتْ فيهِ أقدامٌ، وضَلَّتْ فيهِ أفهامٌ، وهَدَى اللهُ أهلَ الحقِّ لِمَا اخْتَلَفُوا فيهِ بإذنِهِ، واللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إلى صراطٍ مُستقيمٍ).[1]

[الثاني والعشرونَ]: ([أنَّ] صِفَاتِ السَّلْبِ المَحْضِ... لا تَدْخُلُ في أوصافِهِ تعالى إلاَّ أنْ تكونَ متضمِّنَةً لِثُبُوتٍ، كالأحَدِ المتضمِّنِ لانفرادِهِ بالربوبيَّةِ والإلهيَّةِ، والسلامِ المتضمِّنِ لبراءتِهِ مِنْ كلِّ نَقْصٍ يُضَادُّ كمالَهُ، وكذلكَ الإخبارُ عنهُ بالسُّلُوبِ هوَ لِتَضَمُّنِهَا ثُبُوتاً؛ (([لـ]أنَّ كلَّ ما يُنَـزَّهُ الربُّ عنهُ إن لم يكنْ مُتَضَمِّناً لإثباتِ كمالِهِ ومُسْتَلْزِماً لأمرٍ ثبوتيٍّ يُوصَفُ بِهِ لم يكنْ في تنـزيهِهِ عنهُ مَدْحٌ ولا حَمْدٌ ولا تَمجيدٌ ولا تَسبيحٌ؛ إذ العَدَمُ المحضُ كاسمِهِ لا حَمْدَ فيهِ ولا مَدْحَ، وإنَّما يُمْدَحُ سُبحانَهُ بِنَفْيِ أمورٍ تَستلْزِمُ أموراً هيَ حقٌّ ثابتٌ موجودٌ يَسْتَحِقُّ الحمدَ عليها، وذلكَ الحَقُّ الموجودُ يُنافِي ذلكَ الباطلَ المَنْفِيَّ، فيُسْتَدَلُّ برفعِ أحدِهما على ثبوتِ الآخَرِ، فتارةً يُسْتَدَلُّ بثبوتِ تلكَ المحامدِ والكمالاتِ على نفيِ النقائصِ التي تُنَافِيهَا، وتارةً يُسْتَدَلُّ بِنَفْيِ تلكَ النقائصِ على ثبوتِ الكمالاتِ التي تُنافِيهَا، فهوَ سُبحانَهُ القُدُّوسُ السَّلامُ كما قالَ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] لكمالِ حياتِهِ وقَيُّومِيَّتِهِ و﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ: ٣] لكمالِ عِلْمِهِ ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق: ٣٨] لكمالِ قُدرتِهِ ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩] لكمالِ عَدْلِهِ وغِناهُ ورحمتِهِ، و﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: ٥٢] لكمالِ عِلْمِهِ وحِفْظِهِ ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] لكمالِ قُدرتِهِ وقُوَّتِهِ، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، و﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: ٣] لكمالِ صَمَدِيَّتِهِ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤] لتفرُّدِهِ بالكمالِ المطلَقِ الذي لا يُشارِكُهُ فيهِ غيرُهُ،

(١) بَدائِعُ الفَوائِدِ (١/ ١٦٣).

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١] لكمال عِزَّتِهِ وسُلطانِهِ، ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١٥] فنَفَى عنْ نفسِهِ خوفَ عاقبةِ ما فَعَلَهُ مِنْ إهلاكِ أعدائِهِ، بخِلافِ المخلوقِ، فإنَّهُ إذا انْتَقَمَ مِنْ عَدُوِّهِ يخافُ عاقبةَ ذلكَ، إمَّا مِن اللهِ وإمَّا مِن المُنْتَصِرِينَ لعَدُوِّهِ، وذلكَ على اللهِ مُحَالٌ، والخوفُ يَتضَمَّنُ نُقصانَ العلْمِ والقُدرةِ والإرادةِ، فإنَّ العالِمَ بأنَّ الشيءَ لا يكونُ لا يَخافُهُ، والعالِمُ بأنَّهُ يكونُ ولا بُدَّ، قدْ يَئِسَ مِن النجاةِ منهُ فلا يَخافُ، فإن خافَ فخَوفُهُ دونَ خوْفِ الراجي.

وأمَّا نَقْصُ القُدرةِ فلأنَّ الخائفَ مِن الشيءِ هوَ الذي لا يُمْكِنُهُ دَفْعُهُ عنْ نفسِهِ فإذا تيَقَّنَ أنَّهُ قادرٌ على دَفْعِهِ لم يَخَفْهُ.

وأمَّا نَقْصُ الإرادةِ فلأنَّ الخائفَ يَحْصُلُ لهُ الخوفُ بدونِ مَشيئتِهِ واختيارِهِ، وذلكَ مُحَالٌ في حَقِّ مَنْ هوَ بكلِّ شيءٍ عليمٌ وعلى كلِّ شيءٍ قديرٌ، ومَنْ لا يكونُ شيءٌ إلاَّ بمشيئتِهِ وإرادتِهِ، فما شاءَ كانَ وما لم يَشَأْ لم يكنْ، وهذا لا يُنافِي كَراهتَهُ سُبحانَهُ وبُغْضَهُ وغَضَبَهُ؛ فإنَّ هذهِ الصِّفَاتِ لا تَستلزِمُ نَقْصاً لا في عِلْمِهِ ولا في قُدرتِهِ ولا في إرادتِهِ، بلْ هيَ كمالٌ؛ لأن سَبَبَها العلمُ بقُبْحِ المكروهِ المبغوضِ المغضوبِ عليهِ، وكُلَّما كانَ العلْمُ بحالِهِ أَهَمَّ كانت كراهتُهُ وبُغْضُهُ أَقْوَى، ولهذا يَشْتَدُّ غَضَبُهُ سُبحانَهُ على مَنْ قتَلَ نَبِيَّهُ أوْ قتَلَهُ نَبِيُّهُ[(١)])). [(٢)]

(١) يُشِيرُ إلى ما رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٣٨٦٨) من حديثِ عاصمٍ عن أبي وائلٍ، عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه مرفوعًا: (أَشَدُّ الناسِ عَذابًا يَوْمَ القِيَامَةِ رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا، وإمامُ ضَلالَةٍ، ومُمَثِّلٌ مِنَ المُمَثِّلِينَ). وفيه عاصمُ بنُ أبي النَّجُودِ يُضَعَّفُ في الحديثِ، ورُوِيَ من طرقٍ أُخرَى بألفاظٍ مختلفةٍ، وفي الصحيحِ بعضُه؛ فقد أخرجَ البُخارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالَى في صحيحِه (كتابُ المغازِي / بابُ ما أصابَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ من الجِراحِ يومَ أُحُدٍ) من حديثِ عِكْرِمَةَ، عن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما موقوفًا عليهِ: (اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ، واشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى مَنْ دَمَّى وَجْهَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ). وفيه من حديثِ مَعْمَرٍ، عن هَمَّامٍ، سَمِعَ أبا هُرَيْرَةَ رضيَ اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا بِنَبِيِّهِ» يُشِيرُ إلى رَبَاعِيَتِهِ، «اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ في سبيلِ اللهِ»).

(٢) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (١٤٤٤-١٤٤٥).

وكذلك قولُهُ تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] متضمِّنٌ لعظمتِهِ، وأنَّهُ جَلَّ عنْ أن يُدْرَكَ بحيثُ يُحاطُ بهِ، وهذا مُطَّرِدٌ في كلِّ ما وَصَفَ بهِ نفسَهُ مِن السُّلوبِ).[1]

---

(١) بَدائِعُ الفَوائِدِ (١/ ١٦١)

وقالَ -رَحِمَهُ اللهُ- في الصواعقِ المُرسَلَةِ (٤/١٣٦٨) (ومما يَنبغِي أن يُعلَمَ أنَّ كلَّ سَلْبٍ ونفيٍ لا يَتضمَّنُ إثباتًا فإنَّ اللهَ لا يُوصَفُ به؛ لأنه عدمٌ مَحْضٌ ونفيٌ صِرفٌ، لا يَقتضِي مدحًا ولا كمالاً ولا تعظيمًا، ولهذا كان تَسبيحُه وتقديسُه -سُبحانَه- مُتضمنًا لعظَمَتِه، ومُستلزِمًا لصفاتِ كمالِه، ونعوتِ جَلالِه، وإلا فالمدحُ بالعدمِ المَحْضِ كَلاَ مَدْحٍ، والعدمُ في نفسِه ليس بشيءٍ يُمْدَحُ به ويُحْمَدُ عليه، ولا يُكْسِبُ القلبَ عِلْمًا بالمذكورِ، ولا مَحَبَّةً ولا قَصدًا له، ولهذا كان عدمُ السِّنَةِ والنَّوْمِ مَدْحًا وكمالاً في حقِّه سُبحانَهُ لتضمُّنِهِ واستلزامِهِ كمالَ حياتِه وقَيُّوميَّتِهِ، ونَفْيُ اللُّغوبِ عنه كمالٌ لاستلزامِه كمالَ قُدرتِه وقوتِه، ونفيُ النسيانِ عنه كمالٌ لتضمنِه كمالَ علمِه، وكذلك نفيُ عُزوبِ شيءٍ عنه، ونفيُ الصاحبةِ والولَدِ كمالٌ لتضمنِهِ كمالَ غِناهُ وتَفرُّدِه بالربوبيةِ وأن مَن في السماواتِ والأرضِ عَبيدٌ له، وكذلك نَفْيُ الكُفُؤِ والسَّمِيِّ والمِثْلِ عنه كمالٌ: لأنه يَستَلزِمُ ثُبوتَ جَميعِ صِفاتِ الكَمالِ له على أَكملِ الوُجوهِ واستحالةَ وجودِ مشاركٍ له فيها، فالذين يَصِفُونَهُ بالسُّلوبِ فَقَطْ من الجَهْميَّةِ والفلاسفةِ لم يَعْرِفُوهُ مِنَ الوجهِ الذي عَرَفَتْهُ به الرُّسُلُ وعَرَّفُوهُ به إلى الخلقِ وهو الوجهُ الذي يَحْمَدُه به ويُثنِي عليه به، ويُمَجَّدُ وتُعرَفُ به عَظَمَتُه وجلالُه، وإنَّما عَرَفُوهُ من الوجهِ الذي يَقُودُهم إلى تعطيلِ العلمِ والمعرفةِ والإيمانِ به بعدمِ اعتقادِهِمُ الحقَّ، واعتقادِهِم خِلافَ الحَقِّ، وحقيقةُ أمرِهم أنهم لم يُثبِتُوا للهِ عظمةً إلا ما تخيلُوه في نفوسِهم من السُّلوبِ والنفيِ الذي لا عَظَمةَ فيه ولا مدحَ فضلاً عن أن يكونَ كَمالاً، بل ما أَثْبَتُوهُ مُسْتَلْزِمٌ لنفيِ ذاتِه رأسًا.

وأما الصِّفَاتِيَّةُ الذين يؤمنونَ ببعضٍ ويَجْحَدُونَ بعضًا، فإذا أَثْبَتُوا عِلْمًا وقدرةً وإرادةً وغيرَها تَضمَّنَ ذلكَ إثباتَ ذاتٍ تَقُومُ بها هذه الصفاتُ، وتتميزُ بحقيقتِها وماهيَّتِها، سواءٌ سَمَّوْهُ قَدَرًا أو لم يُسمُّوه، فإن لم يُثْبِتُوا ذاتًا مُتميِّزَةً بحقيقَتِها وماهيَّتِها كانوا قد أَثْبَتُوا صفاتٍ بلا ذاتٍ كما أثبتَ إخوانُهم ذاتًا بلا صفاتٍ، وأثبتُوا أسماءً بلا معانٍ ولا حقائقَ، وذلك كُلُّه مخالَفَةٌ لصريحِ المعقولِ، وهم يَدَّعُونَ أنهم أربابُ عَقليَّاتٍ فلا بُدَّ من إثباتِ ذاتٍ مُحقَّقَةٍ لها الأسماءُ الحُسْنَى، التي لا تَكُونُ حُسْنَى إلا إذا كانَتْ دَالَّةً على صفاتِ كَمالِهِ، وإلا فالأسماءُ فَارِغَةٌ لا مَعْنَى لها، لا تُوصَفُ بحُسْنٍ، فضلاً عن كونِها أحسنَ من غيرِها).

وقالَ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ في كتابِ الفوائدِ (١٨١-١٨٢): (والمدحُ والثناءُ لا يَحْصُلانِ بالنفيِ المحضِ إن لم يَتضمَّنْ ثبوتًا، فإنَّ النفيَ كاسمِهِ عدمٌ لا كمالَ فيه ولا مدحَ، فإذا تضمنَ ثُبوتًا صحَّ المدحُ به، كنَفْيِ النسيانِ المستلزمِ لكمالِ العلمِ وبيانِه، ونفيِ اللُّغوبِ والإعياءِ والتعبِ المستلزمِ لكمالِ القوةِ والقدرةِ،

ونَفي السِّنَةِ والنومِ المستلزمِ لكمالِ الحياةِ والقيوميَّةِ، ونفي الولَدِ والصاحبةِ المستلزمِ لكمالِ الغِنَى والمُلْكِ والرُّبُوبيةِ، ونفي الشريكِ والوليِّ والشفيعِ بدونِ إذنٍ المستلزمِ لكمالِ التوحيدِ والتفردِ بالكمالِ والإلهيةِ والمُلكِ، ونفي الظلمِ المتضمنِ لكمالِ العدلِ، ونفي إدراكِ الأبصارِ له المتضمنِ لِعَظَمَتِهِ وأنه أَجَلُّ من أن يُدْرَك وإن رَآتهُ الأبصارُ، وإلا فليسَ في كونِه لا يُرَى مَدحٌ بوجهٍ من الوجوهِ؛ فإنَّ العدمَ المحضَ كذلك).

وقال -رَحِمَهُ اللهُ- في حادِي الأرواحِ (٣٦٩-٣٧١) في مَعْرِضِ بيانِ أدلةِ الرؤيةِ (فصلٌ: الدليلُ السادسُ ـ قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. والاستدلالُ بهذا أَعْجَبُ، فإنَّهُ مِن أدلةِ النُّفاةِ، وقد قَرَّرَ شَيْخُنا وجهَ الاستدلالِ به أحسنَ تَقْرِيرٍ وألطفَهُ، وقال لي: أنا أَلْتَزِمُ أنه لا يَحْتَجُّ مُبْطِلٌ بآيةٍ أو حديثٍ صحيحٍ على باطلِهِ إلا وفي ذلكَ الدليلِ مَا يَدُلُّ على نقيضِ قولِه، فمنها هذه الآيةُ، وهي على جوازِ الرؤيةِ أَدلُّ منها على امتناعِها، فإنَّ اللهَ سُبحانَهُ (وتَعالى) إنما ذَكَرَها في سِياقِ التمدُّحِ، ومعلومٌ أن المدحَ به إنما يكونُ بالأوصافِ الثُّبوتيَّةِ، وأما العدمُ المَحْضُ فليسَ بكَمالٍ فلا يُمْدَحُ، وإنما يُمْدَحُ الربُّ ـ تباركَ وتَعالَى ـ بالعدمِ إذا تضمنَ أمرًا وُجوديًّا كمدحِهِ بنَفْيِ السِّنَةِ والنومِ المُتضمِّنِ كمالَ القيُّوميَّةِ، ونفيِ الموتِ المتضمنِ كمالَ الحياةِ، ونفيِ اللُّغوبِ والإعياءِ المتضمنِ كمالَ القدرةِ، ونفيِ الشريكِ والصاحبةِ والولَدِ والظهيرِ المتضمنِ كمالَ ربوبيتِهِ وإلهيَّته وقهرِه، ونفيِ الأكلِ والشُّربِ المتضمنِ لكمالِ صَمَديَّتِه وغِناهُ، ونفيِ الشفاعةِ عندَهُ بدونِ إذنِه المتضمنِ كمالَ توحيدِه وغناهُ عن خلقِه، ونفيِ الظلمِ المتضمنِ كمالَ عدلِه وعلمِه وغِناهُ، ونفيِ النسيانِ وعُزوبِ شيءٍ عن عِلمِهِ المتضمنِ كمالَ عِلمِه وإحاطَتِه، ونفيِ المِثْلِ المتضمنِ لكَمالِ ذَاتِهِ وصِفاتِهِ ولهذا لم يَتَمَدَّحْ بعَدمٍ مَحْضٍ لا يَتَضَمَّنُ أمرًا ثُبوتيًّا. (فإنَّ المعدومَ يُشارِكُ المَوْصُوفَ في ذلك العدمِ، ولا يُوصَفُ الكَمالُ بأمرٍ يَشْتَرِكُ هو والمعدومُ فيهِ؛ فلو كانَ المُرادُ بقولِه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أنه لا يُرَى بحالٍ لم يَكُنْ في ذَلِكَ مَدْحٌ ولا كمالٌ، لمشاركةِ المعدومِ له في ذلك، فإن العدمَ الصِّرْفَ لا يُرَى ولا تُدْرِكُه الأبصارُ، والربُّ جلَّ جلالُه يَتعالَى أن يُمْدحَ بما يُشارِكُه فيه العدمُ المَحْضُ. فإذاً المعنَى أنه يُرَى ولا يُدْرَكُ، ولا يُحاطُ به، كما كانَ المَعْنَى في قولِه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [يُونُس: ٦١] أنه يَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ، وفي قولِه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق: ٣٨] أنه كاملُ القدرةِ، وفي قولِه: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩] أنه كاملُ العدلِ، وفي قولِه: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أنه كاملُ القيُّوميَّةِ.

فقولُه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] يدُلُّ على غايةِ عَظَمَتِهِ، وأنه أَكْبَرُ مِن كُلِّ شيءٍ، وأنه لِعَظَمَتِهِ لا يُدْرَكُ، بحيثُ يُحاطُ به، فإنَّ الإدراكَ هو الإحاطةُ بالشيءِ، وهو قدرٌ زائدٌ على الرؤيةِ، كما قالَ تعالَى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾ [الشعراء: ٦١]. فلم يَنْفِ موسَى الرؤيةَ، ولم يُريدُوا بقولِهِم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾ إنا لَمَرْئِيُّونَ. فإن مُوسَى ـ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه ـ نَفَى

[الثالثُ والعشرون]: ([أنَّ] المعارضينَ بينَ الوحيِ والعقْلِ مِن الجَهميَّةِ المُعطِّلَةِ والفلاسفةِ المُلاحِدةِ ومَن اتَّبعَ سُبُلَهُم؛ هم دائماً يُدْلُونَ بنفيِ التشبيهِ والتمثيلِ، ويَجعلونَهُ جُنَّةً لتعطيلِهم ونَفْيِهم، فجَحَدُوا عُلُوَّهُ على خَلْقِهِ ومُباينتَهُ

إدراكَهُم إياهم بقولِه: (كلا) وأخبرَ اللهُ سبحانُه أنه لا يَخافُ دَرْكَهُم بقولِه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: ٧٧]. فالرؤيةُ والإدراكُ كلٌّ منهما يوجَدُ معَ الآخرِ وبدُونِه، فالربُّ تعالى يُرى ولا يُدْرَكُ، كما يُعْلَمُ ولا يُحاطُ به، وهذا هو الذي فَهِمَتْهُ الصحابةُ والأئمةُ من الآيةِ.

قال ابنُ عباسٍ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لا تُحِيطُ به الأبصارُ، وقال قَتادةُ: هو أعظمُ من أن تُدْرِكَهُ الأبصارُ، وقال عَطِيَّةُ: يَنْظُرونَ إلى اللهِ ولا تُحِيطُ أبصارُهم به من عَظَمَتِهِ، وبَصَرُه يحيطُ بهم، فذلك قولُه [تعالَى]: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فالمؤمنونَ يَرَوْنَ رَبَّهُم - تبارَكَ وتَعالَى - بأبصارِهم عِيانًا ولا تُدْرِكُهُ أبصارُهم، بمعنَى أنها لا تُحِيطُ به؛ إذ كانَ غيرُ جائزٍ أن يُوصفَ اللهُ عزَّ وجلَّ بأن شيئًا يُحِيطُ به وهو بكلِّ شيءٍ محيطٌ، وهكذا يُسْمِعُ كَلامَهُ مَنْ يَشاءُ مِن خَلقِه ولا يُحِيطونَ بكلامِه، وهكذا يَعْلَمُ الخلقُ ما عَلَّمَهُم ولا يُحِيطُونَ بعِلمِه.

* ونظيرُ هذا: استدلالُهم على نفيِ الصفاتِ بقولِه تعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وهذا من أعظمِ الأدلةِ على كَثْرَةِ صفاتِ كمالِهِ ونُعوتِ جَلالِه، وأنها لِكَثْرَتِهَا وعَظَمَتِهَا وسَعَتِهَا لم يَكُنْ له مِثْلٌ فيها، وإلا فلو أُرِيدَ بها نفيُ الصفاتِ لكانَ لعدمُ المَحْضُ أولَى بهذا المدحِ منه، معَ أنَّ جميعَ العقلاءِ إنما يَفهمونَ من قولِ القائلِ: فلانٌ لا مِثْلَ له، وليسَ له نظيرٌ ولا شبيهٌ ولا مِثْلٌ، أنه قد تَميَّزَ عن الناسِ بأوصافٍ ونُعوتٍ لا يُشارِكُونَهُ فِيهَا، وكُلَّمَا كَثُرَتْ أَوْصَافُه ونُعوتُه فاقَ أَمْثالَهُ، وبَعُدَ عن مُشابهةِ أَضرابِه، فقولُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، مِن أَدَلِّ شَيْءٍ على كَثْرَةِ نُعوتِهِ وصِفَاتِهِ، وقولُه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] من أَدَلِّ شيءٍ على أنه يُرَى ولا يُدْرَكُ.

وقولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديدُ: ٤]؛ من أَدَلِّ شيءٍ على مُباينةِ الربِّ لخلقِه، فإنه لم يَخْلُقْهُم في ذاتِه بل [خَلَقَهُمْ] خارجًا عن ذاتِه، ثم بانَ عنهم باستوائِه على عرشِه، وهو يعلَمُ ما هم عليه فيَراهُم ويَنْفُذُهُم بَصَرُه ويُحِيطُ بهم علمًا وقدرةً وإرادةً وسَمْعًا وبَصَرًا، فهذا معنى كونِه سبحانَهُ معَهم أينما كانُوا، وتأمَّلْ حُسنَ هذه المقابلةِ لَفظًا ومعنًى بينَ قولِه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعامُ: ١٠٣] فإنه سُبحانَهُ لِعَظمتِهِ يَتعالَى أن تُدْرِكَهُ الأبصارُ وتُحِيطَ به، ولِلُطفِه وخِبرتِه يُدْرِكُ الأبصارَ فلا تَخْفَى عليه، فهو العظيمُ في لُطفِه، اللطيفُ في عَظمتِه، العالِي في قُربِه، القريبُ في عُلُوِّه الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعامُ: ١٠٣]).

لهم، وتَكلُّمَهُ بالقرآنِ والتوراةِ والإنجيلِ وسائرِ كُتُبِهِ، وتكليمَهُ لِموسى، واستواءَهُ على عَرْشِهِ، ورُؤيَةَ المؤمنينَ لهُ بأبصارِهم مِنْ فوقِهم في الجنَّةِ، وسلامَهُ عليهم، وتَجلِّيَهُ لهم ضَاحِكاً، وغيرَ ذلك مِمَّا أَخبَرَ بِهِ عنْ نفسِهِ وأَخْبَرَ بِهِ عنهُ رسولُهُ، وتَترَّسُوا بنفيِ التشبيهِ، واتَّخَذُوهُ جُنَّةً يَصُدُّونَ بِهِ القلوبَ عن الإيمانِ باللهِ وبأسمائِهِ وصِفاتِهِ، وكلُّ مَنْ نَفَى شيئاً مِمَّا وَصَفَ بِهِ نفسَهُ جَعَلَ نفيَ التشبيهِ لهُ كالوِقايَةِ في الفعْلِ، حتَّى آلَ ذلكَ ببعضِهم إلى أنْ نَفَى ذاتَهُ وماهِيَّتَهُ خَشيَةَ التشبيهِ، فقالَ: هوَ وُجودٌ مَحْضٌ لا مَاهِيَّةَ لهُ، ونَفَى آخرونَ وُجودَهُ بالكُلِّيَّةِ خَشيَةَ التشبيهِ، وقالوا: يَلْزَمُنَا في الوُجودِ ما لَزِمَ مُثبِتِي الصِّفَاتِ والكلامِ والعُلُوِّ في ذلكَ، فنحن نَسُدُّ البابَ بالكُلِّيَّةِ.

ولا رَيبَ أنَّ المُشَبِّهَةَ المَحْضَةَ خيرٌ مِنْ هؤلاءِ وأَحسنُ قَوْلاً في رَبِّهِم، وأحسنُ ثناءً عليهِ منهم.

والطائفةُ المُعطِّلَةُ بِمَنـزلةِ مَنْ قَدَحَ في مُلْكِ المَلِكِ وسُلطانِهِ، ونَفَى قُدرتَهُ وعِلمَهُ وتَدبيرَهُ لِمَملكتِهِ وسائرَ صفاتِ المُلْكِ.

والطائفةُ الثانيةُ بِمَنـزلةِ مَنْ شَبَّهَهُ بِمَلِكٍ غيرِهِ، موصوفٍ بأكملِ الصِّفَاتِ وأَحْسَنِ النعوتِ.

فيَنبغِي أن تَعْلَمَ في هذا قاعدةً نافعةً جِدًّا، وهيَ: أنَّ نَفْيَ الشِّبْهِ والمِثْلِ والنظيرِ ليسَ في نفسِهِ صفةَ مَدْحٍ ولا كَمالٍ، ولا يُحْمَدُ بِهِ المنفيُّ عنهُ ذلكَ بِمُجَرَّدِهِ؛ فإنَّ العَدَمَ المَحضَ الذي هوَ أَخسُّ المعلوماتِ وأَنْقَصُها يُنْفَى عنهُ الشِّبْهُ والمِثْلُ والنظيرُ، ولا يكونُ ذلكَ كَمالاً ومَدْحاً إلاَّ إذا تَضَمَّنَ كونَ مَنْ نُفِيَ عنهُ ذلكَ قد اخْتَصَّ مِنْ صفاتِ الكمالِ ونُعوتِ الجلالِ بأوصافٍ بَايَنَ بها غيرَهُ، وخَرَجَ بها عنْ أن يكونَ لهُ نظيرٌ أَوْ شبهٌ، فهوَ لتَفَرُّدِهِ بها عنْ غيرِهِ صحَّ أن يُنْفَى عنهُ الشبْهُ والمِثْلُ والنظيرُ والكفءُ، فلا يُقالُ لِمَنْ لا سَمْعَ لهُ ولا بَصَرَ ولا حياةَ

ولا عِلْمَ ولا كلامَ ولا فِعْلَ: ليسَ لهُ شِبْهٌ ولا مِثْلٌ ولا نظيرٌ، اللَّهمَّ إلاَّ في بابِ الذمِّ والعيبِ؛ أيْ: قدْ سُلِبَ صفاتِ الكمالِ كُلَّها بحيثُ صارَ لا شِبْهَ لهُ في النقْصِ. هذا الذي عليهِ فِطَرُ الناسِ وعقولُهم، واستعمالُهم في المدْحِ والذمِّ، كما قالَ شاعرُ القومِ:

ليسَ كمِثلِ الفتى زُهَيْرٍ خُلُقٌ يُساويهِ في الفضائلِ

وقالَ الآخرُ: ما إن كَمِثْلِهمُ في النَّاسِ مِنْ أَحَدٍ.

وقالَ الفَرَزْدَقُ:

فما مِثْلُهُ في الناسِ إلاَّ مُمَلَّكاً أبو أمِّهِ حيٌّ أبوهُ يُقارِبُهُ

أيْ: ما مِثْلُهُ في الناسِ حيٌّ يُقارِبُهُ إلاَّ مُمَلَّكٌ هوَ خالُهُ.

وقالَ الآخرُ:

فما مِثْلُهُ فيهم ولا هوَ كائنٌ وليسَ يكونُ - الدهرَ - ما دامَ يَذْبُلُ

نَفَى أن يكونَ لهُ مِثْلٌ في الحالِ والماضي والمستقبَلِ.

وقالَ الآخرُ:

ولم أَقُلْ مثلَكَ أَعْني بهِ سواكَ يا فَرْداً بلا شَبَهِ

ومنهُ قولُهم: فلانٌ نَسيجُ وحدِهِ، شبَّهَهُ بثوبٍ لم يُنْسَجْ لهُ نظيرٌ في حُسْنِهِ وصِفاتِهِ، فعكَسَ المُعَطِّلَةُ المعنى، وقَلَّبُوا الحقائقَ، وأَزالُوا دَلالةَ اللفظِ عنْ مَوْضِعِها وجعَلُوا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] جُنَّةً وتُرْساً لنَفْيِ عُلُوِّهِ - سُبحانَهُ - على عَرْشِهِ وتكليمِهِ لرُسُلِهِ وإثباتِ صفاتِ كَمالِهِ). (١)

[الرابعُ والعشرونَ]: ([أنَّ] كلَّ ما يُنَزَّهُ سُبحانَهُ عنهُ مِن العيوبِ والنقائصِ فهوَ داخلٌ فيما نَزَّهَ نفسَهُ عنهُ، وفيما يُسَبَّحُ بِهِ ويُقَدَّسُ ويُحْمَدُ ويُمَجَّدُ، وداخلٌ في معاني أسمائِهِ الْحُسْنَى، وبذلكَ كانت حُسْنَى؛ أيْ: أحسنَ مِنْ غيرِها، فهيَ

(١) الصَّواعِقُ المُرْسَلَة (٤/ ١٣٦٦-١٣٧١).

أفعلُ تفضيلٍ مُعَرَّفَةٌ باللامِ؛ أيْ: لا أحسنَ منها بوجهٍ مِن الوُجوهِ. بلْ لها الحُسْنُ الكاملُ التامُّ المطلَقُ، وأسماؤُهُ الحُسْنى وآياتُهُ البيِّناتُ مُتضمِّنَةٌ لذلكَ ناطقةٌ بهِ صريحةٌ فيهِ، وإنْ أَلْحَدَ المُلْحِدونَ، وزَاغَ عنها الزائغونَ). [1]

[الخامسُ والعشرونَ]: (أنَّ العقلَ... [لا يُمْكِنُه] تَعرُّفُ كُنْهِ الصفةِ وكَيفيَّتِها. فإنَّهُ لا يَعْلَمُ كيفَ اللهُ إلاَّ اللهُ، وهذا معنى قولِ السلَفِ: «بِلا كَيْفٍ» أيْ: بلا كيفٍ يَعْقِلُهُ البَشَرُ. فإنَّ مَنْ لا تُعْلَمُ حَقيقةُ ذاتِهِ وماهِيَّتِهِ، كيفَ تُعْرَفُ كَيفيَّةُ نُعوتِهِ وصِفاتِهِ؟! ولا يَقدَحُ ذلكَ في الإيمانِ بها، ومَعرِفَةِ مَعانِيهَا؛ فالكيفيَّةُ وراءَ ذلكَ، كما أنَّا نَعرِفُ مَعانِيَ ما أَخْبَرَ اللهُ بهِ مِنْ حقائقِ ما في اليومِ الآخرِ، ولا نَعْرِفُ حقيقةَ كيفيَّتِهِ، معَ قُرْبِ ما بينَ المخلوقِ والمخلوقِ. فعَجْزُنَا عنْ مَعرِفَةِ كيفيَّةِ الخالقِ وصفاتِهِ أَعظمُ وأَعظَمُ.

فكيفَ يَطمَعُ العقلُ المخلوقُ المحصورُ المحدودُ في مَعرِفَةِ كيفيَّةِ مَنْ لهُ الكمالُ كلُّهُ، والجمالُ كلُّهُ، والعلْمُ كُلُّهُ، والقُدرةُ كلُّها والعظمةُ كلُّها، والكبرياءُ كلُّها؟ مَنْ لوْ كَشَفَ الْحِجابَ عنْ وَجْهِهِ لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُهُ السماواتِ والأرضَ وما فيهما وما بينَهما وما وراءَ ذلكَ؟ الذي يَقْبِضُ سماواتِهِ بيدِهِ، فتَغيبُ كما تَغيبُ الْخَرْدلةُ في كَفِّ أَحدِنا؟ الذي نِسبةُ علومِ الخلائقِ كلِّها إلى عِلْمِهِ أقَلُّ مِنْ نِسبةِ نَقرةِ عُصفورٍ مِنْ بِحارِ العِلْمِ؟ الذي لوْ أنَّ البحرَ - يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سبعةُ أَبْحُرٍ - مِدادٌ، وأشجارَ الأرضِ - مِنْ حينَ خُلِقَت إلى قيامِ الساعةِ - أقلامٌ: لفَنِيَ المِدادُ وفَنِيَت الأقلامُ، ولَمْ تَنْفَدْ كَلِماتُهُ؟ الذي لوْ أنَّ الخلْقَ مِنْ أوَّلِ الدنيا إلى آخرِها - إنْسَهم وجِنَّهُم، وناطقَهم وأَعجمَهم - جُعِلوا صَفًّا واحداً: ما أَحاطُوا بهِ سُبحانَهُ؟ الذي يَضَعُ السماواتِ على إصبعٍ مِنْ أَصابعِهِ، والأرضَ على إِصْبَعٍ، والجبالَ على إصبعٍ، والأشجارَ على إصبعٍ. ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ. ثُمَّ يقولُ: أنا المَلِكُ؟

(١) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (١٤٤٣).

فقاتَلَ اللهُ الجَهْمِيَّةَ والمُعَطِّلَةَ! أينَ التشبيهُ هاهنا؟ وأينَ التمثيلُ؟ لقد اضْمَحَلَّ هاهنا كلُّ موجودٍ سِواهُ. فَضْلاً عنْ أن يكونَ لهُ ما يُماثِلُهُ في ذلكَ الكمالِ، ويُشابِهُهُ فيهِ.

فسُبحانَ مَنْ حَجَبَ عُقولَ هؤلاءِ عنْ مَعرفتِهِ، ووَلاَّهَا ما تَولَّتْ مِنْ وُقوفِها معَ الألفاظِ التي لا حُرْمَةَ لها، والمعاني التي لا حقائقَ لها.

ولَمَّا فَهِمَتْ هذهِ الطائفةُ مِن الصِّفَاتِ الإلهيَّةِ ما تَفْهَمُهُ مِنْ صفاتِ المخلوقينَ فَرَّتْ إلى إنكارِ حقائقِها، وابتغاءِ تحريفِها وسَمَّتْهُ تأْويلاً. فشَبَّهَتْ أوَّلاً، وعَطَّلَتْ ثانياً، وأساءَت الظَّنَّ بربِّها وبكتابِهِ وبِنَبِيِّهِ وبأَتْبَاعِهِ.

أمَّا إساءةُ الظنِّ بالرَّبِّ: فإنَّها عَطَّلَتْ صفاتِ كمالِهِ، ونسَبَتْهُ إلى أنَّهُ أَنْزَلَ كتاباً مُشْتَمِلاً على ما ظاهِرُهُ كفْرٌ وباطلٌ، وأنَّ ظاهِرَهُ وحقائقَهُ غيرُ مُرادِهِ.

وأمَّا إساءةُ ظَنِّها بالرسولِ: فلأنَّهُ تكَلَّمَ بذلكَ وقَرَّرَهُ وأَكَّدَهُ، ولم يُبَيِّنْ للأُمَّةِ أنَّ الحقَّ في خِلافِهِ وتأويلِه.

وأمَّا إساءةُ ظَنِّها بأَتْباعِهِ: فِبنسبتِهم لهم إلى التشبيهِ والتمثيلِ، والجهْلِ والحَشْوِ.

وهم عندَ أَتباعِهِ أَجْهَلُ مِنْ أن يُكَفِّروهم، إلاَّ مَنْ عانَدَ الرسولَ، وقَصَدَ نَفيَ ما جاءَ بِهِ. والقومُ عندَهم في خَفَارةِ جَهْلِهم، قدْ حُجِبَتْ قلوبُهم عنْ مَعرفةِ اللهِ وإثباتِ حقائقِ أسمائِهِ وأوصافِ كمالِه)[1].

[السادسُ والعشرون]: (المجازُ والتَّأْويلُ لا يَدْخُلُ في المنصوصِ وإنَّما يَدخلُ في الظاهرِ المحتَمِلِ لهُ، **وهنا نُكتةٌ يَنبغِي التَّفطُّنُ لها**، وهيَ أنَّ كونَ **اللفظِ نَصًّا يُعْرَفُ بشيئينِ:**

أحدُهما: عدَمُ احتمالِهِ لغيرِ مَعناهُ وَضْعاً: كالعشَرةِ.

(١) مَدارِجُ السَّالكينَ (٣/ ٣٣٥-٣٣٦).

والثاني: ما اطَّرَدَ استعمالُهُ على طريقةٍ واحدةٍ في جميعِ مَوارِدِهِ: فإنَّهُ لا يَقْبَلُ تأويلاً ولا مجازاً، وإن قُدِّر تَطرَّقَ ذلكَ إلى بعضِ أفرادِهِ، وصار هذا بِمَنـزلةِ خَبَرِ المتواتِرِ لا يَتَطَرَّقُ احتمالُ الكَذِبِ إليهِ، وإن تَطَرَّقَ إلى كلِّ واحدٍ مِنْ أفرادِهِ بِمُفْرَدِهِ.

وهذه عِصْمَةٌ نافعةٌ تَدُلُّكَ على خَطَأِ كثيرٍ مِن التَّأْويلاتِ للسَّمْعِيَّاتِ التي اطَّرَدَ استعمالُها في ظاهرِها، وتأويلُها - والحالةُ هذهِ - غَلَطٌ؛ فإنَّ التأويلَ إنَّما يكونُ لظاهرٍ قدْ وَرَدَ شاذًّا مخالِفاً لغيرِهِ مِن السَّمْعِيَّاتِ فيُحتاجُ إلى تأويلِهِ لتُوافِقَها.

فأمَّا إذا ما اطَّرَدَتْ كلُّها على وَتيرةٍ واحدةٍ صارتْ بِمَنـزلةِ النَّصِّ وأَقْوَى، وتأويلُها مُمتنِعٌ. فَتَأَمَّلْ هذا).(١)

[السابعُ والعشرونَ]: (في بيانِ ما يَقبلُ التَّأْويلَ مِن الكلامِ وما لا يَقبلُهُ.

لَمَّا كانَ وَضْعُ الكلامِ للدَّلالةِ على مُرادِ المُتَكَلِّمِ، وكان مُرادُهُ لا يُعْلَمُ إلاَّ بكلامِهِ انْقَسَمَ **كلامُهُ ثلاثةَ أقسامٍ:**

أحدُها: ما هوَ نَصٌّ في مُرادِهِ لا يَحْتَمِلُ غيرَهُ.

الثاني: ما هوَ ظاهرٌ في مُرادِهِ، وإن احتمَلَ أن يُريدَ غيرَهُ.

الثالثُ: ما ليسَ بنَصٍّ ولا ظاهرٍ في المرادِ، بلْ هوَ مُجْمَلٌ يحتاجُ إلى البيانِ.

فالأَوَّلُ: يَستحيلُ دُخولُ التَّأْويلِ فيهِ، وتَحميلُهُ التَّأْويلَ كَذِبٌ ظاهرٌ على المُتَكَلِّمِ، وهذا شأنُ عامَّةِ نصوصِ القرآنِ الصريحةِ في مَعناها، كنصوصِ آياتِ الصِّفَاتِ والتوحيدِ، وأنَّ اللهَ سُبحانَهُ مُكَلِّمٌ مُتكَلِّمٌ، آمِرٌ ناهٍ، قائلٌ مخبرٌ مُوحٍ، حاكمٌ واعدٌ مُوعِدٌ، مُنْبِئٌ هادٍ، داعٍ إلى دارِ السلامِ، فوقَ عِبادِهِ، عَلِيٌّ على كلِّ شيءٍ، مُسْتَوٍ على عَرْشِهِ، يَنـزِلُ الأَمرُ مِنْ عِنْدِهِ ويَعْرُجُ إليهِ، وأنَّهُ فَعَّالٌ

(١) بَدائِعُ الفَوائِدِ (١/ ١٥).

حقيقةً، وأنَّهُ كلَّ يومٍ في شأنٍ، فعَّالٌ لِمَا يُريدُ، وأنَّهُ ليسَ للخلقِ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ ولا شفيعٌ ولا ظَهيرٌ، وأنَّهُ المنفرِدُ بالربوبيَّةِ والإلهيَّةِ والتدبيرِ والقيوميَّةِ، وأنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى، وما تَسْقُطُ مِنْ ورقةٍ إلاَّ يَعْلَمُها، وأنَّهُ يَسمعُ الكلامَ الخفيَّ كما يَسمعُ الجَهْرَ، ويَرَى ما في السَّماواتِ والأرضِ، ولا يَخْفَى عليهِ منها ذَرَّةٌ واحدةٌ، وأنَّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فلا يَخرجُ مَقدورٌ واحدٌ عنْ قُدرتِهِ البَتَّةَ، كما لا يَخرجُ عنْ عِلْمِهِ وتكوينِهِ، وأنَّ لهُ ملائكةً مُدبِّراتٍ بأَمْرِهِ للعالَمِ، تَصْعَدُ وتَنْزِلُ وتَتَحَرَّكُ وتَنتقلُ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، وأنَّهُ يَذهبُ بالدنيا ويُخَرِّبُ هذا العالَمَ ويأتي بالآخِرةِ، ويَبعثُ مَنْ في القُبورِ - جَلَّ جَلالُهُ - إلى أَمثالِ ذلكَ مِنَ النصوصِ التي هيَ في الدَّلالةِ على مُرادِها كدَلالةِ لفظِ العشرةِ والثلاثةِ على مَدلولِهِ، وكدَلالةِ لفظِ الشمسِ والقمرِ، والليلِ والنهارِ، والبَرِّ والبحرِ، والخيلِ والبغالِ، والإبلِ والبقرِ والغنَمِ، والذكَرِ والأُنْثَى؛ على مَدلولِها، لا فَرْقَ بينَ ذلكَ البَتَّةَ.

ولهذا لَمَّا سَلَّطَت الجَهْمِيَّةُ التَّأْويلَ على نُصوصِ الصِّفَاتِ، سَلَّطَت البَاطِنِيَّةُ التَّأْويلَ على هذهِ الأمورِ وجَعلوها أَمْثَالاً مَضروبةً أُريدَ بها خِلافُ حَقائقِها وظَواهِرِها، وجَعَلُوا القرآنَ والشَّرْعَ كُلَّهُ مُؤَوَّلاً، ولهم في التَّأْويلِ كُتُبٌ مُستقِلَّةٌ نَظيرُ كُتُبِ الجَهْمِيَّةِ في تأويلِ آياتِ الصِّفَاتِ وأحاديثِها.

فهذا القِسْمُ إن سُلِّطَ التَّأْويلُ عليهِ، عادَ الشرعُ كلُّهُ مُتَأَوَّلاً؛ لأَنَّهُ أَظْهَرُ أقسامِ القرآنِ ثُبوتاً وأكثرُها وُروداً، ودَلالةُ القرآنِ عليهِ مُتنوِّعَةٌ غايَةَ التنوُّعِ، فقَبولُ ما سِواهُ للتأويلِ أَقرَبُ مِنْ قَبولِهِ بكثيرٍ.

[فَصْلٌ]

القِسْمُ الثاني: ما هوَ ظاهرٌ في مُرادِ المتكلِّمِ، ولكِنَّهُ يَقْبَلُ التَّأْويلَ.

فهذا يُنظَرُ في وُرودِهِ، فإن اطَّرَدَ استعمالُهُ على وَجْهٍ واحدٍ، استحالَ تأويلُهُ بما يُخالِفُ ظاهِرَهُ؛ لأنَّ التَّأْويلَ إِنَّما يكونُ لِمَوْضِعٍ جاءَ نادراً خارجاً عنْ نظائرِهِ مُنْفرِداً عنها، فيُؤَوَّلُ حتَّى يُرَدَّ إلى نظائِرِهِ، وتأويلُ هذا غيرُ مُمْتَنِعٍ؛ لأَنَّهُ إذا عُرِفَ مِنْ عادَةِ المتكلِّمِ باطِّرادِ كلامِهِ في تَوارُدِ استعمالِهِ معنًى أَلِفَهُ المخاطَبُ، فإذا جاءَ مَوْضِعٌ يُخالِفُهُ رَدَّهُ السامعُ بما عَهِدَ مِنْ عُرْفِ المخاطَبِ إلى عادتِهِ المُطَّرِدَةِ، هذا هوَ المعقولُ في الأذهانِ والفِطَرِ وعندَ كافَّةِ العُقلاءِ، وقدْ صَرَّحَ أَئِمَّةُ العربيَّةِ بأنَّ الشيءَ إنَّما يجوزُ حَذْفُهُ إذا كانَ الموضِعُ الذي ادُّعِيَ فيهِ حَذْفُهُ قد استُعْمِلَ فيهِ ثُبوتُهُ أكثرَ مِنْ حَذْفِهِ، فلا بُدَّ أن يكونَ مَوْضِعُ ادِّعاءِ الحذْفِ عندَهم صالحاً للثُّبوتِ، ويكونَ الثبوتُ معَ ذلكَ أكثرَ مِن الحذْفِ حتَّى إذا جاءَ ذلكَ محذوفاً في مَوْضِعٍ عُلِمَ بكثرةِ ذِكْرِهِ في نظائرِهِ أنَّهُ قدْ أُزيلَ مِنْ هذا الموضِعِ فحُمِلَ عليهِ، فهذا شأنُ مَنْ يَقْصِدُ البيانَ والدَّلالةَ، وأمَّا مَنْ يَقْصِدُ التلبيسَ والتعميَةَ فلهُ شأنٌ آخرُ.

والقصْدُ أنَّ الظاهرَ في معناهُ إذا اطَّرَدَ استعمالُهُ في مَوارِدِهِ مُسْتَوِياً امْتَنَعَ تأويلُهُ، وإن جازَ تأويلُ ظاهرٍ ما لم يَطَّرِدْ في مَوادِّ استعمالِهِ.

ومِثالُ ذلكَ: اطِّرادُ قولِهِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] في جميعِ مَوارِدِهِ مِنْ أَوَّلِها إلى آخِرِها على هذا اللفظِ، فتأويلُهُ بـ (اسْتَوْلَى) باطلٌ. وإِنَّما كانَ يَصِحُّ أن لوْ كانَ أكثرُ مجيئِهِ بلفظِ (اسْتَوْلَى) ثُمَّ يَخْرُجُ موضِعٌ عنْ نظائِرِهِ ويَرِدُ بلفظِ (استوى) فهذا كانَ يَصِحُّ تأويلُهُ بـ (استولى). **فتَفَطَّنْ لهذا الموضِعِ، واجْعَلْهُ قاعدةً فيما يَمْتَنِعُ تأويلُهُ مِنْ كلامِ المتكلِّمِ وما يجوزُ تأويلُهُ.**

ونظيرُ هذا اطِّرادُ النصوصِ بالنظرِ إلى اللهِ، هكذا: (تَروْنَ رَبَّكُمْ)، (تَنْظُرُونَ إلَى رَبِّكُمْ)، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٣]، ولم يَجِئْ في مَوْضِعٍ واحدٍ: (تَروْنَ ثَوابَ رَبِّكُمْ) فيُحْمَلَ عليهِ ما خَرَجَ عنْ نظائرِهِ.

ونظيرُ ذلكَ اطِّرادُ قولِهِ: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ [القصص: ٦٢]، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ [القصص: ٤٦]، و: ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ [النازعات: ١٦] ونظائرِها، ولم يَجِئْ في مَوْضِعٍ واحدٍ: (أَمَرْنَا مَنْ يُنَادِيَهُ) ولا: (نَادَاهُ مَلَكُنَا)، فتأويلُهُ بذلك عينُ المُحالِ والباطلِ.

ونظيرُ ذلكَ اطِّرادُ قولِهِ: «يَنْـزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ ...» في نحوِ ثلاثينَ حَدِيثاً، كلُّها مُصَرِّحَةٌ بإضافةِ النـزولِ إلى الربِّ، ولم يَجِئْ مَوْضِعٌ واحدٌ بقولِهِ: «يَنْـزِلُ مَلَكُ رَبِّنَا» حتَّى يُحْمَلَ ما خَرَجَ عنْ نظائرِهِ عليهِ.

وإذا تَأَمَّلْتَ نصوصَ الصِّفَاتِ التي لا تَسْمَحُ الجهميَّةُ بأنْ يُسَمُّوهَا نُصوصاً، فإذا احتَرَمُوها قالوا: ظواهِرُ سَمْعِيَّةٌ، وقدْ عارَضَتْها القواطِعُ العقليَّةُ - وَجَدْتَها كلَّها مِنْ هذا البابِ.

ومِمَّا يُقْضَى منهُ العَجَبُ أنَّ كلامَ شيوخِهم ومُصَنِّفِيهم عندَهم نَصٌّ في مُرادِهِ لا يَحْتَمِلُ التَّأْويلَ، وكلامَ الموافقينَ عندَهم نَصٌّ لا يَجوزُ تأويلُهُ، حتَّى إذا جاءُوا إلى كلامِ اللهِ ورسولِهِ، وَقَفُوهُ على التَّأْويلِ، ووَقَفُوا التَّأْويلَ عليهِ، فقُلْ ما شِئْتَ، وحَرِّفْ ما شِئْتَ!. أفَتَرَى بيانَ هؤلاءِ لِمُرَادِهِم أَتَمَّ مِنْ بيانِ اللهِ ورسولِهِ؟! أمْ كانوا مُسْتَوْلِينَ على بيانِ الحقائقِ التي سَكَتَ اللهُ ورسولُهُ عنْ بيانِها؟! بلْ أولئكَ هم الجاهلونَ المُتَهَوِّكُونَ.

[فَصْلٌ]

القسمُ الثالثُ: الخطابُ المُجْمَلُ الذي أُحيلَ بيانُهُ على خِطابٍ آخَرَ.

فهذا أيضاً لا يَجوزُ تأويلُهُ إلاَّ بالخطابِ الذي بَيَّنَهُ، وقدْ يكونُ بيانُهُ معه، وقدْ يكونُ مُنْفَصِلاً عنه.

والمقصودُ أنَّ الكلامَ الذي هوَ عُرْضَةُ التَّأْويلِ، قدْ يكونُ لهُ عِدَّةُ معانٍ، وليسَ معه ما يُبَيِّنُ مُرادَ المُتَكَلِّمِ، فهذا للتأويلِ فيهِ مَجالٌ واسعٌ، وليسَ في كلامِ اللهِ ورسولِهِ مِنْ هذا النوعِ شيءٌ مِن الجُمَلِ المُرَكَّبَةِ، وإن وَقَعَ في الحروفِ المفتتَحِ بها السُّوَرُ.

بلْ إذا تَأَمَّلَ مَنْ بَصَّرَهُ اللهُ طريقةَ القرآنِ والسُّنَّةِ وَجَدَها مُتَضَمِّنَةً لِرَفْعِ ما يُوهِمُهُ الكلامُ مِنْ خِلافِ ظاهِرِهِ، **وهذا مَوْضِعٌ لطيفٌ جِدًّا في فَهْمِ القرآنِ** نُشيرُ إلى بعضِهِ:

- فمِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤]، رَفَعَ سُبحانَهُ تَوَهُّمَ المجازِ في تَكليمِهِ لِكَليمِهِ بالمصدَرِ المؤكِّدِ الذي لا يَشُكُّ عربيُّ القلْبِ واللسانِ أنَّ المرادَ بهِ إثباتُ تلكَ الحقيقةِ، كما تقولُ العربُ: ماتَ موتاً، ونَزَلَ نُـزولاً؛ ونظيرُهُ التأكيدُ بالنفْسِ، والعينِ، وكُلٍّ، وأَجمعَ، والتأكيدُ بقولِهِ: «حقًّا» ونظائرِه.

- ومِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾ [المجادلة: ١] فلا يَشُكُّ صحيحُ الْفَهْمِ الْبَتَّةَ في هذا الْخِطابِ أنَّهُ نَصٌّ صريحٌ، لا يَحْتَمِلُ التَّأْويلَ بوجهٍ في إثباتِ صفةِ السمْعِ للرَّبِّ تعالى حقيقةً، وأنَّهُ بنفسِهِ سَمِعَ.

- ومِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٤٢﴾ [الأعراف: ٤٢] فرَفَعَ تَوَهُّمَ السامعِ أنَّ المكلَّفينَ عَمِلُوا جميعَ الصالحاتِ المقدورةِ والمعجوزِ عنها - كما يُجَوِّزُهُ أَصحابُ تكليفِ ما لا يُطاقُ - رَفْعُ هذا التَّوَهُّمِ بجُملةٍ اعْتُرِضَ بها بينَ المبتدأِ وخبرِهِ يُزيلُ الإشكالَ.

ونظيرُهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

• ومِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٨٤]. فلمّا أَمَرَهُ بالقتالِ أخبرَهُ أنَّهُ لا يكلَّفُ بغيرِهِ، بلْ إنّما كُلِّفَ نفسَهُ، ثُمَّ أَتْبَعَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لِئَلاَّ يَتوهَّمَ سامعٌ أنَّهُ: وإنْ لم يُكَلَّفْ بهم، فإنَّهُ يُهْمِلُهُمْ وَيَتْرُكُهُمْ.

• ومِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١].

فتَأَمَّلْ كم في هذا الكلامِ مِنْ رَفْعِ إيهامٍ، وإزالةِ ما عسى أن يَعْرِضَ للمخاطَبِ مِنْ لَبْسٍ:

• فمنها قولُهُ: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ لئلا يُتَوهَّمَ أن الاتِّباعَ في نَسَبٍ، أوْ تربيَةٍ، أوْ حُرِّيَّةٍ أوْ رِقٍّ، وغيرِ ذلكَ.

• ومنها قولُهُ: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم﴾ [الطور: ٢١] رفعاً لوَهْمِ مُتَوهِّمٍ أنَّهُ يَحُطُّ الآباءَ إلى درجةِ الأبناءِ ليَحْصُلَ الإلحاقُ، والتبعيَّةُ، فأَزالَ هذا الوَهْمَ بقولِهِ: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم﴾ أيْ: ما نَقَصْنَا الآباءَ بهذا الاتِّباعِ شيئاً مِنْ عمَلِهم، بلْ رَفَعْنَا الذرِّيَّةَ إليهم قرَّةً لعُيونِهم، وإن لم يكنْ لهم أعمالٌ يَسْتَحِقُّونَ بها تلكَ الدرجةَ.

• ومنها قولُهُ: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١] فلا يُتَوهَّمُ أنَّ هذا الاتِّباعَ حاصلٌ في أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النارِ، بلْ هوَ للمؤمنينَ دونَ الكُفَّارِ، فإنَّ اللهَ سُبحانَهُ لا يُعذِّبُ أحداً إلاَّ بكَسْبِهِ، وقدْ يُثيبُهُ مِنْ غيرِ كَسْبٍ منهُ.

• ومنها قولُهُ تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب:٣٢]، فلَمّا أَمَرَهُنَّ بالتقوى التي مِنْ شَأْنِها التواضُعُ ولِينُ الكلامِ نَهاهُنَّ عن الخضوعِ

بالقولِ؛ لئلا يَطْمَعَ فيهن ذو المُرَضِ، ثُمَّ أمَرَهُنَّ بعدَ ذلكَ بالقولِ المعروفِ، رَفْعاً لتوَهُّمِ الإذْنِ في الكلامِ المنكرِ، لَمَّا نُهِينَ عن الخضوعِ بالقولِ.

• ومِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]. فرَفَعَ تَوَهُّمَ فَهْمِ الخيطينِ مِن الخيوطِ بقولِهِ: ﴿مِنَ الْخَيْطِ﴾.

• ومِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٨] فأَثْبَتَ لهم مَشيئةً، فلَعَلَّ مُتَوَهِّماً يَتَوَهَّمُ استقلالَهُ بها، وأنَّهُ إن شاءَ أتى بها، وإن شاءَ لم يأتِ، فأزالَ سُبحانَهُ ذلكَ بقولِهِ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، [الإنسان: ٣٠].

ثُمَّ لعلَّ مُتَوَهِّماً يَتَوَهَّمُ أنَّهُ [تعالى] يشاءُ الشيءَ بلا حِكمةٍ ولا عِلْمٍ بمواقعِ مَشيئتِهِ، وحيثُ تَصْلُحُ، فأزالَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠].

ونظيرُ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر: ٥٤ - ٥٦].

• ومِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [التوبة:١١١] فلعلَّ مُتَوَهِّماً يَتَوَهَّمُ أنَّ اللهَ سُبحانَهُ يَجُوزُ عليهِ تَرْكُ الوفاءِ بما وَعَدَ بِهِ، فأَزَالَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

• ومِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨].

فلَمَّا ذَكَرَ إتيانَهُ سُبحانَهُ رُبَّما تَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أنَّ المرادَ إتيانُ بعضِ آياتِهِ أَزالَ هذا الوَهْمَ ورَفَعَ الإشكالَ بقولِهِ: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] فصارَ

الكلامُ معَ هذا التقسيمِ والتنويعِ نَصًّا صريحاً في معناهُ لا يَحْتَمِلُ غيرَهُ.(١)

وإذا تَأَمَّلْتَ أحاديثَ الصِّفَاتِ رأيتَ هذا لائحاً على صَفَحاتِها بادِياً على ألفاظِها كقولِهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَاناً كَمَا تُرَى الشَّمْسُ فِي الظَّهِيرَةِ صَحْواً لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ، وَكَمَا يُرَى الْقَمَرُ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ».(٢)

وقولِهِ: «مَا مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ وَلا حِجَابٌ

---

(١) وقالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في مَدارجِ السَّالكِينَ (٣/ ٣٢٩ - ٣٣٠): (ومَن تأمَّلَ كيفيةَ وُرودِ آياتِ الصفاتِ في القرآنِ والسُّنَّةِ: عَلِمَ قطعًا بُطلانَ تَأويلِها بما يُخرِجُها عن حقائِقِها، فإنها وَرَدَت على وجهٍ لا يَحْتَمِلُ معَه التأويلَ بوجهٍ.

فانظُرْ إلى قولِه تعالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] هل يَحْتَمِلُ هذا التقسيمُ والتنويعُ تأويلَ إتيانِ الربِّ جَلَّ جَلالُه بإتيانِ ملائكتِه أو آياتِه؟ وهل يبقى مع هذا السياقِ شُبهةٌ أصلاً: أنه إتْيانُهُ بنفسِه، وكذلك قولُه: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣] إلى أن قالَ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝١٦٤﴾ [النساء:١٦٤] ففرَّقَ بينَ الإيحاءِ العامِّ والتكليمِ الخاصِّ، وجَعلَهُما نوعَينِ، ثم أكَّدَ فِعلَ التكليمِ بالمصدرِ الرافعِ لتوهُّمِ ما يقولُه المُحَرِّفُونَ.

وكذلك قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى:٥١] فنوَّعَ تكليمَهُ إلى تكليمٍ بواسطةٍ، وتكليمٍ بغيرِ واسطةٍ. وكذلك قولُه لُموسَى عليه السلامُ: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤] ففرَّقَ بينَ الرسالةِ والكلامِ. والرسالةُ إنما هي بكلامِه.

وكذلك قولُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيانًا كما تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ فِي الصَّحْوِ لَيْسَ دُونَهُ سَحابٌ، وَكَما تَرَوْنَ الشَّمسَ فِي الظهيرةِ صَحْوًا لَيْسَ دُونَها سَحابٌ». ومعلومٌ أن هذا البيانَ والكشفَ والاحترازَ: يُنافِي إرادةَ التأويلِ قطعًا. ولا يَرْتَابُ في هذا مَن له عَقْلٌ ودِينٌ).

(٢) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٠٧٣٦)، والبُخارِيُّ في كتابِ تفسيرِ القرآنِ / بابُ قولِ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (٤٥٨١)، وفي كتابِ التوحيدِ / بابُ قولِ اللهِ تعالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢﴾ (٧٤٣٩)، ومسلمٌ في كتابِ الإيمانِ / بابُ معرفةِ طريقِ الرؤيةِ (٤٥٠)، وابْنُ ماجَه في المُقدِّمةِ / بابٌ فيما أَنْكَرَتِ الجَهْمِيَّةُ (١٧٩) من حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عنه بسياقٍ آخَرَ.

يَحْجُبُهُ»[1] فلمّا كانَ تكليمُ الملوكِ قدْ يَقعُ بواسطةِ التُّرجُمانِ ومِنْ وراءِ الحِجاب، أزالَ هذا الوَهْمَ مِن الأفهامِ. وكذلكَ الحديثُ الآخَرُ: «**أنَّهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ قرأ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ١٣٤﴾** [النساء: ١٣٤] **وَضَعَ إِبْهَامَهُ عَلَى أُذُنِهِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى عَيْنِهِ**»[2]، رَفْعاً لِتَوهُّمِ مُتوهِّمٍ أنَّ المرادَ بالسمْعِ والبصرِ غيرُ الصِّفَتَيْنِ المَعْلُومَتَيْنِ، وأمثالُ هذا كثيرٌ في القرآنِ والسُّنَّةِ. كما في الحديثِ الصحيحِ أنَّهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ قالَ: «**يَقْبِضُ اللهُ سَمَاوَاتِهِ بِيَدِهِ وَالأَرْضَ بِالْيَدِ الأُخْرَى**» ثُمَّ جَعَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ يَقْبِضُ يَدَهُ ويَبْسُطُها[3]؛ تحقيقاً لإثباتِ اليدِ وإثباتِ صفةِ القبضِ. ومِنْ إشارتِهِ بأُصْبُعِهِ إلى السماءِ، حينَ استَشْهَدَ ربَّهُ تَبارَكَ وتعالى على الصحابةِ أنَّهُ قدْ بَلَّغَهُمْ[4]؛ تَحقيقاً لإثباتِ صِفةِ العُلُوِّ، وأنَّ الربَّ الذي اسْتَشْهَدَهُ فوقَ العالمِ، مُسْتَوٍ على عَرْشِهِ.

فهذه أمثلةٌ يسيرةٌ ذكرناها، ليَعْرِفَ الفَهِمُ المُنْصِفُ القاصدُ للْهُدَى والنجاةِ منها ما يَقْبَلُ التَّأْوِيلَ وما لا يَقْبَلُهُ، ولا عِبْرَةَ بغيرِهِ. واللهُ المُستعانُ).[5]

[الثامنُ والعشرونَ]: أنَّ الصِّفَاتِ ثلاثةُ أنواعٍ: صفاتُ كمالٍ، وصفاتُ نَقْصٍ، وصفاتٌ لا تَقتضِي كَمالاً ولا نَقْصاً.

---

(١) رواه البُخارِيُّ في كتابِ التوحيد / بابُ قولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ٢٢﴾ (٧٤٤٣) من حديثِ عَدِيِّ بنِ حاتمٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ.

(٢) رواهُ أبو داودَ في كتابِ السُّنَّةِ / بابٌ في الجهميَّةِ (٤٧١٣) من حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه، وهو حديثٌ مُسلسَلٌ بالتحديثِ فيما دون الصحابيِّ، ورِجالُه ثِقاتٌ؛ قال أبو داودَ: وهذا ردٌّ على الجهميةِ.

(٣) رواهُ مسلمٌ في أولِ كتابِ صفةِ القيامةِ (٦٩٨٣)، وابْنُ مَاجَهْ في المُقَدِّمَةِ / بابٌ فيما أنْكَرَتِ الجَهْمِيَّةُ (١٩٨) من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عُمرَ رضيَ اللهُ عنه على اختلافٍ في الألفاظِ.

(٤) رواه مسلمٌ في كتابِ الحجِّ / بابُ حَجَّةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ (٢٩٤١)، وأبو داودَ في كتابِ المناسكِ / بابُ صِفَةِ حَجِّ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ (١٩٠٢)، وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ المناسكِ / بابُ حَجَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ (٣٠٧٤)، وهو جزءٌ من حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ الطويلِ.

(٥) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٣٨٢-٣٩٧).

وإن كانت القِسمةُ التقديريَّةُ تقتضِي قِسْماً رابعاً، وهوَ ما يكونُ كمالاً ونَقْصاً باعتبارينِ.

والربُّ تعالى مُنَزَّهٌ عن الأقسامِ الثلاثةِ، وموصوفٌ بالقِسمِ الأوَّلِ، وصفاتُهُ كلُّها صفاتُ كمالٍ مَحْضٍ، فهوَ موصوفٌ مِن الصِّفَاتِ بأكملِها، ولهُ مِن الكمالِ أَكْمَلُهُ.

وهكذا أسماؤُهُ الدالَّةُ على صِفاتِهِ هيَ أَحسنُ الأسماءِ وأَكملُها، فليسَ في الأسماءِ أَحْسَنُ منها، ولا يقومُ غيرُها مَقامَها، ولا يُؤَدِّي مَعناها، وتفسيرُ الاسمِ منها بغيرِهِ ليسَ تفسيراً بِمُرادفٍ مَحْضٍ، بلْ هوَ على سبيلِ التقريبِ والتفهيمِ.

وإذا عَرَفْتَ هذا، فلهُ مِنْ كلِّ صِفةِ كمالٍ أَحسنُ اسمٍ وأكمَلُهُ وأَتَمُّهُ معنًى، وأبعدُهُ وأَنزهُهُ عنْ شائبةِ عَيبٍ أوْ نَقْصٍ.

فلهُ مِنْ صفةِ الإدراكاتِ: العليمُ الخبيرُ دونَ العاقلِ الفقيهِ، والسميعُ البصيرُ دونَ السامعِ والباصرِ والناظرِ.

ومِنْ صفاتِ الإحسانِ: البَرُّ الرحيمُ الودودُ، دونَ الرفيقِ والشَّفُوقِ ونحوِهما، وكذلكَ العليُّ العظيمُ دونَ الرفيعِ الشريفِ، وكذلكَ الكريمُ دونَ السخِيِّ، والخالقُ البارئُ المصوِّرُ دونَ الفاعلِ الصانعِ المشَكِّلِ، والغفورُ العفُوُّ دونَ الصَّفوحِ الساترِ.

وكذلكَ سائرُ أسمائِهِ تعالى يُجْرِي على نفسِهِ منها أَكْمَلَها وأحسنَها، وما لا يَقُومُ غيرُهُ مَقامَهُ.

فتَأَمَّلْ ذلكَ فأسماؤُهُ أَحسَنُ الأسماءِ، كما أنَّ صفاتِهِ أَكملُ الصِّفَاتِ؛ فلا تَعْدِلْ عما سَمَّى بِهِ نفسَهُ إلى غيرِهِ، كما لا تَتجاوَزْ ما وَصَفَ بِهِ نفسَهُ ووَصَفَهُ بِهِ رسولُهُ إلى ما وَصَفَهُ بِهِ المُبْطِلُونَ والمعَطِّلونَ). (١)

---

(١) بَدائِعُ الفَوائِدِ (١/ ١٦٧-١٦٨).

[التاسعُ والعشرونَ]: ([أنَّا] نَصِفُ اللهَ تعالى بما وَصَفَ بِهِ نفسَهُ، وبما وَصَفَهُ بِهِ رسولُهُ، مِنْ غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومِنْ غيرِ تَشبيهٍ ولا تَمثيلٍ، بلْ نُثْبِتُ لهُ سُبحانَهُ ما أَثْبَتَهُ لنفسِهِ مِن الأسماءِ والصفاتِ، ونَنْفِي عنهُ النقائصَ والعيوبَ ومشابَهَةَ المخلوقاتِ، إثباتاً بلا تَمثيلٍ، وتنزيهاً بلا تَعطيلٍ، فمَنْ شَبَّهَ اللهَ بخَلْقِهِ فقدْ كفَرَ، ومَنْ جَحَدَ ما وَصَفَ اللهُ بهِ نفسَهُ فقدْ كَفَرَ، وليسَ ما وَصَفَ بِهِ نفسَهُ أوْ وَصَفَهُ بِهِ رسولُهُ تَشبيهاً، فالمشَبِّهُ يَعبُدُ صَنَماً، والمعطِّلُ يَعبُدُ عَدَماً، والمُوَحِّدُ يَعْبُدُ إلهاً واحداً صَمَداً ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١].

والكلامُ في الصِّفَاتِ كالكلامِ في الذاتِ، فكما أنَّا نُثْبِتُ ذاتاً لا تُشْبِهُ الذواتِ، فكذلكَ نَقولُ في صِفاتِهِ: إنَّها لا تُشْبِهُ الصِّفَاتِ، فليسَ كمثلِهِ شيءٌ، لا في ذاتِهِ، ولا في صفاتِهِ، ولا في أفعالِهِ، فلا نُشَبِّهُ صفاتِ اللهِ بصفاتِ المخلوقينَ، ولا نُزيلُ عنهُ سُبحانَهُ صِفَةً مِنْ صفاتِهِ لأَجلِ شَناعةِ المُشَنِّعِينَ وتَلقيبِ المُفترينَ، كما أنَّا لا نَبْغَضُ أصحابَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ لتَسميَةِ الروافضِ لنا نَواصِبَ، ولا نُكَذِّبُ بقَدَرِ اللهِ ولا نَجْحَدُ كمالَ مَشيئتِهِ وقُدْرَتِهِ لتَسميَةِ القَدَرِيَّةِ لنا مُجْبِرَةً، ولا نَجحَدُ صفاتِ ربِّنَا تَبارَكَ وتعالى لتَسميَةِ الجَهْمِيَّةِ والمعتزِلَةِ لنا مُجَسِّمَةً مُشَبِّهَةً حَشْوِيَّةً، ورحمةُ اللهِ على القائلِ:

فـإنْ كانَ تَجسيماً ثُبوتُ صِفَاتِهِ   لَدَيْكُمْ فإنِّي اليومَ عَبْدٌ مُجَسِّمُ

ورَضِيَ اللهُ عن الشافعِيِّ حيث قالَ:

إنْ كانَ رَفْضاً حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ   فلْيَشْهَدْ الثَّقَلانِ أَنِّيَ رافِضي

وقَدَّسَ اللهُ رُوحَ القائلِ - وهوَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَةَ - إذ يقولُ:

إنْ كانَ نَصْباً حُبُّ صَحْبِ مُحَمَّدٍ   فلْيَشْهَدِ الثَّقلانِ أَنِّيَ ناصِبي)[(١)]

---

(١) مُقدِّمَةُ القصيدةِ النُّونِيَّةِ (٢٢-٢٣).

[الثلاثونَ]: ([أنَّ شأنَ] كلِّ مُبْطِلٍ [نفيُ] حقائقِ أسمائِهِ وصفاتِهِ بالتعبيرِ عنها بعباراتٍ اصطلاحيَّةٍ تَوصَّلَ بها إلى نفيِ ما وَصَفَ بِهِ نفسَهُ، كتسميةِ الجهميَّةِ المُعَطِّلَةِ صفاتِهِ أَعْراضاً، ثُمَّ تَوصَّلُوا بهذه التسميةِ إلى نَفْيِهَا.

وسَمَّوا أفعالَهُ القائمةَ بِهِ حوادثَ، ثُمَّ تَوصَّلُوا بهذه التسميةِ إلى نَفْيِها، وقالوا: لا تَحُلُّهُ الحوادثُ، كما قالت المُعَطِّلَةُ: ولا تقومُ بِهِ الأعراضُ.

وسَمَّوا عُلُوَّهُ على خَلْقِهِ واستواءَهُ على عرشِهِ وكونَهُ قاهراً فوقَ عِبادِهِ تَحَيُّزاً وتَجسُّماً، ثُمَّ تَوصَّلُوا بنفيِ ذلكَ إلى نفيِ عُلُوِّهِ عنْ خَلْقِهِ واستوائِهِ على عرشِهِ.

وسَمَّوا ما أَخْبَرَ بِهِ عنْ نفسِهِ مِن الوجهِ واليدينِ والإصبعِ جوارحَ وأعضاءً، ثُمَّ نَفَوْا ما أَثْبَتَهُ لنفسِهِ بتَسميتِهم لهُ بغيرِ تلكَ الأسماءِ ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣].

فتَوصَّلُوا بالتشبيهِ والتجسيمِ والتركيبِ والحوادثِ والأعراضِ والتحيُّزِ إلى تعطيلِ صفاتِ كمالِهِ ونعوتِ جَلالِهِ وأفعالِهِ، وأَخْلَوْا تلكَ الأسماءَ مِنْ مَعانِيها، وعَطَّلُوها مِنْ حقائقِها.

فيقالُ لِمَنْ نَفَى مَحبَّتَهُ وكراهتَهُ لاستلزامِها مَيْلَ الطبعِ ونُفْرَتَه: ما الفرْقُ بينَكَ وبينَ مَنْ نَفَى كونَهُ مُريداً لاستلزامِ الإرادةِ حركةَ النفْسِ إلى جَلْبِ ما يَنفعُها ودَفْعِ ما يَضُرُّهَا، ومَنْ نَفَى سَمْعَهُ وبَصَرَهُ لاستلزامِ ذلكَ تأثُّرَ السمْعِ والبصرِ بالمسموعِ والمُبْصَرِ، وانطباعَ صورةِ المرئيِّ في الرائي، وحَمْلَ الهواءِ الصوتَ المسموعَ إلى أُذُنِ السامعِ، ومَنْ نَفَى عِلْمَهُ لاستلزامِهِ انطباعَ صورةِ المعلومِ في النفْسِ الناطقةِ، ونَفَى غَضَبَهُ ورِضاهُ؛ لاستلزامِ ذلكَ حَركةَ القلبِ وانفعالَهُ بما يَرِدُ عليهِ مِن المؤلِمِ والسارِّ، ونَفَى كلامَهُ لاستلزامِ الكلامِ مَحلّاً يَقومُ بِهِ ويَظْهَرُ منهُ مِنْ شَفَةٍ ولِسانٍ ولَهَواتٍ؟

ولَمَّا لم يُمكِنْ أحداً أَقرَّ بوجودِ ربِّ العالمينَ طَرْدُ ذلك وَقعَ في التناقُضِ ولا بُدَّ؛ فإنَّهُ أيَّ شيءٍ أَثْبَتَهُ لَزِمَهُ فيهِ ما الْتَزَمَ، كمَنْ أَثْبَتَ ما نَفاهُ هوَ مِنْ غيرِ فَرْقٍ الْبَتَّةَ؛ ولهذا قالَ الإمامُ أحمدُ وغيرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ السنَّةِ: لا نُـزِيلُ عن اللهِ صِفةً مِنْ صفاتِهِ لأَجْلِ شَناعةِ الْمُشَنِّعِينَ.

والمقصودُ: أنَّا لا نَجْحَدُ محبَّتَهُ تعالى لِمَا يُحِبُّهُ وكراهتَهُ لِمَا يَكرهُهُ لتَسميَةِ النُّفَاةِ ذلكَ مُلاءَمَةً ومُنافَرَةً.

ويَنبغِي التَّفَطُّنُ لهذا الموضِعِ؛ فإنَّهُ مِنْ أَعظم أصولِ الضلالِ. فلا نُسَمِّي العَرْشَ حَيِّزاً، ولا نُسَمِّي الاستواءَ تَحَيُّزاً، ولا نُسَمِّي الصِّفَاتِ أَعْرَاضاً، ولا الأفعالَ حوادثَ، ولا الوجهَ واليدينِ والأصابعَ جوارحَ وأعضاءً، ولا إثباتَ صفاتِ كمالِهِ التي وَصَفَ بها نفسَهُ تَجسيماً وتشبيهاً، فنَجْنِيَ جِنايَتيْنِ عَظيمَتَيْنِ:

- جِنايَةً على اللفظِ.
- وجِنايَةً على المعنَى.

فنُبَدِّلَ الاسمَ ونُعَطِّلَ معناهُ).(١)

[الحادي والثلاثونَ]: (اخْتَلَفَ النُّظَّارُ في الأسماءِ التي تُطْلَقُ علَى اللهِ وعلَى العِبادِ، كالحيِّ والسميعِ والبصيرِ والعليمِ والقديرِ والملِكِ، ونحوِها:

فقالت طائفةٌ مِن المتكلِّمينَ: هيَ حقيقةٌ في العبدِ مَجازٌ في الربِّ، وهذا قولُ غُلاةِ الجهميَّةِ، وهوَ أَخبَثُ الأقوالِ وأَشَدُّها فَساداً.

الثاني: مقابِلُهُ، وهوَ: أنَّها حقيقةٌ في الربِّ مَجازٌ في العبدِ، وهذا قولُ أبي العبَّاسِ الناشِي.

الثالثُ: أنَّها حقيقةٌ فيهما، وهذا قولُ أهلِ السُّنَّةِ، وهوَ الصوابُ.

---

(١) شِفاءُ العَليلِ (١/ ٣٢٥-٣٢٦).

واختلافُ الحَقِيقَتَيْنِ فيهما لا يُخْرِجُها عنْ كونِها حقيقةً فيهما. وللربِّ تعالَى منها ما يَليقُ بجلالِهِ، وللعبدِ منها ما يَليقُ بهِ. وليسَ هذا مَوْضِعَ التعرُّضِ لِمَأْخَذِ هذهِ الأقوالِ وإبطالِ باطلِها، وتصحيح صَحِيحِها، فإنَّ الغرَضَ الإشارةُ إلَى أمورٍ يَنبغِي مَعرِفتُها في هذا البابِ، ولوْ كانَ المقصودُ بَسْطَها لاستَدْعَتْ سِفْرَيْنِ أوْ أكثرَ. (١)

[الثاني والثلاثونَ]: أنَّ الاسمَ والصفةَ مِنْ هذا النوعِ لهُ ثلاثُ اعتباراتٍ:

اعتبارٌ مِنْ حيثُ هوَ، معَ قَطْعِ النظرِ عنْ تَقييدِهِ بالربِّ تَبارَكَ وتعالَى أو العَبْدِ.

الاعتبارُ الثاني: اعتبارُهُ مُضافاً إلَى الربِّ مُخْتَصًّا بهِ.

الثالثُ: اعتبارُهُ مُضَافاً إلَى العبدِ مُقَيَّداً بهِ.

• فما لَزِمَ الاسمَ لذاتِهِ وحقيقتِهِ كانَ ثابتاً للربِّ والعبدِ، وللربِّ منهُ ما يَليقُ بكمالِهِ، وللعبدِ منهُ ما يَليقُ بهِ، وهذا كاسمِ السميعِ الذي يَلْزَمُهُ إدراكُ المسموعاتِ، والبصيرِ الذي يَلْزَمُهُ رؤيَةُ المُبْصَراتِ، والعليمِ والقديرِ وسائرِ الأسماءِ، فإنَّ شَرْطَ صِحَّةِ إطلاقِها حصولُ معانيها وحقائقِها للموصوفِ بها، فما لَزِمَ هذهِ الأسماءَ لذاتِها فإثباتُهُ للربِّ تعالَى لا محذورَ فيهِ بوجهٍ، بلْ ثَبَتَتْ لهُ علَى وجهٍ لا يُماثِلُهُ فيهِ خَلْقُهُ ولا يُشابِهُهُمْ.

---

(١) وقال -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في مَدارجِ السَّالكِينَ (٣/ ٣٣٤): (لا يَتَعَدَّى بها اسمَهَا الخاصَّ الذي سماها اللهُ به، بل يَحْتَرِمُ الاسمَ كما يَحترِمُ الصفةَ، فلا يُعَطِّلُ الصفةَ، ولا يُغَيِّرُ اسمَها ويُعِيرُها اسمًا آخرَ، كما تُسمِّي الجهميةُ والمُعطِّلَةُ سَمْعَهُ وبَصَرَهُ وقُدرتَهُ وحَياتَهُ وكلامَهُ أعراضًا، ويُسَمُّونَ وَجْهَهُ ويَدَيْهِ وقَدمَهُ - سُبحانَهُ - جَوارِحَ وأَبعاضًا، ويُسَمُّونَ حِكْمَتَهُ وغايةَ فِعلِه المطلوبةَ عِللاً وأَعراضًا، ويُسَمُّونَ أَفعالَهُ القائمةَ به حوادثَ، ويُسَمُّونَ عُلُوَّهُ على خلقِه واستواءَهُ على عرشِه تَحيُّزًا؛ ويَتواصَوْنَ بهذا المَكرِ الكُبَّارِ إلى نفيِ ما دلَّ عليه الوحيُ، والعقلُ والفطرةُ، وآثارُ الصَّنعةِ من صفاتِه، فيَسْطُونَ بهذه الأسماءِ ـ التي سَمَّوْها هم وآباؤُهم ـ على نفيِ صِفاتِه وحقائقِ أسمائِه).

ـ وقد أطالَ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ في تفنيدِ دَعوَى المَجازِ وسَمَّاهُ طاغوتًا في كتابِ الصواعقِ المُرسلَةِ (انظرِ المُخْتَصَرَ ٢/ ٢٣١-٤٣٧).

- فمَنْ نَفاهُ عنهُ لإطلاقِهِ علَى المخلوقِ أَلْحَدَ في أسمائِهِ، وجَحَدَ صفاتِ كمالِهِ.

- ومَنْ أَثْبَتَهُ لهُ علَى وجهٍ يُماثِلُ فيهِ خلقَهُ فقدْ شَبَّهَهُ بخَلْقِهِ، ومَنْ شَبَّهَ اللهَ بخلْقِهِ فقدْ كَفَرَ.

- ومَنْ أَثْبَتَهُ لهُ علَى وجهٍ لا يُماثِلُ فيهِ خَلْقَهُ، بلْ كما يَليقُ بجلالِهِ وعظمتِهِ، فقدْ بَرِئَ مِنْ فَرْثِ التشبيهِ ودمِ التعطيلِ، وهذا طريقُ أهلِ السُّنَّةِ.

• وما لَزِمَ الصفةَ لإضافتِها إلَى العبدِ وَجَبَ نفيُهُ عن اللهِ، كما يَلْزَمُ حياةَ العبدِ مِن النومِ والسِّنَةِ والحاجةِ إلَى الغذاءِ، ونحوِ ذلكَ، وكذلكَ ما يَلْزَمُ إرادتَهُ مِنْ حركةِ نفسِهِ في جَلْبِ ما يَنتفِعُ بهِ ودَفْعِ ما يَتَضَرَّرُ بهِ، وكذلكَ ما يَلْزَمُ عُلُوَّهُ مِن احتياجِهِ إلَى ما هوَ عالٍ عليهِ، وكونِهِ محمولاً بهِ مُفْتَقِراً إليهِ مُحاطاً بهِ، كلُّ هذا يَجِبُ نفيُهُ عن القُدُّوسِ السلامِ تَبارَكَ وتعالَى.(١)

• وما لَزِمَ صفةً مِنْ جهةِ اختصاصِهِ تعالَى بها فإنَّهُ لا يَثْبُتُ للمخلوقِ بوجهٍ، كعلْمِهِ الذي يَلْزَمُهُ القِدَمُ والوجوبُ والإحاطةُ بكلِّ معلومٍ، وقُدرتِهِ وإرادتِهِ وسائرِ صفاتِهِ، فإنَّ ما يَختَصُّ بهِ منها لا يُمكِنُ إثباتُهُ للمخلوقِ.

فإذا أَحطْتَ بهذه القاعدةِ خُبراً وعَقَلْتَها كما يَنبغِي خَلَصْتَ مِن الآفتَيْنِ اللَّتينِ هما أصلُ بلاءِ المتكلِّمِينَ: آفةِ التعطيلِ، والتشبيهِ، فإنكَ إذا وَفَّيْتَ هذا المُقامَ

---

(١) وقال ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى ـ في بدائع الفوائد (٢/ ٨٢ ـ ٨٣): (وخَصائِصُ المخلوقينَ لا يجوزُ إثباتُها لربِّ العالمينَ، بلِ الصفةُ المُضافةُ إلى اللهِ لا يَلْحَقُه فيها شيءٌ من خَصائِصِهِم فإثباتُها له كذلك لا يُحتاجُ معه إلى تأويلٍ، فإنَّ اللهَ ليسَ كمِثْلِه شيءٌ، وقَد تَقَدَّمَ أن خصائصَ المخلوقينَ غيرُ داخلةٍ في الاسمِ العامِّ فضلاً عن دُخولِها في الاسمِ الخاصِّ المضافِ إلى الربِّ تعالَى وأنها لا يَدُلُّ اللفظُ عليها بوضعِه حتى يكونَ نَفيُها عن الربِّ تعالَى صَرْفًا للَّفظِ عن حقيقَتِه، ومَنِ اغتفَرَ دُخولَها في الاسمِ المضافِ إلى الربِّ ثم تَوسَّلَ بذلك إلى نفيِ الصفةِ عنه فقد جَمعَ بينَ التشبيهِ والتعطيلِ، وأمَّا مَن لَمْ يُدْخِلْها في مُسَمَّى اللفظِ الخاصِّ ولا أَثْبَتَها للموصوفِ فقولُهُ محضُ التنزيهِ وإثباتُ ما أَثْبَتَ اللهُ لنفسِه، فتأمَّلْ هذه النُّكْتَةَ، ولْتَكُنْ منكَ على ذِكْرٍ في بابِ الأسماءِ والصفاتِ، فإنها تُزيلُ عنكَ الاضطرابَ والشُّبْهَةَ واللهُ الموفقُ للصوابِ).

حَقَّهُ مِن التَّصَوُّرِ أَثْبَتَّ للهِ الأسماءَ الحُسْنَى والصفاتِ العُلَى حقيقةً فخَلَصْتَ مِن التعطيلِ، ونَفيتَ عنها خصائصَ المخلوقِينَ ومُشابهتَهم؛ فخَلَصْتَ مِن التشبيهِ.

تَدَبَّرْ هذا الموضعَ، واجْعَلْهُ جُنَّتَكَ التي تَرجعُ إليها في هذا البابِ. واللهُ الموفِّقُ للصوابِ).[1]

---

(١) بَدائِعُ الفَوائِدِ (١/ ١٦٤-١٦٦).

وقال - رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى - كما في مُختصرِ الصواعقِ (٣٠١-٣٠٢): (الوجهُ الخامسَ عَشَرَ: إن هذا النقصَ اللازمَ للصفةِ ليس هو من مَوضوعِها ولا مُسمَّى لفظِها، وإنما هو مِن خُصوصِ الإضافةِ، فالقَدْرُ المدوحُ الذي هو موضوعُ الصفةِ والنقصُ اللازمُ غيرُ داخلٍ في موضوعِها، وكذلك لا دَلالَةَ في لَفظِها على العَدَمِ.

والوُجودُ غايةُ الكمالِ الذي لا كَمالَ فَوْقَه، وإنما ذلك من لوازمِ إضافتِها ونِسْبَتِها إلى الربِّ سبحانَهُ، فإذًا موضوعُ لفظِها مُطلَقُ المَعنَى المدوحِ، وخصوصُ الإضافةِ غيرُ داخلٍ في اللفظِ المُطلقِ، وعلى هذا فإذَا استُعْمِلَتْ في حقِّ الربِّ تعالَى كَانَتْ حَقِيقَةً، وإذا استُعْمِلَتْ لِلعَبْدِ كانَتْ حقيقةً.

فتدبَّرْ هذا، فإنه فَصْلُ الخطابِ فيما يُطلَقُ على الربِّ والعبدِ، واعْتَبِرْ هذا فيما يُطْلَقُ على المخلوقِ نفسِه فإنه حقيقةٌ معَ دَلالتِه على غايةِ المدحِ في مَحَلٍّ، وغايةِ الذمِّ في مَحَلٍّ آخَرَ.

(مِثالُه) قولُكَ: هذا كلامُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ وهَدْيُه وسَمْتُه، وهذا كلامُ الصِّدِّيقِ، وهذا كلامُ المُفتَرِي، فهذا حقيقةٌ، وهذا حقيقةٌ، وهما في غايةِ التضادِّ والاختلافِ، وهذا التعريفُ بالإضافةِ نظيرُ التعريفِ باللامِ يَنْصَرِفُ إلى كُلِّ مَحَلٍّ بحَسَبِه ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ هو مُوسَى. و﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ [النور: ٦٣] هو محمدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، فرسولٌ دالٌّ على القَدْرِ المُشترَكِ واللامُ تدُلُّ على تعريفِه وتعيينِه، وكلٌّ مِنَ المَوضعَيْنِ حقيقةٌ، هذا مع أن اللفظَ يُستعمَلُ مُجَرَّدًا عن التعريفِ كثيرًا. وأما لفظُ الرحمةِ والسمْعِ والبصَرِ واليَدِ والوَجهِ والكلامِ فلا تَكادُ تُستَعْمَلُ إلا مضافةً إلى مَحَلِّهَا، فلزومُ الإضافةِ فيها نحوُ لُزومِها في الأسماءِ والأعلامِ، ولا سِيَّما المضافةُ إلى الربِّ كقولِه: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦] ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧] ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل: ٢٠] ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] فهذه الإضافةُ تمنَعُ أن يَدْخُلَ في اسمِ الصفةِ شيءٌ من خصائصِ المخلوقينَ بوجهٍ من الوجوهِ، فالمحذوفُ الذي أوجبَ لهم دعوَى المجازِ فيها مُنتفٍ بالإضافةِ قَطعًا فلا وجهَ لدَعْوَى المجازِ فيها البتةَ، وهذا ظاهرٌ جدًّا فإنها بإضافتِها الخاصةِ دَلَّتْ على ما لا تَسَعُهُ العبارةُ مِن الكمالِ الذي لا نَقْصَ فيه بوجهٍ من الوجوهِ).

[الثالثُ والثلاثونَ]: ([أنَّ] اللهَ سُبحانَهُ ليسَ كمثلِهِ شيءٌ، لا في ذاتِهِ، ولا في صفاتِهِ، ولا في أفعالِهِ. فالعارفونَ بهِ، المصدِّقونَ لرُسلِهِ، المُقِرُّونَ بكمالِهِ: يُثبتونَ لهُ الأسماءَ والصفاتِ، ويَنفونَ عنهُ مُشابَهَةَ المخلوقاتِ.

فيَجْمَعونَ بينَ الإثباتِ ونفيِ التشبيهِ، وبينَ التنـزيهِ وعدمِ التعطيلِ.

فمَذهبُهم حَسَنَةٌ بينَ سَيِّئَتَيْنِ، وهُدًى بينَ ضَلالَتَيْنِ.

فصِراطُهم صراطُ المنعَمِ عليهم، وصراطُ غيرِهم صِراطُ المغضوبِ عليهم والضالِّينَ. قالَ الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللهُ: لا نُزيلُ عن اللهِ صِفةً مِنْ صفاتِهِ لأَجْلِ شَناعةِ المُشَنِّعِينَ، وقالَ: التشبيهُ أنْ تقولَ: يَدٌ كيَدِي - تعالَى اللهُ عنْ ذلكَ عُلُوًّا كبيراً).(١)

[الرابعُ والثلاثونَ]: ([أ]نَّ المعانيَ المفهومةَ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ لا تُرَدُّ بالشُّبُهاتِ؛ فيكونَ رَدُّها مِنْ بابِ تحريفِ الكَلِمِ عنْ مَواضِعِهِ، ولا يُتْرَكُ تَدَبُّرُها ومَعرفتُها، فيكونَ ذلكَ مشابَهَةً للذينَ إذا ذُكِّرُوا بآياتِ ربِّهم خَرُّوا عليها صُمًّا وعُمْيَاناً، ولا يُقالُ: هيَ ألفاظٌ لا تُعْقَلُ مَعانيها ولا يُعْرَفُ المرادُ منها، فيكونَ ذلكَ مُشابَهَةً للذينَ لا يَعلمونَ الكتابَ إلاَّ أَمَانِيَّ؛ بلْ هيَ آياتٌ بَيِّنَاتٌ دالَّةٌ على أَشرفِ المعاني وأَجَلِّها، قائمةٌ حقائقُها في صدورِ الذينَ أُوتُوا العلْمَ والإيمانَ، إثباتاً بلا تَشبيهٍ، وتَنزيهاً بلا تعطيلٍ، كما قامَتْ حقائقُ سائرِ صفاتِ الكمالِ في قلوبِهم كذلكَ، فكانَ البابُ عندَهم باباً واحداً، قد اطمأَنَّتْ بهِ قلوبُهم، وسَكَنَتْ إليهِ نفوسُهم، فَأَنِسُوا مِنْ صفاتِ كمالِهِ ونعوتِ جَلالِهِ بما اسْتَوْحَشَ منهُ الجاهلونَ المُعَطِّلُونَ، وسَكَنَتْ قلوبُهم إلَى ما نَفَرَ منهُ الجاحدونَ، وعَلِمُوا أنَّ الصِّفَاتِ حُكْمُها حُكْمُ الذاتِ؛ فكما أنَّ ذاتَهُ سُبحانَهُ لا تُشْبِهُ الذواتِ فصفاتُهُ لا تُشبِهُ الصِّفَاتِ، فما جاءَهم مِن الصِّفَاتِ عن المعصومِ تَلَقَّوْهُ بالقَبولِ، وقابَلُوهُ

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٣٣٤).

بالمعرفةِ والإيمانِ والإقرارِ؛ لعِلْمِهم بأنَّهُ صفةُ مَنْ لا شَبيهَ لذاتِهِ ولا لصفاتِهِ.

قالَ الإمامُ أحمدُ: [إِنَّما التشبيهُ أن يقولَ: يدٌ كيدٍ، أوْ: وجهٌ كوجهٍ]؛ فأمَّا إثباتُ يدٍ ليستْ كالأيدي، ووجهٍ ليسَ كالوجوهِ، فهوَ كإثباتِ ذاتٍ ليست كالذواتِ. وحياةٍ ليستْ كغيرِها مِن الحياةِ، وسَمْعٍ وبَصَرٍ ليسَ كالأسماعِ والأبصارِ، وليسَ إلاَّ هذا المَسْلَكَ أوْ مَسْلَكَ التعطيلِ المَحْضِ، أو التناقضَ الذي لا يَثْبُتُ لصاحبِهِ قَدَمٌ في النفيِ ولا في الإثباتِ، وباللهِ التوفيقُ). [(١) (٢)]

---

(١) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٢٢٩-٢٣٠).

(٢) **مُلحَقٌ**: وهاهنا قواعدُ مُهِمَّةٌ، أشارَ إليها ابنُ القيِّم -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- ولم يَجْتَمِعْ لنا من كلامِه ما يَكفِي لصياغتِها، فنَذْكُرُ كلامَهُ - رَحِمَهُ اللهُ - وتَجِدُ القاعدةَ التي أشارَ إليها ظاهرةً فيه، وقد عَنْوَنَّا لها بما نَرْجُو أن يُوضِّحَ المرادَ منها:

١ - قال - رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى - في شِفاءِ العليلِ (١/ ٥٨): **[التعبُّدُ للهِ تعالى بمُقتضَى أسمائِه الحُسنى وصفاتِه العُلى]**

أنَّ اللهَ سبحانَهُ... يُحِبُّ مُقتضَى أسمائِه وصفاتِه وما يُوافِقُها، فهو القويُّ، ويُحِبُّ المؤمنَ القويَّ، وهو وِترٌ ويُحِبُّ الوِتْرَ، وجميلٌ يُحِبُّ الجمالَ، وعليمٌ يحبُّ العُلَماءَ، ونظيفٌ يحبُّ النظافةَ، ومؤمنٌ يحبُّ المؤمنينَ، ومُحسِنٌ يُحِبُّ المحسنينَ، وصابرٌ يحبُّ الصابرينَ، وشاكرٌ يُحِبُّ الشاكرينَ).

٢ - وقال - رَحِمَهُ اللهُ - في القصيدةِ النونيةِ (٨٠): **[أنواعُ ما يُضافُ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ]**

وَنَظِيرُ ذَا أَيْضًا سَوَاءٌ مَا يُضَا ... فُ إِلَيْهِ مِنْ صِفَةٍ وَمِنْ أَعْيَانِ
فَإِضَافَةُ الأَوْصَافِ ثَابِتَةٌ لِمَنْ ... قَامَتْ بِهِ كَإِرَادَةِ الرَّحْمَنِ
وَإِضَافَةُ الأَعْيَانِ ثَابِتَةٌ لَهُ ... مُلْكًا وَخَلْقًا مَا هُمَا سِيَّانِ
فَانْظُرْ إِلَى بَيْتِ الإِلَهِ وَعِلْمِهِ ... لَمَّا أُضِيفَا كَيْفَ يَفْتَرِقَانِ
وَكَلامُهُ كَحَيَاتِهِ وَكَعِلْمِهِ ... فِي ذِي الإِضَافَةِ إِذْ هُمَا وَصْفَانِ
لَكِنَّ نَاقَتَهُ وَبَيْتَ إِلَهِنَا ... فَكَعَبْدِهِ أَيْضًا هُمَا ذَاتَانِ
فَانْظُرْ إِلَى الجَهْمِيِّ لَمَّا فَاتَهُ الْـ ... ـحَقُّ المُبِينُ وَوَاضِحُ الفُرْقَانِ
كَانَ الجَمِيعُ لَدَيْهِ بَابًا وَاحِدًا ... وَالصُّبْحُ لاحَ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ).

[ومقصودُه - رَحِمَهُ اللهُ -: أنَّ ما يضافُ إلى اللهِ - جَلَّ وعَلا - إمَّا أن يكونَ صفةً أو عينًا قائمةً بذاتِها. فالأولُ إضافتُه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ من بابِ إضافةِ الصفةِ إلى المُتَّصِفِ بها. والثاني من بابِ إضافةِ المخلوقِ إلى خالِقِه، والمملوكِ إلى مالكِه].

قال ابنُ القيم ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى رحمةً وَاسِعَةً ـ بعد ذِكرِ بعضِ هذه القواعدِ في بدائعِ الفوائدِ (١/ ١٧٠): فهذه عشرونَ فائدةً مُضافةً إلى القاعدةِ التي بَدَأْنَا بها في أقسامِ ما يُوصَفُ به الربُّ تَبارَكَ وتعالَى فعَلَيْكَ بمَعْرِفَتِها ومُراعاتِها، ثم اشْرَحِ الأسماءَ الحُسنَى إن وَجَدْتَ قَلْبًا عاقلاً ولسانًا قائلاً ومَحَلاًّ قابلاً، وإلا فالسكوتُ أولَى بك، فجَنابُ الربوبيةِ أجَلُّ وأعزُّ مِمَّا يَخْطُر بالبالِ أو يُعَبِّرُ عنه المَقالُ، وفوقَ كُلِّ ذي علمٍ عليمٌ حتى ينتهيَ العلمُ إلى مَن أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا.

وعسى اللهُ أن يُعِينَ بفَضلِه على تعليقِ شرحِ الأسماءِ الحُسنَى مراعيًا فيه أحكامَ هذه القواعدِ بريئًا من الإلحادِ في أسمائِه وتعطيلِ صفاتِه فهو المانُّ بفضلِه، واللهُ ذو الفضلِ العظيم).

والحمدُ للهِ تعالَى على ما يَسَّرَ مِن جمعِ هذه الفوائدِ والقواعدِ المتفرِّقَةِ في كُتُبِ هذا العالمِ الجليلِ، وقد جَمَعْتُهَا لك في موضعٍ واحدٍ لِتكُونَ أسهلَ تَناوُلاً وأقربَ إلى الفَهْمِ إذا ما قُرِنَتْ بنَظائِرِها، وأيسَرَ في الرجوعِ إليها، وقد ذكرتُ لك مَوْضِعَ كُلِّ قاعدةٍ في كُتبِهِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى.

فَـلاَ تَجْـهَـلْ لَهَـا قَـدْرًا وَخُـذْهَـا		شَـكُـورًا لِـلَّـذِي يُحْـيِـي الأَنَـامَـا

البابُ الثاني والعشرونَ: في بيانِ معنَى كلمةِ ((الذاتِ))

(قدْ عُلِمَ بالاضطرارِ أنَّ اللهَ سُبحانَهُ لهُ ذاتٌ مَخصوصةٌ، يُقالُ: ذاتُ اللهِ، كما قالَ خُبَيْبٌ:

وذلكَ في ذاتِ الإلهِ وإنْ يَشَأْ ... يُبارِكْ علَى أَوْصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

(([و] رُوِّينا... بإسنادٍ صحيحٍ، عنْ ثابتٍ، عنْ حبيبِ بنِ أبي ثابتٍ، أَنَّ حَسَّانَ بنَ ثابتٍ أَنْشَدَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ:

شَهِدْتُ بإذنِ اللهِ أنَّ مُحَمَّداً ... رسولُ الذي فوقَ السَّماواتِ مِنْ عَلُ

وأنَّ أبا يَحْيَى ويحيَى كِلاهما ... لهُ عَمَلٌ مِنْ رَبِّهِ مُتَقَبَّلُ

وأنَّ أخا الأحقافِ إذْ قامَ فيهمُ ... يقومُ بذاتِ اللهِ فيهم ويَعْدِلُ

فقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «وَأَنَا أَشْهَدُ»[(1)])).[(2)]

ولفظُ (ذاتٍ) في الأصلِ تأنيثُ (ذُو)؛ أيْ: ذاتُ كذا، وذُو كذا، والذي يُضافُ إليهِ (ذُو) نوعانِ:

---

(1) رَواهُ أبو يَعْلَى في مُسنَدِه (٣/ ١٣٥) برَقْمِ (٢٦٤٥) بدونِ قولِه: (أَشْهَدُ)، والحديثُ أيضًا في مُصنَّفِ ابنِ أبي شَيْبَةَ (٥/ ٢٧٣) برقْمِ (٢٦٠١٧) بدونِ قولِه: (وَأَنَا) كِلاهُما من هذا الطريقِ، قالَ الهَيْثَمِيُّ في المَجْمَعِ (١/ ٢٤): (وهو مُرْسَلٌ). وكذلك قالَ الذهبيُّ في سِيَرِ أعلامِ النُّبلاءِ (٢/ ٥١٩).

(2) مُختصَرُ الصواعقِ (١٥٧).

- **وصفٌ**: ويُضافُ إليهِ إضافةَ الموصوفِ إلَى صِفتِهِ، كقولِهِ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [يونس: ٦٠].

فالفضلُ وَصْفُهُ وفِعْلُهُ، وكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ يقولُ في ركوعِهِ وسجودِهِ: «**سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**»(١).

- **والثاني**: إضافتُهُ إلَى مخلوقٍ مُنفصِلٍ. كقولِهِ تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: ١٤-١٥].

فإذا أَطْلَقُوا لفظَ الذاتِ مِنْ غيرِ تقييدِها بإضافةٍ مُعَيَّنٍ، دَلَّتْ علَى ماهيَّةٍ لها صفاتٌ تقومُ بها، فكأنَّهم قالوا: صاحبةُ الصِّفَاتِ المخصوصةِ القائمةِ بتلكَ الماهيَّةِ، فدَلُّوا بلفظِ الذاتِ علَى الحقيقةِ وصِفاتِها القائمةِ بها، ومُحالٌ أن يَصِحَّ وُجودُ ذاتٍ لا صِفاتَ لها ولا قَدْرٌ، وإن فَرَضَها الذِّهْنُ فَرْضاً لا وُجودَ لِمُتَعَلَّقِهِ في الخارجِ إلاَّ كما يَفْرِضُ سائرَ المُمْتَنِعَاتِ، فالذاتُ هيَ قابلةٌ للصفاتِ والموصوفةُ بالصفاتِ القائمةِ بها. ومنهُ **ذاتُ الصدورِ**، أيْ: ما فيها مِنْ خيرٍ وشَرٍّ، وقالَ ابنُ الأنباريِّ: معناهُ عليمٌ بحقيقةِ القلوبِ مِن المُضْمَرَاتِ، فتَأنيثُ ذاتٍ لهذا المعنَى، كما قالَ: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] فأنَّثَ لمعنَى الطائفةِ، كما يقالُ: لَقِيتُهُ ذاتَ يومٍ؛ لأنَّ مَقْصِدَهم: لَقِيتُهُ مَرَّةً في يومٍ. وقالَ الواحديُّ: **ذاتُ الصدورِ يَحتملُ مَعنيينِ**:

أحدُهما: أن يكونَ نفسَ الصدورِ؛ لأنَّ ذاتَ الشيءِ نفسُهُ وعينُهُ، يقالُ: فَهِمْتُ ذاتَ كلامِكَ، كما يقالُ: فَهِمْتُ كلامَكَ. قالَ:

تَطوفُ بذاتِ البيتِ والحِرِ طاهرُ

(١) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٢٣٤٦٠)، وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ / بابُ ما يَقُولُ الرجلُ في رُكوعِهِ وسُجودِهِ (٨٧٣)، والنَّسَائِيُّ في كتابِ التطبيقِ / بابُ نوعٍ آخَرَ مِنَ الذِّكْرِ في الركوعِ (١٠٤٨) من حديثِ عوفِ بنِ مالكٍ رَضيَ اللهُ عنه.

وقالَ: وفيهِ معنَى التأكيدِ، فيكونُ المعنَى: واللهُ عليمٌ بالصدورِ.

والثاني: أنَّ ذاتَ الصدورِ الأشياءُ التي في الصدورِ، وهيَ الأسرارُ والضمائرُ، وهيَ ذاتُ الصدورِ؛ لأنَّها فيها تَحُلُّها وتُصَاحِبُها، وصاحبُ الشيءِ ذُوهُ وصاحبتُهُ ذاتُهُ.

قلتُ: أَكثرُ استعمالِهم ذاتَ الشيءِ بمعنَى السبيلِ والطريقِ المُوصِلَةِ إليهِ، كقولِ خُبيبٍ: وذلكَ في ذاتِ الإلهِ، وكذلكَ الجَنْبُ كقولِهِ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]. فليست الذاتُ والجَنْبُ هنا هيَ نفسَ الحقيقةِ، ومنهُ قولُهُ: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، وقولُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «**وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ**».[1]

وأمَّا استعمالُهم ذاتَ الشيءِ بمعنَى عينِهِ ونفسِهِ، فلا يكادُ يُظفَرُ بهِ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣﴾ [الملك: ١٣]، ليسَ المرادُ بهِ: عَليماً بِمُجَرَّدِ الصدورِ، فإنَّ هذا ليسَ فيهِ كبيرُ أمرٍ، وهوَ بمنزلةِ أن يُقالَ: عليمٌ بالرؤوسِ والظهورِ والأيدي والأرْجُلِ، وإنَّما المرادُ بهِ: عليمٌ بما تُضْمِرُهُ الصدورُ مِنْ خيرٍ وشَرٍّ، أيْ: بالأسرارِ التي في الصدورِ وصاحبةِ الصدورِ، فأضافَها إليها بلفظٍ يَعُمُّ جميعَ ما في الصدورِ مِنْ خيرٍ وشرٍّ.[2]

وأمَّا استعمالُ لفظِ ذاتٍ في حقيقةِ الشيءِ الخارجيَّةِ فأَظُنُّهُ استعمالاً مُوَلَّداً، وهوَ مِن العربيَّةِ المُوَلَّدَةِ لا العربيَّةِ العَرْبَاءِ، ولَمَّا وَلَّدوا هذا الاستعمالَ أَدْخَلُوا عليها الألفَ واللامَ، وهوَ مِن العربيَّةِ المَوَلَّدَة أيضاً، فقالوا: الذاتُ، والعربُ لا

---

(١) رواه التِّرْمِذِيُّ في كتابِ صِفَةِ القيامةِ / بابُ (٣٤) الحديثُ رقْمُ (٢٤٧٢) وابْنُ مَاجَهْ في المقدِّمَةِ/ بابُ فَضلِ سَلْمَانَ وأبي ذرٍّ (١٥١) كلاهما عن حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ، عن ثابتٍ، عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ مرفوعًا.

(٢) وقال - رَحِمَهُ اللهُ تعالَى - في شفاءِ العليلِ (١/ ١٥٩): (وذاتُ الصُّدورِ كَلِمةٌ لِمَا يَشْتَمِلُ عليه الصدرُ من الاعتقاداتِ والإراداتِ والحبِّ والبُغضِ، أي صاحبةُ الصدورِ، فإنها لَمَّا كانت فيها قائمةً بها نُسِبَتْ إليها نسبةَ الصُّحْبَةِ والمُلازَمَةِ).

تَستعملُها إلاَّ مضافةً، وقدْ تنازَعَ فيها أهلُ العربيَّةِ، فكثيرٌ منهم يُغَلِّطُ أصحابَ هذا الاستعمالِ، ويقولُ: هوَ خِلافُ لغةِ العربِ، وبعضُهم يجعلُهُ قِياسَ اللغةِ وإنْ لم يَنْطِقوا بهِ، والصوابُ أنَّهُ مِن العربيَّةِ المُوَلَّدَةِ كما قالوا: الكلُّ والبعضُ والكافَّةُ، والعربُ لا تَستعملُها إلاَّ مُضافَةً. وقريبٌ مِنْ هذا لفظُ: الماهيَّةِ والكَمِّيَّةِ والكيفيَّةِ والآنيَّةِ، ونحوِها، فإنَّ العربَ لم تَنْطِقْ بها فهيَ عَربيَّةٌ مُوَلَّدَةٌ، ويُشْبِهُ هذا قولُهم: الدَّمْعَزَةُ، والطَّلْبَقَةُ، لقولِهم: دامَ عِزُّكَ، وطالَ بقاؤُكَ، وهذا لم يَنْطِقْ بهِ العربُ وإنْ نَطَقَتْ بنظيرِهِ كالبسملةِ والحَوْقَلَةِ والحَيْعَلَةِ.

ولَمَّا اسْتَعْمَلُوا الذاتَ بمعنَى النفسِ قالوا: جاءَ بذاتِهِ، ومنهُ قولُ أهلِ السُّنَّةِ: اسْتَوَى علَى عرشِهِ بذاتِهِ؛ أيْ: ذاتُهُ فوقَ العرشِ عاليَةٌ عليهِ، وقدْ غَلَّطَ بعضُهم مَنْ قالَ: جاءَ بذاتِهِ وجاءَ بنفسِهِ، وقالَ: الصوابُ: جاءَ زيدٌ ذاتُهُ ونفسُهُ، ونازَعَهُم في ذلكَ آخرونَ، وجَوَّزُوا هذا الاستعمالَ). (١)

[فَصْلٌ]

(قالَ [السُّهَيْلِيُّ]: وأمَّا الذاتُ فقد اسْتَهْوَى أكثرَ الناسِ - ولا سِيَّما المتكلِّمينَ - القولُ فيها أنَّها في معنَى النفْسِ والحقيقةِ. ويقولونَ: ذاتُ الباري، وهيَ نفسُهُ، ويُعَبِّرُونَ بها عنْ وُجودِهِ وحقيقتِهِ، ويَحْتَجُّونَ في إطلاقِ ذلكَ بقولِهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ في قِصَّةِ إبْرَاهيمَ: «ثَلاثُ كِذْبَاتٍ كُلُّهُنَّ فِي ذَاتِ اللهِ»، وقولِ خُبَيْبٍ: وذلكَ في ذاتِ الإلهِ. قالَ: وليستْ هذهِ اللفظةُ إذا اسْتَقْرَيْتَهَا في اللغةِ والشريعةِ كما زَعَمُوا، ولوْ كانَ كذلكَ لجازَ أن يُقالَ: عندَ ذاتِ اللهِ، واحْذَرْ ذاتَ اللهِ، كما قالَ تعالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] وذلكَ غيرُ مسموعٍ ولا يُقالُ إلاَّ بِحَرْفِ (في) الجارَّةِ، وحَرفُ (في) للوِعاءِ، وهوَ معنًى مُستحيلٌ علَى نفسِ

(١) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٤/ ١٣٨٠-١٣٨٥).

الباري تعالَى إذا جاهَدْتَ في اللهِ تعالَى، وأَحْبَبْتُكَ في اللهِ تعالَى، محالٌ أن يكونَ هذا اللفظُ حقيقةً لِمَا يَدُلُّ عليهِ هذا الحَرْفُ مِنْ معنَى الوِعاءِ، وإِنَّما هوَ علَى حذْفِ المضافِ؛ أيْ: في مَرضاةِ اللهِ وطاعتِهِ، فيكونُ الحرفُ علَى بابِهِ كأنكَ قلتَ: هذا محبوبٌ في الأعمالِ التي فيها مَرضاةُ اللهِ وطاعتُهُ، وأمَّا أنْ تَدَعَ اللفظَ علَى ظاهرِهِ فمُحالٌ. وإذا ثَبَتَ هذا فقولُهُ: في ذاتِ اللهِ، أوْ: في ذاتِ الإلهِ، إنَّما يُريدُ في الدِّيانةِ والشريعةِ التي هيَ ذاتُ الإلهِ، فذاتُ وصفٌ للدِّيانةِ، وكذلكَ هيَ في الأصْلِ موضوعُها نعتٌ لِمُؤَنَّثٍ. ألا تَرَى أنَّ فيها تاءَ التأنيثِ، وإذا كانَ الأمرُ كذلكَ فقدْ صارتْ عِبارةً عمَّا تَشَرَّفَ بالإضافةِ إلَى اللهِ تعالَى عَزَّ وجَلَّ لا عنْ نفسِهِ سبحانَهُ؟! وهذا هوَ المفهومُ مِنْ كلامِ العربِ، ألا تَرَى إلَى قولِ النابغةِ:

مَحَلَّتُهم ذاتُ الإلهِ ودينُهم

فقدْ بانَ غَلَطُ مَنْ جَعَلَ هذهِ اللفظةَ عبارةً عنْ نَفْسِ ما أُضيفَ إليهِ). اهـ. وهذا مِنْ كلامِهِ مِن المُرَقِّصاتِ فإنَّهُ أَحْسَنَ فيهِ ما شاءَ.

وأصلُ هذهِ اللفظةِ هوَ تأنيثُ ذو بمعنَى صاحبٍ، فذاتُ صاحبةُ كذا في الأصلِ، ولهذا لا يُقالُ: ذاتُ الشيءِ إلاَّ لِمَا لهُ صِفاتٌ ونعوتٌ تُضافُ إليهِ، فكأنَّهُ يقولُ: صاحبةُ هذهِ الصِّفَاتِ والنعوتِ، ولهذا أَنْكَرَ جماعةٌ مِن النُّحاةِ - منهم ابنُ برهان وغيرُهُ - علَى الأصولِيِّينَ قولَهم: الذاتُ، وقالوا: لا مَدْخَلَ للألفِ واللامِ هنا كما لا يُقالُ: الذو في ذو، وهذا إنكارٌ صحيحٌ. والاعتذارُ عنهم أنَّ لفظةَ الذاتِ في اصطلاحِهم قدْ صارتْ عبارةً عنْ نفسِ الشيءِ وحقيقتِهِ وعينِهِ، فلَمَّا استعمَلُوها استعمالَ النفسِ والحقيقةِ عَرَّفُوها باللامِ وجَرَّدُوها، ومِنْ هنا غَلَّطَهُم السهيلِيُّ؛ فإنَّ هذا الاستعمالَ والتجريدَ أمْرٌ اصطلاحِيٌّ لا لُغَوِيٌّ، فإنَّ العربَ لا تَكادُ تقولُ: رأيتُ الشيءَ لعينِهِ ونفسِهِ، وإِنَّما يقولونَ ذلكَ لِمَا هوَ

مَنسوبٌ إليهِ ومِنْ جِهتِهِ، وهذا كجَنْبِ الشيءِ إذا قالوا: هذا في جَنْبِ اللهِ، لا يُريدونَ إلاَّ فيما يُنْسَبُ إليهِ مِنْ سبيلِهِ ومَرضاتِهِ وطاعتِهِ، لا يُريدونَ غيرَ هذا الْبَتَّةَ.

فلمَّا اصْطَلَحَ المتكلِّمُونَ علَى إطلاقِ الذاتِ علَى النفْسِ والحقيقةِ، ظَنَّ مَنْ ظَنَّ أنَّ هذا هوَ المرادُ مِنْ قولِهِ: «ثَلاثُ كِذْبَاتٍ فِي ذَاتِ اللهِ» وقولِهِ: وذلكَ في ذاتِ الإلهِ. فغُلِّطَ واستَحَقَّ التغليطَ، بل الذاتُ هنا كالجَنْبِ في قولِهِ تعالَى: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] ألا تَرى أنَّهُ لا يَحْسُنُ أنْ يُقالَ هاهنا: فَرَّطْتُ في نفْسِ اللهِ وحقيقتِهِ، ويَحْسُنُ أنْ يُقالَ: فَرَّطْتُ في ذاتِ اللهِ، كما يقالُ: فَعَلَ كذا في ذاتِ اللهِ، وقَتَلَ في ذاتِ اللهِ، وَصَبَرَ في ذاتِ اللهِ.

فتَأَمَّلْ ذلكَ فإنَّهُ مِن المَباحِثِ العزيزةِ الغريبةِ، التي يُثْنَى علَى مِثْلِها الخناصِرُ، واللهُ المُوَفِّقُ المُعِينُ)[1].

[فَصْلٌ]

([إذا تَبَيَّنَ هذا فاعلَمْ أنَّ] الذاتَ لا تَخْلُو مِن الصِّفَاتِ فهيَ قائمةٌ بها.[2] ولا نقولُ: إنَّ صفاتِها عينُها ولا غيرُها؛ لِمَا في لفظِ الغيرِ مِن الإجمالِ والاشتباهِ. فإنَّهُ قدْ يُرادُ بهما ما جازَ افتراقُهما ذاتاً أوْ زماناً أوْ مكاناً، وعلَى هذا فليست الصِّفَاتُ مغايِرَةً للذاتِ.

---

(١) بَدَائِعُ الفوائدِ (٢/ ٦-٨).

(٢) وقال - رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى - في الصواعقِ المرسَلةِ (١٤٨٥): (والمقصودُ أن إثباتَ الذاتِ ونفيَ قَدْرِها وصفاتِها جمعٌ بينَ النقيضينِ، فإنه إثباتٌ للشيءِ ونفيٌ لما يستلزمُ نَفْيَهُ، فإنَّ أَبْيَنَ لَوازمِ الذاتِ تَمييزُها بحقيقَتِها ومَاهِيَّتِها عن غيرِها، ومُبايَنَتُها له ولو بالتعيينِ، فمَنْ أنكَرَ مُبايَنَةَ الربِّ لخلقِه وصفاتِه التي وَصفَ بها نفسَهُ فقد جَحَدَ ذاتَهُ وأَنْكَرَها وإنْ أَقَرَّ بها لفظًا).

وقدْ يُرادُ بالْغَيْرَيْنِ: ما جازَ العلْمُ بأحدِهما دونَ الآخَرِ فيَفترقانِ في الوُجودِ الذهنيِّ، لا في الوجودِ الخارجيِّ، فالصفاتُ غيرُ الذاتِ بهذا الاعتبارِ؛ لأنَّهُ قدْ يَقعُ الشعورُ بالذاتِ حالَ ما يُغْفَلُ عنْ صفاتِها فتَتَجَرَّدُ صفاتُها في شُعورِ العبدِ لا في نفْسِ الأمرِ... و... التفريقُ بينَ الصِّفَاتِ والذاتِ في الوجودِ مستحيلٌ. وهوَ مُمْكِنٌ في الشهودِ بأنْ يَشْهَدَ الصفةَ ويَذْهَلَ عنْ شهودِ الموصوفِ، أوْ يَشهدَ الموصوفَ ويَذْهَلَ عنْ شُهودِ الصفةِ، فتَجريدُ الذاتِ أو الصِّفَاتِ إنَّما يُمْكِنُ في الذِّهْنِ، فالمعرِفَةُ في هذهِ الدرجةِ تَعلَّقَتْ بالذاتِ والصفاتِ جميعاً، فلَمْ يُفرِّقِ العلمُ والشهودُ بينَهما، ولا ريبَ أنَّ ذلكَ أكملُ مِنْ شهودِ مُجَرَّدِ الصفةِ أوْ مُجَرَّدِ الذاتِ).[1]

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٣٣٦-٣٣٧).

البابُ الثالثُ والعشرونَ: في بيانِ مَسألةِ الاسمِ والمُسَمَّى

(اللفظُ المؤلَّفُ مِن الزاي والياءِ والدالِ - مَثَلاً - لهُ حقيقةٌ مُتَميِّزَةٌ مُتَحَصِّلَةٌ فاستَحَقَّ أن يُوضَعَ لهُ لفظٌ يَدُلُّ عليهِ؛ لأَنَّهُ شيءٌ موجودٌ في اللسانِ مسموعٌ بالآذانِ؛ فاللفظُ المؤلَّفُ مِنْ هَمزةِ الوَصْلِ والسينِ والميم عبارةٌ عن اللفظِ المؤلَّفِ مِن الزاي والياءِ والدالِ - مَثَلاً - واللفظُ المؤلَّفُ مِن الزاي والياءِ والدالِ عبارةٌ عن الشخصِ الموجودِ في الأعيانِ والأذهانِ وهوَ المسمَّى والمعنَى، واللفظُ الدالُّ عليهِ الذي هوَ الزايُ والياءُ والدالُ هوَ الاسمُ. وهذا اللفظُ أيضاً قدْ صارَ مُسَمَّى مِنْ حيثُ كانَ لفظُ الهمزةِ والسينِ والميمِ عبارةً عنهُ.

فقدْ بانَ لكَ أنَّ الاسمَ في أصلِ الوضْعِ ليسَ هوَ المُسَمَّى، ولهذا تقولُ: سَمَّيْتُ هذا الشخصَ بهذا الاسمِ، كما تقولُ: حَلَّيْتُهُ بهذه الحِلْيَةِ؛ والحِلْيَةُ غيرُ المُحَلَّى، فكذلكَ الاسمُ غيرُ المُسَمَّى.

وقدْ صَرَّحَ بذلكَ سِيبويهِ، وأَخطأَ مَنْ نَسَبَ إليهِ غيرَ هذا وادَّعَى أنَّ مَذْهَبَهُ اتِّحادُهما، والذي غَرَّ مَن ادَّعَى ذلكَ قولُهُ: الأفعالُ أَمْثِلَةٌ أُخِذَتْ مِنْ لفظِ أحداثِ الأسماءِ. وهذا لا يُعارِضُ نَصَّهُ قبلَ هذا؛ فإنَّهُ نصَّ علَى أنَّ الاسمَ غيرُ المُسَمَّى؛ فقالَ: الكَلِمُ: اسمٌ وفعْلٌ وحَرْفٌ. فقدْ صَرَّحَ بأنَّ الاسمَ كلمةٌ، فكيفَ تكونُ الكلمةُ هيَ المسمَّى والمسمَّى شخصٌ؟. ثُمَّ قالَ بعدَ هذا: تقولُ: سَمَّيْتُ زيداً بهذا الاسمِ كما تقولُ: علَّمْتُهُ بهذه العلامةِ. وفي كتابِهِ قريبٌ مِنْ أَلْفِ مَوْضِعٍ أنَّ

الاسم: هوَ اللفظُ الدالُّ علَى المُسَمَّى، ومتَى ذُكِرَ الخَفْضُ أو النصبُ أو التنوينُ أو اللامُ أوْ جميعُ ما يَلْحَقُ الاسمَ مِنْ زيادةٍ ونُقصانٍ وتصغيرٍ وتكسيرٍ وإعرابٍ وبناءٍ؛ فذلكَ كلُّهُ مِنْ عَوارِضِ الاسمِ لا تَعَلُّقَ لشيءٍ مِنْ ذلكَ بالمسمَّى أَصْلاً؛ وما قالَ نَحْوِيٌّ قطُّ ولا عربيٌّ أنَّ الاسمَ هوَ المسمَّى. ويقولونَ: أَجَلٌّ مُسَمًّى، ولا يقولونَ: أجَلٌ اسمٌ.

ويقولون: مسمَّى هذا الاسمِ كذا، ولا يقولُ أَحَدٌ: اسمُ هذا الاسمِ كذا.

ويقولونَ: هذا الرجلُ مسمًّى بزيدٍ، ولا يقولونَ: هذا الرجلُ اسمُ زيدٍ.

ويقولونَ: بسمِ اللهِ، ولا يقولونَ: بِمُسَمَّى اللهِ.

وقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى الله عليهِ وسَلَّمَ: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ».(1) ولا يَصِحُّ أن يقالَ: لي خمسُ مُسَمَّياتٍ. و: «تَسَمَّوْا بِاسْمِي»(2) ولا يَصِحُّ أنْ يُقالَ: تَسَمَّوْا بِمُسَمَّياتِي.

وَ: «للهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْماً»(3) ولا يَصِحُّ أن يُقالَ: تسعةٌ وتِسعونَ مُسمًّى.(4)

(١) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٦٢٩٢)، والبُخَارِيُّ في كتابِ المناقبِ / بابُ ما جاءَ في أسماءِ الرسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ (٣٥٣٢)، ومسلمٌ في كتابِ الفضائلِ / بابٌ في أسمائِه صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ (٦٠٥٨،٦٠٥٩)، والتِّرْمذِيُّ في كتابِ الأدبِ / بابُ ما جاءَ في أسماءِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ (٢٨٤٠) من حديثِ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ رضيَ اللهُ عنه.

(٢) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٧٣٣٠) ومواضِعُ أُخَرُ، والبُخَارِيُّ في كتابِ العلمِ / بابُ إثمِ مَن كَذَبَ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ (١١٠)، ومسلمٌ في كتابِ الآدابِ / بابُ النهيِ عن التكنِّي بأبي القاسِمِ (٥٥٦٢)، وأبو داودَ في كتابِ الأدبِ / بابٌ في الرجلِ يَتَكَنَّى بأبي القاسِمِ (٤٩٥٥)، وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ الأدبِ / بابُ الجمعِ بينَ اسمِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ وكُنْيَتِهِ (٣٧٣٥) من حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٣) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٣٤٣.

(٤) وقال - رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى - في شفاءِ العليلِ (٢/ ٢٧٨): (فإنْ قِيلَ: فالاسمُ عِندَكُمْ هو المُسَمَّى أو غيرُه؟ قيلَ: طَالَمَا غَلِطَ الناسُ في ذلك وجَهِلُوا الصوابَ فيه. فالاسمُ يُرادُ به المُسَمَّى تارةً. ويُرادُ بِهِ اللفظُ الدالُّ عليه أُخْرَى.

وإذا ظَهَرَ الفرْقُ بينَ الاسمِ والمسمَّى، فبَقِيَ هاهنا (**التسميةُ**)؛ وهيَ التي اعتبرَها مَنْ قالَ باتِّحادِ الاسمِ والمسمَّى.

والتسميةُ عبارةٌ عنْ فعلِ المُسَمِّي ووَضْعِهِ الاسمَ للمسمَّى، كما أنَّ التحليةَ عبارةٌ عنْ فعْلِ المُحَلِّي ووَضْعِهِ الحِلْيَةَ علَى المُحَلَّى.

فهنا ثلاثُ حقائقَ: **اسمٌ**، و**مُسَمَّى**، و**تسميةٌ**؛ كحِليَةٍ ومُحَلًّى وتَحليَةٍ، وعلامةٍ ومُعَلَّمٍ وتعليمٍ.

ولا سبيلَ إلَى جَعْلِ لفظينِ منها مُترادِفَيْنِ علَى معنًى واحدٍ لتَبايُنِ حقائقِها، وإذا جَعَلْتَ الاسمَ هوَ المُسَمَّى بَطَلَ واحدٌ مِنْ هذهِ الحقائقِ الثلاثةِ ولا بُدَّ.

فإن قيلَ: فحُلُّوا لنا شُبَهَ مَنْ قالَ باتِّحادِهما ليَتِمَّ الدليلُ، فإنكم أَقَمْتُم الدليلَ فعليكم الجوابَ عن المعارِضِ.

• **فمنها**: أنَّ اللهَ وحدَهُ هوَ الخالقُ وما سواهُ مَخلوقٌ، فلوْ كانت أسماؤُهُ غيرَهُ لكانتْ مخلوقةً، ولَلَزِمَ أن لا يكونَ لهُ اسمٌ في الأَزَلِ ولا صفةٌ؛ لأنَّ أسماءَهُ صفاتٌ. وهذا هوَ السؤالُ الأعظمُ الذي قادَ مُتكَلِّمي الإثباتِ إلَى أن يَقولوا: الاسمُ هوَ المُسَمَّى. فما عندَكم في دَفْعِهِ؟

الجوابُ: إنَّ مَنْشَأَ الغلَطِ في هذا البابِ مِنْ إطلاقِ ألفاظٍ مُجْمَلَةٍ مُحتمِلَةٍ لِمَعنيينِ: صحيحٍ وباطلٍ، فلا يَنْفَصِلُ النزاعُ إلاَّ بتفصيلِ تلكَ المعاني وتنـزيلِ ألفاظِها عليها.

فإذا قُلتَ: قالَ اللهُ كذا، واستوَى اللهُ على عرشِه، وسَمِعَ اللهُ ورَأَى وخَلَقَ، فهذا المرادُ به المُسَمَّى نَفْسُه.

وإذا قُلتَ: اللهُ اسمٌ عربيٌّ، والرحمنُ اسمٌ عربيٌّ، والرحمنُ من أسماءِ اللهِ، والرحمنُ وَزْنُهُ فَعْلانُ والرحمنُ مُشتَقٌّ من الرحمةِ، ونحوُ ذلك، فالاسمُ هاهنا للمُسمَّى، ولا يقالُ: غَيْرُه، لِمَا في لفظِ الغيرِ من الإجمالِ؛ فإن أُريدَ بالمغايرةِ أنَّ اللفظَ غيرُ المَعنَى فحَقٌّ، وإن أُريدَ أنَّ اللهَ سُبحانَهُ كانَ ولا اسمَ له حتَّى خَلَقَ لنَفْسِه اسمًا، أو حتَّى سماهُ خَلْقُه بأسماءٍ من صُنعِهم، فهذا من أعظمِ الضلالِ والإلحادِ؛ فقولُه في الحديثِ: «سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ»، ولم يَقُلْ: خَلَقْتَهُ لِنَفْسِكَ، ولا قالَ: (سمَّاكَ بهِ خَلْقُكَ) دليلٌ على أنه سُبحانَهُ تكلَّمَ بذلك الاسمِ وسمَّى به نفسَهُ، كما سمَّى نفسَهُ في كُتُبِه التي تكلَّمَ بها حقيقةً بأسمائِه).

ولا ريبَ أنَّ الله تَبارَكَ وتعالَى لم يَزَلْ ولا يزالُ مَوصوفاً بصفاتِ الكمالِ المشتَقَّةِ أسماؤُهُ منها، فلم يَزلْ بأسمائِهِ وصفاتِهِ وهوَ إلهٌ واحدٌ لهُ الأسماءُ الحُسْنَى والصفاتُ العُلَى، وأسماؤُهُ داخلةٌ في مُسَمَّى اسمِهِ، وإنْ كانَ لا يُطْلَقُ علَى الصفةِ أنَّها إلهٌ يَخْلُقُ ويرزُقُ، فليستْ صفاتُهُ وأسماؤُهُ غيرَهُ، وليستْ هيَ نفْسَ الإلهِ. **وبلاءُ القومِ مِنْ لفظةِ الغيرِ فإنَّها يُرادُ بها مَعنيانِ:**

- **أحدُهما:** المغايرُ لتلكَ الذاتِ المُسَمَّاةِ باللهِ، وكلُّ ما غايَرَ الله مُغايَرَةً مَحْضَةً - بهذا الاعتبارِ - فلا يكونُ إلاَّ مَخلوقاً.

- ويُرادُ بهِ مُغايَرَةُ الصفةِ للذاتِ إذا خَرَجَتْ عنها.

فإذا قيلَ: عِلْمُ الله وكلامُ الله غيرُهُ؛ بمعنَى أنَّهُ غيرُ الذاتِ المُجَرَّدةِ عن العلْمِ والكلامِ، كانَ المعنَى صحيحاً، **ولكنَّ الإطلاقَ باطلٌ.**

وإذا أُريدَ أنَّ العلْمَ والكلامَ مغايرٌ لحقيقتِهِ المختَصَّةِ التي امتازَ بها عنْ غيرِهِ كانَ باطلاً لفظاً ومعنًى.

وبهذا أجابَ أهلُ السنَّةِ المعتزِلةَ القائلينَ بخلْقِ القرآنِ، وقالوا: كلامُهُ تعالَى داخلٌ في مُسَمَّى اسمِهِ؛ **فالله** تعالَى اسمُ الذاتِ الموصوفةِ بصفاتِ الكمالِ، ومِنْ تلكَ الصِّفَاتِ صفةُ الكلامِ؛ كما أنَّ عِلْمَهُ وقُدرتَهُ وحياتَهُ وسَمْعَهُ وبَصَرَهُ غيرُ مخلوقةٍ.

وإذا كانَ القرآنُ كلامَهُ - وهوَ صفةٌ مِنْ صفاتِهِ - فهوَ مُتَضَمِّنٌ لأسمائِهِ الحُسْنَى؛ فإذا كانَ القرآنُ غيرَ مخلوقٍ، ولا يُقالُ: إنَّهُ غيرُ اللهِ، فكيفَ يُقالُ: إنَّ بعضَ ما تَضَمَّنَهُ - وهوَ أسماؤهُ - مخلوقةٌ وهيَ غيرُهُ؟!!.

فقدْ حَصْحَصَ الحقُّ - بحمْدِ الله - وانْحَسَمَ الإشكالُ، وأنَّ أسماءَهُ الحُسْنَى التي في القرآنِ مِنْ كلامِهِ، وكلامُهُ غيرُ مخلوقٍ. ولا يُقالُ: هوَ غيرُهُ، ولا: هوَ هوَ.

وهذا المذهَبُ مُخالِفٌ لِمَذهَبِ المعتزِلةِ الذينَ يقولون: أسماؤُهُ تعالَى غيرُهُ وهيَ مخلوقةٌ، ولِمَذْهَبِ مَنْ رَدَّ عليهم مِمَّنْ يقولُ: اسمُهُ نفْسُ ذاتِهِ لا غيرُهُ، **وبالتفصيلِ تَزولُ الشُّبَهُ ويتبَيَّنُ الصوابُ، والحمدُ للهِ.**

• **حُجَّةٌ ثانيَةٌ لهم:** قالوا: قالَ - تَبَارَكَ وتعالَى -: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٧٨]، و: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٥]، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾ [الأعلَى: ١].

وهذه الْحُجَّةُ عليهم في الحقيقةِ؛ لأنَّ النبيَّ صَلَّى الله عليهِ وسَلَّمَ امْتَثَلَ هذا الأمرَ وقالَ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى، سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ**». ولوْ كانَ الأمرُ كما زَعمُوا لقالَ: سُبحانَ اسمِ ربِّيَ العظيمِ!!.

ثُمَّ إنَّ الأُمَّةَ كلَّهم لا يُجوِّزُ أحدٌ منهم أنْ يقولَ: عَبَدْتُ اسمَ رَبِّي، ولا: سَجَدْتُ لاسمِ ربِّي، ولا: رَكَعْتُ لاسمِ ربِّي، ولا: ياسمَ ربِّي ارْحَمْني. وهذا يَدُلُّ علَى أنَّ الأشياءَ مُتَعَلِّقَةٌ بالْمُسَمَّى لا بالاسمِ.

وأمَّا الجوابُ عنْ تَعَلُّقِ الذكْرِ والتسبيحِ المأمورِ بهِ بالاسمِ فقدْ قيلَ فيهِ: إنَّ التعظيمَ والتنـزيهَ إذا وَجَبَ للمُعظَّمِ فقدْ تَعظَّمَ ما هوَ مِنْ سَببِهِ ومُتَعَلِّقٌ بهِ. كما يُقالُ: سلامٌ علَى الْحَضرةِ العاليَةِ، والبابِ السامي، والمجلِسِ الكريمِ، ونحوُهُ.

وهذا جوابٌ غيرُ مَرْضِيٍّ لوجهينِ:

أحدُهما: أنَّ رسولَ الله صَلَّى الله عليهِ وسَلَّمَ لم يَفْهَمْ هذا المعنَى وإنَّما قالَ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ**» فلم يُعرِّجْ علَى ما ذَكَرْتُمُوهُ.

الثاني: أنَّهُ يَلْزَمُهُ أن يُطلَقَ علَى الاسمِ التكبيرُ والتحميدُ والتهليلُ، وسائرُ ما يُطلَقُ علَى الْمُسَمَّى؛ فيُقالُ: الحمدُ لاسمِ اللهِ، ولا إلهَ إلاَّ اسمُ اللهِ، ونحوُهُ، وهذا مما لم يَقُلْهُ أَحَدٌ!!.

بل الجوابُ الصحيحُ: أنَّ الذِّكْرَ الحقيقيَّ محَلُّهُ القلبُ؛ لأنَّهُ ضِدُّ النِّسيانِ، والتسبيحُ نوعٌ مِن الذكْرِ، فلوْ أُطْلِقَ الذكْرُ والتسبيحُ لَمَا فُهِمَ منهُ إلاَّ ذلكَ دونَ اللفظِ باللسانِ. والله تعالَى أرادَ مِنْ عِبادِهِ الأمرينِ جميعاً، ولم يَقبلِ الإيمانَ وعَقْدَ الإسلامِ إلاَّ باقترانِهما واجتماعِهما.

فصارَ معنَى الآيتينِ: سَبِّحْ ربَّكَ بقَلْبِكَ ولسانِكَ، واذْكُرْ رَبَّكَ بقلبِكَ ولسانِكَ. فأَقْحَمَ الاسمَ تَنبيهاً علَى هذا المعنَى حتَّى لا يَخْلُوَ الذكْرُ والتسبيحُ مِن اللفظِ باللسانِ؛ لأنَّ ذِكْرَ القلبِ مُتَعَلِّقُهُ المسمَّى المدلولُ عليهِ بالاسمِ دونَ ما سِواهُ، والذكْرَ باللسانِ مُتَعَلِّقُهُ اللفظُ معَ مدلولِهِ؛ لأنَّ اللفظَ لا يُرادُ لنفسِهِ، فلا يَتوَهَّمُ أحدٌ أنَّ اللفظَ هوَ المسبَّحُ دونَ ما يَدُلُّ عليهِ مِن المعنَى.

وعَبَّرَ لي شيخُنا أبو العبَّاسِ ابنُ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ الله رُوحَهُ - عنْ هذا المعنَى بعبارةٍ لطيفةٍ وَجيزةٍ فقالَ: المعنَى: سَبِّحْ ناطقاً باسمِ ربِّكَ مُتكَلِّماً بهِ، وكذا سَبِّحِ اسمَ رَبِّكَ؛ المعنَى: سَبِّحْ ربَّكَ ذاكِراً اسْمَهُ.

وهذهِ الفائدةُ تُساوي رحلةً لكن لِمَنْ يَعرِفُ قَدْرَها، فالحمدُ للهِ المَنَّانِ بفَضْلِهِ، ونَسألُهُ تمامَ نِعْمَتِهِ.

- **حُجَّةٌ ثالثةٌ لهم**: قالوا: قالَ تعالَى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠] وإنَّما عَبَدُوا مُسَمَّياتِها.

والجوابُ: أنَّهُ كما قُلتُمْ إنَّما عَبَدُوا المُسَمَّياتِ، ولكن مِنْ أَجلِ أنَّهُم نَحلُوها أسماءً باطلةً كاللاَّتِ والعُزَّى، وهيَ مُجَرَّدُ أسماءٍ كاذبةٍ باطلةٍ لا مُسَمَّى لها في الحقيقةِ؛ فإنَّهُم سَمَّوْهَا آلهةً وعَبَدُوها لاعتقادِهم حقيقةَ الإلهيَّةِ لها، وليسَ لها مِن الإلهيَّةِ إلاَّ مُجَرَّدُ الأسماءِ لا حقيقةُ المسمَّى. فما عَبَدُوا إلاَّ أسماءً لا حقائقَ لِمُسَمَّياتِها. وهذا كَمَنْ سَمَّى قُشورَ البصَلِ لحماً وأَكَلَها؛ فيقالُ: ما أَكلتَ مِن

اللحمِ إلاَّ اسمهُ لا مُسَمَّاهُ، وكمَنْ سَمَّى الترابَ خُبْزاً وأَكَلَهُ؛ يُقالُ: ما أَكلتَ إلاَّ اسمَ الخبزِ. بلْ هذا النفيُ أَبلغُ في آلهتِهم، فإنَّهُ لا حقيقةَ لإلهيَّتِها بوجهٍ، وما الحكمةُ ثَمَّ إلاَّ مُجَرَّدُ الاسمِ. **فتَأَمَّلْ هذهِ الفائدةَ الشريفةَ في كلامِهِ تعالَى.**

فإنْ قيلَ: فما الفائدةُ في دخولِ الباءِ في قولِهِ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: ٧٤]، ولم تَدْخُلْ في قولِهِ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلَى: ١]؟

قيلَ: **التسبيحُ يُرادُ بِهِ**:

- التنزيهُ والذكرُ المُجَرَّدُ دونَ معنًى آخرَ.
- ويُرادُ بِهِ ذلكَ معَ الصلاةِ، وهوَ ذِكْرٌ وتنـزيهٌ معَ عَمَلٍ؛ ولهذا تُسَمَّى الصلاةُ تَسبيحاً.

فإذا أُرِيدَ التسبيحُ المُجَرَّدُ فلا معنَى للباءِ؛ لأنَّهُ لا يَتَعَدَّى بِحَرْفِ جَرٍّ؛ لا تقولُ: سبَّحتُ باللهِ.

وإذا أَردتَ المقرونَ بالفعلِ وهوَ الصلاةُ أَدْخَلْتَ الباءَ تَنبيهاً علَى ذلكَ المرادِ. كأنَّكَ قلتَ: سَبِّحْ مُفْتَتِحاً باسمِ ربِّكَ، أوْ ناطقاً باسمِ ربِّكَ. كما تقولُ: صَلِّ مُفتَتِحاً أوْ ناطقاً باسمِهِ.

ولهذا السرِّ - واللهُ أعلَمُ - دَخلَتِ اللامُ في قولِهِ تعالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، والمرادُ التسبيحُ الذي هوَ السجودُ والخضوعُ والطاعةُ، ولم يَقُلْ في مَوضعٍ: سَبَّحَ اللهَ ما في السَّماواتِ والأرضِ كما قالَ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥] وتَأَمَّلْ قولَهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. فكيفَ قالَ: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ لَمَّا ذَكَرَ السجودَ باسمِهِ الخاصِّ، فصارَ التسبيحُ ذِكْرَهم لهُ وتنـزيهَهم إيَّاهُ.

• **شُبهةٌ رابعةٌ**: قالوا: قدْ قالَ الشاعرُ:

إلَى الحَوْلِ ثُمَّ اسمُ السلامِ عَلَيْكُما ... ومَنْ يَبْكِ حَوْلاً كاملاً فقدِ اعْتَذَرْ(١)

وكذلكَ قولُ الأَعْشَى: داعٍ يُناديهِ باسمِ الماءِ مَبْغُومُ.(٢)

وهذه حُجَّةٌ عليهم لا لهم. أمَّا قولُهُ: ثُمَّ اسمُ السلامِ عليكما؛ **فالسلامُ هوَ اللهُ تعالَى، والسلامُ أيضاً التَّحِيَّةُ**:

فإنْ أرادَ الأَوَّلَ: فلا إشكالَ؛ فكأنَّهُ قالَ: ثُمَّ اسمُ السلامِ عليكما. أيْ: بَرَكَةُ اسمِهِ.

وإن أَرادَ التحيَّةَ: فيكونُ المرادُ بالسلامِ: المعنَى المدلولَ، وباسمِهِ: لفظَهُ الدالَّ عليهِ؛ والمعنَى: ثُمَّ اسمُ هذا المُسَمَّى عليكما. فيُرادُ بالأَوَّلِ اللفظُ، وبالثاني المعنَى؛ كما تقولُ: «زَيْدٌ بَطَّةٌ» ونحوَه، مما يُرادُ بأحدِهما اللفظُ، وبالآخرِ المدلولُ فيهِ.

وفيهِ نُكتةٌ حَسنةٌ كأنَّهُ أرادَ: ثُمَّ هذا اللفظُ باقٍ عليكما جارٍ لا يَنقطِعُ مِنِّي، بلْ أنا مُراعيهِ دائماً.

وقدْ أَجابَ السُّهَيْلِيُّ عن البيتِ بجوابٍ آخَرَ، وهذا حكايَةُ لفظِهِ فقالَ: «لَبيدٌ لم يُرِدْ إيقاعَ التسليمِ عليهم لحينِهِ، وإِنَّما أرادَ بعدَ الحوْلِ، ولوْ قالَ: السلامُ

---

(١) بيتٌ من قصيدةٍ لِلَبِيدِ بنِ رَبِيعَةَ العامِرِيِّ، مَطلَعُها:

تَمَنَّى ابْنَتَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا ... وَهَلْ أَنَا إِلاَّ مِنْ رَبِيعَةَ أَوْ مُضَرْ

انظُرْ دِيوانَ لَبِيدِ بنِ رَبِيعةَ بشَرْحِ الطُّوسِيِّ (٧٣).

(٢) هذا عَجُزُ بيتٍ لغيلانَ ذي الرُّمَّةِ وليس للأعْشَى كما يُشيرُ إلى ذلك المُؤَلِّفُ ص ٣٢٠، وصدرُه:

لا ينعَشُ الطَرفَ إلاَّ مَا تَخَوَّنَهُ

وهو بيتٌ من قصيدةٍ مَطلَعُها:

أَأَنْ تَرَسَّمْتَ مِنْ خَرْقَاءَ مَنْزِلَةً ... مَاءُ الصَّبَابَةِ مِنْ عَيْنَيْكَ مَسْجُومُ

انظُرْ دِيوانَ ذي الرُّمَّةِ (٣٩١).

عليكما، كانَ مُسَلِّماً لوقتِهِ الذي نَطَقَ فيهِ بالبيتِ؛ فكذلكَ ذِكْرُ الاسمِ الذي هوَ عبارةٌ عن اللفظِ؛ أي: اللفظُ بالتسليمِ بعدَ الحَوْلِ، وذلكَ أنَّ السلامَ دُعاءٌ فلا يَتَقَيَّدُ بالزمانِ المستقبَلِ، وإنَّما هوَ لحِينِهِ.

ألا ترَى أنَّهُ لا يُقالُ: بعدَ الجُمُعَةِ اللَّهُمَّ ارْحَمْ زيداً، ولا: بعدَ الموتِ اللَّهمَّ اغْفِرْ لي.

إنَّما يُقالُ: اللَّهمَّ اغْفِرْ لي بعدَ الموتِ، فيكونُ «بعدَ» ظرفاً للمَغفرةِ والدعاءُ واقعٌ لحينِهِ.

فإن أَردتَ أن تَجعلَ الوقتَ ظَرْفاً للدعاءِ صَرَّحْتَ بلفظِ الفعلِ فقُلتَ: بعدَ الجُمُعَةِ أَدْعُو بكذا، أوْ أُسَلِّمُ، أوْ أَلْفِظُ بكذا؛ لأنَّ الظروفَ إنَّما يُريدُ بها الأحداثَ الواقعةَ فيها خَبَراً أوْ أَمراً أوْ نَهْياً، وأمَّا غيرُها مِن المعاني كالطلاقِ واليمينِ والدعاءِ والتمنِّي والاستفهامِ وغيرِها مِن المعاني، فإنَّما هيَ واقعةٌ لحينِ النُّطْقِ بها، وكذلكَ يَقعُ الطلاقُ ممَّنْ قالَ: بعدَ يومِ الجُمُعَةِ: أنتِ طالقٌ، وهوَ مُطَلِّقٌ لحينِهِ، ولوْ قالَ: بعدَ الحَوْلِ واللهِ لأَخْرُجَنَّ. انْعَقَدَت اليمينُ في الحالِ، ولا يَنفعُهُ أن يقولَ: أَردتُ أن لا أُوقِعَ اليمينَ إلاَّ بعدَ الحَوْلِ. فإنَّهُ لوْ أَرادَ ذلكَ لقالَ: بعدَ الحَوْلِ أَحْلِفُ، أوْ بعدَ الجُمُعَةِ أُطَلِّقُكِ، فأمَّا الأَمْرُ والنهيُ والخبرُ، فإنَّما تَقيَّدَتْ بالظروفِ؛ لأنَّ الظروفَ في الحقيقةِ إنَّما يَقَعُ فيها الفعْلُ المأمورُ بِهِ والمخبَرُ بِهِ دون الأَمْرِ والخبرِ، فإنهما واقعانِ لحينِ النُّطْقِ بهما؛ فإذا قُلتَ: اضرِبْ زيداً يومَ الجُمُعَةِ. فالضربُ هوَ المُقَيَّدُ بيومِ الجُمُعَةِ، وأمَّا الأمرُ فأنتَ في الحالِ آمِرٌ بِهِ.

وكذلكَ إذا قُلتَ: سافَرَ زيدٌ يومَ الجُمُعَةِ؛ فالمتقيِّدُ باليومِ المخبَرُ بِهِ لا الخبرُ، كما أنَّ في قولِهِ: اضْرِبْهُ يومَ الجمعةِ، المقيَّدُ بالظرْفِ المأمورُ بِهِ لا أَمْرُكَ أنت.

فلا تَعَلُّقَ للظروفِ إلاَّ بالأحداثِ، فقدْ رَجَعَ البابُ كلُّهُ باباً واحداً؛ فلوْ أنَّ لَبيداً قالَ: إلَى الحَوْلِ ثُمَّ السلامُ عليكما؛ لكان مُسَلِّماً لحينِهِ، ولكنه أَرادَ أنْ لا يُوقِعَ اللفظَ بالتسليمِ والوداعِ إلاَّ بعدَ الحَوْلِ.

وكذلكَ ذَكَرَ الاسمَ الذي هوَ بمعنَى اللفظِ بالتسليمِ؛ ليكونَ ما بعدَ الحَوْلِ ظَرفاً له»ا. هـ. وهذا الجوابُ مِنْ أَحَدِ أعاجيبِهِ وبَدائِعِهِ، رَحِمَهُ اللهُ.

وأمَّا قولُهُ: باسمِ الماءِ، والماءُ المعروفُ هنا هوَ الحقيقةُ المشروبةُ، ولهذا عَرَّفَهُ تعريفَ الحقيقةِ الذهنيَّةِ. والبيتُ لذي الرُّمَّةِ، وصَدْرُهُ:

لا يَنْعَشُ الطَّرفَ إلاَّ ما تخوَّنه.

ثُمَّ قال: داعٍ يُناديهِ باسمِ الماءِ.

فظنَّ الغالِطُ أنَّهُ أَرادَ حكايَةَ صوتِ الظَّبْيَةِ، وأنَّها دَعَتْ وَلَدَها بهذا الصوتِ وهو (مَا مَا) وليسَ هذا مُرادَهُ. وإنَّما الشاعرُ أَلْغَزَ لَمَّا وَقَعَ الاشتراكُ بينَ لفظِ الماءِ المشروبِ وصَوْتِها بِهِ؛ فصارَ صوتُها كأنَّهُ هوَ اللفظُ المعبِّرُ عن الماءِ المشروبِ؛ فكأنَّها تُصَوِّتُ باسمِ هذا الماءِ المشروبِ، وهذا لأن صوتَها: (مَا مَا) وهذا في غايَةِ الوضوحِ).[(١)]

(١) بَدائِعُ الفوائِدِ (١/ ١٦-٢٢).

البابُ الرابعُ والعشرونَ: فِي بيانِ الاشتراكِ والاختصاصِ فِي بعضِ ما يُطْلَقُ علَى الربِّ جَلَّ وعلا وعلَى العبْدِ مِنَ الألفاظِ(١)

(الألفاظُ ثلاثةُ أقسامٍ:

- قِسمٌ لا يُطْلَقُ إلاَّ علَى الربِّ سُبحانَهُ: كالبارِئِ والبديعِ والمبدِعِ.

-وقِسمٌ لا يُطْلَقُ إلاَّ علَى العبدِ: كالكاسِبِ والمكتَسِبِ.

-وقِسمٌ وَقَعَ إطلاقُهُ علَى الربِّ والعبْدِ: كاسمِ صانعٍ وفاعلٍ وعاملٍ ومُنْشِئٍ ومُريدٍ وقادرٍ)(٢).

([فـ]هاهنا ألفاظٌ وهيَ: فاعلٌ، وعاملٌ، ومُكْتَسِبٌ، وكاسبٌ، وصانعٌ، ومُحْدِثٌ، وجاعلٌ، ومؤثِّرٌ، ومُنشئٌ، ومُوجدٌ، وخالقٌ، وبارئٌ، ومصوِّرٌ، وقادرٌ، ومُريدٌ)(٣).

([فـ]أما «الخالقُ» و«المصوِّرُ» فإن اسْتُعْمِلا مُطْلَقَيْنِ غيرَ مُقيَّدَيْنِ لم يُطْلَقَا إلاَّ علَى الربِّ كقولِهِ: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤].

---

(١) راجِعْ للأهميةِ: الأمرَ الرابعَ والأمرَ العشرينَ والثامنَ والعِشرينَ والثلاثينَ والحاديَ والثلاثينَ منَ القواعدِ المذكورةِ في البابِ الحادي والعشرينَ.

(٢) شِفاءُ العَليلِ (١/ ٣٣١).

(٣) شِفاءُ العَليلِ (١/ ٣٣١).

وإن اسْتُعْمِلا مُقَيَّدَيْنِ أُطْلِقَا علَى العبدِ، يقالُ لِمَنْ قَدَّرَ شيئاً في نفسِهِ: إنَّهُ خلقَهُ، قالَ:

ولأنـتَ تَفْرِي ما خلقتَ وبعْـــ ـــضُ القـومِ يَخْـلُقُ ثُمَّ لا يَفْـرِي

أيْ: لكَ قُدرةٌ تُمْضِي وتُنَفِّذُ بها ما قَدَّرْتَهُ في نفسِكَ، وغيرُكَ يُقَدِّرُ أشياءَ وهوَ عاجزٌ عنْ إنفاذِها وإمضائِها. وبهذا الاعتبارِ صَحَّ إطلاقُ «**خالق**» علَى العبدِ في قولِهِ تعالَى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: ١٤]؛ أيْ: أحسنُ المُصَوِّرِينَ والمُقَدِّرِينَ، والعربُ تقولُ: (قَدَّرْتُ الأديمَ وخَلقْتُهُ) إذا قِسْتَهُ لتَقطعَ منهُ مَزادةً أوْ قِربةً ونحوَها، قالَ مُجاهدٌ: يَصنعونَ ويَصنَعُ اللهُ واللهُ خيرُ الصانعينَ، وقالَ الليثُ: رجُلٌ خالقٌ، أيْ: صانعٌ، وهنَّ الخالقاتُ، للنساءِ. وقالَ مقاتِلٌ: يقولُ تعالَى: هوَ أَحْسَنُ خَلْقاً مِن الذينَ يَخْلُقُونَ التماثيلَ وغيرَها التي لا يَتحرَّكُ منها شيءٌ.

وأمَّا «**البارئُ**» فلا يَصِحُّ إطلاقُهُ إلاَّ عليهِ سُبحانَهُ، فإنَّهُ الذي بَرَأَ الْخَلِيقةَ وأَوْجَدَها بعدَ عَدَمِها، والعبدُ لا تَتعلَّقُ قُدرتُهُ بذلكَ؛ إذ غايَةُ مَقْدُورِهِ التصَرُّفُ في بعضِ صِفاتِ ما أَوْجَدَهُ الربُّ تعالَى وبَرَأَهُ، وتغييرُها مِنْ حالٍ إلَى حالٍ علَى وجهٍ مَخصوصٍ لا تَتعَدَّاهُ قُدرتُهُ، وليسَ مِنْ هذا (بَرَيْتُ القلمَ) لأَنَّهُ مُعْتَلٌّ لا مَهموزٌ، ولا (بَرَأْتُ مِن المَرَضِ)؛ لأَنَّهُ فعْلٌ لازمٌ غيرُ مُتَعَدٍّ.

وكذلكَ **مُبدِعُ** الشيءِ **وبَديعُهُ** لا يَصِحُّ إطلاقُهُ إلاَّ علَى الربِّ، كقولِهِ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ١١٧] والإبداعُ إيجادُ المبدَعِ علَى غيرِ مثالٍ سَبَقَ.

والعبدُ يُسَمَّى مُبْتَدِعاً لكونِهِ أَحْدَثَ قَوْلاً لم تَمْضِ بِهِ سُنَّةٌ، ثُمَّ يقالُ لِمَنِ اتَّبَعَهُ عليهِ: مُبْتَدِعٌ. أيضاً.

وأمَّا لفظُ **الموجِدِ** فلم يَقَعْ في أسمائِهِ سُبحانَهُ، وإن كانَ هوَ المُوجِدَ على الحقيقةِ، ووَقَعَ في أسمائِهِ **الواجدُ**، وهوَ بمعنَى الغنيِّ الذي لهُ الوُجْدُ، **وأمَّا الموجِدُ فهوَ مُفْعِلٌ مِنْ أَوْجَدَ، ولهُ مَعنيانِ:**

- **أحدُهما:** أن يَجعلَ الشيءَ مَوجوداً، وهوَ تَعديَةُ وَجَدَهُ وأَوْجَدَهُ، قالَ الجوهريُّ: وُجِدَ الشيءُ عنْ عَدَمٍ فهوَ موجودٌ، مِثلَ حُمَّ فهوَ محمومٌ، وأَوْجَدَهُ اللهُ، ولا يُقالُ: وَجَدَهُ.

- **والمعنَى الثاني:** أَوْجَدَهُ جَعَلَ لهُ جِدَةً وغِنًى، وهذا يَتَعَدَّى إلَى مَفعولينِ. قالَ في الصِّحَاحِ: أَوْجَدَهُ اللهُ مَطلوبَهُ. أيْ: أَظْفَرَهُ بِهِ، وأَوْجَدَهُ، أيْ: أَغناهُ.

قلتُ: وهذا يَحتمِلُ أمرينِ:

أحدُهما: أن يكونَ مِنْ بابِ حَذْفِ أَحَدِ المفعولينِ، أيْ: أَوْجَدَهُ مالاً وغِنًى.

- وأن يكونَ مِنْ بابِ صَيَّرَهُ واجداً. مِثلُ أغناهُ وأَفْقَرَهُ، إذا صَيَّرَهُ غَنِيًّا وفَقِيراً.

فعلَى التقديرِ الأوَّلِ: يكونُ تَعديَةَ وَجَدَ مالاً وغِنًى، وأَوْجَدَهُ اللهُ إيَّاهُ.

وعلَى الثاني: يكونُ تعديَةَ وَجَدَ وَجْداً إذا اسْتَغْنَى. ومَصدرُ هذا: الوُجْد -بالضمِّ والفتحِ والكسرِ- قالَ تعالَى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦].

((ويُقالُ: وَجَدَ فُلانٌ وَجداً ووَجداً - بضمِّ الواوِ وفتْحِها وكَسْرِها - إذا صارَ ذا جِدَةٍ وثَروةٍ. ووَجَدَ الشيءَ فهوَ مَوجودٌ. وأَوْجَدَهُ اللهُ. ويقالُ: وَجَدَ اللهُ

الشيءَ كذا وكذا، علَى غيرِ معنَى أَوْجَدَهُ. كما قالَ تعالَى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠٢] فاللهُ سُبحانَهُ أَوْجَدَهُ علَى عِلْمِهِ، بأن يكونَ علَى صفةٍ. ثُمَّ وَجَدَهُ بعدَ إيجادِهِ علَى تلكَ الصفةِ التي عَلِمَ أن سيكونُ عليها.

وأمَّا «الواجِدُ» في أسمائِهِ سُبحانَهُ: فهوَ بمعنَى: ذو الوَجْدِ والغِنَى، وهوَ ضِدُّ الفاقِدِ، وهوَ كالمُوسِّعِ ذي السَّعَةِ، قالَ تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧]؛ أيْ: ذُوْ سَعَةٍ وقُدرةٍ ومُلْكٍ، كما قالَ تعالَى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٦] ودَخَلَ في أسمائِهِ سُبحانَهُ «**الواجدُ**» دونَ «**المُوجِدِ**» فإن «**الموجِدَ**» صفةُ فِعْلٍ، وهوَ مُعْطِي الوُجودِ، كالمُحْيي مُعطِي الحياةِ، وهذا الفعلُ لم يَجِئْ إطلاقُهُ في أفعالِ اللهِ في الكتابِ ولا في السُّنَّةِ. فلا يُعرفُ إطلاقُ: أَوْجَدَ اللهُ كذا وكذا، وإنَّما الذي جاءَ: **خَلَقَهُ وبَرَأَهُ، وصَوَّرَهُ وأعطاهُ خَلْقَهُ** ونحوُ ذلكَ. فلَمَّا لم يكنْ يُسْتَعْمَلُ فِعْلُهُ لم يَجِئ اسمُ الفاعِلِ منهُ في أسمائِهِ الحُسْنَى. فإنَّ الفعلَ أَوْسَعُ مِن الاسمِ. ولهذا أَطْلَقَ اللهُ علَى نفسِهِ أفعالاً لم يَتَسَمَّ منها بأسماءِ الفاعلِ: كأَرادَ، وشاءَ، وأَحْدَثَ، ولم يُسَمَّ **بالمريدِ** و **الشائي** و **المُحْدِثِ**، كما لم يُسَمِّ نفسَهُ **بالصانعِ** و **الفاعلِ** و **المتقِنِ** وغيرِ ذلكَ مِن الأسماءِ التي أَطْلَقَ علَى نفسِهِ، فبابُ الأفعالِ أَوْسَعُ مِنْ بابِ الأسماءِ.

وقدْ أخطأَ - أَقْبَحَ خطأٍ - مَن اشْتَقَّ لهُ مِنْ كلِّ فِعْلٍ اسماً، وبَلَغَ بأسمائِهِ زيادةً علَى الألفِ. فسَمَّاهُ **الماكِرَ، والمخادِعَ، والفاتِنَ، والكائدَ** ونحوَ ذلكَ. وكذلكَ بابُ الإخبارِ عنهُ بالاسمِ أَوْسَعُ مِنْ تسميتِهِ بهِ. فإنَّهُ يُخْبَرُ عنهُ بأنَّهُ ((شيءٌ، وموجودٌ، ومذكورٌ، ومعلومٌ، ومرادٌ لا يُسَمَّى بذلكَ)).

فأمَّا «**الواجدُ**» فلم تَجِئْ تَسميتُهُ بِهِ إلاَّ في حديثِ تَعدادِ الأسماءِ الحُسْنَى [(١)]. والصحيحُ: أَنَّهُ ليسَ مِنْ كلامِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ. ومعناهُ صحيحٌ. فإنَّهُ ذو الوُجْدِ والغِنَى، فهوَ أَوْلَى بأنْ يُسَمَّى بهِ مِن «**الموجودِ**» ومِن «**المُوجِدِ**».

أمَّا «**الموجودُ**» فإنَّهُ مُنقسِمٌ إلَى كاملٍ وناقصٍ، وخيرٍ وشَرٍّ. وما كانَ مُسَمَّاهُ مُنْقَسِماً لم يَدْخُل اسمُهُ في الأسماءِ الحسنَى كالشيءِ والمعلومِ. ولذلكَ لم يُسَمَّ بالمريدِ، ولا بالمتكلِّم، وإنْ كانَ لهُ الإرادةُ والكلامُ، لانقسامِ مُسَمَّى **المريدِ** و **المتكلِّم** وأمَّا **الموجِدُ** فقدْ سَمَّى نفسَهُ بأكملِ أنواعِهِ. وهوَ «**الخالقُ، البارئُ، المصوِّرُ**» فالموجِدُ كالمحْدِثِ والفاعلِ والصانعِ.

وهذا مِنْ دقيقِ فِقْهِ الأسماءِ الحسنَى. فتَأَمَّلْهُ، وباللهِ التوفيقُ)) [(٢)].

فغيرُ مُمْتَنِعٍ أن يُطْلَقَ علَى مَنْ يَفعلُ بالقُدرةِ المحدَثَةِ أَنَّهُ أَوْجَدَ مقدورَهُ، كما يُطْلَقُ عليهِ أنَّهُ فَعَلَهُ وعَمِلَهُ وصَنَعَهُ وأَحْدَثَهُ، لا علَى سبيلِ الاستقلالِ.

وكذلكَ لفظُ **المؤَثِّرِ** لم يَرِدْ إطلاقُهُ في أسماءِ الربِّ، وقدْ وَقَعَ إطلاقُهُ الأثَرَ والتأثيرَ علَى فِعْلِ العبدِ، قالَ تعالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢].

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: ما أَثَّرُوا منْ خيرٍ أوْ شرٍّ، فسَمَّى ذلكَ آثاراً لحصولِهِ بتأثيرِهم.

ومِن العجيبِ أنَّ المتكلِّمينَ يَمتنعونَ مِنْ إطلاقِ التأثيرِ والمؤثِّرِ على مَنْ أُطلقَ عليهِ في القرآنِ والسنَّةِ، كما قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ لبني سَلمةَ: «**دِيارَكُمْ**

(١) رواهُ الترمذيُّ في كتابِ الدَّعَواتِ / بابُ (٨٣) حديثُ (٣٥٠٧)، وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ الدعاءِ / بابُ أسماءِ اللهِ عزَّ وجَلَّ (٣٨٦١) من حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٣٨٣-٣٨٥).

تُكْتَبُ آثَارُكُمْ»[1]؛ أي: الْزَمُوا دِيارَكم، ويَخُصُّونَهُ بِمَنْ لم يَقَعْ إطلاقُهُ عليهِ في كتابٍ ولا سُنَّةٍ، وإن اسْتُعْمِلَ في حَقِّهِ الإيثارُ والاستئثارُ، كما قالَ أخو يُوسفَ: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ [يوسف: ٩١]. وفي الأَثَرِ: «**إِذَا اسْتَأْثَرَ اللهُ بِشَيْءٍ فَالْهُ عَنْهُ**». وقالَ الناظمُ:

اسْتَأْثَرَ اللهُ بالثناءِ وبالحمْدِ وَوَلَّى المَلامةَ الرَّجُلا[2]

ولَمَّا كانَ التأثيرُ تَفعيلاً مِنْ أَثَّرْتُ في كذا تَأثيراً فأنا مؤثِّرٌ، لم يَمْتَنِعْ إطلاقُهُ على العبْدِ. قالَ في الصِّحاحِ: التأثيرُ إبقاءُ الأثَرِ في الشيءِ.

وأما لفظُ **الصانع** فلم يَرِدْ في أسماءِ الربِّ سُبحانَهُ ولا يُمكِنُ وُرودُهُ، فإنَّ الصانعَ مَنْ صَنَعَ شيئاً عَدْلاً كانَ أَوْ ظُلماً، سَفَهاً أَوْ حِكمةً، جائزاً أَوْ غيرَ جائزٍ، وما انْقَسَم مُسَمَّاهُ إلَى مَدْحٍ وذَمٍّ لم يَجِئ اسمُهُ المطلَقُ في الأسماءِ الْحُسْنَى، كالفاعلِ والعاملِ والصانعِ والمريدِ والمتكلِّم، لانقسامِ معاني هذهِ الأسماءِ إلَى محمودٍ ومذمومٍ، بخلافِ العالِمِ والقادرِ والحيِّ والسميعِ والبصيرِ.

وقدْ سَمَّى النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ العبدَ صانعاً، قالَ البخاريُّ: حَدَّثَنا عليُّ بنُ عبدِ اللهِ، ثنا مَرْوانُ بنُ مُعاويَةَ، ثنا أبو مالِكٍ، عنْ رِبْعِيِّ بنِ خِراشٍ، عنْ حُذيفةَ قالَ: قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ**»[3].

(١) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٤١٥٦)، ومسلمٌ في كتابِ المساجدِ / بابُ فَضْلِ كَثْرَةِ الخُطَا إلى المساجدِ (١٥١٨) من حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٢) البيت من قصيدة تنسب للأعشى في مدح سلامة ذي فائش ومطلعها:

إنَّ مَحَلاًّ وإنَّ مُرْتَحَلاً وإنَّ في السَّفْرِ مَا مَضَى مَهَلاَ

انظُرْ دِيوانَ الأعشَى (٢٦٥) إلا أنه ذَكَرَ العَدْلَ بدلَ الحَمْدِ.

(٣) رواه البُخَارِيُّ في كتابِ خلقِ أفعالِ العبادِ (٢٥)، ورواهُ الحاكِمُ في المُستدرَكِ (١/ ٣١) في كتابِ

وقدْ أَطْلَقَ سُبحانَهُ علَى فِعْلِهِ اسمَ الصنْعِ فقالَ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. وهوَ مَنصوبٌ علَى المَصدرِ، لأنَّ قولَهُ تعالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] يَدُلُّ علَى الصنعةِ، وقيلَ: هوَ نَصْبٌ علَى المفعوليَّةِ؛ أي: انْظُروا صُنْعَ اللهِ.

- **فعلَى الأوَّلِ**: يكونُ (صُنْعَ اللهِ) مَصدراً بمعنَى الفعْلِ.
- **وعلَى الثاني**: يكونُ بمعنَى المصنوعِ والمفعولِ. فإنَّهُ الذي يُمْكِنُ وُقوعُ النظَرِ والرؤيَةِ عليهِ.

وأمَّا **الإنشاءُ** فإنَّما وَقَعَ إطلاقُهُ عليهِ سُبحانَهُ فِعْلاً كقولِهِ: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ [الرعد: ١٢]، وقولِهِ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ [المؤمنون: ١٩]، وقولِهِ: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة: ٦١] وهوَ كثيرٌ، ولَم يَرِدْ لفظُ المنشِئِ.

وأمَّا العبدُ فيُطْلَقُ عليهِ الإنشاءُ باعتبارٍ آخَرَ، وهوَ شُروعُهُ في الفعلِ وابتداؤُهُ لهُ، يقولُ: أَنْشَأَ يُحدِّثُنا، وأَنشأَ السِّرَّ، فهوَ مُنشئٌ لذلكَ. وهذا إنشاءٌ مُقيَّدٌ، وإنشاءُ الربِّ إنشاءٌ مُطْلَقٌ. وهذه اللفظةُ تَدورُ علَى معنَى الابتداءِ، أَنْشَأَهُ اللهُ؛ أي: ابْتَدَأَ خَلْقَهُ، وأَنْشَأَ يَفعلُ كذا: ابْتَدَأَ، وفلانٌ يُنشئُ الأحاديثَ؛ أيْ: يَبْتَدِئُ وَضْعَها، والناشئُ: أَوَّلُ ما يَنْشَأُ مِن السَّحابِ، قالَ الجوهريُّ: وناشِئَةُ الليلِ أوَّلُ ساعاتِهِ التي مِنْهَا يَنشأُ الليلُ.

والصحيحُ أنَّها لا تَخْتَصُّ بالساعةِ الأُولَى، بلْ هيَ ساعاتُهُ ناشئةً بعدَ ناشئةٍ، كُلَّما انْقَضَتْ ساعةٌ نَشأتْ بعدَها أُخْرَى. وقالَ أبو عُبيدةَ: ناشئةُ الليلِ ساعاتُهُ وآناؤُهُ ناشئةً بعدَ ناشئةٍ. قالَ الزَّجَّاجُ: ناشئةُ الليلِ: كلُّ مَا نَشَأَ منهُ؛ أيْ: حَدَثَ

الإيمانِ من طريقِ أبي النَّضْرِ محمدِ بنِ يوسُفَ الفقيهِ، ثنا عثمانُ بنُ سعيدٍ الدارميِّ، ثنا عليُّ بنُ المَدِينيِّ به، ولفظُه: «إنَّ اللهَ خالقُ كلِّ صانعٍ وصَنْعَتَهُ». ثم رَواه من طريقِ أبي العباسِ محمدِ بنِ يعقوبَ، ثنا إسماعيلُ بنُ إسحاقَ القاضِي، ثنا محمدُ بنُ أبي بكرٍ المُقَدَّمِيُّ، ثنا الفُضَيْلُ بنُ سليمانَ، عن أبي مالكٍ الأشجعيِّ به، ثم قالَ: «هذا حديثٌ صحيحٌ على شرطِ مسلمٍ ولم يُخْرِجاهُ». ووافقَه الذَّهَبِيُّ.

منهُ، فهوَ ناشئةٌ. قالَ ابنُ قُتيبةَ: هيَ آناءُ الليلِ وساعاتُه، مَأخوذةٌ مِنْ نَشَأَتْ تَنشأُ نَشْأً؛ أي: ابْتَدَأَتْ وأَقْبَلَتْ شيئاً بعدَ شيءٍ. وأَنْشَأَهَا اللهُ فَنشأتْ، والمعنَى: إنَّ ساعاتِ الليلِ الناشئةَ، وقولُ صاحبِ الصِّحَاحِ مَنقولٌ عنْ كثيرٍ مِن السلَفِ.

قالَ عليُّ بنُ الحسينِ: ناشئةُ الليلِ ما بينَ المغربِ إلَى العشاءِ، وهذا قولُ أَنَسٍ وثابتٍ وسعيدِ بنِ جُبيرٍ والضحَّاكِ والحَكَمِ واختيارُ الكِسَائِيِّ، قالوا: ناشئةُ الليلِ: أوَّلُهُ. وهؤلاءِ رَاعَوْا معنَى الأوَّلِيَّةِ في الناشئةِ. وفيها قولٌ ثالثٌ: إنَّ الليلَ كلَّهُ ناشئةٌ، وهذا قولُ عِكرمةَ وأبي مِجْلَزٍ ومُجاهِدٍ والسُّدِّيِّ وابنِ الزُّبيرِ وابنِ عبَّاسٍ في روايَةٍ، قالَ ابنُ أبي مُلَيْكَةَ: سألتُ ابنَ الزُّبَيْرِ وابنَ عبَّاسٍ عنْ ناشئةِ الليلِ فقالا: الليلُ كلُّهُ ناشئةٌ. فهذه أقوالُ مَنْ جعَلَ ناشئةَ الليلِ زماناً.

وأمَّا مَنْ جعَلَها فِعْلاً يَنشأُ بالليلِ فالناشئةُ عندَهم اسمٌ لما يُفْعَلُ بالليلِ مِن القيامِ. وهذا قولُ ابنِ مسعودٍ ومعاويَةَ بنِ قُرَّةَ وجماعةٍ، قالوا: ناشئةُ الليلِ قيامُ الليلِ.

وقالَ آخرونَ منهم عائشةُ: إنَّما يكونُ القيامُ ناشئةً إذا تَقدَّمَهُ نومٌ، قالتْ عائشةُ: ناشئةُ الليلِ: القيامُ بعدَ النومِ، وهذا قولُ ابنِ الأعرابيِّ، قالَ: إذا نِمْتَ مِنْ أوَّلِ الليلِ نَوْمَةً ثُمَّ قُمْتَ فتلكَ النَّشأةُ، ومنهُ ناشئةُ الليلِ. فعلَى قولِ الأوَّلِينَ: ناشئةُ الليلِ بمعنَى مِنْ، إضافةُ نوعٍ إلَى جِنْسِهِ؛ أيْ: ناشئةٌ منهُ. وعلَى قولِ هؤلاءِ: إضافةٌ بمعنَى في؛ أيْ: طاعةٌ ناشئةٌ فيهِ، والمقصودُ أنَّ الإنشاءَ ابتداءٌ، سواءٌ تَقَدَّمَهُ مِثْلُهُ كالنشأةِ الثانيَةِ، أوْ لم يَتقَدَّمْهُ كالنشأةِ الأُولَى.

وأما الجُعْلُ فقدْ أُطْلِقَ علَى اللهِ سُبحانَهُ بِمَعنيينِ:

أحدُهما: الإيجادُ والخَلْقُ.

والثاني: التصييرُ.

فالأوَّلُ: يَتَعَدَّى إِلَى مفعولٍ، كقولِهِ: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

والثاني: أَكثرُ ما يَتعَدَّى إِلَى مَفعولينِ كقولِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣].

وأُطْلِقَ علَى العبدِ بالمعنَى الثاني خاصَّةً كقولِهِ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦].

وغالبُ ما يُستعمَلُ في حقِّ العبدِ في جَعْلِ التسميةِ والاعتقادِ، حيث لا يكونُ لهُ صُنْعٌ في المجعولِ، كقولِهِ: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف:١٩]، وقولِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ [يونس: ٥٩] وهذا يَتعدَّى إِلَى واحدٍ، وهوَ جَعْلُ اعتقادٍ وتَسميةٍ.

وأمَّا **الفعلُ والعملُ** فإطلاقُهُ علَى العبدِ كثيرٌ، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٧٩﴾ [المائدة: ٧٩]، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٦٢﴾ [المائدة: ٦٢]، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٠٥﴾.

وأَطْلَقَهُ علَى نفسِهِ فِعْلاً واسْماً:

فالأوَّلُ: كقولِهِ: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾ [إبراهيم: ٢٧].

والثاني: كقولِهِ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج: ١٦]، وقولِهِ: ﴿كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ في موضعينِ مِنْ كتابِهِ أحدُهما قولُهُ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝٧٩﴾ [الأنبياء: ٧٩]، والثاني قولُهُ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤﴾ [الأنبياء:١٠٤].

فتأمَّلْ قولَهُ: ﴿كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ في هذينِ الموضعينِ المتضَمِّنَيْنِ للصنعِ العجيبِ الخارجِ عن العادةِ، كيفَ تَجِدُهُ كالدليلِ علَى ما أَخْبَرَ بهِ، وأنَّهُ لا يَستعصِي علَى الفاعلِ حقيقةً؛ أيْ: شَأْنُنَا الفعلُ، كما لا يَخْفَى الجهْرُ والإسرارُ بالقولِ علَى مَنْ شأنُهُ العلْمُ والخِبرةُ، ولا تَصْعُبُ المغفرةُ علَى مَنْ شأنُهُ أن يَغفِرَ الذنوبَ، ولا الرزْقُ علَى مَنْ شأنُهُ أنْ يرزقَ العِبادَ. وقدْ وَقعَ الزَّجَّاجُ علَى هذا المعنَى بعينِهِ فقالَ: ﴿وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ۝٧٩﴾، قادرينَ علَى فِعْلِ ما نَشاءُ).[1]

[فَصْلٌ]

(وليسَ في أسمائِهِ الحُسْنَى «المريدُ»، والمتكلِّمونَ يَقولونَ: **مُريدٌ**، لبيانِ إثباتِ الصفةِ، وإلاَّ فليسَ ذلكَ مِنْ أسمائِهِ الحُسْنَى؛ لأنَّ الإرادةَ تَناوَلُ ما يَحْسُنُ إرادتُهُ وما لا يَحْسُنُ، فلم يُوصَفْ بالاسم المطلَقِ منها، كما ليسَ في أسمائِهِ الحُسْنَى الفاعلُ ولا المتكلِّمُ، وإن كانَ فَعَّالاً مُريداً متكلِّماً بالصدْقِ والعَدْلِ، فليسَ الوصْفُ بمطلَقِ الكلامِ ومطلَقِ الإرادةِ ومطلَقِ الفعلِ يَقتضِي مَدْحاً وحَمْداً حتَّى يكونَ ذلكَ مُتَعلِّقاً بما يَحْسُنُ تَعلُّقُهُ بهِ، بخِلافِ: العليمِ القديرِ، والعَدْلِ، والمحسِنِ، والرحمنِ الرحيمِ؛ فإنَّ هذهِ كمالاتٌ في أنفُسِها لا تكونُ نَقْصاً ولا مُستلزِمَةً لنَقْصٍ البَتَّةَ)[2].

[فَصْلٌ]

... [في لفظِ (الشوقُ)] هلْ يَجوزُ إطلاقُهُ علَى اللهِ تعالَى؟

فهذا مما لم يَرِدْ بهِ القرآنُ ولا السُّنَّةُ بصَريحِ لفظِهِ. قالَ صاحبُ (مَنَازِلِ السائرينَ) وغيرُهُ: وسببُ ذلكَ أنَّ الشوقَ إنَّما يكونُ لغائبٍ، ومَذهبُ هذهِ

(١) شِفاءُ العَليلِ (١/ ٣٣١-٣٣٧).

(٢) مُختَصَرُ الصواعقِ (٣٠٠).

الطائفةِ إنَّما قامَ علَى المشاهَدَةِ. ولهذا السببِ عندَهم لم يَجِئْ في حَقِّ اللهِ ولا في حقِّ العبدِ.

وجَوَّزَتْ طائفةٌ إطلاقَهُ كما يُطْلَقُ عليهِ سُبحانَهُ وتعالَى، ورَوَوْا في أَثَرٍ أَنَّهُ يقولُ: (طالَ شوقُ الأبرارِ إلَى لقائي، وأنا إلَى لقائِهم أَشْوَقُ).[1] قالوا: وهذا الذي تَقْتَضِيهِ الحقيقةُ، وإنْ لم يَرِدْ بهِ لفظٌ صريحٌ. فالمعنَى حقٌّ، فإنَّ كلَّ مُحِبٍّ فهوَ مُشْتَاقٌ إلَى لقاءِ محبوبِهِ. قالوا: وأمَّا قولُكم: إنَّ الشوقَ إنَّما يكونُ إلَى غائبٍ، وهوَ سبحانَهُ لا يَغيبُ عنْ عَبْدِهِ ولا يَغيبُ العبدُ عنهُ، فهذا حُضورُ العلْمِ، وأما اللقاءُ والقُرْبُ فأمْرٌ آخرُ، فالشوقُ يَقعُ بالاعتبارِ الثاني، وهوَ قُرْبُ الحبيبِ ولقاؤُهُ والدنُوُّ منهُ، وهذا لهُ أَجَلٌ مَضروبٌ لا يُنالُ قَبْلَهُ.

قالَ تعالَى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]، قالَ أبو عثمانَ الحيريُّ: هذا تَعزيَةٌ للمُشتاقينَ، معناهُ: إني أَعلمُ أنَّ اشتياقَكم إليَّ غالبٌ، وأنا أَجَّلْتُ للقائِكم أَجلاً، وعنْ قريبٍ يكونُ وُصولُكم إلَى مَنْ تَشتاقونَ إليهِ.

والصوابُ أن يُقالَ: إطلاقُ اللفظِ مُتَوَقِّفٌ علَى السمْعِ، ولم يَرِدْ بهِ فلا يَنبغِي إطلاقُهُ. وهذا كلفْظِ العِشْقِ أيضاً، فإنَّهُ لَمَّا لم يَرِدْ بهِ سَمْعٌ فإنَّهُ يَمتنِعُ إطلاقُهُ عليهِ سُبحانَهُ.

واللفظُ الذي أَطْلَقَهُ سبحانَهُ علَى نفسِهِ وأَخْبَرَ عنها أَتَمُّ مِنْ هذا وأَجَلُّ شأناً هوَ لفظُ المَحبَّةِ، **فإنَّهُ سُبحانَهُ يُوصَفُ مِنْ كلِّ صفةِ كمالٍ بأَكْمَلِها وأَجَلِّها وأعلاها**، فيُوصَفُ مِن الإرادةِ بأَكْمَلِها، وهوَ الحكمةُ وحصولُ كلِّ ما يُريدُ بإرادتِهِ، كما قالَ تعالَى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾ [البروج: ١٦]، / وبإرادةِ اليُسرِ لا العُسْرِ. كما قالَ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وبإرادةِ الإحسانِ وإتمامِ النِّعمةِ علَى عِبادِهِ كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ

(١) موضوعٌ؛ انظُرْ تَذْكِرَةَ المَوْضُوعاتِ للفَتَّنِيِّ (١٩٦).

﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧﴾ [النساء: ٢٧]، فإرادةُ التوبةِ لهُ، وإرادةُ الميلِ لِمُبْتَغِي الشهواتِ، وقولِهِ تعالَى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: ٦].

وكذلكَ الكلامُ يَصِفُ نفسَهُ منهُ بأَعْلَى أنواعِهِ كالصدْقِ والعَدْلِ والحقِّ.

وكذلكَ الفعلُ يَصِفُ نفسَهُ منهُ بأَكْمَلِهِ وهوَ العَدْلُ والحكمةُ والمصلَحَةُ والنِّعْمَةُ.

وهكذا المحبَّةُ وَصَفَ نفسَهُ منها بأعلاها وأشْرَفِها فقالَ تعالَى: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، و﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢]، و﴿يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥]، و﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ولَم يَصِفْ نفسَهُ بغيرِها مِن العَلاقةِ والمَيْلِ والصَّبَابَةِ والعِشْقِ والغرامِ ونحوِها، فإنَّ مُسَمَّى المَحبَّةِ أَشْرَفُ وأكْمَلُ مِنْ هذهِ المُسَمَّياتِ، فجاءَ في حَقِّهِ إطلاقُهُ دُونَها. وهذه المُسَمَّيَاتُ لا تَنْفَكُّ عنْ لوازمَ ومَعانٍ تَنَزَّهَ تعالَى عن الاتِّصافِ بها.

وهكذا جميعُ ما أَطْلَقَهُ علَى نفسِهِ مِنْ صفاتِهِ العُلَى أكملُ مَعْنًى ولفظاً ممَّا لم يُطْلِقْهُ؛ فالعليمُ الخبيرُ أكملُ مِن الفقيهِ والعارفِ، والكريمُ الجَوَادُ أكملُ مِن السخِيِّ، والخالقُ البارئُ المُصَوِّرُ أكمَلُ مِن الصانعِ الفاعلِ، ولهذا لم تَجِئْ هذهِ في أسمائِهِ الحُسْنَى، والرحيمُ الرؤوفُ أكملُ مِن الشفيقِ والمُشْفِقِ، **فعليكَ بمُراعاةِ ما أَطْلَقَهُ سُبحانَهُ علَى نفسِهِ مِن الأسماءِ والصفاتِ والوقوفِ معها، وعدَمِ إطلاقِ ما لم يُطْلِقْهُ علَى نفسِهِ** ما لم يكنْ مُطابقاً لمعنَى أسمائِهِ وصفاتِهِ، وحينئذٍ فيُطْلَقُ المعنَى لمطابقتِهِ لهُ دونَ اللفظِ، ولا سيَّما إذا كانَ مُجْمَلاً أوْ مُنْقَسِماً إلَى ما يُمْدَحُ بِهِ وغيرِهِ، فإنَّهُ لا يجوزُ إطلاقُهُ إلاَّ مُقيَّداً، وهذا كلفظِ الفاعلِ

والصانعِ، فإنَّهُ لا يُطْلَقُ عليهِ في أسمائِهِ الحُسْنَى إلاَّ إطلاقاً مُقَيَّداً، كما أَطْلَقَهُ علَى نفسِهِ كقولِهِ تعالَى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: ١٦]، ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقولِهِ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] فإنَّ اسمَ الفاعلِ والصانعِ مُنْقَسِمُ المعنَى إلَى ما يُمْدَحُ عليهِ ويُذَمُّ، ولهذا المعنَى - واللهُ أعلمُ - لم يَجِئْ في الأسماءِ الحُسْنَى «المريدُ» كما جاءَ فيها السميعُ البصيرُ، ولا المتكلِّمُ ولا الآمِرُ الناهي، لانقسامِ مُسَمَّى هذهِ الأسماءِ، بلْ وَصَفَ نفسَهُ بكمالاتِها وأشرَفِ أنواعِها.

ومِنْ هنا يُعْلَمُ غَلَطُ بعضِ المتأخِّرينَ وزَلَقُهُ الفاحشُ في اشتقاقِهِ لهُ سُبحانَهُ مِنْ كلِّ فِعْلٍ أَخْبَرَ بِهِ عنْ نفسِهِ اسماً فأَدْخَلَهُ في أسمائِهِ الحُسْنَى، فاشْتَقَّ لهُ اسمَ الماكرِ، والخادعِ، والفاتنِ، والمضِلِّ، والكاتبِ، ونحوِها مِنْ قولِهِ: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ومِنْ قولِهِ: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، ومِنْ قولِهِ: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]، ومِنْ قولِهِ: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٧]، وقولِهِ تعالَى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ [المجادلة: ٢١].

وهذا خطأٌ مِنْ وُجوهٍ:

أحدُها: أنَّهُ سُبحانَهُ لم يُطْلِقْ علَى نفسِهِ هذهِ الأسماءَ، فإطلاقُها عليهِ لا يجوزُ.

الثاني: أنَّهُ سُبحانَهُ أخبرَ عنْ نفسِهِ بأفعالٍ مُخْتَصَّةٍ مُقَيَّدَةٍ، فلا يجوزُ أن يُنْسَبَ إليهِ مُسمَّى الاسمِ عندَ الإطلاقِ.

الثالثُ: أنَّ مُسمَّى هذهِ الأسماءِ مُنقسِمٌ إلَى ما يُمْدَحُ عليهِ المسمَّى بِهِ، وإلَى ما يُذَمُّ، فيَحْسُنُ في مَوْضِعٍ، ويَقْبُحُ في مَوضعٍ. فيَمتنِعُ إطلاقُهُ عليهِ سُبحانَهُ مِنْ غيرِ تفصيلٍ.

الرابعُ: أنَّ هذهِ ليست مِن الأسماءِ الحُسْنَى التي تَسَمَّى بها سُبحانَهُ، فلا يجوزُ أن يُسَمَّى بها؛ فإنَّ أسماءَ الربِّ تعالَى كلَّها حُسْنَى، كما قالَ تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهيَ التي يُحِبُّ سُبحانَهُ أن يُثْنَى عليهِ ويُحْمَدَ ويُمَجَّدَ بها دونَ غيرِها.

الخامسُ: أنَّ هذا القائلَ لوْ سُمِّيَ بهذه الأسماءِ، وقيلَ لهُ: هذهِ مِدْحَتُكَ وثناءٌ عليكَ، فأنتَ الماكرُ الفاتنُ المخادِعُ المضِلُّ اللاعِنُ الفاعلُ الصانعُ ونحوُها، لما كانَ يَرْضَى بإطلاقِهِ هذهِ الأسماءَ عليهِ ويَعُدُّها مِدْحَةً. وللهِ المَثَلُ الأعلَى، سُبحانَهُ وتعالَى عمَّا يقولُ الجاهلونَ بِهِ عُلُوًّا كبيراً.

السادسُ: أنَّ هذا القائلَ يَلْزَمُهُ أن يَجْعَلَ مِنْ أسمائِهِ اللاعنَ والجائِيَ والآتِيَ والذاهبَ والتارِكَ والمقاتِلَ والصادِقَ والمنَزِّلَ والنازلَ والمُدَمْدِمَ والمدَمِّرَ وأضعافَ أضعافِ ذلكَ، فيَشْتَقُّ لهُ أسماءً مِنْ كلِّ فِعْلٍ أَخْبَرَ بِهِ عنْ نفسِهِ، وإلاَّ تَنَاقَضَ تَنَاقُضاً بَيِّناً، ولا أَحَدَ مِن العُقَلاءِ طَرَدَ ذلكَ. فعُلِمَ بُطلانُ قولِهِ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

تَتِمَّةٌ:

وأمَّا أنْ] يُطْلَقَ علَى العبدِ أنَّهُ يَشتاقُ إلَى اللهِ وإلَى لقائِهِ فهذا غيرُ مُمْتَنِعٍ، فقدْ روَى الإمامُ أحمدُ في **مُسْنَدِهِ** والنسائيُّ وغيرُهما مِنْ حديثِ حَمَّادِ بنِ سَلمةَ، عنْ عَطاءِ بنِ السائبِ، عنْ أبيهِ قالَ: صَلَّى بنا عَمَّارُ بنُ ياسرٍ صلاةً فأَوْجَزَ فيها، فقلتُ: خَفَّفْتَ يا أبا اليَقظانِ، فقالَ: وما عَلَيَّ مِنْ ذلكَ، ولقدْ دَعوتُ اللهَ بدَعَواتٍ سَمِعْتُها مِنْ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ. فلَمَّا قامَ تَبِعَهُ رجُلٌ مِن القومِ فسأَلَهُ عن الدَّعَواتِ فقالَ: «**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْراً لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْراً لِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا،**

وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَأَسْأَلُكَ نَعِيماً لا يَنْفَدُ، وَقُرَّةَ عَيْنٍ لا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»[(١)]؛ فهذا فيهِ إثباتُ لَذَّةِ النظرِ إلَى وَجهِهِ الكريمِ وشَوْقِ أحبابِهِ إليهِ وإلَى لقائِهِ؛ فإنَّ حقيقةَ الشوقِ إليهِ هوَ الشوْقُ إلَى لقائه).[(٢)]

[فَصلٌ: فِي لفظِ العِشْقِ]

(العِشْقُ:... هوَ الحبُّ المُفْرِطُ الذي يُخَافُ علَى صاحبِهِ منهُ، ... وفي اشتقاقِهِ قولانِ:

أحدُهما: أنَّهُ من العَشَقَةِ - مُحَرَّكَةً - وهيَ نَبْتٌ أَصْفَرُ يَلتوي علَى الشجَرِ، فشُبِّهَ بِهِ العاشِقُ.

والثاني: أنَّهُ مِن الإفراطِ.

وعلَى القولينِ فلا يُوصَفُ بِهِ الربُّ تَبَارَكَ وتعالَى، ولا العبدُ في مَحَبَّةِ رَبِّهِ).[(٣)]

---

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ١٢٦.

(٢) طَرِيقُ الهِجرتَيَنِ (٣٣٥-٣٣٩).

(٣) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٣٠-٣١)؛ وقالَ - رَحِمَهُ اللهُ - في رَوْضَةِ المُحِبِّينَ (٤٣-٤٤): (وأما العِشقُ فهو أمرُّ هذه الأسماءِ وأَخبثُها [-يعني: أسماءَ الحبِّ-]، وقلَّ ما وَلِعَتْ به العَرَبُ وكأنهم سَتَرُوا اسمَهُ وكنَّوا عنه بهذه الأسماءِ فلم يَكادُوا يُفْصِحُونَ به، ولا تكادُ تَجِدُه في شعرِهمُ القديمِ، وإنما أُولِعَ به المتأخرونَ، ولم يَقعْ هذا اللفظُ في القرآنِ ولا في السُّنَّةِ إلا في حديثِ سُوَيْدِ بن سعيدٍ، وسنتكلَّمُ عليه إن شاءَ اللهُ تعالَى) [وهو حديثُ: «مَنْ عَشِقَ وكَتَمَ، وعفَّ وصَبَرَ، غَفَرَ اللهُ له وأدخلَهُ الجَنَّةَ» وقال في ص ١٩٤: (وهو حديثٌ باطلٌ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ قَطْعًا لا يُشْبِهُ كَلامَهُ)] ثم ذَكَرَ اشتقاقَهُ في اللغةِ والخلافَ فيه، ثم قالَ: (وقد اختلفَ الناسُ هل يُطلَقُ هذا الاسمُ في حقِّ اللهِ تعالَى؟ فقالَتْ طائفةٌ من الصوفيةِ: لا بأسَ بإطلاقِهِ، وذكروا فيه أثرًا لا يَثْبُتُ، وفيه: فإذا فَعَلَ ذلك عَشِقَني وعَشِقْتُه.

[فَصْلٌ]

(ومما يُمْنَعُ تسميَةُ الإنسانِ بِهِ أسماءُ الربِّ تَبارَكَ وتعالَى، فلا يَجوزُ التسميَةُ بالأحَدِ والصمَدِ، ولا بالخالِقِ ولا بالرازِقِ، وكذلكَ سائرُ الأسماءِ المختَصَّةِ بالربِّ تَبارَكَ وتعالَى، ولا تَجوزُ تَسميَةُ الملوكِ بالقاهرِ والظاهرِ، كما لا يَجوزُ تَسميتُهم بالجبَّارِ والمتكبِّرِ، والأوَّلِ والآخرِ، والباطنِ وعلاَّمِ الغيوبِ.

وقدْ قالَ أبو دَاودَ في (سُننِهِ): حَدَّثَنا الربيعُ بنُ نافعٍ، عنْ يَزيدَ بنِ المِقْدامِ بنِ شُريحٍ، عنْ أبيهِ، عنْ جَدِّهِ شريحٍ، عنْ أبيهِ هانئٍ، أنَّهُ لمَّا وَفَدَ إلَى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ إلَى المدينةِ معَ قَوْمِهِ سمِعَهُم يُكَنُّونَهُ بأبي الحَكَمِ، [فدَعَاهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ فقالَ: «إنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ] وَإِلَيْهِ الحُكْمُ، فَلِمَ تُكَنَّى أَبَا الحَكَمِ؟» فقالَ: إنَّ قَوْمِي إذا اختَلَفُوا في شيءٍ أَتَوْنِي فحَكَمْتُ بينَهم، فَرَضِيَ كِلا الفريقينِ، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟» قالَ: لي شريحٌ ومَسْلَمَةُ وعبدُ اللهِ، قالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟» قلتُ: شريحٌ، قالَ: «فأنتَ أبو شريحٍ» (١)، و[في]... الحديثِ الصحيحِ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى بِمَلِكِ الأَمْلاكِ» (٢).

وقال جُمهورُ الناسِ: لا يُطلَقُ ذلك في حقِّه سُبحانَهُ وتعالَى، فلا يقالُ: إنه يُعشَقُ، ولا يُقالُ: عَشِقَهُ عَبْدُهُ.
ثم اختلَفُوا في سببِ المَنعِ على ثلاثةِ أقوالٍ:
أحدُها: عدمُ التوقيفِ، بخلافِ المَحبَّةِ.
الثاني: أن العِشْقَ إفراطُ المَحبَّةِ، ولا يُمكِنُ ذلك في حقِّ الربِّ تعالى؛ فإن اللهَ تعالَى لا يُوصَفُ بالإفراطِ في الشيءِ، ولا يَبْلُغُ عبدُه ما يَسْتَحِقُّه من حُبِّه فضلاً عن أن يقالَ: أَفْرَطَ في حُبِّه.
الثالثُ: أنه مأخوذٌ من التغيُّرِ كما يُقالُ للشجرةِ المذكورةِ: عاشقةٌ. ولا يُطلَقُ ذلك على اللهِ سبحانَهُ وتعالَى).

(١) رواه أبو داودَ في كتابِ الأدبِ / بابٌ في تغييرِ الاسمِ القبيحِ (٤٩٤٥) والنَّسائيُّ في كتابِ آدابِ القضاةِ / بابُ إذا حَكَّمُوا رجلاً فَقضى بينهُم (٥٤٠٢).

(٢) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٧٢٨٥، ٢٧٣٩٣)، والبُخاريُّ في كتابِ الأدبِ / بابُ أَبْغَضِ الأسماءِ إلى اللهِ (٦٢٠٥)، ومسلمٌ في كتابِ الآدابِ / بابُ تحريم التسمِّي بمَلِكِ الأملاكِ (٥٥٧٥)، والتِّرْمِذيُّ في

وقالَ أبو داوُدَ: حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنا بِشْرُ بنُ الْمُفَضَّلِ، حَدَّثَنا أبو سَلمة سعيدُ بنُ يَزيدَ، عنْ أبي نَضرةَ، عنْ مُطَرِّفِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ قالَ: قالَ أبي: انْطَلَقْتُ في وفْدِ بني عامرٍ إلَى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ فقُلْنَا: أنتَ سَيِّدُنَا، فقالَ: «**السَّيِّدُ اللهُ**» قُلْنَا: وأفضلُنا فَضْلاً وأَعْظَمُنا طَوْلاً، فقالَ: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بِبَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلا يَسْتَجْرِيَنَّكُم الشَّيْطَانُ**».[(١)]

ولا يُنافِي هذا قولَهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ**».[(٢)] فإنَّ هذا إخبارٌ منهُ عَمَّا أعطاهُ اللهُ مِنْ سِيادةِ النوعِ الإنسانيِّ وفَضْلِهِ وشَرَفِهِ عليهم. وأمَّا وَصْفُ الربِّ تعالَى بأنَّهُ **السيِّدُ** فذلكَ وَصْفٌ لربِّهِ علَى الإطلاقِ؛ فإنَّ سَيِّدَ الخلْقِ هوَ مالِكُ أَمْرِهم الذي إليهِ يُرجَعُونَ، وبأمْرِهِ يَعملونَ، وعنْ قولِهِ يَصْدُرُونَ، فإذا كانت الملائكةُ والإنسُ والجِنُّ خَلْقاً لهُ سُبحانَهُ وتعالَى ومِلْكاً لهُ ليسَ لهم غِنًى عنهُ طَرفةَ عينٍ، وكلُّ رَغَباتِهم إليهِ، وكلُّ حوائجِهم إليهِ، كانَ هوَ سُبحانَهُ وتعالَى السيِّدَ علَى الحقيقةِ.

قالَ عليُّ بنُ أبي طَلحةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ في تفسيرِ قولِ اللهِ: ﴿ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ٢] قالَ: السيِّدُ الذي كَمُلَ سُؤْدَدُهُ.

كتابِ الأدبِ / بابُ ما يُكرَهُ من الأسماءِ (٢٨٣٧)، وأبو داودَ في كتابِ الأدبِ / بابٌ في تغييرِ الاسمِ القبيحِ (٤٩٥١) من حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رضيَ اللهُ عنه.

(١) رواه أبو داودَ في كتابِ الأدبِ / بابٌ في كراهيةِ التَّمادُحِ (٤٧٩٦)، ورَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ في مُسنَدِه (١٥٨٧٢).

(٢) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٠٦٠٤)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ تفسيرِ القرآنِ / بابُ «وَمِن سورةِ بني إسرائيلَ» (٣١٤٨)، وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ الزُّهدِ / بابُ ذِكْرِ الشفاعةِ (٤٣٠٨) من حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رضيَ اللهُ عنه، وفيه عليُّ بنُ زيدِ بنِ جُدْعَانَ.
وقد رُوِيَ الحديثُ من روايةِ أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنه كما عند الإمامِ أَحْمَدَ (١٠٥٨٩)، ومسلم في كتابِ الفضائلِ / بابٌ في تفضيلِ نبيِّنا صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ على جميعِ الخلائقِ (٥٨٩٩)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ المَناقبِ / بابٌ في فضلِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ (٣٦١٥)، وأبو داودَ في كتابِ السُّنَّةِ / بابٌ في التخييرِ بينَ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ (٤٦٥٦).

(([وقد] اختلفَ الناسُ في جَوازِ إطلاقِ «**السيِّد**» علَى البَشَرِ، فمَنَعَهُ قومٌ ونُقِلَ عنْ مالكٍ، واحْتَجُّوا بأَنَّهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ لَمَّا قِيلَ لهُ: يا سَيِّدَنا، قالَ: «**إِنَّمَا السَّيِّدُ اللهُ**» وجَوَّزَهُ قومٌ، واحْتَجُّوا بقولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ للأنصارِ: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ**». وهذا أَصَحُّ مِن الحديثِ الأَوَّلِ.

قالَ هؤلاءِ: السيِّدُ أَحَدُ ما يُضافُ إليهِ، فلا يُقالُ لتَميميٍّ: إنَّهُ سَيِّدُ كِندةَ، ولا يُقالُ لملَكٍ: إنَّهُ سَيِّدُ البَشَرِ.

قالَ: وعلَى هذا فلا يَجوزُ أن يُطْلَقَ علَى اللهِ هذا الاسمُ. وفي هذا نَظَرٌ، فإن السيِّدَ إذا أُطْلِقَ عليهِ تعالَى فهوَ بمعنَى المالِكِ والمَوْلَى والربِّ، لا بالمعنَى الذي يُطْلَقُ علَى المخلوقِ. واللهُ سُبحانَهُ وتعالَى أَعْلَمُ))[(١)].

والمقصودُ: أنَّهُ لا يَجوزُ أن يُتَسَمَّى بأسماءِ اللهِ المختَصَّةِ بهِ.

وأمَّا الأسماءُ التي تُطْلَقُ عليهِ وعلَى غيرِهِ: كالسميعِ، والبصيرِ والرؤوفِ، والرحيمِ فيَجوزُ أن يُخْبَرَ بمعانيها عن المخلوقِ، ولا يَجوزُ أن يُتَسَمَّى بها علَى الإطلاقِ بحيث يُطلَقُ عليهِ كما يُطلَقُ علَى الربِّ تعالَى.[(٢)]

---

(١) بَدَائِعُ الفوائدِ (٣/ ٢١٣).

(٢) تُحفةُ المَوْدُودِ (٧٩-٨٠).

الباب الخامس والعشرون: في بيانِ معنَى الإلحادِ في أسماءِ اللهِ الحُسْنَى

(قالَ تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والإلحادُ في أسمائِهِ: هوَ العدولُ بها وبحقائقِها ومعانيها عن الحقِّ الثابتِ لها. وهوَ مأخوذٌ مِن المَيْلِ كما يَدُلُّ عليهِ مَادَّتُهُ (ل ح د). فمنهُ اللَّحْدُ وهوَ الشَّقُّ في جانبِ القَبْرِ الذي قدْ مالَ عن الوَسَطِ. ومنهُ المُلْحِدُ في الدِّينِ المائلُ عن الحقِّ إلَى الباطلِ. قالَ ابنُ السِّكِّيتِ: الملحِدُ: المائلُ عن الحقِّ المُدْخِلُ فيهِ ما ليسَ منهُ. ومنهُ الملتَحَدُ وهوَ مُفْتَعَلٌ مِنْ ذلكَ. وقولُهُ تعالَى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٧﴾ [الكهف: ٢٧]؛ أيْ: مَنْ تَعْدِلُ إليهِ وتَهْرُبُ إليهِ وتَلتجئُ إليهِ وتَبتهِلُ إليهِ، فتَميلُ إليهِ عنْ غيرِهِ. تقولُ العربُ: الْتَحَدَ فُلانٌ إلَى فُلانٍ إذا عَدَلَ إليهِ.

إذا عُرِفَ هذا فالإلحادُ في أسمائِهِ تعالَى أنواعٌ:

أحدُها: أن يُسَمَّى الأصنامُ بها، كتَسميتِهم اللاتَ مِن الإلهيَّةِ، والعُزَّى مِن العزيزِ، وتَسميتِهم الصَّنَمَ إلَهاً، وهذا إلحادٌ حقيقةً، فإنَّهُم عَدَلُوا بأسمائِهِ إلَى أَوثانِهم وآلهتِهم الباطلةِ.

الثاني: تَسميتُهُ بما لا يَليقُ بجلالِهِ كتَسميَةِ النَّصَارَى لهُ أباً، وتَسميَةِ الفلاسِفَةِ لهُ مُوجِباً بذاتِهِ أوْ عِلَّةً فاعلةً بالطبْعِ، ونحوِ ذلكَ.

وثالثُها: وَصْفُهُ بما يَتَعالَى عنهُ ويَتَقَدَّسُ مِن النقائصِ، كقولِ أَخْبَثِ اليهودِ: إنَّهُ فقيرٌ، وقولِهِم: إنَّهُ استراحَ بعدَ أنْ خَلَقَ خَلْقَهُ، وقولِهِم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وأمثالِ ذلكَ ممَّا هوَ إلحادٌ في أسمائِهِ وصِفاتِهِ.

ورابعُها: تعطيلُ الأسماءِ عنْ معانيها، وجَحْدُ حقائقِها، كقولِ مَنْ يقولُ مِن الجهميَّةِ وأتباعِهِم: إنَّها ألفاظٌ مُجرَّدَةٌ لا تَتَضَمَّنُ صفاتٍ ولا معانيَ، فيُطلقونَ عليهِ اسمَ السميعِ والبصيرِ والحيِّ والرحيمِ والمتكلِّمِ والمريدِ، ويقولونَ: لا حياةَ لهُ ولا سَمْعَ ولا بَصَرَ ولا كلامَ ولا إرادةَ تقومُ بِهِ؛ وهذا مِنْ أَعظمِ الإلحادِ فيها عَقْلاً وشَرْعاً ولُغةً وفِطْرَةً، وهوَ يُقابِلُ إلحادَ المشركينَ؛ فإنَّ أولئكَ أَعْطَوْا أسماءَهُ وصِفاتِهِ لآلهتِهِم، وهؤلاءِ سَلَبُوهُ صفاتِ كمالِهِ وجَحَدُوها وعَطَّلُوها. فكلاهما مُلْحِدٌ في أسمائِهِ، ثُمَّ الجهميَّةُ وفُروخُهم مُتفاوتونَ في هذا الإلحادِ، فمنهم الغالي والمتوسِّطُ والمنكوبُ. وكلُّ مَنْ جَحَدَ شيئاً مما وَصَفَ اللهُ بِهِ نفسَهُ أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رسولُهُ فقدْ أَلْحَدَ في ذلكَ، فلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ.(١)

وخامسُها: تشبيهُ صفاتِهِ بصفاتِ خَلْقِهِ، تعالَى اللهُ عَمَّا يقولُ المشبِّهونَ عُلُوًّا كبيراً. فهذا الإلحادُ في مقابلةِ إلحادِ المُعَطِّلَةِ؛ فإنَّ أولئكَ نَفَوْا صِفةَ كمالِهِ وجَحَدُوها، وهؤلاءِ شَبَّهُوهَا بصفاتِ خَلْقِهِ، فجَمَعَهم الإلحادُ وتَفَرَّقَتْ بهم طُرُقُهُ.

وَبَرَّأَ اللهُ أتباعَ رَسولِهِ ووَرَثَتَهُ القائمينَ بسُنَّتِهِ عنْ ذلكَ كلِّهِ، فلم يَصِفُوهُ إلاَّ بما وَصَفَ بِهِ نفسَهُ، ولم يَجْحَدُوا صِفاتِهِ، ولم يُشَبِّهُوها بصفاتِ خَلْقِهِ، ولم يَعْدِلُوا بها عما أُنْزِلَتْ عليهِ لَفْظاً ولا مَعْنًى، بلْ أَثْبَتُوا لهُ الأسماءَ والصفاتِ، ونَفَوْا عنهُ مُشابَهَةَ المخلوقاتِ. فكانَ إثباتُهم بَرِيًّا مِن التشبيهِ، وتنزيهُهم خَلِيًّا

(١) قالَ -رَحِمَهُ اللهُ- كما في مُختَصرِ الصواعقِ المُرْسَلَةِ (٢/ ٢٩٧ - ٢٩٨): (ومِن أَعظمِ الإلحادِ في أسمائِهِ إنكارُ حَقائِقِهَا ومعانيها والتصريحُ بأنها مَجازاتٌ، وهو أنواعٌ هذا (أَحدُها).
(الثاني) جَحْدُها وإنكارُها بالكُلِّيَّةِ.

مِن التعطيلِ، لا كَمَنْ شَبَّهَ حتَّى كأنَّهُ يَعْبُدُ صَنَماً، أوْ عَطَّلَ حتَّى كأنَّهُ لا يَعْبُدُ إلاَّ عَدَماً.

وأهلُ السُّنَّةِ وَسَطٌ في النِّحَلِ، كما أنَّ أهلَ الإسلامِ وَسَطٌ في المِلَلِ، تُوقَدُ مَصابيحُ مَعارِفِهم مِنْ شَجرةٍ مُبارَكَةٍ زَيتونةٍ لا شَرقيَّةٍ ولا غَربيَّةٍ، يَكادُ زَيتُها يُضيءُ، وَلَوْ لم تَمْسَسْهُ نارٌ، نورٌ علَى نورٍ يَهْدِي اللهُ لنورِهِ مَنْ يَشاءُ.

فنَسألُ اللهَ تعالَى أن يَهدِيَنا لنُورِهِ، ويُسَهِّلَ لنا السبيلَ إلَى الوصولِ إلَى مَرضاتِهِ ومُتابعةِ رسولِهِ، إنَّهُ قَريبٌ مُجيبٌ). [1]

(١) بَدائِعُ الفوائِدِ (١/ ٦٩).

البابُ السادسُ والعشرونَ: في بيانِ أنَّ أسماءَ اللّه الحسنَى وصفاتِه العُلَى تَسْتَلْزِمُ آثارَها

(الربُّ - سُبحانَهُ وتعالَى - لهُ الأسماءُ الحُسْنَى، وأسماؤُهُ مُتَضَمِّنَةٌ لصفاتِ كمالِه، وأفعالُهُ ناشئةٌ عنْ صفاتِهِ... وأسماؤُهُ الحسنَى تَقتضِي آثارَها، وتَستلزِمُها استلزامَ المقتضِي الموجِبِ لِمُوجَبِهِ ومُقتضاهُ، فلا بُدَّ مِنْ ظهورِ آثارِها في الوُجودِ فإنَّ مِنْ أسمائِهِ الخَلَّاقَ المقتضِيَ لوُجودِ الخَلْقِ، ومِنْ أسمائِهِ الرزَّاقَ المقتضِيَ لوُجودِ الرزْقِ والمرزوقِ)[1]، ([و] مِنْ أسمائِهِ: الغفورَ، الرحيمَ، العفوَّ، الحليمَ، الخافضَ الرافعَ، المعزَّ المذِلَّ، المُحْيِيَ المميتَ، الوارثَ، الصبورَ)[2] (وكذلكَ... التوَّابَ والحكيمَ... و... الرحمنَ الرحيمَ، وكذلكَ الحَكَمَ العَدْلَ، إلَى سائرِ الأسماءِ).[3]

(ولا بُدَّ مِنْ ظهورِ آثارِ هذهِ الأسماءِ. فاقْتَضَتْ حِكمتُهُ سُبحانَهُ أن يُنْـزِلَ آدمَ وذُرِّيَّتَهُ داراً يَظْهَرُ عليهم فيها أَثَرُ أسمائِهِ الحسنَى، فيَغفِرُ فيها لِمَنْ يَشاءُ، ويَرحَمُ مَنْ يَشاءُ، ويَخْفِضُ مَنْ يَشاءُ، ويَرفَعُ مَنْ يَشاءُ، ويُعِزُّ مَنْ يَشاءُ، ويُذِلُّ مَنْ يَشاءُ، ويَنتقمُ مِمَّنْ يَشاءُ، ويُعْطِي ويَمْنَعُ، ويَقْبِضُ ويَبْسُطُ، إلَى غيرِ ذلكَ مِنْ ظهورِ أَثَرِ أسمائِهِ وصِفاتِه).[4]

---

(١) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (١٥٦٣).

(٢) مِفتاحُ دارِ السعادةِ (١/ ١٠٦).

(٣) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (١٥٦٣).

(٤) مِفتاحُ دارِ السعادةِ (١/ ١٠٦-١٠٧).

(فهو - سُبحانَهُ - لكمالِ مَحبَّتِهِ لأسمائِهِ وصِفاتِهِ اقْتَضَى حَمْدُهُ وحِكمتُهُ أن يَخْلُقَ خَلْقاً يُظْهِرَ فيهم أحكامَها وآثارَها. فلِمَحَبَّتِهِ للعَفْوِ خلَقَ مَنْ يَحْسُنُ العَفْوُ عنهُ، ولمحبَّتِهِ للمغفرةِ خَلَقَ مَنْ يَغْفِرُ لهُ ويَحْلُمُ عنهُ ويَصبرُ عليهِ ولا يُعاجِلُهُ، بل يكونُ يُحِبُّ أمانَهُ وإمهالَهُ، ولِمَحَبَّتِهِ لعَدْلِهِ وحِكمتِهِ خَلَقَ مَنْ يُظهرُ فيهم عَدْلَهُ وحِكمتَهُ، ولمحبَّتِهِ للجُودِ والإحسانِ والبِرِّ خَلَقَ مَنْ يُعامِلُهُ بالإساءةِ والعِصيانِ وهوَ - سُبحانَهُ - يُعامِلُهُ بالمغفرةِ والإحسانِ). (١)

(وقدْ أَشارَ إلَى هذا أَعْلَمُ الخلْقِ باللهِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ حيث يقولُ: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ». (٢)

((فإنَّهُ سُبحانَهُ وتعالَى يُحِبُّ المغفرةَ وإنْ كَرِهَ مَعاصيَ عِبادِهِ، ويُحِبُّ السَّتْرَ وإنْ كَرِهَ ما يَسْتُرُ عَبْدَهُ عليهِ، ويُحِبُّ العِتْقَ وإنْ كَرِهَ السببَ الذي يُعْتِقُ عليهِ مِن النارِ، ويُحِبُّ العفوَ كما في الحديثِ: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي» (٣) وإن كَرِهَ ما يَعْفُو عنهُ مِن الأوزارِ، ويُحِبُّ التوَّابينَ وتوبتَهم وإن كَرِهَ مَعاصِيَهم التي يَتوبونَ إليهِ منها، ويُحِبُّ الجهادَ وأهلَهُ، بلْ هم أَحَبُّ خَلْقِهِ إليهِ وإن كَرِهَ أفعالَ مَنْ يُجاهِدونَهُ، وهذا بابٌ واسعٌ قدْ فُتِحَ لكَ فادْخُلْ منهُ يُطْلِعْكَ علَى رياضٍ مِن المعرفةِ مُونِقَةٍ ماتَ مَنْ فاتَتْهُ بِحَسْرَتِهِ، وباللهِ التوفيقُ.

وهذا مَوضِعٌ يَضيقُ عنهُ عِدَّةُ أسفارٍ، واللبيبُ يَدخلُ إليهِ مِنْ بابِهِ، وسِرُّ هذا البابِ أنَّهُ سُبحانَهُ كاملٌ في أسمائِهِ وصِفاتِهِ، فلهُ الكمالُ المطلَقُ مِنْ جميعِ الوجوهِ الذي لا نَقْصَ فيهِ بوجهٍ ما، وهوَ يُحِبُّ أسماءَهُ وصِفاتِهِ، ويُحِبُّ ظُهورَ آثارِها

---

(١) شِفاءُ العَليلِ (٢/ ١٨٩).

(٢) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٧٩٨٣)، ومسلمٌ في كتابِ التَّوْبَةِ / بابٌ سُقوطُ الذُّنوبِ بالاستغفارِ توبةٌ (٦٨٩٩)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ صِفةِ الجنةِ / بابُ ما جاءَ في صفةِ الجنةِ ونعيمِها (٢٥٢٦) من حديثِ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه.

(٣) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٣١٣.

في خَلْقِهِ، فإنَّ ذلكَ مِنْ لَوازِمِ كمالِهِ، فإنَّهُ سُبحانَهُ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ، جَميلٌ يُحِبُّ الجمالَ، عَليمٌ يُحِبُّ العُلماءَ، جَوادٌ يُحِبُّ الأجوادَ، قَوِيٌّ، والمؤمنُ القويُّ أَحَبُّ إليهِ مِنَ المؤمنِ الضعيفِ، حَيِيٌّ يُحِبُّ أهلَ الحياءِ، وَفِيٌّ يُحِبُّ أَهْلَ الوَفاءِ، شَكورٌ يُحِبُّ الشاكرينَ، صادِقٌ يُحِبُّ الصادقينَ، مُحْسِنٌ يُحِبُّ المحسنينَ.

فـ[لمحبتِه]...العفوَ والمغفرةَ والحِلْمَ والصفْحَ والسَّتْرَ...[قَدَّرَ] الأسبابَ التي تَظْهَرُ آثارُ هذهِ الصِّفاتِ فيها، [لـ]يَسْتَدِلَّ بها عِبادُهُ على كمالِ أَسمائِهِ وصِفاتِهِ، ويكونَ ذلكَ أَدْعَى لهم إلَى مَحَبَّتِهِ وحَمْدِهِ وتَمجيدِهِ والثناءِ عليهِ بما هوَ أَهْلُهُ، فتَحْصُلَ الغايَةُ التي خَلَقَ لها الخَلْقَ)).[1]

وأنتَ إذا فَرَضْتَ الحيوانَ بجُمْلَتِهِ معدوماً؛ فمَنْ يَرْزُقُ سُبحانَهُ؟ وإذا فَرَضْتَ المعصيَةَ والخطيئةَ مُنْتَفِيَةً مِن العالَمِ؛ فلِمَنْ يَغْفِرُ؟ وعَمَّنْ يَعْفُو؟ وعلَى مَنْ يَتوبُ ويَحْلُمُ؟ وإذا فَرَضْتَ الفاقاتِ كلَّها قَدْ سُدَّتْ، والعبيدَ أَغنياءَ مُعافينَ؛ فأينَ السؤالُ والتضَرُّعُ والابتهالُ والإجابَةُ وشهودُ الفضْلِ والمِنَّةِ، والتخصيصُ بالإنعامِ والإكرامِ؟!.

فسُبحانَ مَنْ تعرَّفَ إلَى خَلْقِهِ بجميعِ أنواعِ التعريفاتِ، ودَلَّهُمْ عليهِ بأنواعِ الدَّلالاتِ، وفتَحَ لهم إليهِ جميعَ الطُّرُقاتِ، ثُمَّ نَصَبَ إليهِ الصراطَ المستقيمَ. وعرَّفَهُم بهِ ودَلَّهُم عليهِ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال: ٤٢].[2]

(ومِن الحِكَمِ في ذلكَ أنَّهُ سُبحانَهُ أَرادَ أن يَتَّخِذَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدمَ رُسُلاً وأَنْبِياءَ وشُهَداءَ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ، ويُنَزِّلُ عليهِم كُتُبَهُ، ويَعْهَدُ إليهم عَهْدَهُ، ويَستعبدُهم لهُ في السَّرَّاءِ والضرَّاءِ، ويُؤثِرونَ مَحابَّهُ ومَراضِيَهُ علَى شَهواتِهِمْ وما يُحِبُّونَهُ

(١) روضةُ المُحِبِّينَ (٨٠-٨٢).

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٢٢٥).

ويهْوَوْنَهُ. فاقْتَضَتْ حِكمتُهُ أن أَنْزَلَهُمْ إِلَى دارٍ ابتلاهم فيها بما ابتلاهم لِيُكْمِلُوا بذلكَ الابتلاءِ مَراتِبَ عُبوديَّتِهِ، ويَعْبُدُوهُ بما تَكْرَهُهُ نفوسُهم، وذلكَ مَحْضُ العُبوديَّةِ، وإلاَّ فمَنْ لا يَعبدُ اللهَ إلاَّ بما يُحِبُّهُ ويَهواهُ فهوَ في الحقيقةِ إنَّما يَعبدُ نفسَهُ، وهوَ سُبحانَهُ يُحِبُّ مِنْ أوليائِهِ أَنْ يُوَالُوا فيهِ ويُعَادُوا فيهِ، ويَبْذُلُوا نفوسَهم في مَرضاتِهِ ومَحابِّهِ، وهذا كلُّهُ لا يَحْصُلُ في دارِ النعيمِ المطلَقِ.

ومِن الحكمةِ في إخراجِهِ مِن الجَنَّةِ ما تَقَدَّمَ التنبيهُ عليهِ مِن اقتضاءِ أسماءِ اللهِ الحسنَى لِمُسَمَّيَاتِها ومُتعلَّقَاتِها، كالغفورِ الرحيمِ، التوَّابِ، العَفُوِّ، المنتقِمِ، الخافضِ الرافعِ، المعِزِّ المذِلِّ، المُحْيِي المميتِ، الوارثِ.

ولا بُدَّ مِنْ ظهورِ أَثَرِ هذهِ الأسماءِ ووُجودِ ما يَتَعَلَّقُ بهِ. فاقْتَضَتْ حِكمتُهُ أن أَنْزَلَ الأبوينِ مِن الجَنَّةِ لِيُظْهِرَ مُقْتَضَى أسمائِهِ وصفاتِهِ فيهما وفي ذُرِّيَّتِهما، فلوْ تَرَبَّتِ الذُّرِّيَّةُ في الجَنَّةِ لَفَاتَتْ آثارُ هذهِ الأسماءِ وتَعَلُّقَاتُها، والكمالُ الإلهيُّ يَأْبَى ذلكَ، فإِنَّهُ الملِكُ الحقُّ المبينُ، والملِكُ هوَ الذي يَأمرُ ويَنْهَى، ويُكرمُ ويُهينُ، ويُثيبُ ويُعاقبُ، ويُعطِي ويَمْنَعُ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، فأَنْزَلَ الأبوينِ والذرِّيَّةَ إِلَى دارٍ تُجْرَى عليهم فيها هذهِ الأحكامُ).(١)

(والمقصودُ أنَّ تنويعَ المخلوقاتِ واختلافَها مِنْ لوازمِ الحكمةِ والربوبيَّةِ والمُلْكِ، و... مُوجَباتِ أسمائِهِ وصِفاتِهِ، فلكلِّ اسمٍ وصِفةٍ أَثَرٌ لا بُدَّ مِنْ ظُهورِهِ فيهِ واقتضائِهِ لهُ، فيَمتنعُ تعطيلُ آثارِ أسمائِهِ وصِفاتِهِ، كما يَمتنعُ تعطيلُ ذاتِهِ عنها، وهذه الآثارُ لها مُتعلَّقاتٌ ولوازمُ يَمتنعُ أن لا تُوجَدَ كما تَقَدَّمَ التنبيهُ عليهِ؛ واللهُ الموَفِّقُ الهادي للصوابِ).(٢)

---

(١) شِفاءُ العَليلِ (٢/ ١٩٤-١٩٥)

(٢) طَريقُ الهِجرتَيْنِ (١٢٦).

البابُ السابعُ والعشرونَ: في بيانِ دَلالةِ أسماءِ اللّهِ الحُسنَى

وصفاتِهِ العُلَى علَى خَلْقِ أفعالِ العِبادِ، وأنَّ الطاعاتِ والمعاصيَ كلَّها بتقديرِ اللهِ تعالَى.

([إذا شَاهَدْتَ] تَعلُّقَ الوُجودِ خَلْقاً وأمراً بالأسماءِ الْحُسْنَى، والصفاتِ العُلَى، وارتباطَهُ بها، وأنَّ... العالمَ - بما فيهِ - مِنْ بعضِ آثارِها ومُقْتَضَياتِها. - وهذا مِنْ أَجَلِّ المعارِفِ وأَشْرَفِها -، و[أنَّ] كلَّ اسمٍ مِنْ أسمائِهِ سُبحانَهُ لهُ صِفةٌ خاصَّةٌ، فإنَّ أسماءَهُ أوصافُ مَدْحٍ وكمالٍ. وكلُّ صِفةٍ لها مُقْتَضًى وفِعلٌ: إمَّا لازمٌ وإما مُتَعَدٍّ. ولذلكَ الفعْلِ تَعَلُّقٌ بمفعولٍ هوَ مِنْ لوازمِهِ. وهذا في خَلْقِهِ وأَمْرِهِ، وثوابِهِ وعِقابِهِ. كلُّ ذلكَ آثارُ الأسماءِ الْحُسنَى ومُوجَباتُها.

ومِن الُمحَالِ تعطيلُ أسمائِهِ عنْ أَوصافِها ومَعانِيهَا، وتعطيلُ الأوصافِ عما تَقتضيهِ وتَستدعيهِ مِن الأفعالِ، وتعطيلُ الأفعالِ عن المفعولاتِ، كما أنَّهُ يَستحيلُ تَعطيلُ مفعولِهِ عنْ أفعالِهِ وأفعالِهِ عنْ صفاتِهِ، وصفاتِهِ عنْ أسمائِهِ، وتعطيلُ أسمائِهِ وأوصافِهِ عنْ ذاتِهِ.

وإذا كانت أوصافُهُ صفاتِ كمالٍ، وأفعالُهُ حِكَماً ومَصالحَ، وأسماؤُهُ حُسْنَى: ففَرْضُ تعطيلِها عنْ مُوجَباتِها مُستحيلٌ في حَقِّهِ. ولهذا يُنْكِرُ سُبحانَهُ علَى مَنْ عَطَّلَهُ عنْ أَمْرِهِ ونَهْيِهِ، وثوابِهِ وعِقابِهِ، وأنَّهُ بذلكَ نَسَبَهُ إلَى ما لا يَليقُ بِهِ وإلَى ما يَتنَـزَّهُ عنهُ، أنَّ ذلكَ حُكْمٌ سَيِّئٌ مِمَّنْ حَكَمَ بهِ عليهِ، وأنَّ مَنْ نَسَبَهُ إلَى ذلكَ فما

قَدْرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ، ولا عَظَّمَهُ حقَّ تَعظيمِهِ، كما قالَ تعالَى في حَقِّ مُنْكِرِي النُّبُوَّةِ وإرسالِ الرسُلِ وإنـزالِ الكُتُبِ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] وقالَ تعالَى في حقِّ مُنْكِرِي المَعَادِ والثوابِ والعقابِ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] وقالَ في حقِّ مَنْ جَوَّزَ عليهِ التسويَةَ بينَ المختلِفَيْنِ، كالأبرارِ والفُجّارِ، والمؤمنينَ والكُفّارِ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١] فأخبرَ أنَّ هذا حُكْمٌ سَيِّئٌ لا يَليقُ بهِ، تَأباهُ أسماؤُهُ وصِفاتُهُ، وقالَ سُبحانَهُ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦] عنْ هذا الظنِّ والحِسبانِ، الذي تَأباهُ أسماؤُهُ وصِفاتُهُ.

ونظائرُ هذا في القرآنِ كثيرةٌ، يَنْفِي فيها عنْ نفسِهِ خِلافَ مُوجَبِ أسمائِهِ وصِفاتِهِ؛ إذْ ذلكَ مُستلزِمٌ تعطيلَها عنْ كمالِها ومُقتضياتِها.

فاسمُهُ «**الحميدُ، المجيدُ**» يَمنعُ تَرْكَ الإنسانِ سُدًى مُهْمَلاً مُعطَّلاً، لا يُؤْمَرُ ولا يُنْهَى. ولا يُثابُ ولا يُعاقَبُ. وكذلكَ اسمُهُ «**الحكيمُ**» يَأْبَى ذلكَ. وكذلكَ اسمُهُ «**المَلِكُ**» واسمُهُ «**الحَيُّ**» يَمْنَعُ أن يكونَ مُعطَّلاً مِن الفعْلِ. بلْ حقيقةُ «**الحياةِ**» الفعلُ. فكُلُّ حيٍّ فعَّالٌ. وكونُهُ سُبحانَهُ «**خالِقاً قَيُّوماً**» مِنْ مُوجَباتِ حياتِهِ ومُقتضياتِها. واسمُهُ «**السميعُ البصيرُ**» يُوجِبُ مَسْمُوعاً ومَرْئِيًّا. واسمُهُ «**الخالِقُ**» يَقتضِي مَخلوقاً، وكذلكَ «**الرزَّاقُ**» واسمُهُ «**المَلِكُ**» يَقتضِي مَملكةً وتَصرُّفاً وتَدبيراً، وإعطاءً ومَنْعاً، وإحساناً وعَدْلاً، وثواباً وعقاباً. واسمُ «**البَرِّ المُحسِنِ، المُعطِي، المَنَّانِ**» ونحوِها تَقتضِي آثارَها ومُوجَباتِها.

إذا عُرِفَ هذا، فمِنْ أسمائِهِ سُبحانَهُ: «الغَفَّارُ، التوَّابُ، العَفُوُّ» فلا بُدَّ لهذه الأسماءِ مِنْ مُتَعَلِّقَاتٍ. ولا بُدَّ مِنْ جِنايَةٍ تُغْفَرُ، وتوبةٍ تُقْبَلُ، وجرائمَ يُعْفَى عنها. ولا بُدَّ لاسمِهِ «الحكيم» مِنْ مُتَعَلَّقٍ يَظْهَرُ فيهِ حُكْمُهُ. إذ اقتضاءُ هذهِ الأسماءِ لآثارِها كاقتضاءِ اسمِ «الخالقِ، الرازقِ، المعطي المانعِ» للمخلوقِ والمرزوقِ والمعطَى والممنوعِ. وهذه الأسماءُ كلُّها حُسْنَى[1].

---

(١) وقال -رَحِمَهُ اللهُ تعالَى- في مَدارجِ السَّالكِينَ (١/ ٢٢٥) (ومنها: أن أسماءَهُ الحُسْنَى تَقتضِي آثارَها اقتضاءَ الأسبابِ التامةِ لمُسبَّباتِها. فاسمُ السميعِ البصيرِ يقتضِي مَسموعًا ومُبصَرًا. واسمُ (الرزاقِ) يقتضي مَرزوقًا. واسمُ الرحيمِ يقتضِي مَرحومًا. وكذلك أسماءُ الغفُورُ، والعفُوُّ، والتوَّابُ والحليمُ يقتضِي مَنْ يَغْفِرُ له، ويتوبُ عليه، ويَعفُو عنه، ويَحْلُمُ. ويستحيلُ تعطيلُ هذه الأسماءِ والصفاتِ، إذ هي أسماءٌ حُسْنَى وصفاتُ كمالٍ، ونعوتُ جلالٍ، وأفعالُ حِكمةٍ وإحسانٍ وجُودِهِ. فلا بد من ظُهورِ آثارِها في العالَمِ).

وقال رَحِمَهُ اللهُ تعالَى في مِفتاحِ دارِ السعادةِ (٢/ ٢٦١- ٢٦٢): (ومنها أنه سُبحانَهُ له الأسماءُ الحُسنَى، ولكلِّ اسمٍ من أسمائِه أثرٌ من الآثارِ في الخلقِ والأمرِ، لا بد من تَرتُّبِه عليه كترتُّبِ المرزوقِ والرِّزْقِ على الرازقِ، وترتُّبِ المرحومِ وأسبابِ الرحمةِ على الراحمِ وترتُّبِ المرئياتِ والمسموعاتِ على السميعِ والبصيرِ، ونظائرُ ذلك في جميعِ الأسماءِ.

فلو لم يكن في عبادِه مَن يُخطِئُ ويُذنِبُ لِيَتُوبَ عليه ويَغْفِرَ له ويعفُوَ عنه لن يَظْهَرَ أثرُ أسمائِه الغفورِ والعفوِّ والحليمِ والتوابِ وما جَرى مَجرَاها، وظهورُ أثرِ هذهِ الأسماءِ ومُتعلَّقاتِها في الخليقةِ كظُهورِ آثارِ سائرِ الأسماءِ الحُسنَى ومُتعلِّقاتِها، فكما أن اسمَهُ الخالِقَ يَقتَضِي مَخلوقًا، والبارِيَ يَقْتَضِي مَبْرُوءًا، والمُصَوِّرَ يَقْتضِي مُصَوَّرًا ولا بُدَّ، فأسماؤُه الغفارُ التوابُ تقتَضِي مغفورًا له وما يَغْفِرُه له، وكذلك مَن يَتوبُ عليه، وأمورًا يَتُوبُ عليه من أَجْلِها ومَن يَحْلُم عنه ويَعفُو عنه، وما كانَ مُتَعَلَّقَ الحِلْمِ والعَفْوِ، فإن هذه الأمورَ مُتعَلِّقَةٌ بالغيرِ ومعانِيها مُستَلْزِمَةٌ لمُتعلَّقَاتِها. وهذا بابٌ أَوسَعُ مِن أن يُدْرَكَ، واللبيبُ يَكْتَفِي منه باليَسِيرِ، وغليظُ الحجابِ في وادٍ ونحن في وادٍ:

وَإِنْ كَانَ أَثْلُ الوَادِ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ... فَغَيْرُ خَفِيٍّ شِيحُهُ مِنْ خُزَامِهِ

فتأمَّلْ ظُهورَ هذينِ الاسمَينِ اسمِ الرزاقِ واسمِ الغفارِ في الخليقةِ تَرَى ما يُعْجِبُ العُقولَ، وتأَمَّلْ آثارَهُما حَقَّ التأمُّلِ في أعظمِ مجامعِ الخليقةِ: وانظُرْ كيفَ وَسِعَهُمْ رِزْقُهُ ومَغفِرَتُه، ولولا ذلك لَما كانَ له مِن قيامٍ أصلاً، فلِكُلٍّ مِنْهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الرِّزقِ والمغفرةِ، فإما مُتَّصِلاً بنَشأَتِهِ الثانيةِ، وإما مُختَصًّا بهذهِ النشأةِ).

((و[كذلك]: ظهورُ آثارِ أسمائِهِ القَهْرِيَّةِ، مثلَ «**القَهَّارِ، المنتقِمِ، والعَدْلِ، والضارِّ، وشديدِ العِقابِ، وسريعِ الحسابِ، وذي البَطْشِ الشديدِ، والخافضِ، والمذِلِّ**» فإنَّ هذهِ الأسماءَ والأفعالَ كمالٌ، فلا بُدَّ مِنْ وُجودِ مُتعَلِّقِها. ولوْ كانَ الخلْقُ كلُّهم علَى طبيعةِ المَلَكِ لم يَظهَرْ أثَرُ هذهِ الأسماءِ والأفعالِ...

و[كذلك]: ظهورُ آثارِ أسماءِ الحِكمةِ والخِبرةِ، فإنَّهُ سُبحانَهُ «**الحكيمُ الخبيرُ**» الذي يَضَعُ الأشياءَ مَواضِعَها. ويُنـزِلُها مَنازِلَها اللائقةَ بها؛ فلا يَضَعُ الشيءَ في غيرِ مَوْضِعِهِ، ولا يُنْـزِلُهُ غيرَ مَنـزِلَتِهِ التي يَقتضيها كمالُ عِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ وخِبرتِهِ؛ فلا يَضَعُ الحِرمانَ والمَنْعَ مَوْضِعَ العطاءِ والفضْلِ، ولا الفضلَ والعطاءَ مَوْضِعَ الحِرمانِ والمَنْعِ، ولا الثوابَ مَوْضِعَ العِقابِ، ولا العقابَ مَوْضِعَ الثوابِ، ولا الخفْضَ مَوْضِعَ الرفْعِ، ولا الرفْعَ مَوْضِعَ الخفْضِ، ولا العِزَّ مكانَ الذُّلِّ، ولا الذُّلَّ مكانَ العِزِّ، ولا يَأْمُرُ بما يَنبغِي النهيُ عنهُ، ولا يَنْهَى عما يَنبغِي الأمرُ بهِ)).(١)

والربُّ تعالَى يُحِبُّ ذاتَهُ وأوصافَهُ وأسماءَهُ ((و... يُحِبُّ ظُهورَ أسمائِهِ وصفاتِهِ في الخليقةِ))(٢)، فهوَ عَفُوٌّ يُحِبُّ العفوَ، ويُحِبُّ المغفرةَ، ويُحِبُّ التوبةَ، ويَفرَحُ بتوبةِ عبدِهِ حينَ يَتوبُ إليهِ أعظمَ فَرحٍ يَخْطُرُ بالبالِ.

وكانَ تقديرُ ما يَغفِرُهُ ويَعفو عنْ فاعلِهِ، ويَحلُمُ عنهُ، ويَتوبُ عليهِ ويُسامِحُهُ: مِنْ مُوجَبِ أسمائِهِ وصِفاتِهِ، وحصولُ ما يُحِبُّهُ ويَرضاهُ مِنْ ذلكَ. وما يَحْمَدُ بهِ نفسَهُ ويَحْمَدُهُ بهِ أهلُ سَماواتِهِ وأهلُ أَرْضِهِ: ما هوَ مِنْ مُوجَباتِ كمالِهِ ومُقْتَضَى حَمْدِهِ.

وهو سُبحانَهُ الحميدُ المجيدُ، وحمدُهُ ومَجْدُهُ يَقتضيانِ آثارَهما.

---

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٢/ ١٩١).

(٢) شِفاءُ العَليلِ (٢/ ٢٥٤).

ومِنْ آثارِهما: مَغفرةُ الزَّلاَّتِ، وإقالةُ العَثَرَاتِ، والعفوُ عن السَّيِّئَاتِ، والمسامحةُ علَى الجناياتِ، معَ كمالِ القُدرةِ علَى استيفاءِ الحَقِّ، والعلْمِ منهُ سُبحانَهُ بالْجِنايَةِ ومِقدارِ عُقوبتِها، فحِلْمُهُ بعدَ عِلْمِهِ، وعَفْوُهُ بعدَ قُدرتِهِ، ومَغفرتُهُ عنْ كمالِ عِزَّتِهِ وحكمتِهِ، كما قالَ المسيحُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]؛ أي: فمَغفرتُك عنْ كمالِ قُدرتِك وحِكمتِك. لستَ كمَنْ يَغفِرُ عَجْزاً. ويُسامِحُ جَهْلاً بقَدْرِ الحقِّ، بلْ أنتَ عليمٌ بِحَقِّك، قادرٌ علَى استيفائِهِ، حكيمٌ في الأَخْذِ بهِ.

فمَنْ تأَمَّلَ سَريانَ آثارِ الأسماءِ والصفاتِ في العالَمِ وفي الأَمْرِ، تبَيَّنَ لهُ أن مَصْدَرَ قضاءِ هذهِ الْجِناياتِ مِن العبيدِ، وتقديرِها: هوَ مِنْ كمالِ الأسماءِ والصفاتِ والأفعالِ، وغاياتُها أيضاً: مُقْتَضَى حَمْدِهِ ومَجْدِهِ، كما هوَ مُقْتَضَى رُبوبيَّتِهِ وإلهيَّتِهِ.

فلهُ في كلِّ ما قَضاهُ وقَدَّرَهُ الحكمةُ البالغةُ، والآياتُ الباهرةُ، والتعرُّفَاتُ إلَى عِبادِهِ بأسمائِهِ وصفاتِهِ، واستدعاءُ مَحبَّتِهِم لهُ، وذِكْرُهُمْ لهُ، وشُكْرُهم لهُ، وتَعَبُّدُهم لهُ بأسمائِهِ الْحُسْنَى. إذْ كلُّ اسمٍ فلهُ تَعَبُّدٌ مُخْتَصٌّ بهِ، عِلْماً ومَعرفةً وحَالاً.

وأَكملُ الناسِ عُبوديَّةً: المتعبِّدُ بجميعِ الأسماءِ والصفاتِ التي يُطْلَعُ عليها البَشَرَ. فلا تَحْجُبُهُ عُبوديَّةُ اسمٍ عنْ عُبوديَّةِ اسمٍ آخَرَ، كمَنْ يَحْجُبُهُ التعبُّدُ باسمِهِ «**القدير**» عن التعبُّدِ باسمِهِ «**الحليم الرحيم**»، أَوْ يَحْجُبُهُ عُبوديَّةُ اسمِهِ «**المعطي**» عنْ عُبوديَّةِ اسمِهِ «**المانع**»، أوْ عُبوديَّةُ اسمِهِ «**الرحيم والعفُوِّ والغفورِ**» عن اسمِهِ «**المنتقِم**»، أو التعبُّدُ بأسماءِ التودُّدِ والبِرِّ واللطْفِ والإحسانِ عنْ أسماءِ العَدْلِ والجبروتِ والعَظمةِ والكبرياءِ، ونحوُ ذلكَ.

وهذه طريقةُ الكُمَّلِ مِن السائرينَ إلَى اللهِ، وهيَ طريقةٌ مُشْتَقَّةٌ مِنْ قلْبِ القرآنِ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] والدعاءُ بها يَتناوَلُ دُعاءَ المسألةِ، ودعاءَ الثناءِ، ودعاءَ التعَبُّدِ. وهوَ سُبحانَهُ يَدعُو عِبادَهُ إلَى أن يَعْرِفُوهُ بأسمائِهِ وصِفاتِهِ، ويُثْنُوا عليهِ بها، ويَأْخُذُوا بِحَظِّهِم مِنْ عُبُودِيَّتِها.

وهوَ سُبحانَهُ يُحِبُّ مُوجَبَ أسمائِهِ وصفاتِهِ؛ فهوَ «**عليمٌ**» يُحِبُّ كلَّ عليم، «**جَوَادٌ**» يُحِبُّ كلَّ جَوَادٍ، «**وِتْرٌ**» يُحِبُّ الوِتْرَ، «**جميلٌ**» يُحِبُّ الجمالَ، «**عَفُوٌّ**» يُحِبُّ العفْوَ وأَهْلَهُ، «**حَيِيٌّ**» يُحِبُّ الحياءَ وأهلَهُ، «**بَرٌّ**» يُحِبُّ الأبرارَ، «**شَكورٌ**» يُحِبُّ الشاكرينَ، «**صَبُورٌ**» يُحِبُّ الصابرينَ، «**حَليمٌ**» يُحِبُّ أهلَ الحلْمِ. فلمحبَّتِهِ سُبحانَهُ للتوبةِ والمغفرةِ، والعفْوِ والصفْحِ: خَلَقَ مَنْ يَغفرُ لهُ، ويَتوبُ عليهِ ويَعفو عنهُ، وقَدَّرَ عليهِ ما يَقتضِي وُقوعَ المكروهِ والمبغوضِ لهُ؛ ليَترتَّبَ عليهِ المحبوبُ لهُ المُرْضِي لهُ، فتَوَسُّطُهُ كتوسُّطِ الأسبابِ المكروهةِ المُفضيَةِ إلَى المحبوبِ.

فربما كـانَ مكروهُ العِبادِ إلى	**محبوبِهـا سَـبَبٌ مـا مِثْلُهُ سَـبَبُ**

والأسبابُ - معَ مُسَبَّبَاتِها - أربعةُ أنواعٍ:

- محبوبٌ يُفْضِي إلَى محبوبٍ.
- ومكروهٌ يُفْضِي إلَى محبوبٍ.

وهذانِ النوعانِ عليهما مَدارُ أَقْضِيَتِهِ وأقدارِهِ سُبحانَهُ بالنسبةِ إلَى ما يُحِبُّهُ وما يَكرهُهُ.

والثالثُ: مكروهٌ يُفْضِي إلَى مَكروهٍ.

والرابعُ: محبوبٌ يُفْضِي إلَى مَكروهٍ.

وهذانِ النوعانِ مُمتنعانِ في حَقِّهِ سُبحانَهُ؛ إذ الغاياتُ المطلوبةُ مِنْ قضائِهِ وقَدَرِهِ - الذي ما خَلَقَ ما خَلَقَ، ولا قَضَى ما قَضَى إلاَّ لأَجْلِ حصولِها - لا تكونُ إلاَّ محبوبةً للربِّ مَرْضِيَّةً لهُ، والأسبابُ المُوصِلَةُ إليها مُنقسِمَةٌ إلَى محبوبٍ لهُ ومكروهٍ لهُ.

فالطاعاتُ والتوحيدُ: أسبابٌ محبوبةٌ لهُ، مُوصِلَةٌ إلَى الإحسانِ، والثوابُ المحبوبُ لهُ أيضاً، والشرْكُ والمعاصي: أسبابٌ مَسخوطةٌ لهُ، مُوصِلَةٌ إلَى العَدْلِ المحبوبِ لهُ، وإن كانَ الفضْلُ أَحَبَّ إليهِ مِن العَدْلِ، فاجتماعُ العَدْلِ والفضلِ أَحَبُّ إليهِ مِن انفرادِ أحدِهما عن الآخَرِ، لِمَا فيهما مِنْ كمالِ المُلْكِ والحمدِ، وتَنَوُّعِ الثناءِ، وكمالِ القُدرةِ.

فإن قيلَ: كانَ يُمْكِنُ حصولُ هذا المحبوبِ مِنْ غيرِ تَوَسُّطِ المكروهِ.

قيلَ: هذا سؤالٌ باطلٌ؛ لأنَّ وُجودَ الملزومِ بدونِ لازِمِهِ مُمْتَنِعٌ، والذي يُقَدَّرُ في الذِّهْنِ وجودُهُ شيءٌ آخَرُ غيرُ هذا المطلوبِ المحبوبِ للربِّ، وحُكْمُ الذهْنِ عليهِ بأنَّهُ محبوبٌ للربِّ حُكْمٌ بلا عِلْمٍ، بلْ قدْ يكونُ مَبغوضاً للربِّ تعالَى لِمُنافاتِهِ حِكْمَتَهُ؛ فإذا حَكَمَ الذهْنُ عليهِ بأنَّهُ محبوبٌ لهُ كانَ نِسبةً لهُ إلَى ما لا يَليقُ بِهِ ويَتعالَى عنهُ.

فَلْيُعْطِ اللبيبُ هذا الموضعَ حقَّهُ من التأمُّلِ فإنَّهُ مَزَلَّةُ أقدامٍ، ومَضَلَّةُ أفهامٍ، ولوْ أمسكَ عن الكلامِ مَنْ لا يعلمُ لقلَّ الخلافُ، وهذا المشهدُ أجلُّ مِنْ أَنْ يحيطَ بِهِ كتابٌ، أوْ يستوعبَهُ خطابٌ، وإنَّما أشرنا إليهِ أدنَى إشارةٍ تُطْلِعُ علَى ما وراءَهَا، واللهُ الموفِّقُ والمُعينُ).(١)

---

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٤١٨-٤٢٢).

البابُ الثامنُ والعشرونَ: في بَيَانِ مَا تَضَمَّنَتْهُ بَعْضُ الأَسْمَاءِ الحُسْنَى من المَعَاني الجَلِيلَةِ واللَّطَائِفِ والأَسْرَارِ البَدِيعَةِ

اللّه:

(اللهُ... هوَ المَأْلُوهُ المَعْبُودُ)[١] [و](هذا الاسمُ هوَ الجامعُ؛ ولهذا تُضافُ الأسماءُ الحسنَى كلُّها إليهِ فيُقَالُ: الرحمنُ الرحيمُ العزيزُ الغفَّارُ القَهَّارُ منْ أسماءِ اللهِ، ولا يُقَالُ: اللهُ مِنْ أسماءِ الرحمنِ. قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٢]).

(واسمُ «اللهِ» دَالٌّ على كونِهِ مَأْلُوهاً مَعْبُوداً، تَأْلَهُهُ الخلائقُ محَبَّةً وتعظيماً وخُضُوعاً وَفَزَعاً إليهِ في الحوائجِ والنوائبِ، وذلكَ مُسْتَلْزِمٌ لكمالِ رُبُوبِيَّتِهِ ورحمتِهِ، المُتَضَمِّنَيْنِ لكمالِ المُلْكِ والحمدِ، وَإِلَهِيَّتُهُ وربوبيَّتُهُ ورحمانيَّتُهُ ومُلْكُهُ مُسْتَلْزِمٌ لجميعِ صفاتِ كمالِهِ؛ إذْ يَسْتَحِيلُ ثُبُوتُ ذلكَ لمنْ لَيْسَ بِحَيٍّ، ولا سَمِيعٍ ولا بَصِيرٍ، ولا قَادِرٍ ولا مُتَكَلِّمٍ، ولا فَعَّالٍ لما يُرِيدُ، ولا حَكِيمٍ في أفعالِهِ).[٣]

[و] (زَعَمَ السُّهَيْلِيُّ وَشَيْخُهُ أبو بَكْرِ بنُ العَرَبِيِّ أنَّ اسْمَ اللهِ غيرُ مُشْتَقٍّ؛ لأنَّ الاشْتِقَاقَ يَسْتَلْزِمُ مَادَّةً يُشْتَقُّ منها، واسْمُهُ تَعَالَى قَدِيمٌ، والقديمُ لا مَادَّةَ لهُ، فَيَسْتَحِيلُ الاشتقاقُ.

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٣٢).

(٢) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (٤٥).

(٣) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٦).

ولا رَيْبَ أَنَّهُ إنْ أُرِيدَ بالاشتقاقِ هذا المعنَى، وأَنَّهُ مُسْتَمَدٌّ منْ أصلٍ آخرَ فَهُوَ بَاطِلٌ، ولكنَّ الذينَ قَالُوا بالاشتقاقِ لم يُرِيدُوا هذا المعنَى، ولا أَلَمَّ بِقُلُوبِهِم، وَإِنَّمَا أَرَادُوا أَنَّهُ دَالٌّ على صِفَةٍ لهُ تَعَالَى، وهيَ الإِلهيَّةُ، كسائرِ أسمائِهِ الحُسْنَى، كالعَلِيمِ والقديرِ والغفورِ والرحيمِ والسميعِ والبصيرِ؛ فإنَّ هذه الأسماءَ مُشْتَقَّةٌ منْ مصادرِهَا بلا رَيْبٍ، وهي قديمةٌ، والقديمُ لا مادَّةَ لهُ، فما كانَ جوابَكُم عنْ هذهِ الأسماءِ فهوَ جوابُ القائِلِينَ باشْتِقَاقِ اسمِهِ «اللهِ».

ثُمَّ الجوابُ عن الجميعِ أَنَّنا لا نَعْنِي بالاشتقاقِ إلاَّ أَنَّهَا مُلاقِيَةٌ لمصادرِهَا في اللفظِ والمعنَى، لا أَنَّهَا مُتَوَلِّدَةٌ منها تَوَلُّدَ الفرعِ منْ أصلِهِ، وَتَسْمِيَةُ النحاةِ للمصدرِ والمُشْتَقِّ منهُ أَصْلاً وَفَرْعاً ليسَ معناهُ أنَّ أَحَدَهُمَا تَوَلَّدَ من الآخرِ، وإنَّمَا هُوَ باعتبارِ أنَّ أحدَهُما يَتَضَمَّنُ الآخَرَ وزيادةً.

وقولُ سِيبَوَيْهِ: إنَّ الفعلَ أمثلةٌ أُخِذَتْ منْ لفظِ أحداثِ الأسماءِ؛ هوَ بهذا الاعتبارِ، لا أَنَّ العربَ تكَلَّمُوا بالأسماءِ أَوَّلاً ثُمَّ اشْتَقُّوا منها الأفعالَ؛ فإنَّ التخاطبَ بالأفعالِ ضَرُورِيٌّ كالتخاطبِ بالأسماءِ لا فَرْقَ بينَهُمَا، فالاشتقاقُ هنا ليسَ هوَ اشْتِقَاقَ ماديٍّ، وإنما هوَ اشتقاقُ تلازمٍ. سُمِّيَ المتَضَمِّنُ «بالكَسْرِ» مُشْتَقًّا والمُتَضَمَّنُ «بالفتحِ» مُشْتَقًّا منهُ، ولا محْذُورَ في اشتقاقِ أسماءِ اللهِ تَعَالَى بهذا المعنَى).(١)

(ولهذا كانَ القولُ الصحيحُ أنَّ «اللهَ» أَصْلُهُ «**الإِلَهُ**» كما هوَ قولُ سِيبَوَيْهِ وَجُمْهُورِ أصحابِهِ إلاَّ مَنْ شَذَّ منْهُم، وأنَّ اسمَ اللهِ تَعَالَى هوَ الجامعُ لجميعِ معانِي الأسماءِ الحُسْنَى والصِّفَاتِ العُلَى).(٢)

(١) بَدَائِعُ الفوائدِ (١/ ٢٢، ٢٣).

(٢) بَدَائِعُ الفوائدِ (٢/ ٢٤٩).

[فَصْلٌ: فِي بيانِ مَعْنَى كَلِمَةِ «اللهُمَّ»]

(لا خِلافَ أنَّ لفظَةَ «اللهُمَّ» مَعْنَاهَا «يَا اللهُ»، وَلِهَذَا لا تُسْتَعْمَلُ إلاَّ في الطلبِ؛ فلا يُقَالُ: اللهُمَّ غَفُورٌ رحيمٌ، بلْ يُقَالُ: اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي.

واخْتَلَفَ النُّحَاةُ في المِيمِ المُشَدَّدَةِ مِنْ آخرِ الاسمِ؛ فَقَالَ سِيبَوَيْهِ: زِيدَتْ عِوَضاً مِنْ حرفِ النداءِ. ولذلكَ لا يَجُوزُ عِنْدَهُ الجَمْعُ بَيْنَهُمَا في اختيارِ الكلامِ، فلا يُقَالُ: «يَا اللهُمَّ»، إلاَّ فيما نَدَرَ كقولِ الشاعرِ:

إِنِّي إِذَا مَا حَدَثٌ أَلَمَّا		أَقُولُ يَا اللهُمَّ يَا اللهُمَّا

وَيُسَمَّى ما كانَ مِنْ هذا الضَّرْبِ عِوَضاً؛ إِذْ هوَ في غيرِ مَحَلِّ المحذوفِ، فإنْ كانَ في مَحَلِّهِ سُمِّيَ بَدَلاً كالألفِ في «قَامَ» وَ«بَاعَ»، فَإِنَّهَا بَدَلٌ عن الواوِ والياءِ. ولا يَجُوزُ عندَهُ أنْ يُوصَفَ هذا الاسمُ أَيْضاً، فلا يُقَالُ: «اللهُمَّ الرَّحِيمُ ارْحَمْنِي»، وَلا يُبْدَلَ مِنْهُ، والضَّمَّةُ التي على الهاءِ ضَمَّةُ الاسمِ المُنَادَى المُفْرَدِ، وَفُتِحَت المِيمُ لِسُكُونِهَا وسكونِ الميمِ التي قَبْلَهَا. وهذا مِنْ خصائصِ هذا الاسمِ، كما اخْتَصَّ بالتاءِ في القَسَمِ، وبدخولِ حرفِ النداءِ عليهِ معَ لامِ التعريفِ، وبِقَطْعِ همزةِ وَصْلِهِ في النداءِ، وتَفْخِيمِ لامِهِ وُجُوباً غيرَ مَسْبُوقَةٍ بِحَرْفِ إطباقٍ.

هذا مُلَخَّصُ مَذْهَبِ الخَلِيلِ وَسِيبَوَيْهِ.

وَقِيلَ: المِيمُ عِوَضٌ عنْ جملةٍ محذوفةٍ، والتقديرُ ((يا اللهُ أُمَّنَا بِخَيْرٍ)) أي: اقْصِدْنَا، ثُمَّ حَذَفَ الجارَّ والمجرورَ، وحَذَفَ المفعولَ، فَتَبْقَى في التقديرِ ((يا اللهُ أُمَّ))، ثمَّ حَذَفَ الهمزةَ لكثرةِ دورانِ هذا الاسمِ في الدعاءِ على أَلْسِنَتِهِم، فَبَقِي «يا اللهُمَّ» وهذا قولُ الفرَّاءِ. وصاحبُ هذا القولِ يُجَوِّزُ دُخُولَ (يا) عَلَيْهِ، وَيَحْتَجُّ بقولِ الشاعرِ:

يَا اللهُمَّا: ارْدُدْ عَلَيْنَا شَيْخَنَا مُسَلَّمَا

وبالبيتِ المُتَقَدِّمِ وَغَيْرِهِمَا.

وَرَدَّ البَصْرِيُّونَ هذا بوجوهٍ:

أحدُهَا: أَنَّ هذهِ تَقَادِيرُ لا دَلِيلَ عليها، ولا يَقْتَضِيهَا القِيَاسُ، فلا يُصَارُ إليها بِغَيْرِ دليلٍ.

الثاني: أنَّ الأصلَ عَدَمُ الحذفِ، فتقديرُ هذهِ المحذوفاتِ الكثيرةِ خلافُ الأصلِ.

الثالثُ: أنَّ الداعيَ بهذا قدْ يَدْعُو بالشَّرِّ على نفسِهِ وعلى غيرِهِ، فلا يَصِحُّ هذا التقديرُ فيهِ.

الرابعُ: أنَّ الاستعمالَ الشائعَ الفصيحَ يَدُلُّ على أنَّ العربَ لم تَجْمَعْ بينَ «يا» و«اللهُمَّ» ولوْ كانَ أصلُهُ مَا ذَكَرَهُ الفرَّاءُ لم يَمْتَنِعِ الجمعُ، بلْ كانَ استعمالُهُ فَصِيحاً شائعاً، والأمرُ بخلافِهِ.

الخامسُ: أنَّهُ لا يَمْتَنِعُ أنْ يَقُولَ الداعِي: ((اللَّهُمَّ أُمَّنَا بِخَيْرٍ))، ولوْ كانَ التقديرُ كَمَا ذَكَرَهُ لم يَجُزِ الجَمْعُ بَيْنَهُمَا؛ لِمَا فِيهِ من الجمعِ بينَ العِوَضِ والمُعَوَّضِ عنهُ.

السادسُ: أنَّ الداعيَ بهـذا الاسـمِ لا يَـخْـطِرُ ذلكَ ببالِهِ، وإنَّمَا تَكُونُ عنايتُهُ مُجَرَّدَةً إلى المطلوبِ بعدَ ذِكْرِ الاسمِ.

السابعُ: أنَّهُ لوْ كانَ التقديرُ ذلكَ لكانَ «**اللَّهُمَّ**» جُمْلَةً تَامَّةً يَحْسُنُ السُّكُوتُ عليها؛ لاشْتِمَالِهَا عَلَى الاسمِ المُنَادَى وفعلِ الطلبِ، وذلكَ باطلٌ.

الثامنُ: أنَّهُ لوْ كانَ التقديرُ ما ذَكَرَهُ لَكُتِبَ فعلُ الأمرِ وحدَهُ، ولم يُوصَلْ بالاسمِ المُنَادَى كَمَا يُقَالُ: ((يَا اللهُ قِهْ))[1]، و((يَا زَيْدُ عِهْ))، و((يَا عَمْرُو فِهْ))؛ لأنَّ الفعلَ لا يُوصَلُ بالاسمِ الذي قَبْلَهُ حتَّى يُجْعَلا في الخطِّ كلمةً واحدةً، هذا لا نَظِيرَ لهُ في الخطِّ، وفي الاتفاقِ على وَصْلِ الميمِ باسمِ «الله» دَلِيلٌ على أنَّهَا لَيْسَتْ بِفِعْلٍ مُسْتَقِلٍّ.

---

(١) (قِهْ) فِعْلُ دُعاءٍ مِن (وَقَى)، وكذلكَ (عِهْ) و (فِهْ) فعلُ أمرٍ من الفعلِ الماضِي (وَعَى) و (وَفَى).

التاسعُ: أنَّهُ لا يَسُوغُ ولا يَحْسُنُ في الدعاءِ أنْ يَقُولَ العبدُ: اللهُمَّ أُمَّنِي بكذا. بلْ هذا مُسْتكْرَهُ اللَّفْظِ والمَعْنَى؛ فإنَّهُ لا يُقَالُ: اقْصِدْنِي بكذا إلاَّ لِمَنْ كَانَ يعرِضُ لهُ الغلطُ والنسيانُ، فيقولُ لهُ: اقْصِدْنِي، وَأَمَّا مَنْ كانَ لا يَفْعَلُ إلاَّ بِإِرَادَتِهِ وَلا يَضِلُّ ولا يَنْسَى فلا يُقَالُ لهُ: اقْصِدْ كذَا.

العاشرُ: أنَّهُ يَسُوغُ استعمالُ هذا اللفظِ في موضعٍ لا يكونُ بَعْدَهُ دعاءٌ كقولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدُّعَاءِ: «**اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ وَإِلَيْكَ الْمُشْتَكَى، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ، وَبِكَ الْمُسْتَغَاثُ، وَعَلَيْكَ التُّكْلانُ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ بِكَ**»[1]. وَقَوْلِهِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلائِكَتَكَ وَجَمِيعَ خَلْقِكَ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ وَحْدَكَ لا شَرِيكَ لَكَ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ**»[2]. وقولِهِ تعالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ الآيَةَ [آل عمران: ٢٦]. وقولِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٤٦﴾ [الزمر: ٤٦] وقولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رُكُوعِهِ وسجودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**»[3] فهذا كُلُّهُ لا يَسُوغُ فيهِ التقديرُ الذي ذَكَرُوهُ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) رواهُ الطَّبَرَانِيُّ في الأوسطِ (٤/ ٢٣٣) الحديثُ (٣٤١٨) من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه، وليس فيه قولُه: «**بِكَ الْمُستغاثُ وعَلَيْكَ التُّكْلانُ**».

(٢) رواهُ التِّرْمذِيُّ في كتابِ الدَّعَوَاتِ / بابُ (٧٩) الحديثُ (٣٥٠١) وأبو داودَ في كتابِ الأدبِ/ بابُ ما يقولُ إذا أصبحَ (٥٠٦٨) والنَّسَائِيُّ في كتابِ عملِ اليومِ والليلةِ / بابُ ذكرِ ما كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ يقولُه إذا أصبحَ، من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه، وفيه بَقِيَّةُ بنُ الوليدِ وقد عَنْعَنَ.

(٣) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٢٣٧٠٣) والبُخَارِيُّ في كتابِ الأذانِ / بابُ الدعاءِ في الركوعِ (٧٩٤) ومسلمٌ في كتابِ الصلاةِ / بابُ ما يُقالُ في الركوعِ والسجودِ (١٠٨٥) والنَّسَائِيُّ في كتابِ التطبيقِ / بابُ نوعٍ آخَرَ من الذِّكرِ في الركوعِ (١٠٤٦) وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ / بابُ الدعاءِ في الركوعِ والسجودِ (٨٧٠) وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ إقامةِ الصلاةِ / بابُ التسبيحِ في الركوعِ والسجودِ (٨٨٩).

وقيلَ: زِيدَت المِيمُ للتَّعْظِيمِ والتَّفْخِيمِ، كَزِيَادَتِهَا في «زُرْقُم» لشديدِ الزُّرْقَةِ «وابْنُم» في الابنِ.

وهذا القولُ صحيحٌ مُمْكِنٌ يَحْتَاجُ إلى تَتِمَّةٍ، وقائلُهُ لَحَظَ معنًى صحيحاً لا بُدَّ منْ بيانِهِ؛ **وهوَ أنَّ الميمَ تَدُلُّ على الجمعِ وَتَقْتَضِيه**، وَمَخْرَجُهَا اقْتَضَى ذَلِكَ، وهذا مُطَّرِدٌ على أصلِ مَنْ أَثْبَتَ المُنَاسَبَةَ بينَ اللفظِ والمعنَى، كما هوَ مذهبُ أَسَاطِينِ العَرَبِيَّةِ، وَعَقَدَ لَهُ أَبُو الفَتْحِ بنُ جِنِّي باباً في الخصائصِ، وَذَكَرَهُ عنْ سِيبَوَيْهِ، وَاسْتَدَلَّ عليهِ بأنواعٍ منْ تَنَاسُبِ اللفظِ والمعنى، ثُمَّ قَالَ: وَلَقَدْ مَكَثْتُ بُرْهَةً يَرِدُ عليَّ اللَّفْظُ لا أَعْلَمُ مَوْضُوعَهُ، وآخُذُ مَعْنَاهُ مِنْ قُوَّةِ لفظِهِ، ومناسبةِ تلكَ الحروفِ لذلكَ المعنَى، ثُمَّ أَكْشِفُ فَأَجِدُهُ كَمَا فَهِمْتُهُ أَوْ قَرِيباً مِنْهُ. فَحَكَيْتُ لِشَيْخِ الإسلامِ هذا عن ابنِ جِنِّي فقالَ: وَأَنَا كَثِيراً ما يَجْرِي لِي ذَلِكَ.

ثُمَّ ذَكَرَ لِي فَصْلاً عَظِيمَ النفعِ في التناسبِ بينَ اللفظِ والمعنَى ومناسبةِ الحركاتِ لِمَعْنَى اللفظِ، وأنَّهُم في الغالبِ يَجْعَلُونَ الضمَّةَ التي هيَ أَقْوَى الحركاتِ لِلْمَعْنَى الأَقْوَى، والفتحةَ خفيفةً لِلْمَعْنَى الخَفِيفِ، والمتوسطةَ للمتوسطِ؛ فيقولونَ: «عَزَّ يَعَـزُّ» بِفَتْحِ العينِ، إذا صَلُبَ، «وَأَرْضٌ عَزَازٌ»: صَلْبَةٌ.

ويقولونَ: «عَزَّ يَعِزُّ» بِكَسْرِهَا إذا امْتَنَعَ، والمُمْتَنِعُ فوقَ الصُّلبِ، فقدْ يَكُونُ الشيءُ صُلْباً ولا يَمْتَنِعُ على كاسرِهِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: «عَزَّهُ يَعُـزُّهُ» إذا غَلَبَهُ، قالَ اللهُ تَعَالَى في قِصَّةِ دَاوُدَ: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [ص: ٢٣] والغَلَبَةُ أَقْوَى من الامتناعِ؛ إذْ قدْ يَكُونُ الشيءُ مُمْتَنِعاً في نفسِهِ مُتَحَصِّناً عنْ عَدُوِّهِ، ولا يَغْلِبُ غَيْرَهُ.

فالغالبُ أَقْوَى من المُمْتَنِعِ؛ فَأَعْطَوْهُ أَقْوَى الحَرَكَاتِ، وَالصُّلْبُ أَضْعَفُ مِن المُمْتَنِعِ فَأَعْطَوْهُ أَضْعَفَ الحَرَكَاتِ، وَالمُمْتَنِعُ المُتَوَسِّطُ بَيْنَ المَرْتَبَتَيْنِ فَأَعْطَوْهُ حَرَكَةَ الوَسَطِ.

وَنَظِيرُ هذا قَوْلُهُم: «ذِبْحٌ» بكسرِ أَوَّلِهِ لِلْمَحَلِّ المَذْبُوحِ، و«ذَبْحٌ» بفتحِهِ لنفسِ الفعلِ، ولا رَيْبَ أنَّ الجسمَ أَقْوَى من العَرَضِ، فَأَعْطَوا الحَرَكَةَ القَوِيَّةَ للقَوِيِّ، والضعيفةَ للضعيفِ، وهوَ مِثْلُ قَوْلِهِم: «نِهْبٌ» و«نَهْبٌ» بالكسرِ للمنهوبِ وبالفتحِ للفعلِ، وكقولِهِم: «مِلْءٌ» و«مَلْءٌ» بالكسرِ لِمَا يَمْلأُ الشَّيْءَ، وبالفَتْحِ للمَصْدَرِ الذي هوَ الفِعْلُ، وكقولِهِم: «حِمْلٌ» و«حَمْلٌ» فبالكسرِ لِمَا كَانَ قَوِيًّا مُثْقِلاً لحاملِهِ على ظهرِهِ أوْ رَأْسِهِ أَوْ غَيْرِهِمَا منْ أَعْضَائِهِ، والحَمْلُ بالفتحِ لِمَا كَانَ خَفِيفاً غَيْرَ مُثْقِلٍ لِحَامِلِهِ كَحَمْلِ الحيوانِ، وَحَمْلُ الشجرةِ بِهِ أَشْبَهُ فَفَتَحُوهُ.

وتَأَمَّلْ هذا في «الحِبِّ» و«الحُبِّ»، فَجَعَلُوا المَكْسُورَ الأَوَّلَ لِنَفْسِ المحبوبِ، ومضمومَهُ للمصدرِ؛ إِيذَاناً بِخِفَّةِ المحبوبِ على قلوبِهِم ولُطْفِ موقعِهِ منْ أنفسِهِم وحلاوتِهِ عندَهُم، وثِقَلِ حَمْلِ الحُبِّ وَلُزُومِهِ كما يُلْزِمُ الغَرِيمُ غَرِيمَهُ، ولهذا يُسَمَّى غُرْماً، ولهذا كَثُرَ وَصْفُهُم لِتَحَمُّلِهِ بالشدَّةِ والصعوبةِ، وَإِخْبَارُهُم بِأَنَّ أعظمَ المخلوقاتِ وَأَشَدَّهَا من الصخرِ والحديدِ ونحوِهِمَا لوْ حَمَلَهُ لَذَابَ منْ حملِهِ ولمْ يَسْتَقِلَّ بِهِ كما هوَ كثيرٌ في أشعارِ المُتَقَدِّمِينَ والمُتَأَخِّرِينَ وَكَلامِهِم، فكانَ الأحسنُ أنْ يُعْطُوا المصدرَ هنا الحركةَ القويَّةَ، والمحبوبَ الحركةَ التي هيَ أَخَفُّ مِنْهَا.

ومِنْ هذا قولُهُم: «قَبْضٌ» بسكونِ وسطِهِ للفعلِ، و«قَبَضٌ» بِتَحْرِيكِهِ للمقبوضِ، والحركةُ أَقْوَى من السكونِ. والمقبوضُ أَقْوَى من المصدرِ، ونَظِيرُهُ «سَبْقٌ» بالسكونِ للفعلِ، و«سَبَقٌ» بالفتحِ للمالِ المأخوذِ في هذا العقدِ.

وتَأَمَّلْ قَوْلَهُم: «دَارَ دَوَرَاناً، وَفَارَت القِدْرُ فَوَرَاناً، وَغَلَتْ غَلَيَاناً» كَيْفَ تَابَعُوا بينَ الحركاتِ في هذهِ المصادرِ لِتَتَابُعِ حَرَكَةِ المُسَمَّى، فَطَابَقَ اللَّفْظُ المَعْنَى.

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُم: «حَجَرٌ، وَهَوَاءٌ» كيفَ وَضَعُوا للمَعْنَى الثَّقِيلِ الشديدِ هذهِ الحروفَ الشديدةَ، وَوَضَعُوا للمعنَى الخَفِيفِ هذهِ الحروفَ الهوائيَّةَ التي هيَ منْ أَخَفِّ الحُرُوفِ.

وهذا أَكْثَرُ منْ أَنْ يُحاطَ بِهِ، وإنْ مَدَّ اللهُ فِي العُمُرِ وَضَعْتُ فيهِ كِتاباً مُسْتَقِلاًّ إنْ شاءَ اللهُ تَعَالَى.

ومثلُ هذهِ المعانِي تَسْتَدْعِي لَطَافَةَ ذِهْنٍ وَرِقَّةَ طَبْعٍ، ولا تَتَأَتَّى مع غِلَظِ القلوبِ، والرِّضَى بأوائلِ مسائلِ النحوِ والتصريفِ دونَ تَأَمُّلِهَا وتَدَبُّرِهَا، والنظرِ إلى حكمةِ الواضعِ، ومطالعةِ ما في هذهِ اللغةِ الباهرةِ من الأسرارِ التي تَدِقُّ على أكثرِ العقولِ.

وهذا بابٌ يُنَبِّهُ الفاضلَ على ما وَرَاءَهُ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

وانْظُرْ إلى تَسْمِيَتِهِم الغَلِيظَ الجافِيَ بِـ «العُتُلِّ» وَ«الجَعْظَرِيِّ» وَ«الجَوَّاظِ»!! كَيْفَ تَجِدُ هذهِ الألفاظَ تُنَادِي عَلَى ما تَحْتَهَا من المعانِي؟!!

وانْظُرْ إلى تَسْمِيَتِهِم الطويلَ «بالعَشَنَّقِ»!! وتَأَمَّل اقْتِضَاءَ هَذِهِ الحُرُوفِ وَمُنَاسَبَتَهَا لِمَعْنَى الطويلِ، وَتَسْمِيَتِهِم القصيرَ «بالبُحْتُرِ» وَمُوَالاتِهِم منْ بينِ ثلاثِ فَتَحاتٍ في اسمِ الطويلِ، وهوَ «العَشَنَّقُ»، وإتْيَانِهِم بِضَمَّتَيْنِ بَيْنَهُمَا سُكُونٌ في «البُحْتُرِ»، كَيْفَ يَقْتَضِي اللفظُ الأوَّلُ انْفِتَاحَ الفمِ وَانْفِرَاجَ آلاتِ النطقِ وامْتِدَادَهَا، وعَدَمَ رُكُوبِ بَعْضِهَا بَعْضاً، وفي اسمِ «البُحْتُرِ» الأَمْرُ بالضِّدِّ.

وتَأَمَّلْ قَوْلَهُم: «طَالَ الشيءُ فَهُوَ طَوِيلٌ، وكَبُرَ فَهُوَ كَبِيرٌ»، فإنْ زادَ طولُهُ قالُوا: «طُوَالاً وكُبَاراً»، فَأَتَوْا بالألفِ التي هيَ أكثرُ مَدًّا وأطولُ من الياءِ في المعنَى الأطولِ، فإنْ زادَ كِبَرُ الشيءِ وثِقَلُ موقعِهِ من النفوسِ ثَقَّلُوا اسْمَهُ فَقَالُوا «كُبَّاراً» بِشَدِّ الباءِ.

ولوْ أَطْلَقْنَا عِنَانَ القَلَمِ في ذلكَ لطالَ مداهُ، وَاسْتَعْصَى على الضبطِ، فَلْنَرْجِعْ إلى ما جَرَى الكلامُ بِسَبَبِهِ؛ فنقولُ: المِيمُ حَرْفٌ شَفَهِيٌّ يَجْمَعُ الناطِقُ بِهِ شَفَتَيْهِ، فَوَضَعَتْهُ العَرَبُ عَلَماً عَلَى الجَمْعِ، فقالُوا للوَاحِدِ: «أَنْتَ» فإذا جاوَزَهُ إلَى الجَمْعِ

قالُوا: «أَنْتُمْ»، وَقَالُوا للواحِدِ الغائبِ: «هوَ»، فإذا جَاوَزُوهُ إِلَى الجَمْعِ قالُوا: «همْ»، وكذلكَ في المُتَّصِلِ يَقُولُونَ: «ضَرَبْتَ، وَضَرَبْتُمْ، وَإِيَّاكَ، وَإِيَّاكُمْ، وَإِيَّاهُ، وَإِيَّاهُمْ»، وَنَظَائِرُهُ نَحْوُ: «بهِ وبِهِم»، ويقولونَ للشيءِ الأزرقِ: «أَزْرَقُ»، فإذا اشْتَدَّتْ زُرْقَتُهُ وَاجْتَمَعَتْ وَاسْتَحْكَمَتْ قَالُوا: «زُرْقُمٌ»، وَيَقُولُونَ للكبيرِ الاسْتِ «سُتْهُمٌ».

وتَأَمَّل الألفاظَ التي فيها الميمُ كَيْفَ تَجِدُ الجَمْعَ مَعْقُوداً بها:

- مثلَ: «لَمَّ الشَّيءَ يَلُمُّهُ» إِذَا جَمَعَهُ.
- ومنهُ: «لَمَّ اللهُ شَعَثَهُ» أيْ: جَمَعَ مَا تفرَّقَ مِنْ أُمُورِهِ.
- ومنهُ قولُهم: «دَارٌ لَمُومَةٌ» أيْ: تَلُمُّ الناسَ وَتَجْمَعُهُم.
- ومنهُ: «الأكلُ اللَّمُّ» جاءَ في تَفْسِيرِهَا يَأْكُلُ نَصِيبَهُ وَنَصِيبَ صَاحِبِهِ، وَأَصْلُهُ مِن «اللَّمِّ» وَهُوَ الجَمْعُ كما يُقَالُ: لَفَّهُ يَلُفُّهُ.
- ومنهُ: «أَلَمَّ بالشَّيْءِ» إذا قَارَبَ الاجْتِمَاعَ بِهِ والوصولَ به.
- ومنهُ: «اللَّمَمُ» وهوَ مُقَارَبَةُ الاجْتِمَاعِ بالكبائِرِ.
- ومنهُ: «اللَّمَّةُ» وهِيَ النازلةُ التي تُصِيبُ العبدَ.
- ومنهُ: «اللِّمَّةُ» وهي الشَّعْرُ الذي قَد اجْتَمَعَ وَتَقَلَّصَ حَتَّى جَاوَزَ شَحْمَةَ الأُذُنِ.
- وَمنهُ: «لَمَّ الشَّيْءَ» وَمَا تَصَرَّفَ مِنْهَا.
- ومنهُ: «بَدْرُ التِّمِّ» إذا كَمُلَ وَاجْتَمَعَ نُورُهُ.
- ومنهُ: «التَّوْأَمُ» للوَلَدَيْنِ المُجْتَمِعَيْنِ فِي بَطْنٍ.
- ومنهُ: «الأُمُّ»، وأمُّ الشَّيْءِ أَصْلُهُ الذي تَفَرَّعَ منهُ، فهوَ الجامعُ لهُ، وبهِ سُمِّيَتْ مَكَّةُ أُمَّ القُرَى، والفاتحةُ أُمَّ القرآنِ، واللَّوْحُ المحفوظُ أُمَّ الكِتَابِ؛ قالَ الجَوْهَرِيُّ:

أُمُّ الشيءِ: أَصْلُهُ، وَمَكَّةُ أُمُّ القُرَى، وأُمُّ مَثْوَاكَ: صَاحِبَةُ مَنْزِلِكَ، يَعْنِي: الَّتِي تَأْوِي إِلَيْهَا وَتَجْتَمِعُ مَعَهَا، وأُمُّ الدِّماغِ: الجلدةُ التي تَجْمَعُ الدماغَ، وَيُقَالُ لها: أُمُّ الرأسِ، وقولُهُ تعالَى في الآياتِ المُحْكَمَاتِ: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

- و«الأُمَّةُ»: الجماعةُ المُتَساوِيَةُ في الخِلْقةِ أو الزمانِ، قالَ تَعالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْلا أَنَّ الْكِلابَ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ لأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا».(١)

- ومنهُ: «الإمامُ» الذي يَجْتَمِعُ المُقْتَدُونَ بِهِ على اتِّبَاعِهِ.

- ومنهُ: «أَمَّ الشيءَ يَؤُمُّهُ» إذا جَمَعَ قَصْدَهُ وَهَمَّهُ إِلَيْهِ.

- ومنهُ: «رَمَّ الشَّيْءَ يَرُمُّهُ» إِذَا أَصْلَحَهُ وَجَمَعَ مُتَفَرِّقَهُ. قِيلَ: وَمِنْهُ سُمِّيَ «الرُّمَّانُ» لاجْتِمَاعِ حَبِّهِ وَتَضَامِّهِ.

- وَمِنْهُ: «ضَمَّ الشَّيءَ يَضُمُّهُ» إذا جَمَعَهُ.

- ومنهُ «هَمُّ الإنسانِ وَهُمُومُهُ»، وهِيَ إِرَادَتُهُ وَعَزَائِمُهُ التي تَجْتَمِعُ في قَلْبِهِ.

- ومِنْهُ قَوْلُهم للأَسْوَدِ: «أَحَمُّ»، وَالفَحْمَةِ السَّوْدَاءِ: «حُمَمَةٌ». و«حَمَّمَ رَأْسُهُ» إذا اسْوَدَّ بعدَ حَلْقِهِ كُلِّهِ؛ هذا لأنَّ السوادَ لَوْنٌ جامعٌ للبصرِ لا يَدَعُهُ يَتَفَرَّقُ. ولهذا يُجْعَلُ على عَيْنَي الضَّعيفِ البصرِ لِوَجعٍ أوْ غيرِهِ شيءٌ أَسْوَدُ منْ شعرٍ أَوْ خِرْقَةٍ لِيَجْمَعَ عَلَيْهِ بَصَرَهُ فَتَقْوَى القُوَّةُ البَاصِرَةُ.

وهذا بابٌ طويلٌ فَلْنَقْتَصِرْ مِنْهُ على هذا القدرِ.

---

(١) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٢٠٠٣٩) وأبو داودَ في كتابِ الصيدِ / بابٌ في اتخاذِ الكَلْبِ للصَّيْدِ وغيرِهِ (٢٨٤٢) والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الصيد / بابُ ما جاءَ في قتلِ الكلابِ (١٤٨٦) والنَّسَائِيُّ في كتابِ الصيدِ والذبائحِ / بابُ صِفةِ الكِلابِ التي أُمِرَ بقَتْلِهَا (٤٢٩١) وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ الصيدِ / بابُ النهيِ عن اقتناءِ الكَلْبِ إلا كَلْبَ صَيْدٍ أو حرثٍ أو ماشيةٍ (٣٢٠٥) كلُّهُم من حديثِ الحسنِ البَصْرِيِّ، عن عبدِ اللهِ بنِ مُغَفَّلٍ المُزَنِيِّ رضيَ اللهُ عنه مرفوعًا.

وإذا عُلِمَ هذا منْ شأنِ الميم فهُم أَلْحَقُوهَا في آخرِ هذا الاسمِ الذي يُسْأَلُ بِهِ اللهُ سُبْحَانَهُ في كلِّ حاجةٍ وكلِّ حالٍ إيذاناً بجَمِيعِ أسمائِهِ وصفاتِهِ.

فإذا قالَ السائلُ: «اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ» كَأَنَّهُ قالَ: أَدْعُو اللهَ الذي لَهُ الأسماءُ الحسنَى والصِّفَاتُ العُلَى بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَأَتَى بالميمِ المُؤْذِنَةِ بالجمعِ في آخرِ هذا الاسمِ إيذاناً بسؤالِهِ تعالَى بِأَسْمَائِهِ كُلِّهَا، كما قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديثِ الصحيح: «مَا أَصَابَ عَبْداً قَطُّ هَمٌّ وَلا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلاءَ حَزَنِي، وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي إِلاَّ أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحاً». قالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلا نَتَعَلَّمُهُنَّ؟ قَالَ: «بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ»[1].

فَالدَّاعِي مندوبٌ إلى أنْ يسألَ اللهَ تعالَى بأسمائِهِ وصفاتِهِ كما في الاسمِ الأعظمِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الحَمْدَ، لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ الحَنَّانُ المَنَّانُ، بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، يَا ذَا الجَلالِ وَالإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ»[2].

وهذهِ الكلماتُ تَتَضَمَّنُ الأسماءَ الحُسْنَى كَمَا ذُكِرَ في غيرِ هذا الموضعِ.

والدعاءُ ثلاثةُ أقسامٍ:

أحدُهَا: أنْ تَسْأَلَ اللهَ تعالَى بأسمائِهِ وصفاتِهِ. وهذا أحدُ التَّأْوِيلَيْنِ في قولِهِ تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه صفحة ١١١.

(٢) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ١٢٥.

والثاني: أنْ تَسْأَلَهُ بِحاجَتِكَ وَفَقْرِكَ وَذُلِّكَ فتقولُ: أَنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ الْمِسْكِينُ الْبَائِسُ الذَّلِيلُ الْمُسْتَجِيرُ. وَنَحْوَ ذَلِكَ.

والثالثُ: أنْ تَسْأَلَ حَاجَتَكَ وَلا تَذْكُرَ وَاحِداً من الأَمْرَيْنِ.

فالأَوَّلُ أكملُ من الثاني، والثاني أَكْمَلُ من الثالثِ؛ فإذا جَمَعَ الدعاءُ الأمورَ الثلاثةَ كانَ أَكْمَلَ، وهذهِ عامَّةُ أَدْعِيَةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي الدعاءِ الذي عَلَّمَهُ صِدِّيقَ الأُمَّةِ[1] ذَكَرَ الأقسامَ الثلاثةَ، فإنَّهُ قالَ في أوَّلِهِ: «**ظَلَمْتُ نَفْسِي كَثِيراً**» وهذا حالُ السائلِ، ثُمَّ قالَ: «**وَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أَنْتَ**» وهذا حالُ المسئولِ، ثُمَّ قالَ: «**فَاغْفِرْ لِي**» فَذَكَرَ حَاجَتَهُ، وَخَتَمَ الدُّعاءَ بِاسْمَيْنِ مِن الأسماءِ الحُسْنَى تُنَاسِبُ المَطْلُوبَ وَتَقْتَضِيهِ.

وهذا القولُ الذي اخْتَرْنَاهُ قَدْ جَاءَ عنْ غيرِ واحدٍ من السلفِ:

قال الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: (اللَّهُمَّ: مجْمَعُ الدعاءِ).

وقالَ أبو رَجَاءٍ العُطَارِدِيُّ: (إنَّ الميمَ في قولِهِ: «اللَّهُمَّ» فيها تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسماً منْ أسماءِ اللهِ تَعَالَى).

وقالَ النَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ: مَنْ قالَ: «**اللَّهُمَّ**» فقدْ دَعَا اللهَ بِجَمِيعِ أسمائِهِ.

وقدْ وَجَّهَ طائفةٌ هذا القولَ بأنَّ الميمَ هنا بِمَنْـزِلَةِ الواوِ الدالَّةِ على الجمعِ؛ فإنَّهَا مِنْ مَخْرَجِهَا، فكأنَّ الداعيَ بِهَا يَقُولُ: يا اللهُ الذي اجْتَمَعَتْ لهُ الأسماءُ الحسنى والصِّفَاتُ العُلْيَا، ولذلكَ شُدِّدَتْ لِتَكُونَ عِوَضاً عنْ علامةِ الجمعِ، وهيَ الواوُ والنونُ في «مسلمونَ» ونحوِهِ.

وعلى الطريقةِ التي ذَكَرْنَاهَا أَنَّ نفسَ الميمِ دالَّةٌ على الجمعِ لا يَحْتَاجُ إلى هذا.

يَبْقَى أنْ يُقَالَ: فَهَلاَّ جَمَعُوا بَيْنَ «يا» وَبَيْنَ هذهِ الميمِ على المذهبِ الصحيحِ؟

---

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٣١٤.

فالجوابُ: أنَّ القياسَ يَقْتَضِي عَدَمَ دخولِ حرفِ النداءِ على هذا الاسمِ لمكانِ الألفِ واللامِ منهُ، وإنَّما احْتَمَلُوا ذلكَ فيهِ لكثرةِ استعمالِهِم دُعَاءَهُ واضطرارِهِم إليهِ، واستغاثَتِهِم بهِ؛ فإمَّا أنْ يَحْذِفُوا الألفَ واللامَ منهُ، وذلكَ لا يَسُوغُ لِلُزُومِهِمَا لَهُ، وإمَا أنْ يَتَوَصَّلُوا إليهِ بـ «أيّ» وذلكَ لا يَسُوغُ؛ لأنَّهَا لا يُتَوَصَّلُ بها إلاَّ إلى نداءِ اسمِ الجنسِ المُحَلَّى بالألفِ واللامِ، كالرجلِ والرسولِ والنبيِّ، وأمَّا في الأعلامِ فَلا.

فَخَالَفُوا قِيَاسَهُم في هذا الاسمِ لمكانِ الحاجةِ، فلمَّا أَدْخَلُوا الميمَ المُشَدَّدَةَ في آخرِهِ عِوَضاً عنْ جميعِ الاسمِ جَعَلُوهَا عِوَضاً عنْ حرفِ النداءِ،فلم يَجْمَعُوا بَيْنَهُمَا،واللهُ أعلمُ).[1]

الرَّبُّ:

(«الربُّ» هوَ السيِّدُ والمالِكُ والمُنْعِمُ والمُرَبِّي والمُصْلِحُ، واللهُ تَعَالَى هوَ الربُّ بهذِهِ الاعتباراتِ كُلِّهَا).[2]

(«[فهوَ الذي يُرَبِّي عَبْدَهُ، فَيُعْطِيهِ خَلْقَهُ، ثُمَّ يَهْدِيهِ إلى مَصَالِحِهِ)[3]، ([وَ] هُوَ القادرُ الخالقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ الحيُّ القيُّومُ العَلِيمُ السَّمِيعُ البصيرُ المُحْسِنُ المُنْعِمُ الجَوَادُ المُعْطِي المَانِعُ، الضَّارُّ النافِعُ، المُقَدِّمُ المُؤَخِّرُ، الذي يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُسْعِدُ مَنْ يشاءُ وَيُشْقِي مَنْ يشاءُ، ويُعِزُّ مَنْ يشاءُ ويُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، إلى غيرِ ذلكَ منْ معانِي رُبُوبِيَّتِهِ التي لهُ منها ما يَسْتَحِقُّهُ من الأسماءِ الحُسْنَى).[4]

---

(١) جلاءُ الأفهامِ (٦٨-٧٦).

(٢) بَدائِعُ الفوائِدِ (٤/ ١٣٢).

(٣) إغاثةُ اللهفانِ (١/ ٤٤).

(٤) بَدائِعُ الفوائِدِ (٢/ ٢٤٩).

(فاسْمُ «الرَّبِّ» لَهُ الجَمْعُ الجامِعُ لجميعِ المخلوقاتِ. فهوَ ربُّ كلِّ شيءٍ وخالقُهُ، والقادرُ عليهِ، لا يَخْرُجُ شيءٌ عنْ رُبُوبِيَّتِهِ، وكلُّ مَنْ في السَّماواتِ والأرضِ عَبْدٌ لهُ في قَبْضَتِهِ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ. فَاجْتَمَعُوا بِصِفَةِ الربوبيَّةِ، وَافْتَرَقُوا بِصِفَةِ الإلهيَّةِ، فَأَلَّهَهُ وَحْدَهُ السعداءُ، وَأَقَرُّوا لهُ طَوْعاً بِأَنَّهُ اللهُ الذي لا إِلَهَ إلاَّ هوَ، الذي لا تَنْبَغِي العبادةُ والتَّوَكُّلُ، والرجاءُ والخوفُ، والحبُّ والإنابةُ والإخباتُ والخشيَةُ، والتَّذَلُّلُ والخضوعُ؛ إلاَّ لَهُ).[1]

(لأنَّهُ إذا كانَ [هوَ] رَبَّنَا الذي يُرَبِّينَا بِنِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ، وهوَ مالِكُ ذَوَاتِنَا وَرِقَابِنَا وَأَنْفُسِنَا. وكلُّ ذرَّةٍ من العبدِ فَمَمْلُوكَةٌ لهُ مِلْكاً خَالِصاً حَقِيقِيًّا، وقدْ رَبَّاهُ بِإِحْسَانِهِ إِلَيْهِ وَإِنْعَامِهِ عَلَيْهِ، فَعِبَادَتُهُ لهُ وشكرُهُ إِيَّاهُ واجِبٌ عليهِ، ولهذا قالَ: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] ولم يَقُلْ: إِلَهَكُمْ ...

فَلا شَيْءَ أَوْجَبُ في العقولِ والفِطَرِ مِنْ عبادةِ مَنْ هذا شأْنُهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ)[2]، فلا إِلَهَ إلاَّ هوَ، ولا رَبَّ إلاَّ هوَ، فَكَمَا أَنَّ رُبُوبِيَّةَ ما سِوَاهُ أَبْطَلُ البَاطِلِ، فكذلكَ إِلَهِيَّةُ ما سِوَاهُ).[3]

المَلِكُ:

([و]مِنْ أسمائِهِ: «المَلِكُ»، ومَعْنَى المُلْكِ الحَقِيقِيِّ ثَابِتٌ لهُ سبحانَهُ بكلِّ وَجْهٍ)[4]؛ (فهوَ الآمِرُ الناهِي المُعِزُّ المُذِلُّ، الذي يُصَرِّفُ أُمُورَ عبادِهِ كما يُحِبُّ وَيُقَلِّبُهُمْ كما يَشَاءُ. ولَهُ مِنْ مَعْنَى المُلْكِ ما يَسْتَحِقُّهُ من الأسماءِ الحُسْنَى: كالعزيزِ الجَبَّارِ

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٨).

(٢) بَدائِعُ الفوائِدِ (٤/ ١٣٢).

(٣) إغاثةُ اللهفانِ (١/ ٤٤).

(٤) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٥٢).

المُتَكَبِّرِ، الحَكَمِ العَدْلِ، الخافِضِ الرافعِ، المُعِزِّ المُذِلِّ، العظيمِ، الجليلِ، الكبيرِ، الحسيبِ، المَجيدِ، الوَالِي، المُتَعَالِي، مَالِكِ المُلْكِ، المُقْسِطِ، الجامِعِ، إلى غيرِ ذلكَ من الأسماءِ العائدةِ إلى المُلْكِ). (١)

([فـ]هذهِ الصفةُ تَسْتَلْزِمُ سائرَ صفاتِ الكمالِ؛ إذْ مِن المُحَالِ ثُبُوتُ المُلْكِ الحقيقيِّ التامِّ لِمَنْ ليسَ لهُ حياةٌ ولا قدرةٌ ولا إرادةٌ ولا سمعٌ ولا بصرٌ ولا كلامٌ ولا فعلٌ اختياريٌّ يَقُومُ بهِ.

وكيفَ يُوصَفُ بالمُلْكِ مَنْ لا يَأْمُرُ ولا يَنْهى، ولا يُثِيبُ ولا يُعاقِبُ، ولا يُعْطِي ولا يَمْنَعُ، ولا يُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيُهِينُ وَيُكْرِمُ، وَيُنْعِمُ وَيَنْتَقِمُ، وَيَخْفِضُ وَيَرْفَعُ، وَيُرْسِلُ الرُّسُلَ إلى أقطارِ مَمْلَكَتِهِ، وَيَتَقَدَّمُ إلى عَبِيدِهِ بأوامرِهِ ونَوَاهِيهِ. فأيُّ مُلْكٍ في الحقيقةِ لِمَنْ عَدِمَ ذلكَ؟!!.

وهذا يُبَيِّنُ أنَّ المُعَطِّلِينَ لأسمائِهِ وصفاتِهِ جعَلُوا مَمَالِيكَهُ أكْمَلَ منهُ، وَيأْنَفُ أحدُهُم أنْ يُقَالَ في أميرِهِ ومَلِكِهِ مَا يَقُولُهُ هوَ في ربِّهِ، فَصِفَةُ مِلْكِيَّةِ الحقِّ مُسْتَلْزِمَةٌ لوجودِ ما لا يَتِمُّ التصرُّفُ إلاَّ بهِ، والكلُّ مِنْهُ سُبْحانَهُ، فَلَمْ يَتَوَقَّفْ كَمالُ مُلْكِهِ عَلَى غَيْرِهِ، فإنَّ كلَّ ما سِوَاهُ مُسْنَدٌ إليهِ، وَمُتَوَقِّفٌ في وجودِهِ على مَشِيئَتِهِ وَخَلْقِهِ). (٢)

(فـ...حَقِيقَةُ المُلْكِ إنَّما تَتِمُّ بالعطاءِ والمَنْعِ والإكراهِ والإهانةِ والإثابةِ والعقوبةِ والغَضَبِ والرِّضَى وَالتَّوْلِيَةِ والعَزْلِ، وَإعْزَازِ مَنْ يَلِيقُ بهِ العزُّ وإذْلالِ مَنْ يَلِيقُ بهِ الذُّلُّ.

---

(١) بَدَائِعُ الفوائدِ (٢/ ٢٤٩).

وقال رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في مَدارجِ السَّالكِينَ (٣/ ٣٣٤): (واسمُهُ (المَلِكُ) يدلُّ على ما يستلزمُ حقيقةَ مُلكِهِ: من قُدرتِه، وتدبيرِه، وعطائِه ومنعِه، وثوابِه وعقابِه، وبثِّ رُسلِه في أقطارِ مَملكَتِه، وإعلامِ عبيدِه بمراسيمِه وعهودِه إليهِم، واستوائِه على سريرِ مَملكَتِه الذي هو عَرشُه المَجيدُ).

(٢) شِفاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٥٢).

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩].

يَغْفِرُ ذَنْباً، وَيُفَرِّجُ كَرْباً، وَيَكْشِفُ غَمّاً، وَيَنْصُرُ مَظْلُوماً، وَيَأْخُذُ ظَالِماً، وَيَفُكُّ عَانِياً، وَيُغْنِي فَقِيراً، وَيَجْبُرُ كَسِيراً، وَيَشْفِي مَرِيضاً، وَيُقِيلُ عَثْرَةً، وَيَسْتُرُ عَوْرَةً، وَيُعِزُّ ذَلِيلاً، وَيُذِلُّ عَزِيزاً، وَيُعْطِي سَائِلاً، وَيَذْهَبُ بِدَوْلَةٍ وَيَأْتِي بِأُخْرَى، وَيُدَاوِلُ الأيامَ بينَ الناسِ، وَيَرْفَعُ أَقْوَاماً وَيَضَعُ آخَرِينَ، يَسُوقُ المقاديرَ التي قَدَّرَهَا قَبْلَ خلقِ السَّماواتِ والأرضِ بخمسينَ ألفَ عَامٍ إِلَى مَوَاقِيتِهَا، فلا يَتَقَدَّمُ شيءٌ منها عنْ وقتِهِ ولا يَتَأَخَّرُ، بَلْ كلٌّ مِنْهَا قدْ أَحْصَاهُ كما أَحْصَاهُ كِتَابُهُ، وَجَرَى بِهِ قَلَمُهُ، وَنَفَذَ فيهِ حكمُهُ، وَسَبَقَ بِهِ عِلْمُهُ، فهوَ المُتَصَرِّفُ في المَمَالِكِ كُلِّهَا وَحْدَهُ تَصَرُّفَ مَلِكٍ قَادِرٍ قَاهِرٍ عَادِلٍ رَحِيمٍ، تَامِّ المُلْكِ، لا يُنَازِعُهُ في مُلْكِهِ مُنَازِعٌ، أَوْ يُعَارِضُهُ فيهِ مُعَارِضٌ، فَتَصَرُّفُهُ في المملكةِ دَائِرٌ بينَ العدلِ والإحسانِ والحكمةِ والمصلحةِ والرحمةِ، فلا يَخْرُجُ تَصَرُّفُهُ عنْ ذلكَ.

وفي تَفْسِيرِ الحافظِ أبي بكرٍ أحمدَ بنِ مُوسَى بنِ مَرْدَوَيْهِ منْ حديثِ الحِمَّانِيِّ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عنْ مُعَاوِيَةَ بنِ يَحْيَى، عنْ يُونُسَ بنِ مَيْسَرَةَ، عنْ أبي إِدْرِيسَ، عنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، أَنَّهُ سُئِلَ عنْ قولِهِ تعالَى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩] فقالَ: سُئِلَ عنها رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالَ: «مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْباً، وَيُفَرِّجَ كَرْباً، وَيَرْفَعَ قَوْماً، وَيَضَعَ آخَرِينَ»)(١).

(١) طَرِيقُ الهجرتَيْنِ (١٢٧).

(فهُوَ مَلِكُهُم المُتصَرِّفُ فِيهِم، وَهُمْ عَبِيدُهُ وَمَمَالِيكُهُ، وهوَ المُتصَرِّفُ فِيهِم، المُدبِّرُ لَهُم كما يشاءُ، النافذُ القدرةِ فِيهِم، الذي لهُ السلطانُ التامُّ عليهم، فهوَ مَلِكُهُم الحقُّ، الذي إِلَيْهِ مَفْزَعُهُم عندَ الشدائِدِ والنوائِبِ، وهوَ مُسْتَغَاثُهُم وَمَعَاذُهُم وَمَلْجَؤُهُم، فلا صَلاحَ لهم ولا قِيَامَ إلاَّ بِهِ، وَبِتَدْبِيرِهِ، فليسَ لهم مَلِكٌ غيرُهُ يَهْرُبُونَ إليهِ إذا دَهَمَهُم العدوُّ، وَيَسْتَصْرِخُونَ بهِ إذا نَزَلَ العدوُّ بِسَاحَتِهِمْ).(١)

([فإنَّ] المخلوقَ ليسَ عندَهُ للعبدِ نَفْعٌ ولا ضرٌّ، ولا عَطَاءٌ ولا منْعٌ، ولا هُدًى ولا ضَلالٌ، ولا نَصْرٌ ولا خِذْلانٌ، ولا خَفْضٌ ولا رَفْعٌ، ولا عِزٌّ ولا ذلٌّ، بل اللهُ وَحْدَهُ هوَ المَلِكُ، الذي لَهُ مُلْكُ ذَلِكَ كُلِّهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢] وَقَالَ تَعالَى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧]).(٢)

---

(١) بَدَائِعُ الفوائدِ (٢/ ٢٤٧).

(٢) إغاثةُ اللهفانِ (١/ ٥٣).

مُلحَقٌ: وقالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في بدائعِ الفوائدِ (٤/ ١٦٥): (المَلِكُ الحقُّ هو الذي يكونُ له الأمرُ والنهيُ؛ فيَتَصَرَّفُ في خلقِه بقولِه وأمرِه.

وهذا هو الفرقُ بين المَلِكِ والمالِكِ؛ إذِ المالكُ هو المُتصرِّفُ بفعلِه، والملكُ هو المُتصرِّفُ بفعلِه وأمرِه.

والربُّ تعالَى مَالِكُ المُلْكِ فهو المُتصرِّفُ بفعلِه وأمرِه.

فمَن ظَنَّ أنه خَلَقَ خَلْقَهُ عَبَثًا لم يَأْمُرْهُمْ ولم يَنْهَهُمْ فقد طَعَنَ في مُلْكِهِ، ولم يُقَدِّرْهُ حقَّ قَدْرِه كما قالَ تعالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. فمَن جَحَدَ شَرْعَ اللهِ وأَمْرَهُ ونَهْيَهُ، وجَعَلَ الخلْقَ بمَنزلةِ الأنعامِ المُهمَلَةِ؛ فقد طَعَنَ في مُلكِ اللهِ ولم يُقَدِّرْهُ حقَّ قَدْرِه).

وقال في بدائعِ الفوائدِ (٢/ ٢٤٨): (المَلِكُ: هو المُتصرِّفُ بقولِه وأمرِه. فهو المُطاعُ إذا أَمَرَ، ومُلْكُه لهم تابعٌ لخَلْقِه إياهم، فمُلْكُه من كمالِ رُبوبيَّتِه، وكونُه إلَهَهُمُ الحَقَّ من كمالِ مُلكِه).

وقال في شفاءِ العليلِ (٢/ ١٨٨): (ومنها: أنه سبحانَهُ المَلِكُ التامُّ المُلك، ومن تمامِ مُلكِه عُمومُ تَصرُّفِه، وتنوُّعُه بالثوابِ والعقابِ والإكرامِ والإهانةِ والعَدْلِ والفَضْلِ والإعزازِ والإذلالِ).

[الإِلَهُ]:

(«**الإِلَهُ**»: المَعْبُودُ المَحْبُوبُ الذي لا تَصْلُحُ العبادةُ والذُّلُّ وَالخضوعُ والحبُّ إلاَّ لَهُ)[١] (فإنَّ «**الإلهَ**» هوَ الذي يَأْلَهُهُ العبادُ ذُلاًّ وَخوفاً وَرَجاءً وَتَعْظِيماً وطاعةً لهُ، بِمَعْنَى «مَأْلُوهٍ»، وهوَ الذي تَأْلَهُهُ القُلُوبُ؛ أيْ: تُحِبُّهُ وَتَذِلُّ لَهُ.

وأصلُ التَّأَلُّهِ التَّعبُّدُ. والتَّعَبُّدُ آخِرُ مَراتِبِ الحبِّ، يُقَالُ: عَبَّدَهُ الحُبُّ وَتَيَّمَهُ: إذا مَلَّكَهُ وَذلَّلَهُ لِمَحْبُوبِهِ)[٢] [فـ](الإلهُ هوَ المُسْتَحِقُّ لكمالِ الحبِّ بكمالِ التعظيمِ والإجلالِ والذلِّ لهُ والخضوعِ لَهُ)[٣]

(وَهْوَ الإِلَهُ الحقُّ لا مَعْبُودَ إلاَّ … وَجْهُهُ الأَعْلَى العظيمُ الشَّانِ
بَلْ كُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ فَباطِلٌ … مِنْ عَرْشِهِ حتَّى الحَضِيضِ الدَّانِي
وَعِبَادَةُ الرَّحْمنِ غَايَةُ حُبِّهِ … مَعْ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ
وعليهما فَلَكُ العبادةِ دَائِرٌ … مَا دارَ حَتَّى قَامَتِ القُطْبَانِ
ومَدَارُهُ بالأَمْرِ أَمْرِ رسُولِهِ … لا بالهَوَى والنفسِ والشَّيْطَانِ
فَقِيَامُ دِينِ اللهِ بالإِخْلاصِ وَالـ … إحسَانِ إنَّهُمَا لَهُ أصلانِ
لَمْ يَنْجُ مِنْ غَضَبِ الإلهِ وَنارِهِ … إلاَّ الذي قَامَتْ بِهِ الأَصْلانِ
وَالنَّاسُ بَعْدُ فَمُشْرِكٌ بِإِلَهِهِ … أَوْ ذُو ابْتِدَاعٍ أَوْ لَهُ الوَصْفَانِ
واللهُ لا يَرْضَى بِكَثْرَةِ فِعْلِنَا … لَكِنْ بِأَحْسَنِهِ مَعَ الإِيمَانِ
فالعَارِفُونَ مُرادُهُمْ إحسَانُهُ … والجَاهِلُونَ عَمُوا عَنِ الإِحْسَانِ)[٤]

(فهوَ إِلَهُهُم الحَقُّ وَمَعْبُودُهُم الذي لا إِلَهَ لَهُم سِوَاهُ، ولا مَعْبُودَ لهم غَيْرُهُ، فَكَمَا أَنَّهُ وَحْدَهُ هُوَ رَبُّهُم وَمَلِيكُهُم لم يَشْرَكْهُ في رُبُوبِيَّتِهِ وَلا في مُلْكِهِ أَحَدٌ فكذلكَ هو إِلَهُهُمْ وَمَعْبُودُهُم، فلا يَنْبَغِي أَنْ يَجْعَلُوا معهُ شَرِيكاً في إِلَهِيَّتِهِ كَمَا لا شَرِيكَ معهُ

(١) بَدَائِعُ الفوائدِ (٤/ ١٣٢).

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٢٧، ٢٨).

(٣) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٣/ ١٤٣٥).

(٤) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٦٤).

في رُبُوبيَّتِهِ وَمُلْكِهِ)[١]، (بلْ هوَ الإلهُ الحقُّ، وكلُّ إلهٍ سِوَاهُ فَبَاطِلٌ، بلْ أَبْطَلُ الباطلِ و...حقيقةُ إِلَهيَّتِهِ لا تَنْبَغِي إلاَّ لهُ، و...العبادةُ مُوجَبُ إِلَهيَّتِهِ وَأَثَرُهَا وَمُقْتَضَاهَا، وَارْتِبَاطُهَا بِهَا كَارْتِبَاطِ مُتَعَلَّقِ الصِّفَاتِ بالصِّفَاتِ، وكارتباطِ المعلومِ بالعِلْمِ، والمقدورِ بالقدرةِ، والأصواتِ بالسمعِ، والإحسانِ بالرحمةِ، والعطاءِ بالجُودِ).[٢]

(فلا أَحَدَ سِوَاهُ يَسْتَحِقُّ أنْ يُؤَلَّهَ وَيُعْبَدَ، وَيُصَلَّى لهُ وَيُسْجَدَ، وَيَسْتَحِقُّ نهايَةَ الحبِّ معَ نهايَةِ الذلِّ، لكمالِ أسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ، فهوَ المُطَاعُ وحدَهُ على الحقيقةِ، والمَأْلُوهُ وَحْدَهُ، ولهُ الحُكْمُ وَحْدَهُ. فكلُّ عُبُودِيَّةٍ لِغَيْرِهِ باطلةٌ وَعَنَاءٌ وَضَلالٌ، وكلُّ محبَّةٍ لِغَيْرِهِ عَذَابٌ لصاحبِهَا، وكلُّ غِنًى لِغَيْرِهِ فَقْرٌ وَفَاقَةٌ، وكلُّ عِزٍّ بِغَيْرِهِ ذُلٌّ وصَغَارٌ، وكلُّ تكثُّرٍ بِغَيْرِهِ قِلَّةٌ وذِلَّةٌ، فَكَمَا اسْتَحَالَ أنْ يكونَ للخلقِ ربٌّ غَيْرُهُ، فَكَذَلِكَ استحالَ أنْ يَكُونَ لهم إلهٌ غيرُهُ، فهوَ الذي انْتَهَتْ إليهِ الرَّغَبَاتُ، وَتَوَجَّهَتْ نَحْوَهُ الطَّلَبَاتُ، وَيَسْتَحِيلُ أنْ يَكُونَ معهُ إِلَهٌ آخرُ؛ فإنَّ الإلهَ على الحقيقةِ هوَ الغنيُّ الصمدُ الكاملُ في أسمائِهِ وصفاتِهِ، الذي حاجةُ كلِّ أحدٍ إليهِ، ولا حاجةَ بهِ إلى أحدٍ، وقيامُ كلِّ شيءٍ بهِ، وليسَ قِيَامُهُ بِغَيْرِهِ، ومِن المُحَالِ أنْ يَحْصُلَ في الوجودِ اثْنَانِ كذلكَ، وَلَو كَانَ في الوجودِ إِلهَانِ لَفَسَدَ نِظَامُهُ أَعْظَمَ فَسَادٍ وَاخْتَلَّ أَعْظَمَ اخْتِلالٍ، كما أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ أنْ يَكُونَ لهُ فاعلانِ مُتَسَاوِيَانِ، كلٌّ مِنْهُمَا مُسْتَقِلٌّ بالفعلِ؛ فإنَّ اسْتِقْلالَهُمَا يُنَافِي اسْتِقْلالَهُمَا، وَاسْتِقْلالَ أَحَدِهِمَا يَمْنَعُ رُبُوبِيَّةَ الآخَرِ.

فتوحيدُ الربوبيَّةِ أَعْظَمُ دَلِيلٍ على توحيدِ الإلهيَّةِ، ولذلكَ وَقَعَ الاحتجاجُ بهِ في القرآنِ أَكْثَرَ مِمَّا وَقَعَ بِغَيْرِهِ، لِصِحَّةِ دَلالَتِهِ وَظُهُورِهَا وَقَبُولِ العقولِ والفِطَرِ لَهَا، ولاعْتِرَافِ أهلِ الأرضِ بتوحيدِ الربوبيَّةِ).[٣]

---

(١) بَدَائِعُ الفوائدِ (٢/ ٢٤٧).

(٢) مدارجُ السَّالكِينَ (١/ ١١٨).

(٣) طَرِيقُ الهجرتَيْنِ (٤٤-٤٥).

(وَمِمَّا يُقَرِّرُ هَذَا أَنَّ اللهَ سبحانَهُ خَلَقَ الخلقَ لعبادتِهِ الجامعةِ لمعرفتِهِ والإنابةِ إليهِ وَمحبَّتِهِ وَالإخلاصِ لهُ، فَبِذِكْرِهِ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم، وَبِرُؤْيَتِهِ في الآخرةِ تقرُّ عُيُونُهُم، ولا شَيْءَ يُعْطِيهِم في الآخرةِ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ من النظرِ إليهِ، ولا شيءَ يُعْطِيهِم في الدنيا أَحَبُّ إِلَيْهِم من الإيمانِ بهِ وَمحبَّتِهِم لهُ وَمَعرِفَتِهِم به. وحَاجَتُهُم إليهِ في عبادتِهِم لهُ وَتَأَلُّهِهِم لهُ كَحَاجَتِهِم إليهِ، بلْ أعظمُ في خلقِهِ لهم وَرُبُوبِيَّتِهِ لهم وَرِزْقِهِ لَهُم، فإنَّ ذلكَ هوَ الغايَةُ المقصودةُ التي بها سَعَادَتُهُم وَفَوْزُهُم، وبها وَلأَجْلِهَا يَصِيرُونَ عَامِلِينَ مُتَحَرِّكِينَ، ولا صَلاحَ لهم ولا فلاحَ ولا نعيمَ ولا لَذَّةَ ولا سُرُورَ بدونِ ذلكَ بحالٍ؛ فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً، وَيَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامةِ أَعْمَى، وَلِهَذَا لا يَغْفِرُ اللهُ لِمَنْ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلكَ لِمَنْ يشاءُ، ولهذا كانَتْ «**لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ**» أَفْضَلَ الحسناتِ. وَكَانَ توحيدُ الإلهيَّةِ الذي كَلِمَتُهُ «**لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ**» رَأْسَ الأمرِ.

فَأَمَّا تَوْحِيدُ الربوبيَّةِ الذي أَقَرَّ بِهِ كلُّ المخلوقاتِ فلا يَكْفِي وَحْدَهُ، وإنْ كانَ لا بُدَّ منهُ، وهوَ حُجَّةٌ على مَنْ أَنْكَرَ توحيدَ الألوهيَّةِ، فَحَقُّ اللهِ على العبادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَحَقُّهُم عليهِ إذا فَعَلُوا ذلكَ أَنْ لا يُعَذِّبَهُم وأَنْ يُكْرِمَهُم إذا قَدِمُوا عليهِ، وهذا كما أَنَّهُ غَايَةُ مَحْبُوبِ العبدِ ومطلوبُهُ، وبهِ سُرُورُهُ وَلَذَّتُهُ وَنَعِيمُهُ، فَهُوَ أَيْضاً مَحْبُوبُ الربِّ منْ عَبْدِهِ وَمَطْلُوبُهُ الذي يَرْضَى بهِ، وَيَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ إذا رَجَعَ إليهِ وإِلَى عُبُودِيَّتِهِ وَطَاعَتِهِ أَعْظَمَ مِنْ فَرحِ مَنْ وَجَدَ رَاحِلَتَهُ التي عليها طَعَامُهُ وشَرَابُهُ في أرضٍ مَهْلَكَةٍ بعدَ أنْ فَقَدَهَا وأَيِسَ منها.

وقال رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في طريقِ الهجرتينِ (٣٢٧): (فإنَّ الإلهَ هو المحبوبُ المعبودُ الذي تَأْلَهُهُ القلوبُ بحُبِّها، وتَخْضَعُ له، وتذلُّ له، وتَخافُه وتَرجُوهُ، وتُنيبُ إليه في شدائِدِها، وتدعُوهُ في مُهِمَّاتِها، وتتوكَّلُ عليه في مَصالِحِها، وتَلْجأُ إليه وتَطْمَئِنُّ بذِكرِه، وتَسْكُنُ إلى حُبِّهِ، وليس ذلكَ إلا اللهَ وَحْدَهُ، ولهذا كانتْ [لا إلهَ إلا اللهُ] أَصْدَقَ الكلامِ، وكانَ أهلُها أهلَ اللهِ وحِزْبَهُ، والمنكرونَ لها أعداؤُه وأهلُ غضبِه ونقْمَتِه. فهذهِ المسألةُ قُطبُ رَحى الدينِ الذي عليه مَدارُه، وإذا صَحَّتْ صَحَّ بها كُلُّ مسألةٍ وحالٍ وذَوْقٍ، وإذا لم يُصَحِّحْها العبدُ فالفسادُ لازمٌ له في عُلومِه وأعمالِه، وأحوالِه وأقوالِه. ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ).

وهذا أعظمُ فَرح يكونُ، وكذلكَ العبدُ لا فَرحَ لهُ أعظمُ مِنْ فَرحِهِ بوُجُودِ رَبِّهِ، وَأُنْسِهِ بِهِ، وَطَاعَتِهِ لهُ، وإقبالِهِ عليهِ، وَطُمَأْنِينَتِهِ بِذِكْرِهِ، وعمارةِ قلبِهِ بمعرفتِهِ، والشوقِ إلى لقائِهِ، فليسَ في الكائناتِ ما يَسْكُنُ العبدُ إليهِ وَيطْمَئِنُّ بِهِ وَيَتَنَعَّمُ بالتَّوَجُّهِ إليهِ إلاَّ اللهُ سُبْحَانَهُ، ومَنْ عَبدَ غَيْرَهُ وَأَحبَّهُ -وإنْ حَصَلَ لهُ نوعٌ من اللذَّةِ والمَوَدَّةِ والسكونِ إليهِ والفرحِ والسرورِ بوجودِهِ- ففسادُهُ بِهِ وَمَضَرَّتُهُ وَعَطَبُهُ أَعْظَمُ منْ فسادِ أكلِ الطعامِ المسمومِ اللذيذِ الشَّهِيِّ الَّذِي هُوَ عَذْبٌ فِي مَبْدَئِهِ، عَذَابٌ في نهايتِهِ كما قالَ القائلُ:

مَآرِبُ كَانَتْ فِي الشَّبَابِ لأَهْلِهَا		عِذَاباً فَصَارَتْ فِي المَشِيبِ عَذَابَا

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء:٢٢]، فإنَّ قِوامَ السَّماواتِ والأرضِ والخليقةِ بأنْ تُؤَلِّهَ **الإلَهَ الحَقَّ**، فلوْ كانَ فِيهِمَا إِلَهٌ آخرُ غَيْرُ اللهِ لَمْ يَكُنْ إِلَهاً حقًّا؛ **إذ الإلهُ الحقُّ لا شريكَ لهُ، ولا سَمِيَّ لهُ، ولا مِثْلَ لهُ**، فلوْ تَأَلَّهَتْ غَيْرَهُ لَفَسَدَتْ كلَّ الفسادِ بِانْتِفَاءِ ما بِهِ صَلاحُهَا، إِذْ صَلاحُهَا بِتَأَلُّهِ الإلهِ الحقِّ، كما أَنَّهَا لا تُوجَدُ إلاَّ باسْتِنَادِهَا إِلَى الرَّبِّ الوَاحِدِ القَهَّارِ، وَيَسْتَحِيلُ أنْ تَسْتَنِدَ في وجودِهَا إلى رَبَّيْنِ مُتَكَافِئَيْنِ، فكذلكَ يَسْتَحِيلُ أنْ تَسْتَنِدَ فِي بَقَائِهَا وَصَلاحِهَا إِلَى إِلَهَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ.

إذا عُرِفَ هذا، فَاعْلَمْ أنَّ حاجةَ العبدِ إلى أنْ يَعْبُدَ اللهَ وحدَهُ، لا يُشْرِكُ بِهِ شيئاً في مَحَبَّتِهِ، ولا في خوفِهِ، ولا في رجائِهِ، ولا في التَّوَكُّلِ عليهِ، ولا في العملِ لهُ، ولا في الحَلِفِ بهِ، ولا في النَّذْرِ لهُ، ولا في الخضوعِ لهُ، ولا في التَّذَلُّلِ والتعظيمِ والسجودِ والتَّقَرُّبِ- أَعْظَمُ منْ حاجةِ الجسدِ إلى رُوحِهِ، والعينِ إلى نورِهَا، بلْ ليسَ لهذهِ الحاجةِ نَظِيرٌ تُقَاسُ بهِ؛ فإنَّ حقيقةَ العبدِ قَلْبُهُ وَرُوحُهُ، ولا صلاحَ لها إلاَّ بإلهِهَا الذي لا إِلَهَ إلاَّ هوَ؛ فلا تَطْمَئِنُّ في الدنيا إلاَّ بذِكْرِهِ، وهيَ كادحةٌ إليهِ كدحاً فَمُلاقِيَتُهُ، وَلا بُدَّ لها مِنْ لِقَائِهِ، ولا صَلاحَ لها إلاَّ بِمَحَبَّتِهَا وَعُبُودِيَّتِهَا لهُ، وَرِضَاهُ وَإِكْرَامِهِ لها.

ولوْ حَصَلَ للعبدِ من اللَّذَّاتِ والسرورِ بغيرِ اللهِ ما حَصَلَ لم يَدُمْ لهُ ذلكَ، بلْ يَنْتَقِلُ منْ نوعٍ إلى نوعٍ، ومنْ شخصٍ إلى شخصٍ، وَيَتَنَعَّمُ بهذا في وقتٍ ثُمَّ يَتعَذَّبُ بهِ ولا بُدَّ في وقتٍ آخرَ، وَكَثِيراً ما يَكُونُ ذلكَ الذي يَتَنَعَّمُ بهِ وَيَلْتَذُّ بهِ غَيْرَ مُنَعِّمٍ لهُ ولا مُلِذٍّ، بلْ قدْ يُؤْذِيهِ اتِّصالُهُ بِهِ وَوُجودُهُ عِنْدَهُ وَيَضُرُّهُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَحْصُلُ لهُ بِمُلابَسَتِهِ مِنْ جنسِ ما يَحْصُلُ للجَرِبِ منْ لَذَّةِ الأظفارِ التي تَحُكُّهُ، فَهِيَ تُدْمِي الجِلْدَ وَتَخْرِقُهُ وَتَزِيدُ فِي ضَرَرِهِ، وهوَ يُؤْثِرُ ذلكَ لِمَا لهُ في حَكِّهَا مِن اللذَّةِ، وهكذا ما يَتعَذَّبُ بهِ القلبُ منْ مَحَبَّةِ غيرِ اللهِ هوَ عذابٌ عليهِ، وَمَضَرَّةٌ وألَمٌ في الحقيقةِ، لا تَزيدُ لَذَّتُهُ على لَذَّةِ حَكِّ الجَرِبِ.

والعاقلُ يُوازِنُ بينَ الأمرَيْنِ وَيُؤْثِرُ أَرْجَحَهُمَا وَأَنْفعَهُمَا، واللهُ المُوَفِّقُ المُعِينُ، ولهُ الحجَّةُ البالغةُ كما لهُ النعمةُ السابغةُ.

والمقصودُ أنَّ إِلَهَ العبدِ الذي لا بُدَّ لهُ منهُ في كلِّ حالةٍ وكلِّ دقيقةٍ وكلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ، فهوَ الإلهُ الحقُّ الذي كلُّ ما سِواهُ بَاطِلٌ، والذي أَيْنَمَا كَانَ فهوَ مَعَهُ، وَضَرُورَتُهُ إِلَيْهِ وَحَاجَتُهُ إِلَيْهِ لا تُشْبِهُهَا ضَرُورَةٌ ولا حاجةٌ، بلْ هيَ فوقَ كلِّ ضرورةٍ، وَأَعْظَمُ منْ كلِّ حاجةٍ، ولهذا قالَ إمامُ الحُنَفَاءِ: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦﴾ [الأنعام: ٧٦] واللهُ أَعْلَمُ).(١)

[فَصْلٌ]

([إذا تبيَّنَ هَذَا فَاعْلَمْ أنَّ] «**الإِلَهَ**»... هُوَ الجامعُ لجميعِ صفاتِ الكمالِ ونعوتِ الجلالِ، فَيَدْخُلُ في هذا الاسمِ جَمِيعُ الأسماءِ الحُسْنَى)(٢) [لـ](أنَّ الإلهَ هوَ الذي لهُ الأسماءُ الحُسْنَى، والصِّفَاتُ العُلَى، وَهُوَ الذي يَفْعَلُ بقدرتِهِ ومشيئتِهِ وحكمتِهِ،

---

(١) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (٥٦-٥٨).

(٢) بَدَائِعُ الفوائِدِ (٢/ ٢٤٩).

وهوَ الموصوفُ بالصِّفَاتِ والأفعالِ، المُسَمَّى بالأسماءِ التي قَامَتْ بها حَقَائِقُهَا ومَعَانِيهَا). [1]

([فَـ]كَوْنُهُ تَعالَى إِلَهَ الخَلْقِ يَقْتَضِي كمالَ ذاتِهِ وصفاتِهِ وأسمائِهِ وأفعالِهِ ووقوعَ أفعالِهِ على أكملِ الوجوهِ وَأَتَمِّهَا). [2]، (وَلِهَذَا كَانَتْ «لاَ إله إلاَّ اللهُ» أحسنَ الحسناتِ، وكانَ توحيدُ الإلهيَّةِ رأسَ الأمْرِ). [3]

(فهوَ سُبْحَانَهُ الإلهُ الحقُّ المُبِينُ ((**الكاملُ في أسمائِهِ وصفاتِهِ**)) [4]... الذي يَسْتَحِقُّ أنْ يُؤْلَهَ مَحَبَّةً، وَتَعْظِيماً، وخشيَةً، وخُضوعاً، وتذلُّلاً، وعبادَةً [5]، فهوَ الإلَهُ الحقُّ، ولوْ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقَهُ، وهوَ الإلهُ الحقُّ، ولوْ لمْ يَعْبُدُوهُ، فهوَ المعبودُ حَقًّا، المحمودُ حَقًّا، ولوْ قُدِّرَ أنَّ خَلْقَهُ لَمْ يَعْبُدُوهُ، ولم يَحْمَدُوهُ، ولمْ يَأْلَهُوهُ، فهوَ اللهُ الذي لا إِلَهَ إلاَّ هوَ قبلَ أنْ يَخْلُقَهُم، وبعدَ أنْ خلَقَهُم، وبعدَ أنْ يُفْنِيَهُم، لمْ يَسْتَحْدِثْ بِخَلْقِهِ لهم ولا بأمرِهِ إيَّاهُم اسْتِحْقَاقَ الإلهيَّةِ والحمدِ، بل الإلهيَّةُ وَحَمْدُهُ وَمَجْدُهُ وَغِنَاهُ أَوْصَافٌ ذاتيَّةٌ لهُ يَسْتَحِيلُ مُفَارَقَتُها لهُ كَحَيَاتِهِ ووجودِهِ وقدرتِهِ وَعِلْمِهِ وسائرِ صفاتِ كمالِهِ.

فَأَوْلِيَاؤُهُ وَخَاصَّتُهُ وَحِزْبُهُ لَمَّا شَهِدَتْ عُقُولُهُم وَفِطَرُهُم أَنَّهُ أهلٌ أنْ يُعبدَ – وإنْ لمْ يُرْسِلْ إليهم رَسُولاً، ولم يُنَزِّلْ عليهم كِتَاباً، ولوْ لم يَخْلُقْ جَنَّةً ولا ناراً – عَلِمُوا أنَّهُ لا شَيْءَ في العُقولِ والفِطَرِ أَحْسَنُ مِنْ عبادتِهِ، ولا أَقْبَحُ من الإعْراضِ عنهُ، وجاءَت الرسلُ، وأُنْزِلَتِ الكُتُبُ لتقريرِ ما اسْتَوْدَعَ سُبحانَهُ في الفِطَرِ والعُقولِ منْ ذلكَ، وتَكْمِيلِهِ، وتَفْضِيلِهِ، وزيادتِهِ حُسناً إلى حُسْنِهِ، فَاتَّفَقَتْ شَرِيعَتُهُ

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٤٢٩).

(٢) بَدَائِعُ الفوائدِ (٤/ ١٦٥).

(٣) إغاثَةُ اللهفانِ (١/ ٤٧).

(٤) طَرِيقُ الهجرتَيْنِ (٤٢).

(٥) وقال رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في إغاثَةِ اللهفانِ: (١/ ٤٣، ٤٤): (فإنَّ (الإلهَ) هو الذي تَأْلَهُهُ القلوبُ: مَحَبَّةً، وإنابةً، وإجلالاً، وإكرامًا، وتعظيمًا، وذُلاًّ، وخُضوعًا، وخَوْفًا، ورجاءً، وتَوَكُّلاً).

وفِطْرَتُهُ، وَتطَابَقَا، وَتوَافقَا، وَظَهَرَ أَنَّهُمَا مِنْ مِشْكَاةٍ واحدَةٍ، فَعَبدُوهُ وأَحبُّوهُ وَمَجَّدُوهُ وَحَمِدُوهُ بِدَاعِي الفِطرَةِ، وداعِي الشَّرْعِ، وداعِي العَقلِ، فَاجْتَمَعَت لهم الدَّواعِي وَنَادَتْهُم مِنْ كُلِّ جهَةٍ، ودَعَتْهُم إلى وَلِيِّهم وَإِلَهِهم وَفَاطِرِهم، فأَقْبَلُوا إليهِ بقلوبٍ سليمَةٍ، لم يُعَارِضْ خَبَرَهُ عندَهَا شُبْهَةٌ تُوجِبُ رِيبَةً وَشَكًّا، ولا أَمْرَهُ شهوَةٌ تُوجِبُ رَغْبَتَهَا عَنْهُ وَإِيثَارَهَا سِوَاهُ، فَأَجَابُوا دَوَاعِيَ المحبَّةِ والطاعَةِ إذْ نَادَتْ بهم: حيَّ على الفلاحِ، وَبَذَلُوا أَنْفُسَهم في مَرْضَاةِ مَوْلاهُم الحق بَذْلَ أَخِي السَّماحِ، وَحَمِدُوا عندَ الوُصولِ إليهِ مَسْرَاهُم، وإِنَّمَا يَحْمَدُ القومُ مَسراهُمْ عندَ الصباحِ). (١)

[الصَّمَدُ]:

(«**الصمدُ**»: السيِّدُ الذي كَمُلَ في سُؤْدُدِهِ؛ ولهذا كانت العربُ تُسَمِّي أَشْرَافهَا بِهَذَا الاسمِ، لكثرةِ الصِّفَاتِ المحمودةِ في المُسَمَّى بِهِ، قالَ شَاعِرُهُم:

أَلَا بَكَّرَ النَّاعِي بِخَيْرِ بَنِي أَسَدْ ... بِعَمْرِو بنِ مَسْعُودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ

فإنَّ الصمدَ مَنْ تَصْمُدُ نحوَهُ القلوبُ بالرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ، وذلكَ لكثرةِ خصالِ الخيرِ فيهِ، وكثرةِ الأوصافِ الحميدةِ لهُ، ولهذا قالَ جمهورُ السَّلَفِ، مِنْهُمْ

---

(١) مفتاحُ دارِ السعادةِ (٢/ ٥٠٤).

وقال رَحِمَهُ اللهُ في بدائعِ الفوائدِ (٣/ ٢): (فإنه المَعْبودُ حقّاً، والمعبودُ لا بدَّ أن يكونَ مَالِكًا للنفعِ والضُّرِّ، ولهذا أنكرَ اللهُ تعالَى على مَن عَبَدَ مِن دُونه ما لا يَمْلِكُ ضَرًّا ولا نَفْعًا، وذلك كثيرٌ في القرآنِ كقولِه تعالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥] وقولِه تعالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦] وقوله تعالَى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٦﴾ [المائدة: ٧٦] وقولِه تعالَى: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧])، وقال في مدارجِ السَّالكِينَ (٣/ ٤٢٨) ((الإلهُ) هو الذي تَأْلَهُهُ القلوبُ، مَحَبَّةً له واشتياقًا وإنابةً) وقال في بدائعِ الفوائدِ (٢/ ٢٤٨): (وهو الإلهُ الحقُّ إلهُ الناسِ الذي لا إلهَ لهم سواهُ).

عَبْدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ: **الصَّمَدُ السيِّدُ الذي كَمُلَ سُؤْدُدُهُ، فَهُوَ العالِمُ الذي كَمُلَ عِلْمُهُ، القادرُ الذي كَمُلَتْ قُدْرَتُهُ، الحكيمُ الذي كَمُلَ حُكْمُهُ، الرحيمُ الذي كَمُلَتْ رَحْمَتُهُ، الجوَادُ الذي كَمُلَ جُودُهُ،** ((وفي رِوايَةٍ عَنْهُ: «**هوَ السيِّدُ الذي قَدْ كَمُلَ فِي جَمِيعِ أنواعِ السُّؤْدُدِ**» ...

وقالَ سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ: «**هوَ الكامِلُ في جميعِ صفاتِهِ وأفعالِهِ وأقوالِهِ**»).[1]

((وقالَ ابنُ وَائِلٍ: هوَ السيِّدُ الذي انْتَهى سُؤْدُدُهُ.

وقالَ عِكْرِمَةُ: **الَّذِي لَيسَ فَوْقَهُ أَحَدٌ.**

وكذلكَ قالَ الزجَّاجُ: الذي يَنْتَهِي إليهِ السُّؤْدُدُ، فقَدْ صَمَدَ لهُ كلُّ شيءٍ.

وقالَ ابنُ الأَنْبارِيِّ: لا خِلافَ بينَ أهلِ اللغةِ أنَّ الصمدَ السيِّدُ الذي لَيْسَ فَوْقَهُ أَحَدٌ، الذي يَصْمُدُ إليهِ الناسُ في حَوائِجِهِم وَأُمُورِهِم، وَاشْتِقاقُهُ يَدُلُّ على هذا، فإنَّهُ من الجَمْعِ والقَصْدِ، الذي اجْتَمَعَ القصدُ نحوَهُ واجْتَمَعَتْ فيهِ صفاتُ السُّؤْدُدِ، وهذا أَصْلُهُ في اللغةِ كما قالَ:

أَلاَ بَكَّرَ النَّاعِي بِخَيْرِ بَنِي أَسَدْ ... بِعَمْرِو بنِ يَرْبُوعٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدْ

والعربُ تُسَمِّي أَشْرَافَها بالصمَدِ لاجْتِماعِ قَصْدِ القاصدِينَ إليهِ واجتماعِ صفاتِ السيادةِ فيهِ)).[2]

ومَنْ قَالَ: «**إنَّهُ الذي لا جَوْفَ لَهُ**»، فقولُهُ لا يُناقِضُ هذا التفسيرَ؛ فإنَّ اللفظَ من الاجتماعِ، فهوَ الذي اجْتَمَعَتْ فيهِ صفاتُ الكمالِ، ولا جَوْفَ لهُ)[3]، [فإنَّهُ] (-تَعَالَى- صَمَدٌ بِجَمِيعِ معانِي الصَّمَدِيَّةِ، فَيَسْتَحِيلُ عليهِ ما يُناقِضُ صَمَدِيَّتَه)[4].

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٤٧).

(٢) بَدائِعُ الفوائدِ (١/ ١٦٠).

(٣) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٣/ ١٠٢٣-١٠٢٧).

(٤) هدايةُ الحَيارَى (٥٢٤).

[وَ](إِنَّمَا لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ كُفُواً لَهُ لَمَّا كَانَ صَمَداً كَامِلاً فِي صَمَدِيَّتِهِ). [(١)]

(وهو الإلهُ السَّيِّدُ الصَّمَدُ الَّذِي　　صَمَدَتْ إِلَيْهِ الخَلْقُ بالإِذْعَانِ
الكَامِلُ الأَوْصَافِ مِنْ كُلِّ الوُجُوهِ　　كَمَالُهُ ما فيهِ من نُقْصَانِ) [(٢)]
(واللهُ أكبرُ وَاحِدٌ صَمَدٌ وَكُلُّ　　الشأنِ في صَمَدِيَّةِ الرَّحْمَنِ
نَفَت الولادةُ والأبوةُ عنهُ والـ　　كُفْءَ الذي هوَ لازِمُ الإنسانِ
وَكَذَاكَ أُثْبِتَت الصِّفَاتُ جَمِيعُهَا　　للهِ سَالِمَةٌ من النُّقْصَانِ
وَإِلَيْهِ يَصْمُدُ كُلُّ مَخْلُوقٍ فَلا　　صمدٌ سِوَاهُ عَزَّ ذُو السُّلْطَانِ) [(٣)]

[الأَوَّلُ والآخِرُ والظاهِرُ والباطِنُ]:

(**الأَوَّلُ** الذي لَيْسَ قَبْلَهُ شيءٌ، **الآخِرُ** الذي ليسَ بعدَهُ شيءٌ، **الظاهِرُ** الذي ليسَ فوقَهُ شيءٌ، **الباطنُ** الذي ليسَ دونَهُ شيءٌ، سَبَقَ كلَّ شيءٍ بأَوَّلِيَّتِهِ، وَبَقِيَ بعد كلِّ شيءٍ بآخِرِيَّتِهِ، وَعَلا فَوْقَ كلِّ شيءٍ بِظُهُورِهِ، وَأَحَاطَ بكلِّ شيءٍ بِبُطُونِهِ). [(٤)]

(فأَوَّلِيَّةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ سَابِقَةٌ على أَوَّلِيَّةِ كلِّ ما سِوَاهُ، وَآخِرِيَّتُهُ ثابتةٌ بعدَ آخِرِيَّةِ كلِّ ما سِوَاهُ، فَأَوَّلِيَّتُهُ سَبْقُهُ لكلِّ شيءٍ، وآخِرِيَّتُهُ بَقَاؤُهُ بعدَ كلِّ شيءٍ، وَظَاهِرِيَّتُهُ سُبْحَانَهُ فَوْقِيَّتُهُ وَعُلُوُّهُ على كلِّ شيءٍ، وَمَعْنَى الظهورِ يَقْتَضِي العُلُوَّ، وظاهِرُ الشيءِ هوَ ما عَلا مِنْهُ وَأَحَاطَ بِبَاطِنِهِ، وَبُطُونُهُ سُبْحَانَهُ إِحَاطَتُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بِحَيْثُ يَكُونُ أَقْرَبَ إليهِ منْ نفسِهِ، وهذا قُرْبٌ، غيرُ قُرْبِ المُحِبِّ مِنْ حَبِيبِهِ، هذا لونٌ وهذا لونٌ.

---

(١) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٣/ ١٠٢٧).

(٢) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢٤٦).

(٣) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٣٣٦).

(٤) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ١١١).

((فهذهِ الأسماءُ الأربعةُ مُتَقابِلَةٌ: اسْمانِ لأَزَلِ الربِّ تَعالَى وَأَبَدِهِ، وَاسْمانِ لِعُلُوِّهِ وَقُرْبِهِ)).[1]

[وَمَدَارُهَا]... على الإحاطةِ، وهي إِحَاطَتَانِ: زَمَانِيَّةٌ ومكانيَّةٌ، فَأَحاطَتْ أَوَّلِيَّتُهُ وَآخِرِيَّتُهُ بِالقَبْلِ والبَعْدِ، فكلُّ سَابِقٍ انْتَهَى إلى أَوَّلِيَّتِهِ، وكلُّ آخِرٍ انْتَهى إِلَى آخِرِيَّتِهِ، فَأَحَاطَتْ أَوَّلِيَّتُهُ وَآخِرِيَّتُهُ بالأوائِلِ والأواخِرِ، وَأَحاطَتْ ظَاهِرِيَّتُهُ وَبَاطِنِيَّتُهُ بكلِّ ظاهرٍ وباطنٍ، فما مِنْ ظَاهِرٍ إلاَّ وَاللهُ فوقَهُ، وما مِنْ بَاطِنٍ إلاَّ واللهُ دُونَهُ، وما مِنْ أَوَّلٍ إلاَّ واللهُ قَبْلَهُ، وما مِنْ آخِرٍ إلاَّ واللهُ بَعْدَهُ: فالأَوَّلُ قِدَمُهُ، والآخِرُ دَوَامُهُ وَبَقَاؤُهُ، والظاهرُ عُلُوُّهُ وَعَظَمَتُهُ، والباطنُ قُرْبُهُ وَدُنُوُّهُ. فَسَبَقَ كلَّ شيءٍ بأَوَّلِيَّتِهِ، وَبَقِيَ بعدَ كلِّ شيءٍ بآخريَّتِهِ، وَعَلا على كلِّ شيءٍ بِظُهُورِهِ، وَدَنَا مِنْ كلِّ شيءٍ ببطونِهِ، فلا تُوَارِي منهُ سَمَاءٌ سَماءً، ولا أَرْضٌ أَرْضاً، ولا يَحْجُبُ عنهُ ظاهرٌ بَاطِناً، بل الباطنُ لهُ ظاهرٌ، والغيبُ عندَهُ شهادةٌ، والبعيدُ منهُ قريبٌ، والسرُّ عندَهُ عَلانِيَةٌ.

فهذهِ الأسماءُ الأربعةُ تَشْتَمِلُ على أركانِ التوحيدِ، فهوَ الأَوَّلُ في آخِرِيَّتِهِ، والآخِرُ في أَوَّلِيَّتِهِ، والظاهرُ في بطُونِهِ، والباطنُ في ظهورِهِ، لم يَزَلْ أَوَّلاً وآخِراً وظاهِراً وباطِناً.[2]

---

(١) مُختَصَرُ الصواعقِ المرسَلَةِ (٣٥٧).

.(٢) وقال رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في القصيدةِ النونيةِ (٢٤٠):

(هُوَ أَوَّلٌ هُوَ آخِرٌ هُوَ ظَاهِرٌ ... هُوَ بَاطِنٌ هِيَ أَرْبَعٌ بِوِزَانِ
مَا قَبْلَهُ شَيْءٌ كَذَا مَا بَعْدَهُ ... شَيْءٌ تَعَالَى اللهُ ذُو السُّلْطَانِ
مَا فَوْقَهُ شَيْءٌ كَذَا مَا دُونَهُ ... شَيْءٌ وَذَا تَفْسِيرُ ذِي الْبُرْهَانِ
فَانْظُرْ إِلَى تَفْسِيرِهِ بِتَدَبُّرٍ ... وَتَبَصُّرٍ وَتَعَقُّلٍ لِمَعَانِ
وَانْظُرْ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ مَعْـ ... ـرِفَةٍ لِخَالِقِنَا الْعَظِيمِ الشَّانِ)

والتَّعَبُّدُ بِهَذِهِ الأسماءِ رُتْبَتَانِ:

الرتبةُ الأولى: أنْ تَشْهَدَ الأَوَّلِيَّةَ مِنْهُ تَعالَى في كلِّ شيءٍ، والآخِرِيَّةَ بعدَ كلِّ شيءٍ، والعُلُوَّ والفوقيَّةَ فوقَ كلِّ شيءٍ، والقُرْبَ والدُّنُوَّ دونَ كلِّ شيءٍ، فالمخلوقُ يَحْجُبُهُ مِثْلُهُ عمَّا هوَ دونَهُ، فَيَصِيرُ الحاجبُ بَيْنَهُ وبينَ المحجوبِ، والربُّ جلَّ جلالُهُ ليسَ دونَهُ شيءٌ أَقْرَبُ إلى الخلقِ منهُ.

والمَرْتَبَةُ الثانيةُ من التَّعَبُّدِ: أنْ يُعَامِلَ كلَّ اسمٍ بِمُقْتَضَاهُ:

- فَيُعَامِلَ سَبْقَهُ تَعَالَى بأَوَّلِيَّتِهِ لكلِّ شيءٍ، وَسَبْقَهُ بفضلِهِ وإحسانِهِ الأسبابَ كلَّها بما يَقْتَضِيهِ ذلكَ منْ إفرادِهِ، وعدمِ الالتفاتِ إلى غيرِهِ، والوثوقِ بسواهُ، والتَّوَكُّلِ على غيرِهِ، فمَنْ ذا الذي شَفَعَ لكَ في الأَزَلِ حيثُ لم تَكُنْ شَيْئاً

وقال أيضًا (٣٣٥):

(وَاللهُ أَكْبَرُ ظَاهِرٌ ما فَوْقَهُ ... شَيْءٌ وَشَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ شَانِ)

وقال أيضًا (١١٣- ١١٤):

(وَالظَّاهِرُ العَالِي الَّذِي مَا فَوْقَهُ ... شَيْءٌ كَمَا قَدْ قَالَ ذُو البُرْهَانِ
حقًّا رَسُولُ اللهِ ذَا تَفْسِيرُهُ ... وَلَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِضَمَانِ
فَاقْبَلْهُ لاَ تَقْبَلْ سِوَاهُ مِنَ التَّفَا ... سِيرِ الَّتِي قِيلَتْ بِلاَ بُرْهَانِ
والشَّيْءُ حِينَ يَتِمُّ مِنْهُ عُلُوُّهُ ... فَظُهُورُهُ فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ
أَوَمَا تَرَى هَذِي السَّمَاءَ عُلُوَّهَا ... وَظُهُورَهَا وَكَذَلِكَ القَمَرَانِ
وَالْعَكْسُ أَيضًا ثَابِتٌ فَسُفُولُه ... وَخَفَاؤُهُ إِذْ ذَاكَ مُصْطَحِبَانِ
فَانْظُرْ خَفَاءَ الْمُرْكَزِ الأَدْنَى وَوَصْـ ... ـفَ السُّفْلِ فِيهِ وَكَوْنَهُ تَحْتَانِي
وظُهُورُهُ سُبْحَانَهُ بِالذَّاتِ مِثْـ ... ـلُ عُلُوِّهِ فَهُمَا لَهُ صِفَتَانِ
لاَ تَجْحَدَنَّهُمَا جُحُودَ الجَهْمِ أَوْ ... صَافَ الكَمَالِ تَكُونُ ذَا بُهتانِ
وظُهُورُهُ هو مُقْتَضٍ لِعُلُوِّهِ ... وَعُلُوُّهُ لِظُهُورِهِ بِبَيَانِ
وَكَذَاكَ قَدْ دَخَلَتْ هُنَاكَ الفَاءُ لِلتـ ... ـتسبيبِ مُؤْذِنَةً بِهَذا الشانِ
فتَأَمَّلَنْ تَفْسِيرَ أَعْلَمِ خَلْقِهِ ... بِصِفَاتِهِ مَنْ جَاءَ بِالقُرْآنِ
إِذْ قَالَ أَنْتَ كَذَا فَلَيْسَ لِضِدِّهِ ... أَبَدًا إِلَيْهِ تَطَرُّقُ الإِتيانِ)

مذكوراً، حَتَّى سَمَّاكَ باسم الإسلام، وَوَسَمَكَ بِسِمَةِ الإيمانِ، وَجَعَلَكَ مِنْ أهلِ قبضةِ اليمينِ، وَأَقْطَعَكَ في ذلكَ الغيبِ عَمالاتِ المُؤْمِنِينَ، فَعَصَمَكَ عن العبادةِ للعبيدِ، وَأَعْتَقَكَ من الْتِزامِ الرقِّ لِمَنْ لهُ شَكْلٌ ونَدِيدٌ. ثُمَّ وَجَّهَ وِجْهَةَ قَلْبِكَ إليهِ تَبارَكَ وتَعالَى دونَ ما سواهُ، فَاضْرَعْ إلى الذي عَصَمَكَ من السجودِ للصَّنَمِ، وَقَضَى لكَ بِقَدَمِ الصدقِ في القِدَمِ أَنْ يُتِمَّ عَلَيْكَ نعمةً هو ابْتَدَأَهَا وَكَانَتْ أَوَّلِيَّتُهَا منهُ بلا سَبَبٍ مِنْكَ.

- وَاسْمُ بِهِمَّتِكَ عَنْ ملاحظةِ الاختيارِ، ولا تَرْكَنَنَّ إِلَى الرسومِ والآثارِ، ولا تَقْنَعْ بالخسيسِ الدونِ، وعليكَ بالمطالبِ العاليَةِ والمراتبِ الساميَةِ التي لا تُنَالُ إلاَّ بطاعةِ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَضَى أَنْ لا يُنَالَ ما عِنْدَهُ إلاَّ بِطَاعَتِهِ، ومَنْ كانَ للهِ كَما يُرِيدُ كانَ اللهُ لهُ فوقَ ما يُرِيدُ، فَمَنْ أَقْبَلَ تَلَقَّاهُ منْ بعيدٍ، ومَنْ تَصَرَّفَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ أَلانَ لهُ الحديدَ، ومَنْ تَرَكَ لأَجْلِهِ أَعْطَاهُ فوقَ المزيدِ، وَمَنْ أَرَادَ مُرَادَهُ الدِّينِيَّ أَرَادَ ما يُرِيدُ. ثُمَّ اسْمُ بِسِرِّكَ إِلَى المَطْلَبِ الأَعْلَى، وَاقْصُرْ حُبَّكَ وَتَقَرُّبَكَ على مَنْ سَبَقَ فَضْلُهُ وَإِحْسَانُهُ إليكَ كلَّ سببٍ منكَ، بلْ هوَ الذي جَادَ عليكَ بالأسبابِ، وَهَيَّأَ لكَ وصَرَفَ عَنْكَ مَوانِعَهَا، وَأَوْصَلَكَ بها إلى غَايَتِكَ المحمودةِ، فَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَحْدَهُ، وَعَامِلْهُ وَحْدَهُ، وَآثِرْ رِضَاهُ وَحْدَهُ، وَاجْعَلْ حُبَّهُ وَمَرْضَاتَهُ هوَ كَعْبَةَ قَلْبِكَ الَّتِي لا تَزَالُ طَائِفاً بِهَا، مُسْتَلِماً لأَرْكَانِهَا، وَاقِفاً بِمُلْتَزَمِهَا.

فَيَا فَوْزَكَ وَيَا سَعَادَتَكَ إن اطَّلَعَ سُبْحَانَهُ على ذلكَ مِنْ قَلْبِكَ!! ماذا يُفِيضُ عليكَ مِنْ ملابسِ نِعَمِهِ وَخِلَعِ أَفْضَالِهِ!! «**اللَّهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ منكَ الجَدُّ، سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ**».

ثُمَّ تعَبَّدْ لَهُ بِاسْمِهِ «**الآخِرِ**» بِأَنْ تَجْعَلَهُ وَحْدَهُ غَايَتَكَ التي لا غايَةَ لكَ سواهُ. ولا مَطْلُوبَ لكَ وراءَهُ، فَكَمَا انْتَهَتْ إليهِ الأَواخِرُ، وكانَ بعدَ كلِّ آخِرٍ فكَذَلِكَ اجْعَلْ نِهَايَتَكَ إليهِ، فإنَّ إلى رَبِّكَ المُنْتَهى، إليهِ انْتَهَت الأسبابُ والغاياتُ، فَلَيْسَ وَرَاءَهُ مَرْمًى يُنْتَهى إِلَيْهِ).[1]

(**فتَأَمَّلْ عُبُودِيَّةَ هَذَيْنِ الاسْمَيْنِ** [الأَوَّلِ والآخِرِ] وَمَا يُوجِبَانِهِ منْ صِحَّةِ الاضطرارِ إلى اللهِ وحدَهُ، وَدَوَامِ الفقرِ إليهِ دونَ كلِّ شيءٍ سواهُ، وأنَّ الأمرَ ابْتَدَأَ منهُ وإليهِ يُرْفَعُ.

فهوَ المبتَدِئُ بالفضلِ حيثُ لا سببَ ولا وسيلةَ، وإليهِ يَنْتَهِي الأمرُ حيثُ تَنْتَهِي الأسبابُ والوسائلُ.

فهوَ أَوَّلُ كلِّ شيءٍ وآخِرُهُ، وكما أنَّهُ ربُّ كلِّ شيءٍ وفاعلُهُ وخالقُهُ وَبَارِئُهُ، فهوَ إِلَهُهُ وَغَايَتُهُ التي لا صلاحَ لهُ ولا فلاحَ ولا كمالَ إلاَّ بأنْ يَكُونَ هوَ غايتَهُ وَحْدَهُ، كما أنَّهُ لا وجودَ لهُ إلاَّ بكونِهِ وحدَهُ هوَ ربَّهُ وَخَالِقَهُ، وكذلكَ لا كمالَ لهُ ولا صلاحَ إلاَّ بكونِهِ تَعَالَى وحدَهُ هوَ غايتَهُ ونهايتَهُ ومقصودَهُ، فهوَ الأوَّلُ الذي ابْتَدَأَتْ منهُ المخلوقاتُ، والآخِرُ الذي انْتَهَتْ إليهِ عُبُودِيَّاتُهَا وَإِرَادَاتُهَا وَمَحَبَّتُهَا، فليسَ وراءَ اللهِ شيءٌ يُقْصَدُ وَيُعْبَدُ وَيُتَأَلَّهُ، كَمَا أَنَّهُ ليسَ قبلَهُ شيءٌ يَخْلُقُ وَيَبْرَأُ؛ فكما كانَ وَاحِداً في إيجادِكَ فَاجْعَلْهُ وَاحِداً في تَأَلُّهِكَ وَعُبُودِيَّتِكَ، وَكَما ابْتَدَأَ وُجُودَكَ وَخَلْقَكَ منهُ فاجْعَلْهُ نِهَايَةَ حُبِّكَ وَإِرَادَتِكَ وَتَأَلُّهِكَ إِلَيْهِ لِتَصِحَّ لَكَ عُبُودِيَّتُهُ بِاسْمِهِ «**الأَوَّلِ والآخرِ**»، وَأَكْثَرُ الخَلْقِ تَعَبَّدُوا لَهُ بِاسْمِهِ «**الأَوَّلِ**». وَإِنَّمَا الشَّأْنُ في التَّعَبُّدِ لهُ باسمِهِ «**الآخرِ**» فَهَذِهِ عُبُودِيَّةُ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِم، فهوَ رَبُّ العالمينَ وإِلَهُ المُرْسَلِينَ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ.

---

(١) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (٢٣-٢٥).

وَأَمَّا عُبُودِيَّتُهُ بِاسْمِهِ «**الظاهر**» فَكَمَا فَسَّرَهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: «وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ». [١]

((فَجَعَلَ كَمَالَ الظهورِ مُوجِباً لكمالِ الفوقيَّةِ، ولا ريبَ أنَّهُ ظاهرٌ بذاتِهِ فوقَ كلِّ شيءٍ، والظهورُ هنا العلوُّ، ومنهُ قَوْلُهُ: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]؛ أيْ: يَعْلُوهُ، وَقَرَّرَ هذا المَعْنَى بقولِهِ: «فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ». أيْ: أنتَ فوقَ الأشياءِ كُلِّهَا لَيْسَ لهذا اللفظِ مَعْنًى غَيْرُ ذلكَ، ولا يَصِحُّ أَنْ يُحْمَلَ الظهورُ على الغَلَبَةِ؛ لأَنَّهُ قَابَلَهُ بقولِهِ: «وَأَنْتَ البَاطِنُ»)). [٢]

فإذا تَحَقَّقَ العَبْدُ عُلُوَّهُ المُطْلَقَ عَلَى كلِّ شيءٍ بذاتِهِ، وأنَّهُ ليسَ شيءٌ فوقَهُ الْبَتَّةَ، وأنَّهُ قاهرٌ فوقَ عبادِهِ، يُدَبِّرُ الأمرَ من السماءِ إلى الأرضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إليهِ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، صارَ لِقَلْبِهِ أَمَماً يَقْصِدُهُ، وَرَبًّا يَعْبُدُهُ، وَإِلَهاً يَتَوَجَّهُ إليهِ، بخلافِ مَنْ لا يَدْرِي أَيْنَ رَبُّهُ، فَإِنَّهُ ضَائِعٌ مُشَتَّتُ القلبِ، ليسَ لقلبِهِ قِبْلَةٌ يَتَوَجَّهُ نَحْوَهَا، ولا معبودَ يَتَوَجَّهُ إليهِ قَصْدُهُ.

فَصَاحِبُ هذهِ الحالِ إذا سَلَكَ وَتَأَلَّهَ وَتَعَبَّدَ طَلَبَ قَلْبُهُ إِلَهاً يَسْكُنُ إليهِ وَيَتَوَجَّهُ إليهِ، وَقَد اعْتَقَدَ أنَّهُ ليسَ فوقَ العرشِ شيءٌ إلاَّ العدمُ، وأنَّهُ ليسَ فوقَ العالمِ إِلَهٌ يُعْبَدُ وَيُصَلَّى لهُ ويُسْجَدُ، وَأَنَّهُ ليسَ على العرشِ مَنْ يَصْعَدُ إليهِ الكَلِمُ الطَّيِّبُ، وَلا يُرْفَعُ إليهِ العملُ الصالحُ، جَالَ قَلْبُهُ في الوجودِ جميعِهِ، فَوَقَعَ في الاتِّحَادِ ولا بُدَّ، فَتَعَلَّقَ قَلْبُهُ بالوجودِ المُطْلَقِ السَّارِي في المُعَيَّنَاتِ، فَاتَّخَذَهُ إِلَهَهُ من دونِ الإلَهِ الحقِّ، وَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ وَصَلَ إلى عَيْنِ الحقيقةِ!!

---

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٣٣٥.

(٢) مُخْتَصَرُ الصواعِقِ المرسَلَةِ (٣٥٧).

وقال –رَحِمَهُ اللهُ تعالى– في مَدارجِ السَّالكِينَ (١/ ٥٥): (وكذلك اسمُهُ (الظاهِرُ) مِن لوازِمِه: أن لا يكونَ فوقَهُ شيءٌ، كما في الصحيحِ عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: «وَأَنْتَ الظَّاهِرُ لَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ». بل هو سُبحانَهُ فوقَ كُلِّ شيءٍ).

وإنَّما تألَّه وتعبَّدَ لمخلوقٍ مِثْلِهِ أوْ لخيالٍ نحتهُ بِفكْرِهِ واتَّخذهُ إلهاً من دونِ اللهِ سبحانهُ.

وإلهُ الرُّسلِ وراءَ ذلك كُلِّهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس: ٣-٤]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: ٤-٩].

فَقَدْ تعرَّفَ سُبْحانَهُ إلى عبادِهِ بكلامِهِ معرفةً لا يَجحدُها إلاَّ مَنْ أنْكرَهُ سبحانهُ وإنْ زعمَ أنَّهُ مُقِرٌّ به.

والمقصودُ أنَّ التَّعبُّدَ باسمِهِ «**الظاهر**» يَجمَعُ القلبَ على المعبودِ، ويَجْعلُ لَهُ ربَّاً يَقْصِدُهُ وصَمَداً يَصْمُدُ إليهِ في حوائجِهِ ومَلْجأً يَلْجأُ إِلَيْهِ.

فإذا اسْتقرَّ ذلكَ في قلبِهِ وعرَفَ ربَّهُ باسْمِهِ «**الظاهر**» اسْتَقامَتْ لهُ عُبودِيَّتُهُ، وَصارَ لهُ مَعْقِلٌ ومَوْئِلٌ يَلْجأُ إليهِ، ويَهْرُبُ إليهِ، ويَفِرُّ كُلَّ وقْتٍ إليهِ.

• أمَّا تَعَبُّدُهُ باسمِهِ «**الباطنِ**» فَأَمْرٌ يَضِيقُ نِطَاقُ التعبيرِ عنْ حقيقتِهِ، وَيَكِلُّ اللسانُ عنْ وصفِهِ، وَتَصْطَلِمُ الإشارةُ إليهِ، وَتَجْفُو العبارةُ عنهُ؛ فإنَّهُ يَسْتَلْزِمُ مَعْرِفَةً بَرِيئَةً مِنْ شوائبِ التعطيلِ، مُخْلَصَةً منْ فَرْثِ التشبيهِ، مُنَـزَّهَةً منْ رِجْسِ الحلولِ والاتِّحادِ، وعبارةً مُؤَدِّيَةً للمَعْنَى كاشفةً عنهُ، وذوقاً صَحِيحاً سَلِيماً منْ أذواقِ أهلِ الانحرافِ، فمَنْ رُزِقَ هذا فَهِمَ معنَى اسْمِهِ «**الباطنِ**» وَصَحَّ لهُ التَّعَبُّدُ بهِ.

وَسُبْحَانَ اللهِ!! كَمْ زَلَّتْ في هذا المقامِ أَقْدَامٌ!! وَضَلَّتْ فيهِ أفهامٌ، وَنَطَمَ فيهِ الزِّنْدِيقُ بِلِسَانِ الصِّدِّيقِ، فَاشْتَبَهَ فيهِ إخوانُ النَّصارَى بالحُنَفَاءِ المُخْلَصِينَ، لِنُبُوِّ الأفهامِ عنهُ، وَعِزَّةِ تَخَلُّصِ الحقِّ من الباطلِ فيهِ، والْتِبَاسِ ما في الذهنِ بما في الخارجِ، إلاَّ على مَنْ رَزَقَهُ اللهُ بصيرةً في الحقِّ، وَنُوراً يُمَيِّزُ بهِ بينَ الهُدَى والضلالِ، وَفُرْقَاناً يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الحقِّ والباطلِ، وَرُزِقَ معَ ذلكَ اطِّلاعاً على أسبابِ الخطأِ، وَتَفَرُّقِ الطُّرُقِ، ومَثَارِ الغَلَطِ، فكانَ لهُ بَصِيرَةٌ في الحقِّ والباطلِ، وذلكَ فضلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ.

وَبَابُ هذهِ المعرفةِ والتَّعَبُّدِ هوَ مَعْرِفَةُ إحاطةِ الربِّ تَبَارَكَ وتَعَالَى بالعالَمِ وعظمتِهِ، وأنَّ العوالِمَ كُلَّهَا في قَبْضَتِهِ، وأنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ في يَدِهِ كَخَرْدَلَةٍ في يَدِ العَبْدِ، قَـالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] وقالَ: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [البروج: ٢٠].

ولهذا يَقْرِنُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ هذينِ الاسمَيْنِ الدالَّيْنِ على هَذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ: اسمِ العلوِّ الدالِّ على أنَّهُ الظاهرُ، وأنَّهُ لا شَيْءَ فوقَهُ، واسمِ العظمةِ الدَّالِّ على الإحاطةِ، وأنَّهُ لا شيءَ دونَهُ، كما قالَ تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣] وقالَ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة: ١١٥].

وهوَ تبارَكَ وتعالَى كما أنَّهُ العالِي على خلقِهِ بذاتِهِ فليسَ فوقَهُ شيءٌ، فهوَ الباطنُ بذاتِهِ فليسَ دونَهُ شيءٌ، بلْ ظهَرَ على كلِّ شيءٍ، فكانَ فوقَهُ، وبطَنَ فكانَ أقْرَبَ إلى كلِّ شيءٍ منْ نفسِهِ، وهوَ مُحيطٌ بِهِ حيثُ لا يُحيطُ الشيءُ بنفْسِهِ، وكلُّ شيءٍ في قبْضتِهِ، وليسَ شيءٌ في قبضةِ نفسِهِ، فهذا قُرْبُ الإحاطةِ العامَّةِ.

وأمَّا القُرْبُ المذْكُورُ في القرآنِ والسُّنَّةِ فقُرْبٌ خاصٌّ منْ عابديهِ وسائِليهِ وداعِيهِ، وهوَ منْ ثمرةِ التَّعبُّدِ باسمِهِ «**الباطنِ**»، قالَ تعالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. فهذا قُرْبُهُ منْ داعِيهِ.

وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦].

فذكَّرَ الخبَرَ، وهوَ «قريبٌ» عنْ لفظِ «الرحمةِ» وهيَ مُؤنَّثةٌ إيذاناً بقُرْبِهِ تعالَى من المحسنِ، فكأنَّهُ قالَ: إنَّ اللهَ برحْمتِهِ قريبٌ من المُحْسنِينَ.

وفي الصحيحِ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ: «**أقْرَبُ ما يكُونُ العبْدُ منْ ربِّهِ وهوَ ساجدٌ**».[1] و«**أقْرَبُ ما يكُونُ الرَّبُّ منْ عبْدِهِ في جوْفِ اللَّيْلِ**»[2]، فهذا قُرْبٌ خاصٌّ غيرُ قُرْبِ الإحاطةِ وقُرْبِ البُطُونِ.

وفي (الصحيحِ) منْ حديثِ أبي موسَى أنَّهُم كانُوا معَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في سفرٍ، فارْتفعتْ أصْواتُهُم بالتكبيرِ، فقالَ: «**أيُّها النَّاسُ ارْبعُوا علَى أنْفُسِكُمْ، فإنَّكُمْ لا تدْعُونَ أصمَّ ولا غائِباً، إنَّ الَّذِي تدْعُونَهُ سميعٌ قريبٌ، أقْرَبُ إلَى أحدِكُمْ منْ عُنُقِ راحِلتِهِ**».[3] فهذا قُرْبُهُ منْ داعِيهِ وذاكِرِهِ، يعْنِي: فأيُّ

---

(١) سَبَقَ تخريجُه ص ٢٥٦.

(٢) رواهُ التِّرْمِذِيُّ في كتاب الدعوات / باب (١١٩) الحديث (٣٥٧٩) والنَّسَائِيُّ في كتابِ المواقيتِ / بابُ النهيِ عن الصلاةِ بعدَ العصرِ (٥٧١) من حديثِ عمرِو بنِ عَبَسَةَ رضيَ اللهُ عنه.

(٣) رَوَاهُ الإمامُ أحْمَدُ (١٩٠٢٦) والبُخَارِيُّ في كتابِ التوحيدِ / باب: «وكانَ اللهُ سميعًا بصيرًا» (٧٣٨٦) ومواضعَ أُخَر، ومسلمٌ في كتابِ الذِّكْرِ والدعاءِ / بابُ استحبابِ خفضِ الصوتِ بالذكرِ

حَاجَةٍ بِكُمْ إِلَى رَفْعِ الأَصْوَاتِ، وهوَ لِقُرْبِهِ يَسْمَعُهَا وَإِنْ خَفَضْتَ، كَمَا يَسْمَعُهَا إِذَا رَفَعْتَ، فَإِنَّهُ سَمِيعٌ قريبٌ.

وهذا القربُ هوَ منْ لَوَازِمِ المَحبَّةِ، فَكُلَّمَا كَانَ الحبُّ أَعْظَمَ كَانَ القربُ أَكْثَرَ، وقد اسْتَوْلَتْ مَحَبَّةُ المحبوبِ على قلبِ مُحِبِّهِ بِحَيْثُ يَفْنَى بها عنْ غيرِهَا، وَيَغْلِبُ مَحْبُوبُهُ على قلبِهِ حتَّى كَأَنَّهُ يَراهُ وَيُشَاهِدُهُ، فإنْ لم يَكُنْ عندَهُ مَعْرِفَةٌ صحيحةٌ باللهِ وما يَجِبُ لهُ وَيَسْتَحِيلُ عليهِ، وإلاَّ طَرَقَ بابَ الحلولِ إنْ لم يَلِجْهُ، وَسَبَبُهُ ضَعْفُ تَمْيِيزِهِ، وَقُوَّةُ سُلْطَانِ المَحبَّةِ، وَاسْتِيلاءُ المَحْبُوبِ على قَلْبِهِ بحيث يَغِيبُ عنْ ملاحظةِ سواهُ، وفي مِثْلِ هذهِ الحالِ يَقُولُ: سُبْحَانِي، أَوْ: مَا فِي الجُبَّةِ إلاَّ اللهُ، ونحوَ هذا من الشَّطَحَاتِ التي نِهَايَتُهَا أنْ يُغْفَرَ لهُ، وَيُعْذَرَ لِسُكْرِهِ، وَعَدَمِ تَمْيِيزِهِ في تلكَ الحالِ.

فَالتعبُّدُ بهذا الاسمِ هوَ التَّعَبُّدُ بِخَالِصِ المَحبَّةِ وصفوِ الودادِ، وأنْ يَكُونَ الإِلَهُ أَقْرَبَ إليهِ منْ كلِّ شيءٍ، وأقربَ إليهِ منْ نفسهِ، معَ كونِهِ ظَاهِراً ليسَ فوقَهُ شيءٌ، ومَنْ كَثُفَ ذِهْنُهُ وَغَلُظَ طَبْعُهُ عنْ فهمِ هذا فَلْيَضْرِبْ عَنْهُ صَفْحاً إلى ما هوَ أَوْلَى بِهِ، فقدْ قِيلَ:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئاً فَدَعْهُ ... وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

فمَنْ لمْ يكُنْ لهُ ذَوْقٌ منْ قُرْبِ المحبَّةِ، ومعرفةٌ بِقُرْبِ المحبوبِ منْ مُحِبِّهِ غايةَ القُرْبِ وإنْ كانَ بَيْنَهُمَا غايَةُ المسافةِ -ولا سِيَّمَا إذا كانت المَحَبَّةُ من الطَّرَفَيْنِ، وهيَ مَحَبَّةٌ بريئةٌ من العِلَلِ والشوائبِ والأعراضِ القادحةِ فيها- فإنَّ المُحِبَّ كَثِيراً ما يَسْتَوْلِي مَحْبُوبُهُ على قَلْبِهِ وَذِكْرِهِ وَيَفْنَى عنْ غَيْرِهِ وَيَرِقُّ قلبُهُ وَتَتَجَرَّدُ نَفْسُهُ، فَيُشَاهِدُ مَحْبُوبَهُ كالحاضرِ معهُ القريبِ إليهِ، وَبَيْنَهُمَا مِنَ البعدِ ما بَيْنَهُمَا،

(٦٨٠٢) والتِّرمِذيُّ في كتابِ الدَّعَواتِ / بابُ (٣) الحديثُ (٣٣٧٤) وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ / بابٌ في الاستغفارِ (١٥٢٣).

وفي هذهِ الحالِ يكونُ في قلبِهِ وُجُودُهُ العِلْمِيُّ، وفي لسانِهِ وجودُهُ اللَّفظِيُّ، فَيَسْتَوْلِي هذا الشهودُ عليهِ، وَيَغِيبُ بِهِ، فَيَظُنُّ أَنَّ في عينِهِ وُجُودَهُ الخَارِجِيَّ لِغَلَبَةِ حُكْمِ القلبِ والروحِ كما قِيلَ:

خَيَالُـكَ فِي عَيْنِي وَذِكْرُكَ فِي فَمِي ... وَمَثْـوَاكَ فِي قَلْبِـي فَأَيْـنَ تَغِيـبُ

هذا، ويكونُ ذلكَ المحبوبُ بعينِهِ بينَهُ وبينَ عَدُوِّهِ من البُعْدِ ما بَيْنَهُمَا وَإِنْ قَرُبَت الأبدانُ وَتَلاصَقَتِ الدِّيَارُ.

والمقصودُ أَنَّ المِثَالَ العِلْمِيَّ غيرُ الحقيقةِ الخارجيَّةِ وإنْ كانَ مُطَابِقاً لها، لكنَّ المثالَ العِلْمِيَّ مَحَلُّهُ القَلْبُ، والحقيقةَ الخارجيَّةَ مَحَلُّهَا الخَارِجُ.

((فَإِذَا شَهِدْتَ إِحَاطَتَهُ بِالعَوَالِمِ وَقُرْبَ العَبِيدِ مِنْهُ وَظُهُورَ الْبَوَاطِنِ لَهُ وَبُدُوَّ السَّرَائِرِ لَهُ وَأَنَّهُ لا شَيْءَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، فَعَامِلْهُ بِمُقْتَضَى هَذَا الشُّهُودِ وَطَهِّرْ لَهُ سَرِيرَتَكَ فَإِنَّهَا عِنْدَهُ عَلانِيَةٌ، وَأَصْلِحْ لَهُ غَيْبَكَ؛ فَإِنَّهُ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ، وَزَكِّ لَهُ بَاطِنَكَ فَإِنَّهُ عِنْدَهُ ظَاهِرٌ)).(١)

فمعرفةُ هذهِ الأسماءِ الأربعةِ وهيَ: الأوَّلُ، والآخرُ، والظاهرُ، والباطنُ، هيَ أركانُ العلمِ والمعرفةِ، فَحَقِيقٌ بالعبدِ أنْ يَبْلُغَ في مَعْرِفَتِهَا إلى حيثُ يَنْتَهِي بهِ قُوَاهُ وَفَهْمُهُ).(٢)

(فَانْظُرْ كَيْفَ كانتْ هذهِ الأسماءُ الأربعةُ جماعَ المعرفةِ باللهِ وجماعَ العبوديَّةِ لهُ، فَهُنَا وَقَفَتْ شهادةُ العبدِ معَ فضلِ خالقِهِ وَمِنَّتِهِ فلا يَرَى لِغَيْرِهِ شَيْئاً إلاَّ بهِ وبحولِهِ وقوَّتِهِ، وَغَابَ بِفَضْلِ مولاهُ الحقِّ عنْ جميعِ ما منهُ هوَ مِمَّا كانَ يَسْتَنِدُ إليهِ أوْ يَتَحَلَّى بهِ، أوْ يَتَّخِذُهُ عقدَةً، أوْ يَرَاهُ ليومِ فَاقَتِهِ، أوْ يَعْتَمِدُ عليهِ في مَهَمٍّ مِنْ مَهَمَّاتِهِ، فكلُّ ذلكَ مِنْ قصورِ نظرِهِ وانعكاسِهِ عن الحقائقِ والأصولِ إلى

---

(١) طَرِيقُ الهجرتَين (٢٥).

(٢) طَرِيقُ الهجرتَين (١٩-٢٣).

الأسبابِ والفروعِ، كما هوَ شأنُ الطبيعةِ والهَوَى وَمُوجَبُ الظلم والجهلِ، والإنسانُ ظَلُومٌ جَهُولٌ. فَمَنْ جَلَّى اللهُ سُبْحانَهُ صَدَأَ بَصِيرَتِهِ، وَكَمَّلَ فِطْرَتَهُ، وَأَوْقَفَهُ على مَبَادِئِ الأمورِ وَغَايَاتِها وَمَنَاطِهَا وَمَصَادِرِهَا وَمَوَارِدِهَا؛ أَصْبَحَ كالمُفْلِسِ حَقًّا منْ عُلُومِهِ، وَأَعْمَالِهِ، وَأَحْوَالِهِ، وَأَذْوَاقِهِ، يَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ عِلْمِي ومِنْ عَمَلِي، أَيْ: مِن انْتِسَابِي إِلَيْهِمَا وَغَيْبَتِي بهما عنْ فضلِ مَنْ ذَكَّرَنِي بهما وَابْتَدَأَنِي بِإِعْطَائِهِمَا مِنْ غيرِ تَقَدُّمِ سَبَبٍ مِنِّي يُوجِبُ ذَلِكَ.

فهوَ لا يَشْهَدُ غَيْرَ فضلِ مولاهُ وَسَبْقِ مِنَّتِهِ وَدَوَامِهَا، **فَيُثِيبُهُ مَوْلاهُ على هذهِ الشهادةِ العاليَةِ بحقيقةِ الفقرِ الأوسطِ بينَ الفقرَيْنِ الأَدْنَى والأَعْلَى ثَوَابَيْنِ:**

أحدُهُمَا: الخلاصُ منْ رؤيَةِ الأعمالِ، حيثُ كانَ يَرَاهَا وَيَتَمَدَّحُ بِهَا وَيَسْتَكْثِرُهَا، فَيَسْتَغْرِقُ بِمُطَالَعَةِ الفضلِ غَائِباً عنها ذَاهِباً عنها فَانِياً عنْ رُؤْيَتِهَا.

الثوابُ الثاني: أنْ يَقْطَعَهُ عنْ شهودِ الأحوالِ - أيْ: عنْ شهودِ نفسِهِ فيها مُتَكَثِّرَةً بِهَا - فإنَّ الحالَ مَحَلُّهُ الصدرُ، والصدرُ بيتُ القلبِ والنفسِ، فإذا نَزَلَ العطاءُ في الصدرِ للقلبِ وَثَبَتِ النفسُ لِتَأْخُذَ نَصِيبَهَا من العطاءِ فَتَتَمَدَّحُ بِهِ وتُدِلُّ بِهِ وَتَزْهُو وَتَسْتَطِيلُ وَتُقَرِّرُ إِنِّيَّتَهَا؛ لأَنَّهَا جاهلةٌ ظالمةٌ، وهذا مُقْتَضَى الجهلِ والظلمِ.

فإذا وَصَلَ إلى القلبِ نُورُ صفةِ المِنَّةِ، وشَهِدَ مَعْنَى اسْمِهِ «المَنَّانِ»، وَتَجَلَّى سبحانَهُ على قلبِ عَبْدِهِ بهذا الاسمِ معَ اسمِهِ «الأوَّلِ» ذَهَلَ القلبُ والنفسُ بِهِ، وصارَ العبدُ فقيراً إلى مولاهُ بمطالعةِ سَبْقِ فضلِهِ الأوَّلِ، فصارَ مَقْطُوعاً عنْ شهودِ أمرٍ أوْ حالٍ يَنْسُبُهُ إلى نفسِهِ بحيثُ يكونُ بشهادتِهِ لحالِهِ مَفْصُوماً مَقْطُوعاً عَنْ رُؤْيَةِ عِزَّةِ مولاهُ وَفَاطِرِهِ وملاحظةِ صفاتِهِ.

فَصَاحِبُ شُهُودِ الأحوالِ مُنْقَطِعٌ عنْ رؤيَةِ مِنَّةِ خالقِهِ وفضلِهِ ومشاهدةِ سَبْقِ الأَوَّلِيَّةِ للأسبابِ كلِّهَا، وَغَائِبٌ بمشاهدةِ عِزَّةِ نَفْسِهِ عنْ عزَّةِ مولاهُ، فَيَنْعَكِسُ

هذا الأمرُ في حقِّ هذا العبدِ الفقيرِ، وَتَشْغَلُهُ رُؤْيَةُ عِزَّةِ مَوْلاهُ وَمِنَّتِهِ، ومشاهدةُ سَبْقِهِ بِالأَوَّلِيَّةِ عن حالٍ يَعْتَزُّ بِهَا العبدُ أوْ يَشْرُفُ بها). [١]

[فَصْلٌ]

(وَ[النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] أَرْشَدَ مَنْ يُلِيَ بشيءٍ منْ وسوسةِ التَّسَلْسُلِ في الفَاعِلِينَ، إذا قِيلَ لهُ: هذا اللهُ خَلَقَ الخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ أَنْ يَقْرَأَ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣].

وكذلكَ قالَ ابنُ عبَّاسٍ لأبي زُمَيْلٍ سِمَاكِ بنِ الوليدِ الحَنَفِيِّ وَقَدْ سَأَلَهُ: ما شَيْءٌ أَجِدُهُ في صَدْرِي؟ قالَ: ما هوَ؟ قالَ: قُلْتُ: واللهِ لا أَتكَلَّمُ بهِ. قالَ: فقالَ لي: أَشَيْءٌ مِنْ شَكٍّ؟ قُلْتُ: بَلَى، فقالَ لي: مَا نَجَا منْ ذلكَ أَحَدٌ حتَّى أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، قالَ: فقالَ لي: فإذا وَجَدْتَ في نَفْسِكَ شيئاً، فَقُلْ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣]. [٢]

فَأَرْشَدَهُم بهذهِ الآيَةِ إلى بُطْلانِ التسلسلِ الباطلِ بِبَدِيهَةِ العقلِ، وأنَّ سلسلةَ المخلوقاتِ في ابْتِدَائِهَا تَنْتَهِي إلى أَوَّلٍ ليسَ قبلَهُ شَيْءٌ، كما تَنْتَهِي في آخرِهَا إلى آخِرٍ ليسَ بَعْدَهُ شيءٌ، كما أنَّ ظُهُورَهُ هُوَ العُلُوُّ الذي ليسَ فوقَهُ شيءٌ، وبطونَهُ هوَ الإحاطَةُ التي لا يكونُ دُونَهُ فيها شيءٌ، ولوْ كانَ قَبْلَهُ شيءٌ يكونُ مُؤَثِّراً فيهِ، لكانَ ذلكَ هوَ الربَّ الخلاَّقَ، ولا بُدَّ أنْ يَنْتَهِيَ الأمرُ إلى خالقٍ غيرِ مخلوقٍ، وغَنِيٍّ عنْ غَيْرِهِ، وكلُّ شَيْءٍ فقيرٌ إليهِ، قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، وكلُّ شَيْءٍ قائمٌ بِهِ، موجودٌ بِذَاتِهِ، وكُلُّ شَيْءٍ موجودٌ بِهِ، قديمٌ لا أَوَّلَ لهُ، وكلُّ ما سِوَاهُ فَوُجُودُهُ بَعْدَ عَدَمِهِ،

---

(١) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (٢٥-٢٦).

(٢) رَواه أبو داودَ في كتابِ الأدبِ / بابٌ في ردِّ الوَسْوَسَةِ (٥٠٩٩).

بَاقٍ بِذَاتِهِ، وَبَقَاءُ كلِّ شيءٍ بهِ، فهوَ الأوَّلُ الذي لَيْسَ قبلَهُ شيءٌ، والآخِرُ الذي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، الظاهرُ الذي ليسَ فوقَهُ شيءٌ، الباطنُ الذي ليسَ دونَهُ شيءٌ.

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يَقُولَ قَائِلُهُمْ: هَذَا اللهُ خَلَقَ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ».[1] وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠]).[2]

[العَلِيُّ]:

(وَ[هُوَ سُبْحَانَهُ]... «العليُّ»)[3] (العَالِي على كلِّ شيءٍ)[4] (الذي عَلا عنْ كلِّ عَيْبٍ وَسُوءٍ ونقْصٍ).[5]

(و... مِنْ لَوَازِمِ اسمِ «العَلِيِّ»: العُلُوُّ المُطْلَقُ بِكُلِّ اعْتِبَارٍ، فَلَهُ العُلُوُّ المُطْلَقُ مِنْ جميعِ الوجوهِ:

- عُلُوُّ القَدْرِ.
- وعُلُوُّ القَهْرِ.

---

(١) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٨١٧٦) والبُخَارِيُّ في كتابِ بَدْءِ الخلقِ / بابُ صِفةِ إِبليسَ وجُنودِه (٣٢٧٦) ومسلمٌ في كتابِ الإيمانِ / بابٌ في الأمرِ بالإيمانِ والاستعاذةِ عندَ وَسوَسَةِ الشَّيْطَانِ (٣٤٣) وأبو داودَ في كتابِ السُّنَّةِ / بابٌ في الجهميَّةِ (٤٧٠٦) من حديثِ أبي هُرَيْرَة رضيَ اللهُ عنه.

(٢) زَادُ المَعادِ (١/ ٤٦١-٤٦٢).

(٣) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٦٦).

(٤) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (١٣٢)، وقال - رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى - في الصواعقِ المُرسلَةِ (٤/ ١٣٦٥): (يُثْبِتُ بِذَلِكَ عُلُوَّهُ عَلَى المَخْلُوقاتِ وعظَمَتَهُ، فَالْعُلُوُّ رِفعَتُهُ).

(٥) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٦٦).

- وعُلُوُّ الذَّاتِ). [١]

(ومِنْ كمالِ عُلُوِّهِ أَنْ لا يَكُونَ فَوْقَهُ شيْءٌ، بَلْ يَكُونُ فوقَ كلِّ شيءٍ)[٢]

(فهوَ... عالٍ على كلِّ شيءٍ... في ذاتِهِ وَصِفَاتِهِ وأفعالِهِ). [٣]

(و... أَهْلُ السُّنَّةِ يُثْبِتُونَ للهِ -سُبْحَانَهُ- العُلُوَّ الذَّاتِيَّ والمَعْنَوِيَّ). [٤]

(واللهُ أكبرُ ذُو العُلُوِّ المُطْلَقِ الـ ... مَعْلوم بفطرةِ الإنسانِ
فعُلُوُّهُ مِنْ كلِّ وجهٍ ثابتٌ ... فاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ ذو السُّلْطَانِ)[٥]
(لفظُ العليِّ وَلَفْظَةُ الأَعْلى مُعَرَّ ... فَةً أَتَتْكَ هُنَا لِقَصْدِ بَيَانِ
إنَّ العُلُوَّ لهُ بِمُطْلَقِهِ على التْـ ... تَعميم والإطلاق بالبرهانِ
وَلَهُ العُلُوُّ من الوجوهِ جَمِيعِهَا ... ذاتاً وقَهْرَاً مَعْ عُلُوِّ الشَّانِ)[٦]
(وَهُوَ العَلِيُّ يَرَى وَيَسْمَعُ خَلْقَهُ ... من فوقِ عرشٍ فوقَ سِتِّ ثَمَانِ)[٧]
(وَاللهُ أَكْبَرُ عَرْشُهُ وَسِعَ السَّما ... والأرضَ والكرسيَّ ذا الأركانِ
وَكَذَلِكَ الكُرْسِيُّ قَدْ وَسِعَ الطِّبَا ... قَ السَّبْعَ والأَرَضِينَ بالبُرْهَانِ
واللهُ فَوْقَ العَرْشِ والكُرْسِيِّ لا ... يَخْفَى عليهِ خَوَاطِرُ الإنسانِ)[٨]

---

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٥).

(٢) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٦٦).

(٣) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٤/ ١٣٧٩).

(٤) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٤/ ١٣٧٨).

(٥) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٣٣٥).

(٦) القصيدةُ النُّونيَّةُ (١٠٤).

(٧) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٦٤).

(٨) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٣٣٥).

[العَظِيمُ]:

(وهوَ «**العظيمُ**» الذي لهُ العظمةُ، كما في الصحيح عنهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: العَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي»[1]).[2]

(والعظمةُ: عظمةُ قَدْرِهِ ذَاتاً وَوَصْفاً).[3]

(وكلُّ موصوفٍ فَصِفَتُهُ بِحَسَبِهِ؛ فَعِظَمُ الذاتِ شَيْءٌ، وعِظَمُ صِفَاتِهَا شَيْءٌ، وعِظَمُ القَوْلِ شيءٌ، وعِظَمُ الفعلِ شيءٌ، والربُّ تَعَالَى لَهُ العظمةُ بكلِّ اعتبارٍ وكلِّ وجهٍ بذاتِهِ)[4] [و](أهلُ السُّنَّةِ يُثْبِتُونَ للهِ -سبحانَهُ- ... العظمةَ الذاتيَّةَ والمعنويَّةَ).[5]

[فهوَ - تَعَالَى -] (أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ... في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ).[6]

(وَهُوَ العَظِيمُ بكلِّ مَعْنًى يُوجِبُ التْـ ... تَعْظِيمَ لا يُحْصِيهِ مِنْ إِنْسَانِ)[7]

[و] (اسمُ «**العظيمِ**» لَهُ لوازمُ يُنْكِرُهَا مَنْ لم يَعْرِفْ عَظَمَةَ اللهِ ولوازِمَهَا).[8]

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٨٦.

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٣).

(٣) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٤/ ١٣٦٥).

(٤) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٤/ ١٣٧٤).

(٥) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٤/ ١٣٧٨).

(٦) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٤/ ١٣٧٩).

(٧) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢٤٠).

(٨) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٥).

[الحَمِيدُ]:

(«**الحَمِيدُ**»... هوَ الذي لهُ الحمدُ كُلُّهُ)[1] (فالحميدُ «فَعِيلٌ» من الحمدِ، وهوَ بِمَعْنَى «مَحْمُودٍ». وأكثرُ ما يَأْتِي «فَعِيلٌ» في أسمائِهِ تَعَالَى بِمَعْنَى «فاعِلٍ» كَسَمِيعٍ، وبَصِيرٍ، وعَلِيمٍ، وقَدِيرٍ، وعَلِيٍّ، وحَكِيمٍ، وحَلِيمٍ، وهوَ كَثِيرٌ.

وكذلكَ «فَعُولٌ» كَغَفُورٍ، وشكورٍ، وصبورٍ...

وأمَّا «**الحَمِيدُ**» فلم يَأْتِ إلاَّ بِمَعْنَى المحمودِ، وهوَ أَبْلَغُ من المحمودِ؛ فإنَّ «فَعِيلاً» إِذَا عُدِلَ بِهِ عنْ «مفعولٍ» دَلَّ على أنَّ تلكَ الصفةَ قدْ صَارَتْ مِثْلَ السَّجِيَّةِ الغَرِيزِيَّةِ والخُلُقِ اللازمِ، كما إذا قُلْتَ: فُلانٌ ظَرِيفٌ أوْ شَرِيفٌ أوْ كريمٌ.

ولهذا يكونُ هذا البناءُ غَالِباً مِنْ «فَعُلَ» بوزنِ شَرُفَ، وهذا البناءُ منْ أَبْنِيَةِ الغرائزِ والسَّجَايَا اللازمةِ كَكَبُرَ وصَغُرَ وحَسُنَ ولَطُفَ ونحوِ ذلكَ. ولهذا كانَ حَبِيبٌ أَبْلَغَ منْ مَحْبُوبٍ؛ لأنَّ المحبوبَ هوَ الذي حَصَلَتْ فيهِ الصِّفَاتُ والأفعالُ التي يُحَبُّ لأَجْلِهَا. فهوَ حَبِيبٌ في نفسِهِ وإنْ قُدِّرَ أنَّ غيرَهُ لا يُحِبُّهُ لِعَدَمِ شُعُورِهِ بِهِ أوْ لِمَانِعٍ مَنَعَهُ منْ حُبِّهِ، وَأَمَّا المحبوبُ فهوَ الذي تَعَلَّقَ بِهِ حُبُّ المُحِبِّ، فَصَارَ مَحْبُوباً بِحُبِّ الغَيْرِ لهُ، وأمَّا الحبيبُ فهوَ حَبِيبٌ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ تَعَلَّقَ بهِ حُبُّ الغيرِ أوْ لمْ يَتَعَلَّقْ. وهكذا الحميدُ والمحمودُ.

فالحميدُ: الذي لهُ من الصِّفَاتِ وأسبابِ الحمدِ ما يَقْتَضِي أنْ يَكُونَ محموداً وإنْ لم يَحْمَدْهُ غَيْرُهُ، فهوَ حَمِيدٌ في نفسِهِ، والمحمودُ مَنْ تَعَلَّقَ بِهِ حمدُ الحَامِدِينَ، وهكذا المَجِيدُ والمُمَجَّدُ، والكبيرُ والمُكَبَّرُ، والعظيمُ والمُعَظَّمُ.

والحَمْدُ والمَجْدُ إليهما يَرْجِعُ الكمالُ كلُّهُ؛ فإنَّ الحمدَ يَسْتَلْزِمُ الثناءَ والمَحَبَّةَ للمحمودِ، فَمَنْ أَحْبَبْتَهُ ولم تُثْنِ عَلَيْهِ، لم تَكُنْ حَامِداً لهُ، وكذا مَنْ أَثْنَيْتَ عليهِ لِغَرَضٍ ما، ولم تُحِبَّهُ لمْ تَكُنْ حَامِداً لهُ، حتَّى تَكُونَ مُثْنِياً عليهِ مُحِبًّا.

---

(١) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٦٦).

وهذا الثَّنَاءُ والحُبُّ تبَعٌ للأسبابِ المُقْتَضِيَةِ لهُ، وهوَ ما عليهِ المحمودُ منْ صفاتِ الكمالِ ونعوتِ الجلالِ والإحسانِ إلى الغيرِ؛ فإنَّ هذهِ هيَ أسبابُ المَحبَّةِ، وَكُلَّمَا كانتْ هذهِ الصِّفَاتُ أَجْمعَ وأَكْمَلَ كانَ الحمدُ والحُبُّ أتَمَّ وَأَعْظَمَ، واللهُ سُبْحَانَهُ لهُ الكمالُ المطلقُ الذي لا نَقْصَ فيهِ بوجهٍ ما، والإحسانُ كُلُّهُ لهُ وَمِنْهُ. فهوَ أحقُّ بكلِّ حمدٍ، وبكلِّ حُبٍّ منْ كلِّ جهةٍ؛ فهوَ أَهْلٌ أنْ يُحَبَّ لذاتِهِ ولصفاتِهِ ولأفعالِهِ ولأسمائِهِ ولإحسانِهِ ولكلِّ ما صَدَرَ منهُ سُبْحَانَهُ).[1]

(واللهُ سُبْحَانَهُ افْتَتَحَ الخَلْقَ بالحمدِ، وخَتَمَ أمرَ هذا العالَمِ بالحَمْدِ فقالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، وقالَ: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٥].

وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ بالحَمْدِ، وَشَرَعَ دِينَهُ بالحمدِ، وَأَوْجَبَ ثَوَابَهُ وَعِقَابَهُ بالحمدِ، فَحَمْدُهُ منْ لوازمِ ذاتِهِ؛ إذْ يَسْتَحِيلُ أنْ يَكُونَ إلاَّ مَحْمُوداً.

فالحمدُ سَبَبُ الخلقِ وغايتُهُ، بالحمدِ أَوْجَدَهُ، وللحمدِ وُجِدَ، فَحَمْدُهُ واسِعٌ لِمَا وَسِعَ عِلْمُهُ وَرَحْمَتُهُ، وَقَدْ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً، فَلَمْ يُوجِدْ شَيْئاً ولم يُقَدِّرْهُ ولم يَشْرَعْهُ إلاَّ بحمدِهِ ولحمدِهِ، وكلُّ ما خَلَقَهُ وشَرَعَهُ فهوَ مُتَضَمِّنٌ للغاياتِ الحميدةِ... ولهذا مَلأَ حَمْدُهُ سَماواتِهِ وَأَرْضَهُ وَمَا بَيْنَهُمَا وما شاءَ منْ شيءٍ بَعْدُ مِمَّا خَلَقَهُ وَيَخْلُقُهُ بَعْدَ هذا الخلقِ، فَحَمْدُهُ مَلأَ ذلكَ كُلَّهُ.

وَحَمْدُهُ تعَالَى أَنْوَاعٌ:

- حَمْدٌ على رُبُوبِيَّتِهِ.
- وحَمْدٌ على تَفَرُّدِهِ بِهَا.
- وَحَمْدٌ على أُلُوهِيَّتِهِ وَتَفَرُّدِهِ.
- وحَمْدٌ على نِعْمَتِهِ.

(١) جلاءُ الأفهامِ (١٦٤-١٦٥).

- وحَمْدٌ على مِنَّتِهِ.
- وحَمْدٌ على حِكْمَتِهِ.
- وحَمْدٌ على عَدْلِهِ في خَلْقِهِ.
- وحَمْدٌ على غِنَاهُ عنْ إيجَادِ الوَلَدِ والشَّرِيكِ والوليِّ من الذُّلِّ.
- وحَمْدٌ على كَمَالِهِ الذي لا يَلِيقُ بغيرِهِ.

فهوَ محمودٌ على كلِّ حالٍ، وفي كلِّ آنٍ ونَفَسٍ، وعلى كلِّ ما فعَلَ، وكلِّ ما شَرَعَ، وعلى كلِّ ما هوَ مُتَّصِفٌ بهِ، وعلى كلِّ ما هوَ مُنَـزَّهٌ عنهُ، وعلى كلِّ ما في الوجودِ منْ خيرٍ وشرٍّ، وَلَذَّةٍ وَأَلَمٍ، وَعَافِيَةٍ وَبَلاءٍ.

فَكَمَا أَنَّ المُلْكَ كُلَّهُ لَهُ، والقدرةَ كُلَّهَا لَهُ، والعِزَّةَ كُلَّهَا لَهُ، والعلمَ كلَّهُ لهُ، والجمالَ كلَّهُ لهُ، والحمدَ كلَّهُ لهُ كما في الدعاءِ المأثورِ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْمُلْكُ، وَبِيَدِكَ الخَيْرُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّهُ، وَأَنْتَ أَهْلٌ لأَنْ تُحْمَدَ»[(١)].

وما عَمَرَت الدنيا إلاَّ بحمدِهِ، ولا الجنَّةُ إلاَّ بحمدِهِ، ولا النارُ إلاَّ بحمدِهِ، حتَّى إنَّ أَهْلَهَا لَيَحْمَدُونَهُ، كما قالَ الحسنُ: (لقدْ دَخَلَ أهلُ النارِ النارَ وإنَّ قُلُوبَهُم لَتَحْمَدُهُ مَا وَجَدُوا عليهِ منْ حُجَّةٍ ولا سَبيلٍ).[(٢)]

([فـ]الحمدُ هوَ الأصلُ الجامعُ لذلكَ كُلِّهِ، فهوَ عِقْدُ نظامِ الخلقِ والأمرِ، والربُّ تعالَى لهُ الحمدُ كُلُّهُ بِجَمِيعِ وُجُوهِهِ وَاعْتِبَارَاتِهِ وتَصَارِيفِهِ.

فما خَلَقَ شيئاً ولا حَكَمَ بشيءٍ إلاَّ ولهُ فيهِ الحمدُ، فَوَصَلَ حمدُهُ إلى حيثُ وَصَلَ خلقُهُ وأمرُهُ، حمداً حقيقيًّا يَتَضَمَّنُ: مَحَبَّتَهُ، وَالرِّضَا بهِ، والثناءَ عليهِ، والإقرارَ بحكمتِهِ البالغةِ في كلِّ ما خَلَقَهُ وأَمَرَ بهِ).[(٣)]

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ١٦٠.

(٢) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٢١٣-٢١٤).

(٣) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٩١).

[فَصْلٌ: فِي إثباتِ الحمدِ كُلِّه للهِ عَزَّ وَجلَّ...]

(الحمدُ كلُّهُ للهِ رَبِّ العالمِينَ؛ فَإِنَّهُ المحمودُ على ما خَلَقَهُ وأَمَرَ بِهِ وَنَهَى عنهُ ...

[و] كلُّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِ الكونِ شاهدةٌ بحمدِهِ [سُبحانَهُ]، ولهذا سَبَّحَ بحمدِهِ السَّماواتُ السبعُ والأرضُ ومَنْ فِيهِنَّ ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٤٤]، وكانَ في قولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندَ الاعتدالِ من الركوعِ: «رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ مِلْءَ السَّمَاءِ وَمِلْءَ الأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ».

فَلَهُ سُبْحَانَهُ الحَمْدُ حَمْداً يَمْلأُ المَخْلُوقَاتِ والفضاءَ الذي بَيْنَ السماواتِ والأرضِ، وَيَمْلأُ ما يُقَدَّرُ بعدَ ذلكَ مِمَّا يَشَاءُ اللهُ أَنْ يَمْلأَ بِحَمْدِهِ، وذاكَ يَحْتَمِلُ أَمْرَيْنِ:

أحدُهُما: أَنْ يَمْلأَ ما يَخْلُقُهُ اللهُ بعدَ السَّماواتِ والأرضِ، والمَعْنَى أَنَّ الحمدَ مِلْءُ ما خَلَقْتَهُ، وَمِلْءُ مَا تَخْلُقُهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

الثاني: أَنْ يكونَ المَعْنَى: مِلْءَ ما شِئْتَ منْ شَيْءٍ [بَعْدُ] يَمْلأُهُ حَمْدُكَ، أَيْ: يُقَدَّرُ مَمْلُوءاً بِحَمْدِكَ وإِنْ لمْ يَكُنْ مَوْجُوداً.

ولكنْ قدْ يُقَالُ: المَعْنَى الأَوَّلُ أَقْوَى؛ لأَنَّ قولَهُ: «مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ» يَقْتَضِي أَنَّهُ شَيْءٌ يَشَاؤُهُ، وما شاءَ كانَ، والمشيئةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِعَيْنِهِ لا بمُجَرَّدِ ملءِ الحمدِ لهُ. فَتَأَمَّلْهُ.

لكنَّهُ إذا شاءَ كَوْنَهُ فَلَهُ الحمدُ مِلأَهُ، فالمشيئةُ راجعةٌ إلى المملوءِ بالحمدِ، فلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ شَيْئاً مَوْجُوداً يَمْلؤُهُ حَمْدُهُ.

وأيضاً: فإنَّ قولَهُ: «مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ» يَقْتَضِي أَنَّهُ شيءٌ يَشَاؤُهُ سبحانَهُ بعدَ هذهِ المخلوقاتِ، كما يَخْلُقُهُ بعدَ ذلكَ منْ مخلوقاتِهِ من القيامةِ وما بعدَهَا. ولوْ أُرِيدَ

تَقْدِيرُ خَلْقِهِ لَقِيلَ: وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ مَعَ ذلك؛ لأَنَّ الْمُقَدَّرَ يكونُ مع الْمُحَقَّقِ.

وأيضاً: فإِنَّهُ لم يَقُلْ: مِلْءَ ما شِئْتَ أَنْ يَمْلأَهُ الحمدُ، بلْ قالَ: ما شِئْتَ، والعبدُ قدْ حَمِدَ حَمْداً أَخْبَرَ بهِ، وإنَّ ثَنَاءَهُ وَوَصْفَهُ بِأَنَّهُ يَمْلأُ مَا خَلَقَهُ الربُّ سُبْحَانَهُ وَمَا يَشَاءُ بَعْدَ ذَلِكَ.

وأيضاً: فقولُهُ: «**وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ**» يَقْتَضِي إِثْبَاتَ مَشِيئَةٍ تَتَعَلَّقُ بِشَيْءٍ بَعْدَ ذلكَ.

وعلى الوجهِ الثاني قدْ تَتَعَلَّقُ المشيئةُ بملءِ الْمُقَدَّرِ، وقدْ لا تَتَعَلَّقُ.

وأيضاً: فإذا قِيلَ: مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ ذلكَ؛ كانَ الحمدُ مَالِئاً لِمَا هوَ موجودٌ يَشَاؤُهُ الربُّ دائماً، ولا رَيْبَ أنَّ لهُ الحمدَ دَائِماً في الأُولَى والآخرةِ، وأَمَّا إذا قُدِّرَ ما يَمْلَؤُهُ الحمدُ وهوَ غيرُ موجودٍ، فَالْمُقَدَّرَاتُ لا حَدَّ لها، وما مِنْ شيءٍ منها إلاَّ يُمْكِنُ تقديرُ شيءٍ بَعْدَهُ، وَتَقْدِيرُ ما لا نهايَةَ لهُ كَتَقْدِيرِ الأعدادِ.

ولوْ أُرِيدَ هذا الْمَعْنَى لم يَحْتَجْ إلى تعليقِهِ بالمشيئةِ، بلْ قِيلَ: مِلْءَ مَا لا يَتَنَاهى، فأَمَّا ما يَشَاؤُهُ الربُّ تَعَالَى فلا يكونُ إلاَّ مَوْجُوداً مُقَدَّراً، وإنْ كانَ لا آخرَ لنوعِ الحوادثِ وبقاءِ ما يَبْقَى منها، فهذا كلُّهُ مِمَّا يَشَاؤُهُ بَعْدُ.

وأيضاً: فالحمدُ هوَ الإخبارُ بِمَحَاسِنِ المحمودِ على وَجهِ الحُبِّ لهُ، ومحاسِنُ المحمودِ تَعالَى إمَّا قَائِمَةٌ بذاتِهِ، وإمَّا ظاهرةٌ في مخلوقاتِهِ، فأمَّا المعدومُ المَحْضُ الذي لمْ يُخْلَقْ ولا خُلِقَ قطُّ فذَاكَ لَيْسَ فيهِ محَاسِنُ ولا غيرُهَا، فلا محَامِدَ فيهِ الْبَتَّةَ.

فـ «**الحمدُ للهِ**» الذي يَمْلأُ المخلوقاتِ ما وُجِدَ منها وما يُوجَدُ، هوَ حَمْدٌ يَتَضَمَّنُ الثناءَ عليهِ بكمالِهِ القائمِ بذاتِهِ والمحاسنِ الظاهرةِ في مخلوقاتِهِ، وأمَّا ما لا وُجُودَ لهُ فلا محَامِدَ منهُ ولا مَذَامَّ؛ فَجَعَلَ الحمدَ مَالِئاً لِمَا لا حقيقةَ لهُ.

وقد اخْتَلَفَ الناسُ في معنَى كونِ حمدِهِ يَمْلأُ السَّمَاواتِ والأرضَ وما بينَهُمَا:

فقالَ طائفةٌ: هذا على جهةِ التمثيلِ: أيْ: لَوْ كانَ أَجْسَاماً لَمَلأَ السَّمَاواتِ والأرضَ وما بَيْنَهُمَا. قَالُوا: فإنَّ الحمدَ مِنْ قَبيلِ المعاني والأعراضِ التي لا تُمْلأُ بها الأجسامُ، ولا تُمْلأُ الأجسامُ إلاَّ بالأجسامِ.

والصوابُ أنَّهُ لا يُحْتَاجُ إلى هذا التَّكَلُّفِ البارِدِ؛ فإنَّ مِلْءَ كلِّ شيءٍ يكونُ بِحَسَبِ المالِئِ وَالمَمْلُوءِ، فإذا قِيلَ: امْتَلأَ الإناءُ مَاءً، وَامْتَلأَت الجَفْنَةُ طَعَاماً؛ فهذا الامتلاءُ نوعٌ.

- **وإذا قِيلَ**: امْتَلأَت الدارُ رِجالاً، وَامْتَلأَت المدينةُ خَيْلاً وَرِجَالاً؛ فهذا نوعٌ آخرُ.
- **وإذا قِيلَ**: امْتَلأَ الكتابُ سُطُوراً؛ فهذا نوعٌ آخرُ.
- **وإذا قِيلَ**: امْتَلأَتْ مَسَامِعُ الناسِ حَمْداً أَوْ ذَمًّا لفُلانٍ؛ فهذا نوعٌ آخرُ، كما في أَثَرٍ معروفٍ: «**أَهْلُ الجنَّةِ مَن امْتَلأَتْ مَسَامِعُهُ مِنْ ثَنَاءِ الناسِ عليهِ، وأهلُ النارِ مَن امْتَلأَتْ مَسَامِعُهُ منْ ذَمِّ الناسِ لهُ**».[1] وقالَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ في عبدِ اللهِ بنِ

---

(١) أخرَجَهُ ابنُ المبارَكِ في الزُّهدِ (١/ ١٥٤)، وابنُ أبي عاصمٍ في الزهدِ (١/ ١٣) بلفظٍ مُقاربٍ من حديثِ أبي الجَوْزَاءِ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجنةِ وأَهْلِ النارِ؟ أَهْلُ الجَنَّةِ مَن مُلِئَتْ مَسامِعُهُ مِنَ الثَّنَاءِ الحَسَنِ وَهُوَ يَسْمَعُ، وأَهْلُ النَّارِ مَنْ مُلِئَتْ مَسَامِعُهُ مِنَ الثَّنَاءِ السَّيِّئِ وَهُوَ يَسْمَعُ».
وهو مُرْسَلٌ.
وقد رُوِيَ نحوُهُ بأسانيدَ مُختلفةٍ:
- فرُوِيَ من طريقِ سُليمانَ بنِ المغيرةِ، عن ثابتٍ، عن أنسِ بنِ مالكٍ، رضيَ اللهُ عنه، مرفوعًا. رواهُ عن سُليمانَ:
أبو الظُّفرِ عَبْدُ السلامِ بنُ مُطَهَّرٍ: كما عند البُخَارِيِّ في التاريخِ الكبيرِ (٢/ ٩٣)، والضِّياءِ المَقْدِسِيِّ في المختارةِ (٥/ ١٠١)
وعَلِيُّ بنُ عَبْدِ الحَمِيدِ: كما عند الضياءِ المَقْدِسِيِّ في المُختارةِ (٥/ ١٠٠).
- ورُوِيَ من طريق حمادِ بنِ سَلَمَةَ، عن ثابتٍ، عن أبي الصِّدِّيقِ الناجِيِّ مُرسَلاً، كما عند البُخَارِيِّ في التاريخِ الكبيرِ (٢/ ٩٣)، وابنِ الجَعْدِ في مُسنَدِه (١/ ٤٨٣).
- ورُوِيَ من طريقِ حمادِ بنِ سَلَمَةَ، عن ثابتٍ، عن أنسٍ مُسنَدًا: رواه آدمُ بنُ أَبي إياسٍ، كما عند البيهقيِّ

مسعودٍ: «كُنَيِّفٌ مُلِئَ عِلْماً».[1] وَيُقَالُ: فلانٌ عِلْمُهُ قدْ مَلأَ الدنيا. وكانَ يُقَالُ: مَلأَ ابنُ أبي الدُّنْيَا الدُّنْيَا عِلْماً. وَيُقَالُ: صِيتُ فلانٍ قدْ مَلأَ الدُّنْيَا وَضَيَّقَ الآفَاقَ، وَحُبُّهُ قَدْ مَلأَ القلوبَ، وَبُغْضُ فلانٍ قدْ مَلأَ القلوبَ، وَامْتَلأَ قلبُهُ رُعْباً، وهذا أكثرُ مِنْ أَنْ تُسْتَوْعَبَ شَوَاهِدُهُ، وهوَ حَقِيقَةٌ في بابِهِ.

وجَعْلُ المِلْءِ والامتلاءِ حقيقةً للأجسامِ خاصَّةً تحَكُّمٌ باطلٌ ودَعْوَى لا دليلَ عليها الْبَتَّةَ، والأصلُ الحقيقةُ الواحدةُ، والاشتراكُ المَعْنوِيُّ هوَ الغالِبُ على اللُّغَةِ والأفهامِ والاستعمالِ، فالمصيرُ إليهِ أَوْلَى من المَجَازِ والاشتراكِ اللَّفْظِيِّ، وليسَ هذا مَوْضِعَ تَقْرِيرِ هذهِ المسْأَلَةِ...

فإذا قِيلَ: «الحَمْدُ كُلُّهُ للهِ»، فهذا لهُ مَعْنيَانِ:

- **أحدُهُما:** أَنَّهُ مَحْمُودٌ على كلِّ شيءٍ، وبكلِّ ما يُحْمَدُ بِهِ المحمودُ التامُّ؛ وإنْ كانَ بَعْضُ خَلْقِهِ يُحْمَدُ أَيْضاً -كَمَا يُحْمَدُ رُسُلُهُ وَأَنْبِيَاؤُهُ وَأَتْبَاعُهُم- فذلكَ مِنْ حَمْدِهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى، بلْ هوَ المحمودُ بالقصدِ الأوَّلِ وبالذَّاتِ، وما نَالُوهُ من الحمدِ فَإِنَّمَا نَالُوهُ بحمدِهِ، فهوَ المحمودُ أوَّلاً وَآخِراً وظاهِراً وباطِناً.

في الزُّهْدِ الكَبِيرِ (٢/ ٣٠٦)، والضياءِ المَقْدِسِيِّ في المُختارَةِ (٥/ ١٠١).

قال ابنُ أبي حاتِمٍ في العللِ (٢/ ٢٣٢): (سألتُ أبي وأبا زُرْعَةَ عن حديثٍ رَواهُ أبو الظَّفَرِ عن سُلَيْمَانَ بنِ المغيرةِ، عن ثابتٍ، عن أنسٍ، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، قيلَ له: مَنْ أَهْلُ الجَنَّةِ؟ مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟ قالَ: «مَنْ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَمْلأَ مَسَامِعَهُ مِمَّا يُحِبُّ»، فقالا: هذا عندنا خطأٌ، رواه حمادُ بنُ سلمَةَ عن ثابتٍ عن أبي الصِّدِّيقِ عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ مُرسلاً، وهو الصحيحُ. قال أبو زُرْعَةَ: فمنهم مَن يُحَدِّثُ عن سُليمانَ، عن ثابتٍ، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ مُرسلاً. والوهَمُ من أبي الظَّفَرِ، سمعتُ أبي قالَ: قال أحمدُ بنُ حنبلٍ: أعلَمُ الناسِ بحديثِ ثابتٍ، وعليِّ بنِ يَزِيدَ، وحُمَيْدٍ، حمادُ بنُ سَلَمَةَ).

قال الحافظُ المَقْدِسِيُّ: إسنادُهُ صحيحٌ، وتعَقَّبَ توهِيمَ أبي زُرْعَةَ لأبي الظَّفَرِ محُتجًّا بروايةِ عليِّ بنِ عبدِ الحَمِيدِ وآدمَ بنِ أبي إياسٍ.

(١) أخرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ في الكبيرِ (٨٤٧٧)، وأبو نُعَيْمٍ في الحِلْيَةِ (٩٧٣٥) عن زَيْدِ بنِ وَهْبٍ، قالَ: أَقْبَلَ عبدُ اللهِ ذاتَ يومٍ وعُمَرُ جالِسٌ، فقالَ: كَنِيفٌ مُلِئَ عِلْمًا.

قال في مَجْمَعِ الزَّوائِدِ (٩/ ٢٩١): ورجالُه رجالُ الصحيحِ.

وهذا كما أنَّهُ بكُلِّ شَيْءٍ عليمٌ، وقدْ عَلَّمَ غيْرَهُ منْ عِلْمِهِ ما لمْ يكُنْ يَعْلَمُهُ بدونِ تعليمِهِ، وفي الدعاءِ المأثورِ: «**اللَّهُمَّ لكَ الحَمْدُ كُلُّهُ، ولَكَ المُلْكُ كُلُّهُ، وبيدِكَ الخَيْرُ كُلُّهُ، وإليْكَ يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّهُ؛ أَسْأَلُكَ مِنَ الخَيْرِ كُلِّهِ، وأَعوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ**». (١)

وهوَ سبحانَهُ لهُ المُلْكُ، وقدْ آتى مِنْ مُلْكِهِ بَعْضَ خَلْقِهِ، ولهُ الحمدُ، وقدْ آتى غَيْرَهُ من الحمدِ ما شَاءَ، وكما أنَّ مُلْكَ المخلوقِ دَاخِلٌ في مُلكِهِ، فحمدُهُ أيضاً داخلٌ في حمدِهِ، فما مِنْ محمودٍ يُحْمَدُ على شيءٍ مِمَّا دَقَّ أوْ جَلَّ إلاَّ واللهُ المحمودُ عليهِ بالذَّاتِ والأَوَّلِيَّةِ والأَوْلَوِيَّةِ أيضاً، وإذا قالَ الحامدُ: «اللهُمَّ لَكَ الحَمْدُ» فالمرادُ بهِ أَنْتَ المُسْتَحِقُّ لكلِّ حمدٍ، ليسَ المرادُ بهِ الحمدَ الخارجيَّ فَقَطْ.

- **المعنَى الثاني**: أنْ يُقالَ: «لكَ الحمدُ كلُّهُ»؛ أي: الحَمْدُ التامُّ الكاملُ، فهذا مُخْتَصٌّ باللهِ عزَّ وجلَّ لَيْسَ لِغَيْرِهِ فيهِ شِرْكَةٌ.

والتحقيقُ أنَّ لهُ الحمدَ بالمَعْنَيَيْنِ جميعاً، فَلَهُ عُمُومُ الحمدِ وَكَمالُهُ، وهذا مِنْ خَصَائِصِهِ سُبْحَانَهُ؛ فهوَ المحمودُ على كلِّ حالٍ وعلى كلِّ شيءٍ أكْمَلَ حَمْدٍ وَأَعْظَمَهُ، كما أنَّ لهُ المُلْكَ التامَّ العامَّ، فَلا يَمْلُكُ كُلَّ شَيْءٍ إلاَّ هوَ، وليسَ الملكُ التامُّ الكاملُ إلاَّ لهُ.

وَأَتْبَاعُ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللهِ وسلامُهُ عليهم يُثْبِتُونَ لهُ كمالَ المُلْكِ وكمالَ الحمدِ، فَإِنَّهُم يَقُولُونَ: إنَّهُ خَالِقُ كلِّ شيءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، لا يَخْرُجُ عنْ خَلْقِهِ وقُدْرتِهِ ومشيئتِهِ شيءٌ الْبَتَّةَ، فلهُ المُلْكُ كُلُّهُ). (٢)

---

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ١٦٠.

(٢) طَرِيقُ الهِجرتَين (١١٧-١٢٠).

وقال -رَحِمَهُ اللهُ تعالى- في طريقِ الهجرتين (١٢٢ - ١٢٣): (فصلٌ: في بيانِ أن حَمْدَهُ تعالَى شاملٌ لِكُلِّ ما يُحْدِثُهُ.

والمقصودُ بيانُ شُمولِ حَمْدِه تعالَى وحِكْمَتِه لكلِّ ما يُحدِثُه من إحسانٍ ونِعمةٍ وامتحانٍ وبَلِيَّةٍ، وما يَقضيهِ

(وهـوَ الحميدُ فكلُّ حَمْـدٍ واقِـعٌ أوْ كانَ مَفْرُوضاً مَدَى الأزمانِ
مَـلأَ الـوجـودَ جميعَهُ ونـظـيرَهُ من غـيرِ ما عَـدٍّ ولا حُسْبَانِ

مِن طاعةٍ ومعصيةٍ، أنه سُبحانَهُ محمودٌ على ذلكَ مشكورٌ حَمْدَ المدح وحمدَ الشُّكْرِ، أما حَمْدُ المدح فإنه محمودٌ على كلِّ ما خلقَ إذ هو ربُّ العالمينَ والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وأما حَمْدُ الشكرِ فلأنَّ ذلك كُلَّهُ نِعمةٌ في حقِّ المؤمنِ إذا اقترنَ بواجبِهِ من الإحسانِ، والنِّعمةُ إذا اقترنَتْ بالشُّكرِ صارَت نِعمةً، والامتحانُ والبَليَّةُ إذا اقترَنَا بالصبرِ كانا نِعمةً، والطاعةُ من أَجَلِّ نِعَمِهِ.

وأما المعصيةُ فإذا اقترَنَتْ بواجِبِها، من التوبةِ والاستغفارِ والإنابةِ والذُّلِّ والخُضوعِ فقد تَرَتَّبَ عليها من الآثارِ المَحمودةِ والغاياتِ المطلوبةِ ما هو نِعمةٌ أيضًا، وإن كان سَبَبُها مسخوطًا مَبْغُوضًا للربِّ تعالَى، ولكنه يُحِبُّ ما يَتَرَتَّبُ عليها من التوبةِ والاستغفارِ، وهو سبحانَهُ أَفْرَحُ بتَوْبَةِ عَبْدِه مِنَ الرجلِ إذا ضَلَّ رَاحِلَتَهُ بأرضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلَكَةٍ عَلَيْهَا طَعامُهُ وشَرابُهُ فأَيِسَ منها ومنَ الحياةِ، فنامَ، ثم استيقَظَ، فإذا بها قد تَعَلَّقَ خِطامُها في أصلِ شجرةٍ فجاءَ حتى أَخَذَها، فاللهُ أفرَحُ بتوبةِ العبدِ حينَ يَتُوبُ إليه من هذا براحلَتِه.

فهذا الفرَحُ العظيمُ الذي لا يُشبِهُه شيءٌ أَحَبُّ إليه سبحانَهُ من عَدَمِه، وله أسبابٌ ولوازمُ لا بُدَّ منها، وما يَحصُلُ بتقديرِ عَدَمِه مِنَ الطاعاتِ وإن كان محبوبًا له، فهذا الفَرَحُ أَحَبُّ إليه بكثيرٍ، ووجودُهُ بدونِ لازِمِه مُمتنِعٌ، فله من الحكمةِ في تقديرِ أسبابِه ومُوجِباتِه حكمةٌ بالغةٌ ونعمةٌ سابغةٌ؛ هذا بالإضافةِ إلى الربِّ جَلَّ جلالُه.

وأما بالإضافةِ إلى العبدِ فإنه قد يكونُ كمالُ عُبودِيَّتِه وخضوعِه موقوفًا على أسبابٍ لا تَحْصُلُ بدونِه، فتقديرُ الذنبِ عليه، إذا اتَّصَلَ به التوبةُ والإنابةُ والخضوعُ والذلُّ والانكسارُ ودوامُ الافتقارِ كانَ من النِّعَمِ باعتبارِ غايَتِه وما يَعْقُبُه، وإن كان من الابتلاءِ والامتحانِ باعتبارِ صُورَتِهِ ونَفْسِه.

والربُّ تَعالَى محمودٌ على الأَمْرَيْنِ: فإنِ اتَّصَلَ بالذنبِ الآثارُ المحبوبةُ للربِّ سبحانَهُ من التوبةِ والإنابةِ والذُّلِّ والانكسارِ فهو عَيْنُ مصلحةِ العبدِ، والاعتبارُ بكمالِ النهايةِ لا بنقصِ البدايةِ، وإن لم يتصلْ به ذلك، فهذا لا يكونُ إلا من خُبثِ نَفْسِه وشرِّه وعدمِ استعدادِه لُمجاوَرَةِ ربِّه بينَ الأرواحِ الزكيَّةِ الطاهرةِ في الملأِ الأعلَى).

- وقال أيضًا في طريقِ الهجرتينِ (٩٧): (وهو محمودٌ على جميعِ ما في الكونِ من خيرٍ وشرٍّ حمدًا استحَقَّهُ لذاتِه وصَدَرَ عنه خَلْقُه وأَمْرُه فمَصْدَرُ ذلك كُلِّهِ عن الحكمةِ، فإنكارُ الحكمةِ إنكارٌ لحَمْدِه في الحقيقةِ، واللهُ أَعْلَمُ).

- وقال أيضًا في طريقِ الهجرتينِ (١١٦): (وأنه سُبحانَهُ المحمودُ على خَلْقِهِ وأَمْرِه وأنَّ له الحِكمة البَالِغَةَ والنِّعْمَةَ السَّابِغَةَ).

هـوَ أَهْـلُـهُ سبحانَهُ وبحمدِهِ كلُّ المحامدِ وَصْفُ ذي الإحسانِ)[(١)]

[فَصْلٌ]

ومِنْ تمام حمدِهِ تَسْبيحُهُ وَتَنْـزِيهُهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ أَعْدَاؤُهُ والجاهلونَ بِهِ مِمَّا لا يَليقُ بِهِ، ((فَكَمالُ حَمْدِهِ يُوجِبُ أَنْ لا يُنْسَبَ إِلَيْهِ شَرٌّ ولا سُوءٌ ولا نَقْصٌ لا في أسمائِهِ ولا في أفعالِهِ ولا في صفاتِهِ)).[(٢)]

وكانَ في تَنوُّعِ تَنْـزِيهِهِ عنْ ذلكَ من العلومِ والمعارفِ وتقريرِ صفاتِ الكمالِ وتكميلِ أنواعِ الحمدِ ما في بيانِ مَحاسِنِ الشيءِ وكمالِهِ عندَ معرفةِ ما يُضَادُّهُ وَيُخَالِفُهُ، ولهذا كانَ تَسْبيحُهُ تَعالَى منْ تَمام حَمْدِهِ، وَحَمْدُهُ منْ تمام تَسْبيحِهِ، ولهذا كانَ التسبيحُ والتحميدُ قُرْبَتَيْنِ؛ فكانَ ما نَسَبَهُ إليهِ أعداؤُهُ والمُعَطِّلُونَ لصفاتِ كمالِهِ منْ عُلُوِّهِ على خلقِهِ وإنزالِهِ كلامَهُ الذي تَكَلَّمَ بِهِ على رُسُلِهِ وغيرِ ذلكَ منْ صفاتِ كمالِهِ مُوجِباً لِتَنْـزِيهِ رُسُلِهِ لهُ وَتَسْبيحِهِم عنْ ذلكَ مِمَّا نَزَّهَ عَنْهُ نَفْسَهُ وَسَبَّحَ بِهِ نفسَهُ، فكانَ في ذلكَ ظهورُ حمدِهِ بِخَلْقِهِ، وَتَنوُّعُ أَسْبابِهِ، وَكَثْرَةُ شَوَاهِدِهِ، وَسَعَةُ طُرُقِ الثناءِ عليهِ بِهِ، وتقريرُ عَظَمَتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ في قلوبِ عبادِهِ، فَلَوْلا مَعْرِفَةُ الأسبابِ التي يُسَبَّحُ وَيُنَـزَّهُ وَيُتَعَالَى عنها وخَلْقُ مَنْ يُضِيفُهَا إليهِ ويَصِفُهُ بها؛ لَمَا قَامَتْ حَقِيقَةُ التسبيحِ، ولا ظَهَرَ لقلوبِ أهلِ الإيمانِ عنْ أيِّ شيءٍ يُسَبِّحُونَهُ وَعَمَّاذا يُنَـزِّهُونَهُ.

فَلَمَّا رَأَوْا في خَلْقِهِ مَنْ قدْ نَسَبَهُ إلى ما لا يَلِيقُ بِهِ، وَجَحَدَ منْ كَمالِهِ ما هو أَوْلَى بِهِ؛ سَبَّحُوهُ حينئذٍ تَسْبيحَ مُجِلٍّ لهُ مُعَظِّمٍ لهُ مُنَزِّهٍ لهُ عنْ أمرٍ قدْ نَسَبَهُ إليهِ أعداؤُهُ والمُعَطِّلُونَ لصفاتِهِ.

---

(١) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢٤١).

(٢) شِفاءُ العَلِيلِ (٢/ ٦٦).

ونظيرُ هذا اشتمالُ كلمةِ الإسلامِ وهيَ شهادةُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ على النَّفْيِ والإثباتِ، فكانَ في الإتيانِ بالنَّفْيِ في صَدْرِ هذهِ الكلمةِ منْ تقريرِ الإثباتِ وتحقيقِ معنَى الإلهيَّةِ وَتجْريدِ التوحيدِ الذي يُقْصَدُ بنَفْيِ الإلهيَّةِ عنْ كلِّ ما ادُّعِيَتْ فيهِ سِوَى الإلَهِ الحَقِّ تَبارَكَ وَتَعالَى، فَتَجْرِيدُ هذا التوحيدِ من العقدِ واللسانِ بتَصوُّرِ إثباتِ الإلهيَّةِ لغيرِ اللهِ -كما قَالَهُ أعداؤُهُ المشركونَ- وَنَفْيُهُ وإبطالُهُ من القلبِ واللسانِ منْ تمامِ التوحيدِ وكمالِهِ وتقريرِهِ وظهورِ أعلامِهِ ووضوحِ شواهدِهِ وصِدْقِ براهينِهِ).[1]

[الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ]:

(منْ أسمائِهِ الحُسْنَى: «**الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**»)[2] (**فالرحمنُ** الذي الرَّحْمَةُ وَصْفُهُ، **والرحيمُ** الراحمُ لِعبَادِهِ، ولهذا يقولُ تعَالَى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧﴾ [التوبة: ١١٧].

ولمْ يَجِئْ رَحْمَانٌ بِعبَادِهِ، ولا رَحْمَانٌ بالمؤمِنِينَ، معَ ما في اسمِ الرحمنِ الذي هوَ على وزنِ فَعْلان منْ سَعَةِ هذا الوصفِ، وثبوتِ جميعِ معناهُ الموصوفِ بهِ، ألاَ تَرى أنَّهُم يقولونَ: غَضْبَانُ، للمُمْتَلِئِ غَضباً، وَنَدْمَانُ وَحَيْرَانُ وَسَكْرَانُ وَلهْفَانُ لِمَنْ مُلِئَ بذَلِكَ، فبناءُ فَعْلان للسَّعَةِ والشمولِ، ولهذا يَقْرِنُ اسْتِوَاءَهُ على العرشِ بهذا الاسمِ كثيراً، كقولِهِ تعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، فَاسْتَوَى على عرشِهِ باسمِ الرحمنِ؛ لأنَّ العرشَ مُحِيطٌ بالمخلوقاتِ قدْ وَسِعهَا، والرحمةَ مُحيطةٌ بالخَلْقِ واسعةٌ لهم، كما قالَ تعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فاسْتَوَى على أوسعِ المخلوقاتِ بأوسعِ الصِّفَاتِ، فلذلكَ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كلَّ شيءٍ.

(١) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (١٤٨-١٤٩).

(٢) مُخْتَصَرُ الصواعقِ المرسَلَةِ (٣٠٠).

وفي الصحيح منْ حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ مَوْضُوعٌ عَلَى الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»، وفي لفظٍ: «فَهُوَ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ».

فتَأَمَّلِ اخْتِصاصَ هذا الكتابِ بِذِكْرِ الرحمةِ، وَوَضْعَهُ عِنْدَهُ على العرشِ، وَطَابِقْ بينَ ذلكَ وبينَ قولِهِ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] وقولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، يَنْفَتِحُ لكَ بابٌ عظيمٌ منْ معرفةِ الربِّ تبارَكَ وتعالَى، إنْ لمْ يُغْلِقْهُ عنكَ التعطيلُ والتَّجَهُّمُ»[1] (وَ... انْظُرْ إلى ما في الوجودِ منْ آثارِ رَحْمَتِهِ الخاصَّةِ والعامَّةِ، فَبِرَحْمَتِهِ أَرْسَلَ إِلَيْنا رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنا كِتابَهُ، وَعَصَمَنا مِن الجَهالَةِ، وَهَدَانا من الضلالةِ، وَبَصَّرَنا من العَمَى، وَأَرْشَدَنا مِن الغَيِّ، وبرحمتِهِ عَرَّفَنا منْ أسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ما عَرَّفَنا بِهِ أَنَّهُ رَبُّنا وَمَوْلانا، وَبِرَحْمَتِهِ عَلَّمَنا ما لمْ نَكُنْ نَعْلَمُ، وَأَرْشَدَنا لِمَصالِحِ دِينِنا وَدُنْيانا، وَبِرَحْمَتِهِ أَطْلَعَ الشمسَ والقمرَ، وجعلَ الليلَ والنهارَ، وبَسَطَ الأرضَ، وَجَعَلَها مِهاداً وَفِراشاً وَقَراراً وَكِفَاتاً للأحياءِ والأمواتِ، وَبِرَحْمَتِهِ أَنْشَأَ السحابَ وأَمْطَرَ المَطَرَ، وأَطْلَعَ الفواكِهَ والأقواتَ والمَرْعَى، ومِنْ رَحْمَتِهِ سَخَّرَ لنا الخيلَ والإبلَ والأنعامَ وَذَلَّلَها مُنْقادَةً للركوبِ والحَمْلِ والأكلِ والدَّرِّ، وَبِرَحْمَتِهِ وَضَعَ الرحمةَ بينَ عبادِهِ لِيَتَرَاحَمُوا بها، وكذلكَ بَيْنَ سائِرِ أنواعِ الحيوانِ.

فهذا التَّرَاحُمُ الذي بَيْنَهُم بعضُ آثارِ الرحمةِ التي هيَ صِفَتُهُ وَنِعْمَتُهُ، واشْتَقَّ لِنَفْسِهِ منها اسمَ الرحمنِ الرحيمِ، وَأَوْصَلَ إلى خلقِهِ مَعَانِيَ خِطَابِهِ بِرَحْمَتِهِ، وَبَصَّرَهُم وَمَكَّنَ لهم أسبابَ مَصالِحِهِم بِرَحْمَتِهِ.

(١) مدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٦-٥٧).

وَأَوْسَعُ المخلوقاتِ عَرْشُهُ، وَأَوْسَعُ الصِّفَاتِ رَحْمَتُهُ، فَاسْتَوَى على عرشِهِ الذي وَسِعَ المخلوقاتِ بِصِفَةِ رحمتِهِ التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ، وَلَمَّا اسْتَوَى على عرشِهِ بهذا الاسمِ الذي اشْتَقَّهُ منْ صِفَتِهِ وَتَسَمَّى بِهِ دُونَ خَلْقِهِ، كَتَبَ بِمُقْتَضَاهُ على نفسِهِ يومَ استوائِهِ على عرشِهِ حينَ قَضَى الخلقَ كتاباً، فهوَ عندَهُ وَضَعَهُ على عرشِهِ: «**أَنَّ رَحْمَتَهُ سَبقَتْ غَضَبَهُ**»، وكانَ هذا الكتابُ العظيمُ الشَّأْنِ كالعهدِ منهُ سبحانَهُ للخليقةِ كُلِّهَا بالرحمةِ لهم والعفوِ عنهم، والمَغْفِرَةِ والتَّجَاوُزِ والسَّتْرِ والإمهالِ والحِلمِ والأناةِ، فكانَ قِيَامُ العالمِ العُلْوِيِّ والسفليِّ بِمَضْمُونِ هذا الكتابِ الذي لَوْلاهُ لكانَ للخلقِ شَأْنٌ آخرُ، وكانَ عنْ صِفَةِ الرحمةِ الجنةُ وَسُكَّانُهَا وَأَعْمَالُهُم، فَبِرَحْمَتِهِ خُلِقَتْ، وَبِرَحْمَتِهِ عَمَرَتْ بِأَهْلِهَا، وَبِرَحْمَتِهِ وَصَلُوا إليهِ، وَبِرَحْمَتِهِ طَابَ عَيْشُهُم فيها، وَبِرَحْمَتِهِ احْتَجَبَ عنْ خلقِهِ بالنورِ، ولوْ كَشَفَ ذلكَ الحِجَابَ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهَى إليهِ بصرُهُ منْ خلقِهِ، ومِنْ رحمتِهِ أَنَّهُ يُعِيذُ مِنْ سَخَطِهِ بِرِضَاهُ، وَمِنْ عُقُوبَتِهِ بعَفْوِهِ، وَمِنْ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ، ومِنْ رَحْمَتِهِ أَنْ خَلَقَ للذَّكَرِ من الحيوانِ أُنْثَى مِنْ جِنْسِهِ، وأَلْقَى بينَهُمَا المَحَبَّةَ والرحمةَ لِيَقَعَ بينَهُمَا التواصلُ الذي بِهِ دوامُ التناسلِ وانتفاعُ الزوجَيْنِ، وَيُمَتِّعُ كُلُّ واحدٍ منْهُمَا صَاحِبَهُ، ومِنْ رَحْمَتِهِ أَحْوَجَ الخلقَ بعضَهم إلى بعضٍ لِتَتِمَّ مَصَالِحُهُم، ولوْ أَغْنَى بَعْضَهم عنْ بعضٍ لَتَعَطَّلَتْ مَصَالِحُهُم وانْحَلَّ نِظَامُهُم. وكانَ مِنْ تَمَامِ رَحْمَتِهِ بهم أَنْ جَعَلَ فيهم الغَنِيَّ والفَقِيرَ، والعزيزَ والذليلَ، والعاجزَ والقادرَ، والراعِيَ والمَرْعِيَّ، ثُمَّ أَفْقَرَ الجميعَ إليهِ، ثُمَّ عَمَّ الجميعَ برحمتِهِ.

ومِنْ رحمتِهِ أَنَّهُ خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ، كُلُّ رَحْمَةٍ منها طِبَاقُ ما بينَ السماءِ والأرضِ، فَأَنْزَلَ منها إلى الأرضِ رحمةً واحدةً نَشَرَهَا بينَ الخليقةِ لِيَتَرَاحَمُوا بها، فَبِهَا تَعْطِفُ الوالدةُ على وَلَدِهَا، والطيرُ والوَحْشُ والبهائمُ، وبهذهِ الرحمةِ قِوَامُ العالمِ ونظامُهُ.

وتأمَّلْ قولَهُ تعالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١-٤]، كيفَ جعَلَ الخلقَ والتعليمَ ناشِئاً عنْ صفةِ الرحمةِ مُتعلِّقاً باسمِ الرحمنِ، وَجعَلَ مَعانِيَ السورةِ مُرْتبطَةً بهذا الاسمِ وَختَمَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ [الرحمن: ٧٨]، فالاسمُ الذي تبارَكَ هوَ الاسمُ الذي افْتتَحَ بِهِ السورةَ؛ إذْ مَجِيءُ البركةِ كلِّهَا منهُ، وبهِ وُضِعَت البركةُ في كلِّ مُبارَكٍ، فكلُّ ما ذُكِرَ عليهِ بُورِكَ فيهِ، وكلُّ ما أُخْلِيَ منهُ نُزِعَت منهُ البركةُ، فإنْ كانَ مُذكًّى وَخلِيَ منهُ اسمُهُ كانَ مَيْتَةً، وإنْ كانَ طَعَاماً شَارَكَ صاحبَهُ فيهِ الشيطانُ، وإنْ كانَ مَدْخلاً دَخلَ معهُ فيهِ، وإنْ كانَ حَدَثاً لم يُرْفَعْ عندَ كثيرٍ من العلماءِ، وإنْ كانَ صَلاةً لمْ تَصِحَّ عندَ كثيرٍ منهُم.

وَلمَّا خَلقَ سبحانَهُ الرَّحْمَةَ وَاشْتَقَّ لها اسْماً من اسمِهِ، فَأَرَادَ إِنْزَالهَا إلى الأرضِ تَعلَّقَتْ بِهِ سبحانَهُ، فقالَ: مَهْ؟ فَقَالَتْ: هذا مقامُ العائِذِ بكَ من القطيعةِ، فقالَ: أَلا تَرْضَيْنَ أنْ أَقْطعَ مَنْ قطعَكِ، وَأَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ؟[1] وهيَ مُتعَلِّقَةٌ بالعرشِ لها حُجْنَةٌ كَحُجْنَةِ المِغْزَلِ[2]، وكانَ تَعلُّقُهَا بالعرشِ رحمةً منهُ بها، وَإِنْزَالُهَا إلى الأرضِ رحمةً منهُ بِخَلْقِهِ، وَلمَّا عَلِمَ سبحانَهُ مَا تَلْقَاهُ منْ نُزُولهَا إلى الأرضِ وَمُفَارَقَتِهَا لِمَا اشْتُقَّتْ مِنْهُ رَحِمَهَا بِتَعلُّقِهَا بالعرشِ واتِّصَالِهَا بِهِ، وقولُهُ: «**أَلا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قطعَكِ؟**».

---

(١) إشارةٌ إلى حديثِ أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنه، وقد رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٨١٦٧)، والبُخَارِيُّ في كتابِ تفسيرِ القرآنِ / بابُ «وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ» (٤٨٣٢) ومواضعَ أُخرَ، ومسلمٌ في كتابِ البرِّ والصلةِ / بابُ صِلةِ الرَّحِمِ (٦٤٦٥).

(٢) قال الإمامُ أحمدُ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَى- في مُسْنَدِهِ (٦٧٣٥): حدَّثنا بَهْزٌ وعفَّانُ، قالاَ: حدَّثَنا حمادُ بنُ سَلَمَة، أَخْبَرَنا قَتادَةُ، عن أَبي ثُمَامَةَ الثَّقَفِيِّ، عن عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: «**تُوضَعُ الرَّحِمُ يومَ القيامةِ لها حُجْنَةٌ كَحُجْنَةِ المِغْزَلِ، تَكَلَّمُ بِلِسَانٍ طَلْقٍ ذَلْقٍ، فتَصِلُ مَنْ وَصَلَها وتَقْطَعُ مَنْ قَطَعَها**». وفيه قَتادَةُ يُدَلِّسُ وقد عَنْعَنَ، وأبو ثُمامَةَ الثَّقَفِيُّ لا تُعْلَمُ حالُه، وقد ذَكَرَهُ ابنُ حِبَّانَ في الثقاتِ كعادَتِه.
والحديثُ صحَّحَ إِسنادَهُ الشيخُ أَحْمَدُ شاكر (١١/ ٤٥). واللهُ تعالى أَعْلَمُ.

ولذلك كانَ مَنْ وَصلَ رَحِمَهُ لِقُرْبِهِ من الرَّحْمَنِ وَرِعَايَةِ حُرْمَةِ الرحم قدْ عَمَّرَ دُنْيَاهُ، وَاتَّسَعَتْ لهُ مَعِيشَتُهُ، وَبُورِكَ لهُ في عُمرِهِ، وَنُسِئَ لهُ في أثرِهِ، فإنْ وَصَلَ ما بَيْنَهُ وبينَ الرحمنِ جَلَّ جَلالُهُ معَ ذلكَ وما بَيْنَهُ وبينَ الخلقِ بالرحمةِ والإحسانِ تَمَّ لهُ أَمْرُ دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ، وإنْ قَطَعَ ما بَيْنَهُ وبينَ الرحمِ وما بينَهُ وبينَ الرحمنِ أَفْسَدَ عليهِ أَمْرَ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَمَحَقَ بَرَكَةَ رَحْمَتِهِ ورزقِهِ وأثرِهِ، كَما قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يُدَّخَرُ لَهُ مِنَ الْعُقُوبَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ**»[(١)].

فالبَغْيُ مُعاملةُ الخلقِ بضدِّ الرحمةِ، وكذلكَ قطيعةُ الرحمِ، وإنَّ القومَ لَيَتَوَاصَلُونَ وَهُمْ فَجَرَةٌ، فتكْثُرُ أَمْوَالُهُم وَيَكْثُرُ عَدَدُهُم، وإنَّ القومَ لَيَتَقَاطَعُونَ، فَتَقِلُّ أَمْوَالُهُم، وَيَقِلُّ عَدَدُهُم، وذلكَ لكثرةِ نَصِيبِ هؤلاءِ من الرحمةِ، وقِلَّةِ نصيبِ هؤلاءِ منها، وفي الحديثِ: «**إِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ**»[(٢)].

---

(١) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٩٨٦١) والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ صفةِ القيامةِ والرقائقِ والوَرَعِ / بابُ (٥٧) الحديثُ (٢٥١١) وأبو داودَ في كتابِ الأدبِ / بابٌ في النهيِ عن البَغْيِ (٤٨٩٢) وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ الزهدِ / بابُ البغيِ (٤٢١١) كُلُّهُمْ مِن حديثِ عُيَيْنَةَ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ جَوْشَنٍ، عن أبيهِ، عن أبي بَكْرَةَ رضيَ اللهُ عنهُ مرفوعًا.

(٢) أخرَجَهُ القُضاعِيُّ في مُسندِ الشِّهابِ (١/ ٩٣) برَقْمِ (١٠٠) من حديثِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: «**صِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي العُمُرِ، وصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ**».

وفي سَنَدِهِ أَحْمَدُ بنُ نَصرِ بنِ حَمَّادٍ، قالَ فيه الذَّهَبِيُّ: «رَوَى حديثًا مُنكَرًا جدًّا».

ورَمَزَ له السُّيُوطِيُّ بالصحةِ في الجامعِ الصغيرِ (فيضُ القديرِ (٤/ ١٩٦) برَقْمِ (٥٠٠٢)).

وأَخرَجَه الطَّبَرَانِيُّ في المُعجمِ الأوسطِ (١/ ٥١٣) برَقْمِ (٩٤٧) من طريقِ الأصبغِ عَنْ بَهْزِ بنِ حَكيمٍ، عن أبيهِ، عن جَدِّهِ، عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، قال: «**إِنَّ صَدقةَ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الربِّ، وإِنَّ صَنائعَ المَعْرُوفِ تَقِي مَصارِعَ السُّوءِ، وإِنَّ صِلةَ الرحمِ تَزِيدُ في العُمرِ وتَقِي الفَقْرَ**». قال الهَيْثَمِيُّ في مجمعِ الزَّوائدِ (٨/ ١٩٤): وفيه «أَصْبَغُ» غيرُ معروفٍ، وبقيةُ رجالِهِ وُثِّقوا وفيهم خلافٌ.

وفي البابِ حديثُ أنسِ بنِ مالكٍ وهو في الصحيحِ.

وإذا أَرَادَ اللهُ بأهلِ الأرضِ خيراً نَشَرَ عليهم أَثَراً منْ آثارِ اسمِهِ الرحمنِ فَعَمَّرَ بِهِ البلادَ، وَأَحْيَا بِهِ العِبَادَ، وإذا أَرَادَ بهم شَرًّا أَمْسَكَ عنهم ذلكَ الأثرَ، فَحَلَّ بهم من البلاءِ بِحَسَبِ ما أَمْسَكَ عنهم منْ آثارِ اسمِهِ الرحمنِ، ولهذا إذا أَرَادَ اللهُ سبحانَهُ أنْ يُخَرِّبَ هذهِ الدارَ وَيُقِيمَ القيامةَ أَمْسَكَ عنْ أهلِهَا أَثَرَ هذا الاسمِ وَقَبَضَهُ شَيْئاً فَشَيْئاً، حتَّى إذا جاءَ وَعْدُهُ قَبَضَ الرحمةَ التي أَنْزَلَهَا إلى الأرضِ، فَتَضَعُ لذلكَ الحواملُ ما في بُطُونِهَا، وَتَذْهَلُ الْمُرْضِعُ عنْ أَوْلادِهَا، فَيُضِيفُ سبحانَهُ تلكَ الرحمةَ التي رَفَعَهَا وَقَبَضَهَا من الأرضِ إلى ما عِنْدَهُ من الرحمةِ، فَيُكَمِّلُ بها مِائَةَ رحمةٍ فَيَرْحَمُ بها أهلَ طاعتِهِ وتوحيدِهِ وتصديقِ رُسُلِهِ وَتَابِعِيهِم.

وأنتَ لوْ تَأَمَّلْتَ العَالَمَ بِعَيْنِ البصيرةِ لَرَأَيْتَهُ مُمْتَلِئاً بهذهِ الرحمةِ الواحدةِ كامْتِلاءِ البحرِ بمائِهِ والجوِّ بهوائِهِ، وما في خلالِهِ منْ ضِدِّ ذلكَ فهوَ مُقْتَضَى قولِهِ: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي». فَالْمَسْبُوقُ لا بُدَّ لاحِقٌ وإنْ أَبْطَأَ، وفيهِ حِكْمَةٌ لا تُنَاقِضُهَا الرحمةُ، فهوَ أَحْكَمُ الحاكِمِينَ وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) [1]، (وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا». [2] وَأَيْنَ تقعُ رَحْمَةُ الوالدةِ منْ رحمةِ اللهِ التي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ؟

فإذا أَغْضَبَهُ العَبْدُ بِمَعْصِيَتِهِ فقد اسْتَدْعَى مِنْهُ صَرْفَ تلكَ الرحمةِ عنهُ. فإذا تَابَ إليهِ فَقَد اسْتَدْعَى منهُ ما هوَ أهلُهُ وَأَوْلَى بِهِ). [3]

(١) مُخْتَصَرُ الصواعقِ المرسَلَةِ (٣٠٣-٣٠٥)

(٢) رواه البُخَارِيُّ في كتابِ الأدبِ / بابُ رَحمةِ الولَدِ (٥٩٩٩) ومسلمٌ في كتابِ التوبةِ / بابٌ في سَعةِ رَحمةِ اللهِ تعالَى (٦٩١٢) من حديثِ عُمَرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنه.

(٣) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٢٣٠)

[فَصْلٌ]

(اعْلَمْ أنَّ الرحمةَ... [المضافة] إلى اللهِ تَعالَى نَوْعَانِ:

أحدُهُما: مُضَافٌ إليهِ إضافةَ مفعولٍ إلى فاعلِهِ.

والثاني: مُضَافٌ إليهِ إضافةَ صِفَةٍ إلى الموصوفِ بها.

فمِن الأوَّلِ: قَوْلُهُ في الحديثِ الصحيحِ: «احْتَجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ...» فذَكَرَ الحديثَ، وفيهِ: «فَقَالَ لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ». [1] فهذهِ رحمةٌ مخلوقةٌ مُضَافَةٌ إليهِ إضافةَ المخلوقِ بالرحمةِ إلى الخالقِ تَعالَى، وَسَمَّاهَا رَحْمَةً؛ لأَنَّهَا خُلِقَتْ بالرحمةِ وللرحمةِ، وَخَصَّ بها أهلَ الرحمةِ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُهَا الرُّحَمَاءُ.

ومنهُ قولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَلَقَ اللهُ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، كُلُّ رَحْمَةٍ مِنْهَا طِبَاقُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ». [2] وَمِنْهُ قولُهُ تَعالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [هود: ٩]، ومنهُ تَسْمِيَتُهُ تَعالَى للمطرِ رحمةً بقولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وعلى هذا فلا يَمْتَنِعُ الدعاءُ المشهورُ بينَ الناسِ قَدِيماً وَحَدِيثاً، وهوَ قولُ الداعِي: «اللهُمَّ اجْمَعْنَا فِي مُسْتَقَرِّ رَحْمَتِكَ». وَذَكَرَهُ البخاريُّ في كتابِ "الأدبِ المُفْرَدِ" [3] لهُ عنْ بعضِ السَّلَفِ، وَحَكَى فيهِ الكراهةَ، قالَ: إنَّ مُسْتَقَرَّ رَحْمَتِهِ

---

(١) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٢٧٣٨١، ٢٧٢٢٤) والبُخَارِيُّ في كتابِ تفسيرِ القرآنِ / بابُ قولِ اللهِ تعالَى: «وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» (٤٨٥٠) ومسلمٌ في كتابِ صفةِ الجنةِ / بابٌ النارُ يَدْخُلُها الجَبَّارونَ والجَنَّةُ يَدْخُلُهَا الضُّعَفَاءُ (٧١٠٤) والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ صفةِ الجنةِ / بابُ ما جاءَ في احتجاجِ الجنةِ والنارِ (٢٥٦١) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٢) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٨٢١٠) والبُخَارِيُّ في كتابِ الرِّقَاقِ / بابُ الرجاءِ والخوفِ (٦٤٦٩) ومسلمٌ في كتابِ التوبةِ / بابٌ في سَعةِ رحمةِ اللهِ تعالَى (٦٩٠٨) والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ التوبةِ / بابُ خَلَقَ اللهُ مِائَةَ رَحْمَةٍ (٣٥٤١) وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ الزهدِ / بابُ ما يُرجَى من رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ (٤٢٩٣) من حديثِ أبي هُريرةَ رضي اللهُ عنهُ.

(٣) الأدبُ المُفْرَدُ (١/ ٢٦٩) بابُ مَنْ كَرِهَ أنْ يُقالَ: «اللهُمَّ اجْعَلْنِي فِي مُسْتَقَرِّ رَحْمَتِكَ» برقْمِ (٧٦٨)،

ذَاتُهُ، وهذا بِنَاءً على أنَّ الرحمةَ صفةٌ.

وليسَ مُرَادُ الداعِي ذلكَ، بلْ مُرَادُهُ الرحمةُ المخلوقةُ التي هيَ الجنَّةُ، ولكنَّ الذينَ كَرِهُوا ذلكَ لهم نَظَرٌ دَقِيقٌ جِدًّا، وهوَ أنَّهُ إذا كانَ المرادُ بالرحمةِ الجنَّةَ نَفْسَهَا لمْ يَحْسُنْ إضافةُ المُسْتَقَرِّ إليها، ولهذا لا يَحْسُنُ أنْ يُقَالَ: اجْمَعْنَا فِي مُسْتَقَرِّ جَنَّتِكَ، فإنَّ الجنَّةَ نَفْسَهَا هيَ دارُ القَرارِ، وهيَ المُسْتَقَرُّ نفسُهُ كَمَا قالَ: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦﴾ [الفرقان: ٧٦]، فكيفَ يُضَافُ المُسْتَقَرُّ إِلَيْهَا، وَالمُسْتَقَرُّ هوَ المكانُ الذي يَسْتَقِرُّ فيهِ الشيءُ، ولا يَصِحُّ أنْ يَطْلُبَ الدَّاعِي الجَمْعَ في المكانِ الذي تَسْتَقِرُّ فيهِ الجنَّةُ، فتَأَمَّلْهُ؛ ولهذا قالَ: مُسْتَقَرُّ رَحْمَتِهِ ذَاتُهُ.

والصوابُ أنَّ هذا لا يَمْتَنِعُ، وحتَّى لوْ قالَ صَرِيحاً: «اجْمَعْنَا فِي مُسْتَقَرِّ جَنَّتِكَ» لمْ يَمْتَنِعْ، وذلكَ أنَّ المُسْتَقَرَّ أَعَمُّ مِنْ أنْ يكونَ رَحْمَةً أَوْ عَذَاباً، فإذا أُضِيفَ إلى أَحَدِ أنواعِهِ أُضِيفَ إلى ما يُبَيِّنُهُ ويُمَيِّزُهُ منْ غيرِهِ، كأَنَّهُ قِيلَ: في المُسْتَقَرِّ الذي هوَ رَحْمَتُكَ لا في المُسْتَقَرِّ الآخرِ، وَنَظِيرُ هذا أنْ يقولَ: اجْلِسْ في مُسْتَقَرِّ المَسْجِدِ، أي: المُسْتَقَرِّ الذي هوَ المسجدُ، والإضافةُ في مثلِ ذلكَ غيرُ مُمْتَنِعَةٍ ولا مُسْتَكْرَهَةٍ، وأيضاً فإنَّ الجنَّةَ وإنْ سُمِّيَتْ رَحْمَةً لمْ يَمْتَنِعْ أنْ يُسَمَّى ما فيها منْ أنواعِ النعيمِ رَحْمَةً، ولا رَيْبَ أنَّ مُسْتَقَرَّ ذلكَ النعيمِ هوَ الجنَّةُ، فالدَّاعِي يَطْلُبُ أنْ يَجْمَعَهُ اللهُ ومَنْ يُحِبُّ في المكانِ الذي تَسْتَقِرُّ فيهِ تلكَ الرحمةُ المخلوقةُ في الجنَّةِ، وهذا ظَاهِرٌ جِدًّا، فلا يَمْتَنِعُ الدعاءُ بوجهٍ، واللهُ أَعْلَمُ.

قال: حدَّثَنا مُوسَى بنُ إسماعِيلَ، قالَ: حدَّثَنا أبو الحارثِ الكِرْمانِيُّ، قال: سَمِعتُ رَجُلاً قالَ لأبي رَجاءٍ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ السلامَ، وأَسْأَلُ اللهَ أن يجمعَ بيني وبَينَكَ في مُسْتَقَرِّ رَحْمَتِهِ.

قالَ: وهَلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ ذلكَ؟ قالَ: فَمَا مُسْتَقَرُّ رَحْمَتِهِ؟

قال: الجنةُ.

قالَ: لَمْ تُصِبْ.

قال: فما مُسْتَقَرُّ رَحْمَتِهِ؟

قالَ: رَبُّ العَالَمِينَ».

وهذا بخِلافِ قَوْلِ الدَّاعِي: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ**»؛ فَإِنَّ الرحمةَ هُنَا صِفَتُهُ تَبارَكَ وتعالَى، وَهِيَ مُتَعَلَّقُ الاستغاثةِ، فإنَّهُ لا يُسْتَغَاثُ بمخلوقٍ، ولهذا كانَ هذا الدعاءُ منْ أَدْعِيَةِ الكَرْبِ، لِمَا تَضَمَّنَهُ من التوحيدِ والاستغاثةِ برحمةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ، مُتَوَسِّلاً إليهِ باسْمَيْنِ عَلَيْهِمَا مَدَارُ الأسماءِ الحُسْنَى كُلِّهَا، وإليهما مَرْجِعُ مَعَانِيهَا جَمِيعِهَا، وهوَ اسمُ الحيِّ القيُّومِ؛ فإنَّ الحياةَ مُسْتَلْزِمَةٌ لجميعِ صفاتِ الكمالِ، ولا يَتَخَلَّفُ عنها صِفَةٌ منها إلاَّ لِضَعْفِ الحياةِ، فإذا كانتْ حَيَاتُهُ تَعالَى أَكْمَلَ حياةٍ وَأَتَمَّهَا اسْتَلْزَمَ إِثْبَاتُهَا إِثْبَاتَ كُلِّ كَمَالٍ يُضَادُّ نَفْيَ كمالِ الحياةِ.

وبهذا الطريقِ العَقْلِيِّ أَثْبَتَ مُتَكَلِّمُو أَهْلِ الإثباتِ لهُ تَعَالَى صِفَةَ السمعِ والبصرِ والعِلْمِ والإرادةِ والقدرةِ والكلامِ وسائرِ صفاتِ الكمالِ.

وأمَّا القيُّومُ فهوَ مُتَضَمِّنٌ كمالَ غِنَاهُ وكمالَ قُدْرَتِهِ، فإنَّهُ القَائِمُ بِنَفْسِهِ لا يَحْتَاجُ إلى مَنْ يُقِيمُهُ بِوَجْهٍ من الوجوهِ، وهذا مِنْ كمالِ غِنَاهُ بِنَفْسِهِ عَمَّا سِوَاهُ، وهوَ المُقِيمُ لغيرِهِ، فلا قِيَامَ لِغَيْرِهِ إلاَّ بإقامتِهِ، وهذا منْ كمالِ قُدْرَتِهِ وَعِزَّتِهِ.

فَانْتَظَمَ هذانِ الاسمانِ صِفَاتِ الكمالِ وَالغِنَى التامَّ والقدرةَ التامَّةَ، فَكَأَنَّ المُسْتَغِيثَ بِهِمَا مُسْتَغِيثٌ بكلِّ اسمٍ منْ أسماءِ الربِّ تَعالَى، وبكلِّ صفةٍ منْ صفاتِهِ، فَمَا أَوْلَى الاستغاثةَ بِهَذَيْنِ الاسْمَيْنِ أنْ يَكُونَا في مَظِنَّةِ تَفْرِيجِ الكُرُبَاتِ، وَإِغَاثَةِ اللَّهفاتِ، وَإِنَالَةِ الطَّلَبَاتِ.

والمقصودُ أنَّ الرحمةَ المُسْتَغَاثَ بها منْ صفةِ الربِّ تَعَالَى، لا شَيْءٌ منْ مخلوقاتِهِ، كما أنَّ المُسْتَعِيذَ بعِزَّتِهِ في قولِهِ: «**أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ**» مُسْتَعِيذٌ بعِزَّتِهِ التي هيَ صِفَتُهُ لا بِعِزَّتِهِ التي خَلَقَهَا يُعِزُّ بها عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ.

وهذا كُلُّهُ يُقَرِّرُ قولَ أهلِ السُّنَّةِ أنَّ قولَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ»[1] يَدُلُّ على أنَّ كلماتِهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ؛ فَإِنَّهُ لا يُسْتَعَاذُ بِمَخْلُوقٍ.

وأمَّا قولُهُ تَعَالَى حكايَةً عنْ ملائكتِهِ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، فهذِهِ رحمةُ الصِّفَةِ التي وَسِعَتْ كلَّ شَيْءٍ كَمَا قَالَ تَعالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. وَسَعَتُهَا: عُمُومُ تَعَلُّقِهَا بِكُلِّ شيءٍ، كما أنَّ سَعَةَ عِلْمِهِ تَعالى عُمُومُ تعلُّقِهِ بِكُلِّ مَعْلُومٍ).[2]

[فَصْلٌ]

(وَمِمَّا يَنْبَغِي أنْ يُعْلَمَ: أنَّ الرحمةَ صِفَةٌ تَقْتَضِي إِيصَالَ المنافعِ والمصالحِ إلى العبدِ، وإنْ كَرِهَتْهَا نَفْسُهُ، وَشَقَّتْ عليها، فهذِهِ هيَ الرَّحمةُ الحَقيقيَّةُ. فَأَرْحَمُ الناسِ بكَ مَنْ شَقَّ عليكَ في إيصالِ مَصَالِحِكَ، وَدَفْعِ المَضَارِّ عَنْكَ.

فَمِنْ رَحْمَةِ الأَبِ بِوَلَدِهِ: أنْ يُكْرِهَهُ على التَّأَدُّبِ بالعلمِ والعملِ، وَيَشُقَّ عليهِ في ذلكَ بالضَّرْبِ وغيرِهِ، وَيَمْنَعَهُ شَهَوَاتِهِ التي تَعُودُ بِضَرَرِهِ، ومتى أَهْمَلَ ذلكَ مِنْ وَلَدِهِ كَانَ لِقِلَّةِ رَحْمَتِهِ بِهِ، وإنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَرْحَمُهُ وَيُرَفِّهُهُ وَيُرِيحُهُ، فهذِهِ رَحْمَةٌ مَقْرُونَةٌ بِجَهْلٍ، كَرَحْمَةِ الأُمِّ.

---

(١) أخرَجَهُ الإمامُ أحمدُ (٦/ ٣٧٧) برَقْم (٢٧١٦٦) ومسلمٌ في كتابِ الذكرِ والدعاءِ/ بابٌ في التعوُّذِ من سُوءِ القضاءِ (٢٧٠٨)، والتِّرمذيُّ في كتابِ الدَّعَواتِ/ بابُ ما جاءَ ما يقولُ إذا نَزَلَ مَنْزِلاً (٥/ ٤٩٦)، وابنُ خُزَيْمَةَ (٤/ ١٥٠) برَقْم (٢٥٦٦)، والدارِميُّ (٢/ ٣٧٥) برَقْم (٢٦٨٠) من حديثِ خَوْلَةَ بنتِ حكيمِ السُّلَمِيَّةِ رضيَ اللهُ عنها: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ يقولُ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ثم قالَ: أعوذُ بكلماتِ اللهِ التاماتِ من شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرُّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِن مَنْزِلِهِ ذَلِكَ». لفظُ مُسْلِمٍ.

(٢) بَدَائِعُ الفوائِدِ (٢/ ١٨٣-١٨٥)

ولهذا كانَ مِنْ تَمام رحمةِ أرحم الراحِمِينَ: تَسْلِيطُ أنواعِ البلاءِ على العبدِ، فإنَّهُ أَعْلَمُ بِمَصْلَحَتِهِ، فَابْتِلاؤُهُ لهُ وَامْتِحانُهُ وَمَنْعُهُ مِنْ كثيرٍ مِنْ أغراضِهِ وشهواتِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ بِهِ، لكنَّ العبدَ لِجَهْلِهِ وَظُلْمِهِ يَتَّهِمُ رَبَّهُ بِابْتِلائِهِ، ولا يَعْلَمُ إِحْسَانَهُ إليهِ بابْتِلائِهِ وَامْتِحانِهِ.

وقدْ جاءَ في الأثرِ: «**إنَّ المُبْتَلَى إِذَا دُعِيَ لَهُ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ: كَيْفَ أَرْحَمُهُ مِنْ شَيْءٍ بِهِ أَرْحَمُهُ؟**».[1] وَفِي أثرٍ آخرَ: «**إنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدَهُ حَمَاهُ الدُّنْيَا وَطَيِّبَاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا، كَمَا يَحْمِي أَحَدُكُمْ مَرِيضَهُ**».[2]

فهذا مِنْ تمامِ رحمتِهِ بهِ، لا مِنْ بُخْلِهِ عليهِ. كيفَ وهوَ الجَوادُ المَاجِدُ، الذي لهُ الجُودُ كُلُّهُ، وَجُودُ الخلائقِ في جَنْبِ جُودِهِ أَقَلُّ مِنْ ذَرَّةٍ في جِبالِ الدنيا ورِمالِها؟!

فمِنْ رَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ بِعِبادِهِ: ابْتِلاؤُهُم بالأوامرِ والنَّواهي رحمةً وحِمْيَةً، لا حاجةً منهُ إليهم بما أَمَرَهُم بهِ، فهوَ الغنيُّ الحميدُ، ولا بُخْلاً منهُ عليهم بما نَهَاهُم عنهُ، فهوَ الجَوادُ الكَريمُ.

ومِنْ رَحْمَتِهِ: أنْ نَغَّصَ عليهم الدُّنْيَا وَكَدَّرَهَا؛ لِئَلاَّ يَسْكُنُوا إِلَيْهَا، ولا يَطْمَئِنُّوا إليها، وَيَرْغَبُوا في النَّعِيمِ المُقِيمِ في دَارِهِ وَجِوارِهِ، فَسَاقَهُم إلى ذلكَ بِسياطِ الابتلاءِ والامتحانِ، فمَنَعَهُمْ لِيُعْطِيَهُم، وَابْتَلاهُم لِيُعَافِيَهُم، وَأَمَاتَهُم لِيُحْيِيَهُم.

ومِنْ رَحْمَتِهِ بِهِمْ: أنْ حَذَّرَهُم نَفْسَهُ؛ لِئَلاَّ يَغْتَرُّوا بهِ، فَيُعَامِلُوهُ بِمَا لا تَحْسُنُ مُعَامَلَتُهُ بِهِ كما قالَ تعالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ٣٠﴾ [آل عمران: ٣٠].

(١) ذكرَهُ الإمامُ أحمدُ في كتابِ العِلَلِ (٢/ ٣٢٢) برقمِ (٢٤٢٧) قالَ: بَلَغَني عن سَلاَّمِ بنِ أَبي مُطيعٍ، أنه كانَ يقُولُ: كيفَ أَرْحَمُهُ مِمَّا بهِ أَرْحَمُهُ؟

(٢) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٢٣١١١) والتِّرْمِذيُّ في كتابِ الطبِّ / بابُ ما جاءَ في الحِمْيَةِ (٢٠٣٦) بلفظٍ مقاربٍ دونَ قولِه: «**وَطَيِّبَاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا**» من حديثِ قتادةَ بنِ النُّعمانِ رضيَ اللهُ عنه.

قالَ غيرُ واحدٍ من السلفِ: مِنْ رَأْفَتِهِ بالعِبَادِ: حَذَّرَهُم منْ نَفْسِهِ؛ لِئَلاَّ يَغْتَرُّوا بهِ.

وَلَمَّا كَانَ تَمَامُ النِّعْمَةِ على العبدِ إِنَّمَا هوَ بالهُدَى والرَّحْمَةِ، كانَ لَهُمَا ضِدَّانِ: الضلالُ والغَضَبُ؛ فَأَمَرَنَا اللهُ أَنْ نَسْأَلَهُ كلَّ يوم وليلةٍ مَرَّاتٍ عديدةً أَنْ يَهْدِيَنَا صِرَاطَ الذينَ أَنْعَمَ عليهم، وهمْ أُولُو الهُدَى والرحمةِ، ويُجَنِّبَنَا طَرِيقَ المغضوبِ عليهم، وهمْ ضِدُّ المَرْحُومِينَ، وطريقَ الضَّالِّينَ، وهمْ ضِدُّ المُهْتَدِينَ. ولهذا كانَ هذا الدعاءُ منْ أَجْمَعِ الدعاءِ وَأَفْضَلِهِ وَأَوْجَبِهِ، وَباللهِ التوفيقُ).(١)

فائدةٌ:

استَبْعَدَ قومٌ أنْ يكونَ الرحمنُ نَعْتاً للهِ منْ قَوْلِنَا: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»، وقالُوا: «**الرَّحْمَنُ**» عَلَمٌ، والأعلامُ لا يُنْعَتُ بها، ثُمَّ قالوا: هُوَ بَدَلٌ من اسمِ اللهِ.

قالوا: وَيَدُلُّ على هذا أنَّ الرحمنَ عَلَمٌ مُخْتَصٌّ باللهِ لا يُشَارِكُهُ فيهِ غيرُهُ، فليسَ هوَ كالصِّفَاتِ التي هيَ كالعليمِ والقديرِ والسميعِ والبصيرِ، ولهذا تَجْرِي على غيرِهِ تَعَالَى.

قالوا: وَيَدُلُّ عليهِ أيضاً وُرُودُهُ في القرآنِ غيرَ تابعٍ لِمَا قَبْلَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ [الرحمن: ١-٢]، ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الملك: ٢٠]، وهذا شأنُ الأسماءِ المحضَةِ؛ لأنَّ الصِّفَاتِ لا يُقْتَصَرُ على ذِكْرِهَا دُونَ المَوْصُوفِ.

قالَ السُّهَيْلِيُّ: والبَدَلُ عِنْدِي فيهِ مُمْتَنِعٌ، وكذلكَ عَطْفُ البيانِ؛ لأنَّ الأوَّلَ(٢) لا يَفْتَقِرُ إلى تَبْيِينٍ، فَإِنَّهُ أَعْرَفُ المَعَارِفِ كُلِّهَا وَأَبْيَنُهَا، ولهذا قالُوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان:٦٠]، ولَمْ يَقُولُوا: «وَمَا اللهُ»، ولكنَّهُ وَإِنْ جَرَى مَجْرَى الأعلامِ فهوَ وَصْفٌ يُرَادُ بِهِ الثناءُ، وكذلكَ الرحيمُ، إلاَّ أَنَّ الرحمنَ منْ أَبْنِيَةِ المبالغةِ كَغَضْبَانَ

---

(١) إغاثةُ اللهفانِ (٢/ ٢٥٢-٢٥٤)

(٢) يُرِيدُ لفظَ الجلالةِ (الله) في قولِ: (بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ).

وَنَحْوِهِ، وإنَّما دَخلَهُ مَعْنى المبالغةِ مِنْ حيثُ كانَ في آخرِهِ ألفٌ ونونٌ كَالتَّثْنِيَةِ؛ فإنَّ التثنيةَ في الحقيقةِ تَضْعِيفٌ، وكذلكَ هذهِ الصفةُ فكَأَنَّ غَضْبَانَ وَسَكْرَانَ حَامِلٌ لِضِعْفَيْنِ مِنَ الغَضَبِ والسُّكْرِ، فكانَ اللَّفظُ مُضَارِعاً للفظِ التَّثْنِيَةِ؛ لأنَّ التثنيةَ ضِعْفَانِ في الحقيقةِ، أَلا تَرى أنهم أَيْضاً قدْ شَبَّهُوا التَّثْنِيَةَ بهذا البناءِ إذا كَانَتْ لِشَيْئَيْنِ مُتَلازِمَيْنِ، فقالوا: الحَكَمَانِ والعَلَمَانِ، وَأَعْرَبُوا النُّونَ كأَنَّهُ اسمٌ لشيءٍ واحدٍ، فقالُوا: اشْتَرَكَ بَابُ فعلانَ وَبَابُ التَّثْنِيَةِ، ومنهُ قولُ فاطمةَ: يا حَسَنَانُ، يا حُسَيْنَانُ بِرَفْعِ النُّونِ لابْنَيْهَا. وَلِمُضَارَعَةِ التَّثْنِيَةِ امْتَنَعَ جَمْعُهُ فلا يُقَالُ: غَضَّابِينَ، وَامْتَنَعَ تَأْنِيثُهُ فَلا يُقَالُ: غَضْبَانَةٌ، وَامْتَنَعَ تَنْوِينُهُ كَما لا يُنَوَّنُ نُونَ الْمُثَنَّى؛ فَجَرَتْ عليهِ كثيرٌ منْ أحكامِ التثنيةِ لمضارَعَتِهِ إيَّاهَا لَفْظاً وَمَعْنًى.

وفائدةُ الجمعِ بينَ الصِّفَتَيْنِ «**الرحمنِ والرحيمِ**» الإِنْبَاءُ عنْ رحمةٍ عاجلةٍ وَآجِلَةٍ وَخَاصَّةٍ وَعَامَّةٍ. تَمَّ كَلامُهُ.

قُلْتُ: أسماءُ الربِّ تَعَالَى هِيَ أسماءٌ وَنُعُوتٌ، فإنهَّا دالَّةٌ على صفاتِ كمالِهِ، فلا تَنَافِيَ فيها بينَ العَلَمِيَّةِ والوصفيَّةِ، فالرحمنُ اسمُهُ تَعالَى وَوَصْفُهُ، لا تُنَافِي اسْمِيَّتُهُ وَصْفِيَّتَهُ، فَمِنْ حَيْثُ هوَ صِفَةٌ جَرَى تَابعاً على اسمِ اللهِ، ومِنْ حَيْثُ هوَ اسمٌ وَرَدَ في القرآنِ غيرَ تَابعٍ، بلْ وُرُودَ الاسمِ العَلَمِ.

وَلَمَّا كَانَ هذا الاسمُ مُخْتَصًّا بِهِ تَعَالَى حَسُنَ مجَيئُهُ مُنْفَرِداً غيرَ تابعٍ كَمَجِيءِ اسمِ «**اللهِ**» كذلكَ، وهذا لا يُنَافِي دَلالَتَهُ على صفةِ الرحمنِ كاسمِ اللهِ، فإنَّهُ دالٌّ على صفةِ الأُلوهيَّةِ ولم يجَئْ قَطُّ تَابعاً لِغَيْرِهِ بَلْ مَتْبُوعاً، وهذا بخلافِ العليمِ والقديرِ والسميعِ والبصيرِ ونحوِهَا، ولهذا لا تجَيءُ هذهِ مُفْرَدَةً بلْ تَابِعَةً.

فتَأَمَّلْ هذهِ النُّكْتَةَ البديعةَ يَظْهَرْ لكَ بها أنَّ «**الرحمنَ**» اسمٌ وصِفَةٌ لا يُنَافِي أَحَدُهمُا الآخرَ، وجاءَ اسْتِعْمَالُ القرآنِ بالأَمْرَيْنِ جميعاً.

وأمَّا الجمعُ بَينَ «**الرحمنِ الرحيمِ**» ففيهِ مَعْنًى هوَ أحسنُ من المعنيَينْ اللّذَيْنِ ذكَرَهُمَا، وهوَ أنَّ «**الرحمنَ**» دَالٌّ على الصفةِ القائمةِ بِهِ سبحانَهُ، و«**الرحيمَ**» دَالٌّ على تَعلُّقِهَا بالمرحومِ، فكانَ الأوَّلُ للوصفِ، والثاني للفعلِ.

- **فالأوَّلُ** دالٌّ على أنَّ الرحمةَ صِفَتُهُ.
- **والثاني** دَالٌّ على أنَّهُ يَرحَمُ خَلْقَهُ بِرَحمَتِهِ.

وإذا أَرَدْتَ فَهمَ هذا فتأَمَّلْ قَوْلَهُ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: ١١٧]. ولمْ يجِئْ قَطُّ رَحمْنٌ بهِمْ، فَعُلِمَ أنَّ «رَحمْن» هوَ الموصوفُ بالرحمةِ و «رَحِيم» هوَ الراحمُ برَحمَتِهِ.

وهذهِ نُكْتَةٌ لا تَكادُ تجِدُهَا في كتابٍ وإنْ تَنفَّسَتْ عِندَهَا مِرْآةُ قَلْبِكَ لمْ تَنْجَلِ لَكَ صُورَتُهَا).(١)

[الحَيُّ]:

([اللهُ] سُبحَانَهُ حَيٌّ حَقِيقَةً، وَحيَاتُهُ أَكْمَلُ الحياةِ وَأَتمُّهَا، وهيَ حَيَاةٌ تَسْتَلزِمُ جَمِيعَ صفاتِ الكمالِ، وَنَفْيَ أَضْدَادِهَا مِنْ جميعِ الوجوهِ).(٢)

(فإنَّ الحياةَ مُسْتَلْزِمَةٌ لجَمِيعِ صفاتِ الكمالِ، ولا يَتَخلَّفُ عنها صفةٌ منها إلاَّ لِضَعْفِ الحياةِ، فإذا كانتْ حَيَاتُهُ تعالَى أَكْمَلَ حَيَاةٍ وَأَتمَّهَا اسْتَلْزَمَ إِثْبَاتهَا إثبات كلِّ كمالٍ يُضادُّ نَفْيَ كمالِ الحياةِ.

---

(١) بَدَائِعُ الفوائِدِ (١/ ٢٣ - ٢٤)

(٢) شِفاءُ العَلِيلِ (٢/ ٨٢).

وبهذا الطريقِ العَقْلِيِّ أَثْبَتَ مُتكَلِّمو أهلِ الإثباتِ لهُ تعَالَى صِفَةَ السمعِ والبصرِ والعلمِ والإرادةِ والقدرةِ والكلامِ وسائرَ صفاتِ الكمالِ)[١]. [٢]

(والحياةُ التامَّةُ تُضادُّ جَمِيعَ الأسقامِ والآلامِ، ولهذا لَمَّا كَمُلَتْ حَيَاةُ أهلِ الجنَّةِ لمْ يَلْحَقْهُم هَمٌّ ولا غمٌّ ولا حُزْنٌ ولا شيءٌ من الآفاتِ، ونُقْصانُ الحياةِ تَضُرُّ بالأفعالِ، وَتُنافِي القَيُّومِيَّةَ، فكمالُ القَيُّومِيَّةِ لِكَمالِ الحياةِ، فالحَيُّ المُطْلَقُ التامُّ الحياةِ لا تَفُوتُهُ صِفَةُ الكمالِ الْبَتَّةَ).[٣]

---

(١) بَدَائِعُ الفوائدِ (٢/ ١٨٤).

(٢) وقالَ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَى- في شفاءِ العليلِ (٢/ ٨٢): (ومِن لَوازمِ الحياةِ الفعلُ الاختياريُّ، فإنَّ كُلَّ حيٍّ فعَّالٌ. وصدورُ الفعلِ عن الحيِّ بحَسَبِ كَمالِ حَياتِهِ ونَقْصِها. وكلُّ مَن كانَتْ حياتُهُ أكْمَلَ مِن غَيْرِه كانَ فِعلُهُ أَقْوَى وأَكْمَلَ، وكذلكَ قُدْرَتُه، ولذلك كانَ الربُّ سُبحانَهُ على كلِّ شيءٍ قديرًا، وهو فعَّالٌ لِمَا يُريدُ. وقد ذَكَرَ البُخَارِيُّ في كتابِ خلقِ الأفعالِ عن نَعِيمِ بنِ حمادٍ أنه قالَ: «الحيُّ هو الفعَّالُ. وكلُّ حيٍّ فعالٌ». فلا فَرقَ بينَ الحيِّ والميِّتِ إلا بالفعلِ والشُّعورِ.

وإذا كانَتِ الحياةُ مُستلزِمَةً للفعلِ، وهو الأصلُ الثالِثُ، فالفعلُ الذي لا يَعْقِلُ الناسُ سواهُ هو الفعلُ الاختياريُّ الإراديُّ، الحاصلُ بقدرةِ الفاعلِ وإرادتِهِ ومشيئَتِه.

وما يَصْدُر عن الذاتِ من غيرِ سَفِيرِ قُدرةٍ منها ولا إرادةٍ لا يُسمِّيهِ أحدٌ مِنَ العُقلاءِ فِعلاً، وإن كانَ أثَرًا مِن آثارِها ومُتولِّدًا عنها، كتأثيرِ النارِ في الإحراقِ، والماءِ في الإغراقِ، والشمسِ في الحرارةِ، فهذه آثارٌ صادرةٌ عن الأجسامِ وليست أفعالاً لها، وإن كانَتْ بقُوَى وطَبائِعَ جعَلَها اللهُ فيها.

فالفعلُ والعملُ من الحيِّ العالِمِ لا يَقَعُ إلا بمشيئَتِه وقُدرتِه. وكونُ الربِّ سبحانَهُ حيًّا فاعلاً مُختارًا مُريدًا مِمَّا اتفقَتْ عليه الرُّسُلُ والكُتُبُ، ودلَّ عليه العقلُ والفِطرةُ، وشَهِدَتْ به الموجوداتُ؛ نَاطِقُها وصامِتُها، جمادُها وحَيوانُها، عُلْويُّها وسُفْلِيُّها. فمَنْ أنْكَرَ فِعْلَ الربِّ الواقعَ بمشيئَتِه واختيارِه وفِعلِه فقد جَحَدَ رَبَّهُ وفاطِرَهُ، وأنْكَرَ أن يكونَ للعالمِ رَبٌّ).

(٣) زادُ المَعادِ (٤/ ٢٠٤).

وقال رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى: في زادِ المَعادِ (٤/ ٢٠٤): (فإنَّ صفةَ الحياةِ مُتضمِّنَةٌ لجميعِ صفاتِ الكمالِ، مُستلزِمةٌ لها).

[القَيُّوم]:

(«**القَيُّومُ**» هوَ القائِمُ بِنَفْسِهِ، الذي قِيَامُ كلِّ شيءٍ بِهِ؛ أيْ: هوَ المُقِيمُ لِغَيْرِهِ، فَلا قِيَامَ لغيرِهِ بدونِ إقامتِهِ لهُ، وقيامُهُ هوَ بنفسِهِ لا بِغَيْرِهِ).[1]

([فـ]هوَ الذي قَامَ بِنَفْسِهِ، فلمْ يَحْتَجْ إلى أحدٍ، وقامَ كلُّ شيءٍ بهِ، فكلُّ ما سِوَاهُ مُحْتَاجٌ إليهِ بالذَّاتِ).[2]

(و[هوَ] قَائِمٌ على كلِّ شيءٍ، وقائِمٌ على كلِّ نفسٍ بما كَسَبَتْ، [فهوَ] تَعَالَى القائِمُ بِنفْسِهِ، المُقيمُ لغيرِهِ، القائمُ عليهِ بِتَدْبيرِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ وَقَهْرِهِ، وإيصالِ جزاءِ المُحْسِنِ إليهِ وجزاءِ المُسِيءِ إليهِ، و[لـ]كمالِ قَيُّومِيَّتِهِ لا يَنَامُ ولا يَنْبَغِي لهُ أنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ القسطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إليهِ عَمَلُ الليلِ قبلَ النهارِ، وَعَمَلُ النهارِ قبلَ الليلِ، لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ، ولا يَضِلُّ وَلا يَنْسَى).[3]

([فهوَ] القيُّومُ القائِمُ بِتَدْبِيرِ عبادِهِ، فلا خَلْقَ ولا رِزْقَ، ولا عطاءَ ولا مَنْعَ، ولا قَبْضَ ولا بَسْطَ، ولا مَوْتَ ولا حياةَ، ولا إضلالَ ولا هُدَى، ولا سَعادَةَ ولا شَقَاوَةَ إلاَّ بعدَ إِذْنِهِ، وكلُّ ذلكَ بِمَشِيئَتِهِ وَتَكْوِينِهِ؛ إذْ لا مَالِكَ غَيْرُهُ، ولا مُدبِّرَ سِوَاهُ، ولا رَبَّ غَيْرُهُ).[4]

([فـ]صفةُ القَيُّومِيَّةِ مُتَضَمِّنَةٌ لجميعِ صفاتِ الأفعالِ).[5]، ([وَ] «**القَيُّومُ**» ... مُتَضَمِّنٌ [لـ]كمالِ غِنَاهُ وكمالِ قُدْرَتِهِ، فإنَّهُ القائمُ بِنفسِهِ، لا يَحْتَاجُ إلى مَنْ يُقِيمُهُ بِوَجْهٍ من الوجوهِ؛ وهذا منْ كمالِ غِنَاهُ بِنَفْسِهِ عمَّا سِوَاهُ، وهوَ المُقِيمُ لغيرِهِ،

---

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٢/ ١١١).

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ١١٤).

(٣) طَرِيقُ الهجرتَيْنِ (٤٤ – ٤٥).

(٤) شِفَاءُ العَلِيلِ (١/ ١٣٠).

(٥) زَادُ المَعادِ (٤ – ٢٠٤).

فلا قِيامَ لغيرِهِ إلاَّ بإقامتِهِ، وهذا مِنْ كمالِ قُدْرَتِهِ وَعِزَّتِهِ)[1]، ([فـ] «القيُّومُ» ... لا يَتعذَّرُ عليهِ فِعْلٌ مُمْكِنٌ الْبَتَّةَ).[2]

(هذا ومِنْ أوصافِهِ القيُّومُ والـْ ... قَيُّومُ في أوصافِهِ أَمْرَانِ
إِحْـدَاهُمَـا: القيُّومُ قَـامَ بِنَفْسِهِ ... والكونُ قامَ بِهِ هُمَا الأَمْرَانِ
فَـالأَوَّلُ: اسْتِغْنَاؤُهُ عَـنْ غَـيْرِهِ ... والفَقْرُ مِنْ كُلٍّ إليهِ الثاني
وَالوصفُ بالقيُّومِ ذُو شَأْنٍ عَظِيمٍ هَـ ... كَذَا مَوْصُوفُهُ أَيْضاً عَظِيمُ الشَّانِ.[3]

(١) بَدائِعُ الفوائِدِ (٢/ ١٨٤).

.(٢) زَادُ المَعادِ (٤ - ٢٠٤).

مُلحَقٌ: وقالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في الصواعقِ المُرسلَةِ (٤/ ١٣٢٨- ١٣٢٩): (القيامُ بالنفسِ صِفةُ كَمالٍ، فالقائمُ بنَفْسِه أَكْمَلُ مِمَّنْ لا يَقُومُ بنَفْسِه ومَن كانَ غِناهُ مِن لَوازِمِ ذاتِه فقِيامُهُ بنَفْسِه مِن لَوازِمِ ذاتِه، وهذه حقيقةُ قَيُّومِيَّتِهِ سبحانَهُ وهو الحيُّ القيومُ، فالقيومُ القائمُ بنفسِه المُقِيمُ لغيرِه، فمَنْ أَنْكَرَ قيامَهُ بنَفْسِه بالمعنَى المعقولِ فقد أَنْكَرَ قَيُّومِيَّتَهُ).

فائدةٌ لطيفةٌ: قال رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في طريقِ الهجرتينِ (١٨٤): (فإنه سُبحانَهُ القيُّومُ المُقِيمُ لكلِّ شيءٍ مِنَ المخلوقاتِ طَائِعِها وعاصِيها فكيفَ تَكُونُ قَيُّومِيَّتُهُ بمَنْ أَحبَّهُ وتولاَّهُ وآثرَهُ على ما سِواهُ ورَضِيَ به من الناسِ حبيبًا وربًّا ووكيلاً وناصرًا ومُعِينًا وهاديًا، فلو كُشِفَ الغِطاءُ عن أَلطافِه وبرِّهِ وصُنْعِهِ له مِن حيثُ يَعْلَمُ ومن حيثُ لا يَعْلَمُ لذابَ قَلبُه حُبًّا له وشَوقًا إليه، ويَقَعُ شُكرًا له، ولكنْ حَجَبَ القلوبَ عن مُشاهدةِ ذلك إِخْلادُها إلى عالَمِ الشهوَاتِ والتعلُّقِ بالأسبابِ فصُدَّتْ عن كمالِ نَعيمِها وذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ، وإلا فأيُّ قلبٍ يذوقُ حلاوةَ معرفةِ اللهِ ومحبَّتِه ثم يَرْكَنُ إِلَى غيرِه؟ هذا ما لا يَكُونُ أبدًا.......) [أكمل حتى ص١٨٧]

(٣) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢٤٨).

والبيتُ الأخيرُ هكذا وَجدْتُهُ في الكتابِ المشارِ إليه، وهكذا هو في شرحِ ابنِ عيسَى -رَحِمَهُ اللهُ تعالَى- (٢/ ٢٣٦) وفيه زيادةٌ ظاهرةٌ مُخِلَّةٌ بالوَزْنِ. وصوابُهُ هكذا:

وَالْـوَصْـفُ بِالْقَيُّومِ ذُو شَـأْنٍ عَظِيـ ... ـمٍ هَـكَـذَا اللهُ عَـظِـيـمُ الـشَّـانِ

أو:

وَالْـوَصْـفُ ذُو شَـأْنٍ عَظِيمٍ هَـكَـذَا ... مَـوْصُـوفُـهُ أَيْـضًـا عَـظِـيـمُ الـشَّـانِ

أو نحوُ ذلك.

[السَّمِيعُ]:

(«**السَّمِيعُ**» الذي لهُ السَّمْعُ)[1]، (الذي قد اسْتَوَى في سَمْعِهِ سِرُّ القولِ وَجَهْرُهُ، وَسِعَ سَمْعُهُ الأصواتَ، فلا تَخْتَلِفُ عليهِ أصواتُ الخلقِ، ولا تَشْتَبِهُ عليهِ ولا يَشْغَلُهُ منها سَمْعٌ عنْ سَمْعٍ، ولا تُغْلِطُهُ المسائلُ، ولا يُبْرِمُهُ كثرةُ السائِلِينَ.

قَالَتْ عَائِشَةُ: «**الحمدُ للهِ الذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأصواتَ، لقدْ جاءَتِ المُجَادِلَةُ تَشْكُو إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ (وأنَا فِي جَانِبِ البيتِ)**[2] **وإنَّهُ لَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُ كَلامِهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وَجَلَّ:** ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١]»[3]).[4]

([فَوَسِعَ] سَمْعُهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى لأصواتِ عبادِهِ على اختلافِهَا وجهرِهَا وخفائِهَا، وَسَوَاءٌ عِنْدَهُ مَنْ أَسَرَّ القَوْلَ ومَنْ جَهَرَ بِهِ، لا يَشْغَلُهُ جَهْرُ مَنْ جَهَرَ عنْ سَمْعِهِ لصوتِ مَنْ أَسَرَّ، ولا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عنْ سَمْعٍ، ولا تُغْلِطُهُ الأصواتُ على كَثْرَتِهَا واختلافِهَا واجتماعِهَا، بلْ هيَ عندَهُ كُلُّهَا كَصَوْتٍ واحدٍ، كما أنَّ خَلْقَ الخلقِ جَمِيعِهِم وَبَعْثَهُم عندَهُ بمنزلةِ نفسٍ واحدةٍ).[5]

([فَـ]يَسْمَعُ ضَجِيجَ الأصواتِ، باختلافِ اللغاتِ، على تَفَنُّنِ الحاجاتِ، في أَقْطَارِ الأرضِ والسَّماواتِ، فلا يَشْتَبِهُ عليهِ، ولا يَخْتَلِطُ، ولا يَلْتَبِسُ، ولا يُغْلِطُهُ سَمْعٌ).[6]

---

(١) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٢٨).

(٢) مفتاحُ دارِ السعادةِ (١/ ٢٩٥).

(٣) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٨٦.

(٤) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (١٣١ - ١٣٢).

(٥) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (٤٣ - ٤٤).

(٦) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٣/ ١٠٨٣).

(وأمَّا قولُ إبراهيمَ الخليلِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: ٣٩]، فالمرادُ بالسمع هنا: السَّمْعُ الخاصُّ، وهوَ سَمْعُ الإجابةِ والقبُولِ، لا السَّمْعُ العامُّ؛ لأنَّهُ سَمِيعٌ لكلِّ مسموعٍ.

وإذا كانَ كذلكَ فالدعاءُ هنا يَتَنَاوَلُ دعاءَ الثناءِ ودعاءَ الطلبِ، وسمْعُ الربِّ تَبَارَكَ وتَعَالَى لهُ إِثَابَتُهُ على الثناءِ وإجابتُهُ للطلبِ، فهوَ سميعٌ لهذا وهذا).(١)

[فَصْلٌ ...]

[و] السمعُ يُرَادُ بِهِ أربعةُ مَعَانٍ:

أحدُهَا: سَمْعُ إِدْرَاكٍ؛ ومُتَعَلَّقُهُ الأصواتُ.

الثاني: سَمْعُ فَهْمٍ وعَقْلٍ؛ ومُتَعَلَّقُهُ المعاني.

الثالثُ: سَمْعُ إجابةٍ وإعطاءِ ما سُئِلَ.

الرابعُ: سَمْعُ قَبُولٍ وانْقِيَادٍ.

---

(١) بَدَائِعُ الفوائِدِ (٣/ ٤).

وقال رَحِمَهُ اللهُ تعالَى في إغاثةِ اللهفانِ (١/ ٣): (السميعُ الذي يَسْمَعُ ضَجِيجَ الأصواتِ باختلافِ اللغاتِ على تفنُّنِ الحاجاتِ فلا يَشْغَلُه سَمْعٌ عن سَمْعٍ، ولا تُغْلِطُهُ المَسائِلُ، ولا يَتَبَرَّمُ بإلحاحِ المُلِحِّينَ في سُؤالِه)

هدايةُ الحيارَى (٥٢٣ - ٥٢٤): (العاشرُ: أنه سميعٌ.... يَسْمَعُ ضَجِيجَ الأصواتِ باختلافِ اللغاتِ على تَفَنُّنِ الحاجاتِ).

وقال أيضًا في القصيدةِ النونيةِ (٢٤٠- ٢٤١):

وَهُوَ السَّمِيعُ يَرَى وَيَسْمَعُ كُلَّ مَا ... فِي الْكَوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلانِ
وَلِكُلِّ صَوْتٍ مِنْهُ سَمْعٌ حَاضِرٌ ... فَالسِّرُّ والإعلانُ مُسْتَوِيَانِ
وَالسَّمْعُ مِنْهُ لِوَاسِعِ الأَصْواتِ لاَ ... يَخْفَى عَلَيْهِ بَعِيدُها والدَّاني

وقال فيها أيضًا (٦٤):

وضجيجُ أصواتِ العِبادِ بسَمْعِهِ ... وَلَدَيْهِ لاَ يَتَشَابَهُ الصَّوْتَانِ

فمِن الأوَّلِ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]، و﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ [آل عمران: ١٨١].

ومِن الثاني: قولُهُ: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ﴾ [البقرة: ١٠٤]. لَيْسَ المرادُ سَمْعَ مُجَرَّدِ الكلامِ، بلْ سَمْعَ الفَهْمِ والعَقْلِ، ومِنْهُ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومن الثالِثِ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»، وفي الدعاءِ المأثورِ: «اللَّهُمَّ اسْمَعْ»(١)؛ أيْ: أَجِبْ وَأَعْطِ مَا سَأَلْتُكَ.

ومن الرابعِ: قولُهُ تَعَالَى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤٢]؛ أيْ: قَابِلُونَ لهُ وَمُنْقَادُونَ غيرُ مُنْكِرِينَ لهُ. ومنهُ على أَصَحِّ القَوْلَيْنِ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]؛ أيْ: قَابِلُونَ وَمُنْقَادُونَ. وقيلَ: عُيُونٌ وجَوَاسِيسُ. وليس بِشَيْءٍ؛ فإنَّ العيونَ والجواسيسَ إنَّما تكونُ بينَ الفِئَتَيْنِ غيرِ المُخْتَلِطَتَيْنِ، فَيُحْتَاجُ إلى الجواسِيسِ والعيونِ.

وهذهِ الآيَةُ إِنَّمَا هيَ في حقِّ المنافِقِينَ، وهمْ كانوا مُخْتَلِطِينَ بالصحابةِ بينَهُم، فلم يَكُونُوا مُحْتَاجِينَ إلى عيونٍ وجواسيسَ.

وإذا عُرِفَ هذا **فَسَمْعُ الإدْرَاكِ** يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ، **وَسَمْعُ القَبُولِ** يَتَعَدَّى باللامِ تَارَةً وَبِمِنْ أُخْرَى، وهذا بِحَسَبِ المَعْنَى؛ فإذا كانَ السياقُ يَقْتَضِي القَبُولَ عُدِّيَ بِمِنْ، وإذا كانَ يَقْتَضِي الانقيادَ عُدِّيَ باللامِ.

---

(١) روى الإمامُ أَحْمَدُ (١٨٨٠٧) وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ/ بابُ ما يقولُ الرجلُ إذا سَلَّمَ (١٥٠٥) كلاهما من حديثِ المُعتَمِرِ بنِ سُليمانَ، عن داودَ الطفاويِّ، قال: حدثني أبو مُسلم البَجَلِيُّ، عن زيدِ بنِ أَرْقَمَ رضيَ اللهُ عنه، قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ يقولُ في دُبُرِ صَلاتِه: «اللهُمَّ رَبَّنَا وربَّ كُلِّ شيءٍ، أنا شهيدٌ أنكَ أنتَ الربُّ وحدَكَ لا شريكَ لك، اللهُمَّ رَبَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ»... فذكرا الحديثَ وفيه: «يا ذا الجَلالِ وَالإكرامِ، اسْمَعْ واسْتَجِبْ».
وداودُ الطَّفَاوِيُّ ضعيفٌ جِدًّا، وأبو مسلمٍ البَجَلِيُّ ذَكَرَهُ ابنُ حِبَّانَ في الثقاتِ كعادَتِه.

وأمَّا **سَمْعُ الإجابةِ** فيَتَعَدَّى باللامِ، نحوَ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**»؛ لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى اسْتَجابَ لهُ. ولا حَذْفَ هُناكَ، وإنَّما هُوَ مُضمَّنٌ.

وأمَّا **سَمْعُ الفَهْمِ** فيَتَعَدَّى بنفسِهِ؛ لأنَّ مَضْمُونَهُ يَتعَدَّى بِنَفْسِهِ).(١)

[البَصِيرُ]:

(«**البَصِيرُ**» الذي لهُ البَصَرُ)(٢)، (الذي لكمالِ بَصَرِهِ يَرَى تَفَاصِيلَ خَلْقِ الذرَّةِ الصغيرةِ، وَأَعْضَاءَهَا وَلَحْمَهَا وَدَمَهَا وَمُخَّهَا وَعُرُوقَها، وَيَرَى دَبِيبَهَا على الصخرةِ الصَّمَّاءِ في اللَّيْلَةِ الظلماءِ، وَيَرى ما تَحْتَ الأَرَضِينَ السبعِ كما يَرَى ما فوقَ السَّمَاواتِ

---

(١) بَدَائِعُ الفوائِدِ (٢/ ٧٥ – ٧٦).

وقال رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في مفتاحِ دارِ السعادةِ (٢٩٥ – ٢٩٦): (والسَّمْعُ يُرادُ به إدراكُ الصوتِ، ويرادُ به فَهْمُ المعنَى، ويرادُ به القَبُولُ والإجابةُ، والثلاثةُ في القرآنِ:

فمِنَ الأولِ: قولُه: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾ [المجادلة: ١]، وهذا أَصْرَحُ ما يكونُ في إثباتِ صِفَةِ السَّمْعِ ذَكَرَ الماضِيَ والمُضارعَ واسمَ الفاعلَ: (سَمِعَ) و(يَسْمَعُ)، وهو (سميعٌ)، وله السَّمْعُ؛ كما قالت عائشةُ رضيَ اللهُ عنها: «**الحمدُ للهِ الذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأصواتَ، لقد جاءَتِ المُجادِلَةُ تَشْكُو إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ وأنا في جانبِ البيتِ، وإنه لَيَخْفَى عليَّ بَعْضُ كلامِها، فأنزلَ اللهُ:** ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾».

والثاني: سَمْعُ الفَهْمِ؛ كقولِه: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لأَفْهَمَهُمْ: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ٢٣﴾ [الأنفال: ٢٣] لِمَا في قُلوبِهم من الكِبْرِ والإعراضِ عن قَبولِ الحقِّ، ففيهم آفتانِ: إحداهُما/ أنهم لا يَفْهَمُونَ الحقَّ لجَهْلِهم، ولو فَهِمُوه لتَوَلَّوْا عنه وهم مُعْرِضُونَ عنه لكِبْرِهِمْ، وهذا غايةُ النَّقْصِ والعَيْبِ.

الثالثُ: سَمْعُ القَبُولِ والإجابةِ كقولِه تعالَى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] أي: قابلونَ مُستجيبُونَ، ومنه قولُهُ تعالَى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١]، أي: قابلونَ له مُستَجيبونَ لأَهْلِه، ومنه قولُ المُصلِّي: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ أي: أجابَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، ودعاءَ مَن دعاهُ، وقولُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: «**إذا قالَ الإمامُ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فقولُوا: رَبَّنا وَلَكَ الحَمْدُ، يَسْمَعُ اللهُ لَكُمْ**» (أي: يُجِيبُكُمْ).

(٢) شِفاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٢٨).

السبعِ).[1]

(قدْ أَحاطَ سَمْعُهُ بجميعِ المسموعاتِ، وبَصَرُهُ بجميعِ المُبْصَراتِ، وَعِلْمُهُ بِجَمِيعِ المعلوماتِ، وقدرتُهُ بجميعِ المَقْدُورَاتِ، وَنَفَذَتْ مَشِيئَتُهُ في جميعِ البَرِيَّاتِ، وَعَمَّتْ رَحْمَتُهُ جَمِيعَ المخلوقاتِ، وَوَسِعَ كُرْسِيُّهُ الأرضَ والسَّماواتِ).[2]

---

(١) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (١٣١).

(٢) هدايةُ الحَيارَى (٥٢٣ – ٥٢٤).

* **مُلحَقٌ:**

وقالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في طريقِ الهجرتينِ (٤٤): (وكذلك إذا شَهِدَ مَعْنَى اسمِه البصيرِ جَلَّ جلالُهُ الذي يَرَى دَبِيبَ النَّمْلَةِ السَّوْدَاءِ على الصخرةِ الصماءِ في حِنْدِسِ الظَّلْماءِ. ويَرَى تفاصيلَ خَلْقِ الذَّرَّةِ الصغيرةِ ومُخَّها وعُروقَها ولَحْمَها وحَرَكَتَها، ويَرَى مَدَّ البعوضةِ جَناحَها في ظُلمَةِ الليلِ، وأَعْطَى هذا المَشهَدَ حَقَّهُ مِنَ العُبودِيَّةِ بحَرْسِ حَرَكاتِها وسَكَناتِها، وتيَقَّنَ أنَّها بمَرْأًى منه تَبارَكَ وتَعالَى ومُشاهدةٌ لا يَغِيبُ عنه منها شيءٌ).

وقال في الصواعقِ المُرسلَةِ (٣/ ١٠٨٣): (ويرى دَبِيبَ النملةِ السوداءِ على الصخرةِ الصَّمَّاءِ تحتَ أطباقِ الأرضِ في الليلةِ الظلماءِ).

- وقال أيضًا في القصيدةِ النونيةِ (٢١٠):

وَكَــذَا بَـصِـيرٌ وَهْــوَ ذُو بَــصَرٍ وَيُبْــ ... ــصِرُ كُـلَّ مَـرْئِـيٍّ وَذِي الأَكْــوَانِ

وقالَ في القصيدةِ نَفْسِها (٦٤):

وكــذاكَ قــد شَـهِـدُوا بــأنَّ اللهَ ذو ... سَـمْـعٍ وذُو بَـصَـرٍ هُـمَـا صِـفَـتَانِ

وَهُــوَ الـعَـلِيُّ يَـرَى ويَـسْـمَـعُ خَلْقَهُ ... مِـنْ فَـوْقِ عَـرْشٍ فَـوْقَ سِـتِّ ثَـمَانِ

فَـيَرَى دَبِيبَ النَّمْلِ فِي غَسَقِ الدُّجى ... وَيَــرَى كَــذَاكَ تَـقَـلُّـبَ الأَجْـفَـانِ

وقال أيضًا فيها كما في توضيحِ المقاصدِ (٢/ ٢١٥):

وَهُـوَ البَصِيرُ يَـرَى دَبِـيـبَ النَّمْلَةِ السَّـ ... ـوْدَاءِ تَحْـتَ الـصَّـخْـرِ والـصَّـوَّانِ

وَيَــرَى مَجَــارِي الـقُـوتِ فِي أَعْـضَـائِـهَـا ... وَيَــرَى عُــرُوقَ بَـيَـاضِـهَـا بِـعِـيَـانِ

وَيَــرَى خِـيَـانَـاتِ الـعُـيُـونِ بِلَحْظِهَا ... وَيَــرَى كَــذَاكَ تَـقَـلُّـبَ الأَجْـفَـانِ

[فائدةٌ]: قال فضيلةُ الشيخِ مُحمدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِينُ حَفِظَهُ اللهُ= في هذا الموضِعِ مِن شَرْحِهِ لهذه القصيدةِ المُبارَكَةِ:

[العَلِيمُ]:

(«**العليمُ**» الذي لهُ العلمُ)[1]، (العالمُ بكُلِّ شيءٍ، الذي لِكَمَالِ عِلْمِهِ يَعْلَمُ ما بينَ أَيْدِي الخلائقِ وما خَلْفَهُم؛ فلا تَسْقُطُ وَرَقَةٌ إلاَّ بِعِلْمِهِ، ولا تَتَحَرَّكُ ذَرَّةٌ إلاَّ بإذنِهِ، يَعْلَمُ دَبِيبَ الخواطرِ في القلوبِ حيثُ لا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا المَلَكُ، وَيَعْلَمُ ما سَيَكُونُ منها حيثُ لا يَطَّلِعُ عليهِ القَلْبُ).[2]

(([فَـ]يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (([أيْ]: مَا تُسِرُّهُ القلوبُ وَأَخْفَى منهُ -وهوَ ما لمْ يَخْطُرْ لها- أنَّهُ سَيَخْطُرُ لَهَا)).[3]

وَيَعْلَمُ ما كانَ وما يكونُ [وما لمْ يَكُنْ] لوْ كانَ كَيْفَ كانَ يكونُ، وما تَسْقُطُ منْ وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا ولا حَبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأرضِ ولا رطبٍ ولا يابسٍ ولا سَاكِنٍ ولا مُتَحَرِّكٍ؛ إلاَّ وهوَ يَعْلَمُهُ على حَقِيقَتِهِ).[4]

([فَـ]لا تَخْفَى عليهِ خَافِيَةٌ، ولا يَعْزُبُ عنهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ في السَّمَاوَاتِ والأرضِ، بلْ قدْ أَحَاطَ بكلِّ شيءٍ عِلْماً، وَأَحْصَى كلَّ شيءٍ عَدَداً...

و... عِلْمُهُ... لا يُشَارِكُهُ فيهِ خَلْقُهُ، ولا يُحِيطُونَ بشيءٍ منهُ إلاَّ بما شاءَ أنْ يُطْلِعَهُم عليهِ وَيُعْلِمَهُم بهِ.

وهذه الأَبْيَاتُ أَخَذَهَا ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تعالَى من قولِ الشاعِرِ:

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ البَعُوضِ جَنَاحَهَا ... فِي ظُلْمَةِ الليلِ البَهِيمِ الأَلْيَلِ
وَيَرَى نِيَاطَ عُرُوقِهَا فِي نَحْرِهَا ... وَالمُخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النُّحَّلِ
امْنُنْ عَلَيَّ بِتَوْبَةٍ تَمْحُو بِهَا ... مَا كَانَ مِنِّي فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ

(١) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٢٨).

(٢) طَرِيقُ الهجرتَيْنِ (١٣١).

(٣) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٣/ ١٠٨٣).

(٤) هدايةُ الحَيَارَى (٥٢٣).

وما أَخْفَاهُ عنهم ولمْ يُطْلِعْهُم عليهِ... لا نِسْبَةَ لِمَا عَرَفُوهُ إليهِ إلاَّ دونَ نسبةِ قَطْرَةٍ واحدةٍ إلى البِحَارِ كُلِّهَا، كما قالَ الخَضِرُ لِمُوسَى وَهُمَا أَعْلَمُ أهلِ الأرضِ حينئذٍ: «ما نَقصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إلاَّ كَمَا نَقصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنَ الْبَحْرِ». (١)

وَيَكْفِي أنَّ ما يَتَكَلَّمُ بهِ مِنْ عِلْمِهِ لوْ قُدِّرَ أنَّ البحرَ يَمُدُّهُ منْ بعدِهِ سبعةُ أبحُرٍ مِدَادٌ، وأشجارَ الأرضِ كُلَّهَا منْ أَوَّلِ الدهرِ إلى آخرِهِ أَقْلامٌ، يُكْتَبُ بِهِ ما يَتَكَلَّمُ بِهِ مِمَّا يَعْلَمُهُ لَنَفِدَتِ البحارُ، وَفَنِيَت الأقلامُ، ولمْ تَنْفَدْ كَلِمَاتُهُ.

فَنِسْبَةُ علومِ الخلائقِ إلى عِلْمِهِ سبحانَهُ كَنِسْبَةِ قُدْرَتِهِم إلى قدرتِهِ، وَغِنَاهُم إلى غِنَاهُ، وَحِكْمَتِهِم إلى حِكْمَتِهِ.

وإذا كانَ أَعْلَمُ الخلقِ على الإطلاقِ يَقُولُ: «لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» (٢)، ويقولُ في دعاءِ الاستخارةِ: «فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ» (٣)، ويقولُ سُبْحَانَهُ للملائكةِ: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: ٣٠]، ويقولُ سبحانَهُ لأَعْلَمِ الأُمَمِ وهمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة:٢١٦]، ويقولُ لأهلِ الكتابِ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥]، وتقولُ رُسُلُهُ يَوْمَ القيامةِ حينَ يَسْأَلُهُم ماذا أُجِبْتُمْ: ﴿قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩﴾ [المائدة:١٠٩].

(١) رواهُ البُخَارِيُّ في كتابِ العلمِ / بابُ ما يُسْتَحَبُّ إذا سُئِلَ: أيُّ الناسِ أَعْلَمُ (٧٤) ومسلمٌ في كتابِ الفضائلِ / بابٌ مِن فضائلِ الخَضِرِ عليه السلامُ (٦١١٣) وغيرُهما.

(٢) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ١٣٣.

(٣) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٨٦.

وهذا هوَ الأدبُ المُطَابِقُ للحقِّ في نفسِ الأمرِ، فإنَّ عُلُومَهُم وعلومَ الخلائقِ تَضْمَحِلُّ وَتَتَلاشَى في عِلْمِهِ سُبحانَهُ كما يَضْمَحِلُّ ضَوْءُ السِّرَاجِ الضعيفِ في عَيْنِ الشمسِ).(١)

([فـ]مَنْ شَهِدَ مَشْهَدَ العلمِ المحيطِ الذي لا يَعْزُبُ عنهُ مثقالُ ذرَّةٍ في الأرضِ ولا في السَّماواتِ، ولا في قرارِ البحارِ، ولا تحتَ أطباقِ الجبالِ، بلْ أَحَاطَ بذلكَ كُلِّهِ عِلْماً تَفْصِيلِيًّا، ثُمَّ تُعُبِّدَ بِمُقْتَضَى هذا الشهودِ منْ حِرَاسَةِ خواطرِهِ وإراداتِهِ وعَزَمَاتِهِ وجوارحِهِ- عَلِمَ بأنَّ حَرَكَاتِهِ الظاهرةَ والباطنةَ وخواطرَهُ وإراداتِهِ وجميعَ أحوالِهِ ظاهرةٌ مَكْشُوفةٌ لَدَيْهِ، عَلانِيَةٌ لهُ بَادِيَةٌ، لا يَخْفَى عليهِ منها شَيْءٌ).(٢)

(وَهُوَ العليمُ أَحَاطَ عِلْماً بِالَّذِي … في الكونِ مِنْ سِرٍّ ومنْ إِعْلانِ
وبكلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ سُبْحَانَهُ … فهوَ المحيطُ وليسَ ذا نِسْيَانِ)(٣)
(وهوَ العليمُ بما يُوَسْوِسُ عَبْدُهُ … في نفسِهِ منْ غيرِ نُطْقِ لِسَانِ
بلْ يَسْتَوِي في عِلْمِهِ الداني معَ الْـ … ـقَاصِي وذُو الإسرارِ والإعلانِ)(٤)
(وكذاكَ يَعْلَمُ ما يَكُونُ غَداً وما … قدْ كانَ والموجودَ في ذا الآنِ
وكذاكَ أَمْرٌ لمْ يَكُنْ لوْ كانَ كيـ … ـفَ يكونُ ذاكَ الأمرُ ذا إِمْكَانِ)(٥)

(١) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٧٩ - ٨٢).

(٢) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (٤٣).

(٣) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢٤١).

(٤) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٦٤).

(٥) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢٤١).

وقال رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في القصيدةِ النونيةِ (٢١٠):
قَالُوا عَلِيمٌ وَهْوَ ذُو عِلْمٍ وَيَعْـ … ـلَمُ غَايَةَ الإِسرارِ وَالإِعْلانِ

[القَدِيرُ]:

(وَهْوَ «القَدِيرُ» وليسَ يُعْجِزُهُ إذَا ... ما رَامَ شَيْئاً قَطُّ ذُو سُلْطَانِ)[١]

([فهوَ الـ]قَادِرُ على كلِّ شيءٍ، فلا يُعْجِزُهُ شيءٌ يُرِيدُهُ، بلْ هوَ الفعَّالُ لِمَا يُرِيدُ)[٢]، (و[هُوَ] على كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ: فلا يَخْرُجُ عنْ مَقْدُورِهِ شيءٌ من الموجوداتِ؛ أَعْيانُهَا وأفعالُهَا وَصِفَاتُهَا، كما لا يَخْرُجُ عنْ عِلْمِهِ، فكلُّ ما تَعلَّقَ بهِ عِلْمُهُ من العالَمِ تَعلَّقَتْ بهِ قُدْرَتُهُ ومَشِيئَتُهُ)[٣].

(وَتَأَمَّلْ ما جَاءَتْ بهِ النصوصُ، أنَّهُ سبحانَهُ لمْ يَزَلْ مَلِكاً، رَبًّا غَفوراً، رحيماً، مُحْسِناً، قادراً، لا يُعْجِزُهُ الفِعْلُ، ولا يَمْتَنِعُ عليهِ)[٤].

(وَهْوَ القَدِيرُ فكلُّ شيءٍ فَهْوَ مقْـ ... ـدورٌ لهُ طَوْعاً بلا عصيانِ
وعمومُ قُدْرَتِهِ تَدُلُّ بِأَنَّهُ ... هوَ خالِقُ الأفعالِ للحيوانِ
هيَ خَلْقُهُ حَقًّا وأفعالٌ لهم ... حَقًّا ولا يَتَنَاقَضُ الأمرانِ
لكنَّ أهلَ الجبرِ والتكذيبِ بالـ ... أقدارِ ما انْفَتَحَتْ لهم عَيْنَانِ
نَظَرُوا بِعَيْنَيْ أَعْوَرٍ إذْ فَاتَهم ... نَظَرُ البصيرِ وَغَارَتِ العَيْنَانِ
فحقيقةُ القَدَرِ الذي حَارَ الوَرَى ... في شأنِهِ هوَ قدرةُ الرَّحْمَنِ
وَاسْتَحْسَنَ ابنُ عَقِيلٍ ذا مِنْ أَحْمَدٍ ... لَمَّا حَكَاهُ عن الرِّضَى الرَّبَّانِي
قالَ الإمامُ شَفَا القُلُوبَ بِلَفْظَةٍ ... ذاتِ اخْتِصَارٍ وهيَ ذاتُ بَيَانِ)[٥]

وقالَ أيضًا: (٦٤):
وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا يَكُونُ غَدًا وَمَا ... قَدْ كَانَ وَالْمَعْلُومُ فِي ذَا الآنِ
وَبِكُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْـ ... ـفَ يَكُونُ مَوْجُودًا لِذِي الأَعْيَانِ

(١) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢٤٢).

(٢) هدايةُ الحَيارَى (٥٢٣).

(٣) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (١١٦).

(٤) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٢/ ٧٢٤).

(٥) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٦٥).

[القَوِيّ]:

(«**القَوِيُّ**» منْ أسمائِهِ، وَمَعْنَاهُ الموصوفُ بالقُوَّةِ).[١]

(ولو اجْتَمَعَتْ قُوى الخلائقِ على شخصٍ واحدٍ منهم، ثُمَّ أُعْطِيَ كلُّ منهم مثلَ تلكَ القوَّةِ لكانتْ نِسْبَتُهَا إلى قُوَّتِهِ سبحانَهُ دونَ نسبةِ قوَّةِ البَعُوضَةِ إلى حَمَلَةِ العَرْشِ).[٢]

(وَهُوَ القويُّ بِقُوَّةٍ هِيَ وَصْفُهُ ... وعليكَ يَقْدِرُ يا أَخَا السُّلْطَانِ)[٣]

(وَهُوَ القويُّ لَهُ القُوَى جَمْعاً تَعَا ... لَى رَبُّ ذِي الأَكْوَانِ والأزمانِ)[٤]

[اللَّطِيفُ]:

(«**اللَّطِيفُ**» الذي لَطُفَ صُنْعُهُ وَحِكْمَتُهُ وَدَقَّ حَتَّى عَجَزَتْ عنهُ الأفهامُ).[٥]

(وهوَ اللَّطِيفُ بِعَبْدِهِ وَلِعَبْدِهِ ... واللطفُ في أوصافِهِ نَوْعَانِ

إدراكُ أسرارِ الأمورِ بِخِبْرَةٍ ... واللطفُ عندَ مَوَاقِعِ الإحسانِ

فَيُرِيكَ عِزَّتَهُ وَيُبْدِي لُطْفَهُ ... والعبدُ في الغَفَلاتِ عنْ ذا الشَّانِ)[٦]

([فتأمَّلْ] قولَ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ

وقال رَحِمَهُ اللهُ تعالَى في القصيدةِ النونيةِ (٢٤٢):

وَهُوَ القديرُ وَلَيْسَ يُعْجِزُهُ إذَا ... مَا رَامَ شَيْئًا قَطُّ ذُو سُلْطَانِ

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٢)

(٢) شِفاءُ العَلِيلِ (١/ ٢٧٩).

(٣) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢١٠).

(٤) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢٤٢).

(٥) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٢/ ٤٩٢).

(٦) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢٤٤).

ﭐلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ [يوسف: ١٠٠].

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَلْطُفُ لِمَا يُرِيدُ؛ فَيَأْتِي بِهِ بِطُرُقٍ خَفِيَّةٍ لا يَعْلَمُهَا الناسُ. واسمُهُ «**اللطيفُ**» يَتَضَمَّنُ عِلْمَهُ بالأشياءِ الدقيقةِ وإيصالَهُ الرحمةَ بالطُّرُقِ الخفيَّةِ، ومنهُ: التَّلَطُّفُ كما قالَ أهلُ الكهفِ: ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الكهف: ١٩]، فكانَ ظَاهِرُ ما امْتُحِنَ بِهِ يُوسُفُ من مُفارَقةِ أبيهِ، وإلْقائِهِ في السجنِ، وَبَيْعِهِ رَقِيقاً، ثُمَّ مُرَاوَدَةِ الَّتِي هوَ في بَيْتِهَا عنْ نفسِهِ، وَكَذِبِها عليهِ، وَسَجْنِهِ -مِحَناً وَمَصَائِبَ، وَبَاطِنُها نِعَماً وَفَتْحاً جَعلَهَا اللهُ سَبَباً لسعادتِهِ في الدنيا والآخرةِ.

ومِنْ هذا البابِ ما يَبْتَلِي بِهِ عبادَهُ من المصائبِ، وَيَأْمُرُهُم بِهِ من المكارِهِ، وَيَنْهَاهُم عنهُ من الشَّهَوَاتِ، هِيَ طُرُقٌ يُوصِلُهُم بها إلى سعادتِهِم في العاجلِ والآجلِ، وقدْ حُفَّتِ الجنَّةُ بالمكارِهِ، وَحُفَّتِ النارُ بالشهواتِ.

وقدْ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إلاَّ خَيْراً لَهُ، إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إلاَّ لِلْمُؤْمِنِ**».[1]

القضاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ لِمَنْ أُعْطِيَ الشكرَ والصبرَ جَالِباً ما جَلَبَ، وكذلكَ ما فَعَلَهُ بآدَمَ وإبراهيمَ وموسَى وعيسَى ومحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأمورِ التي هيَ في الظاهِرِ مِحَنٌ وابتلاءٌ، وهيَ في الباطنِ طُرُقٌ خَفِيَّةٌ أَدْخَلَهُم بها إلى غايةِ كَمالِهِم وَسَعَادَتِهِم.

(١) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٢٣٤٠٦) ومسلمٌ في كتابِ الزهدِ / بابُ المؤمنِ أمرُهُ كُلُّهُ خيرٌ (٧٤٢٥) من حديثِ صُهَيْبٍ رضيَ اللهُ عنهُ.

فتأَمَّلْ قِصَّةَ موسَى وما لَطُفَ لهُ منْ إخراجِهِ في وقتِ ذَبْحِ فرعونَ للأطفالِ، وَوَحْيِهِ إلى أُمِّهِ أنْ تُلْقِيَهُ في الْيَمِّ، وَسَوْقِهِ بلُطْفِهِ إلى دارِ عَدُوِّهِ الذي قَدَّرَ هلاكَهُ على يَدَيْهِ، وهوَ يَذْبَحُ الأطفالَ في طَلَبِهِ، فَرَمَاهُ في بَيْتِهِ وحِجْرِهِ على فراشِهِ، ثُمَّ قدَّرَ لهُ سَبَباً أَخْرَجَهُ منْ مِصْرَ وأَوْصَلَهُ بِهِ إلى موضعٍ لا حُكْمَ لفرعونَ عليهِ، ثُمَّ قدَّرَ لهُ سَبَباً أَوْصَلَهُ بِهِ إلى النِّكَاحِ والغِنَى بعدَ العزوبةِ والعَيْلَةِ، ثُمَّ سَاقَهُ إلى بلدِ عَدُوِّهِ فأَقَامَ عليهِ بِهِ حُجَّتَهُ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ وَقَوْمَهُ في صُورةِ الفَارِّينَ منهُ، وكانَ ذلكَ عَيْنَ نُصْرَتِهِم على أعدائِهِم وإهلاكِهِم وهمْ يَنْظُرُونَ.

وهذا كلُّهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أنَّهُ سُبْحَانَهُ يَفْعَلُ ما يَفْعَلُهُ لِمَا يُرِيدُهُ من العواقبِ الحميدةِ والحِكَمِ العظيمةِ التي لا تُدْرِكُهَا عقولُ الخلقِ معَ ما في ضِمْنِهَا من الرحمةِ التامَّةِ والنعمةِ السابغةِ والتَّعَرُّفِ إلى عبادِهِ بأسمائِهِ وصفاتِهِ.

فَكَمْ في أَكْلِ آدَمَ من الشجرةِ التي نُهِيَ عنها وإخراجِهِ بسببِهَا من الجنَّةِ منْ حكمةٍ بالغةٍ لا تَهْتَدِي العقولُ إلى تَفَاصِيلِهَا!!

وكذلكَ ما قَدَّرَهُ لسيِّدِ وَلَدِهِ مِن الأمورِ التي أَوْصَلَهُ بها إلى أشرفِ غاياتِهِ، وَأَوْصَلَهُ بالطُّرُقِ الخفيَّةِ فيها إلى أَحْمَدِ العواقِبِ!!

وكذلكَ فِعْلُهُ بعبادِهِ وأَوْلِيَائِهِ يُوصِلُ إليهم نِعَمَهُ وَيَسُوقُهُم إلى كمالِهِم وسعادَتِهِم في الطُّرُقِ الخفيَّةِ التي لا يَهْتَدُونَ إلى مَعْرِفَتِهَا إلاَّ إذا لاحَتْ لهم عَوَاقِبُهَا.

وهذا أَمْرٌ يَضِيقُ الجَنَانُ عنْ معرفةِ تفاصيلِهِ، وَيَحْصُرُ اللسانُ عن التعبيرِ عنهُ، وَأَعْرَفُ خَلْقِ اللهِ بِهِ أَنْبِيَاؤُهُ وَرُسُلُهُ، وَأَعْرَفُهُم بِهِ خَاتَمُهُم وَأَفْضَلُهُم. وأُمَّتُهُ في العلمِ بِهِ على مَرَاتِبِهِم وَدَرَجَاتِهِم وَمَنَازِلِهِم من العلمِ باللهِ وبأسمائِهِ وصفاتِهِ).(١)

---

(١) شِفَاءُ العَلِيلِ (١/ ١٠٤).

[الحَقُّ]:

[اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ] (الإلَهُ **الحقُّ** المُبِينُ الذي أَقَرَّت الفِطَرُ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ).(١)

(فإنَّهُ سُبْحَانَهُ هوَ **الحقُّ**، وقولُهُ الحَقُّ، ودينُهُ الحقُّ، وَوَعْدُهُ حَقٌّ، ولقاؤُهُ حَقٌّ، وفِعْلُهُ كُلُّهُ حَقٌّ، لَيْسَ في أفعالِهِ شَيْءٌ باطلٌ، بلْ أَفْعَالُهُ سُبْحَانَهُ بَرِيئَةٌ من الباطِلِ).(٢)

(وَجَزَاؤُهُ المُسْتَلْزِمُ لِشَرْعِهِ وَدِينِهِ ولليومِ الآخرِ حَقٌّ.

فَمَنْ أَنْكَرَ شَيْئاً منْ ذلكَ فما وَصفَ اللهَ بأنَّهُ الحقُّ المُطْلَقُ منْ كلِّ وَجْهٍ وَبِكُلِّ اعْتِبَارٍ.

فكونُهُ حقًّا يَسْتَلْزِمُ شَرْعَهُ وَدِينَهُ وَثَوَابَهُ وَعِقَابَهُ، فكيفَ يُظَنُّ بالملكِ الحقِّ أنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ عبثاً؟! وأنْ يَتْرُكَهُم سُدًى، لا يَأْمُرُهم ولا يَنْهَاهم، ولا يُثِيبُهُم ولا يُعَاقِبُهُم، كما قالَ تَعالَى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ٣٦﴾ [القيامة: ٣٦]).(٣)

[الحَكِيمُ]:

(و... مِنْ أَسْمَائِهِ «**الحَكِيمُ**»)(٤) (الذي لا يَضعُ الشيءَ إلاَّ في مَوْضِعِهِ)(٥).

(والحكمةُ مِنْ صفاتِهِ سبحانَهُ، وحكمتُهُ تَسْتَلْزِمُ وَضْعَ كلِّ شيءٍ مَوْضِعَهُ الذي

---

(١) مفتاحُ دارِ السعادةِ (١/ ٥٥٢).

(٢) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (٢٦٤).

وقال رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في مَدارجِ السَّالكِينَ (١/ ٣٩): (اللهُ عزَّ وجلَّ هو الحقُّ، وصِراطُهُ حَقٌّ، ودِينُهُ حَقٌّ، فمَنِ استقامَ علَى صِراطِهِ فهو على الحَقِّ والهُدَى).

(٣) بَدائِعُ الفوائدِ (٤/ ١٦٥).

(٤) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٨٧).

(٥) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٦٧).

لا يَلِيقُ بِهِ سِوَاهُ).[١]

(و... اسمُ «**الحكيمِ**» منْ لوازمِهِ ثبوتُ الغاياتِ المحمودةِ المقصودةِ لهُ بأفعالِهِ، ووضعُهُ الأشياءَ في موضعِهَا، وإيقاعُهَا على أحسنِ الوجوهِ) [٢]؛ [فهوَ سبحانَهُ] («**الحكيمُ**» الذي بَهَرَتْ حِكْمَتُهُ الألبابَ)[٣]، [وهوَ] (سبحانَهُ «**الحكيمُ الخبيرُ**» الذي يَضَعُ الأشياءَ مواضعَهَا وَيُنَـزِّلُهَا مَنَازِلَهَا اللائقةَ بها، فلا يَضَعُ الشيءَ في غيرِ موضعِهِ، ولا يُنْـزِلُهُ غيرَ منزلتِهِ التي يَقْتَضِيهَا كمالُ عِلْمِهِ وحكمتِهِ وخبرتِهِ، فلا يَضَعُ الحرمانَ والمَنْعَ موضعَ العطاءِ والفضلِ، ولا الفضلَ والعطاءَ موضعَ الحرمانِ والمنعِ، ولا الثوابَ موضعَ العقابِ، ولا العقابَ موضعَ الثوابِ، ولا الخفضَ موضعَ الرفعِ، ولا الرفعَ موضعَ الخفضِ، ولا العزَّ مكانَ الذلِّ، ولا الذلَّ مكانَ العزِّ، ولا يَأْمُرُ بما يَنْبَغِي النَّهْيُ عنهُ، ولا يَنْهَى عَمَّا يَنْبَغِي الأمرُ بِهِ).[٤]

[فـ](«الحكمةُ» تَتَضَمَّنُ كمالَ علمِهِ وخبرتِهِ، وأَنَّهُ أَمَرَ وَنَهَى، وَخَلَقَ وَقَدَّرَ، لِمَا لهُ في ذلكَ من الحِكَمِ والغاياتِ الحميدةِ التي يَسْتَحِقُّ عليها كمالَ الحمدِ)[٥]؛ [فإ]نَّهُ سبحانَهُ حكيمٌ، لا يَفْعَلُ شيئاً عَبَثاً ولا لِغَيْرِ مَعْنًى ومصلحةٍ وحكمةٍ هيَ الغايَةُ المقصودةُ بالفعلِ، بلْ أَفْعَالُهُ سبحانَهُ صادرةٌ عنْ حكمةٍ بالغةٍ لأجلِهَا فَعَلَ).[٦]

---

(١) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٨٧).

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٥).

(٣) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٤٠٩).

(٤) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٢/ ١٩١).

(٥) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٤٢٧).

(٦) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٨٧).
وقال رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في مَدارِجِ السَّالكِينَ (٣/ ٤٢٨): (و.... الحكمةُ هي الغايةُ التي يُفْعَلُ لأجلِها

([فهوَ سبحانَهُ] «الحكيمُ» الذي إذا أَمَرَ بأمرٍ كانَ حسناً في نفسِهِ، وإذا نَهَى عنْ شيءٍ كانَ قَبيحاً في نَفْسِهِ، وإذا أَخْبَرَ بِخَبَرٍ كانَ صَادِقاً، وإذا فَعَلَ فِعْلاً كانَ صَوَاباً، وإذا أَرَادَ شَيْئاً كانَ أَوْلَى بالإرادةِ منْ غيرِهِ، وهذا الوصفُ على الكمالِ لا يكونُ إلاَّ للهِ وحدَهُ).[1]

(وقدْ تَقَرَّرَ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ كامِلُ الصِّفَاتِ، لهُ الأسماءُ الحسنَى، ولا يكونُ عن الكاملِ في ذاتِهِ وصفاتِهِ إلاَّ الفعلُ المُحْكَمُ).[2]

(ولهذا كانَ «الحكيمُ» منْ أسمائِهِ الحُسْنَى، و«الحكمةُ» منْ صفاتِهِ العُلَى، والشريعةُ الصادرةُ عنْ أمرِهِ مَبْنَاهَا على الحكمةِ، والرسولُ المبعوثُ بها مبعوثاً بالكتابِ والحكمةِ... فكَمَا لا يَخْرُجُ مَقْدُورٌ عنْ علمِهِ وقُدْرتِهِ ومشيئتِهِ، فهكذا لا يَخْرُجُ عنْ حكمتِهِ وحمدِهِ).[3]

([فـ]اسمُهُ سبحانَهُ «الحكيمُ» يَتَضَمَّنُ حِكْمَتَهُ في خلقِهِ وأمرِهِ، في إرادتِهِ الدِّينِيَّةِ والكَوْنِيَّةِ، وهوَ حكيمٌ في كلِّ ما خَلَقَ، حَكِيمٌ في كلِّ ما أَمَرَ بِهِ).[4]

(وهوَ الحكيمُ الذي لَهُ الحُكْمُ، قالَ تَعَالَى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢﴾ [غافر:١٢]).[5]

وتكونُ هي المطلوبةُ بالفعلِ ويكونُ وُجودُها أَوْلَى مِن عَدَمِها).

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٤٢٧).

(٢) طَريقُ الهجرتَين (١٤٧).

(٣) طَريقُ الهجرتَين (٩٧).

(٤) طَريقُ الهجرتَين (١١٤).

(٥) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٣).

وقال رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في مَدارِجِ السَّالكِينَ (٢/ ٤٥٠ - ٤٥١): (فإنه سُبحانَهُ هو الجَوادُ الذي لا يَنْقُصُ خزائِنَهُ الإنفاقُ، ولا يَغيضُ ما في يَمينِهِ سَعةُ عَطائِه. فما مَنَعَ مَنْ مَنَعَهُ فَضْلَهُ إلا لحكمةٍ كاملةٍ في ذلك، فإنه الجَوادُ الحكيمُ، وحِكْمَتُهُ لا تُناقِضُ جُودَهُ، فهو سبحانه لا يَضَعُ بِرَّهُ وفَضْلَهُ إلا في موضِعِه ووَقْتِهِ،

(وهوَ الحكيمُ وذاكَ مِنْ أوصافِهِ ... نـوعـانِ أيضاً ما هُمَـا عَـدَمَـانِ
حُـكْـمٌ وإحـكـامٌ فكلٌّ منهما ... نـوعـانِ أيضاً ثابِتَا الـبُرْهَـانِ
والحُكْمُ شَرْعِـيٌّ وَكَـوْنِيٌّ وَلا ... يَـتَـلازَمَـانِ ومـا هُمَـا سِـيَّانِ
بلْ ذاكَ يُوجَدُ دونَ هذا مُفْرَداً ... والعكسُ أيضاً ثُـمَّ يَجْتَمِعَانِ
لنْ يَخْلُوَ المَرْبُوبُ مِنْ إِحْدَاهُمَا ... أو مِنْهُمَا بـلْ ليسَ يَنْتَفِيَانِ
لَكِنَّمَا الـشَّرْعِـيُّ مَحْبُـوبٌ لَهُ ... أَبَــداً ولَـنْ يَخْلُو من الأكـوانِ
هوَ أَمْـرُهُ الدِّينِيُّ جَـاءَتْ رُسْلُهُ ... بِـقِـيَـامِـهِ في سـائِـرِ الأزمـانِ

بقدرِ ما تقتضيهِ حِكْمَتُهُ. ولو بَسَطَ اللهُ الرزقَ لعبادِهِ لَفَسَدُوا وهَلَكُوا. ولو عَلِمَ في الكفارِ خيرًا وقَبُولاً لنِعْمَةِ الإيمانِ، وشُكْرًا له عليها، ومحبةً له واعترافًا بها، لَهَدَاهُم إلى الإيمانِ. ولهذا لَمَّا قالُوا للمؤمنينَ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾) أجابَهُم بقولِه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ [الأنعام:٥٣].

سَمِعْتُ شَيْخَ الإسلامِ ابنَ تَيْمِيَةَ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ يَقُولُ: هُمُ الذين يَعْرِفُونَ قَدْرَ نعمةِ الإيمانِ، ويشكرونَ اللهَ عليها.

فهو سبحانه ما أَعْطَى إلا بحكمتِه. ولا منعَ إلا بحكمتِه، ولا أضلَّ إلا بحكمَتِه. وإذا تأملَ البصيرُ أحوالَ العالَمِ وما فيه من النقصِ: رآهُ عينَ الحكمةِ. وما عُمِّرَتِ الدنيا والآخرةُ والجنةُ والنارُ إلا بحِكْمَتِه.

وفي الحكمةِ ثلاثةُ أقوالٍ للناسِ:

أحدُها: أنها مُطابَقَةُ عِلمِه لمَعْلُومِه، وإرادتِه ومَشيئَتِه لمُرادِه. هذا تفسيرُ الجبريَّةِ. وهو في الحقيقةُ نَفْيُ حِكْمَتِه. إذ مطابقةُ المَعْلُومِ والمرادِ، أَعَمُّ من أن يَكُونَ (حِكْمَةً) أو خِلافُها، فإن السفيهَ مِن العبادِ: يُطابِقُ عِلْمُه وإرادَتُه لِمَعْلُومِهِ ومُرادِه. معَ كَوْنِهِ سَفِيهًا.

الثاني - مَذْهَبُ القَدَرِيَّةِ النُّفاةِ: أنها مَصالِحُ العبادِ ومَنافِعُهُم العائدةُ عليهم. وهو إنكارٌ لوصفِهِ تعالَى بالحِكْمَةِ.

وردُّوها إلى مخلوقٍ مِن مَخْلُوقَاتِه.

الثالثُ قولُ أهلِ الإثباتِ والسُّنَّةِ: أنها الغاياتُ المحمودةُ المطلوبةُ له سُبحانَهُ بخَلْقِه وأَمْرِهِ، التي أَمَرَ لأَجْلِهَا، وقَدَّرَ وخَلَقَ لأَجلِهَا. وهي صِفَتُهُ القائمةُ به كسائرِ صِفاتِه: مِن سَمْعِه وبَصَرِهِ، وقُدرَتِه، وإرادَتِه وعِلمِه وحَياتِه وكلامِه.

وللردِّ على طائفتَيِ الجَبْرِيَّةِ والقَدَرِيَّةِ مَوضِعٌ غيرُ هذا. واللهُ أَعْلَمُ).

لَكِنَّمَا الـكَـوْنِيُّ فَـهْـوَ قَـضَـاؤُهُ ... في خلقِهِ بالعَدْلِ والإحسانِ
هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ وَعَـدْلٌ ذُو رِضاً ... والشأنُ في المَقْضِيِّ كلُّ الشَّانِ
فَلِذَاكَ نَرْضَى بالقضاءِ وَنَسْخَطُ الْـ ... مَقْضِيَّ حينَ يكونُ بالعصيانِ
فاللهُ يَرْضَى بالقضاءِ وَيَسْخَطُ الـ ... مَـقْـضِيَّ ما الأمـرانِ مُتَّحِدَانِ
فَقَضَاؤُهُ صفةٌ بهِ قامَتْ وَمَا الـ ... مَـقْـضِيُّ إلاَّ صنعةُ الإنسانِ
والكونُ مَحْبُوبٌ ومبغوضٌ لَهُ ... وكـلاهُـمَـا بِـمَـشِـيئَـةِ الـرحمنِ
هذا البيانُ يُزِيلُ لَبْساً طَالَمَا ... هَلَكَتْ عليهِ الناسُ كلَّ زَمَانِ
وَيَحُـلُّ مَا قَدْ عَقَّدُوا بأُصُولِهِم ... وَبُحُوثِهِم فَافْهَمْهُ فَهْمَ بَيَانِ
مَنْ وَافَقَ الكَوْنِيَّ وَافَقَ سُخْطَهُ ... [إِنْ](١) لَمْ يُوَافِقْ طَاعَةَ الدَّيَّانِ
فلذاكَ لا يَـعْـدُوهُ ذَمٌّ أَوْ فَـوَا ... تُ الحمـدِ معْ أَجْـرٍ وَمَـعْ رِضْوَانِ
وَمُوَافِقُ الدِّينِيِّ لا يَعْدُوهُ أَجْـ ... ـرٌ بـلْ لـهُ عنـدَ الصوابِ اثْنَـانِ

[فَصْلٌ]

والحكمةُ العُلْيَا على نَوْعَيْنِ أَيْـ ... ـضاً حُصِّلاَ بقواطِعِ البرهانِ
إِحْـدَاهُـمَـا فِي خَلْقِهِ سُبْحَانَهُ ... نَـوْعَـانِ أَيْضاً ليسَ يَفْتَرِقَانِ
إِحْـكَـامُ هذا الخَلْقِ إذْ إِيجَـادُهُ ... في غـايَـةِ الإحـكـام والإتْـقَـانِ
وَصُـــدُورُهُ مِنْ أَجْـلِ غَايَاتٍ لَهُ ... وَلَــهُ عليها حَمْـدُ كـلِّ لِسَـانِ
وَالحكمةُ الأُخْرَى فَحِكْمَةُ شَرْعِهِ ... أيضاً وفيها ذَانِـكَ الوَصْفَانِ
غَايَاتُهَا الـلاَّتِي حُمِـدْنَ وَكَوْنُهَا ... فِي غايَةِ الإتقانِ والإحسانِ(٢)

(١) في الأصلِ (أَفَلَمْ) ولعلَّ الصوابَ ما أَثْبَتُّهُ.

(٢) توضيحُ المقاصِدِ لابنِ عِيسَى (٢/ ٢١٨-٢١٩، ٢٢٥-٢٢٦).

[الوَدُودُ]:

(«الوَدُودُ» منْ أسماءِ الربِّ تَعَالَى، وفيهِ قَوْلانِ:

أحدُهُمَا: أَنَّهُ المَوْدُودُ.

قالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ في صحيحِهِ: «الودودُ: الحبيبُ» [(١)] (([فـ]هوَ المَحْبُوبُ الذي يَسْتَحِقُّ أنْ يُحِبَّ الحبَّ كلَّهُ، وأنْ يكونَ أَحَبَّ إلى العبدِ منْ سمعِهِ وبصرِهِ ونَفْسِهِ وجميعِ مَحْبُوبَاتِهِ)). [(٢)]

والثاني: أَنَّهُ الوادُّ لعبادِهِ؛ أي: المُحِبُّ لَهُم)[(٣)]، (الذي يُحِبُّ أَنْبِياءَهُ وَرُسُلَهُ وأولياءَهُ وَعِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ). [(٤)]

وهوَ الودودُ يُحِبُّهُم وَيُحِبُّهُ ... أحبابُهُ والفضلُ لِلْمَنَّانِ
وهوَ الذي جَعَلَ المَحَبَّةَ في قُلُو ... بِهِمُ وَجَازَاهُم بِحُبٍّ ثَانِ
هذا هوَ الإحسانُ حَقًّا لا مُعَا ... وَضَةً ولا لِتَوَقُّعِ الشُّكْرَانِ
لكنْ يُحِبُّ شَكُورَهُم وَشُكُورَهُم ... لا لاحْتِيَاجٍ منهُ لِلشُّكْرَانِ)[(٥)]

(ولوْ لمْ يَكُنْ مِنْ تَحَبُّبِهِ إلى عبادِهِ وإحسانِهِ إليهم وَبِرِّهِ بهم إلاَّ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ لهم ما في السَّماواتِ والأرضِ وما في الدنيا والآخرةِ، ثُمَّ أَهَّلَهُم وَكَرَّمَهم، وَأَرْسَلَ إليهمْ رُسُلَهُ وأَنْزَلَ عليهمْ كُتُبَهُ، وَشَرَعَ لهم شَرَائِعَهُ، وَأَذِنَ لهم في مُنَاجَاتِهِ كلَّ وقتٍ أَرَادُوا، وَكَتَبَ لهم بكُلِّ حسنةٍ يَعْمَلُونَهَا عَشْرَ أَمْثَالِهَا إلى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وكَتَبَ لهم بالسيِّئَةِ واحدةً، فإنْ تَابُوا منها مَحَاهَا وأَثْبَتَ

(١) في كتابِ التوحيدِ / بابُ: «وَكَانَ عَرْشُهُ علَى المَاءِ».

(٢) جلاءُ الأفهامِ (١٦٤).

(٣) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٢٩).

(٤) جلاءُ الأفهامِ (١٦٤).

(٥) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢٤٥).

مكانهَا حسنةً، وإذا بَلَغَتْ ذُنُوبُ أحدِهِم عَنانَ السماءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرَهُ غَفَرَ لهُ، ولوْ لَقِيَهُ بِقِرَابِ الأرضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيَهُ بالتوحيدِ لا يُشْرِكُ بهِ شيئاً لأَتَاهُ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً، وَشَرَعَ لهم التوبةَ الهادمةَ للذنوبِ؛ فَوَفَّقَهُم لِفِعْلِهَا ثُمَّ قَبِلَهَا مِنْهُم، وَشَرَعَ لهم الحجَّ الذي يَهْدِمُ ما قَبْلَهُ؛ فَوَفَّقَهُم لِفِعْلِهِ، وَكَفَّرَ عنهم سَيِّئَاتِهِم بهِ، وكذلكَ ما شَرَعَهُ لهمْ من الطاعاتِ والقُرُباتِ، هوَ الذي أَمَرَهُم بها، وَخَلَقَهَا لهم، وَأَعْطَاهُم إِيَّاها، وَرَتَّبَ عليها جَزَاءَهَا.

فمنهُ السببُ، ومنهُ الجزاءُ، ومنهُ التوفيقُ، ومنهُ العطاءُ أَوَّلاً وآخِراً، وهمْ مَحَلُّ إِحْسَانِهِ فقطْ، ليسَ منهم شيءٌ، إنَّما الفضلُ كُلُّهُ والنعمةُ كُلُّهَا والإحسانُ كلُّهُ منهُ أَوَّلاً وآخِراً، أَعْطَى عَبْدَهُ مالَهُ، وقالَ: تَقَرَّبْ بهذا إِلَيَّ أَقْبَلْهُ منكَ، فالعبدُ لهُ، والمالُ لهُ، والثوابُ منهُ.

فهوَ المُعْطِي أَوَّلاً وآخِراً، فكيفَ لا يُحَبُّ مَنْ هذا شأْنُهُ؟!! وكيفَ لا يَسْتَحِي العبدُ أنْ يَصْرِفَ شَيْئاً منْ مَحَبَّتِهِ إلى غَيْرِهِ؟!! ومَنْ أَوْلَى بالحمدِ والثناءِ والمَحَبَّةِ منهُ سبحانَهُ؟!! ومَنْ أَوْلَى بالكَرَمِ والجُودِ والإحسانِ منهُ؟!!

فسبحانَهُ وبحمدِهِ لا إلهَ إلاَّ هوَ العزيزُ الحكيمُ، وَيَفْرَحُ سبحانَهُ وتَعَالَى بتوبةِ أحدِهِم إذا تَابَ إليهِ أَعْظَمَ فَرَحٍ وأكملَهُ، ويُكَفِّرُ عنهُ ذنوبَهُ، ويُوجِبُ لهُ محبَّتَهُ بالتوبةِ، وهوَ الذي أَلْهَمَهُ إيَّاها، وَوَفَّقَهُ لها، وَأَعَانَهُ عليها، وَمَلأَ سبحانَهُ وتَعَالَى سماواتِهِ منْ ملائكتِهِ، واسْتَعْمَلَهُم في الاستغفارِ لأهلِ الأرضِ، وَاسْتَعْمَلَ حَمَلَةَ العرشِ منهم في الدعاءِ لعبادِهِ المؤمنينَ والاستغفارِ لذنوبِهِم وَوِقَايَتِهِم عذابَ الجحيمِ، والشفاعةِ إليهِ بإذنِهِ أنْ يُدْخِلَهُم جنَّاتِهِ.

فَانْظُرْ إلى هذهِ العنايَةِ وهذا الإحسانِ وهذا التَّحَنُّنِ والعَطْفِ والتَّحَبُّبِ إلى العبادِ واللُّطْفِ التامِّ بهم، ومعَ هذا كُلِّهِ بعدَ أنْ أَرْسَلَ إليهم رُسُلَهُ وأَنْزَلَ عليهم كُتُبَهُ، وَتَعَرَّفَ إليهم بأسمائِهِ وصفاتِهِ وآلائِهِ، يَنْـزِلُ كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ

الدنيا يَسْأَلُ عنهم، وَيَسْتَعْرِضُ حَوَائِجَهُم بنفسِهِ، وَيَدْعُوهُم إلى سؤالِهِ، فَيَدْعُو مُسِيئَهُم إلى التوبةِ، وَمَرِيضَهُم إلى أَنْ يَسْأَلَهُ أَنْ يَشْفِيَهُ، وفقيرَهُم إلى أَنْ يَسْأَلَهُ غِنَاهُ، وذا حَاجَتِهِم يَسْأَلُهُ قَضَاءَهَا كلَّ ليلةٍ، وَيَدْعُوهُم سبحانَهُ إلى التوبةِ وقدْ حَارَبُوهُ وَعَذَّبُوا أولياءَهُ وأَحْرَقُوهُم بالنارِ، قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج: ١٠]. وقالَ بعضُ السلفِ: انْظُرُوا إلى كَرَمِهِ كيفَ عَذَّبُوا أولياءَهُ وَحَرَّقُوهُم بالنارِ، ثُمَّ هوَ يَدْعُوهُم إلى التوبةِ.

فهذا البابُ يَدْخُلُ منهُ كلُّ أحدٍ إلى مَحَبَّتِهِ سبحانَهُ وتَعالَى؛ فإنَّ نِعْمَتَهُ على عبادِهِ مَشْهُودَةٌ لهم، يَتَقَلَّبُونَ فيها على عددِ الأنفاسِ واللحظاتِ.

وقدْ رُوِيَ في بعضِ الأحاديثِ مَرْفُوعاً: «**أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللهِ**».(١) فهذِهِ مَحَبَّةٌ تَنْشَأُ مِنْ مُطَالَعَةِ المِنَنِ والإحسانِ، ورُؤْيَةِ النِّعَمِ والآلاءِ، وَكُلَّمَا سَافَرَ القلبُ بِفِكْرِهِ فيها ازْدَادَتْ مَحَبَّتُهُ وَتَأَكَّدَتْ، ولا نهايَةَ لها فَيَقِفَ سَفَرُ القلبِ عِنْدَهَا، بلْ كُلَّمَا ازْدَادَ فيها نَظَراً ازْدَادَ فيها اعْتِبَاراً وَعَجْزاً عنْ ضبطِ القليلِ منها، فَيَسْتَدِلُّ بِمَا عَرَفَهُ على ما لَمْ يَعْرِفْهُ، واللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى دَعَا عبادَهُ إليهِ منْ هذا البابِ، حتَّى إذا دَخَلُوا منهُ دُعُوا من البابِ الآخرِ، وهوَ **بابُ الأسماءِ والصِّفَاتِ الذي إنَّمَا يَدْخُلُ منهُ إليهِ خَواصُّ عِبَادِهِ وأوليائِهِ**، وهوَ بابُ المُحِبِّينَ حَقًّا الذي لا يَدْخُلُ منهُ غيرُهُم، ولا يَشْبَعُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ أحدٌ منهمْ، كُلَّمَا بَدَا لهُ منهُ عِلْمٌ ازْدَادَ شَوْقاً وَمَحَبَّةً وَظَمَأً.

فإذا انْضَمَّ دَاعِي الإحسانِ والإنعامِ إلى داعِي الكمالِ والجمالِ لمْ يَتَخَلَّفْ عنْ مَحَبَّةِ مَنْ هذا شأنُهُ إلاَّ أَرْدَأُ القلوبِ وَأَخْبَثُها، وَأَشَدُّها نَقْصاً، وَأَبْعَدُهَا منْ كلِّ

---

(١) رَواهُ التِّرْمِذِيُّ في كتابِ المناقبِ / بابُ مناقبِ أهلِ بيتِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ (٣٧٨٩)، وقال: «حديثٌ حَسَنٌ غَريبٌ»، وفيه عبدُ اللهِ بنُ سُليمانَ النَّوْفَلِيُّ، قال فيه الحافظُ الذهبيُّ في ميزانِ الاعتدالِ (٢/ ٤٣٢): «فيه جَهالَةٌ».

خيرٍ؛ فإنَّ اللهَ فطَرَ القلوبَ على محبَّةِ المُحْسِنِ الكاملِ في أوصافِهِ وأخلاقِهِ، وإذا كانتْ هذهِ فِطْرَةَ اللهِ التي فطَرَ عليها قلوبَ عبادِهِ، فمِن المعلومِ أنَّهُ لا أَحدَ أَعْظَمُ إحساناً منهُ سبحانَهُ وتعَالَى، ولا شيءَ أكملُ منهُ ولا أَجْمَلُ، فكلُّ كمالٍ وجمالٍ في المخلوقِ منْ آثارِ صُنْعِهِ سُبْحَانَهُ وتعَالَى، وهوَ الذي لا يُحَدُّ كمالُهُ، ولا يُوصَفُ جلالُهُ وَجَمالُهُ، ولا يُحْصِي أحدٌ منْ خلقِهِ ثناءً عليهِ بجَميلِ صفاتِهِ وعظيمِ إحسانِهِ وبديعِ أفعالِهِ، بلْ هوَ كما أَثْنَى على نفسِهِ.

وإذا كانَ الكمالُ محْبُوباً لذاتِهِ ونفسِهِ وَجَبَ أنْ يَكُونَ اللهُ سُبْحَانَهُ هوَ المحبوبَ لذاتِهِ وصفاتِهِ؛ إذْ لا شيءَ أكملُ منهُ؛ وكلُّ اسمٍ منْ أسمائِهِ وصِفَةٍ منْ صفاتِهِ تَسْتَدْعِي محبَّةً خاصَّةً، فإنَّ أسماءَهُ كُلَّهَا حُسْنَى، وهيَ مُشْتَقَّةٌ منْ صفاتِهِ، وأفعالُهُ دالَّةٌ عليها.

فهوَ المحبوبُ المحمودُ لذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وأسمائِهِ؛ فهوَ المحبوبُ المحمودُ على كلِّ ما فعَلَ وعلى كلِّ ما أَمَرَ؛ إذْ ليسَ في أفعالِهِ عَبَثٌ، ولا في أوامرِهِ سَفَهٌ، بلْ أفعالُهُ كُلُّهَا لا تَخْرُجُ عن الحكمةِ والمصلحةِ والعدلِ والفضلِ والرحمةِ، وكلُّ واحدٍ منْ ذلكَ يَسْتَوْجِبُ الحمدَ والثناءَ والمَحبَّةَ عليهِ. وكلامُهُ كلُّهُ صدقٌ وعدلٌ، وجزاؤُهُ كلُّهُ فضلٌ وعدلٌ؛ فإنَّهُ إنْ أَعْطَى فَبِفَضْلِهِ ورحمتِهِ ونعمتِهِ، وإنْ مَنَعَ أوْ عَاقَبَ فَبِعَدْلِهِ وحكمتِهِ:

مَا للعبادِ عليهِ حقٌّ واجِبٌ	كَلاَّ ولا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أوْ نُعِّمُوا	فبفضلِهِ وهوَ الكريمُ الواسِعُ

ولا يُتَصَوَّرُ نَشْرُ هذا المقامِ حقَّ تَصَوُّرِهِ فَضْلاً عنْ أنْ يُوَفَّاهُ حَقَّهُ، فَأَعْرَفُ خَلْقِهِ بِهِ وأحبُّهُم لهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ يقولُ: «**لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»(١).

---

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ١٣٣.

ولوْ شَهِدَ بِقَلْبِهِ صِفَةً وَاحِدَةً منْ أوصافِ كمالِهِ لاسْتَدْعَتْ منهُ المحبَّةَ التامَّةَ عليها، وهلْ معَ المُحِبِّينَ محبَّةٌ إلاَّ منْ آثارِ صفاتِ كمالِهِ؟!! فإنَّهُم لمْ يَرَوْهُ في هذهِ الدارِ، وإنَّما وَصَلَ إليهم العلمُ بآثارِ صفاتِهِ وآثارِ صُنْعِهِ، فَاسْتَدَلُّوا بما عَلِمُوهُ على ما غَابَ عنهم، وإلاَّ فَلَوْ شَاهَدُوهُ وَرَأَوْا جلالَهُ وكمالَهُ وجمالَهُ سبحانَهُ وتَعَالَى لكانَ لهم في حُبِّهِ شأنٌ آخرُ، وإنَّما تفَاوَتَتْ مَنَازِلُهُم ومراتِبُهُم في محَبَّتِهِ على حَسَبِ تَفَاوُتِ مَرَاتِبِهِم في معرفتِهِ والعلمِ بهِ، فَأَعْرَفُهُم لهُ أَشَدُّهُم حُبًّا لهُ، ولهذا كانتْ رُسُلُهُ أَعْظَمَ الناسِ حُبًّا لهُ، والخَلِيلانِ مِنْ بَيْنِهِم أَعْظَمُهُم حُبًّا، وَأَعْرَفُ الأمَّةِ بهِ أَشَدُّهُم لهُ حُبًّا مِنْ غَيْرِهِ، ولهذا كانَ المُنْكِرُونَ لِحُبِّهِ مِنْ أجهلِ الخلقِ بهِ، فإنَّهُم مُنْكِرُونَ لحقيقةِ إِلَهِيَّتِهِ وَلِخُلَّةِ الخليلَيْنِ صلَّى اللهُ عليهِمَا وَسَلَّمَ وَلِفِطْرَةِ اللهِ التي فَطَرَ اللهُ عبادَهُ عليها، ولوْ رَجَعُوا إلى قلوبِهِم لَوَجَدُوا حُبَّهُ فيها، وَوَجَدُوا مُعْتَقَدَهُم وَبَحْثَهُم يُكَذِّبُ فِطَرَهُم، وإنَّما بُعِثَت الرُّسُلُ بتكميلِ هذهِ الفِطَرِ وإعادةِ ما فَسَدَ منها إلى الحالةِ الأولى التي فُطِرَتْ عليها، وإنَّما دَعَوْا إلى القيامِ بحقوقِهَا ومُرَاعَاتِهَا؛ لِئَلاَّ تفْسُدَ وَتَنْتَقِلَ عمَّا خُلِقَتْ لهُ، وهل الأوامرُ والنواهِي إلاَّ خَدَمٌ وتوابعُ ومُكَمِّلاتٌ وَمُصْلِحَاتٌ لهذهِ الفطرةِ؟!!

وهلْ خَلَقَ اللهُ سبحانَهُ وتَعَالَى خَلْقَهُ إلاَّ لعبادتِهِ التي هيَ غايَةُ محَبَّتِهِ والذُّلِّ لَهُ؟!!

وهلْ هُيِّئَ الإنسانُ إلاَّ لها؟!! كَمَا قِيلَ:

قَدْ هَيَّأُوكَ لأَمْرٍ لَوْ فَطِنْتَ لَهُ ... فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرْعَى مَعَ الْهَمَلِ

وهلْ في الوجودِ محَبَّةٌ حقٌّ غيرُ باطلةٍ إلاَّ محبَّتُهُ سبحانَهُ؟!! فإنَّ كلَّ محبَّةٍ مُتَعَلِّقَةٌ بغيرِهِ فباطلةٌ زائلةٌ ببُطْلانِ مُتَعَلَّقِهَا، وأمَّا محَبَّتُهُ سبحانَهُ فهوَ الحقُّ الذي لا يَزُولُ ولا يَبْطُلُ، كما لا يَزُولُ مُتَعَلَّقُهَا ولا يَفْنَى، وكلُّ ما سِوَى اللهِ باطلٌ، ومحَبَّةُ الباطلِ باطلٌ.

فَسُبْحَانَ اللهِ كَيْفَ يُنْكِرُ المَحَبَّةَ الحقَّ التي لا مَحَبَّةَ أَحَقُّ منها، وَيَعْتَرِفُ بِوُجُودِ المَحَبَّةِ الباطلةِ المُتَلاشِيَةِ؟!!

وهلْ تَعَلَّقَت المَحَبَّةُ بوجودٍ مُحْدَثٍ إلاَّ لكمالٍ في وجودِهِ بالنسبةِ إلى غيرِهِ؟!! وهلْ ذلكَ الكمالُ إلاَّ منْ آثارِ صُنْعِ اللهِ الذي أَتْقَنَ كلَّ شيْءٍ؟!! وهل الكمالُ كُلُّهُ إلاَّ لَهُ؟!!

فكلُّ مَنْ أَحبَّ شَيْئاً لكمالٍ ما يَدْعُوهُ إلى مَحَبَّتِهِ فَهُوَ دَلِيلٌ وَعِبْرَةٌ على مَحَبَّةِ اللهِ، وأَنَّهُ أَوْلَى بكمالِ الحبِّ منْ كلِّ شيءٍ، ولكنْ إذا كانت النفوسُ صِغَاراً كانتْ مَحْبُوبَاتُهَا على قَدْرِهَا، وأمَّا النفوسُ الكِبَارُ الشريفةُ فإنَّهَا تَبْذُلُ حُبَّهَا لأَجَلِّ الأشياءِ وَأَشْرَفِهَا.

والمقصودُ أنَّ العبدَ إذا اعْتَبَرَ كُلَّ كَمَالٍ في الوجودِ وَجَدَهُ منْ آثارِ كمالِهِ سبحانَهُ، فهوَ دالٌّ على كمالِ مُبْدِعِهِ، كما أنَّ كلَّ عِلْمٍ في الوجودِ فمِنْ آثارِ عِلْمِهِ، وكلَّ قُدْرَةٍ فَمِنْ آثارِ قُدْرَتِهِ.

ونسبةُ الكمالاتِ الموجودةِ في العالمِ العُلْوِيِّ والسُّفْلِيِّ إلى كمالِهِ كَنِسْبَةِ علومِ الخلقِ وقُدْرَتِهِم وَقُوَاهُم وحياتِهِم إلى عِلْمِهِ سبحانَهُ وقُدْرتِهِ وقوَّتِهِ وحياتِهِ. فَإِذَنْ لا نسبةَ أصلاً بينَ كمالاتِ العالمِ وكمالِ اللهِ جلَّ جلالُهُ؛ فَيَجِبُ أنْ لا يَكُونَ بينَ مَحَبَّتِهِ ومَحَبَّةِ غيرِهِ من الموجوداتِ نسبةٌ، بلْ يكونُ حبُّ العبدِ لهُ أَعْظَمَ منْ حُبِّهِ لكلِّ شيءٍ بِمَا لا نسبةَ بينَهُمَا.

ولهذا قالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ فالمؤمنونَ أَشَدُّ حُبًّا لِرَبِّهِم وَمَعْبُودِهِم تَعَالَى منْ كلِّ مُحِبٍّ لكلِّ محبوبٍ، هذا مُقْتَضَى عقدِ الإيمانِ الذي لا يَتِمُّ إلاَّ بهِ.

وَلَيْسَتْ هذهِ المسألةُ من المسائلِ التي للعبدِ عنها غِنًى أوْ منها بُدٌّ، كدقائقِ العلمِ والمسائلِ التي يَخْتَصُّ بها بعضُ الناسِ دونَ بعضٍ، بلْ هذهِ مسألةٌ تُفْرَضُ

على العبدِ، وهيَ أَصْلُ عقدِ الإيمانِ الذي لا يَدْخُلُ فيهِ الداخلُ إلاَّ بها، ولا فلاحَ للعبدِ ولا نجاةَ لهُ منْ عذابِ اللهِ إلاَّ بها، فَلْيَشْتَغِلْ بها العبدُ أَوْ لِيُعْرِضْ عَنْهَا.

ومَنْ لمْ يَتَحقَّق بها علماً وحالاً وعملاً لم يَتَحَقَّقْ بشهادةِ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ، فإنَّهَا سِرُّهَا وَحقِيقَتُهَا وَمَعْنَاهَا، وإنْ أَبَى ذلكَ الجاحدونُ، وقَصُرَ عنْ علمِهِ الجاهلونَ؛ فإنَّ الإلهَ هوَ المحبوبُ المعبودُ الذي تَأْلَهُهُ القلوبُ بِحُبِّهَا، وَتَخْضَعُ لَهُ وَتَذِلُّ لهُ وَتَخَافُهُ وَتَرْجُوهُ وَتُنِيبُ إليهِ في شَدَائِدِهَا وَتَدْعُوهُ فِي مُهِمَّاتِهَا، وَتَتَوَكَّلُ عليهِ فِي مَصَالِحِهَا، وَتَلْجَأُ إليهِ، وَتَطْمَئِنُّ بِذِكْرِهِ، وَتَسْكُنُ إلى حُبِّهِ، وليسَ ذلكَ إلاَّ اللهَ وَحْدَهُ، ولهذا كانتْ «**لا إلهَ إلاَّ اللهُ**» أصدقَ الكلامِ، وكانَ أَهْلُهَا أهلَ اللهِ وَحِزْبَهُ، والمنكرونَ لها أَعْدَاءَهُ وأهلَ غَضَبِهِ ونقمتِهِ.

فهذهِ المسألةُ قطبُ رَحَى الدينِ الذي عليهِ مَدَارُهُ، وإذا صَحَّتْ صَحَّ بها كلُّ مسألةٍ وحالٍ وذوقٍ، وإذا لمْ يُصَحِّحْهَا العبدُ فالفسادُ لازمٌ لهُ في علومِهِ وأعمالِهِ وأحوالِهِ وأقوالِهِ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ). [(١)]

[فَصْلٌ]

(ولوْ لمْ يَكُنْ في مَحَبَّةِ اللهِ إلاَّ أنَّهَا تُنْجِي مُحِبَّهُ منْ عذابِهِ لكانَ يَنْبَغِي للعبدِ أنْ لا يَتَعَوَّضَ عنها بشيءٍ أبداً. وَسُئِلَ بعضُ العلماءِ: أينَ تَجِدُ في القرآنِ أنَّ الحبيبَ لا يُعَذِّبُ حبيبَهُ؟ فقالَ: في قولِهِ تعالَى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨].

وقالَ الإمامُ أحمدُ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ يُونُسَ، عَنِ الحسنِ رَضِيَ اللهُ عنهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**وَاللهِ، لا يُعَذِّبُ اللهُ حَبِيبَهُ، وَلَكِنْ قَدْ يَبْتَلِيهِ فِي**

(١) طَرِيقُ الهجرتَيْنِ (٣٢٣-٣٢٧).

الدُّنْيَا». (١)

وقالَ الإمامُ أحمدُ: حَدَّثَنا سَيَّارٌ، حَدَّثَنا جعفَرٌ، حَدَّثَنا أبو غالبٍ، قالَ: بَلَغَنا أنَّ هذا الكلامَ في وَصِيَّةِ عِيسَى ابنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا مَعْشَرَ الْحَوارِيِّينَ، تَحَبَّبُوا إِلَى اللهِ بِبُغْضِ أَهْلِ الْمَعَاصِي، وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالْمَقْتِ لَهُمْ، وَالْتَمِسُوا رِضَاهُ بِسَخَطِهِمْ»، قالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، فَمَنْ نُجالِسُ؟ قالَ: «جَالِسُوا مَنْ يَزِيدُ فِي أَعْمَالِكُمْ مَنْطِقُهُ، وَمَنْ تُذَكِّرُكُمْ بِاللهِ رُؤْيَتُهُ، وَيُزَهِّدُكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ عِلْمُهُ». (٢)

وَيَكْفِي في الإقبالِ على اللهِ تَعَالَى ثَواباً عَاجِلاً أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى يُقْبِلُ بقلوبِ عبادِهِ إلى مَنْ أَقْبَلَ عليهِ، كما أَنَّهُ يُعْرِضُ بِقُلُوبِهِم عَمَّنْ أَعْرَضَ عنهُ، فقلوبُ العبادِ بِيَدِ اللهِ لا بِأَيْدِيهِم.

وقالَ الإمامُ أحمدُ: حَدَّثَنا حَسَنٌ في تَفْسِيرِ شَيْبَانَ عنْ قتادةَ قالَ: ذُكِرَ لَنا أَنَّ هَرِمَ بْنَ حَيَّانَ كَانَ يقولُ: ما أَقْبَلَ عَبْدٌ عَلَى اللهِ بِقَلْبِهِ إلاَّ أَقْبَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بقلوبِ المؤمنينَ إليهِ حتَّى يَرْزُقَهُ مَوَدَّتَهُم وَرَحْمَتَهُ. (٣)

---

(١) حديثٌ مُرْسَلٌ، رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ في كتابِ الزُّهْدِ / في مواعظِ عيسَى عليه السلامُ (٣)، ووَصَلَهُ في المُسْنَدِ (١١٦٠٧، ١٣٠٥٥) من طريقِ ابنِ أبي عَدِيٍّ ومُحمدِ بنِ عبدِ اللهِ الأنصاريِّ، عن حُمَيْدٍ، عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه بلفظٍ مُقاربٍ، وهذا سياقُ حديثِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ الأنصاريِّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- قالَ: حَدَّثَنا حُمَيْدٌ، عن أنسٍ، قالَ: كانَ صَبِيٌّ عَلَى ظَهْرِ الطريقِ، فمَرَّ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ ومعه ناسٌ من أَصحابِهِ، فلما رَأَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ القَوْمَ خَشِيَتْ أَنْ يُوطَأَ ابْنُهَا فَسَعَتْ وَحَمَلَتْهُ، وقالَتْ: ابْنِي ابْنِي. قالَ: فقالَ القومُ: يا رسولَ اللهِ، مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُلْقِيَ ابْنَهَا فِي النارِ. قالَ: فقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: «لا، ولا يُلْقِي اللهُ حَبِيبَهُ فِي النارِ».

(٢) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ في كتابِ الزُّهدِ / من مواعظِ عِيسَى عليهِ السلامُ (٤).

(٣) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ في كتابِ الزهدِ / أخبارُ هَرِمِ بنِ حَيَّانَ -رَحِمَهُ اللهُ- (٧) إلا أنه في المطبوعِ: «حُسَيْنٌ» بدلَ: «حَسَن».

وقدْ رُوِيَ هذا مَرْفُوعاً، ولَفْظُهُ: «وَمَا أَقْبَلَ عَبْدٌ عَلَى اللهِ بِقَلْبِهِ إِلاَّ أَقْبَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ بِقُلُوبِ عِبَادِهِ، وَجَعَلَ قُلُوبَهُمْ تَفِدُ إِلَيْهِ بِالْوُدِّ وَالرَّحْمَةِ، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ خَيْرٍ إِلَيْهِ أَسْرَعَ».(١)

وإذا كانت القلوبُ مَجْبُولَةً على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إليها، وكلُّ إحسانٍ وَصَلَ إلى العبدِ فَمِن اللهِ عَزَّ وجلَّ، كما قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، فلا أَلأَمَ مِمَّنْ شَغَلَ قلبَهُ بحبِّ غيرِهِ دونَهُ.

قالَ الإمامُ أحمدُ: حَدَّثَنَا أبو مُعَاوِيَةَ قالَ: حَدَّثَنِي الأعمشُ، عن المِنْهَالِ، عنْ عبدِ اللهِ بنِ الحارثِ قالَ: أَوْحَى اللهُ إلى دَاوُدَ عليهِ السلامُ: «يا دَاوُدُ، أَحْبِبْنِي وَحَبِّبْ عِبَادِي إِلَيَّ، وَحَبِّبْنِي إلى عِبَادِي»، قالَ: «يا ربِّ، هذا أنا أُحِبُّكَ وَأُحَبِّبُ عِبَادَكَ إليكَ، فَكَيْفَ أُحَبِّبُكَ إلى عِبَادِكَ؟!!» قالَ: «تَذْكُرُنِي عِنْدَهُم؛ فَإِنَّهُم لا يَذْكُرُونَ منِّي إلاَّ الحَسَنَ».(٢)

ومنْ أفضلِ ما سُئِلَ اللهُ عزَّ وجلَّ حُبُّهُ، وَحُبُّ مَنْ يُحِبُّهُ، وَحُبُّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إلى حُبِّهِ. ومِنْ أَجْمَعِ ذلكَ أنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغاً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الظَّمَأ، اللَّهُمَّ حَبِّبْنِي إِلَيْكَ وَإِلَى مَلائِكَتِكَ وَأَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ وَعِبَادِكَ الصَّالِحِينَ، وَاجْعَلْنِي مِمَّنْ يُحِبُّكَ وَيُحِبُّ

(١) رواهُ الطبرانيُّ في الأوسطِ (٦/ ١٢) من حديثِ أبي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عنه.
والحديثُ ذَكَرَهُ الهَيْثَمِيُّ في مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ في كتابِ الزُّهْدِ / بابٌ فِيمَنْ كَانَتْ هِمَّتُهُ للدُّنْيَا والآخرة (١٠/ ٢٤٧) وقالَ: «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ في الكبيرِ والأوسَطِ، وفيه مُحمدُ بنُ سعيدِ بنِ حَسَّانَ المصلوبُ، وهو كذابٌ».

(٢) وجدتُ هذا الحديثَ في كتابِ الزهدِ للإمامِ أحمدَ / زهدُ داودَ عليه السلامُ (١٦) إلا أنه من روايةِ عبدِ الرحمنِ بنِ مَهديٍّ، حدثنا سفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ، عن عطاءِ بنِ السائبِ، قال: سمعْتُ أبا عبدِ اللهِ الجَدَلِيَّ قال: «أَوْحَى اللهُ عزَّ وجلَّ إلى داودَ...» فذكره بنحوِ ما نقلَ الشيخُ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَى-.

مَلائِكَتِكَ وَأَنْبِيَاءِكَ وَرُسُلِكَ وَعِبَادِكَ الصَّالِحِينَ، اللَّهُمَّ أَحْيِ قَلْبِي بِحُبِّكَ وَاجْعَلْنِي لَكَ كَمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أُحِبُّكَ بِقَلْبِي كُلِّهِ، وَأُرْضِيكَ بِجُهْدِي كُلِّهِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبِّي كُلَّهُ لَكَ، وَسَعْيِي كُلَّهُ فِي مَرْضَاتِكَ».

وهذا الدعاءُ هوَ فُسْطَاطُ خَيْمَةِ الإسلامِ الذي قِيَامُهَا بِهِ، وهوَ حقيقةُ شهادةِ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ، وأنَّ مُحَمَّداً رسولُ اللهِ، والقائمونَ بحقيقةِ ذلكَ هم الذينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِم قائمونَ.

واللهُ سبحانَهُ تَعَرَّفَ إلى عبادِهِ منْ أسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ بما يُوجِبُ مَحَبَّتَهُم لهُ؛ فإنَّ القلوبَ مَفْطُورَةٌ على مَحَبَّةِ الكمالِ وَمَنْ قامَ بِهِ، واللهُ سبحانَهُ وتَعَالَى لهُ الكمالُ المُطْلَقُ منْ كلِّ وَجْهٍ، الذي لا نَقْصَ فيهِ بِوَجْهٍ ما، وهوَ سبحانَهُ «**الجَمِيلُ**» الذي لا أَجْمَلَ منهُ، بلْ لَوْ كانَ جَمَالُ الخلقِ كُلِّهِم على رجلٍ واحدٍ منهم، وكانُوا جَمِيعُهُم بذلكَ الجمالِ لَمَا كانَ لِجَمَالِهِم قَطُّ نِسْبَةٌ إلى جمالِ اللهِ، بلْ كَانَتِ النسبةُ أَقَلَّ منْ نِسْبَةِ سِرَاجٍ ضعيفٍ إلى حِذاءِ جِرْمِ الشَّمْسِ؛ وللهِ المَثَلُ الأَعْلَى). (١)

---

(١) روضةُ المُحِبِّينَ (٤١٨ - ٤٢٠).

* مُلْحَقٌ:

وقال رَحِمَهُ اللهُ تعالَى في طريقِ الهجرتينِ (٢٩١): (الوجهُ الخامسُ - أن الخوفَ يتعلقُ بالأفعالِ، وأما الحبُّ فإنه يتعلقُ بالذاتِ والصفاتِ. ولهذا يَزُولُ الخوفُ في الجنةِ، وأما الحبُّ فيزدادُ. ولما كانَ الحبُّ يتعلقُ بالذاتِ كان من أسمائِه سُبحانَهُ (الوَدُودُ) قال البُخَارِيُّ في صحيحِه: الحبيبُ. وأما الخوفُ فإنَّ مُتَعَلَّقَهُ أفعالُ الربِّ سبحانَهُ، ولا يَخْرُجُ عن كونِ سببِه جِنايةَ العَبْدِ، وإن كانَتْ جِنايَتُهُ مِنْ قَدَرِ اللهِ. ولهذا قالَ عَلِيُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه: (لا يَرْجُونَّ عَبْدٌ إلاَّ رَبَّهُ، وَلاَ يَخَافَنَّ عَبْدٌ إلاَ ذَنْبَهُ). فمُتعَلَّقُ الخوفِ ذَنْبُ العبدِ وعَاقِبَتُهُ، وهي مفعولاتٌ للربِّ، فليس الخوفُ عائدًا إلى نفسِ الذاتِ. والفرقُ بينَهُ وبين الحبِّ أن الحبَّ سببُه الكمالُ، وذاتُه تعالى لها الكمالُ المُطلَقُ، وهو مُتعلَّقُ الحبِّ التامِّ.

وأما الخوفُ فسَبَبُه توَقُّعُ المَكْرُوهِ وهذا إنما يكونُ في الأفعالِ والمفعولاتِ).

- وقال أيضًا في طريقِ الهِجْرَتَيْنِ (٣٠٠): (لا رَيْبَ أنَّ الحُبَّ والأُنْسَ المُجَرَّدَ عنِ الإجلالِ والتعظيمِ يَبْسُطُ النَّفْسَ، ويَحْمِلُهَا على بعضِ الدَّعَاوَى والرُّعُوناتِ والأماني الباطلةِ وإساءةِ الأدبِ والجنايةِ على حقِّ المحبةِ. فإذا قارَنَ المَحبةَ مَهابَةُ المحبوبِ وإجلالُه وتعظيمُه وشهودُ عِزِّ جلالِه وعظيمِ سُلطانِه، انْكَسَرَتْ نَفْسُه له وذَلَّتْ لِعَظَمَتِهِ واستكانَتْ لِعِزَّتِهِ وتَصاغَرَتْ لجلالِهِ وصَفَتْ مِن رُعُوناتِ النَّفْسِ

[المَنَّانُ]:

([«**المَنَّانُ**»: ذُو المَنِّ] الذي إنَّما يَتَقَلَّبُ الخلائقُ في بَحْرِ منَّتِهِ عليهم، وَمَحْضِ صَدَقَتِهِ عليهم، بلا عِوَضٍ منهم الْبَتَّةَ، وإنْ كانتْ أَعْمَالُهُم أَسْبَاباً لِمَا يَنَالُونَهُ منْ كَرَمِهِ وَجُودِهِ، فهوَ **المَنَّانُ** عليهم بأنْ وَفَّقَهُم لتلكَ الأسبابِ وَهَدَاهُم لها، وَأَعَانَهُم عليها، وَكَمَّلَهَا لهم، وَقَبِلَهَا منهم على ما فيها).[1]

(و [أَمَّا] قولُهُ [تعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين:٦]؛ أيْ: غيرُ مقطوعٍ ولا منقوصٍ، ولا مُكَدَّرٍ عليهم، وهذا هوَ الصوابُ.

وقالتْ طائفةٌ: غيرُ مَمْنُونٍ بهِ عليهم، بلْ هوَ جزاءُ أَعْمَالِهِم، وَيُذْكَرُ هذا عنْ عِكْرِمَةَ وَمُقَاتِلٍ، وهوَ قولُ كثيرٍ من القَدَرِيَّةِ، قالَ هؤلاءِ: إنَّ المنَّةَ تُكَدِّرُ النعمةَ. فَتَمَامُ النعمةِ أنْ يكونَ غَيْرَ مَمْنُونٍ بها على المُنْعَمِ عليهِ، وهذا القولُ خطأٌ قَطْعاً، أُتِيَ أَرْبَابُهُ منْ تَشْبِيهِ نعمةِ اللهِ على عبدِهِ بإنعامِ المخلوقِ على المخلوقِ.

وهذا منْ أبْطَلِ الباطلِ؛ فإنَّ المنَّةَ التي تُكَدِّرُ النِّعمةَ هيَ مِنَّةُ المخلوقِ على المخلوقِ، وأمَّا مِنَّةُ الخالقِ على المخلوقِ ففيها تَمَامُ النعمةِ وَلَذَّتُها وَطِيبُهَا؛ فإنَّها مِنَّةٌ حَقِيقَةً، قالَ تَعَالَى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝١٧﴾ [الحجرات: ١٧]، وقالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۝١١٤ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝١١٥﴾

وحَماقاتِها ودَعاوِيها البَاطِلَةِ وأمانيِّها الكاذبةِ، ولهذا في الحديثِ: «يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: أَيْنَ المُتحابُّونَ بِجلالِي؛ اليَوْمَ أُظِلُّهُمْ في ظِلِّي يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلِّي»، فقال: «أينَ المُتحابُّونَ بِجَلالي» فهو حُبٌّ بجلالِه سُبحانَهُ وتَعْظِيمُه ومَهابَتُه، ليس حُبًّا لمجردِ جَمالِه، فإنه سُبْحَانَهُ الجليلُ الجميلُ. والحبُّ الناشئُ عن شهودِ هذينِ الوصفينِ هو الحبُّ النافعُ المُوجِبُ لكونِهم في ظلِّ عرشِه يومَ القيامةِ. فشهودُ الجلالِ وحدَهُ يُوجِبُ خوفًا وخَشْيَةً وانكسارًا، وشهودُ الجمالِ وَحْدَهُ يُوجِبُ حُبًّا بانبساطٍ وإدلالٍ ورُعونةٍ. وشهودُ الوَصْفَيْنِ معًا يُوجِبُ حُبًّا مقرونًا بتعظيمٍ وإجلالٍ ومهابةٍ؛ وهذا هو غايةُ كمالِ العبدِ. واللهُ أعلمُ).

(١) مدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ١١٥-١١٦).

[الصافَّات:١١٤-١١٥]، فتكونُ مِنَّةً عليهما بنعمةِ الدنيا دُونَ نعمةِ الآخرةِ، وقالَ لِمُوسَى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ٣٧﴾ [طه:٣٧]، وقالَ أهلُ الجنَّةِ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الطور:٢٧]، وقالَ تعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الآيَةَ [آل عمرانَ: ١٦٤]، وقالَ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيَةَ [القصص: ٥]. وفي الصحيحِ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ للأنصارِ: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟ أَلَمْ أَجِدْكُمْ عَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟» فَجَعَلُوا يقولونَ لَهُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ.[١]

فهذا جوابُ العَارِفِينَ باللهِ ورسولِهِ، وهل المِنَّةُ إلاَّ للهِ المانِّ بِفَضْلِهِ الذي جَمِيعُ الخلقِ في مِنَنِهِ؟!!

وإنَّما قَبُحَتْ مِنَّةُ المخلوقِ؛ لأنَّها منَّةٌ بما ليسَ مِنْهُ، وهيَ مِنَّةٌ يَتَأَذَّى بها المَمْنُونُ عليهِ، وأمَّا مِنَّةُ «المنَّانِ» بِفَضْلِهِ التي ما طَابَ العيشُ إلاَّ بمنَّتِهِ، وكلُّ نعمةٍ منهُ في الدنيا والآخرةِ فهيَ مِنَّةٌ يَمُنُّ بها على مَنْ أَنْعَمَ عليهِ، فَتِلْكَ لا يَجُوزُ نَفْيُهَا.

وكيفَ يَجُوزُ أنْ يُقَالَ: إنَّهُ لا منَّةَ للهِ على الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ في دخولِ الجنَّةِ؟! وهلْ هذا إلاَّ منْ أبطلِ الباطلِ؟!!.[٢]

(١) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٦٠٣٥) والبُخَارِيُّ في كتابِ المغازِي / بابُ غزوةِ الطائفِ (٤٣٣٠) ومسلمٌ في كتابِ الزكاةِ / بابُ إعطاءِ المُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُم (٢٤٤٣).

(٢) قال رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في مَدارجِ السَّالكِينَ (١/ ١١٥-١١٦): (وهذه الطائفةُ من أَجْهَلِ الخلقِ باللهِ، وأغلَظِهم عنه حِجابًا، وحُقَّ لهم أن يكونوا مجوسَ هذه الأمةِ، ويَكْفِي في جَهلِهِم باللهِ: أنهم لم يَعْلَمُوا أن أهلَ سماواتِه وأرضِه في مِنَّتِه، وأنَّ مِن تَمامِ الفَرَحِ والسرورِ والغِبْطَةِ واللَّذَّةِ اغتباطُهُم بمِنَّةِ سيِّدِهم ومولاهُم الحقِّ، وأنهم إنما طابَ لهم عَيْشُهُم بهذه المِنَّةِ، وأَعْظَمُهُم منه منزلةً وأقربُهم إليه: أَعرَفُهم بهذه المِنَّةِ، وأعظمُهم إقرارًا بها، وذِكرًا لها، وشُكرًا عليها، ومحبةً له لأجلِها. فهل يَتقَلَّبُ أحدٌ قطُّ إلا في مِنَّتِه؟ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [الحجرات: ١٧] واحتمالُ مِنَّةِ المخلوقِ: إنما كانت نقصًا لأنه نَظِيرُه. فإذا مَنَّ عليه استعلَى عليه، ورأى المَمنونَ عليه نفسَهُ دُونَه. هذا مع أنه ليس في كلِّ مخلوقٍ، فلرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ المِنَّةُ على أُمَّتِهِ، وكان أصحابُه يقولونَ (اللهُ ورَسُولُهُ أَمَنُّ) ولا نقصَ في مِنَّةِ الوالدِ على وَلَدِه، ولا عارَ عليه في

فإنْ قِيلَ: هذا القدرُ لا يَخْفَى على مَنْ قالَ هذا القولَ من العلماءِ، وليسَ مُرَادُهُم ما ذُكِرَ، وإنَّما مُرادُهُم أنَّهُ لا يَمُنُّ عليهم بهِ، وإنْ كانتْ للهِ فيهِ المنَّةُ عليهم، فإنَّهُ لا يَمُنُّ عليهم بهِ، بلْ يُقَالُ: هذا جَزاءُ أعمالِكُم التي عَمِلْتُمُوهَا في الدُّنيا، وهذا أَجْرُكُم، فَأَنْتُم تَسْتَوْفُونَ أُجُورَ أَعْمالِكُم، لا نَمُنُّ عَلَيْكُم بما أَعْطَيْناكُم.

قيلَ: وهذا أيضاً هوَ الباطلُ بِعَيْنِهِ؛ فإنَّ ذلكَ الأجرَ لَيْسَت الأعمالُ ثَمَناً لهُ ولا مُعَاوَضَةً عنهُ، وقدْ قالَ أعلمُ الخلقِ باللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**»، قالُوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «**وَلا أَنَا، إلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**».(١) فَأَخْبَرَ أنَّ دخولَ الجنَّةِ برحمةِ اللهِ وفضلِهِ، وذلكَ مَحْضُ مِنَّتِهِ عليهِ وعلى سائرِ عبادِهِ، وكما أنَّهُ سبحانَهُ المَانُّ بإرسالِ رُسُلِهِ، وبالتوفيقِ لطاعتِهِ وبالإعانةِ عليها، فهوَ المانُّ بإعْطَاءِ الجزاءِ، وذلكَ كُلُّهُ مَحْضُ مِنَّتِهِ وفضلِهِ وَجُودِهِ، لا حقَّ لأحدٍ عليهِ بحيثُ إذا وَفَّاهُ إيَّاهُ لمْ يَكُنْ لهُ عليهِ منَّةٌ، فإنْ كانَ في الدنيا باطلٌ، فهذا ليسَ منهُ في شيءٍ.(٢)

فإنْ قِيلَ: كيفَ تقُولونَ هذا وقدْ أَخْبَرَ رسولُهُ عنهُ بأنَّ حقَّ العبادِ عليهِ إذا وَحَّدُوهُ أنْ لا يُعَذِّبَهُم، وقدْ أَخْبَرَ عنْ نفسِهِ أنَّ حَقًّا عليهِ نَصْرَ المؤمنينَ؟!

قِيلَ: لَعَمْرُ اللهِ هذا منْ أَعْظَمِ منَّتِهِ على عبادِهِ؛ أنْ جَعَلَ على نفسِهِ حَقًّا بِحُكْمِ وَعْدِهِ الصادقِ: أنْ يُثِيبَهُم ولا يُعَذِّبَهُم إذا عَبَدُوهُ وَوَحَّدُوهُ، فهذا مِنْ تمامِ مِنَّتِهِ،

احتمالها. وكذلك السيدُ على عبده.

فكيفَ بربِّ العالمينَ الذي إنما يَتَقَلَّبُ الخلائقُ في بحرِ مِنَّتِهِ عليهم، ومَحْضِ صَدَقَتِهِ عَلَيْهِمْ بِلا عِوَضٍ مِنهم البتةَ؟).

(١) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ في كتابِ صفةِ القيامةِ / بابٌ لَنْ يَدْخُلَ أحدٌ الجنةَ بعمَلِه، بل برحمةِ اللهِ تعالَى (٧٠٤٨).

(٢) هكذا في الأصلِ.

فإنَّهُ لوْ عَذَّبَ أهلَ سَماواتِهِ وأرضِهِ لَعَذَّبَهُم وهوَ غيرُ ظالمٍ لهم، ولكنَّ مِنَّتَهُ اقْتَضَتْ أنْ أَحَقَّ على نفسِهِ ثوابَ عَابِدِيهِ وإجابةَ سَائِلِيهِ.

مَا للعبادِ عليهِ حقٌّ واجبُ ... كَلاَّ ولا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ فهوَ الكريمُ الوَاسِعُ)[1]

[فَصْلٌ]

(وحَظَرَ اللهُ سبحانَهُ على عبادِهِ المنَّ بالصنيعةِ، واخْتَصَّ بهِ صفةً لنفسِهِ؛ لأنَّ مَنَّ العبادِ تَكْدِيرٌ وتَعْيِيرٌ[2]، وَمَنُّ اللهِ سبحانَهُ إفضالٌ وتذكيرٌ.

- **وأيضاً**: فإنَّهُ هوَ المُنْعِمُ في نفسِ الأمرِ، والعبادُ وَسَائِطُ، فهوَ المُنْعِمُ على عبدِهِ في الحقيقةِ.

- **وأيضاً**: فالامْتِنَانُ اسْتِعْبَادٌ وكَسْرٌ وإذْلالٌ لِمَنْ يُمَنُّ عليهِ، ولا تَصْلُحُ العبوديَّةُ والذلُّ إلاَّ للهِ.

- **وأيضاً**: فَالمِنَّةُ أنْ يَشْهَدَ المُعْطِي أنَّهُ هوَ ربُّ الفضلِ والإنعامِ وأنَّهُ وَلِيُّ النعمةِ وَمُسْدِيهَا، وليسَ ذلكَ في الحقيقةِ إلاَّ اللهَ.

- **وأيضاً**: فالمَانُّ بعطَائِهِ يَشْهَدُ نَفْسَهُ مُتَرَفِّعاً على الآخِذِ مُسْتَعْلِياً عليهِ غَنِيًّا عنهُ عَزِيزاً، وَيَشْهَدُ ذُلَّ الآخذِ وحاجَتَهُ إليهِ وفاقَتَهُ، ولا يَنْبَغِي ذلكَ للعبدِ.

- **وأيضاً**: فإنَّ المُعْطِيَ قدْ تَوَلَّى اللهُ ثَوَابَهُ وَرَدَّ عليهِ أضعافَ ما أَعْطَى، فَبَقِيَ عِوَضُ ما أَعْطَى عندَ اللهِ، فَأَيُّ حَقٍّ بَقِيَ لهُ قِبَلَ الآخذِ؟!! فإذا امْتَنَّ عليهِ فقدْ ظَلَمَهُ ظُلْماً بَيِّناً، وادَّعَى أنَّ حَقَّهُ في قَلْبِهِ.

---

(١) التِّبْيَانُ في أقسامِ القرآنِ (٦٦-٦٨).

(٢) في الأصلِ: (وتَعْبِيرٌ) ولعلَّ الصوابَ ما أَثْبَتُّهُ.

ومِنْ هنا- واللهُ أَعْلَمُ- بَطَلَتْ صَدَقَتُهُ بالمنِّ، فإنَّهُ لَمَّا كانت مُعاوَضَتُهُ ومعامَلَتُهُ معَ اللهِ، وعِوَضُ الصدقةِ عندَهُ، فلمْ يَرْضَ بهِ ولاحَظَ العِوَضَ مِن الآخِذِ والمعاملةَ عندَهُ، فمَنَّ عليهِ بما أَعْطَاهُ- أَبْطَلَ مُعاوَضَتَهُ معَ اللهِ ومُعامَلَتَهُ لَهُ). [1]

[المُحْسِنُ]:

([«المُحْسِنُ» الذي] تَعرَّفَ إلى عبادِهِ بأوصافِهِ وأفعالِهِ وأسمائِهِ، وَتَحَبَّبَ إليهم بِنِعَمِهِ وآلائِهِ، وَابْتَدَأَهُم بإحسانِهِ وعطائِهِ، فهوَ **المحسنُ** إليهم والمجازِي على إحسانِهِ بالإحسانِ، فلهُ النعمةُ والفضلُ والثناءُ الحسنُ الجميلُ). [2]

(وهوَ سبحانَهُ كَتَبَ على نفسِهِ الرحمةَ والإحسانَ، فَرَحْمَتُهُ وإحسانُهُ منْ لوازمِ ذاتِهِ، فلا يكونُ إلاَّ رَحِيماً مُحْسِناً). [3]

([فـ]الإحسانُ صِفتُهُ، وهوَ المحسنُ ويُحِبُّ المُحْسِنِينَ)[4]؛ (فهوَ مُحْسِنٌ إلى عبدِهِ معَ غِناهُ عنهُ، يُريدُ بِهِ الخيرَ، وَيَكْشِفُ عنهُ الضُّرَّ، لا لجَلْبِ منفعةٍ إليهِ من العبدِ، ولا لِدَفْعِ مَضَرَّةٍ بلْ رَحْمَةً منهُ وَإِحْسَاناً، فهوَ سبحانَهُ لمْ يَخْلُقْ خَلْقَهُ لِيَتَكَثَّرَ بهم منْ قِلَّةٍ، ولَا لِيَتَعَزَّزَ بهم مِنْ ذلَّةٍ، ولا لِيَرْزُقُوهُ ولا لِيَنْفَعُوهُ، ولا لِيَدْفَعُوا عنهُ، كما قالَ تَعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]، وقالَ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١].

---

(١) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (٣٧٥).

(٢) الفُروسِيَّةُ (١٦).

(٣) شِفاءُ العَلِيلِ (١٣٥).

(٤) شِفاءُ العَلِيلِ (١/ ٢٧٢). وقال -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في طريقِ الهجرتينِ (١٣٣): (مُحْسِنٌ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ).

فهوَ سبحانَهُ لا يُوَالِي مَنْ يُوَالِيهِ من الذلِّ، كما يُوَالِي المخلوقُ المخلوقَ، وإنَّما يُوَالِي أولياءَهُ إِحْسَاناً ورحمةً ومحبَّةً لهم، وأمَّا العِبادُ فإنَّهُم كما قالَ تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمَّد: ٣٨]، فهم لِفَقْرِهِم وحاجَتِهِم إنَّما يُحْسِنُ بَعْضُهُم إلى بعضٍ لحاجتِهِ إلى ذلكَ وانتفاعِهِ بِهِ عَاجِلاً أوْ آجِلاً. ولَوْلا تَصوُّرُ ذلكَ النَّفْعِ لَمَا أَحْسَنَ إليهِ، فهوَ في الحقيقةِ إنَّما أَرادَ الإحسانَ لنفسِهِ، وَجَعَلَ إِحْسَانَهُ إلى غيرِهِ وسيلةً وطريقاً إلى حصولِ ذلكَ الإحسانِ إليهِ؛ فإنَّهُ إمَّا أنْ يُحْسِنَ إليهِ لِتَوَقُّعِ جزائِهِ في العاجلِ، فهوَ مُحْتَاجٌ إلى ذلكَ الجزاءِ، أوْ مُعَاوَضَةً بإحسانِهِ، أوْ لِتَوَقُّعِ حمدِهِ وشكرِهِ، فهوَ أيضاً إنَّما يُحْسِنُ إليهِ لِيَحْصُلَ لهُ منهُ ما هوَ مُحْتَاجٌ إليهِ من الثناءِ والمدحِ، فهوَ مُحْسِنٌ إلى نفسِهِ بإحسانِهِ إلى الغيرِ، وإمَّا أنْ يُرِيدَ الجزاءَ من اللهِ في الآخرةِ، فهوَ أيضاً مُحْسِنٌ إلى نفسِهِ بذلكَ، وإنَّما أَخَّرَ جزاءَهُ إلى يوم فَقْرِهِ وَفَاقَتِهِ، فهوَ غيرُ مَلُومٍ في هذا القصدِ، فإنَّهُ فَقِيرٌ مُحْتَاجٌ، وَفَقْرُهُ وحاجتُهُ أَمْرٌ لازِمٌ لهُ منْ لوازمِ ذاتِهِ، فكمالُهُ أنْ يَحْرِصَ على ما يَنْفَعُهُ، ولم(١) يَعْجَزْ عنهُ، قالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، وقالَ تعالَى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقالَ تعالَى، فيما رَوَاهُ عنهُ رَسُولَهُ: «**يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي. يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ**»(٢).

فالمخلوقُ لا يَقْصِدُ مَنْفَعَتَكَ بالقصدِ الأوَّلِ، بلْ إنَّما يَقْصِدُ انْتِفَاعَهُ بك، والربُّ تَعَالَى إنَّما يُرِيدُ نَفْعَكَ لا انتفاعَهُ بكَ، وذلكَ منفعةٌ محضةٌ لكَ خالصةٌ من المضرَّةِ، بخلافِ إرادةِ المخلوقِ نَفْعَكَ؛ فإنَّهُ قدْ يَكُونُ فيهِ مَضَرَّةٌ عليكَ، ولوْ بِتَحَمُّلِ مِنَّتِهِ.

(١) هكذا في الأصلِ، ولعلَّ صوابَها: (ولا يَعْجِزُ عَنْهُ).

(٢) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٢١٦.

فَتَدَبَّرْ هذا؛ فإنَّ مُلاحَظَتَهُ تَمْنَعُكَ أنْ تَرْجُوَ المخلوقَ، أوْ تُعامِلَهُ دونَ اللهِ، أوْ تَطْلُبَ منهُ نَفْعاً أوْ دَفْعاً، أوْ تُعَلِّقَ قَلْبَكَ بِهِ؛ **فإنَّهُ إنَّما يُرِيدُ انْتِفاعَهُ بكَ لا مَحْضَ نَفْعِكَ، وهذا حالُ الخلقِ كُلِّهِم بعضِهِم منْ بعضٍ، وهوَ حالُ الولدِ معَ وَالِدِهِ، والزوجِ معَ زَوْجِهِ، والمَمْلُوكِ معَ سَيِّدِهِ، والشَّرِيكِ معَ شَرِيكِهِ، فالسعيدُ مَنْ عَامَلَهُم للهِ لا لَهُم، وَأَحْسَنَ إليهم للهِ، وَخافَ اللهَ فيهم، ولمْ يَخَفْهُم معَ اللهِ، وَرَجا اللهَ بالإحسانِ إليهم، ولمْ يَرْجُهُم معَ اللهِ، وَأَحَبَّهُم بِحُبِّ اللهِ، ولمْ يُحِبَّهُم معَ اللهِ، كما قالَ أولياءُ اللهِ عزَّ وجلَّ:** ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: ٩]». (١)

(١) إغاثةُ اللهفانِ (١/ ٦٦-٦٩).

وقال -رَحِمَهُ اللهُ تَعالى- في طريقِ الهجرتينِ (٦٢): (ومما يُوضحُ الأمرَ في ذلك ويُبيِّنُه أن اللهَ سبحانَهُ غنيٌّ حميدٌ كريمٌ رحيمٌ، فهو محسنٌ إلى عبدِه مع غِناه عنه يُريدُ به الخيرَ ويَكشِفُ عنه الضُّرَّ، لا لجَلْبِ منفعةٍ إليه سبحانَهُ ولا لدفعِ مَضرةٍ، بل رَحْمَةً وإحسانًا وجُودًا مَحْضًا، فإنه رحيمٌ لذاتِه محسنٌ لذاتِه جَوَادٌ لذاتِه كريمٌ لذاتِه، كما أنه غنيٌّ لذاتِه قادرٌ لذاتِه حيٌّ لذاتِه، فإحسانُه وجُودُه وبرُّه ورَحْمتُه من لوازمِ ذاتِه لا يكون إلا كذلك، كما أن قيامَهُ وقُدرتَه وغِناهُ من لوازمِ ذاتِه فلا يكونُ إلا كذلك، وأما العبادُ فلا يُتصوَّرُ أن يُحسِنُوا إلا لِحُظُوظِهِمْ، فأكثرُ ما عندَهُم للعبدِ أن يُحِبُّوه ويُعَظِّمُوهُ لِيَجلِبُوا له مَنْفَعةً ويَدْفَعُوا عنه مَضَرَّةً وذلك من تيسيرِ اللهِ وإذنِه لهم به، فهو في الحقيقةِ وَلِيُّ هذه النعمةِ ومُسدِيها ومُجريها على أَيْدِيهِم، ومعَ هذا فإنهم لا يَفْعَلُون ذلك إلا لِحُظُوظِهِم مِنَ العبدِ، فإنهم إذا أَحَبُّوهُ طَلَبُوا أن يَنَالُوا غَرَضَهُم من مَحَبَّتِه سواءٌ أَحَبُّوهُ لِجَمالِهِ الباطِنِ أو الظاهِرِ، فإذا أَحَبُّوا الأنبياءَ والأولياءَ فطَلَبُوا لِقاءَهُمْ فهم يُحِبُّونَ التَّمَتُّعَ بِرُؤْيَتِهِم وسماعِ كلامِهِم ونحوِ ذلك، وكذلك من أَحبَّ إنسانًا لشجاعَتِه أو رِياسَتِه أو جمالِه أو كَرَمِه فهو يُحِبُّ أن يَنالَ حَظَّهُ مِن تلكَ المَحَبَّةِ، ولولا التِذاذُهُ بها لما أَحَبَّ ذلك وإن جَلَبُوا له مَنْفَعَةً كخِدمةٍ وما إلى [ذلك] أو دَفَعُوا عنه مَضَرَّةً كمَرَضٍ وعَدُوٍّ ولو بالدعاءِ فهم يَطْلُبونَ العِوَضَ إذا لم يكنِ العَمَلُ للهِ، فأجنادُ الملوكِ وعبيدُ المماليكِ وأُجراءُ المستأجِرِ وأعوانُ الرئيسِ كُلُّهم إنما يَسْعَوْنَ في نَيلِ أغراضِهم به، لا يَعْرُجُ أكثرُهم على قصدِ مَنفعةِ المخدومِ إلا أن يكونَ قد عُلِّمَ وهُذِّب من جهةٍ أُخرى فيَدْخُلُ ذلك في الجهةِ الدينيةِ، أو يكونَ فيه طبعُ عدلٍ وإحسانٍ من بابِ المكافأةِ والرحمةِ. وإلا فالمقصودُ بالقصدِ الأولِ هو منفعةُ نفسِه، وهذا من حكمةِ اللهِ التي أقامَ بها مصالحَ خَلْقِه إذ قَسَمَ بينَهُم مَعِيشَتَهُم في الحياةِ الدنيا ورفعَ بعضَهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ لِيَتَّخِذَ بعضُهم بعضًا سُخْرِيًّا).

(و[المقصودُ أنَّهُ] لا أَحَدَ أعظمُ إِحْسَاناً من اللهِ سبحانَهُ؛ فإنَّ إحسانَهُ على عبدِهِ في كلِّ نَفَسٍ ولحظةٍ، وهوَ يَتَقَلَّبُ في إحسانِهِ في جميعِ أحوالِهِ، ولا سبيلَ لهُ إلى ضَبْطِ أجناسِ هذا الإحسانِ فَضْلاً عنْ أنواعِهِ أوْ عنْ أفرادِهِ، وَيَكْفِي أنَّ مِنْ بَعْضِ أنواعِهِ نعمةَ النفسِ التي لا تَكادُ تَخْطُرُ ببالِ العبدِ، ولَهُ عليهِ في كلِّ يومٍ وليلةٍ فيهِ أربعةٌ وعشرونَ ألفَ نِعْمَةٍ، فإنَّهُ يَتَنَفَّسُ في اليومِ والليلةِ أربعةً وعشرينَ ألفَ نَفَسٍ، وكلُّ نَفَسٍ نعمةٌ منهُ سُبحانَهُ، فإذا كانَ أَدْنَى نعمةٍ عليهِ في كلِّ يومٍ وليلةٍ أربعةً وعشرينَ ألفَ نِعْمَةٍ، فما الظَّنُّ بِمَا فَوْقَ ذلكَ وأَعْظَمُ مِنْهُ!! ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، [النحل: ١٨].

هذا إلى مَا يَصْرِفُ عنهُ من المَضَرَّاتِ وأنواعِ الأذَى التي تَقْصِدُهُ، وَلَعَلَّهَا تُوازِنُ النِّعَمَ في الكثرةِ، والعَبْدُ لا شُعُورَ لهُ بأَكْثَرِهَا أَصْلاً، واللهُ سُبْحَانَهُ يَكْلَؤُهُ منها بالليلِ والنهارِ كما قالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]. وَسَوَاءٌ كانَ المعنَى: مَنْ يَكْلَؤُكُمْ وَيَحْفَظُكُم منهُ إذا أَرَادَ بكمْ سُوءاً، ويكونُ «يَكْلَؤُكُم» مُضَمَّناً معنَى يُجِيرُكُم وَيُنْجِيكُمْ مِنْ بَأْسِهِ، أَوْ كانتْ «مِن» البَدَلِيَّةَ؛ أيْ: مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بَدَلَ الرحمنِ سُبْحَانَهُ؛ أيْ: هوَ الذي يَكْلَؤُكُمْ وَحْدَهُ لا كَالِئَ لكم غَيْرُهُ.

وَنَظِيرُ «مِنْ» هذهِ قولُهُ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزخرف: ٦٠] على أحدِ القَوْلَيْنِ؛ أيْ: عِوَضَكُم وَبَدَلَكُم، وَاسْتَشْهَدُوا على ذلكَ بقولِ الشاعِرِ:

جَـارِيَـةٌ لَمْ تَـأْكُـلِ الْمُـرَقَّـقَـا ... وَلَمْ تَـذُقْ مِـنَ الْبُقُـولِ الْفُسْتُقَا

أيْ: لَمْ تَأْكُلِ الفُسْتُقَ بَدَلَ البقولِ.

وعلى كِلا القَوْلَيْنِ: فهوَ سبحانَهُ مُنْعِمٌ عليهم بِكَلاءَتِهِم وحفظِهِم وحراستِهِم مِمَّا يُؤْذِيهِم بالليلِ والنهارِ وحدَهُ، لا حَافِظَ لهم غيرُهُ، هذا معَ غِنَاهُ التامِّ عَنْهُم

وَفَقْرِهِم التامِّ إليه؛ فإنَّهُ سبحانَهُ غَنِيٌّ عن خَلْقِهِ من كلِّ وجهٍ، وَهُمْ فقراءُ مُحْتَاجُونَ إليهِ من كلِّ وجهٍ.

وفي بعضِ الآثارِ يقولُ تعالَى: «أَنَا الجَوَادُ، ومَنْ أَعْظَمُ مِنِّي جُوداً وَكَرَماً؟ أَبيتُ أَكْلأُ عِبَادِي في مضاجِعِهِم وهمْ يُبَارِزُونَني بالعظائِمِ».[1] وفي «التِّرْمِذِيِّ» أَنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا رَأَى السحابَ قالَ: «هَـٰذِهِ رَوَايَا الأَرْضِ، يَسُوقُهَا اللهُ إِلَى قَوْمٍ لا يَذْكُرُونَهُ، وَلا يَعْبُدُونَهُ».[2] وفي الصَّحِيحَيْنِ: عنهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قالَ: «لا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ، إِنَّهُمْ لَيَجْعَلُونَ لَهُ الْوَلَدَ، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ».[3] وفي بعضِ الآثارِ يقولُ اللهُ: «ابْنَ آدَمَ، خَيْرِي إِلَيْكَ نَازِلٌ، وَشَرُّكَ إِلَيَّ صَاعِدٌ، كَمْ أَتَحَبَّبُ إِلَيْكَ بِالنِّعَمِ وَأَنَا غَنِيٌّ عَنْكَ، وَكَمْ تَتَبَغَّضُ إِلَيَّ بِالْمَعَاصِي وَأَنْتَ فَقِيرٌ إِلَيَّ، وَلا يَزَالُ الْمَلَكُ الْكَرِيمُ يَعْرُجُ إِلَيَّ مِنْكَ بِعَمَلٍ قَبِيحٍ»[4]).[5]

---

(١) أخرجَهُ أبو نُعَيمٍ في الحِليةِ (٨/ ٩٣) بإسنادِهِ إلى الفُضيلِ بنِ عِياضٍ -رَحِمَهُ اللهُ- أنه قالَ: (ما مِن ليلةٍ اختلطَ ظلامُها، وأرخَى الليلُ سِرْبَالَ سِتْرِهَا، إلا نادى الجليلُ جَلَّ جَلالُهُ: «مَنْ أَعْظَمُ مني جُودًا، والخلائِقُ لي عاصونَ، وأنا لهم مُراقبٌ أَكْلَؤُهُمْ في مَضاجِعِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْصُونِي، وَأَتَوَلَّى حِفْظَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَمْ يُذْنِبُوا»). وذكرَهُ ابنُ رَجبٍ في جامعِ العلومِ والحِكَمِ (١/ ٣٢١).

(٢) رواهُ الترمذيُّ في كتابِ تفسيرِ القرآنِ / بابُ «ومن سُورةِ الحديدِ» (٣٢٩٨)، والحديثُ في مسندِ الإمامِ أحمدَ (٨٦١٠) وهو من حديثِ الحَسَنِ البَصْرِيِّ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه.

(٣) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٩٠٣٣) والبُخَارِيُّ في كتابِ التوحيدِ / بابُ قَوْلِ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ (٧٣٧٨) ومسلمٌ في كتابِ صِفةِ القيامةِ / بابُ لا أَحَدَ أَصْبَرُ على أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ عزَّ وجَلّ (٧٠١١) من حديثِ أبي مُوسَى رضيَ اللهُ عنه.

(٤) عزاه صاحبُ كَنْزِ العُمَّالِ (١٥/ ٤٣١٧٤) للدَّيْلَمِيِّ والرَّافِعِيِّ عن عَلِيٍّ رضيَ اللهُ عنه، وأولُهُ: «يا ابنَ آدَمَ، مَا أَنْصَفْتَنِي».

(٥) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (٣٢٢-٣٢٤).

[القُدُّوسُ]:

(«القُدُّوسُ» المُنَزَّهُ منْ كُلِّ شرٍّ ونقصٍ وعَيْبٍ، كما قالَ أهلُ التفسيرِ: هوَ الطَّاهِرُ منْ كلِّ عيبٍ المُنـزَّهُ عمَّا لا يَليقُ بهِ، وهذا قولُ أهلِ اللُّغَةِ.

وأصلُ الكلمةِ من الطَّهارةِ والنَّزَاهَةِ:

- ومنهُ: «بَيْتُ المَقْدِسِ»؛ لأنَّهُ مكانٌ يُتطَهَّرُ فيهِ من الذنوبِ، ومَنْ أَمَّهُ لا يُرِيدُ إلاَّ الصَّلاةَ فيهِ رَجَعَ منْ خَطِيئَتِهِ كيومَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ.

- ومنهُ سُمِّيَت الجنَّةُ «حَظِيرَةَ القُدْسِ»؛ لِطَهَارَتِهَا منْ آفاتِ الدُّنْيا.

- ومنهُ سُمِّيَ جِبْرِيلُ «رُوحَ القُدُسِ»؛ لأنَّهُ طَاهِرٌ منْ كلِّ عَيْبٍ.

- ومنهُ قولُ الملائكةِ: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]. فقيلَ: المَعْنَى: وَنُقَدِّسُ أَنْفُسَنَا لكَ، فَعُدِّيَ باللامِ، وهذا ليسَ بشيءٍ، والصوابُ أنَّ المَعْنَى نُقَدِّسُكَ وَنُنَزِّهُكَ عمَّا لا يَليقُ بكَ.

هذا قَوْلُ جُمْهُورِ أهلِ التفسيرِ.

وقالَ ابنُ جَرِيرٍ: ونُقَدِّسُ لكَ: نَنْسُبُكَ إلى ما هوَ منْ صِفَاتِكَ من الطهارةِ من الأدْنَاسِ، ومِمَّا أضافَ إليكَ أهلُ الكفرِ بكَ.

قالَ: وقالَ بَعْضُهُم: نُعَظِّمُكَ وَنُمَجِّدُكَ؛ قالَهُ أبو صالحٍ، وقالَ مُجاهِدٌ: نُعَظِّمُكَ وَنُكَبِّرُكَ.

وقالَ بعضُهُم: نُنَزِّهُكَ عن السوءِ فلا نَنْسُبُهُ إليكَ، واللامُ فيهِ على حَدِّهَا في قولِهِ: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢]؛ لأنَّ المَعْنَى تَنْزِيهُ اللهِ لا تَنْزِيهُ نُفُوسِهِم لأجلِهِ.

قُلْتُ: ولهذا قُرِنَ هذا اللفظُ بقولِهِم: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾؛ فإنَّ التسبيحَ تَنْزِيهُ اللهِ سبحانَهُ عنْ كلِّ سوءٍ. قالَ ميمونُ بنُ مِهْرَانَ: «سُبْحَانَ اللهِ» كلمةٌ يُعَظَّمُ بها الربُّ، ويُحَاشَى بها من السوءِ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: هيَ تَنْزِيهُ للهِ منْ كلِّ سوءٍ.

وأصلُ اللفظةِ من المُبَاعَدَةِ؛ منْ قولِهِم: سَبَحْتُ في الأرضِ، إذا تَبَاعَدْتَ فيها، ومِنْهُ: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣٣]، فَمَنْ أَثْنَى على اللهِ وَنَزَّهَهُ عن السوءِ فقدْ سَبَّحَهُ، وَيُقَالُ: سَبَّحَ اللهَ وَسَبَّحَ لهُ، وَقَدَّسَهُ وَقَدَّسَ لَهُ). [(١)]

(هَـذَا ومِن أوصافِهِ القُـدُّوسُ ذُو التَّـ		ـنْزِيـهِ بالتَّعْظِيـمِ للرَّحْمَـنِ)[(٢)]

[السَّلامُ]:

(«السَّلامُ»... منْ أسماءِ الربِّ تَبَارَكَ وتَعَالَى، وهوَ اسمُ مصدرٍ في الأصلِ -كالكلامِ والعطاءِ- بِمَعْنَى السلامةِ،... [و] الربُّ تَعَالَى أَحَقُّ بِهِ من كلِّ ما سِوَاهُ؛ لأَنَّهُ السالِمُ منْ كلِّ آفةٍ وَعَيْبٍ وَنَقْصٍ وَذَمٍّ؛ فإنَّ لهُ الكمالَ المُطْلَقَ منْ جميعِ الوجوهِ، وكمالُهُ منْ لوازمِ ذاتِهِ، فلا يكونُ إلاَّ كذلكَ.

و«السَّلامُ» يَتَضَمَّنُ:

- سلامةَ أفعالِهِ من العبثِ والظلمِ وخلافِ الحكمةِ.
- وسلامةَ صفاتِهِ منْ مُشابهةِ صفاتِ المخلوقينَ.
- وسلامةَ ذاتِهِ منْ كلِّ نقصٍ وعيبٍ.
- وسلامةَ أسمائِهِ منْ كُلِّ ذَمٍّ.

فاسْمُ «السَّلام» يَتَضَمَّنُ إثباتَ جميعِ الكمالاتِ لهُ، وَسَلْبَ جميعِ النقائصِ عنهُ، وهذا مَعْنَى: «سُبْحَانَ اللهِ والحمدُ للهِ». وَيَتَضَمَّنُ إفرادَهُ بالألوهيَّةِ، وإفرادَهُ بالتعظيمِ، وهذا معنَى: «لا إلهَ إلاَّ اللهُ، واللهُ أكبرُ». فَانْتَظَمَ اسمُ «السَّلامِ»

(١) شِفاءُ العَليلِ (٢/ ٦٤-٦٥).

(٢) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢٤٧).

البَاقِيَاتِ الصالحاتِ التي يُثْنَى بها على الربِّ جلَّ جلالُهُ)[1].

(و... حقيقةُ هذهِ اللفظةِ... البراءةُ والخلاصُ والنجاةُ من الشرِّ والعيوبِ. وعلى هذا المعنَى تَدُورُ تَصارِيفُهَا، فمِنْ ذلكَ قولُكَ: «سَلَّمَكَ اللهُ، وَسَلِمَ فلانٌ من الشرِّ»، ومنهُ دعاءُ المؤمنينَ على الصراطِ: «رَبِّ سَلِّمْ، اللَّهُمَّ سَلِّمْ». ومنهُ: «سَلِمَ الشيءُ لفلانٍ»، أيْ: خَلَصَ لهُ وَحْدَهُ، فَخَلَصَ منْ ضَرَرِ الشِّرْكَةِ فيهِ؛ قالَ تَعالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]؛ أيْ: خَالِصاً لهُ وَحْدَهُ لا يَمْلِكُهُ معهُ غَيْرُهُ.

ومنهُ: (السِّلْمُ) ضِدُّ الحربِ، قالَ تَعالَى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]؛ لأنَّ كُلاًّ من المُتَحَارِبَيْنِ يَـخْلُصُ وَيَسْلَمُ منْ أَذَى الآخرِ، ولهذا يُبْنَى منهُ على المُفَاعَلَةِ، فيُقَالُ: المُسَالَمَةُ، مِثلُ المُشَارَكَةِ.

ومنهُ: (القلبُ السليمُ)، وهوَ النَّقِيُّ من الْغِلِّ والدَّغَلِ، وحقيقتُهُ الذي قدْ سَلِمَ للهِ وحدَهُ فَخَلَصَ منْ دَغَلِ الشركِ وغِلِّهِ ودَغَلِ الذنوبِ والمخالفاتِ، بلْ هوَ المستقيمُ على صدقِ حُبِّهِ وَحُسْنِ معاملتِهِ، فهذا هوَ الذي ضَمِنَ لهُ النجاةَ منْ عذابِهِ والفوزَ بكرامتِهِ.

ومنهُ أُخِذَ (الإسلامُ)؛ فإنَّهُ منْ هذهِ المادَّةِ؛ لأَنَّهُ: الاستسلامُ والانقيادُ للهِ والتخلُّصُ منْ شوائبِ الشركِ، فسَلِمَ لربِّهِ وخَلَصَ لهُ كالعبدِ الذي سَلِمَ لمولاهُ، ليسَ فيهِ شركاءُ مُتَشَاكِسُونَ، ولهذا ضَرَبَ سبحانَهُ هَذَيْنِ المَثَلَيْنِ للمسلمِ المُخْلِصِ لربِّهِ، والمُشْرِكِ بهِ.

ومنهُ: (السَّلَمُ) للسَّلَفِ، وحقيقتُهُ العِوَضُ المُسَلَّمُ فيهِ؛ لأنَّ مَنْ هوَ في ذمَّتِهِ قدْ ضَمِنَ سلامَتَهُ لِرَبِّهِ، ثُمَّ سُمِّيَ العقدُ سَلَماً، وحقيقتُهُ ما ذَكَرْنَاهُ.

فإنْ قِيلَ: فهذا يَنْتَقِضُ بقولِهِم للَّدِيغِ: سَلِيماً.

---

(١) أحكامُ أهلِ الذمَّةِ (١/ ١٥٣).

قيلَ: ليسَ هذا بنَقْضٍ لهُ، بلْ طردٌ لما قُلْنَاهُ؛ فإنَّهُم سَمَّوْهُ سَليماً باعْتِبَارِ ما يَهُمُّهُ ويَطْلُبُهُ ويَرْجُو أنْ يَئُولَ إليهِ حالُهُ من السلامةِ، فليسَ عندَهُ أَهَمُّ من السلامةِ، ولا هوَ أَشَدُّ طَلَباً منهُ لغيرِهَا، فسُمِّيَ: (سَلِيماً) لذلكَ، وهذا مِنْ جنسِ تَسْمِيَتِهِم المَهْلَكَةَ «المَفَازَةَ»؛ لأَنَّهُ لا شيءَ أَهَمُّ عندَ سالِكِهَا منْ فَوْزِهِ منها؛ أيْ: نَجَاتِهِ، فَسُمِّيَتْ مَفَازَةً؛ لأَنَّهُ يَطْلُبُ الفوزَ منها. وهذا أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِهِم: إنَّما سُمِّيَتْ «مَفَازَةً» وَسُمِّيَ اللَّدِيغُ «سَلِيماً» تَفَاؤُلاً، وإنْ كانَ التَّفَاؤُلُ جُزْءَ هذا المَعْنَى الذي ذَكَرْنَاهُ وَدَاخِلاً فيهِ، فهوَ أَعَمُّ وَأَحْسَنُ.

فإنْ قِيلَ: فَكَيْفَ يُمْكِنُكُم رَدُّ السُّلَّمِ إلى هذا الأصلِ؟!!

قِيلَ: ذلكَ ظَاهِرٌ؛ لأنَّ الصاعدَ إلى مكانٍ مرتفعٍ لَمَّا كَانَ مُتَعَرِّضاً للهُوِيِّ والسقوطِ طَالِباً للسلامةِ رَاجِياً لها، سُمِّيَت الآلَةُ التي يَتَوَصَّلُ بها إلى غرضِهِ «سُلَّماً» لِتَضَمُّنِهَا سلامتَهُ؛ إذْ لوْ صَعَدَ بِتَكَلُّفٍ منْ غيرِ سُلَّمٍ لكانَ عَطَبُهُ مُتَوَقَّعاً، فَصَحَّ أنَّ السُّلَّمَ منْ هذا المعنَى.

ومنهُ تَسْمِيَةُ الجنَّةِ: بـ (دارِ السلام). **وفي إِضَافَتِهَا إلى السلامِ ثلاثةُ أقوالٍ:**

أحدُهَا: أنَّهَا إضافةٌ إلى مالِكِهَا «**السَّلام**» سبحانَهُ.

الثاني: أنَّهَا إضافةٌ إلى تَحِيَّةِ أَهْلِهَا؛ فإنَّ تَحِيَّتَهُم فيها سلامٌ.

الثالث: أنَّهَا إضافةٌ إلى معنَى السلامةِ؛ أيْ: دارِ السلامةِ منْ كلِّ آفةٍ ونقصٍ وشرٍّ.

والثلاثةُ متلازمةٌ وإنْ كانَ الثالِثُ أَظْهَرَهَا؛ فإنَّهُ لوْ كانت الإضافةُ إلى مَالِكِهَا لأُضِيفَتْ إلى اسمٍ منْ أسمائِهِ غيرِ السلامِ، وكانَ يُقَالُ: دارُ الرَّحْمَنِ، أوْ: دارُ اللهِ، أوْ: دارُ المَلِكِ، ونحوُ ذلكَ.

فإذا عُهِدَتْ إِضَافَتُهَا إليهِ ثُمَّ جاءَ: «دارُ السلامِ» حُمِلَتْ على المعهودِ.

وأيضاً فإنَّ المعهودَ في القرآنِ إِضَافَتُهَا إلى صِفَتِهَا أوْ إلى أهلِهَا.

أمَّا الأوَّلُ، فَنَحْوُ: دارُ القرارِ، دارُ الخُلْدِ، جَنَّةُ المأوى، جَنَّاتُ النَّعِيمِ، جنَّاتُ الفِرْدَوْسِ.

وأمَّا الثاني، فَنَحْوُ: دارُ المُتَّقِينَ.

ولم تُعْهَدْ إِضَافَتُهَا إلى اسم منْ أسماءِ اللهِ في القرآنِ، فالأَوْلَى حَمْلُ الإضافةِ على المعهودِ في القرآنِ، وكذلكَ **إِضَافَتُهَا إلى التحيَّةِ ضَعِيفٌ منْ وجهَيْنِ:**

أحدُهُمَا: أنَّ التحيَّةَ بالسَّلامِ مُشْتَرِكَةٌ بينَ دارِ الدنيا والآخرةِ، وما يُضَافُ إلى الجنَّةِ لا يَكُونُ إلاَّ مُخْتَصًّا بها كالخُلْدِ والقرارِ والبقاءِ.

الثاني: أنَّ مِنْ أَوْصَافِهَا -غيرَ التَّحِيَّةِ- ما هوَ أَكْمَلُ منها؛ مِثْلَ كَوْنِهَا دائمةً وباقيَةً ودارَ الخلدِ، والتَّحِيَّةُ فيها عارضةٌ عندَ التَّلاقِي والتَّزَاورِ بخلافِ السلامةِ منْ كلِّ عَيْبٍ ونَقْصٍ وَشَرٍّ؛ فإنَّهَا منْ أكملِ أَوْصَافِها المقصودةِ على الدوامِ التي لا يَتِمُّ النعيمُ فيها إلاَّ بِهِ، فإضافَتُهَا إليهِ أَوْلَى، وهذا ظاهِرٌ.

[فَصْلٌ]

... إذا عُرِفَ هذا فَإِطْلاقُ «السلامِ» على اللهِ تَعَالَى اسْماً منْ أسمائِهِ هوَ أَوْلَى منْ هذا كلِّهِ، وَأَحَقُّ بهذا الاسمِ منْ كلِّ مُسَمًّى بِهِ لسلامتِهِ سبحانَهُ منْ كلِّ عيبٍ ونقصٍ منْ كلِّ وجهٍ، فهوَ «السلامُ» الحَقُّ بِكُلِّ اعتبارٍ، والمخلوقُ سلامٌ بالإضافةِ.

فهوَ سبحانَهُ سلامٌ في ذاتِهِ منْ كلِّ عَيْبٍ ونقصٍ يَتَخَيَّلُهُ وَهْمٌ، وسلامٌ في صفاتِهِ منْ كلِّ عيبٍ ونقصٍ، وسلامٌ في أفعالِهِ منْ كلِّ عيبٍ ونقصٍ وشرٍّ وظُلْمٍ وفعلٍ واقعٍ على غيرِ وجهِ الحكمةِ، بلْ هوَ «السلامُ» الحقُّ منْ كلِّ وجهٍ وبكلِّ اعتبارٍ.

فعُلِمَ أنَّ استحقاقَهُ تَعَالَى لهذا الاسمِ أَكْمَلُ من استحقاقِ كلِّ ما يُطْلَقُ عليهِ، وهذا هوَ حقيقةُ التَّنْـزِيهِ الذي نَـزَّهَ بِهِ نفسَهُ وَنَزَّهَهُ بِهِ رسولُهُ، فهوَ السلامُ من الصاحبةِ والولدِ، والسلامُ من النظيرِ والكُفْءِ والسَّمِيِّ والمُمَاثِلِ، والسلامُ من الشريكِ.

ولذلكَ إذا نَظَرْتَ إلى أفرادِ صفاتِ كمالِهِ وَجَدْتَ كلَّ صفةٍ سلاماً مِمَّا يُضَادُّ كَمَالَهَا:

- فحياتُهُ سلامٌ من الموتِ ومن السِّنَةِ والنومِ.
- وكذلكَ قَيُّومِيَّتُهُ وقُدْرَتُهُ سلامٌ من التعبِ واللُّغُوبِ.
- وَعِلْمُهُ سلامٌ مِنْ عُزُوبِ شيءٍ عنهُ أَوْ عُرُوضِ نسيانٍ أَوْ حاجةٍ إلى تَذَكُّرٍ وَتَفَكُّرٍ.
- وإرادتُهُ سلامٌ مِنْ خُرُوجِهَا عن الحكمةِ والمصلحةِ.
- وكَلِمَاتُهُ سلامٌ من الكذبِ والظلمِ، بلْ تَمَّتْ كَلِمَاتُهُ صِدْقاً وَعَدْلاً.
- وَغِنَاهُ سلامٌ من الحاجةِ إلى غيرِهِ بوَجْهٍ ما، بلْ كُلُّ ما سِوَاهُ مُحْتَاجٌ إليهِ، وهوَ غَنِيٌّ عنْ كلِّ ما سِوَاهُ.
- وَملكُهُ سلامٌ منْ مُنَازِعٍ فيهِ، أَوْ مُشَارِكٍ، أَوْ مُعَاوِنٍ مُظَاهِرٍ، أَوْ شَافِعٍ عندَهُ بدونِ إذنِهِ.
- وَإِلَهِيَّتُهُ سَلامٌ منْ مُشَارِكٍ لهُ فيها، بلْ هوَ اللهُ الذي لا إلهَ إلاَّ هوَ.
- وَحِلْمُهُ وعفوُهُ وصَفْحُهُ ومغفرتُهُ وتجاوزُهُ سلامٌ منْ أنْ تكونَ عنْ حاجةٍ منهُ، أَوْ ذُلٍّ أَوْ مُصَانَعَةٍ كما يكونُ منْ غيرِهِ، بلْ هوَ مَحْضُ جُودِهِ وَإِحْسَانِهِ وَكَرَمِهِ.
- وكذلكَ عَذَابُهُ وانتقامُهُ وشدَّةُ بَطْشِهِ وَسُرْعَةُ عِقَابِهِ سلامٌ منْ أنْ يكونَ ظُلْماً أَوْ تَشَفِّياً أَوْ غِلْظَةً أَوْ قسوةً، بلْ هوَ محضُ حِكْمَتِهِ وعدلِهِ ووضعِهِ الأشياءَ مَوَاضِعَهَا، وهوَ مِمَّا يَسْتَحِقُّ عليهِ الحمدَ والثناءَ كما يَسْتَحِقُّهُ على إحسانِهِ وثوابِهِ

وَنِعَمِهِ، بلْ لوْ وَضَعَ الثوابَ مَوْضِعَ العقوبةِ لكانَ مُنَاقِضاً لحكمتِهِ وَلِعِزَّتِهِ، فَوَضْعُهُ العقوبةَ موضعَهَا هوَ منْ حَمْدِهِ وحكمتِهِ وَعِزَّتِهِ؛ فهوَ سلامٌ ممَّا يَتوَهَّمُ أَعْدَاؤُهُ والجاهلونَ بِهِ منْ خلافِ حكمتِهِ.

- وَقَضَاؤُهُ وَقَدَرُهُ سَلامٌ من العبثِ والجَورِ والظلمِ، ومِنْ تَوَهُّمِ وُقوعِهِ على خلافِ الحكمةِ البالغةِ.

- وَشَرْعُهُ وَدِينُهُ سلامٌ من التناقضِ، والاختلافِ، والاضطرابِ، وخلافِ مصلحةِ العبادِ وَرَحْمَتِهِم والإحسانِ إليهم، وخلافِ حِكْمَتِهِ، بلْ شَرْعُهُ كُلُّهُ حِكْمَةٌ ورحمةٌ ومصلحةٌ وعدلٌ.

- وكذلكَ عَطَاؤُهُ سلامٌ منْ كونِهِ مُعَاوَضَةً أوْ لحاجةٍ إلى المُعْطَى.

- وَمَنْعُهُ سَلامٌ من البخلِ وخوفِ الإملاقِ؛ بلْ عَطَاؤُهُ إحسانٌ مَحْضٌ لا لمعاوضةٍ ولا لحاجةٍ، ومنعُهُ عَدْلٌ مَحْضٌ وَحِكْمَةٌ لا يَشُوبُهُ بُخْلٌ ولا عَجْزٌ.

- واستواؤُهُ وَعُلُوُّهُ على عرشِهِ سلامٌ منْ أنْ يَكُونَ مُحْتَاجاً إلى ما يَحْمِلُهُ أوْ يَسْتَوِي عليهِ، بل العرشُ مُحْتَاجٌ إليهِ، وَحَمَلَتُهُ مُحْتَاجُونَ إليهِ؛ فهوَ الغنيُّ عن العرشِ، وعنْ حَمَلَتِهِ، وعنْ كلِّ ما سِوَاهُ، فهوَ اسْتِوَاءٌ وَعُلُوٌّ لا يَشُوبُهُ حَصْرٌ، ولا حَاجَةٌ إلى عرشٍ ولا غيرِهِ، ولا إحاطةُ شيءٍ بِهِ سبحانَهُ وتَعَالَى؛ بلْ كانَ سبحانَهُ ولا عَرْشَ، ولمْ يَكُنْ بِهِ حاجةٌ إليهِ، وهوَ الغنيُّ الحميدُ، بل اسْتِوَاؤُهُ على عرشِهِ وَاسْتِيلاؤُهُ على خَلْقِهِ منْ مُوجَباتِ مُلْكِهِ وقَهْرِهِ منْ غيرِ حاجةٍ إلى عرشٍ ولا غيرِهِ بوجهٍ ما.

- ونزولُهُ كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا سلامٌ مِمَّا يُضَادُّ عُلُوَّهُ، وسلامٌ ممَّا يُضَادُّ غِنَاهُ.

- وكمالُهُ سلامٌ منْ كلِّ ما يَتوَهَّمُ مُعطِّلٌ أوْ مُشبِّهٌ، وَسَلامٌ منْ أنْ يَصِيرَ تَحْتَ شَيْءٍ أوْ مَحْصُوراً في شيءٍ، تَعالَى اللهُ رَبُّنا عنْ كلِّ ما يُضادُّ كَمالَهُ.

- وَغِنَاهُ وَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ سلامٌ من كلِّ ما يَتَخَيَّلُهُ مُشَبِّهٌ أوْ يَتَقَوَّلُهُ مُعَطِّلٌ.

- وَمُوَالاتُهُ لأوليائِهِ سلامٌ منْ أنْ تكونَ عنْ ذلٍّ كما يُوَالِي المخلوقُ المخلوقَ، بلْ هيَ موالاةُ رحمةٍ وخيرٍ وإحسانٍ وبرٍّ كما قالَ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١]. فَلَمْ يَنفِ أنْ يَكُونَ لَهُ وَلِيٌّ مُطْلَقاً، بلْ نَفَى أنْ يَكُونَ لهُ وَلِيٌّ من الذُّلِّ.

- وكذلكَ مَحَبَّتُهُ لِمُحِبِّيهِ وَأَوْلِيَائِهِ سلامٌ منْ عوارِضِ مَحَبَّةِ المخلوقِ للمخلوقِ منْ كَوْنِهَا مَحَبَّةَ حاجةٍ إليهِ، أوْ تَمَلُّقٍ لهُ، أو انْتِفَاعٍ بِقُرْبِهِ، وسلامٌ مِمَّا يَتَقَوَّلُهُ المُعَطِّلُونَ فيها.

- وكذلكَ ما أَضَافَهُ إلى نفسِهِ من اليدِ والوجهِ، فإنَّهُ سلامٌ مِمَّا يَتَخَيَّلُهُ مُشَبِّهٌ أوْ يَتَقَوَّلُهُ مُعَطِّلٌ.

فتأَمَّلْ كَيْفَ تَضَمَّنَ اسمُهُ «السلامُ» كلَّ ما نُزِّهَ عنهُ تبَارَكَ وتعَالَى. وَكَمْ مِمَّنْ حَفِظَ هذا الاسمَ لا يَدْرِي ما تَضَمَّنَهُ منْ هذهِ الأسرارِ والمعانِي.

واللهُ المُسْتَعَانُ المَسْئُولُ أنْ يُوَفِّقَ للتعليقِ على الأسماءِ الحُسْنَى على هذا النَّمَطِ؛ إنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ). (١)

(١) بَدَائِعُ الفوائدِ (٢/ ١٣٣-١٣٧).

مُلْحَقٌ:

وقالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في شفاءِ العليلِ (٢/ ٦٥ - ٦٦): (وكذلك اسمُه السلامُ. فإنه الذي سَلِمَ مِنَ العيوبِ والنقائِصِ. ووَصْفُهُ بالسلامِ. أَبْلَغُ في ذلك من وَصْفِه بالسَّالِمِ. ومن مُوجِباتِ وَصْفِهِ بذلك سَلامَةُ خَلْقِه مِن ظُلْمِه لهم.

فسَلِمَ سُبحانَهُ من إرادةِ الظلمِ والشرِّ، ومن التسميةِ به، ومن فِعلِه، ومن نِسبَتِه إليه. فهو السلامُ من صفاتِ النقصِ وأفعالِ النقصِ وأسماءِ النقصِ، المُسَلِّمُ لخَلقِه من الظلمِ، ولهذا وَصَفَ سبحانَهُ ليلةَ القدرِ بأنها سلامٌ، والجنةَ بأنها دارُ السلامِ، وتحيةُ أهلِها السلامُ. وأثنى على أوليائِه بالقولِ السلامِ. كلُّ ذلك السالمُ مِنَ العيوبِ).

وقال أيضًا في هدايةِ الحَيارَى (٥٢٤):

السادسَ عَشَرَ أنه قُدُّوسٌ سَلاَمٌ فهو المُبَرَّأُ مِن كُلِّ عَيْبٍ ونَقْصٍ وآفَةٍ.
وقالَ أيضًا في القصيدةِ النونيةِ (٢٤٧):

وَهُـوَ الـسَّـلاَمُ عَـلَى الْحَـقِـيقَـةِ سَـالِمٌ مِـنْ كُلِّ تَمْثِيلٍ وَمِـنْ نُقْصَـانِ

وقالَ أيضًا في أحكامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ (١/ ١٥٣- ١٥٥): (وَمِنْ بَعْضِ تَفاصِيلِ ذلك أنه الحيُّ الذي سَلِمَتْ حَياتُهُ مِنَ المَوْتِ والسِّنَةِ والنومِ والتغيُّرِ، القادرِ الذي سَلِمَتْ قُدْرَتُهُ مِنَ اللُّغُوبِ؛ والتعبِ والإعياءِ والعجزِ عمَّا يُريدُ، العليمُ الذي سَلِمَ عِلْمُه أن يَعْزُبَ عنه مِثقالُ ذَرَّةٍ أو يَغِيبَ عنه معلومٌ من المعلوماتِ؛ وكذلك سائرُ صِفاتِه على هذا. فرِضاه سُبحانَهُ سَلامٌ أن يُنَازِعَهُ الغَضَبُ؛ وحِلْمُهُ سَلاَمٌ أَنْ يُنَازِعَهُ الانتقامُ؛ وإرادَتُهُ سَلامٌ أن يُنَازِعَهَا الإكراهُ، وقُدْرَتُهُ سَلاَمٌ أَنْ يُنَازِعَها العَجْزُ؛ ومَشِيئَتُه سلامٌ أن يُنازِعَها خلافُ مقتضاهُ، وكَلامُه سلامٌ أن يَعْرِضَ له كَذِبٌ أو ظلمٌ، بل تَمَّتْ كَلِمَاتُه صِدقًا وعَدْلاً، ووَعْدُهُ سَلامٌ أن يَلْحَقَهُ خُلْفٌ. وهو سلامٌ أن يكونَ قبلَهُ شيءٌ أو بعدَه شيءٌ أو فوقَهُ شيءٌ أو دُونَهُ شيءٌ؛ بل هو العالي على كلِّ شيءٍ، وفوقَ كُلِّ شيءٍ، وقبلَ كُلِّ شيءٍ، وبعدَ كُلِّ شيءٍ والمحيطُ بكلِّ شيءٍ، وعطاؤُه ومَنْعُهُ سلامٌ أن يَقَعَ في غَيْرِ مَوقِعِه ومَغْفِرَته سلامٌ أن يُباليَ بها أو يَضِيقَ بذُنُوبِ عِبادِه، أو تَصْدُرَ عن عجزٍ عن أخذِ حقِّه كما تكونُ مغفرةُ الناسِ؛ ورَحمتُه وإحسانُه ورأفتُه. وبِرُّه وجُودُه ومُوالاتُه لأوليائِه وتحبُّبُه إليهم وحنانُه عليهم وذِكرُه لهم وصَلاتُه عليهم سلامٌ أن يكونَ لحاجةٍ منه إليهم أو تعزُّزٌ بهم أو تكثُّرٌ بهم. وبالجملةِ فهو السلامُ مِن كل ما ينافي كمالَهُ المُقَدَّسَ بوجهٍ من الوجوهِ.

وأخطأَ كلَّ الخطأِ مَن زَعَمَ أنه من أسماءِ السُّلوبِ، فإن السلبَ المحضَ لا يتضمنُ كمالاً، بل اسمُ (السلام)، مُتضمِّنٌ للكَمالِ مُتضمِّنٌ للكمالِ السالمِ من كلِّ ما يُضادُّه وإذا لم تَظْلِمْ هذا الاسمَ ووَفَّيْتَهُ مَعْناهُ وَجَدْتَهُ مُسْتَلْزِمًا لإرسالِ الرسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ، وشَرْعِ الشرائعِ، وثُبوتِ المَعادِ، وحُدوثِ العالَمِ، وثُبوتِ القضاءِ والقدَرِ، وعلوِّ الربِّ تعالَى على خلقِه، ورُؤيتِه لأفعالِهم، وسَمْعِه لأصواتِهم، واطلاعِهِ على سرائرِهم وعلانِيَتِهم، وتَفرُّدِه بتَدْبيرِهم، وتَوحُّدِه في كمالِهِ المُقَدَّسِ عنْ شَرِيكٍ بوَجْهٍ مِنَ الوُجوهِ، فهو السلامُ الحقُّ من كلِّ وجهٍ كما هو النزيهُ البريءُ عن نقائصِ البشرِ من كلِّ وجهٍ.

ولما كانَ سبحانَهُ موصوفًا بأن له يَدَيْنِ لم يكن فيهما شِمالٌ، بل كلتا يديهِ يمينٌ مُباركةٌ، كذلك أسماؤُه كُلُّها حُسْنَى، وأفعالُه كُلُّها خيرٌ، وصفاتُه كلُّها كمالٌ، وقد جعلَ سُبحانَهُ السلامَ تحيةَ أوليائِه في الدُّنيا، وتحيتَّهُم يومَ القيامةِ ولما خَلَقَ آدمَ وكَمُلَ خَلْقُه فاستوَى قال اللهُ له: اذهَبْ إلى أولئكَ النَّفرِ من الملائكةِ، فاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ بِهِ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِك مِنْ بَعْدِكَ. وقالَ تعالَى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧] وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥].

وقد اختُلِفَ في تسميةِ الجنةِ (دارَ السلام)، فقيلَ: السلامُ هو اللهُ، والجنةُ دارُه وقيلَ: السلامُ هو السلامةُ، والجنةُ دارُ السلامةِ من كلِّ آفةٍ وعيبٍ ونقصٍ وقيلَ: سُمِّيَتْ (دارَ السلامِ) لأن تَحِيَّتَهُم فيها سلامٌ، ولا تَنافِيَ بين هذه المعاني كُلِّها.

[المُؤْمِنُ]:

(ومِنْ أسمائِهِ تَعَالَى «المُؤْمِنُ»، وهوَ في أحدِ التفسيرَيْنِ: المُصَدِّقُ الذي يُصَدِّقُ

وأما قولُ المسلِمِ: (السلامُ عليكُم) فهو إخبارٌ للمُسَلَّمِ عليه بسلامَتِه من غِيلَةِ المسلمِ وغِشِّهِ ومَكْرِه ومكروهٍ يَنالُهُ منه، فيَرُدُّ الرادُّ عليه مثلَ ذلك: أي فَعَلَ اللهُ ذلك بك، وأَحَلَّه عليكَ، والفرقُ بين هذا الوجهِ وبين الوجهِ الأولِ أنه في الأولِ خَبَرٌ، وفي الثاني طلبٌ، ووجهٌ ثالثٌ: وهو أن يكونَ المعنَى: اذكُرِ اللهَ الذي عافاكَ من المكروهِ وأَمَّنَكَ مِنَ المَحْذُورِ، وسَلَّمَكَ مما تخافُ، وعَامِلْنَا مِنَ السلامةِ والأمانِ بمِثْلِ ما عَامَلَكَ به، فيردُّ الرادُّ عليه مثلَ ذلك. ويُستحبُّ له أن يَزِيدَهُ، كما أنَّ مَن أَهْدَى لك هديةً يُستحَبُّ لكَ أن تُكافِئَه بزيادةٍ عليها، ومَن دَعا لك يَنْبَغِي أن تدعُوَ له بأكثرَ مِن ذلك. ووجهٌ رابعٌ: وهو أن يكونَ معنَى سلامِ المُسَلِّمِ وردِّ الرادِّ بِشارةً من اللهِ سبحانَهُ، جعلَهَا على ألسنةِ المسلمينَ لبعضِهم بعضًا بالسلامةِ من الشرِّ وحُصولِ الرحمةِ والبرَكَةِ، وهي دوامُ ذلك وثباتُه، وهذه البِشَارَةُ أُعْطُوها لدُخولِهم في دينِ الإسلامِ، فأعظمُهُم أجرًا أحسنُهم تحيةً، وأسبقُهُم في هذه البِشارَةِ، كما في الحديثِ: «وخيرُهما الذي يَبْدَأُ صَاحِبَهُ بالسلامِ».

واشتقَّ اللهُ سبحانَهُ لأوليائِه مِن تَحِيَّةِ بَيْنِهِمْ اسمًا من أسمائِه، واسم دينِه الإسلامِ الذي هو دينُ أنبيائِه ورُسُلِه وملائكتِه. قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣].

ووجهٌ خامسٌ: وهو أن كلَّ أمةٍ من الأممِ لهم تحيةٌ بينَهُم من أقوالٍ وأعمالٍ كالسجودِ وتقبيلِ الأيدِي وضربِ الجُنوكِ وقولِ بعضِهم: أَنْعِمْ صباحًا وقولِ بعضِهم: عِشْ أَلْفَ عَامٍ، ونحوَ ذلك؛ فشرَعَ اللهُ تباركَ وتعالَى لأهلِ الإسلامِ (سلامٌ عليكُم)، وكانت أحسنَ من جميعِ تحياتِ الأممِ بينَها، لِتَضَمُّنِهَا السلامةَ التي لا حياةَ ولا فلاحَ إلا بِهَا، فهي الأصلُ المُقَدَّمُ على كلِّ شيءٍ.

وانتفاعُ العبدِ بحياتِه إنما يَحْصُلُ بشيئينِ: بسلامتِه من الشرِّ، وحصولِ الخيرِ. والسلامةُ من الشرِّ مُقدَّمَةٌ على حصولِ الخيرِ وهي الأصلُ، فإن الإنسانَ بل وكلُّ حيوانٍ إنما يَهْتَمُّ بسلامتِه أولاً وغنيمَتِه ثانيًا. على أن السلامةَ المُطلقةَ، تتضمَّنُ حُصولَ الخيرِ فإنه لو فَاتَهُ حصَلَ له الهلاكُ والعَطَبُ أو النَّقْصُ، ففواتُ الخيرِ يَمْنَعُ حُصولَ السلامةِ المُطلَقةِ فتَضَمَّنَتِ السلامةُ نَجاةَ العبدِ منَ الشرِّ، وفَوْزَهُ بالخيرِ، مع اشتقاقِها مِن اسمِ اللهِ.

والمقصودُ أن السلامَ اسمُه ووصفُه وفِعلُه، والتلفُّظَ به ذِكرٌ له، كما في (السُّنَنِ) أن رجلاً سلَّمَ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ فلم يَرُدَّ عليه حتى تَيَمَّمَ وردَّ عليه وقالَ: «إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَذْكُرَ اللهَ إلا على طَهارَةٍ».

فحقيقٌ بتحيةٍ هذا شأنُها أن تُصانَ عن بَذْلِهَا لغيرِ أهلِ الإسلامِ، وألا يُحمَى بها أعداءُ القُدُّوسِ السلامِ. ولهذا كانَت كُتُبُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ إلى ملوكِ الكفارِ: «السلامُ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى» ولم يَكْتُبْ لكَافِرٍ: سلامٌ عليكُمْ أصلاً، فلهذا قالَ في أهلِ الكتابِ: «لاَ تَبْدَءُوهُمْ بالسلامِ».

الصادِقِينَ بما يُقِيمُ لهمْ منْ شواهِدِ صِدْقِهِم، فهوَ الذي صَدَّقَ رُسُلَهُ وأنبياءَهُ فيما بَلَّغُوا عنهُ، وَشَهِدَ لهم بأنَّهُم صَادِقُونَ بالدلائلِ التي دَلَّ بها على صِدقِهِم قَضَاءً وَخَلْقاً؛ فإنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ-وخبرُهُ الصدقُ، وقولُهُ الحقُّ- أَنَّهُ لا بُدَّ أنْ يُرِيَ العبادَ من الآياتِ الأُفُقِيَّةِ والنفسيَّةِ ما يُبَيِّنُ لهمْ أنَّ الوحيَ الذي بَلَّغَتْهُ رُسُلُهُ حَقٌّ، فقالَ تَعالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٣]؛ أي: القرآنُ، فإنَّهُ هوَ المُتقَدِّمُ في قولِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾، ثُمَّ قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٣]. فَشَهِدَ سبحانَهُ لرسولِهِ بقولِهِ: إنَّ ما جَاءَ بِهِ حَقٌّ، وَوَعَدَهُ أنْ يُرِيَ العبادَ منْ آياتِهِ الفعليَّةِ الخَلْقيَّةِ ما يَشْهَدُ بذلكَ أيضاً).[1]

(فـ... آياتُ الأنبياءِ وَبَرَاهِينُهُم وأَدِلَّتُهُم... هيَ شهادةٌ من اللهِ سبحانَهُ لهم، بَيَّنَهَا لِعِبادِهِ غايَةَ البيانِ، وَأَظْهَرَهَا لهم غايَةَ الإظهارِ بقولِهِ وفِعْلِهِ.

وفي الصحيحِ عنهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قالَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلاَّ وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحياً أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2]).[3]

---

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٤٣٢ - ٤٣٣).

(٢) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٨٢٨٦) والبُخَارِيُّ في كتابِ فضلِ القرآنِ / بابُ كيفَ نزلَ الوحيُ وأولُ ما نَزَلَ (٤٩٨١) ومسلمٌ في كتابِ الإيمانِ / بابُ وجوبِ الإيمانِ برسالةِ نبيِّنَا محمدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ (٣٨٣) من حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٣) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٤٣٢).

وقال -رَحِمَهُ اللهُ تعالى- شفاءُ العليلِ (١/ ٢٧٢): (وكذلك لَمَّا كانَ الإيمانُ صفتَه واسمُه (المؤمنَ) لم يُعْطِهِ إلا أحبَّ الخلقِ إليهِ).

[العَزِيزُ]:

(«**العزيزُ**» الذي لهُ العزَّةُ التامَّةُ).(١)

(يُقالُ: عَزَّ يعَزُّ -بِفَتْحِ العَيْنِ- إذا اشْتَدَّ وَقوِيَ، ومنهُ: الأرضُ العَزازُ: الصُّلْبَةُ الشديدةُ.

و: عَزَّ يعِزُّ -بِكَسْرِ العَيْنِ- إذا امْتَنَعَ مِمَّنْ يرُومُهُ.

و: عَزَّ يعُزُّ -بِضَمِّ العَيْنِ- إذا غَلَبَ وَقَهرَ).(٢)

(والعِزَّةُ كُلُّهَا لهُ [سبحانَهُ] وَصْفاً وَمُلْكاً، وهوَ العزيزُ الذي لا شَيْءَ أَعَزُّ منهُ، ومَنْ عَزَّ من عبادِهِ فَبِإِعْزَازِهِ لهُ).(٣)

(فالعزيزُ مَنْ لهُ العِزَّةُ)(٤)، (والعِزَّةُ تَتَضَمَّنُ كمالَ قدرتِهِ وقوَّتِهِ وقَهْرِهِ... فاسْمُهُ «**العزيزُ**» يَتَضَمَّنُ المُلْكَ).(٥)

(وهوَ العزيزُ فلنْ يُرامَ جَنابُهُ		أنَّى يُرامُ جَنابُ ذِي السُّلْطَانِ
وهوَ العزيزُ القاهرُ الغلاَّبُ لَمْ		يَغْلِبْهُ شَيْءٌ هذهِ صِفَتَانِ
وهوَ العزيزُ بقوَّةٍ هيَ وَصْفُهُ		فالعزُّ حينئذٍ ثلاثُ مَعَانِ
وهيَ التي كَمُلَتْ لهُ سُبْحَانَهُ		من كلِّ وَجْهٍ عادِمِ النُّقْصَانِ)(٦)

---

(١) شِفاءُ العَلِيلِ (٢/ ٦٦).

(٢) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (١١٣).

(٣) بَدائِعُ الفوائِدِ (٢/ ١٨٧).

(٤) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٢).

(٥) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٤٢٧).

(٦) توضيحُ المقاصدِ لابنِ عيسَى (٢/ ٢١٤).

تنبيهٌ: سقطَ البيتُ الثاني من كتابِ «القصيدةِ النونيةِ»(ص ٢٤٢).

(ومِنْ تمامِ عِزَّتِهِ بَرَاءَتُهُ منْ كلِّ سوءٍ وَشَرٍّ وَعَيْبٍ؛ فإنَّ ذلكَ يُنَافِي العزَّةَ التَّامَّةَ). [(١)]

[الجَبَّارُ]:

(«**الجَبَّارُ**» اسمٌ منْ أسماءِ التَّعظيمِ كالمُتكبِّرِ والمَلِكِ والعظيمِ والقهَّارِ. قالَ ابنُ عبَّاسٍ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]: هوَ العظيمُ.

وجَبَرُوتُ اللهِ عظمتُهُ، والجَبَّارُ منْ أسماءِ الملوكِ. والجَبْرُ: المَلِكُ، والجَبَابِرَةُ: المُلوكُ، قالَ الشاعرُ:

انعَمْ صَبَاحاً أيُّهَا الجَبْرُ

أيْ: أيُّهَا المَلِكُ [(٢)].

وقال السُّدِّيُّ: هوَ الذي يُجْبِرُ الناسَ وَيَقْهَرُهُم على ما يُرِيدُ.

وعلى هذا فالجَبَّارُ مَعْنَاهُ القهَّارُ.

وقالَ محمَّدُ بنُ كَعْبٍ: إنَّما سُمِّيَ **الجَبَّارَ**؛ لأنَّهُ جبرَ الخلقَ على ما أرَادَ، والخَلْقُ أدَقُّ شَأْناً منْ أنْ يَعْصُوا رَبَّهُم طَرْفَةَ عَيْنٍ إلاَّ بمشيئتِهِ.

قالَ الزجَّاجُ: الجَبَّارُ الذي جبرَ الخلقَ على ما أرَادَ.

وقالَ ابنُ الأَنْبَارِيِّ: الجَبَّارُ في صفةِ الربِّ سُبْحَانَهُ الذي لا يُنَالُ، ومنهُ قولُهُم: نخلةٌ جبَّارَةٌ، إذا فَاتَتْ يَدَ المُتَناوِلِ.

---

(١) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٦٦)

* وقال في مَدارجِ السَّالكِينَ (٣/ ٤٢٨): (العزةُ هي القوةُ والقدرةُ).

(٢) وقال عمرو بنُ كُلثومٍ التَّغْلِبيُّ في مُعلَّقته:

إذَا بَلَغَ الرَّضِيعُ لَنَا فِطَامًا ... تَخِرُّ لَهُ الجَبَابِرُ سَاجِدِينَا

فـ «الجَبَّارُ» في صفةِ الربِّ سبحانَهُ يَرْجِعُ إلى ثلاثةِ مَعانٍ:

المُلْكِ.

والقَهْرِ.

والعُلُوِّ. فإنَّ النخلةَ إذا طَالَتْ وَارْتَفعَتْ وَفاتَت الأَيْدِي سُمِّيَتْ جَبَّارَةً.

ولهذا جَعَلَ سبحانَهُ اسمَهُ الجَبَّارَ مَقْرُوناً بالعزيزِ والمُتكَبِّرِ، وكلُّ وَاحِدٍ منْ هذهِ الأسماءِ الثلاثةِ تَضَمَّنَ الاسمَيْنِ الآخَرَيْنِ، وهذهِ الأسماءُ الثلاثةُ نَظِيرُ الأسماءِ الثلاثةِ، وهيَ: الخالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ.

فالجَبَّارُ المُتكَبِّرُ يَجْرِيَانِ مَجْرَى التفصيلِ لِمَعْنَى اسمِ العزيزِ، كما أنَّ البَارِئَ المُصَوِّرَ تَفْصِيلٌ لِمَعْنَى اسمِ الخالِقِ.

فالجَبَّارُ منْ أوصافِهِ يَرْجِعُ إلى كمالِ القدرةِ والعزَّةِ والمُلْكِ، ولهذا كانَ منْ أسمائِهِ الحُسْنَى، وأمَّا المخلوقُ فاتِّصافُهُ بالجَبَّارِ ذَمٌّ له وَنَقْصٌ، كما قالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٥]، وقالَ تَعالَى لِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]؛ أيْ: مُسَلَّطٍ تَقْهَرُهُم وَتُكْرِهُهُم على الإيمانِ. وفي التِّرْمِذِيِّ وغيرِهِ عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «يُحْشَرُ الجَبَّارُونَ وَالمُتكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ، يَطَأُهُمُ النَّاسُ» [(١)])[(٢)].

(١) رواهُ التِّرمذيُّ في كتابِ صفةِ القيامةِ / بابُ (٤٧) الحديثُ (٢٤٩٢)، والحديثُ في مسندِ الإمامِ أحمدَ (٦٦٣٩) من حديثِ عمرو بنِ شُعَيْبٍ، عن أبيه، عن جَدِّه، مرفوعًا إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ.

(٢) شِفاءُ العَليلِ (١/ ٣١٠-٣١٢).

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في شفاءِ العليلِ (١/ ٣١٠): (وأما الجَبْرُ فيَرْجِعُ في اللغةِ إلى ثلاثةِ أُصولٍ:

أَحَدُها: أن يُغْنِيَ الرجلَ من فقرٍ أو يَجْبُرَ عَظْمَهُ من كسرٍ، وهذا من الإصلاحِ).

وهذا الأصلُ يُستعمَلُ لازمًا ومتعديًا. يُقالُ: جَبَرْتُ العَظْمَ وجَبَرَ. وقد جَمَعَ العَجَّاجُ بينَهما في قولِه:

قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الإلَهُ فَجَبَرْ.

الأصلُ الثانِي: الإكراهُ والقَهْرُ. وأكثرُ ما يُستعمَلُ هذا على أَفْعَلَ، يُقالُ: أَجْبَرْتُهُ على كذا، إذا أَكْرَهْتَهُ عليه، ولا يَكادُ يَجِيءُ جَبَرْتُهُ عليه إلا قليلاً.

(وكذلكَ الجَبَّارُ مِنْ أوصافِهِ ... والجبرُ في أوصافِهِ قِسْمَانِ
جَبْرُ الضعيفِ وَكُلُّ قلبٍ قدْ غَدَا ... ذَا كسرةٍ فالجبرُ منهُ دَانِ
وَالثانِ جبرُ القهرِ بالعزِّ الذي ... لا يَنْبَغِي لسواهُ مِنْ إنسانِ
ولهُ مُسَمًّى ثالثٌ وهوَ العُلُوُّ ... فليسَ يَدْنُو منهُ مِنْ إنسانِ
مِنْ قولِهم جَبَّارَةٌ للنخلةِ الـ ... ـعَلْيَا الَّتِي فَاتَتْ لِكُلِّ بَنَانِ)[1]

[الكَبِيرُ - المُتَكَبِّرُ]:

(وكذلكَ «الكبيرُ» مِنْ أسمائِهِ وَ«المُتكَبِّرُ». قالَ قَتَادَةُ وَغيْرُهُ: هوَ الذي تَكَبَّرَ عن السوءِ. وقالَ أيضاً: الذي تَكَبَّرَ عن السَّيِّئَاتِ. وقالَ مُقَاتِلٌ: المُتَعَظِّمُ عنْ

والأصلُ الثالثُ: من العزِّ والامتناعِ. ومنه نَخْلَةٌ جَبَّارَةٌ قال الجَوْهَرِيُّ: والجَبَّارُ مِنَ النَّخْلِ ما طالَ وفاتَ اليدَ، قال الأَعْشَى:

طَرِيقٌ وَجَبَّارٌ رِوَاءٌ أُصولُه ... عَلَيْهِ أَبَابِيلُ مِنَ الطَّيْرِ تَنْعَبُ

وقال الأخفشُ في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢] قالَ: أرادَ الطُّولَ والقوةَ والعِظَمَ. ذهبَ في هذا إلى الجَبَّارِ من النخلِ، وهو الطويلُ الذي فاتَ الأيدِيَ. ويقال: رَجُلٌ جَبَّارٌ، إذا كان طويلاً عظيمًا قويًّا تشبيهًا بالجَبَّارِ من النخلِ.

قال قتادةُ: كانت لهم أجسامٌ وخِلَقٌ عَجِيبَةٌ ليست لغيرِهم.

وقيلَ: الجبارُ ههنا مِن جَبَرَهُ على الأمرِ، إذا أَكْرَهَهُ عليه. قال الأزهريُّ: وهي لغةٌ معروفةٌ، وكثيرٌ من الحجازيينَ يَقُولُونَها، وكان الشافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ يقولُ: جَبَرَهُ السلطانُ، ويجوزُ أن يكونَ الجَبَّارُ مِن أجْبَرَهُ على الأمرِ، إذا أَكْرَهَهُ.

قال الفَرَّاءُ: لم أَسْمَعْ فَعَّالاً من أَفْعَلَ إلا في حَرْفَيْنِ وهما جَبَّارٌ من أَجْبَرَ، ودَرَّاكٌ مِن أَدْرَكَ. وهذا اختيارُ الزَّجَّاجِ، قال: الجَبَّارُ مِن الناسِ العاتِي الذي يُجْبِرُ الناسَ على ما يُرِيدُ، وأما الجَبَّارُ مِن أسماءِ الربِّ تعالى فقد فَسَّرَهُ بأنه الذي يَجْبُرُ الكسيرَ ويُغْنِي الفقيرَ والربُّ سُبحانَهُ كذلك. ولكن ليسَ هذا معنى اسمِه (الجبَّارِ)، ولهذا قَرَنَهُ باسمِه المُتكبِّرِ وإنما هو الجبروتُ وكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ يقولُ: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ والكِبرياءِ والعَظَمَةِ».

(١) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢٤٦).

كلِّ سوءٍ. وقالَ أبو إِسْحَاقَ: الذي يَكْبُرُ عنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ).[1]

([و] «الكبيرُ» يُوصَفُ بِهِ الذَّاتُ وَصِفَاتُهَا القائمةُ بها).[2]

(ومِنْ هذا قولُ المُسْلِمِينَ: اللهُ أَكْبَرُ؛ فإنَّهُ «أَفْعَلُ» تَفْضِيل يَقْتَضِي كونَهُ أَكْبَرَ مِنْ كلِّ شيءٍ بجميع الاعتباراتِ، وبهذا فَسَّرَهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديثِ الذي رَوَاهُ أحمدُ والترمذيُّ وابنُ حِبَّانَ في صحيحِهِ منْ حديثِ عَدِيِّ بنِ حاتمٍ في قصَّةِ إسلامِهِ، حيثُ قالَ لهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا عَدِيُّ، مَا يُفِرُّكَ؟! أَيُفِرُّكَ أَنْ يُقَالَ: لا إِلَهَ إلاَّ اللهُ؟! فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إِلَهٍ سِوَى اللهِ؟!**» ثُمَّ قَالَ: «**يَا عَدِيُّ، مَا يُفِرُّكَ؟! أَيُفِرُّكَ أَنْ يُقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ؟! فَهَلْ تَعْلَمُ شَيْئاً أَكْبَرَ مِنَ اللهِ؟!**»).[3]

فاللهُ سبحانَهُ أكبرُ منْ كلِّ شيءٍ: ذَاتاً، وَقَدْراً، وَمَعْنًى، وَعِزَّةً، وجلالةً؛ فهوَ أَكْبَرُ منْ كلِّ شيءٍ **في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ** كما هوَ فوقَ كلِّ شيءٍ، وعالٍ على كلِّ شيءٍ، وأعظمُ منْ كلِّ شيءٍ، وَأَجَلُّ منْ كلِّ شيءٍ في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ).[4]

[الغَنِيُّ]:

(الربُّ تَعَالَى... هوَ **الغَنِيُّ** بذاتِهِ، الذي كلُّ ما سِوَاهُ مُحْتَاجٌ إليهِ، وليسَ بهِ حاجةٌ إلى أحدٍ)[5]، ([كما] أنَّهُ... لا يَأْكُلُ ولا يَشْرَبُ ولا يَحْتَاجُ إلى شيءٍ مِمَّا يَحْتَاجُ إليهِ خَلْقُهُ بوجهٍ من الوجوهِ).[6]

(١) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٦٦).

(٢) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٤/ ١٣٧٥).

(٣) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٨٨٩١) والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ تفسيرِ القرآنِ/ بابُ «ومِن سُورةِ الفَاتِحَةِ» (٢٩٥٣).

(٤) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٤/ ١٣٧٨ - ١٣٧٩).

(٥) شِفَاءُ العَلِيلِ (١/ ٣٢٨).

(٦) هدايةُ الحَيَارَى (٥٢٣).

(فـ[هُوَ]... «**الغَنِيُّ**» الذي غِناهُ من لوازم ذاتِهِ، وكلُّ مَنْ في السَّماوَاتِ والأرضِ عبيدٌ له، مَقْهُورُونَ بِقَهْرِهِ، مُصرَّفُونَ بِمَشِيئَتِهِ، لَوْ أَهْلَكَهُم جميعاً لم يَنْقُصْ من عِزِّهِ وَسُلْطَانِهِ وَمُلْكِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ وَإِلهيَّتِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، قالَ تَعالَى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة:١٧]).[١]

(فَلَهُ الغِنَى الكاملُ التامُّ مِنْ كلِّ وجهٍ عنْ كلِّ أحدٍ بكلِّ اعْتِبَارٍ).[٢]

([واللهُ سبحانَهُ وتَعالَى] يُذَكِّرُ عِبادَهُ فَقْرَهُم إليهِ، وَشِدَّةَ حَاجَتِهِم إليهِ مِنْ كلِّ وجهٍ، وأنَّهُم لا غِنَى لهمْ عنهُ طَرْفَةَ عَينٍ، وَيَذْكُرُ غِناهُ عنهم وعنْ جميعِ الموجوداتِ، وأنَّهُ الغَنِيُّ بنفسِهِ عنْ كلِّ ما سِواهُ، وكلُّ ما سِواهُ فَقِيرٌ إليهِ بنفسِهِ، وأنَّهُ لا يَنالُ أحدٌ ذرَّةً من الخيرِ فما فَوْقَهَا إلاَّ بِفَضْلِهِ وَرَحمَتِهِ، ولا ذَرَّةً من الشرِّ فما فَوْقَهَا إلاَّ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ).[٣]

(قالَ اللهُ سبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

بَيَنَّ سبحانَهُ في هذهِ الآيَةِ أنَّ فقْرَ العبادِ إليهِ أَمْرٌ ذَاتِيٌّ لهم، لا يَنْفَكُّ عنهم، كما أنَّ كَوْنَهُ غَنِيًّا حَمِيداً أَمْرٌ ذَاتِيٌّ له، فَغِنَاهُ وَحَمْدُهُ ثابتٌ لهُ لذاتِهِ لا لأمرٍ أَوْجَبَهُ، وَفَقْرُ مَنْ سِواهُ أمرٌ ثابتٌ لهُ لذاتِهِ لا لأمرٍ أَوْجَبَهُ، فلا يُعَلَّلُ هذا الفقرُ بحدوثٍ ولا إمكانٍ، بلْ هوَ ذَاتِيٌّ للفقيرِ، فحاجةُ العبدِ إلى رَبِّهِ لذاتِهِ، لا لِعِلَّةٍ أَوْجَبَتْ تلكَ

---

(١) إغاثةُ اللهفانِ (١/ ٣٤١ – ٣٤٢).

(٢) بَدَائِعُ الفوائِدِ (٢/ ٤٥).

(٣) الفوائِدُ (٥٢).

الحاجةَ، كما أنَّ غِنَى الربِّ سُبْحَانَهُ لِذَاتِهِ لا لأمرٍ أَوْجَبَ غِنَاهُ، كما قالَ شَيْخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ:

وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لازِمٌ أَبَداً كَمَا الغِنَى أَبَداً وَصْفٌ لَـهُ ذَاتِي[1]

فالخلقُ فَقِيرٌ مُحْتَاجٌ إلى ربِّهِ بالذاتِ لا بِعِلَّةٍ، وكلُّ ما يُذْكَرُ ويُقَرَّرُ من أسبابِ الفقرِ والحاجةِ فهيَ أَدِلَّةٌ على الفقرِ والحاجةِ، لا عِلَلٌ لذلكَ؛ إذْ ما بالذاتِ لا يُعَلَّلُ، فالفقيرُ بذاتِهِ مُحْتَاجٌ إلى الغنيِّ بذاتِهِ، فما يُذْكَرُ منْ إمكانٍ وحدوثٍ واحتياجٍ فهيَ أَدِلَّةٌ على الفقرِ لا أَسْبَابٌ لهُ، ولهذا كانَ الصوابُ في مسألةِ علَّةِ احتياجِ العالمِ إلى الربِّ سبحانَهُ غيرَ القَوْلَيْنِ اللَّذَيْنِ يَذْكُرُهُمَا الفلاسفةُ والمُتَكَلِّمُونَ؛ فإنَّ الفلاسفةَ قالُوا: عِلَّةُ الحاجةِ الإمكانُ، والمُتَكَلِّمُونَ قالُوا: عِلَّةُ الحاجةِ الحدوثُ، والصوابُ أنَّ الإمكانَ والحدوثَ مُتَلازِمَانِ، وَكِلاهُمَا دليلُ الحاجةِ والافتقارِ، وفَقْرُ العالَمِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أَمْرٌ ذاتيٌّ لا يُعَلَّلُ، فهوَ فَقِيرٌ بذاتِهِ إلى رَبِّهِ الغَنِيِّ بذاتِهِ، ثُمَّ يُسْتَدَلُّ بإمكانِهِ وحدوثِهِ وغيرِ ذلكَ من الأَدِلَّةِ على هذا الفقرِ.

والمقصودُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ عنْ حقيقةِ العبادِ وَذَوَاتِهِم بأنَّهَا فَقِيرَةٌ إليهِ عَزَّ وَجَلَّ، كما أَخْبَرَ عنْ ذاتِهِ المُقَدَّسَةِ وَحَقِيقَتِهِ أَنَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ.

فالفقرُ المُطْلَقُ منْ كلِّ وجهٍ ثابتٌ لِذَوَاتِهِم وَحَقَائِقِهِم منْ حيثُ هيَ، والغِنَى المُطْلَقُ منْ كلِّ وجهٍ ثابتٌ لذاتِهِ تَعَالَى وَحَقِيقَتِهِ منْ حيثُ هيَ.

فَيَسْتَحِيلُ أنْ يكونَ العبدُ إلاَّ فَقِيراً، وَيَسْتَحِيلُ أنْ يكونَ الربُّ سبحانَهُ إلاَّ غَنِيًّا، كما أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ أنْ يكونَ العبدُ إلاَّ عَبْداً، والربُّ إلاَّ رَبًّا.

(١) وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في القصيدةِ النونيةِ (٢٤٢):

وَهُوَ الغَنِيُّ بِذَاتِهِ فَغِنَاهُ ذَا تِيٌّ لَهُ كَالجُودِ وَالإِحْسَانِ

إذا عُرِفَ هذا فالفَقْرُ فَقْرَانِ:

- فقرٌ اضْطِرَارِيٌّ: وهوَ فَقْرٌ عامٌّ، لا خُرُوجَ لِبَرٍّ ولا فاجرٍ عنهُ، وهذا لا يَقْتَضِي مَدْحاً ولا ذَمًّا، ولا ثَواباً ولا عِقاباً، بلْ هوَ بِمَنْـزِلَةِ كونِ المخلوقِ مَخْلُوقاً وَمَصْنُوعاً.

- والفقرُ الثاني: فَقْرٌ اخْتِيَارِيٌّ، هوَ نَتِيجَةُ عِلْمَيْنِ شَرِيفَيْنِ:

• أَحَدُهُما: مَعْرِفَةُ العبدِ بِرَبِّهِ.

• والثاني: مَعْرِفَتُهُ بِنَفْسِهِ.

فَمَتَى حَصَلَتْ لهُ هاتانِ المعرفتانِ أَنْتَجَتَا لهُ فَقْراً هوَ عَيْنُ غِناهُ وَعُنْوانُ فَلاحِهِ وسعادتِهِ، وَتَفَاوُتُ الناسِ في هذا الفقرِ بِحَسَبِ تَفَاوُتِهِم في هاتَيْنِ المعرفتَيْنِ.

فمَنْ عَرَفَ رَبَّهُ بالغِنَى المُطْلَقِ عَرَفَ نفسَهُ بالفقرِ المطلقِ، ومَنْ عَرَفَ ربَّهُ بالقدرةِ التامَّةِ عَرَفَ نفسَهُ بالعجزِ التامِّ، ومَنْ عَرَفَ ربَّهُ بالعِزِّ التامِّ عَرَفَ نفسَهُ بالمسكنةِ التامَّةِ، ومَنْ عَرَفَ ربَّهُ بالعلمِ التامِّ والحكمةِ عَرَفَ نفسَهُ بالجهل.[1]

فاللهُ سبحانَهُ أَخْرَجَ العبدَ منْ بَطْنِ أُمِّهِ لا يَعْلَمُ شيئاً ولا يَقْدِرُ على شيءٍ، ولا يَمْلِكُ شيئاً، ولا يَقْدِرُ على عطاءٍ ولا منعٍ ولا ضُرٍّ ولا نفعٍ ولا شيءٍ الْبَتَّةَ، فكانَ فَقْرُهُ في تلكَ الحالِ إلى ما بِهِ كمالُهُ أَمْراً مَشْهُوداً مَحْسُوساً لكلِّ أَحَدٍ، ومعلومٌ أنَّ

---

(١) وقالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي طريقِ الهجرتينِ (٣٢): (ولَمَّا كانَ الفقرُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ هو عينُ الغِنَى به فأَفْقَرُ الناسِ إلى اللهِ أغناهُم به، وأَذَلُّهُم له أعزُّهم، وأَضْعَفُهُم بينَ يديه أَقواهُم، وأَجهلُهُم عند نفسِه أَعلَمُهم باللهِ، وأَمقتُهُم لنفسِه أقربُهُم إلى مَرضاةِ اللهِ- كان ذِكْرُ الغِنَى باللهِ معَ الفقرِ إليه مُتلازِمَيْنِ مُتناسِبَيْنِ ....

واعلَمْ أنَّ الغِنَى على الحقيقةِ لا يكونُ إلا للهِ الغنيِّ بذاتِه عن كلِّ ما سواه، وكلُّ ما سواهُ فموسومٌ بسِمَةِ الفقرِ كما هو موسومٌ بسمةِ الخلقِ والصُّنْعِ، وكما أنَّ كونَهُ مخلوقًا أمرٌ ذاتيٌّ له فكونُه فقيرًا أمرٌ ذاتيٌّ له....، وغناه أمرٌ نسبيٌّ إضافيٌّ عارضٌ له، فإنه إنما استَغْنَى بأمرٍ خارجٍ عن ذاتِه فهو غنيٌّ به فقيرٌ إليه. ولا يُوصَفُ بالغِنَى على الإطلاقِ إلا مَن غِناهُ مِن لوازِمِ ذاتِه، فهو الغَنيُّ بذاتِه عما سِواهُ، وهو الأحدُ الصمَدُ الغنيُّ الحميدُ)..

هذا لهُ من لَوَازِم ذاتِهِ، وما بالذاتِ دائمٌ بِدَوامِهَا، وهوَ لمْ يَنْتَقِلْ من هذهِ الرُّتْبَةِ إلى رتبةِ الربوبيَّةِ أو الغِنَى، بلْ لمْ يَزَلْ عَبْداً فَقِيراً بذاتِهِ إلى بَارِئِهِ وفاطِرِهِ.

فَلَمَّا أَسْبَغَ عليهِ نعمتَهُ، وأفاضَ عليهِ رحمتَهُ، وساقَ إليهِ أسبابَ كمالِ وجودِهِ ظاهراً وباطناً، وَخَلَعَ عليهِ ملابسَ إِنْعَامِهِ، وجَعَلَ لهُ السَّمعَ والبصرَ والفؤادَ، وعلَّمَهُ وأَقْدَرَهُ وصَرَّفَهُ وحَرَّكَهُ ومَكَّنَهُ من استخدامِ بَنِي جِنْسِهِ، وسَخَّرَ له الخيلَ والإبلَ، وَسَلَّطَهُ على دوابِّ الماءِ، وَاسْتِنْـزَالِ الطَّيْرِ من الهواءِ، وقَهْرِ الوحوشِ العَادِيَةِ، وَحَفْرِ الأنهارِ، وغَرْسِ الأشجارِ، وَشَقِّ الأرضِ، وتَعْلِيَةِ البناءِ، والتَّحَيُّلِ على جميعِ مصالحِهِ، والتحَرُّزِ والتَّحَفُّظِ ممَّا يُؤْذِيهِ -ظَنَّ المسكينُ أنَّ لهُ نَصِيباً من الملكِ، وادَّعَى لنفسِهِ مُلْكاً معَ اللهِ سبحانَهُ، ورأى نَفْسَهُ بغيرِ تلكَ العينِ الأُولَى، ونَسِيَ ما كانَ فيهِ منْ حالةِ الإعدامِ والفقرِ والحاجةِ، حتَّى كأنَّهُ لمْ يكُنْ هوَ ذلكَ الفقيرَ المحتاجَ، بلْ كانَ ذلكَ شَخْصاً آخرَ غيرَهُ، كما رَوَى الإمامُ أحمدُ في «مُسندِهِ» منْ حديثِ بُسْرِ بنِ جَحَّاشٍ القُرَشِيِّ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ بَصَقَ يوماً في كفِّهِ فَوَضَعَ عليها إِصْبَعَهُ ثُمَّ قالَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ؟». [1]

ومِنْ هَهُنَا خُذِلَ مَنْ خُذِلَ، وَوُفِّقَ مَنْ وُفِّقَ، فَحُجِبَ المخذولُ عنْ حقيقتِهِ، ونَسِيَ نفسَهُ؛ فَنَسِيَ فَقْرَهُ وحاجتَهُ وضرورتَهُ إلى ربِّهِ، فَطَغَى وبَغَى وعَتَا فَحَقَّتْ عليهِ الشِّقْوَةُ، قالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦-٧]، وقالَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥-١٠]، فَأَكْمَلُ الخلقِ

(١) رواه الإمام أحمد (١٧٣٨٧).

أَكْمَلُهُم عبوديَّةً وأعظَمُهُم شُهُوداً لفقرِهِ وضرورتِهِ وحاجتِهِ إلى ربِّهِ وعدم استغنائِهِ عنهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، ولهذا كانَ منْ دُعَائِهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلا إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ».[(١)] وكانَ يَدْعُو: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ».[(٢)] يَعْلَمُ أَنَّ قَلْبَهُ بِيَدِ الرحمنِ عزَّ وجلَّ [(٣)] لا يَمْلِكُ منهُ شَيْئاً، وأنَّ اللهَ سبحانَهُ يُصَرِّفُهُ كَمَا يَشَاءُ، كيفَ وهوَ يَتْلُو قولَهُ تَعالَى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ٧٤﴾ [الإسراء:٧٤]. فَضَرُورَتُهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ إلى رَبِّهِ وَفَاقَتُهُ إليهِ بِحَسَبِ مَعْرِفَتِهِ بِهِ، وَحَسَبِ قُرْبِهِ منهُ ومنـزلتِهِ عندَهُ، وهذا أَمْرٌ إِنَّمَا بَدَا منهُ لِمَنْ بَعْدَهُ ما يَرْشَحُ منْ ظاهرِ الوعَاءِ، ولهذا كانَ أقربَ الخلقِ إلى اللهِ وَسِيلَةً وَأَعظَمَهُم عندَهُ جَاهاً وأرفعَهُم عندَهُ منـزلةً؛ لتكميلِهِ مقامَ العبوديَّةِ والفقرِ إلى ربِّهِ عزَّ وجلَّ، وكانَ يقولُ لهم: «أَيُّهَا النَّاسُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْـزِلَتِي، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ».[(٤)] وكانَ يَقُولُ: «لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَت النَّصَارَى الْمَسِيحَ ابنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»[(٥)]).[(٦)]

---

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ١٣٣.

(٢) رواه التِّرْمِذِيُّ في كتابِ القَدَرِ / بابُ ما جاءَ أن القلوبَ بينَ أُصْبُعَي الرحمنِ (٢١٤٠) وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ الدعاءِ / بابُ دعاءِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ (٣٨٣٤) من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه.

(٣) كما في حديثِ النَّوَّاسِ بنِ سَمْعَانَ الكِلابِيِّ رضيَ اللهُ عنه الذي رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٧١٧٨).

(٤) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٣١٨٤) من حديثِ أنسٍ رضيَ اللهُ عنه.

(٥) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٦٥) والبُخارِيُّ في كتابِ أحاديثِ الأنبياءِ / بابُ قولِ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ الحديثُ (٣٤٤٥) من حديثِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنه.

(٦) طَرِيقُ الهجرتَيْنِ (٧ - ٩).

[الجَوَادُ]:

([اعْلَمْ -أَسْبَغَ اللهُ عليكَ نِعَمَهُ- أنَّ اللهَ] سبحانَهُ هوَ «**الجَوَادُ**» الذي لا يَنْقُصُ خزَائِنَهُ الإنفاقُ، ولا يُغِيضُ ما في يَمِينِهِ سَعَةُ عطائِهِ).(١)

([فـ]هُوَ «**الجَوَادُ الماجِدُ**» الذي لهُ الجودُ كلُّهُ، وجُودُ الخلائقِ في جَنْبِ جُودِهِ أقلُّ منْ ذرَّةٍ في جبالِ الدنيا ورِمَالِهَا).(٢)

(و[هوَ]... سبحانَهُ يُحِبُّ منْ عِبَادِهِ أنْ يُؤَمِّلُوهُ ويَرْجُوهُ ويَسْأَلُوهُ منْ فضلِهِ؛ لأنَّهُ **الملكُ الحقُّ الجَوَادُ**: أَجْوَدُ مَنْ سُئِلَ، وَأَوْسَعُ مَنْ أَعْطَى، وَأَحَبُّ ما إلى الجَوَادِ أنْ يُرْجَى وَيُؤَمَّلَ ويُسْأَلَ. وفي الحديثِ: «**مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ**»(٣). والسائلُ راجٍ وطالبٌ، فَمَنْ لمْ يَرْجُ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ).(٤)

(وَهُوَ الجَوَادُ فَجُودُهُ عَمَّ الوُجُو ... دَ جميعَهُ بالفضلِ والإحسانِ
وهوَ الجَـوَادُ فلا يُخَيِّبُ سائلاً ... ولـوَ انَّـهُ منْ أُمَّـةِ الكُفْرَانِ)(٥)

([فهوَ سبحانَهُ] أَجْوَدُ الأَجْوَدِينَ، وأكرَمُ الأَكْرَمِينَ، وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ... سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ، وَحِلْمُهُ عُقُوبَتَهُ، وعفوُهُ مُؤَاخذتَهُ... قدْ أَفَاضَ على خَلْقِهِ النعمةَ، وكَتَبَ على نفسِهِ الرحمةَ.

و... يُحِبُّ الإحسانَ والجُودَ والعطاءَ والبِرَّ. و... الفضلُ كلُّهُ بيدِهِ، والخيرُ كلُّهُ منهُ، والجودُ كلُّهُ لهُ، وَأَحَبُّ ما إليهِ: أنْ يَجُودَ على عبادِهِ ويُوسِعَهُم فضلاً،

---

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٢/ ٤٥٠).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٢٥٣).

(٣) رواهُ التِّرْمِذِيُّ في كتابِ الدعَوَاتِ الحديثُ (٣٣٧٣) وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ الدعاء/ بابُ فضلِ الدعاءِ (٣٨٢٧) من حديثِ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه.

(٤) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٢/ ٥٠).

(٥) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢٤٥).

وَيَغْمُرَهُم إحساناً وَجُوداً، وَيُتِمَّ عليهم نِعْمَتَهُ، وَيُضَاعِفَ لديهم مِنَّتَهُ، وَيَتَعَرَّفَ إليهم بأوصافِهِ وأسمائِهِ، وَيَتَحَبَّبَ إليهم بِنِعَمِهِ وآلائِهِ.

فهوَ الجوادُ لذاتِهِ، وجُودُ كلِّ جَوادٍ خلقَهُ اللهُ وَيَخْلُقُهُ أبداً أقلُّ منْ ذرَّةٍ بالقياسِ إلى جُودِهِ، فليسَ «الجوادُ» على الإطلاقِ إلاَّ هوَ، وجُودُ كلِّ جَوادٍ فَمِنْ جُودِهِ.

وَمَحَبَّتُهُ للجودِ والإعطاءِ والإحسانِ والبرِّ والإنعامِ والإفضالِ فوقَ ما يَخْطُرُ ببالِ الخلقِ أوْ يَدُورُ في أَوْهَامِهِم، وَفَرَحُهُ بعطائِهِ وَجُودِهِ وإفضالِهِ أَشَدُّ منْ فَرَحِ الآخذِ بما يُعْطَاهُ وَيَأْخُذُهُ أَحْوجَ ما هوَ إليهِ أَعْظَمَ ما كانَ قَدْراً، فإذا اجْتَمَعَ شِدَّةُ الحاجةِ وعِظَمُ قَدْرِ العطيَّةِ والنفعِ بها، فما الظَّنُّ بِفَرَحِ المُعْطَى؟!!

فَفَرَحُ المُعْطِي سُبْحَانَهُ بعطائِهِ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ منْ فرحِ هذا بما يَأْخُذُهُ -ولله المَثَلُ الأعلى- إذْ هذا شأنُ الجوَادِ من الخلقِ، فإنَّهُ يَحْصُلُ لهُ من الفرحِ والسرورِ والابتهاجِ واللَّذَّةِ بعطائِهِ وجُودِهِ فوقَ ما يَحْصُلُ لِمَنْ يُعْطِيهِ، ولكنَّ الآخِذَ غائبٌ بِلَذَّةِ أَخْذِهِ عنْ لذَّةِ المُعْطِي وابتهاجِهِ وسرورِهِ.

هذا معَ كمالِ حاجتِهِ إلى ما يُعْطِيهِ وَفَقْرِهِ إليهِ، وَعَدَمِ وُثُوقِهِ باستخلافِ مِثْلِهِ، وخوفِ الحاجةِ إليهِ عندَ ذهابِهِ، والتَّعَرُّضِ لِذُلِّ الاستعانةِ بنظيرِهِ وَمَنْ هوَ دونَهُ، وَنَفْسُهُ قدْ طُبِعَتْ على الحرصِ والشحِّ، فما الظنُّ بِمَنْ تقدَّسَ وَتَنَزَّهَ عنْ ذلكَ كُلِّهِ؟!

ولوْ أنَّ أَهْلَ سماواتِهِ وأرضِهِ وأوَّلَ خَلْقِهِ وَآخِرَهُم، وَإِنْسَهُم وجِنَّهُم، ورَطْبَهُم ويابِسَهُم، قَامُوا في صعيدٍ واحدٍ فَسَأَلُوهُ فَأَعْطَى كلَّ واحدٍ ما سَأَلَهُ؛ ما نقصَ ذلكَ مِمَّا عندَهُ مثقالَ ذرَّةٍ.

وهوَ الجوَادُ لذاتِهِ، كما أنَّهُ الحيُّ لذاتِهِ، العليمُ لذاتِهِ، السميعُ البصيرُ لذاتِهِ، فَجُودُهُ العالي منْ لَوَازِمِ ذاتِهِ، والعفوُ أَحَبُّ إليهِ من الانتقامِ، والرحمةُ أَحَبُّ إليهِ من العقوبةِ، والفضلُ أَحَبُّ إليهِ من العدلِ، والعطاءُ أَحَبُّ إليهِ من المنعِ.

فإذا تعرَّضَ عبدُهُ ومحبوبُهُ الذي خلقَهُ لِنفْسِهِ وأَعدَّ لهُ أنواعَ كرامتِهِ، وفضَّلهُ على غيرِهِ، وجعَلهُ محلَّ معْرِفتِهِ، وأنْزَلَ إليهِ كتابَهُ وأرسلَ إليهِ رسولَهُ، واعتنى بأمرِهِ، ولمْ يُهْمِلْهُ، ولمْ يترُكْهُ سُدًى، فتعرَّضَ لغضبِهِ، وارْتكَبَ مَساخِطَهُ وما يَكْرَهُهُ وأَبَقَ منهُ، ووالَى عدُوَّهُ وظاهَرَهُ عليهِ، وتحيَّزَ إليهِ، وقطَعَ طريقَ نِعمِهِ وإحسانِهِ إليهِ التي هيَ أحبُّ شيءٍ إليهِ، وفتَحَ طريقَ العقوبةِ والغضبِ والانتقامِ: فَقَد اسْتَدْعَى من الجوادِ الكريمِ خلافَ ما هوَ موصوفٌ بهِ من الجُودِ والإحسانِ والبرِّ، وتعرَّضَ لإغضابِهِ وإسخاطِهِ وانتقامِهِ، وأنْ يَصِيرَ غضَبُهُ وسَخطُهُ في موضعِ رِضَاهُ، وانتقامُهُ وعقوبتُهُ في موضعِ كرَمِهِ وبرِّهِ وعطائِهِ، فَاسْتَدْعَى بمعصيَتِهِ منْ أفعالِهِ ما سِواهُ أَحَبُّ إليهِ منهُ، وخلافَ ما هوَ منْ لَوازمِ ذاتِهِ من الجُودِ والإحسانِ.

فَبيْنَما هوَ حَبيبُهُ المُقَرَّبُ المخصوصُ بالكرامةِ إذ انْقلَبَ آبِقاً شَارِداً، رَادًّا لكرامتِهِ، مَائِلاً عنهُ إلى عَدُوِّهِ معَ شِدَّةِ حاجتِهِ إليهِ وعدمِ استغنائِهِ عنهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ.

فَبيْنَما ذلكَ الحبيبُ معَ العدوِّ في طاعتِهِ وخدمتِهِ، نَاسِياً لسَيِّدِهِ، مُنْهَمِكاً في مُوافَقةِ عدُوِّهِ؛ قد اسْتَدْعَى منْ سَيِّدِهِ خلافَ ما هوَ أهلُهُ: إذْ عرَضَتْ لهُ فكرةٌ، فَتذَكَّرَ برَّ سيِّدِهِ وعَطْفَهُ وجُودَهُ وكَرَمَهُ، وعَلِمَ أنَّهُ لا بُدَّ لهُ منهُ، وأنَّ مصيرَهُ إليهِ، وعَرْضَهُ عليهِ، وأنَّهُ إنْ لمْ يُقْدِمْ عليهِ بنفسِهِ قُدِمَ بهِ عليهِ على أَسْوَأِ الأحوالِ.

ففرَّ إلى سَيِّدِهِ منْ بلدِ عَدُوِّهِ، وجدَّ في الهربِ إليهِ حتَّى وَصَلَ إلى بابِهِ، فوضَعَ خدَّهُ على عَتبَةِ بابِهِ، وتوسَّدَ ثَرى أعتابِهِ، مُتذَلِّلاً مُتضَرِّعاً، خَاشِعاً بَاكِياً آسِفاً، يَتمَلَّقُ سيِّدَهُ، ويَسْتَرْحِمُهُ، ويَسْتَعْطِفُهُ، ويَعْتَذِرُ إليهِ، قدْ أَلْقَى بيَدِهِ إليهِ، واسْتَسْلَمَ لهُ وأعطاهُ قِيادَهُ، وأَلْقَى إليهِ زِمَامَهُ.

فَعَلِمَ سَيِّدُهُ ما في قلبِه، فَعَادَ مكانَ الغضبِ عليهِ رِضاً عنهُ، ومكانَ الشدَّةِ عليهِ رَحْمَةً بِهِ، وَأَبْدَلَهُ بالعقوبةِ عَفْواً، وبالمنعِ عطاءً، وبالمُؤَاخذَةِ حِلْماً. فَاسْتَدْعى بالتوبةِ والرجوعِ منْ سَيِّدِهِ ما هوَ أَهْلُهُ، وما هوَ مُوجَبُ أسمائِهِ الحُسْنَى وصفاتِهِ العُلْيَا.

فكيفَ يكونُ فَرَحُ سَيِّدِهِ بِهِ وقدْ عادَ إليهِ حَبيبُهُ وَوَلِيُّهُ طَوْعاً وَاخْتِيَاراً؟! وَرَاجَعَ ما يُحِبُّهُ سَيِّدُهُ منهُ بِرِضَاهُ، وَفَتَحَ طريقَ البرِّ والإحسانِ والجُودِ، التي هيَ أَحَبُّ إلى سَيِّدِهِ منْ طريقِ الغضبِ والانتقامِ والعقوبةِ؟!!

وهذا موضعُ الحكايَةِ المشهورةِ عنْ بعضِ العارِفِينَ: أَنَّهُ حَصَلَ لهُ شُرُودٌ وَإِبَاقٌ منْ سَيِّدِهِ، فَرَأَى في بعضِ السِّكَكِ بَاباً قدْ فُتِحَ، وَخَرَجَ منهُ صَبيٌّ يَسْتَغِيثُ وَيَبْكِي، وأُمُّهُ خَلْفَهُ تَطْرُدُهُ حتَّى خَرَجَ، فَأَغْلَقَت البابَ في وجهِهِ وَدَخَلَتْ. فَذَهَبَ الصَّبيُّ غَيْرَ بعيدٍ، ثُمَّ وَقَفَ مُفكِّراً، فلمْ يَجِدْ لهُ مَأْوَى غيرَ البيتِ الذي أُخْرِجَ منهُ، ولا مَنْ يُؤْوِيهِ غيرَ وَالِدَتِه، فَرَجَعَ مكسورَ القلبِ حَزيناً، فوجدَ البابَ مُرْتَجاً[1]، فَتوسَّدَهُ وَوَضَعَ خَدَّهُ على عتبةِ البابِ وَنَامَ، فَخَرَجَتْ أُمُّهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ على تلكَ الحالِ لمْ تَمْلِكْ أنْ رَمَتْ نَفْسَهَا عليهِ، وَالْتَزَمَتْهُ تُقَبِّلُهُ وَتَبْكِي وَتَقُولُ: يا وَلَدِي، أَيْنَ تَذْهَبُ عَنِّي؟ وَمَنْ يُئْوِيكَ سِوَايَ؟ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لا تُخَالِفْنِي، ولا تَحْمِلْنِي بِمَعْصِيَتِكَ لي على خلافِ ما جُبِلْتُ عليهِ من الرحمةِ بكَ، والشفقةِ عليكَ، وَإِرَادَتِي الخيرَ لكَ؟ ثُمَّ أَخَذَتْهُ وَدَخَلَتْ.

فتَأَمَّلْ قولَ الأمِّ: «لا تَحْمِلْنِي بِمَعْصِيَتِكَ لي على خلافِ ما جُبِلْتُ عليهِ من الرحمةِ والشفقةِ»، وتَأَمَّلْ قولَهُ صلى الله عليه وسلم: «**للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا**»[2]، وَأَيْنَ تَقَعُ رَحْمَةُ الْوَالِدَةِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ؟!!

---

(١) أي مُغْلَقاً.

(٢) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٤٨٣.

فإذا أَغْضَبَهُ العبدُ بِمَعْصِيَتِهِ فقد اسْتَدْعَى منهُ صَرْفَ تلكَ الرحمةِ عنهُ، فإذا تَابَ إليهِ فقد اسْتَدْعَى منهُ ما هوَ أهلُهُ وأَوْلَى بهِ.

فهذهِ نُبْذَةٌ يَسِيرَةٌ تُطْلِعُكَ على سِرِّ فَرَحِ اللهِ بتوبةِ عبدِهِ أعظمَ منْ فَرَحِ هذا الواجدِ لراحلتِهِ في الأرضِ المهلكةِ بعدَ اليأْسِ منها، وَوَرَاءَ هذا ما تَجْفُو عنهُ العبارةُ، وَتَدِقُّ عنْ إدراكِهِ الأذهانُ.

وإيَّاكَ وطريقةَ التعطيلِ والتمثيلِ؛ فإنَّ كلاًّ منهما مَنْزِلٌ ذَمِيمٌ، وَمَرْتَعٌ على عِلاَّتِهِ وَخِيمٌ، ولا يَحِلُّ لأحدِهِمَا أنْ يَجِدَ رَوَائِحَ هذا الأمرِ ونَفَسَهُ؛ لأنَّ زُكَامَ التعطيلِ والتمثيلِ مُفْسِدٌ لحاسَّةِ الشَّمِّ كما هوَ مُفْسِدٌ لحاسَّةِ الذوقِ، فلا يَذُوقُ طعمَ الإيمانِ، ولا يَجِدُ رِيحَهُ.

والمحرومُ كلُّ المحرومِ مَنْ عُرِضَ عليهِ الغِنَى والخيرُ فلمْ يَقْبَلْهُ، فلا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى اللهُ، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، والفضلُ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، واللهُ ذُو الفضلِ العظيمِ).[1]

[الأَكْرَمُ]:

(«الأَكْرَمُ» الذي فيهِ كلُّ خيرٍ وكلُّ كمالٍ، فلهُ كلُّ كمالٍ وَصْفاً، ومنهُ كلُّ خيرٍ فِعْلاً، فهوَ الأَكْرَمُ في ذاتِهِ وأوصافِهِ وأفعالِهِ).[2]

([و] **«الأكرمُ»**... هوَ الأفعلُ من الكرمِ، وهوَ: كثرةُ الخيرِ، ولا أَحَدَ أَوْلَى بذلكَ منهُ سبحانَهُ؛ فإنَّ الخيرَ كُلَّهُ بيَدَيْهِ، والخيرَ كُلَّهُ منهُ، والنِّعَمَ كُلَّهَا هو مَوْلاهَا، والكمالَ كُلَّهُ وَالمَجْدَ كُلَّهُ لهُ، فهوَ الأَكْرَمُ حقًّا).[3]

---

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٢٢٧-٢٣٠).

(٢) مفتاحُ دارِ السعادةِ (٢/ ٢٤١).

(٣) مفتاحُ دارِ السعادةِ (١/ ٢٤٢).

(و[لْيَعْرِف] العبدُ كَرَمَ ربِّهِ في قَبُولِ العُذْرِ منهُ إذا اعْتَذَرَ إليهِ... فَيَقْبَلُ عُذْرَهُ بكرمِهِ وَجُودِهِ، فيُوجِبُ لهُ ذلكَ اشْتِغَالاً بِذِكْرِهِ وشُكْرِهِ، وَمَحَبَّةً أُخْرَى لمْ تكُنْ حاصلةً لهُ قبلَ ذلكَ؛ فإنَّ مَحَبَّتَكَ لِمَنْ شَكَرَكَ على إحسانِكَ وَجازَاكَ بِهِ، ثُمَّ غَفَرَ لكَ إساءَتَكَ، ولمْ يُؤَاخِذْكَ بها: أَضْعافُ مَحَبَّتِكَ على شُكْرِ الإحسانِ وَحْدَهُ، والواقعُ شاهدٌ بذلكَ؛ فعبوديَّةُ التوبةِ بعدَ الذنبِ لونٌ، وهذا لونٌ آخَرُ). [1]

[الجَمِيلُ]:

([اللهُ] سبحانَهُ [هوَ] «الجميلُ» الذي لا أَجْمَلَ منهُ، بلْ لوْ كانَ جمالُ الخلقِ كلِّهم على رجلٍ واحدٍ منهم، وكانوا جَمِيعُهُم بذلكَ الجمالِ لَمَا كانَ لِجَمالِهِم قطُّ نِسْبَةٌ إلى جمالِ اللهِ، بلْ كانت النسبةُ أَقَلَّ منْ نسبةِ سراجٍ ضعيفٍ إلى حِذاءِ جِرْمِ الشمسِ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

وقدْ رَوَى عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولَهُ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ» عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرِو بنِ العاصِ [2]، وأبو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ [3]، وعبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ [4]، وعبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ [5]، وثابتُ بنُ قَيسٍ [6]، وأبو الدَّرْدَاءِ [7]،

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٢٢٣).

(٢) رواه الحاكمُ في المستدرَكِ (١/ ٢٦) في كتابِ الإيمانِ بهذا اللفظِ، وأصلُه في مُسنَدِ الإمامِ أحمدَ (٦٥٤٧) بدونِ هذه الجملةِ.

(٣) رواه أَبُو يَعْلَى في مُسنده (٢/ ١٧) الحديثُ (١٠٥٠).

(٤) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٣٧٧٩) ومسلمٌ في كتابِ الإيمانِ / بابُ تحريم الكِبْرِ وبيانُه (٢٦١)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ البرِّ والصلةِ / بابُ ما جاءَ في الكِبْرِ (١٩٩٩)، والحاكمُ في المُستدرَكِ (٤/ ١٨١) في كتابِ اللباسِ، وأبو عَوَانَةَ في المُستخرَجِ (١/ ٣١، ٣٩).

(٥) رواه الطَّبَرَانِيُّ في الأوسطِ (٥/ ٣٣٩) الحديثُ (٤٦٦٥).

(٦) رواه ابنُ حِبَّانَ في صحيحِه (٧٠٥٣).

(٧) بَحَثْتُ عَنْهُ فَلَمْ أَجِدْهُ.

وأبو هُرَيْرَةَ(١)، وأبو رَيْحَانَةَ(٢) رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

ومِنْ أَسْمَائِهِ الحُسْنَى: «الجميلُ»، وَمَنْ أَحَقُّ بالجمالِ مِمَّنْ كُلُّ جمالٍ في الوجودِ فهوَ منْ آثارِ صُنْعِهِ؟ فَلَهُ:

- جمالُ الذاتِ.
- وجمالُ الأوصافِ.
- وجمالُ الأفعالِ.
- وجمالُ الأسماءِ.

فأسماؤُهُ كُلُّهَا حُسْنَى، وصفاتُهُ كُلُّهَا كمالٌ، وأفعالُهُ كلُّهَا جميلةٌ، فلا يَسْتَطِيعُ بَشَرٌ النظرَ إلى جلالِهِ وجمالِهِ في هذهِ الدارِ، فإذا رَأَوْهُ سبحانَهُ في جنَّاتِ عدنٍ أَنْسَتْهُم رُؤْيَتُهُ ما هُمْ فيهِ من النعيمِ، فلا يَلْتَفِتُونَ حينئذٍ إلى شيءٍ غيرِهِ.

ولوْلا حِجَابُ النورِ على وَجْهِهِ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى ما انْتَهَى إليهِ بَصَرُهُ منْ خلقِهِ، كما في صحيحِ البخاريِّ منْ حديثِ أبي موسَى رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: قامَ فِينَا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخمسِ كلماتٍ

---

(١) رواه أبو داودَ في كتابِ اللباسِ / بابُ ما جاءَ في الكِبْرِ (٤٠٨٦) وفيه أصلُ القصةِ دُونَ قولِه: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ».

(٢) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٦٧٥٦)

ورُوِيَ الحديثُ مِن رِوايَةِ:

- جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهما، كما عند الطبرانيِّ في الأوسطِ (٧/ ٤٥٩) الحديثُ (٦٩٠٢).
- وعُقْبَةَ بنِ عامرٍ، كما عند الإمامِ أحمدَ في مُسندِهِ (١٦٩١٨١). وفيه شَهْرُ بنُ حَوْشَبٍ ورجلٌ مجهولٌ.
- ويَحْيَى بنِ جَعْدَةَ، كما في الزهدِ لهنَّادٍ (٢/ ٤٢١) من حديثِ أبي مُعاوِيَةَ عن حجاجِ بنِ أَرْطَأَةَ، عن حبيبِ بنِ أبي ثابتٍ، عن يَحْيَى بنِ جَعْدَةَ مُرْسَلاً، ووَصَلَهُ الطبرانيُّ في الكبيرِ (١٠/ ٢٢١) عن ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه.
- أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ عند الطبرانيِّ في الكبيرِ (٨/ ٢٠٣، ٢٤٥)، قال الهَيْثَمِيُّ في المَجْمَعِ (٢/ ٢١٤): وفيه عُبَيْدُ اللهِ بنُ زَحْرٍ، عن عليِّ بنِ يَزِيدَ، وكلاهما ضعيفٌ.

فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ لا يَنَامُ وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»(١)...

وفي الصحيحَيْنِ منْ حديثِ أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ في اسْتِفْتَاحِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قيامَ الليلِ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ»(٢).

وفي سُنَنِ ابنِ مَاجَهْ وَحَرْبٍ الكِرْمَانِيِّ منْ حديثِ الفضلِ بنِ عيسى الرَّقَاشِيِّ عنْ مُحَمَّدِ بنِ الْمُنْكَدِرِ، عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ فَرَفَعُوا رُءُوسَهُمْ، فَإِذَا الرَّبُّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ فَيَقُولُ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨]، فَيَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلا يَلْتَفِتُونَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ النَّعِيمِ حَتَّى يَحْتَجِبَ عَنْهُمْ، فَيَبْقَى نُورُهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى دِيَارِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ»(٣). لَفْظُ حَدِيثِ حَرْبٍ.

فما ظَنُّ الْمُحِبِّينَ بِلَذَّةِ النظرِ إلى وجهِهِ الكريمِ في جنَّاتِ النعيمِ؟!!

---

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه صفحة ٨٦.

(٢) الحديثُ من روايةِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما، رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٢٧٠٥) والبُخارِيُّ في كتابِ التهجدِ / بابُ التهجدِ بالليلِ (١١٢٠) ومواضعَ أُخَرَ، ومسلمٌ في كتابِ صلاةِ المسافرينَ / بابُ الدعاءِ في صلاةِ الليلِ وقيامِه (١٨٠٥)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الدعواتِ / بابُ ما يقولُ إذا قامَ مِنَ الليلِ إلى الصلاةِ (٣٤١٨)، والنَّسَائِيُّ في كتابِ قيامِ الليلِ / بابُ ذكرِ ما يُسْتَفْتَحُ به القيامُ (١٦١٨)، وأبو داودَ في كتابِ الصلاةِ / بابُ ما يُستفتَحُ به الصلاةُ من الدعاءِ (٧٦٦)، وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ إقامةِ الصلاةِ / بابُ ما جاءَ في الدعاءِ إذا قامَ الرجُلُ من الليلِ (١٣٥٥).

(٣) رواه ابْن مَاجَهْ في الْمُقَدِّمَةِ / بابٌ فِيمَا أَنْكَرَتِ الجَهْمِيَّةُ (١٨٤).

وقدْ كانَ منْ دُعاءِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلى وَجْهِكَ، والشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ». [1] ذَكَرَهُ الإمامُ أحمدُ والنَّسائِيُّ وابنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ...

قالَ هشامُ بنُ حَسَّانَ عن الحَسَنِ: إذا نَظَرَ أهلُ الجنَّةِ إلى اللهِ تَعَالَى نَسُوا نَعِيمَ الجنَّةِ ...

وفي الصحيحَيْنِ منْ حديثِ أبي موسَى رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ؛ آنِيَتُهُمَا وَحِلْيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَحِلْيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلاَّ رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»[2]). [3]

(وهوَ الجميلُ على الحقيقةِ كيفَ لا ... وجمالُ سائرِ هذهِ الأكوانِ
مِنْ بعضِ آثارِ الجميلِ فَرَبُّهَا ... أَوْلَى وأَجْدَرُ عندَ ذِي العرفانِ
فجمالُهُ بالذاتِ والأوصافِ والـ ... أَفْعَالِ والأسماءِ بالبرهانِ
لا شَيْءَ يُشْبِهُ ذَاتَهُ وصفاتِهِ ... سُبْحَانَهُ عنْ إِفْكِ ذِي البُهْتَانِ)[4]

(فمِنَ المعلومِ أنَّهُ... لا شَيْءَ أَكْمَلُ مِنْهُ [سبحانَهُ وتَعالَى]، ولا أَجْمَلُ، فكلُّ كمالٍ وجمالٍ في المخلوقِ منْ آثارِ صنعِهِ سبحانَهُ وتَعالَى. وهوَ الذي لا يُحَدُّ كمالُهُ، ولا يُوصَفُ جلالُهُ وجمالُهُ، ولا يُحْصِي أحدٌ منْ خلقِهِ ثناءً عليهِ بجميلِ صفاتِهِ وعظيمِ إحسانِهِ وبديعِ أفعالِهِ). [5]

---

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ١٢٦.

(٢) رواه البُخاريُّ في كتابِ التوحيدِ / بابُ قولِ اللهِ تعالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ الحديثُ (٧٤٤٤) ومسلمٌ في كتابِ الإيمانِ / بابُ إثباتِ رؤيةِ المؤمنينَ في الآخرةِ رَبَّهُمْ سبحانَهُ وتعالَى (٤٤٧) وابْنُ مَاجَه في المقدِّمَةِ / بابٌ فيما أَنْكَرَتِ الجَهْمِيَّةُ (١٨٦) والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ صفةِ الجنةِ / بابُ ما جاءَ في صفةِ غُرَفِ الجنةِ (٢٥٢٨) والإمامُ أحمدُ في مسندِه (١٩١٨٣).

(٣) روضةُ المحبينَ (٤٢٠-٤٢٤).

(٤) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢٤٠).

(٥) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (٣٢٤-٣٢٥).

[فَصْلٌ: في بيانِ أنَّ مِنْ أَعَزِّ أنواعِ المعرفةِ معرفةَ جمالِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ]

(مِنْ أعزِّ أنواعِ المعرفةِ معرفةُ الربِّ سبحانَهُ بالجمالِ، وهيَ معرفةُ خواصِّ الخلقِ، وكلُّهم عَرَفَهُ بصفةٍ منْ صفاتِهِ، وأَتَمُّهم معرفةً مَنْ عَرَفَهُ بكمالِهِ وجلالِهِ وجمالِهِ سبحانَهُ، ليسَ كمثلِهِ شيءٌ في سائرِ صفاتِهِ، ولوْ فَرَضْتَ الخلقَ كلَّهُم على أجملِهِم صورةً وكُلُّهُم على تلكَ الصورةِ، وَنَسَبْتَ جمالَهُم الظاهرَ والباطنَ إلى جمالِ الربِّ سبحانَهُ لكانَ أقلَّ منْ نسبةِ سراجٍ ضعيفٍ إلى قُرْصِ الشمسِ.

- ويَكْفِي في جمالِهِ: أنَّهُ لوْ كَشَفَ الحجابَ عنْ وجهِهِ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُهُ ما انْتَهى إليهِ بَصَرُهُ منْ خلقِهِ.

- وَيَكْفِي في جمالِهِ: أنَّ كلَّ جمالٍ ظاهرٍ وباطنٍ في الدنيا والآخرةِ فَمِنْ آثارِ صَنْعَتِهِ؛ فما الظنُّ بِمَنْ صَدَرَ عنهُ هذا الجمالُ؟!!

وقال رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في "شفاءِ العليلِ" (١/ ٢٧٩): (ثم يَشهَدُه في علمِه فوقَ كلِّ عليم، وفي قدرتِه فوقَ كلِّ قديرٍ، وفي جُودِه فوقَ كلِّ جوَّادٍ، وفي رحمتِه فوقَ كلِّ رحيم، وفي جَمالِه فوقَ كلِّ جَميلٍ، حتى لو كانَ جمالُ الخلائقِ كلِّهم على شخصٍ واحدٍ منهم ثم أُعطِيَ الخلقُ كُلُّهم مثلَ ذلك الجمالِ لَكانت نِسبتُه إلى جمالِ الربِّ سبحانَهُ دُونَهُ نِسبةَ سراجٍ ضعيفٍ إلى ضوءِ الشمسِ).

وقال أيضًا في "الصواعِقِ المُرسلَةِ" (٣/ ١٠٨٢): (فللهِ سبحانَهُ كلُّ صفةِ كمالٍ وهو موصوفٌ بتلك الصفاتِ كُلِّها، ونَذْكُرُ من ذلك صفةً واحدةً تُعتبَرُ بها سائرُ الصفاتِ، وهو أنك لو فَرَضْتَ جمالَ الخلقِ كُلِّهم من أولِهم إلى آخرِهم اجتمَعَ لشخصٍ واحدٍ منهُم ثم كانَ الخلقُ كُلُّهم على جمالِ ذلك الشخصِ لكان نِسبتُه إلى جَمالِ الربِّ تبارَكَ وتعالَى دُونَ نِسبَةِ سراجٍ ضعيفٍ إلى جِرْمِ الشمسِ وكذلك قُوَّتُه سبحانَهُ وعِلمُه وسَمْعُه وبَصَرُه).

وقال أيضًا في "مَدارجِ السَّالكِينَ" (٣/ ٢٦٩): (فإن القلوبَ مَفطورةٌ على حبِّ الجمالِ والإجمالِ. واللهُ سبحانَهُ جَميلٌ. بل له الجمالُ التامُّ الكاملُ من جميعِ الوجوهِ؛ جمالُ الذاتِ، وجمالُ الصفاتِ، وجمالُ الأفعالِ، وجمالُ الأسماءِ، وإذا جُمِعَ جمالُ المخلوقاتِ كُلِّه على شخصٍ واحدٍ، ثم كانت جَميعُها على جمالِ ذلك الشخصِ، ثم نُسِبَ هذا الجمالُ إلى جمالِ الربِّ تَبارَكَ وتَعالَى: كانَ أقلَّ مِن نِسبةِ سراجٍ ضعيفٍ إلى عينِ الشمسِ).

- **وَيَكْفِي في جمالِهِ** أَنَّهُ لهُ العِزَّةُ جَمِيعاً، والقوَّةُ جميعاً، والجُودُ كُلُّهُ، والإحسانُ كلُّهُ، والعلمُ كُلُّهُ، والفضلُ كُلُّهُ، ولِنورِ وجهِهِ أَشْرَقَت الظلماتُ، كما قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعاءِ الطائفِ: «**أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**»[(١)].

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ: ليسَ عندَ ربِّكُم ليلٌ ولا نهارٌ، نورُ السَّماواتِ والأرضِ من نُورِ وجْهِهِ.

فهوَ سبحانَهُ نورُ السَّماواتِ والأرضِ، ويومَ القيامةِ إذا جاءَ لفَصْلِ القضاءِ تُشْرِقُ الأرضُ بنورِهِ.

---

(١) قَالَ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السِّلْسِلَةِ الضَّعِيفَةِ»: (ضَعِيفٌ: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْمُعْجَمِ الْكَبِيرِ» (١٣/ ٧٣/ ١٨١)، وَعَنْهُ الضِّيَاءُ فِي الْمُخْتَارَةِ (٥٦/ ١٢٨/ ١-٢)، وَابْنُ عَدِيٍّ (٢٨٤/ ٢)، وَعَنْهُ ابْنُ عَسَاكِرَ (١٤/ ١٧٨/ ٢): حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ بْنُ اللَّيْثِ الرَّاسِبِيُّ - أَمْلَاهُ عَلَيْنَا حِفْظًا - قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي صَفْوَانَ الثَّقَفِيُّ إِمْلَاءً قَالَ: حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو طَالِبٍ خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الطَّائِفِ مَاشِيًا عَلَى قَدَمَيْهِ، قَالَ: فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَلَمْ يُجِيبُوهُ، قَالَ فَانْصَرَفَ، فَأَتَى ظِلَّ شَجَرَةٍ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ: فَذَكَرَهُ. وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ: (هَذَا حَدِيثُ أَبِي صَالِحٍ الرَّاسِبِيِّ، لَمْ نَسْمَعْ أَنَّ أَحَدًا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ غَيْرُهُ، وَلَمْ نَكْتُبْهُ إِلَّا عَنْهُ).

قُلْتُ: كَذَا فِي نُسْخَتِنَا مِنِ ابْنِ عَدِيٍّ (الرَّاسِبِيِّ)، وَفِي «التَّارِيخِ»: (الرَّاسِنِيُّ)، وَفِي «التَّهْذِيبِ» وَغَيْرِهِ: (الرَّسْعَنِيُّ، وَكَذَا فِي الطَّبَرَانِيِّ) وَلَعَلَّهُ الصَّوَابُ. وَمِنْ طَرِيقِ الْقَاسِمِ هَذَا رَوَاهُ - بَلْ رَوَى بَعْضَهُ - ابْنُ مَنْدَهْ فِي «التَّوْحِيدِ» (٧٩/ ١) وَقَالَ: مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانَ بْنُ أَبِي صَفْوَانَ.

قُلْتُ: وَهَذَا إِسْنَادٌ ضَعِيفٌ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ، وَعِلَّتُهُ عَنْعَنَةُ ابْنِ إِسْحَاقَ عِنْدَ الْجَمِيعِ؛ وَهُوَ مُدَلِّسٌ، وَلَمْ يَسُقْ إِسْنَادَهُ فِي «السِّيرَةِ» وَإِنَّمَا قَالَ (٢/ ٦١): (فَلَمَّا اطْمَأَنَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ - فِيمَا ذُكِرَ لِي -: «**اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو...**»).

وَالْحَدِيثُ قَالَ فِي «الْمَجْمَعِ» (٦/ ٣٥): (رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَفِيهِ ابْنُ إِسْحَاقَ وَهُوَ مُدَلِّسٌ ثِقَةٌ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ) مِنْ طَرِيقِ ابْنِ إِسْحَاقَ مُعَنْعَنًا أَخْرَجَهُ أَيْضًا الْأَصْبَهَانِيُّ فِي «الْحُجَّةِ» (ق ١٦٦/ ٢)، وَالرَّافِعِيُّ فِي «تَارِيخِ قَزْوِينَ» (٢/ ٨٢).

ومِنْ أسمائِهِ الحُسْنَى «**الجميلُ**»، وفي الصحيحِ عنهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**».[1]

وجمالُهُ سُبْحَانَهُ على أَرْبَعِ مَرَاتِبَ:

- **جمالِ الذاتِ.**
- **وجمالِ الصِّفَاتِ.**
- **وجمالِ الأفعالِ.**
- **وجمالِ الأسماءِ.**

فأسماؤُهُ كُلُّهَا حُسْنَى، وصفاتُهُ كُلُّهَا صفاتُ كمالٍ، وأفعالُهُ كُلُّهَا حكمةٌ ومصلحةٌ وعدلٌ ورحمةٌ.

وأمَّا جمالُ الذاتِ وما هوَ عليهِ فَأَمْرٌ لا يُدْرِكُهُ سِوَاهُ، ولا يَعْلَمُهُ غيرُهُ، وليسَ عندَ المَخْلُوقِينَ منهُ إلاَّ تعريفاتٌ تَعَرَّفَ بها إلى مَنْ أَكْرَمَهُ منْ عبادِهِ؛ فإنَّ ذلكَ الجمالَ مَصُونٌ عن الأَغْيَارِ، محجوبٌ بِسترِ الرداءِ والإزارِ، كما قالَ رسولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يَحْكِي عنهُ: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي**»[2]، وَلَمَّا كانت الكبرياءُ أَعْظَمَ وأَوْسَعَ كَانَتْ أحقَّ باسمِ الرداءِ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ الكبيرُ المتعالُ، فهوَ سبحانَهُ العليُّ العظيمُ.

قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: حَجَبَ الذاتَ بالصِّفَاتِ، وَحَجَبَ الصِّفَاتِ بالأفعالِ، فما ظَنُّكَ بجمالٍ حُجِبَ بأوصافِ الكمالِ، وَسُتِرَ بِنُعُوتِ العظمةِ والجلالِ؟!!

ومنْ هذا المعنَى يُفْهَمُ بعضُ معاني جمالِ ذاتِهِ؛ فإنَّ العبدَ يَتَرَقَّى منْ معرفةِ الأفعالِ إلى معرفةِ الصِّفَاتِ، ومنْ معرفةِ الصِّفَاتِ إلى معرفةِ الذاتِ، فإذا

---

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٥٥٧، ٥٥٨.

(٢) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٨٦.

شاهَدَ شيئاً منْ جمالِ الأفعالِ اسْتَدَلَّ بهِ على جمالِ الصِّفَاتِ، ثُمَّ اسْتَدَلَّ بجمالِ الصِّفَاتِ على جمالِ الذاتِ.

ومِنْ هَهُنَا يَتبَيَّنُ أَنَّهُ سبحانَهُ لهُ الحمدُ كلُّهُ، وأنَّ أحداً منْ خلقِهِ لا يُحْصِي ثناءً عليهِ، بلْ هوَ كما أَثْنَى على نفسِهِ، وأنَّهُ يَسْتَحِقُّ أنْ يُعْبَدَ لذاتِهِ، وَيُحَبَّ لذاتِهِ، وَيُشْكَرَ لذاتِهِ، وأنَّهُ سبحانَهُ يُحِبُّ نفسَهُ، وَيُثْنِي على نفسِهِ، وَيَحْمَدُ نَفْسَهُ، وأنَّ مَحبَّتَهُ لِنَفْسِهِ وحمدَهُ لنفسِهِ وثناءَهُ على نفسِهِ وتوحيدَهُ لنفسِهِ هوَ في الحقيقةِ الحمدُ والثناءُ والحبُّ والتوحيدُ؛ فهوَ سبحانَهُ كما أَثْنَى على نفسِهِ، وفوقَ ما يُثْنِي بهِ عليهِ خَلْقُهُ.

وهوَ سبحانَهُ كما يُحِبُّ ذاتَهُ يُحِبُّ صفاتِهِ وأفعالَهُ، فكلُّ أفعالِهِ حسنٌ محبوبٌ، وإنْ كانَ في مفعولاتِهِ [مخلوقاتِهِ] ما يُبْغِضُهُ وَيَكْرَهُهُ، فليسَ في أفعالِهِ ما هوَ مكروهٌ مسخوطٌ، وليسَ في الوجودِ ما يُحَبُّ لذاتِهِ ويُحْمَدُ لذاتِهِ إلاَّ هوَ سبحانَهُ.

وكلُّ ما يُحَبُّ سِواهُ: فإنْ كانتْ مَحَبَّتُهُ تابعةً لمَحبَّتِهِ سبحانَهُ بحيثُ يُحَبُّ لأجلِهِ، فَمَحَبَّتُهُ صحيحةٌ، وإلاَّ فهيَ مَحَبَّةٌ باطلةٌ.

وهذا هوَ حقيقةُ الإلهيَّةِ؛ فإنَّ الإلهَ الحقَّ هوَ الذي يُحَبُّ لذاتِهِ ويُحْمَدُ لذاتِهِ، فكيفَ إذا انْضَافَ إلى ذلكَ إحسانُهُ وإنعامُهُ وحِلْمُهُ وتجاوزُهُ وعفوُهُ وبِرُّهُ ورحمتُهُ؟!!

فعلى العبدِ أنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ لا إلهَ إلاَّ اللهُ، فَيُحِبُّهُ وَيَحْمَدُهُ لذاتِهِ وكمالِهِ، وأنْ يَعْلَمَ أنَّهُ لا مُحْسِنَ على الحقيقةِ بأصنافِ النِّعَمِ الظاهرةِ والباطنةِ إلاَّ هوَ، فَيُحِبُّهُ لإحسانِهِ وإنعامِهِ، ويَحْمَدُهُ على ذلكَ، فَيُحِبُّهُ مِن الوجهَيْنِ جميعاً.

وكما أَنَّهُ ليسَ كمثلِهِ شيءٌ، فليسَ كَمَحبَّتِهِ مَحبَّةٌ، والمَحبَّةُ معَ الخضوعِ هيَ العبوديَّةُ التي خُلِقَ الخلقُ لأَجلِهَا، فإنَّهَا غايةُ الحبِّ بغايةِ الذلِّ، ولا يَصْلُحُ ذلكَ إلاَّ لهُ سبحانَهُ، والإشراكُ بهِ في هذا هوَ الشركُ الذي لا يَغْفِرُهُ اللهُ، ولا يَقْبَلُ لصاحبِهِ عملاً.

وحمدُهُ يَتضَمَّنُ أَصْلَيْنِ:

- الإخبارَ بمحامدِهِ وصفاتِ كمالِهِ.
- والمَحبَّةَ لهُ عليها.

فمَنْ أَخْبَرَ بمحاسنِ غيرِهِ منْ غيرِ محَبَّةٍ لهُ لمْ يكُنْ حامِداً، وَمَنْ أحبَّهُ منْ غيرِ إخبارٍ بمَحَاسِنِهِ لمْ يكُنْ حَامِداً حتَّى يجْمَعَ الأمرَيْنِ.

وهوَ سُبْحانَهُ يَحْمَدُ نفسَهُ بنفسِهِ، ويَحْمَدُ نَفْسَهُ بما يُجْرِيهِ على أَلْسِنَةِ الحامِدِينَ لهُ منْ ملائكتِهِ وأنبيائِهِ وَرُسُلِهِ وعِبَادِهِ المؤمنينَ، فهوَ الحامدُ لنفسِهِ بهذا وهذا، فإنَّ حَمْدَهُم لهُ بمشيئتِهِ وإذْنِهِ وتكوينِهِ، فإنَّهُ هوَ الذي جَعَلَ الحامِدَ حامداً، والمسلمَ مسلماً، والمُصَلِّيَ مُصَلِّياً، والتائبَ تائباً؛ فمنهُ ابْتَدَأَت النِّعَمُ وإليهِ انْتَهَتْ، فَابْتَدَأَتْ بحمدِهِ وانْتَهَتْ إلى حمدِهِ، وهوَ الذي أَلْهَمَ عبدَهُ التوبةَ، وَفَرِحَ بها أعظمَ فَرَحٍ، وهيَ منْ فضلِهِ وجُودِهِ، وَأَلْهَمَ عبدَهُ الطاعةَ، وَأَعَانَهُ عليها، ثُمَّ أَثَابَهُ عليها، وهيَ منْ فضلِهِ وَجُودِهِ.

وهوَ سبحانَهُ غَنِيٌّ عنْ كلِّ ما سِواهُ بكلِّ وجهٍ، وما سِواهُ فقيرٌ إليهِ بكلِّ وجهٍ، والعبدُ مُفْتَقِرٌ إليهِ لذاتِهِ في الأسبابِ والغاياتِ، فإنَّ ما لا يكونُ بهِ لا يكونُ، وما لا يكونُ لهُ لا يَنْفَعُ.

[فَصْلٌ]

وقولُهُ في الحديثِ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ»[1] يَتَنَاوَلُ جمالَ الثيابِ المسؤُولَ عنهُ في نفسِ الحديثِ، وَيَدْخُلُ فيهِ بطريقِ العمومِ الجمالُ منْ كلِّ شيءٍ كما في الحديثِ الآخرِ: «إِنَّ اللهَ نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ».[2] وفي الصحيحِ: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٥٥٧، ٥٥٨.

(٢) رواهُ التِّرْمِذِيُّ في كتابِ الأدبِ / بابُ ما جاءَ في النَّظافَةِ (٢٧٩٩)، وفيه خالدُ بنُ إلياسَ، ويقالُ: إياسٍ، قال فيه أحمدُ بنُ حنبلٍ: متروكُ الحديثِ، وقال يَحْيَى بنُ مَعِينٍ: ليس بشيءٍ.

لا يَقْبَلُ إلاَّ طَيِّباً».[(١)] وفي السُّنَنِ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ**».[(٢)] وفيها عنْ أبي الأَحْوصِ الجُشَمِيِّ قالَ: رَآنِي النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليَّ أَطْمَارٌ فقالَ: «**هَلْ لَكَ مِنْ مَالٍ؟**» قُلْتُ: نَعَمْ، قالَ: «**مِنْ أَيِّ المَالِ؟**» قُلْتُ: مِنْ كُلِّ مَا آتى اللهُ مِنَ الإِبِلِ وَالشَّاءِ، قالَ: «**فَلْتُرَ نِعْمَتُهُ وَكَرَامَتُهُ عَلَيْكَ**».[(٣)]

فهوَ سبحانَهُ يُحِبُّ ظُهُورَ أثرِ نعمتِهِ على عبدِهِ؛ فإنَّهُ من الجمالِ الذي يُحِبُّهُ، وذلكَ منْ شُكْرِهِ على نِعَمِهِ، وهوَ جمالٌ باطِنٌ، فَيُحِبُّ أنْ يُرى على عبدِهِ الجمالُ الظاهرُ بالنعمةِ، والجمالُ الباطنُ بالشُّكْرِ عليها.

وَلِمَحَبَّتِهِ سبحانَهُ للجمالِ أَنْزَلَ على عبادِهِ لباساً وزينةً تُجَمِّلُ ظَوَاهِرَهُم، وَتَقْوى تُجَمِّلُ بَوَاطِنَهُم، فقالَ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقالَ في أهلِ الجنَّةِ: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ۝١٢﴾ [الإنسان: ١١-١٢]، فَجَمَّلَ وُجُوهَهُم بالنضرةِ، وبواطِنَهُم بالسرورِ، وأبدانَهُم بالحريرِ.

وهوَ سبحانَهُ كما يُحِبُّ الجمالَ في الأقوالِ والأفعالِ واللباسِ والهيئةِ، يُبْغِضُ القبيحَ من الأقوالِ والأفعالِ والثيابِ والهيئةِ، فَيُبْغِضُ القُبْحَ وأهلَهُ، ويُحِبُّ الجمالَ وأهلَهُ.

والحديثُ قال فيه التِّرْمِذِيُّ: حديثٌ غريبٌ، وخالدُ بنُ إلياسَ يُضَعَّفُ، ويقالُ: ابنُ إياسٍ.

(١) رواهُ مُسلمٌ في كتابِ الزكاةِ / بابُ قَبولِ الصدقةِ مِن الكَسْبِ الطيِّبِ (٢٣٤٣)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ تفسيرِ القرآنِ / بابٌ «ومِن سُورةِ البَقَرةِ» (٢٩٨٩)، ورَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٨١٤٨) من حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٢) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٦٦٦٩)، والتِّرْمِذِيُّ في كتابِ الأدبِ / بابُ ما جاءَ إنَّ اللهَ تعالَى يُحِبُّ أن يَرَى أَثَرَ نِعْمَتَهُ على عَبْدِه (٢٨١٩) من حديثِ عَمرِو بنِ شُعَيْبٍ، عن أبيه، عن جَدِّه.

(٣) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١٥٤٥٧) والنَّسائيُّ في كتابِ الزينةِ / بابُ الجلاجِلِ (٥٢٣٩) وأبو داودَ في كتابِ اللباسِ / بابٌ في غَسْلِ الثوبِ وفي الخُلْقَانِ (٤٠٥٧).

ولكنْ ضَلَّ في هذا الموضوعِ فَرِيقَانِ: فريقٌ قالُوا: كلُّ ما خَلَقَهُ جميلٌ، فهوَ يُحِبُّ كلَّ ما خَلَقَهُ، ونَحْنُ نُحِبُّ جميعَ ما خَلَقَهُ، فلا نُبْغِضُ منهُ شَيْئاً، قالُوا: ومَنْ رَأَى الكائناتِ منهُ رَآها كُلَّهَا جَمِيلَةً، وَأَنْشَدَ مُنْشِدُهُم:

**وإذا رَأَيْـتَ الكائنـاتِ بِعَيْنِهِـم		فجميـعُ ما يَحْـوِي الوجـودُ مَلِيحُ**

واحْتَجُّوا بقولِهِ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، وقولِهِ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وقولِهِ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:٣]. والعارفُ عندَهُم، هوَ الذي يُصَرِّحُ بإطلاقِ الجمالِ، ولا يَرَى في الوجودِ قَبِيحاً.

وهؤلاءِ قدْ عُدِمَت الغَيْرَةُ للهِ منْ قلوبِهِم، والبغضُ في اللهِ، والمعاداةُ فيهِ، وإنكارُ المُنْكَرِ، والجهادُ في سبيلِهِ، وإقامةُ حُدُودِهِ.

وَيرَى جمالَ الصُّوَرِ من الذكورِ والإناثِ من الجمالِ الذي يُحِبُّهُ اللهُ، فيَتَعَبَّدُونَ بِفِسْقِهِم، وَرُبَّمَا غَلا بَعْضُهُم حتَّى يَزْعُمَ أنَّ معبودَهُ يَظْهَرُ في تلكَ الصورةِ وَيَحِلُّ فيها. وإنْ كانَ اتِّحَادِيًّا قالَ: هِيَ مَظْهَرٌ منْ مظاهِرِ الحَقِّ!! وَيُسَمِّيهَا المظاهرَ الجماليَّةَ.

[فَصْلٌ]

وَقَابَلَهُم الفريقُ الثاني فقالُوا: قَدْ ذَمَّ اللهُ سبحانَهُ جمالَ الصُّوَرِ وتمامَ القامةِ والخلقةِ، فقالَ عن المُنَافِقِينَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقالَ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ [مريم: ٧٤]؛ أيْ: أَمْوالاً ومناظرَ. قالَ الحسنُ: هوَ الصورُ. وفي صحيحِ مسلم عنهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»[(١)].

(١) رواه مسلمٌ في كتابِ البِرِّ والصلةِ / بابُ تَحريمِ ظُلمِ المُسلمِ (٦٤٨٩) من حديثِ أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنه.

قالوا: وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لمْ يَنْفِ نَظَرَ الإدراكِ، وإنَّما نَفَى نظرَ المحبَّةِ.

قالُوا: وقدْ حَرَّمَ علينا لباسَ الحريرِ والذهبِ وآنيَةَ الذهبِ والفضَّةِ، وذلكَ منْ أعظمِ جمالِ الدُّنيا، وقالَ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

وفي الحديثِ: «الْبَذَاذَةُ مِنَ الإِيمَانِ». [١]

وقدْ ذَمَّ اللهُ المُسْرِفِينَ. والسرفُ كَمَا يكونُ في الطعامِ والشرابِ يكونُ في اللباسِ.

وفصلُ النزاعِ أنْ يُقَالَ: الجمالُ في الصورةِ واللباسِ والهيئةِ ثلاثةُ أنواعٍ:

- منهُ ما يُحْمَدُ.
- ومنهُ ما يُذَمُّ.
- ومنهُ ما لا يَتَعَلَّقُ بِهِ مَدْحٌ ولا ذمٌّ.

فالمحمودُ منهُ: ما كانَ للهِ، وأعانَ على طاعةِ اللهِ، وَتَنْفِيذِ أوامرِه، والاستجابةِ لهُ، كما كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَجَمَّلُ للوفودِ، وهوَ نظيرُ لباسِ آلةِ الحربِ للقتالِ، ولباسِ الحريرِ في الحربِ والخُيَلاءِ فيهِ؛ فإنَّ ذلكَ مَحْمُودٌ إذا تَضَمَّنَ إعلاءَ كلمةِ اللهِ ونَصْرَ دينِهِ وغَيْظَ عَدُوِّهِ.

والمذمومُ منهُ: ما كانَ للدنيا والرياسةِ والفخرِ والخُيَلاءِ والتوسُّلِ إلى الشهواتِ، وأنْ يكونَ هوَ غايَةَ العبدِ وأَقْصَى مَطْلَبِهِ، فإنَّ كثيراً من النفوسِ ليسَ لها هِمَّةٌ في سِوَى ذلكَ.

وأمَّا ما لا يُحْمَدُ ولا يُذَمُّ: هوَ ما خَلا عنْ هَذَيْنِ القَصْدَيْنِ، وَتَجَرَّدَ عن

---

(١) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٢٧٧٥٦) وأبو داودَ في كتابِ الترجُّلِ (٤١٥٥)، وابْنُ مَاجَهْ في كتابِ الزُّهدِ / بـابُ مَن لا يُؤْبَهُ له (٤١١٨).

الوَصْفَين[1]

(١) وقال رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في الكلامِ على مسألةِ السَّماعِ (٣٧٣- ٣٧٦): (وأهلُ جَمالِ الصورةِ يُبْتَلَوْنَ بالفاحشةِ كثيرًا واسمُها فإنَّ اللهَ سمَّاها فاحشةً وسُوءًا وفَسادًا وخُبثًا وشُبهةً وإجرامًا وهذه الأشياءُ ضِدُّ الجمالِ فعُلِمَ أن الجمالَ الذي يُحِبُّهُ اللهُ ليس جمالَ الصورةِ، فإن اللهَ لا يَنظُرُ إلى مُجرَّدِ الصورةِ فكيف يكونُ محبوبًا له؟ والجمالُ منه ما يُحبُّه اللهُ ومنه ما يُبغِضُه، فإنَّ اللهَ يُبْغِضُ التجمُّلَ بلباسِ الحريرِ والذهبِ، ويُبغِضُ التجمُّلَ بلباسِ الخُيَلاءِ وإن كان ذلك جمالاً، فالجمالُ ثلاثةُ أنواعٍ، جمالٌ خالٍ عن مُعارَضَةٍ مُفْسِدَةٍ فهذا يُحِبُّهُ اللهُ، وجمالٌ مُشتمِلٌ على مَفْسَدَةٍ مَبغوضةٍ للهِ فهذا يَكرَهُهُ اللهُ، وجمالٌ فيه شائبةٌ من هذا وهذا، فهذا يَكْرَهُه اللهُ من وجهٍ ويُحِبُّهُ من وجهٍ، هذا إذا كان جمالاً كَسبيًّا، وأما إن كان جمالاً خَلْقيًّا لا يَتعلَّقُ بكَسْبِ العبدِ فهذا لا يتعلَّقُ به ثوابٌ ولا عقابٌ ولا مدحٌ ولا ذَمٌّ ولا حُبٌّ ولا بُغْضٌ إلا إذا استعانَ به على ما يُحِبُّهُ اللهُ أو يَكرَهُهُ كما تقدَّمَ، وقد قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ**» وقالَ: «**إنَّ اللهَ يُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيءَ**» وقالَ: «**إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفُحْشَ ولا التفحُّشَ**» وكلُّ واحدٍ من الجمالِ والقُبحِ له مُتعلِّقا الخَلْقِ والخُلُقِ، والخُلُقُ يَظهَرُ أثرُهُ في القولِ والعملِ، فههنا ثمانيةُ أقسامٍ جمالٌ في الخَلْقِ والخُلُقِ والقولِ والفعلِ، فصاحبُه أَحْمَدُ الخلقِ وأحبُّهم إلى اللهِ، ويُقابِلُه قُبْحٌ في الخَلْقِ والخُلُقِ والقَوْلِ والفِعْلِ فصاحِبُه أَقبَحُ الخَلْقِ وأَبْغَضُهم إلى اللهِ، ثم قد يُركَّبُ بعضُ هذه الأقسامِ مع بعضٍ فيكونُ للرجلِ جَمالٌ في شيءٍ وقُبْحٌ في غيرِه، وقد يكونُ جَمالُهُ أكثرَ من قُبحِه، فيَغْبَطُهُ ويَسْتُرُه وبالعكسِ، وقد يتعادَلُ فيه هذا وهذا. ومَن تأمَّلَ أحوالَ الخَلْقِ وَجَدَهُمْ كذلك، وفي الغالبِ يكونُ بينَ الظاهرِ والباطنِ تلازمٌ، وبين قُبحِ الظاهرِ والباطنِ تلازمٌ، فإن لكلِّ باطنٍ عُنوانًا من الظاهرِ يَدُلُّ عليه ويُعرَفُ به، وقد جعلَ اللهُ سبحانَهُ بينَ الخلقِ والخُلُقِ والظاهرِ والباطنِ ارتباطًا والتئامًا وتناسُبًا، ومِن ههنا تُكُلِّمَ في الفِرَاسَةِ، واستَنْبَطُوا عِلْمَها وهو من أَلْطَفِ العُلوم وأَدَقِّها، وأصلُه معرفةُ المُشاكَلَةِ والمُناسَبَةِ والأُخُوَّةِ التي عَقَدَها اللهُ سُبحانَهُ بين المُتشاكِلِينَ، ومَن لَمْ يَكُنْ له نصيبٌ منها لم يَكَدْ يَنْتَفِعُ بنفسِه ولا بغيرِه.

وأنت إذا تأمَّلْتَ العالَمَ فقَلَّ أن تَرى خَلْقًا مُشوَّهًا إلا وثَمَّ خُلُقٌ قبيحٌ وفعلٌ يُناسِبُه وقولٌ يُناسِبُه، اللهُمَّ إلا لمُعارِضٍ مِن تأدُّبٍ وتعلُّمٍ يُخرِجُه من مُقتضَى طَبْعِه كما يَحْصُلُ لكثيرٍ من الحيوانِ البهيمِ منَ التعليمِ والتأديبِ والتمرينِ ما يُخرِجُه عن مُقتضَى طِباعِه، وَقَلَّ أن تَرى خَلْقًا جميلاً إلا وثَمَّ خُلُقٌ وفِعلٌ وقولٌ يُناسِبُه اللهُمَّ إلا لمُعارِضِ سُوءٍ أَخرَجَهُ عن مُقتضَى طِباعِه، كالطفل الذي وُلِدَ على الفِطرَةِ فلو خُلِّيَ لَمَا نَشَأَ إلا على فِطرةِ الإسلامِ، لكنَّ مُعارِضَ الكُفْرِ أَخْرَجَهُ عَن فِطْرَتِه، والنبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ ذَكَرَ أنَّ اللهَ جميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ للفرقِ بين الكِبْرِ الذي يُبْغِضُه اللهُ وأنه ليسَ من الجَمالِ، وبينَ الجَمالِ الذي يُحِبُّه، فإنه لَمَّا قالَ: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**» قالوا: يا رسولَ اللهِ، الرجلُ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، ونعلُهُ حَسنًا أفمِنَ الكِبْرِ ذلك؟ فقال: «**لا، إنَّ اللهَ جميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ**

والمقصودُ: أنَّ هذا الحديثَ الشريفَ مُشْتَمِلٌ على أصلَيْنِ عظيمَيْنِ: فَأَوَّلُهُ معرفةٌ، وآخِرُهُ سلوكٌ، فَيَعْرِفُ اللهَ سبحانَهُ بالجمالِ الذي لا يُماثِلُهُ فيه شيءٌ، وَيَعْبُدُهُ بالجمالِ الذي يُحِبُّهُ من الأقوالِ والأعمالِ والأخلاقِ، فَيُحِبُّ مِنْ عَبْدِهِ أنْ يُجَمِّلَ لسانَهُ بالصدقِ، وقَلْبَهُ بالإخلاصِ والمَحَبَّةِ والإنابةِ والتَّوَكُّلِ، وَجَوارِحَهُ بالطاعةِ، وَبَدَنَهُ بإظهارِ نِعَمِهِ عليهِ في لباسِهِ وتطهيرِهِ لهُ من الأنجاسِ والأحداثِ والأوساخِ والشعورِ المكروهةِ والختانِ وتقليمِ الأظفارِ، فَيَعْرِفُهُ بصفاتِ الجمالِ، وَيَتَعَرَّفُ إليهِ بالأفعالِ والأقوالِ والأخلاقِ الجميلةِ.

فَيَعْرِفُهُ بالجمالِ الذي هوَ وَصْفُهُ، وَيَعْبُدُهُ بالجمالِ الذي هوَ شَرْعُهُ ودينُهُ. فَجَمَعَ الحديثُ قَاعِدَتَيْنِ: **المعرفةَ، والسُّلُوكَ**).[1]

[النُّورُ]:

([اعْلَمْ -نَوَّرَ اللهُ بَصِيرَتَكَ- أنَّ] النَّصَّ قدْ وَرَدَ بِتَسْمِيَةِ الربِّ نوراً، وبأنَّ لهُ نوراً مضافاً إليهِ، وبأنَّهُ نورُ السَّماواتِ والأرضِ، وبأنَّ حِجَابَهُ نورٌ، فهذهِ أربعةُ أنواعٍ:

فالأَوَّلُ: يُقَالُ عليهِ سُبْحَانَهُ بالإطلاقِ؛ فإنَّهُ النُّورُ الهادِي.

النَّاسِ» فأخبرَ أن تحسينَ الثوبِ والنعلِ قد يكونُ من الجمالِ الذي يُحِبُّهُ اللهُ كما قالَ تعالَى: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] فإذا كانَ الظاهرُ جميلاً والباطِنُ جَميلاً أَحَبَّهُ اللهُ، وإذا كانَ الباطنُ جميلاً والظاهرُ غيرَ جَميلٍ لم يَضُرَّهُ عندَ اللهِ شيئًا، وإن كانَ كاسدًا عندَ الناسِ فإنه عندَ اللهِ عزيزٌ غالٍ، فإذا كانَ للعبدِ صوتٌ حَسَنٌ ولو من أَحسَنِ الأصواتِ وبَذَا بِصَوْتِهِ واستعملَهُ في الغناءِ أَبْغَضَ اللهُ صوتَهُ كما يُبْغِضُ الصورةَ المُستعملَةَ في الفواحِشِ ولو كانَت من أجملِ الصُّوَرِ وأَحْسَنِها، فهذا فصلٌ نافعٌ جِدًّا في الفرقِ بينَ الجمالِ الذي يُحِبُّهُ اللهُ).

(١) الفوائدُ (٢٥٨ – ٢٦٥).

والثاني: يُضَافُ إليهِ كما يُضافُ إليهِ حيَاتُهُ وَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَعِزَّتُهُ وقُدْرَتُهُ وعِلْمُهُ، **وَتَارَةً يُضَافُ إلى وجهِهِ، وتارةً يُضَافُ إلى ذاتِهِ:**

- **فالأَوَّلُ:** إِضَافَتُهُ [إلى وجهِهِ الكريم]؛ كقولِهِ: «**أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ**».[1] وقولِهِ: «**نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ**».

- **والثاني:** إضافتُهُ إلى ذاتِهِ؛ كقولِهِ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، وقولِ ابنِ عبَّاسٍ: «**ذَلِكَ نُورُهُ الذي إذا تَجَلَّى بهِ**»، وقولِهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ في حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ**» الحديث.[2]

والثالثُ: وهوَ إضافةُ نُورِهِ إلى السَّمَاواتِ والأرضِ، كقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

والرابعُ: كقولِهِ: «**حِجَابُهُ النُّورُ**».

فهذا النورُ المُضَافُ إليهِ يَجِيءُ على أحدِ الوجوهِ الأربعةِ، والنورُ الذي احْتَجَبَ بِهِ سُمِّيَ نُوراً وَنَاراً، كما وَقَعَ التَّرَدُّدُ في لفظِهِ في الحديثِ الصحيحِ، حديثِ أبي موسَى الأَشْعَرِيِّ. وهوَ قولُهُ: «حِجَابُهُ النُّورُ أَوِ النَّارُ»[3]؛ فإنَّ هذهِ النارَ هيَ نورٌ، وهيَ التي كَلَّمَ اللهُ كَلِيمَهُ مُوسَى فيها، وهيَ نارٌ صافيَةٌ لها إشراقٌ بلا إحراقٍ.

فالأقسامُ ثلاثةٌ:

إشراقٌ بلا إحراقٍ: كنورِ القمرِ.

وإحراقٌ بلا إشراقٍ: وهيَ نارُ جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّهَا سوداءُ مُحْرِقَةٌ لا تُضِيءُ.

---

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٥٦٢.

(٢) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٥١.

(٣) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٨٦.

وإشراقٌ بإحراقٍ: وهيَ هذهِ النارُ المضيئةُ، وكذلكَ نُورُ الشمسِ لهُ الإشراقُ والإحراقُ.

فهذا في الأنوارِ المشهودةِ المخلوقةِ، وحجابُ الربِّ تباركَ وتَعَالَى نورٌ، وهوَ نارٌ. وهذهِ الأنواعُ كلُّهَا حقيقةٌ بحسَبِ مراتِبِهَا، فنورُ وجهِهِ حقيقةٌ لا مجازٌ.

وإذا كانَ نُورُ مخلوقاتِهِ كالشمسِ والقمرِ والنارِ حقيقةً، فكيفَ يكونُ نورُهُ الذي نسبةُ الأنوارِ المخلوقةِ إليهِ أَقَلُّ منْ نسبةِ سراجٍ ضعيفٍ إلى قرصِ الشمسِ، فكيفَ لا يكونُ هذا النورُ حقيقةً)[1]، ([و] الربُّ سبحانَهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَمَّا تَجَلَّى للجبلِ وَظَهَرَ لهُ أَمْرٌ ما منْ نورِ ذاتِهِ المقدَّسَةِ صارَ الجبلُ دَكًّا؛ فَرَوَى حُمَيْدٌ عنْ ثابتٍ، عنْ أنسٍ، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أَشَارَ أنسٌ بطرفِ أصبعِهِ على طرفِ خِنْصَرِهِ، وكذلكَ أَشَارَ ثابتٌ، فقالَ لهُ حُمَيْدٌ الطويلُ: ما تُرِيدُ يا أَبَا مُحَمَّدٍ؟ فَرَفَعَ ثابتُ يَدَهُ، فَضَرَبَ صدرَهُ ضربةً شديدةً وقالَ: مَنْ أَنْتَ يا حُمَيْدُ، يُحَدِّثُني أنسٌ عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ وتقولُ أنتَ: ما تُرِيدُ بهذا؟! [2] ومعلومٌ أَنَّ الذي أَصَارَ الجبلَ إلى هذهِ الحالِ ظهورُ هذا القدْرِ منْ نورِ الذاتِ لهُ بلا واسطةٍ، بلْ تَجَلَّى رَبُّهُ لهُ سبحانَهُ.

[فَصْلٌ]

... [وَقَدْ] ثَبَتَ في الصحيحَيْنِ عن ابنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ كانَ يقولُ إذا قامَ مِن الليلِ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» الحديث[3]. وهوَ يَقْتَضِي أَنَّ كونَهُ نورَ السَّماواتِ والأرضِ مُغَايِرٌ لكونِهِ ربَّ

---

(١) مُخْتَصَرُ الصواعقِ المرسَلَةِ (٣٤٨).

(٢) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (١١٨٥١).

(٣) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٥٥٩.

السَّماواتِ والأرضِ، ومعلومٌ أنَّ إصْلاحَهُ السَّماواتِ والأرضَ بالأنوارِ وهدايتَهُ لِمَنْ فيهما هيَ رُبُوبِيَّتُهُ، فَدَلَّ على أنَّ مَعْنَى كونِهِ نورَ السَّماواتِ والأرضِ أَمْرٌ وراءَ رُبُوبِيَّتِهِما...

و[هذا]... الحديثُ تَضَمَّنَ ثلاثةَ أُمُورٍ شاملةٍ عامَّةٍ للسماواتِ والأرضِ، وهيَ رُبُوبِيَّتُهُما وقَيُّومِيَّتُهُما ونورُهُما، فَكَوْنُهُ سُبْحَانَهُ ربًّا لهما وقَيُّوماً لهما ونُوراً لهما أَوْصَافٌ لهُ، فَآثَارُ رُبُوبِيَّتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ ونورِهِ قائمةٌ بهما... وَمُقْتَضَاهَا هوَ المخلوقُ المُنْفَصِلُ، وهذا كما أنَّ صفةَ الرحمةِ والقدرةِ والإرادةِ والرِّضَى والغضبِ قائمةٌ بهِ سُبْحَانَهُ، والرحمةُ الموجودةُ في العالمِ والإحسانُ والخيرُ والنعمةُ والعقوبةُ آثارُ تلكَ الصِّفَاتِ، وهيَ منفصلةٌ عنهُ، وهكذا عِلْمُهُ القائمُ بِهِ هوَ صِفَتُهُ، وأمَّا علومُ عبادِهِ فمِنْ آثارِ عِلْمِهِ، وَقُدْرَتُهُم منْ آثارِ قدرتِهِ.

فَالْتبسَ هذا المَوْضِعُ على مُنْكِري نورِهِ سبحانَهُ، ولَبَّسُوا على الجُهَّالِ فَقَالُوا: كلُّ عاقلٍ يَعْلَمُ بالبديهةِ أنَّ اللهَ سبحانَهُ ليسَ هوَ هذا النورَ الفائضَ منْ جرمِ الشمسِ والقمرِ والنارِ، فلا بُدَّ مِنْ حملِ قولِهِ: «نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» على معنَى أنَّهُ: مُنَوِّرُ السَّماواتِ والأرضِ، وهادٍ لأهلِ السَّماواتِ والأرضِ...

فنقولُ...: أَساْتُم الظنَّ بكلامِ اللهِ ورسولِهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ؛ حيثُ فَهِمْتُم أنَّ حقيقتَهُ وَمَدْلُولَهُ أنَّهُ سُبْحَانَهُ هوَ هذا النورُ الواقعُ على الحِيطَانِ والجدرانِ.(1) وهذا الفَهْمُ الفاسدُ هوَ الذي أَوْجَبَ لكُمْ إِنْكَارَ حقيقةِ نُورِهِ

(1) وقال رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في صفحةِ (٣٤٩): (و... نُورُهُ المُضافُ إليه يَخْتَصُّ به لا يَقُومُ بغَيرِه، فإن نُورَ المِصباحِ قامَ بالفَتِيلَةِ مُنبَسِطًا على السُّقُوفِ والجُدرانِ، وليس ذلك هو نورَ الربِّ تعالَى الذي هو نُورُ ذاتِهِ ووَجْهِهِ الأعلَى، بل ذلك هو المضافُ إليه حقيقةً، كما أن نُورَ الشمسِ والقمرِ والمصباحِ مضافٌ إليها حقيقةً. قال تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥] وقالَ تعالَى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: ٦١] وقال تعالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]. فهذا نُورٌ مَخلوقٌ قَائِمٌ بجِرْمٍ مخلوقٍ لا يُسمَّى به الربُّ تَعالَى ولا يُوصَفُ بِهِ، ولا يُضافُ إليه إلا على جِهةِ أنه مخلوقٌ له، مَجعولٌ، لا على أنه وَصْفٌ له قائمٌ به. فالتسويةُ بين هذا

وجحدَهُ، وَجَمَعْتُمْ بينَ الفَهْمِ الفاسدِ وإنكارِ المعنَى الحقِّ، وليسَ ما ذَكَرْتُمْ من النورِ هوَ نورَ الربِّ القائمَ بِهِ الذي هوَ صِفَتُهُ، وإنَّما هوَ مخلوقٌ لهُ مُنْفَصِلٌ عنهُ، فإنَّ هذهِ الأنوارَ المخلوقةَ إنَّما تكونُ في محلٍّ دُونَ محَلٍّ، فالنورُ الفائضُ عن النارِ أو الشمسِ أو القمرِ إنَّما هوَ نورٌ لبعضِ الأرضِ دُونَ بعضٍ، فإنَّا نَعْلَمُ أنَّ نورَ الشمسِ الذي هوَ أعظمُ منْ نورِ القمرِ والكواكبِ والنارِ ليسَ هوَ نورَ جميعِ السَّماواتِ والأرضِ ومَنْ فِيهِنَّ.

فمَن ادَّعَى أنَّ ظاهرَ القرآنِ وكلامِ الرسولِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ أنَّ نورَ الربِّ سبحانَهُ هوَ هذا النورُ الفائضُ فقدْ كَذَبَ على اللهِ ورسولِهِ.

فلوْ كانَ لفظُ النصِّ: اللهُ هوَ النورُ الذي تُعَايِنُونَهُ وتَرَوْنَهُ في السَّماواتِ والأرضِ لَكَانَ لِفَهْمِ هؤلاءِ وَتَحْرِيفِهِم مُسْتَنَدٌ ما. أمَّا ولفظُ النصِّ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، فمِنْ أينَ يَدُلُّ هذا بوَجْهٍ ما أنَّهُ النورُ الفائضُ عنْ جرمِ الشمسِ والقمرِ والنارِ؟!

فإخراجُ نورِ الربِّ تَعَالَى عنْ حقيقتِهِ وحملُ لفظِهِ على مجازِهِ إنَّما اسْتَنَدَ إلى هذا الفَهْمِ الباطلِ الذي لمْ يَدُلَّ عليهِ اللفظُ...

[و] رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ فَسَّرَ هذهِ الآيَةَ بِقَوْلِهِ: «أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ». ولمْ يَفْهَمْ منها أنَّهُ هوَ هذا النورُ المُنْبَسِطُ على الحيطانِ والجدرانِ، ولا فَهِمَهُ الصحابةُ عنهُ، بلْ عَلِمُوا أنَّ لِنُورِ الربِّ تَعَالَى شَأْناً آخرَ هوَ أعظمُ منْ أنْ يكونَ لهُ مثالٌ.

قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ: **«ليسَ عندَ ربِّكُم ليلٌ ولا نهارٌ، نورُ السَّماواتِ والأرضِ منْ نورِ وجهِهِ»**.

وبينَ نُورِ وَجهِه الذي أَشْرَقَتْ له الظُّلُماتُ، وصَلَحَ عليه أَمْرُ الدُّنيَا والآخرةِ، واستعاذَ به العائذونَ؛ مِنْ أَبْطَلِ الباطِلِ).

فهلْ أَرَادَ ابنُ مسعودٍ أنَّ هذا النورَ الذي على الحيطانِ وَوَجْهِ الأرضِ هوَ عَيْنُ نورِ الوجهِ الكريم؟!!

أو فَهِمَ هذا عَنْهُم ذُو فَهْمٍ مستقيمٍ؟!!

فالقرآنُ والسُّنَّةُ وأقوالُ الصحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم مُتَطَابِقَةٌ يُوافِقُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَتُصَرِّحُ بالفرقِ الذي بينَ النورِ الذي هوَ صِفَتُهُ، والنورِ الذي هوَ خَلْقٌ منْ خلقِهِ، كما تُفَرِّقُ بينَ الرحمةِ التي هيَ صفتُهُ، والرحمةِ التي هيَ مخلوقةٌ، ولَكِنْ لَمَّا وُجِدَتْ في رحمتِهِ سُمِّيَتْ بِرَحْمَتِهِ، وكما أَنَّهُ لا يُماثِلُ في صفةٍ منْ صفاتِهِ خَلْقَهُ، فكذلكَ نُورُهُ سُبْحَانَهُ.

فأيُّ نورٍ من الأنوارِ المخلوقةِ إذا ظَهَرَ للعالمِ وَوَاجَهَهُ أَحْرَقَهُ؟!!

وأيُّ نورٍ إذا ظَهَرَ منهُ للجبالِ الشامخةِ قَدْرٌ ما جَعَلَهَا دَكًّا؟!!

وإذا كانتْ أنوارُ الحُجُبِ لوْ دَنَا جَبْرَائِيلُ في أَدْنَاهَا لاحترقَ، فما الظنُّ بنورِ الذَّاتِ؟!!). (١)

(فنسبةُ الأنوارِ كُلِّهَا إلى نورِ الربِّ كنسبةِ العلومِ إلى علمِهِ، والقُوَى إلى قوَّتِهِ، والغِنَى إلى غِنَاهُ، والعزَّةِ إلى عِزَّتِهِ، وكذلكَ باقِي الصِّفَاتِ.

والعبدُ إذا سَمَا بَصَرُهُ صُعُوداً إلى نورِ الشمسِ غَشِيَ دونَ إدراكِهِ وَتَعَذَّرَ عليهِ غايَةَ التَّعَذُّرِ!! وأيُّ نسبةٍ لنورِ الشمسِ إلى نورِ خالِقِهَا وَمُبْدِعِهَا؟!!

وإذا كانَ نورُ البرقِ يَكَادُ يَلْتَمِعُ البصرَ وَيَخْطَفُهُ، ولا يَقْدِرُ العبدُ على إدراكِهِ، فكيفَ بنُورِ الحجابِ؟!! فكيفَ بما فَوْقَهُ؟!!

والأمرُ أعظمُ منْ أنْ يَصِفَهُ واصِفٌ، أوْ يَتَصَوَّرَهُ عَاقِلٌ، فَتَبَارَكَ اللهُ ربُّ العالَمِينَ الذي أَشْرَقَت الظُّلُمَاتُ بنورِ وجهِهِ، وَعَجَزَت الأفكارُ عنْ إدراكِ

---

(١) مُخْتَصَرُ الصواعقِ المرسَلَةِ (٣٤٦-٣٤٧).

كُنْهِهِ، وَدَلَّت الآياتُ وَشَهِدَت الفِطَرُ باستحالةِ شِبْهِهِ، فَلَوْلا وَصْفُ نفسِهُ لعبادِهِ لَمَا أَقْدَمُوا على وصفِهِ، فهوَ كما وَصَفَ نفسَهُ وَأَثْنَى على نفسِهِ، وَفَوْق ما يَصِفُهُ الواصفونَ). [1]

[فَصْلٌ]

(وَلَمَّا كانَ النورُ منْ أسمائِهِ الحسنى وصفاتِهِ كانَ دِينُهُ نُوراً، ورسولُهُ نوراً، وكلامُهُ نوراً، ودارُهُ نوراً يَتَلأْلأُ، والنورُ يَتَوَقَّدُ في قلوبِ عبادِهِ المؤمنينَ، وَيَجْرِي على أَلْسِنَتِهِم، وَيَظْهَرُ على وُجُوهِهِم). [2]

(فَدِينُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ نورٌ، وكتابُهُ نورٌ، ورسولُهُ نورٌ، ودارُهُ التي أَعَدَّهَا لأوليائِهِ نورٌ يَتَلأْلأُ، وهوَ تَبَارَكَ وتَعَالَى نورُ السماواتِ والأرضِ، ومِنْ أسمائِهِ النورُ، وَأَشْرَقَت الظلماتُ لنورِ وجهِهِ، وفي دعاءِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ الطائفِ: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، أَنْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ، أَوْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ»[3].

وقالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ: «ليسَ عندَ رَبِّكُمْ ليلٌ ولا نهارٌ، نورُ السماواتِ والأرضِ منْ نورِ وجهِهِ». وفي بعضِ ألفاظِ هذا الأثرِ: «نورُ السَّماواتِ من نورِ وجهِهِ».

ذَكَرَهُ عثمانُ الدَّارِميُّ.

---

(١) مُخْتَصَرُ الصواعقِ المرسَلَةِ (٣٥٥-٣٥٦).

(٢) شِفَاءُ العَلِيلِ (١/ ٢٧٢).

(٣) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٥٦٢.

وقدْ قالَ تعَالَى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]. فإذا جاءَ تبارك وتَعَالَى يومَ القيامةِ للفَصْلِ بينَ عبادِهِ، وَأَشْرَقَتْ بنورِهِ الأرضُ، وليسَ إشراقُهَا يومئذٍ بشمسٍ ولا قمرٍ؛ فإنَّ الشمسَ تُكوَّرُ، والقمرَ يُخْسَفُ، وَيذْهَبُ نُورُهُمَا، وَحِجَابُهُ تباركَ وتَعَالَى النورُ.

قالَ أبو مُوسَى: قامَ فِينَا رسولُ اللهِ بخمسِ كلماتٍ فقالَ: «**إنَّ اللهَ لا يَنامُ ولا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنامَ، وَلَكِنَّهُ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**».(١) ثُمَّ قَرَأَ أبو عُبَيْدَةَ: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨].

فاستنارةُ ذلكَ الحجابِ بنورِ وجهِهِ، ولَوْلاهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وجهِهِ ونورُه ما انْتَهَى إليهِ بصرُهُ، ولهذا لَمَّا تَجَلَّى تَبَارَكَ وتعَالَى للجَبَلِ، وَكَشَفَ من الحجابِ شَيْئاً يَسِيراً سَاخَ الجبلُ في الأرضِ وَتَدَكْدَكَ، ولمْ يَقُمْ لِرَبِّهِ تباركَ وتَعَالَى. وهذا معنَى قولِ ابنِ عَبَّاسٍ في قولِهِ سبحانَهُ وتَعَالَى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، قالَ: ذلكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إذا تَجَلَّى بنورِهِ لمْ يَقُمْ لهُ شيءٌ. وهذا مِنْ بديعِ فهمِهِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنهُ، ودقيقِ فِطْنَتِهِ، كيفَ لا وَقَدْ دَعَا لهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يُعَلِّمَهُ اللهُ التأويلَ؟!

فالربُّ تَبَارَكَ وتعَالَى يُرَى يومَ القيامةِ بالأبصارِ عِياناً، ولكنْ يَسْتَحِيلُ إدراكُ الأبصارِ لهُ وإنْ رَأَتْهُ، فالإدراكُ أمرٌ وراءَ الرؤيَةِ، وهذهِ الشمسُ -وللهِ المَثَلُ الأَعْلَى- نَرَاهَا ولا نُدْرِكُهَا كما هيَ عليهِ، ولا قَرِيباً منْ ذلكَ.

ولذلكَ قالَ ابنُ عبَّاسٍ لِمَنْ سَأَلَهُ عن الرؤيَةِ وَأَوْرَدَ عليهِ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فقالَ: أَلَسْتَ تَرَى السَّماءَ؟ قالَ: بَلَى، قالَ: أَفَتُدْرِكُهَا؟ قالَ: لا، قالَ: فاللهُ تَعالَى أَعْظَمُ وَأَجَلُّ.

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه صفحة ٨٦.

وقدْ ضَرَبَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى النورَ في قلبِ عبدِهِ مثلاً لا يَعْقِلُهُ إلاَّ العالِمُونَ، فقالَ سبحانَهُ وتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾ [النور: ٣٥]. قالَ أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ: مَثَلُ نُورِهِ في قلبِ المسلمِ، وهذا هوَ النورُ الذي أَوْدَعَهُ في قلبِهِ منْ معرفتِهِ وَمحبَّتِهِ والإيمانِ بهِ وَذِكْرِهِ، وهوَ نورُهُ الذي أَنْزَلَهُ إليهم، فَأَحْيَاهُم بهِ، وَجعلَهُم يمشونَ بهِ بينَ الناسِ، وَأَصْلَهُ في قلوبِهِم، ثُمَّ تقْوَى مَادَّتُهُ، فَتَتَزَايَدُ حتَّى يَظْهَرَ على وجوهِهِم وَجَوَارِحِهِم وَأَبْدَانِهِم، بلْ وَثِيَابِهِم وَدُورِهِم، يُبْصِرُهُ مَنْ هوَ مِنْ جِنْسِهِم، وسائرُ الخلقِ لهُ مُنْكِرُونَ، فإذا كانَ يومُ القيامةِ بَرَزَ ذلكَ النورُ، وَصَارَ بأَيْمَانِهِم يَسْعَى بينَ أَيْدِيهِم في ظُلْمَةِ الجسرِ حتَّى يَقْطَعُوهُ، وهُمْ فيهِ على حَسَبِ قُوَّتِهِ وضَعْفِهِ في قلوبِهِم في الدُّنيا، فمِنْهُم مَنْ نُورُهُ كالشمسِ، وآخرُ كالقمرِ، وآخرُ كالنجمِ، وآخرُ كالسراجِ، وآخرُ يُعْطَى نوراً على إبهامِ قَدَمِهِ يُضِيءُ مَرَّةً وَيُطْفَأُ أُخْرَى، إذا كانتْ هذهِ حالَ نورِهِ في الدنيا، فَأُعْطِيَ على الجسرِ بمقدارِ ذلكَ، بلْ هوَ نفسُ نورِهِ ظَهَرَ لهُ عِياناً، ولَمَّا لمْ يَكُنْ للمُنَافِقِ نورٌ ثابتٌ في الدنيا، بلْ كانَ نورُهُ ظاهراً لا باطناً، أُعْطِيَ نُوراً ظاهراً مَآلُهُ إلى الظلمةِ والذهابِ.

وَضَرَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لهذا النورِ، وَمحَلِّهِ، وحاملِهِ، ومادَّتِهِ مثلاً بالمِشْكَاةِ، وهيَ الكُوَّةُ في الحائطِ، فَهِيَ مِثْلُ الصدرِ، وفي تلكَ المشكاةِ زجاجةٌ منْ أصفى الزجاجِ، وحتَّى شُبِّهَتْ بالكوكبِ الدُّرِّيِّ في بَيَاضِهِ وصفائِهِ، وَهِيَ مثلُ القلبِ، وَشُبِّهَتْ بالزجاجةِ؛ لأَنَّهَا جَمَعَتْ أوصافاً هيَ في قلبِ المؤمنِ، وهيَ: الصفاءُ، والرِّقَّةُ، والصلابةُ، فَيَرَى الحقَّ والهُدَى بِصَفَائِهِ، وَتَحْصُلُ منهُ الرأفةُ والرحمةُ والشفقةُ بِرِقَّتِهِ، وَيُجَاهِدُ أعداءَ اللهِ تَعَالَى، وَيَغْلُظُ عليهم، وَيَشْتَدُّ في الحقِّ، وَيَصْلُبُ فيهِ بصلابتِهِ، ولا تُبْطِلُ صفةٌ منهُ صفةً أُخْرَى، ولا تُعَارِضُهَا،

بلْ تُساعِدُها وتُعَاضِدُها ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقالَ تعَالَى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقالَ تعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]. وفي أثرٍ: «**القُلُوبُ آنيَةُ اللهِ تَعَالَى فِي أرضِهِ، فَأَحَبُّهَا إليهِ أَرَقُّهَا وَأَصْلَبُهَا وَأَصْفَاهَا**».[1]

وبإزاءِ هذا القلبِ قَلْبَانِ مَذْمُومَانِ في طَرَفَيْ نَقِيضٍ:

أحدُهُمَا: قَلْبٌ حَجَرِيٌّ قَاسٍ لا رحمةَ فيهِ، ولا إحسانَ ولا بِرَّ، ولا لهُ صفاءٌ يَرَى بِهِ الحقَّ، بلْ هوَ جَبَّارٌ جاهلٌ، لا عالِمٌ بالحقِّ، ولا راحمٌ بالخلقِ.

- وبإزائِهِ قَلْبٌ ضعيفٌ مَائِيٌّ، لا قُوَّةَ فيهِ ولا استمساكَ، بلْ يَقْبَلُ كلَّ صورةٍ، وليسَ لهُ قُوَّةُ حفظِ تلكَ الصُّوَرِ، ولا قوَّةُ التأثيرِ في غيرِهِ، وكلُّ ما خَالَطَهُ أَثَّرَ فيهِ منْ قَوِيٍّ وضعيفٍ، وَطَيِّبٍ وخبيثٍ.

وفي الزجاجةِ مِصْبَاحٌ، وهوَ النورُ الذي في الفَتِيلَةِ، وهيَ حَامِلَتُهُ، ولذلكَ النورِ مادَّةٌ، وهوَ زَيْتٌ قدْ عُصِرَ منْ زَيْتُونَةٍ في أعدلِ الأماكنِ تُصِيبُهَا الشمسُ أوَّلَ النهارِ وآخرَهُ، فَزَيْتُهَا منْ أَصْفَى الزيتِ وأبعدِهِ من الكدرِ، حتَّى إنَّهُ لَيَكَادُ منْ صفائِهِ يُضِيءُ بلا نارٍ، فهذهِ مادَّةُ نورِ المصباحِ، وكذلكَ مادَّةُ نُورِ المصباحِ الذي في قَلْبِ المؤمنِ هوَ مِنْ شجرةِ الوَحْيِ التي هيَ أعظمُ الأشياءِ بَرَكَةً، وَأَبْعَدُهَا من الانحرافِ، بلْ هيَ أَوْسَطُ الأمورِ وَأَعْدَلُهَا وأفضلُهَا، لمْ تَنْحَرِفِ انْحِرَافَ النصرانيَّةِ، ولا انحرافَ اليهوديَّةِ، بلْ هيَ وسطٌ بينَ الطرفَيْنِ المذمومَيْنِ في كلِّ شيءٍ، فهذهِ مادَّةُ مصباحِ الإيمانِ في قلبِ المؤمنِ.

---

(١) رواهُ الحكيمُ التِّرْمِذِيُّ في نوادرِ الأصولِ (٤/ ١٠٠) عن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رضيَ اللهُ عنه، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: «إنَّ للهِ تعالَى فِي الأرضِ أَوَانِيَ، ألا وهِيَ القُلوبُ، فَأَحَبُّهَا إلى اللهِ أَرَقُّهَا وأَصفاهَا وأَصْلَبُهَا».

وَلَمَّا كانَ ذلكَ الزيتُ قد اشْتَدَّ صفاؤُهُ حتَّى كادَ أنْ يُضِيءَ بنفسِهِ، ثُمَّ خالَطَ النارَ فَاشْتَدَّتْ بها إضاءَتُهُ، وَقَوِيَتْ مادَّةُ ضوءِ النارِ بِهِ، كانَ ذلكَ نُوراً على نورٍ.

وهكذا المُؤْمِنُ قَلْبُهُ مُضِيءٌ يَكَادُ يَعْرِفُ الحقَّ بِفِطْرَتِهِ وعقلِهِ، ولكنْ لا مادَّةَ لهُ منْ نفْسِهِ، فجاءَتْ مادَّةُ الوحيِ، فَبَاشَرَتْ قَلْبَهُ، وَخَالَطَتْ بَشَاشَتَهُ، فازْدَادَ نوراً بالوحيِ على نُورِهِ الذي فَطَرَهُ اللهُ تَعَالَى عليهِ، فَاجْتَمَعَ لهُ نورُ الوحيِ إلى نورِ الفطرةِ، فَصَارَ نوراً على نورٍ، فَيَكَادُ يَنْطِقُ بالحقِّ وإنْ لمْ يَسْمَعْ فيهِ أثراً، ثُمَّ يَسْمَعُ الأثرَ مطابقاً لِمَا شَهِدَتْ بهِ فطرتُهُ، فيكونُ نوراً على نورٍ. فهذا شأنُ المؤمنِ، يُدْرِكُ الحقَّ بفطرتِهِ مُجْمَلاً، ثُمَّ يَسْمَعُ الأثرَ جاءَ بهِ مُفَصَّلاً، فَيَنْشَأُ إيمانُهُ عنْ شهادةِ الوحيِ والفطرةِ.

فَلْيَتَأَمَّلِ اللبيبُ هذهِ الآيَةَ العظيمةَ، وَمُطَابَقَتَهَا لهذهِ المعاني الشريفةِ، فَذَكَرَ سبحانَهُ وتَعَالَى نورَهُ في السَّماواتِ والأرضِ، ونورَهُ في قلوبِ عبادِهِ المؤمنينَ؛ النورَ المعقولَ المشهودَ بالبصائرِ، والنورَ الذي اسْتَنَارَتْ بهِ البصائرُ والقلوبُ، والنورَ المحسوسَ المشهودَ بالأبصارِ الذي اسْتَنَارَتْ بهِ أقطارُ العالمِ العلويِّ والسفليِّ، فَهُمَا نُورَانِ عَظِيمَانِ، أَحَدُهُمَا أعظمُ من الآخرِ، وكما أنَّهُ إذا فُقِدَ أَحَدُهُمَا منْ مكانٍ أوْ موضعٍ لمْ يَعِشْ فيهِ آدميٌّ ولا غَيْرُهُ؛ لأنَّ الحيوانَ إنَّما يَتَكَوَّنُ حيثُ النورُ، ومواضِعُ الظُّلمةِ التي لا يُشْرِقُ عليها نورٌ لا يَعِيشُ فيها حيوانٌ ولا يَتَكَوَّنُ الْبَتَّةَ، فكذلكَ أُمَّةٌ فُقِدَ فيها نورُ الوحيِ والإيمانِ، وقَلْبٌ فُقِدَ منهُ هذا النورُ مَيِّتٌ ولا بُدَّ لا حياةَ لهُ الْبَتَّةَ، كما لا حياةَ للحيوانِ في مكانٍ لا نورَ فيهِ.

واللهُ سبحانَهُ وتَعَالَى يَقْرِنُ بينَ الحياةِ والنورِ، كما في قولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وكذلكَ قولُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ

عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وقدْ قِيلَ: إنَّ الضميرَ في «جَعَلْنَٰهُ» عائِدٌ إلى الأمرِ، وقيلَ: إلى الكتابِ، وقيلَ: إلى الإيمانِ. والصوابُ أنَّهُ عائِدٌ إلى الروحِ؛ أيْ: جَعَلْنَا ذلكَ الروحَ الذي أَوْحَيْنَاهُ إليكَ نُوراً، فَسَمَّاهُ رُوحاً لِمَا يَحْصُلُ بِهِ من الحياةِ، وَجَعَلَهُ نُوراً لِمَا يَحْصُلُ بِهِ من الإشراقِ والإضاءَةِ، وَهُمَا مُتَلازِمَانِ، فَحَيْثُ وُجِدَتْ هذهِ الحياةُ بهذا الروحِ وُجِدَت الإضاءةُ والاستنارةُ، وحيثُ وُجِدَت الاستنارةُ والإضاءةُ وُجِدَت الحياةُ، فَمَنْ لمْ يَقْبَلْ قَلْبُهُ هذا الروحَ، فهوَ مَيِّتٌ مُظْلِمٌ، كما أنَّ مَنْ فَارَقَ بَدَنَهُ روحُ الحياةِ فهوَ هَالِكٌ مُضْمَحِلٌّ).(١)

---

(١) الوابلُ الصَّيِّبُ (١٠١-١٠٨).

مُلحَقٌ: وقال رَحِمَهُ اللهُ تعالَى في اجتماعِ الجُيوشِ الإسلاميةِ (١٢- ٢٨): ((واللهُ سُبحانَهُ وتَعالَى سَمَّى نَفْسَهُ نُورًا، وجعلَ كِتابَهُ نُورًا ورَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ نُورًا، ودِينَهُ نُورًا، وَاحْتَجَبَ عن خَلقِهِ بالنُّورِ، وجَعلَ دارَ أوليائِهِ نُورًا يَتلألأُ. قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥].

وقد فسَّرَ قولَهُ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بكَونِه مُنَوِّرَ السماواتِ والأرضِ، وهَادِيَ أَهْلِ السماواتِ والأرضِ.

فبنُورِه اهتدَى أهلُ السماواتِ والأرضِ، وهذا إنما هو فِعْلُه، وإلا فالنورُ الذي هو من أوصافِه قائمٌ به، ومنه اشتقَّ له اسمَ النورِ الذي هو أَحَدُ الأسماءِ الحُسْنَى.

والنورُ يُضافُ إليه سُبحانَهُ على أحدِ وَجهينِ: إضافةُ صفةٍ إلى مَوصوفِها، وإضافةُ مفعولٍ إلى فاعلِه.

فالأولُ: كقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزُّمَرُ: ١١٩]، فهذا إشراقُها يومَ القيامةِ بنُورِه تَعالَى إذا جاءَ لِفَصْلِ القضاءِ، ومنه قولُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ في الدعاءِ المشهورِ: «**أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الكَرِيمِ أَنْ تُضِلَّنِي لاَ إِلَهَ إلا أَنْتَ**». وفي الأثرِ الآخَرِ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ -أو بنُورِ وَجْهِكَ- الذي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ**». فأخبرَ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: أن الظُّلُماتِ أَشْرَقَتْ لِنُورِ وَجْهِ اللهِ. كما أخبرَ تعالَى أن الأرضَ تُشرِقُ يومَ القيامةِ بنُورِه.

وفي "مُعْجَمِ الطَّبَرانِيِّ" و(السُّنَّةِ) له، وكتابِ عُثمانَ بنِ سعيدٍ الدَّارِمِيِّ وغيرِهما، عن ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه قال: ليسَ عند رَبِّكُمْ لَيْلٌ ولا نهارٌ. نُورُ السماواتِ والأرضِ من نُورِ وَجهِه. وهذا الذي قالَهُ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه أَقربُ إلى تفسيرِ الآيةِ من قولِ مَن فَسَّرَها بأنه هادِي السماواتِ والأرضِ، وأما

مَن فَسَّرَها بأنه مُنَوِّرُ السماواتِ والأرضِ، فلا تَنَافِيَ بَيْنَهُ وبينَ قولِ ابنِ مسعودٍ، والحقُّ أنه نُورُ السماواتِ والأرضِ بهذه الاعتباراتِ كُلِّها.

وفي "صحيح مُسلم" وغيرِه من حديثِ أبي مُوسَى الأشعَرِيِّ رضيَ اللهُ عنه قالَ: قامَ فينا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ بخَمْسِ كَلِماتٍ فقالَ: «**إنَّ اللهَ لا يَنامُ ولا يَنْبَغِي له أَنْ يَنامَ يَخْفِضُ القِسْطَ ويَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إليه عَمَلُ الليلِ قبلَ عَمَلِ النهارِ، وعَمَلُ النهارِ قَبْلَ عَمَلِ الليلِ، حِجابُهُ النورُ لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِه ما انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِه**».

وفي "صحيح مُسلم"، عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه قالَ: سألتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: هل رأيتَ رَبَّكَ؟ قال: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**». فسَمِعْتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ الله ورَضِيَ عنه يقولُ: مَعْنَاهُ كانَ ثَمَّ نُورٌ وحالَ دُونَ رُؤْيَتِهِ نُورٌ، فأَنَّى أراهُ. قال: ويَدُلُّ عليه أنَّ في بعضِ ألفاظِ الصحيحةِ: (هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فقالَ: «**رَأَيْتُ نُورًا**». وقد أَعْضَلَ أمرُ هذا الحديثِ على كثيرٍ منَ الناسِ حتَّى صَحَّفَهُ بعضُهم، فقالَ: نُورٌ إِنِّيٌّ أَرَاهُ على أنها ياءُ النسب والكلِمَةُ كَلِمَةٌ واحدةٌ، وهذا خطأٌ لَفظًا ومعنًى، وإنما أوجَبَ لهم هذا الإشكالَ والخطأَ أنهم لَمَّا اعتَقَدُوا أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ رَأَى رَبَّهُ، وكانَ قَوْلُه: «**أَنَّى أَرَاهُ**» كالإنكارِ للرؤيةِ حَارُوا في الحديثِ، ورَدَّهُ بَعضُهم باضطرابِ لَفْظِه، وكلُّ هذا عُدولٌ عن مُوجِبِ الدليلِ. وقد حَكَى عُثمانُ بنُ سعيدٍ الدَّارِمِيُّ في "كتابِ الرُّؤْيَةِ" له: إجماعَ الصحابةِ على أنه لم يَرَ رَبَّهُ ليلةَ المعراجِ، وبعضُهُمْ استَثْنَى ابنَ عباسٍ فيمَنْ قالَ ذلك. وشيخُنا يقولُ: ليس ذلك بخلافٍ في الحقيقةِ، فإنَّ ابنَ عباسٍ لم يَقُلْ بعَيْنَيْ رَأْسِه، وعليه اعتمَدَ أحمدُ في إحدى الروايتَيْنِ حيثُ قالَ: إنه صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ رآهُ عَزَّ وجَلَّ، ولم يَقُلْ بعَيْنَيْ رَأسِه. ولفظُ أحمدَ لفظُ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما، ويدُلُّ على صِحَّةِ ما قالَ شَيْخُنا في معنَى حديثِ أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنه قولُه صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ في الحديثِ الآخَرِ: «**حِجَابُهُ النُّورُ**» فهذا النورُ هو -واللهُ أَعْلَمُ- النورُ المذكورُ في حديثِ أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه: «**رَأَيْتُ نُورًا**».

فصلٌ:

وقولُه تعالَى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النورُ: ٣٥]. هذا مَثَلٌ لنُورِه في قلبِ عبدِه المؤمِنِ، كما قالَ أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ وغيرُه، وقد اختُلِفَ في مُفسِّرِ الضميرِ في (نُورِه)، فقيلَ: هو النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، أيْ مَثَلُ نُورِ مُحمدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، وقيلَ: مُفسِّرُهُ المؤمنُ. أي مَثَلُ نُورِ المؤمنِ. والصحيحُ أنه يعودُ على اللهِ سبحانَهُ وتعالَى، والمعنَى: مَثَلُ نورِ اللهِ سبحانَه وتعالَى في قلبِ عبدِه. وأعظمُ عبادِه نصيبًا من هذا النورِ رسولُه صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، فهذا مع ما تَضَمَّنَهُ عَوْدُ الضميرِ المذكورِ، وهو وجهُ الكلامِ يَتضمَّنُ التقاديرَ الثلاثةَ، وهو أَتَمُّ لفظًا ومعنًى.

وهذا النورُ يُضافُ إلى اللهِ تعالَى إذ هو مُعطِيهِ لعَبدِه وواهِبُهُ إياهُ ويُضافُ إلى العبدِ إذ هو مَحَلُّه وقابِلُه، فيُضافُ إلى الفاعلِ والقابلِ، ولهذا النورِ فاعلٌ وقابلٌ ومَحَلٌّ وحالٌ ومادةٌ. وقد تَضمنَّتِ الآيةُ ذِكرَ هذه

[الطَّيِّبُ]:

([اللهُ] سُبْحَانَهُ طَيِّبٌ، وكلامُهُ طَيِّبٌ، وَفِعْلُهُ كلُّهُ طَيِّبٌ، ولا يَصْدُرُ منهُ إلاَّ الطَّيِّبُ، ولا يُضَافُ إليهِ إلاَّ الطَّيِّبُ، ولا يَصْعَدُ إليهِ إلاَّ الطَّيِّبُ، فالطَّيِّبَاتُ لهُ وصفاً وفعلاً وقولاً ونسبةً، وكلُّ طَيِّبٍ مُضَافٌ إليهِ، وكلُّ مُضَافٍ إليهِ طَيِّبٌ، فلهُ الكلماتُ الطيِّبَاتُ والأفعالُ الطيِّبَاتُ، وكلُّ مضافٍ إليهِ كـ«بَيْتِهِ» و«عَبْدِهِ» و«رُوحِهِ» و«نَاقَتِهِ» و«جَنَّتِهِ»، فهيَ طَيِّبَاتٌ.

وأيضاً فمعاني الكلماتِ الطيِّبَاتِ للهِ وحدَهُ؛ فإنَّ الكلماتِ الطَّيِّبَاتِ تَتَضَمَّنُ تَسْبِيحَهُ وتحميدَهُ وتكبيرَهُ وتمجيدَهُ والثناءَ عليهِ بآلائِهِ وأوصافِهِ، فهذهِ الكلماتُ الطيِّبَاتُ التي يُثْنَى عليهِ بها وَمَعَانِيهَا لهُ وحدَهُ لا يَشْرَكُهُ فيها غيرُهُ، كَسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وتَعَالَى جَدُّكَ وَلا إِلَهَ غَيْرُكَ، وَنَحْوَ: سُبْحَانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلاَّ اللهُ، واللهُ أكبرُ، ونحوَ: سُبحانَ اللهِ وبحمدِهِ سبحانَ اللهِ العظيمِ.

الأمورِ كُلِّها على وجهِ التفصيلِ، فالفاعلُ هو اللهُ تعالَى مُفِيضُ الأنوارِ الهادِي لنورِه مَن يشاءُ. والقابلُ: العبدُ المؤمنُ. والمحَلُّ: قَلْبُه، والحالُ: هِمَّتُه وعزيمتُه وإرادتُه، والمادةُ: قولُه وعمَلُه، وهذا التشبيهُ العجيبُ الذي تَضمَّنَتْهُ الآيةُ فيه من الأسرارِ والمعانِي، لإظهارِ تَمامِ نِعمَتِه على عبدِه المؤمنِ بما أنالَهُ من نُورِه ما تَقَرُّ به عُيونُ أهلِه وتَبْتَهِجُ قُلوبُهم، وفي هذا التشبيهِ لأهلِ المعانِي طَريقانِ:

إحداهُما: طريقةُ التشبيهِ المُركَّبِ، وهي أقْرَبُ مَأخذًا وأَسْلَمُ مِن التكلُّفِ، وهي أن تُشَبَّهَ الجُملةُ برُمَّتِها بنُورِ المُؤمنِ مِن غيرِ تَعرُّضٍ لفَصْلِ كُلِّ جُزءٍ من أجزاءِ المُشبَّهِ ومُقابلَتِهِ بجُزءٍ من المُشَبَّهِ به، وعلى هذا عامةُ أمثالِ القرآنِ، فتأمَّلْ صِفةَ المِشكاةِ وهي كُوَّةٌ لا تَنفُذُ لِتكُونَ أَجْمَعَ للضَّوْءِ قد وُضِعَ فيها المِصباحُ، وذلك المصباحُ داخلُ زُجاجةٍ تُشبِهُ الكَوكَبَ الدُّرِّيَّ في صَفائِها وحُسنِها، ومادتُه من أَصفَى الأذهانِ وأَتَمِّها وَقودًا من زيتِ شجرةٍ في وَسَطِ القِراحِ، لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ بحيثُ تُصيبُها الشمسُ في أحدِ طَرَفَي النهارِ، بل هي في وَسَطِ القِراحِ مَحمِيَّةٌ بأَطرافِه تُصيبُها الشمسُ أعدلَ إصابةٍ، والآفاتُ إلى الأطرافِ دُونَها، فمِن شدةِ إضاءةِ زيتِها وصفائِه وحُسنِه يَكادُ يُضيءُ مِن غيرِ أن تَمَسَّهُ نارٌ، فهذا المجموعُ المُركَّبُ هو مَثَلُ نُورِ اللهِ تعالَى وَضَعَهُ في قلبِ المؤمنِ وَخَصَّهُ به) ثم ذَكَرَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى الطريقةَ الثانيةَ وهي طريقةُ التشبيهِ المُفَصَّلِ، ثم بَيَّنَ تَضمُّنَ هذه الآياتِ لجميعِ طوائفِ بني آدَمَ بكَلامٍ مَتينٍ مِن عالِمٍ جليلٍ، فراجِعْهُ إن أَرَدْتَ الاستزادةَ.

فكلُّ طَيِّبٍ فَلَهُ وعندَهُ ومنهُ وإليهِ، وهوَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلاَّ طَيِّباً، وهوَ إِلَهُ الطَّيِّبِينَ، وَجِيرَانُهُ في دارِ كرامتِهِ هم الطَّيِّبُونَ.

فتَأَمَّلْ أَطْيَبَ الكلماتِ بعدَ القرآنِ كيفَ لا تَنْبَغِي إلاَّ للهِ، وهيَ: «**سُبْحَانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلاَّ اللهُ، واللهُ أكبرُ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ**».

فإنَّ «**سُبْحَانَ اللهِ**» تَتَضَمَّنُ تَنْـزِيهَهُ عنْ كلِّ نقصٍ وعَيْبٍ وسُوءٍ، وعنْ خصائصِ المخلوقِينَ وَشَبَهِهِم.

و«**الحَمْدُ للهِ**» تَتَضَمَّنُ إثباتَ كلِّ كمالٍ لهُ قولاً وفعلاً ووصفاً على أتمِّ الوجوهِ وأكملِهَا أَزَلاً وأبداً.

و«**لا إلهَ إلاَّ اللهُ**» تَتَضَمَّنُ انفرادَهُ بالإِلهيَّةِ، وأنَّ كلَّ معبودٍ سواهُ فباطلٌ، وأنَّهُ وحدَهُ الإلهُ الحقُّ، وأنَّهُ مَنْ تَأَلَّهَ غيرَهُ فهوَ بمنزلةِ مَن اتَّخَذَ بَيْتاً منْ بُيُوتِ العَنْكَبوتِ يَأْوِي إليهِ وَيَسْكُنُهُ.

و«**اللهُ أَكْبَرُ**» تَتَضَمَّنُ أنَّهُ أكبرُ منْ كلِّ شيءٍ وَأَجَلُّ وأعظمُ وأعزُّ وَأَقْوَى وَأَقْدَرُ وأَعْلَمُ وأَحْكَمُ، فهذهِ الكلماتُ الطَّيِّبَاتُ لا تَصْلُحُ هيَ وَمَعَانِيهَا إلاَّ للهِ وحدَهُ). [1]

(فهوَ طَيِّبٌ، وأفعالُهُ طَيِّبَةٌ، وصفاتُهُ أَطْيَبُ شَيْءٍ، وأسماؤُهُ أَطْيَبُ الأسماءِ، واسمُهُ «**الطَّيِّبُ**» لا يَصْدُرُ عنهُ إلاَّ طَيِّبٌ، ولا يَصْعَدُ إليهِ إلاَّ طيِّبٌ، ولا يَقْرُبُ منهُ إلاَّ طيِّبٌ، فكلُّهُ طيِّبٌ، وإليهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطيِّبُ، وَفِعْلُهُ طيِّبٌ، والعملُ الطيِّبُ يَعْرُجُ إليهِ، فالطيِّبَاتُ كُلُّهَا لهُ، ومُضَافَةٌ إليهِ، صادرةٌ عنهُ، ومُنْتَهِيَةٌ إليهِ، قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّباً**». [2] وفي حديثِ

(١) الكلامُ على مسألةِ السماعِ (٢٠٨ - ٢٠٩).

(٢) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٥٦٦.

رُقْيَةِ المريضِ الذي رَواهُ أبو دَاوُدَ وَغيْرُهُ: «أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ».(١) ولا يُجاوِرُهُ مِنْ عبادِهِ إلاَّ الطيِّبُونَ كما يُقَالُ لأهلِ الجنَّةِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزمر: ٧٣].

وقدْ حَكَّمَ سبحانَهُ شَرْعَهُ وقَدَرَهُ أنَّ الطيِّباتِ للطيِّبينَ، فإذا كانَ هوَ سُبْحانَهُ الطيِّبَ على الإطلاقِ، فالكلماتُ الطيِّباتُ، والأفعالُ الطيِّباتُ، والصِّفاتُ الطيِّباتُ، والأسماءُ الطيِّباتُ كُلُّها لهُ سبحانَهُ لا يَسْتَحِقُّهَا أحدٌ سِواهُ، بلْ ما طَابَ شَيْءٌ قَطُّ إلاَّ بِطِيبَتِهِ سبحانَهُ، فَطِيبُ كُلِّ ما سِواهُ منْ آثَارِ طِيبَتِهِ). (٢)

[العَدْلُ]:

(ومِنْ أسمائِهِ الحُسْنَى «**العدلُ**» الذي كلُّ أفعالِهِ وأحكامِهِ سدادٌ وصوابٌ وحقٌّ)(٣)، ([فهوَ] العدلُ الذي لا يَجُورُ ولا يَظْلِمُ، ولا يَخَافُ عبادُهُ منهُ ظُلْماً. [و] هذا مِمَّا اتَّفَقَتْ عليهِ جميعُ الكتبِ والرُّسُلِ، وهوَ من المُحْكَمِ الذي لا يَجُوزُ أنْ تَأْتِيَ شريعةٌ بخلافِهِ، ولا يُخْبِرُ نَبِيٌّ بخلافِهِ أصلاً). (٤)

([قالَ] تعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

[و]القِسْطُ: هوَ العدلُ، فَشَهِدَ اللهُ سبحانَهُ أَنَّهُ قائمٌ بالعدلِ في توحيدِهِ بالوحدانيَّةِ في عدلِهِ. و«التوحيدُ» و«العدلُ» هما جِمَاعُ صفاتِ الكمالِ: فإنَّ «التوحيدَ» يَتَضَمَّنُ تَفَرُّدَهُ سبحانَهُ بالكمالِ والجلالِ والمَجْدِ والتعظيمِ الذي لا يَنْبَغِي لأحدٍ سِوَاهُ.

(١) رواهُ أبو داودَ في كتابِ الطبِّ / بابُ كيفَ الرُّقَى (٣٨٨٦) عن أبي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٢) كتابُ الصلاةِ (١٨٢ - ١٨٣).

(٣) الفوائدُ (٤٧).

(٤) هدايةُ الحَيارَى (٥٢٥).

و«**العدْلَ**» يَتَضَمَّنُ وُقُوعَ أفعالِهِ كُلِّهَا على السدادِ والصوابِ وموافقةِ الحكمةِ)[1]

([فـ]**العدْلُ** يَتَضَمَّنُ وَضْعَهُ الأشياءَ مَوْضِعَهَا، وَتَنْزِيلَهَا مَنَازِلَهَا، وأنَّهُ لم يَخُصَّ شيئاً منها إلاَّ بمُخَصِّصٍ اقْتَضَى ذلكَ، وأنَّهُ لا يُعَاقِبُ مَنْ لا يَسْتَحِقُّ العقوبَةَ، ولا يَمْنَعُ مَنْ يَسْتَحِقُّ العطاءَ، وإنْ كانَ هوَ الذي جعلَهُ مُسْتَحقًّا).[2]

(والعدلُ مِنْ أوصافِهِ في فعلِهِ ومقالِهِ والحكمُ بالميزانِ
فعلى الصراطِ المستقيمِ إلَهُنَا قَوْلاً وفعلاً ذاكَ في القرآنِ)[3]

([فـ]هوَ على الصراطِ المستقيمِ، وهوَ صِرَاطُ العدلِ والإحسانِ في أمرِهِ ونَهْيِهِ، وثوابِهِ وعقابِهِ).[4]

[المجيدُ]:

(«**المجيدُ**» مَن اتَّصفَ بصفاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ منْ صفاتِ الكمالِ، ولَفْظُهُ يَدُلُّ على هذا؛ فإنَّهُ مَوْضُوعٌ للسَّعَةِ والكثرةِ والزيادةِ؛ ((لأنَّ لَفْظَ «م ج د» في لُغَتِهِم يدُورُ على معنَى الاتِّسَاعِ والكثرةِ، فمنهُ قولُهُم: أَمجَدَ النَّاقَةَ عَلَفاً؛ أيْ: أَوْسَعَهَا عَلَفاً، ومنهُ: مَجُدَ الرَّجُلُ فهوَ مَاجِدٌ إذا كَثُرَ خَيْرُهُ وإحسانُهُ إلى الناسِ، قالَ الشاعِرُ:

أَنْتَ تَكُونُ مَاجِدٌ نَبِيل إذا تَهُبُّ شَمْأَلٌ بَلِيلُ[5]

---

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٤٢٣).

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٤٢٧).

(٣) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٧). ويشيرُ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَى- في البيتِ الأخيرِ إلى قولِه تعالَى في سورةِ هُودٍ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾، وقولِه في سُورةِ النحلِ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٦﴾. وقد تقدَّمَ الكلامُ على هاتينِ الآيتينِ في البابِ الثامنَ عَشَرَ.

(٤) مفتاحُ دارِ السعادةِ (٢/ ٤٨٦). وانظُرْ كِتابَ الضوءِ المُنيرِ (٣/ ٤٩١).

(٥) هذا البيتُ لأمِّ عَقِيلِ بنِ أبي طَالبٍ كانَتْ تُلَعِّبُ به ابْنَها.

ومنهُ قولُهُم: في كلِّ شَجرٍ نارٌ، وَاسْتَمْجَدَ المَرْخُ والعَفارُ؛ أيْ: كَثُرت النَّارُ فيهما)).[1]

ومنهُ: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥﴾ [البروج: ١٥] صفةٌ للعرشِ لِسَعَتِهِ وعِظَمِهِ وشَرَفِهِ.

وتأَمَّلْ كيفَ جاءَ هذا الاسمُ مُقْتَرِناً بطلبِ الصلاةِ من اللهِ على رسولِهِ كما عَلَّمَنَاهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّهُ في مَقَامِ طَلَبِ المزيدِ والتَّعَرُّضِ لِسَعَةِ العطاءِ وكثرتِهِ ودوامِهِ، فَأَتَى في هذا المطلوبِ باسمٍ تَقْتَضِيهِ كما تقولُ: اغْفِرْ لي وَارْحَمْنِي إنَّكَ أنتَ الغفورُ الرحيمُ، ولا يَحْسُنُ: إنَّكَ أنتَ السميعُ البصيرُ).[2]

(وهوَ المجيدُ صفاتُهُ أوصافُ تعظيمٍ فشأْنُ الوصفِ أَعْظَمُ شَانِ)[3]

([فـ]المَجْدُ... مُسْتَلْزِمٌ للعظمةِ والسَّعَةِ والجلالِ كما يَدُلُّ عليهِ موضوعُهُ في اللغةِ، فهوَ دالٌّ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ)[4]، (و... **التَّمْجِيدُ** هوَ الثناءُ بصفاتِ العظمةِ والجلالِ).[5]

[الشَّهِيدُ]:

(منْ أسمائِهِ «**الشهيدُ**» الذي لا يَغِيبُ عنهُ شيءٌ، ولا يَعْزُبُ عنهُ مثقالُ ذرَّةٍ في الأرضِ ولا في السماءِ، بلْ هوَ مُطَّلِعٌ على كلِّ شيءٍ مُشَاهِدٌ لهُ، عليمٌ بتفاصيلِهِ...

---

(١) بَدَائِعُ الفوائدِ (٢/ ٩٣)، الضوءُ المنيرُ (١/ ٣٣).

(٢) بَدَائِعُ الفوائدِ (١/ ١٦٠).

(٣) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢٤٠).

(٤) جلاءُ الأفهامِ (١٦٥).

(٥) الكلامُ على مسألةِ السَّماعِ (١٩٨).

وقال رَحِمَهُ اللهُ تعالَى في القصيدةِ النونيةِ (٢٤٠):

(وهُوَ المَجِيدُ صِفَاتُهُ أَوْصَافُ تَعْـ ـظِيمٍ فَشَأْنُ الوَصْفِ أَعْظَمُ شَانِ)

بحيثُ لا يَغِيبُ عنهُ وَجْهٌ مِنْ وُجُوهِ تفاصيلِهِ، ولا ذَرَّةٌ من ذَرَّاتِهِ بَاطِنًا وظاهرًا.

وَمَنْ هذا شَأْنُهُ: كيفَ يَلِيقُ بالعبادِ أنْ يُشْرِكُوا بِهِ، وأنْ يَعْبُدُوا معهُ غيرَهُ؟! وأنْ يَجْعَلُوا معهُ إلهًا آخرَ؟!).[1]

([فهُوَ] الشاهِدُ الذي لا يَغِيبُ، ولا يَسْتَخْلِفُ أحدًا على تَدْبيرِ مُلْكِهِ، ولا يَحْتَاجُ إلى مَنْ يَرْفَعُ إليهِ حوائجَ عبادِهِ، أوْ يُعَاوِنُهُ عليها، أوْ يَسْتَعْطِفُهُ عليهم، وَيَسْتَرْحِمُهُ لهمْ).[2]

[الحَسِيبُ]:

(الحَسْبُ: الكافِي)[3]، (قالَ اللهُ تعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]؛ أيْ: كَافِيه).[4]

(وقالَ تعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال:٦٤]؛ أي: اللهُ وَحْدَهُ كَافِيكَ وَكَافِي أَتْبَاعِكَ، فلا تَحْتَاجُونَ معهُ إلى أحدٍ).[5]

(وهُوَ الحسيبُ كفايَةً وحمايَةً ... والحَسْبُ كافِي العبدِ كلَّ أوَانِ)[6]

(يا مَنْ يُرِيدُ ولايَةَ الرحمنِ دُو ... نَ ولايَةِ الشيطانِ والأوثانِ

فَارِقْ جَمِيعَ الناسِ في إشرَاكِهِم ... حتَّى تَنَالَ ولايَةَ الرحمنِ

يَكْفِيكَ مَنْ وَسِعَ الخلائقَ رَحْمَةً ... وكفايَةً ذُو الفضلِ والإحسانِ

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٤٣٣).

(٢) هدايةُ الحَيَارَى (٥٢٤).

(٣) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ١٠٣).

(٤) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ١٠٣).

(٥) زَادُ المَعادِ (١/ ٣٤).

(٦) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢٤٧).

يَكْفِيكَ مَنْ لَمْ تَخْلُ مِنْ إِحْسَانِهِ ... فِي طَرفةٍ بِتَقَلُّبِ الأجفانِ
يَكْفِيكَ رَبٌّ لم تَزَلْ أَلْطَافُهُ ... تَأْتِي إليكَ برحمةٍ وحنانِ
يَكْفِيكَ رَبٌّ لَمْ تَزَلْ في سِتْرِهِ ... وَيَرَاكَ حِينَ تَجِيءُ بالعصيانِ
يَكْفِيكَ رَبٌّ لم تَزَلْ في حِفْظِهِ ... ووقايَةٍ منهُ مَدَى الأزمانِ
يَكْفِيكَ رَبٌّ لم تَزَلْ في فَضْلِهِ ... مُتَقَلِّباً في السرِّ والإعلانِ
يَدْعُوهُ أهلُ الأرضِ معْ أهلِ السَّما ... ءِ فكُلَّ يومٍ رَبُّنَا في شانِ(١)

[القَرِيبُ]:

(وهوَ القَرِيبُ وَقُرْبُهُ المُخْتَصُّ بِالدَّ ... اعِي وَعابِدِهِ عَلَى الإيمَانِ(٢))

([فـ]قُرْبُ الربِّ تَعَالَى إِنَّمَا وَرَدَ خاصًّا لا عَامًّا، وهوَ نَوْعَانِ:

- قُرْبُهُ مِنْ داعِيهِ بالإجابةِ.
- ومِنْ مُطِيعِهِ بالإثابةِ.

ولمْ يَجِئِ القُرْبُ كما جاءَت المَعِيَّةُ خَاصَّةً وعامَّةً، فليسَ في القرآنِ ولا في السُّنَّةِ أنَّ اللهَ قَرِيبٌ مِنْ كلِّ أحدٍ، وأنَّهُ قريبٌ من الكافرِ والفاجرِ، وإنَّما جاءَ خاصًّا كقولِهِ تعَالَى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فهذا قُرْبُهُ مِنْ داعِيهِ وسائِلِيه.

وقالَ تعَالَى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦]، **ولم يَقُلْ: قَرِيبَةٌ، وَإِنَّما كَانَ الخبرُ عنها مُذَكَّراً:**

- إمَّا لأنَّ «فَعِيلاً» بينَهُ وبينَ «فَعُولٍ» اشْتِرَاكٌ مِنْ وُجُوهٍ: منها الوزنُ والعددُ والزيادةُ والمبالغةُ، وكونُ كلٍّ منهما يَكُونُ مَعْدُولاً عنْ فاعلٍ تارةً، وعنْ مفعولٍ

---

(١) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٣٤٠-٣٤١).

(٢) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢٤٥).

أُخْرَى، وَمَجِيئُهما صِفَتَيْنِ وَاسْمَيْنِ، و«فعولٌ» إذا كانَ مَعْدُولاً عنْ فاعلٍ اسْتَوَى مُذَكَّرُهُ ومُؤَنَّثُهُ في عدمِ إلْحَاقِ التاءِ؛ كامرأةٍ نَئُومٍ وَضَحُوكٍ، فَحَمَلُوا فَعِيلاً عليهِ في بعضِ المواضعِ لعقدِ الأُخُوَّةِ التي بَيْنَهُمَا.

• وإمَّا لأنَّ قريباً مَعْدُولٌ عنْ مفعولٍ في المعنَى، كَأَنَّهَا قُرِّبَتْ منهم وَأُدْنِيَتْ، وهمْ يُرَاعُونَ اللفظَ تارةً والمعنى أُخْرَى...

• وإمَّا على حَذْفِ مضافٍ يكونُ «قريبٌ» خبراً عنهُ، تقديرُهُ: مكانُ رحمةِ اللهِ أوْ تَنَاوُلُهَا ونحوُ ذلكَ قريبٌ.

• وإمَّا على تقديرِ مَوْصُوفٍ محذوفٍ يكونُ «قريبٌ» صفةً لهُ، تقديرُهُ: أَمْرٌ أوْ شيءٌ قريبٌ؛ كقولِ الشاعرِ:

قَامَتْ تُبَكِّيهِ على قَبْرِهِ ... مَنْ لِيَ مِنْ بَعْدِكَ يا عَامِرُ
تَرَكْتَنِي في الدارِ ذا غُرْبَةٍ ... قدْ ذَلَّ مَنْ ليسَ لهُ نَاصِرُ

أيْ: شَخصاً ذا غُرْبَةٍ. وعلى هذا حَمَلَ سِيبَوَيْهِ «حَائِضاً» و«طَالِقاً» و«طَامِثاً» ونحْوَهَا.

• وإمَّا على اكتسابِ المضافِ حُكْمَ المضافِ إليهِ، نحوَ: ذَهَبَتْ بَعْضُ أصابعِهِ، وَتَوَاضَعَتْ سُورُ المدينةِ وبابُهُ.

• وإمَّا مِن الاستغناءِ بأحدِ المذكورَيْنِ عن الآخرِ والدلالةِ بالمذكورِ على المحذوفِ، والأصلُ: إنَّ اللهَ قَرِيبٌ من المحسنِينَ، ورحمَتَهُ قريبةٌ منهم، فيكونُ قدْ أَخْبَرَ عنْ قُرْبِ ذاتِهِ وقُرْبِ ثوابِهِ من المحسنِينَ، واكْتَفَى بالخبرِ عنْ أَحَدِهِمَا عن الآخرِ، وقريبٌ منهُ: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]. وَمِثْلُهُ على أحدِ الوُجُوهِ: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ الآيَةَ [الشعراء: ٤]؛ أيْ: فَذَلُّوا لها خَاضِعِينَ، فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُم لها خَاضِعَةً.

• وإمَّا لأنَّ القريبَ يُرَادُ بِهِ شيئانِ:

• أحدُهُمَا: **النَّسَبُ والقرابةُ**، فهذا يُؤَنَّثُ، تقولُ: هذهِ قريبةٌ لي وقَرَابَةٌ.

• والثاني: **قُرْبُ المكانِ والمنزلةِ**. وهذا يُجَرَّدُ عن التاءِ، تقولُ: جَلَسَتْ فلانةُ قَرِيباً مِنِّي. هذا في الظرفِ، ثُمَّ أَجْرَوا الصفةَ مُجْرَاهُ للأُخُوَّةِ التي بَيْنَهُمَا، حيثُ لمْ يُرِدْ بكلِّ واحدٍ منهما نَسَبٌ ولا قرابةٌ، وإنَّمَا أُرِيدَ قربُ المكانةِ والمنزلة.(١)

• وإمَّا لأنَّ تأنيثَ الرحمةِ لَمَّا كانَ غيرَ حَقِيقِيٍّ سَاغَ حذفُ التاءِ منْ صفتِهِ وخبرِهِ كما سَاغَ حَذْفُهَا من الفعلِ، نحوَ: طَلَعَ الشمسُ.

• وإمَّا لأنَّ قَرِيباً مصدرٌ لا وَصْفٌ كالنقيضِ والعويلِ والوجيبِ مُجَرَّدٍ عن التاءِ؛ لأنَّكَ إذا أَخْبَرْتَ عن المُؤَنَّثِ بالمصدرِ لمْ تَلْحَقْهُ التاءُ، كما تَقُولُ: امْرَأَةٌ عَدْلٌ، وصَوْمٌ ونَوْمٌ.

والذي عندي أنَّ الرحمةَ لَمَّا كانتْ منْ صفاتِ اللهِ تَعَالَى، وصفاتُهُ قائمةٌ بذاتِهِ، فإذا كانتْ قَرِيبَةً من المحسنينَ، فهوَ قريبٌ سبحانَهُ منهم قَطْعاً، وقدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ سبحانَهُ قريبٌ منْ أهلِ الإحسانِ، ومنْ أهلِ سُؤَالِهِ بإجابتِهِ.

وَيُوَضِّحُ ذلكَ أنَّ الإحسانَ يَقْتَضِي قُرْبَ العبدِ منْ ربِّهِ، فَيَقْرُبُ ربُّهُ منهُ... فإنَّهُ مَنْ تَقرَّبَ منهُ شِبْراً يَتَقَرَّبُ منهُ ذِرَاعاً، ومَنْ تَقرَّبَ منهُ ذِرَاعاً تَقرَّبَ منهُ بَاعاً، فهوَ قريبٌ من المُحْسِنِينَ بذاتِهِ ورحمتِهِ قُرْباً ليسَ لهُ نظيرٌ، وهوَ معَ ذلكَ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ على عرشِهِ، كما أَنَّهُ سبحانَهُ يَقْرُبُ منْ عبادِهِ في آخرِ الليلِ وهوَ

---

(١) ومن شواهدِ إطلاقِ لفظةِ «قريبٍ» على المؤنثِ مُرادًا به قُربُ المَكانِ - حتى في غيرِ الظرفِ - قولُ امرئِ القيسِ في قصيدتِه الرائيةِ الشهيرةِ:

لَـهُ الـوَيْـلُ إِنْ أَمْـسَـى ولاَ أُمُّ هَاشِمٍ   قَـرِيـبٌ وَلا البَسْبَاسَةُ ابْـنَـةُ يَشْكُرَا

ومن شواهدِ إطلاقِ هذه اللفظةِ على اللفظِ المؤنَّثِ لإرادةِ قُربِ الزمانِ قولُ اللهِ تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى: ١٧].

فَوْقَ عرشِهِ، وَيَدْنُو منْ أهلِ عَرَفَةَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ، وهوَ على عرشِهِ، فإنَّ عُلُوَّهُ سبحانَهُ على سَماواتِهِ منْ لَوازِمِ ذاتِهِ، فلا يكونُ قطُّ إلاَّ عالياً، ولا يكونُ فَوْقَهُ شيءٌ الْبَتَّةَ، كما قالَ أعلمُ الخلقِ: «وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ».[1] وهوَ سبحانَهُ قريبٌ في عُلُوِّهِ، عالٍ في قُرْبِهِ، كما في الحديثِ الصحيحِ عنْ أبي مُوسَى الأشعريِّ قالَ: كُنَّا معَ رسولِ اللهِ في سَفَرٍ فارْتَفَعَتْ أَصْواتُنا بالتكبيرِ، فقالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِباً، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ».[2]

فَأَخْبَرَ وهوَ أَعْلَمُ الخلقِ بهِ أنَّهُ أقربُ إلى أحدِهِم منْ عُنُقِ راحلتِهِ، وَأَخْبَرَ أنَّهُ فوقَ سَماواتِهِ على عَرْشِهِ مُطَّلِعٌ على خلقِهِ، يَرَى أَعْمالَهُم، وَيَعْلَمُ ما في بُطُونِهِم، وهذا حَقٌّ لا يُنَاقِضُ أَحَدُهُما الآخرَ.

والذي يُسَهِّلُ عليكَ فَهْمَ هذا: مَعْرِفَةُ عظمةِ الربِّ وإحاطتِهِ بخلقِهِ، وأنَّ السَّماواتِ السبعَ في يَدِهِ كَخَرْدَلَةٍ في يَدِ العبدِ، وأنَّهُ سبحانَهُ يَقْبِضُ السَّماواتِ بيدِهِ والأرضَ بيدِهِ الأُخْرَى، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ.

فكيفَ يَسْتَحِيلُ في حقِّ مَنْ هذا بعضُ عَظَمَتِهِ أنْ يكونَ فوقَ عرشِهِ، وَيقْرُبَ منْ خلقِهِ كيفَ شاءَ وهوَ على العرشِ).[3][4]

---

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٣٣٥.

(٢) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٤٦٠.

(٣) مُخْتَصَرُ الصواعقِ المرسَلَةِ (٣٩٥-٣٩٧)

(٤) وقال - رَحِمَهُ اللهُ تَعالى - "في طريقِ الهجرتينِ" (٢١-٢٣): (وأمَّا القُربُ المذكورُ في القرآنِ والسُّنَّةِ فقُربٌ خاصٌّ مِن عَابِدِيهِ وسَائِليهِ ودَاعِيه، وهو من ثَمْرَةِ التعبُّدِ باسمِه الباطِنِ، قالَ تعالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. فهذا قُرْبُه مِن داعِيه، وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦]. فوحَّدَ الخبرَ وهو «قريبٌ» عن لفظِ «الرحمةِ» وهي مُؤنثَّةٌ إيذانًا بقُربِه تعالَى من المُحسِنِ، فكأنه قالَ: إنَّ اللهَ برحمتِهِ قَرِيبٌ مِن المُحسنينَ. وفي الصحيحِ عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ قالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وهو ساجِدٌ» و«أَقْرَبُ

مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»، فهذا قُربٌ خاصٌّ غيرُ قُربِ الإحاطةِ وقربُ البُطونِ. وفي «الصحيح» من حديثِ أبي مُوسَى أنهم كانوا مع النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ في سَفَرٍ، فارتفعَتْ أصواتُهم بالتكبيرِ فقالَ: «أيُّها الناسُ، ارْبَعُوا على أنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ ولا غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ».

وقال في كتابِ "الفوائدِ" (٢٦): (ثُمَّ أخبرَ عن قُربِه إليه بالعلمِ والإحاطةِ، وأن ذلك أَدْنَى إليه مِن العِرقِ الذي هو داخلُ بَدنِه، فهو أقربُ إليه بالقدرةِ عليه والعلمِ به مِن ذلك العِرْقِ. وقال شيخُنا: المرادُ بقولِه: «نَحْنُ» أي: مَلائِكتُنا، كما قالَ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ١٨﴾ أي: إذا قَرَأَهُ عليك رسولُنا جِبريلُ. قال: يَدُلُّ عليه قولُه: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾، فقيَّد القُربَ المذكورَ بتَلَقِّي الملكَيْنِ، ولو كانَ المرادُ به قُربَ الذاتِ لم يَتَقيَّدْ بوقتِ تلقِّي المَلَكَيْنِ، فلا حُجَّةَ في الآية لحُلُوليٍّ ولا مُعطِّلٍ).

وقال كما في "مُختصرِ الصواعقِ المُرسَلَةِ" (٣٩٥-٣٩٦): (وأما قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ١٦﴾ فهذه الآيةُ لها شأنٌ، وقد اختلَفَ فيها السلَفُ والخلَفُ على قولينِ:

- فقالَت طائفةٌ: نحنُ أَقْرَبُ إليه بالعلمِ والقدرةِ والإحاطةِ. وعلى هذا فيكونُ المرادُ قُربَهُ سُبحانَهُ بنَفْسِه، وهو نفوذُ قُدرتِهِ ومَشِيئَتِه فيه وإحاطةُ عِلمِهِ به.

والقولُ الثاني: أن المرادَ قُربُ ملائكتِه منه، وأضافَ ذلك إلى نفسِه بصيغةِ ضميرِ الجمعِ على عادةِ العُظماءِ في إضافةِ أفعالِ عَبيدِها إليها بأوامرِهم ومَراسيمِهم، فيقولُ المَلِكُ: نَحْنُ قَتلْنَاهُم وهَزَمْنَاهُم، قال تعالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ١٨﴾ وجَبرائيلُ هو الذي يَقْرَؤُه على رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، وقالَ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ فأضافَ قَتْلَ المُشركينَ يومَ بدرٍ إليهِ، وملائكتُه هم الذين بَاشَرُوه؛ إذ هو بأمرِه. وهذا القولُ هو أصحُّ من الأولِ لوجوهٍ:

أحدُها: أنه سُبحانَهُ قيَّدَ القُربَ في الآيةِ بالظَّرْفِ، وهو قولُه: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ كالعاملِ في الظرفِ ما في قولِه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ مِن مَعنَى الفعلِ، ولو كان المرادُ قُربَهُ سُبحانَهُ بنَفْسِه لم يتقيَّدْ ذلك بوقتِ تَلقِّي المَلَكَيْنِ، ولا كان في ذِكرِ التقيُّدِ به فائدةٌ؛ فإنَّ عِلمَهُ سُبحانَهُ وقُدرتَهُ ومشيئَتَهُ عامةُ التعلقِ.

الثاني: أن الآيةَ تكونُ قد تَضمَّنَتْ عِلمَهُ وكِتابَةَ مَلائكتِه لعملِ العبدِ، وهذا نظيرُ قولِه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ٨٠﴾، وقريبٌ منه قولُه تعالَى في أولِ السورةِ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ٤﴾ ونحوُ قولِه: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ٥٢﴾.

الثالثُ: أن قُربَ الربِّ تعالى إنما وَرَدَ خاصًّا لا عامًّا.

[التَّوَّابُ]:

(وكذلكَ التوَّابُ منْ أوصافِهِ والتَّوْبُ في أوصافِهِ نَوْعَانِ
إِذْنٌ بتوبةِ عبدِهِ وَقَبُولُها بعدَ المَتَابِ بِمِنَّةِ المنَّانِ[1])

([فـ]توبةُ العبدِ إلى اللهِ محفوفةٌ بتوبةٍ من اللهِ عليهِ قَبْلَهَا، وتوبةٍ منهُ بعدَهَا، فتوبتُهُ بينَ تَوْبَتَيْنِ منْ ربِّهِ: سابقةٍ ولاحقةٍ؛ فإنَّهُ تابَ عليهِ أوَّلاً إِذْناً وتَوْفِيقاً وَإِلْهاماً فتابَ العبدُ؛ فتابَ اللهُ عليهِ ثانياً قبولاً وإثابةً.

قالَ اللهُ سبحانَهُ وتعالَى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٧-١١٨]. فَأَخْبَرَ سبحانَهُ أنَّ تَوْبَتَهُ عليهم سَبَقَتْ تَوْبَتَهُم، وأنَّها هيَ التي جَعلَتْهُم تَائِبينَ. فكانتْ سَبَباً مُقْتَضِياً لِتَوْبَتِهِم، فدَلَّ على أنَّهُم ما تَابُوا حتَّى تَابَ اللهُ تَعالَى عليهم، والحكمُ يَنْتَفِي لانتفاءِ عِلَّتِهِ.

وَنَظِيرُ هذا: هِدَايَتُهُ لِعَبْدِهِ قبلَ الاهتداءِ، فَيَهْتَدِي بهدايتِهِ، فَتُوجِبُ لهُ تلكَ الهدايَةُ هدايَةً أُخْرَى يُثِيبُهُ اللهُ بها هدايَةً على هدايتِهِ، فإنَّ مِنْ ثوابِ الهُدَى: الهُدَى بعدَهُ، كما أنَّ من عُقُوبةِ الضلالةِ: الضلالةَ بَعْدَهَا. قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمَّد: ١٧]. فَهَدَاهُم أَوَّلاً فَاهْتَدَوْا، فزادَهُم هُدًى ثانياً. وَعَكْسُهُ في أهلِ الزَّيْغِ، كقولِهِ تَعالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. فهذهِ الإزاغَةُ الثانيَةُ عُقُوبَةٌ لهم على زَيْغِهِم.

(١) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢٤٦).

وهذا القدرُ منْ سرِّ اسْمَيْهِ «**الأوَّلِ والآخرِ**» فهوَ المُعِدُّ وهوَ المُمِدُّ، ومنهُ السَّببُ والمُسَبَّبُ، وهوَ الذي يُعِيذُ منْ نفسِهِ بنفسِهِ، كما قالَ أَعْرَفُ الخلقِ بهِ: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**».

والعبدُ تَوَّابٌ، واللهُ تَوَّابٌ، فتوبةُ العبدِ: رُجُوعُهُ إلى سَيِّدِهِ بعدَ الإِبَاقِ، وتوبةُ اللهِ نَوْعَانِ: إِذْنٌ وَتَوْفِيقٌ، وَقَبُولٌ وإمدادٌ). (١)

[الوَاجِدُ]:

(«**الوَاجِدُ**» في أسمائِهِ سبحانَهُ... بمعنَى: ذُو الوُجدِ والغِنَى، وهوَ ضِدُّ الفاقِدِ، وهوَ كالمُوسِعِ ذِي السَّعَةِ، قالَ تعَالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾ [الذاريات:٤٧]؛ أيْ: ذَوُو سَعَةٍ وقدرةٍ وملكٍ، كما قالَ تَعَالَى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

---

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٣١٩-٣٢٠).

مُلْحَقٌ:

وقال -رَحِمَهُ اللهُ تَعالى- (ومنها تعريفُه عبادَه كَرَمَهُ سُبحانَهُ في قَبُولِ تَوبتِه ومَغفِرَتِه له على ظُلمِه وإساءَتِه، فهو الذي جادَ عليه بأنْ وَفَّقَهُ للتوبةِ، وأَلْهَمَهُ إياهَا، ثم قَبِلَهَا منه فتابَ عليه أولاً وآخِرًا، فتوبةُ العبدِ محفوفةٌ بتوبةٍ قَبلَها عليه من اللهِ إذنًا وتوفيقًا وتوبةً ثانيةً منه عليه قبولاً ورضًا، فله الفضلُ في التوبةِ والكرمِ أولاً وآخِرًا لا إلهَ إلا هو) مفتاحُ دارِ السعادةِ (٢/ ٢٧٣).

* وقال أيضًا: (وشَرَعَ لهم التوبةَ الهادمةَ للذُّنوبِ فوَفَّقَهُم لفِعْلِها ثم قَبِلَها منهم) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (٣٢٣).

* وقال أيضًا: (فكما رَجَعَ التائبُ إلى اللهِ بقلبِه رُجوعًا تامًّا رَجعَ اللهُ عليه بمنزلتِهِ وحَالِهِ بل ما رَجعَ العبدُ إلى اللهِ تعالَى حتى رَجَعَ اللهُ بقلبِه إليه أولاً فرَجَعَ اللهُ إليه وتابَ عليه ثانيًا، فتوبةُ العبدِ محفوفَةٌ بتَوْبَتَيْنِ مِن اللهِ: توبةٌ منه إذنًا وتمكينًا فتابَ بها العبدُ، وتابَ اللهُ عليه قَبُولاً ورِضًى. فتوبةُ العبدِ بينَ تَوبتَينِ مِن اللهِ، وهذا يَدُلُّ على عِنايَتِهِ سُبحانَهُ وبرِّهِ ولُطفِه بعَبدِه التائبِ). طريقُ الهجرتينِ (٢٣٧ - ٢٣٨).

وَدَخَلَ في أسمائِهِ سبحانَهُ «**الواجِدُ**» دونَ «المُوجِدِ»؛ فإنَّ «المُوجِدَ» صفةُ فِعْلٍ، وهوَ مُعْطِي الوجودِ؛ كالمُحْيِي مُعْطِي الحياةِ، وهذا الفعلُ لمْ يَجِئْ إطلاقُهُ في أفعالِ اللهِ في الكتابِ ولا في السُّنَّةِ، فلا يُعْرَفُ إطلاقُ: أَوْجَدَ اللهُ كذا وكذا. وَإِنَّما الذي جاءَ: خَلَقَهُ وَبَرَأَهُ وَصَوَّرَهُ وَأَعْطَاهُ خَلْقَهُ، ونحوُ ذلكَ.

فلَمَّا لمْ يَكُنْ يُسْتَعْمَلُ فِعْلُهُ لمْ يَجِئِ اسمُ الفاعلِ منهُ في أسمائِهِ الحُسْنَى؛ فإنَّ الفعلَ أَوْسَعُ من الاسمِ، ولهذا أَطْلَقَ اللهُ على نفسِهِ أَفْعَالاً لمْ يَتَسَمَّ منها بأسماءِ الفاعلِ، كَأَرَادَ، وَشَاءَ، وَأَحْدَثَ. ولمْ يُسَمَّ بـ«المُرِيدِ» و«الشَّائِي» و«المُحْدِثِ»، كَمَا لمْ يُسَمِّ نَفْسَهُ «بالصَّانِعِ» و«الفاعِلِ» و«المُتْقِنِ» وغيرِ ذلكَ من الأسماءِ التي أَطْلَقَ على نفسِهِ [أَفْعَالَهَا]، فبابُ الأفعالِ أَوْسَعُ منْ بابِ الأسماءِ.

وقدْ أَخْطَأَ أَقْبَحَ خَطَإٍ مَن اشْتَقَّ لهُ منْ كلِّ فِعْلٍ اسماً، وبَلَغَ بأسمائِهِ زيادةً على الأَلْفِ، فَسَمَّاهُ «المَاكِرَ، والمُخَادِعَ، والفَاتِنَ، والكَائِدَ»، ونحوَ ذلكَ.

وكذلكَ بابُ الإخبارِ عنهُ بالاسمِ أَوْسَعُ منْ تَسْمِيَتِهِ بِهِ، فإنَّهُ يُخْبَرُ عنهُ بأنَّهُ «شَيْءٌ وَمَوْجُودٌ، وَمَذْكُورٌ، وَمَعْلُومٌ، وَمُرَادٌ»، لا يُسَمَّى بذلكَ.

فأمَّا «**الواجِدُ**» فلمْ تَجِئْ تَسْمِيَتُهُ بِهِ إلاَّ في حديثِ تَعْدَادِ الأسماءِ الحُسْنَى.(١) والصحيحُ: أنَّهُ ليسَ منْ كلامِ النبيِّ، ومعناهُ صحيحٌ؛ فإنَّهُ ذو الوُجْدِ والغِنَى، فهوَ أَوْلَى بأنْ يُسَمَّى بِهِ من «**الموجودِ**» ومن «**المُوجِدِ**»، أمَّا «**المَوْجُودُ**» فإنَّهُ مُنْقَسِمٌ إلى كاملٍ وناقصٍ، وخيرٍ وشرٍّ، وما كانَ مُسَمَّاهُ مُنْقَسِماً لمْ يَدْخُلِ اسْمُهُ في الأسماءِ الحُسْنَى، كالشيءِ والمعلومِ، ولذلكَ لمْ يُسَمَّ بالمُرِيدِ، ولا بالمُتَكَلِّمِ وإنْ كانَ لهُ الإرادةُ والكلامُ، لانْقِسَامِ مُسَمَّى «المُرِيدِ» و«المُتَكَلِّمِ». وأمَّا «**المُوجِدُ**» فقدْ سَمَّى نَفْسَهُ بأكملِ أنواعِهِ، وهوَ (**الخالِقُ، البارِئُ، المُصَوِّرُ**)، فالمُوجِدُ كالمُحْدِثِ والفاعلِ والصانعِ، وهذا مِنْ دقيقِ فِقْهِ الأسماءِ الحُسْنَى، فتَأَمَّلْهُ.

---

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٣٩٧.

وباللهِ التوفيقُ).[1]

[الشَّكُورُ]:

(أمَّا تَسْمِيَتُهُ سبحانَهُ بـ «**الشكورِ**» فهوَ في حديثِ أبي هُرَيْرَة[2]، وفي القرآنِ تَسْمِيَتُهُ «**شَاكِراً**»، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: ١٤٧]. وتَسْمِيَتُهُ أيضاً «**شكورٌ**» قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التغابن: ١٧].

((وقالَ أهلُ الجنَّةِ: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ٣٤]، فهذا الشُّكْرُ ... هو وَصْفُهُ سُبْحَانَهُ)).[3]

وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ٢٢]. **فَجَمَعَ لهم سُبْحَانَهُ بينَ الأمرَيْنِ**: أنْ شَكَرَ سَعْيَهُم، وَأَثَابَهُم عليهِ، واللهُ تعالَى يَشْكُرُ عبدَهُ إذا أَحْسَنَ طاعَتَهُ، وَيَغْفِرُ لهُ إذا تابَ عليهِ، فَيَجْمَعُ للعبدِ بينَ شُكْرِهِ لإحسانِهِ ومغفرتِهِ لإساءتِهِ، إنَّهُ غفورٌ شكورٌ).[4]

(وهوَ الشَّكُورُ فَلَنْ يُضَيِّعَ سَعْيَهُم ... لكنْ يُضَاعِفُهُ بلا حُسْبَانِ
مَا للعبادِ عليهِ حقٌّ وَاجِبٌ ... هوَ أَوْجَبَ الأجْرَ العظيمَ الشانِ
كَلاَّ ولا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ ... إنْ كانَ بالإخلاصِ والإحسانِ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ «والحمدُ للمنَّانِ»[5])

---

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٣٨٣-٣٨٥)
وقال -رَحِمَهُ اللهُ تعالى- في شِفاءِ العَليلِ (١/ ٣٣٢): (ووَقَعَ فِي أَسمائِهِ الواجِدُ، وهو بمعنَى: الغَنِيِّ الذي له الوَجْدُ).

(٢) الذي فيه تَعدادُ الأسماءِ الحُسنَى، وقد سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٣٩٧.

(٣) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ١٠٨-١٠٩).

(٤) عدة الصابرين (٣١٠).

(٥) القصيدةُ النُّونيَّةُ (٢٤٥).

(فـ]اللهُ تَعَالَى شكورٌ إذا رَضِيَ من العبدِ عملاً منْ أعمالِهِ نَجَّاهُ، وأَسْعَدَهُ بِهِ وَثَمَّرَهُ لهُ وَبَارَكَ لهُ فيهِ، وَأَوْصَلَهُ بِهِ إليهِ، وَأَدْخَلَهُ بِهِ عليهِ، ولمْ يَقْطَعْهُ بِهِ عنهُ).[1]

(فهوَ أَوْلَى بصفةِ الشكرِ منْ كلِّ شكورٍ، بلْ هوَ الشكورُ على الحقيقةِ، فإنَّهُ يُعْطِي العبدَ وَيُوَفِّقُهُ لِمَا يَشْكُرُهُ عَلَيْهِ، وَيَشْكُرُ القليلَ من العملِ والعطاءِ، فلا يَسْتَقِلُّهُ أنْ يَشْكُرَهُ، وَيَشكُرُ الحسنةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إلى أضعافٍ مُضَاعَفَةٍ، وَيَشْكُرُ عَبْدَهُ:

- **بقولِهِ**: بأنْ يُثْنِيَ عليهِ بينَ ملائكتِهِ وفي مَلأِهِ الأَعْلَى، وَيُلْقِيَ لهُ الشُّكْرَ بينَ عبادِهِ.
- **وَيَشْكُرُهُ بفعلِهِ**: فإذا تَرَكَ لهُ شيئاً أَعْطَاهُ أَفْضَلَ منهُ، وإذا بَذَلَ لهُ شَيْئاً رَدَّهُ عليهِ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً، وهوَ الذي وَفَّقَهُ للتَّرْكِ والبَذْلِ، وشُكْرُهُ على هذا وذاكَ.

وَلَمَّا عقرَ نَبِيُّهُ سُلَيْمَانُ الخيلَ غضباً لهُ؛ إذْ شَغَلَتْهُ عنْ ذِكْرِهِ، فَأَرَادَ ألاَّ تَشْغَلَهُ مَرَّةً أُخْرَى أَعَاضَهُ عنها متنَ الريحِ، ولَمَّا تَرَكَ الصحابةُ ديارَهُم وَخَرَجُوا منها في مَرْضَاتِهِ، أَعَاضَهُم عنها أنْ مَلَّكَهُم الدُّنْيا وَفَتَحَهَا عليهم.

ولَمَّا احْتَمَلَ يُوسُفُ الصدِّيقُ ضِيقَ السجنِ شَكَرَ لهُ ذلكَ بأنْ مَكَّنَ لهُ في الأرضِ يَتَبَوَّأُ منها حيثُ يَشَاءُ، ولَمَّا بَذَلَ الشهداءُ أَبْدَانَهُم لهُ حَتَّى مَزَّقَهَا أعداؤُهُ شَكَرَ لهم بأنْ أَعَاضَهُم منها طَيْراً خُضْراً أَقَرَّ أَرْوَاحَهُم فيها تَرِدُ أنهارَ الجنَّةِ وتأكلُ منْ ثمارِهَا إلى يومِ البعثِ، فَيَرُدُّهَا عليهم أَكْمَلَ ما تكونُ وأجملَهُ وأَبْهَاهُ، ولَمَّا بَذَلَ رُسُلُهُ أَعْرَاضَهُم فيهِ لأَعْدَائِهِم فَنَالُوا منهم وَسَبُّوهُم، أَعَاضَهُم منْ ذلكَ بأنْ صَلَّى عليهم هــوَ وملائكتُهُ، وَجَعَلَ لهم أَطْيَبَ الثناءِ في سماواتِهِ وبينَ خــلقِهِ، فَأَخْلَصَهُم بخالصةٍ ذِكْرَى الدارِ.

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٣٩٠).

ومِنْ شُكْرِهِ سبحانَهُ: أنَّهُ يُجازِي عَدُوَّهُ بما يَفْعَلُهُ من الخيرِ والمعروفِ في الدنيا، ويُخَفِّفُ بِهِ عنهُ يومَ القيامةِ، فلا يُضَيِّعُ عليهِ ما يَعْمَلُهُ من الإحسانِ وهوَ منْ أَبْغَضِ خَلْقِهِ إليهِ.

ومِنْ شُكْرِهِ أنَّهُ غَفَرَ للمرأةِ البَغِيِّ بِسَقْيِها كَلْباً كانَ قدْ جَهَدَهُ العطشُ حتَّى أَكَلَ الثَّرى، وغَفَرَ لآخرَ بتَنْحِيَتِهِ غُصْنَ شوكٍ عنْ طريقِ المسلمينَ.

فهوَ سبحانَهُ يَشْكُرُ العبدَ على إحسانِهِ لنفسِهِ، والمخلوقُ إنَّما يَشْكُرُ مَنْ أَحْسَنَ إليهِ. وَأَبْلَغُ منْ ذلكَ أنَّهُ سبحانَهُ هوَ الذي أَعْطَى العبدَ ما يُحْسِنُ بِهِ إلى نفسِهِ، وَشَكَرَهُ على قليلِهِ بالأضعافِ المضاعفةِ التي لا نِسْبَةَ لإحسانِ العبدِ إليها، فهوَ المُحْسِنُ بإعطاءِ الإحسانِ وإعطاءِ الشكرِ، فَمَنْ أَحَقُّ باسمِ «**الشكورِ**» منهُ سُبْحَانَهُ؟!!

وتأمَّلْ قولَهُ سبحانَهُ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: ١٤٧]، كيفَ تَجِدُ في ضِمْنِ هذا الخطابِ أنَّ شُكْرَهُ تَعالَى يَأْبَى تَعْذِيبَ عبادِهِ بغيرِ جُرْمٍ كما يَأْبَى إضاعةَ سَعْيِهِم باطلاً، فالشكورُ لا يُضِيعُ أَجْرَ مُحْسِنٍ، ولا يُعَذِّبُ غيرَ مُسِيءٍ.

وفي هذا رَدٌّ لقولِ مَنْ زَعَمَ أنَّهُ سبحانَهُ يُكَلِّفُهُ ما لا يُطِيقُهُ، ثُمَّ يُعَذِّبُهُ على ما لا يَدْخُلُ تحتَ قُدْرَتِهِ، تَعَالَى اللهُ عنْ هذا الظنِّ الكاذبِ والحِسبانِ الباطلِ عُلُوًّا كبيراً، فَشُكْرُهُ سبحانَهُ اقْتَضَى أنْ لا يُعَذِّبَ المؤمنَ الشكورَ، ولا يُضَيِّعَ عَمَلَهُ، وذلكَ منْ لوازمِ هذهِ الصفةِ، فهوَ مُنَزَّهٌ عنْ خلافِ ذلكَ كما يُنَزَّهُ عنْ سائرِ العيوبِ والنقائصِ التي تُنَافِي كمالَهُ وغِنَاهُ وحمدَهُ.

ومِنْ شُكْرِهِ سبحانَهُ أنَّهُ يُخْرِجُ العبدَ من النارِ بِأَدْنَى مثقالِ ذرَّةٍ منْ خيرٍ، ولا يُضِيعُ عليهِ هذا القدرَ. ومِنْ شُكْرِهِ سبحانَهُ أنَّ العبدَ منْ عبادِهِ يَقُومُ لهُ مَقاماً يُرْضِيهِ بينَ الناسِ، فَيَشْكُرُهُ لهُ، وَيُنَوِّهُ بذكرِهِ، وَيُخْبِرُ بِهِ ملائكتَهُ وعبادَهُ المؤمنينَ،

كما شَكَرَ لمُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ ذلك المقامَ، وَأَثْنَى بِهِ عليهِ، وَنَوَّهَ بذكرِهِ بينَ عبادِهِ، وكذلكَ شَكَرَ لصاحبِ يس مَقَامَهُ وَدَعْوَتَهُ إليهِ، فلا يَهْلِكُ عليهِ بينَ شُكْرِهِ ومغفرتِهِ إلاَّ هَالِكٌ، فإنَّهُ سبحانَهُ غفورٌ شكورٌ، يَغْفِرُ الكثيرَ من الزَّلَلِ، ويَشْكُرُ القليلَ من العملِ.

وَلَمَّا كانَ سُبْحَانَهُ هوَ الشكورَ على الحقيقةِ كانَ أحبُّ خَلْقِهِ إليهِ مَن اتَّصَفَ بصفةِ الشكرِ، كما أنَّ أبغضَ خلقِهِ إليهِ مَنْ عَطَّلَهَا وَاتَّصَفَ بِضِدِّهَا. وهذا شَأْنُ أَسْمائِهِ الحُسْنَى أَحَبُّ خَلْقِهِ إليهِ مَن اتَّصفَ بِمُوجَبِهَا، وَأَبْغَضُهُم إليهِ مَن اتَّصَفَ بِأَضْدَادِهَا، ولهذا يُبْغِضُ الكفورَ والظالمَ والجاهلَ والقاسِيَ القلبِ والبخيلَ والجبانَ والمَهِينَ واللئيمَ، وهوَ سبحانَهُ جميلٌ يُحِبُّ الجمالَ، عليمٌ يُحِبُّ العلماءَ، رَحِيمٌ يُحِبُّ الراحِمِينَ، مُحْسِنٌ يُحِبُّ المحسنِينَ، شَكُورٌ يُحِبُّ الشاكِرِينَ، صَبُورٌ يُحِبُّ الصابِرِينَ، جَوَادٌ يُحِبُّ أَهْلَ الجودِ، سَتَّارٌ يُحِبُّ أَهْلَ السترِ، قادِرٌ يَلُومُ على العجزِ، والمؤمنُ القَوِيُّ أَحَبُّ إليهِ من المؤمنِ الضعيفِ، عَفُوٌّ يُحِبُّ العفوَ، وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ، وَكُلُّ ما يُحِبُّهُ فهوَ مِنْ آثارِ أسمائِهِ وصفاتِهِ وموجَبِهَا، وكلُّ ما يُبْغِضُهُ فهوَ مِمَّا يُضَادُّهَا وَيُنَافِيهَا). (١)

---

(١) عُدةُ الصابرينَ (٣١٠-٣١٢).

مُلحَقٌ: وقال -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في "مَدارجِ السَّالكِينَ" (٢/ ٢٣٢ - ٢٣٣): (والإيمانُ نصفانِ نِصفٌ شكرٌ ونِصفٌ صَبرٌ. وقد أمرَ اللهُ به ونَهى عن ضِدِّه وأَثْنَى على أهلِه، ووصَفَ به خواصَّ خَلقِه وأَمْرِه، ووَعَدَ أهلَهُ بأَحْسَنِ جزائِه، وجعلَهُ سَبَبًا للمَزيدِ مِن فضلِه وحَارِسًا وحافِظًا لنِعمتِه، وأخبرَ أن أهلَهُ المنتفِعونَ بآياتِه، واشتقَّ لهمُ اسمًا مِن أسمائِه، فإنه سُبحانَهُ هو «الشَّكُور» وهو يُوصِّلُ الشاكرُ إلى مَشْكُورِهِ بل يُعِيدُ الشَّاكِرَ مَشكورًا. وهو غايةُ الربِّ مِن عَبدِه. وأهلُه هُمُ القَليلُ مِن عِبادِه. قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤﴾ [النحل: ١١٤] وقالَ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال عن خليله إبراهيمَ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنۡعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١] وقال عن نوح عليه السلامُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدًا شَكُورًا ٣﴾ [الإسراء: ٣] وقال تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل:٧٨]

وقال تعالَى: ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١٧﴾ [العنكبوت: ١٧] وقال تعالَى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقال تعالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ٧﴾ [إبراهيم: ٧] وقال تعالَى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٥﴾ [إبراهيم: ٥].

وسمَّى نفسَهُ (شاكرًا) (وشَكُورًا). وسمَّى الشاكرينَ بهذينِ الاسمَينِ. فأعطاهُم مِن وَصفِه. وسمَّاهُم باسمِه. وحسبُكَ بهذا محَبَّةً للشاكرينَ وفضلاً.

وإعادتُهُ للشاكرِ مشكورًا. كقولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ٢٢﴾ [الإنسان: ٢٢] ورَضِيَ اللهُ الربُّ عن عبدِه به كقولِه: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وقلةُ أهلِه في العالَمِينَ تَدُلُّ على أنهم هم خَواصُّه. كقولِه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: ١٣] وفي الصحيحينِ عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: (أنه قامَ حتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ. فقيلَ له: تَفْعَلُ هذا وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ ومَا تَأَخَّرَ؟ فقالَ: «أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»).

وقال لمُعاذٍ: «واللهِ يَا مُعاذُ، إِنِّي لأُحِبُّكَ. فَلاَ تَنسَ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ: اللهُمَّ أَعِنِّي على ذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبادَتِكَ».

وقال أيضًا في مَدارجِ السَّالكِينَ (٣/ ١٠٨– ١٠٩). (فإنَّ شُكرَ العبدِ لربِّه: نِعمةٌ مِنَ اللهِ أَنعَمَ بها عليه. فهي تَسْتَدْعِي شُكرًا آخَرَ عليها. وذلك الشكرُ نعمةٌ أيضًا. فيستدعِي شُكرًا ثالثًا. وهلُمَّ جرًّا. فلا سبيلَ إلى القيامِ بشُكرِ الربِّ على الحقيقةِ. ولا يَشْكُرُهُ على الحقيقةِ سِواهُ. فإنه هو المُنعِمُ بالنِّعْمَةِ وبشُكْرِها. فهو الشَّكُورُ لنَفْسِهِ، وإن سَمَّى عَبدَهُ شَكُورًا. فمدْحَةُ الشُّكرِ في الحقيقةِ: راجعةٌ إليه، وموقوفةٌ عليه. فهو الشاكرُ لنَفْسِه بما أَنعَمَ على عبدِه. فما شَكَرَهُ في الحقيقةِ سِواهُ، معَ كونِ العبدِ عَبدًا والربِّ ربًّا....

فإنه سَمَّى نفسَهُ بالشَّكُورِ، كما قال تعالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١٤٧﴾ [النساء: ١٤٧] وقالَ أهلُ الجنةِ: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ٣٤﴾ [فاطر: ٣٤] فهذا الشُّكرُ الذي هو وَصْفُه سُبحانَهُ لا يقومُ إلا به ولا يَبْعَثُ العبدَ على المُلاحظَةِ المذكورةِ إلا على وجهٍ واحدٍ. وهو أنه: إذا لاحَظَ سَبْقَ الفَضْلِ منه سُبحانَهُ، عَلِمَ أنه فَعَلَ ذلك لمَحبَّتِه للشُّكرِ. فإنه تعالَى يُحِبُّ أن يُشكَرَ. كما قال مُوسَى صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: (يَا رَبِّ، هَلاَّ سَاوَيْتَ بَيْنَ عِبادِكَ؟ فقالَ: إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أُشْكَرَ).

وإذا كانَ يُحِبُّ الشُّكْرَ فهو أَوْلَى أن يَتَّصِفَ به، كما أنه سُبحانَهُ وِترٌ، يُحِبُّ الوِتْرَ، جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، مُحسِنٌ يُحِبُّ المُحسِنينَ، صَبُورٌ يحبُّ الصابرينَ، عَفُوٌّ يُحِبُّ العَفْوَ، قَوِيٌّ والمؤمنُ القويُّ أَحَبُّ إليه من المؤمنِ الضعيفِ. فكذلك هو شَكُورٌ يُحِبُّ الشاكرينَ. فملاحظةُ العبدِ سَبْقَ الفضلِ تُشْهِدُهُ صِفَةَ الشُّكْرِ. وتَبْعَثُهُ على القيامِ بفِعلِ الشكرِ. واللهُ أعلمُ).

[الصَّبُورُ]:

(أمَّا الصبرُ فقدْ أَطْلَقَهُ عليهِ أَعْرَفُ الخلقِ بهِ وأعظمُهُم تَنْزِيهاً لهُ بصيغةِ المبالغةِ، ففي الصحيحَيْنِ منْ حديثِ الأعمشِ: عنْ سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عنْ أبي عبدِ الرحمنِ السُّلَمِيِّ، عنْ أبي مُوسَى، عن النبيِّ قالَ: «**مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى سَمِعَه مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَدَّعُونَ لَهُ وَلَداً وَهُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**».[1]

وفي أسمائِهِ الحُسْنَى: «**الصَّبُورُ**»، وهوَ منْ أمثلةِ المبالغةِ، أَبْلَغُ من الصابرِ والصبَّارِ، **وَصَبْرُهُ تَعَالَى يُفَارِقُ صبرَ المخلوقِ ولا يُماثِلُهُ منْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ:**

- منها: أَنَّهُ على قدرةٍ تَامَّةٍ.
- ومنها: أَنَّهُ لا يَخَافُ الغَوْثَ، والعبدُ إِنَّمَا يَسْتَعْجِلُ لِخَوْفِ الغوثِ.
- ومنها: أَنَّهُ لا يَلْحَقُهُ بِصَبْرِهِ أَلَمٌ ولا حزنٌ ولا نقصٌ بوجهٍ ما.

وظهورُ أثرِ هذا الاسمِ في العالَمِ مشهودٌ بالعِيانِ كظهورِ اسمِهِ الحليمِ. والفرقُ بينَ الصبرِ والحِلمِ أَنَّ الصبرَ ثمرةُ الحلمِ ومُوجَبُهُ، فعلى قدرِ حِلْمِ العبدِ يكونُ صَبْرُهُ.

فالحِلْمُ في صفاتِ الربِّ تَعَالَى أَوْسَعُ من الصبرِ، ولهذا جاءَ اسمُهُ الحليمُ في القرآنِ في غيرِ موضعٍ، ولِسَعَتِهِ يَقْرِنُهُ سبحانَهُ باسمِ العليمِ كقولِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ [الأحزاب: ٥١]، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النساء: ١٢].

وفي أثرٍ: إِنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ أَرْبَعَةٌ: اثْنَانِ يَقُولانِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى حِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ**». وَاثْنَانِ يَقُولانِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الحَمْدُ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ**».

فإنَّ المخلوقَ يَحْلُمُ عنْ جهلٍ، وَيَعْفُو عنْ عَجْزٍ، والربُّ تَعَالَى يَحْلُمُ معَ كمالِ علمِهِ، وَيَعْفُو معَ تمامِ قُدرتِهِ، وما أُضِيفَ شيءٌ إلى شيءٍ أَزْيَنَ منْ حلمٍ إلى علمٍ،

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ١٩٥.

ومنْ عفوٍ إلى اقْتِدَارٍ، ولهذا كانَ في دُعَاءِ الكربِ وصفُهُ سبحانَهُ بالحلمِ معَ العظمةِ، وكونُهُ حَليماً منْ لَوَازِمِ ذاتِهِ سبحانَهُ.

وأمَّا صَبْرُهُ سبحانَهُ فَمُتَعَلِّقٌ بكُفْرِ العبادِ وشركِهِم، وَمَسَبَّتِهِم لهُ سبحانَهُ، وأنواعِ معاصِيهِم وَفُجُورِهِم، فلا يُزْعِجُهُ ذلكَ كلُّهُ إلى تعجيلِ العقوبةِ، بلْ يَصْبِرُ على عبدِهِ وَيُمْهِلُهُ وَيَسْتَصْلِحُهُ وَيَرْفُقُ بِهِ وَيَحْلُمُ عليهِ، حتَّى إذا لمْ يَبْقَ فيهِ موضعٌ للصنيعةِ، ولا يَصْلُحُ على الإمهالِ والرفقِ والحِلْمِ ولا يُنِيبُ إلى رَبِّهِ وَيَدْخُلُ عليهِ، لا مِنْ بابِ الإحسانِ والنِّعَمِ، ولا منْ بابِ البلاءِ والنِّقَمِ؛ أَخَذَهُ أَخْذَ عزيزٍ مُقْتَدِرٍ بعدَ غايَةِ الإعذارِ إليهِ وَبَذْلِ النصيحةِ لهُ ودُعَائِهِ إليهِ منْ كلِّ بابٍ، وهذا كُلُّهُ منْ مُوجباتِ صفةِ حِلْمِهِ، وهيَ صفةٌ ذاتيَّةٌ لهُ لا تَزُولُ.

وأمَّا الصبرُ فإذا زَالَ مُتَعَلَّقُهُ كَانَ كسائرِ الأفعالِ التي تُوجَدُ بوجودِ الحكمةِ وتَزُولُ بزوالِهَا، **فتأَمَّلْهُ**؛ فَإِنَّهُ فَرْقٌ لطيفٌ ما عَثَرَت الحُذَّاقُ بعُشْرِهِ، وَقَلَّ مَنْ تَنَبَّهَ لهُ وَنَبَّهَ عليهِ.

وَأُشْكِلَ على كثيرٍ منهم هذا الاسمُ، وقالُوا: لمْ يَأْتِ في القرآنِ، فَأَعْرَضُوا عن الاشتغالِ بِهِ صَفْحاً، ثُمَّ اشْتَغَلُوا بالكلامِ في صبرِ العبدِ وأقسامِهِ.

ولوْ أنَّهُم أَعْطَوْا هذا الاسمَ حَقَّهُ لَعَلِمُوا أنَّ الربَّ تَعَالَى أَحَقُّ بِهِ منْ جميعِ الخلقِ، كما هوَ أحقُّ باسمِ العليمِ والرحيمِ والقديرِ والسميعِ والبصيرِ والحيِّ وسائرِ أسمائِهِ الحُسْنَى من المخلوقِينَ، وأنَّ التَّفَاوُتَ الذي بينَ صبرِهِ سبحانَهُ وصبرِهِم كالتفاوتِ الذي بينَ حياتِهِ وحياتِهِم، وعلمِهِ وعلمِهِم، وسمعِهِ وأسماعِهِم، وكذا سائرُ صفاتِهِ.

ولمَّا علِمَ ذلكَ أَعْرَفُ خَلْقِهِ بِهِ قالَ: «**لا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ**».

فَعِلْمُ أربابِ البصائرِ بصبرِهِ سبحانَهُ كَعِلْمِهِم برحمتِهِ وعفوِهِ وسَترِهِ، معَ أنَّهُ صَبْرٌ مَعَ كمالِ علمٍ وقدرةٍ وعظمةٍ وعِزَّةٍ، وهوَ صَبْرٌ منْ أعظمِ مَصْبُورٍ عليهِ؛

فإنَّ مُقَابَلَةَ أعظم العظماءِ ومَلِكِ المُلُوكِ وأكرمِ الأكرمِينَ ومَنْ إحسانُهُ فوقَ كلِّ إحسانٍ بغايَةِ القبحِ وأعظمِ الفجورِ وأفحشِ الفواحشِ، ونسبتِهِ إلى كلِّ ما لا يَلِيقُ بهِ، والقدحِ في كمالِهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ، والإلحادِ في آياتِهِ وتكذيبِ رُسُلِهِ عليهم السلامُ، وَمُقَابَلَتِهِم بالسبِّ والشتمِ والأَذَى، وَتَحْرِيقِ أَوْلِيَائِهِ وَقَتْلِهِم وَإِهَانَتِهِم: أمرٌ لا يَصْبِرُ عليهِ إلاَّ «**الصبورُ**» الذي لا أَحَدَ أَصْبَرُ منهُ، ولا نِسْبَةَ لصبرِ جميعِ الخلقِ منْ أَوَّلِهِم إلى آخرِهِم إلى صبرِهِ سبحانَه.(١)

وإذا أَرَدْتَ معرفةَ صَبْرِ الربِّ تَعَالَى وَحِلْمِهِ والفرقِ بَيْنَهُمَا فتَأَمَّلْ قولَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٤١]. وقولَهُ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم: ٨٨ - ٩١].

وقولَهُ: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم: ٤٦]، على قراءةِ مَنْ فتَحَ اللامَ.

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ حِلْمَهُ وَمَغْفِرَتَهُ يَمْنَعَانِ زوالَ السَّمَاواتِ والأرضِ، فالحِلْمُ وَإِمْسَاكُهُمَا أَنْ تَزُولا هوَ الصبرُ، فَبِحِلْمِهِ صَبَرَ عنْ مُعاجلةِ أعدائِهِ.

---

(١) وقال -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في عُدَّةِ الصابرينَ (٥٦): (والربُّ تَعالَى هو الصبورُ، بل لا أَحَدَ أَصْبَرُ على أذًى سَمِعَهُ منه).

وقال أيضًا في القصيدةِ النونيةِ (٢٤٤):

وَهُوَ الصَّبُورُ عَلَى أَذَى أَعْدَائِهِ ... شَتَمُوهُ بَلْ نَسَبُوهُ لِلْبُهْتَانِ
قَالُوا: لَهُ وَلَدٌ وَلَيْسَ يُعِيدُنَا ... شَتْمًا وَتَكْذِيبًا مِنَ الإنسانِ
هَذَا وَذَاكَ بِسَمْعِهِ وَبِعِلْمِهِ ... لَوْ شَاءَ عَاجَلَهُمْ بِكُلِّ هَوَانِ
لَكِنْ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ وَهُمْ ... يُؤْذُونَهُ بِالشِّرْكِ وَالْكُفْرَانِ)

وفي الآيَةِ إشعارٌ بأنَّ السَّماواتِ والأرضَ تَهِمُّ وَتَسْتَأْذِنُ بالزوالِ لِعِظَمِ ما يَأْتِي بِهِ العِبَادُ، فَيُمْسِكُهَا بِحِلْمِهِ ومغفرتِهِ، وذلكَ حبسُ عُقُوبَتِهِ عنهم، وهوَ حقيقةُ صبرِهِ تَعَالَى.

فالذي عنهُ الإمساكُ هوَ صفةُ الحلمِ، والإمساكُ هوَ الصبرُ، وهوَ حبسُ العقوبةِ، ففَرْقٌ بينَ حَبْسِ العقوبةِ وبينَ ما صَدَرَ عنهُ حَبْسُهَا. **فتَأَمَّلْهُ**.

وفي "مُسندِ الإمامِ أحمدَ" مرفوعاً: «**مَا مِنْ يَوْمٍ إِلاَّ وَالبَحْرُ يَسْتَأْذِنُ رَبَّهُ أَنْ يُغْرِقَ بَنِي آدَمَ**».(١) وهذا مُقْتَضَى الطبيعةِ؛ لأنَّ كَرَّةَ الماءِ تَعْلُو كرَّةَ الترابِ بالطبعِ، ولكنَّ اللهَ يُمْسِكُهُ بقُدْرَتِهِ وحلمِهِ وصبرِهِ.

وكذلكَ خُرُورُ الجبالِ وَتَفْطِيرُ السَّماواتِ، الربُّ تَعالَى يَحْبِسُهَا عنْ ذلكَ بصبرِهِ وحلمِهِ، فإنَّ ما يَأْتِي بِهِ الكفَّارُ والمشركونَ والفجَّارُ في مقابلةِ العظمةِ والجلالِ والإكرامِ يَقْتَضِي ذلكَ.

فَجَعَلَ سبحانَهُ في مقابلةِ هذهِ الأسبابِ أَسْبَاباً يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا وَيَفْرَحُ بها أكملَ فَرَحٍ وَأَتَمَّهُ، تُقابِلُ تلكَ الأسبابَ التي هيَ سَبَبُ زَوَالِ العالَمِ وخرابِهِ، فَدَفَعَتْ تلكَ الأسبابَ وَقَاوَمَتْهَا.

وكانَ هذا منْ آثارِ مُدافعةِ رحمتِهِ لغضبِهِ وغَلَبَتِهَا لهُ وَسَبْقِهَا إيَّاهُ، فَغَلَبَ أثرُ الرحمةِ أثرَ الغضبِ كما غَلَبَت الرحمةُ الغضبَ، ولهذا اسْتَعَاذَ النبيُّ بصفةِ الرِّضَا منْ صفةِ السَّخَطِ، وبفعلِ المعافاةِ منْ فعلِ العقوبةِ، ثُمَّ جَمَعَ الأمرَيْنِ في الذاتِ إِذْ هُمَا قَائِمَانِ بها، فقالَ: «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**».(٢)

(١) رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ (٣٠٥) من حديثِ عُمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنه.

(٢) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ١٣٣.

فإنَّ ما يُسْتَعَاذُ بِهِ هوَ صَادِرٌ عنْ مَشِيئَتِهِ وَخَلْقِهِ بإذنِهِ وقضائِهِ، فهوَ الذي أَذِنَ في وقوعِ الأسبابِ التي يُسْتَعَاذُ منها خَلْقاً وَكَوْناً، فمنهُ السَّبَبُ والمُسَبَّبُ، وهوَ الذي حَرَّكَ الأنفسَ والأبدانَ وَأَعْطَاهَا قُوَى التأثيرِ، وهوَ الذي أَوْجَدَهَا وَأَعَدَّهَا وَأَمَدَّهَا وَسَلَّطَهَا على ما شاءَ، وهوَ الذي يُمْسِكُهَا إذا شاءَ وَيَحُولُ بينهَا وبينَ قُوَاهَا وَتَأْثِيرِهَا.

فتَأَمَّلْ ما تحتَ قولِهِ: «أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ» مِنْ مَحْضِ التوحيدِ وقَطْعِ الالتفاتِ إلى غيرِهِ، وَتكْمِيلِ التَّوَكُّلِ عليهِ تَعَالَى والاستعانةِ بِهِ وحدَهُ، وَإِفْرَادِهِ بالخوفِ والرجاءِ ودَفْعِ الضرِّ وجلبِ الخيرِ، وهوَ الذي يَمَسُّ بالضرِّ بمشيئتِهِ، وهوَ الذي يَدْفَعُهُ بِمَشِيئَتِهِ، وهوَ المستعاذُ بمشيئتِهِ منْ مشيئتِهِ، وهوَ المُعِيذُ منْ فعلِهِ بفعلِهِ، وهوَ الذي سُبْحَانَهُ خَلَقَ ما يَصْبِرُ عليهِ وما يَرْضَى بِهِ، فإذا أَغْضَبَهُ مَعَاصِي الخلقِ بِكُفْرِهِم وَشِرْكِهِم وَظُلْمِهِم أَرْضَاهُ تَسْبِيحُ ملائكتِهِ وعبادِهِ المؤمنينَ لهُ وَحَمْدُهُم إِيَّاهُ، وَطَاعَتُهُم لهُ، فَيُعِيذُ رِضَاهُ منْ غضبِهِ.

قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ: «**ليسَ عندَ رَبِّكُم ليلٌ ولا نهارٌ، نورُ السَّمَاوَاتِ والأرضِ منْ نُورِ وجهِهِ، وإنَّ مِقْدَارَ يَوْمٍ من أيَّامِكُم عندَهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَاعَةً، فَتُعْرَضُ عليهِ أعمالُكُم بالأمسِ أوَّلَ النهارِ اليَوْمَ، فَيَنْظُرُ فيها ثلاثَ ساعاتٍ فَيَطَّلِعُ منها على ما يَكْرَهُ فَيُغْضِبُهُ ذلكَ، فَأَوَّلُ ما يَعْلَمُ بِغَضَبِهِ حَمَلَةُ العرشِ يَجِدُونَهُ يَثْقُلُ عليهم، تُسَبِّحُهُ حملةُ العرشِ وَسُرَادِقَاتُ العرشِ والملائكةُ المُقَرَّبُونَ وسائرُ الملائكةِ، حتَّى يَنْفُخَ جبريلُ في القَرْنِ فلا يَبْقَى شيءٌ إلاَّ يَسْمَعُ، فَيُسَبِّحُونَ الرحمنَ ثلاثَ ساعاتٍ حتَّى يَمْتَلِئَ الرحمنُ رحمةً، فتلكَ سِتُّ سَاعَاتٍ، قالَ: ثُمَّ يُؤْتَى بالأرحامِ فَيَنْظُرُ فيها ثلاثَ ساعاتٍ، فذلكَ قولُهُ تعَالَى:** ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦]، و﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٤٩ - ٥٠].

فتلكَ تِسْعُ ساعاتٍ، ثُمَّ يُؤْتَى بالأرزاقِ، فَيَنْظُرُ فيها ثلاثَ ساعاتٍ، فذلكَ قولُهُ:

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقولُهُ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ۝٢٩﴾ [الرحمن:٢٩]. قالَ: هذا شَأْنُكُمْ وَشَأْنُ رَبِّكُمْ».

رَوَاهُ أبو القاسم الطَّبَرَانِيُّ في "السُّنَّةِ"، وعثمانُ بنُ سعيدٍ الدَّارِمِيُّ، وشيخُ الإسلامِ الأنصاريُّ، وابنُ مَنْدَهْ، وابنُ خُزَيْمَةَ وغيرُهُم.

وَلَمَّا ذَكَرَ سبحانَهُ في سورةِ الأنعامِ أعداءَهُ وكُفْرَهُم وشِرْكَهُم وَتَكْذِيبَ رُسُلِهِ ذَكَرَ في أثرِ ذلكَ شأنَ خليلِهِ إبراهيمَ، وما أَرَاهُ من مَلَكُوتِ السَّمَاواتِ والأرضِ، وما حَاجَّ بِهِ قومَهُ في إظهارِ دينِ اللهِ وتوحيدِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ الأنبياءَ من ذُرِّيَّتِهِ، وأنَّهُ هَدَاهُم وآتاهُم الكتابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ، ثُمَّ قالَ: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ۝٨٩﴾ [الأنعام: ٨٩]. فَأَخْبَرَ أنَّهُ سبحانَهُ كما جَعَلَ في الأرضِ مَنْ يَكْفُرُ بِهِ وَيَجْحَدُ تَوْحِيدَهُ وَيُكَذِّبُ رُسُلَهُ كذلكَ جَعَلَ فيها منْ عبادِهِ مَنْ يُؤْمِنُ بما كَفَرَ بِهِ أولئكَ وَيُصَدِّقُ بما كَذَّبُوا بِهِ، وَيَحْفَظُ مِنْ حُرُماتِهِ ما أَضَاعُوهُ.

وبهذا تَمَاسَكَ العالَمُ العلويُّ والسفليُّ، وإلاَّ فَلَو اتَّبَعَ الحقُّ أهواءَ أعدائِهِ لَفَسَدَتِ السَّمَاواتُ والأرضُ ومَنْ فيهِنَّ وَلَخَرِبَ العالَمُ، ولهذا جَعَلَ سبحانَهُ منْ أسبابِ خرابِ العالمِ رَفْعَ الأسبابِ المُمْسِكَةِ لهُ من الأرضِ، وهِيَ كلامُهُ وَبَيْتُهُ ودِينُهُ والقائمونَ بِهِ، فلا يَبْقَى لتلكَ الأسبابِ المقتضيةِ لخرابِ العالمِ أسبابٌ تُقَاوِمُهَا وَتُمَانِعُهَا.

وَلَمَّا كانَ اسمُ الحليمِ أَدْخَلَ في الأوصافِ، واسمُ الصبورِ في الأفعالِ، كانَ الحِلْمُ أَصْلَ الصبرِ؛ فَوَقَعَ الاستغناءُ بِذِكْرِهِ في القرآنِ عن اسمِ «الصبورِ»، واللهُ أَعْلَمُ). (١)

---

(١) عُدَّةُ الصابرينَ (٣٠٥-٣٠٩).

وقال في شفاءِ العليلِ (١/ ٢٧٢): (وهو صابرٌ يحبُّ الصابرينَ).

وقال في عُدَّةِ الصابرينَ (٥٦): (صَبُورٌ يُحِبُّ الصابرينَ).

البابُ التَّاسِعُ والعِشْرونَ: في ذِكْرِ شَرْحٍ مُخْتَصرٍ لبَعْضِ أَسْمَاءِ اللّهِ الحُسْنَى[1]

اللّهُ:

(اللهُ ... هوَ المَأْلُوهُ المَعْبودُ)، (وَلِهذا كَانَ القَوْلُ الصَّحِيحُ أَنَّ «اللهَ» أَصْلُهُ «الإِلَهُ» كَمَا هو قَوْلُ سِيبَوَيْهِ وجُمْهُورِ أَصْحَابِهِ إلاَّ مَنْ شَذَّ مِنْهم، وأَنَّ اسْمَ اللهِ تَعالَى هو الجَامِعُ لجَمِيعِ مَعَانِي الأَسْماءِ الحُسْنَى والصِّفَاتِ العُلَى)[2] (وَلِهَذَا تُضَافُ الأَسْماءُ الحُسْنَى كُلُّها إِلَيْهِ فيُقَالُ: الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، العَزِيزُ، الغَفَّارُ، القَهَّارُ، مِنْ أَسْماءِ اللهِ، وَلا يُقَالُ: اللهُ مِنْ أَسْماءِ الرَّحْمَنِ. قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]).[3]

---

(١) تنبيهٌ: يَتضمَّنُ هذا البابُ شَرحًا مُختصَرًا للأسماءِ الحُسنَى المَذكورَةِ في البابِ السابقِ بالإضافةِ إلى شروحٍ مُختصرَةٍ لبَعْضِ الأسماءِ الحُسنَى التي لم تُذْكَرْ فيه وهي: البارئُ، البَرُّ، الجليلُ، الحفيظُ، الحليمُ، الحييُّ السِّتِّيرُ، الخالقُ، الخبيرُ، الرزاقُ، الرشيدُ، الرفيقُ، الرقيبُ، العفوُّ، الغفورُ، الفتاحُ، القهارُ، الكفيلُ، المُجيبُ، المُحيطُ، المُستعانُ، المُغيثُ، الواسِعُ، الوليُّ، الوهابُ، بديعُ السماواتِ والأرضِ؛ والتي لم يَجْتَمِعْ لنا مِن كلامِ ابنِ القيمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في شرحِها إلا كلماتٍ يسيرةً. وهي من الأهميةِ بحيثُ لا يُمكِنُ إغفالُها.

ولَمَّا كانَ في إدراجِها ضِمْنَ الشروحِ المُطوَّلَةِ تَفاوُتٌ ظاهرٌ رأينا أن نُفرِدَ بابًا نَختصِرُ فيه ما تقدمَ من الشروحِ حتى يتناسَقَ معَ بقيةِ الشروحِ المُختصَرةِ وليَنْتُجَ من المجموعِ شرحٌ مُختصَرٌ يَسْهُلُ حِفظُه واستذكارُه والرجوعُ إليه. واللهُ الموفقُ والمُعينُ.

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٣٢).

(٣) بَدائِعُ الفوائِدِ (٢/ ٢٤٩).

(فاسْمُ «اللهِ» دالٌّ علَى كَوْنِهِ مَألُوهاً مَعْبُوداً، تألَهُهُ الخَلائِقُ محبَّةً وتَعْظِيماً وخُضُوعاً، وفزَعاً إليهِ في الحَوَائِجِ والنَّوائبِ، وذلكَ مُسْتَلْزِمٌ لكَمالِ رُبُوبيَّتِهِ ورَحْمتِهِ، المُتضَمِّنَيْنِ لكَمالِ المُلْكِ والحَمْدِ. وإلَهيَّتُهُ ورُبُوبيَّتُهُ ورَحْمانيَّتُهُ ومُلْكُهُ مُسْتلزِمٌ لجَمِيعِ صِفَاتِ كَمالِهِ؛ إذْ يَسْتَحِيلُ ثُبُوتُ ذلكَ لِمَنْ لَيْسَ بِحَيٍّ، ولا سَمِيعٍ، ولا بَصِيرٍ، وَلا قَادِرٍ، ولا مُتكَلِّمٍ، ولا فَعَّالٍ لِمَا يُرِيدُ، ولا حَكِيمٍ في أَفْعَالِهِ). [1]

الرَّبُّ:

(«الرَّبُّ» هوَ السَّيِّدُ والمَالِكُ والمُنْعِمُ والمُرَبِّي والمُصْلِحُ. واللهُ تعالى هوَ الرَّبُّ بهذه الاعْتِباراتِ كُلِّهَا)[2]؛ (فهوَ الذي يُرَبِّي عَبْدَهُ، فيُعْطِيهِ خَلْقَهُ، ثُمَّ يَهْدِيهِ إلى مَصَالِحِه)[3]، (وهو القَادِرُ، الخَالِقُ، البَارِئُ، المُصَوِّرُ، الحَيُّ، القَيُّومُ، العَلِيمُ، السَّمِيعُ، البَصِيرُ، المُحْسِنُ، المُنْعِمُ، الجَوَادُ، المُعْطِي، المَانِعُ، الضَّارُّ، النَّافِعُ، المُقَدِّمُ، المُؤَخِّرُ، الذي يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ويَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، ويُسْعِدُ مَنْ يَشَاءُ ويُشْقِي مَنْ يَشَاءُ، ويُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ ويُذِلُّ مَنْ يَشاءُ، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعانِي رُبُوبِيَّتِهِ التي لهُ منها ما يَسْتَحِقُّهُ مِن الأسماءِ الحُسْنَى). [4]

(فَاسْمُ «الرَّبِّ» لَهُ الجَمْعُ الجَامِعُ لجَمِيعِ المَخْلُوقَاتِ. فهوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وخَالِقُهُ، والقَادِرُ عليهِ، لا يَخْرُجُ شَيْءٌ عنْ رُبُوبِيَّتِهِ. وكُلُّ مَنْ في السَّماواتِ والأرْضِ عَبْدٌ لَهُ في قَبْضَتِهِ، وتَحْتَ قَهْرِه). [5]

---

(١) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (٤٥).

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٦).

(٣) بَدائِعُ الفوائِدِ (٤/ ١٣٢).

(٤) بَدائِعُ الفوائِدِ (٢/ ٢٤٩).

(٥) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٨).

المَلِكُ:

([و] مِنْ أَسْمائِهِ: «المَلِكُ»، ومَعْنَى المُلْكِ الحَقِيقِيِّ ثَابِتٌ لهُ سُبْحَانَهُ بكُلِّ وَجْهٍ)[1]؛ (فهو الآمِرُ النَّاهِي المُعِزُّ المُذِلُّ الذي يُصَرِّفُ أمورَ عِبَادِهِ كما يُحِبُّ ويُقَلِّبُهُم كما يَشَاءُ.

ولهُ مِنْ مَعْنى المُلْكِ ما يَسْتَحِقُّهُ مِن الأسْماءِ الحُسْنَى: كالعَزِيزِ الجَبَّارِ المُتَكَبِّرِ، الحَكَمِ العَدْلِ، الخَافِضِ الرَّافِعِ، المُعِزِّ المُذِلِّ، العَظِيمِ، الجَلِيلِ، الكَبِيرِ، الحَسِيبِ، المَجِيدِ، الوَالِي، المُتَعالِي، مَالِكِ المُلْكِ، المُقْسِطِ، الجَامِعِ، إلى غَيْرِ ذلكَ مِن الأسْماءِ العَائِدَةِ إلى المَلِكِ)[2]؛ (واسمُه «المَلِكُ» يَدُلُّ على ما يَسْتَلزِمُ حقيقةَ مُلكِه: من قدرتِه وتدبيرِه، وعطائِه ومَنعِه، وثوابِه وعِقابِه، وبثِّ رُسلِه في أقطارِ مَملكَتِه، وإعلامِ عَبيدِه بمراسيمِه، وعهودِه إليهم، واستوائِه على سريرِ مملكتِه الذي هو عَرْشُه المجيدُ)[3]؛ ([فـ] هذهِ الصِّفَةُ تَسْتَلْزِمُ سَائِرَ صِفَاتِ الكَمالِ).[4]

الإلهُ:

(«الإلَهُ»: المَعْبُودُ المَحْبُوبُ الذي لا تَصْلُحُ العِبَادَةُ والذُّلُّ والخُضُوعُ والحُبُّ إلا له)[5]؛ (فإنَّ «الإلهَ» هوَ الذي يأْلَهُهُ العِبادُ ذُلاًّ، وخَوْفاً ورَجَاءً، وتَعْظِيماً وطَاعَةً لهُ، بمَعْنَى «مَأْلُوهٍ» وهوَ الذي تَأْلَهُهُ القلوبُ؛ أيْ: تُحِبُّهُ وتَذِلُّ لهُ. وأَصْلُ التَّأَلُّهِ: التَّعَبُّدُ، والتَّعَبُّدُ آخِرُ مَرَاتِبِ الحُبِّ، يُقَالُ: عَبَّدَهُ الحبُّ وتَيَّمَهُ: إذا

(١) شِفاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٥٢).

(٢) بَدَائِعُ الفوائِدِ (٢/ ١٤٩).

(٣) مدارِجُ السالكينَ (٣/ ٣٣٤).

(٤) شِفاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٥٢).

(٥) بَدَائِعُ الفوائِدِ (٤/ ١٣٢).

مَلَكَهُ الذُّلُّ لمَحْبوبِهِ)(١)؛ [فـ] (الإلَهُ هوَ المُسْتَحِقُّ لكَمالِ الحُبِّ بكَمالِ التَّعْظِيمِ والإجْلالِ والذُّلِّ لهُ والخُضُوعِ لَهُ). (٢)

الصَّمَدُ:

(«الصَّمَدُ»: مَنْ تَصْمُدُ نَحوَهُ القُلُوبُ بالرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ، وذلكَ لكَثْرَةِ خِصَالِ الخَيْرِ فيهِ، وكَثْرَةِ الأوصافِ الحَميدةِ لهُ ...

((قال ابْنُ الأنْبارِيِّ: لا خِلافَ بَيْنَ أَهْلِ اللُّغَةِ أنَّ الصَّمَدَ: السَّيِّدُ الذي لَيْسَ فَوْقَهُ أَحَدٌ، الذي يَصْمُدُ إليهِ النَّاسُ في حَوَائِجِهِم وأُمُورِهم، واشْتِقَاقُهُ يَدُلُّ عَلَى هَذَا؛ فإنَّهُ مِن الجَمْعِ والقَصْدِ الذي اجْتَمَعَ القَصْدُ نَحْوَهُ، واجْتَمَعَتْ فيهِ صِفَاتُ السُّؤْدَدِ، وهذا أَصْلُهُ في اللُّغَةِ كَما قَالَ:

أَلا بَكَّـرَ النَّاعِي بِخَيْرَيْ بَنِي أَسَـدْ بعَمْرِو بن يَرْبُوعٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ

والعَرَبُ تُسَمِّي أَشْرَافَها بالصَّمَدِ لاجْتِماعِ قَصْدِ القَاصِدِينَ إليه، واجْتِماعِ صِفَاتِ السِّيادَةِ فيهِ)).(٣)

ومَنْ قَالَ: «إِنَّهُ الذي لا جَوْفَ لَهُ» فقَوْلُهُ لا يُنَاقِضُ هذا التَّفْسِيرَ؛ فإنَّ اللَّفْظَ مِن الاجْتِماعِ، فهوَ الذي اجْتَمَعَتْ فيهِ صِفَاتُ الكَمالِ، وَلا جَوْفَ لَهُ). (٤)

الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ:

(مِنْ أَسْمائِهِ الحُسْنَى: «الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ»)(٥) (فالرَّحْمَنُ: الذي الرَّحْمَةُ وَصْفُهُ،

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٢٧، ٢٨)
(٢) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٣/ ١٤٣٥).
(٣) بَدَائِعُ الفوائِدِ (١/ ١٦٠)
(٤) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٣/ ١٠٢٣-١٠٢٧)
(٥) مُختَصَرُ الصواعِقِ المُرسَلةِ (٣٠٠)

والرَّحِيمُ: الرَّاحِمُ لِعِبَادِه)[1]؛ (فَالرَّحْمَنُ: دَالٌّ على الصِّفَةِ القَائِمَةِ بِهِ سُبْحَانَهُ، والرَّحِيمُ: دَالٌّ على تَعَلُّقِها بالمَرْحُومِ؛ فكَانَ الأَوَّلُ للوَصْفِ، والثَّانِي للفِعْلِ.

فالأَوَّلُ دَالٌّ على أَنَّ الرَّحْمَةَ صِفَتُهُ، والثَّانِي دَالٌّ على أَنَّهُ يَرْحَمُ خَلْقَهُ بِرَحْمَتِهِ؛ وإِذَا أَرَدْتَ فَهْمَ هذا فتأَمَّلْ قولَهُ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: ١١٧] ولَمْ يَجِئْ قَطُّ: رَحْمَنٌ بِهِمْ، فعُلِمَ أَنَّ «رَحْمَنٌ» هوَ المَوصُوفُ بالرَّحْمَةِ، و«رَحِيمٌ» هوَ الرَّاحِمُ برَحْمَتِهِ).[2]

الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والبَاطِنُ:

(**الأَوَّلُ**: الذي لَيسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، **الآخِرُ**: الذي لَيسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، **الظَّاهِرُ**: الذي لَيسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، **البَاطِنُ**: الذي لَيسَ دُونَهُ شَيْءٌ؛ سبَقَ كلَّ شيءٍ بأَوَّلِيَّتِهِ، وبَقِيَ بعدَ كُلِّ شَيْءٍ بآخِرِيَّتِهِ، وعَلا فَوْقَ كلِّ شيءٍ بظُهورِهِ، وأَحاطَ بكلِّ شيءٍ ببُطُونِهِ)[3].

(فأَوليَّةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ سَابِقَةٌ على أَوَّلِيَّةِ كُلِّ مَا سِواهُ، وآخِرِيَّتُهُ ثَابِتَةٌ بعدَ آخِرِيَّةِ كُلِّ ما سِواهُ، فأَوَّلِيَّتُهُ سَبْقُهُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وآخِرِيَّتُهُ بقَاؤُهُ بعدَ كُلِّ شَيْءٍ، وظَاهِرِيَّتُهُ سُبْحَانَهُ فَوْقِيَّتُهُ وعُلُوُّهُ على كُلِّ شَيْءٍ، ومَعْنَى الظُّهُورِ يَقْتَضِي العُلُوَّ، وظَاهِرُ الشَّيْءِ هوَ مَا عَلا منهُ وأَحاطَ بباطِنِهِ، وبُطُونُهُ سُبحانَهُ إِحاطَتُهُ بكُلِّ شَيْءٍ بِحَيْثُ يَكُونُ أَقْرَبَ إليهِ مِنْ نَفْسِهِ، **وهذا قُرْبٌ غَيْرُ قُرْبِ المُحِبِّ مِنْ حَبِيبِهِ**، هذا لَوْنٌ وهذا لَوْنٌ.

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٦)

(٢) بَدَائِعُ الفوائِدِ (١/ ٢٤).

(٣) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ١١١).

((فهذه الأسماءُ الأَرْبعَةُ مُتَقابِلَةٌ: اسمانِ لأَزَلِ الرَّبِّ تعالى وأَبَدِهِ، واسمانِ لعُلُوِّهِ وقُرْبه)). [١]، [ومَدارُها].. على الإحاطَةِ، وهيَ إحاطتانِ: زَمانيَّةٌ ومَكانيَّةٌ، فأَحاطَتْ أَوَّليَّتُهُ، وآخِريَّتُهُ بالقَبْلِ والبَعْدِ، فكُلُّ سابِقٍ انْتَهى إلى أَوَّلِيَّتِهِ، وكُلُّ آخِرٍ انْتَهى إلى آخِرِيَّتِهِ، فأَحاطَتْ أَوَّلِيَّتُهُ وآخِريَّتُهُ بالأَوائِلِ والأَواخِرِ، وأَحاطَتْ ظَاهِرِيَّتُهُ وباطِنِيَّتُهُ بكُلِّ ظَاهِرٍ وبَاطِنٍ، فما مِنْ ظَاهِرٍ إلاَّ واللهُ فَوْقَهُ، ومَا مِنْ بَاطِنٍ إلاَّ واللهُ دُونَهُ، وما مِنْ أَوَّلٍ إلاَّ واللهُ قَبْلَهُ، وما مِنْ آخِرٍ إلاَّ واللهُ بَعْدَهُ: فالأَوَّلُ قِدَمُهُ، والآخِرُ دَوامُهُ وبَقاؤُهُ، والظَّاهِرُ عُلُوُّهُ وعَظَمَتُهُ، والبَاطِنُ قُرْبُهُ ودُنُوُّهُ، فسَبَقَ كلَّ شَيْءٍ بأَوَّلِيَّتِهِ، وبَقِيَ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ بآخِرِيَّتِهِ، وعَلا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ بظُهُورِهِ، ودَنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ببُطُونِهِ، فَلا تُوارِي منهُ سَماءٌ سَماءً، ولا أَرْضٌ أَرْضاً، ولا يَحْجُبُ عنهُ ظَاهِرٌ باطناً، بل البَاطِنُ لهُ ظَاهِرٌ، والغَيْبُ عندَهُ شَهادَةٌ، والبَعِيدُ منهُ قَرِيبٌ، والسِّرُّ عندَهُ عَلانِيَةٌ.

فهذه الأَسْماءُ الأَرْبَعَةُ تَشْتَمِلُ على أَرْكَانِ التَّوْحِيدِ فهوَ الأَوَّلُ في آخِرِيَّتِهِ والآخِرُ في أَوَّلِيَّتِهِ، والظَّاهِرُ في بُطُونِهِ، والبَاطِنُ في ظُهُورِهِ، لَمْ يَزَلْ أَوَّلاً وآخِراً وظَاهِراً وباطِناً). [٢]

الحَيُّ:

(([اللهُ] سُبْحانَهُ «حَيٌّ» حَقِيقَةً، وحَياتُهُ أَكْمَلُ الحَياةِ وأَتَمُّها، وهيَ حَياةٌ تَسْتَلْزِمُ جَمِيعَ صِفَاتِ الكَمالِ ونَفْيَ أَضْدادِهَا مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ) [٣]، (فَالحَيُّ المُطْلَقُ التَّامُّ الحَياةِ لا تَفُوتُهُ صِفَةُ الكَمالِ البَتَّةَ). [٤]

---

(١) مُختصَرُ الصواعقِ المُرسَلةِ (٣٥٧).

(٢) طَريقُ الهجرتَينِ (٢٣).

(٣) شِفاءُ العَليلِ (٢/ ٨٢).

(٤) زادُ المَعادِ (٤/ ٢٠٤).

القَيُّومُ:

(«القَيُّومُ» هوَ القَائِمُ بنَفْسِهِ، الذي قِيامُ كُلِّ شَيْءٍ بهِ؛ أيْ: هوَ المُقِيمُ لغَيْرِهِ، لا قِيامَ لغَيْرِهِ بدُونِ إقَامَتِهِ لهُ، وقِيَامُهُ هوَ بنَفْسِهِ لا بِغَيْرِه).[1]

([فـ]هو الذي قامَ بنَفْسِهِ فَلَمْ يَحْتَجْ إلى أَحَدٍ، وقَامَ كُلُّ شَيْءٍ بهِ. فكُلُّ مَا سِوَاهُ مُحْتَاجٌ إليهِ بالذَّاتِ).[2]

الحَمِيدُ:

(«الحَمِيدُ» ... هوَ الذي لَهُ الحَمْدُ كُلُّهُ) [3] (فَالحَمِيدُ «فَعِيلٌ» مِن الحَمْدِ، وهوَ بمَعْنَى «مَحْمُودٍ»... وهوَ أَبْلَغُ مِن المَحْمُودِ؛ فإنَّ «فَعِيلاً» إذا عُدِلَ بهِ عنْ «مَفْعُولٍ» دَلَّ على أَنَّ تلكَ الصِّفَةَ قدْ صَارَتْ مِثْلَ السَّجِيَّةِ الغَرِيزِيَّةِ والخُلُقِ اللازِمِ، كما إذا قُلْتَ: فُلانٌ ظَرِيفٌ أوْ شرِيفٌ أوْ كَرِيمٌ ...؛ فـ «الحَمِيدُ»: الذي لهُ مِن الصِّفَاتِ وأَسْبَابِ الحَمْدِ مَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مَحْمُوداً وإنْ لَمْ يَحْمَدْهُ غيرُهُ، فهوَ حَمِيدٌ في نَفْسِهِ، والمَحْمُودُ مَنْ تَعَلَّقَ بِهِ حَمْدُ الحَامِدِينَ ...

وكُلَّما كَانَتْ هذهِ الصِّفَاتُ أَجْمَعَ وأَكْمَلَ كَانَ الحَمْدُ والحُبُّ أَتَمَّ وأَعْظَمَ، واللهُ سُبْحَانَهُ لهُ الكَمالُ المُطْلَقُ الذي لا نَقْصَ فيهِ بِوَجْهٍ ما، والإِحْسَانُ كُلُّهُ لَهُ ومنهُ؛ فهوَ أَحَقُّ بكُلِّ حَمْدٍ، وبكُلِّ حُبٍّ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ؛ فهوَ أَهْلٌ أَنْ يُحَبَّ لذَاتِهِ ولصِفَاتِهِ ولأفْعَالِهِ ولأسْمائِهِ ولإحْسَانِهِ ولكُلِّ مَا صَدَرَ منهُ سُبْحانَهُ) [4]، (و.. لهُ الحَمْدُ كُلُّهُ بِجَمِيعِ وجُوهِهِ واعْتِبَارَاتِهِ وتَصَارِيفِهِ، فَما خَلَقَ شيئاً ولا

---

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ١١٤).

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٢/ ١١١).

(٣) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٦٦).

(٤) جَلاءُ الأفهامِ (١٦٤-١٦٥).

حَكَمَ بشيْءٍ إلاَّ ولهُ فيهِ الحَمْدُ؛ فوَصَلَ حَمْدُهُ إلى حَيْثُ وَصَلَ خَلْقُهُ وأَمْرُهُ؛ حَمْداً حَقِيقِيًّا يَتَضَمَّنُ: محبَّتَهُ، والرِّضا بهِ، والثَّنَاءَ عليهِ، والإقْرَارَ بِحِكْمَتِهِ البالِغَةِ في كُلِّ ما خَلَقَهُ وأَمَرَ به). (1)

المَجِيدُ:

(«المَجِيدُ» مَن اتَّصَفَ بصِفَاتٍ مُتعَدِّدَةٍ مِنْ صِفَاتِ الكَمالِ، ولَفْظُهُ يَدُلُّ على هذا؛ فإنَّهُ مَوْضُوعٌ للسَّعَةِ والكَثْرَةِ والزِّيادَةِ؛ لأنَّ لَفْظَ «م ج د» في لُغَتِهم يَدُورُ على مَعْنَى الاتِّساعِ والكَثْرَةِ، فمنهُ قَوْلُهم: أَمجَدَ النَّاقَةَ عَلَفاً؛ أيْ: أَوْسَعَها عَلَفاً، ومنهُ: مجُدَ الرَّجُلُ فهوَ ماجِدٌ إذا كَثُرَ خيرُهُ وإحْسَانُهُ إلى النَّاسِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

أَنْتَ تَكُونُ مَاجِدٌ نَبِيلُ ... إِذَا تَهُبُّ شَمْأَلٌ بَلِيلُ

ومنهُ قَوْلُهم: في كُلِّ شَجرٍ نَارٌ، واسْتَمْجَدَ المَرْخُ والعفَارُ؛ أيْ: كَثُرَت النَّارُ فيهما)(2)، ومنهُ: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: ١٥]، صِفَةٌ للعَرْشِ لِسَعَتِهِ وعَظَمَةِ شَرَفِهِ). (3)

([فالمَجْدُ.. مُسْتَلْزِمٌ للعَظَمَةِ والسَّعَةِ والجَلالِ كَما يَدُلُّ عليهِ مَوضُوعُهُ في اللُّغَةِ. فهوَ دَالٌّ عَلى صِفَاتِ العَظَمَةِ والجَلالِ).(4) (و... التَّمْجِيدُ هوَ الثَّناءُ بِصِفَاتِ العَظَمَةِ والجَلالِ).(5)

---

(1) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٩١).

(2) بَدَائِعُ الفوائِدِ (٢/ ٩٣)، الضوءُ المُنيرُ (١/ ٣٣).

(3) بَدَائِعُ الفوائِدِ (١/ ١٦٠).

(4) جَلاءُ الأفهامِ (١٦٥).

(5) الكلامُ على مسألةِ السَّماعِ (١٩٨).

العَليُّ:

(و [هو سُبْحَانَه] ... «العَليُّ»)[1] (العَالي على كُلِّ شيْءٍ) [2] (الذي عَلا عَن كُلِّ عَيْبٍ وسُوءٍ ونَقْصٍ). [3]

(و ... مِنْ لَوَازِم اسْم «العَليِّ»: العُلُوُّ المُطْلَق بكُلِّ اعْتِبَارٍ، فَلَهُ العُلُوُّ المُطْلَقُ مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ: عُلُوُّ القَدْرِ، وعُلُوُّ القَهْرِ، وعُلُوُّ الذَّاتِ). [4]

العَظِيمُ:

(وهو «العَظِيمُ» الذي لهُ العَظَمَةُ)[5] (ذَاتاً ووصْفاً). [6]

(وكُلُّ مَوْصُوفٍ فصِفَتُهُ بحَسَبِهِ؛ فَعِظَمُ الذَّاتِ شَيْءٌ، وعِظَمُ صِفَاتِهَا شَيْءٌ، وعِظَمُ القَوْلِ شَيْءٌ، وعِظَمُ الفِعْلِ شَيْءٌ، والرَّبُّ تَعَالَى لَهُ العَظَمَةُ بكُلِّ اعْتِبَارٍ وكُلِّ وَجْهٍ بذَاتِه). [7]

[فهو - تعالى -] (أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.. في ذَاتِهِ وصِفَاتِهِ وأَفْعَالِه). [8]

(وَهْوَ العَظِيمُ بِكُلِّ مَعْنًى يُوجِبُ الـ تَّعْظِيمَ لا يُحْصِيهِ مِنْ إِنْسَانِ). [9]

---

(١) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٦٦).

(٢) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (١٣٢). وقال - رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى - في الصواعقِ المُرسَلةِ (٤/ ١٣٦٥): (يُثبتُ بذلكَ عُلُوَّهُ على المخلوقاتِ وعَظمَتَهُ، فالعلوُّ: رِفعَتُه).

(٣) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٦٦).

(٤) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٥).

(٥) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٣).

(٦) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٤/ ١٣٦٥).

(٧) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٤/ ١٣٦٥).

(٨) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٤/ ١٣٧٩).

(٩) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٠).

السَّمِيعُ:

(«السَّمِيعُ»: الذي لَهُ السَّمْعُ)[(١)]، (الذي قَدِ اسْتَوَى في سَمْعِهِ سِرُّ القَوْلِ وجَهْرُهُ، وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ، فلا تَخْتَلِفُ عليهِ أَصْوَاتُ الخَلْقِ ولا تَشْتَبِهُ عليهِ ولا يَشغَلُهُ منها سَمْعٌ عن سَمْعٍ، ولا تُغْلِطُهُ المَسَائِلُ، ولا يُبرِمُهُ كَثْرَةُ السَّائِلِينَ).[(٢)]

([فوَسِعَ] سَمْعُهُ - تَبَارَكَ وتعالى - لأَصْوَاتِ عِبادِهِ على اخْتِلافِهَا وجَهْرِها وخَفَائِها، وسَوَاءٌ عندَهُ مَنْ أسرَّ القَوْلَ ومَنْ جَهَرَ به، لا يَشْغَلُهُ جَهْرُ مَنْ جَهَرَ عنْ سَمْعِهِ لِصَوتِ مَنْ أَسرَّ، ولا يَشْغَلُهُ سَمعٌ عنْ سَمْعٍ، ولا تُغْلِطُهُ الأَصْواتُ على كَثْرَتِها واخْتِلافِها واجْتِماعِها، بلْ هيَ عندَهُ كُلُّها كصَوْتٍ واحِدٍ، كَما أَنَّ خَلْقَ الخَلْقِ جَمِيعِهم وبَعْثَهم عندَهُ بمَنْزِلَةِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ).[(٣)]

(وأَمَّا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ الخَليلِ عليهِ السلامُ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم:٣٩] فالمُرادُ بالسَّمْعِ هنا: السَّمْعُ الخَاصُّ وهوَ سَمْعُ الإجَابَةِ والقَبُولِ، لا السَّمْعُ العَامُّ؛ لأَنَّهُ سَمِيعٌ لِكُلِّ مَسْموعٍ.

وإذا كانَ كذلكَ؛ فالدُّعاءُ هنا يَتناولُ دُعاءَ الثَّناءِ ودُعاءَ الطَّلَبِ، وسَمْعُ الرَّبِّ تَبارَكَ وتعالى لهُ إِثَابَتُهُ على الثَّناءِ وإِجابَتُهُ للطَّلَبِ، فهوَ سَميعٌ لهذا وهذا).[(٤)]

البَصِيرُ:

(«البَصِيرُ» الذي لَهُ البَصرُ)[(٥)]، (الذي لكَمالِ بَصرِهِ يَرَى تَفاصِيلَ خَلْقِ

---

(١) شِفاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٢٨).

(٢) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (١٣١-١٣٢).

(٣) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (٤٣-٤٤).

(٤) بَدَائِعُ الفوائِدِ (٣/ ٤).

(٥) شِفاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٢٨).

الذَّرَّةِ الصَّغِيرَةِ وأَعْضَائِها ولَحْمِها ودَمِها ومُخِّها وعُرُوقِها، ويَرَى دَبِيبَها على الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ في اللَيْلَةِ الظَّلْمَاءِ، ويَرَى ما تَحْتَ الأَرَضِينَ السَّبْعِ كما يَرَى ما فَوْقَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ) [١]، (لَقَدْ أَحَاطَ.. بَصَرُهُ بجَمِيعِ المُبْصَرَاتِ، وعِلْمُهُ بجَمِيعِ المَعْلُوماتِ). [٢]

اللَّطِيفُ:

(«اللَّطِيفُ» الذي لَطُفَ صُنْعُهُ وحِكْمَتُهُ ودَقَّ حَتَّى عَجَزَت عنهُ الأَفْهَامُ). [٣]

(وَهُـوَ اللَّطِيفُ بِعَبْدِهِ ولِعَبْدِه ... واللُّطْـفُ في أَوْصَافِهِ نَوْعَـانِ:
إِدْرَاكُ أَسْرَارِ الأُمُـورِ بِخِبْرَةٍ، ... واللُّطْـفُ عِنْـدَ مَوَاقِعِ الإِحْسَـانِ
فَـيُرِيـكَ عِـزَّتَـهُ ويُـبْـدِي لُطْفَهُ ... والعَبْدُ في الغَفَلاتِ عَنْ ذَا الشـانِ) [٤]

الخَبِيرُ:

(«الخَبِيرُ» الذي انْتَهَى عِلْمُهُ إلى الإِحَاطَةِ بِبَوَاطِنِ الأَشْياءِ وخَفَايَاهَا كما أَحَاطَ بظَوَاهِرِها). [٥]

العَلِيمُ:

(«العَلِيمُ»: الذِي لَهُ العِلْمُ) [٦]، (العَالِمُ بكُلِّ شَيْءٍ، الذي لكَمَالِ عِلْمِهِ يَعْلَمُ

---

(١) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (١٣١).

(٢) هدايةُ الحيارَى (٥٢٣ – ٥٢٤).

(٣) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٢/ ٤٩٢).

(٤) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٤).

(٥) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٢/ ٤٩٢).

(٦) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٢٨).

ما بَيْنَ أَيْدِي الخَلائِقِ وما خَلْفَهُم؛ فلا تَسْقُطُ ورَقَةٌ إلاَّ بعِلْمِهِ، ولا تَتَحَرَّكُ ذَرَّةٌ إلاَّ بإِذْنِهِ، يَعْلَمُ دَبِيبَ الخَوَاطِرِ في القُلُوبِ حيثُ لا يَطَّلِعُ عليها المَلَكُ، ويَعْلَمُ ما سَيَكُونُ منها حَيْثُ لا يَطَّلِعُ عليهِ القَلْبُ). (١)

([فـ] يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخفَى (([أي]: ما تُسِرُّهُ القُلُوبُ وأَخْفَى منهُ: وهوَ مَا لَمْ يَخْطُرْ لها أَنَّهُ سَيَخْطُرُ لها))(٢)، ويَعْلَمُ ما كَانَ ومَا يَكُونُ [وَمَا لَمْ يَكُنْ] لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُها ولا حَبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأَرْضِ ولا رَطْبٍ ولا يَابِسٍ، ولا سَاكِنٍ ولا مُتَحَرِّكٍ، إلاَّ وهوَ يَعْلَمُهُ على حَقِيقَتِهِ). (٣)

([فـ] لا تَخْفَى عليهِ خَافِيَةٌ، ولا يَعْزُبُ عنهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ في السَّمَاواتِ والأَرْضِ، بلْ قَدْ أَحَاطَ بكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، وأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ...

و... عِلْمُهُ [تعالى].. لا يُشارِكُهُ فيهِ خَلْقُهُ، ولا يُحِيطونَ بشَيْءٍ منهُ إلاَّ بما شَاءَ أَنْ يُطْلِعَهُم عليهِ ويُعْلِمَهُم بهِ، وما أَخْفَاهُ عنهم ولم يُطْلِعْهم عليهِ ... لا نِسْبَةَ لما عَرَفُوهُ إليهِ إلاَّ دونَ نِسْبَةِ قَطْرَةٍ واحِدَةٍ إلى البِحَارِ كُلِّهَا، كَمَا قَالَ الخَضِرُ لمُوسَى - وهما أَعْلَمُ أَهْلِ الأَرْضِ حِينَئِذٍ -: «مَا نَقَصَ عِلْمِي وعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إلاَّ كَمَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ مِن البَحْرِ»(٤).

ويَكْفِي أَنَّ ما يَتكَلَّمُ بهِ مِنْ عِلْمِهِ لوْ قُدِّرَ أَنَّ البَحْرَ - يَمُدُّهُ مِنْ بعدِهِ سبعةُ أَبْحُرٍ - مِدَادٌ، وأَشْجَارُ الأَرْضِ كُلُّها مِنْ أَوَّلِ الدَّهْرِ إلى آخِرِهِ أَقْلامٌ، يَكْتُبُ بِهِ ما يَتَكَلَّمُ بِهِ ما يَعْلَمُهُ لَنَفِدَت البِحَارُ وفَنِيَت الأَقْلامُ ولم تَنْفَدْ كَلِمَاتُهُ.

(١) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (١٣١).

(٢) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٣/ ١٠٨٣).

(٣) هدايةُ الحيارَى (٥٢٣).

(٤) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٥٠١.

فنِسْبَةُ عُلُومِ الخَلائقِ إلى عِلْمِهِ سُبْحانَهُ كنِسْبَةِ قُدْرَتِهِم إلى قُدْرَتِهِ، وغِنَاهُم إلى غِنَاهُ، وحِكْمَتِهِم إلى حِكْمَتِه).[1]

المُحِيطُ:

(«المُحِيطُ»:.. مُحِيطٌ بالعَالَمِ كُلِّه)[2]، (و.. العَوَالِمُ كلُّها في قَبْضَتِهِ، و... السَّماوَاتُ السَّبْعُ والأَرَضُونَ السَّبْعُ في يَدِهِ كخَرْدَلَةٍ في يَدِ العَبْدِ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وقال: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [البروج: ٢٠]).[3]

(فإذا كَانَ مُحِيطاً بالعَالَمِ فهوَ فَوْقَهُ بالذَّاتِ عَالٍ عليهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وبكُلِّ مَعْنًى؛ فالإحاطَةُ تَتَضَمَّنُ العُلُوَّ والسَّعَةَ والعَظَمَةَ).[4]

الوَاسِعُ:

([واللهُ سُبْحَانَهُ هُوَ] «الوَاسِعُ» [أي]: وَاسِعُ العَطَاءِ، وَاسِعُ الغِنَى، وَاسِعُ الفَضْلِ).[5]

(و ... السَّعَةُ ... تكونُ في الذَّوَاتِ والمَعَاني).[6]

---

(١) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٧٩-٨٢).

(٢) مُختَصَرُ الصواعقِ المُرسَلةِ (٣٩٩).

(٣) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (٢١).

(٤) مُختَصَرُ الصواعقِ المُرسَلةِ (٣٩٩).

(٥) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (٣٧٤).

(٦) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (١٣٧٥).

الخَالِقُ:

([اللهُ سُبْحَانَه].. هوَ «الخَالِقُ» ... وكُلُّ شيْءٍ في الخَارِجِ فَبِخَلْقِهِ وُجِدَ) [١]، (وهو [الذي] ... أَخْرَجَهُم مِن العَدَمِ إلى الوُجودِ وأَنْشَأهُم واخْتَرَعَهُم وَحْدَهُ بلا شَرِيكٍ ... وخَلْقُهُ تعالى لهم مُتَضَمِّنٌ لكَمالِ قُدْرَتِهِ وإرَادَتِهِ وعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ وحَيَاتِهِ، وذلكَ يَسْتَلْزِمُ سَائِرَ صِفَاتِ كَمالِهِ ونُعُوتِ جَلالِه) [٢].

البَارِئُ:

([اللهُ - سُبْحَانَهُ هو] «البَارِئُ» ... الذي بَرَأَ الخَلِيقَةَ وأَوْجَدَهَا بعدَ عَدَمِها) [٣].

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ:

(مُبْدِعُ الشيْءِ وبَدِيعُهُ لا يَصِحُّ إطْلاقُهُ إلاَّ على الرَّبِّ، كقولِهِ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]. والإبْدَاعُ إيجادُ المُبْدَعِ على غيرِ مِثَالٍ سَبَقَ).

[٤]

الرَّزَّاقُ:

(وكَذَلِكَ «الرَّزَّاقُ» مِنْ أَسْمَائِهِ ... والرِّزْقُ في أَفْعَالِهِ نَوْعَانِ
رِزْقٌ عَلَى يَدِ عَبْدِهِ ورَسُولِه ... نَوْعَانِ أَيْضاً ذَانِ مَعْرُوفَانِ
رِزْقُ القُلُوبِ العِلْمَ والإيمَانَ والرِّ ... زقُ المُعَدُّ لهذِهِ الأَبْدَانِ
هَذَا هُوَ الرِّزْقُ الحَلالُ ورَبُّنَا ... رَزَّاقُهُ والفَضْلُ للمَنَّانِ

(١) مِفتاحُ دارِ السَّعادةِ (١/ ٢٤٣).

(٢) بَدَائِعُ الفوائِدِ (٤/ ١٣٢-١٣٣).

(٣) شِفَاءُ العَلِيلِ (١/ ٣٣٢).

(٤) شِفَاءُ العَلِيلِ (١/ ٣٣٢).

والثَّانِ سَوْقُ القُوتِ للأعْضاءِ في ... تِلْكَ المَجَارِي سَوْقُهُ بِوِزَانِ
هَذَا يَكُونُ مِن الحَلالِ كَمَا يَكُو ... نُ مِن الحَرَام كِلاهُمَا رِزْقَانِ
واللهُ رَازِقُهُ بِهذا الإعْتِبَا ... رِ ولَيْسَ بالإطْلاقِ دُونَ بَيَانِ) [1]

القَوِيُّ:

(«القَوِيُّ» مِنْ أَسْمَائِهِ، ومَعْنَاهُ: المَوْصُوفُ بالقُوَّةِ) [2]، (وَلَو اجْتَمَعَتْ قُوَى الخَلائِقِ على شَخْصٍ واحِدٍ منهم، ثُمَّ أُعْطِيَ كُلٌّ منهم مِثْلَ تلكَ القُوَّةِ لكانت نِسْبَتُها إلى قُوَّتِهِ سُبْحَانَهُ دون نِسْبَةِ قُوَّةِ البَعُوضَةِ إلى حَمَلَةِ العَرْشِ). [3]

العَزِيزُ:

(«العَزِيزُ» الذي لَهُ العِزَّةُ التَّامَّةُ) [4] ([التي] تتضَمَّنُ كَمَالَ قُدْرَتِهِ وقُوَّتِهِ وقَهْرِهِ ... فاسْمُهُ «العَزِيزُ» يَتضَمَّنُ المُلْكَ) [5].

(وَهُوَ العَزِيزُ فَلَنْ يُرَامَ جَنَابُهُ ... أَنَّى يُرَامُ جَنَابُ ذِي السُّلْطَانِ
وَهُوَ العَزِيزُ القَاهِرُ الغَلاَّبُ لَمْ ... يَغْلِبْهُ شَيْءٌ هَذِهِ صِفَتَانِ
وَهُوَ العَزِيزُ بِقُوَّةٍ هِيَ وَصْفُهُ ... فَالعِزُّ حِينَئِذٍ ثَلاثُ مَعَانِ
وَهْيَ الَّتِي كَمُلَتْ لَهُ سُبْحَانَهُ ... مِنْ كُلِّ وَجْهٍ عَادِمِ النُّقْصَانِ) [6]

---

(١) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٧ – ٢٤٨).

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٢).

(٣) شِفَاءُ العَلِيلِ (١/ ٢٧٩).

(٤) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٦٦).

(٥) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٤٢٧).

(٦) توضيحُ المقاصدِ لابنِ عِيسَى (٢/ ٢١٤). تنبيهٌ: سَقَطَ البيتُ الثاني من كتابِ «القصيدةِ النونيةِ» (ص٢٤٢).

(وَمِنْ تَمامِ عِزَّتِهِ بَراءَتُهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وشَرٍّ وعَيْبٍ؛ فإنَّ ذَلِكَ يُنافِي العِزَّةَ التَّامَّةَ).[1]

القَدِيرُ:

(وَهْوَ «الْقَدِيرُ» وَلَيْسَ يُعْجِزُهُ إِذَا مَا رَامَ شَيْئاً قَطُّ ذُو سُلْطَانِ)[2]

([فَهُو الـ]قَادِرُ على كُلِّ شَيْءٍ فَلا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ يُرِيدُهُ بَلْ هوَ الفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ)[3]، (و[هو] على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فلا يَخْرُجُ عنْ مَقْدُورِهِ شَيْءٌ مِن المَوْجُودَاتِ؛ أَعْيَانُهَا وأَفْعَالُهَا وصِفَاتُها، كَمَا لا يَخْرُجُ عنْ عِلْمِهِ، فكُلُّ مَا تَعَلَّقَ بهِ عِلْمُهُ مِن العَالَمِ تَعَلَّقَتْ بِهِ قُدْرَتُهُ ومَشِيئَتُهُ).[4]

الجَبَّارُ:

(«الجَبَّارُ» في صِفَةِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ يَرْجِعُ إلى ثَلاثَةِ مَعَانٍ: **المُلْكُ، والقَهْرُ، والعُلُوُّ**: فإنَّ النَّخْلَةَ إذا طَالَتْ وارْتَفَعَتْ وفَاتَت الأيْدِيَ سُمِّيَتْ جَبَّارَةً).[5]

وَكَذَلِكَ الجَبَّارُ مِنْ أَوْصَافِهِ جَبْرُ ... وَالجَبْرُ فِي أَوْصَافِهِ قِسْمَانِ
الضَّعِيفِ وَكُلِّ قَلْبٍ قَدْ غَدَا ... ذَا كَسْرَةٍ فَالجَبْرُ مِنْهُ دَانِ
والثَّانِ جَبْرُ القَهْرِ بالعِزِّ الَّذِي ... لا يَنْبَغِي لِسِوَاهُ مِنْ إِنْسَانِ
وَلَهُ مُسَمًّى ثَالِثٌ وَهْوَ الْعُلُوُّ ... فَلَيْسَ يَدْنُو مِنْهُ مِنْ إِنْسَانِ
مِنْ قَوْلِهِمْ جَبَّارَةٌ لِلنَّخْلَةِ الـ ... ـعَلْيَا الَّتِي فَاتَتْ لِكُلِّ بَنَانِ[6]

(١) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٦٦).
(٢) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٢).
(٣) هدايةُ الحيارَى (٥٢٣).
(٤) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (١١٦).
(٥) شِفَاءُ العَلِيلِ (١/ ٣١٠-٣١٢).
(٦) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٦)

القَهَّارُ:

(وكَذَلِكَ القَهَّارُ مِنْ أَوْصافِهِ فَالخَلْقُ مَقْهُورُونَ بالسُّلْطَانِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ حَيًّا عَزِيزاً قَادِراً مَا كَانَ مِنْ قَهْرٍ وَلا سُلْطَانِ).[1]

الكَبِيرُ - المُتَكَبِّرُ:

(وَكَذَلِكَ «الكَبِيرُ» مِنْ أَسْمَائِهِ و«المُتَكَبِّرُ». قَالَ قَتَادَةُ وغَيْرُهُ: هوَ الذي تَكَبَّرَ عَنِ السُّوءِ. وقَالَ أَيْضاً: الذي تَكَبَّرَ عَنِ السَّيِّئَاتِ. وقَالَ مُقَاتِلٌ: المُتَعَظِّمُ عنْ كُلِّ سُوءٍ.

وقَالَ أبو إِسْحاقَ: الذي يَكْبُرُ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِه).[2]

([و] «الكَبِيرُ» يُوصَفُ بِهِ الذَّاتُ وصِفَاتُها القَائِمَةُ بها).[3]

(فاللهُ سُبْحَانَهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: ذَاتاً، وقَدْراً، ومَعْنًى، وعِزَّةً، وجَلالَةً؛ فهوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ في ذَاتِهِ وصِفَاتِهِ وأَفْعَالِهِ كَمَا هوَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وعَالٍ على كُلِّ شَيْءٍ، وأَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وأَجَلُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ في ذَاتِهِ وصِفَاتِهِ وأَفْعَالِه).[4]

القُدُّوسُ:

(«القُدُّوسُ» المُنَزَّهُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ ونَقْصٍ وعَيْبٍ، كما قال أَهْلُ التَّفْسِيرِ: هوَ الطَّاهِرُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ، المُنَزَّهُ عَمَّا لا يَلِيقُ بِهِ. وهذا قَوْلُ أَهْلِ اللُّغَةِ. وأَصْلُ

(١) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٦).

(٢) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٦٦).

(٣) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٤/ ١٣٧٥).

(٤) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٤/ ١٣٨٧-١٣٧٩).
وقال - رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى - في هِدايةِ الحَيارَى (٥٢٤): (إنه قُدُّوسٌ سَلامٌ فهو المُبَرَّأُ مِن كلِّ عيبٍ ونقصٍ وآفةٍ).

الكَلِمَةِ مِن الطَّهارَةِ والنَّزاهَةِ. ومنهُ: «بَيْتُ المَقْدِسِ»؛ لأَنَّهُ مَكانٌ يُتطَهَّرُ فيهِ مِن الذُّنوبِ، ومَنْ أمَّهُ لا يُرِيدُ إلاَّ الصَّلاةَ فيهِ رَجعَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كيومَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، ومنهُ سُمِّيَت الجَنَّةُ «حَظِيرَةَ القُدُسِ» لطَهارَتِهَا مِنْ آفاتِ الدُّنيا. ومنهُ سُمِّيَ جِبرِيلُ «رُوحَ القُدُسِ»؛ لأَنَّهُ طَاهِرٌ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ. ومنهُ قَوْلُ المَلائِكَةِ: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فقِيلَ: المَعْنَى: ونُقَدِّسُ أَنْفُسَنَا لَكَ، فعُدِّيَ باللاَّمِ. وهَذَا لَيْسَ بِشيْءٍ. والصَّوَابُ أَنَّ المَعْنَى نُقَدِّسُكَ ونُنَزِّهُكَ عمّاَ لا يَلِيقُ بِكَ. هَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ أَهْلِ التَّفْسيرِ). (١)

السَّلامُ:

(«السَّلامُ» ... مِنْ أَسْماءِ الرَّبِّ تَبارَكَ وتَعَالَى، وهوَ اسْمُ مَصْدَرٍ في الأَصْلِ - كالكَلامِ والعَطَاءِ - بمَعْنَى السَّلامَةِ، ... [و] الرَّبُّ تَعَالى أَحَقُّ بِهِ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ؛ لأَنَّهُ السَّالِمُ مِنْ كُلِّ آفَةٍ وعَيْبٍ ونَقْصٍ وذَمٍّ؛ فَإِنَّ لهُ الكَمالَ المُطْلَقَ مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ، وكَمالُهُ مِنْ لوَازِمِ ذَاتِهِ، فَلا يَكُونُ إلاَّ كَذَلِكَ.

و «السَّلامُ» يَتَضَمَّنُ:

- سَلامَةَ أَفْعَالِهِ مِن العَبَثِ والظُّلْمِ وخِلافِ الحِكْمَةِ.
- وسَلامَةَ صِفَاتِهِ مِنْ مُشَابَهَةِ صِفَاتِ المَخْلُوقِينَ.
- وسَلامَةَ ذَاتِهِ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ وعَيْبٍ.
- وسَلامَةَ أَسْمائِهِ مِنْ كُلِّ ذَمٍّ.

فاسْمُ «السَّلامِ» يَتَضَمَّنُ إِثْباتَ جَمِيعِ الكَمالاتِ لَهُ وسَلْبَ جَمِيعِ النَّقَائِصِ عنهُ.

(١) شِفاءُ العَلِيلِ (٢/ ٦٤-٦٥).

وهَذَا مَعْنَى: «**سُبْحَانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ**»، ويَتَضَمَّنُ إِفْرَادَهُ بالأُلوهِيَّةِ، وإفْرادَهُ بالتَّعْظِيمِ؛ وهَذَا مَعْنَى: «**لا إِلَهَ إِلا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ**»، فَانْتَظَمَ اسْمُ «السَّلام» البَاقِياتِ الصَّالِحَاتِ التي يُثْنَى بها على الرَّبِّ جَلَّ جلالُهُ). [(١)]

المُؤْمِنُ:

(ومِنْ أَسْمائِهِ تعالى «المُؤْمِنُ» وهوَ في أَحَدِ التَّفْسِيرَيْنِ: المُصَدِّقُ الذي يَصْدُقُ الصَّادِقِينَ بِمَا يُقِيمُ لَهُم مِنْ شَوَاهِدِ صِدْقِهِم. فهوَ الذي صَدَقَ رُسُلَهُ وأَنْبياءَهُ فيما بَلَّغُوا عنهُ. وشَهِدَ لَهُم بأَنَّهُم صَادِقُونَ بالدَّلائِلِ التي دَلَّ بها عَلَى صِدْقِهِم قَضَاءً وخَلْقاً). [(٢)]

الحَقُّ:

([اللهُ] سُبْحَانَهُ هوَ الحَقُّ، وقَوْلُهُ الحَقُّ، ودِينُهُ الحَقُّ، ووَعْدُهُ حَقٌّ، ولِقَاؤُهُ حَقٌّ، وفِعْلُهُ كُلُّهُ حَقٌّ؛ لَيسَ في أَفْعَالِهِ شيْءٌ بَاطِلٌ، بلْ أَفْعَالُهُ سُبْحانَهُ بَرِيئَةٌ مِن البَاطِلِ) [(٣)] (فـ... [هُوَ] الحَقُّ المُطْلَقُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وبِكُلِّ اعْتِبَارٍ). [(٤)]

الحَكِيمُ:

(و ... مِنْ أَسْمائِهِ «الحَكِيمُ») [(٥)] (الذي لا يَضَعُ الشيَّءَ إلاَّ في مَوْضِعِهِ) [(٦)] (و... مِنْ لوَازِمِهِ ثُبُوتُ الغَايَاتِ المَحْمُودَةِ لَهُ بأَفْعَالِهِ، ووَضْعُهُ الأَشْيَاءَ في

(١) أحكامُ أهلِ الذِّمَّةِ (١/ ١٥٣).

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٤٣٢-٤٣٣).

(٣) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (٢٤٦).

(٤) بَدَائِعُ الفوائدِ (٤/ ١٦٥).

(٥) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ١٨٧).

(٦) شِفَاءُ العَلِيلِ (٢/ ٦٧).

مَوْضِعِها، وإِيقَاعُها على أَحْسَنِ الوُجُوهِ)[1].

[فهو سُبْحَانَه] («الحَكِيمُ» الذي بهَرَتْ حِكْمَتُهُ الألْبابَ)[2]، ([فـ] اسْمُهُ سُبْحانَهُ «الحَكِيمُ» يَتَضَمَّنُ حِكْمَتَهُ في خَلْقِهِ، وأَمْرَهُ في إِرَادَتِهِ الدِّينِيَّةِ والكَوْنِيَّةِ، وهوَ حَكِيمٌ في كُلِّ مَا خَلَقَ، حَكِيمٌ في كُلِّ ما أَمَرَ بِهِ).[3] (وهو الحَكِيمُ الذي لَهُ الحُكْمُ. قَالَ تَعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: ١٢]).[4]

العَدْلُ:

(وَمِنْ أَسْمائِهِ الحُسْنَى «العَدْلُ» الذي كُلُّ أَفْعَالِهِ وأَحْكَامِهِ سَدَادٌ وصَوَابٌ وحَقٌّ)[5]

([فهو] العَدْلُ الذي لا يجُورُ ولا يَظْلِمُ، ولا يخَافُ عِبَادُهُ منهُ ظُلْماً).[6]

(والعَدْلُ مِنْ أَوْصَافِهِ في فِعْلِهِ ... ومَقَالِهِ والحُكْمُ بالمِيزَانِ
فَعَلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ إِلهُنَا ... قَوْلاً وفِعْلاً ذَاكَ في القُرْآنِ).[7]

---

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٥).

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٤٠٩).

(٣) طَرِيقُ الهِجرتَيْن (١١٤).

(٤) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٥٣).

(٥) الفوائدُ (٤٧).

(٦) هدايةُ الحيارَى (٥٢٥).

(٧) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٧).
ويشيرُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في البيتِ الأخيرِ إلى قولِه تعالى في سورةِ هودٍ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦]، وقولِه في سورةِ النحلِ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٦٧].
وقد تقدمَ الكلامُ على هاتينِ الآيتينِ في البابِ الثامنَ عَشَرَ

الرَّشِيدُ:

(وَهُوَ الرَّشِيدُ فَقَوْلُهُ وفِعَالُهُ رُشْدٌ وربُّكَ مُرْشِدُ الحَيْرَانِ
وكِلاهُمَا حَقٌّ فَهَذَا وَصْفُه والفِعْلُ للإرْشَادِ ذَاكَ الثَّانِي) (١)

الطَّيِّبُ:

([اللهُ] سُبْحَانَهُ طَيِّبٌ، ((وأَفْعَالُهُ طَيِّبَةٌ، وصِفَاتُهُ أَطْيَبُ شَيْءٍ، وأَسْمَاؤُهُ أَطْيَبُ الأَسْمَاءِ، واسْمُهُ «الطَّيِّبُ» لا يَصْدُرُ عنهُ إلاَّ طَيِّبٌ، ولا يَصْعَدُ إليهِ إلاَّ طَيِّبٌ، ولا يَقْرُبُ منهُ إلاَّ طَيِّبٌ، فكُلُّهُ طَيِّبٌ)) (٢)؛ فالطَّيِّبَاتُ لهُ وَصْفاً وفِعْلاً وقَوْلاً ونِسْبَةً، وكُلُّ طَيِّبٍ مُضَافٌ إليه، وكُلُّ مُضَافٍ إليهِ طَيِّبٌ). (٣)

الأَكْرَمُ:

(«الأَكْرَمُ» الذي فيهِ كُلُّ خَيْرٍ وكُلُّ كَمَالٍ، فَلَهُ كُلُّ كَمَالٍ وَصْفاً، ومنهُ كُلُّ خيرٍ فِعْلاً فهوَ الأَكْرَمُ في ذَاتِهِ وأَوْصَافِهِ وأَفْعَالِه). (٤)

[و] «الأَكْرَمُ» ... هوَ الأَفْعَلُ مِن الكَرَمِ وهوَ: كَثْرَةُ الخَيْرِ. ولا أَحَدَ أَوْلَى بذَلِكَ منهُ سُبْحَانَهُ فَإِنَّ الخَيْرَ كُلَّهُ بيَدَيْهِ، والخَيْرَ كُلَّهُ منهُ، والنِّعَمَ كُلَّها هوَ مَوْلاها، والكَمَالَ كُلَّهُ، والمَجْدَ كُلَّهُ لَهُ، فهوَ الأَكْرَمُ حَقًّا). (٥)

(١) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٧).

* - وقالَ - رَحِمَهُ اللهُ تعالَى - في شِفاءِ العليلِ (١/ ٢٧٢): (وهو ..... رَشِيدٌ يُحِبُّ أهلَ الرُّشْدِ، وهو الذي جعلَ مَنْ يُحِبُّهُ مِن خَلقِه كذلك، وأعطاهُ من الصفاتِ ما شاءَ، وأمسكَها عمَّن يُبغِضُه، وجعلَهُ على أَضدادِها، فهذا عدلُه، وذاك فضلُه، واللهُ ذُو الفضلِ العَظيمِ).

(٢) كتابُ الصلاةِ (١٨٢-١٨٣).

(٣) الكلامُ على مسألةِ السماعِ (٢٠٨-٢٠٩).

(٤) مِفتاحُ دارِ السَّعادةِ (٢/ ٢٤١).

(٥) مِفتاحُ دارِ السَّعادةِ (١/ ١٤٢).

الغَنِيُّ:

(الرَّبُّ تَعالَى.. هوَ الغَنِيُّ بذَاتِهِ، الذي كُلُّ مَا سِوَاهُ مُحْتَاجٌ إليهِ وَلَيْسَ بِهِ حَاجَةٌ إلى أَحَدٍ).(١)

([كَمَا] أَنَّهُ ... لا يَأْكُلُ ولا يَشْرَبُ ولا يَحْتَاجُ إلى شَيْءٍ مِمَّا يَحْتَاجُ إليهِ خَلْقُهُ بوَجْهٍ مِن الوُجُوهِ).(٢)

(فَلَهُ الغِنَى الكَامِلُ التَّامُّ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ عنْ كُلِّ أَحَدٍ بكُلِّ اعْتِبَارٍ).(٣)

الجَوَادُ:

([اللهُ] سُبْحَانَهُ هوَ «الجَوَادُ» الذي لا يَنْقُصُ خَزَائِنَهُ الإنْفَاقُ، ولا يَغِيضُ مَا في يَمِينِهِ سَعَةُ عَطَائِه).(٤)

([فـ]هو «الجَوَادُ المَاجِدُ» الذي لَهُ الجُودُ كُلُّهُ، وجُودُ الخَلائِقِ في جَنْبِ جُودِهِ أَقَلُّ مِنْ ذَرَّةٍ في جِبَالِ الدُّنيا ورِمَالِها).(٥)

(وَهُوَ الجَوَادُ فَجُودُهُ عَمَّ الوُجُـ ... ودَ جَمِيعَهُ بالفَضْلِ والإحْسَانِ
وَهُوَ الجَوَادُ فَلا يُخَيِّبُ سَائِلاً ... وَلَوَ انَّهُ مِنْ أُمَّةِ الكُفْرَانِ)(٦)

---

(١) شِفاءُ العَلِيلِ (١/ ٣٢٨).

(٢) هدايةُ الحيارَى (٥٢٣).

(٣) بَدَائِعُ الفوائدِ (٢/ ٤٥).

(٤) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٢/ ٤٥٠).

(٥) إغاثة اللَّهفان (٢/ ٢٥٣).

(٦) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٥).

الوَاجِدُ:

(«الوَاجِدُ» في أَسْمَائِهِ سُبْحَانَهُ ... بمَعْنَى: ذُو الوُجْدِ والغِنَى، وهوَ ضِدُّ الفَاقِدِ. وهوَ كالمُوسعِ ذِي السَّعَةِ. قَالَ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧]؛ أَيْ: ذُو سَعَةٍ وقُدْرَةٍ ومُلْكٍ؛ كَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٦]). [١]

الوَدُودُ:

(«**الوَدُودُ» مِنْ أَسْمَاءِ الرَّبِّ تَعَالى، وفيهِ قَوْلانِ:**

أَحَدُهما: أَنَّهُ المَوْدُودُ، قال البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ في صَحِيحِهِ: ((«الوَدُودُ»: الحَبِيبُ)) (([فـ] هوَ المَحْبوبُ الذي يَسْتَحِقُّ أنْ يُحِبَّ الحُبَّ كُلَّهُ، وأَنْ يَكُونَ أَحَبَّ إلى العَبْدِ مِنْ سَمْعِهِ وبَصَرِهِ ونَفْسِهِ وجَميعِ مَحْبُوبَاتِهِ)). [٢]

والثاني: أَنَّهُ الوَادُّ لِعِبادِهِ؛ أي: المُحِبُّ لَهُم) [٣] (الذي يُحِبُّ أَنْبِياءَهُ ورُسُلَهُ وأَوْلِياءَهُ وعِبادَهُ المُؤْمِنِينَ). [٤]

المَنَّانُ:

([«المَنَّانُ»: ذُو المَنِّ] الذي إِنَّما يَتَقَلَّبُ الخَلائِقُ في بَحْرِ مِنَّتِهِ عَلَيْهِم، ومَحْضِ صَدَقَتِهِ عَلَيْهِم، بلا عِوَضٍ منهم أَلْبَتَّةَ. وإِنْ كَانَتْ أَعْمالُهُم أَسْباباً لِمَا يَنالُونَهُ

---

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٣٨٣-٣٨٥).

* وقال - رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى - في شِفاءِ العَلِيلِ (١/ ٣٣٢): (ووَقَعَ في أسمائِه الوَاجِدُ، وهو بمَعنَى: الغنيِّ الذي له الوَجْدُ).

(٢) جَلاءُ الأفهامِ (١٦٤).

(٣) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٢٩).

(٤) جَلاءُ الأفهامِ (١٦٤).

مِنْ كَرَمِهِ وجُودِهِ، فهوَ المَنَّانُ عَلَيْهِم بأَنْ وَفَّقَهُم لتِلْكَ الأَسْبَابِ وهَدَاهُم لهَا، وأَعانَهم عَلَيْها، وكَمَّلَها لَهُم، وقَبِلَها مِنْهُم على مَا فِيهَا)[1].

المُحْسِنُ:

([المُحْسِنُ الذي] تعَرَّفَ إلى عِبَادِهِ بأَوْصافِهِ وأَفْعَالِهِ وأَسْمَائِهِ، وتَحَبَّبَ إليهم بنِعَمِهِ وآلائِهِ، وابْتَدَأَهُم بإِحْسَانِهِ وعَطَائِهِ، فهوَ المُحْسِنُ إليهم والمُجَازِي على إِحْسَانِهِ بالإِحْسَانِ، فَلَهُ النِّعْمَةُ والفَضْلُ والثَّنَاءُ الحَسَنُ الجَمِيلُ)[2].

(وهو سُبْحَانَهُ كَتَبَ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ والإحْسَانَ، فَرَحْمَتُهُ وإِحْسَانُهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، فلا يَكُونُ إلاَّ رَحِيماً مُحْسِناً)[3]؛ ([فـ]الإِحْسَانُ صِفَتُهُ، وهوَ المُحْسِنُ ويُحِبُّ المُحْسِنِينَ)[4].

الوَهَّابُ:

(وَكَذَلِكَ الوَهَّابُ مِنْ أَسْمَائِهِ ... فَانْظُرْ مَوَاهِبَهُ مَدَى الأَزْمَانِ
أَهْلُ السَّمَاواتِ الْعُلَى وَالأَرْضِ عَنْ ... تِلْكَ المَوَاهِبِ لَيْسَ يَنْفَكَّانِ)[5].

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ١١٥-١١٦).

(٢) الفُروسِيَّةُ (١٦).

(٣) شِفاءُ العَلِيلِ (١٣٥).

(٤) شِفاءُ العَلِيلِ (١/ ٢٧٢). وقال - رَحِمَهُ اللهُ تعالَى - في طريقِ الهجرتَينِ (١٣٣): (مُحْسِنٌ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ).

(٥) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٧).

الحَسِيبُ:

(«الحَسِيبُ»: الكَافِي) [١] (قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]؛ أيْ: كَافِيه)[٢]. (وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤]؛ أي: اللهُ وَحْدَهُ كَافِيك وكَافِي أَتْبَاعِكَ فلا تَحْتَاجُونَ مَعَهُ إلى أَحَدٍ). [٣]

(وَهُوَ الحَسِيبُ كِفَايَةً وَحِمَايَةً		والحَسْبُ كَافِي العَبْدِ كُلَّ أَوَانِ) [٤]

الشَّهِيدُ:

(مِنْ أَسْمَائِهِ «الشَّهِيدُ» الذي لا يَغِيبُ عنهُ شَيْءٌ، ولا يَعْزُبُ عنهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ في الأَرْضِ ولا في السَّماءِ، بَلْ هو مُطَّلِعٌ على كُلِّ شَيْءٍ مُشَاهِدٌ لَهُ، عَلِيمٌ بتَفَاصِيلِهِ ... بِحَيْثُ لا يَغِيبُ عنهُ وَجْهٌ مِنْ وُجُوهِ تَفَاصِيلِهِ، ولا ذَرَّةٌ مِنْ ذَرَّاتِهِ بَاطِناً وظَاهِراً). [٥]

([فهو] الشَّاهِدُ الذي لا يَغِيبُ، ولا يَسْتَخْلِفُ أَحداً عَلَى تَدْبِيرِ مُلْكِهِ. ولا يَحْتَاجُ إلى مَنْ يَرْفَعُ إليهِ حَوَائِجَ عِبَادِهِ، أَوْ يُعَاوِنُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَسْتَعْطِفُهُ عليهم، ويَسْتَرْحِمُهُ لهم). [٦]

---

(١) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ١٠٣).

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ١٠٣).

(٣) زَادُ المَعادِ (١/ ٣٤).

(٤) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٧).

(٥) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٤٣٣).

(٦) هدايةُ الحيارَى (٥٢٤).

الرَّقِيبُ:

(وَهْوَ الرَّقِيبُ عَلَى الخَوَاطِرِ واللَّوَا ... حِظِ كَيْفَ بالأَفْعَالِ بالأَرْكَانِ)[1]

القَرِيبُ:

(وَهْوَ القَرِيبُ وقُرْبُهُ المُخْتَصُّ بالدَّ ... اعِي وعَابِدِهِ علَى الإيمَانِ)[2]

([فـ]قُرْبُ الرَّبِّ تعالى إنَّما وَرَدَ خاصًّا لا عَامًّا، وهو نَوْعَانِ: قُرْبُهُ مِنْ دَاعِيهِ بالإِجَابَةِ، ومِنْ مُطِيعِهِ بالإِثَابَةِ).[3]

المُجِيبُ:

(وَهْوَ المُجِيبُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُو أُجِبْ ... هُ أَنَا المُجِيبُ لِكُلِّ مَنْ نَادَانِي
وَهْوَ المُجِيبُ لدَعْوَةِ المُضْطَرِّ إذْ ... يَدْعُوهُ في سِرٍّ وفي إعْلانِ)[4]

المُسْتَعَانُ:

(«المُسْتَعانُ» هوَ الذي يُسْتَعانُ بِهِ عَلَى حُصُولِ المَطْلُوبِ، ودَفْعِ المَكْرُوهِ).[5]

المُغِيثُ:

وَهْوَ المُغِيثُ لِكُلِّ مَخْلُوقَاتِهِ ... وكَذَا يُجِيبُ إغَاثَةَ اللَّهْفَانِ)[6]

(١) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٤).

(٢) القصيدةُ النونيةُ (٣٦٥).

(٣) مُختصَرُ الصواعقِ المُرسَلةِ (٣٩٥).

(٤) القصيدةُ النونيةُ (٢٥٤).

(٥) طَريقُ الهِجرتَيْنِ (٥٦). وقال - رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى - في إغاثةِ اللَّهفانِ (١/ ٤٣): («المستعانُ» هو الذي يُستَعَانُ به على المطلوبِ).

(٦) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٥).

الكَفِيلُ:

(وَهْوَ الكَفِيلُ بكُلِّ مَا يَدْعُونَهُ ... لا يَعْتَرِي جَدْوَاهُ مِنْ نُقْصَانِ
فَتَوَسُّطُ الشُّفَعاءِ والشُّرَكاءِ والظُّـ ... ـهَرَاءِ أَمْرٌ بَيِّنُ البُطْلانِ)[(١)]

الحَفِيظُ:

(وَهْوَ الحَفِيظُ عَلَيهِمُ وَهْوَ الكَفِيـ ... ـلُ بِحِفْظِهِم مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَانِ)[(٢)]

الرَّفِيقُ:

(وَهْوَ الرَّفِيقُ يُحِبُّ أَهْلَ الرِّفْقِ بَلْ ... يُعْطِيهِمُ بالرِّفْقِ فَوْقَ أَمَانِ)[(٣)]

العَفُوُّ:

(وَهْوَ العَفُوُّ فعَفْوُهُ وَسِعَ الوَرَى ... لَوْلاهُ غَارَ الأَرْضُ بالسُّكَّانِ)[(٤)]

الغَفُورُ:

(وَهْوَ الغَفُورُ فَلَوْ أُتِي بِقُرَابِهَا ... مِنْ غَيْرِ شِرْكٍ بَلْ مِنَ العِصْيانِ
لأَتَاهُ بالغُفْرَانِ مِلْءَ قُرَابِهَا ... سُبْحَانَهُ هُوَ وَاسِعُ الغُفْرَانِ)[(٥)]

---

(١) القصيدةُ النونيةُ (٣٤١).

(٢) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٤).

(٣) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٥).

(٤) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٤).

(٥) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٦)، وقال - رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى - في روضةِ المُحبِّينَ (٨١): (فإنه سُبحانَهُ وتعالَى يُحِبُّ المَغفِرَةَ وإن كَرِهَ مَعاصِيَ عِبادِهِ).

التَّوَّابُ:

(كَذَلِكَ التَّوَّابُ مِنْ أَوْصَافِهِ والتَّـوْبُ فِي أَوْصَـافِـهِ نَوْعَانِ
إِذْنٌ بِـتَـوْبَـةِ عَـبْـدِهِ وقَبُولُها بَعْدَ المَـتَـابِ بِمِنَّةِ المَـنَّـانِ)(١)

([فـ]تَوْبَةُ العَبْدِ إلى اللهِ مَحْفُوفَةٌ بتَوْبَةٍ مِن اللهِ عَلَيْهِ قَبْلَها، وتَوْبَةٍ مِنْهُ بَعْدَها، فتَوْبَتُه بَيْنَ تَوْبَتَيْنِ مِنْ رَبِّهِ: سَابِقَةٍ وَلاحِقَةٍ؛ فإِنَّهُ تَابَ عليهِ أَوَّلاً إِذْناً وتَوْفِيقاً وإِلْهَاماً فتَابَ العَبْدُ، فتَابَ اللهُ عَلَيْهِ ثانياً قَبُولاً وإِثَابَةً). (٢)

الحَلِيمُ:

(وَهُـوَ الحَلِيـمُ فَـلا يُعَاجِـلُ عَبْدَهُ بِعُقُوبَـةٍ لِيَتُـوبَ مِـنْ عِصْيَـانِ)(٣)*

الوَلِيُّ:

([وَلِيُّ الصَّالِحِينَ و ... مُقِيلُ عَثَرَاتِهِم، وغَافِرُ زَلَّاتِهِم، ومُقِيمُ أَعْذَارِهِم، ومُصْلِحُ فَسَادِهِم، والدَّافِعُ عنهم، والمُحامِي عَنْهُم، والنَّاصِرُ لهم، والكَفِيلُ بمَصَالِحِهِم، والمُنْجِي لهم مِنْ كُلِّ كَرْبٍ، والمُوفِي لَهُم بوَعْدِهِ، ... ولِيُّهم الذي لا وَلِيَّ لهم سِوَاهُ، فهوَ مَوْلاهُم الحَقُّ، ونَصِيرُهم عَلَى عَدُوِّهِم، فنِعْمَ المَوْلَى ونِعْمَ النَّصِيرُ). (٤)

---

(١) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٦).

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٣١٩-٣٢٠).

(٣) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٤).

* وقال - رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى - في مَدارجِ السَّالكِينَ (١/ ٢٢٣): (و .... شُهودُ [العَبدِ] حِلْمَ اللهِ سبحانه وتعالَى في إمهالِ راكبِ الخطيئةِ، ولو شاءَ لعاجَلَهُ بالعُقوبةِ، ولكنهُ الحليمُ الذي لا يَعْجَلُ... يُحدِثُ له معرفةَ ربِّه سبحانَه باسمِه «الحليمِ» ومُشاهدةَ صفةِ «الحِلْمِ» والتعبدَ بهذا الاسمِ).

(٤) الفوائدُ (٥٢).

(وَكَـذَا الـوَلايَـةُ كُلُّها للهِ لا — لِـسِـواهُ مِـنْ مَلَكٍ ولا إِنْسَانِ
فَلَهُ الـوَلايَـةُ والـوِلايَـةُ مَا لَنَا — مِـنْ دُونِـهِ وَالٍ مِـن الأَكْـوَانِ
فَـإِذَا تَـوَلاَّهُ امْـرُؤٌ دُونَ الـوَرَى — طُـرًّا تَـوَلاَّهُ العَظِيمُ الشَّانِ
وإِذَا تَـولَّى غَـيْرُهُ مِـنْ دُونِـهِ — وَلاَّهُ مَـا يَـرْضَى بِـهِ لِهَـوَانِ
فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا وبَـعْـدَ مَمَاتِـهِ — وكَـذَاكَ عِنْدَ قِيَامَةِ الأَبْـدَانِ) [١]

البَرُّ:

(ومِنْ أَسْمائِهِ «البَرُّ» و[وهو ذُو] ... البِرِّ والإِحْسانِ والكَرَمِ). [٢]

(والـبَرُّ مِنْ أَوْصَـافِـهِ سُبْحَانَهُ — هُوَ كَثْرَةُ الخَـيْرَاتِ والإِحْسَانِ
صَدَرَتْ عَنِ البِرِّ الَّذِي هُوَ وَصْفُهُ — فَـالْـبِرُّ حِينَئِذٍ لَـهُ نَـوْعَـانِ
وَصْـفٌ وفِعْلٌ فَهْوَ بَرٌّ مُحْسِنٌ — مُوْلِي الجَمِيلِ ودَائِمُ الإِحْسَانِ) [٣]

([فهو] «البَرُّ»، ويُحِبُّ أَهْلَ البِرِّ فيُقَرِّبُ قُلُوبَهم منهُ بِحَسَبِ مَا قَامُوا بِهِ مِن البِرِّ، ويَبْغَضُ الفُجُورَ وأَهْلَهُ، فيُبْعِدُ قُلُوبَهم منهُ بِحَسَبِ مَا اتَّصَفُوا بِهِ مِن الفُجُورِ). [٤]

(ومِنْ ... بِرِّهِ سُبحانَهُ ... سَتْرُهُ [العَبْدَ] حَالَ ارْتِكَابِ المَعْصِيَةِ، مَعَ كَمالِ رُؤْيَتِهِ لهُ، وَلَو شَاءَ لَفَضَحَهُ بَيْنَ خَلْقِهِ فَحَذِرُوهُ، وهَذَا مِنْ كَمالِ بِرِّهِ). [٥]

---

(١) القصيدةُ النونيةُ (٣٤٠).

(٢) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٢٢٣).

(٣) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٧).

(٤) الفوائدُ (١٨٩).

(٥) مَدارِجُ السَّالكِينَ (١/ ٢٢٣).

الحَيِيُّ السِّتِّيرُ:

([اللهُ سُبْحَانَهُ وتعالى] حَيِيٌّ سِتِّيرٌ بُّ أَهْلَ الحَياءِ والسَّترْ)[1] (فـ... يحُِبُّ السِّترْ وإنْ كَرِهَ ما يَسْترُ عبدَهُ عليه).[2]

(وهو الحَيِيُّ فَلَيسَ يَفْضَحُ عَبْدَهُ   عندَ التَّجَاهُرِ مِنْهُ بالعِصْيَانِ
لَكِنَّهُ يُلْقِي عَلَيْهِ سِتْرَهُ   فَهْو السَّتِيرُ وصَاحِبُ الغُفْرَانِ)[3]*

الجَلِيلُ:

([اللهُ] سُبْحانَهُ [هو] الجَلِيلُ)[4]، (أَجَلُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ في ذَاتِهِ وصِفَاتِهِ وأَفْعَالِه).[5]

(وَهْوَ الجَلِيلُ فكُلُّ أَوْصَافِ الجَلا   لِ لَـهُ مُحَقَّقَةٌ بلا بُطْلانِ)[6]

الجَمِيلُ:

([اللهُ] سُبْحانَهُ [هو] «الجَمِيلُ» الذي لا أَجْمَلَ منهُ، بلْ لوْ كَانَ جَمَالُ الخَلْقِ كُلِّهم على رَجُلٍ وَاحِدٍ منهم، وكانوا جَمِيعُهم بذلكَ الجمالِ، لَمَا كَانَ لجَمَالِهِم قَطُّ نِسْبَةٌ إلى جَمَالِ اللهِ، بلْ كَانَت النِّسْبَةُ أَقَلَّ مِنْ نِسْبَةِ سِرَاجٍ ضَعِيفٍ إلى حِذَاءِ جِرْمِ الشَّمْسِ وَللهِ المَثَلُ الأَعْلَى...

(١) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (١٣٣).

(٢) روضةُ المحبينَ (٨١).

(٣) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٤).

* وقال - رَحِمَهُ اللهُ تعالَى - في روضةِ المحبينَ (٨١): (حَيِيٌّ يحبُّ أهلَ الحياءِ). - وقال أيضًا في شفاءِ العليلِ (١/ ٢٧٢): (سِتِّيرٌ يُحِبُّ أهلَ السَّترِ).

(٤) طَرِيقُ الهِجرتَيْنِ (٣٠٠).

(٥) الصَّواعِقُ المُرْسَلَةُ (٤/ ١٣٧٩).

(٦) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٠).

ومِنْ أسْمائِهِ الحُسْنَى: «الجَمِيلُ»، ومَنْ أَحَقُّ بالجَمالِ مِمَّن كُلُّ جمالٍ في الوُجُودِ فهوَ مِنْ آثارِ صُنْعِهِ، فَلَهُ: جَمالُ الذَّاتِ، وجَمالُ الأوْصَافِ، وجَمالُ الأَفْعالِ، وجَمالُ الأَسْماءِ.

فأَسْماؤُهُ كُلُّها حُسْنَى، وصِفَاتُهُ كُلُّها كَمالٌ، وأَفْعالُهُ كُلُّها جَمِيلَةٌ، فلا يَسْتَطِيعُ بَشرٌ النَّظَرَ إلى جَلالِهِ وجَمالِهِ في هذهِ الدَّارِ، فإذا رَأَوْهُ سبحانَهُ في جَنَّاتِ عَدْنٍ أَنْسَتْهم رُؤْيَتُهُ ما هم فيهِ مِن النَّعِيمِ، فلا يَلْتَفِتونَ حِينَئذٍ إلى شيْءٍ غيرِه). [1]

(وَهْوَ الجَمِيلُ عَلَى الحَقِيقَةِ كَيْفَ لا ... وَجَمالُ سَائِرِ هَذِهِ الأَكْوَانِ
مِنْ بَعْضِ آثَارِ الجَمِيلِ فَرَبُّها ... أَوْلَى وَأَجْدَرُ عِنْدَ ذِي العِرْفَانِ
فجَمالُهُ بالذَّاتِ والأَوْصَافِ والْـ ... أَفْعَالِ والأَسْمَاءِ بالبُرْهَانِ
لا شَيْءَ يُشْبِهُ ذَاتَهُ وصِفَاتِهِ ... سُبْحَانَهُ عَنْ إِفْكِ ذِي البُهْتَانِ) [2]

النُّورُ:

(وَلَمَّا كَانَ «النُّورُ» مِنْ أَسْمائِهِ الحُسْنَى وصِفَاتِهِ كَانَ دِينُهُ نُوراً، ورَسُولُهُ نوراً، وكَلامُهُ نُوراً، ودَارُهُ نُوراً يَتَلأْلأُ، والنُّورُ يَتَوَقَّدُ في قُلُوبِ عِبادِهِ المُؤْمِنِينَ، ويَجْرِي علَى أَلْسِنَتِهِم، ويَظْهَرُ علَى وُجُوهِهِم). [3]

(فَدِينُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ نُورٌ، وكِتَابُهُ نُورٌ، ورَسُولُهُ نُورٌ، ودَارُهُ التي أَعَدَّهَا لأَوْلِيائِهِ نُورٌ يَتَلأْلأُ، وهوَ تَبارَكَ وتعالى نُورُ السَّماوَاتِ والأَرْضِ، ومِنْ أَسْمائِهِ النُّورُ، وأَشْرَقَت الظُّلُماتُ لنورِ وَجْهِهِ، وفي دُعاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ يَوْمَ الطَّائِفِ: «**أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُماتُ، وصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيا والآخِرَةِ، أَنْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ، أَوْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ، لَكَ العُتْبَى حَتَّى**

---

(١) روضةُ المحبينَ (٤٢٠-٤٢٢).

(٢) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٠).

(٣) شِفاءُ العَليلِ (١/ ٢٧٢).

تَرْضَى، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ»[1]).[2]

(فَنِسْبَةُ الأَنْوارِ كُلِّها إلى نُورِ الرَّبِّ كَنِسْبَةِ العُلُومِ إِلَى عِلْمِهِ، والقُوَى إلى قُوَّتِهِ، والغِنَى إلى غِنَاهُ، والعِزَّةِ إلى عِزَّتِهِ، وكذلكَ باقي الصِّفَاتِ. والعَبْدُ إذا سَما بَصرُهُ صُعُوداً إلى نُورِ الشَّمْسِ غُشِيَ دونَ إِدْرَاكِهِ وتَعَذَّرَ عليهِ غَايَةَ التَّعَذُّرِ!!، وأيُّ نِسْبَةٍ لنُورِ الشَّمْسِ إلى نورِ خالِقِهَا ومُبْدِعِها؟!!.

وإِذَا كَانَ نُورُ البرْقِ يَكَادُ يَلْتَمِعُ البَصرَ ويخْطَفُهُ، ولا يَقْدِرُ العَبْدُ على إِدْرَاكِهِ، فَكَيْفَ بنورِ الحِجَابِ؟!! فكَيْفَ بما فَوْقَهُ؟!!.

والأَمْرُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَصِفَهُ واصِفٌ، أَوْ يَتَصَوَّرَهُ عَاقِلٌ. فتَبَارَكَ اللهُ ربُّ العالَمِينَ الذي أَشْرَقَت الظُّلُماتُ بنُورِ وَجْهِهِ، وعَجَزت الأَفْكَارُ عنْ إِدْرَاكِ كُنْهِهِ، ودَلَّت الآياتُ وشَهِدَت الفِطَرُ باسْتِحَالَةِ شَبَهِهِ. فلولا وَصَفَ نَفْسَهُ لعِبَادِهِ لَمَا أَقْدَمُوا عَلَى وَصْفِهِ، فهوَ كَما وَصَفَ نَفْسَهُ وأَثْنَى على نَفْسِهِ، وفَوْقَ مَا يَصِفُهُ الوَاصِفونَ).[3]

الفَتَّاحُ:

(وَكَذلِكَ الفَـتَّاحُ مِنْ أَسْمَائِهِ ... والفَتْحُ في أَوْصَافِهِ أَمْرَانِ
فَـتْحٌ بِحُكْـمٍ وَهْـوَ شَرْعُ إِلَـهِنَا ... والفَتْحُ بِالأَقْدَارِ فَتْحٌ ثانِ
والـربُّ فَتَّاحٌ بِذَيْنِ كِلَيْهِمَا ... عَدْلاً وإِحْسَاناً مِنَ الرَّحْمَنِ)[4]

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُه ص ٥٦٢.

(٢) الوابلُ الصيِّبُ (١٠١).

(٣) مُختصَرُ الصواعقِ المُرسَلةِ (٣٥٥ – ٣٥٦).

(٤) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٧).

الشَّكُورُ:

(أَمَّا تَسْمِيَتُهُ سُبْحَانَهُ بـ «الشَّكُورِ» فهوَ في حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وفي القُرْآنِ تَسْمِيَتُهُ «شَاكِراً» قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١٤٧﴾ [النساء: ١٤٧].

وتَسْمِيَتُهُ أيضاً «شَكُوراً» قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾ [التغابن: ١٧]).[1]

(وَهوَ الشَّكُورُ فَلَن يُضَيِّعَ سَعْيَهُم ... لَكِنْ يُضَاعِفُهُ بِلا حُسْبَانِ
مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ واجِبٌ ... هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمَ الشَّانِ
كَلاَّ ولا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ ... إِنْ كَانَ بالإِخْلاصِ والإِحْسَانِ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ والحَمْدُ للمَنَّانِ)[2]

([فـ]اللهُ – تعالى – شَكُورٌ إذا رَضِيَ مِن العَبْدِ عَمَلاً مِنْ أَعْمَالِهِ نَجَّاهُ، وأَسْعَدَهُ بِهِ، وثَمَّرَهُ لهُ وبَارَكَ لَهُ فيهِ، وأَوْصَلَهُ بِهِ إليهِ، وأَدْخَلَهُ بِهِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَقْطَعْهُ بِهِ عنْهُ).[3]

(فهو أَوْلَى بِصِفَةِ الشُّكْرِ مِنْ كُلِّ شَكُورٍ، بلْ هوَ الشَّكُورُ على الحَقِيقَةِ؛ فإِنَّهُ يُعْطِي العَبْدَ ويُوَفِّقُهُ لِمَا يَشْكُرُهُ عَلَيْهِ، ويَشْكُرُ القَلِيلَ مِن العَمَلِ والعَطَاءِ فَلا يَسْتَقِلُّهُ أَنْ يَشْكُرَهُ، ويَشْكُرُ الحَسَنَةَ بعَشْرِ أَمْثالِها إلى أَضْعافٍ مُضَاعَفَةٍ ويَشْكُرُ عَبْدَهُ بقَوْلِهِ؛ بأَنْ يُثْنِيَ عَلَيْهِ بَيْنَ مَلائِكَتِهِ وفي مَلَئِهِ الأَعْلى، ويُلْقِيَ لهُ الشُّكْرَ بَيْنَ عِبادِهِ.

---

(١) عُدَّةُ الصابرينَ (٣١٠).

(٢) القصيدةُ النونيةُ (٢٤٥).

(٣) مَدارِجُ السَّالكِينَ (٣/ ٣٩٠).

ويَشْكُرُه بفِعْلِهِ: فَإِذَا تَرَكَ لهُ شَيْئاً أَعْطَاهُ أَفْضَلَ منهُ، وإِذَا بَذَلَ لهُ شَيْئاً رَدَّهُ عَلَيْهِ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً، وهوَ الذي وَفَّقَهُ للتَّرْكِ والبَذْلِ، وشُكْرُهُ على هَذَا وذَاكَ). [1]

الصَّبُورُ:

(وفي أَسْمائِهِ الحُسْنَى: «الصَّبُورُ» وهوَ مِنْ أَمْثِلَةِ المُبالَغَةِ، أَبْلَغُ مِن الصَّابِرِ والصَّبَّارِ، **وصَبْرُهُ تعالى يُفَارِقُ صَبْرَ المَخْلُوقِ ولا يُماثِلُهُ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ:**

- **منها:** أَنَّهُ على قُدْرَةٍ تَامَّةٍ.
- **ومنها:** أَنَّهُ لا يَخَافُ الفَوْتَ، والعَبْدُ إِنَّما يَسْتَعْجِلُ الخَوْفَ بالفَوْتِ.
- **ومنها:** أَنَّهُ لا يَلْحَقُهُ بصَبْرِهِ أَلَمٌ ولا حُزْنٌ ولا نَقْصٌ بوَجْهٍ ما.

وظُهُورُ أَثَرِ هذا الاسْمِ في العَالَمِ مَشْهُودٌ بالعِيانِ كظُهُورِ اسْمِهِ الحَلِيمِ. والفَرْقُ بَيْنَ الصَّبْرِ والحِلْمِ أَنَّ الصَّبْرَ ثَمَرَةُ الحِلْمِ ومُوجَبُهُ ...

[فهو] «الصَّبُورُ» الذي لا أَحَدَ أَصْبَرُ منهُ، ولا نِسْبَةَ لصَبْرِ جَمِيعِ الخَلْقِ مِنْ أَوَّلِهِم إلى آخِرِهِم إلى صَبْرِهِ سُبحانَهُ). [2]

---

(١) عُدَّةُ الصابرينَ (٣١٠).

(٢) عُدَّةُ الصابرينَ (٣٠٥ - ٣٠٩).

مُلْحَقٌ

يَتَضَمَّنُ أَبْيَاتًا مختَارَةً مِنَ الكافِيَةِ الشَّافِيَةِ فِي الانْتِصَارِ لِلفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ

الباب الثلاثون: في بيان أن أقسام التوحيد الذي بعث الله به الرسل ترجع إلى معاني أسماء الله الحسنى

(فاسمع إذاً توحيد رسل الله ثم ... [الزمه إن تبغ رضا الرحمان]
توحيدهم نوعان: قولي وفعـ ... ـلي كلا نوعيه ذو برهان
فالأول القولي ذو نوعين أيـ ... ـضاً في كتاب الله موجودان
إحداهما سلب وذا نوعان أيـ ... ـضاً في كتاب الله مذكوران
سلب النقائص والعيوب جميعها ... عنه هما نوعان معقولان
سلب لمتصل ومنفصل هما ... نوعان معروفان أما الثاني
سلب الشريك مع الظهير مع الشفيـ ... ـع بدون إذن المالك الديان
وكذاك سلب الزوج والولد الذي ... نسبوا إليه عابدو الصلبان
وكذاك نفي الكفء أيضاً والولي ... لنا سوى الرحمن ذي الغفران
والأول التنزيه للرحمن عن ... وصف العيوب وكل ذي نقصان
كالموت والإعياء والتعب الذي ... ينفي اقتدار الخالق المنان
والنوم والسنة التي هي أصله ... وعزوب شيء عنه في الأكوان
وكذلك العبث الذي تنفيه حكـ ... ـمته وحمد الله ذي الإتقان
وكذاك ترك الخلق إهمالاً سدى ... لا يبعثون إلى معاد ثان
كلا ولا أمر ولا نهي عليـ ... ـهم من إله قادر ديان
وكذاك ظلم عباده وهو الغني ... فما له والظلم للإنسان
وكذاك غفلته تعالى وهو علـ ... ـام الغيوب فظاهر البطلان

وكَذَلِكَ النِّسْيانُ جَلَّ إلَهُنا لا يَعْتَرِيهِ قَطُّ مِنْ نِسْيانِ
وكَذَاكَ حَاجَتُهُ إلَى طَعْمٍ ورزِ قٍ وَهْوَ رَزَّاقٌ بِلا حُسْبانِ
هَذَا وثَاني نَوْعَي السَّلْبِ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ الأَنْوَاعِ في الأَوْزَانِ
تَنْزِيهُ أَوْصَافِ الكَمَالِ لَهُ عَنِ التْـ ـتَشْبِيهِ والتَّمْثِيلِ والنُّكْرَانِ
لَسْنَا نُشَبِّهُ وَصْفَهُ بِصِفَاتِنَا إنَّ المُشَبِّهَ عَابِدُ الأَوْثَانِ
كلاَّ ولا نُخْلِيهِ مِنْ أَوْصَافِهِ إنَّ المُعَطِّلَ عَابِدُ البُهْتَانِ
مَنْ مَثَّلَ اللهَ العَظِيمَ بِخَلْقِهِ فَهْوَ النَّسِيبُ لِمُشْرِكٍ نَصْرَانِي
أو عَطَّلَ الرَّحْمَنَ مِنْ أَوْصَافِهِ فَهْوَ الكَفُورُ وَلَيْسَ ذَا إيمَانِ

[فَصلٌ: فِي النَّوعِ الثَّاني مِن النَّوعِ الأَوَّلِ وهوَ الثُّبوتُ]

هَذَا وَمِنْ تَوْحِيدِهِمْ إثْبَاتُ أَوْ صَافِ الكَمَالِ لِرَبِّنَا الرَّحْمَنِ
كَعُلُوِّهِ سُبْحَانَهُ فَوْقَ السَّمَا وَاتِ العُلَى بَلْ فَوْقَ كُلِّ مَكَانِ
فَهْوَ العَلِيُّ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ إذْ يَسْتَحِيلُ خِلافُ ذَا بِبَيَانِ
وَهْوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى قَدْ قَامَ بالتَّدْبِيرِ لِلأَكْوَانِ
حَيٌّ مُرِيدٌ قَادِرٌ مُتَكَلِّمٌ ذُو رَحْمَةٍ وإرَادَةٍ وحَنَانِ
هُوَ أَوَّلٌ هُوَ آخِرٌ هُوَ ظَاهِرٌ هُوَ بَاطِنٌ هِيَ أَرْبَعٌ بِوِزَانِ
مَا قَبْلَهُ شَيْءٌ كَذَا مَا بَعْدَهُ شَيْءٌ تَعَالَى اللهُ ذُو السُّلْطَانِ
مَا فَوْقَهُ شَيْءٌ كَذَا مَا دُونَهُ شَيْءٌ وَذَا تَفْسِيرُ ذِي البُرْهَانِ
فَانْظُرْ إلَى تَفْسِيرِهِ بِتَدَبُّرٍ وتَبَصُّرٍ وتَعَقُّلٍ لِمَعَانِ
وانْظُرْ إلَى مَا فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ مَعْـ ـرِفَةٍ لِخَالِقِنَا العَظِيمِ الشَّانِ
وَهْوَ العَلِيُّ فَكُلُّ أَنْوَاعِ العُلُوِّ لَهُ فَثَابِتَةٌ بِلا نُكْرَانِ
وَهْوَ العَظِيمُ بِكُلِّ مَعْنًى يُوجِبُ التْـ تَعْظِيمَ لا يُحْصِيهِ مِنْ إنْسانِ
وَهْوَ الجَلِيلُ فَكُلُّ أَوْصَافِ الجَلا لِ لَهُ مُحَقَّقَةٌ بِلا بُطْلانِ
وَهْوَ الجَمِيلُ عَلَى الحَقِيقَةِ كَيْفَ لا وجَمَالُ سَائِرِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

مِنْ بَعْضِ آثَارِ الجَمِيلِ فَرَبُّهَا   أَوْلَى وأَجْدَرُ عِنْدَ ذِي العِرْفَانِ
فجَمَالُهُ بالذَّاتِ والأَوْصَافِ والْـ   أَفْعَالِ والأَسْمَاءِ بالبُرْهَانِ
لا شَيْءَ يُشْبِهُ ذَاتَهُ وصِفَاتِهِ   سُبْحَانَهُ عَنْ إِفْكِ ذِي البُهْتَانِ
وَهْوَ **المَجِيدُ** صِفَاتُهُ أَوْصَافُ تعْـ   ـظِيمٍ فَشَأْنُ الوَصْفِ أَعْظَمُ شَانِ
وَهْوَ **السَّمِيعُ** يَرَى ويَسْمَعُ كُلَّ مَا   فِي الكَوْنِ مِنْ سِرٍّ ومِنْ إِعْلانِ
وَلِكُلِّ صَوْتٍ مِنْهُ سَمْعٌ حَاضِرٌ   فَالسِّرُّ والإِعْلانُ مُسْتَوِيَانِ
والسَّمْعُ مِنْهُ واسِعُ الأَصْوَاتِ لا   يَخْفَى عَلَيْهِ بَعِيدُهَا والدَّانِي
ويَرَى مَجَارِي القُوتِ فِي أَعْضَائِهَا   ويَرَى عُرُوقَ بَيَاضِهَا بعِيَانِ
ويَرَى خِيَانَاتِ العُيُونِ بلَحْظِهَا   ويَرَى كَذَاكَ تَقَلُّبَ الأَجْفَانِ
وَهْوَ **العَلِيمُ** أَحَاطَ عِلْماً بالَّذِي   فِي الكَوْنِ مِنْ سِرٍّ ومِنْ إِعْلانِ
وبِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ سُبْحَانَهُ   فَهْوَ **المُحِيطُ** ولَيْسَ ذَا نِسْيَانِ
وكَذَاكَ يَعْلَمُ مَا يَكُونُ غَداً وَمَا   قَدْ كَانَ والمَوْجُودُ فِي ذَا الآنِ
وكَذَاكَ أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْـ   ـفَ يَكُونُ ذَاكَ الأَمْرُ ذَا إِمْكَانِ
وَهْوَ **الحَمِيدُ** فَكُلُّ حَمْدٍ وَاقِعٌ   أَوْ كَانَ مَفْرُوضاً مَدَى الأَزْمَانِ
مَلأَ الوُجُودَ جَمِيعَهُ ونَظِيرَهُ   مِنْ غَيْرِ مَا عَدٍّ ولا حُسْبَانِ
هُوَ أَهْلُهُ سُبْحَانَهُ وبِحَمْدِهِ   كُلُّ المَحَامِدِ وَصْفُ ذِي الإِحْسَانِ

فَصْلٌ

وَهْوَ المُكَلِّمُ عَبْدَهُ مُوسَى بِتَكْـ   ـلِيمِ الخِطَابِ وقَبْلَهُ الأَبَوَانِ
كَلِمَاتُهُ جَلَّتْ عَنِ الإِحْصَاءِ والتَّـ   ـتَعْدَادِ بَلْ عَن حَصْرِ ذِي الحُسْبَانِ
لَوْ أَنَّ أَشْجَارَ البِلادِ جَمِيعاً الْـ   أَقْلامُ تَكْتُبُهَا بكُلِّ بَنَانِ
والبَحْرُ تُلْقَى فِيهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ   لِكِتَابَةِ الكَلِمَاتِ كُلَّ زَمَانِ
نَفِدَتْ وَلَمْ تَنْفَدْ بِهَا كَلِمَاتُهُ   لَيْسَ الكَلامُ مِنَ الإِلَهِ بفَانِ

وَهْـوَ **القَدِيـرُ** وَلَيْـسَ يُعْجِـزُهُ إِذَا   مَا رَامَ شَيْئاً قَـطُّ ذُو سُلْطَانِ
وَهْـوَ **القَـوِيُّ** لَهُ القُـوَى جَمْعـاً تَعَا   لَى رَبُّ ذِي الأَكْـوَانِ والأَزْمَـانِ
وَهْـوَ **الغَنِـيُّ** بِذَاتِـهِ فَغِنَـاهُ ذَا   تِيٌّ لَهُ كالجُودِ والإِحْسَـانِ أَنَّى
وَهْـوَ **العَزِيـزُ** فَلَـنْ يُـرَامَ جَنَابُـهُ   يُـرَامُ جَنَـابُ ذِي السُّلْطَانِ
[وَهْـوَ **العَزِيـزُ** القَاهِـرُ الغَـلاَّبُ لَمْ   يَغْلِبْهُ شَيْءٌ هَـذِهِ صِفَتَانِ][1]
وَهْـوَ **العَزِيـزُ** بِقُـوَّةٍ هِـيَ وَصْفُـهُ   فالعِزُّ حِينَئِذٍ ثَـلاثُ مَعَـانِ
وَهْـيَ الَّتِـي كَمُلَـتْ لَـهُ سُبْحَانَهُ   مِنْ كُلِّ وَجْـهٍ عَـادِمِ النُّقْصَانِ
وَهْـوَ **الحَكِيـمُ** وَذَاكَ مِـنْ أَوْصَافِهِ   نَـوْعَـانِ أَيْضاً مَا هُمَـا عَدَمَانِ
حُكْـمٌ وإِحْكَامٌ فَـكُلٌّ مِنْهُـمَا   نَـوْعَـانِ أَيْـضـاً ثَابِتا الـبُرْهَـانِ
والحُكْـمُ شَرْعِـيٌّ وكَـوْنِيٌّ ولا   يَـتَـلازَمَـانِ وَمَـا هُمَـا سِيَّـانِ
بَـلْ ذَاكَ يُوجَـدُ دُونَ هَـذَا مُفْـرَداً   والعَكْسُ أَيْضاً ثُـمَّ يَجْتَمِعَانِ
لَـنْ يَخْلُـوَ المَرْبُـوبُ مِـنْ إِحْدَاهُمَـا   أَوْ مِنْهُمَا بَـلْ لَيْسَ يَنْتَفِيَانِ
لَكِنَّـمَا الشَّرْعِـيُّ مَحْبُـوبٌ لَـهُ   أَبَـداً وَلَـنْ يَخْلُو مِـنَ الأَكْـوَانِ
هُـوَ أَمْـرُهُ الدِّينِـيُّ جَـاءَتْ رُسْلُهُ   بِقِيَامِهِ فِي سَـائِرِ الأَزْمَـانِ
لَكِنَّـمَا الكَـوْنِيُّ فَهْـوَ قَضَـاؤُهُ   فِي خَلْقِهِ بالعَدْلِ و الإِحْسانِ
هُـوَ كُلُّـهُ حَـقٌّ وعَـدْلٌ ذُو رِضًى   والشَّأْنُ فِي المَقْضِيِّ كُلُّ الشَّانِ
فَلِذَاكَ نَرْضَى بالقَضَاءِ ونَسْخَطُ الْـ   مَقْضِيَّ مَا الأَمْـرَانِ مُتَّحِدَانِ
فَقَضَـاؤُهُ صِفَـةٌ بِـهِ قَامَـتْ وَمَا الْـ   مَـقْـضِيُّ إِلاَّ صَنْعَةُ الإِنْسَـانِ
وَالْكَـوْنُ مَحْبُـوبٌ ومَبْغُـوضٌ لَـهُ   وكِـلاهُمَـا بِمَشِيئَةِ الـرَّحْمَنِ
هَـذَا البَيَـانُ يُزِيـلُ لَبْسـاً طَالَمَا   هَلَكَتْ عَلَيْهِ النَّاسُ كُلَّ زَمَانِ
ويُحِـلُّ مَـا قَـدْ عَقَّـدُوا بِأُصُولِهِـمْ   وبُحُوثِهِم فَافْهَمْهُ فَهْمَ بَيَانِ
مَـنْ وَافَـقَ الكَـوْنِيَّ وَافَقَ سُخْطَهُ   إِنْ لَمْ يُـوَافِـقْ طَاعَـةَ الـدَّيَّانِ
فَلِـذَاكَ لا يَعْـدُوهُ ذَمٌّ أَوْ فَـوَا   تُ الحَمْدِ مَعْ أَجْرٍ وَمَعْ رِضْوَانِ
ومُوَافِـقُ الدِّينِـيِّ لا يَعْـدُوهُ أَجْـ   ـرٌ بَلْ لَهُ عِنْدَ الصَّوَابِ اثْنَانِ

(١) هذا البيتُ سَقطَ من الأصلِ واستدركْتُهُ من شَرحِ ابنِ عِيسَى (٢/ ٢١٤).

فَصلٌ

والحِكْمَةُ العُلْيَا عَلَى نَوْعَيْنِ أيْـ ـضاً حُصِّلا بقَواطِعِ البُرْهَانِ
إحْـدَاهُـمَـا في خَلْقِهِ سُبحانَهُ نَـوْعَـانِ أيضاً لَيْسَ يفْتَرِقَانِ
إحْكَامُ هَـذَا الخَلْقِ إذْ إيجَادُهُ في غَايَةِ الإحْـكَـام والإتْـقَـانِ
وَصُـدُورُهُ مِنْ أَجْلِ غَايَاتٍ لَهُ وَلَـهُ عَلَيْهَا حَمْـدُ كُـلِّ لِسَانِ
والحِكْمَةُ الأُخْرَى فَحِكْمَةُ شَرْعِهِ أَيْضاً وفيها ذَانِـكَ الوَصْفَانِ
غَايَاتُهَا الـلاتِي حُـمِـدْنَ وكَوْنُهَا في غَايَةِ الإتْـقَـانِ والإحْـسَـانِ
وَهْوَ **الحَيِيُّ** فَلَيْسَ يَفْضَحُ عَبْدَهُ عِنْدَ التَّجَاهُرِ منهُ بالعِصْيَانِ
لَـكِـنَّـهُ يُـلْـقِـي عَـلَـيْـهِ سِـتْـرَهُ فَهْوَ **السَّتِيرُ** وصَاحِبُ الغُفْرَانِ
وَهْـوَ **الحَلِيمُ** فَلا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ بعُقُوبَةٍ لِيَتُوبَ مِـنْ عِصْيانِ
وَهْوَ **العَفُوُّ** فَعَفْوُهُ وَسِعَ الوَرَى لَـوْلاهُ غَـارَ الأَرْضُ بالسُّكَّانِ
وَهْوَ **الصَّبُورُ** عَلَى أَذَى أَعْدَائِهِ شَتَمُوهُ بَـلْ نَسَبُوهُ للبُهْتَانِ
قَالُوا لَـهُ وَلَـدٌ وَلَيْسَ يُعِيدُنَا شَتْماً وتَكْذِيباً مِـنَ الإنْـسَـانِ
هَـذَا وذَاكَ بِسَمْعِهِ وبِعِلْمِهِ لَوْ شَـاءَ عَاجَلَهُمْ بِكُلِّ هَـوَانِ
لَكِنْ يُعَافِيهِم ويَرْزُقُهُمْ وَهُمْ يُـؤْذُونَـهُ بـالـشِّـرْكِ والكُفْرَانِ

فَصلٌ

وَهْوَ **الرَّقِيبُ** عَـلَى الخَوَاطِرِ واللوَا حِظِ كَيْفَ بالأَفْعَالِ بالأَرْكَانِ
وَهْـوَ **الحَفِيظُ** عَلَيْهِـمُ وَهْوَ **الكَفِيلُ** بِحِفْظِهِمْ مِـنْ كُـلِّ أَمْـرٍ عَانِ
وَهْـوَ **اللطِيـفُ** بعَبْـدِهِ ولِعَبْـدِهِ واللُّطْفُ فِي أَوْصَـافِـهِ نَوْعَانِ
إدْرَاكُ أَسْـرَارِ الأُمُـورِ بِخِـبْـرَةٍ واللُّطْفُ عِنْدَ مَوَاقِعِ الإحْسَانِ
فَيُرِيـكَ عِزَّتَـهُ ويُبْدِي لُطْفَـهُ والعَبْدُ في الغَفَلاتِ عَنْ ذَا الشَّانِ
وَهْـوَ الرَّفِيقُ يُحِبُّ أَهْـلَ الرِّفْقِ بَلْ يُعْطِيهِمُ بالرِّفْقِ فَـوْقَ أَمَـانِ

وَهْوَ **القَرِيبُ** وقُرْبُهُ المُخْتَصُّ بالدْ ... دَاعِي وَعَابِدِهُ عَلَى الإِيمَانِ
وَهْوَ **المُجِيبُ** يَقُولُ مَنْ يَدْعو أُجِبْـ ... ـهُ أَنَا المُجِيبُ لِكُلِّ مَنْ نَادَانِي
وَهْوَ **المُجِيبُ** لِدَعْوَةِ المُضْطَرِّ إِذْ ... يَدْعُوهُ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلانِ
وَهْوَ **الجَوَادُ** فَجُودُهُ عَمَّ الوُجُودَ ... جَمِيعَهُ بالفَضْلِ والإِحْسَانِ
وَهْوَ **الجَوَادُ** فَلا يُخَيِّبُ سَائِلاً ... وَلَوْ انَّهُ مِنْ أُمَّةِ الكُفْرَانِ
وَهْوَ **المُغِيثُ** لِكُلِّ مَخْلُوقَاتِهِ ... وَكَذَا يُجِيبُ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ

فَصْلٌ

وَهْوَ **الوَدُودُ** يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُ ... أَحْبَابُهُ والفَضْلُ للمَنَّانِ
وَهْوَ الَّذِي جَعَلَ المَحَبَّةَ فِي قُلُو ... بِهِمُ وَجَازَاهُمْ بِحُبٍّ ثَانِ
هَذَا هُوَ الإِحْسَانُ حقًّا لا مُعَا ... وَضَةً ولا لِتَوَقُّعِ الشُّكْرَانِ
لَكِنْ يُحِبُّ شُكُورَهُمْ وشَكُورَهم ... لا لاحْتِيَاجٍ مِنْهُ للشُّكْرَانِ
وَهْوَ **الشَّكُورُ** فَلَنْ يُضَيِّعَ سَعْيَهُم ... لَكِنْ يُضَاعِفُهُ بلا حُسْبَانِ
ما للعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمَ الشَّانِ
كَلاَّ ولا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ ... إِنْ كَانَ بالإِخْلاصِ والإِحْسَانِ
إِنْ عُذِّبُوا فبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فبِفَضْلِهِ «والحَمْدُ للمَنَّانِ»
وَهْوَ **الغَفُورُ** فَلَوْ أُتِي بقُرَابِهَا ... مِنْ غَيْرِ شِرْكٍ بَلْ مِنَ العِصْيانِ
لأَتَاهُ بالغُفْرَانِ مِلْءَ قُرَابِهَا ... سُبْحَانَهُ هُوَ وَاسِعُ الغُفْرَانِ
وكَذَلِكَ **التَّوَّابُ** مِنْ أَوْصَافِهِ ... والتَّوْبُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ
إِذْنٌ بتَوْبَةِ عَبْدِهِ وقَبُولُهَا ... بَعْدَ المَتَابِ بِمِنَّةِ المَنَّانِ

فَصْلٌ

وَهْوَ **الإِلَهُ السَّيِّدُ الصَّمَدُ** الَّذِي ... صَمَدَتْ إِلَيْهِ الخَلْقُ بالإِذْعَانِ
الكَامِلُ الأَوْصافِ مِنْ كُلِّ الوُجُو ... هِ كَمَالُهُ مَا فِيهِ مِنْ نُقْصَانِ

وكَذَلِكَ **القَهَّارُ** مِنْ أَوْصَافِهِ ... فالخَلْقُ مَقْهُورُونَ بالسُّلْطَانِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ حَيًّا عَزِيزاً قَادِراً ... مَا كَانَ مِنْ قَهْرٍ ولا سُلْطَانِ
وكَذَلِكَ **الجَبَّارُ** مِنْ أَوْصَافِهِ ... والجَبْرُ فِي أَوْصَافِهِ قِسْمَانِ
جَبْرُ الضَّعِيفِ وَكُلُّ قَلْبٍ قَدْ غَدَا ... ذَا كَسْرَةٍ فالجَبْرُ مِنْهُ دَانِ
والثانِ: جَبْرُ القَهْرِ بالعِزِّ الَّذِي ... لا يَنْبَغِي لِسِوَاهُ مِنْ إنْسَانِ
وَلَهُ مُسَمًّى ثَالِثٌ وَهْوَ العُلُوُّ ... فَلَيْسَ يَدْنُو مِنْهُ مِنْ إنْسَانِ
مِنْ قَوْلِهِمْ: جَبَّارَةٌ لِلنَّخْلَةِ الْـ ... ـعَلْيا الَّتِي فَاتَتْ لِكُلِّ بَنَانِ
وَهْوَ **الحَسِيبُ** كِفَايَةً وحِمَايَةً ... والحَسْبُ كَافِي العَبْدِ كُلَّ أَوَانِ
وَهْوَ **الرَّشِيدُ** فَقَوْلُهُ وفِعَالُهُ ... رُشْدٌ ورَبُّكَ مُرْشِدُ الحَيْرَانِ
وكِلاهُمَا حَقٌّ فَهَذَا وَصْفُهُ ... والفِعْلُ لِلإرْشَادِ ذَاكَ الثَّانِي
و**العَدْلُ** مِنْ أَوْصَافِهِ فِي فِعْلِهِ ... ومَقَالِهِ والحُكْمُ بالمِيزَانِ
فَعَلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ إِلَهُنَا ... قَوْلاً وفِعْلاً ذَاكَ فِي القُرْآنِ

فَصْلٌ

هَذَا وَمِنْ أَوْصَافِهِ **القُدُّوسُ** ذُو التْـ ... ـتَنْزِيهِ بالتَّعْظِيمِ للرَّحْمَنِ
وَهْوَ **السَّلامُ** عَلَى الحَقِيقَةِ سَالِمٌ ... مِنْ كُلِّ تَمْثِيلٍ وَمِنْ نُقْصَانِ
و**البَرُّ** مِنْ أَوْصَافِهِ سُبْحَانَهُ ... هُوَ كَثْرَةُ الخَيْرَاتِ والإحْسَانِ
صَدَرَتْ عَنِ البِرِّ الَّذِي هُوَ وَصْفُهُ ... فالبِرُّ حِينَئِذٍ لَهُ نَوْعَانِ
وَصْفٌ وفِعْلٌ فَهْوَ بَرٌّ مُحْسِنٌ ... مُولِي الجَمِيلِ ودَائِمُ الإحْسَانِ
وكَذَلكَ **الوَهَّابُ** مِنْ أَسْمَائِهِ ... فانْظُرْ مَوَاهِبَهُ مَدَى الأَزْمَانِ
أَهْلُ السَّمَاوَاتِ العُلَى والأَرْضِ عَنْ ... تِلْكَ المَوَاهِبِ لَيْسَ يَنْفَكَّانِ
وكَذَلِكَ **الفَتَّاحُ** مِنْ أَسْمَائِهِ ... والفَتْحُ فِي أَوْصَافِهِ أَمْرَانِ
فَتْحٌ بِحُكْمٍ وَهْوَ شَرْعُ إِلَهِنَا ... والفَتْحُ بالأَقْدَارِ فَتْحٌ ثَانِ
وَالرَّبُّ فَتَّاحٌ بِذَيْنِ كِلَيْهِمَا ... عَدْلاً وإِحْسَاناً مِنَ الرَّحْمَنِ

وكَذَلِكَ الرَّزَّاقُ مِنْ أَسْمَائِهِ ... وَالرِّزْقُ مِنْ أَفْعَالِهِ نَوْعَانِ
رِزْقٌ عَلَى يَدِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ... نَوْعَانِ أيضاً ذَانِ مَعْرُوفَانِ
رِزْقُ القُلُوبِ العِلْمُ والإِيمَانُ والرِّ ... زقُ المُعَدُّ لِهَذِهِ الأَبْدَانِ
هَذَا هُوَ الرِّزْقُ الحَلالُ وَرَبُّنَا ... رَزَّاقُهُ والفَضْلُ لِلمَنَّانِ
والثَّانِ: سَوْقُ القُوتِ لِلأَعْضَاءِ فِي ... تِلْكَ المَجَارِي سَوقُهُ بِوِزَانِ
هَذَا يَكُونُ مِنَ الحَلالِ كَمَا يَكُو ... نُ مِنَ الحَرَامِ كِلاهُمَا رِزْقَانِ
واللهُ رَازِقُهُ بِهَذَا الاعْتِبَا ... رِ وَلَيْسَ بالإِطْلاقِ دُونَ بَيَانِ

فَصْلٌ

هَذَا وَمِنْ أَوْصَافِهِ القَيُّومُ ... والقَيُّومُ فِي أَوْصَافِهِ أَمْرَانِ
إِحْدَاهُمَا: القَيُّومُ قَامَ بِنَفْسِهِ ... والكَوْنُ قَامَ بِهِ هُمَا الأَمْرَانِ
فالأَوَّلُ: اسْتِغْنَاؤُهُ عَنْ غَيْرِهِ ... والفَقْرُ مِنْ كُلٍّ إِلَيْهِ الثَّانِي
والوَصْفُ بِالقَيُّومِ ذُو شَأْنٍ عَظِيم ... هَكَذَا مَوصُوفُهُ أيضاً عَظِيمُ الشَّانِ(١)
والحَيُّ يَتْلُوهُ فَأَوْصَافُ الكَمَا ... لِ هُمَا لأُفْقِ سَمَائِهَا قُطْبَانِ
فالحَيُّ والقَيُّومُ لَنْ تَتَخَلَّفَ الْـ ... أَوْصَافُ أَصْلاً عَنْهُمَا بِبَيَانِ
هُوَ قَابِضٌ هُوَ بَاسِطٌ هُوَ خَافِضٌ ... هُوَ رَافِعٌ بِالعَدْلِ والمِيزَانِ
وَهُوَ المُعِزُّ لأَهْلِ طَاعَتِهِ وَذَا ... عِزٌّ حَقِيقِيٌّ بِلا بُطْلانِ
وَهُوَ المُذِلُّ لِمَنْ يَشَاءُ بِذُلِّهِ الدْ ... دَارَيْنِ ذُلَّ شَقًا وذُلَّ هَوانِ
هُوَ مَانِعٌ مُعْطٍ فَهَذَا فَضْلُهُ ... والمَنْعُ عَيْنُ العَدْلِ لِلمَنَّانِ
يُعْطِي بِرَحْمَتِهِ وَيَمْنَعُ مَا يَشَا ... ءُ بِحِكْمَةٍ واللهُ ذُو سُلْطَانِ

(١) هكذا في الأصلِ، والبيتُ هكذا غيرُ موزونٍ فلَعَلَّ فيه لفظةٌ مُقحَمَةٌ؛ والبيتُ يَستَقِيمُ على عِدَّةِ أوجُهٍ:
- مِنهَا:
وَالْوَصْفُ بِالقَيُّومِ ذُو شَأْنٍ عَظِيـ ... ـمٍ هَكَذَا مَوْصُوفُهُ ذُو شَانِ
- ومنها:
والوصفُ بِالْقَيُّومِ ذُو شَأْنٍ عَظِيـ ... ـمٍ هَكَذَا اللهُ عَظِيمُ الشَّانِ
- ومنها:
وَالْوَصْفُ ذُو شَأْنٍ عَظِيمٍ هَكَذَا ... مَوْصُوفُه أيضًا عظيمُ الشانِ

فَصْلٌ

والنُّورُ مِنْ أَسْمَائِهِ أيضاً وَمِنْ ... أَوْصَافِهِ سُبْحانَ ذِي البُرْهَانِ
قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ كَلاماً قَدْ حَكَا ... هُ الدَّارِمِي عِنْهُ بِلا نُكْرانِ
مَا عِنْدَهُ لَيْلٌ يَكُونُ وَلا نَهَا ... رٌ قُلْتُ تَحْتَ الفُلْكِ يُوجَدُ ذَانِ
نُورُ السَّمَاوَاتِ العُلَى مِنْ نُورِهِ ... والأَرْضِ كَيْفَ النَّجْمُ والقَمَرانِ
مِنْ نُورِ وَجْهِ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ ... وَكَذَا حَكَاهُ الحَافِظُ الطَّبَرَانِي
فَبِهِ اسْتَنَارَ العَرْشُ والكُرْسِيُّ مَعْ ... سَبْعِ الطِّبَاقِ وسَائِرِ الأَكْوانِ
وَكِتَابُهُ نُورٌ كَذَلِكَ شَرْعُهُ ... نُورٌ كَذَا المَبْعُوثُ بالفُرْقَانِ
وكَذَلِكَ الإِيمَانُ فِي قَلْبِ الفَتَى ... نُورٌ عَلَى نُورٍ مَعَ القُرْآنِ
وحِجَابُهُ نُورٌ فَلَوْ كَشَفَ الحِجَا ... بَ لأَحْرَقَ السُّبُحَاتُ للأَكْوَانِ
وإِذَا أَتَى للفَصْلِ يُشْرِقُ نُورُهُ ... فِي الأَرْضِ يَوْمَ قِيَامَةِ الأَبْدَانِ
وكَذَاكَ دَارُ الرَّبِّ جَنَّاتُ العُلَى ... نُورٌ تَلأْلأَ لَيْسَ ذَا بُطْلانِ
والنُّورُ ذُو نَوْعَيْنِ مَخْلُوقٌ ووَصْـ ... ـفٌ ما هُمَا واللهِ متَّحِدَانِ
وَكَذَلِكَ المَخْلُوقُ ذُو نَوْعَيْنِ ... مَحْسُوسٌ ومَعْقُولٌ هُمَا شَيْئَانِ
احْذَرْ تَزِلَّ فَتَحْتَ رِجْلِكَ هُوَّةٌ ... كَمْ قَدْ هَوَى فِيهَا عَلَى الأَزْمَانِ
مِنْ عَابِدٍ بالجَهْلِ زَلَّتْ رِجْلُهُ ... فَهَوَى إلى قَعْرِ الحَضِيضِ الدَّانِي
لاحَتْ لَهُ أَنْوارُ آثَارِ العِبَا ... دَةِ ظَنَّهَا الأَنْوَارَ للرَّحْمَنِ
فَأَتَى بِكُلِّ مُصِيبَةٍ وبَلِيَّةٍ ... مَا شِئْتَ مِنْ شَطْحٍ ومِنْ هَذَيانِ
وَكَذَا الحُلُولِيُّ الَّذِي هُوَ خِدْنُهُ ... مِنْ هَاهُنَا حَقًّا هُمَا أَخَوانِ
ويُقَابِلُ الرَّجُلَيْنِ ذُو التَّعْطِيلِ والْـ ... ـحُجُبِ الكَثِيفَةِ مَا هُمَا سِيَّانِ
ذَا فِي كَثَافَةِ طَبْعِهِ وظَلامِهِ ... وبظُلْمَةِ التَّعْطِيلِ هَذَا الثَّانِي
والنُّورُ مَحْجُوبٌ فلا هَذَا وَلا ... هَذَا لَهُ مِنْ ظُلْمَةٍ يَرَيانِ

فَصْلٌ

وَهْوَ الْمُقَدِّمُ والمُؤَخِّرُ ذَانِكَ الصِّـ ... صِفَتَانِ لِلأَفْعَالِ تَابِعَتَانِ
وَهُمَا صِفَاتُ الذَّاتِ أَيْضاً إِذْ هُمَا ... بِالذَّاتِ لا بِالغَيْرِ قَائِمَتَانِ
وَلِذَاكَ قَدْ غَلِطَ المُقَسِّمُ حِينَ ظَنَّ ... صِفَاتِهِ نَوْعَيْنِ مُخْتَلِفَانِ
إِنْ لَمْ يُرِدْ هَذَا ولَكِنْ قَدْ أَرَا ... دَ قِيَامَهَا بِالفِعْلِ ذِي الإِمْكَانِ
والفِعْلُ والمَفْعُولُ شَيْءٌ وَاحِدٌ ... عِنْدَ المُقَسِّمِ مَا هُمَا شَيْئَانِ
فَلِذَاكَ وَصْفُ الفِعْلِ لَيْسَ لَدَيْهِ إِلْ ... لَا نِسْبَةٌ عَدَمِيَّةٌ بِبَيَانِ
فَجَمِيعُ أَسْمَاءِ الفِعَالِ لَدَيْهِ لَيْـ ... سَتْ قَطُّ ثَابِتَةً ذَوَاتِ مَعَانِ
مَوْجُودَةٍ لَكِنْ أُمُورٌ كُلُّهَا ... نِسَبٌ تُرَى عَدَمِيَّةَ الوُجْدَانِ
هَذَا هُوَ التَّعْطِيلُ لِلأَفْعَالِ كَالتَّـ ... تَعْطِيلِ لِلأَوْصَافِ بِالمِيزَانِ
فَالحَقُّ أَنَّ الوَصْفَ لَيْسَ بِمَوْرِدِ التَّـ ... تَقْسِيمِ هَذَا مُقْتَضَى البُرْهَانِ
بَلْ مَوْرِدُ التَّقْسِيمِ مَا قَدْ قَامَ بِالذْ ... ذَاتِ الَّتِي لِلْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ
فَهُمَا إِذاً نَوْعَانِ أَوْصَافٌ وأَفْـ ... ـعَالٌ فَهَذِي قِسْمَةُ التِّبْيَانِ
فَالوَصْفُ بِالأَفْعَالِ يَسْتَدْعِي قِيَا ... مَ الفِعْلِ بِالمَوْصُوفِ بِالبُرْهَانِ
كَالوَصْفِ بِالمَعْنَى سِوَى الأَفْعَالِ مَا ... إِنْ بَيْنَ ذَيْنِكَ قَطُّ مِنْ فُرْقَانِ
وَمِنَ العَجَائِبِ أَنَّهُمْ رَدُّوا عَلَى ... مَنْ أَثْبَتَ الأَسْمَاءَ دُونَ مَعَانِ
قَامَتْ بِمَنْ هِيَ وَصْفُهُ هَذَا مُحَا ... لٌ غَيْرُ مَعْقُولٍ لِذِي الأَذْهَانِ
وأَتَوْا إِلَى الأَوْصَافِ بِاسْمِ الفِعْلِ قَا ... لُوا لَمْ تَقُمْ بِالوَاحِدِ الدَّيَّانِ
فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ أَبْطَلُوا الأَصْلَ الَّذِي ... رَدُّوا بِهِ أَقْوَالَهُمْ بِوِزَانِ
إِنْ كَانَ هَذَا مُمْكِناً فَكَذَاكَ قَوْ ... لُ خُصُومِكُمْ أَيْضاً فَذُو إِمْكَانِ
والوَصْفُ بِالتَّقْدِيمِ والتَّأْخِيرِ كَوْ ... نِيٌّ ودِينِيٌّ هُمَا نَوْعَانِ
وكِلاهُمَا أَمْرٌ حَقِيقِيٌّ ونِسْـ ... ـبِيٌّ ولا يَخْفَى المِثَالُ [لِذَانِ] (١)
واللهُ قَدَّرَ ذَاكَ أَجْمَعَهُ بِإِحْـ ... ـكَامٍ وإِتْقَانٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

---

(١) [لذان] أي لهذينِ المذكورَين، على لُغةِ مَن يُلزِمُ المُثنَّى الألفَ في جميعِ حالاتِه. وفي الأصلِ وشرحِ ابنِ عِيسَى: (ولا يَخْفَى المثالُ على أُولي الأذهانِ)، وهو خَلَلٌ كَبيرٌ في الوزنِ لا يَصْدُرُ مِن مِثلِ ابنِ القيمِ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَى-.

فَصْلٌ

[الأَسْمَاءُ المُزْدَوِجَةُ]

هَـذَا ومِـنْ أَسْـمَائِهِ مَـا لَيْسَ يُفْـ ... ـرَدُ بَـلْ يُقَالُ إِذَا أَتَـى بقِرَانِ
وَهْـيَ الَّتِـي تُدْعَـى بمُزْدَوِجَاتِهَـا ... إِفْـرَادُهـا خَطَرٌ عَـلَى الإِنْسَـانِ
إِذْ ذَاكَ مُوهِمُ نَوْعِ نَقْصٍ جلَّ رب ... بُ العَرْشِ عَنْ عَيْبٍ وعَنْ نُقْصَانِ
كالمَانِـعِ المُعْطِـي وكالضَّـارِّ الَّذِي ... هُـوَ نَـافِـعٌ وكَـمَالُـهُ الأَمْـرَانِ
ونَظِيرُ هَذَا القَابِضُ المَقْرُونُ باسْـ ... ـمِ البَاسِطِ اللَّفْظَانِ مُقْتَرِنَانِ
وكَـذَا المُعِـزُّ مَـعَ المُـذِلِّ وخَافِضٍ ... مَـعَ رَافِـعٍ لَفْظَانِ مُـزْدَوِجَـانِ
وحَدِيـثُ إِفْرَادِ اسْـمِ مُنْتَقِـمٍ فَمَوْ ... قُوفٌ كَمَا قَدْ قَالَ ذُو العِرْفَانِ
مَـا جَـاءَ فِي القُـرْآنِ غَـيْرَ مُقَيَّـدٍ ... بالمُجْرِمِينَ وَجَا بـ «ذُو» نَوْعَانِ

فَصْلٌ

ودَلالَـــةُ الأَسْـــمَاءِ أَنْـــواعٌ ثَلا ... ثٌ كـلُّـهـا مـعـلـومـةٌ ببَـيـانِ
دلَّـتْ مُطَابَقَةً كَـذَاكَ تَضَمُّناً ... وكَـذَا الْتِزَاماً وَاضِـحَ البُرْهَانِ
أَمَّـا مُطَابَقَةُ الـدَّلالَـةِ فَهْيَ أَنْ ... نَ الاسْـمَ يُفْهَمُ مِنْهُ مَفْهُومَانِ
ذَاتُ الإِلَهِ وذَلِكَ الوَصْفُ الَّذِي ... يُشْتَقُّ مِـنْـهُ الإِسْــمُ بالمِيزَانِ
لَـكِـنْ دَلالَـتُـهُ عَـلَى إِحْـدَاهُمَـا ... بتَضَمُّنٍ فَافْهَمْهُ فَهْمَ بَيَانِ
وكَـذَا دَلالَتُهُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي ... مَـا اشْـتُـقَّ مِنْهَا فـالْـتِـزَامٌ دَانِ
وإِذَا أَرَدْتَ لِـذَا مِـثَـالاً بَيِّناً ... فَمِثَالُ ذَلِـكَ لَفْظَةُ الـرَّحْمَـنِ
ذَاتُ الإِلَـهِ ورَحْـمَـةٌ مَدْلُولُهَا ... فَـهُـمَا لِـهَـذَا اللَّفْظِ مَـدْلُـولانِ
إِحْدَاهُمَا بَعْضٌ لِذَا المَوْضُوعِ فَهْـ ... ـيَ تضمُّنٌ ذا واضـحُ التِّبْيانِ
لَكِنَّ وَصْفَ الحَيِّ لازِمُ ذَلِكَ الْـ ... مَعْنَى لُـزُومَ العِلْمِ للرَّحْمَنِ
فَـلِـذَا دَلالَـتُـهُ عَـلَـيْـهِ بالتِزَا ... مٍ بـيِّنٍ والحـقُّ ذُو تِـبْـيـانِ [(١)]

(١) القصيدةُ النونيةُ (٢٣٨-٢٥٢).

فَصْلٌ

فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ الإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَذِكْرِ انْقِسَامِ المُلْحِدِينَ

أَسْمَاؤُهُ أَوْصَافُ مَدْحٍ كلُّها | مُشْتَقَّةٌ قَدْ حُمِّلَتْ لِمَعَانِ
إِيَّاكَ والإِلْحَادَ فِيهَا إِنَّهُ | كُفْرٌ مَعَاذَ اللهِ مِنْ كُفْرَانِ
وحَقِيقَةُ الإِلْحَادِ فِيهَا المَيْلُ بالْـ | إِشْرَاكِ والتَّعْطِيلِ والنُّكْرَانِ
فالمُلْحِدُونَ إِذاً ثَلاثُ طَوَائِفٍ | فَعَلَيْهِمُ غَضَبٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
المُشْرِكُونَ لأَنَّهُم سَمَّوْا بِهَا | أَوْثَانَهُمْ قَالُوا إِلَهٌ ثَانِ
هُمْ شَبَّهُوا المَخْلُوقَ بالخَلَّاقِ عكْـ | ـسَ مُشَبِّهِ الخَلَّاقِ بالإِنْسَانِ
وكَذَاكَ أَهْلُ الاتِّحَادِ فَإِنَّهُمْ | إِخْوَانُهُم مِنْ أَقْرَبِ الإِخْوَانِ
أَعْطُوا الوُجُودَ جَمِيعَهُ أَسْمَاءَهُ | إِذْ كَانَ عَيْنَ اللهِ ذِي السُّلْطَانِ
والمُشْرِكُونَ أَقَلُّ شِرْكاً مِنْهُمُ | هُمْ خَصَّصُوا ذَا الاِسْمَ بالأَوْثَانِ
ولِذَاكَ كَانُوا أَهْلَ شِرْكٍ عِنْدَهُمْ | لَوْ عَمَّمُوا مَا كَانَ مِنْ كُفْرَانِ
والمُلْحِدُ الثَّانِي فَذُو التَّعْطِيلِ إِذْ | يَنْفِي حَقَائِقَهَا بِلا بُرْهَانِ
مَا ثَمَّ غَيْرُ الاسْمِ أَوِّلْهُ بِمَا | يَنْفِي الحَقِيقَةَ نَفْيَ ذِي بُطْلانِ
فالقَصْدُ دَفْعُ النَّصِّ عَنْ مَعْنَى الحَقِيـ | ـقَةِ فاجْتَهِدْ فِيهِ بِلَفْظِ بَيَانِ
عَطِّلْ وحَرِّفْ ثُمَّ أَوِّلْ وانْفِهَا | واقْذِفْ بِتَجْسِيمٍ وبالكُفْرَانِ
لِلمُثْبِتِينَ حَقَائِقَ الأَسْمَاءِ والْـ | أَوْصَافِ بالأَخْبَارِ والقُرْآنِ
فَإِذَا هُمُ احْتَجُّوا عَلَيْكَ فَقُلْ لَهُمْ | هَذَا مَجَازٌ وَهْوَ وَضْعٌ ثَانِ
فَإِذَا غُلِبْتَ عَلَى المَجَازِ فَقُلْ لَهُمْ | لا يُسْتَفَادُ حَقِيقَةُ الإِيقَانِ
أَنَّى وتِلْكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ | عُزِلَتْ عَنِ الإِيقَانِ مُنْذُ زَمَانِ
فَإِذَا تَضَافَرَتِ الأَدِلَّةُ كَثْرَةً | وغُلِبْتَ عَنْ تَقْرِيرِ ذَا بِبَيَانِ
فَعَلَيْكَ حِينَئِذٍ بِقَانُونٍ وَضَعْـ | ـنَاهُ لِدَفْعِ أَدِلَّةِ القُرْآنِ
ولِكُلِّ نَصٍّ لَيْسَ يَقْبَلُ أَنْ يُؤَوْ | وَلَ بالمَجَازِ ولا بِمَعْنًى ثَانِ
قُلْ عَارَضَ المَنْقُولَ مَعْقُولٌ ومَا الْـ | أَمْرَانِ عِنْدَ العَقْلِ يَتَّفِقَانِ

مَـا ثَـمَّ إلاَّ وَاحِـدٌ مِـنْ أَرْبَـعِ ... مُـتَـقَـابِـلاتٍ كُـلِّـها بـِـوِزَانِ

إِعْمَالُ ذَيْنِ وعَكْسُهُ أوْ تُلْغِيَ الْـ ... مَعْقُولَ مَا هَـذَا بِـذِي إمْكَانِ

العَقْلُ أَصْلُ النَّقْلِ وَهْوَ أَبُوهُ إِنْ ... تُبْطِلْهُ يَبْطُلْ فَرْعُهُ التَّحْتَانِي

فتعَيَّنَ الإِعْـمَالُ للمَعْقُولِ والْـ ... إِلْغاءُ للمَنْقُولِ ذِي البُرْهَانِ

إِعْـمَالُـهُ يُـفْـضِي إِلَى إِلْـغَـائِهِ ... فاهْجُرْهُ هَجْرَ الـتَّرْكِ والنِّسْيانِ

واللهِ لَمْ نَـكْـذِبْ عَلَيْهِمْ إِنَّنَا ... وَهُـمُ لَـدَى الـرَّحْمَـنِ مُخْتَصِمانِ

وهناكَ يُجْزَى المُلْحِدُونَ وَمَنْ نفَى الْـ ... إِلْحَـادَ يُجْـزَى ثَـمَّ بالغُفْرَانِ

فاصْبِرْ قَليلاً إِنَّـما هِـيَ سَاعَةٌ ... يا مُثْبِتَ الأَوْصَـافِ للرَّحْمَنِ

فلَسَوْفَ تَجْنِي أَجْرَ صَبْرِكَ حِينَ يَجْـ ... ـنِي الغَيْرُ وِزْرَ الإِثْمِ والعُدْوانِ

فاللهُ سَائِلُنا وسَائِلُهُم عَنِ الْـ ... إِثْـبـاتِ والتَّعْطِيلِ بَعْدَ زَمانِ

فَـأَعِـدَّ حِينَئِذٍ جَـوَابـاً كَافِياً ... عِنْدَ الـسُّـؤَالِ يَكُونُ ذَا تِبْيانِ

هَـذَا وثَالِثُهم فَنَافِيهَا وَنَـا ... فِي مَـا تَـدُلُّ عَلَيْهِ بالبُهْتَانِ

ذَا جَاحِدُ الرَّحْمَنِ رَأْسـاً لَمْ يُقِر ... رَ بِـخَـالِـقٍ أَبَـداً ولا رَحْمَـنِ

هَذَا هُوَ الإِلْحَـادُ فاحْذَرْهُ لَعَلْ ... لَ اللهَ أَنْ يُنْجِيْكَ مِـنْ نِـيرَانِ

وتَفُوزُ بالزُّلْفَى لَدَيْهِ وَجَنَّةِ الْـ ... ـمَأْوَى مَعَ الغُفْرَانِ والرِّضْوانِ

لا تُوحِشَنَّكَ غُرْبَةٌ بَيْنَ الوَرَى ... فالنَّاسُ كـالأَمْـواتِ فِي الحَيَّانِ

أَوَ مَا عَلِمْتَ بِأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ الْـ ... ـغرباءُ حقًّا عِندَ كُـلِّ زَمَـانِ

قُلْ لِي مَتى سَلِمَ الرَّسُولُ وصَحْبُهُ ... والتَّابِعُونَ لَهُـمْ عَلَى الإِحْسَانِ

مِـنْ جَاهِلٍ ومُعَانِدٍ ومُنَافِقٍ ... ومُحَـارِبٍ بالبَغْيِ والطُّغْيانِ

وتَـظُـنُّ أَنَّـكَ وَارِثٌ لَهُـمْ وَمَـا ... ذُقْـتَ الأَذَى في نُـصْرَةِ الرَّحْمَنِ

كَلاَّ ولا جَاهَدْتَ حَقَّ جِهادِهِ ... فِي اللهِ لا بِـيَـدٍ ولا بِـلِـسَـانِ

مَنَّتْكَ واللهِ المُحَالَ النَّفْسُ فاسْـ ... ـتَحْدِثْ سِوَى ذَا الرَّأْيِ والحُسْبَانِ

لَـوْ كُنْتَ وَارِثَــهُ لآذَاكَ الأُلَى ... وَرِثُـوا عَـدَاهُ بسَائِرِ الأَلْـوَانِ(١)

(١) القصيدةُ النونيةُ (٢٥٣-٢٥٥).

فَصْلٌ: في النَّوعِ الثاني مِنْ نَوْعَيْ تَوْحِيد الأنبياءِ والمُرْسَلِينَ المُخَالِفِ لتوحيدِ المُعَطِّلِينَ والمُشْرِكِينَ

هَـذَا وثَـانِي نَوْعَي التَّوْحِيدِ تَوْ ... حيدُ الـعِـبَـادَةِ مِنْكَ للرَّحْمَنِ
ألاَّ تَـكُـونَ لـغَـيْرِهِ عَـبْـداً وَلا ... تَـعْـبُـدْ بـغَـيْرِ شَرِيـعَـةِ الإيـمانِ
فَتقُومَ بالإِسْلام والإِيـمَانِ والْـ ... إِحْـسـانِ فِي سِرٍّ وفي إعْـلانِ
والصِّدْقُ والإِخْلاصُ رُكْنَا ذَلِكَ التَّـ ... ـوْحِـيـدِ كـالـرُّكْـنَـيْنِ للبُنْيانِ
وحَقِيقَةُ الإِخْلاصِ تَوْحِيدُ المُرَا ... دِ فـلا يُــزَاحِمُــهُ مُــرادٌ ثَـانِ
لَكِنْ مُـرَادُ العَبْدِ يَبْقَى واحداً ... مَا فِيهِ تَفْرِيقٌ لَـدَى الإنْسَـانِ
إنْ كَـانَ ربُّـكَ وَاحِـداً سُبْحَانَهُ ... فاخْصُصْهُ بالتَّوْحِيدِ مَعْ إحْسَانِ
أَوْ كَانَ رَبُّـكَ وَاحِـداً أَنْشَاكَ لَمْ ... يَـشْرَكْـهُ إذْ أَنْـشَـاكَ رَبٌّ ثَـانِ
فكَذَاكَ أَيْضاً وَحْـدَهُ فاعْبُدْهُ لا ... تَعْبُدْ سِــوَاهُ يَا أَخَـا العِرْفَانِ
والصِّدْقُ تَوْحِيدُ الإِرَادَةِ وَهْوَ بَذْ ... لُ الجُهْدِ لا كَسِلاً ولا مُتَوانِ
والسُّنَّةُ المُثْلَى لِسَالِكِهَا فَتَوْ ... حِيدُ الطَّرِيقِ الأَعْظَمِ السُّلْطَانِ
فلِوَاحِدٍ كُـنْ وَاحِـداً في وَاحِـدٍ ... أَعْـنِـي سَبِيلَ الحَـقِّ والإِيــمَانِ
هَـذِي ثَـلاثٌ مُسْعِدَاتٌ للَّذِي ... قَـدْ نَـالَهـا والـفَـضْـلُ للمَنَّانِ
فَـإِذَا هِيَ اجْتَمَعَتْ لِنَفْسٍ حُرَّةٍ ... بَلَغَتْ مِنَ العَلْيَاءِ كُلَّ مَكَانِ
للهِ قَـلْـبٌ شَـامَ هَاتِيكَ الـبُرُو ... قَ مِـنَ الخِيَامِ فَهَمَّ بالطَّيَرانِ
لَوْلا التَّعَلُّلُ بالرَّجَاءِ تَصَدَّعَتْ ... أَعْـشَـارُهُ كَـتَـصَـدُّعِ البُنْيانِ
وتَـرَاهُ يَبْسُطُهُ الرَّجَاءُ فَيَنْثَنِي ... مُـتَـمَـايِـلاً كَـتَـمَـايُـلِ الـنَّـشْـوَانِ
ويَعُودُ يَقْبِضُهُ الإِيـاسُ لِكَوْنِهِ ... مُتَخَلِّفاً عَـنْ رُفْقَةِ الإِحْسَانِ
فَتَرَاهُ بَيْنَ القَبْضِ والبَسْطِ اللَّذَا ... نِ هُـمَـا لأُفْـقِ سَـمَـائِـهِ قُطْبَانِ
وبَدَا لَهُ سَعْدُ السُّعُودِ فَصَارَ مسْـ ... ـــراهُ عليهِ لا عَـلَى الـدَّبَـرانِ
للهِ ذَيَّـــاكَ الـفـريـق فَـإِنَّـهُـمْ ... خُصُّوا بِخَالِصَةٍ مِـنَ الرَّحْمَنِ
شُـدَّتْ رَكَائِبُهُمْ إلَى مَعْبُودِهِمْ ... ورَسُـولِـهِ يَـا خَيْبَةَ الكَسْلانِ

فَصْلٌ

والشِّرْكُ فاحْذَرْهُ فشِرْكٌ ظَاهِرٌ ... ذَا القِسْمُ لَيْسَ بقَابِلِ الغُفْرَانِ
وَهْوَ اتِّخَاذُ النِّدِّ للرَّحْمَنْ أيْـ ... يَاً كَانَ مِنْ حَجَرٍ ومِنْ إنْسَانِ
يَدْعُوهُ أوْ يَرْجوهُ ثُمَّ يَخَافُهُ ... ويُحِبُّهُ كمَحَبَّةِ الدَّيَّانِ
واللهِ مَا سَاوَوْهُمُ باللهِ فِي ... خَلقٍ ولا رزقٍ ولا إحسانِ
فاللهُ عِنْدَهُمْ هُوَ الخَلاَّقُ والرْ ... رزَّاقُ مولَى الفَضْلِ والإِحْسَانِ
لكِنَّهُمْ سَاوَوْهُمُ باللهِ فِي ... حبٍّ وتَعْظِيمٍ وفِي إيمَانِ
جَعَلُوا محَبَّتَهُمْ مَعَ الرَّحْمَنِ مَا ... جَعَلُوا المَحبَّةَ قَطُّ للرَّحْمَنِ
لَوْ كَانَ حُبُّهُمْ لأَجْلِ اللهِ مَا ... عَادَوْا أَحِبَّتَهُ عَلَى الإيمَانِ
ولَمَا أَحَبُّوا سُخْطَهُ وتجَنَّبُوا ... محْبُوبَهُ ومَوَاقِعَ الرِّضْوَانِ
شَرْطُ المَحَبَّةِ أَنْ تُوَافِقَ مَنْ تُحِبُّ ... عَلَى محَبَّتِهِ بلا عِصْيانِ
فَإِذَا ادَّعَيْتَ لَهُ المَحَبَّةَ مَعْ خِلا ... فِكَ مَا يُحِبُّ فأَنْتَ ذُو بُهْتَانِ
أَتُحِبُّ أَعْدَاءَ الحَبِيبِ وتَدَّعِي ... حُبًّا لَهُ ما ذَاكَ فِي إمْكَانِ
وكَذَا تُعَادِي جَاهِداً أَحْبَابَهُ ... أَيْنَ المَحَبَّةُ يَا أَخَا الشَّيْطَانِ
لَيْسَ العِبَادَةُ غَيْرَ تَوْحِيدِ المَحَبْـ ... ـبَةِ مَعْ خُضُوعِ القَلْبِ والأَرْكَانِ
والحُبُّ نَفْسُ وِفاقِهِ فِيمَا يُحِبْـ ... ـبُ وبغضُ ما لا يَرْتَضِي بِجَنانِ
ووِفَاقُهُ نَفْسُ اتِّباعِكَ أَمْرَهُ ... والقَصْدُ وَجْهُ اللهِ ذِي الإِحْسَانِ
هَذَا هُوَ الإِحْسَانُ شَرْطٌ فِي قَبُو ... لِ السَّعْيِ فَافْهَمْهُ مِنَ القُرْآنِ
والإتِّبَاعُ بدُونِ شَرْعِ رَسُولِهِ ... عَيْنُ المُحَالِ وأَبْطَلُ البُطْلانِ
فَإِذَا نَبَذْتَ كِتَابَهُ ورَسُولَهُ ... وتَبِعْتَ أَمْرَ النَّفْسِ والشَّيْطَانِ
وتَخِذْتَ أَنْدَاداً تُحِبُّهُمُ كَحُبِّ ... اللهِ كُنْتَ مُجَانِبَ الإيمَانِ
ولَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ فَرِيقٍ يَدَّعِي الْـ ... إِسْلامَ شِرْكاً ظَاهِرَ التِّبْيَانِ
جَعَلُوا لَهُ شُرَكاءَ وَالوهْمَ وسَوْ ... وَهُمْ بِهِ فِي الحُبِّ لا السُّلْطانِ
واللهِ مَا سَاوَوْهُمُ باللهِ بَلْ ... زَادُوا لَهُمْ حُبًّا بلا كِتْمَانِ

واللهِ مَا غضِبُوا إِذَا انْتُهِكَتْ مَحَا رِمُ رَبِّهِـمْ فِي السِّرِّ والإِعْلانِ
حَتَّى إِذَا مَا قِيلَ فِي الوَثَنِ الَّذِي يَدْعُونَهُ مَا فِيهِ مِنْ نُقْصَانِ
فأَجَارَكَ الرَّحْمَنُ مِنْ غَضَبٍ وَمِنْ حَرْبٍ وَمِنْ شَتْمٍ وَمِنْ عُدْوانِ
وأَجَارَكَ الرَّحْمَنُ مِنْ ضَرْبٍ وتعْـ ـزِيرٍ ومِنْ سَبٍّ ومِنْ سَجَّانِ
واللهِ لَوْ عَطَّلْتَ كُلَّ صِفَاتِهِ مَا قَابَلُوكَ بِبَعْضِ ذَا العُدْوانِ
واللهِ لَوْ خَالَفْتَ نَصَّ رَسُولِهِ نصًّا صَرِيحاً وَاضِحَ التِّبْيانِ
وتبِعْتَ قَوْلَ شُيوخِهِمْ أَوْ غَيْرِهِمْ كُنْتَ المُحَقِّقَ صَاحِبَ العِرْفَانِ
حتَّى إِذَا خَالَفْتَ آرَاءَ الرِّجَا لِ لسُنَّةِ المَبْعُوثِ بالقُرْآنِ
نَادَوْا عَلَيْكَ ببِدْعَةٍ وضَلالَةٍ قَالُوا وفِي تَكْفِيرِهِ قَوْلانِ
قَالُوا تَنَقَّصْتَ الكِبَارَ وسَائِرَ الْـ ـعُلَمَاءِ بَلْ جَاهَرْتَ بالبُهْتَانِ
هَذَا وَلَمْ نَسْلُبْهُمُ حَقًّا لَهُمْ لِيَكُونَ ذَا كَذِبٍ وذَا عُدْوَانِ
وإِذَا سَلَبْتَ صِفَاتِهِ وعُلُوَّهُ وكَلامَهُ جَهْراً بِلا كِتْمَانِ
لَمْ يَغْضَبُوا بَلْ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَيْنَ الصَّوَابِ ومُقْتَضَى الإِحْسَانِ
والأَمْرُ واللهِ العَظِيمِ يَزِيدُ فَوْ قَ الوَصْفِ لا يَخْفَى عَلَى العُمْيانِ
وإِذَا ذَكَرْتَ اللهَ تَوْحِيداً رأَيْـ ـتَ وُجُوهَهُمْ مَكْسُوفَةَ الأَلْوانِ
بَلْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ شَزْراً مِثْلَ مَا نَظَرَ التُّيوسُ إِلى عَصَا الجُوبَانِ
وإِذَا ذَكَرْتَ بمَدْحِهِ شُرَكَاءَهُمْ يَتَبَاشَرُونَ تَبَاشُرَ الفَرْحانِ
واللهِ مَا شَمُّوا رَوَائِحَ دِينِهِ يَا زَكْمَةً أَعْيَتْ طَبِيبَ زَمانِ)[1]

فَصْلٌ: فِي كَسْرِ المَنْجَنِيقِ الذي نَصَبَهُ أَهْلُ التَّعْطِيلِ عَلَى مَعَاقِلِ الإِيمانِ وحُصُونِه جيلاً بعدَ جيلٍ

لا يُفْزِعَنْكَ قَعَاقِعٌ وفَرَاقِعٌ وجَعَاجِعٌ عَرِيتْ عنِ البُرْهانِ
مَا عِنْدَهُم شَيْءٌ يَهُولُكَ غَيْرَ ذَا كَ المَنْجَنِيقِ مُقَطِّعِ الأَرْكَانِ

(١) القصيدةُ النونيةُ (٢٥٦-٢٦٠).

وَهْوَ الَّذِي يَدْعُونَهُ التَّرْكِيبَ مَنْـ   ـصُوباً عَلَى الإِثْبَاتِ مِنْذُ زَمَانِ

أَرَأَيْتَ هَذَا المَنْجَنِيقَ فَإِنَّهُمْ   نَصَبُوهُ تَحْتَ مَعَاقِلِ الإِيمَانِ

بَلَغَتْ حِجَارَتُهُ الحُصُونَ فَهَدَّتِ الشُّـ   ـرُفَاتِ واسْتَوْلَتْ عَلَى الجُدْرانِ

للهِ كَمْ حِصْنٍ عَلَيْهِ اسْتَوْلَتِ الْـ   ـكُفَّارُ مِنْ ذا المَنْجَنِيقِ الجَانِي

واللهِ مَا نَصَبُوهُ حَتَّى عَبَّرُوا   قَصْداً عَلَى الحِصْنِ العَظِيمِ الشَّانِ

وَمِنَ البَلِيَّةِ أَنَّ قَوْماً بَيْنَ أَهْـ   ـلِ الحِصْنِ واطَوْهُمْ عَلَى العُدْوانِ

ورَمَوْا بِهِ مَعَهُمْ وكَانَ مُصابُ أَهْـ   ـلِ الحِصْنِ مِنْهُمْ فَوْقَ ذِي الكُفْرَانِ

فَتَرَكَّبَتْ مِنْ كُفْرِهِمْ ووِفَاقِ مَنْ   فِي الحِصْنِ أَنْواعٌ مِنَ الطُّغْيانِ

وجَرَتْ عَلَى الإِسْلامِ أَعْظَمُ مِحْنَةٍ   مِنْ ذَيْنِ تَقْدِيراً مِنَ الرَّحْمَنِ

واللهِ لَوْلا أَنْ تَدَارَكَ دِينَهُ الرْ   رَحْمَنُ كَانَ كَسَائِرِ الأَدْيانِ

لَكِنْ أَقَامَ لَهُ الإِلَهُ بِفَضْلِهِ   يَزَكاً مِنَ الأَنْصَارِ والأَعْوَانِ

فَرَمَوْا عَلَى ذَا المَنْجَنِيقِ صَوَاعِقاً   وحِجَارَةً هَدَّتْهُ لِلأَرْكَانِ

فاسْأَلْهُمُ مَاذَا الَّذِي يَعْنُونَ بالتْـ   ـتَرْكِيبِ فالتَّرْكِيبُ سِتُّ مَعَانِ

إِحْدَى مَعَانِيهِ هُوَ التَّرْكِيبُ مِنْ   مُتَبَايِنٍ كَتَرَكُّبِ الحَيَوانِ

مِنْ هَذِهِ الأَعْضَا كَذَا أَعْضَاؤُهُ   قَدْ رُكِّبَتْ مِنْ أَرْبَعِ الأَرْكَانِ

أَفَلازِمٌ ذَا لِلصِّفَاتِ لِرَبِّنَا   وعُلُوُّهُ مِنْ فَوْقِ كُلِّ مَكَانِ؟

ولَعَلَّ جَاهِلَكُمْ يَقُولُ مُبَاهِتاً   ذَا لازِمُ الإِثْبَاتِ بالبُرْهَانِ

فالبُهْتُ عِندَكُمُ رَخِيصٌ سِعْرُهُ   حَثْواً بِلا كَيْلٍ ولا مِيزانِ

هَذَا وثَانِيهَا فَتَرْكِيبُ الجِوا   رِ وَذَاكَ بَيْنَ اثْنَيْنِ يَفْتَرِقَانِ

كالجِسْرِ والبابِ الَّذِي تَرْكِيبُهُ   بِجِوارِهِ لِمَحَلَّةٍ مِنْ بَانِ

والأَوَّلُ المَدْعُوُّ تَرْكِيبَ امْتِزَا   جٍ واخْتِلاطٍ وَهْوَ ذُو تِبْيانِ

أَفَلازِمٌ ذا مِنْ ثُبُوتِ صِفَاتِهِ   أَيْضاً تعالى اللهُ ذُو السُّلْطَانِ

والثَّالِثُ التَّرْكِيبُ مِنْ مُتَمَاثِلٍ   يُدْعَى الجَوَاهِرَ فَرْدَةَ الأَكْوانِ

والرَّابِعُ الجِسْمُ المُرَكَّبُ مِنْ هَيُو   لاهُ وصُورَتِهِ لَدَى اليُونَانِ

والجسمُ فَهوَ مركَّبٌ مِنْ ذَيْنِ عنْـ ... ـدَ الفَيْلَسُوفِ وذَاكَ ذُو بُطْلانِ
ومِنَ الجَوَاهِرِ عِنْدَ أَرْبَابِ الكَلا ... م وذَاكَ أيضاً وَاضِحُ البُطْلانِ
فالمُثْبِتونَ الجَوْهَرَ الفَرْدَ الَّذِي ... زَعَمُوهُ أَصْلَ الدِّينِ والإِيمَانِ
قَالُوا بأَنَّ الجِسْمَ مِنْهُ مُرَكَّبٌ ... وَلَهُمْ خِلافٌ وَهْوَ ذُو أَلْوانِ
هَلْ يُمْكِنُ التَّرْكِيبُ مِنْ جُزْأَيْنِ أَوْ ... مِنْ أَرْبَعٍ أَوْ سِتَّةٍ وثَمانِ
أَوْ سِتَّ عَشْرَةَ قَدْ حَكَاهُ الأَشْعَرِيُّ ... لِذِي مَقَالاتٍ عَلَى التِّبْيانِ
أفَلازِمٌ ذا مِنْ ثُبُوتِ صِفَاتِهِ ... وعُلُوِّهِ سُبْحانَ ذِي السُّبْحانِ
والحَقُّ أَنَّ الجِسْمَ لَيْسَ مُرَكَّباً ... مِنْ [ذَا](١) ولا هَذَا هُمَا عَدَمَانِ
والجَوْهَرُ الفَرْدُ الَّذِي قَدْ أَثْبَتُو ... هُ لَيْسَ ذَا [أَبَداً وذَا](٢) إِمْكَانِ
لَوْ كانَ ذَلِكَ ثابتاً لَزِمَ المُحا ... لُ لوَاضِحِ البُطْلانِ والبُهْتانِ
مِنْ أَوْجُهٍ شَتَّى ويَعْسُرُ نَظْمُهَا ... جِدًّا لأَجْلِ صُعُوبَةِ الأَوْزَانِ
أَتَكُونُ خَرْدَلَةٌ تُسَاوِي الطَّوْدَ فِي الْـ ... أَجْزاءِ فِي شَيْءٍ مِنَ الأَذْهانِ
إِذْ كَانَ كُلٌّ مِنهما أَجْزَاؤُهُ ... لا تَنْتَهِي بالعَدِّ والحُسْبانِ
وإذَا وَضَعْتَ الجَوْهَرَيْنِ وثَالِثاً ... فِي الوَسْطِ وَهْوَ الحَاجِزُ الوُسْطَانِ
فلأَجْلِهِ افْتَرَقَا فلا يَتلاقَيَا ... حَتَّى يَزُولَ إِذاً فَيَلْتَقِيانِ
مَا مَسَّهُ إِحْدَاهُمَا مِنْهُ هُوَ الْـ ... مَمْسُوسُ للثَّانِي بلا فُرْقَانِ
هَذَا مُحَالٌ أَوْ تَقُولُوا غَيْرُهُ ... فَهْوَ انْقِسَامٌ واضِحُ التِّبْيانِ
والخَامِسُ التَّرْكِيبُ مِنْ ذَاتٍ مَعَ الْـ ... أَوْصَافِ هَذَا باصْطِلاحٍ ثَانِ
سَمَّوْهُ تَرْكِيباً وذلك وَضْعُهُمْ ... مَا ذَاكَ فِي عُرْفٍ ولا قُرآنِ
لَسْنَا نُقِرُّ بلَفْظَةٍ مَوْضُوعَةٍ ... بالإِصْطِلاحِ لشِيعَةِ اليُونانِ
أو مَنْ تَلَقَّى عَنْهُمُ مِنْ فِرْقَةٍ ... جَهْمِيَّةٍ لَيْسَتْ بذِي عِرْفَانِ
مِنْ وَصْفِهِ سُبْحَانَهُ بصِفَاتِهِ الْـ ... ـعُلْيا ويَتْرُكُ مُقْتَضَى البُرْهَانِ
والعَقْلُ والفِطَراتُ أيضاً كُلُّهَا ... قَبْلَ الفسادِ ومُقْتَضَى البُرهانِ

(١)، (٢) الزيادةُ من شَرحِ ابنِ عِيسَى (٢/ ١٨٣).

سَمُّوهُ ما شِئْتُمْ فَلَيسَ الشَّأْنُ في الْـ	أسماءِ بالألقابِ ذاتِ الشانِ
هَلْ مِنْ دَلِيلٍ يَقْتَضِي إِبْطَالَ ذَا التْـ	تَركيبِ مِنْ عَقْلٍ ومِنْ فُرْقانِ
واللهِ لوْ نُشِرَتْ شُيُوخُكُم لَمَا	قَدَرُوا عليهِ لوْ أَتَى الثَّقلانِ
والسَّادِسُ التَّرْكِيبُ مِنْ مَاهِيَّةٍ	ووُجُودُها ما هاهنا شيئانِ
إلاَّ إِذَا اخْتَلَفَ اعْتبارُهُما فَذَا	في الذِّهْنِ والثاني ففي الأعيانِ
فهُناكَ يُعْقَلُ كَوْنُ ذا غَيْراً لذَا	فعَلَى اعْتبارِهِمَا هُمَا غَيْرَانِ
أَمَّا إِذَا اتَّحَدَا اعْتِبارَاً كَانَ نفْـ	سُ وُجُودِها هُوَ ذَاتَها لا ثَانِ
مَنْ قَالَ شَيْئاً غَيْرَ ذا كانَ الَّذِي	قَدْ قَالَهُ ضَرْبٌ مِن الفَعَلانِ
هَذَا وكم خَبْطٌ هنا قَدْ زَالَ بالتْـ	تَفصيلِ وَهْوَ الأَصْلُ في العِرْفَانِ
وابنُ الخطيبِ وحِزْبُهُ مِنْ بعدِهِ	لَمْ يَهْتَدُوا لمواقعِ الفُرْقانِ
بَلْ خَبَّطوا نقلاً وبَحْثاً أَوْجَبَا	شكَّاً لِكُلِّ ملَدَّدٍ حيرانِ
هَلْ ذاتُ رَبِّ العالِمَيَن وُجودُهُ	أمْ غَيْرُهُ فَهُمَا إذاً شَيْئانِ
فيكونُ تَرْكيباً مُحالاً ذاكَ إنْ	قُلْنا بِهِ فيَصِيرُ ذَا إمْكَانِ
وإذا نَفَيْنَا ذاكَ صَارَ وُجودُهُ	كالمُطْلَقِ المَوْجودِ في الأَذْهانِ
وحَكَوْا أَقَاوِيلاً ثلاثاً: ذَيْنِكَ الْـ	قَوْلَيْنِ إطلاقاً بلا فُرْقانِ
والثالثُ التَّفريقُ بينَ الواجبِ الْـ	أَعْلَى وبينَ وُجودِ ذِي الإِمكانِ
وسَطَوْا عليها كُلِّهَا بالنَّقْضِ والْـ	إبطالِ والتشْكِيكِ بالإنسانِ
حتَّى أَتَى مِنْ أرضِ آمِدَ آخِراً	ثَورٌ كبيرٌ بلْ حَقِيرُ الشانِ
قَالَ الصَّوابُ الوَقْفُ في ذا كُلِّهِ	والشكُّ فيهِ ظَاهِرُ التِّبيانِ
هذا قُصارَى بَحْثِهِ وعُلُومِهِ	أَنْ شكَّ في اللهِ العَظِيمِ الشَّانِ

فَصْلٌ: في أحكامِ هذهِ التراكيبِ السِّتَّة

فالأَوَّلانِ حَقِيقَةُ التَّرْكيبِ لا	تَعْدُوهُما في اللَّفظِ والأَذْهانِ
وكذلكَ الأَعْيانُ أيضاً إنَّما التْـ	تَركيبُ فيها ذَانِكَ النوعانِ

والأَوْسَطانِ هُما اللَّذانِ تَنازَعَا الْـ ... عُقلاءَ في تركيب ذِي الجُثمانِ
وَلهُمْ أَقَاوِيلٌ ثَلاثٌ قَدْ حَكَيْـ ... نَـاهـا وبـيَّـنَّـا أَتَـمَّ بَـيـانِ
والآخَـرَانِ هُما اللَّذانِ عَلَيْهِما ... دَارَتْ رَحى الحَرْبِ التي تَريانِ
أَنْتُمْ جَعَلْتُمْ وَصْفَهُ سُبْحانَهُ ... بعُلُوِّهِ مِنْ فَـوْقِ ذِي الأَكْـوانِ
وصِفَاتِهِ العُلْيا الَّتِي ثَبَتَتْ لَهُ ... بالنَّقْلِ والمَعْقُولِ ذِي البُرْهانِ
مِنْ جُمْلَةِ التَّرْكِيبِ ثُمَّ نَفَيْتُمُ ... مَضْمُونَها مِـنْ غَـيْرِ مَا بُرْهانِ
فَجَعَلْتُمُ المِرْقـاةَ للتَّعْطيلِ هـ ... ـذا الإِصْطِلاحَ وذا مِنَ العُدْوانِ
لكِنْ إذَا قِيلَ اصْطِلاحٌ حَادِثٌ ... لا حَـجْـرَ في هَـذَا عَـلَى إنسانِ
فنَقُولُ نَفْيُكُمُ بِهَـذَا الإِصْطِلا ... ح صِفَاتِهِ هُوَ أَبْطَلُ البُطْلانِ
وكَـذَاكَ نَفْيُكُم بِـهِ لِعُلُوِّهِ ... فَوْقَ السَّماءِ وفَـوْقَ كُلِّ مَكانِ
وكَـذَاكَ نَفْيُكُمُ بِـهِ لِكَلامِهِ ... بالوَحْيِ كـالـتَّـوْرَاةِ والـقُـرْآنِ
وكَـذَاكَ نَفْيُكُمُ لِرُؤْيَتِنا لَهُ ... يَـوْمَ المَعَادِ كَما يُرى القَمَرانِ
وكَـذَاكَ نَفْيُكُمُ لِسَائِرِ ما أَتَى ... فِي النَّقْلِ مِنْ وَصْفٍ بغَيْرِ مَعَانِ
كالوَجْهِ واليَدِ والأَصَابِعِ والَّذِي ... أَبَـداً يَـسُـوؤُكُـمُ بلا كِتْمانِ
وبِـوُدِّكُـمْ لـوْ لَمْ يَـقُـلْـهُ رَبُّـنَـا ... ورَسُـولُـهُ المَبْعُوثُ بالبُرْهانِ
وبـوُدِّكُـمْ واللهِ لَمَّـا قـالَـهُ ... أَنْ لَيْسَ يَدْخُلُ مَسْمَعَ الإنْسانِ
قامَ الدَّلِيلُ عَلَى اسْتِنادِ الكَوْنِ أجْـ ... ـمَعِـهِ إلى خَـلاَّقِـهِ الـرَّحْمَـنِ
مَا قـامَ قَطُّ عَلَى انْتِفَاءِ صِفَاتِهِ ... وعُلُوِّهِ مِنْ فَـوْقِ ذي الأَكْـوانِ
هُـوَ وَاحِـدٌ في وَصْـفِـهِ وعُلُوِّهِ ... مـا لِـلْـوَرَى رَبٌّ سِـوَاهُ ثَـانِ
فـلأيِّ مَعْنًى يَجْـحَـدُونَ عُلُوَّهُ ... وَصِـفَـاتِـهِ بالفَشْرِ والهَـذَيـانِ
هذا وما المَحْذورُ إلاَّ أنْ يُقا ... لَ مَـعَ الإِلَـهِ لنا إِلَـهٌ ثـانِ
أو أنْ يُعَطَّلَ عنْ صِفَاتِ كَمالِهِ ... هـذانِ مَحْـذُورَانِ مَحْظُـورانِ
أَمَّـا إذَا مَـا قِيلَ رَبٌّ واحِـدٌ ... أَوْصَـافُـهُ أرْبَـتْ عَلَى الحُسْبانِ
وَهْوَ القَدِيمُ فَلَمْ يَزَلْ بصِفَاتِهِ ... مُتَوَحِّداً بَـلْ دَائِمُ الإِحْسانِ

فبأيِّ بُـرْهـانٍ نَفَيْتُمْ ذَا وقُلْـ ... ـتُمْ لَيْسَ هذا قَطُّ في الإمكانِ
فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّـهُ نَقْصٌ فَذَا ... بُهْـتٌ فما في ذاكَ مِـنْ نُقصانِ
النَّقْصُ في أَمْرَيْنِ: سَلْبُ كَمَالِهِ ... أو شِرْكَـةٌ بـالـوَاحِـدِ الـرَّحْمَـنِ
أَتكُونُ أَوْصَـافُ الكَمالِ نَقِيصَةً ... في أيِّ عَـقْـلٍ ذَاكَ أَمْ قُـرآنِ
إِنَّ الكَمَالَ بكَثْرَةِ الأَوْصَـافِ لا ... في سَلْبِهَا ذَا وَاضِـحُ البُرْهَانِ
فالنَّقْصُ غيْرُ السَّلْبِ حَسْبُ وكُلُّ نقـ ... ـصٍ أَصْلُهُ سَلْبٌ وَهَذَا وَاضِحُ التِّبْيانِ(١)

فالجَهْلُ سَلْبُ العِلْمِ وَهوَ نَقِيصَةٌ ... والظُّلْمُ سَلْبُ العَدْلِ والإِحْسانِ
مُتنقِّصُ الرَّحْمَنِ سَالِبُ وَصْفِهِ ... حقًّا تعالَى اللهُ عَـنْ نُقْصَانِ
وكَـذَا الثَّناءُ عليهِ ذِكْـرُ صِفَاتِهِ ... والحَمْدُ والتَّمْجِيدُ كُـلَّ أوانِ
ولِـذَاكَ أَعْلَمُ خَلْقِهِ أَدْرَاهُـمُ ... بصِفَاتِهِ مَـنْ جَـاءَ بالقُرْآنِ
ولَـهُ صفاتٌ ليسَ يُحْصِيها سِوا ... هُ مِـنْ مَـلائِـكَـةٍ ولا إنسانِ
ولِـذَاكَ يُثْنِي في القِيامَةِ سَاجِداً ... لَمَّـا يَـــرَاهُ المُـصْـطَـفَى بعِيانِ
بثَنَاءِ حَمْـدٍ لَمْ يَكُنْ في هَـذِهِ الدْ ... دُنيا لِيُحْصِيَهُ مَـدَى الأَزْمـانِ
وثَـنــاؤُهُ بصِفَاتِهِ لا بالسُّلُو ... بِ كَمَا يَقُولُ العَادِمُ العِرْفَانِ
والعَقْلُ دَلَّ عَلَى انتهاءِ الكَوْنِ أجْـ ... ـمَعِهِ إلى رَبٍّ عَظِيمِ الشَّانِ
وثُبُوتُ أَوْصَـافِ الكَمالِ لذَاتِهِ ... لا يَقْتَضِي إِبْـطَـالَ ذا البُرْهانِ
والكَوْنُ يَشْهَدُ أَنَّ خَالِقَهُ تَعَا ... لَى ذُو الكَمالِ ودَائِـمُ السُّلْطَانِ
وكَـذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّـهُ سبحانَهُ ... فَوْقَ الوُجُودِ وفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ
وكَـذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سبحانَهُ الْـ ... ـمَعبودُ لا شَيْءٌ مِنَ الأَكْـوانِ
وكَـذاكَ يَشْهَدُ أَنَّـهُ سُبْحَانَهُ ... ذُو حِكْمَةٍ في غَـايَـةِ الإتْـقَـانِ
وكَـذاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ ذُو قُـدْرَةٍ ... حَـيٌّ عَلِيمٌ دائِـمُ الإِحْـسَـانِ
وكَـذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ الفَعَّالُ حَقْـ ... ـقاً كُـلَّ يَـوْمٍ رَبُّـنَا في شَانِ

---

(١) هكذا في الأصلِ وشرحِ ابنِ عيسَى؛ وفيه زيادةٌ على الوزنِ الصحيحِ. فلعلَّ فيه عبارة مُقحَمةً. والمقصودُ أن كلَّ نقصٍ في أمرٍ من الأمورِ فأصلُه سَلْبُ ذلك الكمالِ عنه.

وكَـذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّـهُ المُخْتَارُ فِي ... أَفْـعَـالِـهِ حقًّـا بِـلا نُـكْـرَانِ
وكَـذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّـهُ الحَيُّ الَّذِي ... مَا للمَمَاتِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ
وكَـذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّـهُ القَيُّومُ قَا ... مَ بنَفْسِهِ ومُقِيمُ ذِي الأَكْـوَانِ
وكَـذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّـهُ ذُو رَحْمَـةٍ ... وإِرَادَةٍ ومَحَـبَّـةٍ وحَـنَـانِ
وَكَـذاكَ يَشْهَدُ أَنَّـهُ سُبْحَانَهُ ... مُتَكَلِّمٌ بـالـوَحْـيِ والـقُـرْآنِ
وكَـذَاكَ يَشْهَدُ أَنَّـهُ سُبْحَانَهُ الْـ ... ـخَلَّاقُ بَاعِثُ هَـذِهِ الأَبْـدَانِ
لا تَجْعَلُوهُ شَاهِداً بالزُّورِ والتْـ ... تَعْطِيلِ تِلْكَ شَهَادَةُ البُطْلانِ
وإِذَا تَأَمَّلْتَ الـوُجُـودَ رَأَيْـتَـهُ ... إِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ زُمْـرَةِ العُمْيانِ
بِشَـهَـادَةِ الإِثْـبَـاتِ حقًّا قَائِماً ... للهِ لا بِـشَـهَـادَةِ الـنُّـكْـرانِ
وكَـذَاكَ رُسْـلُ اللهِ شَـاهِـدَةٌ بِهِ ... أيضاً فَسَلْ عَنْهُمْ عَلِيمَ زَمَانِ
وكَـذَاكَ كُتْبُ اللهِ شَـاهِـدَةٌ بِهِ ... أَيْـضـاً فهذا مُحْكَـمُ الـقُـرْآنِ
وكَذَلِكَ الفِطَرُ الَّتِي مَا غُيِّرَتْ ... عَن أَصْـلِ خِلْقَتِهَا بأَمْرٍ ثانِ
وكَذَا العُقُولُ المُسْتَنِيرَاتُ الَّتِي ... فيها مَصَابِيحُ الهُـدَى الرَّبَّانِي
أَتَـرَوْنَ أَنَّـا تَـارِكُـو ذَا كُلِّهِ ... لِـشَـهَـادَةِ الجَـهْـمِـيِّ والـيُـونَـانِ
هَذِي الشُّهُودُ فَإِنْ طَلَبْتُمْ شَاهِداً ... مِـنْ غَيْرِها سيَقُومُ بعدَ زَمانِ
إِذْ يَنْجَلِي هذا الغُبارُ فيَظْهَرُ الْـ ... ـحَقُّ المُبِـيـنُ مُـشَـاهَـداً بعِيانِ
فَـإِذَا نَفَيْتُمْ ذَا وَقُـلْـتُـمْ إِنَّـهُ ... مَـلْـزُومُ تَرْكِيبٍ فمَنْ يلحاني
إِنْ قُلْتُ لا عَقْلٌ ولا سَمْعٌ لَكُمْ ... وصَرَخْـتُ فيما بينكُمْ بـأذانِ
هَلْ يُجْعَلُ المَلْزُومُ عَيْنَ اللاَّزِمِ الْـ ... ـمَنْفِيِّ هَـذَا بَـيِّنُ البُطْلانِ
فالشَّيْءُ لَيْسَ لنَفْسِهِ يُنْفَى لَدَى ... عقلٍ سَلِيمٍ يا ذَوِي العِرْفَانِ
قُلْتُمْ نَفَيْنَا وَصْـفَـهُ وعُـلُـوَّهُ ... مِنْ خَشْيَةِ التركيبِ والإِمكانِ
لَوْ كَانَ مَوْصُوفاً لكانَ مُرَكَّباً ... فالوَصْفُ والتركيبُ مُتَّحِدانِ
أو كانَ فَوْقَ العَرْشِ كَانَ مُرَكَّباً ... فالفَوْقُ والتركيبُ مُتَّفِقانِ
فنفَيْتُمُ التَّرْكِيبَ بالتَّرْكِيبِ مَعْ ... تَغْيِيرِ إِحـدَى اللَّفظَتَيْنِ بثانِ

بَلْ صُورَةُ البُرْهَانِ أَصْبَحَ شَكْلُهَا … شَكْلاً عَقِيماً ليسَ ذا بُرْهانِ
لَوْ كَانَ مَوْصُوفاً لَكَانَ كَذَاكَ مَوْ … صُوفاً وهَذَا حَاصِلُ البُرْهانِ
فإِذَا جَعَلْتُمْ لَفْظَةَ التَّرْكِيبِ بالْـ … ـمَعنَى الصَّحِيحِ أمارَةَ البُطْلانِ
جِئْنَا إِلَى المَعْنَى فَخَلَّصْناهُ مِنْـ … ـها واطَّرحْناهَا اطِّرَاحَ مُهانِ
هِيَ لَفْظَةٌ مَقْبُوحَةٌ بِدْعِيَّةٌ … مَذْمومَةٌ منَّا بكُلِّ لسانِ
واللَّفْظُ بالتوحيدِ نَجْعَلُهُ مَكا … نَ اللفظِ بالتركيبِ في التِّبيانِ
واللَّفْظُ بالتوحيدِ أَوْلى بالصِّفَا … تِ وبالعُلُوِّ لِمَنْ لَهُ أُذُنانِ
هَذَا هُوَ التوحيدُ عندَ الرُّسْلِ لا … أَصْحَابِ جَهْمٍ شِيعَةِ الكُفْرانِ[1]

فَصْلٌ: فِي بيانِ أنَّ المُصيبةَ التي حَلَّتْ بأَهْلِ التعْطِيلِ والكُفْرانِ مِنْ جِهةِ الأَسْماءِ التي ما أَنْزَلَ اللّه بها مِنْ سُلْطانٍ

يَا قَوم أَصْلُ بَلائِكُمْ أَسْماءُ لَمْ … يُنْزِلْ بِهَا الرَّحْمَنُ مِنْ سُلْطانِ
هِيَ عَكَّسْتُكُم غَايَةَ التَّعْكِيسِ واقْـ … ـتَلَعَتْ دِيارَكُمْ مِنَ الأَرْكَانِ
فتَهَدَّمَتْ تِلْكَ القُصُورُ وأُوحِشَتْ … مِنكُمْ رُبُوعُ العِلْمِ والإِيمَانِ
والذَّنْبُ ذَنْبُكُمُ قَبِلْتُمْ لَفْظَهَا … مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ ولا فُرْقَانِ
وَهْيَ الَّتي اشْتملَتْ على أَمْرَيْنِ مِنْ … حَقٍّ وأَمْرٍ وَاضِحِ البُطْلانِ
سَمَّيْتُمُ عَرْشَ المُهَيْمِنِ حيِّزاً … والإِسْتِوَاءَ تَحَيُّزاً بمَكَانِ
وجَعَلْتُمُ فَوْقَ السَّماوَاتِ العُلَى … جِهَةً وسُقْتُمْ نَفْيَ ذَا بوِزَانِ
وجَعَلْتُمُ الإِثْبَاتَ تَشْبِيهاً وتَجْـ … ـسِيماً وهذا غَايَةُ البُهْتانِ
وجَعَلْتُمُ المَوْصُوفَ جِسْماً قَابِلَ الْـ … أَعْرَاضِ والأكوانِ والألْوانِ
وجَعَلْتُمُ أَوْصَافَهُ عرَضاً وَهَـ … ـذَا كُلُّهُ جِسْرٌ إلى النُّكْرَانِ
وكَذَاكَ سَمَّيْتُمْ حُلُولَ حَوَادِثٍ … أَفْعَالَهُ تَلْقِيبَ ذِي عُدْوانِ
إِذْ تَنْفِرُ الأَسْمَاعُ مِنْ ذَا اللَّفْظِ نفْـ … ـرَتَها مِن التَّشْبِيهِ والنُّقْصانِ

(١) القصيدةُ النونيةُ (٢٢٣-٢٣٢).

فكَسَوْتُمُ أَفْعَالَهُ لَفْظَ الحَوَا ... دثِ ثُمَّ قُلْتُمْ قَوْلَ ذِي بُطْلانِ

لَيْسَتْ تَقُومُ بِهِ الحَوَادِثُ والمُرَا ... دُ النَّفْيُ للأفعالِ للدَّيَّانِ

فَإِذَا انْتَفَتْ أَفْعَالُهُ وصِفَاتُهُ ... وكَلامُهُ وعُلُوُّ ذِي السُّلْطانِ

فبِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ رَبًّا عِنْدَكُمْ ... يَا فِرْقَةَ التَّحْقِيقِ والعِرْفَانِ

والقَصْدُ نَفْيُ فِعَالِهِ عَنْهُ بِذَا التْـ ... تَلقيبِ فعلُ الشاعِرِ الفَتَّانِ

وكَذَاكَ حِكْمَةُ رَبِّنَا سَمَّيْتُمُ ... عِلَلاً وأَغْراضاً وذانِ اسمانِ

لا يُشْعِرانِ بمِدْحَةٍ بَلْ ضِدِّها ... فيَهُونُ حينَئِذٍ عَلَى الأَذْهانِ

نَفْيُ الصِّفَاتِ وحِكْمَةِ الخَلاَّقِ والْـ ... أَفْعَالِ إنكاراً لهذَا الشَّانِ

وكَذَا اسْتِواءُ الرَّبِّ فَوْقَ العَرْشِ قُلْـ ... ـتُم إِنَّهُ التركيبُ ذو بُطْلانِ

وكَذَاكَ وَجْهُ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ ... وكذاكَ لفظُ يَدٍ ولفظُ يَدَانِ

سَمَّيْتُمُ ذَا كُلَّهُ الأَعْضَاءَ بَلْ ... سَمَّيْتُمُوهُ جَوارِحَ الإنْسانِ

وسَطَوْتُمُ بالنَّفْيِ حينَئِذٍ عَلَيْـ ... ـهِ كنَفْيِنَا للعَيْبِ مَعْ نُقْصَانِ

قُلْتُمْ نُنَزِّهُهُ عَنِ الأَعْرَاضِ والْـ ... أَغْراضِ والأَبْعَاضِ والجُثْمانِ

وعَنِ الحَوَادِثِ أَنْ تَحُلَّ بذَاتِهِ ... سبحانَهُ مِنْ طَارِقِ الحَدَثَانِ

والقَصْدُ نَفْيُ صِفاتِهِ وفِعَالِهِ ... والإِسْتِوَاءِ وحِكْمَةِ الرَّحْمَنِ

والنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ بسِجْنِ اللَّفْظِ مَحْـ ... ـبوسونَ خَوْفَ مَعَرَّةِ السَّجَّانِ

والكُلُّ إلاَّ الفَرْدَ يَقْبَلُ مَذْهَباً ... في قَالَبٍ ويَرُدُّهُ في ثَانِ

والقَصْدُ أَنَّ الذَّاتَ والأَوْصَافَ والْـ ... أَفْعَالَ لاَ تُنْفَى بِذَا الهَذَيانِ

سَمُّوهُ مَا شِئْتُمْ فَلَيْسَ الشأنُ في الْـ ... أَسْماءِ بَلْ في مَقْصِدٍ ومَعَانِ

كَمْ ذا توسَّلْتُمْ بلفظِ الجِسْمِ والتْـ ... تَجْسيمِ للتَّعْطِيلِ والكُفْرانِ

وجَعَلْتُموهُ التُّرْسَ إِنْ قُلْنَا لَكُمْ ... اللهُ فَوْقَ العَرْشِ والأَكْوانِ

قُلْتُمْ لنَا جِسْمٌ عَلَى جِسْمٍ تعا ... لَى اللهُ عَنْ جِسْمٍ وعَنْ جُثْمانِ

وَكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا القُرانُ كَلامُهُ ... مِنْهُ بَدَا لَمْ يَبْدُ مِنْ إنسانِ

كَلاَّ ولا مَلَكٌ ولا لَوْحٌ ولَـ ... ـكِنْ قَالَهُ الرَّحْمَنُ قَوْلَ بَيانِ

قُلْتُمْ لَنَا إِنَّ الكَلامَ قِيَامُهُ … بالجِسْمِ أيضاً وَهْوَ ذُو حَدَثَانِ
عَرَضٌ يَقُومُ بغَيْرِ جِسْمٍ لَمْ يَكُنْ … هَذَا بِمَعْقُولٍ لِذِي الأَذْهَانِ
وكَذَاكَ حِينَ نَقُولُ يَنْزِلُ رَبُّنَا … فِي ثُلْثِ لَيْلٍ آخِرٍ أَوْ ثَانِ
قُلْتُمْ لَنَا إِنَّ النُّزولَ لِغَيْرِ أَجْـ … ـسامٍ مُحَالٌ ليسَ ذا إِمكانِ
وكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا يُرَى سُبْحَانَهُ … قُلْتُمْ أَجِسْمٌ كَيْ يُرَى بِعِيانِ
أَمْ كَانَ ذَا جِهَةٍ تعالى رَبُّنَا … عَن ذا فليسَ يَراهُ مِنْ إِنْسانِ
أَمَّا إذا قُلْنَا لَهُ وَجْهٌ كَمَا … في النَّصِّ أَوْ قُلْنَا كذاكَ يَدانِ
وكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا كَمَا في النَّصِّ إِنَّ … القَلْبَ بَيْنَ أَصَابِعِ الرَّحْمنِ
وكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا الأَصَابِعُ فَوْقَهَا … كُلُّ العَوَالِمِ وَهْيَ ذُو رجفانِ
وكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا يَدَاهُ لأَرْضِهِ … وسَمَائِهِ فِي الحَشْرِ قَابِضَتانِ
وكَذَاكَ إِنْ قُلْنَا سَيَكْشِفُ سَاقَهُ … فَيَخِرُّ ذَاكَ الجَمْعُ لِلأَذْقانِ
وكذاكَ إِنْ قُلْنا يَجِيءُ لِفَصْلِهِ … بَيْنَ العِبَادِ بِعَدْلِ ذِي سُلْطانِ
قَامَتْ قِيامَتُكُمْ كذاكَ قِيامَةُ الْـ … آتِي بِهَذَا القَوْلِ فِي الرَّحْمَنِ
واللهِ لَوْ قُلْنا الذي قال الصَّحَا … بَةُ والأُلَى مِنْ بعدِهِم بلسانِ
لَرَجَمْتُمُونا بِالحِجَارَةِ إِنْ قَدِرْ … تُمْ بَعْدَ رَجْمِ الشَّتْمِ والعُدْوانِ
واللهِ قَدْ كَفَّرْتُمُ مَنْ قَالَ بعْـ … ـضَ مقالِهِم يا أُمَّةَ العُدْوانِ
وَجَعَلْتُمُ الجِسْمَ الَّذِي قَدَّرْتُمُ … بُطْلانَهُ طَاغُوتَ ذا البُطْلانِ
ووَضَعْتُمُ لِلْجِسْمِ مَعْنًى غَيْرَ معْـ … ـروفٍ بِهِ فِي وَضْعِ كُلِّ لِسَانِ
وبَنَيْتُمُ نَفْيَ الصِّفَاتِ عليهِ فاجْـ … ـتَمَعَتْ لَكُمْ إِذْ ذَاكَ مَحْذورانِ
كَذِبٌ على لُغَةِ الرسولِ ونَفْيُ إِثْـ … ـباتِ العُلُوِّ لِفَاطِرِ الأَكْوانِ
ورَكِبْتُمُ إِذْ ذَاكَ تَحْرِيفَيْنِ تَحْـ … ـرِيفَ الحَدِيثِ ومُحْكَمِ القُرْآنِ
وكَسَبْتُمُ وِزْرَيْنِ وِزْرَ النَّفْيِ والتْـ … ـتَحْرِيفِ فاجْتَمَعَتْ لَكُمْ كِفْلانِ
وعَدَاكُمُ أَجْرَانِ أَجْرُ الصِّدْقِ والْـ … إِيمانِ حَتَّى فاتَكُمْ حَظَّانِ
وكَسَبْتُمُ مَقْتَيْنِ مَقْتَ إِلَهِكُمْ … والمُؤْمِنِينَ فَنالَكُمْ مَقْتَانِ

ولَبِسْتُمُ ثَوْبَيْنِ ثَوْبَ الجَهْلِ والظْ ظُلمِ القَبيحِ فبِئْسَتِ الثَّوْبانِ
وتَخِذْتُمُ طِرْزَيْنِ طِرْزَ الكِبْرِ والتـ تيهِ العَظِيمِ فبِئْسَتِ الطِّرْزانِ
ومَـدَدْتُـمُ نَحْوَ العُلَى بَاعَيْنِ لَـ كِنْ لَمْ تَطُلْ مِنْكُمْ لَهَا البَاعانِ
وأتَيْتُموها مِـنْ سِـوَى أَبْوابِهَا لَكِنْ تَـسَـوَّرْتُـمْ مِـن الحِيطانِ
وغَلَقْتُمُ بَابَيْنِ لوْ فُتِحَا لَكُمْ فُـزْتُـمْ بـكُـلِّ بِـشَـارَةٍ وتَهَـانِي
بَابُ الحديثِ وبابُ هَذَا الوَحْيِ مَنْ يَفْتَحْهُما فَـلْـيَـهْـنَـهُ البابانِ
وفَتَحْتُمُ بابَيْنِ مَـنْ يَفْتَحْهُمَا تُفْتَحْ عَلَيْهِ مَوَاهِبُ الشَّيْطَانِ
بَابُ الكلامِ وقدْ نُهِيتُمْ عنهُ والْـ بَـابُ الحَرِيقُ فمَنْطِقُ اليونانِ
فَدخَلْتُمُ دَارَيْنِ دَارَ الجَهْلِ في الدْ دُنيا ودَارَ الخِـزْيِ في النِّيرانِ
وطَعِمْتُمُ لَوْنَيْنِ لونَ الشَّكِّ والتـ تَشكيكِ بعدُ فبِئْستِ اللوْنانِ
ورَكِبْتُمُ أَمْرَيْنِ كَمْ قَدْ أَهْلَكَا مِـنْ أُمَّـةٍ في سَـالِفِ الأَزْمَـانِ
تَقديمُ آراءِ الرجالِ عَلَى الذي قَـالَ الرسولُ ومُحْكَـمِ القُرْآنِ
والثانِ: نِسْبَتُهم إلى الألغازِ والتْ تَلْبيسِ والتَّدْليسِ والكِتْمَانِ
ومَكَرْتُمُ مَكْرَيْنِ لوْ تَمَّا لَكُمْ لتَفَصَّمَتْ فينا عُـرَى الإِيـمانِ
أَطْفَأْتُمُ نُورَ الكتابِ وسُنَّةَ الْـ هَـادِي بِذَا التحريفِ والهَذَيانِ
لكِنَّكُمْ أَوْقَـدْتُمُـو للحَرْبِ نا راً بَـيْنَ طَـائِـفَـتَـيْنِ مُختلفانِ
واللهُ مُطْفِيها بألْسِنَةِ الأُلَى قَـدْ خَصَّهُمْ بالعلمِ والإيـمانِ
واللهِ لَوْ غَرِقَ المُجسِّمُ في دَمِ التْـ ـتَجْسيمِ مِـنْ قَـدَمٍ إلى الآذانِ
فالنَّصُّ أَعْظَمُ عندَهُ وأَجَـلُّ قدْ راً أنْ يُـعـارِضَـهُ بـقَـوْلِ فُـلانِ

فَصْلٌ: فِي كَسْرِ الطاغوتِ الذي نَفَوْا به صفاتِ ذي المَلَكوتِ والجَبَروتِ

أَهْونْ بـِذَا الطاغُوتِ لا عَزَّ اسـمُهُ طَاغُوتِ ذي التَّعْطيلِ والكُفْرانِ
كَـمْ مِنْ أَسِـيرٍ بـلْ جريحٍ بـلْ قَتِيـ ـلٍ تَحْتَ ذا الطاغوتِ في الأَزْمانِ
وتَـرَى الجبانَ يَكادُ يُخْلَعُ قَلْبُهُ مِـنْ لَـفْـظَـةٍ تبًّا لكلِّ جَبانِ

وتَرَى المُخَنَّثَ حِينَ يُقرَعُ سَمْعُهُ   تَبدُو عليهِ شمائِلُ النِّسوانِ
ويَظَلُّ مَنْكُوحاً لكلِّ مُعطِّلٍ   ولكلِّ زِنْديقٍ أَخِي كُفْرانِ
وتَرَى صَبيَّ العَقْلِ يُفزِعُهُ اسْمُهُ   كالغُولِ حينَ يُقالُ للصبيانِ
كُفرانُ هذا الإِسمِ لا سُبحانَهُ   أَبَداً وسبحانَ العظيمِ الشانِ
كَمْ ذا التَّتَرُّسُ بالمُحَالِ أَما تَرَى   قَدْ مَزَّقَتْهُ كَثْرَةُ السُّهمانِ
جِسْمٌ وتَجسِيمٌ وتَشْبيهٌ أَمَا   تَعْيَوْنَ مِنْ فَشْرٍ ومِنْ هَذَيانِ
أَنْتُمْ وَضَعْتُمْ ذَلِكَ الطاغوتَ ثُمَّ   بِهِ نَفَيتُمْ مُوجَبَ القُرْآنِ
وجَعَلْتُمُوهُ شَاهِداً بَلْ حَاكِماً   هَذَا عَلَى مَنْ يا أُولِي العُدْوانِ
أَعَلَى كِتَابِ اللهِ ثُمَّ رَسُولِهِ   باللهِ فاسْتَحْيوا مِن الرَّحْمَنْ
فقَضَاؤُهُ بالجَوْرِ والعُدْوانِ مِثْـ   ـلُ قِيامِهِ بالزُّورِ والعُدْوانِ
وقِيامُهُ بالزُّورِ مِثْلُ قَضَائِهِ   بالجَوْرِ والعُدْوانِ والبُهْتانِ
كَمْ ذِي الجَعَاجِعِ لَيْسَ شَيْءٌ تَحْتَها   إلاَّ الصَّدَى كالبُوم في الخِرْبانِ
ونَظِيرُ هذا قَوْلُ مُلْحِدِكُم وَقَدْ   جَحَدَ الصِّفَاتِ لفَاطِرِ الأَكْوانِ
لَوْ كَانَ مَوْصوفاً لكَانَ مُرَكَّباً   فالوَصْفُ والتركيبُ مُتَّحِدانِ
ذَا المَنْجَنِيقُ وذلكَ الطاغوتُ قَدْ   هدَمَا دِيارَكُمُ إلى الأَرْكانِ
واللهُ رَبِّي قَدْ أَعَانَ بكَسْرِ ذا   وبقَطْعِ ذَا، سبحانَ ذي الإحسانِ
فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ هَذَا لازِمٌ   لَمَقَالِكُمْ حقًّا لزُومَ بيانِ
فَلَنَا جَوَاباتٌ ثَلاثٌ كُلُّها   معلومةُ الإيضَاحِ والتِّبْيانِ
مَنْعُ اللزومِ وما بأَيدِيكُمْ سِوَى   دَعْوَى مُجَرَّدَةٍ مِن البُرهانِ
لا يَرْتَضِيهَا عَالِمٌ أَوْ عَاقِلٌ   بَلْ تلك حِيلَةُ مُفْلِسٍ فتَّانِ
فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ مَنْعَ لزُومِهِ   مِنْكُم مُكَابَرَةً عَلَى البُطلانِ
فجَوابُنَا الثاني امْتِناعُ النَّفْيِ فِي   ما تَدَّعُونَ لُزُومَهُ ببيانِ
إِنْ كَانَ ذلكَ لازماً للنَّصِّ فَالْـ   مَلزومُ حقٌّ وَهْوَ ذُو بُرْهانِ
والحَقُّ لازِمُهُ فحَقٌّ مِثْلُهُ   أَنَّى يَكونُ الشَّيْءُ ذَا بُطلانِ

ويَـكُـونُ مَلْزوماً بـهِ حقًّا فَـذَا ... عَـيْنُ المُحـالِ وليـسَ ذَا إمـكانِ
فتَعَيَّنَ الإِلْــزَامُ حينَئِذٍ عَلَى ... قـولِ الرَّسـولِ ومُحْكَـمِ القُـرآنِ
وجَعَلْتُمُ أَتْـبَـاعَـهُ ما تَسْتُرا ... خَوْفـاً مِـنَ التَّصْرِيـحِ بالكُفْـرانِ
واللهِ مَـا قُلْنَا سِـوَى مَـا قَالَهُ ... هَـذِي مَقالَتُنا بِـلا كِتْـمانِ
فجَعَلْتُمونا جُنَّةً والقَصْدُ مفْـ ... ـهُـومٌ فنَحْـنُ وِقايَـةُ القُـرْآنِ
هَذَا وثَالِثُ مَا نُجِيبُ بِهِ هُوَ اسْـ ... ـتِفْسـارُكُمْ يـا فِرْقَـةَ العِرْفـانِ
مَاذَا الذي تَعْنونَ بالجِسْمِ الذِي ... أَلْزَمْتُمونَـا أوضِحُـوا ببيـانِ
تَعْنُونَ مَا هُوَ قَائِمٌ بالنَّفْسِ أَوْ ... عالٍ علَى العَـرْشِ العَظِيمِ الشـانِ
أو ذا الَّذي قَامَتْ بِهِ الأوصافُ أَوْ ... صـافُ الكَـمَالِ عَدِيمَـةُ النُّقْصَـانِ
أو مَا تركَّبَ مِنْ جَوَاهِرَ فَـرْدَةٍ ... أو صُـورَةٍ حَلَّـت هَيـولَى ثَـانِ
أَوْ مَا هُوَ الجِسْمُ الَّذي في العُرْفِ أَوْ ... في الوَضْـعِ عنـدَ تَخاطُـبٍ بلِسَـانِ
أَوْ مَا هُوَ الجِسْمُ الَّذي في الذِّهْنِ ذَا ... كَ يُقـالُ تَعْليمِـيٌّ[1] ذِي الأَذْهـانِ
مَاذَا الَّذِي في ذاكَ يَلزَمُ مِنْ ثُبُو ... تِ عُلُـوِّهِ مِـنْ فَـوْقِ كُلِّ مَـكانِ
فأْتُوا بتَعْيِينِ الـذي هُـوَ لازِمٌ ... فـإِذَا تَعَـيَّنَ ظَاهِـرُ التِّبْيـانِ
فأْتوا ببُرْهانَيْنِ بُـرْهَـانُ اللُّزُو ... مِ ونَفْـيُ لازِمِـهِ فـذَانِ اثْنـانِ
واللهِ لوْ نُشِرَتْ لَكُمْ أَشْياخُكُمْ ... عَجَـزُوا ولـوْ واطَاهُـمُ الثَّقَـلانِ
إنْ كُنْتُمُ أَنْتُمْ فُحُولاً فابْرُزُوا ... ودَعُـوا الشَّـكاوِي حِيلَةَ النِّسْـوانِ
وإذا اشْتَكَيْتُمْ فاجْعَلُوا الشَّكْوَى إِلَى ... الـوَحْيَيْنِ لا القَاضِي ولا السُّلْطانِ
فنُجِيبُ بالتَّرْكيبِ حينَئِذٍ جَوَا ... بـاً شـافياً فيـهِ هُـدَى الحَيرانِ
الحَقُّ إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ ونَفْيُهَا ... عَـيْنُ المُحـالِ وَلَيْـسَ في الإمْـكَانِ
فـالجِسْـمُ إِمَّـا لازِمٌ لثُبُوتِهَا ... فَهْـوَ الصَّـوَابُ وَلَيْـس ذَا بُطْـلانِ
أَوَ لَيْسَ يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ صِفَاتِهِ ... فَشَـناعَةُ الإلـزامِ بالبُهْتـانِ

(١) الياءُ المُشدَّدةُ زيادةٌ من شرحِ ابنِ عيسَى (٢/ ٣٢٤). وبدونها يَخْتَلُّ الوزنُ.

فالمَنْعُ في إِحْدَى المُقَدِّمَتَيْنِ معْـ ـلومُ البَيانِ إذاً بلا نُكْرانِ
المَنْعُ إِمَّا في اللُّزُوم أو انْتِفا ءِ اللازم المَنسوبِ للبطلانِ
هَذَا هُوَ الطَّاغُوتُ قَدْ أَضْحَى كَما أَبْصَرْتُمُوهُ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ (١)

فَصْلٌ: فِي تَحْمِيلِ أهلِ الإثباتِ للمُعَطِّلين شَهَادَةً تُؤدَّى عندَ ربِّ العَالَمِينَ

يَا أَيُّها البَاغِي علَى أَتْباعِهِ بالظُّلْمِ والبُهْتانِ والعُدْوانِ
قَدْ حَمَّلُوكَ شَهادَةً فاشْهَدْ بِها إِنْ كُنْتَ مَقْبُولاً لَدَى الرَّحْمَنِ
واشْهَدْ عَلَيْهِمْ إِنْ سُئِلْتَ بأَنَّهُم قَالُوا إِلَهُ العَرْشِ والأَكْوَانِ
فَوْقَ السماواتِ العُلَى حقاً عَلَى الْـ عَرشِ اسْتَوَى سبحانَ ذي السلطانِ
والأَمْرُ يَنْزِلُ منهُ ثُمَّ يَسِيرُ فِي الـ أَقْطَارِ سُبْحَانَ العَظِيمِ الشانِ
وإِلَيْهِ يَصْعَدُ مَا يَشَاءُ بِأَمْرِهِ مِنْ طَيِّبَاتِ القولِ والشُّكرانِ
وإِلَيْهِ قَدْ صَعِدَ الرَّسُولُ وقَبْلَهُ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ كاسِرُ الصُّلْبانِ
وكَذَلِكَ الأَمْلاكُ تَصْعَدُ دَائِماً مِنْ هاهنا حقًّا إلى الدَّيَّانِ
وكَذَاكَ رُوحُ العَبْدِ بَعْدَ مَمَاتِها تَرْقَى إِليهِ وَهْوَ ذُو إِيمانِ
واشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مُتَكَلِّمٌ بالوَحْيِ والقُرآنِ
سَمِعَ الأَمِينُ كَلامَهُ مِنْهُ وأَدَّا هُ إلى المُبعوثِ بالفُرقانِ
هُوَ قَوْلُ رَبِّ العَالَمِينَ حَقِيقَةً لَفْظاً ومَعْنًى لَيْسَ يَفْتَرِقانِ
واشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ كَلَّمَ المَولودَ مِنْ عِمْرانِ
سَمِعَ ابنُ عِمْرَانَ الرَّسُولُ كَلامَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ مَسْمَعَ الآذَانِ
واشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُم قَالُوا بأَنَّ اللهَ نَادَاهُ بِلا كِتْمَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بأَنَّ اللهَ نَادَى قَبْلَهُ الأَبَوانِ
واشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُم قَالُوا بأَنَّ اللهَ يَسْمَعُ صَوْتَهُ الثَّقلانِ
واللهُ قَالَ بنَفْسِهِ لِرَسُولِهِ إِنِّي أَنا اللهُ العَظِيمُ الشَّانِ

(٢) القصيدةُ النونيةُ (٢٧١-٢٧٨).

واللهُ قَالَ بنَفْسِهِ لِرَسُولِهِ   اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ ذِي الطُّغْيَانِ
واللهُ قَالَ بنَفْسِهِ «حم» مَعْ   «طه» ومَعْ «يس» قولُ بيانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ وَصَفُوا الإلَـ   ـهَ بكُلِّ مَا قَدْ جَاءَ فِي القُرْآنِ
وبكُلِّ مَا قَالَ الرَّسُولُ حَقِيقَةً   مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ ولا عُدْوانِ
واشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ قَوْلَ نَبِيِّهِمْ   وكَلامَ رَبِّ العَرْشِ ذا التِّبْيانِ
نَصٌّ يُفِيدُ لَدَيْهِمُ عِلْمَ اليَقِيـ   ـنِ إِفَادَةَ المَعْلُومِ بالبُرْهَانِ
واشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُم قَدْ قَابَلُوا التَّـ   ـعْطِيلَ والتَّمْثِيلَ بالنُّكْرَانِ
إِنَّ المُعَطِّلَ والمُمَثِّلَ مَا هُمَا   مُتَيُقِّنَينِ عِبَادَةَ الرَّحْمَنِ
ذا عَابِدُ المَعْدُومِ لا سُبْحَانَهُ   أَبَداً وهَذَا عَابِدُ الأَوْثَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ أَثْبَتُوا الْـ   أَسْمَاءَ والأَوْصَافَ للدَّيَّانِ
وكَذَلِكَ الأَحْكَامُ أَحْكَامُ الصِّفَا   تِ وهذه الأَرْكَانُ للإيمانِ
قَالُوا عَلِيمٌ وَهْوَ ذُو عِلْمٍ ويَعْـ   ـلَمُ غَايَةَ الإِسْرَارِ والإِعْلانِ
وكَذَا بَصِيرٌ وَهْوَ ذُو بَصَرٍ ويُبْـ   ـصِرُ كُلَّ مَرْئِيٍّ وذِي الأَكْوانِ
مُتَكَلِّمٌ وَلَهُ كَلامٌ وَصْفُهُ   ويُكَلِّمُ المَخْصُوصَ بالرِّضْوانِ
وَهْوَ القَوِيُّ بقُوَّةٍ هِيَ وَصْفُهُ   وعَلَيْكَ يَقْدِرُ يا أخا السُّلطانِ
وَهْوَ المُرِيدُ لَهُ الإِرَادَةُ هَكَذَا   أَبَداً يُرِيدُ صَنَائِعَ الإحْسانِ
والوَصْفُ مَعْنًى قَائِمٌ بالذَّاتِ والْـ   أَسْماءُ أَعْلامٌ لَهُ بِوِزَانِ
أَسْماؤُهُ دَلَّتْ عَلَى أَوْصَافِهِ   مُشْتَقَّةٌ مِنْهَا اشْتِقَاقَ مَعانِ
وَصِفَاتُهُ دَلَّتْ عَلَى أَسْمائِهِ   والفِعْلُ مُرْتَبِطٌ بِهِ الأَمْرَانِ
والحُكْمُ نِسْبَتُها إِلَى مُتَعَلَّقَا   تٍ تَقْتَضِي آثَارَها ببيانِ
وَلَرُبَّما يَعْنِي بِهِ الإِخْبَارَ عَنْ   آثَارِها يُعْنَى بِهِ أَمْرَانِ
والفِعْلُ إِعْطَاءُ الإِرَادَةِ حُكْمَهَا   مَعَ قُدْرَةِ الفَعَّالِ والإِمْكَانِ
فَإِذَا انْتَفَتْ أَوْصَافُهُ سبحانَهُ   فَجَمِيعُ هَذَا بَيِّنُ البُطْلانِ
واشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بِهَـ   ـذا كُلِّهِ جَهْراً بِلا كِتْمَانِ

واشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ بُـرَآءُ مِنْ ... تَـأْوِيـلِ كُـلِّ مُحَـرِّفٍ شَيْطَانِ
واشْـهَـدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُـم يَتَأَوَّلُو ... نَ حَقِيقَةَ التَّأْوِيلِ فِي القُرْآنِ
هُمْ فِي الحَقِيقَةِ أَهْلُ تَأْوِيلِ الَّذِي ... يَعْنِي بِـهِ لا قَـائِـلُ الهَـذَيـانِ
واشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ تَأْوِيلاتِهِمْ ... صَرْفٌ عن المَرْجُوحِ للرُّجْحانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ حَمَلُوا النُّصُو ... صَ عَلَى الحَقِيقَةِ لا المَجَازِ الثَّانِي
إلاَّ إِذَا مَا اضْطَرَّهُمْ لَمجَازِهَا الْـ ... مُضْطَرٌّ مِنْ حِسٍّ ومِنْ بُرهانِ
فهناكَ عِصْمَتُهَا إِباحَتُهُ بغَيْـ ... ـرِ تَجَانُـفٍ لـلإِثْـمِ والـعُـدْوانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لا يُكَفِرُو ... نَكُمُ بِـمَا قُلْتُمْ مِـنَ الكُفْرَانِ
إِذْ أَنْتُمُ أَهْـلُ الجَهالَةِ عِنْدَهُمْ ... لَسْتُمْ أُولِي كُـفْـرٍ ولا إِيـمَانِ
لا تعْرِفُونَ حَقِيقَةَ الكُفْرَانِ بَلْ ... لا تَـعْـرِفُـونَ حَقِيقَةَ الإِيـمانِ
إلاَّ إِذَا عَـانَـدْتُـمُ ورَدَدْتُـمُ ... قَوْلَ الرَّسُولِ لأَجْلِ قَوْلِ فُلانِ
فهناكَ أَنْتُمْ أَكْفَرُ الثَّقَلَيْنِ مِنْ ... إِنْـسٍ وجِـنٍّ سَاكِنِي النِّيرانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ أَثْبَتُوا الْـ ... أَقْـدَارَ وَارِدَةً مِـنَ الـرَّحْمَنِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ حُجَّةَ رَبِّهِمْ ... قَامَتْ عَلَيْهِمْ وَهْوَ ذُو غُفْرَانِ
واشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ هُمْ فَاعِلُو ... نَ حَقِيقَةَ الطَّاعَاتِ والعِصْيانِ
والجَـبْرُ عِنْدَهُمُ مُحَـالٌ هَكَذَا ... نَفْيُ القَضَاءِ فَبِئْسَتِ الرَّأْيَانِ
واشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ إِيمَانَ الوَرَى ... قَـوْلٌ وفِـعْـلٌ ثُـمَّ عَقْدُ جَنانِ
ويَزِيدُ بالطَّاعَاتِ قَطْعاً هَكَذَا ... بالضِّدِّ يُمْسِي وَهْوَ ذُو نُقْصَانِ
واللهِ مَـا إِيـمَانُ عَاصِينَا كَإِيـ ... ـمانِ الأَمِـيـنِ مُنَـزِّلِ الـقُـرْآنِ
كَـلاَّ ولا إِيـمانُ مُـؤْمِـنِـنَـا كَـإِ ... يـمانِ الـرَّسُـولِ مُعَلِّمِ الإِيـمانِ
واشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُـم لَمْ يُخْلِدُوا ... أَهْـلَ الـكَـبائِـرِ فِي حَمِـيـمٍ آنِ
بَـلْ يَخْـرُجـونَ بـإِذْنِـهِ بشَفَاعَةٍ ... وبـدُونِهَـا لمساكِـنٍ بِـجِـنَانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ ربَّهُـمُ يُرَى ... يـومَ المَعَادِ كَـمَا يُـرَى القَمَرانِ
وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ أَصْحَابَ الرَّسُو ... لِ خِيارُ خَلْقِ اللهِ مِـنْ إِنْسانِ

حَاشَا النَّبِيِّينَ الكِرَامَ فَإِنَّهُمْ ... خَيْرُ البَرِيَّةِ خِيرَةُ الرَّحْمَنِ
وخِيارُهُمْ خُلَفَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ ... وخِيارُهُمْ حقًّا هُمَا العُمَرانِ
والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ أَحَقُّ بالتْـ ... ـتَقْدِيمِ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ ببيانِ
كُلٌّ بِحَسْبِ السَّبْقِ أَفْضَلُ رُتْبَةً ... مِنْ لَاحِقٍ والفَضْلُ للمَنَّانِ

فَصلٌ: فِي تَعيِينِ أَنَّ اتِّباعَ السُّنَّةِ والقُرآنِ طَرِيقَةُ النَّجَاةِ مِن النِّيرانِ

يَا مَنْ يُرِيدُ نَجَاتَهُ يَوْمَ الحِسَابِ ... مِنَ الجَحِيمِ ومَوْقِدِ النِّيرَانِ
اتْبَعْ رَسُولَ اللهِ فِي الأَقْوَالِ والْـ ... أَعمَالِ لا تَخْرُجْ عَنِ القُرْآنِ
وَخُذِ الصَّحِيحَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا لعقْـ ... ـدِ الدِّينِ والإِيمَانِ وَاسِطتَانِ
واقْرَأْهُمَا بَعْدَ التَّجَرُّدِ مِنْ هَوًى ... وتَعَصُّبٍ وحَمِيَّةِ الشَّيْطانِ
واجْعَلْهُمَا حَكَماً ولا تَحْكُمْ عَلَى ... مَا فِيهِمَا أَصْلاً بِقَوْلِ فُلانِ
وَاجْعَلْ مَقَالَتَهُ كبَعْضِ مَقَالَةِ الْـ ... أَشْيَاخِ تَنْصُرُها بكُلِّ أوانِ
وانْصُرْ مَقَالَتَهُ كنَصْرِكَ للَّذي ... قَلَّدْتَهُ مِنْ غَيْرِ مَا بُرْهانِ
قَدِّرْ رَسُولَ اللهِ عِنْدَكَ وَحْدَهُ ... والقَوْلُ مِنْهُ إِلَيْكَ ذُو تِبْيانِ
مَاذَا تَرَى فَرْضاً عَلَيْكَ مُعَيَّناً ... إِنْ كُنْتَ ذَا عَقْلٍ وذَا إِيمَانِ
عَرْضَ الَّذِي قَالُوا عَلَى أَقْوَالِهِ ... أو عَكْسَ ذَاكَ فذَانِكَ الأَمْرَانِ
هِيَ مَفْرِقُ الطُّرُقَاتِ بَيْنَ طَرِيقِنَا ... وطَرِيقِ أَهْلِ الزَّيْغِ والعُدْوانِ
قَدِّرْ مَقَالاتِ العِبَادِ جَمِيعِهِم ... عَدَماً ورَاجِعْ مَطْلَعَ الإِيمَانِ
واجْعَلْ جُلُوسَكَ بَيْنَ صَحْبِ مُحَمَّدٍ ... وتَلَقَّ مَعْهُمْ عَنْهُ بالإِحْسَانِ
وتَلَقَّ عَنْهُمْ مَا تَلَقَّوْهُ هُمُ ... عَنْهُ مِنَ الإِيمَانِ والعِرْفَانِ
أَفَلَيْسَ فِي هَذَا بَلاغُ مُسَافِرٍ ... يَبْغِي الإِلَهَ وجَنَّةَ الحَيَوانِ
لَوْلا التَّنَافُسُ بَيْنَ هَذَا الخَلْقِ مَا ... كَانَ التَّفَرُّقُ قَطُّ فِي الحُسْبَانِ
فالرَّبُّ رَبٌّ واحِدٌ وكِتَابُهُ ... حَقٌّ وفَهْمُ الحَقِّ مِنْهُ دَانِ
ورَسُولُهُ قَدْ أَوْضَحَ الحَقَّ المُبِيـ ... ـنَ بغَايَةِ الإِيضاحِ والتِّبْيانِ

مَا ثَمَّ أَوْضَـحُ مِنْ عِبَارَتِهِ فَلا ... يَحْـتَـاجُ سَامِعُهَا إِلَى تِبْيَانِ
والنُّصْحُ مِنْهُ فَوْقَ كُلِّ نَصِيحَةٍ ... والعِلْمُ مَـأْخُـوذٌ عَـنِ الرَّحْمَنِ
فلأَيِّ شَيْءٍ يَعْدِلُ البَاغِي الهُدَى ... عَنْ قَوْلِهِ لولا عَمَى الخِـذْلانِ
فالنَّقْلُ عَنْهُ مُصَدَّقٌ والقَوْلُ مِنْ ... ذِي عِصْمَةٍ مَا عِنْدَنَا قَـوْلانِ
والعَكْسُ عِنْدَ سِوَاهُ فِي الأَمْرَيْنِ يَا ... مَنْ يَهْتَدِي هَلْ يَسْتَوِي الثَّقَلانِ
تَـاللهِ قَـدْ لاحَ الصَّبَاحُ لِمَـنْ لَهُ ... عَيْنانِ نَحْوَ الفَجْرِ نَاظِرَتَانِ
وأَخُـو العَمَايَةِ فِي عَمَايَتِهِ يَقُو ... لُ اللَّيْلُ بَعْدُ أَيَسْتَوِي الرَّجُلانِ
تاللهِ قَدْ رُفِعَتْ لَكَ الأَعْـلامُ إِنْ ... كُنْتَ المُشَمِّرَ نِلْتَ دَارَ أَمَـانِ
وإِذَا جَبُنْتَ وكُنْتَ كَسْلاناً فَمَا ... حُـرِمَ الوُصُولَ إِلَيْهِ غَيْرُ جَبَانِ
فاقْدَمْ وعِدْ بالوَصْلِ نَفْسَكَ واهْـ ... ـجُرِ المَقْطُوعَ مِنْهُ قَاطِعَ الإنسانِ
عَنْ نَيْلِ مَقْصِدِهِ فَـذَاكَ عَـدُوُّهُ ... وَلَوْ انَّـهُ مِنْهُ القَرِيبُ الـدَّانِي (١)

---

(١) القصيدةُ النونية (٢٩٤-٢٩٦).

الفهرس

